

النَّفَحَاتُ الشَّدِيَّةُ

عَلَى

الْحَقِيْدَةِ الْوَاسِطِيَّةِ

لشَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةٍ رَحِمَهُ اللهُ

تَأْلِيْفُ

نَعْمَانِ بْنِ عَبْدِ الْكَرِيمِ الْوَتْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رَبِّ يَسِّرْ وَأَعِنِ يَا كَرِيم

الحمد لله المتفرد بالكمال، الموصوف بصفات الجلال والجمال، المتعالي عن الند والنظير ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، والصلاة والسلام على البشير النذير والسراج المنير، من ترك أمته على المحجة البيضاء، لا يزيغ عنها إلا هالك.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الذي هو كما وصف به نفسه، وفوق ما يصفه به خلقه، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ما ترك خيراً إلا ودلّ أمته عليه، ولا شراً إلا وحذرها منه، وعلى آله وصحبه، ومن اهتدى بهديهم إلى يوم الدين.

أما بعد:

«فإنه لا حياة للقلوب، ولا نعيم، ولا لذة، ولا سرور، ولا أمان، ولا طمأنينة إلا بأن تعرف ربها ومعبودها وفاطرها بأسمائه وصفاته وأفعاله، ويكون أحب إليها مما سواه، ويكون سعيها فيما يقرب إليه ويؤديها من مرضاته، ومن المحال أن تستقل العقول البشرية بمعرفة ذلك وإدراكه على التفصيل؛ فاقتضت رحمة العزيز الرحيم أن بعث الرسل به معرفين، وإليه داعين، ولمن أجابهم مبشرين،

ولمن خالفهم منذرين، وجعل مفتاح دعوتهم ورُبْدَةً رسالتهم معرفة المعبود سبحانه بأسمائه وصفاته وأفعاله؛ إذ على هذه المعرفة تنبني مطالب الرسالة جميعها، وإن الخوف والرجاء والمحبة والطاعة والعبودية تابعة لمعرفة المرجو المُخوف المحبوب المطاع المعبود⁽¹⁾؛ لذلك قيل: مَنْ كان بالله أعرف، كان منه أخوف.

«فمن المحال في العقل والدين أن يكون السراج المنير الذي أخرج الله به الناس من الظلمات إلى النور، وأنزل معه الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، وأمر الناس أن يردُّوا ما تنازعوا فيه من أمر دينهم إلى ما بُعث به من الكتاب والحكمة، وهو يدعو إلى الله وإلى سبيله - بإذنه - على بصيرة، وقد أخبر أن الله أكمل له ولأُمَّتِه دينهم، وأتمَّ عليه نعمته - محال مع هذا وغيره - أن يكون قد ترك بابَ الإيمان بالله والعلم به ملتبسًا مشتبهاً، ولم يميِّز بين ما يجب لله من الأسماء الحسنی والصفات العليا، وما يجوز عليه، وما يمتنع عليه.

فإن معرفة هذا أصل الدين وأساس الهداية وأفضل وأوجب ما اكتسبته القلوب وحصلته النفوس وأدرسته العقول، فكيف يكون ذلك الكتاب وذلك الرسول وأفضل خلق الله بعد الأنبياء لم يُحكِّموا هذا الباب اعتقادًا وقولًا؟

ومن المُحال أيضًا أن يكون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد علَّم أُمَّته كل شيء حتى الخِراءَةَ، وقال: «ترككم على المَحَجَّةِ البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالكٌ».

وقال - فيما صحَّ عنه أيضًا - : «ما بعث الله من نبيٍّ إلا كان حقًا عليه أن يدلَّ

(1) «الصواعق المرسلة» (1/ 150)

أُمته على خيرٍ ما يَعْلَمُه لهم، وَيَنْهَاهُمْ عن شرٍّ ما يَعْلَمُه لهم».

وقال أبو ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لقد تُوفِّي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وما طائر يُقَلِّب جَنَاحِيهِ في السَّمَاءِ إلَّا ذَكَرَ لَنَا مِنْهُ عِلْمًا».

وقال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «قام فينا رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مقامًا، فذكر بدءَ الخلقِ، حتى دخل أهلُ الجنةِ منازلَهم وأهلُ النارِ منازلَهم؛ حَفِظَ ذَلِكَ مَنْ حَفِظَهُ وَنَسِيَهُ مَنْ نَسِيَهُ». رواه البخاري.

ومحالٌ مع تعليمهم كلَّ شيءٍ لهم فيه منفعة في الدين - وإن دَقَّتْ - أن يترك تعليمهم ما يقولونه بألسنتهم ويعتقدونه في قلوبهم في ربهم ومعبودهم رب العالمين، الذي معرفته غاية المعارف، وعبادته أشرف المقاصد، والوصول إليه غاية المطالب، بل هذه خلاصة الدعوة النبوية وزُبدة الرسالة الإلهية.

فكيف يتوهم مَنْ في قلبه أدنى مُسْكَةٍ من إيمان وحكمة أن لا يكون بيان هذا الباب قد وقع من الرسول على غاية التَّمام؟!!

ثم إذا كان قد وقع ذلك منه، فمن المحال أن يكون خير أُمته وأفضل قرونها قَصَرُوا في هذا الباب؛ زائدين فيه، أو ناقصين عنه.

ثم من المُحال أيضًا: أن تكون القرون الفاضلة: القرن الذي بُعث فيه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، كانوا غيرَ عالمين به وغيرَ قائلين في هذا الباب بالحق المبين؛ لأنَّ ضدَّ ذلك إما عدم العلم والقول، وإمَّا اعتقاد نقيض الحق وقول خلاف الصدق، وكلاهما ممتنع.

أما الأول: فلأنَّ مَنْ في قلبه أدنى حياة وطلب للعلم ونُهِمَة في العبادة، يكون البحث عن هذا الباب والسؤال عنه ومعرفة الحق فيه أكبرَ مقاصده، وأعظم

مطالبه - أعني - : بيان ما ينبغي اعتقاده، لا معرفة كيف الرب وصفاته.

وليست النفوس الصحيحة إلى شيء أشوق منها إلى معرفة هذا الأمر، وهذا أمر معلوم بالفطرة الوجدية، فكيف يُتصور مع قيام هذا المقتضي الذي هو من أقوى المقتضيات أن يتخلف عن مقتضاه في أولئك السادة في مجموع عصورهم؟

هذا لا يكاد يقع في أبلد الخلق وأشدّهم إعراضاً عن الله وأعظمهم إكباباً على طلب الدنيا والغفلة عن ذكر الله تعالى، فكيف يقع في أولئك؟! وأما كونهم كانوا معتقدين فيه غير الحق أو قائلية: فهذا لا يعتقده مسلم ولا عاقل عرّف حال القوم.

ولا يجوز أيضاً أن يكون الخالفون أعلم من السالفين، كما قد يقول بعض الأغبياء ممن لم يُقدّر قدر السلف، بل ولا عرف الله ورسوله والمؤمنين به حقيقة المعرفة المأمور بها - من أن طريقة السلف أسلم، وطريقة الخلف أعلم وأحكم! فإن هؤلاء المبتدعين الذين يفضّلون طريقة الخلف من المتفلسفة ومن حذا حذوهم على طريقة السلف إنما أتوا من حيث ظنوا أن طريقة السلف هي مجرد الإيمان بالفاظ القرآن والحديث، من غير فقهٍ لذلك بمنزلة الأُميين الذين قال الله فيهم: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنَّهُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة: ٧٨].

وأن طريقة الخلف هي استخراج معاني النصوص المصروفة عن حقائقها بأنواع المجازات وغرائب اللغات، فهذا الظن الفاسد أوجب تلك المقالة التي مضمونها نبذ الإسلام وراء الظهر، وقد كذبوا على طريقة السلف وضلّوا في

تصويب طريقة الخلف؛ فجمعوا بين الجهل بطريقة السلف في الكذب عليهم وبين الجهل والضلال بتصويب طريقة الخلف.

وسبب ذلك: اعتقادهم أنه ليس في نفس الأمر صفة دلت عليها هذه النصوص بالشبهات الفاسدة التي شاركوا فيها إخوانهم من الكافرين، فلما اعتقدوا انتفاء الصفات في نفس الأمر وكان- مع ذلك- لا بد للنصوص من معنى، بقوا مترددين بين الإيمان باللفظ وتفويض المعنى، وهي التي يسمونها: طريقة السلف.

وبين صرف اللفظ إلى معانٍ بنوع تكلف، وهي التي يسمونها طريقة الخلف، فصار هذا الباطل مركباً من فساد العقل والكفر بالسمع؛ فإن النفي إنما اعتمدوا فيه على أمور عقلية ظنوها بيّات، وهي شبهات، والسمعُ حرفوا فيه الكلمَ عن مواضعه.

فلما انبنى أمرهم على هاتين المقدمتين الكاذبتين الكُفْرِيَّتَيْنِ كانت النتيجة: استجهال السابقين الأولين واستبلاهم، واعتقاد أنهم كانوا قومًا أميين، بمنزلة الصالحين من العامة، لم يتبحروا في حقائق العلم بالله، ولم يتفطنوا لدقائق العلم الإلهي، وأن الخلف الفضلاء حازوا قَصَبَ السَّبْقِ في هذا كله.

ثم هذا القول إذا تدبره الإنسان وجده في غاية الجهالة بل في غاية الضلالة. كيف يكون هؤلاء المتأخرون، ولا سيما والإشارة بالخلف إلى ضربٍ من المتكلمين الذين كثر في باب الدين اضطرابهم، وغُلْظَ عَنْ معرفة الله حجابهم، وأخبر الواقف على نهاية إقدامهم بما انتهى إليه أمرهم، حيث يقول:

«لَعَمْرِي لَقَدْ طُفْتُ الْمَعَاهِدَ كُلَّهَا وَسِيرْتُ طَرَفِي بَيْنَ تِلْكَ الْمَعَالِمِ

فَلَمْ أَرَ إِلَّا وَاضِعًا كَفَّ حَائِرٍ عَلَى ذَقْنٍ أَوْ قَارِعًا سِنَّ نَادِمٍ
وأقروا على أنفسهم بما قالوه، متمثلين أو منشئين له فيما صنفوه من كتبهم،
كقول بعض رؤسائهم:

نَهَائِيهِ إِفْدَامِ الْعُقُولِ عَقَالُ وَأَكْثَرُ سَعْيِ الْعَالَمِينَ ضَلَالُ
وَأَزْوَاحُنَا فِي وَخْشَةٍ مِنْ جُسُومِنَا وَحَاصِلُ دُنْيَانَا أَدَى وَوَبَالُ
وَلَمْ نَسْتَفِدْ مِنْ بَحْثِنَا طُولَ عُمرِنَا سِوَى أَنْ جَمَعْنَا فِيهِ قِيلَ وَقَالَ

لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عيلاً ولا
تروي غليلاً، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، أقرأ في الإثبات:
﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: 5]، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠]،
وأقرأ في النفي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ
عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]، وَمَنْ جَرَّبَ مِثْلَ تَجْرِبَتِي عَرَفَ مِثْلَ مَعْرِفَتِي.

ويقول الآخر منهم: «لقد خُضْتُ البحرَ الخِصَمِّ، وتركتُ أهل الإسلام
وعلومهم، وخُضْتُ في الذي نهوني عنه، والآن إن لم يتداركني ربي برحمته
فالويلُ لفلان! وها أنا أموت على عقيدة أُمِّي».

ويقول الآخر منهم: «أكثر الناس شكًا عند الموت أصحابُ الكلام».

ثم هؤلاء المتكلمون المخالفون للسلف إذا حُقق عليهم الأمر لم يوجد
عندهم من حقيقة العلم بالله وخالص المعرفة به خبر، ولم يقعوا من ذلك على
عينٍ ولا أثر، كيف يكون هؤلاء المحجوبون المفضولون المنقوصون
المسبوقون الحيارى المتهوكون أعلم بالله وأسمائه وصفاته، وأحكم في باب ذاته
وآياته من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان

من ورثة الأنبياء وخلفاء الرسل وأعلام الهدى ومصابيح الدجى، الذين بهم قام الكتاب وبه قاموا، وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا، الذين وهبهم الله من العلم والحكمة ما برزوا به على سائر أتباع الأنبياء، فضلاً عن سائر الأمم الذين لا كتاب لهم، وأحاطوا من حقائق المعرفة وبواطن الحقائق بما لو جُمعت حكمة غيرهم إليها لاستحيا مَنْ يطلب المقابلة، ثم كيف يكون خيرُ قرون الأمة أنقصَ في العلم والحكمة - لا سيما العلم بالله وأحكامه وأسمائه وآياته - من هؤلاء الأصاغر بالنسبة إليهم؟

أم كيف يكون أفراخ المتفلسفة وأتباع الهند واليونان وورثة المجوس والمشرّكين وضلّال اليهود والنصارى والصابئين وأشباههم وأشكالهم أعلم بالله من ورثة الأنبياء وأهل القرآن والإيمان؟⁽¹⁾

الدعائم التي ينبني عليها توحيد الأسماء والصفات عند أهل السُّنة والجماعة: وبعد ما سبق ينبغي أن يُعلم أن توحيد الأسماء والصفات عند أهل السُّنة والجماعة ينبني على دعائم ثلاث، لا قيام له إلا بها:

الأولى: وجوب إثبات ما أثبتته الله لنفسه أو أثبتته له رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الأسماء والصفات، على الوجه اللائق به سبحانه، إثباتاً بلا تمثيل، سواء كانت صفات ذاتية أو فعلية، الذاتية: كالوجه واليدين والعينين والعلو والرحمة والحكمة والحياة والعلم، وغير ذلك، والفعلية: كالاستواء والنزول والرّضى والغضب والفرح والضحك، وغير ذلك؛ قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠]،

(1) جزء من مقدمة «الفتوى الحموية» لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقال سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]،
وقال سبحانه: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾
[النحل: ٧٤].

الثانية: تنزيه الله عن النقائص والعيوب، تنزيهاً بلا تحريف أو تعطيل، قال
تعالى: ﴿وَلَا تُفَفِّ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ
كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ
مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا
عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾
[طه: ١١٠]، وقال سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾
[الشورى: ١١].

الثالثة: قطع الطمع عن إدراك كُنْهِ صفات الله وكيفيتها؛ لأن الله أخبرنا عن
صفاته، ولم يخبرنا عن كيفيتها، وقد سئل الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: الرحمن على
العرش استوى، كيف استوى؟

فأجاب: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال
عنه بدعة».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ، كما في «مجموع الفتاوى» (4/4):
«وهذا الجواب من مالك في الاستواء كافٍ شافٍ في جميع الصفات، مثل:
النزول والمجيء واليد والوجه وغيرها».

فيقال في مثل النزول: النزول معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب،
والسؤال عنه بدعة.

وهكذا يقال في سائر الصفات؛ إذ هي بمثابة الاستواء الوارد به الكتاب والسنة».

وقال رَحِمَهُ اللهُ كما في «مجموع الفتاوى» (3/ 25): القول في الصفات كالقول في الذات؛ فإن الله ليس كمثله شيء، لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، فإذا كان له ذات حقيقية لا تماثل الذوات، فالذات متصفة بصفات حقيقية لا تماثل سائر الصفات.

فإذا قال السائل كيف استوى على العرش؟

قيل له - كما قال ربيعة، ومالك، وغيرهما -: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عن كيفية بدعة؛ لأنه سؤال عما لا يعلمه البشر، ولا يمكنهم الإجابة عنه.

وكذلك إذا قال: كيف ينزل ربنا إلى السماء الدنيا؟

قيل له: كيف هو؟

فإذا قال: لا أعلم كيفيته، قيل له: ونحن لا نعلم كيفية نزوله؛ إذ العلم بكيفية الصفة يستلزم العلم بكيفية الموصوف، وهو فرع له وتابع له، فكيف تطالبني بالعلم بكيفية سمعه وبصره وتكليمه واستوائه ونزوله، وأنت لا تعلم كيفية ذاته؟» اهـ.

وقال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ كما في مختصر الصواعق (ص 130): «قال ابن الماجشون والإمام أحمد وغيرهم من السلف: إننا لا نعلم كيفية ما أخبر الله به عن نفسه، وإن كنا نعلم تفسيره ومعناه». اهـ.

إذا علم ما سبق بأن بجلاء أن عقيدة أهل السنة والجماعة في هذا الباب مبنية

على كتاب الله، وما صح من سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما كان عليه السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين، بعيداً عن تعقيدات وتخريصات المناطقة والفلاسفة والمتكلمين المتكلفين القائلين في الله وعلى الله ما لا يعلمون، وكم أفسد علم المنطق والكلام من العقول والقلوب والفطر، وهذه العلوم ليست من العلوم الشرعية، ولا هي خادمة لها، ولكنها وُضعت لمعارضتها والتشكيك فيها؛ ولذلك قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما رأيت أحداً ارتدى بالكلام فأفلح»، ولما كَلَّمَهُ حَفْصُ الْفَرْدِ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ قَالَ: «لَأَنْ يُتْلَى اللَّهُ الْعَبْدَ بِكُلِّ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ - خَلَا الشَّرْكَ بِاللَّهِ عَزَّجَلَّ - خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يُتْلَى بِالْكَلَامِ».

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «حكمي في أصحاب الكلام أن يُصَفَعُوا، وينادي بهم في العشائر والقبائل: هذا جزاء مَنْ ترك السُّنَّةَ، وأخذ بالكلام».

متى حدثت البليَّة بكتب المتكلمين وفلاسفة اليونان؟

قال العلامة السفاريني في «لوامع الأنوار البهية» (1/ 9): «قال العلماء: إن المأمون لما هادن بعض ملوك النصارى - أظنه صاحب جزيرة قبرص - طلب منه خزانة كتب اليونان، وكانت عنده مجموعة في بيت لا يظهر عليه أحد، فجمع الملك خواصه من ذوي الرأي واستشارهم في ذلك، فكلهم أشاروا بعدم تجهيزها إليه إلا واحداً، فإنه قال: جَهِّزْهَا إِلَيْهِمْ، فما دخلت هذه العلوم على دولة شرعية إلا أفسدتها، وأوقعت بين علمائها». اهـ.

قال الشيخُ مُحِبُّ الدِّينِ الخطيب رَحِمَهُ اللَّهُ في تعليقه على «العواصم» لابن العربي، بعد أن أورد النصَّ السَّابِقَ (ص 265): «ومن الجدير بالذكر أن أولئك النصارى قد طَمَرُوا هذه الفلسفة تحت الأرض تخلَّصاً من شرِّها؛ لما لمسوه من فسادها وهدمها للدين والفضيلة».

أجل، قد تحقق بالمسلمين تنبؤ الخبر، فما كاد علماء المسلمين - بعد أن بلغ مجد الإسلام ذروته في القوة والفتح والعلم - يشتغلون بفلسفة اليونان حتى راحوا يؤوِّلون نصوص الشريعة الإسلامية حتى تتفق مع هذه الفلسفة، فمسخوا الإسلام وأخذوا يزعمون أن للإسلام ظاهرًا وباطنًا، ظاهره للعامة، وباطنه للعلماء والحكماء، وأخذوا يشتغلون بعلم الكلام، ويسمونهم - ظلمًا وعدوانًا - بعلم التوحيد، ولا يكاد يكون فيه من التوحيد إلا الاسم، أما محتواه فهو الفلسفة نفسها، وقد حرَّم دراستها كبار علماء السلف وأئمة المذاهب أمثال مالك والشافعي وابن حنبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. اهـ.

قال شيخ الإسلام الإمام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «ما أظن الله يغفل عن المأمون، ولا بد أن يعاقبه على ما أدخله على هذه الأمة». اهـ.

هذا، وإن هذا الكتاب الذي بين أيدينا «العقيدة الواسطية» لَمِنْ أنفع وأجمع ما ألفه علماء أهل السُّنَّة والجماعة في بيان عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة، لا سيما في باب الأسماء والصفات، حيث بنى شيخ الإسلام هذه العقيدة على الكتاب والسنة وما أجمع عليه سلف الأمة.

وقد قال رَحِمَهُ اللَّهُ - لَمَّا عقد له الأمير مجلس مناظرة مع خصومه حول هذه العقيدة⁽¹⁾: «ما جمعتُ إلا عقيدة السلف الصالح جميعهم، ليس للإمام أحمد اختصاص بهذا، والإمام أحمد إنما هو مبلغ العلم الذي جاء به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولو قال أحمد من تلقاء نفسه ما لم يجيء به الرسول لم نقبله، وهذه عقيدة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقلت - مرّات -: قد أمهلتُ مَنْ خالفني في شيء منها ثلاث سنين، فإن جاء بحرف واحد عن أحد من القرون الثلاثة التي أثنى عليها النبي صلى الله عليه وسلم، حيث قال: «خير القرون القرن الذي بعثت فيه، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم» يخالف ما ذكرته فأنا أرجع عن ذلك، وعليّ أن آتي بنقول جميع الطوائف عن القرون الثلاثة توافق ما ذكرته من الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية والأشعرية وأهل الحديث والصوفية وغيرهم». اهـ.

وقال رَحِمَهُ اللهُ في ذلك المجلس⁽¹⁾: «أما الاعتقاد فلا يؤخذ عني ولا عمن هو أكبر مني، بل يؤخذ عن الله ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وما أجمع عليه سلف الأمة، فما كان بالقرآن وجب اعتقاده، وكذلك ما ثبت في الأحاديث الصحيحة مثل صحيح البخاري ومسلم». اهـ.

هذا، وقد استعنت بالله العظيم الفتح العليم وشرحت هذه العقيدة شرحاً متوسطاً، حرصت فيه على إيضاح كلام شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ بكلامه، وكلام تلميذه ابن القيم في الغالب؛ إذ أهل البيت أدرى بما فيه، ونقلت ما رأيته نافعاً مناسباً من كلام العلماء الربانيين الراسخين المتأخرين الذين لهم عناية بهذه العقيدة، كالعلامة السَّعْدِي، وتلميذه العلامة العثيمين، والعلامة الفوزان، وستجد من كلام علماء الإسلام على مرّ الأزمان في مباحث الكتاب ومسائله ما تقرُّ به عينك إن شاء الله.

وأصل هذا الشرح كان إملاءً مني على طلبة العلم بدار الحديث بدماج - حرسها الله من المفسدين - عام (1414هـ)، وتداول كثير من طلبة العلم ذلك

(1) المصدر السابق (3/ 161).

الشرح، ونفع الله به، وله الحمد والمِنَّة، ثم قمت بتدريس الكتاب عدّة مرات آخرها عام (1422هـ)، وأضفت على ذلك الشرح عدّة إضافات، وتوسعت في بعض المباحث حتى صار بهذه الصورة التي بين يديك.

ومن العجائب، والعجائب جمّة قول بعض الناس: إن الكلام على مسائل الصفات وكثير من الشّركيات والعقائد الباليات من الأمور التي أكل عليها الزمان وشرب! وإن الخوض في هذا دخول في معركة لا خصم فيها!

وليت هؤلاء الذين يتشدّقون بنصرة الإسلام والغيرة عليه وبفقه الواقع فقهوا واقع الأمة الإسلامية اليوم، وليتهم إذ جهلوا سكّتوا، وكلامهم يذكرنا بقول القائل:

وَهَبْكَ تَقُول: إِنَّ الصُّبْحَ لَيْلٌ أَيْعَمَى النَّاظِرُونَ عَنِ الضِّيَاءِ؟

أليس للرّفْضِ دُؤْلٌ؟ وللتصوّف معاقل وقادة وكتب وجامعات ودعاة وقنوات وأربطة وطرق ومزارات؟

أليس للاعتزال والتّمشّعُر كتب تدرّس في جامعات ومساجد؟ ولها من حملة الشهادات من يدرّس تلك العقائد وينافح عنها؟

أليست البلاد الإسلامية - مع الأسف - مليئة بالأضرحة والمزارات التي تُعبد من دون الله، يُذبح لها، ويُنذر لها، وتُشدُّ الرحال إليها، ويُهتف عند الشدائد بأسماء أصحابها، ويُطلب منهم ما لا يُطلب إلا من الله؟

أليس السّحرة والمشعوذون قد ملئوا السهل والجبل حتى أصبحت لهم قنوات فضائية يبشّون شركهم وسمومهم من خلالها؟

والحقيقة التي لا مناص عنها أن هؤلاء لم يعرفوا طريقة الرسل في التربية

والإصلاح، وليس عندهم حرص على تعلّمها وتعليمها، وفاقد الشيء لا يعطيه، ومن جهل شيئاً عاداه، كيف وصفوف هؤلاء لم تصف من كثير من هذه البلايا، فلا للإسلام نصروا، ولا لأعدائه كسروا، بل ربما وقفوا مع أعداء الإسلام في خندق واحد؛ بحجج واهية كبيت العنكبوت، وفتحوا على الإسلام وأهله من الشر والبلاء ما الله به عليم، ودوماً ينقلون الناس من نكبة إلى أخرى، ومن سيئ إلى أسوأ ﴿وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

نسأل الله أن يهدينا وإياهم إلى صراطه المستقيم؛ صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً.

وأسأل الله العلي العظيم البر الرحيم الجواد الكريم أن يجعل هذا الكتاب خالصاً لوجهه الكريم، مُدْنِياً لمؤلفه وقارئه وكاتبه من جنات النعيم، وأن يجعله حُجَّةً له لا حُجَّةً عليه، وأن ينفع به مَنْ انتهى إليه؛ إنه خير مسؤل وأكرم مأمول، وهو حسبنا ونعم الوكيل، نعم المولى ونعم النصير.

وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَى نَبِينَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ، وَمَنْ اهْتَدَى بِهِدْيِهِ، وَاسْتَنَّ بِسُنَّتِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سبب تأليف العقيدة الواسطية

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ كَمَا فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى» (2 / 164):
 «كَانَ سَبَبُ كِتَابَتِهَا: أَنَّهُ قَدِمَ عَلَيَّ مِنْ أَرْضِ وَاسْطَ بَعْضُ قُضَاةِ نَوَاحِيهَا -
 شَيْخٌ يُقَالُ لَهُ: رَضِيَ الدِّينُ الْوَاسِطِيُّ مِنْ أَصْحَابِ الشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللهُ - قَدِمَ عَلَيْنَا
 حَاجًّا، وَكَانَ مِنْ أَهْلِ الْخَيْرِ وَالِدِينِ، وَشَكَا مَا النَّاسُ فِيهِ بِتِلْكَ الْبِلَادِ وَفِي دَوْلَةِ
 التَّتَرِ مِنْ غَلْبَةِ الْجَهْلِ، وَالظُّلْمِ، وَدُرُوسِ الدِّينِ وَالْعِلْمِ، وَسَأَلَنِي أَنْ أَكْتُبَ لَهُ
 عَقِيدَةً تَكُونُ عِمْدَةً لَهُ وَلِأَهْلِ بَيْتِهِ، فَاسْتَعْفَيْتُ مِنْ ذَلِكَ، وَقُلْتُ: قَدْ كَتَبَ النَّاسُ
 عَقَائِدَ مُتَعَدِّدَةً، فَخَذَ بَعْضُ عَقَائِدِ أَئِمَّةِ السَّنَةِ، فَأَلَحَّ فِي السُّؤَالِ، وَقَالَ: مَا أَحَبُّ إِلَا
 عَقِيدَةً تَكْتُبُهَا أَنْتَ، فَكُتِبَتْ لَهُ هَذِهِ الْعَقِيدَةُ وَأَنَا قَاعِدٌ بَعْدَ الْعَصْرِ». اهـ.



وقد افتتح شيخ الإسلام رَحْمَةُ اللَّهِ هذه العقيدة بالبسملة، وفي ذلك عدة فوائد:

- 1- الاقتداء بكتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.
 - 2- التأسّي بهدي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد كان يبتدئ مكاتباته للملوك بالبسملة.
 - 3- التبرك والتميّن بالبداة بسم الله.
 - 4- السير على ما سار عليه أهل العلم والفضل عبر العصور.
- وللعلماء كلام كثير حول البسملة، فمنهم من أطال النفس في الكلام عليها من عدة جهات، ومنهم دون ذلك.
- وَمِنْ أَحْسَنِ وَأَسْلَمَ مَا وَقَفْتُ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ - مع اختصاره - كلام للعلامة ابن عُثيمين رحمه الله تعالى في شرحه للواسطية (ص 27 - 28) حيث قال: «البداة بالبسملة هي شأن جميع المؤلفين؛ اقتداءً بكتاب الله، حيث أنزل البسملة في ابتداء كل سورة، واستناداً إلى سنة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
- وإعراب البسملة ومعناها تكلم فيه الناس كثيراً، وفي متعلقها، وأحسن ما يقال في ذلك: إنها متعلقة بفعل محذوف متأخر مناسب للمقام، فإذا قدمتها بين يدي الأكل يكون التقدير: بسم الله آكل، وبين يدي القراءة يكون التقدير بسم الله أقرأ. نقدره فعلاً؛ لأن الأصل في العمل الأفعال لا الأسماء؛ ولذا كانت الأفعال تعمل بلا شرط، والأسماء لا تعمل إلا بشرط، لأن العمل أصل في الأفعال، فرع في الأسماء، ونقدره متأخراً لفائدتين:
- الأولى: الحصر؛ لأن تقديم المعمول يفيد الحصر، فيكون: باسم الله أقرأ بمنزلة: لا أقرأ إلا باسم الله.

الثانية: تيمُّناً بالبداة باسم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ونقدره خاصًّا؛ لأن الخاص أدل على المقصود من العام، إذ من الممكن أن أقول: التقدير: باسم الله أبتدئ، لكن باسم الله أبتدئ لا تدل على تعيين المقصود، ولكن (باسم الله أقرأ) خاص، والخاص أدل على المعنى من العام.

«الله»: عَلَّمَ عَلَى نَفْسِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، وَلَا يُسَمَّى بِهِ غَيْرُهُ، ومعناه: المألوه أي: المعبود محبة وتعظيمًا، وهو مشتقٌّ - على القول الراجح - لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ [الأنعام: ٣]، فإن (في السماوات) متعلق بلفظ الجلالة، يعني: هو المألوه في السماوات وفي الأرض.

(الرحمن): فهو ذو الرحمة الواسعة؛ لأن (فَعَلَّان) في اللغة العربية تدل على السعة والامتلاء، كما يقال: رجل غضبان، إذا امتلأ غضبًا.

(الرحيم): اسم يدل على الفعل؛ لأنه (فَعِيل) بمعنى فاعل، فهو دال على الفعل.

فيجتمع من (الرحمن الرحيم) أن رحمة الله واسعة، وأنها واصلة إلى الخلق، وهذا ما أوماً إليه بعضهم بقوله: الرحمن رحمة عامة، والرحيم رحمة خاصة بالمؤمنين، ولما كانت رحمة الله للكافر رحمة خاصة في الدنيا فقط، فكأنها لا رحمة لهم؛ لأنهم في الآخرة يقول تعالى لهم - إذا سألوا الله أن يخرجهم من النار وتوسلوا إلى الله تعالى بربوبيته واعترفهم على أنفسهم -: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٧]، فلا تدركهم الرحمة، بل يدركهم العدل، فيقول الله عَزَّجَلَّ لهم: ﴿قَالَ أَخْسُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُون﴾ [المؤمنون: ١٠٨]. اهـ.



«الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق».

قوله: «الحمد لله».

الألف واللام في (الحمد) تُفيد الاستغراق لجميع المحامد، فدلّ على أن الحمد كُلُّه لله. اهـ. «مجموع الفتاوى» (1/ 89).

فهو خبرٌ يتضمن الإنشاء، بخلاف المدح، فإنه خبر مجرد. انظر «بدائع الفوائد» (2/ 93).

تعريف الحمد: قال الإمام العلامة ابن القيم في «بدائع الفوائد» (2/ 93): «الحمد: إخبار عن محاسن المحمود، مع حبه وإجلاله وتعظيمه». اهـ.

أنواع الحمد:

حمدُ الله نوعان:

الأول: حمد على كمال ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكَبْرُهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١]، وقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ﴾ [سبأ: ١]، وقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِ رُسُلًا أُولَىٰ أَجْنَحَةٍ مِّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبْعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ [فاطر: ١].

الثاني: حمد على كمال إنعامه وإحسانه إلى عباده، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣]، وقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ﴾

وإِسْحَاقُ ﴿[إبراهيم: 39]، وقوله: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤]، وقوله: ﴿فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجِّنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٨]، وما رواه مسلم برقم (2734) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ فِيحَمْدِهِ عَلَيْهَا، أَوْ يَشْرِبَ الشَّرْبَةَ فِيحَمْدِهِ عَلَيْهَا».

وانظر «مجموع الفتاوى» (48/10) و(11/133 - 134)، و«طريق الهجرتين» (ص 136)، و«مدارج السالكين» (2/256 - 257).

الفرق بين الحمد والشكر:

بين الحمد والشكر عموم وخصوص وَجْهِي، فالحمد أعم من الشكر من جهة أسبابه؛ فإنه يكون على نعمة وعلى غير نعمة، بخلاف الشكر فإنه لا يكون إلا على نعمة، والشكر أعم من الحمد من جهة أنواعه؛ فإنه يكون بالقلب واللسان واليد، والحمد لا يكون إلا بالقلب واللسان، فالحمد أعم متعلقًا وأخص آلة، والشكر أعم آلة وأخص متعلقًا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - كما في «الفتاوى الكبرى» (1/181): «الحمد يتضمن المدح والثناء على المحمود بذكر محاسنه، سواء كان الإحسان إلى الحامد أو لم يكن، والشكر لا يكون إلا على إحسان المشكور إلى الشاكر، فمن هذا الوجه الحمد أعم من الشكر؛ لأنه يكون على المحاسن والإحسان، فإن الله يحمد على ما له من الأسماء الحسنی والمثل الأعلى، وما خلقه في الآخرة والأولى، ولهذا قال: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ [الإسراء: ١١١]، وقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾

[الأنعام: ١]، وقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [فاطر: ١].

أما الشكر فإنه لا يكون إلا على الإنعام؛ فهو أخص من الحمد من هذا الوجه، لكنه يكون بالقلب واليد واللسان، كما قيل:

أَفَادَتْكُمْ النِّعْمَاءُ مِنِّي ثَلَاثَةً يَدِي وَلِسَانِي وَالضَّمِيرُ الْمُحَجَّبَا

فالحمد أعم متعلقًا وأخص آلة، والشكر أعم آلة وأخص متعلقًا، والحمد إنما يكون بالقلب واللسان، فمن هذا الوجه الشكر أعم من جهة أنواعه، والحمد أعم من جهة أسبابه. اهـ.

وانظر «مجموع الفتاوى» (11/ 133 - 134)، (14/ 308)،

و«مدارج السالكين» (2/ 256 - 257).

الفرق بين الحمد والمدح:

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في «بدائع الفوائد» (2/ 93-94): «... فالصواب في الفرق بين الحمد والمدح أن يقال: الإخبار عن محاسن الغير إما أن يكون إخبارًا مجردًا من حب وإرادة، أو مقرونًا بحبه وإرادته، فإن كان الأول فهو المدح، وإن كان الثاني فهو الحمد، فالحمد إخبار عن محاسن المحمود مع حبه وإجلاله وتعظيمه؛ ولهذا كان خبرًا يتضمن الإنشاء، بخلاف المدح فإنه خبر مجرد، فالقائل إذا قال: الحمد لله، أو قال: ربنا لك الحمد، تضمن كلامه الخبر عن كل ما يحمد عليه تعالى باسم جامع محيط متضمن لكل فرد من أفراد الحمد المحققة والمقدرة، وذلك يستلزم إثبات كل كمال يحمد عليه الرب تعالى؛ ولذا لا تصلح هذه اللفظة على هذا الوجه، ولا تنبغي إلا لمن هذا شأنه وهو الحميد المجيد، ولمَّا كان هذا المعنى مقارنًا للحمد لا تقوم حقيقته إلا به فسره من فسره

بالرضى والمحبة، وهو تفسير له بجزء مدلوله، بل هو رضاء ومحبة مقارنة للثناء، ولهذا السر - والله أعلم - جاء فعله على بناء الطباع والغرائز، فقليل: حمد؛ لتضمنه الحب الذي هو بالطباع والسجيا أولى وأحق من فهم وحذر وسقم ونحوه، بخلاف الإخبار المجرد عن ذلك وهو المدح فإنه جاء على وزن فعل، فقالوا: مدحه لتجرد معناه من معاني الغرائز والطباع، فتأمل هذه النكتة البديعة، وتأمل الإنشاء الثابت في قولك: ربنا لك الحمد، وقولك: الحمد لله، كيف تجده تحت هذه الألفاظ؛ ولذلك لا يقال موضعها: المدح لله، ولا ربنا لك المدح، وسرّه ما ذكرت لك من الإخبار بمحاسن المحمود إخباراً مقترناً بحبه وإرادته وإجلاله وتعظيمه». اهـ.

الفرق بين الحمد والمدح والثناء والمجد:

قال الإمام العلامة ابن القيم رحمه الله في «بدائع الفوائد» (2/ 94 - 96): «نذكر تقسيماً جامعاً لهذه المعاني الأربعة - أعني الحمد، والمدح، والثناء والمجد - فنقول: الإخبار عن محاسن الغير له ثلاثة اعتبارات: اعتبار من حيث المُخبر به، واعتبار من حيث الإخبار عنه بالخبر، واعتبار من حيث حال المُخبر، فمن حيث الاعتبار الأول ينشأ التقسيم إلى الحمد والمجد؛ فإن المُخبر به إما أن يكون من أوصاف العظمة والجلال والسعة وتوابعها أو من أوصاف الجمال والإحسان وتوابعها، فإن كان الأول فهو المجد، وإن كان الثاني فهو الحمد، وهذا لأن لفظ (م ج د) في لغتهم يدور على معنى الاتساع والكثرة، فمنهم قولهم: أَمَجَدَ الدَّابَّةَ عِلْفًا، أي: أَوْسَعَهَا عِلْفًا، ومنه: مَجَدَ الرَّجُلُ فهو ماجدٌ إذا كثر خيره وإحسانه إلى الناس، قال الشاعر:

أَنْتَ تَكُونُ مَاجِدٌ نَبِيلٌ إِذَا تَهَبُّ شَمَالٌ بَلِيلٌ

ومنه قولهم: في كل الشجر نار، واستمجد المرخ والعفار، أي: كثرت النار فيهما.

ومن حيث اعتبار الخبر نفسه ينشأ التقسيم إلى الثناء والحمد؛ فإن الخبر عن المحاسن إما متكرر أو لا، فإن تكرر فهو الثناء وإن لم يتكرر فهو الحمد. فإن الثناء مأخوذ من الثني وهو العطف ورد الشيء بعضه على بعض. ومنه: ثنيت الثوب، ومنه: التثنية في الاسم؛ فالمثني مكرّر لمحاسن من ثني عليه مرة بعد مرة.

ومن جهة اعتبار حال المخبر ينشأ التقسيم إلى المدح والحمد، فإن المخبر عن محاسن الغير إما أن يقترن بإخباره حب له وإجلال أو لا، فإن اقترن به الحب فهو الحمد، وإلا فهو المدح. فحصل هذه الأقسام وميزها.

ثم تأمل تنزيل قوله تعالى - فيما رواه عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم - حين يقول العبد: الحمد لله رب العالمين. فيقول الله: حمدني عبدي. فإذا قال: الرحمن الرحيم. قال: أثني عليّ عبدي؛ لأنه كرّر حمده، فإذا قال: مالك يوم الدين. قال: مجّدني عبدي؛ فإنه وصفه بالملك والعظمة والجلال.

فاحمد الله على ما ساقه إليك من هذه الأسرار والفوائد عفواً، لم تسهر فيها عينك ولم يسافر فيها فكرك عن وطنه، ولم تتجرد في تحصيلها عن مألوفاتك، بل هي عرائس معانٍ تجلّى عليك وتزفُ إليك، فلك لذة التمتع بها ومهرها على غيرك، لك غنمها وعليه غرمها». اهـ.

قوله: «الحمدُ لله الذي أَرْسَلَ رَسولَهُ».

«أي: جميع أوصاف الكمال ثابتة لله على أكمل الوجوه وأتمها، ومما يحمد عليه نعمه على العباد التي لا يُحصي أحد من الخلق تعدادها، وأعظمها إرساله محمداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رحمة للعالمين»⁽¹⁾.

وقوله: «بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ».

الباء هنا للمصاحبة، ويحتمل أن تكون للتعدية، أي: أن المرسل به هو الهدى ودين الحق⁽²⁾.

وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «الهدى: العلم النافع، ودين الحق: العمل الصالح».

وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره عند قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [التوبة: 33]: «فالهدى: هو ما جاء به من الإخبارات الصادقة، والإيمان الصحيح، والعلم النافع، ودين الحق: هو الأعمال الصالحة الصحيحة النَّافعة في الدنيا والآخرة». اهـ.

«والعلم النافع: هو كُلُّ ما جاء به النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الإخبارات الصادقة، والأوامر والنواهي، وسائر الشرائع النافعة»⁽³⁾.

(1) «التبهيّات اللطيفة» على ما احتوت عليه العقيدة الواسطية من المباحث المنيفة (ص 11).

(2) انظر «شرح الواسطية» للعلامة ابن العثيمين (ص 29).

(3) «شرح الواسطية» للفوزان (ص 8).

والهداية هدايتان:

الأولى: هداية دلالة وبيان، ومنها قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]، ومنه ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧]، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، وقوله: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، ومنها ما في الصحيحين أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لعلي بن أبي طالب: «لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من حُمُرِ النَّعَم».

الثانية: هداية إلهام وتوفيق، ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦]، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧]، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ﴾ [الزمر: ٣٧]، ومنه قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضِلِّ فَلَا هَادِيَ لَهُ».

والفرق بين الهدايتين من جهتين:

الأولى: أن هداية الإلهام والتوفيق خاصة بالله لا يقدر عليها سواه، وأما هداية الدلالة والبيان فإنها تتعلق بالرسول ومن اتبعه وبالقرآن كما سبق.

الثانية: أن هداية الإلهام والتوفيق لا بد من حصولها لمن هداه الله إلهاماً وتوفيقاً ولا يمانع منها ممانع، وأما هداية الدلالة والبيان فقد يقع بها الاهتداء، وقد لا يقع.

قوله: «ودين الحق»:

هذا من باب إضافة الموصوف إلى صفته، والدين - كما في كتب اللغة -

يطلق على عدة أشياء، منها الطاعة، والجزاء، والعادة، والسلطان، والحال.
انظر - إن شئت - «لسان العرب» (13/ 119 - 120).

وقد سبق أن شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ فَسَّرَ دينَ الحق بأنه العلم النافع والعمل الصالح، والحق: ضد الباطل، وهو مصدر حقَّ يَحِقُّ، أي: ثبت، ووجب.

قال السَّعْدِي رَحِمَهُ اللهُ فِي تَفْسِيرِهِ (3/ 225): «(دين الحق): الذي هو العمل الصالح، فكان ما بعث الله به محمداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مشتملاً على بيان الحق من الباطل في أسماء الله وأوصافه وأفعاله وفي أحكامه وأخباره، والأمر بكل مصلحة نافعة للقلوب والأرواح والأبدان من إخلاص الدين لله وحده، ومحبة الله وعبادته، والأمر بمكارم الأخلاق ومحاسن الشَّيْم والأعمالِ الصَّالِحَةِ والآداب النَّافِعَةِ، والنَّهْيُ عَنْ كُلِّ مَا يُضَادُّ ذَلِكَ وَيُنَاقِضُهُ مِنَ الْأَخْلَاقِ، وَالْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ الْمُضِرَّةِ لِلْقُلُوبِ وَالْأَبْدَانِ وَالْدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ». اهـ.



«لِيُظْهَرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ».

قوله: «لِيُظْهَرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ».

اللام للتعليل، ومعنى يظهره: أي يعليه، والهاء في (يظهره) يحتمل أن تعود على الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويحتمل أن تعود على الدين، ولا مانع من عود الضمير عليهما معاً.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «مدارج السالكين» (3/ 490): «فيظهره ظهورين: ظهوراً بالحجة والبيان والدلالة، وظهوراً بالنصر والظفر والغلبة والتأييد، حتى يظهره على مخالفه، ويكون منصوراً». اهـ.

قال السَّعْدِي رَحِمَهُ اللَّهُ فِي تفسيره (2/ 226): «أي: لِيُعْلِيَهُ عَلَى سائر الأديان بالحُجَّةِ والبُرْهَانِ، والسَّيْفِ والسنان». اهـ.

وقد جاء في «صحيح مسلم» برقم (2889) من حديث ثوبان قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مِشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنْ أُمْتِي سَبِيلُهَا مَا زَوَى لِي مِنْهَا».

وروى الإمام أحمد في «المسند» بسند صحيح من حديث تميم بن أوس الداري أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لِيَبْلُغَنَّ هَذَا الْأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَلَا يَتْرُكُ اللَّهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ هَذَا الدِّينَ بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ، عِزًّا يُعِزُّ اللَّهُ بِهِ الْإِسْلَامَ وَذُلًّا يُذِلُّ اللَّهُ بِهِ الْكُفْرَ».

وفي «صحيح مسلم» برقم (2907) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «لَا يَذْهَبُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ حَتَّى تُعْبَدَ اللَّاتُ

وَالْعُزَّى، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُ لِأُظْنَ حِينَ أَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٩] أَنْ ذَلِكَ تَامًا، قَالَ: «إِنَّهُ سَيَكُونُ مِنْ ذَلِكَ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ رِيحًا طَيِّبَةً فَتُوفَى كُلُّ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ، فَيَبْقَى مَنْ لَا خَيْرَ فِيهِ، فَيَرْجِعُونَ إِلَى دِينِ آبَائِهِمْ».



«وكفى بالله شهيداً».

قوله: «وكفى بالله شهيداً».

قال الشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي رَحِمَهُ اللهُ: «وكفى بالله شهيداً على صدق رسوله وحقيقة ما جاء به، وشهادته تعالى بقوله وفعله وتأيدته لرسوله بالنصر والمعجزات والبراهين المتنوعة، الدال كل واحد منها - فكيف بجميعها - على رسالته وصدقه، وأن جميع ما جاء به هو الحق من عقائد وأخلاق وآداب وأعمال وغيرها». اهـ. «التنبيهات اللطيفة» (ص 11).

وقال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «... ومن ذلك احتجاجه سبحانه على نبوة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصحة ما جاء به من الكتاب، وأنه من عنده وكلامه الذي تكلم به، وأنه ليس من صنع البشر بقوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: 23]، فأمر من ارتاب في هذا القرآن الذي أنزله على عبده وأنه كلام الله، أن يأتي بسورة واحدة مثله، وهذا يتناول أقصر سورة من سورِهِ، ثم سمح له - إن عجز عن ذلك - أن يستعين بمن أمكنه الاستعانة به من المخلوقين، قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: 38]، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود: 13]، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٣٣) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور: 33 - 34].

ثم سجّل عليهم تسجيلاً عاماً في كل مكان وزمان، يعجزهم ولو تظاهر عليه

الْقَلَانَ، فقال تعالى: ﴿قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَيَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

فانظر إلى أيِّ موقع يقع من الأسماع والقلوب هذا الحِجَابُ الجليلُ القاطع الواضح، الذي لا يجد طالبُ الحقِّ ومؤثره ومريده عنه مَحِيدًا، ولا فوقه مزيدًا، ولا وراءه غاية، ولا أظهر منه آية، ولا أوضح منه برهانًا، ولا أبلغ منه بيانًا، وقال- في إثبات نبوة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باعتبار المتأمل لأحواله ودعوته وما جاء به-: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٦٨) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ (٦٩) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَكَثُرُوا لِلْحَقِّ كَرَهُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٨ - ٧٠].

فدعا- سبحانه- إلى تدبُّر القول وتأمل حال القائل، فإنَّ كون القول كذبًا وزورًا يُعرَفُ من نفس القول تارة، وتارة من تناقضه واضطرابه وظهور الكذب عليه، ويُعرف من حال القائل تارة؛ فإنَّ المعروف بالكذب والفجور والمنكر والمكر لا تكون أقواله إلا مناسبة لأفعاله، ولا يأتي منه من القول والفعل ما يتأتى من البارِّ الصادق من كل فاحشة وغدر وفجور وكذب، بل قلب هذا وقصده وعمله وقوله يشبه بعضه بعضًا، وقلب ذلك وقوله وعمله يشبه بعضه بعضًا، فدعاهم سبحانه إلى تدبُّر القول وتأمل سيرة القائل وأحواله، وحينئذٍ يتحقق لهم ويتبين حقيقة الأمر، وأن ما جاء به أعلى مراتب الصدق؛ قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٦].

فتأمل هاتين الحُجَّتَيْنِ القاطعتين بهذا اللفظ الوجيز.

إحداهما: أن هذا من الله، لا من قبلي ولا هو مقدور لي، ولا من جنس مقدور البشر، وأن الله لو شاء لأمسك عنه قلبي ولساني وأسماعكم وأفهامكم

فلم أتمكن من تلاوته عليكم، ولم تتمكنوا من درايته وفهمه.

الحُجَّة الثانية: أي قد لبثت فيكم عمري إلى حين أتيتكم به، وأنتم تشاهدوني وتعرفوني وتصحبوني حَضْرًا وَسَفْرًا، وتعرفون دقيق أمري وجليله، وتحققون سيرتي، هل كانت سيرة من جاهر ربه بالكذب والفرية عليه، وطلب إفساد العالم وظلم النفوس والبغي في الأرض بغير الحق، هذا وأنتم تعلمون أي لم أكن أحفظ كتابًا ولا أخطئ بيمينني، ولا صاحبت من أعلم منه، بل صاحبتكم أنتم في أسفاركم من تتعلمون منه وتسالونه عن أخبار الأمم والملوك وغيرها مما لم أشارككم فيه بوجه، ثم جئتكم بهذا النبأ العظيم الذي فيه علم الأولين والآخرين، وعلم ما كان وما سيكون على التفصيل، فأَيُّ برهان أوضح من هذا؟ وأيُّ عبارة أفصح وأوجز من هذه العبارة المتضمنة له؟

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْظِيكُمْ بِوَحْدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشَىٰ وَفُرْدَىٰ ثُمَّ نَنْفَكُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦].

ولما كان للإنسان الذي يطلب معرفة الحق حالتان:

إحداهما: أن يكون مناظرًا مع نفسه.

والثانية: أن يكون مناظرًا مع غيره، فأمرهم بِخُصْلَةٍ واحدة، وهي أن يقوموا لله اثنين اثنين، فيتناظران ويتساءلان واحدًا واحدًا، يقوم كل واحد مع نفسه، فيتفكر في أمر هذا الداعي وما يدعو إليه، ويستدعي أدلة الصدق والكذب، ويعرض ما جاء به عليها ليتبين له حقيقة الحال، فهذا هو الحِجَاج الجليل والإنصاف البين والنصح التام». اهـ. «مختصر الصواعق» (84-86).



«وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إقرارًا به وتوحيدًا».

قال العلامة السَّعْدِي رَحِمَهُ اللهُ: «أي: أُقِرُّ وأُعترف مصدِّقًا ومعتقدًا أنه لا يستحق الألوهية، وهي التفرد بكل كمالٍ إلا الله، وأنه لا يستحقُّ العبادة إلا هو وحده لا شريك له، ولهذا قال: إقرارًا به، أي: بالقلب واللسان، وتوحيدًا: أي: إخلاصًا لله من كل عبادة قولية أو عملية أو اعتقادية، وأعظم ما يُوحَّد به ويتقرَّب إليه به تحقيق العقيدة السَّلفية المحتوي عليها هذا الكتاب، وتحقيق العقيدة تصلح الأعمال وتُقبل وتستقيم الأمور». اهـ. «التبهيّات اللطيفة» (ص 12).

قلت: الشهادة هي إخبارٌ بالشيء عن علمٍ به، مع اعتقاد صحَّته وثبوته.

و«لا إله إلا الله».

أي: لا معبود حقٌّ إلا الله، وكلمة لا إله إلا الله مشتملة على نفي وإثباتٍ، «وطريقة القرآن أن يقرن النفي بالإثبات، فينفي عبادة ما سوى الله ويثبت عبادته، وهذا هو حقيقة التوحيد، فالنفي المحض ليس بتوحيد، وكذلك الإثبات بدون نفي، فلا يكون التوحيد إلا متضمنًا للنفي والإثبات، وهذا حقيقة لا إله إلا الله» (1).

ولمعرفة معنى «لا إله إلا الله» بجلاءٍ لا بُدَّ من معرفة ثلاث مسائل:

الأولى: أن معنى الإله عند أهل السُّنَّة: المعبود المألوه، كما قيل:

لِللَّهِ دَرُّ الْغَايَةِ الْمُنَادِيَةِ سَبَّحْنَهُ وَاسْتَزَجَعْنَهُ مَنْ تَأَلَّاهُ

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «الإله: هو المعبود المطاع».

وقال ابن القيم: «الإله: الذي تأله القلوب محبة وإجلالاً وإنابة وإكراماً وتوكلاً».

ومن أدلة ذلك: قوله تعالى: ومن أدلة ذلك: قوله تعالى: ﴿الرَّ كَنُ أَكَمَتَ أَيْنُهُ ثُمَّ فَضَلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ ۝۱﴾ أَلَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿[هود: 2 - 1]، فأبدل الإله بقوله: ﴿تَعْبُدُونَ﴾، وهذا تفسيرٌ مطابق، وهو أقوى أنواع التفاسير.

وقال إبراهيم: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ۝۱﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿[الزخرف: 26 - 27].

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ ۝﴾ [آل عمران: 64].

الثانية: معنى لفظ الجلالة «الله»، وهذا عند أهل السنة لفظ مشتق كسائر أسماء الله الحسنی، واشتقاقه من الألوهية.

قال ابن عباس كما في «تفسير ابن جرير» (1/54): «والله ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين». اهـ.

الثالثة: تقدير الخبر المحذوف في «لا إله»، فقول أهل السنة: التقدير لا إله حق استدلالاً بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَٰأَبُ اللَّهِ هُوَ الْحَقُّ وَأَبُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَبُ اللَّهِ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج: 62].

وقد قال الشيخ العلامة ابن عثيمين في شرحه للأصول الثلاثة (ص 66):

«وبتقديرنا الخبر بهذه الكلمة (حق) يتبين الجواب عن الإشكال التالي، وهو كيف يقال: لا إله إلا الله، مع أن هناك آلهة تُعبد من دون الله، وقد سماها الله

تعالى آلهة، وسماها عابدها آلهة، قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْنِيبٍ﴾ [هود: ١٠١].

وكيف يمكن أن تُثبت الألوهية لغير الله عزَّ وجلَّ، والرسَل يقولون لأقوامهم: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]؟!

والجواب على هذا الإشكال يتبين بتقدير الخبر في «لا إله إلا الله»، فنقول: هذه الآلهة التي تُعبد من دون الله هي آلهة، لكنها آلهة باطلة، ليست آلهة حقَّة، وليس لها من حق الألوهية شيء، ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتَ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنْتَ اللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢].

ويدل لذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَوَةَ الثَّالِثَةَ ۝٢٠ الْآخَرَىٰ ۝٢١ أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ۝٢٢ تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ۝٢٣ إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [النجم: ١٩-٢٣].

وقوله تعالى - عن يوسف عليه الصلاة والسلام -: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [يوسف: ٤٠].

إذاً، فمعنى «لا إله إلا الله»: لا معبود حق إلا الله عزَّ وجلَّ، فأما المعبودات سواه فإن ألوهيتها التي يزعمها عابدها ليست حقيقية، أي: ألوهية باطلة». اهـ.
قوله: «وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ».

«وحده»: توكيد للإثبات.

«ولا شريك له»: توكيد للنفي.

وكل هذا اهتمامًا بجانب التوحيد، وكلمة شريك نكرة في سياق النفي تفيد العموم، فلا شريك له في ألوهيته، ولا ربوبيته، ولا أسمائه وصفاته. قوله: «إقرارًا به وتوحيدًا».

هذان مصدران مؤكّدان لمعنى الجملة السابقة. والتوحيد أصلٌ مادته في اللغة (وَحَدَ)، وقد جاء في «معجم مقاييس اللغة» (90 / 6): «أن الواو والحاء والdal أصلٌ واحد، يدلُّ على الانفراد». اهـ. «ومعنى وَحَدْتُ الله: أي نسبته إلى الوجدانية» (1). والتشديد في الفعل (وَحَدْتُ): للمبالغة أي: بالغت في وصفه بذلك (2). وأما في الاصطلاح فهو ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: توحيد الربوبية.

الثاني: توحيد الألوهية.

الثالث: توحيد الأسماء والصفات.

وقد قال صاحب «تيسير العزيز الحميد» رَحِمَهُ اللهُ (ص 32 - 33): «وسُمِّيَ دينُ الإسلام توحيدًا؛ لأنَّ مَبْنَاهُ على أَنَّ اللهَ واحدٌ في ملكه وأفعاله لا شريك له، وواحدٌ في ذاته وصفاته لا نظير له، وواحدٌ في إلهيته وعبادته لا يَدَّ له». اهـ (3).



(1) «لوامع الأنوار» (1 / 56، 57).

(2) «الحجة في بيان المحجة» (1 / 305).

(3) «زاد المعاد» (1 / 89).

«وأشهد أن محمداً عبده ورسوله».

قال العلامة السَّعْدِي رَحِمَهُ اللهُ: «الشهادة للرسول بالرسالة والعبودية مقرونة بالشهادة لله بالتوحيد، لا تكفي إحداهما عن الأخرى، ولا بد فيها من اعتراف العبد بكمال عبودية النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنه فاق جميع البشر في كل خَصْلَةٍ كمالٍ، ولا تُسمَّى شهادةً حتى يصدِّقه العبد في كل ما أخبر، ويطيعه في كل ما أمر، وينتهي عما نهى عنه». اهـ. «التنبيهات اللطيفة» (ص 12).

قلت: قد سبق الكلام على معنى الشهادة.

قوله: «مُحَمَّدًا»: اسمٌ مفعول من (حَمَدَ)، فهو مُحَمَّدٌ إذ كان كثير الخصال التي يُحَمَّدُ عليها⁽¹⁾.

أَمَّا نَسَبُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فهو خيرُ أهل الأرض نَسَبًا على الإطلاق، فَلِنَسَبِهِ من الشَّرَفِ أعلى ذروة، وأعداؤه يشهدون له بذلك؛ ولهذا شهد له به عدوه - إذ ذاك - أبو سفيان بين يدي ملك الروم.

فأشرفُ القوم قومه، وأشرفُ القبائل قبيلته، وأشرفُ الأفخاذِ فخذُهُ.

فهو مُحَمَّدٌ بنُ عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قُصَيِّ بن كِلَابٍ بن مُرَّةٍ بن كعب بن لُؤَيٍّ بن غالب بن فِهْرٍ بن مالك بن النضر بن كِنانة بن خُزَيْمة بن مُدْرِكَةَ بن إلياس بن مُضَرٍّ بن نزار بن مَعَدٍ بن عدنان.

إلى ها هنا معلوم الصحة متفق عليه بين النَّسَّابِينَ، ولا خلاف بينهم أن عدنان من ولد إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وإسماعيل هو الذَّبِيح على القول الصَّوَاب عند علماء الصَّحابة والتَّابعين

(1) «زاد المعاد» (1/ 71 - 72).

وَمَنْ بَعْدَهُمْ.

وَأَمَّا الْقَوْلُ بِأَنَّهُ إِسْحَاقُ، فَبَاطِلٌ بِأَكْثَرِ مِنْ عَشْرِينَ وَجْهًا.

وَسَمِعْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةٍ قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ يَقُولُ: «هَذَا الْقَوْلُ إِنَّمَا هُوَ مُتَلَقًى عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، مَعَ أَنَّهُ بَاطِلٌ بِنَصِّ كِتَابِهِمْ؛ فَإِنَّ فِيهِ أَنَّ اللَّهَ أَمَرَ إِبْرَاهِيمَ أَنْ يَذْبَحَ ابْنَهُ بِكَرِّهِ، وَفِي لَفْظٍ: وَحِيدَهُ، وَلَا يَشْكُ أَهْلُ الْكِتَابِ مَعَ الْمُسْلِمِينَ أَنَّ إِسْمَاعِيلَ هُوَ بِكَرٍّ أَوْلَادَهُ.

وَالَّذِي غَرَّ أَصْحَابَ هَذَا الْقَوْلِ أَنَّ فِي التَّوْرَةِ الَّتِي بَأَيْدِيهِمْ: اذْبَحْ ابْنَكَ إِسْحَاقَ، قَالَ: وَهَذِهِ الزِّيَادَةُ مِنْ تَحْرِيفِهِمْ وَكَذِبِهِمْ؛ لِأَنَّهَا تَنَاقُضُ قَوْلَهُ: «اذْبَحْ بِكَرِّكَ وَوَحِيدَكَ». اهـ (1).

قوله: «عبده ورسوله».

فِيهِ رَدٌّ عَلَى أَهْلِ الْغُلُوفِ وَالْجَفَاءِ، فَهُوَ - كَمَا قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: «عَبْدٌ، فَلَا يُعْبَدُ، وَرَسُولٌ فَلَا يُكَذَّبُ». اهـ.

وإضافة العبودية والرسالة إلى الله إضافة تكريم وتشريف، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أكمل الخلق في هاتين الصفتين العظيمتين الشريفتين «وقد وصفه رَبُّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِالْعِبُودِيَةِ فِي أَشْرَفِ مَقَامَاتِهِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣]، وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ [الكهف: ١].

فَذَكَرَهُ بِالْعِبُودِيَةِ فِي مَقَامِ أَنْزَالِ الْكِتَابِ عَلَيْهِ، وَفِي مَقَامِ التَّحْدِي بِأَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ، وَقَالَ: ﴿وَأَنَّهُ، لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩]، فذكره

بالعبودية في مقام الدعوة إليه، وقال: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾
[الإسراء: ١]، فذكره بالعبودية في مقام الإسراء»^(١).



(١) «مدارج السالكين» (١/ ١١٦).

«صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا مَزِيدًا».

قوله: «صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ».

قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ فِي «جَلَاءِ الْأَفْهَامِ» (ص 253): «وَأَصْلُ هَذِهِ اللَّفْظَةِ (الصَّلَاةُ) يَرْجِعُ إِلَى مَعْنَيْنِ: أَحَدُهُمَا: الدُّعَاءُ وَالتَّبَرُّيْكَ.

وَالثَّانِي: الْعِبَادَةُ...».

إِلَى أَنْ قَالَ رَحِمَهُ اللهُ: «وَأَمَّا صَلَاةُ اللهِ - سُبْحَانَهُ - فَنُوعَانِ: عَامَّةٌ، وَخَاصَّةٌ.

أَمَّا الْعَامَّةُ فَهِيَ: صَلَاتُهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

وَمِنْهُ دُعَاءُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالصَّلَاةِ عَلَى أَحَادِ الْمُؤْمِنِينَ: كَقَوْلِهِ: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى» (1).

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: أَنَّ امْرَأَةً قَالَتْ لَهُ: صَلِّ عَلَيَّ وَعَلَى زَوْجِي، قَالَ: «صَلَّى اللهُ عَلَيْكَ وَعَلَى زَوْجِكَ» (2).

النوع الثاني: صَلَاتُهُ الْخَاصَّةُ عَلَى أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ، خُصُوصًا عَلَى خَاتَمِهِمْ وَخَيْرِهِمْ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَاخْتَلَفَ النَّاسُ فِي مَعْنَى الصَّلَاةِ مِنْهُ - سُبْحَانَهُ -

(1) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَغَيْرُهُمَا مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى.

(2) أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ (81/11)، وَالدَّارِمِيُّ (46)، وَأَحْمَدُ (303/3)، وَغَيْرُهُمْ، وَإِسْنَادُهُ صَحِيحٌ.

على أقوالٍ»، ثم ذكر أنه قيل: إنها رحمته، وقيل: مغفرته ثم قال: «وهذا القول من جنس الذي قبله، وهما ضعيفان لوجوه»، ثم ذكر خمسة عشر وجهاً. والمعنى الذي ارتضاه ابن القيم لهذه الصلاة الخاصة أنها: ثناء الله على رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعنايته به، وإظهار شرفه وفضله وحُرمته. قلت: ومِمَّا يدلُّ على ذلك ما رواه البخاري في صحيحه تعليقاً عن أبي العالية قال: «صَلَاةُ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ: ثَنَاءُهُ عَلَيْهِ عِنْدَ مَلَائِكَتِهِ». قوله: «وعلى آله».

المقصود هنا بالآل: أَتْبَاعُهُ عَلَى دِينِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وقد اختلف في آل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أقوالٍ ذكر منها ابن القيم أربعة في «جلاء الأفهام»، وأورد أدلة أصحابها؛ فانظرها غير مأمور (ص 324) وما بعدها.

قوله: «وَسَلَّمَ».

التسليم هو: الدعاء بالسلامة من الشرور.

وحقيقة السَّلام - كما قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «بدائع الفوائد» (1/ 133) -: «البراءة والخُلوص والنجاة من الشرِّ والعيب». اهـ.

قوله: تسليمًا مزيدًا.

«جاء بالمصدر للتوكيد، وقوله: «مزيدًا» أي: مزيدًا على الصلاة عليه، والجملة في قوله (صَلَّى) و(سَلَّمَ) خبرية لفظًا، طلبية معنًى؛ لأن المراد بها الدعاء» اهـ. «شرح العقيدة الواسطية» للعلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ (ص 35).



«أما بعد: فهذا اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة أهل السُّنة والجماعة».

قوله: «أما بعد».

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في شرحه للواسطية (ص 36): «أما بعد: (أما) هذه نائبة عن اسم شرط وفعله، والتقدير مهما يكن من شيء».

قال ابن مَالِكٍ:

أَمَّا كَمَهُمَا يَكُ مِنْ شَيْءٍ وَفَا لَتَلُو تَلُوَهَا وَجُوبًا أَلْفَا

فقولهم: «أما بعد»: التقدير مهما يكن من شيء بعد، فهذا؛ وعليه فالفاء هنا رابطة للجواب، والجملة بعدها في محل جزم جواب الشرط.

ويحتمل عندي أن تكون (أما بعد، فهذا)، أي: أن (أما) حرف شرط وتفصيل، أو حرف شرط فقط مجرد عن التفصيل.

والتقدير: أما بعد ذكر هذا؛ فأنا أذكر كذا وكذا، ولا حاجة أن نقدر فعل شرط، ونقول: إن (أما) حرف نابٍ مناب الجملة». اهـ.

وكلمة (أما بعد): يؤتى بها للانتقال من المقدمة إلى الموضوع.

وقد اختلف في أول من قالها على ثمانية أقوال نظمها بعضهم فقال:

جَرَى الْخُلْفُ أَمَّا بَعْدُ مَنْ كَانَ بَادِئًا بِهَا عَدُّ أَقْوَالٍ وَدَاوُدُ أَقْرَبُ
وَيَعْقُوبُ أَيُّوبُ الصَّبُورُ وَآدَمُ وَقِسُّ وَسَحْبَانٌ وَكَعْبٌ وَيَعْرُبُ

قوله: «فهذا».

الإشارة في مثل هذا المقام تكون إمّا إلى شيءٍ مقدّر في الذهن، وإمّا إلى شيءٍ محرّر مكتوب، فإن كانت المقدمة كُتِبَتْ قبل الموضوع فالإشارة إلى شيءٍ مقدّر، وإن كانت المقدمة كُتِبَتْ بعد الموضوع فالإشارة إلى شيءٍ مُحرّر، والظاهر أن شيخ الإسلام أشار إلى ما قدّره في ذهنه؛ لأنه كتب هذه العقيدة في جلسةٍ واحدةٍ بعد العصر، كما صرح هو بذلك، والله أعلم.

قوله: «اعتقاد».

مصدر اعتقد كذا، إذا اتخذ عقيدة.

قال ابن فارس في «معجم المقاييس» (4 / 86): «العين والقاف والذال (عَقَدَ) أصلٌ واحد يدل على شَدٍّ وشِدَّةٍ وثوقٍ، وإليه ترجع فروع الباب كلها». اهـ.

وقال الفيومي في «المصباح المنير» (ص 160): «العقيدة: ما يدين الإنسان به، وله عقيدةٌ حسنةٌ سالمةٌ من الشكِّ». اهـ.

وأما الاصطلاح: فقد عرفه بعضهم بقوله: هو «حكم الذهن الجازم، فإن طابق الواقع فصحيحٌ، وإلا ففاسد». اهـ. «التنبيهات السنيّة على العقيدة الواسطية» (ص 16).

«فاعتقادنا أن الله وحده صحيحٌ، واعتقاد النصراني أن الله ثالث ثلاثة باطلٌ؛ لأنه مخالف للواقع، ووجه ارتباطه بالمعنى اللغوي ظاهر؛ لأن هذا الذي حكم في قلبه على شيءٍ ما، كأنه عقده عليه وشده عليه، بحيث لا يتفلّت منه». اهـ.

«شرح الواسطية» للعلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ (ص 37).

قوله: «الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة أهل السنة والجماعة»:

وصف المؤلف رَحْمَةُ اللَّهِ أَهْلَ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ بأنهم:

1- الْفِرْقَةُ النَّاجِيَةُ.

2- أَنَّهُمْ مَنْصُورُونَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ.

أما الْفِرْقَةُ: فبكسر الفاء أي الطائفة من الناس، وفي ذلك إشارة إلى قلتهم.

وأما الناجية: أي السالمة؛ لأنها نجت في الدنيا من الابتداع والإحداث في الدين - فضلاً عن الشرك - فنجت يوم القيامة من النار.

يدل على ذلك قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَسَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً». قالوا: من هي يا رسول الله؟ قال: «الجماعة».

وفي رواية «مَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي».

أما كونهم منصورين إلى قيام الساعة، فيدلُّ على ذلك ما رواه مسلم في صحيحه برقم (1920) من حديث ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ، وَهُمْ كَذَلِكَ».

وعند مسلم برقم (1922) من حديث جابر بن سمرة أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لَنْ يَبْرَحَ هَذَا الدِّينُ قَائِمًا يُقَاتَلُ عَلَيْهِ عَصَابَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ».

والمقصود بقيام الساعة، أي: قرب قيام الساعة، بدليل ما في «مسلم» برقم (1924) أنَّ عبد الله بن شماسه المهري قال: كنت عند مسلمة بن مخلد وعنده عبد الله بن عمرو بن العاص فقال عبد الله: لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق، هم شَرُّ مَنْ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ، لَا يَدْعُونَ اللَّهَ بِشَيْءٍ إِلَّا رَدَّهَ عَلَيْهِمْ، فبينما هم على

ذلك أقبل عقبة بن عامر؛ فقال له مسلمة: يا عقبة اسمع ما يقول عبد الله! فقال عقبة: هو أعلم. وأما أنا فسمعتُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «لا تزال عصابةً من أمتي يقاتلون على أمر الله قاهرين عدوَّهم، لا يضرُّهم مَنْ خالفهم حتى تأتِيهم الساعة وهم على ذلك»، فقال عبد الله: أجل، ثم يبعث الله ريحاً كريح المسك، مَسُّها مَسُّ الحرير، فلا تترك نفساً في قلبه مثقال حبة من الإيمان إلا قبضته، ثم يبقى شرار الناس، عليهم تقوم الساعة.

ولا غرابة في كون هذه الطائفة ظاهرة قاهرة منصورّة مع قلة العدد والعدد، وكثرة عدد مخالفيهم وعدوِّهم، وما ذلك إلا لنصر الله وتأييده لهم جزاء توحيدهم لله، ونصرهم لدينه وصدق اتباعهم ومحبتهم لنبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرسَلِينَ﴾ (١٧١) ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ﴾ (١٧٢) وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣]، وقال: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَاغْلِبَ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١]، وقال سبحانه: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ نَصْرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]، وقال: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ﴾ [الحج: ٤٠].

قوله: «أهل السنة».

السنة في اللغة: الطريقة محمودّة كانت أو مذمومة.

وفي الاصطلاح: ما كان عليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أقوال وأفعال وتقريرات وأحوال.

وسُمُّوا أهل السنة؛ لتمسكهم بسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «فليس لهم متبوع يتعصبون له إلا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهم أعلم الناس بأقواله وأحواله، وأعظمهم تمييزاً بين صحيحها وسقيمها، وأئمتهم فقهاء فيها، وأهل معرفة

بمعانيها، وأتباعٌ لها تصديقاً وعملاً وحباً، وموالاةً لمن والآها، ومعاداةً لمن عاداها، الذين يردُّون المقالات المجملة إلى ما جاء به من الكتاب والحكمة، فلا ينصبون مقالةً ويجعلونها من أصول دينهم...، بل يجعلون ما بعث الله به الرسول من الكتاب والحكمة هو الأصل الذي يعتقدونه ويعتمدونه»⁽¹⁾.

قوله: «والجماعة».

الجماعة لغة: الفرقة المجتمعة من الناس، قليلة كانت أو كثيرة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية كما في «مجموع الفتاوى» (1/157): «هي الاجتماع، وضدها الفرقة، وإن كان لفظ الجماعة قد صار اسماً لنفس القوم المجتمعين». اهـ.

وفي الاصطلاح: الجماعة ما وافق الحق، ولو كنت وحدك وخالفك أهل الأرض.

قال أبو شامة في كتابه «الباعث على إنكار البدع والحوادث» (ص22): «حيث جاء الأمر بلزوم الجماعة، فإن المراد بها لزوم الحق وإن كان المتمسك به قليلاً والمخالف له كثيراً؛ لأن الحق هو الذي كانت عليه الجماعة الأولى من عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا نظر إلى كثرة أهل الباطل بعدهم.

وقال ميمون بن مهران، قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الجماعة ما وافق الحق - وإن كنت وحدك».

وقال نُعَيْم بن حَمَّاد: «إِنْ فَسَدَتِ الْجَمَاعَةُ فَعَلَيْكَ بِمَا كَانَتْ عَلَيْهِ الْجَمَاعَةُ قَبْلَ أَنْ تَفْسُدَ - وَإِنْ كُنْتَ وَحْدَكَ -، فَإِنَّكَ أَنْتَ الْجَمَاعَةُ حِينَئِذٍ». ذكره البيهقي

(1) «مجموع الفتاوى» (3/347).

وغيره. اهـ.

وقال ابن القيم في «إعلام الموقعين» (3/ 308 - 309): «واعلم أن الإجماع والحجة والسواد الأعظم هو العالم صاحب الحق وإن كان وحده، وإن خالفه أهل الأرض... وقد شذَّ الناس كلهم زمن الإمام أحمد بن حنبل إلا نفرًا يسيرًا فكانوا هم الجماعة، وكان الفقهاء والمفتون والخليفة وأتباعهم هم الشاذين، وكان الإمام أحمد وحده هو الجماعة.

ولما لم يحتمل هذا عقول الناس قالوا للخليفة: يا أمير المؤمنين تكون أنت وقضاتك وولاتك والفقهاء والمفتون كلهم على الباطل، وأحمد وحده على الحق؟ فلم يتسع علمه لذلك، فأخذه بالسيّاط والعقوبة بعد الحبس الطويل، فلا إله إلا الله ما أشبه الليلة بالبارحة! وهي السبيل المهيع لأهل السنة والجماعة، حتّى يلقوا ربهم، مضى عليه سلفهم ويتظرها خلفهم ﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَلُوا بَدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣]، ولا حول ولا قوة إلا بالله». اهـ.

وقد أراد المؤلف رحمه الله بقوله: فهذا اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة أهل السنة والجماعة: أن يبين أن ما سيذكره هو اعتقاد هذه الفرقة الناجية المنصورة أهل السنة والجماعة، من لدن الصحابة إلى قيام الساعة، وليست عقيدته وحده، بل هو متبع في ذلك، ليس بمبتدع ولا مغيّر ولا مُبدّل.

ولهذا قال العلامة السّعودي في «التنبيهات اللطيفة» (ص 12 - 13): يقول المصنف رحمه الله: «إن ما احتوت عليه هذه الرسالة هو العقيدة المنجية من الهلاك والشروع، المحصلة لخيري الدنيا والآخرة، الموروثة عن محمد صلى الله عليه وسلم، المأخوذة عن كتاب الله وسنة رسوله، وهي التي عليها الصحابة

والتابعون لهم بإحسان إلى يوم القيامة، الذين ضَمِنَ اللهُ لهم على لسان رسوله النصرَ إلى قيام الساعة، والنصرُ إنما حصل ببركة هذه العقيدة والعمل بها، وتحقيقها بالقيام بجميع أمور الدين». اهـ.

وقال شيخُ الإسلام ابنُ تيمية رَحِمَهُ اللهُ كما في «مجموع الفتاوى» (2 / 482):
«ومذهب أهل السُّنة والجماعة مذهب قديم معروف من قبل أن يخلق الله أبا حنيفة ومالكا والشافعي وأحمد؛ فإنه مذهب الصحابة الذين تلقَّوه عن نبيِّهم، ومن خالف كان مبتدعا عند أهل السُّنة والجماعة». اهـ.



«وهو الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، والبعث بعد الموت، والإيمان بالقدر؛ خيره وشره».

قال العلامة السَّعْدِي رَحِمَهُ اللهُ فِي رسالته العظيمة المباركة «التنبيهات اللطيفة» (ص 13): «وأصلها الذي عليه تُبنى: أي: أصل هذه العقيدة هو الإيمان بهذه الأصول الستة التي صرَّح بها الكتاب والسنة في مواضع كثيرة جملة وتفصيلاً وتفریعاً، وهي المذكورة في حديث جبريل المشهور حيث قال جبريل للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ما الإيمان؟ فأجابه.

فهذه الرسالة من أولها إلى آخرها تفصيل لهذه الأصول الستة». اهـ.

أقول وبالله التوفيق: من المواضع التي ذكر الله فيها هذه الأركان الستة العظيمة قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

فهذه خمسة أركان، والسادس ذكره الله في قوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

وذكرها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سُنتِهِ فِي حديث جبريل المشهور، عندما سأله عَلَيْهِ السَّلَامُ عن الإيمان، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره». متفق

عليه.

الركن الأول: الإيمان بالله:

وهو الاعتقاد الجازم بأن الله هو المنفرد بالألوهية المستحق للعبادة وحده لا شريك له، وبأنه الربُّ الخالق المالك المدبِّر المتصف بصفات الكمال والجلال، المنزّه عن كل نقص وعيب في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله.

«وهو أصل الأصول كلها، وأعظمها وأهمها، وعليه تُبنى جميع الأصول والعقائد». «التنبيهات السنية» (ص 15).

والإيمان بالله يتضمن ما يلي:

- 1- الإيمان بوجوده.
- 2- الإيمان بربوبيته.
- 3- الإيمان بألوهيته.
- 4- الإيمان بأسمائه وصفاته.

من ثمرات الإيمان بالله:

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ - كما في مجموع رسائله وفتاويه (3/ 259-260): «فالإيمان بالله تعالى وأسمائه وصفاته يثمر للعبد محبة الله وتعظيمه الموجبة للقيام بأمره واجتناب نهيه، ويحصل بهما كمال السعادة في الدنيا والآخرة للفرد والمجتمع ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]». اهـ.

الركن الثاني: الإيمان بالملائكة:

وهو الاعتقاد الجازم أنهم خلق من خلق الله، خلقهم من نور لعبادته.

قال الكُرْماني في شرحه لصحيح البخاري (1/ 194): «الملائكة: جمع مَلَكٍ؛ نظراً إلى أصله الذي هو (مَلَكٌ) مَفْعَلٌ من الألوكة، بمعنى الرسالة، والتاء زيدت فيه لتأكيد معنى الجمع، أو لتأنيث الجمع». اهـ.

الإيمان بالملائكة قسماً:

1- إيمان مُجْمَل بجميع ملائكة الله، مَنْ علمنا منهم وَمَنْ لم نعلم، وأنهم عباد مُكْرَمُونَ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤْمَرُونَ، ليسوا أولاداً لله ولا أنداداً ولا شركاء، ولا يعلمون الغيب، وليس لهم من الألوهية والربوبية شيء؛ قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٣٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌُ مِّنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَن عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنبياء: ١٩-٢٠]، وأنه ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَكَاتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾ [النساء: ١٣٦].

2- إيمان مُفَصَّلُ بمن ذكر منهم باسمه؛ كجبريل، وميكائيل، وإسرافيل، ومالك، وبصفة مَنْ ذكر منهم بوصفٍ كحملة العرش وخزنة النار وجبريل، وبعده مَنْ ذكر منهم بعددٍ كخزنة النار، وحملة العرش.

وبعمل مَنْ ذَكَرَ مِنْهُمْ بِعَمَلٍ؛ فَمِنْهُمْ الْمَوَكَّلُ بِالْجِبَالِ، وَمِنْهُمْ الْمَوَكَّلُ بِالْقَطْرِ، وَمِنْهُمْ الْمَوَكَّلُ بِفِتْنَةِ الْقَبْرِ، وَمِنْهُمْ الْمَوَكَّلُ بِالنَّفْخِ فِي الصُّورِ وَغَيْرِ ذَلِكَ. وانظر فيما سبق «تعظيم قدر الصلاة» للمروزي (1/392)، و«معارج القبول» للحكمي (2/656-671).

وأما ثمرات الإيمان بالملائكة فمنها:

- 1- العلم بعظمة خالقهم تبارك وتعالى وقدرته وسلطانه.
- 2- شكره تعالى على عنايته بعباده، حيث وكل بهم من هؤلاء الملائكة مَنْ يقوم بحفظهم وكتابة أعمالهم، وغير ذلك من مصالحهم.
- 3- محبة الملائكة على ما قاموا به من عبادة الله على الوجه الأكمل واستغفارهم للمؤمنين.

انظر «مجموع رسائل وفتاوى فضيلة الشيخ العثيمين» رحمه الله.

الرُّكن الثالث: الإيمان بالكتب:

وهو الاعتقادُ الجازمُ أنها كلامُ الله المُنزَّلُ على رُسُلِهِ لهُدَايَةِ عِبَادِهِ.

والإيمان بكتب الله قسمان:

- 1- مُجْمَلٌ بِجَمِيعِ الْكُتُبِ الْمُنزَّلَةِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، مَا عَلِمْنَا مِنْهَا وَمَا لَمْ نَعْلَمْ، وَأَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَهَا جَمِيعًا هَدًى وَرَحْمَةً، قَالَ تَعَالَى: ﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَاَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقُلْ ءَاَمَنْتُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا مِنْ كِتَابِ﴾ [الشورى: ١٥]، وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُولُوا ءَاَمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ

إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿البقرة: ١٣٦﴾.

2- إيمان مفصل بجميع ما سَمَّى الله منها، وهي التَّوراة المنزلة على موسى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والإنجيل المنزل على عيسى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والزبور المنزل على داود صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وصحف إبراهيم وموسى وآخرها القرآن المنزل على محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والإيمان بالكتب يتضمن أموراً منها:

1- أنها كلام الله، غير مخلوقة.

2- أن جميعها يصدق بعضها بعضاً، قال تعالى - في الإنجيل -: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ ۖ وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ۖ﴾ [المائدة: ٤٦]، وقال تعالى في القرآن: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

3- أن نسخ بعض الكتب ببعض حق، كما نسخت بعض شرائع التوراة بالإنجيل؛ قال الله تعالى في عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ (٤٨) وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴿[آل عمران: ٤٨-٥٠].

4- أن القرآن نسخ بعض ما في التوراة والإنجيل من الشرائع؛ قال تعالى:

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

5- أن نسخ القرآن بعض آياته ببعض حق، كما قال الله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُزِيلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ١٠١]، والآيات في هذا معلومة في مواضعها.

6- أن من الكتب قبل القرآن ما لم يسلم من التّخريف، وأما القرآن فقد تكفل الله بحفظه، حيث قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

7- أن القرآن الكريم ثلاثون جزءاً، وعدد سُورِهِ مئة وأربع عشرة سورة، ليس فيه نقص، وأن القرآن الذي بين أيدينا الآن هو القرآن الذي توفي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو بين يدي أصحابه، ومن ادّعى أن فيه زيادةً أو نقصاناً فهو كافرٌ باتفاق.

8- أنه لا يأتي كتاب بعد القرآن، وأنه ليس لأحد الخروج عن بعض أحكامه.

وانظر «معارج القبول» للحكمي (2/ 673 - 675).

من ثمرات الإيمان بالكتب:

أولاً: العلم برحمة الله وعنايته بخلقه، حيث أنزل لكل قوم كتاباً يهديهم به.
ثانياً: ظُهور حِكْمته تعالى؛ حيث شرع في هذه الكتب لكل أمة ما يناسبها،
وكان خاتم هذه الكتب القرآن العظيم مُناسباً لِجَمِيعِ الخَلْقِ في كُلِّ عَصْرٍ ومكانٍ
إلى يوم القيامة.

[ولا بُدَّ في الإيمان به من امتثال أوامره، واجتناب نواهيه، وتحليل حاله،
وتحريم حرامه، والاعتبار بأمثاله، والاتِّعَاضَ بقصصه، والعمل بمُحكَمه،
والتسليم لمتشابهه، والوقوف عند حدوده، وتلاوته آناء الليل والنهار، والدَّبَّ
عنه لتحريف الغالين وانتحال المُبطلين، والنصيحة له ظاهراً وباطناً بجميع
معانيها، نسأل الله تعالى أن يرزقنا كل ذلك ويُوفِّقنا له، ويعيننا عليه، ويثبتنا به
وجميع إخواننا المسلمين؛ إنه وليُّ التوفيق].

ثالثاً: شكر نعمة الله على ذلك. [اهـ.

«مجموع رسائل وفتاوى فضيلة الشيخ العثيمين» (3/ 259 - 260)، وما
بين المعقوفتين من «معارج القبول» (3/ 675).

الركن الرابع: الإيمان بالرسول:

الرسول في اللغة: من بُعث برسالة.

وشرعاً: رجلٌ من بني آدم بعثه الله بشريع، وأمره بتبليغه.

والإيمان بالرسول قسمان:

1- إيمانٌ مُجْمَلٌ: بجميع رسل الله، مَنْ علمنا منهم وَمَنْ لم نعلم، قال
تعالى: ﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَاَمَنَ بِاللَّهِ

وَمَلَكَيْهِ وَكُتِبَ عَلَيْهِ وَرُسُلُهُ لَا تَفْرُقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿البقرة: ٢٨٥﴾، وقال تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِغَايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [غافر: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُونَ بِاللَّهِ وَرُسُولِهِ وَأَلِكْتُبِ الَّذِي نَزَلَ عَلَى رَسُولِهِ وَأَلِكْتُبِ الَّذِي أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَكَيْتِهِ وَكُتِبَ عَلَيْهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٥٠-١٥٢].

2- إيمانٌ مفصَّلٌ: بجميع من ذكر منهم باسمه في كتاب الله، أو صحيح سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

مِمَّا يَتَضَمَّنُهُ الْإِيمَانُ بِالرَّسُلِ:

1- أن الله بعث في كل أمة رسولا، يدعو إلى عبادة الله، وينهى عن عبادة الطاغوت، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ

فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عِقَابُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ [النحل: ٣٦].

2- أنه قد اتَّفَقَتْ دعوتهم من أولهم إلى آخرهم في أصل الدين، وهو توحيد الله عَزَّوَجَلَّ، في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، ونفي ما يضادُّ ذلك أو ينافي كماله، وأما فروع الشرائع من الفرائض والحلال والحرام فقد تختلف. اهـ. «معارج القبول» (2/ 677) بتصرف يسير.

3- أن مَنْ كَذَبَ واحدًا منهم فقد كَذَبَ الجميع؛ ولذلك قال تعالى: ﴿كَذَبَتْ قَوْمٌ نُوحَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥]، ولم يكن نوحٌ إلا رسولًا واحدًا، ﴿كَذَبَتْ عَادَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٣]، ولم يكن لهم نبيٌّ إلا هود، ﴿كَذَبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٤١]، وقال تعالى: ﴿كَذَبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٦]. اهـ. «شعب الإيمان» للقصري.

4- أنهم صادقون مُصَدِّقون، بخلاف الذين يقولون على الله ما لا يعلمون. قاله شيخ الإسلام ابن تيمية في «الواسطية».

5- أنهم معصومون فيما يبلغون عن الله، فلا يستقرُّ في ذلك خطأ باتفاق المسلمين. اهـ. «مجموع الفتاوى» (1/ 290).

6- أنهم مَعصومون من الإقرار على الذُّنوب مطلقًا، وهذا الذي عليه جمهور الناس. «مجموع الفتاوى» (10/ 293).

7- أن أول الرسل نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وخاتمهم محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ قال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣]، وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ

مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿[الأحزاب: ٤٠]﴾.

8- أن الله رفع بعضهم فوق بعض درجات، وفضل بعضهم على بعض؛ بمقتضى علمه وحكمته، قال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُم عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُمْ مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

9- أن الله اتخذ إبراهيم خليلًا، وكلم موسى تكليمًا، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه؛ قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٧١-١٧٢].

10- أنهم جميعًا عبيد الله، مُفْتَقِرُونَ في جميع شؤونهم إليه، ليس لهم من خصائص الألوهية والربوبية شيء، فلا يجوز دعاؤهم من دون الله، ولا مع الله، فمن فعل شيئًا من ذلك فهو من أعدائهم، لا من أوليائهم؛ قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن رَّبَّنَزِينَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩-٨٠].

من ثمرات الإيمان بالرسول:

أولاً: العلم برحمة الله وعنايته بخلقه، حيث أرسل إليهم أولئك الرسل الكرام للهداية والإرشاد.

ثانياً: شكره تعالى على هذه النعمة الكبرى.

ثالثاً: محبة الرسل وتوقيرهم، والثناء عليهم بما يليق بهم؛ لأنهم رسل الله تعالى وخلاصة عبده، قاموا لله بعبادته وتبليغ رسالته والنصح لعباده والصبر على أذاهم». اهـ. «مجموع رسائل وفتاوى فضيلة الشيخ ابن عثيمين» (260 / 3).

الركن الخامس: البعث بعد الموت:

والبعث لغة: التحريك والإثارة.

وشرعاً: الاعتقاد الجازم بأن الله سيبعث العباد بعد موتهم، ويعيد أرواحهم إلى أجسادهم للحساب والجزاء.

وهذا ثابت بالكتاب والسنة وإجماع المسلمين، بل واليهود والنصارى وكل الكتب السماوية.

ومن أدلة القرآن على ذلك قوله تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ ١٥ ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٥-١٦]، وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِعَايِنِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفَّتًا أَيْنَا لِمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٩٨]، وقوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٣٨].

وَأَمَّا السُّنَّةُ فَهِيَ متواترة في ذلك.

«ولم يقل المؤلّف رَحِمَهُ اللهُ: (الإيمان باليوم الآخر) كما ورد في الحديث؛ وذلك - والله أعلم - لأنّ اليوم الآخر قد يُقَرَّرُ به بعض الناس مع عدم إقراره بالبعث الحقيقي للأجساد بعد الموت، كبعض الفلاسفة؛ حيث إنهم يؤمنون باليوم الآخر، ولكنهم لا يُقرون بالبعث الحقيقي الذي هو بعث الأجساد ونشرها؛ لأنهم يزعمون أن البعث والجزاء والحساب يكون على الأرواح فحسب، وأن الأجساد لا تُبعث مرة أخرى؛ لأنها قد بليت، فيجب الإيمان والتصديق الجازم بأن الله يبعث الناس من قبورهم أحياء يوم القيامة؛ ليجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، أو يعفو عنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى». اهـ.

(التعليقات الزكية على الواسطية) (ص 78).

براهين البعث أربعة:

الأول: خلق السماوات والأرض:

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُنَّ بِقَدْرِ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحاف: ٣٣]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدْرِ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١].

الثاني: خلق الإنسان أولاً:

قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ ٧٨ ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾

[يس: ٧٨ - ٧٩].

وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِن تَرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِّتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُم مَّن يُّنَوِّقُ وَمِنْكُم مَّن يُّرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].

وقال تعالى: ﴿أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥].

الثالث: إحياء الأرض بعد موتها:

قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩].

وقال تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ نُخْرِجُكُمْ﴾ [الروم: ١٩]، أي: من قبوركم أحياء بعد الموت.

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧].

وقال تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَلِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝٥﴾ ذَلِكَ يَأْنِ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿[الحج: ٥-٦].

الرابع: إحياء بعض الموتى في دار الدنيا:

لأنَّ مَنْ أَحْيَا نَفْسًا وَاحِدَةً بَعْدَ مَوْتِهَا قَادِرٌ عَلَى إحياء جميع النفوس: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [لقمان: ٢٨].

وقد ذكر جَلَّ وَعَلَا هذا البرهان في سورة البقرة، في خمسة مواضع:

الأول: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٦].

الثاني: قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٣].

الثالث: قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

الرابع: قوله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتُ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتُ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

الخامس: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ

إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ
 اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿البقرة: ٢٦٠﴾. اهـ. من «أضواء البيان» (3/ 203 - 204)
 بتصرف.

الركن السادس: الإيمان بالقدر خيره وشره.

سيأتي الكلام عليه مُفَصَّلًا إن شاء الله.



«ومن الإيمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه، وما وصفه به رسوله مُحَمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل».

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومن الإيمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه...»، إلخ. بعد ما ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ أصول الإيمان التي يجب الإيمان بها مجملَةً، شَرَعَ رَحِمَهُ اللَّهُ في تفصيلها، وبدأ بالأصل الأول وهو الإيمان بالله تعالى، وذكر أنه يدخل فيه الإيمان بما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من غير تحريف، ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل. وهذا هو ما دلَّ عليه الكتاب والسُّنة وإجماع السَّلف الصَّالح رضوان الله عليهم أجمعين.

وقد كان الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: «لا يُوصف الله إلا بما وصف به نفسه، أو بما وصفه به رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لا يُتجاوز القرآن والحديث». وقد ذكر شيخ الإسلام سبب قوله: من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل، دون أن يعبرَ بالفاظ أخرى.

فقال كما في «مجموع الفتاوى» (3/ 165): «وقد ذكرتُ أني عدلتُ عن لفظ التَّأْوِيل إلى لفظ التَّحْرِيف؛ لأن التَّحْرِيف اسمٌ جاء القرآن بِذَمِّهِ، وأنا تحريتُ في هذه العقيدة اتباع الكتاب والسنة، فنفيتُ ما ذمَّه الله من التَّحْرِيف، ولم أذكر فيها لفظ التَّأْوِيل بنفي ولا إثبات؛ لأنه لفظ له عدَّة معانٍ». اهـ.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ كما في «مجموع الفتاوى» (3/ 167): «قولي: من غير تكييف

ولا تمثيل: ينفي كل باطل، وإنما اخترت هذين الاسمين؛ لأن التَّكْيِيفَ ماثور
نفيه عن السلف، كما قال ربعة ومالك وابن عيينة وغيرهم - المقالة التي تلقّاها
العلماء بالقبول-: «الاستواء معلومٌ، والكيف مجهولٌ، والإيمان به واجبٌ،
والسؤال عنه بدعة».

فاتفق هؤلاء السلفُ على أن التَّكْيِيفَ غير معلوم لنا، فنفيت ذلك أتباعاً
لسلف الأمة.

وهو أيضاً منفيٌّ بالنص، فإن تأويل آيات الصفات يدخل فيها حقيقة
الموصوف وحقيقة صفاته، وهذا من التَّأْوِيل الذي لا يعلمه إلا الله، كما قد
قررتُ ذلك في قاعدة مفردة ذكرتها في التَّأْوِيل والمعنى، والفرق بين علمنا بمعنى
الكلام وبين علمنا بتأويله.

وكذلك التَّمْثِيل منفيٌّ بالنص والإجماع القديم، مع دلالة العقل على نفيه
ونفي التَّكْيِيف؛ إذ كُنْهُ الباري غير معلوم للبشر، وذكرت ضمن ذلك كلام
الخطابي الذي نقل أنه مذهب السلف، وهو إجراء آيات الصفات وأحاديث
الصفات على ظاهرها، مع نفي الكيفية والتشبيه عنه؛ إذ الكلام في الصفات فرع
عن الكلام في الذات، يُحتذى فيه حذوه، ويتبع فيه مثاله، فإذا كان إثبات الذات
إثبات وجود لا إثبات تكييف، فكذلك إثبات الصفات إثبات وجود لا إثبات
تكييف. اهـ.

وأما معاني هذه الكلمات تفصيلاً:

فالتَّحْرِيف معناه في اللغة التغير، وهو نوعان:

النوع الأول: تحريف لفظي كتحريف اليهود لكلمة (حِطَّة)، فقالوا:

(حِنْطَة)، وكقول القدرية: (من شر ما خلق) بتنوين كلمة (شر)، فيكون المعنى: من شر لم يخلقه الله، وكقول الجهمية: (وكلم الله موسى) بنصب لفظ الجلالة، فيكون موسى هو الذي كلم الله، وليس العكس، وتحريف اللفظ يستلزم تحريف المعنى دون العكس.

النوع الثاني: تحريف المعنى، كقول المعطلة في قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، قالوا: المعنى: (استولى).

وكقولهم في قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢]، قالوا: أمره، أو رحمته.

وكقوله تعالى: ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٢٧]، قالوا: المراد بالوجه: الثواب.

وكقوله تعالى: ﴿لَمَّا خَلَّطْتُ يَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]، قالوا: المراد باليد القدرة، أو القوة، وهكذا، وهذا هو الأكثر الذي عليه عمل أهل البدع والأهواء.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله في «الصواعق المرسلة» (١/ ٢١٥ - ٢١٨): «والتحريف: العدول بالكلام عن وجهه وصوابه إلى غيره، وهو نوعان: تحريف لفظه، وتحريف معناه:

والنوعان مأخوذان من الأصل عن اليهود، فهم الراسخون فيها، وهم شيوخ المحرّفين وسلفهم؛ فإنهم حرّفوا كثيراً من ألفاظ التوراة، ولما غلبوا عن تحريف لفظه حرّفوا معناه؛ ولهذا وُصفوا بالتحريف في القرآن دون غيرهم من الأمم، ودرج على آثارهم الرافضة، فهم أشبه بهم من القذة بالقذة، والجهمية؛ فإنهم سلكوا في تحريف النصوص الواردة في الصفات مسالك إخوانهم من اليهود،

ولمّا لم يتمكنوا من تحريف نصوص القرآن حرّفوا معانيه وسطّوا عليها، وفتحوا باب التّأويل لكلّ مُلحدٍ يكيد الدين، فإنه جاء فوجد باباً مفتوحاً وطريقاً مسلوّكاً، ولم يمكنهم أن يخرجوه من بابٍ أو يردوه من طريقٍ قد شاركوه فيها، وإن كان الملحد قد وسّع باباً هم فتحوه وطريقاً هم اشتقوه، فهما بمنزلة رجلين ائتمنا على مالٍ فتأول أحدهما وأكل منه ديناراً، وتأول الآخر وأكل منه عشرةً، فإذا أنكر عليه صاحبه قال: إن حلّ أكل الدينار بالتّأويل حلّ أكل العشرة به، ولا سيما إذا زعم أكل الدينار أن الذي ائتمنه إنما أراد منه التّأويل، وأن المتأول أعلم بمراده من المالك، فيقول له صاحبه: أنا أسعد منك، وأولى بأكل هذا المال.

والمقصود أن التّأويل يتجاذبه أصلان: التفسير، والتّحريف.

فتأويل التفسير هو الحق، وتأويل التّحريف هو الباطل.

فتأويل التّحريف من جنس الإلحاد؛ فإنه هو الميل بالنصوص عن ما هي عليه، إما بالطعن فيها أو بإخراجها عن حقائقها مع الإقرار بلفظها، وكذلك الإلحاد في أسماء الله يكون بجحد معانيها وحقائقها، وتارة يكون بإنكار المسمّى بها، وتارة يكون بالتشريك بينه وبين غيره فيها.

فالتّأويل الباطل هو إلحادٌ وتحريفٌ، وإن سماه أصحابه تحقيقاً وعرفاناً وتأويلاً.

فمن تأويل التّحريف والإلحاد تأويل الجهمية قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]، أي: جرح قلبه بالحكم والمعارف تجريحاً.

ومن تحريف اللفظ إعراب قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ﴾ من الرفع إلى النصب، وقال: (وكلم الله) أي: موسى كلم الله، ولم يكلمه الله، وهذا من جنس

تحريف اليهود، بل أقبح منه، واليهود في هذا الموضع أولى بالحق منهم.
ولما حَرَّفَهَا بعضُ الجهمية هذا التَّحْرِيفَ قال له بعضُ أهل التوحيد: فكيف
تصنعُ بقوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ [الأعراف: ١٤٣]؟! فبُهِتَ
المحرِّف.

ومن هذا أنَّ بعضَ الفرعونيَّة سأل بعضَ أئمة العربية هل يمكن أن يُقرأ
العرش بالرفع في قوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾؟ وقصد الفرعونيُّ بهذا
التَّحْرِيفَ أن يكون الاستواء صفة للمخلوق، لا للخالق.
ولو تيسَّر لهذا الفرعوني هذا التَّحْرِيفَ في هذا الموضع لم يتيسر له في سائر
الصفات». اهـ.

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في «شرح الواسطية» (68 - 71): «فأهل
السُّنَّة والجماعة إيمانهم خالٍ من التَّحْرِيفِ، يعني: تغيير اللفظ والمعنى.
وتغيير المعنى يسمِّيه القائلون به تأويلًا، ويسمُّون أنفسهم بأهل التَّأْوِيلِ؛
لأجل أن يَصْبِغُوا هذا الكلام صِبْغَةَ القبول؛ لأن التَّأْوِيلَ لا تنفر منه النفوس ولا
تكرهه، لكن ما ذهبوا إليه في الحقيقة تحريفٌ؛ لأنه ليس عليه دليل صحيح، إلا
أنهم لا يستطيعون أن يقولوا: تحريفًا، ولو قالوا: هذا تحريف لأعلنوا على
أنفسهم برفض كلامهم.

ولهذا عبر المؤلف رَحِمَهُ اللهُ بالتَّحْرِيفِ دون التَّأْوِيلِ، مع أن كثيرًا ممن
يتكلمون في هذا الباب يعبرون بنفي التَّأْوِيلِ، يقولون: من غير تأويل، لكن ما عَبَّرَ
به المؤلفُ أولى لوجوه أربعة:

الوجه الأول: أنه اللفظ الذي جاء به القرآن؛ فإن الله تعالى قال:

﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ [المائدة: ١٣]، والتعبير الذي عبّر به القرآن أولى من غيره؛ لأنه أدل على المعنى.

الوجه الثاني: أنه أدل على الحال، وأقرب إلى العدل؛ فالمؤول بغير دليل ليس من العدل أن نسميه مؤولاً، بل العدل أن نصفه بما يستحق، وهو أن يكون محرّفاً.

الوجه الثالث: أن التأويل بغير دليل باطل يجب البعد عنه والتنفير منه، واستعمال التحريف فيه أبلغ تنفيراً من التأويل، لأن التحريف لا يقبله أحد، لكن التأويل لين تقبله النفوس، وتستفصل عن معناه.

أما التحريف؛ بمجرد ما نقول: هذا تحريف ينفر الإنسان منه، إذا كان كذلك؛ فإن استعمال التحريف فيمن خالفوا طريق السلف أليق من استعمال التأويل.

الوجه الرابع: أن التأويل ليس مذموماً كله، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل»، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٧]، فامتدحهم بأنهم يعلمون التأويل.

والتأويل ليس كله مذموماً؛ لأن التأويل له معانٍ متعددة: يكون بمعنى التفسير، ويكون بمعنى العاقبة والمآل، ويكون بمعنى صرف اللفظ عن ظاهره.

(أ): يكون بمعنى التفسير: كثير من المفسرين عندما يفسرون الآية يقولون: تأويل قوله تعالى كذا وكذا، ثم يذكرون المعنى، وسمي التفسير تأويلاً؛ لأننا أولنا الكلام، أي: جعلناه يؤول إلى معناه المراد به.

(ب): تأويل بمعنى عاقبة الشيء: وهذا إن ورد في طلب فتأويله فعله إن

كان أمراً، وتركه إن كان نهياً، وإن ورد في خبر فتأويله وقوعه.

مثاله في الخبر قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٥٣]، فالمعنى: ما ينتظر هؤلاء إلا عاقبة ومآل ما أخبروا به يوم يأتي ذلك المخبر به، ﴿يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾.

ومنه قول يوسف لما خرَّ له أبواه وإخوته سُجَّدًا: ﴿هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ﴾ [يوسف: ١٠٠]، هذا وقوع رؤيائي؛ لأنه قال ذلك بعد أن سجدوا له.

ومثله في الطلب قول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ - في ركوعه وسجوده، بعد أن أنزل عليه قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ - يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ في ركوعه وسجوده: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ؛ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي»؛ يتأَوَّل القرآن»، أي: يعمل به.

(ج): المعنى الثالث للتأويل: صرف اللفظ عن ظاهره: وهذا النوع ينقسم إلى محمود ومذموم، فإن دلَّ عليه دليل فهو محمود النوع، ويكون من القسم الأول وهو التفسير وإن لم يدل عليه دليل فهو مذموم، ويكون من باب التَّحْرِيف وليس من باب التَّأْوِيل.

وهذا الثاني هو الذي درج عليه أهل التَّحْرِيف في صفات الله عَزَّوَجَلَّ، مثاله قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: 5]، ظاهر اللفظ أن الله تعالى استوى على العرش، أي: استقر عليه وعلا عليه، فإذا قال قائل: معنى (استوى): استولى على العرش، فنقول: هذا التَّأْوِيلُ عندك؛ لأنك صرفت اللفظ عن ظاهره، لكن هذا تحريفٌ في الحقيقة؛ لأنه ما دل عليه دليل، بل الدليل على خلافه، كما سيأتي إن شاء الله.

فأما قوله تعالى: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]، فمعنى (أتى أمر الله)، أي: سيأتي أمر الله، فهذا مخالف لظاهر اللفظ، لكن عليه دليل، وهو قوله تعالى: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾.

وكذلك قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨]، أي: إذا أردت أن تقرأ، وليس المعنى: إذا أكملت القراءة قل: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم؛ لأننا علمنا من السنة أن النبي - عليه الصلاة والسلام - إذا أراد أن يقرأ استعاذ بالله من الشيطان الرجيم، لا إذا أكمل القراءة؛ فالتأويل صحيح.

ولذلك قلنا: إن التعبير بالتَّخْرِيف عن التَّأْوِيل الذي ليس عليه دليل صحيح أولى؛ لأنه الذي جاء به القرآن، ولأنه ألصق بطريق المحرّف، ولأنه أشد تنفيراً عن هذه الطريقة المخالفة لطريق السلف، ولأن التَّخْرِيف كله مذموم بخلاف التَّأْوِيل؛ فإن منه ما يكون مذموماً ومحموداً، فيكون التعبير بالتَّخْرِيف أولى من التعبير بالتَّأْوِيل من أربعة أوجه. اهـ.

وأما التَّعْطِيل فهو في اللغة مأخوذ من العَطَل، وهو الخلو والفراغ.
والمعطلة هم نفاة الصفات.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ كَمَا فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى» (٥ / ٣٢٦):
«ولهذا كان السلف والأئمة يُسَمُّونَ نفاة الصفات: معطلة؛ لأن حقيقة قولهم تعطيل ذات الله تعالى، وإن كانوا هم قد لا يعلمون أن قولهم مستلزمٌ للتعطيل». اهـ.

قال العلامة ابن عثيمين رحمه الله تعالى في «شرح الواسطية» (ص ٧٢-٧٣):

«والمراد بالتَّعْطِيل: إنكار ما أثبت الله لنفسه من الأسماء والصفات، سواء كان كلياً أو جزئياً، وسواء كان ذلك بتحريف أو بجحود، هذا كله يسمى تعطيلًا. فأهل السُّنَّة والجَمَاعَة لا يعطِّلون أيَّ اسم من أسماء الله، أو أي صفة من صفاته، ولا يجحدونها، بل يقرون بها إقرارًا كاملاً.

فإن قلت: ما الفرق بين التَّعْطِيل والتَّحْرِيف؟

قلنا: التَّحْرِيف في الدليل، والتَّعْطِيل في المدلول فمثلاً:

إذا قال قائل: معنى قول تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]، أي: بل قوّتاه، هذا محرف للدليل ومعطّل للمراد الصحيح؛ لأن المراد اليد الحقيقية، فقد عطّل المعنى المراد، وأثبت معنى غير المراد.

وإذا قال: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ لا أدري، أفوض الأمر إلى الله، لا أثبت اليد الحقيقية ولا اليد المحرف إليها اللفظ، نقول: هذا معطّل، وليس بمحرّف؛ لأنه لم يغير معنى اللفظ ولم يفسّره بغير مراده، لكن عطّل معناه الذي يراد به، وهو إثبات اليد لله عزَّ وجلَّ.

أهل السُّنَّة والجَمَاعَة يتبرءون من الطريقتين:

الطريقة الأولى: التي هي تحريف اللفظ بتعطيل معناه الحقيقي المراد إلى معنى غير مراد.

والطريقة الثانية: هي طريقة أهل التفويض، فهم لا يفوضون المعنى كما يقول المفوضة، بل يقولون: نحن نقول: ﴿بَلْ يَدَاهُ﴾، أي: يدها الحقيقيتان ﴿مَبْسُوطَتَانِ﴾، وهما غير القوة والنعمة.

فعقيدة أهل السُّنَّة والجَمَاعَة بريئة من التَّحْرِيف ومن التَّعْطِيل. اهـ.

وقال العلامة السَّعْدِي رَحِمَهُ اللهُ فِي «التَّنبِيهَاتِ اللَّطِيفَةِ» (ص 17): «والفرق بين التَّحْرِيفِ والتَّعْطِيلِ:

أَنَّ التَّعْطِيلَ نَفْيٌ لِّلْمَعْنَى الْحَقِّ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ، وَالتَّحْرِيفُ: تَفْسِيرٌ لِلنُّصُوصِ بِالْمَعَانِي الْبَاطِلَةِ الَّتِي لَا تَدُلُّ عَلَيْهَا بِوَجْهِهِ مِنَ الْوُجُوهِ.

فَالْتَّحْرِيفُ وَالتَّعْطِيلُ قَدْ يَكُونَانِ مُتَلَازِمَيْنِ إِذَا أُثْبِتَ الْمَعْنَى الْبَاطِلُ وَنَفْيُ الْمَعْنَى الْحَقِّ، وَقَدْ يَوْجَدُ التَّعْطِيلُ بِلَا تَحْرِيفٍ كَمَا هُوَ قَوْلُ النَّافِيْنَ لِلصِّفَاتِ الَّتِي يَنْفَوْنَ الصِّفَاتِ الْوَارِدَةَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَيَقُولُونَ: ظَاهِرُهَا غَيْرُ مَرَادٍ وَلَكِنْهُمْ لَا يَعْنِيْنَ مَعْنًى آخَرَ، وَيَسْمُوْنَ أَنْفُسَهُمْ: مَفْوُضَةً، وَيُظَنُّونَ أَنَّ هَذَا مَذْهَبُ السُّلَفِ، وَهُوَ غُلَطٌ فَاحِشٌ؛ فَإِنَّ السُّلَفَ يَثْبُتُونَ الصِّفَاتِ، وَإِنَّمَا يَفْوُضُونَ عِلْمَ كَيْفِيَّتِهَا إِلَى اللَّهِ، فَيَقُولُونَ: الْوَصْفُ الْمَذْكُورُ مَعْلُومٌ، وَالْكَيفُ مَجْهُولٌ، وَالْإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ، وَإِثْبَاتُهُ وَاجِبٌ، وَالسُّؤَالُ عَنْ كَيْفِيَّتِهِ بَدْعَةٌ، كَمَا قَالَ الْإِمَامُ مَالِكٌ وَغَيْرُهُ فِي الْإِسْتِوَاءِ». اهـ.

وَقَوْلُهُ رَحِمَهُ اللهُ: «مَنْ غَيْرُ تَكْيِيفٍ».

قَالَ الْعَلَامَةُ ابْنُ عَثِيمٍ رَحِمَهُ اللهُ فِي «شَرْحِ الْوَاسِطِيَّةِ» (ص 77 - 78): «(تَكْيِيفٌ) لَمْ تَرُدْ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَلَكِنْ وَرَدَ مَا يَدُلُّ عَلَى النِّهْيِ عَنْهَا.

وَالْتَكْيِيفُ هُوَ أَنَّ تَذَكُّرَ كَيْفِيَّةِ الصِّفَةِ، وَلِهَذَا تَقُولُ: كَيْفَ يُكَيِّفُ تَكْيِيفًا، أَيْ: ذَكَرَ كَيْفِيَّةَ الصِّفَةِ.

التَّكْيِيفُ يُسْأَلُ عَنْهُ بِكَيْفٍ، فَإِذَا قُلْتَ مَثَلًا: كَيْفَ جَاءَ زَيْدٌ؟ تَقُولُ: رَاكِبًا.

إِذَا كَيْفَتْ مَجِيئُهُ. كَيْفَ لَوْنُ السَّيَّارَةِ. أَبْيَضَ، فَذَكَرْتَ اللَّوْنَ.

أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ لَا يَكْيِفُونَ صِفَاتِ اللَّهِ؛ مُسْتَنْدِينَ فِي ذَلِكَ إِلَى الدَّلِيلِ

السمعي، والدليل العقلي.

فأما الدليل السَّمعي: فمثل قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

فإذا جاء رجل وقال: إن الله استوى على العرش على هذه الكيفية، ووصف كيفية معينة، نقول: هذا قد قال على الله ما لا يعلم، هل أخبرك الله بأنه استوى على هذه الكيفية؟ لا، أخبرنا الله بأنه استوى، ولم يخبرنا كيف استوى، فنقول: هذا تكييف وقول على الله بغير علم.

ولهذا قال بعض السلف: إذا قال لك الجهمي: إن الله حين ينزل إلى السماء كيف ينزل؟

فقل: إن الله أخبرنا أنه ينزل، ولم يخبرنا كيف ينزل؟ وهذه قاعدة مفيدة.

دليل آخر من السَّمع: قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]: لا تتبع ما ليس لك به علم. ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾.

وأما الدليل العقلي: فكيفية الشيء لا تدرك إلا بواحد من أمور ثلاثة:

مشاهدته، أو مشاهدة نظيره، أو خبر الصادق عنه.

إما أن تكون شاهدته أنت وعرفت كيفيته، أو شاهدت نظيره، كما لو قال لك واحد: إن فلاناً اشترى سيارة (داتسون)، (موديل ثمان وثمانين)، رقم (ألفين)، فتعرف كيفيتها؛ لأن عندك مثلها.

أو خبر صادق عنه، أذاك رجل صادق وقال: إن سيارة فلان صفتها كذا وكذا، ووصفها تمامًا فتدرك الكيفية الآن.

ولهذا قال بعض العلماء جوابًا لطيفًا: إن معنى قولنا: «بدون تكييف» ليس معناه ألا نعتقد لها كيفية، بل نعتقد لها كيفية، لكن المنفي علمنا بالكيفية؛ لأن استواء الله على العرش لا شك أن له كيفيةً، لكن لا تُعلم؛ لأنه ما من موجود إلا وله كيفية، لكنها قد تكون معلومة، وقد تكون مجهولة.

سئل الإمام مالك رَحِمَهُ اللهُ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، كيف استوى؟ فأطرق برأسه حتى علاه العرق، ثم رفع رأسه وقال: «الاستواء غير مجهول»، أي: من حيث المعنى معلوم؛ لأن اللغة العربية بين أيدينا، كل المواضع التي وردت فيها «استوى» مُعَدَّاة بـ (على) معناه العلو، فقال: «الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول»؛ لأن العقل لا يدرك الكيف، فإذا انتفى الدليل السمعي والعقلي عن الكيفية وجب الكفُّ عنها.

«والإيمان به واجب»؛ لأن الله أخبرنا عن نفسه، فوجب تصديقه.

«والسؤال عنه بدعة» السؤال عن الكيفية بدعة؛ لأنَّ مَنْ هُمْ أَحْرَصُ مِنَّا عَلَى الْعِلْمِ مَا سَأَلُوا عَنْهَا، وَهَمُّ الصَّحَابَةِ، لَمَّا قَالَ اللَّهُ: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: 54]، عرفوا عظمة الله عَزَّوَجَلَّ، ومعنى الاستواء على العرش، وأنه لا يمكن أن تسأل: كيف استوى؟ لأنك لا تدرك ذلك، فنحن إذا سألنا فنقول: هذا السؤال بدعة.

وكلامُ مالكٍ رَحِمَهُ اللهُ مِيزَانٌ لِجَمِيعِ الصِّفَاتِ.

فإن قيل لك - مثلاً -: إن الله ينزل إلى السماء الدنيا كيف ينزل؟ فالنزل غير

مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة... إلى أن قال رَحِمَهُ اللهُ: «وهناك كلام للسلف يدلُّ على أنهم يفهمون معاني ما أنزل الله على رسوله من الصفات، كما نُقل عن الأوزاعي وغيره أنهم قالوا في آيات الصفات وأحاديثها: «أمرُّوها كما جاءت، بلا كيف» وهذا يدل على أنهم يثبتون لها معنى من وجهين:

أولاً: أنهم قالوا «أمرُّوها كما جاءت»، ومعلوم أنها ألفاظ جاءت لمعانٍ، ولم تأت عبثاً، فإذا أمررناها كما جاءت لزم من ذلك أن نثبت لها معنى.

ثانياً: قولهم «بلا كيف»؛ لأن نفي الكيفية يدل على وجود أصل المعنى؛ لأن نفي الكيفية عن شيء لا يوجد لغواً وعبثاً، إذا فهذا الكلام المشهور عند السلف يدل على أنهم يثبتون لهذا النصوص معنى». اهـ.

قلت: قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ - كما في «مختصر الصواعق» (ص 130): «قال ابن المَاجِشُون، والإمام أحمد، وغيرهم من السلف: «إنا لا نعلم كيفية ما أخبر الله عن نفسه، وإن كنا نعلم تفسيره ومعناه». اهـ.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: «ولا تمثيل»:

التَّمثِيل: هو ذكر مماثل للشيء، وليس التَّمثِيل هو التشبيه.

قال شيخ الإسلام كما في «مجموع الفتاوى» (6/ 113): «كذلك لفظ التشابه ليس هو التَّمَاثُل في اللغة». اهـ.

وقال رحمه الله تعالى كما في «مجموع الفتاوى» (3/ 166): «ذكرت في النفي التَّمثِيل، ولم أذكر التشبيه؛ لأن التَّمثِيل نفاه الله بنص كتابه، حيث قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وقال: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾

[مريم: ٦٥]، وكان أحب إليَّ من لفظٍ ليس في كتاب الله، ولا في سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإن كان قد يُعنى بنفيه معنًى صحيحًى، كما قد يُعنى به معنًى فاسدٌ». اهـ.

فتحصّل مما سبق أن التعبير بنفي التّمثيل أولى من التعبير بنفي التشبيه لوجوه:

- 1- أن التّمثيل لا يرادف التشبيه في لغة العرب.
- 2- أن المنفي في القرآن هو التّمثيل دون التشبيه.
- 3- أن من نفى التشبيه قد يريد بكلامه معنًى صحيحًا، وقد يريد به معنًى باطلاً.

وقال شيخ الإسلام كما في «مجموع الفتاوى» (3/ 167): «وكذلك التّمثيل منفيٌّ بالنص والإجماع القديم، مع دلالة العقل على نفيه ونفي التّكْيِيف؛ إذ كُنْهُ الباري غير معلوم للبشر». اهـ.

وقال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ في «شرح العقيدة الواسطية» (ص 81): «فأهل السُّنَّة يتبرّؤون من تمثيل الله عَزَّوَجَلَّ بخلقه، لا في ذاته، ولا في صفاته.

والتّمثيل ذكر مماثل للشيء، وبينه وبين التّكْيِيف عموم وخصوص مطلق؛ لأنَّ كُلَّ مُمَثِّلٍ مُكْيِّفٌ، وليس كُلُّ مُكْيِّفٍ مُمَثِّلًا؛ لأنَّ التّكْيِيف ذكر كيفية غير مقرونة بمماثل، مثل أن تقول: لي قلمٌ كيفيته كذا وكذا، فإن قرنت بمماثل صار تمثيلًا، مثل أن أقول: هذا القلم مثل هذا القلم؛ لأنني ذكرت شيئًا مماثلًا لشيء، وعرفت هذا القلم بذكر مماثله.

وأهل السُّنَّة والجَمَاعَة يثبتون لله عَزَّوَجَلَّ الصفات بدون مماثلة، يقولون: إن

الله عَزَّوَجَلَّ له حياة، وليست مثل حياتنا، وله علم وليس مثل علمنا، له بصرٌ ليس مثل بصرنا، له وجهٌ ليس مثل وجوهنا، له يدٌ وليست مثل أيدينا، وهكذا جميع الصفات يقولون:

إن الله عَزَّوَجَلَّ لا يماثل خلقه فيما وصف به نفسه أبدًا، ولهم على ذلك أدلة سمعية وأدلة عقلية.

(أ): الأدلة السمعية: تنقسم إلى قسمين: خبر وطلب.

فمن الخبر قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، فالآية فيها نفي صريح للتمثيل، وقوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾، فإن هذا وإن كان إنشاءً لكنه بمعنى الخبر؛ لأنه استفهامٌ بمعنى النفي وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤]، فهذه كلها تدل على نفي المماثلة، وهي كلها خبرية.

وأما الطلب، فقال تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ [البقرة: ٢٢]، أي: نظراء مماثلين، وقال: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤]، فمن مثل الله بخلقه فقد كذب الخبر وعصى الأمر؛ ولهذا أطلق بعض السلف القول بالتكفير لمن مثل الله بخلقه، فقال نعيم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري رَحِمَهُ اللهُ: «مَنْ شَبَّهَ اللهُ بِخَلْقِهِ فَقَدْ كَفَرَ».

لأنه جمَعَ بين التَّكْذِيبِ بالخبر وعِصْيَانِ الطَّلَبِ.

وأما الأدلة العقلية على انتفاء التماثل بين الخالق والمخلوق فمن وجوه:

أولاً: أن نقول: لا يمكن التماثل بين الخالق والمخلوق بأيِّ حالٍ من الأحوال، لو لم يكن بينهما من التباين إلا أصل الوجود لكان كافياً، وذلك أن وجود الخالق واجبٌ، فهو أزلي أبدي، ووجود المخلوق ممكنٌ مسبوقٌ بَعْدَمِ،

ويلحقه فناءً، فما كان كذلك لا يمكن أن يقال: إنهما متماثلان.

ثانيًا: أنا نجد التباينَ العظيمَ بين الخالقِ والمخلوقِ في صفاته وأفعاله. من صفاته عَزَّجَلَّ: أنه يسمعُ كُلَّ صوتٍ مهما خفي ومهما بُعدَ، ولو كان في قعر البحار لسمعَه عَزَّجَلَّ.

وأنزل الله قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ نَحْوَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١].

تقول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «الحمد لله الذي وَسَّعَ سَمْعُهُ الأصوات؛ إني لفي الحُجْرَةِ، وإنه ليخفي عليَّ بعضُ حديثها».

والله تعالى سَمِعَهَا مِنْ على عرشه، وبينه وبينها ما لا يعلم مداه إلا الله عَزَّجَلَّ، ولا يمكن أن يقول قائل: إن سَمَعَ الله مِثْلَ سَمْعِنَا.

ثالثًا: نقول: نحن نعلم أن الله تعالى مُبَايِنٌ للخلقِ بذاته ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ﴾ [الزمر: ٦٧]، ولا يمكن لأحدٍ من الخلق أن يكون هكذا، فإذا كان مباینًا للخلق في ذاته، فالصفات تابعةٌ للذات، فيكون أيضًا مباینًا للخلق في صفاته عَزَّجَلَّ، ولا يمكن التماثل بين الخالق والمخلوق.

رابعًا: إننا نشاهد في المخلوقات أشياء تَتَّفَقُ في الأسماء، وتختلفُ في المُسَمَّياتِ، يختلف الناسُ في صفاتهم؛ هذا قويُّ البصر، وهذا ضعيفُه، وهذا قويُّ السمع، وهذا ضعيفُه، هذا قويُّ البدن، وهذا ضعيفُه، وهذا ذَكَرٌ، وهذا أنثى.

وهكذا التباين في المخلوقات التي من جنس واحد، فما بالك بالمخلوقات

المختلفة الأجناس، فالتباين بينها أظهر، ولهذا لا يمكن لأحد أن يقول: إن لي يداً كيدَ الجمل، أو إن لي يداً كيدَ الذرّة، أو إن لي يداً كيدَ الهرّ، فعندنا الآن إنسان وجمل وذرّة وهرّ، وكل واحد له يد مختلفة عن الثاني، مع أنها متفقة في الاسم.

فنقول: إذا جاز التفاوت بين المسمّيات في المخلوقات مع اتفاق الاسم فجوازه بين الخالق والمخلوق ليس جائزاً فقط، بل واجب، فعندنا أربعة وجوه عقلية، كلها تدل على أن الخالق لا يمكن أن يماثل المخلوق بأي حال من الأحوال.

ربما نقول أيضاً: هناك دليل فطري، وذلك لأن الإنسان بفطرته بدون أن يُلقّن يعرف الفرق بين الخالق والمخلوق، ولولا هذه الفطرة ما ذهب يدعو الخالق.

فتبين أن التمثيل متنفّ سمعاً وعقلاً وفطرةً. اهـ.

وأختم هذا بكلام عظيم لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ في «منهاج السنة» (2/ 111) حيث قال: «ومذهب سلف الأمة وأئمتها أن يوصف الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله، من غير تحريفٍ ولا تعطيلٍ ومن غير تكييفٍ ولا تمثيلٍ، يثبتون لله ما أثبتته من الصفات، وينفون عنه مماثلة المخلوقات، يثبتون له صفات الكمال، وينفون عنه ضروب الأمثال، وينزهونه عن النقص والتعطيل، وعن التشبيه والتمثيل، إثبات بلا تشبيه، وتنزيه بلا تعطيل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾: ردُّ على المُمَثِّلَةِ، ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾: ردُّ على المُعْطَلَةِ». اهـ.



«بل يؤمنون بأن الله ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير، فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه، ولا يحرفون الكلم عن مواضعه».

لما بين شيخ الإسلام أن من الإيمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم، من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل، بين أن أهل السنة والجماعة يؤمنون بذلك، فيثبتون تلك الصفات بلا تكييف أو تمثيل، وينزهون الله عن النقائص والعيوب دون تحريف أو تعطيل، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، فالآية رد على الممثلة والمعطلة معاً، وحجة دامغة لأهل السنة عليهم.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله كما في «مختصر الصواعق» (ص 159): «قوله سبحانه وتعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾؛ فإنه سبحانه ذكر ذلك عقب ذكر نعوت كماله وأوصافه، فقال: ﴿حَمْدٌ ۝١ عَسَقَ ۝٢﴾ كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٣ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ۝٤ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِنْ أَلَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝٥ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ۝٦ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِنُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَنُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَبَّ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ۝٧ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝٨ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَإِنَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٩ وَمَا أَخْلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي

عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنْ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ [الشورى: ١ - ١١].

فهذا الموصوف بهذه الصفات والأفعال، والعلو والعظمة، والحفظ والعزة والحكمة والملك والحمد والمغفرة والرحمة، والكلام والمشية والولاية، وإحياء الموتى، والقدرة التامة الشاملة والحكم بين عباده، وكونه فاطر السموات والأرض وهو السميع البصير.

فهذا الذي ليس كمثله شيء لكثرة نُعُوتِهِ وأوصافِهِ وأسمائِهِ وأفعَالِهِ وثبوتها على وجه الكمال لا يماثله فيه شيء.

فالمثبت لصفات كماله هو الذي يصفه أنه ليس كمثله شيء.

وأما الْمُعْطَلُ النَّافِي لصفاته وحقائق أسمائه، فإن وصفه بأنه ليس كمثله شيء مَجَازٌ لا حقيقة له، كما يقول في سائر صفاته وأسمائه. اهـ.

وقول المصنّف رَحْمَةُ اللَّهِ: «فَلَا يَنْفُونَ عَنْهُ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ».

أي: أنهم مع إيمانهم بأن الله ليس كمثله شيء، فلا يحملهم ذلك على نفي صفات الله؛ لأنهم يؤمنون بالكتاب كله، فالذي قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ هو القائل: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وهو الذي أثبت لنفسه صفات الكمال ونعوت الجلال الدالة على عظمته وجماله وجلاله، فَأَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ يثبتون لله ما أثبتته لنفسه دون تكييف أو تمثيل، بل على الوجه اللائق به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وقوله رَحْمَةُ اللَّهِ: «وَلَا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ».

سبق الكلام على هذا، وأنقل هنا كلاماً نفيساً للعلامة ابن القيم رَحْمَةُ اللَّهِ يُؤَيِّدُ

ما سبق ويوضحه.

قال رَحِمَهُ اللهُ كما في «مختصر الصواعق» (366-367): «والتَّحْرِيف نوعان: تحريف اللفظ، وتحريف المعنى، فتحريف اللفظ: العدول به عن جهته إلى غيرها إما: بزيادة، وإما بنقصان، وإما بتغيير حركة إعرابية، وإما غير إعرابية، فهذه أربعة أنواع.

وقد سلك الجهمية والرافضة فيها، فإنهم حرّفوا نصوص الحديث، ولم يتمكنوا من ذلك في ألفاظ القرآن، وإن كان الرافضة حرّفوا كثيراً من لفظه، وادّعوا أن أهل السُّنَّة غيَّروه عن وجهه.

وأما تحريف المعنى فهذا الذي جالوا فيه وصالوا وتوسّعوا، وسَمَوْهُ تأويلًا، وهو اصطلاح فاسد حادث، لم يُعهد به استعمالٌ في اللغة، وهو العدول بالمعنى عن وجهه وحقيقته وإعطاء اللفظ معنى لفظٍ آخر، بقدر مشترك بينهما.

وأصحاب تحريف الألفاظ شرٌّ من هؤلاء من وجهٍ، وهؤلاء شرٌّ من وجهٍ. فإن أولئك عدلوا باللفظ والمعنى جميعًا عمّا هما عليه؛ فأفسدوا اللفظ والمعنى.

وهؤلاء أفسدوا المعنى، وتركوا اللفظ على حاله، فكانوا خيرًا من أولئك من هذا الوجه، ولكن أولئك لما أرادوا المعنى الباطل حرّفوا له لفظًا يصلح له؛ لئلا يتنافر اللفظ والمعنى، بحيث إذا أُطلق ذلك اللفظ المحرّف فهم منه المعنى المحرّف، فإنهم رأوا أن العدول بالمعنى عن وجهه وحقيقته مع بقاء اللفظ على حاله مما لا سبيل إليه، فبدءوا بتحريف اللفظ؛ ليستقيم لهم حكمهم على المعنى الذي قصدوا». اهـ.

«ولا يُلحدون في أسمائه وآياته».

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: «ولا يُلحدون في أسمائه وآياته».

أفاد كلامه رَحْمَةُ اللَّهِ أن أهل السُّنَّة والجَمَاعَةِ لكمال إيمانهم بالله وأسمائه وآياته أنهم لا يُلحدون فيها.

فالإلحاد: إمَّا أن يكون في أسماء الله، وإمَّا في آياته؛ قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخَفُونَ عَلَيْنَا﴾ [فصلت: ٤٠].

أما الإلحاد في أسماء الله، فقد قال عنه العلامة ابن القيم في «بدائع الفوائد» (1/ 196 - 197): «قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، والإلحاد في أسمائه: هو العدولُ بها وبحقائقها ومعانيها عن الحقِّ الثابت لها، وهو مأخوذٌ من الميل، كما يدل عليه مادته (ل ح د).

فمنه اللَّحْدُ: وهو الشُّقُّ في جانب القبر الذي قد مَالَ عن الوَسَطِ.

ومنه الْمُلْحِدُ في الدين: المائلُ عن الحقِّ إلى الباطل.

قال ابن السَّكَيْت: الْمُلْحِدُ: المائلُ عن الحقِّ، المُدْخِلُ فيه ما ليس منه.

ومنه الْمُلتَحِدُ، وهو مُفْتَعَلٌ من ذلك، وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ [الكهف: 27]، أي: مَنْ تَعَدَّلَ إِلَيْهِ، وَتَهَرَّبَ إِلَيْهِ، وَتَلْتَجَى إِلَيْهِ، وَتَبْتَهِلُ إِلَيْهِ، فَتَمِيلُ إِلَيْهِ عَنْ غَيْرِهِ.

تقول العرب: التَّحَدَّ فلانٌ إلى فلانٍ إذا عدل إليه.

إذا عُرِفَ هذا، فالإلحاد في أسماء الله أنواع:

أحدها: أن يُسمِّي الأصنامَ بها، كتسميتهم اللات من الإله، والعزَّى من العزيز، وتسميتهم الصنم إلهاً، وهذا إلحادٌ حقيقة؛ لأنهم عدلوا بأسمائه إلى أوثانهم وآلهتهم الباطلة.

الثاني: تسميته بما لا يليق بجلاله، كتسمية النصارى له أباً، وتسمية الفلاسفة له موجباً بذاته، أو علّة فاعلة بالطبع، ونحو ذلك.

ثالثها: وصفه بما يتعالى عنه، ويتقدّس من النقائص، كقول أخبث اليهود: إنه فقير، وقولهم: إنه استراح بعد أن خلق خلقه، وقولهم: يدُ الله مغلولة، وأمثال ذلك مما هو إلحاد في أسمائه وصفاته.

رابعها: تعطيل الأسماء عن معانيها، وجحد حقائقها، كقول من يقول من الجهميّة وأتباعهم: إنها ألفاظ مجردة، لا تتضمن صفات ولا معاني، فيطلقون عليه اسم السميع والبصير والحي والرحيم والمتكلم والمريد، ويقولون: لا حياة ولا سمع ولا بصر ولا كلام ولا إرادة تقوم به، وهذا من أعظم الإلحاد فيها عقلاً وشرعاً ولغةً وفطرةً، وهو يقابل إلحاد المشركين؛ فإن أولئك أعطوا أسماءه وصفاته لآلهتهم، وهؤلاء سلبوه صفات كماله وجحدوها وعطلوها، فكلاهما ملحدٌ في أسمائه، ثم الجهمية وفُرُوحُهُم متفاوتون في هذا الإلحاد؛ فمنهم الغالي والمتوسط والمنكوب، وكل من جحد شيئاً مما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله فقد ألحد في ذلك، فليستقل أو ليستكثر.

خامسها: تشبيه صفاته بصفات خلقه تعالى عما يقول المشبهون علواً

كبيراً.

فهذا الإلحاد في مقابل إلحاد المعطلة، فإن أولئك نفوا صفة كماله وجحدوها، وهؤلاء شبّهوها بصفات خلقه، فجمعهم الإلحاد وتفرقت بهم طُرُقُهُ، وبرّاً الله أتباع رسوله وورثته القائمين بسنته عن ذلك كله، فلم يصفوه إلا بما وصف به نفسه، ولم يجحدوا صفاته، ولم يشبّهوها بصفات خلقه، ولم يعدلوا بها عما أنزلت عليه لفظاً ولا معنى، بل أثبتوا له الأسماء والصفات، ونفوا عنه مشابهة المخلوقات، فكان إثباتهم بريئاً من التشبيه، وتنزيهاً خالياً من التّعطيل، لا كمن شبّه حتى كأنه يعبد صنماً، أو عطّل كأنه لا يعبد إلا عدماً». اهـ.

وأما القسم الثاني من الإلحاد فهو الإلحاد في آياته:

فقد قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في شرح الواسطية (ص 100 - 103):
«وأما الإلحاد في آيات الله تعالى فالآيات جمع آية، وهي العلامة المميّزة للشيء عن غيره، والله عَزَّوَجَلَّ بعث الرسل بالآيات، لا بالمعجزات؛ لهذا كان التعبير بالآيات أحسن من التعبير بالمعجزات:

أولاً: لأن الآيات هي التي يعبر بها في الكتاب والسنة.

ثانياً: أن المعجزات قد تقع من ساحرٍ ومشعوذٍ وما أشبه ذلك، تعجز غيره.
ثالثاً: أن كلمة (آيات) أدلُّ على المعنى المقصود من كلمة معجزات، فالآيات هي العلامات الدالة على الله عَزَّوَجَلَّ، وحينئذ تكون خاصّة به، ولولا أنها خاصة ما صارت آيةً له.

وآيات الله عَزَّوَجَلَّ تنقسم إلى قسمين: آيات كونية، وآيات شرعية:

فالآيات الكونية: ما يتعلق بالخلق والتكوين، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنْ

ءَايَتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴿فصلت: ٣٧﴾، وقال: ﴿وَمِنْ ءَايَتِهِ ۚ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْشُرُونَ﴾ [الروم: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَتِهِ ۚ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ (٢٣) وَمِنْ ءَايَتِهِ ۚ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْجِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (٢٤) وَمِنْ ءَايَتِهِ ۚ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: ٢٣-٢٥]، فهذه آيات كونيّة، وإن شئت فقل: كونيّة قدريّة، وكانت آية الله؛ لأنه لا يستطيع الخلق أن يفعلوها، فمثلاً:

لا يستطيع أحد أن يخلق مثل الشمس والقمر، ولا يستطيع أن يأتي بالليل إذا جاء النهار، ولا بالنهار إذا جاء الليل، فهذه الآيات كونيّة.

والإلحاد فيها: أن ينسبها إلى غير الله استقلالاً، أو مشاركة، أو إعانة، فيقول: هذا من الولي الفلاني، أو من النبي الفلاني، أو شارك فيه النبي الفلاني، أو الولي الفلاني، أو أعان الله فيه، قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: ٢٢].

فنفي كل شيء يتعلق به المشركون بكون معبوداتهم لا تملك شيئاً في السموات والأرض استقلالاً أو مشاركة ولا معينة لله عَزَّجَلَّ، ثم جاء بالربع: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٣]، لما كان المشركون قد يقولون: نعم هذه الأصنام لا تملك ولا تشارك، ولم تعاون، لكنها شفعاء؛ قال:

﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٣]، فَقَطَعَ كُلَّ سَبَبٍ يَتَعَلَّقُ بِهِ الْمُشْرِكُونَ.

القسم الثاني من الآيات: الآيات الشرعية:

وهي ما جاءت به الرُّسل من الوحي؛ كالقرآن العظيم، وهو آيات؛ لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٢]، ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥٠-٥١]، فجعله آياتٍ.

ويكون الإلحاد فيها إما بتكذيبها، أو تحريفها، أو مخالفتها، فتكذيبها أن يقول: ليست من عند الله، فيكذب بها أصلاً، أو يكذب بما جاء فيها من الخبر مع تصديقه بالأصل، فيقول مثلاً: قصة أصحاب الكهف ليست صحيحة، وقصة أصحاب الفيل ليست صحيحة، والله لم يرسل عليهم طيراً أبابيل.

وأما التَّحْرِيفُ: فهو تغيير لفظها أو صرف معناها عما أراد الله بها ورسوله، مثل أن يقول: الله استوى على العرش، أي: استولى، أو ينزل إلى السماء الدنيا، أي: ينزل أمره.

وأما مخالفتها: فبترك الأوامر أو فعل النواهي.

قال تعالى - في المسجد الحرام -: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَامِ يُظْلَمِ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥]؛ فكلُّ المعاصي إلحادٌ في الآيات الشرعية؛ لأنه خروجٌ بها عما يجب لها؛ إذ الواجب علينا أن نمثل الأوامر، وأن نجتنب النواهي؛ فإن لم نقم بذلك فهذا إلحادٌ. اهـ.

«ولا يُكَيَّفُونَ، ولا يُمَثِّلُونَ صفاته بصفات خلقه».

قول المصنّف رَحْمَةُ اللَّهِ: «ولا يَكَيِّفُونَ، ولا يُمَثِّلُونَ صفاته بصفات خلقه».

قد سبق الكلام على التَّكْيِيفِ والتَّمْثِيلِ، إلا أني أورد هنا كلامًا لشيخ الإسلام ابن تيمية له صلة بهذا، حيث قال كما في «مجموع الفتاوى» (3/ 48-49): «كثيرٌ من الناس يتوهم في بعض الصفات أو كثير منها أو أكثرها أو كلها أنها تماثل صفات المخلوقين، ثم يريد أن ينفي ذلك الذي فهمه، فيقع في أربعة محاذير:

أحدها: كونه مَثَلٌ ما فَهَمَهُ مِنَ النُّصُوصِ بصفات المخلوقين، وظن أن مدلول النصوص هو التَّمْثِيلُ.

الثاني: أنه إذا جعل ذلك هو مفهومها وعَطَّلَهُ، بقيت النصوص معطَّلة عما دَلَّت عليه من إثبات الصفات اللائقة بالله، فيبقى مع جنايته على النصوص وظنه السيئ الذي ظنَّه بالله ورسوله - حيث ظنَّ أن الذي يُفهم من كلامهما هو التَّمْثِيلُ الباطل - قد عَطَّلَ ما أودع الله ورسوله في كلامهما من إثبات الصفات لله والمعاني الإلهية اللائقة بجلال الله تعالى.

الثالث: أنه ينفي تلك الصفات عن الله عَزَّوَجَلَّ بغير علم، فيكون معطَّلًا لما يستحقه الرب.

الرابع: أنه يصف الربَّ بنقيض تلك الصفات من صفات الأموات، والجمادات، أو صفات المعدومات، فيكون قد عَطَّلَ النُّصُوصَ عما دلت عليه من الصفات، وجعل مدلولها هو التَّمْثِيلُ بالمخلوقات، فيجمع في كلام الله وفي

الله بين التَّعْطِيلِ والتَّمْثِيلِ، فيكون ملحدًا في أسماء الله وآياته.

مثال ذلك: أن النصوص كلها دلت على وصف الإله بالعُلُوِّ والفَوْقِيَّةِ على المخلوقات واستوائه على العرش، فأما عُلُوُّهُ ومبايئته للمخلوق فيُعلم بالعقل الموافق للسمع، وأما الاستواء على العرش فطريق العلم به هو السَّمْع، وليس في الكتاب والسنة وصفٌ بأنه لا داخل العالم ولا خارجه، ولا مباينه ولا مداخله، فيظن المتوهم أنه إذا وصف الله بالاستواء على العرش كان استواؤه كاستواء الإنسان على ظهر الفُلك والأنعام، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ أَفْئَكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ۚ لِّسْتَبْرُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ﴾ [الزخرف: ١٢-١٣].

فيتخيّل له أنه إذا كان مستويًا على العرش كان محتاجًا إليه كحاجة المستوي على الفلك والأنعام، فلو غرقت السفينة لسقط المستوي عليها، ولو عثرت الدّابة لخرّ المستوي عليها، فقياس هذا أنه لو عدم العرش لسقط الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ثم يريد بزعمه أن ينفي هذا فيقول: ليس استواؤه بقعود ولا استقرار، ولا يعلم أن مسمّى القعود والاستقرار يقال فيه ما يقال في مسمّى الاستواء، فإن كانت الحاجة داخلية في ذلك فلا فرق بين الاستواء والقعود والاستقرار، وليس هو بهذا المعنى مستويًا ولا مستقرًا ولا قاعدًا، وإن لم يدخل في مسمى ذلك إلا ما يدخل في مسمّى الاستواء فإثبات أحدهما ونفي الآخر تحكّم.

وقد علّم أن بين مسمّى الاستواء والاستقرار والقعود فروقًا معروفة.

ولكن المقصود هنا أن يُعلّم خطأ من ينفي الشيء مع إثبات نظيره، وكأن هذا الخطأ من خطئه في مفهوم استوائه على العرش، حيث ظن أنه مثل استواء الإنسان على ظهور الأنعام والفُلك، وليس في هذا اللفظ ما يدل على ذلك؛ لأنه

أضاف الاستواء إلى نفسه الكريمة، كما أضاف إليه سائر أفعاله وصفاته.
فذكر أنه خَلَقَ ثم استوى، كما ذكر أنه قَدَّرَ فَهَدَى، وأنه بنى السماء بأيدي،
وكما ذكر أنه مع موسى وهارون يسمع ويرى، وأمثال ذلك.

فلم يذكر استواءً مطلقاً يصلح للمخلوق، ولا عامًّا يتناول المخلوق، كما لم
يذكر مثل ذلك في سائر صفاته، وإنما ذكر استواءً أضافه إلى نفسه الكريمة.
فلو قُدِّرَ على وجه الفرض الممتنع أنه مثل خلقه - تعالى عن ذلك - لكان
استواؤه مثل استواء خلقه.

أما إذا كان هو ليس مماثلاً لخلقه، بل قد علم أنه الغني عن الخلق، وأنه
الخالق للعرش ولغيره، وأن كل ما سواه مفتقر إليه، وهو الغني عن كل ما سواه،
وهو لم يذكر إلا استواءً يخصه، ولم يذكر استواءً يتناول غيره ولا يصلح له، كما
لم يذكر في علمه وقدرته ورؤيته وسمعه وخلقه إلا ما يختص به، فكيف يجوز أن
يَتَوَهَّم أنه إذا كان مستويًا على العرش كان محتاجًا إليه، وأنه لو سقط العرش
لخَرَّ مَنْ عليه؟! سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُ الظالمون والجاحدون علوًّا كبيرًا.

هل هذا إلا جهلٌ محضٌ وضلالٌ مِمَّنْ فَهِمَ ذلك وتوهمه، أو ظنَّ ظاهرَ
اللفظِ ومدلوله، أو جَوَّزَ ذلك على رب العالمين الغني عن الخلق؟

بل لو قُدِّرَ أن جاهلاً فَهِمَ مِثْلَ هذا، أو توهمه، لُبَيِّنَ له أن هذا لا يجوز، وأنه
لم يدل اللفظ عليه أصلاً، كما لم يدل على نظائره في سائر ما وصف الرب به
نفسه». اهـ.



«لأنه- سبحانه- لا سَمِيَّ له، ولا كُفَّ له، ولا نِدَّ له».

قول المصنِّف رَحْمَةُ اللَّهِ: «لأنه- سبحانه- لا سَمِيَّ له، ولا كُفَّ له، ولا نِدَّ له».

هذا تعليل لما سبق من قوله: إِنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ «لَا يُكَيِّفُونَ وَلَا يُمَثِّلُونَ صِفَاتِهِ بِصِفَاتِ خَلْقِهِ».

«سبحانه»، (سبحان): اسم مصدر، والمصدر تسبيح.
ومعنى تسبيح الله: تَنَزِيهِهِ عَنِ النَّقَائِصِ وَالْعُيُوبِ فِي ذَاتِهِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ.

«لا سَمِيَّ له»؛ قال العلامة محمد بن إبراهيم - كما في تقريراته على العقيدة الواسطية (ص 30): «المعنى: لا يُسَامِيهِ أَحَدٌ، أو لا يستحق مثل اسمه، وكلا المعنيين راجع إلى الآخر؛ لكون اسمه تعالى دالاً على الكمال، والخلق - وإن كان لهم نوع كمال - فإن الله هو الذي أكسبهم إياه». اهـ.

وكلمة «سَمِيَّ» نكرة في سياق النفي، فتفيد العموم، فليس لله سَمِيَّ مطلقاً، قال تعالى: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، وسَمِيَّ نكرة في سياق الاستفهام، فتفيد العموم، والاستفهام هنا بمعنى النفي.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: «ولا كُفَّ له».

الكفء: المكافئ المماثل، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقُولُ عَنْ نَفْسِهِ: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤]، وذلك لعظمته وكماله وجلاله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

﴿كُفُوا﴾: نكرة في سياق النفي، فتفيد العموم.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولا ندَّ له».

والنَّدُّ: هو النظير، قال تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

[البقرة: ٢٢]، والسَّمِّيُّ والكُفَاءُ والنَّدُّ متقاربة من حيث المعنى.



«ولا يُقاس بخلقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ فإنه سبحانه أَعْلَمُ بِنَفْسِهِ وبغيره، وأصدق قِيلاً، وَأَحْسَنُ حديثًا من خلقه».

قول المصنف رَحِمَهُ اللهُ: «ولا يقاس بخلقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى».

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في «شرح الواسطية» (ص 105-106):

«القياس ينقسم إلى ثلاثة أقسام: قياس شمول، وقياس تمثيل، وقياس أولوية.

فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يقاس بخلقه لا قياس تمثيل ولا قياس شمول:

1- قياس الشمول: هو ما يُعرف بالعام الشامل لجميع أفرادهِ، بحيث يكون كل فردٍ منه داخلًا في مسمى ذلك اللفظ ومعناه، فمثلاً إذا قلنا: الحياة؛ فإنه لا تقاس حياة الله بحياة الخلق؛ من أجل أن الكلَّ يشملُه اسمُ (حي).

2- وقياس التَّمثِيل: هو أن يلحق الشيء بمثيله، فيجعل ما ثبت للخالق مثل ما ثبت للمخلوق.

3- وقياس الأولوية: هو أن يكون الفرعُ أولى بالحكم من الأصل؛ وهذا يقول العلماء: إنه مُسْتَعْمَلٌ في حق الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ [النحل: ٦٠]، بمعنى: كل صفة كمال؛ فَلِلَّهِ تعالى أعلاها، والسمع والعلم والقدرة والحياة والحكمة وما أشبهها موجودة في المخلوق، لكن الله أعلاها وأكملها.

ولهذا- أحياناً- نستدل بالدلالة العقلية من زاوية القياس بالأولى، فمثلاً:

نقول: العلو صفة كمال في المخلوق، فإذا كانت صفة كمال في المخلوق فهي في الخالق من باب أولى، وهذا- دائماً- نجده في كلام العلماء.

فقول المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: «ولا يُقاس بِخَلْقِهِ» بعد قوله: «لا سَمِيَّ ولا كُفَّءَ له ولا نِدَّ لَهُ» يعني: القياس المقتضي للمساواة، وهو قياس الشُّمول، وقياس

التَّمثِيلُ.

إذا؛ يمتنع القياس بين الله وبين الخلق للتباين بينهما، وإذا كنا في الأحكام لا نقيس الواجب على الجائز أو الجائز على الواجب، ففي باب الصفات بين الخالق والمخلوق من باب أولى.

لو قال لك قائل: الله موجود، والإنسان موجود، ووجود الله كوجود الإنسان بالقياس.

فنقول: لا يصح؛ لأن وجود الخالق واجب، ووجود الإنسان ممكن.

فلو قال: أقيسُ سَمْعَ الخالق على سَمْعِ المخلوق.

نقول: لا يمكن؛ سَمْعُ الخالق واجبٌ له، لا يعتريه نقصٌ، وهو شامل لكل شيء، وسمع الإنسان ممكن؛ إذ يجوز أن يُولد الإنسان أَصَمًّا، والمولود سَمِيعًا يلحقه نقص السمع، وسمعه محدود.

إذا؛ لا يمكن أن يقاس الله بخلقه، فكل صفات الله لا يمكن أن تقاس بصفات خلقه؛ لظهور التباين العظيم بين الخالق والمخلوق». اهـ.

وقول المصنف رَحِمَهُ اللهُ: «فإنه سبحانه أعلمُ بنفسه وبغيره، وأصدقُ قِيلاً، وأحسنُ حَدِيثًا مِنْ خَلْقِهِ».

هذا تعليلٌ لما سبق من وجوب إثبات ما أثبتته الله لنفسه من صفات الكمال ومنع قياسه بخلقه؛ فإنه إذا كان أعلمُ بنفسه من غيره وأصدقُ قِيلاً وأحسنُ حَدِيثًا وجب إثبات ما أثبتته لنفسه، كما أن هذا الكلام كالتوطئة لما سيأتي تفصيلاً من الآيات الدالة على إثبات الصفات لله، كما وصف بذلك نفسه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.



«ثم رسله صادقون مصدقون، بخلاف الذين يقولون عليه ما لا يعلمون؛ ولهذا قال: ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصفات: 180-182]، فَسَبِّحْ نَفْسَهُ عَمَّا وَصَفَهُ بِهِ الْمُخَالِفُونَ لِلرُّسُلِ، وَسَلِّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ؛ لِسَلَامَةِ مَا قَالُوهُ مِنَ النِّقْصِ وَالْعَيْبِ».

قول المصنف: «ثم رسله صادقون مصدقون». هذه الجملة عطف على قوله: «فإنه أعلم بنفسه...»، إلخ. ورسُلُ الله صادقون مُبرِّؤُونَ عن الكذب بإجماع أهل الملل كلها. وهم مُصدِّقون من الله؛ فإنه سبحانه صدَّقهم بقوله وبفعله، حيث نصرهم وأيدهم بالآيات الدالة على صدقهم. ويجب على الناس تصديقهم، فمن كذَّبهم أو كَذَّبَ أحدهم فهو كافر - عياداً بالله.

وقوله رَحِمَهُ اللهُ: «بخلاف الذين يقولون على الله ما لا يعلمون». هذا راجع إلى أهل التَّعْطِيلِ وأهل التَّمْثِيلِ؛ فكلهم قائل على الله بغير علم، فمن عَطَّلَ صفات الله وحرَّفَ النصوص الدالة عليها فهو قائل على الله بلا علم، ومن مثَّلَ صفات الله بصفات خلقه أو كَيَّفَهَا فهو قائل على الله بغير علم، وهكذا مَنْ أَلْحَدَ في أسماء الله وآياته فهو قائل على الله بغير علم، وقد قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

وقول المصنف رَحْمَةُ اللَّهِ: «ولهذا».

هذا تعليل لما سَبَقَ مِنْ كَلامِ اللَّهِ ورسوله حقًا وصدقًا.

وقوله تعالى: ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾.

قال الحافظ ابن كثير رَحْمَةُ اللَّهِ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَاتِ: «يُنَزِّهُ تَعَالَى نَفْسَهُ، وَيُقَدِّسُهَا وَيَبْرِئُهَا عَمَّا يَقُولُهُ الظَّالِمُونَ الْمُكَذِّبُونَ الْمُعْتَدُونَ؛ تَعَالَى وَتَنَزَّهَ وَتَقَدَّسَ عَنْ قَوْلِهِمْ عَلَواً كَبِيراً؛ وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ﴾ أَيُّ: ذِي الْعِزَّةِ الَّتِي لَا تُرَامُ.

﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أَيُّ: عَنْ قَوْلِ هَؤُلَاءِ الْمُعْتَدِينَ الْمُفْتَرِينَ.

﴿وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ أَيُّ: سَلَامُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ لِسَلَامَةِ مَا قَالُوهُ فِي رَبِّهِمْ وَصَحَّتْهُ وَحَقَّقَتْهُ، ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أَيُّ: لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ فِي كُلِّ حَالٍ.

وَلَمَّا كَانَ التَّسْبِيحُ يَتَضَمَّنُ التَّنْزِيهَ وَالتَّبَرُّهَ مِنَ النِّقْصِ بِدَلَالَةِ الْمِطَابَقَةِ وَيَسْتَلْزِمُ إِثْبَاتَ الْكَمَالِ، كَمَا أَنَّ الْحَمْدَ يَدُلُّ عَلَى إِثْبَاتِ صِفَاتِ الْكَمَالِ مِطَابَقَةً وَيَسْتَلْزِمُ التَّنْزِيهَ مِنَ النِّقْصِ قُرْنَ بَيْنَهُمَا فِي هَذَا الْمَوْضِعِ، وَفِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾. اهـ.

وقول المصنف رَحْمَةُ اللَّهِ: «فَسَبَّحْ نَفْسَهُ عَمَّا يَصِفُهُ الْمُخَالَفُونَ لِلرُّسُلِ».

قال رَحْمَةُ اللَّهِ فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى» (١٧ / ١٤٤): «تَسْبِيحُ الرَّبِّ نَفْسَهُ يَتَضَمَّنُ تَنْزِيهَهُ وَتَعْظِيمَهُ جَمِيعًا، فَقَوْلُ الْعَبْدِ: «سُبْحَانَ اللَّهِ» يَتَضَمَّنُ تَنْزِيهَ اللَّهِ وَبِرَاءَتَهُ مِنْ

السوء». اهـ.

والمخالفون للرسل هم الذين مثّلوا الخالق سبحانه بالمخلوق، وكذلك الذين مثّلوا المخلوق بالخالق، وهكذا الذين عطّلوا صفات الله، وألحدوا في أسمائه وآياته.

قول المصنف رَحِمَهُ اللهُ: «سَلِّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ؛ لِسَلَامَةِ مَا قَالُوهُ مِنَ النَّقْصِ وَالْعَيْبِ»؛ لَأَنَّ مَا ذَكَرُوهُ فِي أَسْمَاءِ اللهِ وَصِفَاتِهِ وَدِينِهِ وَشَرْعِهِ هُوَ الصِّدْقُ وَالْكَمَالُ اللَّائِقُ بِاللّهِ، وَلَأَنَّهُمْ نَزَّهُوا اللهُ عَنِ النَّقَائِصِ وَالْعُيُوبِ.



«وهو سبحانه قد جَمَعَ فيما وَصَفَ وَسَمَّى به نفسه بين النفي والإثبات».

قول المُصَنِّف رَحِمَهُ اللهُ: «وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمَّى به نفسه بين النَّفْيِ والإِثْبَاتِ».

هذا كما قال العلامة الفوزان - حفظه الله - في «شرح العقيدة الواسطية» (ص 22): «بيانٌ للمنهج الذي رسمه الله في كتابه لإثبات أسمائه وصفاته، وهو المنهج الذي يجب أن يسير عليه المؤمنون في هذا الباب المهم». اهـ.

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى في «منهاج السُّنَّة» (2/ 184 - 187): «فأمرُ - تعالى - مُستحقٌّ للكمال على وجهِ التَّفصيل، كما أخبرت به الرسل، فإن الله تعالى أخبر أنه بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، وأنه سميع بصير، وأنه عليم قدير عزيز حكيم غفور رحيم ودود مجيد، وأنه يحب المتقين والمُحسنين والصَّابرين، ويرضى عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولا يحب الفساد، ولا يرضى لعباده الكفر، وأنه خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش، وأنه كلَّم موسى تكليمًا، وناداه وناجاه، إلى غير ذلك ممَّا جاء به الكتاب والسُّنة».

وقال في التنزيه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤]، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤]، ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]، فنزَّه نفسه عن النظير باسم الكفاء والمثل والنَّد والسَّمِّي.

فهذه طريقة الرسل وأتباعهم من سلف الأمة وأئمتها: إثباتٌ مفصَّل، ونفيٌ

مَجْمَلٌ.

إثبات الكمال على وجه التفصيل ونفي النقص والتَّمْثِيلُ مُجْمَلًا، كما ورد ذلك في سورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (١) اللَّهُ الصَّكَمُ ﴿[الإخلاص: 1-2]﴾، وهي تعدل ثلث القرآن، كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح.

فاسمه (الصَّكَمُ) يتضمَّنُ صفات الكمال، كما روى الوالبِيُّ عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أنه قال: «هو العليم الذي كَمُلَ في علمه، والقدير الذي كَمُلَ في قُدرته، والسيد الذي كَمُلَ في سُودِّه، والشريف الذي كَمُلَ في شَرَفِهِ، والعظيم الذي كَمُلَ في عظمتِه، والحليم الذي كَمُلَ في حلمه، والحكيم الذي كَمُلَ في حكمته، وهو الذي كَمُلَ في أنواع الشرف والسُّودِّ، هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هذه صفته لا تنبغي إلا له».

و(الأحد) يتضمن نفي المثل عنه.

والتنزيه الذي يستحقه الرَّبُّ يجمعه نوعان:

أحدهما: نفي النقص عنه.

الثاني: نفي مماثلة شيء من الأشياء فيما يستحقه من صفات الكمال.

فإثبات صفات الكمال له مع نفي مماثلة غيره له يجمع ذلك، كما دلت عليه هذه السورة.

وَأَمَّا المخالفون لهم من المشركين والصَّابِئَةِ وَمَنْ اتَّبَعَهُمْ من الجهمية والفلاسفة والمعتزلة ونحوهم، فطريقتهم: نفي مفصَّل، وإثبات مجمل.

ينفون صفات الكمال، ويثبتون ما لا يوجد إلا في الخيال، فيقولون: ليس بكذا ولا كذا، فمنهم من يقول: ليس له صفة ثبوتية، بل إمَّا سلبية، وإمَّا إضافية،

وإمّا مركبة منهما، كما يقوله من يقول من الصابئة والفلاسفة، كابن سينا وأمثاله، ويقول: هو وجود مطلق بشرط سلب الأمور الثبوتية عنه، ومنهم من يقول: وجود مطلق بشرط الإطلاق.

وقد قرّروا في منطقهم ما هو معلوم في العقل الصريح: أن المطلق بشرط الإطلاق إنما وجوده في الأذهان لا في الأعيان، فلا يُتصور في الخارج حيوانٌ مطلق بشرط الإطلاق، ولا إنسانٌ مطلق بشرط الإطلاق، ولا جسمٌ مطلق بشرط الإطلاق، فيبقى واجب الوجود ممتنع الوجود في الخارج، وهذا مع أنه تعطيلٌ وجهلٌ وكفرٌ، فهو جمعٌ بين النقيضين». اهـ.

وقال العلامة السّعدي رحمه الله تعالى في «التنبيهات اللطيفة» (ص 20): «وهذا الذي ذكره المصنف ضابطٌ نافعٌ في كيفية الإيمان بالله وبأسمائه الحسنی وصفاته العليا، وأنه مبني على أصليين: أحدهما: النفي، وثانيهما: الإثبات.

أما النفي: فإنه ينفي عن الله ما يضاد الكمال من أنواع العيوب والنقائص، وينفي عنه أيضًا أن يكون له شريك، أو نديد، أو شبيه في شيء من صفاته، أو في حقٍّ من حقوقه الخاصة، فكلُّ ما يُنافي صفات الكمال فإن الله منزّه عنه مقدّس.

والنّفي مقصود لغيره، والقصد منه إثبات ما لم يرد نفي شيء منه في الكتاب والسنة عن الله إلا بقصد إثبات ضده، فنفي الشّريك والنّديد عن الله لكمال عظمته وتفرّده بالكمال، ونفي السّنة والنّوم والموت لكمال حياته.

ونفي عزوب شيء عنه لعلمه وقدرته.

ولهذا كان التنزيه والنفي لأمر مجمل عام.

وأمّا الإثبات: فإنه يجمع الأمرين: إثبات المجملات كالحمد المطلق

والكمال المطلق والمجد المطلق ونحوها، وإثبات المفصّلات كتفضيل علم الله وقدرته وحكمته ورحمته، ونحو ذلك من صفاته».



«فلا عُدُولَ لِأَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ عَمَّا جَاءَ بِهِ الْمُرْسَلُونَ؛ فَإِنَّهُ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ؛ صِرَاطُ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا».

قول المصنّف رَحِمَهُ اللَّهُ: «فلا عُدُولَ لِأَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ عَمَّا جَاءَ بِهِ الْمُرْسَلُونَ».

قال العلامة الفوزان في «شرح الواسطية» (ص 22): «أي: لا ميل لهم ولا انحراف عن ذلك، بل هم مُقْتَفُونَ آثارهم، مُسْتَضِيئونَ بأنوارهم، ومن ذلك إثبات صفات الكمال لله وتنزيهه عما لا يليق به؛ فإن الرسل قد قرّروا ذلك الأصل العظيم، وأما أعداء الرسل فإنهم قد عدلوا عن ذلك».

وقوله: «فإنه الصراط المستقيم».

تعليلٌ لقوله: «فلا عدول لأهل السنة» أي: لأن ما جاء به المرسلون هو الصراط المستقيم، والصراط المستقيم هو الطريق المعتدل الذي لا تعدد فيه ولا انقسام، وهو المذكور في قوله تعالى في سورة الفاتحة: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: 6]، وقوله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وهو الذي ندعو الله في كل ركعة من صلواتنا أن يهدينا إليه. اهـ.

وقول المصنّف رَحِمَهُ اللَّهُ: «صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين».

هذا كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ

اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾
[النساء: ٦٩].

قال العلامة السَّعْدِي رَحِمَهُ اللَّهُ فِي تَفْسِيرِهِ: ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾، أَي: النعمة العظيمة التي تقتضي الكمال والفلاح والسعادة. ﴿مِنَ النَّبِيِّينَ﴾ الَّذِينَ فَضَّلَهُمُ اللَّهُ بِوَحْيِهِ، وَاخْتَصَّهُمْ بِتَفْضِيلِهِمْ بِإِرْسَالِهِمْ إِلَى الْخَلْقِ وَدَعْوَتِهِمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى. ﴿وَالصِّدِّيقِينَ﴾، وَهُمْ: الَّذِينَ كَمَّلَ تَصْدِيقَهُمْ بِمَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ، فَعَلِمُوا الْحَقَّ، وَصَدَّقُوهُ بِقِيْنِهِمْ، وَبِالْقِيَامِ بِهِ قَوْلًا وَعَمَلًا وَحَالًا وَدَعَا إِلَى اللَّهِ. ﴿وَالشُّهَدَاءِ﴾ الَّذِينَ قَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لِإِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ فَقَتَلُوا. ﴿وَالصَّالِحِينَ﴾ الَّذِينَ صَلَحَ ظَاهِرُهُمْ وَبَاطِنُهُمْ، فَصَلَحَتْ أَعْمَالُهُمْ، فَكُلُّ مَنْ أَطَاعَ اللَّهَ تَعَالَى كَانَ مَعَ هَؤُلَاءِ فِي صَحْبَتِهِ. ﴿وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ بِالْإِجْتِمَاعِ بِهِمْ فِي جَنَّاتِ النِّعَمِ وَالْأُنْسِ بِقُرْبِهِمْ فِي جِوَارِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. اهـ.

وَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «التنبيهات اللطيفة» (ص 21): «فَأَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ لَزِمُوا هَذَا الطَّرِيقَ الَّذِي هُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ صِرَاطُ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَبَلَزَوْهُمْ لِهَذَا الطَّرِيقِ النَّافِعِ تَمَّتْ لَهُمُ النِّعْمَةُ وَصَحَّتْ عَقَائِدُهُمْ وَكَمُلَتْ أَخْلَاقُهُمْ، أَمَّا مَنْ سَلَكَ غَيْرَ هَذَا السَّبِيلِ فَإِنَّهُ مُنْحَرِفٌ فِي عَقِيدَتِهِ وَأَخْلَاقِهِ وَآدَابِهِ». اهـ.



«وقد دَخَلَ في هذه الجُمْلَة ما وصف الله به نفسه في سورة الإخلاص، التي تعدل ثلث القرآن، حيث يقول: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ (٢) لَمْ يَكِلْهُ وَلَمْ يُولَدْ ۝ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: 1-4].

قوله: «وقد دخل في هذه الجملة».

قال العلامة ابن عثيمين في شرحه للواسطية (ص 127): «يحتمل أنه يريد بها قوله: «وهو قد جمع فيما وَصَفَ وَسَمَّى به نفسه بين النفي والإثبات»، ويحتمل أن يريد ما سبق من أن أهل السُّنَّة والجماعة يصفون الله تعالى بما وصف به نفسه وما وصفه به رسوله، وأياً كان فإن هذه السورة وما بعدها داخلة في ضمن ما سبق من أن الله - تعالى - جَمَعَ فيما وَصَفَ وَسَمَّى به نفسه بين النفي والإثبات، وأن أهل السُّنَّة يؤمنون بذلك». اهـ.

وقال العلامة السَّعْدِي رَحِمَهُ اللهُ في «التنبيهات اللطيفة» (ص 21): «هذا شروع في تفصيل النصوص الواردة في الكتاب والسنة الداخلة في الإيمان بالله، وأنه يجب إثباتها ونفي التَّعْطِيل والتَّحْرِيف والتَّكْيِيف والتَّمْثِيل عنها». اهـ.

قوله: «في سورة الإخلاص».

السورة: هي آيات من كلام الله معلومةُ الأوَّلِ والآخِرِ.

الإخلاص؛ قال الحافظُ ابنُ حَجَرٍ في «الفتح» (8 / 679): «فَأَخْلَصَتْ سورةُ الإخلاص الخبرَ عن الله، وخالَصَتْ قارئها من الشُّركِ الاعتقادي». اهـ.

فتكون قد سُمِّيتُ بذلك لثلاثة أسباب:

1 - أنها أخلصت الوصف لله.

2- لأن قارئها تخلص من شرك الاعتقاد.

3- أنه يتخلص يوم القيامة من الخلود في النار- إن دخلها.

قوله: «التي تعدل ثلث القرآن».

دليل ذلك: ما جاء في البخاري عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ يرددها، فلما أصبح جاء إلى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فذكر ذلك له- وكأن الرجل يتقالتها- فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهَا لَتَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ».

وفي «صحيح مسلم» من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «أَيَعِجْزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ فِي لَيْلَةٍ ثُلُثَ الْقُرْآنِ؟». قالوا: وكيف يقرأ ثلث القرآن؟ قال: «﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تعدل ثلث القرآن».

وروى البخاري ومسلم في صحيحهما عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعث رجلاً على سريّة، وكان يقرأ لأصحابه في صلاته، فيختم بـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾؛ فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «سَلُوهُ لَأَيِّ شَيْءٍ يَصْنَعُ ذَلِكَ؟». فسألوه، فقال: لَأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمَنِ، وأنا أحب أن أقرأ بها، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أخبروه أَنَّ اللَّهَ يُحِبُّهُ».

قال العلامة السّعدى رَحِمَهُ اللَّهُ في «التنبيهات اللطيفة» (ص 22): «قال أهل العلم: إن القرآن يحتوي على علوم عظيمة كثيرة، وهي ترجع إلى ثلاثة علوم: أحدها: علوم الأحكام والشرائع الداخل فيها علوم الفقه كلها عبادات ومعاملات وتوابعها.

الثاني: علوم الجزاء على الأعمال والأسباب التي يجازى بها العاملون على

ما يستحقون من خيرٍ وشرٍّ، وبيان تفصيل الثواب والعقاب.

الثالث: علوم التوحيد، وما يجب على العباد من معرفته والإيمان به، وهو أشرف العلوم الثلاثة، وسورة الإخلاص كفيلاً باشتمالها على أصول هذا العلم وقواعده». اهـ.

وقال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ - كما في «مختصر الصواعق» (ص 125): «ولهذا كانت سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن؛ لأنها أخلصت الإخبار عن الرب تعالى وصفاته، دون خلقه وأحكامه وثوابه وعقابه». اهـ.

وقال رَحِمَهُ اللهُ في «زاد المعاد» (1/ 306): «فسورة ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾: متضمنةٌ لتوحيد الاعتقاد والمعرفة، وما يجب إثباته للرب تعالى من الأحديّة المنافية لمطلق المشاركة بوجه من الوجوه، والصّمدية المثبتة له جميع صفات الكمال التي لا يلحقها نقص بوجه من الوجوه، ونفي الولد والوالد الذي هو من لوازم الصّمدية، وغناه وأحديّته، ونفي الكفء المتضمّن لنفي التشبيه والتّمثيل والتّنظير.

فتضمّنت هذه السورة إثبات كلّ كمالٍ له، ونفي كل نقص عنه، ونفي إثبات شبيه أو مثيل له في كماله، ونفي مطلق الشّريك عنه، وهذه الأصول هي مجامع التوحيد العلمي الاعتقادي الذي يباين صاحبه جميع فرق الضّلال والشّرك؛ ولذلك كانت تعدل ثلث القرآن». اهـ.

هل تعدل سورة الإخلاص ثلث القرآن في الجزاء أم في الأجزاء؟

قال العلامة ابن عثيمين في «شرح الواسطية» (ص 128): «فهذه السّورة تعدل ثلث القرآن في الجزاء، لا في الأجزاء، وذلك كما ثبت عن النبي

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، عشر مرات فكأنما أعتق أربع أنفس من بني إسماعيل. فهل يجزئ ذلك عن إعتاق أربع رقاب ممن وجب عليه ذلك وقال هذا الذكر عشر مرات؟

فنقول: لا يجزئ، أما في الجزاء فتعدل هذا، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام، فلا يلزم من المعادلة في الجزاء المعادلة في الأجزاء؛ ولهذا لو قرأ سورة الإخلاص في الصلاة ثلاث مرات لم يجزئه عن قراءة الفاتحة». اهـ.

فضل هذه السورة:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ كما في «مجموع الفتاوى» (2/ 438): «ولم يصحَّ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في فضل سورة من القرآن ما صحَّ في فضلها، حتى أفرد الحفاظُ مصنفاتٍ في فضلها، كالدارقطني، وأبي نعيم، وأبي محمد الخلال، وأخرج أصحاب الصحيح فيها أحاديث متعددة». اهـ.

ولم يصح في سبب نزول هذه السورة شيء.

«قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾».

قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (4/ 740): «يعني هو الواحد الأحد الذي لا نظير له، ولا وزير، ولا نديد، ولا شبيه، ولا عدل، ولا يُطلق هذا اللفظ على أحد في الإثبات إلا على الله عَزَّجَلَّ؛ لأنه الكامل في جميع صفاته وأفعاله». اهـ.

وقوله: ﴿اللَّهُ الصَّكَمُ﴾.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ - كما في «مجموع الفتاوى» (5/ 353): «قال ابن مسعود وابن عباس والحسن وسعيد بن جبير وخلق من

السلف: الصَّمد: الذي لا جوف له، وقال آخرون: هو السيد الذي كَمُلَ في سُؤْدَدِهِ، وكلا القولين حقٌّ؛ فإن لفظ الصمد في اللغة يتناول هذا وهذا». اهـ.

وقال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ كما في «مختصر الصواعق» (ص 158): «فإن الصمد مَنْ تَصَمَّدُ نحوه القلوبُ بالرَّغبة والرَّهبة؛ وذلك لكثرة خصال الخير فيه؛ لهذا قال جمهور السلف، منهم ابن عباس: الصَّمدُ: الَّذِي كَمَلَ في سُؤْدَدِهِ، وهو العالم الذي كَمَلَ عِلْمُهُ، القادرُ الذي كَمَلَتْ قدرته، الحليم الذي كَمَلَ حِلْمُهُ، الرحيم الذي كَمَلَتْ رَحْمَتُهُ، الجوادُ الَّذِي كَمَلَ جُودُهُ.

ومن قال: إنه الذي لا جوف له، فقلوه لا يُناقض هذا التفسير». اهـ.

وانظر زاد المعاد (1/ 316 - 318).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى كما في «مجموع الفتاوى» (5/ 329): «ولهذا كان مذهب السَّلف والأئمة إثبات الصفات ونفي مماثلتها لصفات المخلوقات، فالله تعالى موصوفٌ بصفات الكمالِ الذي لا نقص فيه، منزَّه عن صفات النقص مطلقاً، ومنزَّه عن أن يماثله غيره في صفات كماله، فهذان المعنيان جمعا التنزيه، وقد دلَّ عليهما قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، فالاسم الصمد: يتضمن صفات الكمال، والاسم (الأحد) يتضمن نفْيَ المثل». اهـ.

وأما قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ ٢ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ.

فقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ كما في «مجموع الفتاوى» (2/ 438) وما بعدها: «نفى عن نفسه الأصول والفروع والنظراء، وهي جَمَاعُ

ما يُنسب إليه المخلوق من الآدميين والبهائم والملائكة والجن، بل والنبات ونحو ذلك، فإنه ما من شيء من المخلوقات إلا ولا بُدَّ أن يكون له شيء يناسبه: إما أصل أو فرع وإما نظير أو اثنان من ذلك أو ثلاثة.

وهذا في الآدميين والجن والبهائم ظاهر، وأما الملائكة فإنهم - وإن لم يتوالدوا بالتناسل - فلهم الأمثال والأشباه؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩]، قال بعض السلف: لعلمكم تتذكرون؛ فتعلمون أن خالق الأزواج واحد.

ولهذا كان في هذه السورة الرد على من كفر من اليهود والنصارى والصابئين والمجوس والمشركين.

فإن قوله: ﴿لَمْ يَكِلِدْ﴾ ردُّ لقول من يقول: إن له بنين وبنات من الملائكة أو البشر، مثل من يقول: الملائكة بنات الله، أو يقول: المسيح ابن الله أو عزير ابن الله.

ثم ذكر رَحْمَةُ اللَّهِ آياتٍ تبطل أقوالهم، ومنها قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٠].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ ٨٨ ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا﴾ ٨٩ ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا﴾ ٩٠ ﴿أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ ٩١ ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ ٩٢ ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ ٩٣ ﴿لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ ٩٤ ﴿وَكُلُّهُمْ عَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٨٨ - ٩٥].

إلى أن قال: «فهذا نفِي كَوْنِه سبحانه والدَّا لشيءٍ أو متَّخذًا لشيءٍ ولدًا بأي وجه من وجوه الولادة، أو اتخاذ الولد أيًّا كان.

وأما نفِي كَوْنِه مَوْلُودًا فيتضمن نفِي كونه مُتَوَلَّدًا بأي نوع من التَّوالد من أحد من البشر، وسائر ما تولَّد من غيره، فهو رَدُّ على من قال: المسيح هو الله، وردُّ على الدجال الذي يقول: إنه الله، وردُّ على من قال في بشر: إنه الله».

إلى أن قال: «فقوله سبحانه: ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾: نفِي لهذا كله، فإن هؤلاء كلهم مولودون، والله لم يولد، ولهذا ذكر الله المسيح في القرآن، فقال (ابن مريم)، بخلاف سائر الأنبياء كقوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧]، وقوله: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [المائدة: ٧٥]، وقوله: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَذْكُرُ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ﴾ [المائدة: ١١٠]، وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦]، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ ءَايَةً وَأَوَيْنَهُمَا إِلَىٰ رِبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٠]، وقوله: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ [النساء: ١٥٧].

وفي ذلك فائدتان:

إحداهما: بيان أنه مولود، والله سبحانه لم يولد.

الثانية: نسبته إلى مريم بأنه ابنها، ليس هو ابن الله سبحانه.

وأما قوله: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ﴾ [النساء: ١٧٢]، وقوله: ﴿وَقَالَتِ الْتَصْرَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]، فإنه حكى قولهم الذي قالوه،

وهم نَسَبُوهُ إِلَى اللَّهِ أَنَّهُ ابْنُهُ، فَلَمْ يُضَمَّنُوا ذَلِكَ قَوْلَهُم: الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ.
 وقوله: «﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾» نفي للشركاء والأنداد،
 ويدخل فيه كل من جعل شيئًا كُفُوًا لِلَّهِ فِي شَيْءٍ مِنْ خَوَاصِّ الرَّبُوبِيَّةِ، مِثْلَ خَلْقِ
 الْخَلْقِ، وَالْإِلَهِيَّةِ؛ كَالْعِبَادَةِ لَهُ وَدَعَائِهِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.
 فهذه نُكَّتْ تُبَيَّنَ اشْتِمَالُ كِتَابِ اللَّهِ عَلَى إِبْطَالِ قَوْلِ مَنْ يَعْتَقِدُ فِي أَحَدٍ مِنَ
 الْبَشَرِ الْإِلَهِيَّةَ بِاتِّحَادٍ أَوْ حُلُولٍ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ». اهـ.



«وما وَصَفَ به نَفْسَهُ في أعظم آية في كتابه؛ حيث يقول: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]».

الدليل على أَنَّ آية الكرسيَّ أعظمُ آية في كتاب الله: ما رواه مسلم في صحيحه، عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يا أبا المُنْذِر، أَتَدْرِي أَيَّ آيَةٍ مِّنْ كتاب الله معك أعظم؟». قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «يا أبا المُنْذِر، أَتَدْرِي أَيَّ آيَةٍ مِّنْ كتاب الله معك أعظم؟». قال: قلت: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾، قال: فضرب في صدري، وقال: «والله، لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أبا المُنْذِر».

وتُسَمَّى بآية الكرسي؛ لذكر الكرسيِّ فيها.

وأما ما تَضَمَّنَتْ هذه الآية من أسماء الله وصفاته؛ فقد قال العلامة ابن عثيمين في شرحه للواسطية (ص 141 - 146): «وهذه الآية تتضمَّن من أسماء الله خمسة، وهي: الله، الحي، القيوم، العلي، العظيم. وتتضمن من صفات الله ستاً وعشرين صفة، منها خمس صفات تتضمنها هذه الأسماء.

والسادسة: انفراده بالألوهية.

السابعة: انتفاء السَّنة والنَّوم في حقِّه؛ لكمال حياته وقِيُومِيَّتِهِ.

الثامنة: عموم ملكه؛ لقوله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

التاسعة: انفراد الله عزَّ وجلَّ بالملك، ونأخذه من تقديم الخبر.

العاشرة: قوَّة السلطان وكماله؛ لقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾.

الحادية عشرة: إثبات العِنْدِيَّة، وهذا يدلُّ على أنه ليس في كلِّ مكان، ففيه الرُّدُّ على الحلولية.

الثانية عشرة: إثبات الإذن من قوله: ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾.

الثالثة عشرة: عموم علم الله تعالى؛ لقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾.

الرابعة عشرة، والخامسة عشرة: أنه مُبَحَّانُهُ وَتَعَالَى لا يَنسَى ما مضى؛ لقوله: ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾، ولا يجهل ما يستقبل؛ لقوله: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾.

السادسة عشرة: كمال عظمة الله؛ لعجز الخلق عن الإحاطة به.

السابعة عشرة: إثبات المشيئة؛ لقوله: ﴿إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾.

الثامنة عشرة: إثبات الكرسي وهو موضع القدمين.

التاسعة عشرة والعشرون والحادية والعشرون: إثبات العظمة والقوَّة والقدرة؛ لقوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾؛ لأنَّ عظمة المخلوق تدلُّ على عظمة الخالق.

الثانية والثالثة والرابعة والعشرون: كمال علمه ورحمته وحفظه، من قوله: ﴿وَلَا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾.

الخامسة والعشرون: إثبات علو الله؛ لقوله: ﴿وَهُوَ أَعْلَى﴾، ثم أطال الكلام

حول صفة العلو، وسيأتي - إن شاء الله - في موضعه.

«السادسة والعشرون: إثبات العظمة لله عزَّ وجلَّ؛ لقوله: ﴿الْعَظِيمُ﴾». اهـ.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ في تفسيره لهذه الآية (1/ 143): «وهذه الآية مشتملة على عشر جُمَل مستقلة، فقلوه: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ إخباراً بأنه المتفرد بالإلهية لجميع الخلائق.

﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ أي: الحي في نفسه الذي لا يموت أبداً، القيم لغيره.

وكان عَمَرُ يقرأ «القيَّام»، فجميع الموجودات مفتقرة إليه، وهو غني عنها، لا قوام لها بدون أمره، كقلوه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: ٢٥].

وقوله: ﴿لَا تَأْخُذْهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾، أي: لا يعتريه نقص ولا غفلة ولا ذهول عن خلقه، بل هو قائم على كل نفس بما كسبت، شهيد على كل شيء، لا يغيب عنه شيء ولا يخفى عليه خافية، ومن تمام القيومية أنه لا يعتريه سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ، فقلوه ﴿لَا تَأْخُذْهُ﴾، أي: لا تغلبه سِنَّةٌ، وهي الوسن والنَّعاسُ، ولهذا قال: ولا نوم؛ لأنه أقوى من السِنَّة.

وفي الصحيح عن أبي موسى قال: قام فينا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأربع كلمات، فقال: «إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، وَعَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، حِجَابُهُ النُّورُ - أَوِ النَّارُ - لَوْ كَشَفَهُ لَأَخْرَقَتْ سُبْحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ».

وقوله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾: إخباراً بأن الجميع عبيده وفي ملكه وتحت قهره وسلطانته، كقلوه: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا

ءَاتَى الرَّحْمَنُ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ [مريم: ٩٣ - ٩٥].

وقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ كقوله: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُعْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَبِرِضَى﴾ [النجم: 26]، وكقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

وهذا من عظمته وجلاله وكبريائه عز وجل أنه لا يتجاسر أحد على أن يشفع لأحد عنده إلا بإذنه له في الشفاعة، كما في حديث الشفاعة: «آتي تحت العرش فأختر ساجداً، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يُقال: ارفع رأسك، وقُلْ تُسْمِعْ، وَاشْفَعْ تُشْفَعُ - قال -: فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة».

وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ دليل على إحاطة علمه بجميع الكائنات ماضيها وحاضرها ومستقبلها، كقوله - إخباراً عن الملائكة -: ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ، مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤].

وقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾، أي: لا يطلع أحد من علم الله على شيء إلا بما أعلمه الله عز وجل وأطلععه عليه، كقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾.

﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾، ثم ذكر الأقوال الواردة في ذلك، وسيأتي بيانها - إن شاء الله.

وقوله: ﴿وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾، أي: لا يُثْقَلُهُ ولا يُكْرَهُهُ حفظ السماوات

والأرض وَمَنْ فِيهِمَا، وَمَنْ بَيْنَهُمَا، بل ذلك سهلٌ عليه يسيرٌ لديه، وهو القائم على كل نفس بما كسبت، الرقيبُ على جميع الأشياء، فلا يَعْزُبُ عنه شيءٌ ولا يَغيب عنه شيءٌ.

والأشياء كلها حقيرةٌ بين يديه، الذي لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون، وهو القاهر لكل شيءٍ، الحسيب على كل شيءٍ، الرَّقِيبُ العَلِيُّ العَظِيمُ، لا إله غيره، ولا رَبَّ سِوَاهُ، فقلوه: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ كقلوه: ﴿الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: 9]، وهذه الآيات وما في معناها من الأحاديث الصحاح الأجودُ فيها طريقةُ السلفِ الصالح: أَمْرُوهَا كَمَا جَاءَتْ مِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَشْبِيهِ. اهـ.

وقد قيل: إن هذه الآية تَضَمَّنَتْ اسمَ الله الأعظم، وهو: الحي القيوم.

وقد اختلفَ في تحديد الاسم الأعظم على عدة أقوالٍ، وقد اعتنى بِجَمْعِهَا جلالُ الدين السيوطيُّ في كتاب «الدُّرُّ المُنْظَمُ في الاسمِ الأعْظَمِ» ضمن «الحاوي للفتاوي» (1/ 394)، فأوصلها إلى عشرين قولاً.

وقال الإمام الشوكاني رَحِمَهُ اللهُ في «تحفة الذاكرين» (ص128): «وقد اختلف في تعيين الاسم الأعظم على نحو أربعين قولاً». اهـ.

وأشهر الأقوال في ذلك أنَّ الاسم الأعظم هو: «الحي القيوم»، وقد رجَّح هذا شيخُ الإسلام ابنُ تيمية، وتلميذُه ابن القيم رحمهما الله في عدد من كتبهما، ومما استدل به أصحاب هذا القول:

ما رواه ابن ماجه والطبراني والحاكم عن أبي أمامة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «اسم الله الأعظم الذي إذا دُعِيَ به أجاب، في ثلاث سورٍ مِنَ القرآن: في البقرة، وآل عمران، وطه».

والحديث صَحَّحَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي «صَحِيحِ الْجَامِعِ»
برقم (979).

ولكن يشكل على هذا أحاديث ثابتة عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أخبر عن
عِدَّةٍ أَدْعِيَةٍ أَنْ اللَّهَ دُعِيَ بِاسْمِهِ الْأَعْظَمِ، وليس فيها «الحي القيوم»، ومن ذلك:
ما رواه أبو داود وابن ماجه - واللفظ له - عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: سمع
النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجلاً يقول: «اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت
وحدك لا شريك لك، المَنَّان، بديع السماوات والأرض، ذو الجلال والإكرام،
فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لقد سألت الله باسمه الأعظم الذي إذا سئِلَ به أعطى وإذا
دُعِيَ به أجاب»، وقد صححه العلامة الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ.

ومن ذلك أيضاً ما رواه ابن ماجه في «سننه»، عن بُرَيْدَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «سمع
النبي صَلَّى الله عليه وآله وسلم رجلاً يقول: «اللَّهُمَّ إني أسألك بأنك أنت الله
الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كُفُوًا أحد، فقال رسول الله
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لقد سأل الله باسمه الأعظم الذي إذا سئِلَ به أعطى، وإذا دُعِيَ به
أجاب»، وقد صححه العلامة الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ.

ومن ذلك ما رواه الترمذي وغيره عن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال:
قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إِذْ دَعَا وَهُوَ فِي بَطْنِ
الْحَوْتِ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾»
[الأنبياء: ٨٧]، فإنه لم يدعُ بها رجلٌ مسلمٌ في شيءٍ قطُّ إلا استجاب الله له»، وقد
صحَّحه الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى.

وليس في الأحاديث الثلاثة الأخيرة: «الحي القيوم» إلا أن فيها أنها سببٌ
لإجابة الدعاء.

وأحسنُ ما يقالُ في الاسمِ الأعظم: إنه اسمُ جنسٍ يدخل تحتَه كُلُّ الأدعيةِ السابقة، وبهذا يجتمع شملُ الأدلّة، ويزول الإشكالُ بحمد الله.

وهذا ما قرّره العلامة السّعدي رحمه الله تعالى في كتابه «مجمع الفوائد واقتناص الأوابد»، حيث قال رَحِمَهُ اللهُ (ص 250-251): «سُئِلْتُ عن الاسمِ الأعظم من أسماء الله الحسنى: هل هو اسمٌ مُعَيَّنٌ أو اسمٌ غيرُ مُعَيَّنٍ ولا مَعْرُوفٍ؟

والجواب: بعض الناس يظنُّ أن الاسمِ الأعظم من أسماء الله الحسنى لا يعرفه إلا مَنْ خَصَّهُ اللهُ بكرامةٍ خارقةٍ للعادة، وهذا ظنٌ خطأ؛ فإن الله تبارك وتعالى حَثَّنَا على معرفةِ أسمائه وصفاته وأثنى على مَنْ عرفها وتَفَقَّهَ فيها، ودعا الله بها دعاءً مسألةً، ولا ريبَ أن الاسمِ الأعظمَ أَوْلَاهَا بهذا الأمر؛ فإنه تعالى هو الجوادُ المطلق الذي لا مُنتَهَى لجوده وكرمه، وهو يُحِبُّ الجُودَ على عباده، ومن أعظم ما جاد به عليهم تَعَرُّفُهُ لهم بأسمائه الحسنى وصفاته العليا.

فالصوابُ: أن الأسماء الحسنى كلها حسنى، وكل واحد منها عظيم، ولكن الاسمِ الأعظم منها كل اسم مفرد، أو مقرونٌ مع غيره إذا دَلَّ على جميع صفاته الذاتية والفعلية، أو دَلَّ على جميع الصفات، مثل:

(الله)؛ فإنه الاسمُ الجامعُ لمعاني الألوهية كلها، وهي جميع أوصاف الكمال، ومثل (الحميد المجيد)؛ فإنَّ الحميد هو الاسم الذي دَلَّ على أوصاف العظمة والجلال، ويقرب من ذلك: (الجليل) و(الجميل)، و(الغني الكريم) ومثل (الحي القيوم)؛ فإنَّ (الحي) مَنْ له الحياة الكاملة العظيمة الجامعة لجميع معاني الذات، و(القيوم) الذي قام بنفسه واستغنى عن جميع خلقه وقام بجميع الموجودات، فهذا الاسم الذي تدخل فيه صفات الأفعال كلها.

ومثل اسمه (العظيم الكبير) الذي له جميع معاني العظمة والكبرياء في ذاته وأسمائه وصفاته، وله جميع معاني التعظيم من خواص خلقه.

ومثل قولك: (يا ذا الجلال والإكرام)؛ فإن الجلال: صفات العظمة والكبرياء والكمالات المتنوعة، والإكرام: استحقاقه على عباده غاية الحب وغاية الذل، وما أشبه ذلك.

فعلم بذلك أن الاسم الأعظم اسم جنس، وهذا هو الذي تدور عليه الأدلة الشرعية، والاشتقاق كما في «السَّن» أنه سمع رجلاً يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنِّي أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت، الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد. فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «والذي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ سَأَلَ اللَّهُ بِاسْمِهِ الْأَعْظَمُ الذي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أُعْطِيَ».

وكذلك الحديث الآخر، حين دعا الرجل، فقال: «اللهم إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنْ لَكَ الحمد لا إله إلا أنت، المَنَّان، بديع السماوات والأرض، ذو الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ دَعَا اللَّهُ بِاسْمِهِ الْأَعْظَمُ، الذي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أُعْطِيَ».

وكذلك قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اسمُ اللَّهِ الْأَعْظَمُ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ: ﴿وَاللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ﴾ [البقرة: 163]، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: 255]». رواه أبو داود والترمذي.

فمتى دعا الله العبد باسم من هذه الأسماء العظيمة بحضور قلب وورقة وانكسار لم تكذب ترد له دعوة، والله الموفق». اهـ.



وقوله سبحانه: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

[الحديد: ٣].

قال العلامة السَّعْدِي في «التنبيهات اللطيفة» (ص 26): «وقد فسَّر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذه الأسماء الأربعة بتفسير مختصر جامع واضح، حيث قال: «أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء». رواه مسلم وغيره من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وهذا يدلُّ على كمال عظمته، وأنه لا نهاية لها، وبيان إحاطته من كل وجه، ففي ﴿الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ﴾: إحاطته الزمانية، وفي ﴿الظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾: إحاطته المكانية.

ثم صرَّح بإحاطة علمه بكل شيء من الأمور الماضية والحاضرة والمستقبلية، ومن العالم العلوي والسفلي، ومن الظواهر والبواطن والواجبات والجائزات والمستحيلات، فلا يغيب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء». اهـ.

وقال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ عن هذه الآية كما في «مختصر الصواعق» (ص 412 - 413): «وفي «صحيح مسلم» عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في تفسير قوله: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [يقوله: «أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء»].

فجعل كمال الظهور مُوجباً لكمال الفوقية، ولا ريب أنه ظاهرٌ بذاته فوق كل شيء، والظهور هنا العلو، ومنه قوله: ﴿فَمَا أَسْطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ﴾ [الكهف: ٩٧]، أي: يعلوه، وقرّر هذا المعنى بقوله: «فليس فوقك شيء»، أي: أنت فوق الأشياء كُلِّها، ليس لهذا اللفظ معنى غير ذلك، ولا يصحُّ أن يُحمَلَ الظُّهورُ على الغلبة؛ لأنه قابله بقوله: وأنت الباطن.

فهذه الأسماء الأربعة متقابلة: اسمان لِأَزَلِ الرب تعالى وَأَبَدِهِ، واسمان لِعُلُوِّهِ وَقُرْبِهِ، فَأَوَّلِيَّتُهُ سُبْحَانَهُ سَابِقَةٌ عَلَى أَوَّلِيَّةِ كُلِّ مَا سِوَاهُ، وَآخِرِيَّتُهُ سُبْحَانَهُ ثَابِتَةٌ بَعْدَ آخِرِيَّةِ كُلِّ مَا سِوَاهُ». اهـ.

وانظر «طريق الهجرتين» (ص 50-51).

ويقول العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ فِي شرحه للواسطية (ص 149): «واستفدنا من هذه الآية الكريمة إثبات أربعة أسماء لله، وهي الأول، والآخر، والظاهر، والباطن، واستفدنا منها خمس صفات: الأولية، والآخريّة، والظاهرية والباطنيّة، وعموم العلم.

واستفدنا من مجموع الأسماء إحاطة الله بكل شيءٍ زماناً ومكاناً؛ لأنه قد يحصل من اجتماع الأوصاف زيادةً صفةً، فإذا قال قائل: هذه الأسماء متلازمة، بمعنى أنك إذا قلت: الأول: فلا بد أن تقول الآخر، أو يجوز فصلُ بَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ؟! بعض!

فالظاهر أن المتقابل منها متلازمٌ، فإذا قلت: الأول، فقل: الآخر، وإذا قلت: الظاهر، فقل: الباطن؛ لثلاث تفوت صفةً المقابلة الدالّة على الإحاطة». اهـ.

ينبغي على كلام الشيخ رَحِمَهُ اللهُ إِشْكَالٌ، وهو: هل يجوز أن يُعَبَّدَ لأحد هذه

الأسماء، كأن يقال: عبد الأوّل، أو عبد الآخر، أو عبد الظاهر، أو عبد الباطن؟ حيث إن المقابلة الدالة على الكمال لا تظهر إلا بالمجيء بالآخر مع الأوّل، والظاهر مع الباطن فينظر.

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ: «والثمرة التي ينتجها الإيمان بأن الله بكل شيء عليم: كمال مراقبة الله عَزَّوَجَلَّ وخشيته، بحيث لا يفقده حيث أمره، ولا يراه حيث نهاه». اهـ.

وقال صاحب «التنبيهات السنية» (ص 56): «وفيه الردُّ على المعتزلة والرافضة الذين يزعمون أن الله لا يعلم الأشياء إلا بعد وقوعها، والردُّ على مَنْ يزعم أنه يعلم الكلِّيات دون الجزئيات». اهـ.



«وقوله سبحانه: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨].»

قوله سبحانه: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨] في الآية إثبات اسم الحي لله المتضمن لصفة الحياة الكاملة، فإن «الحياة صفة كمالٍ يستحقها بذاته، والموت مناقضٌ لها، فلم يوصف بالحياة لأجل نفي الموت، بل وصفه بالحياة يستلزم نفي الموت، فينفي عنه الموت؛ لأنه حيٌّ». «الجواب الصحيح» (211/3).

«ومناسبة عدم صحة التوكل على غير المتصف بما ذكر من الحياة والبقاء هو أن يُقال: أما عدم صحة التوكل على مَنْ لم يتَّصف بالحياة كالأصنام؛ فظاهرٌ، وأما عدم صحته على مَنْ لم يتَّصف بالبقاء بأن كان ممن يموت فلأنه عاجز ضعيف، فالمتوكل عليه أشبه شيءٍ بضعيف عاذ بِقَرْمَلَةٍ، وقيل: لأنه إذا مات ضاع مَنْ تَوَكَّلَ عليه». «روح المعاني» للألوسي (51-50/19).

وأما معنى التوكل في اللغة: فهو التفويض.

وشرعاً: صدق اعتماد القلب على الله في جلب المنافع ودفع المضار، مع الأخذ بالأسباب المأذون بها شرعاً.

وقد قال العلامة ابن القيم في «مدارج السالكين» (2/123 وما بعدها)، مع شيء من الاختصار: «وحقيقة الأمر: أن التوكل حالٌ مركبةٌ من مجموع أمور لا تتم حقيقة التوكل إلا بها.

فأول ذلك: معرفة الرب وصفاته: من قدرته وكفايته وقِيُومِيَّتِهِ، وانتهاء الأمور إلى علمه، وصدورها عن مشيئته وقدرته.

وهذه المعرفة أَوَّلُ دَرَجَةٍ يضع بها العبدُ قَدَمَهُ في مقام التَّوَكُّلِ .

قال شيخنا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ولذلك لا يصحُّ التَّوَكُّلُ ولا يُتَصَوَّرُ من فيلسوفٍ ولا من القَدَرِيَّةِ النُّفَاةِ القائلين بأنه يكون في ملكه ما لا يشاء، ولا يستقيم أيضًا من الجَهْمِيَّةِ النُّفَاةِ لصفات الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ، ولا يستقيم التَّوَكُّلُ إلا من أهل الإثبات، فأَيُّ توكّلٍ لمن يعتقد أن الله لا يعلم جزئيات العالم سُفْلِيَّةٍ وَعُلَوِّيَّةٍ؟ ولا هو فاعل باختياره؟ ولا له إرادة ومشية، ولا يقوم به صفة؟ فكل من كان بالله وصفاته أعلم وأعرف كان توكله أصح وأقوى، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ .

الدرجة الثانية: إثبات في الأسباب والمسببات:

فإنه من نفاها فتَوَكَّلْهُ مدخولٌ، وهذا عكس ما يظهر في بدواتِ الرَّأْيِ أن إثبات الأسباب يقدح في التَّوَكُّلِ وأنَّ نَفْيَهَا تَمَامُ التَّوَكُّلِ .

فالتَّوَكُّلُ من أعظم الأسباب التي يحصل بها المطلوب، ويندفع بها المكروه، فَمَنْ أَنْكَرَ الأسبابَ لم يَسْتَقِمْ مِنْهُ التَّوَكُّلُ، ولكن من تمام التَّوَكُّلِ عدم الركون إلى الأسباب وقطع علاقة القلب بها، فيكون حال قلبه قِيَامَهُ بالله لا بها، وحال بدنه قِيَامَهُ بِهَا. فالأسباب محلُّ حكمة الله وأمره ودينه، والتَّوَكُّلُ مُتَعَلِّقٌ بربوبيته وقضائه وقدره، فلا تقوم عبودية الأسباب إلا على ساقِ التَّوَكُّلِ، ولا يقوم ساقُ التَّوَكُّلِ إلا على قدم العبودية، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ .

الدرجة الثالثة: رسوخ القلب في مقام توحيد التَّوَكُّلِ .

فإنه لا يستقيم توكّل العبد حتى يصح له توحيده، بل حقيقة التَّوَكُّلِ توحيد القلب، فما دامت فيه علائقُ الشُّرْكِ فتَوَكَّلْهُ معلولٌ مدخولٌ، وعلى قدر تجريد التوحيد تكون صِحَّةُ التَّوَكُّلِ، فإن العبد متى التفت إلى غير الله أخذ ذلك

الالتفاتُ شُعْبَةٌ مِنْ شُعَبِ قَلْبِهِ، فَتَقْصُ مِنْ تَوَكُّلِهِ عَلَى اللَّهِ بِقَدْرِ ذَهَابِ تِلْكَ الشُّعْبَةِ، وَمِنْ هُنَا ظَنُّ مَنْ ظَنَّ أَنَّ التَّوَكُّلَ لَا يَصِحُّ إِلَّا بِرَفْضِ الْأَسْبَابِ، وَهَذَا حَقٌّ، لَكِنْ رَفْضُهَا عَنِ الْقَلْبِ لَا عَنِ الْجَوَارِحِ، فَالتَّوَكُّلُ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِرَفْضِ الْأَسْبَابِ عَنِ الْقَلْبِ، وَتَعْلُقُ الْجَوَارِحُ بِهَا، فَيَكُونُ مُنْقَطِعًا مِنْهَا مُتَصِلًا بِهَا، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ.

الدرجة الرابعة: اعتماد القلب على الله واستناده إليه وسكونه إليه، بحيث لا يبقى فيه اضطرابٌ مِنْ تشويشِ الأسبابِ ولا سكونٌ إليها، بل يخلع السكون إليها من قلبه، وَيُلْبِسُهُ السُّكُونُ إِلَى مُسَبِّبِهَا.

وعلاوة هذا: أنه لا يبالي بإقبالها وإدبارها، ولا يضطربُ قَلْبُهُ ولا يخفقُ عند إدبارِ ما يُحِبُّ مِنْهَا، وإقبالِ ما يكره؛ لِأَنَّ اعْتِمَادَهُ عَلَى اللَّهِ وَسُكُونَهُ إِلَيْهِ وَاسْتِنَادَهُ إِلَيْهِ قَدْ حَصَّنَهُ مِنْ خَوْفِهَا وَرَجَائِهَا، فَحَالُهُ حَالُ مَنْ خَرَجَ عَلَيْهِ عَدُوٌّ عَظِيمٌ لَا طَاقَةَ لَهُ بِهِ، فَرَأَى حَصْنًا مَفْتُوحًا فَأَدْخَلَهُ رَبُّهُ إِلَيْهِ، وَأَغْلَقَ عَلَيْهِ بَابَ الْحِصْنِ، فَهُوَ يَشَاهِدُ عَدُوَّهُ خَارِجَ الْحِصْنِ، فَاضْطَرَّابُ قَلْبِهِ وَخَوْفُهُ مِنْ عَدُوِّهِ فِي هَذِهِ الْحَالِ لَا مَعْنَى لَهُ.

وكذلك مَنْ أَعْطَاهُ مَلِكٌ دِرْهَمًا فَسَرَقَ مِنْهُ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: عِنْدِي أَضْعَافُهُ فَلَا تَهْتَمُ؛ مَتَى جِئْتَ إِلَيَّ أَعْطَيْتُكَ مِنْ خَزَائِنِي أَضْعَافَهُ، فَإِذَا عَلِمَ صِحَّةَ قَوْلِ الْمَلِكِ وَوَثِقَ بِهِ وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ وَعَلِمَ أَنَّ خَزَائِنَهُ مَلِيئَةٌ بِذَلِكَ لَمْ يُحْزِنْهُ بَثْدِي أُمِّهِ.

وقد مُثِّلَ ذَلِكَ بِحَالِ الطِّفْلِ الرُّضِيعِ فِي اعْتِمَادِهِ وَسُكُونِهِ وَطَمَأْنِينَتِهِ بِثَدْيِ أُمِّهِ، لَا يَعْرِفُ غَيْرَهُ، وَلَيْسَ فِي قَلْبِهِ التَّفَاتُ إِلَى غَيْرِهِ، كَمَا قَالَ بَعْضُ الْعَارِفِينَ: الْمُتَوَكِّلُ كَالطِّفْلِ لَا يَعْرِفُ شَيْئًا يَأْوِي إِلَيْهِ إِلَّا ثَدْيَ أُمِّهِ، كَذَلِكَ الْمُتَوَكِّلُ لَا يَأْوِي إِلَّا إِلَى رَبِّهِ سُبْحَانَهُ.

الدرجة الخامسة: حسن الظن بالله عزَّ وجلَّ.

فعلى قدر حسن ظنِّك بربِّك ورجائك له يكونُ توكلُّك عليه.

ولذلك فسَّرَ بَعْضُهُمُ التَّوَكَّلَ بحسن الظن بالله.

والتحقيق: أن حسن الظن به يدعوهُ إلى التَّوَكَّلِ عليه؛ إذ لا يُتَصَوَّرُ التَّوَكَّلُ على مَنْ ساء ظنُّك به، ولا التَّوَكَّلُ على مَنْ لا ترجوه، والله أعلم.

الدرجة السادسة: استسلام القلب له، وانجذابُ دواعيه كلها إليه، وقطع منازعته.

وهذا فسَّرَهُ مَنْ قال: أن يكون العبد بين يدي الله كالмит بين يدي الغاسل، يُقَلِّبُهُ كيف أراد، لا يكون له حركة ولا تدبير.

الدرجة السابعة: التفويض.

وهو روح التوكل ولُّبُهُ وحقيقته، وهو إلقاء أموره كلها إلى الله، وإنزالها به طلبًا واختيارًا، لا كرهاً واضطرارًا، بل كتفويض الابنِ العاجزِ الضَّعِيفِ المغلوبِ على أمره، كُلُّ أموره إلى أبيه العالم بشفقته عليه ورحمته وتمام كفايته وحسن ولايته له وتدبيره له، فهو يرى أن تدبيرَ أبيه له خيرٌ من تدبيره لنفسه، وقيامه بمصالحه وتوَلَّيْهِ لها خيرٌ من قيامه هو بمصالح نفسه وتوَلَّيْهِ لها، فلا يجد له أصلحَ ولا أرفقَ مِنْ تفويضه أموره كلها إلى أبيه، وراحته مِنْ حمل كلفها، وثقل حملها، مع عجزه عنها وجهله بوجوه المصالح فيها، وعلمه بكمالِ علم مَنْ فَوَّضَ إليها، وقدرته وشفقته.

فإذا وَضَعَ قدمه في هذه الدرجة انتقل منها إلى درجة الرِّضا، وهي ثمرة التَّوَكَّلِ، وَمَنْ فَسَّرَ التَّوَكَّلَ بها فإنما فسَّرَهُ بِأَجَلٍ ثمراته وأعظم فوائده؛ فإنه إذا

توكل حَقَّ التوكل رضي بما يفعله وكيِّله.

وكان شيخنا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقول: المقدورُ يَكْتَنِفُهُ أمران: التوكلُّ قبله، والرضا بعده؛ فمن توكلَّ على الله قبل الفعل، ورضي بالمقضي له بعد الفعل، فقد قام بالعبودية، أو معنى هذا». اهـ.



«وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النساء: ٢٦]، وقوله: ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٨]».

في هاتين الآيتين إثبات أربعة أسماء حسنى، وأربع صفات.
أما الأسماء فهي الله، العليم، الحكيم، الخبير.
وأما الصفات فصفة الألوهية، والعلم، والحكمة، والخبرة.

أما العليم فهو على وزن فعيل، وهي صيغة مبالغة تدلُّ على سعة علم الله وإحاطته بكل شيء، كما قال سبحانه: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]، وقال سبحانه: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]، وقال: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وغير ذلك.

وعلمه - سبحانه - من صفات ذاته، أحاط بكل شيء من الأمور الماضية والحاضرة والمستقبلية، ومن العالم العلوي والسفلي، ومن الظواهر والبواطن والواجبات والجائزات والمستحيلات، يعلم ما كان وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، فلا يغيب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

والفرق بين علم الله وعلم خلقه كالفرق بين ذاته وذواتهم ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

وفي «البخاري» و«مسلم» في قصة موسى مع الخضر عليهما السلام، وفيها: «فلما رَكِبَا في السفينة جاء عصفورٌ فوقَّعَ على حرف السفينة، فنقر في البحرِ نقرةً أو نقرتين، قال له الخضر: يا موسى ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور بمنقاره من البحر».

ومن الفوارق بين علم الله وعلمنا:

- 1 - أن علم الله من لوازم ذاته سبحانه، بخلاف علمنا.
- 2 - أن علم الله غير مسبوق بجهل، ولا يلحقه نسيان، كما قال سبحانه: ﴿قَالَ عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ [طه: ٥٢]، بخلاف علمنا فهو مسبوق بجهل ويلحقه نسيان؛ قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [النحل: ٧٨]، وقال سبحانه: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: ٢٤]، وقال: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].
- 3 - أن علم الله يتعلق بالواجبات والممكنات والمستحيلات والممتنعات، بخلاف علمنا.
- 4 - أن علم الله يتعلق بالغيب والشهادة، والغيب ما مضى وإن بُعد، وما سيأتي وإن بُعد، وكل ما غاب عن الشخص بخلاف المخلوق الذي لا يستقل بمعرفة شيء من الغيب إلا بتعليم الله ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ (٢٦) ﴿إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ (٢٧) ﴿لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن: ٢٦-٢٨].
- 5 - أن علم الله عام وشامل، بخلاف علم المخلوق.

(الحكيم) قال العلامة السعدي رَحِمَهُ اللهُ فِي تَفْسِيرِهِ: «هو الذي له الحكمة العليا في خلقه وأمره: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، فلا يخلق شيئاً عبثاً، ولا يشرع شيئاً سُدًى، الذي له الحكم في الأولى والآخرة، وله

الأحكام الثلاثة، لا يشاركه فيها مشارك: فيحكم بين عباده في شرعه، وفي قدره وجزائه، والحكمة وضع الأشياء مواضعها وتنزيلها منازلها». اهـ.

وقد ذكر العلامة ابن القيم في نونيته - نظامًا - أن اسمه «الحكيم» - سبحانه - متضمّن لوصفين، كل منهما بالغ غاية الكمال ونهاية التمام، وهما الحكم والإحكام، وكلاهما قد تضمّنه القرآن.

فالحكم كوني، وشرعي، وجزائي، والإحكام في الشيء نفسه وفي الغاية منه.

وحكمة الله نوعان:

قال العلامة السّعودي رَحِمَهُ اللهُ: «وحكمته نوعان: أحدهما الحكمة في خلقه، فإنه خلق الخلق بالحق، ومشتماً على الحق، وكان غايته المقصودة به الحق، خلق المخلوقات كلها بأحسن نظام، ورتّبها أكمل ترتيب، وأعطى كل مخلوق خلقه اللائق به، بل أعطى كلّ جزءٍ من أجزاء المخلوقات، وكلّ عضوٍ من أعضاء الحيوانات خِلقَتَهُ وَهَيْئَتَهُ، فلا يرى أحد في خلقه خللاً ولا نقصاً ولا فطوراً.

فلو اجتمعت عقول الخلق من أولهم إلى آخرهم؛ ليقترحوا مثل خلق الرحمن أو ما يقارب ما أودعه في الكائنات من الحسن والانتظام والإتقان لم يقدرُوا، وأنى لهم القدرة على شيء من ذلك؟!

وحسب العقلاء الحكماء منهم أن يعرفوا كثيراً من حِكْمِهِ، ويطلّعوا على بعض ما فيها من الحُسْنِ والإِتْقَانِ، وهذا أمرٌ معلومٌ قطعاً بما يُعلم من عظمتِهِ وكَمالِ صفاته وتتبع حِكْمِهِ في الخلق والأمر.

وقد تحدّى عباده أن ينظروا ويكرّروا النظر والتأمل، هل يجدون في خلقه خللاً أو نقصاً، وأنه لا بد أن ترجع الأبصارُ كليلَةً عاجزةً عن الانتقاد على شيءٍ

من مخلوقاته.

النوع الثاني:

الحكمة في شرعه وأمره، فإنه تعالى شرع الشرائع وأنزل الكتب وأرسل الرسل؛ ليعرفه العباد، ويعبدوه، فأى حكمة أجل من هذا؟ وأى فضل وكرم أعظم من هذا؟

فإن معرفته تعالى وعبادته وحده لا شريك له وإخلاص العمل له وحمده وشكره والثناء عليه أفضل العطايا منه لعباده على الإطلاق، وأجل الفضائل لمن يمن الله عليه بها، وأكمل سعادة وسرور للقلب والأرواح، كما أنها هي السبب الوحيد للوصول إلى السعادة الأبدية والنعيم الدائم، فلو لم يكن في شرعه وأمره إلا هذه الحكمة العظيمة التي هي أصل الخيرات وأكمل اللذات، ولأجلها خلقت الخليقة، وحق الجزاء، وخلقت الجنة والنار لكانت كافية شافية.

هذا، وقد اشتمل شرعه ودينه على كل خير، فأخباره تملأ القلوب علماً و يقيناً وإيماناً وعقائد صحيحة، وتستقيم بها القلوب، ويزول انحرافها، وتثمر كل خلق جميل وعمل صالح وهدى ورشد، وأوامره ونواهيه محتوية على غاية الحكمة والصلاح، والإصلاح للدين والدنيا، فإنه لا يأمر إلا بما مصلحته خالصة أو راجحة، ولا ينهى إلا عما مضرته خالصة أو راجحة.

ومن حكمة الشرع الإسلامى: أنه كما أنه الغاية لصلاح القلوب والأخلاق والأعمال والاستقامة على الصراط المستقيم، فهو الغاية لصلاح الدنيا، فلا تصلح أمور الدنيا صلاحاً حقيقياً إلا بالدين الحق الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، وهذا مشاهد محسوس لكل عاقل، فإن أمة محمد صلى الله عليه وسلم لمّا كانوا قائمين بهذا الدين: أصوله وفروعه وجميع ما يهدي ويرشد إليه، كانت

أحوالهم في غاية الاستقامة والصّلاح، ولمّا انصرفوا عنه وتركوا كثيرًا من هُداة، ولم يَسْتَرْشِدُوا بتعاليمه العالية انحرفت دنياهم كما انحرف دينهم.

وكذلك انظر إلى الأمم الأخرى التي بلغت في القوة والحضارة والمدنية مبلغًا هائلًا، لكن لمّا كانت خاليةً من روح الدّين ورحمته وعدله كان ضررها أعظم من نفعها، وشرّها أكبر من خيرها، وعجزَ علماءؤها وساستُها عن تلافي الشرور الناشئة عنها، ولن يقدرُوا على ذلك ما داموا على حالهم، ولهذا كان من حكمته تعالى أن ما جاء به محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الدين والقرآن أكبر البراهين على صدق ما جاء به؛ لكونه محكمًا كاملاً لا يصلح الصّلاح إلا به». اهـ. «شرح النونية» للهرّاس (2/ 83-84).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ - كما في «مجموع الفتاوى» (16/ 298): «والرّبُّ - تعالى - أحكمُ الحاكمين وأحكمُ الحكماء، والإحكامُ الذي في مخلوقاته دليلٌ على علمه». اهـ.

وقال العَلَّامةُ ابن القيم في مدارج السالكين (3/ 437): «والحكمةُ تتضمَّنُ كمالَ علمه وخبرته، وأنه أمرٌ ونهى وخلقٌ وقدرٌ؛ لما له في ذلك من الحكم والغايات الحميدة التي يستحق عليها كمالُ الحمد، والإحكامُ في مخلوقاته دليلٌ على علمه». اهـ.

وفي إثبات صفة العلم ردُّ على مَنْ نفاهَا، وردُّ على مَنْ قال: إن الله يعلم الكليات دون الجزئيات، وعلى مَنْ قال: إن الله لا يعلم أفعال العباد إلا بعد وجودها.

وفي إثبات صفة الحكمة ردُّ على مَنْ أنكرها من الجهميّة والأشاعرة وغيرهم.

وقال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في شرحه للواسطية (ص 154): «وفيها- الآية السابقة- من الفوائد المسلكية: أن الإيمان بعلم الله وحكمته يستلزم الطمأنينة التامة لما حَكَمَ به من أحكام كونيّة وشرعيّة؛ لصدور ذلك عن علمٍ وحكمة، فيزول عنه القلق النفسي وينشرح صدره». اهـ.

﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ سبق الكلام على اسم الله الحكيم.

وأما الخبير؛ فقد قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في شرحه للواسطية (ص 154 - 155): «الخبير هو العليم ببواطن الأمور، فيكون هذا وصفاً أخصّ بعد وصفٍ أعم، فنقول: العليم بظواهر الأمور، والخبير ببواطن الأمور، فيكون العلمُ بالبواطن مذكوراً مرّتين: مرّةً بطريق العموم، ومرّةً بطريق الخصوص؛ لئلا يظن أن علمه مختص بالظواهر...»

وفي هذه الآية من أسماء الله تعالى: العليم، والخبير، ومن صفاته: العلم، والخبرة.

وفيها من الفوائد المسلكية: أن الإيمان بذلك يزيد المرء خوفاً من الله، وخشيةً سرّاً وعلناً». اهـ.



﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ [سبأ: 2]، ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]، ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ [فاطر: ١١]، ﴿لِنَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢].

هذه الآيات الأربع التي أوردها المؤلف فيها تفصيل لصفة العلم، وأن الله أحاط بكل شيء علماً، وأنه لا يخفى عليه خافية.

قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ﴾: (ما) اسم موصول يفيد العموم لكل ما يَلِجُ في الأرض من المطر والبذور وأجساد الموتى، وسائر ما يَلِجُ في الأرض من الحيوانات وغيرها.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾: يعلم كل ما يخرج من الأرض من ماء، ونبات، وحيوان، ومعادن، وعذاب، وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ مثل الوحي، والملائكة، والمطر، وأمر الله، وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ مثل الملائكة والأعمال الصالحة والدعاء وأرواح المؤمنين، وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ الآية.

قال ابن العربي رحمه الله في «أحكام القرآن» (2/ 735): «هذه الآية أصل من

أصول عقائد المسلمين، وركنٌ من قواعد الدين معظمها يتفسَّر بها». اهـ.
 وقوله سبحانه: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ﴾، قال الشيخ الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ فِي
 «أضواء البيان» (2/ 195): «والمفاتيح: الخزائن، جمع مَفْتَحٍ بفتح الميم، بمعنى
 المَخْزَن، وقيل: المفاتيح جمع مِفْتَحٍ بكسر الميم، وهو المِفْتَاح». اهـ.

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ: «بَيَّنَّ تعالى المراد بمفاتيح الغيب بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ
 عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا
 تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾
 [لقمان: ٣٤]، فقد أخرج البخاري وأحمد وغيرهما عن ابن عمر عن النبي
 صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أن المراد بمفاتيح الغيب الخمس المذكورة في الآية
 المذكورة». اهـ.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾، قال القاسمي في تفسيره المسمَّى:
 «محاسن التأويل»: (6/ 558): ﴿لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ تأكيدٌ لمضمون ما قبله،
 وإيدانٌ بأن المراد الاختصاص من حيث العلم». اهـ.

وقوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾، هذا- كما سبق- يدلُّ على
 سعة علم الله وشموله، فهو يعلم ما في البر من إنس وجن وبهائم وطيِّرٍ
 وحشرات، وجميع ما يدبُّ على وجه الأرض، ويعلم ما في البرِّ من شجر وحجر
 وغير ذلك.

وهكذا ما في البحر مما يعيش فيه من حيوان ونبات، وما فيه من أحجار
 كريمة وغير ذلك، وقد قيل: إن ما في البحر أضعاف ما في البرِّ، والعلمُ عند الله.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلْمَةٍ

الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كَنْبٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٥﴾.

كلمة «ورقة» و«حبة» و«رطب» و«يابس» تكرأت في سياق النفي تفيد العموم، وهذا يدل على سعة علم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا يَعْلَمُهُ﴾.

(ما) نافية. و(أنثى) نكرة في سياق النفي، فتعم كل أنثى من الإنس والجن والبهائم والطيور والحيتان، وغير ذلك، فابتداء حملها بعلم الله، ووضعها له بعلم الله.

وقوله تعالى: ﴿لِنَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾.

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ في شرحه للواسطية (163 - 165):
«لِنَعْلَمُوا»: اللام للتعليل؛ لأن الله قال: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِنَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، فقد خلق هذه السماوات السبع والأرضين السبع، وأعلمنا بذلك لنعلم ﴿أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

والقدرة وصفٌ يتمكّن به الفاعل من الفعل بدون عجز، فهو على كل شيء قدير، يقدر على إيجاد المعدوم وعلى إعدام الموجود، فالسماوات والأرض كانت معدومة، فخلقها الله عَزَّجَلَّ، وأوجدَهَا على هذا النظام البديع.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾: كل شيء: الصغير والكبير، والمتعلق بفعله، أو بفعل عباده، والماضي واللاحق والحاضر، كل ذلك قد أحاط الله سبحانه به علماً.

وذكر الله عَزَّجَلَّ العلمَ والقدرةَ بعد الخلق؛ لأن الخلق لا يتمُّ إلا بعلمٍ وقدرةٍ، ودلالة الخلق على العلم والقدرة من باب دلالة التَّلازم، وقد سبق أنَّ دلالات الأسماء على الصفات ثلاثة أنواع.

تنبيه: ذكر في «تفسير الجلالين» - عفا الله عنا وعنه - في آخر سورة المائدة ما نصه: وخص العقل ذاته؛ فليس عليها بقادر». اهـ.

ونحن نناقش هذا الكلام من وجهين:

الوجه الأول: أنه لا حكم للعقل فيما يتعلق بذات الله وصفاته، بل لا حكم له في جميع الأمور الغيبية، ووظيفة العقل فيها التسليم التام، وأن نعلم أن ما ذكره الله من هذه الأمور ليس محالاً؛ ولهذا يقال: إن النصوص لا تأتي بمحال، وإنما تأتي بِمُحَارٍ، أي بما يُحَيِّرُ العقول؛ لأنها تسمع ما لا تدركه ولا تتصوره.

والوجه الثاني: قوله: «فليس عليها بقادر» هذا خطأ عظيم، كيف لا يقدر على نفسه وهو قادر على غيره، فكلامه هذا يستلزم أنه لا يقدر أن يستوي، ولا أن يتكلم، ولا أن ينزل إلى السماء الدنيا، ولا يفعل شيئاً أبداً، وهذا خطر جداً. لكن لو قال قائل: لعله يريد: (خص العقل ذاته؛ فليس عليها بقادر) يعني: لا يقدر على أن يلحق نفسه نقصاً.

قلنا: إن هذا لم يدخل في العموم، حتى يحتاج إلى إخراجٍ وتخصيصٍ؛ لأن القدرة إنما تتعلق بالأشياء الممكنة، لأن غير الممكن ليس بشيء لا في الخارج ولا في الذهن، فالقدرة لا تتعلق بالمستحيل، بخلاف العلم.

فينبغي للإنسان أن يتأدَّب فيما يتعلق بجانب الروبوتية؛ لأن المقام مقامٌ عظيمٌ، والواجب على المرء نحوه أن يستسلم ويُسلِّم.

إذا؛ نحن نطلق ما أطلقه الله، ونقول: إن الله على كل شيء قديرٌ، بدون استثناء.

وفي هذه الآية من صفات الله تعالى: إثبات عموم علم الله على وجه التفصيل، وإثبات عموم قدرة الله تعالى.

والفائدة المسلكية من الإيمان بالعلم والقدرة: قوّة مراقبة الله، والخوف منه». اهـ.



«وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨]، وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨].»

الآية الأولى تَصَمَّنَتْ ثلاثة أسماء لله عزَّ وجلَّ، وأربع صفات.

أما الأسماء فهي: (الله، الرزاق، المتين).

وأما الصفات فهي: (صفة الألوهية، صفة الرزق، صفة القوة، صفة المتانة)، وكلها ذاتية إلا الرزق، فهي صفة فعلية، وكلها نثبتها لله عزَّ وجلَّ على الوجه اللائق بعظمته وكماله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وقوله: ﴿الرَّزَاقُ﴾: فعَّال من أبنية المبالغة، ومعناه الذي أعطى الخلائق أرزاقها وساقها إليهم، والرَّزُق بالفتح: العطاء. وبالكسر لغة: الحظُّ والنصيب. وشرعاً: هو ما ينفع من حلال أو حرام. «التنبيهات السَّنيَّة على العقيدة الواسطية». (ص 62).

«وينقسم الرزق إلى قسمين: عام وخاص.

فالعام: كل ما ينتفع به البدن، سواء كان حلالاً أو حراماً، وسواء كان المرزوق مسلماً أو كافراً؛ ولهذا قال السَّفَّاريني:

وَالرَّزْقُ مَا يَنْفَعُ مِنْ حَلَالٍ أَوْ ضِدُّهُ فَحُلٌّ عَنِ الْمُحَالِ
لَأَنَّهُ رَازِقٌ كُلِّ الْخَلْقِ وَلَيْسَ مَخْلُوقٌ بغيرِ رِزْقٍ

لأنك لو قلت: إن الرزق هو العطاء الحلال، لكان كل الذين يأكلون الحرام لم يُرزقوا، مع أن الله أعطاهم ما تصلح به أبدانهم.

لكن الرزق نوعان: طيّب، وخبث.

ولهذا قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، ولم يقل: والرزق، أما الخبائث من الرزق فهي حرام. أما الرزق الخاص: فهو ما يقوم به الدين من العلم النافع والعمل الصالح، والرزق الحلال المعين على طاعة الله؛ ولهذا جاءت الآية الكريمة: ﴿الرَّزَاقُ﴾، ولم يقل: الرزاق؛ لكثرة رزقه وكثرة من يرزقه، فالذي يرزقه الله عزَّجَل لا يحصى باعتبار أجناسه، فضلاً عن أنواعه، فضلاً عن آحاده؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود: ٦].

ويعطي الله الرزق بحسب الحال.

ولكن إذا قال قائل: إذا كان الله هو الرزاق، فهل أسعى بطلب الرزق، أو أبقى في بيتي ويأتيني الرزق؟

فالجواب نقول: اسع لطلب الرزق، كما أن الله غفور، فليس معنى هذا أن لا تعمل وتتسبب للمغفرة.

أما قول الشاعر:

جُنُونٌ مِنْكَ أَنْ تَسْعَى لِرِزْقٍ وَيُرْزَقُ فِي غِشَاوَتِهِ الْجَنِينُ

فهذا القول باطل.

وأما استشهاده بالجنين، فالجواب أن يقال: الجنين لا يمكن أن يوجه إليه طلب الرزق؛ لأنه غير قادر، بخلاف القادر؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ الشُّورُ﴾

[الملك: ١٥]، فلا بُدَّ من سعيي، وأن يكون هذا السعي على وفق الشرع. اهـ.
«شرح الواسطية» للعلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ (١٦٥-١٦٧).

وهكذا استدلال البعض بحديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عند الترمذي وغيره، أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لو أنكم توكلتم على الله حقَّ توكلِهِ لَرَزَقَكُمْ كما يرزق الطير، تَغْدُو خِمَاصًا، وَتَرُوحُ بِطَانًا».

فهذا الحديث حُجَّةٌ عليهم لا لهم؛ لأن الطير تغدو وتروح، وهذا يريد أن لا يبرح مكانه، ويُعرض عن جميع الأسباب.

فائدة:

سُئِلَ شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ - كما في «مجموع الفتاوى» (٨/ ٥٤٢ - ٥٤٤) - عن الرجل إذا قَطَعَ الطريق وسرق أو أكل الحرام ونحو ذلك، هل هو رزقه الذي ضمنه الله تعالى له أم لا؟ أفتونا مأجورين.

فأجاب:

«الحمد لله: ليس هذا هو الرزق الذي أباحه الله له، ولا يحب ذلك ولا يرضاه، ولا أمره أن ينفق منه، كقوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: 3]، وكقوله تعالى: ﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ [الرعد: 22]، ونحو ذلك لم يدخل فيه الحرام، بل مَنْ أَنْفَقَ مِنَ الْحَرَامِ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَذُمُّهُ وَيَسْتَحِقُّ بِذَلِكَ الْعِقَابَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، بِحَسَبِ دِينِهِ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ [النساء: ٢٩]، وهذا أكل المال بالباطل.

ولكن هذا الرزق الذي سبق به علم الله وقدره، كما في الحديث الصحيح، عن ابن مسعود عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أنه قال: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي

بطن أمه أربعين يومًا نطفةً، ثم يكون علقةً مثل ذلك، ثم يكون مضغةً مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك، فيؤمر بأربع كلمات: فيكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيداً.

فكما أن الله كتب ما يعملُه من خير وشر، وهو يشيئه على الخير، ويعاقبه على الشر، فكذلك كتب ما يرزقه من حلال وحرام، مع أنه يعاقبه على الرزق الحرام. ولهذا كل ما في الوجود واقعٌ بمشيئة الله وقدره، كما تقع سائر الأعمال، لكن لا عذر لأحد بالقدر، بل القدر يؤمن به، وليس لأحد أن يحتج على الله بالقدر، بل لله الحجة البالغة، ومن احتجَّ بالقدر على ركوب المعاصي فحجته داحضة.

ومن اعتذر به فعذره غير مقبول، كالذين قالوا: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، والذين قالوا: ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ [الزخرف: ٢٠]، كما قال تعالى: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتِي عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لِمِنَ السَّادِّخِينَ﴾ ٥٦ أو تقول لو أتب الله هَدَنِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿ [الزمر: ٥٦-٥٨].

وأما الرزق الذي ضمنه الله لعباده، فهو قد ضمنَ لمن يتَّقِيه أن يجعل له مخرجًا، ويرزقه من حيث لا يحتسب، وأما من ليس من المتقين فضمنَ له ما يناسبه، بأن يمنحه ما يعيش به في الدنيا، ثم يعاقبه في الآخرة، كما قال عن الخليل: ﴿وَأَرْزَقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ١٢٦].

والله إنما أباح الرزق لمن يستعين به على طاعته، ولم يُبَحِّه لمن يستعين به على معصيته، بل هؤلاء وإن أكلوا ما ضمنه لهم من الرزق فإنه يعاقبهم، كما

قال: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: 126]، وقال تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ [المائدة: 1]، فإنما أباح الأنعام لمن يحرم عليه الصيد في الإحرام.

وقال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: 93]، فكما أن كل حيوان يأكل ما قُدِّرَ له من الرزق، فإنه يُعاقب على أخذ ما لم يُبَحَّ له، سواء كان مُحَرَّم الجنس، أو كان مستعينا به على معصية الله، ولهذا كانت أموال الكفار غير مغصوبة، بل مباحة للمؤمنين، وتسمى فيئًا إذا عادت إلى المؤمنين؛ لأن الأموال إنما يستحقها من يطيع الله، لا من يعصيه بها، فالمؤمنون يأخذونها بحكم الاستحقاق، والكفار يعتدون في إنفاقها، كما أنهم يعتدون في أعمالهم، فإذا عادت إلى المؤمنين فقد فاءت إليهم، كما يفى المال إلى مستحقه». اهـ.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في «مجموع الفتاوى» (8/ 545 - 546): «عن الخمر والحرام: هل هو رزق الله للجُهَّال؟ أم يأكلون ما قُدِّرَ لهم؟
فأجاب: إن لفظ (الرزق) يراد به ما أباحه الله تعالى للعبد، وملَّكه إياه، ويراد به ما يتغذى به العبد.

فالأول: كقوله: ﴿أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: 254]، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: 3]، فهذا هو الحلال، والمملوك لا يدخل فيه الخمر والحرام.

والثاني: كقوله: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود: 6]، والله تعالى يرزق البهائم، ولا

توصف بأنها تملك، ولا بأنه أباح الله ذلك لها إباحةً شرعيةً، فإنه لا تكليف على البهائم، وكذلك الأطفال والمجانين، لكن ليس بمملوكٍ لها وليس بمحرَّمٍ عليها، وإنما المحرَّم بعض الذي يتغذى به العبد، وهو من الرزق الذي علم الله أنه يتغذى به، وقدّر ذلك، بخلاف ما أباحه وملكه، كما في «الصحيحين» عن ابن مسعود عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «يُجْمَعُ خَلْقُ أَحَدِكُمْ فِي بطنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا نطفة، ثم يكون علقَةً مثْلَ ذلك، ثم يكون مُضْغَةً مثْلَ ذلك، ثم يبعثُ المَلَكُ فيؤمِّرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: فيقالُ: اكْتُبْ رِزْقَهُ وَأَجَلَهُ وَعَمَلَهُ وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، ثم يُنفَخُ فيه الروحُ، قال: فوالله الذي نفسي بيده إن أَحَدَكُمْ ليعمَلُ بعملِ أهل الجنة، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراعٌ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعملِ أهل النار فيدخلها، وإن أَحَدَكُمْ ليعمَلُ بعملِ أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراعٌ، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعملِ أهل الجنة فيدخلها».

والرزق الحرامُّ مما قدّره الله وكتبته الملائكةُ، وهو مما دخل تحت مشيئة الله وخلقته، وهو مع ذلك قد حرّمهُ ونهى عنه، فلفاعله مِنْ غضبه ودمّه وعُقوبته ما هو أهْلُهُ، والله أعلم». اهـ.

فائدة أخرى:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ كما في «مجموع الفتاوى» (8/ 541):
«والرزق يراد به شيئان:

أحدهما: ما ينتفع به العبد.

والثاني: ما يملكه العبد، فهذا الثاني هو المذكور في قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَهُمْ يُنفِقُونَ﴾، وقوله: ﴿أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾، وهذا هو الحلال الذي مَلَكَهُ اللهُ إياه.

وأما الأول: فهو المذكور في قوله: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾، وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنْ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَكْمَلَ رِزْقَهَا»، ونحو ذلك.

والعبد قد يأكل الحلال والحرام، فهو رزقٌ بهذا الاعتبار، لا بالاعتبار الثاني، وما اكتسبه ولم ينتفع به هو رزقٌ بالاعتبار الثاني دون الأول، فإن هذا في الحقيقة مَالٌ وَارِثُهُ لَا مَالَهُ، والله أعلم». اهـ.

مسألة:

هل الرزق يزيد وينقص؟

سئل شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ - كما في «مجموع الفتاوى» (8 / 540) - عن ذلك، فأجاب رَحِمَهُ اللَّهُ:

«الرزق نوعان:

أحدهما: ما علمه الله أنه يرزقه، فهذا لا يتغير.

والثاني: ما كتبه وأعلم به الملائكة، فهذا يزيد وينقص بحسب الأسباب؛ فإن العبد يأمر الله الملائكة أن تكتب له رزقاً، وإن وَصَلَ رَحِمَهُ زاده الله على ذلك، كما ثبت في الصحيحين عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ».

وكذلك عمر داود عَلَيْهِ السَّلَامُ زاد سِتِّينَ سنة، فجعله الله مئةً بعد أن كان أربعين.

ومن هذا الباب قول عمر: «اللهم إِنْ كُنْتَ كَتَبْتَنِي شَقِيًّا فَامْحُنِي، وَاكْتَبْتَنِي سَعِيدًا؛ فَإِنَّكَ تَمْحُو مَا تَشَاءُ وَتُثَبِّتُ».

ومن هذا الباب قوله تعالى عن نوح: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا﴾ (٣) يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿[نوح: ٣-٤]، وشواهد كثيرة. اهـ.

السَّعْيُ إِلَى الرِّزْقِ نَوْعَانِ:

قال شيخ الإسلام كما في «مجموع الفتاوى» (٨/ 541): «السَّعْيُ سَعْيَانِ: سعي فيما نُصِبَ للرِّزْقِ، كالصناعة والزراعة والتجارة.

وسعي بالدعاء والتوكل والإحسان إلى الخلق، ونحو ذلك؛ فإن الله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه». اهـ.

قلت: فَمِنْ السَّعْيِ الثَّانِي:

1- تقوى الله؛ قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴿[الطلاق: ٢-٣]، وقال في مريم عليها السلام: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِئُؤُا أَنَّى لَئِذَا هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧].

2- التوكل على الله؛ قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ ﴿[الطلاق: ٣]، أي: كافيه.

3- القيام بحق العبودية لله، ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٣٦]، ومنه قوله تعالى في الحديث القدسي: «يا بن آدم، تفرغ لِعِبَادَتِي أَمْلَأُ قَلْبَكَ غِنًى وَأَسَدَّ فَقْرَكَ، وَلَا تَبَاعِدْ عَنِّي؛ فَأَمْلَأُ يَدَيْكَ شُغْلًا، وَلَا أَسُدُّ فَقْرَكَ».

4- الدعاء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ

الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ [غافر: ٦٠]، وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦]، ومنه حديث النزول، وغير ذلك.

5. الاستقامة على أمر الله، ومنه قوله تعالى: ﴿وَالْوِاسْطَقْمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِيَنَّهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦].

6. الإحسان إلى الخلق، ومنه: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، ومنه قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه».

لا رازق إلا الله وحده لا شريك له:

قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنِ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ [الملك: ٢١]، وقال تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٣]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ٦٠]، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَكُم مِّنْ تَعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ [النحل: ٥٣]، فعجباً لمن يرزقه الله، ويشكر غيره، ويحب غيره، ويبارزه - سبحانه - بالمعاصي آناء الليل وأطراف النهار.

قوله: ﴿ذُو الْقُوَّةِ﴾.

أي: صاحب القوة التامة التي لا يعترها ضعف «والقوة صفةٌ يتمكن بها الفاعل من الفعل بدون ضعف، والدليل قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم: 54].

وليست القوة هي القدرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤]، فالقدرة يقابلها العجز، والقوة يقابلها الضعف.

والفرق بينهما: أن القدرة يوصف بها ذو الشعور، والقوة يوصف بها ذو الشعور وغيره.

ثانيًا: أن القوة أخصُّ، فكل قوي من ذوي الشعور قادرٌ، وليس كل قادر قويًا.

مثال ذلك: تقول: الريح قوية، ولا تقول: الريح قادرة، وتقول: الحديد قوي، ولا تقول: قادر، لكن ذو الشعور تقول: إنه قوي، وإنه قادرٌ.

ولما قالت عاد: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾؛ قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥]. «شرح الواسطية» للعلامة ابن عثيمين (ص 167).

وقوله تعالى: ﴿الْمَتِينُ﴾.

فيه - كما سبق - إثبات صفة المتانة، ومعناها كمال القوة والشدة، وصفة المتانة من حيث المعنى تؤكد لصفة القوة.

«والفائدة المسلكية في الإيمان بصفة القوة والرزق: أن لا نطلب القوة والرزق إلا من الله تعالى، وأن نؤمن بأن كل قوة مهما عظمت فلن تقابل قوة الله تعالى». «شرح الواسطية» (ص 168).

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

أورد المؤلف رَحْمَهُ اللَّهُ هذه الآية لإثبات اسمين من أسماء الله الحسنی، وهما السَّمِيعُ والبصير، وإثبات ما تَضَمَّنَاهُ من صفةٍ، وهما صفة السمع وصفة البصر.

وهذه الآية فيها بيان طريقة القرآن في إثبات الأسماء والصفات لله، مع نفي مماثلة المخلوقات إثباتاً بلا تمثيل، وتنزيهاً بلا تعطيل؛ ففي قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾: ردٌّ على المُمَثِّلَةِ، وفي قوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾: ردٌّ على المُعْطَلَةِ. انظر «مجموع الفتاوى» (4/3).

وقد قال الإمام الشوكاني رحمه الله تعالى في «فتح القدير» (4/740): «وَمَنْ فَهَمَ هذه الآية الكريمة حَقَّ فَهَمِهَا وتَدَبَّرَهَا حَقَّ تَدَبُّرِهَا مشى بها عند اختلاف المختلفين في الصفات على طريقة بيضاء واضحة، ويزداد بصيرة إذا تأمل معنى قوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، فإن هذا الإثبات بعد ذلك النفي للمماثل قد اشتمل على بَرْدِ اليقين وشفاء الصدور وانثلاج القلوب، فأقْدَرُ - يا طالب الحق - قدر هذه الحُجَّةِ النَّيِّرَةِ والبرهان القوي؛ فإنك تُحَطِّمُ بها كثيراً من البدع، وتُهَشِّمُ بها رُءُوساً من الضَّلالة، وترغم بها آناف طوائف من المتكلمين، لا سيما إذا ضمنت إليها قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً﴾ [طه: ١١٠]. اهـ.

ويقول العلامة الشنقيطي في «أضواء البيان» (2/273): «وَمَنْ اعْتَقَدَ أَنْ

وصف الله يشابه صفات الخلق فهو مُشَبَّهٌ مُلْحَدٌ ضَالٌّ، وَمَنْ أثبت لله ما أثبتته لنفسه أو أثبت له رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع تنزيهه جَلَّ وَعَلَا عن مشابهة الخلق فهو مؤمن، جامعٌ بين الإيمان بصفات الكمال والجلال، والتنزيه عن مشابهة الخلق، سالمٌ من ورطة التشبيه والتعطيل، والآية التي أوضح الله بها هذا هي قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، فنفى عن نفسه جَلَّ وَعَلَا مماثلة الحوادث، بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، وأثبت لنفسه صفات الكمال والجلال بقوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾؛ فصرَّح في هذه الآية الكريمة بنفي المماثلة مع الاتِّصاف بصفات الكمال والجلال.

والظاهر: أن السرَّ في تعبيره بقوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾: دون أن يقول مثلاً: وهو العلي العظيم، أو نحو ذلك من الصفات الجامعة: أن السمع والبصر يتصف بهما جميع الحيوانات، فبيَّن أن الله مُتَّصِفٌ بهما، ولكن وصفه بهما على أساس نفي المماثلة بين وصفه تعالى وبين صفات خلقه؛ ولذا جاء بقوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، بعد قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، ففي هذه الآية الكريمة إيضاحٌ للحق في آيات الصفات لا لبس معه ولا شبهة البتة». اهـ.

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ - كما في «مجموع الفتاوى» (26 / 5) - في الكلام على هذه الآية: «وهو سبحانه مع ذلك ليس كمثله شيء، لا في نفسه المقدسة المذكورة بأسمائه وصفاته، ولا في أفعاله، فكما نتقن أن الله سبحانه له ذات حقيقيَّة، وله أفعال حقيقيَّة، فكذلك له صفات حقيقيَّة، وهو ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، وكل ما أوجب نقصاً أو حدوثاً فإن الله مُنَزَّهٌ عنه حقيقةً، فإنه سبحانه مستحقُّ للكمال الذي لا غاية فوقه». اهـ.

وانظر «مختصر الصواعق» لابن القيم (ص 157 - 159).

«قوله تعالى: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾».

السَّمِيعُ يَرِدُ عَلَى مَعَانٍ ثَلَاثَةٍ:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية كما في «مجموع الفتاوى» (1/ 208-209):

«لفظ السَّمِيعُ يراد به: إدراك الصَّوت، ويراد به معرفة المعنى مع ذلك، ويراد به القبول والاستجابة مع الفهم». اهـ.

وقال تلميذه العلامة ابن القيم في «مفتاح دار السعادة» (ص 99): «والسَّمِيعُ يراد به إدراك الصوت، ويراد به فهم المعنى، ويراد به القبول والإجابة، والثلاثة في القرآن.

فَمِنْ الْأَوَّلِ: قوله: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]، وهذا أصرح ما يكون في إثبات صفة السمع، حيث ذكر الماضي والمضارع، واسم الفاعل سمع ويسمع، وهو سميع، وله السمع، كما قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة تشكو إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنا في جانب البيت، وإنه ليخفى عليَّ بعض كلامها، فأنزل الله: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾».

والثاني: سمع الفهم كقوله: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾، أي: لَأَفْهَمَهُمْ، ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣] لما في قلوبهم من الكِبَرِ والإعراض عن قبول الحق، ففيهم آفتان أحدهما: أنهم لا يفهمون الحق؛ لجهلهم، ولو فهموا لَتَوَلَّوْا عنه وهم معرضون عنه؛ لكبرهم، وهذا غاية النقص والعيب.

والثالث: سمع القبول والإجابة كقوله تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعَفُوا لَكُمْ بَغْوَكَمُ الْفِنَّةِ وَفِيكُمْ سَمْعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٧].

أي: قابلون مُستجيبون، ومنه قول المُصَلِّي: سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ: أي: أجاب الله حمد مَنْ حَمِدَهُ ودُعَاء مَنْ دَعَاهُ.

وقول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا قَالَ الْإِمَامُ: سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، فَقُولُوا: رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ؛ يَسْمَعُ اللهُ لَكُمْ». اهـ.

وقال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في شرحه للواسطية (ص 168-169): «وَأَمَّا السَّمْعُ بِمَعْنَى إدْرَاكِ الصَّوْتِ، فَإِنَّهُمْ قَسَمُوهُ إِلَى عِدَّةِ أَقْسَامٍ:

الأول: سَمْعٌ يراد به بيان عموم إدراك سمع الله عَزَّوَجَلَّ، وأنه ما مِنْ صَوْتٍ إِلَّا وَيَسْمَعُهُ اللهُ.

الثاني: سَمْعٌ يرادُ به النَّصْرُ والتَّأيِيدُ.

الثالث: سَمْعٌ يرادُ به الوَعِيدُ والتَّهْدِيدُ.

مثال الأول: قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: 1]؛ فهذا فيه بيان إحاطة سمع الله تعالى بكل مسموع، ولهذا قالت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «الحمدُ لله الذي وَسِعَ سَمْعُهُ الأصوات، واللهُ إني لفي الحُجرة، وإنَّ حديثها ليخفى عليَّ بعضه».

ومثال الثاني: كما في قوله تعالى لموسى وهارون: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦].

ومثال الثالث: الذي يُراد به التهديد والوعيد؛ قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا

سَمِعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿الزخرف: ٨٠﴾.

فإن هذا يراد به تهديدهم ووعدهم حيث كانوا يُسرون ما لا يَرْضَى من القول.

والسمع بمعنى النصر والتأييد من الصفات الفعلية؛ لأنه مقرونٌ بِسَبَبٍ.

والسمع بمعنى الإجابة من الصفات الفعلية أيضًا. اهـ.

وقوله تعالى: ﴿الْبَصِيرُ﴾.

قال العلامة ابنُ عُثيمين في شرحه للواسطية (ص 169 - 170): «البصير: يعني المُدْرِك لجميع المُبْصِرَاتِ، ويُطلق البصيرُ بمعنى العليم، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بصيرٌ يرى كل شيءٍ وإن خَفِيَ، وهو سبحانه بصيرٌ بمعنى: عليمٌ بأفعال عباده، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٩٦]، وفيها من الفوائد المسلكية:

الكفُّ عن محاولة تمثيلِ الله بخلقه واستشعار عظمته وكماله، والحذر من أن يراك على معصية، أو يسمع منك ما لا يرضاه». اهـ.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعْمًا يَعْظُمُ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: 58].

هذا بعد قول الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾.

قال العلامة السَّعْدِي رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره (ص 148): «الأمانات: كُلُّ ما ائْتُمَنَ عليه الإنسان وأُمِرَ بالقيام به، فأمر الله عباده بأدائها، أي: كاملة موفِّرة لا منقوصة، ولا مبخوسة، ولا ممطولا بها، ويدخل في ذلك أمانات الولايات والأموال والأسرار والمأمورات التي لا يطلع عليها إلا الله.

وقد ذكر الفقهاء أن مَنْ ائْتَمَنَ أمانةً وجب عليه حفظها في حرزٍ مثلها، قالوا: لأنه لا يمكن أداؤها إلا بحفظها؛ فوجب ذلك.

وفي قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ دلالة على أنها لا تدفع وتؤدي لغير المؤتمِن، ووكيله بمنزلته، فلو دفعها لغير ربِّها لم يكن مؤدِّيًّا لها.

﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ وهذا يشمل الحكم بينهم في الدماء والأموال والأعراض، القليل من ذلك والكثير، على القريب والبعيد، والبر والفاجر والولي والعدو.

والمراد بالعدل الذي أمر الله بالحكم به هو ما شرعه الله على لسان رسوله من الحدود والأحكام، وهذا يستلزم معرفة العدل ليحكم به، ولما كانت هذه أوامر حسنة عادلة قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعْمًا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾، وهذا مدح من الله لأوامره ونواهيه؛ لاشتمالها على مصالح الدارين ودفع مضارِّهما؛ لأنَّ شارِعها السميع البصير الذي لا تخفى عليه خافية ويعلم من مصالح العباد ما لا يعلمون». اهـ.

وفي الآية إثبات اسمين لله هما السميع والبصير، وهما متضمَّنان لصفتي السمع والبصر على الوجه اللائق بجلال الله وعظمته وكماله.

وقد أخرج أبو داود في سننه من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنه قرأ الآية السابقة إلى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾، ويضع إبهامه على أَذْنِهِ والتي تليها على عينه، ويقول: هكذا سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقرؤها ويضع إصبعيه.

وقد بيَّن العلامة ابن القيم كما في «مختصر الصواعق» (ص 512) أن النبي

صلى الله عليه وسلم إنما أشار إلى عينه وسمعه تحقيقاً لإثبات صفة السمع والبصر، لا تشبيهاً وتمثيلاً.



«وقوله: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [الكهف: ٣٩]، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلُوا وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَيْعَةُ الْأَنْعَمِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرِ مُحِلِّي الصِّدِّ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: ١]، ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]».

هذه الآيات الأربع تضمنت إثبات صفتي المشيئة، والإرادة، لله
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وإرادة الله نوعان:

الأولى: إرادة كونيّة قدريّة.

الثانية: إرادة دينية شرعية. انظر «مجموع الفتاوى» (8 / 58 - 59)، و«شفاء
العليل» لابن القيم (ص 106، 550 - 551).

والفرق بين الإرادتين من ثلاثة أوجه:

الأول: أن الإرادة الكونيّة مرادفة للمشيئة، وأما الإرادة الشرعيّة فمرادفة
للمحبة.

الثاني: أن الإرادة الكونيّة يلزم منها وقوع المراد، بخلاف الإرادة الشرعيّة،
فلا يلزم منها وقوع المراد.

الثالث: أن الإرادة الكونيّة تتعلّق بما يحبه الله وما لا يحبه، أما الإرادة
الشرعيّة فلا تتعلّق إلا بما يحبه الله ويرضاه، فالإرادة الكونيّة أعم من الإرادة

الشرعية.

ومن أدلة الإرادة الكونية: قوله تعالى: ﴿فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧]، وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقوله تعالى: ﴿إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: ٣٤]، وقوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٥]، وقوله: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥].

ومن أدلة الإرادة الدنيوية: قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٧].

قال الشيخ الفوزان - حفظه الله - في شرحه للواسطية (ص 38):

«تجتمع الإرادتان الكونية والشرعية في حق المخلص المطيع، وتنفرد الإرادة الكونية في حق العاصي.

من لم يثبت الإرادتين ويُفَرِّقَ بينهما فقد ضلَّ؛ كالجبرية والقدرية.

فالجبرية أثبتوا الإرادة الكونية فقط، والقدرية أثبتوا الإرادة الشرعية فقط، وأهل السنة أثبتوا الإرادتين وفرَّقوا بينهما». اهـ.

«إذا قال قائل: كيف يريد الله تعالى كَوْنًا ما لا يُحِبُّه شرعًا، بمعنى: كيف يريد الله الكفر أو الفسق أو العصيان وهو لا يحبه؟!»

فالجواب: أن هذا محبوب إلى الله من وجه، مكروه إليه من وجه آخر، فهو محبوبٌ إليه لما يتضمَّنُه من المصالح العظيمة، مكروهٌ إليه؛ لأنه معصية، ولا

مانع من أن يكون الشيء محبوباً مكروهاً باعتبارين.

فها هو الرجل يقدم طفله الذي هو فلذة كبده، وثمره فؤاده إلى الطبيب؛ ليشق جلده ويخرج المادة المؤذية فيه، ولو أتى أحد من الناس يريد أن يشقه بظفره، وليس بالمشروط لقاتله، لكن هو يذهب إلى الطبيب ليشقه وهو ينظر إليه وهو فرح مسرور، يذهب به إلى الطبيب، ليحمي الحديد على النار؛ حتى تلتهب حمراء، ثم يأخذها ويكوي بها ابنه وهو راضٍ بذلك؛ لماذا يرضى بذلك وهو ألم للابن؟ لأنه مرادٌ لغيره، للمصلحة العظيمة التي تترتب على ذلك.

ونستفيد بمعرفتنا للإرادة من الناحية المسلكية أمرين:

الأمر الأول: أن نعلّق رجاءنا وخوفنا وجميع أحوالنا وأعمالنا بالله؛ لأن كل شيء بإرادته، وهذا يحقق لنا التوكل.

الأمر الثاني: أن نفعل ما يريد الله شرعاً، فإذا علمنا أنه مرادٌ لله شرعاً ومحبوبٌ إليه؛ فإن ذلك يقوّي عزمنا على فعله.

هذا من فوائد معرفتنا بالإرادة من الناحية المسلكية، فالأول باعتبار الإرادة الكونية، والثاني باعتبار الإرادة الشرعية». اهـ. «شرح الواسطية» للعلامة ابن عثيمين (ص 183 - 184).

وقد قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في المشيئة، كما في كتابه «شفاء العليل» (ص 80): «دَلَّ عليها إجماعُ الرسل من أولهم إلى آخرهم، وجميع الكتب المنزلة من عند الله، والفطرة التي فطر الله عليها خلقه، وأدلة العقول والعيان». اهـ.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ كما في «مجموع الفتاوى» (8/ 62):

«الماضي بمشيئة الله، والمستقبل بمشيئة الله، فمن قال في الماضي: إن الله خلق السماوات والأرض بمشيئته وأرسل الرسل بمشيئته فقد أصاب، ومن قال: إنه يكون في الوجود شيء بدون مشيئة الله فقد أخطأ، ومن قال: ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن؛ فقد أصاب». اهـ

وقد ذكر السُّبكي في «طبقات الشافعية» (4/ 261): أن عبد الجبار المعتزلي دخل على أبي إسحاق الإسفرائيني، فقال: سبحان الذي تنزه عن الفحشاء، فقال أبو إسحاق: سبحان الذي لا يكون في ملكه إلا ما يشاء، فقال عبد الجبار: أريد ربنا أن يعصى؟

فأجاب أبو إسحاق: أيُعصى ربنا قهراً؟

فقال عبد الجبار: أرايت إن قضى عليّ بالردى، ومنعني الهدى؛ أحسن الله إليّ أم أساء؟

فأجاب أبو إسحاق: إن كان منعك ما هو لك فقد أساء، وإن كان منعك ما هو فضله فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء». اهـ. والقصة - أيضاً - في «الفتح» لابن حجر (622/11).

وذكر الشنقيطي رحمه الله في كتابه «دفع إيهام الاضطراب» في الكلام على سورة الشمس: أن رجلاً من العوام جاء إلى أحد شيوخ المعتزلة، فقال: يا شيخ إن حمارة لي قد سُرقت؛ فادع الله لي أن يردها عليّ.

فقال المعتزلي: اللهم إن حمارة هذا سُرقت ولم تُرد سرقته؛ فَرَدَّهَا عليه.

فقال العامي: يا هذا؛ كُفَّ عَنَّا دُعائك الخبيث، فإن كان قد سُرقت ولم يُرد سرقته؛ فقد يُريد رَدَّهَا ولا تُردُّ». اهـ.

وللإمام الشافعي أربعة أبيات قال عنها ابنُ عبد البر رَحِمَهُ اللهُ: «إِنَّهَا مِنْ أَثْبَتِ مَا نُسَبُّ إِلَيْهِ، وَمَنْ أَحْسَنَ مَا قِيلَ فِي الْقَدَرِ نَظْمًا:

مَا شِئْتُ كَأَنِّ لَمْ أَشَأْ	وَمَا شِئْتُ إِنْ لَمْ تَشَأْ لَمْ يَكُنْ
خَلَقْتَ الْعِبَادَ عَلَى مَا عَلِمْتَ	فَفِي الْعِلْمِ يَجْرِي الْفَتَى وَالْمُسْنُ
عَلَى ذَا مَنْنْتَ وَهَذَا خَذَلْتَ	وَهَذَا أَعَنْتَ وَذَا لَمْ تُعِنْ
فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَمِنْهُمْ سَعِيدٌ	وَمِنْهُمْ قَبِيحٌ وَمِنْهُمْ حَسَنٌ



«وقوله: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]، ﴿وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩]، ﴿فَمَا اسْتَقَمُّوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٧]، وقوله: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيَ اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانَهُمْ بَنِينَ مَرْصُوصًا﴾ [الصف: ٤]، وقوله: ﴿وَهُوَ الْعَفُورُ الْوَدُودُ﴾ [البروج: ١٤].

أورد المؤلف رَحْمَةُ اللَّهِ هذه الآيات؛ لإثبات صفتي المحبة والمودة على الوجه اللائق بجلال الله وعظمته وكماله، كما دلَّت هذه الآيات على أن الله يُحِبُّ ويُحَبُّ.

قال العلامة ابن القيم رَحْمَةُ اللَّهِ في «مدارج السالكين» (20 / 3): «وجميع طرق الأدلة - عقلاً ونقلاً وفطرة وقياساً واعتباراً وذوقاً ووَجْداً - تدلُّ على إثبات محبة العبد لربه والرب لعبده، وقد ذكرنا لذلك قريباً من مئة طريقٍ في كتابنا الكبير في المحبة، وذكرنا فيه فوائد المحبة، وما تثمر لصاحبها من الكمالات، وأسبابها وموجباتها، والردَّ على من أنكرها وبيان فساد قوله». اهـ.

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رَحْمَةُ اللَّهِ طائفةً مباركةً من الآيات الدالة على أن الله يُحِبُّ ويُحَبُّ.

ومن دلالة السنة على ذلك ما في البخاري ومسلم من حديث سهل بن سعد الساعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم خيبر: «لَأُعْطِينَ الرَّايَةَ غَدًا رجلاً يحبُّ الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، يفتح الله على يديه»، ثم أعطاها علي بن أبي طالب.

وأدلة هذا من السنة أكثر من أن تحصر.

وأما الإجماع؛ فقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ - كما في «مجموع الفتاوى» (57 / 8): «وإثبات محبة الله مشهورٌ، كما هو ثابت بالكتاب والسنة واتفاق السلف». اهـ.

وقال كما في (75 / 10): «ومن المعلوم أنه قد دَلَّ الكتابُ والسنةُ واتفاقُ سلفِ الأمةِ على أن الله يُحِبُّ وَيَرْضَى». اهـ.

وقال كما في (354 / 2): «وقد أجمع سلف الأمة وأئمتها على إثبات محبة الله لعباده المؤمنين ومحبتهم له». اهـ.

وقال أيضًا: (75 / 10): «وقد تبين أن محبة العبادِ لله أصلُ أعمالِ الإيمان، ولم يتبين بين أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسانٍ نزاعٌ في ذلك، وكانوا يحركون هذه المحبة بما شرع الله أن تُحرَّكَ به من أنواع العبادات الشرعية، كالعرفان الإيماني، والسَّماع الفرقاني». اهـ، وانظر «منهاج السنة» (392 / 1).

وقال ابن القيم في «المَدارج» (6 / 3) عن منزلة المحبة: «وهي المنزلة التي فيها تنافس المتنافسون، وإليها شخص العاملون، وإلى عَلمِها شَمَرُ السَّابِقون، وعليها تفانى المحبُّون، وبروح نسيما تَرَوَّحَ العابدون، فهي قوت القلوب، وغذاء الأرواح، وقرّة العيون، وهي الحياة التي مَن حُرِمَها فهو من جملة الأموات، والنور الذي مَن فَقَدَهُ فهو في بحار الظلمات، والشفاء الذي مَن عُدِمَهُ حَلَّتْ بقلبه جميع الأسقام، واللذة التي مَن لم يظفر بها فعيشه كله هموم وآلام.

وهي روح الإيمان والأعمال والمقامات والأحوال، التي متى خلت منها فهي كالجسد الذي لا روح فيه، تحمل أثقال السائرين إلى بلاد لم يكونوا إلا

بشق الأنفس بالغيها، وتوصلهم إلى منازل لم يكونوا بدونها أبداً واصليها، وتبوؤهم من مقاعد الصدق مقامات لم يكونوا لولاها داخلها، وهي مطايا القوم التي مسراهم على ظهورها دائماً إلى الحبيب، وطريقهم الأقوم الذي يبلغهم إلى منازلهم الأولى من قريب.

تالله لقد ذهب أهلها بشرف الدنيا والآخرة؛ إذ لهم من معية محبوبهم أوفر نصيب، وقد قضى الله يوم قدر مقادير الخلائق بمشيئته وحكمته البالغة أن المرء مع من أحب، فيالها من نعمة على المحبين سابغة، تالله لقد سبق القوم السعاة وهم على ظهور الفرش نائمون، وقد تقدموا الركب بمراحل وهم في سيرهم واقفون.

مَنْ لِي بِمِثْلِ سَيْرِكَ الْمُدَلِّلِ تَمْشِي رُؤَيْدًا وَتَحِي فِي الْأَوَّلِ

أجابوا منادي الشوق إذ نادى بهم: حي على الفلاح، وبذلوا نفوسهم في طلب الوصول إلى محبوبهم وكان بذلهم بالرضى والسماح، وواصلوا إليه المسير بالإدلاج والغدو والرواح، تالله لقد حمّدوا عند الوصول سرائهم، وشكروا مولاهم على ما أعطاهم، وإنما يحمد القوم السرى عند الصباح». اهـ.

هل المحبة ترادف المشيئة؟

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ فِي «منهاج السنة» (5/ 411): «التفريق بين المحبة والمشيئة هو مذهب السلف وأهل الحديث والفقهاء، وأكثر متكلمي أهل السنة كالحنفية والكرامية». اهـ.

وقد سبق أن المشيئة تُرَادِفُ الإرادة الكونية، فقد يشاء الله ما لا يُحِبُّ، ويُحِبُّ ما لا يشاء.

وأول من عُرِفَ في الإسلام أنه أنكَرَ أن الله يُحِبُّ أو يُحِبُّ الجَهْمُ بْنُ صَفْوَانَ، وشيخُه الجَعْدُ بْنُ دِرْهَمٍ، كما في «منهاج السنة النبوية» (5/ 392)، و«مجموع الفتاوى» (8/ 357).

وقال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في «المدارج» (3/ 18 - 19): «والكلام في هذه المنزلة معلقٌ بطرفين: طرف محبة العبد لربه، وطرف محبة الرب لعبده، والناس في إثبات ذلك ونفيه أربعة أقسام:

فأهلُّ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ، على إثبات الطرفين، وأن محبة العبد لربه فوق كُلِّ محبة تُقَدَّرُ، ولا نسبة لسائر المحابِّ إليها، وهي حقيقةٌ (لا إله إلا الله)، وكذلك عندهم محبةُ الرب لأوليائه وأنبيائه ورسله صفةٌ زائدةٌ على رحمته وإحسانه وعطائه، فإن ذلك أثر المحبة وموجبها؛ فإنه لَمَّا أَحَبَّهُمْ كان نصيبُهم من رحمته وإحسانه وبرِّه أتمَّ نصيب.

والجهميَّةُ الْمُعْطَلَّةُ عكس هؤلاء، فإنه عندهم لا يُحِبُّ ولا يُحِبُّ، ولم يمكنهم تكذيب النصوص، فأولَّوا نصوصَ محبة العباد له على محبة طاعته وعبادته والازدياد من الأعمال لينالوا بها الثواب، وإن أطلقوا عليهم بها لفظ المحبة، فَلَمَّا ينالون به من الثواب والأجر، والثواب المنفصل عندهم هو المحبوب لذاته، والربُّ تعالى محبوبٌ لغيره حُبِّ الوسائل.

وأولَّوا نصوص محبته لهم بإحسانه إليهم وإعطائهم الثواب، وربَّما أولَّوها بثنائه عليهم ومدحه لهم ونحو ذلك، وربَّما أولَّوها بإرادته لذلك، فتارةً يُؤوَّلُونَهَا بالمفعول المنفصل، وتارةً يُؤوَّلُونَهَا بنفس الإرادة، ويقولون: الإرادة إن تعلقت بتخصيص العبد بالأحوال والمقامات العلية سُمِّيَتْ مَحَبَّةً، وإن تَعَلَّقَتْ بِالْعُقُوبَةِ والانتقامِ سُمِّيَتْ غَضَبًا، وإن تَعَلَّقَتْ بِعُمُومِ الإحسان والإنعام الخاصِّ سُمِّيَتْ

برًا، وإن تعلّقت بإيصاله في خفاء من حيث لا يشعر ولا يحسب سُمِّتَ لُطْفًا، وهي واحدة ولها أسماء وأحكام باعتبار متعلقاتها.

وَمَنْ جَعَلَ محبته للعبد ثناءً عليه ومدحه له: رَدَّهَا إلى صفة الكلام، فهي عنده من صفات الذات لا من صفات الأفعال، والفعل عنده نفس المفعول، فلم يَقم بذات الرب محبةً لعبده، ولا لأنبيائه ورسله البتة.

وَمَنْ رَدَّهَا إلى صفة الإرادة جَعَلَهَا من صفات الذات باعتبار أصل الإرادة، ومن صفات الأفعال باعتبار تَعَلُّقِهَا.

ولما رأى هؤلاء أن المحبة إرادة، وأن الإرادة لا تتعلق إلا بالمحدث المقدور، والقديم يستحيل أن يراد: أنكروا محبة العباد والملائكة والأنبياء والرسل له، وقالوا: لا معنى لها إلا إرادة التقرب إليه والتعظيم له وإرادة عبادته، فأنكروا خاصّة الإلهية وخاصّة العبودية، واعتقدوا أن هذا من موجبات التوحيد والتنزيه، فعندهم لا يتم التوحيد والتنزيه إلا بِجَحْدِ حقيقة الإلهية وَجَحْدِ حقيقة العبودية.

وجميع طرق الأدلة عقلاً ونقلاً وفطرةً وقياسًا واعتبارًا وذوقًا وَوَجَدًا تدلُّ على إثبات محبة العبد لربه والرب لعبده». اهـ، وانظر في هذا أيضًا «مجموع الفتاوى» (10/74 - 75)، (6/477).

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ نَحْوَ ما ذكره ابن القيم عن الجهمية والمعتزلة وَمَنْ قال بقولهم مِنْ نَفَاةِ صفة المحبة، وأنكروا أن الله يُحِبُّ أو يُحَبُّ، وتألّوا النصوص الواردة في محبة العباد لربهم بأنَّ المقصودَ محبتهم لعبادته والتقرب إليه أو بمحبتهم لثوابه.

وقد أجاب عن هذا التَّأْوِيل شيخ الإسلام ابن تيمية، كما في «مجموع الفتاوى» (8 / 354)، فقال: «وإذا قيل: محبتهُ محبةُ عبادتهِ وطاعتهِ.

قيل: محبةُ العبادةِ والطاعةِ فرعٌ عن محبةِ المعبود المطاع، وكلُّ مَنْ لم يُحِبَّ في نفسه لم تُحَبَّ عبادتهُ وطاعتهُ؛ ولهذا كان الناس ييغضون طاعة الشخص الذي ييغضونه، ولا يمكنهم مع بُغْضِهِ مَحَبَّةَ طَاعَتِهِ إلا لغرضٍ آخرٍ محبوب، مثل عوضٍ يُعْطِيهِمْ على طاعته، فيكون المحبوب في الحقيقة هو ذلك العوض، فلا يكون اللهُ ورسولُهُ أَحَبَّ إليه مما سواههما، إلا بمعنى أن العَوَاضُ الذي يحصل من المخلوقات أَحَبُّ إليهم من كل شيءٍ.

ومحبةُ ذلك العَوَاضِ مشروطٌ بالشُّعُورِ به، فما لا يشعر به تمتنع محبته.

فإذا قيل: هم قد وُعِدُوا على محبة الله ورسوله بأن يُعْطُوا أفضل محبوباتهم المخلوقة، قيل: لا معنى لمحبة الله ورسوله عندكم إلا محبة ذلك العَوَاضِ، والعَوَاضُ غَيْرُ مشعور به حتى يحب، وإذ قيل: بل إذا قال من قال: لا يحب غيره إلا لذاته، المعنى: أنك إن أَطَعْتَنِي أعطيتك أعظمَ ما تحبه صار مُحِبًّا لذلك الأمر له.

قيل: ليس الأمر كذلك، بل يكون قلبه فارغاً من محبة ذلك الأمر، وإنما هو مَعْلُوقٌ بما وعده من العوض على عمله، كالفَعْلَةِ الذين يعملون من البناء والخياطة والنساجة وغير ذلك ما يطلبون به أجورهم، فهم قد لا يعرفون صاحبَ العمل، أو لا يحبونه، ولا لهم غَرْضٌ فيه، إنما غَرْضُهُمْ في العوض الذي يحبونه». اهـ.

وقال كما في (10 / 70-73): «أما محبةُ الله فلا تَعَلَّقُ لها بمجرّدِ مَحَبَّةِ العَوَاضِ، ألا ترى أن مَنْ استأجر أجيراً بعوضٍ لا يقال: إن الأجير يحبه بمجرد

ذلك، بل قد يستأجر الرجل من لا يحبه بحال، بل من يُغضبه، وكذلك من افتدى نفسه بعمل من عذاب مُعَذَّب لا يقال: إنه يحبه، بل يكون مبعوضاً له.

فَعَلِمَ أَنَّ ما وصف الله به عباده المؤمنين من أنهم يُحِبُّونَهُ يمتنع أن لا يكون معناه إلا مجرد محبة العمل الذي ينالون به الأغراض المخلوقة، من غير أن يكون ربُّهم محبوباً أصلاً.

وأيضاً فاسمُ الإنابة إليه يقتضي المحبة أيضاً، وما أشبه ذلك من الأسماء كما تقدم.

وأيضاً، فلو كان هذا الذي قالوه حقاً من كَوْنِ ذَلِكَ مَجَازاً لما فيه من الحذف والإضمار، فالمجاز لا يُطْلَقُ إلا بقريضة تُبَيِّنُ المراد، ومعلوم أنه ليس في كتاب الله وسنة رسوله ما ينفي أن يكون الله محبوباً، وأن لا يكون المحبوب إلا الأعمال، لا في الدلالة المُتَّصِلَة ولا المنفصلة، ولا في العقل أيضاً.

وأيضاً: فقد فرَّق بين محبته ومحبته العمل له في قوله تعالى: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ﴾ [التوبة: ٢٤].

كما فرَّق بين محبته ومحبته رسوله في قوله: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ﴾.

فلو كان المراد بِمَحَبَّتِهِ ليس إلا محبة العمل، لكان هذا تكريراً، ومن باب عطف الخاص على العام، وكلاهما على خلاف ظاهر الكلام الذي لا يجوز المصير إليه إلا بدلالة تُبَيِّنُ المراد، وكما أن محبته لا يجوز أن تُفسَّرَ بمجرد محبة رسوله، فكذلك لا يجوز تفسيرها بمجرد العمل له، وإن كانت محبته تستلزم محبة رسوله ومحبته العمل له.

وأيضاً: فالتعبيرُ بمحبة الشيء عن مجرد محبة طاعته، لا عن محبة نفسه أمر لا يعرف في اللغة لا حقيقة ولا مجازاً، فحمل الكلام عليه تحريفاً محضاً أيضاً، وقد قرّرنا في مواضع من القواعد الكبار أنه لا يجوز أن يكون غيرُ الله محبوباً مراداً لذاته، كما لا يجوز أن يكون غيرُ الله موجوداً بذاته، بل لا رب إلا الله ولا إله إلا هو المعبود الذي يستحق أن يحب لذاته ويعظم لذاته كمال المحبة والتعظيم.

وأيضاً: فكل ما فطرت القلوب على محبته من نُعوت الكمال، فالله هو المستحقُّ له على الكمال، وكل ما في غيره من محبوب فهو منه سُبحانه وتعالى فهو المستحق لأن يُحبَّ على الحقيقة والكمال، وإنكارُ محبة العبد لربه هو في الحقيقة إنكارُ لكونه إلهاً معبوداً، كما أن إنكارَ محبته لعبده يستلزم إنكارَ مشيئته، وهو يستلزم إنكار كونه رباً خالقاً، فصار إنكارها مستلزماً لإنكار كونه رب العالمين، ولكونه إله العالمين.

وهذا هو قولُ أهل التَّعطيل والجحود». اهـ. وانظر أيضاً «مجموع الفتاوى» (8/354)، و«منهاج السنة» (5/394).

ولِنَقَاةِ المحبّةِ شُبّهَةً أُخرى، وهي قولهم: المحبة لا تكون إلا لما يناسب المحبوب، ولا مُنَاسَبَةً بين القديم والمحدث، وبين الواجب والممكن وبين الخالق والمخلوق.

وقد ذكر شبهتهم هذه شيخُ الإسلام ابنُ تيمية في «منهاج السنة» (5/400)، ثم أجاب عنها قائلاً: «لفظُ المناسبة لفظٌ مجمل، فإنه يقال: لا مناسبة بين كذا وكذا، أي: أحدهما أعظم من الآخر، فلا يُنسب هذا إلى هذا، كما يقال: لا نسبة لمالِ فلان إلى مالِ فلانٍ، ولا نسبة لعلمه أو جوده أو ملكه إلى علم فلان وجود

فلان وملك فلان، يراد به أن هذه النسبة حقيرة صغيرة كلاً نسبة، كما يقال: لا نسبة للخردلة إلى الجبل، ولا نسبة للتراب إلى رب الأرباب.

فإذا أريد بأنه لا نسبة للمحدث إلى القديم هذا المعنى ونحوه فهو صحيح، وليست المحبة مستلزماً لهذه النسبة، وإن أريد أنه ليس في القديم معنى يحبه لأجله المحدث، فهذا رأس المسألة، فلم قلت: إنه ليس بين المحدث والقديم ما يحب المحدث القديم لأجله؟ ولم قلت: إنه ليس متصفاً بمحبة ما يحبه من مخلوقاته؟

والمحبة لا تستلزم نقصاً، بل هي صفة كمال بل هي أصل الإرادة، فكل إرادة فلا بد أن تستلزم محبة، فإن الشيء إنما يراد؛ لأنه محبوب أو لأنه وسيلة إلى محبوب، ولو قدر عدم المحبة لامتنعت الإرادة، فإن المحبة لازمة للإرادة، فإذا انتفى اللازم انتفى الملزوم، وكذلك المحبة مستلزمة للإرادة، فمن أحب شيئاً فلا بد أن يتضمن حبه إياه إرادةً لبعض متعلقاته.

ولهذا كان خلقه تعالى لمخلوقاته لحكمة، والحكمة مرادة محبوبة، فهو خالق ما خلق لمрад محبوب كما تقدم.

وهو سبحانه يحب عباده المؤمنين، فيريد الإحسان إليهم، وهم يحبونه فيريدون عبادته وطاعته اهـ، ثم ذكر بعض أدلة المحبة من الكتاب والسنة. وانظر بنحو ما سبق «مجموع الفتاوى» (10 / 74)؛ فإنه مهم.

وقد حصل بمجموع الآيات التي أوردها المصنف رحمه الله عدة أسباب لمحبة الله لعبده:

الأول: الإحسان في عبادة الله، وإلى عباد الله.

الثاني: العدل في الأقوال والأعمال وفي جميع الأحوال.

الثالث: التقوى.

الرابع: التوبة من جميع الذنوب والإكثار منها.

الخامس: تطهير الظاهر والباطن.

السادس: اتباع النبي صلى الله عليه وسلم.

السابع: الجهاد في سبيل الله على الصفة المذكورة في الآية.

والأسباب الجالبة لمحبة الله لعبده كثيرة، ذكر منها ابن القيم رحمه الله في «مدارج السالكين» (3 / 17 - 18) عشرة أسباب، فقال:

«الأسباب الجالبة للمحبة والموجبة لها، وهي عشرة:

أحدها: قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه وما أريد به؛ كتدبر الكتاب الذي يحفظه العبد ويشرحه، ليفهم مراد صاحبه منه.

الثاني: التقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض؛ فإنها توصله إلى درجة المحبوبة بعد المحبة.

الثالث: دوام ذكره على كل حال باللسان والقلب والعمل والحال، فنصيبه من المحبة على قدر نصيبه من هذا الذكر.

الرابع: إثارة محبته على محابك عند غلبات الهوى، والتسليم إلى محابه وإن صعب المرتقى.

الخامس: مطالعة القلب لأسمائه وصفاته ومشاهدتها ومعرفتها وتقلبه في رياض هذه المعرفة ومبانيها، فمن عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله أحبه لا محالة، ولهذا كانت المعطلة والفرعونية والجهمية قطاع الطريق على القلوب

بينها وبين الوصول إلى المحبوب.

السادس: مشاهدة بره وإحسانه وآلائه ونعمه الباطنة والظاهرة فإنها داعية إلى محبته.

السابع: وهو من أعجبها انكسار القلب بكليته بين يدي الله تعالى.

الثامن: الخلوة به وقت النزول الإلهي لمناجاته وتلاوة كلامه، والوقوف بالقلب والتأدب بأدب العبودية بين يديه، ثم ختم ذلك بالاستغفار والتوبة.

التاسع: مجالسة المحبين الصادقين والتقاط أطايب ثمرات كلامهم كما ينتقى أطايب الثمر، ولا تتكلم إلا إذا ترجحت مصلحة الكلام وعلمت أن فيه مزيداً لحالك ومنفعة لغيرك.

العاشر: مباحة كل سبب يحول بين القلب وبين الله عز وجل.

فمن هذه الأسباب العشرة وصل المحبون إلى منازل المحبة ودخلوا على الحبيب، وملاك ذلك كله أمران:

استعداد الروح لهذا الشأن، وانفتاح عين البصيرة، وبالله التوفيق». اهـ.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، كما في «مجموع الفتاوى» (81/10): «ومما ينبغي التفطن له أن الله سبحانه وتعالى قال في كتابه: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

قال طائفة من السلف: ادعى قوم على عهد النبي صلى الله عليه وسلم أنهم يحبون الله فأنزل الله هذه الآية ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾؛ فبين سبحانه أن محبته توجب اتباع الرسول، وأن اتباع الرسول يوجب محبة الله للعبد، وهذه محبة امتحن الله بها أهل دعوى محبة الله، فإن هذا الباب تكثر فيه

الدعاوى والاشتباه؛ ولهذا يُروى عن ذي النون المصري أنهم تكلموا في مسألة المحبة عنده، فقال: اسكتوا عن هذه المسألة؛ لئلا تسمعها النفوس فتدعيها». اهـ.

وقد قرّر شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ - كما في «مجموع الفتاوى» (84 / 10) - أن أصلَ المحبة معرفةُ الله، ولها أصلان:

«الأول: محبته سبحانه لأجل ما له من كمال الذات والأسماء والصفات والأفعال.

الثاني: محبته سبحانه لإحسانه إلى عباده. اهـ. بتصرف.

ولا تكون محبةُ الله صحيحةً نافعةً إلا إذا وُزِنَتْ بميزان الكتاب والسنة.

قال شيخ الإسلام كما في «مجموع الفتاوى» (8 / 360): «فلما صار كثير من الصوفيّة النّسّاك المتأخّرين يدعون المحبة، ولم يزنوها بميزان العلم والكتاب والسنة دخل فيها نوع من الشّرك واتباع الأهواء، والله تعالى قد جعل محبته موجبةً لاتباع رسوله، فقال: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾، وهذا لأنّ الرسول هو الذي يدعو إلى ما يحبه الله، وليس شيء يحبه الله إلا والرسول يدعو إليه، وليس شيء يدعو إليه الرسول إلا والله يحبه، فصار محبوبُ الرّبِّ ومدعو الرّسول متلازمين، بل هذا هو هذا في ذاته وإن تنوعت الصفات، فكل من ادّعى أنه يحب الله ولم يتبع الرسول فقد كذب، ليست محبته لله وحده، بل إن كان يحبه فهي محبة شرك، فإنما يتبع ما يهواه، كدعوى اليهود والنصارى محبة الله، فإنهم لو أخلصوا له المحبة لم يحبوا إلا ما أحب، فكانوا يتبعون الرسول، فلما أحبوا ما أبغض الله مع دعواهم حبة كانت محبتهم من جنس محبة المشركين.

وهكذا أهل البدع، فمن قال: إنه من المریدين لله المحبّين له، وهو لا يقصد اتّباع الرسول، والعمل بما أمر به، وترك ما نهى عنه، فمحبّته فيها شوب من محبة المشركين واليهود والنصارى، بحسب ما فيه من البدعة، فإن البدع التي ليست مشروعة وليست مما دعا إليه الرسول لا يحبها الله، فإن الرسول دعا إلى كل ما يحبه الله، فأمر بكل معروف، ونهى عن كل منكر». اهـ.

وقال قبل ذلك (ص 359 - 360): «والنفوس قد تدّعي محبة الله، وتكون في نفس الأمر محبة شرك، تُحب ما تهواه، وقد أشركته في الحب مع الله، وقد يخفى الهوى على النفس؛ فإن حبك الشيء يُعمي ويصم، وهكذا الأعمال التي يظن الإنسان أنه يعملها لله وفي نفسه شرك قد خفي عليه وهو يعملها؛ إما لحب رياسة وإما لحب مال، وإما لحب صورة؛ ولهذا قالوا: يا رسول الله الرجل يقاتل شجاعة وحمية ورياء، فأى ذلك في سبيل الله؟ فقال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله». اهـ.

وأما قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ﴾.

فقد أورد المؤلّف رحمه الله هذه الآية لإثبات صفة المودة.

وقد قال العلامة ابن القيم رحمه الله في «جلاء الأفهام» (ص 447):

«وأما الودود ففيه قولان:

أحدهما: أنه بمعنى فاعل، وهو الذي يحب أنبياءه ورسله وأوليائه وعباده المؤمنين.

والثاني: أنه بمعنى مودود، وهو المحبوب الذي يستحق أن يُحبّ الحب كله، وأن يكون أحب إلى العبد من سمعه وبصره ونفسه وجميع محبوباته». اهـ.

قلتُ: ولا مانع أن يُفسَّر الودود بالمعنيين جميعًا؛ لأن اللفظ يحتمل ذلك،
ولا تنافي بين المعنيين، والله أعلم.



«وقوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ١]، ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]، ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]، ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧]، ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤].

أورد شيخ الإسلام رَحْمَةُ اللَّهِ هذه الآيات؛ لإثبات صفة المغفرة والرحمة لله على الوجه اللائق بجلاله وكماله سبحانه، خلافاً للمعطلة من الجهمية والمعتزلة والأشاعرة.

والرحمة المضافة إلى الله على قسمين:

1- الرحمة التي هي صفته سبحانه.

2- الرحمة التي هي خَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ.

قال العلامة ابن القيم رَحْمَةُ اللَّهِ في «بدائع الفوائد» (2/ 183): «الرحمة المضافة إلى الله نوعان:

أحدهما: مضافٌ إليه إضافةً مفعولٍ إلى فاعله.

والثاني: مضافٌ إليه إضافةً صفةٍ إلى الموصوف بها.

فمن الأول: قوله في الحديث الصحيح: «احتجبت الجنة والنار»، فذكر الحديث، وفيه «فقال للجنة: إنما أنت رحمتي أرحم بك من أشياء»، فهذه رحمة مخلوقة مضافةٌ إليه إضافةً المخلوق بالرحمة إلى الخالق تعالى، وسمّاها رحمةً؛ لأنها خُلِقَتْ بِالرَّحْمَةِ وَلِلرَّحْمَةِ، وَخُصَّ بِهَا أَهْلُ الرَّحْمَةِ، وَإِنَّمَا يَدْخُلُهَا الرَّحْمَاءُ.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ أَذْقَنَا الْإِنْسَانَ مِمَّا رَحْمَةً﴾ [هود: ٩]، ومنه تسميته تعالى للمطر رحمةً بقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الأعراف: ٥٧].

وعلى هذا فلا يمتنع الدعاء المشهور بين الناس قديمًا وحديثًا، وهو قول الداعي: اللهم اجمعنا في مستقر رحمتك.

وذكره البخاري في كتاب «الأدب المفرد» عن بعض السلف، وحكى فيه الكراهة، قال: إن مستقر رحمة ذاته، وهذا بناء على أن الرحمة صفة، وليس مراد الداعي ذلك، بل مراده الرحمة المخلوقة التي هي الجنة، ولكن الذين كرهوا ذلك لهم نظر دقيق جدًا، وهو أنه إذا كان المراد بالرحمة الجنة نفسها لم يحسن إضافة المستقر إليها؛ ولهذا لا يحسن أن يقال: اجمعنا في مُسْتَقَرِّ جَنَّتِكَ، فإن الجنة نفسها هي دار القرار وهي المستقر نفسه، كما قال: ﴿حَسُنْتَ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٧٦]، فكيف يُضاف المستقر إليها، والمستقر: هو المكان الذي يُسْتَقَرُّ فيه الشيء، ولا يصح أن يطلب الداعي الجمع في المكان الذي تستقر فيه الجنة فتأمل، ولهذا قال: مستقر رحمة ذاته.

والصواب: أن هذا لا يمتنع، وحتى لو قال - صريحًا -: اجمعنا في مستقر جنتك، لم يمتنع؛ وذلك أن المستقر أعم من أن يكون رحمة أو عذابًا، فإذا أضيف إلى أحد أنواعه أضيف إلى ما يبيّنه ويميّزه من غيره، كأنه قيل: في المستقر الذي هو رحمتك، لا في المستقر الآخر.

ونظير هذا أن يقول: اجلس في مُسْتَقَرِّ المسجد، أي: المُسْتَقَرِّ الذي هو المسجد، والإضافة في مثل ذلك غير ممتنعة ولا مستكرهة، وأيضًا فإن الجنة - وإن سُمِّيَتْ رحمةً لم يمتنع أن يسمّى ما فيها من أنواع النعيم رحمةً، ولا ريب أن

مُسْتَقَرَّ ذَلِكَ النَّعِيمِ هُوَ الْجَنَّةُ.

فالداعي يطلب أن يجمعه الله وَمَنْ يُحِبُّ فِي الْمَكَانِ الَّذِي تَسْتَقَرُّ فِيهِ تِلْكَ الرَّحْمَةُ الْمَخْلُوقَةُ فِي الْجَنَّةِ، وَهَذَا ظَاهِرٌ جَدًّا، فَلَا يَمْتَنِعُ الدُّعَاءُ بِوَجْهِهِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ. اهـ.

قلت: وأما الرحمة التي هي صفته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَيَدُلُّ عَلَيْهَا الْآيَاتُ الَّتِي أَوْرَدَهَا الْمُؤَلِّفُ رَحْمَةُ اللَّهِ، وَمِنْهَا أَيْضًا قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ - كَمَا فِي الصَّحِيحِينَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ -: «إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي»، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا حَيُّ يَا قَيُّوْمُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ».

قَالَ الْعَلَامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحْمَةُ اللَّهِ فِي «بَدَائِعِ الْفَوَائِدِ» (2/ 184 - 185): «فَإِنَّ الرَّحْمَةَ هُنَا صِفَتُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَهِيَ مُتَعَلِّقُ الْإِسْتِغَاثَةِ، فَإِنَّهُ لَا يُسْتَغَاثُ بِمَخْلُوقٍ؛ وَلِهَذَا كَانَ هَذَا الدُّعَاءُ مِنْ أَدْعِيَةِ الْكَرْبِ لِمَا تَضُمُّنُهُ مِنَ التَّوْحِيدِ وَالْإِسْتِغَاثَةِ بِرَحْمَةِ أَرْحَمِ الرَّاحِمِينَ...».

إِلَى أَنْ قَالَ: «وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ الرَّحْمَةَ الْمُسْتَغَاثَ بِهَا هِيَ صِفَةُ الرَّبِّ تَعَالَى، لَا شَيْئًا مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ، كَمَا أَنَّ الْمُسْتَعِيزَ بِعِزَّتِهِ فِي قَوْلِهِ: «أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ» مُسْتَعِيزٌ بِعِزَّتِهِ الَّتِي هِيَ صِفَتُهُ، لَا بِعِزَّتِهِ الَّتِي خَلَقَهَا، يُعِزُّ بِهَا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ». اهـ.

أَمَّا الْآيَاتُ الَّتِي ذَكَرَهَا الْمُؤَلِّفُ فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

فَهِيَ مُتَضَمِّنَةٌ لِثَلَاثَةِ أَسْمَاءَ، وَصِفَتَيْنِ، أَمَّا الْأَسْمَاءُ فَهِيَ: (اللَّهُ، الرَّحْمَنُ، الرَّحِيمُ).

وَأَمَّا الصِّفَاتُ فَهِيَ: (الْأُلُوْهِيَّةُ، الرَّحْمَةُ).

وقد قال العلامة ابن القيم في «بدائع الفوائد» (1/ 24): «وأما الجمع بين الرحمن والرحيم ففيه معنى هو أنَّ الرحمن دالٌّ على الصفة القائمة به سبحانه، والرحيم دالٌّ على تعلُّقها بالمرحوم، فكان الأول للوصف والثاني للفاعل. فالأول: دالٌّ على أن الرحمة صفة.

والثاني: دال على أنه يرحم خلقه برحمته.

وإذا أردت فهم هذا فتأمل قوله: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]، ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧]، ولم يجرى قط: رحمنٌ بهم، فعلم أنَّ رحمن هو الموصوف بالرحمة، ورحيم هو الراحم برحمته، وهذه نُكْتَةٌ لا تكاد تجدها في كتاب. اهـ.

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾.

هذا من دعاء الملائكة المقربين للمؤمنين، وفيه تَوَسُّلٌ إلى الله بسعة رحمته التي وصلت إلى جميع خلقه، وهكذا سعة علمه المحيط بكل شيء؛ ولهذا قال ابن القيم رَحْمَةُ اللَّهِ: «مَا قُرِنَ شَيْءٌ إِلَى شَيْءٍ أَحْسَنَ مِنْ حِلْمٍ إِلَى عِلْمٍ، وَمِنْ رَحْمَةٍ إِلَى عِلْمٍ».

وقال رَحْمَةُ اللَّهِ فِي «بدائع الفوائد» (2/ 185) في الكلام على الآية السابقة: «فهذه رحمة الصِّفَةِ التي وسعت كل شيء، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ وسعتها عموم تعلُّقها بكل شيء، كما أن سعة علمه تعالى عموم تعلُّقه بكل شيء». اهـ.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾.

فيها إخبارٌ بأنه رحيمٌ بالمؤمنين، وهذا يشمل رحمته بهم في الدنيا بهدايتهم

إلى العلم النَّافع والعمل الصالح، وفي الآخرة بنجاتهم من النار وفوزهم بالجنة التي أعظم نعيمها وأكملة نظرهم إلى وجه ربهم الكريم.
وقوله: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾.

قال العلامة السَّعدي في تفسيره لهذه الآية: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ من العالم العلوي والسفلي والبرِّ والفاجرِ والمؤمن والكافر، فلا مخلوق إلا وقد وصلت إليه رحمةُ الله، وغمَّره فضله وإحسانه، ولكن الرحمة الخاصة المقتضية لسعادة الدنيا والآخرة ليست لكلِّ أحدٍ، ولهذا قال عنها: ﴿فَسَأَكْتُمُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِإِيَابِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ الآية [الأعراف: ١٥٦]. اهـ.

وقوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾.
أي: كتابة كونيَّة، على سبيل التفضُّل والإحسان إلى عباده.
وقوله: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

فيه أن «الغفور» و«الرحيم» من أسماء الله، والغفور متضمن لصفة المغفرة التي هي السَّتر على الذَّنْب والتجاوز عنه.

وقوله تعالى: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّحِيمِينَ﴾.
حفظ الله لمخلوقاته على نوعين:

الأول: حفظ عام، وذلك بتيسير ما يحتاجون إليه، وما تقوم به حياتهم؛ لئلا يهلكوا أو يعطبوا.

الثاني: حفظ لأوليائه، وهذا حفظ خاص عما يضرهم في دينهم ودنياهم، وفي حديث ابن عباس عند «الترمذي» وغيره، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «احفظ

اللَّهُ يَحْفَظُكَ».

وكما في الصحيحين من حديث عمر - وفي الحديث قصة - : «اللَّهُ أَرْحَمُ بعباده من هَذِهِ بَوْلِدِهَا».

«ومما ينبغي أن يُعْلَمَ أن الرحمةَ صفةٌ تقتضي إيصالَ المنافع والمصالح إلى العبد، وإن كرهتها نفسه وشقَّت عليه، هذه هي الرحمة الحقيقية، فأرحم الناس بك مَنْ شَقَّ عليك في إيصالِ مصالحك ودفعِ المَصَارِّ عَنْكَ.

فَمِنْ رحمة الأب بولده: أن يُكْرِهَهُ على التأدُّب بالعلم والعمل، ويشق عليه في ذلك بالضرب وغيره، ويمنعه شهواته التي تعود بضرره، ومتى أهمل ذلك من ولده كان لقلّة رحمته به، وإن ظن أنه يرحمه وَيُرْفَهُ وَيُريحه، فهذه رحمة مقرونة بجهل، كرحمة الأم.

ولهذا كان من تمام رحمة أرحم الراحمين: تسليط أنواع البلاء على العبد؛ فإنه أعلم بمصلحته، فابتلاؤه له وامتحانه ومنعه من كثير من أغراضه وشهواته من رحمته به، ولكن العبد - لجهله وظلمه - يتَّهم ربه بابتلائه، ولا يعلم إحسانه إليه بابتلائه وامتحانه.

وقد جاء في الأثر: «إن المبتلى إذا دُعِيَ الله له: اللهم ارحمه، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: كيف أرحمه من شيء به أرحمه؟»

وفي أثرٍ آخر: «إن الله إذا أَحَبَّ عبده حماه الدنيا وطيباتها وشهواتها، كما يحمي أحدكم مريضه».

فهذا من تمام رحمته به، لا مِنْ بُخْلِهِ عليه.

كيف وهو الجواد الماجد الذي له الجود كله، وَجُودُ جميع الخلائق في

جنب جُودِهِ أَقْلٌ من ذرةٍ في جبال الدنيا ورمالها.

فَمِنْ رَحْمَتِهِ - سُبْحَانَهُ - بعباده: ابتلاؤُهُم بالأوامر والنواهي رحمةً وَحِمِيَّةً، لا حاجة منه إليهم بما أمرهم به، فهو الغني الحميد، ولا بخلاً منه عليهم بما نهاهم عنه؛ فهو الجواد الكريم.

وَمِنْ رَحْمَتِهِ: أَنْ نَغْصَ عليهم الدنيا وكَدَّرَها لئلا يسكنوا إليها، ولا يطمئنوا إليها، ويرغبوا عن النعيم المقيم في داره وجواره، فساقهم إلى ذلك بِسِيَاطِ الابتلاء والامتحان، فمنعهم ليعطيهم، وابتلاهم ليعافهم، وأماتهم ليحييهم.

وَمِنْ رَحْمَتِهِ: أَنْ حَذَّرَهُمْ نَفْسَهُ؛ لئلا يغتروا به فيعاملوه بما لا تحسن معاملته به، كما قال تعالى: ﴿وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ، وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠]، قال غير واحد من السلف: «مِنْ رَأْفَتِهِ بِالْعِبَادِ حَذَرُهُمْ مِنْ نَفْسِهِ؛ لئلا يغتروا به». اهـ. «إغاثة اللهفان» (ص 544 - 545).

وصفة الرَّحمة من الصفات الثابتة في الكتاب والسنة كما سبق.

وقد أجمع على إثباتها أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ سَلَفًا وَخَلَفًا، خِلَافًا لِلْمَعْطَلَةِ مِنَ الْجَهْمِيَّةِ وَالْمُعْتَزَلَةِ وَالْأَشَاعِرَةِ، الَّذِينَ حَرَّفُوا النُّصُوصَ الدَّالَّةَ عَلَى إِثْبَاتِهَا، ثُمَّ فَسَّرَهَا مَنْ فَسَّرَهَا مِنْهُمْ بِالْإِرَادَةِ، أَوْ بِإِرَادَةِ الثَّوَابِ وَالْإِحْسَانِ، حَتَّى إِنَّ ابْنَ الْقِيَمِ رَحِمَهُ اللَّهُ ذَكَرَ فِي «إِغَاثَةِ اللَّهْفَانِ» (ص 547) عَنِ الْجَهْمِ بْنِ صَفْوَانَ - عَامِلِهِ اللَّهُ بَعْدَهُ - أَنَّهُ كَانَ يَخْرُجُ بِأَصْحَابِهِ إِلَى الْجَذْمَى وَأَهْلِ الْبَلَاءِ، وَيَقُولُ: انْظُرُوا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ يَفْعَلُ مِثْلَ هَذَا؟ إِنْكَارًا لِرَحْمَتِهِ، كَمَا أَنْكَرَ حِكْمَتَهُ.

وقال آخر من كبار القوم: ما على الخلق أضر من الخالق. اهـ.

وَمِنْ أَوْلَئِكَ الْمَعْطَلَةِ مَنْ عَلَّلَ عَدَمَ إِثْبَاتِهِ لَصِفَةِ الرَّحْمَةِ بِأَنَّهُ ضَعْفٌ وَخَوَرٌ

وتألم على المرحوم.

وقد ردَّ عليهم شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ كما في «مجموع الفتاوى» (6/ 118)، فقال: «هذا باطل أولاً: لأن الضعف والخور مذموم في الآدميين، والرحمة ممدوحة، قال تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالرَّحْمَةِ﴾ [البلد: ١٧]، وقد نهى الله عن الوهن والحزن، فقال: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

وندبهم إلى الرحمة؛ فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث الصحيح: «لا تُنْزِعْ الرحمة إلا من شقيٍّ»، وقال: «مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ»، وقال: «الراحمون يرحمهم الله».

ولكن لما كانت الرحمة في حق المخلوقين مستلزمة لذلك لم يجب أن تكون في حق الله مستلزمة لذلك، كما أن العلم والقدرة والسمع والبصر والكلام فينا يستلزم النقص والحاجة، بحيث يتنزّه الله عنه، وهذه مثبتة لله، فإن لم تكن في حق الله كما في حقنا، فكذلك الرحمة، وأيضا نحن نعلم بالاضطرار أنا إذا فرضنا موجودين أحدهما يرحم غيره، فيجلب له المنفعة ويدفع عنه المضرة، والآخر قد استوى عنده هذا وهذا وليس عنده ما يقتضي جلب منفعة ولا دفع مضرة كان الأول أكمل». اهـ.

كما أجاب العلامة ابن القيم على المعطلة النافين لصفة الرحمة القائلين بأنها مجاز عن الثواب، وعلّلوا ذلك بأن الرحمة ضعف وخور وتألم على المرحوم، فقال كما في «مختصر الصواعق» (ص 343) ما خلاصته:

أولاً: إنَّ القول بأن صفات الله مجاز من أعظم الإلحاد في أسمائه، وذلك بإنكارها، أو إنكار معانيها التي دلّت عليها، فمن ادّعى أنَّ الرحمن مجاز لا

حقيقة له، فإنه يجوز إطلاق القول بنفيها، فلا يستنكف أن يقول: ليس بالرحمن، ولا بالرحيم، كما يصح أن يقال للرجل الشجاع: ليس بأسدٍ على الحقيقة.
ثانيًا: قولهم: «الرحمة رِقَّةُ القلب» يقال لهم: تريدون رحمة المخلوق؟! أم رحمة الخالق؟! أم كل ما سمي رحمة شاهدًا أو غائبًا؟.

فإن قلتم بالأول صدقتم، ولم ينفعكم ذلك شيئًا، وإن قلتم بالثاني والثالث كنتم قائلين غير الحق؛ فإن الرحمة صفة الرحيم، وهي في كل موصوفٍ بحسبه، فإن كان الموصوف حيوانًا له قلبٌ فرحمته من جنسه رِقَّةٌ قائمة بقلبه، وإن كان مَلَكًا فرحمته تناسب ذاته، فإذا اتصف أرحمُ الراحمين بالرحمة حقيقة لم يلزم أن تكون رحمته من جنس رحمة المخلوق لمخلوق، وهذا يطرُدُ في سائر الصفات، كالعلم والقدرة والسمع والبصر والحياة والإرادة إلزامًا وجوابًا، فكيف تكون رحمة أرحم الراحمين مجازًا دون السميع العليم.

ثالثًا: إن اسم الرحمة يُستعمل في وصف الخالق والمخلوق، فإما أن تكون حقيقة فيهما جميعًا، وهي في كل موضع بحسبه، أو مجازًا فيهما جميعًا، أو أنها حقيقة في حق الخالق، مجاز في حق المخلوق، أو العكس، ولا شك أن المتعين هو الأول لا غير، وما سواه فباطل.

ويوضحه الوجه الرابع: أنه من أعظم المحال أن تكون رحمة أرحم الراحمين التي وسعت كلَّ شيء مجازًا، ورحمة العبد الضعيفة القاصرة المخلوقة المستعارة من ربه - التي هي من آثار رحمته - حقيقة، وهل في قلب الحقائق أكثر من هذا؟!

فالعباد إنما حصلت لهم هذه الصفات - التي هي كمالٌ في حقهم - من آثار صفات الربِّ تعالى، فكيف تكون لهم حقيقة وله مجاز؟!

خامساً: أن الرحمة مقرونة في حق العبد بلوازم المخلوق؛ من الحدوث، والنقص، والضعف، وغيره، وهذه اللوازم ممتنعة على الله تعالى، فإما أن تكون الرحمة اسماً للقدر الممدوح فقط، أو الممدوح وما يلزمه من النقص، فإن كانت اسماً للقدر الكامل الذي لا يستلزم نقصاً - وذلك ثابت للرب تعالى - كانت حقيقةً في حقه قطعاً، وإن كانت اسماً للمجموع فالثابت للرب تعالى هو القدر الذي لا نقص فيه.

سادساً: أن الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى فرّق بين رحمته، والرضوان، وثوابه المنفصل، فقال تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٢١].

فالرَّحْمَةُ والرضوانُ صفتُهُ، والجنةُ ثوابُهُ، وهذا يُبطل قول مَنْ جعل الرحمة والرضوان ثواباً منفصلاً مخلوقاً، وقول من قال: هي إرادته الإحسان؛ فإن إرادته الإحسان هي من لوازم الرحمة، فإنه يلزم من الرحمة أن يريد الإحسان إلى المرحوم، فإذا انتفت حقيقة الرَّحْمَةِ انتفى لازمها وهو إرادة الإحسان، وكذلك لفظ اللَّعْنَةُ والغضب والمقت هي أمور مستلزمة للعقوبة، فإذا انتفت حقائق تلك الصفات انتفى لازمها. اهـ. ملخصاً.



«وقوله: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، وقوله: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ﴾ [النساء: ٩٣]، وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَصْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ [محمد: ٢٨]، وقوله: ﴿فَلَمَّا أَصْفَوْنَا أَنْقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥]، وقوله: ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ أُنْعَائِهِمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٦]، وقوله: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٣].

تضمنت هذه الآيات التي أوردها شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ عددًا من صفات الله الفعلية الاختيارية، وهي صفة الرضا، والغضب، واللعن، والسخط، والكراهة، والمقت.

وهذه الصفات مما يثبتها أهل السنة والجماعة على الوجه اللائق بجلال الله وعظمته وكماله، وهي صفات أزلية النوع، حادثة الأحاد، وهي ذاتية باعتبارٍ وفعلية باعتبارٍ.

فالله موصوفٌ بالصفات الفعلية الاختيارية، خلافًا للمعطلة، حتى إن العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ - كما في «مختصر الصواعق» (ص 192) قد ذكر أن أدلة هذه الصفات تزيد على عشرة آلاف دليل، ثم ذكر أن سورة الفاتحة تدلُّ على ثبوت الأفعال الاختيارية لله من سبعة وجوه، ثم ذكرها رَحِمَهُ اللَّهُ.

أما الآية الأولى، وهي قوله تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾.

ففيها: إثبات صفة الرضا لله تعالى، وهذه الصفة من الصفات الفعلية المتعلقة بمشيئة الله، وقد دلَّ على ثبوتها الكتاب والسنة والإجماع والعقل.

أما الكتاب، فمنه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨]، وقوله: ﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧].

ومن أدلة السُّنَّةِ على ذلك: ما رواه مسلمٌ في صحيحه من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلَاثًا».

وما رواه مسلمٌ أيضًا عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ فِيحَمْدِهِ عَلَيْهَا، وَيَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فِيحَمْدِهِ عَلَيْهَا».

وما رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي قِصَّةِ الْأَقْرَعِ وَالْأَبْرَصِ وَالْأَعْمَى، وَفِي آخِرِهِ أَنَّ الْمَلِكَ قَالَ لِلْأَعْمَى: «فَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْكَ، وَسَخِطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ».

وهذه الصِّفَةُ ثَابِتَةٌ بِإِجْمَاعِ أَهْلِ السُّنَّةِ سَلَفًا وَخَلَفًا.

وأما دلالة العقل عليها: فكونه عَزَّوَجَلَّ يَثِيبُ مَنْ أَطَاعَهُ، وَيَجْزِيهِ عَلَى عَمَلِهِ - دَلِيلٌ عَلَى رِضَاهِ سُبْحَانَهُ.

«فَإِنْ قُلْتَ: اسْتَدْلَالُكَ بِالْمُثَبِّتَةِ عَلَى رِضَا اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ قَدْ يَنَازَعُ فِيهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَدْ يُعْطِي الْفَاسِقَ مِنَ النِّعَمِ أَكْثَرَ مِمَّا يُعْطِي الشَّاكِرَ، وَهَذَا إِيرَادُ قَوِيِّ».

ولكن الجواب عنه أن يقال: إعطاؤه الفاسق المقيم على معصيته استدراج، وليس عن رضا، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٨٢) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿[الأعراف: ١٨٢ - ١٨٣].

وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ، حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ»، ثُمَّ تَلَا قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمَ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [٤٤] فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ [الأنعام: ٤٤ - ٤٥].

وأما إذا جاءت المثوبة والإنسان مقيم على طاعة الله، فإننا نعرف أن ذلك صادرٌ عن رضا الله عنه.

ورضا الله يتعلق بالعمل، ويتعلق بالعامل.

أما بالعمل؛ فمثل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧]، أي: يرضى الشكر لكم.

وكما في قوله تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وكما في الحديث الصحيح: «إِنَّ اللَّهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلَاثًا»، فهذا الرِّضَا متعلق بالعمل.

ويتعلق الرِّضَا - أيضًا - بالعامل، مثل هذه الآية التي ساقها المؤلف ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾. اهـ. «شرح الواسطية» للعلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ (ص 215).

ومن ذلك قوله - أيضًا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما في الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - في قصة الأقرع والأبرص والأعمى - فقال المَلِكُ للأعمى: «فقد رَضِيَ اللَّهُ عَنْكَ، وَسَخِطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ».

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ﴾.

ففيها صفتان فعليتان لله عَزَّوَجَلَّ، وهما: صفة اللعن، وصفة الغضب، وقد دلَّ على ثبوتهما الكتابُ والسُّنةُ والإجماع، ودلَّ العقلُ - أيضًا - على إثبات صفة الغضب لله.

وأدلة الكتاب والسنة على ذلك كثيرة ومعروفة.

وأما دلالة العقل على صفة الغضب، فإنَّ كونه عَزَّوَجَلَّ يعاقب العاصين ويجازيهم على أعمالهم دليلٌ على الغضب، وقد نفى أهلُ التَّعْطِيلِ اتِّصافَ الله بالغضب، قالوا: لأنَّ الغضبَ غَلِيَانٌ دَمِ القلبِ لطلب الانتقام، وهذا يستحيل في حق الله.

وقد رَدَّ عليهم شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ كما في «مجموع الفتاوى» (6/ 119) بقوله: «ليس بصحيح في حقنا، بل الغضب قد يكون لدفع المُنَافِي قبل وجوده، فلا يكون هناك انتقامٌ أصلاً، أيضًا فغليَانُ دَمِ القلبِ يقارنه الغضبُ، وليس أنَّ مجرد الغضب هو غليَانُ دم القلب، كما أنَّ الحياءَ يقارنه حُمْرَةُ فِي الوجه، والوجلُّ يقارن صُفْرَةَ فِي الوجه، لا أنه هو، وهذا لأنَّ النَّفْسَ إِذَا قَامَ بِهَا دَافِعُ الْمُؤْذِي فَإِنْ اسْتَشْعَرَتِ الْعِجْزَ عَادَ الدَّمُ إِلَى الدَّخْلِ فَاصْفَرَّ الْوَجْهَ، كَمَا يَصِيبُ الْحَزِينَ، وَهَذَا إِنْ قَدَّرَ أَنَّهُ حَقِيقَةُ غَضَبٍ لَمْ يَلْزَمْ أَنْ يَكُونَ غَضَبُ اللَّهِ مِثْلَ غَضَبِنَا، كَمَا أَنَّ حَقِيقَةَ ذَاتِ اللَّهِ لَيْسَتْ مِثْلَ ذَوَاتِنَا، فَلَيْسَ هُوَ مِمَّاثِلًا لَنَا لَا لَذَوَاتِنَا، وَلَا لِأَرْوَاحِنَا، وَصِفَاتُهُ كَذَاتِهِ». اهـ.

واللعن: هو الطرد والإبعاد من رحمة الله.

و (مَن) في الآية شرطية مِن ألفاظ العموم؛ فتعم جميع المكلفين.
و ﴿مُؤْمِنًا﴾ خرج بذلك الكافر، سواء كان كافرًا كفرًا أصليًا، أو منافقًا،
أو مرتدًا.

وقوله: ﴿مُتَعَمِّدًا﴾ يدل على إخراج الصغير، وغير العاقل؛ لأن هؤلاء
ليس لهم قصدٌ معتبر، ولا عمدٌ، وعلى إخراج المخطئ. «شرح الواسطية» لابن
عثيمين (ص 210).

وقد قال تعالى: ﴿وَمَا كَانِ لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً﴾
[النساء: 92].

وقوله: ﴿فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ
وَلَعَنَهُ﴾.

في هذا وعيدٌ شديدٌ لِمَن اقترفَ هذه الكبيرة، وقد صحَّ عند النسائي وغيره
من حديث بُريدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «قَتْلُ الْمُؤْمِنِ أَعْظَمُ
عِنْدَ اللَّهِ مِنْ زَوَالِ الدُّنْيَا».

وفي «البخاري» من حديث ابنِ عمر أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَنْ
يَزَالَ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا لَمْ يُصَبَّ دَمًا حَرَامًا».

وفي «البخاري» و«مسلم» من حديث ابن مسعود أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ فِي الدِّمَاءِ».

وأخرج أبو داود في «سننه» بسندٍ صحيح، قال: «حدثنا مؤمل بن الفضل
الحرَّاني، حدثنا محمد بن شعيب عن خالد بن دهقان، قال: كنا في غزوة
القسطنطينية بذليقية، فأقبل رجل من أهل فلسطين من أشرافهم وخيارهم يعرفون

ذلك له، يقال له: هانئ بن كلثوم بن شريك الكناني، فسلم على عبد الله بن أبي زكريا، وكان يعرف له حقّه، قال لنا خالد: فحدثنا عبد الله بن أبي زكريا قال: سمعت أم الدرداء تقول: سمعت أبا الدرداء يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «كُلُّ ذَنْبٍ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْفِرَهُ إِلَّا مَنْ مَاتَ مُشْرِكًا، أَوْ مُؤْمِنًا قَتَلَ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا».

فقال هانئ بن كلثوم: سمعت محمود بن الربيع يحدث عن عبادة بن الصامت أنه سمعه يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «مَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا فَاعْتَبَطَ⁽¹⁾ بقتله لم يقبل الله منه صَرْفًا وَلَا عَدْلًا».

قال لنا خالد: ثم حدثني ابن أبي زكريا عن أم الدرداء عن أبي الدرداء، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لَا يَزَالُ الْمُؤْمِنُ مُعْنِقًا⁽²⁾ صَالِحًا مَا لَمْ يُصَبْ دَمًا حَرَامًا، فَإِذَا أَصَابَ دَمًا حَرَامًا بَلَغَ⁽³⁾».

ومن عظيم جُرم قتل المؤمن بغير حق أن العلماء اختلفوا هل تقبل توبة القاتل أم لا؟

«فقال الجمهور: التوبة تأتي على كل ذنب، فكل ذنب يمكن التوبة منه وتُقبل».

وقالت طائفة: لا توبة للقاتل. وهذا مذهب ابن عباس المعروف عنه وإحدى الروایتين عن أحمد.

(1) أي: قتله بلا جناية منه ولا جريرة توجب قتله، كما في لسان العرب، مادة: عبط.

(2) أي: خفيف الظهر سريع السير، وقال ابن الأثير في «النهاية»: أي: مسرعًا في طاعته، منبسطًا في عمله.

(3) أي: أعيا، وانقطع.

وقد ناظر ابن عباس في ذلك أصحابه فقالوا: أليس قد قال الله تعالى في سورة الفرقان: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۖ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ۖ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۖ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦٨ - ٧٠].

فقال: كانت هذه الآية في الجاهلية، وذلك أن ناسًا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا وزنوا، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: إن الذي تدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملناه كفارة، فنزل: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ الآية، فهذه في أولئك، وأما التي في سورة النساء وهي قوله تعالى ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣]، فالرجل إذا عرف الإسلام وشرائعه ثم قتل، فجزاؤه جهنم.

وقال زيد بن ثابت: «لما نزلت التي في (الفرقان): ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ عجبنا من لينها، فلبثنا سبعة أشهر، فنزلت الغليظة بعد اللينة فنسخت اللينة.

وأراد بالغليظة هذه الآية التي في سورة (النساء)، وباللينة آية (الفرقان).

قال ابن عباس: «آية الفرقان مكية، وآية النساء مدنية نزلت، ولم ينسخها شيء».

قال هؤلاء: ولأن التوبة من قتل المؤمن عمدا متعذرة؛ إذ لا سبيل إليها إلا باستحلاله أو إعادة نفسه - التي فوّتها عليه - إلى جسده؛ إذ التوبة من حق الأدمي لا تصح إلا بأحدهما، وكلاهما متعذر على القاتل، فكيف تصح توبته من حق

آدمي لم يصل إليه ولم يستحله منه؟

ولا يرد عليهم هذا في المال إذا مات ربُّه ولم يوفِّه إياه؛ لأنه يتمكن من إيصال نظيره إليه بالصدقة.

قالوا: ولا يرد علينا أن الشرك أعظم من القتل، وتصح منه التوبة؛ فإن ذلك محض حق الله؛ فالتوبة منه ممكنة، وأما حق الآدمي فالتوبة موقوفة على أدائه إليه واستحلاله له، وقد تعذر.

واحتج الجمهور بقوله تعالى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، فهذه في حق التائب، وبقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، فهذه في حق غير التائب؛ لأنه فرق بين الشرك وما دونه، وعلق المغفرة بالمشيئة؛ فخصص وعلق، وفي التي قبلها عم وأطلق.

واحتجوا بقوله تعالى: ﴿وَلِيَّ لَغْفَارٍ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢]، فإذا تاب هذا القاتل وآمن وعمل صالحاً فإن الله عز وجل غفار له.

قالوا: وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم حديث الذي قتل المائة ثم تاب فنفعت توبته، وألحق بالقرية الصالحة التي خرج إليها.

وصح عنه صلى الله عليه وسلم من حديث عبادة بن الصَّامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال - وحوله عصابة من أصحابه -: «بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان

تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوني في معروف، فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ بِهِ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَسْتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ؛ فَهُوَ إِلَى اللَّهِ؛ إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ، وَإِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ، فَبَايَعْنَاهُ عَلَى ذَلِكَ».

قالوا: وقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى -: «يا بن آدم، لو لقيتني بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا، ثُمَّ لقيتني لَا تَشْرِكُ بِي شَيْئًا لَقِيتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً».

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ مَاتَ لَا يَشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ»، وقال: «مَنْ كَانَ آخِرَ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ».

وقال: «إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ». وفي حديث الشفاعة: «أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ».

وفيه يقول الله تعالى: «وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لِأُخْرِجَنَّ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ».

وأضعافُ هذه النصوصُ كثيرٌ تدل على أنه لَا يُخَلَّدُ فِي النَّارِ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ التَّوْحِيدِ.

قالوا: وأما هذه الآية التي في النساء، فهي نظائر أمثالها من نصوص الوعيد، كقوله تعالى: ﴿إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَةً﴾ وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴿[الجن: ٢٣]﴾.

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ آلِيَتَمَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ

نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ [النساء: ١٠]، وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَتَوَجَّأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ خَالِدًا مَخْلَدًا فِي نَارِ جَهَنَّمَ»، ونظائره كثيرة.

وقد اختلف الناس في هذه النصوص على طرق:

أحدها: القول بظاهرها، وتخليد أرباب هذه الجرائم في النار، وهو قول الخوارج والمعتزلة، ثم اختلفوا: فقالت الخوارج: هم كفار؛ لأنه لا يخلد في النار إلا كافر.

وقالت المعتزلة: ليسوا بكفار، بل فسَّاق مخلدون في النار، هذا كله إذا لم يتوبوا.

وقالت فرقة: بل هذا الوعيد في حق المستحلِّ لها؛ لأنه كافر، وأما من فعلها معتقداً تحريمها: فلا يلحقه هذا الوعيد - وعيد الخلود - وإن لحقه وعيد الدخول.

وقد أنكر الإمام أحمد هذا القول وقال: لو استحل ذلك ولم يفعله كان كافراً، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنما قال: مَنْ فَعَلَ كَذَا وَكَذَا.

وقالت فرقة ثالثة: الاستدلال بهذه النصوص مبنيٌّ على ثبوت العموم.

وليس في اللغة ألفاظ عامة، ومن هنا أنكر العموم من أنكره، وقصدهم تعطيل هذه الأدلة عن استدلال المعتزلة والخوارج بها، لكن ذلك يستلزم تعطيل الشرع جملةً، بل تعطيل عامة الأخبار، فهؤلاء ردُّوا باطلاً بأبطل منه، وبدعةً بأقبح منها، وكانوا كمن رام أن يبيني قصراً فهدم مضراً.

وقالت فرقة رابعة: في الكلام إضمار.

قالوا: والإضمار في كلامهم كثيرٌ معروفٌ.

ثم اختلفوا في هذا المضمّر، فقالت طائفةٌ: بإضمار الشرط والتقدير، فجزاؤه كذا إن جازاه، أو إن شاء.

وقالت فرقة خامسة: بإضمار الاستثناء، والتقرير فجزاؤه كذا، إلا أن يعفو. وهذه دَعْوَى لا دليل في الكلام عليها البتة، ولكن إثباتها بأمر خارج عن اللفظ.

وقالت فرقة سادسة: هذا وعيدٌ، وإخلافٌ الوعيد لا يَدْمُ، بل يُمدح، والله تعالى يجوز عليه إخلافٌ الوعيد، ولا يجوز عليه خلفٌ الوعد. والفرق بينهما أن الوعيدَ حَقُّه، وإخلافُه عَفْوٌ وهَبَةٌ وإسقاطٌ، وذلك موجبٌ كَرَمِهِ وجُودِهِ وإِحْسَانِهِ، والوعد حَقٌّ عليه أَوْجبه على نفسه، والله لا يخلف الميعاد.

قالوا: ولهذا مَدَحَ به كعبُ بنُ زُهَيْرٍ رسولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حيث يقول:

نُبِّئْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ أَوْعَدَنِي وَالْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ مَأْمُولُ

وتناظر في هذه المسألة أبو عمرو بن العلاء وعمرو بن عُبيد، فقال عمرو بن عُبيد: يا أبا عمرو، لا يُخلف الله وعده، وقد قال: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا﴾ الآية. فقال له أبو عمرو: ويحك يا عمرو! مِنَ الْعُجْمَةِ أُتِيتَ؛ إن العربَ لا تُعَدُّ إخلافَ الوعيدِ ذَمًّا، بل جُودًا وكرمًا، أما سَمِعْتَ قولَ الشاعر:

وَلَا يَرْهَبُ ابْنُ الْعَمِّ مَا عَشْتُ وَلَا يَخْتَشِي مِنْ سَطْوَةِ الْمُتَهَدِّدِ
وَإِنِّي وَإِنْ أَوْعَدْتُهُ أَوْ وَعَدْتُهُ لَمْخِلْفُ إِعَادِي وَمُنْجِزُ مَوْعِدِي

وقالت فرقة سابعة: هذه النصوص وأمثالها مما ذَكَرَ فيه المقتضي للعقوبة.

ولا يلزم من وجود مقتضى الحكم وجوده؛ فإن الحكم إنما يتم بوجود مقتضيه وانتفاء مانعه، وغاية هذه النصوص الإعلام بأن كذا سبب للعقوبة ومقتضى لها، وقد قام الدليل على ذكر الموانع.

فبعضها بالإجماع، وبعضها بالنص، فالتوبة مانع بالإجماع، والتوحيد مانع بالنصوص المتواترة التي لا مدفع لها، والحسنات العظيمة الماحية مانعة، والمصائب الكبار المكفرة مانعة، وإقامة الحدود في الدنيا مانع بالنص، ولا سبيل إلى تعطيل هذه النصوص، فلا بُدَّ مِنْ إِعْمَالِ مِنَ الْجَانِبِينَ». اهـ. «مدارج السالكين» (1/ 424 - 428).

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ وَكَرَهُوا رِضْوَانَهُ﴾.

في هذه الآية إثبات صفة السخط لله، وهي من الصفات الفعلية الدالة على عظمته وكماله، نثبتها لله على الوجه اللائق بعظمته وجلاله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. وهذه الصفة ثابتة بالكتاب والسنة والإجماع.

أما دلالة الكتاب فمنها الآية التي أوردها المؤلف، وأما دلالة السنة فمن ذلك ما في الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ - فِي قِصَّةِ الْأَعْمَى وَالْأَقْرَعِ وَالْأَبْرَصِ - فَقَالَ الْمَلِكُ لِلْأَعْمَى: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ رَضِيَ عَنْكَ، وَسَخِطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ».

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾.

فقوله تعالى: ﴿آسَفُونَا﴾، أي: أَغْضَبُونَا، وَأَسْخَطُونَا.

وفي هذه الآية أداة شرط، وفعل شرط وجوابه جزاؤه، فالأداة (لَمَّا) وفعل الشرط ﴿ءَاسَفُونَا﴾، وجوابه جزاؤه: ﴿أَنْتَقِمْنَا مِنْهُمْ﴾.

وفي هذا ردُّ على المعطلة الذين فسَّروا السخط والغضب بالانتقام؛ لأن السخط غير الانتقام، فالانتقام نتيجة الغضب والسخط.

والأسف يأتي في اللغة على معنيين:

1- بمعنى الغضب الشديد، كما في الآية.

2- بمعنى الحزن والندم، مثل قوله تعالى - عن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام - ﴿يَتَأَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَأَبْيَضَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٨٤]، وهذا المعنى ممتنع في حق الله تعالى، وهو سبحانه منزَّه عنه.

وفي الآية إثبات صفة الانتقام لله عَزَّجَلَّ على الوجه اللائق به سبحانه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ أُنْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾.

في هذه الآية إثبات صفة الكره، وهي ثابتة بالكتاب والسنة والإجماع.

أما الكتاب فقوله تعالى: ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ [الإسراء: ٣٨]، والآية التي أوردها المصنف.

ومن أدلة السُّنة على ذلك: ما رواه البخاري ومسلم من حديث المغيرة بن شعبة أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إن الله حَرَّمَ عليكم عقوق الأمهات، ومنعاً وهات، ووأد البنات، وكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال».

وما رواه مسلم من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «... وإن الكافر إذا بُشِّرَ بعذاب الله وسخطه كره لقاء الله، وكره الله لقاءه».

وقوله تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾.

وهذه الآية تعليل للآية التي قبلها وبيان لعاقبتها ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿[الصف: ٢ - ٣].

﴿كَبُرَ﴾ بمعنى (عَظُمَ). ﴿مَقْتًا﴾، المَقْتُ: أَشَدُّ الْبُغْضِ.

وقد تَضَمَّنَتِ الآيةُ السابقةُ إثباتَ صفةِ المَقْتِ لله تعالى على الوجه الذي يليق بجلاله وكماله، وهي صفةٌ ثابتةٌ لله بالكتاب والسنة والإجماع.

ومن أدلة الكتاب: ما ذكره المصنّف رَحِمَهُ اللَّهُ.

ومن أدلة السُّنَّة: ما رواه مسلم في صحيحه من حديث عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «... وَإِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَّتَهُمْ عَرَبُهُمْ وَعَجَمُهُمْ، إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ».

وقال شيخ الإسلام ابنُ تيمية في «التَّدْمِيرِيَّة» (ص 26): «وكذلك وصفَ نَفْسَهُ - سبحانه - بأنه يمقت الكفار، ووصفهم بالمقت، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لِمَقَّتُ اللَّهُ أَكْبَرُ مِنْ مَقَّتِكُمْ﴾ [غافر: ١٠]، وليس المقتُ مثْلَ المقتِ». اهـ.

وكل الصفات الفعلية السابقة لا يشتق منها أسماء لله باتفاق، والله أعلم.



«وقوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْعَمَامِ وَالْمَلَائِكَةِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ [البقرة: ٢١٠]، وقوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمْنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامِنْتَ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَنِهَا خَيْرًا قُلِ انْظُرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٨]، وقوله: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢١ - ٢٢]، وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَمِ وَمِنَ الْمَلَائِكَةِ تُنْزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥]».

أورد شيخ الإسلام رحمه الله هذه الآيات الأربع؛ لإثبات صفة المجيء والإتيان لله على الوجه اللائق بعظمته وكماله وكبريائه، وهما من الصفات الفعلية الاختيارية التي يشبها أهل السنة والجماعة لله، دون تمثيل وتكييف.

فقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْعَمَامِ وَالْمَلَائِكَةِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾.

في هذه الآية تحذير شديد للمكذِّبين من هَوْلِ ذلك اليوم الذي يأتي فيه الله والملائكة على الصفة المذكورة.

قال العلامة ابن عثيمين في «شرح الواسطية» (ص ٢٢٩): «قوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾، ﴿هَلْ﴾: استفهامٌ بمعنى النفي، يعني: ما ينظرون، وكلما وجدت (إلا) بعد الاستفهام، فالاستفهام يكون للنفي. هذه قاعدة.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: «هل أنت إلا أصبع دُميت»، أي: ما أنت. ومعنى ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ هنا ينتظرون؛ لأنها لم تتعدَّ (إلى)، فلو تعدَّت

ب(إلى) لكان معناها النظر بالعين غالباً، أما إذا تَعَدَّتْ بنفسها فهي بمعنى ينتظرون، أي: ما ينتظر هؤلاء المكذبون إلا أن يأتيهم الله في ظلٍّ من الغمام، وذلك يوم القيامة.

﴿يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ﴾، و﴿فِي﴾ هنا بمعنى: (مع)، فهي للمصاحبة، وليست للظرفية قطعاً؛ لأنها لو كانت للظرفية لكانت الظلُّ محيطاً بالله، ومعلوم أن الله تعالى واسعٌ عليمٌ، ولا يحيط به شيءٌ من مخلوقاته». اهـ.

والعلماء قالوا: إِنَّ الغمام هو السحاب الأبيض الذي يبقى معه الجوُّ مستنيراً، كما قال تعالى - ممتناً على بني إسرائيل -: ﴿وَوَضَّلْنَا عَلَيْكُمْ الغَمَامَ﴾ [البقرة: 57].

وقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾.

﴿هَلْ﴾: استفهامٌ بمعنى النفي كما سبق، وهكذا ينظرون بمعنى ينتظرون في هذا السياق.

وقد قال العلامة ابن القيم، كما في «مختصر الصواعق» (ص 67): «ومن ذلك قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: 158]، فلما ذُكِرَ إتيانه - سبحانه - ربُّماً تُوهِمُ أن المراد إتيانُ بعض آياته، أزال هذا الوهم ورفعه بقوله: ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾، فصار الكلام مع هذا التقسيم والتنويع نصّاً صريحاً في معناه لا يحتمل غيره». اهـ.

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۖ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾.

قال العلامة السَّعْدِي في تفسيره: ﴿كَلَّا﴾ أي: ليس كلُّ ما أحببتم من الأموال وتنافستم فيه من اللَّذَّاتِ بباقي لكم، بل أمامكم يومٌ عظيمٌ وهولٌ جسيمٌ تُدَكُّ فيه الأرض والجبال وما عليها، حتى تُجْعَلَ قاعًا صَفْصَفًا، لا عوجَ فيه ولا أمت، ويحيي الله لفصل القضاء بين عباده في ظلل من الغمام، وتحيي الملائكة الكرام أهل السَّمَاوَاتِ كُلُّهُمْ صَفًا صَفًا، أي صَفًا بعد صفٍّ، كل سماء يحيي ملائكتها صَفًا يحيطون بمن دونهم من الخلق، وهذه الصفوف صفوف خضوع، وذل للملك الجبار». اهـ.

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقُّ السَّمَاءُ بِالْغَمِّ وَنُزِلَ الْمَلَكُ تَنْزِيلًا﴾.

قال العلامة ابنُ عُثَيْمِينَ رَحِمَهُ اللَّهُ في «شرح الواسطية» (ص 232 - 233): «يعني: اذكر يومَ تَشَقُّ السَّمَاءُ بِالْغَمِّ وَتَشَقُّ: أبلغ من تَشَقُّ؛ لأن ظاهرها تَشَقُّ شَيْئًا فَشِيئًا، ويخرج هذا الغمام يثور ثوران الدُّخان ينبعثُ شَيْئًا فَشِيئًا، تشقق السماء بالغمام مثل ما يقال: تشقق الأرض بالنبات، يعني يخرج الغمام من السماء، ويثور متتابعًا؛ وذلك لمجيء الله عَزَّوَجَلَّ للفصل بين عباده، فهو يومٌ رهيبٌ عظيمٌ».

وقوله: ﴿وَنُزِلَ الْمَلَكُ تَنْزِيلًا﴾ ينزلون من السماوات شَيْئًا فَشِيئًا، تنزل ملائكة السماء الدنيا ثم الثانية ثم الثالثة وهكذا، وهذه الآية في سياقها ليس فيها ذكرٌ لمجيء الله، ولكن فيها الإشارة إلى ذلك؛ لأن تَشَقُّ السماء بالغمام إنما يكون لمجيء الله تعالى، بدليل الآيات السابقة». اهـ.

قال العلامة ابنُ الْقَيْمِ رَحِمَهُ اللَّهُ كما في «مختصر الصواعق» (ص 427): «والإتيان والمجيء من الله تعالى نوعان: مُطْلَقٌ ومُقَيَّدٌ».

فإذا كان مجيء رحمته أو عذابه كان مُقَيَّدًا كما في الحديث: «حتى جاء الله بالرحمة والخير»، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الأعراف: ٥٢]، ومنه قوله تعالى: ﴿بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ﴾ [المؤمنون: ٧١]، وفي الأثر: «لا يأتي بالحسنات إلا الله».

النوع الثاني: المَجِيء والإتيان المُطلق، كقوله: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ﴾ [الفجر 22]، وقوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ﴾ [البقرة 210]، وهذا لا يكون إلا مجيئه سبحانه، هذا إذا كان مطلقًا، فكيف إذا قيد بما يجعله صريحًا في مجيئه نفسه، كقوله: ﴿تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِي رَبُّكَ أَوْ يَأْتِكَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام 158]، فعطف مجيئه على مجيء الملائكة، ثم عطف مجيء آياته على مجيئه. اهـ.

وقد حَرَفَ أهل التَّعْطِيلِ صفةَ المَجِيءِ والإتيانِ، وقالوا: إنهما مجازٌ عن مجيء مَلَكٍ من ملائكته.

وقد رَدَّ عليهم العلامة ابن القيم رَحْمَةُ اللَّهِ كَمَا فِي «مختصر الصواعق» (ص 339)، وأبطل دعوَاهُم من وجوه:

«الأول: أنه إضمارٌ ما لا يدل عليه بمطابقة ولا تضمَّن ولا لزوم، وادِّعاء حذف ما لا دليل عليه يُطَرَّقُ لكلِّ مُبْطَل ادِّعاء إضمار ما يُصَحِّح باطله.

الثاني: أنَّ صحة التركيب واستقامة اللفظ لا تتوقف على هذا المحذوف، بل الكلامُ مستقيمٌ تامٌّ، قائمُ المعنى بدون إضمارٍ، فإضماره مجرد خلاف الأصل، فلا يجوز.

الثالث: أنه إذا لم يكن في اللفظ دليلٌ على تعيين المحذوف كان تعينه قولاً

على المتكلم بلا علم، وإخباراً عنه بإرادة ما لم يقم به دليل على إرادته، وذلك كذبٌ عليه.

الرابع: أن في السياق ما يبطل هذا التقدير، وهو قوله: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ﴾ [الفجر 22]، فَعَطْفُ مجيء الملك على مجيئه سبحانه يدلُّ على تغايرِ المَجِيئِينَ، وأن مجيئه سبحانه حقيقةٌ، كما أن مجيء الملك حقيقةٌ، بل مجيءُ الرَّبِّ - سبحانه - أولى أن يكون حقيقةً من مجيءِ المَلَكِ.

وكذلك قوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨]، ففَرَّقَ بين إتيانِ الملائكة، وإتيانِ الرَّبِّ، وإتيانِ بعضِ آياتِ رَبِّكَ، فقسَّم ونَوَّع، ومع هذا التقسيم يمتنع أن يكون القسمان واحداً؛ فتَأَمَّلْهُ، ولهذا منع عقلاء الفلاسفة حملَ مثل هذا اللفظ على مجازهِ، وقالوا: هذا يأباه التقسيم والترديد والاطراد.

الخامس: أنه لو صرَّح بهذا المحذوف المقدر لم يَحْسُن، وكان كلاماً ركيكاً، فادَّعَاءُ صدق ما يكون النطق به مشتركاً باطلٌ، فإنه لو قال: هل ينظرون إلا أن تأتِيَهُم الملائكة أو يأتي ملكُ ربك أو أمر ربك أو يأتي بعض آيات ربك كان مُسْتَهْجَناً.

السَّادس: أن المجاز لو كان ثابتاً فإنما يُصار إليه عند تَعَدُّرِ الحمل على الحقيقة؛ إذ هي الأصل، فما الذي أحال حمل ذلك على حقيقته من عقل أو نقل أو اتفاقٍ من اتفاقهم حُجَّةٌ؟

فأما النَّقْلُ والاتِّفَاقُ فهو من جانب الحقيقة بلا ريب، وأما العقل فإنكم تزعمون أنكم أولى به منهم، وهم قد أبطلوا جميع عقلياتكم التي لأجلها ادَّعَيْتُمْ أَنَّ نسبةَ المجيء والإتيان والنزول والاستواء إلى الله مجازٌ، فسَلِمَ لهم النقلُ

واتفاق السلف، فكيف والعقل الصريح من جانبهم كما تقدم تقريره؛ فإن من لا يفعل شيئاً ولا يتمكن من فعل يقوم به بمنزلة الجماد». اهـ. بتصرف يسير.



«وقوله: ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]، وقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨].

أورد شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ هاتين الآيتين؛ لإثبات صفة الوجه لله، وهذه الصِّفة من الصِّفات الذاتية التي يشتهها أهل السُّنة والجماعة دون تحريفٍ أو تكيفٍ أو تمثيلٍ.

أما الآية الأولى: ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾، فهي معطوفة على قوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ ﴿٢٦﴾ وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ﴿[الرحمن: ٢٦-٢٧]، ولهذا قال بعض السلف ينبغي إذا قرأت: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ أن تصلها بقوله: ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ حتى يتبين نقص المخلوق وكمال الخالق؛ وذلك للتقابل، هذا فناء، وهذا بقاء.

والوجهُ معناه معلومٌ، ولكن كلفيته مجهولة، لا نعلم كيف وَجْهُ الله عَزَّوَجَلَّ - كسائر صفاته، لكننا نؤمن بأن له وجهًا موصوفًا بالجلال والإكرام، وموصوفًا بالبهاء والعظمة والنور العظيم، حتى قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «حِجَابُ النُّورِ، لو كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ ما انتهى إليه بصرُهُ من خلقه».

«سُبُحَاتُ وَجْهِهِ» يعني: بهاؤه وعظمته وجلاله ونوره.

«ما انتهى إليه بصرُهُ من خَلْقِهِ»، وبصرُهُ ينتهي إلى كل شيء، وعليه فلو كَشَفَ هذا الحجاب - حِجَابُ النُّورِ من وجهه - لأحرق كل شيء.

لهذا نقول: هذا الوجه وجه عظيم، لا يمكن أبدًا أن يماثل أوجه المخلوقات، فإن حاول أحد أن يتصور هذه الكيفية بقلبه أو يتحدث عنها بلسانه

قلنا: إنك مبتدع ضالّ قائل على الله ما لا تعلم، وهنا قال: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾؛ أضاف الربوبية إلى محمد صلى الله عليه وسلم، وهذه الربوبية أخص ما يكون من أنواع الربوبية؛ لأن الربوبية عامة وخاصة، والخاصة خاصة أخص، وخاصة فوق ذلك كربوبية الله تعالى لرسله، فالربوبية الأخص أفضل بلا شك.

وقوله: ﴿ذُو﴾: صفة للوجه، والدليل الرفع، ولو كانت صفة للرب لقال: ذي الجلال، كما قال في نفس السورة: ﴿بَرَكَ أَسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾، [الرحمن: ٧٨]، فلما قال: ﴿ذُو الْجَلَالِ﴾ عَلِمْنَا أَنَّهُ وَصَفَ للوجه.

الجلال: معناه العظمة والسلطان.

﴿وَالْإِكْرَامِ﴾ هي مصدر من أكرم سالحة للمكرم والمكرم، فالله سبحانه وتعالى مُكْرَمٌ، وإكرامه تعالى القيام بطاعته، ومُكْرِمٌ لمن يستحق الإكرام من خلقه بما أعده لهم من الثواب.

وقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾.

أي: فان، كقوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾.

وقوله: ﴿إِلَّا وَجْهَهُ﴾ توازي قوله: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: 27].

فالمعنى: كل شيء فانٍ وزائل إلا وجه الله عز وجل، فإنه باقٍ، ولهذا قال: ﴿لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨]، فهو الحكم الباقي الذي يرجع إليه الناس ليحكم بينهم.

وقيل في معنى الآية: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]، أي: إلا ما أريد به وجهه، قالوا: لأن سياق الآية يدل على ذلك ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا

ءَاخِرُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ ﴿[القصص 88]﴾، كأنه يقول: لا تدع مع الله إلهاً آخر فتُشرك به؛ لأنَّ عَمَلَكَ وَإِشْرَاكَكَ هَالِكٌ، أي: ضائعٌ سُدىً، إلا ما أخلصته لوجه الله، فإنه يبقى؛ لأنَّ العملَ الصالحَ له ثوابٌ باقٍ لا يفنى في جنات النعيم، لكنَّ المعنى الأولُ أسدُّ وأقوى.

وعلى طريقة مَنْ يقول بجواز استعمال المشترك في مَعْنِيَّهِ، نقول: يمكن أن تُحْمَلَ الآية على المعنيين؛ إذ لا منافاة بينهما، فتُحْمَل على هذا وهذا، فيقال: كل شيءٍ يَفْنَى إلا وجه الله عَزَّجَلَّ، وكل شيءٍ من الأعمال يَذْهَبُ هَبَاءً إلا ما أريد به وجه الله.

وعلى أيِّ التقديرين، ففي الآية دليلٌ على ثبوت الوجه لله عَزَّجَلَّ، وهو من الصفات الذاتية الخبرية التي مُسَمَّاها بالنسبة إلينا أبعاضٌ وأجزاء، ولا نقول: من الصفات الذاتية المعنوية، ولو قلنا بذلك لَكُنَّا نوافق مَنْ تَأَوَّلَهُ تحريفاً، ولا نقول: إنها بعضٌ من الله، أو جزءٌ من الله؛ لأن ذلك يوهم نقصاً لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى (1).

هذا ولأهل البدع والأهواء من المعطلة أقوالٌ باطلةٌ حقيقتها إنكارُ صفةِ الوجه، وقد ساق العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ أقوالهم، كما في «مختصر الصواعق»، ثم أبطلها فقال:

«المثال الخامس: وَجْهُ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ، حيث ورد في الكتاب والسنة، فليس بمجازٍ بل على حقيقته، واختلف المعطلون في جهة التجوُّز في هذا، فقالت طائفة:

لفظ الوجه زائدٌ، والتقدير: ويبقى ربُّكَ، إلا ابتغاء ربه الأعلى، ويريدون

(1) «شرح العقيدة الواسطية» للعلامة ابن عثيمين (ص 237-240)، بتصرف.

رهم.

وقالت فرقة أخرى منهم: الوجه بمعنى الذات، وهذا قول أولئك، وإن اختلفوا في التعبير عنه.

وقالت فرقة: ثوابه وجزاؤه، فجعله هؤلاء مخلوقاً منفصلاً، قالوا لأن الذي يراد هو الثواب.

وهذه أقوال نعوذ بوجه الله العظيم من أن يجعلنا من أهلها.

قال عثمان بن سعيد الدارمي: وقد حكى بشرُّ المريسي أنه قال - في قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «إِذَا قَامَ الْعَبْدُ يَصَلِّيْ أَقْبَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ بِوَجْهِهِ»، يحتمل أن يقبل الله عليه بنعمته وإحسانه وأفعاله، وما أوجب للمصلي من الثواب، فقوله: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن 27]، أي: ما تتوجَّه به إلى ربك من الأعمال الصالحة، وقوله: ﴿فَأَيْنَمَا تُولُوْا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: 115]، أي: قِبْلَةُ اللَّهِ.

قال الدارمي: لما فرغ المريسي من إنكار اليدين عن الله أقبل قِبَلَ وجهه الله ذي الجلال والإكرام؛ لينفيه عنه، كما نفى عنه اليدين، فلم يدع غايةً من إنكار وجه الله ذي الجلال والإكرام والجحود به، حتى ادَّعى أن وجهه الله - الذي وصفه بأنه ذو الجلال والإكرام - مخلوق؛ لأنه ادَّعى أنه أعمالٌ مخلوقةٌ يُتَوَجَّهُ بها إليه، وثوابٌ وإنعامٌ مخلوقٌ يثيب به العامل، وزعم أنه قِبْلَةُ اللَّهِ، وقِبْلَةُ اللَّهِ - لا شك - مخلوقةٌ، ثم ساق الكلام في الرد عليه.

والقول بأن لفظ الوجه مجاز باطل من وجوه:

أحدها: أن المجاز لا يمتنع نفيه، فعلى هذا لا يمتنع أن يقال: ليس لله وجه، ولا حقيقة لوجهه، وهذا تكذيبٌ صريحٌ لما أخبر به عن نفسه، وأخبر به عنه

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الثاني: أنه خروجٌ عن الأصل والظاهر بلا موجب.

الثالث: أن ذلك يستلزم كونَ حياته وسمعه وبصره وقدرته وكلامه وإرادته وسائر صفاته مجازاً، لا حقيقة، كما تقدم تقريره.

الرابع: أن دعوى المعطل أن الوجهَ صلةٌ كذبٌ على الله وعلى رسوله وعلى اللغة، فإن هذه الكلمة ليست مما عهد زيادتها.

الخامس: لو ساغ ذلك لساغ لمعطل آخر أن يدعي الزيادة في قوله: أعوذ بعزة الله وقدرته، ويكون التقدير: أعوذ بالله، ويدعي معطل آخر الزيادة في سماعه وبصره، وغير ذلك.

السادس: أن هذا يتضمن إلغاء وجهه لفظاً ومعنى، وأن لفظه زائد، ومعناه منتفٍ.

السابع: ما ذكره الخطابي والبيهقي وغيرهما، قالوا: لما أضاف الوجه إلى الذات، وأضاف النعت إلى الوجه، فقال: ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]، دلَّ على أن ذكر الوجه ليس بصلة، وأن قوله: ﴿ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ صفة للوجه، وأن الوجه صفة للذات.

قلت - ابن القيم -: فتأمل رفع قوله: ﴿ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [عند ذكره الوجه، وجره في قوله: ﴿بَرَكَ أَتَمُّ رَبِّكَ ذِي الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨]، فذو الوجه المضاف بالجلال والإكرام لَمَّا كان القصد الإخبار عنه، وذو المضاف إليه بالجلال والإكرام في آخر السورة لما كان المقصود عين المسمى دون الاسم؛ فتأمل.

الثامن: أَنَّ حَمْلَهُ عَلَى الثَّوَابِ الْمُنْفَصِلِ مِنَ أَبْطَلِ الْبَاطِلِ؛ فَإِنَّ اللُّغَةَ لَا تَحْتَمِلُ ذَلِكَ، وَلَا يُعْرَفُ أَنَّ الْجِزَاءَ يُسَمَّى وَجْهًا لِلْمُجَازِي.

التاسع: أَنَّ الثَّوَابَ مَخْلُوقٌ، فَقَدْ صَحَّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ اسْتَعَاذَ بِوَجْهِ اللَّهِ، فَقَالَ: «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ الْكَرِيمِ أَنْ تُضِلَّنِي، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، وَالْجَنُّ وَالْإِنْسُ يَمُوتُونَ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُ، وَلَا يُظَنُّ بِرَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ - أَنْ يَسْتَعِيذَ بِمَخْلُوقٍ.

وفي «صحيح البخاري» أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥]، قَالَ: «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ». العاشر: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَدْعُو فِي دُعَائِهِ: «أَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ».

ولم يكن ليسأل لذة النظر إلى الثواب، ولا يعرف تسمية ذلك وجْهًا لغَةً وَلَا شَرْعًا وَلَا عُرْفًا.

الحادي عشر: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ اسْتَعَاذَ بِاللَّهِ فَأَعِيدُوهُ، وَمَنْ سَأَلَكُمْ بِوَجْهِ اللَّهِ فَأَعْطُوهُ».

وفي السنن من حديث جابر عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَسْأَلَ بِوَجْهِ اللَّهِ إِلَّا الْجَنَّةَ».

فكان طاووسٌ يَكْرَهُ أَنْ يَسْأَلَ الْإِنْسَانُ بِوَجْهِ اللَّهِ، وَجَاءَ رَجُلٌ إِلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ فَرَفَعَ إِلَيْهِ حَاجَتَهُ، ثُمَّ قَالَ: أَسْأَلُكَ بِوَجْهِ اللَّهِ، فَقَالَ عُمَرُ: لَقَدْ سَأَلْتَ بِوَجْهِ اللَّهِ، فَلَمْ يَسْأَلْ شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ، ثُمَّ قَالَ عُمَرُ: وَيْحَكَ! أَلَا سَأَلْتَ بِوَجْهِ اللَّهِ الْجَنَّةَ؟!

ولو كان المراد بوجهه مخلوقاً من مخلوقاته لما جاز أن يقسم عليه ويسأل به، ولا كان ذلك أعظم من السؤال به سبحانه، وهذه الآثار صريحة في أن السؤال بوجهه أبلغ وأعظم من السؤال به؛ فقد قال رسول الله ﷺ: «لا يُسأل بوجه الله إلا الجنة»، فدلّ على بطلان قول من قال: هو ذاته.

الثاني عشر: ما رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنَامُ وَلَا يَنبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ». فإضافة السُّبُحَاتِ التي هي الجلال والنور إلى الوجه، وإضافة البصر إليه تبطل كُلَّ مجازٍ، وتبين أَنَّ المراد به وجهه.

الثالث عشر: أن الصحابة - رضي الله عنهم - والتابعين وجميع أهل السُّنة والحديث والأئمة الأربعة وأهل الاستقامة من أتباعهم، متفقون على أن المؤمنين يرون وجه ربهم في الجنة، فمن أنكر حقيقة الوجه لم يكن للنظر عنده حقيقة، ولا سيّما إذا أنكر الوجه والعُلُوّ فيعود النظر عنده إلى خيالٍ مجرّد.

الرابع عشر: أن الوجه حيث ورد فإنما ورد مضافاً إلى الذات في جميع موارد، والمضاف إلى الرَّبِّ تعالى نوعان:

أعيان قائمة بنفسها، كبيت الله، وناقية الله، وروح الله، وعبد الله، ورسول الله، فهذا إضافة تشريف وتخصيص، وهي إضافة مملوك إلى مالكة.

الثاني: صفات لا تقوم بنفسها؛ كعلم الله، وحياته، وقدرته، وعزته، وسمعه، وبصره، ونوره، وكلامه، فهذه إذا وردت مضافةً إليه فهي إضافة صفةٍ إلى

الموصوف بها.

إذا عُرف ذلك فوجهه الكريم وسمعه وبصره إذا أضيف إليه وجب أن تكون إضافته إضافة وصف لا إضافة خلق، وهذه الإضافة تنفي أن يكون الوجه مخلوقاً، وأن يكون حشواً في الكلام.

وفي «سنن أبي داود» عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه كان إذا دخل المسجد قال: «أعوذ بالله العظيم، وبوجهه الكريم، وسلطانه القديم، من الشيطان الرجيم».

فتأمل كيف قرن في الاستعاذة بين استعاذته بالذات وبين استعاذته بالوجه الكريم، وهذا صريح في إبطال قول من قال: إنه الذات نفسها، وقول من قال: إنه مخلوق». اهـ. «مختصر الصواعق» (ص 386 - 392) بتصرف.

ومما سبق يتضح بجلاء أن صفة الوجه لله ثابتة بدلالة الكتاب والسنة الصحيحة وإجماع أهل السنة والجماعة سلفاً وخلفاً، وأنه ليس لأهل البدع المحرفين لهذه الصفة دليل نقلي ولا عقلي، والحمد لله رب العالمين.

فائدة:

اختلف في المراد بالوجه في قوله تعالى: ﴿فَأَيُّنَمَا تَوَلَّوْا فَحَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]، على قولين:

الأول: أن المراد بذلك القبلة؛ لدلالة السياق على ذلك، وهو قول قتادة والشافعي، فقد نقله البيهقي عن الشافعي في «الأسماء والصفات»، وقد نصر هذا القول شيخ الإسلام ابن تيمية كما في «مجموع الفتاوى» (2/ 428) وما بعدها، فلا تبخل على نفسك بمراجعة ذلك.

الثاني: أن المراد بالوجه إثبات صفة الله عز وجل، وممن قال به العلامة ابن

القيم، وانتصر له انتصارًا بالغًا، كما في «مختصر الصواعق» (ص 337) وما بعدها، وذكره الإمام أحمد كما في «السنة» لابنه وابن خزيمة في «التوحيد» وغيرهما.

فائدة أخرى:

قال بعض العلماء: يُستثنى مما يهلك ويفنى ثمانية أشياء، وليس في ذلك مخالفة لعموم قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصر: ٨٨]، و﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦]؛ لأن المعنى: كل شيء هالك مما كتب الله عليه الهلاك، كقوله تعالى - عن ربح قوم عاد -: ﴿تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأحقاف: ٢٥]، مع أن الله تعالى قال: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يَرَىٰ إِلَّا مَسَكِنُهُمْ﴾ فالمساكن لم تدخل في عموم التدمير.

ومثل هذا قوله تعالى - في حق ملكة اليمين -: ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣]، مع أنها لم تؤت مثل ما أوتي سليمان من تسخير الريح والجن وغيره، وإنما يكون المعنى: أوتيت من كل شيء يُحتاج إليه في الملك.

وقد جُمِعَت هذه الثمانية في بيتين من الشعر، نظمها السيوطي، فقال:

ثَمَانِيَةٌ حُكْمُ الْبَقَاءِ يَعْْمُهَا مِنْ الْخَلْقِ وَالْبَاقُونَ فِي حَيِّزِ الْعَدَمِ
هِيَ الْعَرْشُ وَالْكُرْسِيُّ وَنَارٌ وَجَنَّةٌ وَعَجَبٌ وَأَرْوَاحٌ كَذَا اللَّوْحُ وَالْقَلَمُ

وقد ذكر نحو هذا شيخ الإسلام كما في «مجموع الفتاوى» (٣٠٧ / ١٨).



«وقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]، ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴿[المائدة: ٦٤]».

أورد شيخ الإسلام رحمه الله هاتين الآيتين لإثبات اليمين للدين لله تعالى. وصفة اليمين من الصفات الذاتية الخيرية التي دلَّ على ثبوتها الكتاب والسنة وإجماع أهل السنة سلفاً وخلفاً، على الوجه اللائق بعظمة الله وجلاله وكماله، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

فقوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيَّ﴾.

قال العلامة ابن عثيمين رحمه الله في «شرح الواسطية» (ص 244): «﴿مَا مَنَعَكَ﴾: الخطابُ لإبليس، و﴿مَا مَنَعَكَ﴾ استفهامٌ للتوبيخ، يعني: أي شيء منعك أن تسجد؟

وقوله: ﴿لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيَّ﴾ ولم يقل: لمن خلقت؛ لأنَّ المراد هنا آدم، باعتبار وصفه الذي لم يشركه أحد فيه، وهو خلق الله إياه بيده لا باعتبار شخصه. ولهذا لما أراد إبليس النيل من آدم وخطَّ قدره قال: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: ٦١]، فهنا قال: ﴿لِمَا خَلَقْتَ﴾ أي: هذا الموصوف العظيم الذي أكرَّمته بأنني خلقتُه بيدي، ولم يقصد: لمن خلقت، أي لهذا الآدمي بعينه ﴿لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيَّ﴾ يعني: أن الله عزَّ وجلَّ خلق آدم بيده، وهنا قال: ﴿بِيَدَيَّ﴾، وهي صيغة تشنية، وحُذِفَتِ النُّونُ من التشية؛ من أجل الإضافة.

في هذه الآية توبيخٌ لإبليس في تركه السجود لما خلقه الله بيده، وهو آدم عليه

الصلاة والسلام.

وفيها: إثبات صفة الخلق ﴿لَمَّا خَلَقْتُ﴾.

وفيها: إثبات اليدين لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: اليدين اللتين بهما يفعل، كالخلق هنا.
وقوله: ﴿لَمَّا خَلَقْتُ يَدَيَّ﴾: فيها- أيضًا- تشريف لآدم عليه الصلاة
والسلام، حيث خلقه الله تعالى بيده.

الآية الثانية: قوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾.

اليهود: هم أتباع موسى عليه الصلاة والسلام.

سُمُّوا يَهُودًا: قيل: لأنهم قالوا: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وبناءً
على هذا يكون الاسم عربيًّا؛ لأن: هَادَ يَهُودُ، إذا رجع -عربيٌّ.

وقيل: إن أصله يهوذا: اسم أحد أولاد يعقوب، واليهود مَنْ نُسِبُوا إليه، لكن
عند التعريب صارت الذال دالًّا، فقيل: يهود، وهؤلاء اليهود من أشد الناس عُتُوًّا
ونفورًا؛ لأن عُتُوَّ فرعون وَتَسَلُّطَهُ عليهم جعل ذلك ينطبع في نفوسهم، فصار
فيهم العُتُوُّ على الناس، بل وعلى الخالق عَزَّجَلَّ، فهم يصفون الله تعالى بأوصاف
العيوب -قَبَحَهُمُ اللهُ- وهم أهلها.

يقولون: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾، أي: محبوسة عن الإنفاق، كما قال الله تعالى:
﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ [الإسراء: ٢٩]، أي: محبوسة عن الإنفاق.

وقالوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨١]، وها هنا يقول الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَقَالَتِ
الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾: (يد) أفردوها؛ لأن اليد الواحدة أقلُّ عطاءً من اليدين
الشتين؛ ولهذا جاء الجواب بالتثنية والبسط، فقال: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾.

ولما وصفوا الله بهذا العيب عاقبهم الله بما قالوا، فقال: ﴿غَلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾، أي: مُنِعَتْ عن الإنفاق؛ ولهذا كان اليهودُ أَشَدَّ الناسِ جمعًا للمال ومنعًا للعتاء، فهم أبخلُ عبادِ الله وأشدُّهم شحًا في طلب المال، ولا يمكن أن ينفقوا فلسًا إلا وهم يظنون أنهم سيكسبون بدله درهمًا، ونرى نحن الآن لهم جمعيات كبيرة وعظيمة، لكنهم يريدون من وراء هذه الجمعيات والتبرعات أكثر وأكثر، يريدون أن يسيطروا على العالم.

فإذا لا تقل أيها الإنسان: كيف نجمع بين قوله تعالى: ﴿غَلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ وبين الواقع اليوم بالنسبة لليهود؟! لأن هؤلاء القوم يبدلون ليربحوا أكثر.

﴿وَلَعَنُوا بِمَا قَالُوا﴾، أي: طَرَدُوا وَأُبْعِدُوا عن رحمة الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن البلاء مُوَكَّلٌ بالمنطق، فهم لما وصفوا الله بالإمساك طَرَدُوا وَأُبْعِدُوا عن رحمته قيل لهم: إذا كان الله عَزَّوَجَلَّ - كما قلتم - لا يُنْفِق، فَلَيْمَنَعُكُمْ رحمته؛ حتى لا يعطيكم من جوده، فعوقبوا بأمرين:

تحويل الوصف الذي عابوا به الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِلَيْهِمْ، بقوله: ﴿غَلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾، وبإلزامهم - بمقتضى قولهم - إبعادهم عن رحمة الله، حتى لا يجدوا جود الله وكرمه وفضله.

﴿بِمَا قَالُوا﴾ الباء هنا للسببية، وعلامة الباء التي في السببية أن يصح أن يليها كلمة (سبب).

ثم أبطل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى دعواهم، فقال: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾.

(بل) للإضراب الإبطالي.

وانظر كيف اختلف التعبير ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾؛ لأن المقام مقام تَمْحُحٍ

بالكرم والعطاء باليدين أكمل من العطاء باليد الواحدة.

و﴿مَبْسُوطَتَانِ﴾ ضد قولهم: ﴿مَغْلُولَةٌ﴾، فَيَدَا الله - تعالى - مَبْسُوطَتَانِ وَاسِعَتَا العطاء، كما قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَدُ الله مَلَأَى سَحَاءَ (كثيرة العطاء) الليل والنهار، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُذْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يُغْضِ مَا فِي يَمِينِهِ». متفق عليه.

مَنْ يُحْصِي مَا أَنْفَقَ اللهُ مِنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ؟! لَا يُحْصِيهِ أَحَدٌ، وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يُغْضِ مَا فِي يَمِينِهِ.

وهذا كقوله تعالى في الحديث القدسي: «يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسأله ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا غمس في البحر».

وليس إنفاق الله تعالى بما نُحَصِّلُ من الدراهم والمتاع، بل كل ما بنا من نعمة فهو من الله تعالى، سواء كانت من نعم الدين أم الدنيا، فذرات المطر من إنفاق الله علينا، وحببات النبات من إنفاق الله علينا، أفبعد هذا يقال - كما قالت اليهود عليهم لعائن الله -: ﴿يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ﴾، لا - والله - بل يقال: إن يدي الله عز وجل مبسوطتان بالعطاء والنعم التي لا تعد ولا تحصى.

لكن إذا قالوا: لماذا أعطى زيذا ولم يعطِ عمراً؟

قلنا: لأن الله تعالى له السلطان المطلق والحكمة البالغة؛ ولهذا قال - ردًا على شبهتهم -: ﴿يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾، فمن الناس من يعطيه الله كثيرًا، ومنهم من يعطيه قليلًا، ومنهم من يعطيه وسطًا؛ تبعًا لما تقتضيه الحكمة، على أن هذا الذي أعطي قليلًا ليس محرومًا من فضل الله وعطائه من جهة أخرى، فالله أعطاه صحة وسمعة

وبصرًا وعقلًا وغير ذلك من النعم التي لا تحصى، ولكن لطغيان اليهود وعدوانهم وأنهم لم ينزهوا الله عن صفات العيب قالوا: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾. اهـ. بتصرف.
وقد قام المعطلة بتحريف هذه الصفة العظيمة لله، فقالوا: إِنَّ يَدَ مجازٌ عن النعمة أو القدرة ونحو ذلك.

ومن أحسن مَنْ تصدَّى لهم وكشف زيف مقاتلهم ودافع عن المعتقد الحق شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ، وتلميذه ابن القيم.

فقد قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ كما في «مختصر الصواعق» (ص 370-380): «المثال الرابع: قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيَّ﴾، ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ قالت الجهمية: مجازٌ عن النعمة أو القدرة، وهذا باطل من وجوه:

أحدها: أن الأصل الحقيقة، فدعوى المجاز مخالفة للأصل.

الثاني: أن ذلك خلافُ الظاهر، فقد اتفق الأصل والظاهر على بطلان هذه الدعوى.

الثالث: أن مُدَّعي المجاز المعين يلزمه أمور:

أحدها: إقامة الدليل الصَّارِف عن الحقيقة؛ إذ مدعيها معه الأصل والظاهر، ومخالفها مُخالف لهما جميعًا.

ثانيها: بيان احتمال اللفظ لما ذكره من المجاز لغة، وإلا كان منشأً من عنده وضعًا جديدًا.

ثالثها: احتمال ذلك المعنى في هذا السياق المعين، فليس كل ما احتمله اللفظ من حيث الجملة يحتمله هذا السياق الخاص، وهذا موضع غلط فيه من شاء الله،

ولم يبيّن أو يميّز بين ما يحتمله اللفظ بأصل اللغة - وإن لم يحتمله في هذا التركيب الخاص - وبين ما يحتمله فيه.

رابعها: بيان القرائن الدالة على المجاز الذي عيّنه بأنه المراد؛ إذ يستحيل أن يكون هذا هو المراد من غير قرينة في اللفظ تدل عليه البتّة، وإذا طولبوا بهذه الأمور الأربعة تبين عجزهم.

الوجه الرابع: إن اطّراد لفظها - اليد - في موارد الاستعمال وتنوّع ذلك وتصريف استعماله يمنع المجاز، ألا ترى إلى قوله: (خلقت يدي)، وقوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾، وقوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَكُوتُ مَطْوِيَّتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧]، فلو كان مجازاً في القدرة والنعمة لم يُستعمل منه لفظ (يمين).

وقوله في الحديث الصحيح: «المُقْسِطُونَ عند الله على منابرٍ من نور عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين»⁽¹⁾.

فلا يقال: هذا يد النعمة والقدرة.

وقوله: «يقبضُ اللهُ سماواته بيده، والأرض باليد الأخرى، ثم يهزُّهنَّ، ثم يقول: أنا الملك»⁽²⁾.

فهنا هزُّ وقبضٌ وذكرُ يدين، ولما أخبرهم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جعل يقبض يديه ويبسطها؛ تحقيقاً للصفة لا تشبيهاً لها، كما قرأ: ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: 134]، ووضع يديه على عينيه وأذنيه؛ تحقيقاً لصفة السمع

(1) أخرجه مسلم، برقم (1827).

(2) أخرجه البخاري، برقم (7412)، ومسلم برقم (2788).

والبصر، وأنهما حقيقة لا مجاز.

الوجه الخامس: أن اقتران لفظ الطّي والقَبْض والإمساك باليد يُصَيِّرُ المجموعَ حقيقةً، هذا في الفعل، وهذا في الصفة، بخلاف اليد المجازية؛ فإنها إن أريدت لم يقترن بها ما يدل على اليد حقيقةً، بل ما يدل على المجاز، كقوله: له عندي يد، وأنا تحت يدهم، ونحو ذلك، وأما إذا قيل: قَبَضَ بيده، وأمسك بيده، أو قبض بإحدى يديه كذا وبالأخرى كذا وجلس عن يمينه أو كتب كذا وعمله بيمينه أو بيديه، فهذا لا يكون إلا حقيقةً.

الوجه السادس: أن مثل هذا المجاز لا يستعمل بلفظ التثنية، ولا يستعمل إلا مفردًا أو مجموعًا، كقولك: له عندي يدٌ يجزيه الله بها، وله عندي أيادٍ، وأما إذا جاء بلفظ التثنية لم يعرف استعماله قط إلا في اليد الحقيقية، وهذه موارد الاستعمال أكبر شاهد؛ فعليك بتتبعها.

الوجه السابع: أنه ليس من المعهود أن يطلق الله على نفسه معنى القدرة والنعمة بلفظ التثنية، بل بلفظ الأفراد الشامل لجميع الحقيقة، كقوله: ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ١٦٥]، وكقوله: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤]، وقد يجمع النعم؛ كقوله: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهْرَهُ وَبَاطِنَهُ﴾ [لقمان: ٢٠].

وأما أن يقول: خلقتك بقدرتين أو بنعمتين، فهذا لم يقع في كلامه ولا كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم.

الوجه الثامن: أنه لو ثبت استعمال ذلك بلفظ التثنية لم يجز أن يكون المراد به ها هنا القدرة؛ فإنه يبطل فائدة تخصيص آدم، فإنه وجميع المخلوقات حتى إبليس مخلوق بقدرته سبحانه، فأَي مَرِيَّةٍ لآدم على إبليس في قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ

أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِدَّتِي ﴿[ص: ٧٥]، يوضحه:

الوجه التاسع: أن الله جعل ذلك خاصّةً خصّ بها آدم دون غيره؛ ولهذا قال له موسى - وقت المحاجة -: «أنت الذي خلقتك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء»، وكذلك يقول له أهل الموقف إذا سألوه الشفاعة، فهذه أربع خصائص له، فلو كان المراد باليد القدرة لكان بمنزلة أن يقال له: خلقتك الله بقدرته، فأى فائدة في ذلك، يوضحه:

الوجه العاشر: أنك لو وضعت الحقيقة التي يدعي هؤلاء أن اليد مجازٌ فيها موضع اليد لم يكن في الكلام فائدة، ولم يصح وضعها هناك؛ فإنه سبحانه لو قال: ما منعك أن تسجد لما خلقت بقدرتي، وقال له موسى: أنت أبو البشر الذي خلقتك الله بقدرته، وقال له أهل الموقف ذلك - لم يحسن ذلك الكلام، ولم يكن فيه من الفائدة شيءٌ، وتعالى الله أن ينسب إليه مثل ذلك، فإن مثل هذا التخصيص إنّما خرج مخرج الفضل له على غيره، وأن ذلك أمر اختص به لم يشاركه فيه غيره، فلا يجوز حمل الكلام على ما يبطل ذلك.

الوجه الحادي عشر: أن نفس هذا التركيب المذكور في قوله: ﴿خَلَقْتُ بِإِدَّتِي﴾ يأبى حمل الكلام على القدرة؛ لأنه نسب الخلق إلى نفسه سبحانه، ثم عدّى الفعل إلى اليد، ثم ثنّاها، ثم أدخل عليها الباء التي تدخل على قولك: كتبت بالقلم، ومثل هذا النص صريح لا يحتمل المجاز بوجه، بخلاف ما لو قال: عملت، كما قال تعالى: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]، ﴿بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ [الحج: ١٠]، فإنه نسب الفعل إلى اليد ابتداءً، وخصّها بالذكر؛ لأنها آلة الفعل في الغالب، ولهذا لم يكن خلق الأنعام مساوياً لخلق أبي الأنعام؛ قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا﴾ [يس: ٧١]، فأضاف

الفعل إلى الأيدي، وجمعها ولم يُدخل عليها الباء.

فهذه ثلاثة فروق تبطل إلحاق أحد الموضعين بالآخر، ويتضمن التسوية بينهما عدم مزية أبينا آدم على الأنعام، وهذا من أبطل الباطل وأعظم العقوق للأب؛ إذ ساوى المعطل بينه وبين إبليس والأنعام في الخلق باليدين.

الوجه الثاني عشر: أن الله تعالى أنكر على اليهود نسبة يده إلى النقص والعيب، ولم ينكر عليهم إثبات اليد له تعالى، فقال: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٦٤]، فلعنهم على وصف يده بالعيب دون إثبات يده، وقدّر إثباتها به زيادة على ما قالوه بأنهما يدان مبسوطتان، وبهذا يُعلم تلبيس الجهمية المعطلة على أشباه الأنعام، حيث قالوا: إن الله لعن اليهود على إثبات اليد له سبحانه، وأنهم مشبهة وهم أئمة المشبهة؛ فتأمل هذا الكذب من هذا القائل والتلبيس، وأن الآية صريحة بخلاف قوله.

فإن قيل: كيف تصنعون بيد الحائط في قول لبيد:

إِذْ أَصْبَحَتْ يَدِ الشَّمَالِ زَمَامَهَا

وقول المتنبي:

وَكَمْ لِظْلَامِ اللَّيْلِ عِنْدَكَ مِنْ يَدٍ تُخَبِّرُ أَنَّ الْمَانَوِيَّةَ تَكْذِبُ

وقد استعملت اليد في ذلك كله في مواضع حقيقة؟

قيل: لا يلزمنا هذا السؤال؛ لأننا قلنا: متى أضيفت يد القدرة والنعمة إلى الحي استلزم اليد الحقيقية، وهذا استعمال مطرد غير مُنتَقِض.

وهذا يتعين بالوجه السابع عشر: وهو أن الإضافة في يد الشمال ويد الحائط

ويد الليل بَيَّنَتْ أَنَّ المضاف من جنس المضاف إليه، والإضافة في البعير والفرس وغيرهما من الحيوانات كذلك، والإضافة في يد الملك والجن تبين أيضًا أن يديهما من جنسهما، وكذلك الإضافة في يد الإنسان، وكل ذلك حقيقة.

كذلك إضافة اليدين إلى الرحمة في قوله: ﴿بَيْنَ يَدَيَّ رَحْمَتِهِ﴾ [الأعراف: ٥٧]، وإلى النجوى في قوله: ﴿بَيْنَ يَدَيَّ نَجْوَاكُمْ﴾ [المجادلة: ١٢]، فإن بين يدي الشيء أمامه وقُدَّامه، وهذا مما يتنوع فيه المضاف إليه وإن اختلفت ماهية الحقيقة وصفاتها، وتنوّعت بتنوع المضاف إليه.

فإذا قيل: يد الله ووجهه وسمعه وبصره وحياته وعلمه وقدرته ومشيتته وإتيانه واستواؤه كان ذلك حقيقةً، والمضاف فيه بحسب المضاف إليه، فإذا لم يكن المضاف إليه مماثلًا لغيره لزم أن يكون المضاف كذلك ضرورةً، فدعوى لزوم التشبيه والتَّمثِيل في إثبات المضاف حقيقة زعم كاذب، فإن لزم من إثبات اليد حقيقة لله: التَّمثِيل والتشبيه؛ لزم ذلك في إثبات سائر الصفات له حقيقة، ويلزم ذلك في إثبات صفاته؛ فإن الصفة القديمة متى أشبهت صفات المخلوقين لزم وقوع التشبيه بين الذاتين.

الوجه الثامن عشر: أن يقال: ما الذي يَضُرُّكم من إثبات اليد حقيقة، وليس معكم ما ينفي ذلك من أنواع الأدلة لا نقليها ولا عقليها ولا ضروريها ولا نظريها؟! فإن فررتم من الحقيقة؛ خشية التشبيه والتَّمثِيل ففِرُّوا من إثبات السمع والبصر والحياة والعلم والإرادة والكلام؛ خشية هذا المحذور.

ثم يقال لكم: توهمكم لزوم التشبيه والتَّمثِيل من إثبات هذه الصفة وغيرها وهم باطلٌ، وليس في المخلوقات يد تمسك السموات والأرض وتطويها، ويد تقبض الأَرْضِينَ السَّبْع، فلو كان في المخلوقات يدٌ هذا شأنها لكان لكم عذر ما

في توهم التشبيه والتمثيل من إثبات اليد لله حقيقة، وإنما هذا منكم تلبس على
ضعفاء العقول». اهـ. بتصرف.
قلت: الوجه الثامن عشر ردُّ على الأشاعرة- وإن كان فيما قبله ردُّ عليهم
أيضًا.



«وقوله: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨]، وقوله: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَجٍ وُدُسْرٍ ۝١٣ تَجْرَى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفْرًا﴾ [القمر: ١٣-١٤]، وقوله: ﴿وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩]».

أورد شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ هذه الآيات؛ لإثبات صفة العَيْنَيْنِ لله تعالى على الوجه اللائق به سبحانه، وصفة العينين من الصفات الذَّاتِيَّةِ الْخَبْرِيَّةِ التي دَلَّ على ثبوتها الكتاب والسُّنَّةُ وإجماع السَّلف الصَّالح. فأما دلالة الكتاب فقد ذكرها المؤلف رَحِمَهُ اللهُ.

وأما دلالة السُّنَّة: فَمِنْ ذَلِكَ ما رواه الإمام البخاري في صحيحه برقم (7407) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْكُمْ؛ إِنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِأَعْوَرٍ - وأشار إلى عينيه - وَإِنَّ الْمَسِيحَ الدَّجَالَ أَعْوَرُ عَيْنِ الْيَمْنَى، كَأَنَّ عَيْنَهُ عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ».

وما رواه أبو داود في سننه بإسناد حَسَنٍ من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قرأ هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨]، فوضع إبهامه على أُذُنِهِ، والتي تَلِيهَا على عَيْنِهِ».

وأما كلام أهل العلم فمنه ما نقله شيخ الإسلام ابن تيمية كما في «مجموع الفتاوى» (5/90)، عن أبي الحسن الأشعري في حكاية معتقد أهل السُّنَّة، حيث قال: «قول أصحاب الحديث وأهل السُّنَّة: الإقرار بالله وملائكته... إلى أن قال: وأنَّ له عينين بلا كيف، كما قال: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤]». اهـ.

وقال الإمام ابن خزيمة في كتاب «التوحيد» (1/97)، بعد أن ذكر بعض

الآيات في إثبات هذه الصفة: «فوجب على كل مؤمن: أن يثبت لخالقه وبارئه ما ثبّت الخالق البارئ لنفسه من العين، وغير مؤمن مَن ينفي عن الله تبارك وتعالى ما قد ثبّته الله في مُحكم تنزيله ببيان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي جعله الله مبيناً عنه عَزَّجَلَّ، في قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، فبيّن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ الله عَيْنين، فكان بيانه موافقاً لبيان مُحكم التنزيل الذي هو مسطورٌ بين الدَفَتَيْنِ مقروء في المحاريب والكتاتيب». اهـ.

وقال في المصدر نفسه (1/ 114): «نحن نقول: لرَبِّنا الخالق عينان يُبصر بهما ما تحت الثرى، وتحت الأرض السابعة السفلى، وما في السماوات العُلى». اهـ.

وبوّب اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (3/ 412) بقوله: «سياق ما دلّ من كتاب الله عَزَّجَلَّ وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أَنَّ من صفات الله عَزَّجَلَّ الوجه والعينين واليدين». اهـ.

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ كما في «مختصر الصواعق» (ص 40): «وقد استدل السلف على إثبات العينين له تعالى بقوله: ﴿بَاعَيْنَا﴾». اهـ.

فإن قال قائل: إن العين قد وردت في النصوص السابقة تارة مفردة، وتارة مُثَنَّة، وأخرى مجموعة، فكيف الجمع؟

فالجواب ما قاله ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ كما في «مختصر الصواعق» (ص 38-39): «ذكر العين المفردة مضافة إلى الضمير المفرد والأعين مجموعة مضافة إلى ضمير الجمع وذكر العين مفردة، لا يدلُّ على أنها عينٌ واحدة، ليس إلا كقولك: افعِلْ هذا على عيني، وأحبك على عيني، ولا يريد أن له عيناً واحدة.

وإنما إذا أضيفت العين إلى اسم الجمع ظاهراً ومضمراً فالأحسن جمعها مشاكلة للفظ، كقوله: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾، وقوله: ﴿وَأَصْنَعُ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [هود: ٣٧]، وهذا نظير المشاكلة في لفظ اليد المضافة إلى المفرد ﴿بِيَدِهِ الْمَلِكُ﴾ [الملك: ١]، و﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ [آل عمران: ٢٦]، وإن أضيفت إلى ضمير جمع جُمِعَتْ، كقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا﴾ [يس: ٧١]، وكذلك إضافة اليد والعين إلى اسم الجمع الظاهر، كقوله: ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]، وقوله: ﴿فَاتَّقُوا بِرَّهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ﴾ [الأنبياء: ٦١].

وقد نطق الكتاب والسنة بذكر اليد مضافةً إليه، بلفظ مفردة ومجموعة ومثناة، وبلفظ العين مضافةً إليه مفردة ومجموعة، ونطقت السنة بإضافتها إليه مثناة. اهـ.

وحديث الدَّجَال صريح الدلالة على أَنَّ الله عَيْنِينَ اثنتين فقط، ووجه ذلك: «أنه لو كان لله أكثر من اثنتين لكان البيان به أوضح من البيان بالعَوْر؛ لأنه لو كان لله أكثر من عَيْنِينَ، لقال: إِنَّ رَبَّكُمْ لَهُ أَعْيُنٌ؛ لأنه إذا كان له أَعْيُنٌ أكثر من اثنتين صار وضوح أَنَّ الدجال ليس برَبٍّ أَبْيَنَ.

وأيضاً: لو كان لله عَزَّوَجَلَّ أكثر من عَيْنِينَ لكان ذلك من كماله، وكان ترك ذكره تفويهاً للثناء على الله؛ لأن الكثرة تدل على القوة والكمال والتمام، فلو كان لله أكثر من عَيْنِينَ لبيَّنَّها الرسول عليه الصَّلَاة والسَّلَام؛ لثلا يفوتنا اعتقاد هذا الكمال، وهو الزائد على العَيْنِينَ الثنتين» (١).

«فإن قيل: إِنَّ من السَّلَفِ مَنْ فَسَّرَ قوله تعالى ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ بقوله: بِمَرَأَى مِنَّا،

(١) «شرح الواسطية» للعلامة ابن عثيمين (263-264).

فسره بذلك أئمة سلفيون معروفون، وأنتم تقولون: إن التَّحْرِيفَ مُحَرَّمٌ وممْتَنَعٌ، فما الجواب؟

فالجواب: أنهم فسَّروها باللازم مع إثبات الأصل، وهي العين، وأهل التَّحْرِيفِ يقولون: بمرأى منَّا بدون إثبات العين، وأهل السُّنَّة والجماعة يقولون: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ بمرأى منَّا، مع إثبات العين.

لكن ذكر العين هنا أشد توكيدًا وعناية من ذكر مجرد الرؤية؛ ولهذا قال: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨].

قالت المعطلة: أَجَلَبْتُمْ علينا بالخيال والرَّجُل في إنكاركم علينا التَّأْوِيلَ، وأنتم أولَّتم فأخرجتم الآية عن ظاهرها، فالله يقول: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ فخذوا بالظاهر، وإذا أخذتم بالظاهر كَفَرْتُمْ، وإذا لم تأخذوا بالظاهر تناقضتم فمرة تقولون: يجوز التَّأْوِيلُ، ومرة تقولون: لا يجوز التَّأْوِيلُ وتسمونه تحريفًا، وهل هذا إلا تحَكُّم بدين الله؟!

قلنا: نأخذ بالظاهر وعلى العين والرأس، وهو طريقنا ولا نخالفه. قالوا: الظاهر من الآية أن محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعين الله وسط العين كما تقول: زيد بالبيت وزيد بالمسجد، فالبراء للطرفية، فيكون زيد داخل البيت وداخل المسجد، فيكون قوله: بأعيننا، أي: داخل أعيننا!

وإذا قلتم بهذا كفرتم؛ لأنكم جعلتم الله مَحَلًّا للخلائق، فأنتم حُلُولِيَّةٌ، وإن لم تقولوا به تناقضتم!

قلنا لهم: معاذ الله، ثم معاذ الله، ثم معاذ الله أن يكون ما ذكرتموه ظاهر القرآن! وأنتم إن اعتقدتم أن هذا ظاهر القرآن كفرتم؛ لأن من اعتقد أن ظاهر

القرآن كفر وضلال؛ فهذا كافر ضال.

فأنتم توبوا إلى الله من قولكم: إن هذا هو ظاهر اللفظ! واسألوا جميع أهل اللغة من الشعراء والخطباء:

هل يقصدون بمثل هذه العبارة أن الإنسان المنظور إليه بالعين حالٌ في جفن العين؟!!

اسألوا من شئتم من أهل اللغة أحياء وأمواتاً.

فأنت إذا رأيت أساليب اللغة العربية عرفت أن هذا المعنى الذي ذكره وألزمونا به لا يرد في اللغة العربية، فضلاً عن أن يكون مضافاً إلى الرب عزَّوجلَّ، فإضافته إلى الرب كفر منكر، وهو منكر لغة وشرعاً وعقلاً.

فإن قيل: بماذا تفسرون الباء في قوله: ﴿بَاعَيْنَا﴾؟

قلنا: نُفسِّرُها بالمصاحبة، إذا قلت: أنت بعيني، يعني أن عيني تصحبك وتُنظرُ إليك، لا تنفكُ عنك، فالمعنى: أن الله عزَّوجلَّ يقول لنبه: اصبر؛ فإنك محوَّطٌ بعنايتنا وبرؤيتنا لك بالعين، حتى لا ينالك أحد بسوء.

ولا يمكن أن تكون الباء هنا للظرفية؛ لأنه يقتضي أن يكون رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في عين الله، وهذا محال، وأيضاً: فإن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خوطب بذلك وهو في الأرض، فإذا قلت: إنه كان في عين الله كانت دلالة القرآن كذباً، وهذا وجه آخر في بطلان دعوى أن ظاهر القرآن أن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في عين الله تعالى⁽¹⁾.

وخلاصة الجواب على من زعم أن أهل السنة لم يجروا الآيات السابقة

(1) «شرح الواسطية» للعلامة ابن عثيمين (264-266).

على ظاهرها، حيث قالوا في قوله تعالى: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: بمرأى منا، وحفظ لها، وفي قوله تعالى: ﴿وَلِنُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ أي: لتربى وتُعَذَّب بمرأى مني، أراك وأحفظك، وفي قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: بمرأى منا وحفظ، ونحو ذلك. أولاً: أن أهل السنة أثبتوا لله صفة العين ابتداءً، وما ذكروه إنما هو من باب التفسير باللازم.

ثانياً: أن أهل السنة لم ينظروا إلى النصوص بعين عوراء، بل نظروا إلى النصوص كلها، فقد أخبر الله أنه مُسْتَوٍ على عرشه، وأنه في السماء، وأنه لا يحاط به علماً، فيستحيل مع ذلك أن تكون السفينة جَرَتْ على عين الله، أي: فوقها، وأن موسى الذي نشأ في بيت فرعون تَرَبَّى في عين الله، بل معنى الباء هنا للمصاحبة، فيكون المعنى تجري بمرأى منا وحفظ ورعاية، مع إثبات الصفة. ثالثاً: أن ما فهمه أهل البدع من مسلك أهل السنة مخالف للكتاب والسنة وطريقة السلف الصالح، والله أعلم.

أما الآية الأولى، وهي قوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾، فالخطاب فيها للنبي صلى الله عليه وسلم.

والصبر: بمعنى الحبس، ومنه قولهم: قُتِلَ صَبْرًا، أي: قُتِلَ وقد حُبِسَ للقتل. فالصبر في اللغة: بمعنى: الحبس.

وفي الشرع: قالوا: هو الصبر لأحكام الله، يعني حبس النفس لأحكام الله. وأحكام الله عَزَّوَجَلَّ شرعية وكونية. الشرعية: أوامره ونواهيه.

فالصبر على طاعة الله صبرٌ على الأوامر، والصبر عن معصيته صبرٌ عن

النواهي.

والكونية: أقدار الله تعالى، فيصبر على أقداره وقضائه.

وهذا معنى قول بعضهم: الصبر ثلاثة أقسام:

- صبر على طاعة الله.

- وصبر عن معصيته.

- وصبر على أقدار الله المؤلمة.

فقوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ يتناول الأقسام الثلاثة:

1- الصبر على طاعة الله.

2- وعن معصية الله.

3- وعلى أقدار الله.

أي: اصبر لحكم ربك الكوني والشرعي⁽¹⁾.

وقوله تعالى: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسْرٍ ۖ وَتَجَرَّىٰ بِأَعْيُنِنَا جَزَاءُ لِمَن كَانَ كُفِرَ﴾ [القمر: ١٣-١٤]:

﴿وَحَمَلْنَاهُ﴾: الضمير يعود على نوح عليه الصلاة والسلام.

وقوله: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسْرٍ﴾: أي: على سفينة ذات ألواح ودسر، وهذه السفينة كان عليه الصلاة والسلام يصنعها، وكان يمر به قومه فيسخرون منه؛ فيقول: ﴿إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود: ٣٨].

صنعها بأمر الله وعنايته، وقال الله له: ﴿وَأَصْنَعِ الْفُلَ﴾ [هود: ٣٧]،

(1) «شرح الواسطية» للعلامة ابن عثيمين (259-260).

فالله تعالى ينظر إليه وهو يصنع الفلك، ويُلهمه كيف يصنعها.

ووصفها الله هنا في قوله: ﴿ذَاتِ الْوُجِ وَدُسْرِ﴾.

﴿ذَاتِ﴾ بمعنى صاحبة، والألواح: الخشب، والدُّسْر: ما يربط به الخشب كالسمامير والحبال، وما أشبه ذلك.

وأكثر المُفسِّرين على أن المراد بها السمامير التي تُربط بها الأخشاب.

﴿بَاعَيْنَا﴾ هذا الشاهد: ﴿بَاعَيْنَا﴾: أي: ذات الألواح والدُّسْر بأعين الله عزَّوجلَّ، والمراد بالأعين هنا: عينان فقط كما مرَّ.

ومعنى تجري بها، أي: مصحوبة بنظرنا بأعيننا، فالباء هنا للمصاحبة، تجري على الماء الذي نزل من السماء، ونبع من الأرض؛ لأن نوحًا عليه الصلاة والسلام دعا ربه: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْصِرْ﴾ [القمر: ١٠]، قال تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ۖ ۝۱۱ وَفَجَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ [القمر: ١١-١٢]، فكانت هذه السفينة تجري بعين الله عزَّوجلَّ.

قد يقول قائل: لماذا لم يقل: وحملناه على السفينة، أو حملناه على فلك، بل قال: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْوُجِ وَدُسْرِ﴾ [القمر: ١٣]؟

والجواب على هذا أن نقول: عدل عن التعبير بالفلك والسفينة إلى التعبير بذات ألواح ودُسْر؛ لوجوه ثلاثة:

الوجه الأول: مراعاة للآيات وفواصلها، فلو قال: حملناه على فلك لم تتناسب هذه الآية مع ما بعدها ولا ما قبلها، ولو قال: على سفينة كذلك، ولكن من أجل تناسب الآيات في فواصلها وكلماتها قال: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْوُجِ وَدُسْرِ﴾ [القمر: ١٣].

الوجه الثاني: من أجل أن يتعلم الناس كيف يصنعون السفن، وبيان أنها من الألواح والمسامير؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [القمر: ١٥]؛ فأبقى الله عِلْمَهَا آيَةً للخلق يصنعون كما ألهم الله نوحًا.

الوجه الثالث: الإشارة إلى قوتها، حيث كانت من ألواح ودُسُر، والتنكير هنا للتعظيم (1).

فائدة:

قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في «بدائع الفوائد» (2/ 5 - 6) نقلًا عن السهيلي ومُفَرِّغًا له: «... ومن فوائد هذه المسألة: أن يسأل عن المعنى الذي لأجله قال الله تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩] بحرف على، وقال تعالى: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤]، بالباء ﴿وَأَصْنَعَ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [هود: ٣٧]، وما الفرق؟

فالفرق: أنَّ الآية الأولى وردت في إظهار أمر كان خفيًا، وإبداء ما كان مكتومًا؛ فإن الأطفال - إذ ذاك - كانوا يغذون ويصنعون سرًا، فلما أراد أن يُصنع موسى ويُغذى ويُربَّى على حال أمن وظهور لا تحت خوف واستسرار دخلت (على) في اللفظ؛ تنبيهًا على المعنى؛ لأنها تُعطي الاستعلاء، والاستعلاء: ظهور وإبداء، فكانه يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: وَلِتُصْنَعَ عَلَى أَمْنٍ لا تحت خوف، وذكر العين لتضمنها معنى الرِّعاية والكَلَاءة.

وأما قوله تعالى: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾، ﴿وَأَصْنَعَ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ فإنه إنما يريد برعاية مِنَّا وحفظ، ولا يريد إبداء شيء ولا إظهاره بعد كَتْمٍ، فلم يَحْتَج في الكلام إلى معنى (على)، بخلاف ما تقدم. اهـ.

(1) «شرح الواسطية» للعلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ (266-268).

وقوله تعالى: ﴿وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِيُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾.

قال العلامة السَّعْدِي في تفسيره:

«﴿وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ فكلُّ مَنْ رآه أَحَبَّهُ.

﴿وَلِيُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ أي: ولتربِّي على نظري، وفي حفظي وكلاءتي، وأيُّ نَظَرٍ وكفالة أَجَلٍّ وأكملُ من ولاية البرِّ الرحيم القادر على إيصال مصالح عبده ودفع المضار عنه؟!!

فلا ينتقل من حالة إلى حالة إلا والله تعالى هو الذي دَبَّرَ ذلك لمصلحة موسى، ومن حُسن تدبيره أَنَّ مُوسَى لَمَّا وَقَعَ في يد عدوه قلقَت أُمُّهُ قلقًا شديدًا، وأصبح فؤادها فارغًا، وكادت تُخبر به لولا أَنَّ الله ثَبَّتَهَا، وربط على قلبها». اهـ.



«وقوله: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَدِّلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكَى إِلَى اللَّهِ وَلِلَّهِ يَسْمَعُ تَحَاوُرُكُمْ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: 1]، وقوله: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١]، وقوله: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠]، وقوله: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَصَمٌّ وَأَرْيُ﴾ [طه: ٤٦]، وقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤]، وقوله: ﴿الَّذِي يَرِيكَ حِينَ تَقُومُ﴾ (٢١٨) ﴿وَتَقْلُبُكَ فِي السَّجْدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٨-٢١٩]، وقوله: ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسِيرَیَ اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥]».

أورد شيخ الإسلام رحمه الله هذه الآيات لإثبات صفة السمع والبصر، وهما صفتان ذاتيتان لله على الوجه الذي يليق بعظمته وجلاله، وقد دلَّ عليهما الكتاب والسنة وإجماع السلف الصالح، وكذا تدل الآيات على إثبات صفة الرؤية لله تعالى، وهي صفة ذاتية دلَّ عليها الكتاب والسنة والإجماع.

ومن دلالة الكتاب إضافةً إلى ما ذكره المؤلف الآية التي هي شجى في خلوق المبتدعة: ممثلة ومعطلة، وهي قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

والأحاديث الدالة على إثبات هاتين الصفتين كثيرة منها:

1- ما رواه البخاري ومسلم عن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَفَرٍ، فَكُنَّا إِذَا عَلَوْنَا كَبَّرْنَا، فَقَالَ: «أَرْبِعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ؛ فَإِنْ كُنْتُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمًّا وَلَا غَائِبًا، تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا قَرِيبًا».

2- ما رواه البخاري ومسلم، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أنها قالت للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هل أتى عليك يوم هو أشدُّ عليك من يوم أُحُد؟ فقال: «لقد لقيتُ من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة...»، إلى أن قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فناداني ملكُ الجبال فسَلَّم عليَّ، ثُمَّ قال: يا محمد، إِنَّ الله قد سَمِع قول قومك لك، وأنا مَلَكُ الجبال».

3- ما رواه أبو داود في سننه عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعْمًا يَعْظُمُ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨]، فوضع إبهامه على أذنه، والتي تليها على عينه.

وأما الإجماع فقد قال أبو الحسن الأشعري في «رسالة أهل الثغر» (ص 225): «وأجمعوا على أنه عَزَّجَلَّ يَسْمَع وَيَرَى». اهـ.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ كما في «مجموع الفتاوى» (3 / 218): «ومن المعلوم - باتفاق المسلمين - أن الله حيٌّ حقيقةً، عليمٌ حقيقةً، قديرٌ حقيقةً، سميعٌ حقيقةً، بصيرٌ حقيقةً، إلى غير ذلك من أسمائه وصفاته». اهـ.

والسمع يأتي في القرآن، ويُراد به ما يلي:

1- إدراك الصوت.

2- فهم المعنى.

3- القبول والإجابة.

قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في «مفتاح دار السعادة» (ص 99): «والسمع يراد به إدراك الصوت، ويراد به فهم المعنى، ويراد به القبول والإجابة، والثلاثة في القرآن، فمن الأول قوله: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَدِّلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي

إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرُكُمْ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿المجادلة: 1﴾.

وهذا أصرح ما يكون في إثبات صفة السمع، وذكر الماضي والمضارع واسم الفاعل سَمِعَ، وَيَسْمَعُ، وهو سَمِيعٌ، وله السَّمْعُ، كما قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة تشكو إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنا في جانب البيت وإنه ليخفى عليّ بعض كلامها، فأنزل الله: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾.

الثاني: سمع الفهم، كقوله: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: ٢٣]، أي: لأفهمهم ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣]؛ لما في قلوبهم من الكبر والإعراض عن قبول الحق، ففيهم آفتان أحدهما أنهم لا يفهمون الحق لجهلهم، ولو فهموه لَتَوَلَّوْا عنه وهم معرضون عنه؛ لكبرهم، وهذا غاية النقص والعيب.

والثالث: سمع القبول والإجابة، كقوله تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعِفُوا خِلَافَكُمْ يَبْغُونَكُمْ أَلْفَنَةً وَفِيكُمْ سَمَّعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٧]، أي: قابلون مستجيبون، ومنه قوله: ﴿سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ [المائدة: 41]، أي: قابلون مُستجيبون لأهله.

ومنه قول المصلي: سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، أي: أجاب الله حَمْدَ مَنْ حَمِدَهُ ودُعَاءَ مَنْ دَعَاهُ.

وقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إذا قال الإمام: سمع الله لمن حمده، فقولوا: ربنا ولك الحمد؛ يسمع الله لكم»، أي: يجيبكم. اهـ.

وقال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ في شرحه للسَّفَارِينِيَّة (ص 184-186):

«والسمع الذي أثبتته الله لنفسه نوعان:

1- سمع إدراك المسموع.

2- سمع إجابة المسموع.

وهناك فرق بين الإدراك وبين الإجابة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢١]، ﴿سَمِعْنَا﴾ أي: سمع إدراك، ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾: سمع استجابة، سمع الله عزَّوجلَّ يشمل سمع الإدراك وسمع الاستجابة، ففي قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ﴾: سمع إدراك، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩]: سمع الاستجابة، وفي قول المصلي: سمع الله لمن حمده، سمع الأمرين جميعاً، يعني: يسمع ويوجب من حمده بالإثابة.

وهل هما من الصفات الذاتية أو لا؟

الجواب: أمَّا سَمْعُ الإدراك فهو من الصفات الذاتية، وأمَّا سَمْعُ الاستجابة فهو من الصفات الفعلية؛ لأنَّه إن شاء استجاب، وإن شاء لم يستجب.

فأولوا الألباب الذي يقولون: ﴿رَبَّنَا فَاعْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾ [آل عمران: 193]، قال الله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [آل عمران: 195]، ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: 60]، فالاستجابة حصلت بعد الدعاء.

وكل شيء من صفات الله يكون له سبب، فهو من الصفات الفعلية، سَمْعُ الاستجابة من الصفات الفعلية، فَمَنْ استجاب الله له فقد سمعه، لكن سمع الإدراك ذكرنا أنه من الصفات الذاتية، لكن الحادث هو المسموع، لا السَّمْعُ.

قال العلماء: والسَّمْعُ بمعنى الإدراك ينقسم إلى عِدَّةِ أقسام:

الأول: سمع عام لكل شيء، مثاله قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦]، فهذا يشمل المؤمن والكافر، وما يرضاه وما لا يرضاه.

الثاني: سمع خاص مقتضاه النصر والتأييد، وهذا الخاص له أمثلة منها: قوله تعالى لموسى وهارون: ﴿لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: 46]، فالمراد: أسمع وأرى فأنتصر لكما.

وقد يكون للتهديد والوعيد؛ مثل قوله تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١].

وقوله: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠].

فصار الخاص يراد به النصر والتأييد، وقد يراد به التهديد والوعيد.

وقولي: قد يراد به، أي: قد يكون مقتضاه النصر والتأييد، وقد يكون مقتضاه التهديد والوعيد.

فإذا قال قائل: ما هو الضابط لما يقتضي هذا وهذا؟

فالجواب: أن الضابط القرائن، أي: قرائن الأحوال، وسياق الكلام يدل على أن مقتضاه كذا وكذا. اهـ.

وأما البَصَرُ الثَّابِتُ لله تعالى فهو نوعان:

1 - بصر رؤية.

2 - بصر علم.

قال العلامة ابن عُثيمين في «شرح السفارينية» (183-184): «والبصر: هو

رؤية الأشياء، وقد أثبت الله في كتابه أنه بصير بما يعمل العباد، وأخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن الله بصراً في قوله: «حِجَابُهُ النُّور، لو كشفه لأحرقت سُُبُحَاتُ وَجْهِهِ ما انتهى إليه بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ» (1).

وعلى هذا، فالبصر ثابت لله بالكتاب والسنة، ولكن هذا الحديث الذي ذكرناه هو بصر الرؤية.

أما بصر العلم فيستفاد من الآية؛ ولهذا نقول: إِنَّ بَصَرَ اللَّهِ تَعَالَى نَوَعَان:

1- بصر رؤية.

2- بصر علم.

كلاهما يشمل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٤]، ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٩٦]، وما أشبه ذلك، فإن هذا البصر شامل لبصر العلم، وبصر الرؤية.

وأما قوله عليه الصلاة والسلام: «لأحرقت سُُبُحَاتُ وَجْهِهِ ما انتهى إليه بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»، فإنه يختص ببصر الرؤية على كل حال، والبصر ثابت لله عَزَّوَجَلَّ، وهو من الصفات الذاتية التي لم يزل ولا يزال مُتَّصِفًا بها، فهو لم يزل ولا يزال عليمًا، ولم يزل ولا يزال بصيرًا بخلقه عَزَّوَجَلَّ، أي: يُبصرهم.

وهل يلزم من البصر العين؟

الجواب: لا، ولولا النصوص الدالة على ثبوت العين لم يَجْز أن نُثبتها بثبوت البصر؛ ولهذا كانت الأشاعرة يُثبتون لله البصر، ولا يُثبتون له العين (2)،

(1) رواه مسلم.

(2) «بيان تلبيس الجهمية» (345/2).

يقولون: إِنَّ اللَّهَ يَرَى، لكن لا بعين!.. اهـ.

أَمَّا الْآيَةُ الْأُولَى الَّتِي ذَكَرَهَا الْمُؤَلَّف رَحْمَةُ اللَّهِ، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَدِّلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ الْآيَةُ.

فَقَدْ قَالَ الْعَلَامَةُ السَّعْدِيُّ رَحْمَةُ اللَّهِ فِي تَفْسِيرِهِ (ص 783): «نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ فِي رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، وَهُوَ أَوْسُ بْنُ الصَّامِتِ، اشْتَكَتْهُ زَوْجَتُهُ إِلَى اللَّهِ - وَهِيَ خَوْلَةُ بِنْتِ ثَعْلَبَةَ - وَجَادَلَتْهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَمَّا حَرَّمَهَا عَلَى نَفْسِهِ بَعْدَ الصَّحْبَةِ الطَّوِيلَةِ وَالْأَوْلَادِ، وَكَانَ هُوَ رَجُلًا شَيْخًا كَبِيرًا، فَشَكَتَ حَالَهَا وَحَالَهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكَرَّرَتْ ذَلِكَ، وَأَبَدَتْ فِيهِ وَأَعَادَتْ؛ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَدِّلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ [المجادلة: ١]، أَي: تَخَاطَبَكُمَا فِيمَا بَيْنَكُمَا؛ ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ لِجَمِيعِ الْأَصْوَاتِ فِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ عَلَى تَفَنُّنِ الْحَاجَاتِ.

﴿بَصِيرٌ﴾: يَبْصُرُ دَبِيبَ النَّمْلَةِ السَّوْدَاءِ عَلَى الصَّخْرَةِ الصَّمَاءِ فِي اللَّيْلَةِ الظُّلُمَاءِ.

وَهَذَا إِخْبَارٌ عَنْ كَمَالِ سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ، وَإِحَاطَتُهُمَا بِالْأُمُورِ الدَّقِيقَةِ وَالْجَلِيلَةِ، وَفِي ضَمْنِ ذَلِكَ الْإِشَارَةُ بِأَنَّ اللَّهَ سَيَزِيلُ شَكْوَاهَا وَبَلَّوَاهَا؛ وَلِهَذَا ذَكَرَ حُكْمَهَا وَحُكْمَ غَيْرِهَا عَلَى وَجْهِ الْعُمُومِ.. اهـ.

وَقَالَ الْعَلَامَةُ ابْنُ الْقَيْمِ رَحْمَةُ اللَّهِ كَمَا فِي «مَخْتَصَرِ الصَّوَاغِقِ» (ص 65): «فَلَا يَشْكُ صَحِيحُ الْفَهْمِ الْبَيِّنَةُ فِي هَذَا الْخَطَابِ أَنَّهُ نَصٌّ صَرِيحٌ، لَا يَحْتَمِلُ التَّأْوِيلَ بِوَجْهِ فِي إِثْبَاتِ صِفَةِ السَّمْعِ لِلرَّبِّ تَعَالَى حَقِيقَةً، وَأَنَّهُ بِنَفْسِهِ يَسْمَعُ».. اهـ.

وَأَمَّا الْآيَةُ الثَّانِيَّةُ، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ

اللَّهُ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ»، فالذي عليه أكثرُ المُفسِّرين أن المعنيَّ بهذه الآية اليهود - عليهم لعائن الله - وأنهم قالوا ذلك لما أنزل الله قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ الآية [البقرة: ٢٤٥]؛ فتوعَّدهم الله بهذه الآية، والله له ملك السموات والأرض: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠]، قال العلامة السَّعْدِي في تفسيره (ص ٧١٥): «﴿أَمْ يَحْسَبُونَ﴾ بجهلهم وظلمهم، ﴿أَنَا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ﴾ الذي لم يتكلَّموا به، بل هو سرُّ في قلوبهم ﴿وَنَجْوَاهُمْ﴾، أي: كلامهم الخفي الذي يتناجون به، أي: فلذلك أقدموا على المعاصي، وظنوا أنَّها لا تَبْعَة لها، ولا مجازاة على ما خفي منها. فَرَدَّ اللَّهُ عليهم بقوله: ﴿بَلَىٰ﴾ إنا نعلم سرهم ونجواهم، ﴿وَرُسُلْنَا﴾: الملائكة الكرام ﴿لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ كل ما عملوه سيُحفظ ذلك عليهم حتى يَرُدُّوا القيامة، فيجدوا ما عملوا حاضرًا، ولا يظلم ربك أحدًا. وقوله تعالى: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]:

في هذه الآية إثبات صفة الرؤية لله تعالى، والخطاب في هذه الآية مُوجَّه إلى موسى وهارون، لمَّا قال: ﴿رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ﴾ [طه: ٤٥]، فقال الله تعالى لهما: ﴿لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾

قال العلامة السَّعْدِي في تفسيره (ص ٤٥٥): «أي: أنتم بحفظي ورعايتي، أسمع قولكما وأرى جميع أحوالكما، فلا تخافا منه؛ فزال الخوفُ عنهما، واطمأنَّت قلوبهما بوعد ربهما». اهـ.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾: فيها- أيضًا- إثبات صفة الرؤية لله، والمقام يقتضي تهديدًا ووعيدًا.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِي يَرَبُّكَ حِينَ تَقُومُ﴾، قال العلامة السَّعْدِي رَحِمَهُ اللَّهُ فِي تفسيره: «أي: يراك في هذه العبادة العظيمة التي هي الصلاة وقت قِيَامِكَ وَتَقَلُّبِكَ رَاكِعًا وَسَاجِدًا، خَصَّهَا بِالذِّكْرِ لِفَضْلِهَا وَشَرَفِهَا، وَلأنَّ مَنْ اسْتَحْضَرَ فِيهَا قُرْبَ رَبِّهِ خَشَعَ وَذَلَّ وَأَكْمَلَهَا، وَبِتَكْمِيلِهَا يَكْمُلُ سَائِرُ عَمَلِهِ، وَيَسْتَعِينُ بِهَا عَلَى جَمِيعِ أُمُورِهِ». اهـ.

وقوله تعالى: ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾، قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ فِي تفسيره (2/ 509): «قال مجاهد: هذا وعيدٌ، يعني من الله تعالى للمخالفين أو امره بأن أعمالهم ستعرض عليه تبارك وتعالى، وعلى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعلى المؤمنين، وهذا كائن لا محالة يوم القيامة». اهـ.

قال العلامة ابن عثيمين في «شرح العقيدة الواسطية» (ص 277)، بعد أن نقل الكلام السابق: «وقد يظهر ذلك للناس في الدنيا». اهـ.

من أدلة السُّنَّة على إثبات صفة الرؤية: حديث جبريل الطويل المتفق عليه، وفيه: «قال: ما الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».



«وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ﴾ [الرعد: ١٣]، وقوله: ﴿وَمَكْرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤]، وقوله: ﴿وَمَكْرُوا مَكْرًا وَمَكْرَنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ٥٠]، وقوله: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥-١٦]».

أورد شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى هذه الآيات لإثبات صفة المكر والكيد، على ما ورد في النصوص، وعلى ما فهمه السلف كما يليق بجلال الله وعظمته وكماله، فالمكر والكيد ومثله الاستهزاء والخداع صفات تُسَمَّى صفاتٍ مقابلة، وهي صفات فعلية حقيقية لله على الوجه اللائق به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال الإمام الحافظ المفسر ابن جرير الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره (304 / 1): «وأما الذين زعموا أن قول الله تعالى ذكره: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: 15]، إنما هو على وجه الجواب، وأنه لم يكن من الله استهزاء ولا مكر ولا خديعة، فنافون على الله عَزَّجَلَّ ما قد أثبتته الله عَزَّجَلَّ لنفسه، وأوجه لها.

وسواءً قال قائل: لم يكن من الله جَلَّ ذِكْرُهُ استهزاء ولا مكر ولا خديعة ولا سخرية بمن أخبر أنه يستهزئ ويسخر ويمكر به، أو قال: لم يخسف الله بمن أخبر أنه خَسَفَ به من الأمم، ولم يُغرق من أخبر أنه أغرقه منهم.

ويقال لقائل ذلك: إنَّ الله - جل ثناؤه - أخبرنا أنه مَكَرَ بقوم مضوا قبلنا لم نَرَهُمْ، وأخبر عن آخرين أنه خَسَفَ بهم، وعن آخرين أنه أغرقهم، فصَدَّقْنَا الله - تعالى ذكره - فيما أخبرنا به من ذلك، ولم نُفَرِّقْ بين شيء منه؛ فما بُرْهَانُكَ على تفريقك ما فَرَّقْتَ بينه، بزعمك: أنه قد أغرق وخَسَفَ بمن أخبر أنه أغرق

وخسف به، ولم يمكُر بمن أخبر أنه قد مكر به؟». اهـ.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ كما في «مجموع الفتاوى» (7/111):
«كذلك ما ادَّعَوْا أنه مجاز في القرآن، كلفظ «المكر» و«الاستهزاء»، و«السخرية»
المضاف إلى الله، وزعموا أنه مُسَمَّى باسم ما يقابله على طريق المجاز، وليس
كذلك، بل مسميات هذه الأسماء إذا فُعِلَتْ بمن لا يستحق العقوبة كانت ظلماً
له.

وأما إذا فُعِلَتْ بمن فعلها بالمجني عليه عقوبة له بمثل فعله كانت عدلاً،
كما قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ [يوسف: 76]، فكاد له، كما كادت
إخوته لما قال له أبوه: ﴿لَا نَقْصُصُ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾
[يوسف: 5]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ ١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا [الطارق: 15-16]، وقال
تعالى: ﴿وَمَكْرُؤُهُمْ مَكْرًا وَمَكْرُنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ٥٠ فَأَنْظُرْ كَيْفَ
كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ [النمل: 50-51]، وقال
تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ
وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ [التوبة: 79]؛ ولهذا
كان الاستهزاء بهم فعلاً يستحق هذا الاسم كما روي عن ابن عباس؛ أنه يُفتح
لهم باب من الجنة وهم في النار فيسرعون إليه فيغلق، ثم يفتح لهم باب آخر
فيسرعون إليه فيغلق فيضحك منهم المؤمنون؛ قال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ
الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ ٣٤ عَلَى الْأَرْآئِكِ يَنْظُرُونَ ٣٣ هَلْ تُوبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿

[المطففين: 34 - 36].

وعن الحسن البصري قال: «إذا كان يوم القيامة خمدت النار لهم كما تخمد
الإهالة من القدر فيمشون فيخسف بهم».

وعن مقاتل قال: «إذا ضُرب بينهم وبين المؤمنين بسور له باب باطنه فيه الرحمة، وظاهره من قبله العذاب فيبقون في الظلمة، فيقال لهم: ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً.

وقال بعضهم: استهزاؤه: استدراجه لهم.

وقيل: إيقاع استهزائهم، ورد خداعهم ومكرهم عليهم.

وقيل: إنه يظهر لهم في الدنيا خلاف ما أبطن في الآخرة.

وقيل: هو تجهيلهم وتخطئتهم فيما فعلوه؛ وهذا كله حق، وهو استهزاء بهم حقيقة». اهـ.

وقال الشيخ الهرّاس رَحِمَهُ اللهُ في شرحه للعقيدة الواسطية في الكلام على الآيات السابقة (ص 132): «تضمّنت هذه الآيات إثبات صفتي المكر والكيد، وهما من صفات الفعل الاختيارية.

ولكن لا ينبغي أن يشتق له من هاتين الصفتين اسم، فيقال: مكر، وكائد؛ بل يوقف عند ما ورد به النص من أنه خير الماكرين، وأنه يكيد بأعدائه الكافرين». اهـ.

وسئل فضيلة الشيخ العلامة ابن عثيمين كما في مجموع فتاواه (1/ 170): هل يُوصف الله بالمكر؟ وهل يُسمّى به؟

فأجاب بقوله: «لا يُوصف الله تعالى بالمكر إلا مقيداً، فلا يوصف الله تعالى به وصفاً مطلقاً؛ قال الله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾^٩ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا أَقْصَا الْقَوْمِ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾ [الأعراف: 99].

ففي هذه الآية دليل على أن الله مكرراً، والمكر: هو التّوصّل إلى إيقاع

الخصم من حيث لا يشعر، ومنه جاء في الحديث الذي أخرجه البخاري:
«الحرب خُدعة».

فإن قيل: كيف يُوصف الله بالمكر مع أن ظاهره أنه مذموم؟

قيل: إن المكر في محله محمود، يدل على قوة الماكر، وأنه غالب على خصمه؛ ولذلك لا يُوصف الله به على الإطلاق، فلا يجوز أن تقول: «إن الله ماكر»، وإنما تذكر هذه الصفة في مقام يكون مدحاً؛ مثل قوله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ [الأنفال: 30]، وقوله: ﴿وَمَكْرُؤٌ مَكْرًا وَمَكْرَنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، ومثل قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ [الأعراف: 99]، ولا تنفى عنه هذه الصفة على سبيل الإطلاق، بل إنها في المقام الذي تكون مدحاً يوصف بها، وفي المقام الذي لا تكون فيه مدحاً لا يُوصف بها.

وكذلك لا يُسمَّى الله به، فلا يقال: إن من أسماء الله الماكر، والمكر من الصفات الفعلية؛ لأنها تتعلق بمشيئة الله سبحانه. اهـ.

وقد سلط المِعْطَلَة من الجهمية والمعتزلة والأشاعرة معاول التَّعْطِيل والتَّخْرِيف على هذه الصفات، وقالوا: إنها مجاز.

وقد أجاب عليهم العلامة ابن القيم كما في «مختصر الصواعق» (ص 289-292)، حيث قال: «الجواب أن هذا الذي ذكرتموه مبني على أمرين: أحدهما معنوي، والآخر لفظي.

فأما المعنوي فهو أن مسمى هذه الألفاظ ومعانيها مذمومة، فلا يجوز اتصاف الرب تعالى بها.

وأما اللفظي: فإنها لا تطلق عليه إلا على سبيل المقابلة، فتكون مجازاً.

ونحن نتكلم معكم في الأمرين جميعاً.

فأما الأمر المعنوي فيقال: لا ريب أن هذه المعاني يُدْمُّ بها كثيراً، فيقال: فلان صاحب مكر وخداع وكيد واستهزاء، ولا تكاد تطلق على سبيل المدح، بخلاف أضدادها، وهذا هو الذي عَرَّ مَنْ جعلها مجازاً في حق مَنْ يتعالى ويتقدَّس عن كل عيب وذم.

والصواب: أن معانيها تنقسم إلى محمود ومذموم، فالمذموم منها يرجع إلى الظلم والكذب، فما يُدْمُّ منها إنما يُدْمُّ لكونه متضمناً للكذب أو الظلم، أو لهما جميعاً.

وهذا هو الذي ذمَّه الله تعالى لأهله، كما في قوله تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ [البقرة: ٩]، فإنه ذكر هذا عقب قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨]، فكان هذا القول منهم كذباً وظلماً في حق التوحيد والإيمان بالرسول واتباعه، وكذلك قوله: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ﴾ الآية [النحل: ٤٥].

وقوله: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣]، وقوله: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ٥٠ ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَرْنَاهُمْ﴾ [النمل: 50-51].

فلما كان غالب استعمال هذه الألفاظ في المعاني المذمومة ظن المُعْطَلُونَ أنَّ ذلك هو حقيقتها، فإذا أطلقت لغير الدَّمِّ كان مجازاً، والحق خلاف هذا الظن، وأنها منقسمة إلى محمود ومذموم، فما كان منها متضمناً للكذب والظلم فهو مذموم، وما كان منها بحق وعدل ومجازاة على القبح فهو حسنٌ محمودٌ،

فإن المخادع إذا خادع بباطل وظلم حسن من المجازي له أن يخدعه بحق وعدل.

وكذلك إذا مكر واستهزأ ظالمًا معتدًا كان المكر به والاستهزاء عدلاً حسنًا، كما فعله الصحابة بكعب بن الأشرف، وابن أبي الحقيق، وأبي رافع وغيرهم ممن كان يُعادي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فَخَادَعُوهُ حَتَّى كُفُّوا شَرَّهُ، وأذاه بالقتل، وكان هذا الخداع والمكر نصرةً لله ورسوله...».

إلى أن قال: «فعلم أنه لا يجوز ذم هذه الأفعال على الإطلاق، كما لا تمدح على الإطلاق والمكر والكيد والخداع لا يذم من جهة العلم ولا من جهة القدرة، فإن العلم والقدرة من صفات الكمال، وإنما يُذَمُّ ذلك من جهة سوء القصد وفساد الإرادة، وهو أن الماكر والمخادع يجور ويظلم بفعل ما ليس له فعله أو ترك ما يجب عليه فعله.

إذا عُرِفَ ذلك فنقول: إن الله تعالى لم يصف نفسه بالكيد والمكر والخداع والاستهزاء مطلقًا، ولا ذلك داخل في أسمائه الحسنی، وَمَنْ ظَنَّ مِنَ الْجُهَّالِ الْمُصَنِّفِينَ فِي شَرْحِ الْأَسْمَاءِ الْحَسَنِ أَنْ مِنْ أَسْمَائِهِ الْمَاكِرَ الْمَخَادِعَ الْمُسْتَهْزِئَ الْكَائِدَ فَقَدْ فَاهَ بِأَمْرِ عَظِيمٍ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ الْجُلُودُ، وَتَكَادُ الْأَسْمَاعُ تُصَمُّ عِنْدَ سَمَاعِهِ، وَغَرَّ هَذَا الْجَاهِلُ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَطْلَقَ عَلَى نَفْسِهِ هَذِهِ الْأَفْعَالَ، فَاشْتَقَّ لَهَا مِنْهَا أَسْمَاءً، وَأَسْمَاؤُهُ كُلُّهَا حَسَنَى فَأَدْخَلَهَا فِي الْأَسْمَاءِ الْحَسَنِ، وَأَدْخَلَهَا وَقَرَنَهَا بِالرَّحِيمِ الْوَدُودِ وَالْحَكِيمِ الْكَرِيمِ، وَهَذَا جَهْلٌ عَظِيمٌ؛ فَإِنْ هَذِهِ الْأَفْعَالُ لَيْسَتْ مَمْدُوحَةٌ مُطْلَقًا، بَلْ تُمَدِّحُ فِي مَوْضِعٍ وَتُذَمُّ فِي مَوْضِعٍ، فَلَا يَجُوزُ إِطْلَاقُ أَفْعَالِهَا عَلَى اللَّهِ مُطْلَقًا، فَلَا يَقَالُ: إِنَّهُ تَعَالَى يَمَكُرُ وَيَخَادِعُ وَيُسْتَهْزِئُ وَيَكِيدُ، فَكَذَلِكَ بِطَرِيقِ الْأُولَى لَا يُشْتَقُّ لَهَا مِنْهَا أَسْمَاءٌ يَسْمَى بِهَا...».

إلى أن قال: «والمقصود: أن الله سبحانه لم يصف نفسه بالكيد والمكر والخداع إلا على وجه الجزاء لمن فعل ذلك بغير حق، وقد علم أن المجازاة على ذلك حسنة من المخلوق، فكيف من الخالق سبحانه؟! وأما الأمر اللفظي:

فإطلاق هذه الألفاظ عليه - سبحانه - لا يتوقف على إطلاقها على المخلوق؛ ليعلم أنها مجاز، لعدم توقفها على المسمى الآخر، كما قدمنا من قوله: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ﴾ [الرعد: ١٣]، وقوله: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩]، فظهر أن هذا الفرق - الذي اعتبروه - فاسدٌ لفظاً ومعنى». اهـ.

أما الآية الأولى التي ذكرها المؤلف، وهي قوله تعالى ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ﴾، فقد فُسِّرَ المحالُّ بالكيد، كما قاله ابن القيم كما في «مختصر الصواعق» (ص 289)، وقيل: أي: شديد الأخذ بالعقوبة، والأول هو ظاهر صنيع المؤلف الذي أورد الآية لأجله.

أما الآية الثانية، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَكْرُؤًا وَمَكْرَ اللَّهِ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾.

قال العلامة ابن عثيمين في «شرح العقيدة الواسطية» (ص 280): «هذه الآية نزلت في عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام، مكر به اليهود؛ ليقتلوه، ولكن كان الله تعالى أعظم منهم مكرًا، رفعه الله وألقى شبهه على أحدهم، على الذي تولى كبره وأراد أن يقتله، فلما دخل عليه هذا الذي يريد القتل وإذا عيسى قد رفع، فدخل الناس، فقالوا: أنت عيسى؟ قال: لست أنا، فقالوا: أنت هو - لأن الله ألقى عليه شبهه -، فقتل هذا الرجل الذي كان يريد أن يقتل عيسى ابن مريم،

فكان مكره عائداً عليه ﴿وَمَكْرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾.
 وأما الآية الثالثة وهي قوله تعالى: ﴿وَمَكْرُوا مَكْرًا وَمَكْرَنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ فهي في قوم صالح، حيث قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ (٤٥) قَالَ يَقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٦) قَالُوا أَطِيعْنَا بَكَ وَيَمَن مَعَكَ قَالَ طَاعْتِكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (٤٧) وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ شَعَّةٌ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (٤٨) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٤٩) وَمَكْرُوا مَكْرًا وَمَكْرَنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٠) فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (٥١) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنِّي فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥٢) وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُ﴾ [النمل: ٤٥ - ٥٣].

وقد ذكر المفسرون أن قوم صالح لما فرغوا من قتل الناقة قال بعضهم: لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ، أي: لنقتله وأهله بالليل، ثم نقول لأوليائه: ما شهدنا مهلك أهله، فأهلك الله هؤلاء دون أن يمسوا نبيه بسوء، ثم أهلك قومهم أجمعين، و(مكرًا) في الموضوعين نكرةً للتعظيم، فمكر أولئك عظيم، ومكر الله أعظم وأعظم.
 وأما الآية الرابعة وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾.

قال العلامة ابن عثيمين في «شرح الواسطية» (ص 281): ﴿إِنَّهُمْ﴾: أي: كفار مكة ﴿يَكِيدُونَ﴾ للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿كَيْدًا﴾ لا نظير له في التنفير منه ومن دعوته، ولكن الله تعالى يكيد كيدًا أعظم وأشد. اهـ.

وتنكير الكيد في الموضوعين يدلُّ على عظمته، ولكن كيد الله أعظم من كيد

عباده.

قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ فِي «إِغَاثَةِ اللَّهْفَانِ» (ص 491 - 493): «وَكَيْدُ اللَّهِ سَبْحَانَهُ لَا يَخْرُجُ عَنْ نَوْعَيْنِ:

أحدهما: أَنْ يَفْعَلَ سَبْحَانَهُ فِعْلاً خَارِجًا عَنْ قُدْرَةِ الْعَبْدِ الَّذِي كَادَ لَهُ، فَيَكُونُ الْكِيدُ قَدَرًا مُحْضًا، لَيْسَ مِنْ بَابِ الشَّرْعِ، كَمَا كَادَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنْ انْتَقِمَ مِنْهُمْ بِأَنْوَاعِ الْعُقُوبَاتِ، وَكَذَلِكَ كَانَتْ قِصَّةُ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فَإِنْ يَوْسُفَ أَكْثَرَ مَا قَدَّرَ عَلَيْهِ أَنْ أَلْقَى الصُّوَاعَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ، وَأَرْسَلَ مُؤَدَّنًا يُؤَدِّنُ: ﴿أَيْتَهَا أَلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ﴾ [يوسف: 70]، فَلَمَّا أَنْكَرُوا قَالَ: ﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ؟ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ (٧٤) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ. [يوسف: 74، 75]، أَي: جَزَاؤُهُ اسْتِعْبَادُ الْمَسْرُوقِ مَالَهُ لِلْسَّارِقِ، إِمَّا مُطْلَقًا وَإِمَّا إِلَى مَدَّةٍ، وَهَذِهِ كَانَتْ شَرِيعَةُ آلِ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَكَانَ إِلَهَامُ اللَّهِ تَعَالَى لِأَخَوَةِ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَوْلَهُمْ: ﴿جَزَاؤُهُ مَنْ وَجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ كَيْدًا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِيَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَجْرَاهُ عَلَى أَلْسِنِ إِخْوَتِهِ، وَذَلِكَ خَارِجٌ عَنْ قُدْرَتِهِ، وَكَانَ يُمَكِّنُهُمْ أَنْ يَتَخَلَّصُوا مِنْ ذَلِكَ، بِأَنْ يَقُولُوا: لَا جَزَاءَ عَلَيْهِ، حَتَّى يَثْبُتَ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي سَرَقَ؛ فَإِنْ مَجْرَدُ وَجُودِهِ فِي رَحْلِهِ لَا يُوجِبُ أَنْ يَكُونَ سَارِقًا.

وَقَدْ كَانَ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَادِلًا، لَا يَأْخُذُهُمْ بِغَيْرِ حُجَّةٍ، وَكَانَ يُمْكِنُ التَّخَلُّصَ - أَيْضًا - بِأَنْ يَقُولُوا: جَزَاؤُهُ أَنْ يُفْعَلَ بِهِ مَا تَفْعَلُونَهُ بِالسَّارِقِ فِي دِينِكُمْ، وَقَدْ كَانَ فِي دِينِ مَلِكِ مِصْرَ فِيمَا ذَكَرَ أَنَّ السَّارِقَ يُضْرَبُ وَيُغْرَمُ قِيَمَةُ الْمَسْرُوقِ مَرَّتَيْنِ، فَلَوْ قَالُوا لَهُ ذَلِكَ لَمْ يُمَكِّنْهُ أَنْ يُلْزِمَهُمْ بِمَا لَا يُلْزَمُ بِهِ غَيْرَهُمْ؛ فَلِذَلِكَ قَالَ سَبْحَانَهُ: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ

يَشَاءُ اللَّهُ ﴿[يوسف: ٧٦]، أي: ما كان ليتمكنه أخذه في دين ملك مصر؛ لأنه لم يكن في دينه طريقٌ إلى أخذه.

وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ استثناءٌ مُنْقَطِعٌ، أي: لكن إن شاء الله أخذه بطريقٍ آخر، ويجوز أن يكون مُتَّصِلًا، والمعنى: إلا أن يُهَيِّئَ اللهُ سَبِيلًا آخَرَ يُؤْخَذُ بِهِ فِي دِينَ الْمَلِكِ غَيْرِ السَّرَقَةِ.

النوع الثاني: أن يلهمه أمرًا مُبَاحًا، أو مُسْتَحَبًّا، أو واجبًا يُوصله به إلى المقصود الحسن، فيكون على هذا إلهامه يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَفْعَلَ مَا فَعَلَ هُوَ مِنْ كَيْدِهِ سَبْحَانَهُ أَيضًا، فيكون قد كَادَ لَهُ نَوْعِي الكَيْدِ، ولهذا قال سبحانه: ﴿نَرَفَعُ دَرَجَتِكَ مِّنْ نَّشَأٍ﴾ [يوسف: 76]، وفي ذلك تَنْبِيْهُ عَلَى أَنَّ الْعِلْمَ الدَّقِيقَ بِلَطِيفِ الْحِيلِ الْمُوَصِّلَةِ إِلَى الْمَقْصُودِ الشَّرْعِيِّ الَّذِي يُحِبُّهُ اللهُ تَعَالَى وَرَسُولُهُ مِنْ نَصْرِ دِينِهِ وَكَسْرِ أَعْدَائِهِ وَنَصْرِ الْمُحَقِّ وَقَمْعِ الْمُبْطِلِ - صِفَةُ مَدَحٍ يَرْفَعُ بِهَا دَرَجَةَ عَبْدِهِ، كَمَا أَنَّ الْعِلْمَ الَّذِي يُخَصِّمُ بِهِ الْمُبْطِلَ وَيَدْحُضُ حُجَّتَهُ صِفَةُ مَدَحٍ يَرْفَعُ بِهَا دَرَجَتَهُ عِنْدَهُ، كَمَا قَالَ سَبْحَانَهُ فِي قِصَّةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَمُنَاطَرَتِهِ قَوْمَهُ، وَكَسْرِ حُجَّتِهِمْ: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَتِكَ مِّنْ نَّشَأٍ﴾ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿[الأنعام: 83]﴾. اهـ.



«وقوله: ﴿إِنْ بُدُوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تُعَفُّوْا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء: 149]، وقوله: ﴿وَلِيَعْفُوا وَلِيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢]».

أورد شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ هذه الآيات لإثبات العفو، والرحمة، والقدرة.

والآيتان السابقتان نأخذ منهما إثبات أربعة أسماء لله هي: العفو، والقدير، والغفور، والرحيم.

أما صفة العفو والمغفرة فهما صفتان فعليتان من صفات الله الدالة على عظمته وكماله سبحانه، وهما من الصفات الثابتة في الكتاب والسنة. أما العفو: فترك المؤاخذه على ارتكاب الذنب.

وقال الأزهري في «تهذيب اللغة» (222/3): «قال أبو بكر الأنباري: الأصل في قوله جل وعز: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣]: محا الله عنك، مأخوذ من قولهم: عَفَتِ الرياحُ الآثارَ: إذا دَرَسَتْهَا وَمَحَتْهَا». اهـ.

وقال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في نونيته:

وَهُوَ الْعَفُوُّ فَعَفُوهُ وَسِعَ الْوَرَى
لَوْلَاهُ غَارَ الْأَرْضِ بِالسُّكَّانِ

والأدلة على هاتين الصفتين من القرآن كثيرة؛ منها: قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٤٣]، وقوله: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ﴾ [طه: ٨٢]، وقوله: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩].

وأما السُّنة فَمِنْ ذلك:

1- ما رواه مُسلم في دعاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الجنازة: «اللهم اغفر له، وارحمه، وعافِه، واغْفُ عَنْهُ»، الحديث.

2- ما رواه مُسلم عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يقول الله عزَّ وجلَّ: مَنْ جاء بالحسنة فله عشر أمثالها أو أزيد، وَمَنْ جاء بالسيئة فجزاءُ سيئةٍ مثلها أو أَغْفِر، وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شَبْرًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا، وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرُولَةً، وَمَنْ لَقِينِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطِيئَةً لَا يَشْرِكُ بِي شَيْئًا لَقِيتُهُ بِمِثْلِهَا مَغْفِرَةً».

3- ما رواه مُسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «والذي نفسي بيده لو لَمْ تُذنبوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذنبون، فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ تَعَالَى؛ فَيَغْفِرُ لَهُمْ».

قال العلامة السَّعْدِي في تفسيره (ص 946): «العَفْوُ، الغُفُورُ، الغَفَّارُ الذي لم يزل ولا يزال بالعَفْوِ معروفًا، وبالغفران والصَّفْحِ عن عباده موصوفًا». اهـ.

وقال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في «مفتاح دار السعادة» (ص 18): «قال غير واحد من السلف: يَنجُونَ مِنَ النَّارِ بِعَفْوِ اللَّهِ وَمَغْفِرَتِهِ، وَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِفَضْلِهِ وَنِعْمَتِهِ وَمَغْفِرَتِهِ، وَيَتَقَاسِمُونَ الْمَنَازِلَ بِأَعْمَالِهِمْ». اهـ.

ومن أسمائه: الغُفُورُ والغَفَّارُ؛ لكثرة ما يغفر من الذنوب، ولكثرة مَنْ يغفر الله له، وكل ما سبق يدل على عظيم رحمة الله ورأفته بعباده، فله الحمد والشكر عددَ خلقه ورضا نفسه وزينة عرشه ومداد كلماته.

وقد سبق الكلام على صفة الرحمة.

أما الآية الأولى التي ذكرها المؤلف، وهي قوله تعالى: ﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ فقد قال العلامة السَّعْدِي في هذه الآية: ﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ﴾ هذا يشمل كلَّ خيرٍ قولِيّ وفعلِيّ ظاهرٍ وباطنٍ من واجبٍ ومستحبٍّ.

﴿أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ﴾، أي: عَمَّنْ أَسَاءَ إِلَيْكُمْ في أبدانكم وأموالكم وأعراضكم، فتسمحوا عنه؛ فإنَّ الجزاء من جنس العمل، فمن عفا الله عفا الله عنه، ومن أحسنَ أحسنَ الله إليه؛ فلهذا قال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾، أي: يعفو عن زَلَّاتِ عبادِهِ وذنوبِهِم العظيمة، فيُسَدِّدُ عليهم سِتْرَهُ، ثم يُعَامِلُهُم بعفوهِ التام الصادر عن قدرته.

وفي هذه الآية إرشادٌ إلى التَّدَبُّرِ في معاني أسماء الله وصفاته، وأنَّ الخلق والأمر صادرٌ عنها، وهي مقتضية له؛ ولهذا يعلل الأحكام بالأسماء الحسنی كما في هذه الآية». اهـ.

قلت: وفي الآية دليلٌ على أن عفو الله عن عبادِهِ عن قُدْرَةٍ.

مسألة:

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في شرحه للواسطية (ص 287): «العفو يُشْتَرَطُ للثناء على فاعله أن يكون مَقْرُونًا بالإصلاح؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]؛ وذلك أن العفو قد يكون سببًا للزيادة في الطغيان والعدوان، وقد يكون سببًا لانتهاه عن ذلك، وقد لا يزيد المعتدي ولا ينقصه:

1- فإذا كان سببًا للزيادة في الطغيان كان العفو هنا مذمومًا، وربما يكون

ممنوعاً، مثل أن نغفوَ عن هذا المجرم، ونعلم أو يغلب على الظن أنه يذهب، فيجرم إجراماً أكبر، فهنا لا يُمدحُ العافي عنه، بل يُذمُّ.

2- وقد يكون العفو سبباً للانتهاء عن العدوان، بحيث يخجل ويقول: هذا الذي عفا عني لا يمكن أن أعتدي عليه مرة أخرى، ولا على أحد غيره، فيخجل أن يكون هو من المعتدين، وهذا الرجل من العافين. فالعفو هنا محمود ومطلوب، وقد يكون واجباً.

3- وقد يكون العفو لا يؤثر لا ازدياداً ولا نقصاً، فهو أفضل؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [البقرة: ٢٣٧]. اهـ.

وأما الآية الثانية التي ذكرها المصنف، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ﴾ الآية، فقد قال العلامة السَّعدي في تفسيره لها: «﴿وَلَا يَأْتِلِ﴾ أي: لا يحلف ﴿أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ﴾ أن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِيَعْفُوا وَلِيَصْفَحُوا» قال: كان من جملة الخائضين في الإفك مسطح بن أثاثه، وهو قريب لأبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان مسطح فقيراً من المهاجرين في سبيل الله، فحلف أبو بكر ألا يُنفق عليه لقوله الذي قال.

فنزلت هذه الآية؛ ينهاهم عن هذا الحلف المتضمن لقطع النفقة عنه، ويحثه على العفو والصفح، ويعده بمغفرة الله إن غفر له، فقال: «﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ إذا عاملتم عبيده بالعفو والصفح عاملكم بذلك، فقال أبو بكر - لما سمع هذه الآية -: بلى والله إني أحب أن يغفر الله لي، فأرجع النفقة إلى مسطح.

وفي هذه الآية دليل على النفقة على القريب، وأنه لا تُترك النفقة والإحسان

بمعصية الإنسان، والحثُّ على العفو والصفح - ولو جرى منه ما جرى من أهل الجرائم». اهـ.

الفرق بين العفو والصفح:

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ فِي «شرح الواسطية» (ص 289): «والفرق بين العفو والصفح: أن الإنسان قد يعفو ولا يصفح، بل يذكر هذا العدوان وهذه الإساءة، لكنه لا يأخذ بالذنب، فالصفح أبلغ من مجرد العفو». اهـ.



«وقوله: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ﴾ [المنافقون: ٨]، وقوله- عن إبليس:-
﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغَوِّيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢].»

أورد شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ هاتين الآيتين لإثبات صفة العزة لله، وهي من الصفات الذاتية التي دلَّ عليها الكتاب والسنة وإجماع السلف الصالح. وأدلتها في القرآن كثيرة جدًا، ومنها ما ذكره المصنف رَحِمَهُ اللهُ، ومنها قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠].
وأما أدلة السُّنة فمنها:

1- ما رواه مسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «قال الله عزَّ وجلَّ: العِزُّ إزاري، والكبرياء ردائي، فمن ينازعني عدَّته». 2- ما رواه البخاري في صحيحه عن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لا تزال جهنم تقول: هل من مزيد؟ حتى يضع رب العزة فيها قدمه، فتقول: قُطَّ قُطَّ، وعِزَّتْكِ! ويزوي بعضها إلى بعض».

وقد بَوَّبَ الإمام البخاري في صحيحه في كتاب (التوحيد): «باب قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: 4]، ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصفات: 180]، ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ﴾ [المنافقون: ٨]، ومن حلف بعِزَّةِ الله وصفاته». اهـ.

وقال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في «شفاء العليل» (ص 180): «العزیز: الذي له العِزَّةُ التامة، ومن تمام عِزَّتِهِ براءتُهُ عن كل سوء وشرٍّ وعَيْبٍ؛ فإن ذلك ينافي العِزَّةَ التامة». اهـ.

وقال الخطّابي كما في «الأسماء والصفات» للبيهقي (1/ 70 - 71):
«العزیز هو المنیع الذي لا یُغلب، والعزُّ قد یكون بمعنی الغلبة، یقال منه: عزَّ
یَعُزُّ، بضم العین.

وقد یكون بمعنی الشّدة والقوة، یقال منه: عزَّ یَعُزُّ بفتح العین.
وقد یكون بمعنی نفاسة القدر، یقال منه: عزَّ الشَّيْءُ یَعُزُّ بكسر العین،
فیتناول معنی العزیز على هذا أنه لا یعادلہ شیءٌ، وأنه لا مثل له. اهـ.
وقد ذکر العلامة ابن القیم نظماً فی نونیه أنَّ لعزة الله ثلاثة معان:
1- عزة الامتناع.

2- عزة القهر والغلبة.

3- عزة القوة.

فقال رَحِمَهُ اللهُ:

وَهُوَ الْعَزِيزُ فَلَنْ يُرَامَ جَنَابُهُ	أَنْى يُرَامَ جَنَابُ ذُو السُّلْطَانِ
وَهُوَ الْعَزِيزُ الْقَاهِرُ الْغَلَابُ لَمْ	يَغْلِبْهُ شَيْءٌ هَذِهِ صِفَتَانِ
وَهُوَ الْعَزِيزُ بِقُوَّةٍ هِيَ وَضْفُهُ	فَالْعَزُّ حِينَئِذٍ ثَلَاثُ مَعَانِ
وَهِيَ الَّتِي كَمَلَتْ لَهُ سُبْحَانُهُ	مِنْ كُلِّ وَجْهِ عَادِمِ النُّقْصَانِ

قال الشيخ الدكتور محمد خليل هراس رَحِمَهُ اللهُ في شرحه للنونية (1/ 78 -
79): «أما العزیز: فهو الموصوف بالعزة، وقد ذكر المؤلف لها ثلاث معان:

الأول: العزة بمعنی الامتناع على مَنْ يرومه من أعدائه، فلن یصل إليه

كيدهم، ولن يبلغ أحدٌ منهم ضُرَّهُ وأذاه⁽¹⁾، كما في الحديث القدسي «يا عبادي إنكم لن تَبْلُغُوا ضُرِّي فتَضُرُّوني، ولن تبلغوا نَفْعِي فتَنْفَعُونِي»، وإلى هذا المعنى أشار بقوله: «فلن يَرَامَ جَنَابُهُ»، أي: لن يَقْصِدَ أَحَدٌ حِمَاهُ الْأَقْدَسَ فيقهره أو يغلبه.

والعِزُّ بهذا المعنى مِنْ: عَزَّ يَعِزُّ بكسر العين في المضارع، قال الشاعر:

لَنَا جَبَلٌ يَحْتَلُّهُ مَنْ نَجِيرُهُ يَعِزُّ عَلَى مَنْ رَامَهُ وَيَطُولُ

الثاني: العِزَّةُ بمعنى القهر والغلبة، وهي: عَزَّ يَعِزُّ بضم العين في المضارع، يقال: عَزَّهُ إذا غلبه، فهو سبحانه القاهر لأعدائه الغالب لهم، ولكنهم لا يقهرونه ولا يغلبونه، وهذا المعنى هو أكثر معاني العِزَّة استعمالاً.

الثالث: العِزَّةُ بمعنى القوة والصلابة، مِنْ: عَزَّ يَعِزُّ بفتحها، ومنه قولهم: أرض عَزَازٌ، للصلابة والشديدة، وهذه المعاني الثلاثة للعِزَّة ثابتة كلها لله عَزَّوَجَلَّ على أتم وجه وأكملها، وأبعده عن العدم والنقصان». اهـ.

أما الآية الأولى التي ذكرها المصنف، وهي قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ﴾، فقد قال عنها العلامة ابنُ عثيمين في شرحه للواسطية (ص 291 - 292): «هذه الآية نزلت في مقابلة قول المنافقين: ﴿يَقُولُونَ لَيْنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَ الْأَعَرُ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨]، يريدون أنهم الأعزُّ وأنَّ رسول الله والمؤمنين الأذلُّون، فبيَّن الله - تعالى - أنه لا عِزَّةَ لهم، فضلاً عن أن يكونوا هم الأعزُّون، وأن العِزَّةَ لله ولرسوله وللمؤمنين.

ومقتضى قول المنافقين: إن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمؤمنين هم الذين

(1) في هذا نظر؛ فربُّنا - سبحانه - يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [الأحزاب: 57] الآية، وفي الحديث القدسي: «يؤذيني ابنُ آدم...»، الحديث، ولا تلازم بين الأذى والضرر، والله أعلم.

يُخرجون المنافقين؛ لأنهم أهل العزة، والمنافقون أهل الذلة؛ ولهذا كانوا يحسبون كُلَّ صَيِّحَةٍ عليهم، وذلك لِذُلِّهِمْ وَهَلَعِهِمْ، وكانوا إذا لقوا الذين آمنوا قالوا: آمنا؛ خوفاً وجُبْناً، وإذا خَلَوْا إلى شياطينهم قالوا: إنا معكم إنما نحن مستهزئون، وهذا غاية الذُّلِّ.

أما المؤمنون فكانوا أَعَزَّاءَ بدينهم، قال الله عنهم - في مجادلة أهل الكتاب: ﴿إِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]، فيعلنونها صريحة لا يخافون في الله لومة لائم.

وفي هذه الآية الكريمة إثباتُ العِزَّةِ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ثم ذكر تقسيم العلماء للعِزَّةِ إلى أقسام ثلاثة.

ثم قال: هذه معاني العِزَّةِ التي أثبتها الله تعالى لنفسه، وهي تدلُّ على كمال قَهْرِهِ وسلطانهِ، وعلى كمال صفاتِهِ وعلى تمام تَنَزُّهِهِ عن النَقْصِ. تدلُّ على كمال قهره وسلطانهِ في عِزَّةِ القهر، وعلى تمام تَنَزُّهِهِ عن العيب والنقص في عِزَّةِ الامتناع.

قوله: ﴿وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، يعني: أن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له عِزَّةٌ، وللمؤمنين - أيضاً - عِزَّةٌ وَغَلَبَةٌ.

لكن يجب أن نعلم أن العِزَّةَ التي أثبتها الله لرسوله وللمؤمنين ليست كَعِزَّةِ الله؛ فإن عِزَّةَ الرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين قد يشوبها ذِلَّةٌ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣]، وقد يُغْلَبُونَ أحياناً لحكمةٍ يُريدها الله عَزَّجَلَّ، ففي أُحُدٍ لم يحصل لهم تمام العِزَّة؛ لأنَّهم غلبوا في النهاية لحكمٍ عظيمةٍ، وكذلك في حُنينٍ وَلَوْا مُدْبِرِينَ، ولم يبق مع النبي

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من اثني عشر ألفاً إلا نحو مائة رجل، هذا- أيضاً- فَقَدْ للعِزَّة، لكنه مؤقت، أما عِزَّةُ الله عَزَّوَجَلَّ فلا يمكن- أبداً- أَنْ تُفْقَدَ.

وبهذا عرفنا أن العِزَّة التي أثبتها الله لرسوله والمؤمنين ليست كالعِزَّة التي أثبتها لنفسه.

وهذا- أيضاً- يمكنُ أَنْ يُؤْخَذَ من القاعدة العامة، وهي أنه لا يلزم من اتفاق الاسمين أَنْ يَتِمَّائِلَ المُسَمَّيَانِ، ولا من اتفاق الصفتين أَنْ يَتِمَّائِلَ الموصوفان». اهـ.

وأما الآية الثانية التي ذكرها المصنف رَحِمَهُ اللهُ، وهي قوله تعالى: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغَوِّيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، فقد قال عنها العلامة ابنُ عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في شرحه للواسطية (ص 293): «الباء هنا للقسَم، لكنه اختار القسم بالعِزَّة دون غيرها من الصفات؛ لأنَّ المقامَ مقامُ مغالبةٍ، فكأنه قال: بعزتك التي تغلب بها من سواك لأُغَوِّيَنَّهُ هَؤُلَاءِ وأُسيطر عليهم- يعني بني آدم- حتى يخرجوا من الرشد إلى الغي، ويستثنى من هذا عباد الله المخلصون؛ فإنَّ إبليس لا يستطيع أَنْ يغويهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الإسراء: 65].

ففي هاتين الآيتين إثباتُ العِزَّة لله، وفي الآية الثانية أَنَّ الشيطان يُقر بصفات الله.

فكيف نجد من بني آدم مَنْ يُنكر صفات الله أو بعضها: أَيْكون الشيطانُ أَعْلَمَ بالله وأَعْقَلَ مَسْلَكًا من هَؤُلَاءِ النفاة؟». اهـ.



«قوله: ﴿نَبْرَكَ اَسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَلِ وَالْاِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨]، وقوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]».

قوله تعالى: ﴿نَبْرَكَ اَسْمُ رَبِّكَ﴾ الآية.

البركة: ثبوت الخير الإلهي في الشيء.

قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ فِي «البدائع» (2 / 186): «البركة: كثرة الخير ودوامه، ولا أحد أحق بذلك وصفًا وفعلاً منه تبارك وتعالى». اهـ.

والبركة يُوصف بها اسم الله تارةً، كما في هذه الآية، أي: أن اسم الله إذا صاحب شيئاً صارت فيه البركة، فَمَنْ أَكَلَ وَسَمَّى الله لم يأكل معه شيطان، وَمَنْ دَخَلَ بَيْتَهُ وَسَمَّى الله لم يَبْتَ فيه الشياطين، وَمَنْ أَغْلَقَ الباب وَسَمَّى الله لم يفتحه شيطان، وَمَنْ جَامَعَ أهله وَسَمَّى الله وَقَدَّرَ بينهما وَلَدٌ لم يَضُرَّهُ شيطان، وهكذا.

وتأتي البركة فيُوصف بها فعل الله، وتارة أخرى يُوصف بها الله، فهذه ثلاثة:

قال العلامة ابن القيم في النوعين الأخيرين في كتابه «بدائع الفوائد» (2 / 185): «وأما البركة فكذلك نوعان:

أحدهما: بركةٌ هي فِعْلُهُ تبارك وتعالى، والفعل منها بَارَكَ، ويتعدَّى بنفسه تارةً وبأداةٍ (على) تارةً، وبأداةٍ (في) تارةً، والمفعول منها مَبَارَكَ، وهو ما جُعِلَ كذلك، فكان مَبَارَكًا بِجَعْلِهِ تعالى.

والنوع الثاني: بركةٌ تضاف إليه إضافة الرحمة والعزِّ، والفعل منها (تبارك)؛ ولهذا لا يقال لغيره ذلك، ولا يصلح إلا له عَزَّجَلَّ، فهو سبحانه المبارك، وعبدُه ورسولُه المبارك، كما قال المسيح: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾

[مريم: ٣١].

فَمَنْ بَارَكَ اللَّهُ فِيهِ وَعَلَيْهِ فَهُوَ الْمُبَارَكُ.

وأما صفة (تبارك) فمختصة به تعالى، كما أطلقها على نفسه بقوله: ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ﴿تَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ [الملك: ١]، ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، ﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزخرف: ٨٥]، ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ [الفرقان: ١]، ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّنْ ذَلِكَ﴾ [الفرقان: ١٥]، ﴿نُبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ [الفرقان: ٦١]، أفلا تراها كيف اطرّدت في القرآن جاريةً عليه مختصةً به، لا تُطلق على غيره، وجاءت على بناء السعة والمبالغة، كـ(تعالى وتعاظم) ونحوهما، فجاء بناء (تبارك) على بناء (تعالى) الذي هو دالٌّ على كمال العُلُوِّ ونهايته، فكذلك (تبارك) دالٌّ على كمال بركته وعظمتها وسعتها، وهذا معنى قول من قال من السلف: تبارك: تعاظم». اهـ.

وقوله تعالى: ﴿ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾.

﴿ذِي﴾ بمعنى صاحب، وهي صفة لـ(رب)، وليست صفة لـ(اسم)، إذ لو كانت صفة لـ(اسم) لكانت ذو.

أما الجلال والإكرام فقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ كما في «مجموع الفتاوى» (١٦/ ٢٩٦):

«وهو سبحانه ذو الجلال والإكرام، فهو المستحقُّ لأن يُجَلَّ ولأن يُكْرَمَ، والإجلالُ يتضمنُ التعظيمَ، والإكرامُ يتضمنُ الحمدَ والمحبَّةَ». اهـ.

وقوله تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ .

قوله: ﴿فَاعْبُدْهُ﴾، قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ فِي «المدارج» (1/ 120): «أصل معنى اللفظة: الذُّلُّ والخضوع، يقال: طريق مُعَبَّد، إذا كان مُذَلَّلًا بوطء الأقدام». اهـ.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «العبادة: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة». اهـ.

«والعبادة تجمع أصليين: غاية الحب، بغاية الذل والخضوع.

والعرب تقول: طريق مُعَبَّد، أي: مُذَلَّل، والتعبُّد: التذلل والخضوع، فَمَنْ أَحَبَّتْهُ وَلَمْ تَكُنْ خَاضِعًا لَهُ لَمْ تَكُنْ عَابِدًا لَهُ، وَمَنْ خَضَعَتْ لَهُ بِلَا مَحَبَّةٍ لَمْ تَكُنْ عَابِدًا لَهُ، حَتَّى تَكُونَ مَحَبًّا خَاضِعًا». اهـ. «مدارج السالكين» (1/ 85).

والعبودية نوعان: عامة وخاصة:

فالعُبودية العامة: عبودية أهل السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلِّهِمْ لِلَّهِ؛ بَرُّهُمْ وَفَاجِرُهُمْ، مُؤْمِنُهُمْ وَكَافِرُهُمْ، فَهَذِهِ عِبَادِيَّةُ الْقَهْرِ وَالْمَلِكِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ (٨٨) ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ (٨٩) ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ (٩٠) ﴿أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ (٩١) ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ (٩٢) ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ ﴿[مريم: ٨٨-٩٣]، فهذا يدخل فيه مؤمنهم وكافرهم.

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي﴾ [الفرقان: ١٧]، فَسَمَّاهُمْ عِبَادَهُ، مَعَ ضَلَالِهِمْ، لَكِنْ تَسْمِيَةً مُقَيَّدَةً بِالْإِشَارَةِ.

وأما المطلقة: فلم تجئ إلا لأهل النوع الثاني، كما سيأتي بيانه إن شاء الله.

وأما النوع الثاني: فعبودية الطاعة والمحبة واتباع الأوامر؛ قال تعالى:

﴿يَعْبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الزخرف: ٦٨]، وقال: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۖ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر: ١٧-١٨]، وقال:

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، وقال تعالى عن إبليس: ﴿لَا تُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ ﴿[ص: ٨٢-٨٣]، وهناك آيات تناول العبودية الخاصة والعامة.

قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزمر: ٤٦]، وقال: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٣١]، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٨]، فهذا يتناول العبودية الخاصة والعامة، فالخلق كلهم عبيد ربوبيته وأهل طاعته وولايته، هم عبيد إلهيته. اهـ بتصرف من «مدارج السالكين» (١/ 118-119).

وقد قال العلامة السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره: «﴿وَأَصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾، أي: صَبَرْ نفسك عليها، وجاهدْها، وقم عليها أتم القيام وأكمله - بحسب قدرتك -، وفي الاشتغال بعبادة الله تسليّة للعابد عن جميع التعلّقات والمشتبهات، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرَزَقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: ١٣١]، إلى أن قال: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢].

﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: 65]: أي: هل تعلم لله مُسَامِيًّا ومُشَابِهًا ومماثلاً

من المخلوقين، وهذا استفهامٌ بمعنى النفي المعلوم بالعقل، أي: لا تعلم له مسامياً ولا مشابهاً؛ لأنه الرب، وغيره مربوب، والخالق، وغيره مخلوق، والغني من جميع الوجوه، وغيره فقير بالذات من كل وجه، والكمال الذي له الكمال المطلق من جميع الوجوه، وغيره ناقص ليس فيه من الكمال إلا ما أعطاه الله تعالى، فهذا برهان قاطع على أن الله هو المستحقُّ لإفراده بالعبودية، وأن عبادته حقٌّ، وعبادة ما سواه باطلٌ؛ فلهذا أمرٌ بعبادته وحده والاصطبار عليها، وعَلَلَ بكماله وانفراده بالعظمة والأسماء الحسنى». اهـ.



«وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ، كُفْوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: 4]، وقوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 22]، ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة: 165]، ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِّ وَكِبَرُهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: 111]».

قوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ، كُفْوًا أَحَدٌ﴾.

الكفو: هو الند المساوي، و﴿كُفْوًا﴾ نكرة في سياق النفي فتفيد العموم، فليس له كفو، لا في ذاته ولا في أسمائه ولا صفاته ولا أفعاله.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ كما في «مجموع الفتاوى» (2/ 449): «وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ، كُفْوًا أَحَدٌ﴾ نفى للشركاء والأنداد، يدخل فيه كل من جعل شيئاً كفواً لله في شيء من خواص الربوبية، مثل خلق الخلق، والإلهية، كالعبادة له ودعائه ونحو ذلك». اهـ.

وقال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في «زاد المعاد» (4/ 180): «وفي نفي الكفء التنزيه عن الشبيه والمثال». اهـ.

وقد تقدم الكلام على سورة الإخلاص بشيء من التفصيل - والله الحمد - فليراجع.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾.

هذا أول نهي في القرآن الكريم، وهو نهي عن الشرك، كما أن أول أمر في القرآن الكريم هو الأمر بتوحيده في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: 21].

﴿أَنَدَادًا﴾ نكرة في سياق النهي، فتفيد العموم في كل ما جعل ندًا لله من الملائكة والأنبياء والصالحين والجن والأشجار والأحجار، وما أشبه ذلك، والله لا ند له لا في ألوهيته ولا ربوبيته ولا أسمائه وصفاته؛ وذلك لكمال المطلق **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**.

قوله: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]، أي: وأنتم تعلمون أنه لا ند له. قال العلامة السعدي **رَحِمَهُ اللَّهُ** في تفسيره: «﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ أي: أشباهًا ونظرًا من المخلوقين، فتعبدونهم كما تعبدون الله، وتُحِبُّونَهُمْ كما تحبونه، وهم مثلكم مخلوقون ومرزوقون مدبرون، لا يملكون مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا ينفعونكم ولا يضرون. ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أن الله ليس له شريك ولا نظير، لا في الخلق والرزق والتدبير، ولا في ألوهيته والكمال، فكيف تعبدون معه آلهة أخرى مع علمكم بذلك؟! هذا من أعجب العجب وأسفهِ السّفهِ». اهـ.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا﴾، الآية. قال العلامة ابن القيم في «مدارج السالكين» (3 / 20 - 21): «أخبر تعالى أن مَنْ أَحَبَّ مِنْ دُونِ اللَّهِ شَيْئًا كَمَا يُحِبُّ اللَّهُ تَعَالَى فَهُوَ مِمَّنْ اتَّخَذَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا، فهذا ند في المحبة، لا في الخلق والربوبية؛ فإن أحدًا من أهل الأرض لم يُثَبِّتْ هذا النَّد، بخلاف ند المحبة؛ فإن أكثر أهل الأرض قد اتخذوا من دون الله أندادًا في الحب والتعظيم، ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وفي تقدير الآية قولان:

أحدهما: والذين آمنوا أشدُّ حبًّا لله من أصحاب الأنداد لأندادهم وآلهتهم

التي يُحِبُّونها وَيُعَظِّمونها من دون الله.

والثاني: والذين آمنوا أشد حبا لله من محبة المشركين بالأنداد لله؛ فإن محبة المؤمنين خالصة، ومحبة أصحاب الأنداد قد ذهبت أندادهم بقسط منها، والمحبة الخالصة أشد من المشتركة، والقولان مرتبان على القولين في قوله تعالى: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، فإن فيها قولين:

أحدهما: يحبونهم كما يحبون الله، فيكون قد أثبت لهم محبة الله، ولكنها محبة يشركون فيها مع الله أندادا.

والثاني: أن المعنى يحبون أندادهم كما يحب المؤمنون الله، ثم يبين أن محبة المؤمنين لله أشد من محبة أصحاب الأنداد لأنادهم.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ يُرَجِّحُ القول الأول، ويقول: «إنما ذمُّوا بأن أشركوا بين الله وبين أندادهم في المحبة، ولم يُخلصوها لله كمحبة المؤمنين له.

وهذه التسوية المذكورة في قوله تعالى - حكاية عنهم وهم في النار يقولون لآلهتهم وأندادهم، وهي محضرة معهم في العذاب -: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (١٧) إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿[الشعراء: ٩٧-٩٨]، ومعلوم أنهم لم يُسوِّوهم برب العالمين في الخلق والربوبية، إنما سووهم به في المحبة والتعظيم، وهذا أيضا هو العدل المذكور في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]، أي: يعدلون به غيره في العبادة التي هي المحبة والتعظيم، وهذا أصح القولين». اهـ.

قال العلامة ابن عثيمين في «شرح الواسطية» (ص 300): «وهنا يجب أن

نعرف الفرق بين المحبة مع الله والمحبة لله:

المحبة مع الله: أن تجعل غير الله مثله في محبته أو أكثر، وهذا شرك.

المحبة في الله أو لله: هي أن تحب الشيء تبعاً لمحبة الله عزَّجَلَّ. اهـ.

قوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾، الآية.

قال العلامة ابن عثيمين في شرحه للواسطية (301-302): «﴿وَقُلِ﴾

الخطاب في مثل هذا إما خاص بالرسول عليه الصلاة والسلام، أو عام لكل من يصح توجيه الخطاب إليه.

فإن كان خاصاً بالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهو خاصٌّ به بالقصد الأول، وأُمَّتُهُ تَبِعُ لَهُ.

وإن كان عاماً فهو يشمل الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وغيره بالقصد الأول.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ سبق تفسيرها، وأن الحمد هو وصف المحمود بالكمال مع المحبة والتعظيم.

وقوله: ﴿لِلَّهِ﴾ اللام هنا للاستحقاق والاختصاص:

للاستحقاق؛ لأن الله تعالى يحمد، وهو أهل الحمد، والاختصاص؛ لأن الحمد الذي يحمد الله به ليس كالحمد الذي يحمد به غيره، بل هو أكمل وأعظم وأعم وأشمل.

وقوله: ﴿الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ هذا من الصفات السلبية ﴿لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ لكمال صفاته وكمال غناه عن غيره، ولأنه لا مثيل له، فلو اتخذ ولداً لكان الولد مثله، ولو كان له ولد لكان محتاجاً إلى الولد يساعده ويعينه، ولو كان له ولد لكان ناقصاً؛ لأنه إذا شابههُ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِهِ فهو نَقْصٌ.

وقوله: ﴿وَلَدًا﴾ يشمل الذكر والأنثى، ففيه ردُّ على اليهود والنصارى والمشركين.

اليهود قالوا: لله ولدٌ، وهو عَزِيزٌ.

والنصارى قالوا: لله ولدٌ، وهو المسيح، والمشركون قالوا: لله ولد، وهم الملائكة.

وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ هذا معطوف على قوله: ﴿لَمْ يَنْخِذْ وَلَدًا﴾ يعني: والذي لم يكن له شريك في الملك ولا في الخلق ولا في التدبير.

كل ما سوى الله فهو مخلوق لله، مملوك له، يُدَبِّرُهُ كما يشاء، لم يشاركه أحد في ذلك، كما قال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ﴾ [سبأ: ٢٢]، على سبيل الشيوع، ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: ٢٢] لم يعاونه أحد في هذه السماوات والأرض، ﴿وَلَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةَ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٣]، وبهذا تقطعت جميع الأسباب التي يتعلّق بها المشركون في آلهتهم.

فالآلهة هذه لا تملك من السموات والأرض شيئاً مُعِيناً، وليست شريكةً لله، ولا مُعِينَةً، ولا شافعةً إلا بإذنه، يقول: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ [الإسراء: ١١١].

وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ﴾ [الإسراء: ١١١]، لم يكن له وليٌّ، لكنه قيد بقوله: ﴿مِنَ الذُّلِّ﴾، و(من) هنا للتعليل؛ لأن الله تعالى له أولياء ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٦٢) الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿[يونس: ٦٢-٦٦].

وقال تعالى في الحديث القدسي: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ». ولكنَّ الوليَّ المنفيَّ هو الوليُّ مِنَ الذُّلِّ؛ لأنَّ الله تعالى له العزة جميعاً، فلا يلحقه الذُّلُّ بوجهٍ من الوجوه؛ لكمال عِزَّتِهِ.

وقوله: ﴿وَكَبِّرْهُ﴾ تكبيراً يعني: كَبَّرَ اللهُ عَزَّجَلَّ تكبيراً بلسانك وجنانك: اعتقد في قلبك أنَّه أكبر من كلِّ شيء، وأنَّ له الكبرياء في السماوات والأرض، وكذلك بلسانك تكبِّره تقول: الله أكبر.

وكان من هدي النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه أنهم يُكَبِّرُونَ كلما علَّوا شرفاً، أي: مُرْتَفِعاً، وهذا في السفر؛ لأنَّ الإنسان إذا علا في مكان قد يشعر في قلبه أنه مُسْتَعْلٍ على غيره، فيقول: الله أكبر، من أجل أن يُخفف تلك العلياء التي شَعَرَ بها حين علا وارتفع.

وكانوا إذا هبطوا قالوا: سبحان الله؛ لأنَّ النُّزُولَ سُفُولٌ، فيقول: سبحان الله: أي: أُنْزِلُهُ عَنِ السُّفُولِ الَّذِي أَنَا الآن فيه.

وقوله: ﴿تَكْبِيرًا﴾ هذا مصدر مؤكد يراد به التعظيم، أي: كَبَّرَهُ تكبيراً عظيماً». اهـ.



«وقوله: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التغابن: ١]».

قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ الآية.

قال العلامة ابن عثيمين في شرحه للواسطية ص (304 - 305): «﴿يُسَبِّحُ﴾ بمعنى: يُنَزِّهُ عن كل نقصٍ وعيبٍ، و(سَبَّحَ) تتعدى بنفسها وتتعدى باللام. أما تعديها بنفسها، فمثل قوله تعالى: ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفتح: ٩].

أما تعديها باللام فهي كثيرة، فكل السور المبدوءة بهذا متعديّة باللام. قال العلماء: وإذا أُريدَ بيانُ القصدِ والإخلاصِ تَعَدَّتْ باللام ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾ أي: سَبَّحُوا إِخْلَاصًا واستحقاقًا، فاللام هنا تُبينُ كمالَ الإرادة من الفاعل وكمالَ الاستحقاق من المسبَّح، وهو الله.

وإذا أُريدَ مجردُ الفعلِ تَعَدَّتْ بنفسها ﴿وَسُبِّحُوهُ﴾، أي: تقولوا: سبحان الله.

وقوله: ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ عامٌّ يشمل كل شيء.

لكن التَّسْبِيحُ نوعان: تسبيحٌ بلسانِ المقال، وتسبيحٌ بلسانِ الحال.

أما التَّسْبِيحُ بلسانِ الحال فهو عامٌّ ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وأما التَّسْبِيحُ بلسانِ المقالِ فهو عامٌّ كذلك، لكن يخرج منه الكافر؛ فإن الكافر لم يُسَبِّحِ الله بلسانه؛ ولهذا يقول تعالى: ﴿سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

[الطور: ٤٣]، ﴿سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [الصفات: ١٥٩]، فهم لم يُسَبِّحُوا الله تعالى؛ لأنهم أشركوا به ووصفوه بما لا يليق به، فالتَّسْبِيحُ بلسان الحال يعني أن حال كل شيء في السماوات والأرض تدلُّ على تنزيه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنِ الْعَيْبِ وعن النقص، حتى الكافر إذا تأمَّلَ حاله وجدَّتها تدلُّ على تنزه الله تعالى عن النقص والعيب.

وأما التسبيح بلسان المقال فيعني أن يقول: سبحان الله.

وقوله: ﴿لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

هذه الصفات الأخيرة صفاتٌ ثبوتيةٌ، وسبق ذكر معناها، لكن (يُسَبِّحُ الله) صفةٌ سلبيةٌ؛ لأن معناها تنزيهه عما لا يليق به». اهـ.



«تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ نَقْدِيرًا ﴿٢﴾ [الفرقان: ١، ٢]».

أورد شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ هذه الآيات وما قبلها وما بعدها؛ لبيان عظمة الله وكماله عن كل نقص وعيب، ولبیان نفي الشريك والولد لله؛ لكمال غناه وقدرته وسلطانه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وقد قال العلامة السَّعْدِي رَحِمَهُ اللهُ في تفسيره في الكلام عن هاتين الآيتين:

«هذا بيان لعظمته الكاملة وتفردّه بالوحدانية من كل وجه، وكثرة خيراته وإحسانه، فقال: ﴿تَبَارَكَ﴾ أي: تَعَاظَمَ وَكَمَلَتْ أوصافه، وَكَثُرَتْ خيراته الذي من أعظم خَيْرَاتِهِ وَنِعَمِهِ أَنْ ﴿نَزَلَ﴾ الْفُرْقَانَ ﴿الْفَارِقَ﴾ بين الحلال والحرام والهدى والضلال وأهل السَّعَادَةِ من أهل الشَّقَاوَةِ.

﴿عَلَى عَبْدِهِ﴾ محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي كَمَلَ مراتب العُبودِيَّةِ وفاق جميع المرسلين.

﴿لِيَكُونَ﴾ ذلك الإنزال للفرقان على عبده ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ نَذِيرًا ﴿يُنذِرُهُمْ﴾ بِأَسَ اللهِ وَنِقْمَهُ، وَيُبَيِّنُ لَهُمْ مواقعَ رضا الله من سخطه، حتى إِنَّ مَنْ قَبَلَ نَذَارَتَهُ وَعَمَلَ بِهَا كان من الناجين في الدنيا والآخرة، الذين حصلت لهم السَّعَادَةُ الأبدِيَّةُ وَالْمُلْكُ السَّرمَدِيُّ، فهل فوق هذه النعمة وهذا الفضل والإحسان شيء؟ فتبارك الذي هذا بعض إحسانه وبركاته.

﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: له التصرف فيهما وحده، وجميع

ما فيهما ممالك وعبيد له مُذعنون لعظمته، خاضعون لربوبيته، فقراء إلى رحمته.

الذي ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ وكيف يكون له ولد أو شريك، وهو المالك وغيره مملوك، وهو القاهر وغيره مقهور، وهو الغني بذاته من جميع الوجوه، والمخلوقون مفتقرون إليه فقراً ذاتياً من جميع الوجوه. وكيف يكون له شريك في الملك ونواصي العباد كلهم بيديه، فلا يتحرّكون أو يسكنون ولا يتصرّفون إلا بإذنه؟!

فتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، فلم يقدره حقّ قدره من قال فيه ذلك! ولهذا قال: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ شَمَلَ الْعَالَمَ الْعُلُويَّ وَالْعَالَمَ السُّفْلِيَّ من حيواناته ونباته وجماداته.

﴿فَقَدَرَهُ نَقْدِيرًا﴾ أي: أعطى كُلَّ مخلوقٍ منها ما يليق به ويناسبه من الخلق، وما تقتضيه حكمته من ذلك، بحيث صار كُلُّ مخلوقٍ لا يتصور العقل الصحيح أن يكون بخلاف شَكْلِهِ وَصُورَتِهِ المشاهدة، بل كل جزءٍ وعضوٍ من المخلوق الواحد لا يناسبه غيرُ محلّه الذي هو فيه». اهـ.



﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ (١١) عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿ [المؤمنون: ٩١، ٩٢]، ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٧٤].

قوله تعالى: ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ ﴾ الآية.

نَزَهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نَفْسَهُ عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ أَوْ شَرِيكٌ فِي الْعِبَادَةِ وَالْمَلِكِ وَالتَّدْبِيرِ، وَأَكَّدَ هَذَا النِّفْيَ بِدُخُولِ (مِنْ) فِي قَوْلِهِ: ﴿ مِنْ وَلَدٍ ﴾، وقوله: ﴿ مِنْ إِلَهٍ ﴾؛ لِأَن ذَكَرَ حَرْفَ الْجَرِّ فِي سِيَاقِ النِّفْيِ وَنَحْوُ ذَلِكَ يَفِيدُ التَّوَكِيدَ.

وقد قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ فِي الْكَلَامِ عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ فِي «الصَّوَاغِقِ الْمُرْسَلَةِ» (2/ 463-464): «فَتَأَمَّلْ هَذَا الْبَرَهَانَ الْبَاهِرَ بِهَذَا اللَّفْظِ الْوَجِيزَ الْبَيِّنَ، فَإِنَّ الْإِلَهَ الْحَقَّ لَا بَدَّ أَنْ يَكُونَ خَالِقًا فَاعِلًا، يُوَصِّلُ إِلَى عَابِدِيهِ النَّفْعَ، وَيُدْفَعُ عَنْهُمْ الضَّرَّ، فَلَوْ كَانَ مَعَهُ سُبْحَانَهُ إِلَهٌ لَكَانَ لَهُ خَلْقٌ وَفِعْلٌ، وَحِينَئِذٍ فَلَا يَرْضَى بِشَرِكَةِ الْإِلَهِ الْآخَرِ مَعَهُ، بَلْ إِنْ قَدَّرَ عَلَى قَهْرِهِ وَالتَّفَرُّدِ بِالْإِلَهِيَّةِ دُونَهُ فَعَلَّ، وَإِنْ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى ذَلِكَ انْفَرَدَ بِخَلْقِهِ وَذَهَبَ بِهِ، كَمَا يَنْفَرِدُ مَلُوكُ الدُّنْيَا بِبَعْضِهِمْ عَنْ بَعْضٍ بِمَمَالِكِهِمْ إِذَا لَمْ يَقْدِرِ الْمَنْفَرِدُ عَلَى قَهْرِ الْآخَرِ وَالْعُلُوِّ عَلَيْهِ.

فَلَا بَدَّ مِنْ أَحَدٍ أُمُورَ ثَلَاثَةٍ:

إِمَّا أَنْ يَذْهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِخَلْقِهِ وَسُلْطَانِهِ.

وإِمَّا أَنْ يَعْلُوَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ.

وإِمَّا أَنْ يَكُونُوا كُلُّهُمْ تَحْتَ قَهْرِ إِلَهٍ وَاحِدٍ يَتَصَرَّفُ فِيهِمْ وَلَا يَتَصَرَّفُونَ فِيهِ،

ويمتنع من حكمهم ولا يمتنعون من حكمه، فيكون وحده هو الإله الحق، وهم العبيدُ المرئوبونَ المَقهُورُونَ.

وانتظام أمر العالم العلوي والسفلي وارتباط بعضه ببعض وجريانه على نظام محكم - لا يختلف ولا يفسد - مِنْ أَدَلِّ دليل على أَنَّ مُدَبِّرَهُ واحدٌ لا إله غيره، كما دَلَّ دليلُ التَّمَانُعِ على أَنَّ خَالِقَهُ واحدٌ لا رَبَّ له غيرُهُ.

فذاك تمانعٌ في الفعل والإيجاد، وهذا تمانعٌ في العبادة والإلهية، فكما يستحيل أن يكون للعالم رَبَّانٍ خالقان مُتكافئان، كذلك يستحيل أن يكون له إلهان معبودان». اهـ.

وقوله: ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ ﴿١١﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

قال العلامة السَّعْدِي في تفسيره:

«﴿سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ قد نطقت بلسان حالها وأفهمت ببديع أشكالها أَنَّ المدبِّرَ لها إله واحدٌ كاملُ الأسماء والصفات، قد افتقرت إليه جميعُ المخلوقات في ربوبيته لها وفي إلهيته لها، فكما لا وجود لها ولا دوام إلا بربوبيته، كذلك لا صلاح لها ولا قوام إلا بعبادته وإفراده بالطَّاعة؛ ولهذا نَبَّهَ على عظمة صفاته بأنموذجٍ من ذلك، وهو عِلْمُهُ الْمُحِيطُ.

فقال: ﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ﴾ أي: الذي غاب عن أبصارنا وَعِلْمِنَا من الواجبات والمستحيلات والممكّنات. ﴿وَالشَّهَادَةِ﴾ وهو ما نشاهد من ذلك، ﴿فَتَعَلَّى﴾ أي: ارتفع وعَظُمَ. ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ به، ولا عِلْمَ عندهم إلا ما علمه الله». اهـ.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ الآية.

هذه الآية لها ارتباط بالآية التي قبلها، وهي قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [النحل: 73].

وقد قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ عند هاتين الآيتين (2/ 763): «يقول تعالى إخبارًا عن المشركين، الذين عبدوا معه غَيْرُهُ، مع أنه هو المنعمُ المتفضل الخالق الرازق وحده لا شريك له، ومع هذا يعبدون من دونه الأصنام والأنداد والأوثان ما لا يملك لهم رزقًا من السموات والأرض شيئًا، أي: لا يقدر على إنزال مطرٍ ولا إنباتٍ زرعٍ ولا شجرٍ، ولا يملكون ذلك لأنفسهم، أي: ليس لهم ذلك، ولا يقدرون عليه لو أرادوه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ أي: لا تجعلوا له أندادًا وأشباهًا وأمثالًا؛ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: أنه يعلم ويشهد أنه لا إله إلا هو، وأنتم بجهلكم تشركون به غيره». اهـ.

وقال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ في شرحه للواسطية (ص 311): ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ بمعنى أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَعْلَمُ بأنه ليس له مثلٌ، وقد أخبركم بأنه لا مثل له في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤]، وقوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، وما أشبه ذلك، فالله يعلم وأنتم لا تعلمون». اهـ.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ (ص 312): «فإن قلت: كيف نجمع بين هذه الآية ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٤]، وبين قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]؟!

الجواب: أنه هناك يخاطب الذين يشركون به في الألوهية، فيقول: ﴿فَلَا

تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا ﴿٢١﴾ فِي الْعِبَادَةِ وَالْأُلُوهِيَةِ ﴿٢٢﴾ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣﴾ أَنَّهُ لَا نِدَّ لَهُ فِي الرُّبُوبِيَّةِ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢٤﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾

[البقرة: 21-22].

أَمَّا هُنَا فِي بَابِ الصِّفَاتِ ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ فَتَقُولُونَ مَثَلًا: إِنَّ يَدَ اللَّهِ مِثْلُ يَدِ كَذَا، وَوَجْهَ اللَّهِ مِثْلُ وَجْهِ كَذَا، وَذَاتَ اللَّهِ مِثْلُ الذَّاتِ الْفُلَانِيَّةِ وَمَا أَشْبَهَ هَذَا؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ، وَقَدْ أَخْبَرَكُمْ بِأَنَّهُ لَا مِثِيلَ لَهُ.

أَوْ يُقَالُ: إِنَّ إِثْبَاتَ الْعِلْمِ لَهُمْ خَاصٌّ فِي بَابِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَنَفْيُهُ عَنْهُمْ خَاصٌّ فِي بَابِ الْأُلُوهِيَّةِ، حَيْثُ أَشْرَكُوا بِاللَّهِ فِيهَا، فَتَزَلُّوا مَنْزِلَةَ الْجَاهِلِ.

وَهَذِهِ الْآيَةُ تَتَضَمَّنُ مِنَ الْكَمَالِ كَمَالَ صِفَاتِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ؛ حَيْثُ إِنَّهُ لَا مِثِيلَ لَهُ.

ثُمَّ قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ (ص 313): «أَمَّا الْفَائِدَةُ الْمَسْلُوكِيَّةُ الَّتِي تَوْخِذُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ: فَهِيَ كَمَالُ تَعْظِيمِنَا لِلرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ؛ لِأَنَّا إِذَا عَلِمْنَا أَنَّهُ لَا مِثِيلَ لَهُ تَعَلَّقْنَا بِهِ رَجَاءً وَخَوْفًا، وَعَظَمْنَاهُ، وَعَلِمْنَا أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَمِثِلَهُ سُلْطَانٌ وَلَا مَلِكٌ وَلَا وَزِيرٌ وَلَا رَئِيسٌ - مَهْمَا كَانَتْ عَظَمَةُ مُلْكِيَّتِهِمْ وَرِئَاسَتِهِمْ وَوِزَارَتِهِمْ؛ لِأَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ لَيْسَ لَهُ مِثْلٌ». اهـ.



﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ فِي الْكَلَامِ عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ فِي «إِعْلَامِ الْمَوْقِعِينَ» (1/ 413): «ودخل في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي﴾ [الأعراف: 33] تحريم كل فاحشة ظاهرة وباطنة، وكل ظلم وعدوان في مال أو نفس أو عِرْض، وكل شرك بالله - وإن دَقَّ في قول أو عمل أو إرادة، بأن يجعل لله عِدْلًا بغيره في اللَّفْظ أو الْقَصْد أو الاعتقاد، وكل قول على الله لم يأت به نَصٌّ عنه ولا عن رسوله في تحريم أو تحليل أو إيجاب أو إسقاط أو خبر عنه باسم أو صفة نفيًا أو إثباتًا أو خبرًا عن فعله، فالقول عليه بلا علم حرام في أفعاله وصفاته ودينه». اهـ.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ فِي الْكَلَامِ عَلَى مَسْأَلَةِ السَّمَاعِ (ص 324 - 325): «فذكر سبحانه المحرمات الأربع، مبتدئًا بالأسهل منها، ثم ما هو أصعب منه، ثم كذلك، حتى ختمها بأعظمها وأشدّها وهو القول عليه بلا علم، فكيف بالكذب عليه، قالوا: ولأن الكذب عليه بأنه قال كذا ولم يقله نسبةً للقول المكذوب إليه بأنه قاله، فالكاذب يعلم أن ما اخْتَلَقَهُ كَذِبٌ، فإذا نسبته إلى الله فقد نسب إليه الكذب». اهـ.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «مِفْتَاحِ دَارِ السَّعَادَةِ» (ص 458): «فهذه الأنواع الأربعة التي حرمها تحريمًا مطلقًا لم يُبَحَّ منها شيئًا لأحد من الخلق ولا في حال من الأحوال، بخلاف الميتة والدم ولحم الخنزير، فإنها تُحَرِّمُ في حالٍ وتُبَاحُ في حالٍ، وأما هذه الأربعة فهي مُحَرَّمَةٌ، فالفواحش متعلّقةٌ بالشهوة، وتعديل قُوَّةِ الشهوة باجتنابها، والبغْيُ بغير الحق متعلّقٌ بالغضب، وتعديل القُوَّةِ الغضبية باجتنابها،

والشرك بالله ظلمٌ عظيمٌ، بل هو الظلم على الإطلاق، وهو مناف للعدل والعلم.
 وقوله: ﴿وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ متضمنٌ تحريم أصل الظلم
 في حق الله، وذلك يستلزم إيجاب العدل في حقه، وهو عبادته وحده لا شريك
 له». اهـ.

وقال في الكلام على مسألة السماع (ص 337): «فاشتمل هذا السماع على
 هذه الأمور الأربعة التي هي قواعد المحرمات؛ فإن فيه من الفواحش الظاهرة
 والباطنة والإعانة على أسبابها والإثم والبغي بغير الحق والشرك بالله ما لم ينزل
 به سلطاناً، والقول على الله بغير علم». اهـ.

وقال العلامة ابن عثيمين في «شرحه للواسطية» (ص 315): «وقد قال أهل
 العلم: إن هذه المُحرَّمات الخمسة مما أجمعت الشرائع على تحريمها». اهـ.



«وقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ في سبعة مواضع في سورة الأعراف، قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال في سورة يونس عليه السلام: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [يونس: ٣]، وقال في سورة الرعد: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الرعد: ٢]، وقال في سورة طه: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، وقال في سورة الفرقان: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ﴾ [الفرقان: ٥٩]، وقال في سورة (الم) السجدة: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [السجدة: 4]، وقال في سورة الحديد: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الحديد: ٤]».

أورد المؤلف هذه الآيات؛ لِيَقَرَّرَ العقيدة الرَّاسِخَةَ عند أهل السُّنَّةِ والجماعة، ابتداءً بأصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها في إثبات استواء الله على عرشه استواءً يَلِيقُ بِعَظَمَتِهِ وَجَلَالِهِ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11].

والعرش كما قال ابن القيم - كما في «مختصر الصواعق» (ص 27): «هو سرير مُلْكِهِ الَّذِي اتَّفَقَتْ عَلَيْهِ الرُّسُلُ، وَأَقَرَّتْ بِهِ الْأُمَمُ، إِلَّا مَنْ نَابَذَ الرُّسُلَ». اهـ. وقال البيهقي: «اتَّفَقَتْ أَقَاوِيلُ أَهْلِ التَّفْسِيرِ أَنَّ الْعَرْشَ هُوَ السَّرِيرُ، وَأَنَّهُ جِسْمٌ خَلَقَهُ اللَّهُ». اهـ.

واستواء الله على عرشه: هو عُلُوُّهُ عَلَيْهِ وارتفاعه.

وقد قال العلامة ابن القيم كما في «مختصر الصواعق» (ص 352): «لفظ الاستواء في كلام العرب الذي خاطبنا الله بلغتهم وأنزل بها كلامه نوعان: مطلق ومقيّد.

فالمطلق: ما لم يُوصَلْ مَعْنَاهُ بِحَرْفٍ، مثل قوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى﴾ [القصص: ١٤]، وهذا معناه: كَمُلَ وَتَمَّ.

يقال: استوى النباتُ واستوى الطعامُ.

وأما المقيّد: فثلاثة أضرب:

أحدها: مُقيّدٌ بِإِلَى، كقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ٢٩]، واستوى فلان إلى السطح وإلى العُرْفَةِ، وقد ذكر سبحانه هذا المُعَدَّى بِإِلَى في موضعين من كتابه، في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ٢٩]، الثاني في سورة فصلت: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: ١١]، وهذا بمعنى العُلُوِّ والارتفاع بإجماع السلف.

والثاني: مُقيّدٌ بِعَلَى، كقوله: ﴿لِاسْتَوَا عَلَى ظُهُورِهِ﴾ [الزخرف: ١٣]، وقوله: ﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ [هود: ٤٤]، وقوله: ﴿فَاسْتَوَى عَلَى سُوْقِهِ﴾ [الفتح: ٢٩]، وهذا - أيضًا - معناه العُلُوُّ، والارتفاع والاعتدال بإجماع أهل اللغة.

والثالث: المقرون بَوَاو (مع) الَّتِي تُعَدِّي الفعل إلى المفعول مَعَهُ، نحو: استوى الماء والخشبة أي: ساواها.

وهذه معاني الاستواء المعقولة في كلامهم، ليس فيها معنى «استولى» البتّة، ولا نَقْلَهُ أَحَدٌ مِنْ أئمةِ اللغة الذين يُعْتَمَدُ قَوْلُهُمْ، وإنما قاله مُتَأَخِّرُو النُّحَاةِ، مِمَّنْ سَلَكَ طريقَ المعتزلة والجَهْمِيَّةِ. اهـ.

وتَأْمَلُ سِرًّا عَظِيمًا فِي كَوْنِ اللَّهِ: قَرَنَ اسْتِوَاءَهُ عَلَى الْعَرْشِ بِاسْمِ الرَّحْمَنِ.
فَإِنَّ الْعَرْشَ أَعْظَمُ الْمَخْلُوقَاتِ، وَهُوَ مُحِيطٌ بِهَا، وَاسْمُ اللَّهِ الرَّحْمَنِ عَلَى وَزْنِ
فَعْلَانٍ؛ الدَّالُّ عَلَى سَعَةِ الْوَصْفِ وَشُمُولِهِ وَثَبُوتِ مَعْنَاهُ لِلْمَوْصُوفِ بِهِ، أَلَا تَرَى
أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: غَضَبَانِ لِلْمُتَمَلِّئِ غَضَبًا، وَنَدَمَانِ وَحَيْرَانِ وَسَكْرَانِ وَلَهْفَانِ، لِمَنْ
مُلِيَ بِذَلِكَ، فَبِنَاءُ فَعْلَانٍ لِلْسَّعَةِ وَالشُّمُولِ» (1).

قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «المدارج» (1/ 42-43): «ولهذا يَقْرُنُ
استِوَاءَهُ عَلَى الْعَرْشِ بِهَذَا الْاسْمِ كَثِيرًا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ
أَسْتَوَى﴾ [طه: 5]، ﴿ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ﴾ [الفرقان: 59]، فَاسْتَوَى
عَلَى عَرْشِهِ بِاسْمِ الرَّحْمَنِ؛ لِأَنَّ الْعَرْشَ مُحِيطٌ بِالْمَخْلُوقَاتِ، وَقَدْ وَسِعَهَا.
وَالرَّحْمَةُ مُحِيطَةٌ بِالْخَلْقِ، وَاسِعَةٌ لَهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ
كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: 156]، فَاسْتَوَى عَلَى أَوْسَعِ الْمَخْلُوقَاتِ بِأَوْسَعِ الصِّفَاتِ؛
فَلِذَلِكَ وَسِعَتْ رَحْمَتُهُ كُلَّ شَيْءٍ.

وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَمَّا قَضَى اللَّهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابٍ فَهُوَ عِنْدَهُ مَوْضُوعٌ عَلَى
الْعَرْشِ؛ إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي»، وَفِي لَفْظٍ: «فَهُوَ عِنْدَهُ عَلَى الْعَرْشِ».

فَتَأْمَلُ اخْتِصَاصَ هَذَا الْكِتَابِ بِذِكْرِ الرَّحْمَةِ، وَوَضْعَهُ عِنْدَهُ عَلَى الْعَرْشِ،
وَطَبَقَ بَيْنَ ذَلِكَ وَبَيْنَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوَى﴾ [طه: 5]، وَقَوْلِهِ:
﴿ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسُئِلَ بِهِ خَيْرًا﴾ [الفرقان: 59]، يَنْفَتَحُ لَكَ
بَابُ عَظِيمٍ مِنْ مَعْرِفَةِ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِنْ لَمْ يَغْلِقْهُ التَّعْطِيلُ وَالتَّجْهَمُ». اهـ.

(1) «مدارج السالكين» (1/ 42).

واستواء الله على عرشه ثابتٌ في الكتاب والسُّنة والإجماع:

أما دلالة الكتاب فقد سبقت.

وأما دلالة السُّنة:

فَمِنْ ذَلِكَ مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ كِتَابًا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الْخَلْقَ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي. فَهُوَ مَكْتُوبٌ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ».

وَمَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَأَقَامَ الصَّلَاةَ، وَصَامَ رَمَضَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ؛ هَاجَرَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا تُنَبِّئُ النَّاسَ بِذَلِكَ؟

قَالَ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ؛ كُلُّ دَرَجَتَيْنِ مَا بَيْنَهُمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمْ اللَّهَ فَسَلُّوهُ الْفِرْدَوْسَ؛ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تُفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ».

وَأَمَّا الْإِجْمَاعُ، فَقَدْ قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ رَحِمَهُ اللَّهُ كَمَا فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى» (2 / 297): «الْأُسْلُفُ وَالْأُئِمَّةُ يَقُولُونَ: إِنَّ اللَّهَ فَوْقَ سَمَاوَاتِهِ مُسْتَوٍ عَلَى عَرْشِهِ، بَائِنٌ مِنْ خَلْقِهِ، كَمَا دَلَّ عَلَى ذَلِكَ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَإِجْمَاعُ سَلَفِ الْأُئِمَّةِ». اهـ.

وَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ كَمَا فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى» (5 / 501): «وَقَدْ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ عَلَى أَنَّ اللَّهَ عَلَى عَرْشِهِ، بَائِنٌ مِنْ جَمِيعِ خَلْقِهِ». اهـ.

وَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ (5 / 25): «رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ فِي كِتَابِ «الرَّدِّ عَلَى الْجَهْمِيَّةِ»

عن سعيد بن عامر الضَّبْعِي إمام أهل البصرة علماً وديناً من شيوخ الإمام أحمد: أَنَّهُ ذَكَرَ عِنْدَهُ الْجَهْمِيَّةَ فَقَالَ: أَشَرُّ قَوْلًا مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، وَقَدْ أَجْمَعَ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى وَأَهْلُ الْأَدْيَانِ مَعَ الْمُسْلِمِينَ أَنَّ اللَّهَ عَلَى الْعَرْشِ، وَهُمْ قَالُوا: لَيْسَ عَلَى شَيْءٍ. اهـ.

وقال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ كَمَا فِي «مختصر الصواعق» (ص 418): «أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ أَنَّ اللَّهَ عَلَى عَرْشِهِ فَوْقَ سَمَاوَاتِهِ بَائِنٌ مِنْ خَلْقِهِ، وَقَالَ أَبُو نَصْرِ السَّجْزِي الْحَافِظُ فِي كِتَابِ «الْإِبَانَةِ»: «وَأَثْمَتُنَا كَالثُّورِيِّ، وَمَالِكٍ، وَابْنِ عُيَيْنَةَ، وَحَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ، وَحَمَّادِ بْنِ زَيْدٍ، وَابْنِ الْمُبَارَكِ، وَفُضَيْلِ بْنِ عِيَاضٍ، وَأَحْمَدٍ، وَإِسْحَاقَ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ اللَّهَ فَوْقَ الْعَرْشِ بِذَاتِهِ، وَأَنَّ عِلْمَهُ بِكُلِّ مَكَانٍ».

وقال أَبُو نُعَيْمٍ الْحَافِظُ صَاحِبُ «الْحَلِيَّةِ» فِي الْإِعْتِقَادِ الَّذِي ذَكَرَ أَنَّهُ إِعْتِقَادُ السَّلَفِ وَإِجْمَاعِ الْأُمَّةِ، قَالَ فِيهِ: وَإِنَّ الْأَحَادِيثَ الَّتِي ثَبَّتَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْعَرْشِ، وَاسْتَوَاءِ اللَّهِ عَلَيْهِ يَقُولُونَ بِهَا، وَيُثَبِّتُونَهَا مِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَمْثِيلٍ، وَأَنَّ اللَّهَ بَائِنٌ مِنْ خَلْقِهِ.

وكذلك أَبُو الْحَسَنِ الْأَشْعَرِيُّ نَقَلَ الْإِجْمَاعَ عَلَى أَنَّ اللَّهَ اسْتَوَى عَلَى عَرْشِهِ. اهـ. بتصرف يسير واختصار.

وانظر كلاماً كثيراً للسلف في إثبات استواء الله على عرشه، وذم من أنكر ذلك في «مجموع الفتاوى» (5/ 47 - 54)، (3/ 222 - 226)، و«مختصر الصواعق» (ص 357)، وغير ذلك.

وقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «الرَّحْنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى» فِي سَبْعَةِ مَوَاضِعَ: يُرِيدُ أَنَّ لَفْظَ الْإِسْتَوَاءِ عَلَى الْعَرْشِ اطَّرَدَ بِذِكْرِ الْإِسْتَوَاءِ عَلَى الْعَرْشِ فِي

المواضع السبعة، وهذا الاطراد نص في معناه الحقيقي الذي لا يحتمل التأويل، وهذا من أقوى ما يُبطل تحريف المُعْطَلَة لهذه الصفة؛ فقالوا: إن المعنى: استولى. وانظر في هذا «مختصر الصواعق» لابن القيم رَحِمَهُ اللهُ (ص 63، 354، 367).

والاستواء من صفات الله الفعلية الثابتة في الكتاب والسنة والإجماع، كما سبق.

وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ كما في «مجموع الفتاوى» (139/5): «وروى الخلال بأسانيد - كلهم أئمة ثقات - عن سفيان بن عيينة قال: سئل ربيعة بن أبي عبد الرحمن عن قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ كيف استوى؟ قال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، ومن الله الرسالة، ومن الرسول البلاغ، وعلينا التصديق». اهـ.

وقال رَحِمَهُ اللهُ (4/4): «ولما سئل مالك بن أنس رَحِمَهُ اللهُ تعالى ف قيل له: يا أبا عبد الله ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ كيف استوى؟ فأطرق مالك، وعلاه الرُحْضَاءُ - يعني العرق - وانتظر القوم ما يجيء منه فيه، فرفع رأسه إلى السائل وقال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وأحسبك رجل سوء، وأمر به فأخرج». اهـ.

وأورد شيخ الإسلام هذه القصة كما في «مجموع الفتاوى» (25/3) ثم قال: «والسؤال عن الكيفية بدعة؛ لأنه سؤال عما لا يعلمه البشر، ولا يمكنهم الإجابة عنه». اهـ.

فائدة: ما يروى عن أم سلمة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّ الاستواء معلوم، والكيف مجهول، فلا يصح مرفوعاً، ولا موقوفاً.

أَمَّا الْمُعْطَلَةُ مِنَ الْجَهْمِيَّةِ وَالْمُعْتَزَلَةِ وَمَنْ وافقهم، فلم يُثْبِتُوا عَرْشًا حَقِيقِيًّا، ولم يُثْبِتُوا الاستواء على العرش؛ فقد تأولوا العرش، وتأولوا الاستواء عليه. أما العرش، فقد قالوا: إِنَّ المراد به المُلْكُ، وتأويلهم هذا باطلٌ مُخَالَفٌ للكتاب والسُّنَّةِ والإجماع.

فقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ كما في «مجموع الفتاوى» (6/ 584): «العرش موجود بالكتاب والسُّنَّةِ وإجماع سَلَفِ الأُمَّةِ وأئمتِّها». اهـ. ووجه ما سبق أن العرش في اللغة التي أنزل القرآن الكريم بها هو: سرير الملك.

وقد وصفه الله بأوصاف كثيرة تدل على بطلان قول هؤلاء المعطلة منها:

1- أَنَّهُ مَحْمُولٌ؛ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ مُمْنِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧]، وقال سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [غافر: ٧].

2- أَنَّهُ مَحْفُوفٌ بِالْمَلَائِكَةِ؛ قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾ [الزمر: ٧٥].

3- أَنَّهُ مَجِيدٌ؛ فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ [البروج: ١٥] على إحدى القراءتين.

4- أَنَّهُ كَرِيمٌ؛ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٦].

5- أَنَّهُ عَظِيمٌ؛ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [النمل: ٢٦].

ووصفه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنَّ له قوائم؛ فقال كما في البخاري من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِذَا أَنَا بِمُوسَى آخِذٌ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ الْعَرْشِ».

وهكذا ما في البخاري من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِذَا سَأَلْتُمْ اللَّهَ فَسَلُّوهُ الْفِرْدَوْسَ؛ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ».

وأما تأويلهم للاستواء، فقد قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ كما في «مختصر الصواعق» (ص 352): «فإنهم قالوا: هو مجاز، ثم اختلفوا في مجازه.

والمشهور عنهم: ما حكاه الأشعري عنهم وبدعهم، وصَلَّلَهم فيه-: أنه بمعنى: استولى، أي: مَلَكَ وقَهَرَ.

وقالت طائفة منهم: بل معنى: قَصَدَ وأَقْبَلَ على خَلْقِ الْعَرْشِ.

وقالت فرقة أخرى: بل هو مجملٌ في مجازاته يَحْتَمِلُ خمسة عشر وجهًا كلها لا يُعْلَمُ أَيُّهَا الْمُرَادُ إِلَّا أَنَّا نَعْلَمُ انْتِفَاءَ الْحَقِيقَةِ عَنْهُ بِالْعَقْلِ». اهـ.

قلت: أما شبهتهم الأولى، وهي أن الاستواء بمعنى الاستيلاء مُسْتَدَلِّينَ ببيتِ مصنوعٍ يُنسَبُ إِلَى الْأَخْطَلِ النَّصْرَانِي، وهو قوله:

قد استوى بشر على العراق من غير سيفٍ أو دمٍ مهراق

فالجواب عنها من وجوه:

الأول: أَنَّ الاستواء على العرش اطرَدَ في سبعة مواضع من القرآن لم يأت في موضع منها بلفظ الاستيلاء، وهذا الاطراد يدل على أَنَّهُ استواء حقيقي، وانظر «مختصر الصواعق» (ص 354).

الثاني: أن الاستواء المُقَيَّد بـ«على» معناه: العلو والارتفاع بإجماع أهل اللغة. وانظر «مختصر الصواعق» (ص 532).

الثالث: أن تفسير الاستواء بالاستيلاء تفسيرٌ مُحدث، لم يقل به أحدٌ من الصحابة ولا التابعين ولا أئمة الإسلام المُعتبرين؛ قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ كما في «مجموع الفتاوى» (5/ 144): «هذا التفسير لم يُفسره أحدٌ من السلف من سائر المسلمين من الصحابة والتابعين فإنه لم يُفسره أحدٌ في الكتب الصحيحة عنهم، بل أول من قال ذلك بعض الجهمية والمعتزلة، كما ذكره أبو الحسن الأشعريُّ في كتاب «المقالات» وكتاب «الإبانة». اهـ.

وقال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ كما في «مختصر الصواعق» (ص 353): «إنَّ هذا تفسير لكلام الله بالرأي المجرد الذي لم يذهب إليه صاحبٌ ولا تابعٌ ولا قاله إمامٌ من أئمة المسلمين، ولا أحدٌ من أهل التفسير الذين يحكون أقوال السلف». اهـ.

الرابع: أن إحداه القول في تفسير كتاب الله الذي كان السلف والأئمة على خلافه يستلزم أحد أمرين؛ إمَّا أن يكون خطأ في نفسه، أو تكون أقوال السلف المُخالفة له خطأ، ولا يَشْكُ عاقلٌ أنَّه أولى بالغلط والخطأ من أقوال السلف». «مختصر الصواعق» (ص 353).

وذلك: أن معنى الاستواء معلومٌ علماً ظاهراً بين الصحابة والتابعين وتابعيهم؛ فيكون التفسير المُحدث بعده باطلاً قطعاً، وهذا قول يزيد بن هارون الواسطي فإنه قال: «إِنَّ مَنْ قَالَ: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ خلاف ما تَقَرَّرَ في نفوس العامة فهو جهميٌّ، ومنه قول مالك: «الاستواء معلوم، وليس المراد أن هذا اللفظ في القرآن معلوم، كما قال بعض الناس: استوى أم لا؟ أو أنه سُئل عن

الكيفية، ومالك جعلها معلومة، والسؤال عن النزول ولفظ الاستواء ليس بدعة، ولا الكلام فيه؛ فقد تكلم فيه الصحابة والتابعون، وإنما البدعة السؤال عن الكيفية). «مجموع الفتاوى» (5/ 148 - 149).

الخامس: أن القائل بأن معنى استوى: استولى - شاهد على الله أنه أراد بكلامه هذا المعنى، وهذه شهادة لا علم لقائلها بمضمونها، بل هي قول على الله بلا علم، فلو كان اللفظ محتملاً لها في اللغة - وهيئات - لم يجوز أن يشهد على الله أنه أراد هذا المعنى بخلاف من أخبر عن الله تعالى أنه أراد الحقيقة والظاهر، فإنه شاهد بما أجرى الله سبحانه عادته من خطاب خلقه بحقائق لغاتهم وظواهرها، كما قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ [إبراهيم: ٤]، فإذا كان الاستواء في لغة العرب معلوماً، كان هو المراد؛ لكون الخطاب بلسانهم، وهو المقتضي لقيام الحجة عليهم، فإذا خاطبهم بغير ما يعرفونه كان بمنزلة خطاب العربي بالعجمية. اهـ. «مختصر الصواعق» (ص 356).

السادس: أن الإجماع مُنْعَقِدٌ على أن الله مُسْتَوٍ على عرشه حَقِيقَةً لا مجازاً، وقد سبق بيانه، والله الحمد.

السابع: أن تفسير الاستواء بالاستيلاء يلزم عليه لوازم باطلة، وبطلان اللازم يدل على بطلان الملزوم، ومن تلك اللوازم الباطلة:

أ - أن نَصَفَ الله بأنه مُسْتَوٍ على السماء والأرض والشجر والماء، وسائر المخلوقات؛ لأن الله مُسْتَوٍ عليها كلها.

ب - «أن نَصَفَ الله بأنه كان مُسْتَوِيًّا على العرش قبل أن يَخْلُقَهُ، والاستواء مُخْتَصٌّ بالعرش بعد خَلْقِ السموات والأرض، كما أخبر بذلك في كتابه، فدلَّ على أنه تارة كان مُسْتَوِيًّا عليه، وتارة لم يكن مُسْتَوِيًّا عليه؛ ولهذا كان العلو من

الصفات المَعْلُومَةِ بِالسَّمْعِ مع الْعَقْلِ، وأما الاستواءُ عَلَى الْعَرْشِ فَمِنْ الصِّفَاتِ الْمَعْلُومَةِ بِالسَّمْعِ فَقَطْ دُونَ الْعَقْلِ». اهـ. «مجموع الفتاوى» (5/ 121 - 122).

ج- أن الله كان عاجزاً ثم ظهر - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً؛ فإن الله لا يعجزه شيء - فإن الاستيلاء لا يكون إلا عند وجود المُنَازِعِ الْمُغَالِبِ، فإذا غلب أَحَدُهُمَا خَصَمَهُ قِيلَ: استولى، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَمْ يُنَازِعْهُ فِي عَرْشِهِ أَحَدٌ.

أما استدلالُهُم بالبيتِ الْمُنْسُوبِ إِلَى الْأَخْطَلِ، فالجوابُ عليهم في ذلك من عدةِ وُجُوهِ:

الأول: أنه لم يَثْبُتْ نَقْلٌ صَحِيحٌ أَنَّهُ شِعْرٌ عَرَبِيٌّ، وكان غير واحد من أئمة اللغة أنكروه، وقالوا: إنه بيتٌ مَصْنُوعٌ لَا يُعْرَفُ فِي اللُّغَةِ، وقد عَلِمَ أَنَّهُ لَوْ احْتَجَّ بِحَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لاحتاج إلى صِحَّتِهِ، فكيف ببيتٍ مِنَ الشُّعْرِ لَا يُعْرَفُ إِسْنَادُهُ؟

وقد طعن فيه أئمةُ اللُّغَةِ.

وذكر عن الخليل كما ذكر أبو المظفر في كتابه «الإفصاح» قال: «سئل الخليل: هل وجدت في اللغة استوى بمعنى استولى؟

فقال: هذا ما لا تعرفه العرب، ولا هو جائزٌ في لُغَتِهَا، وهو إمامٌ في اللغة على ما عُرِفَ مِنْ حَالِهِ». اهـ. «مجموع الفتاوى» (5/ 146).

وقال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ كما في «مختصر الصواعق» (ص 353): «وهذا البيت ليس من شِعْرِ الْعَرَبِ؛ فإن أهل اللُّغَةِ لَمَّا سَمِعُوا ذَلِكَ أَنْكَرُوهُ غَايَةَ الْإِنْكَارِ، ولم يجعلوه مِنْ لُغَةِ الْعَرَبِ.

قال ابنُ الأَعرابي وقد سئل: هل يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ اسْتَوَى بِمَعْنَى اسْتَوْلَى؟

فقال: «لا تعرف العرب ذلك، وهذا من أكابر أئمة اللغة». اهـ. بتصرف يسير.

الثاني: أن هذا البيت مُحَرَّفٌ، وإنما هو هكذا:

بِشْرٍ قَدْ اسْتَوَلَى عَلَى الْعِرَاقِ

هكذا لو كان معروفاً من قائل معروفٍ، فكيف وهو غير معروفٍ في شيء من دواوين العرب وأشعارهم التي يُرجع إليها.

الثالث: أنه لو صَحَّ هذا البيتُ وَصَحَّ أنه غَيْرُ مُحَرَّفٍ لم يكن فيه حُجَّةٌ، بل هو حُجَّةٌ عليهم، وهو على حقيقة الاستواء؛ فَإِنْ بِشْرًا هذا كان أخا عبد الملك بن مروان، وكان أميراً على العراق، فاستوى على سريرها كما هي عادة الملوك ونوابها أن يجلسوا فوق سرير الملك مستوين عليه، وهذا هو المطابق لمعنى هذه اللفظة في اللغة، كقوله تعالى: ﴿لَتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾ [الزخرف: ١٣]، وقوله: ﴿وَأَسْتَوَى عَلَى الْجُودِيِّ﴾ [هود: ٤٤]، وقوله: ﴿فَأَسْتَوَى عَلَى سُوْقِهِ﴾ [الفتح: ٢٩]، وفي الصحيح أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان إذا استوى على بغيره خارجاً إلى سفر كَبَّرَ مُكْبِّيًاً.

وقال عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَتَيْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِدَابَّةٍ ليركبها، فلما وَضَعَ رِجْلَهُ فِي الْغَرَزِ قال: «بسم الله»، فلما استوى على ظهرها قال: «الحمد لله»، فهل نجد في هذه المواضع مَوْضِعًا واحدًا أنه بمعنى الاستيلاء والقهر؟. اهـ.

الرابع: يقال لهؤلاء الْمُعْطَلَّة: أَلَسْتُمْ تَرُدُّونَ الْأَحَادِيثَ الصَّحِيحَةَ التي ينقلها العدوُّ الضَّابِطُونَ مع اتِّصَالِ أَسَانِيدِهَا وَسَلَامَتِهَا مِنَ الشُّذُوزِ وَالْعِلَّةِ، وَلَا تُثْبِتُونَ بها العقائد؛ بِحُجَّةٍ أنها أحاديثُ آحاد، فكيف قبلتم هذا البيت المكذوب المنسوب إلى رجلٍ نصرانيٍّ وَحَرَفْتُمْ به كلامَ الله؟

الخامس: «أَنَّ الْأَخْطَلَ الَّذِي يُنسَبُ إِلَيْهِ ذَلِكَ الْبَيْتُ لَا عِبْرَةَ بِهِ، رَغْمَ كَوْنِهِ مُوَلَّدًا، فَعَقِيدَتُهُ سَيِّئَةٌ؛ لَكُونَهُ لَمْ يُسَلِّمْ، بَلْ بَقِيَ عَلَى نَصْرَانِيَّتِهِ، فَلَا يُغْتَرُّ بِكَلَامِهِ، وَهُوَ مِمَّنْ أَصَرَ وَبَقِيَ عَلَى النَّصْرَانِيَّةِ، وَيدلُّ عَلَى ذَلِكَ شِعْرُهُ، وَمِنْ شِعْرِهِ قَوْلُهُ:

وَلَسْتُ بِقَائِمٍ كَالْعِيرِ يَدْعُو قُبِيلَ الصُّبْحِ حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ
وَلَسْتُ بِصَائِمٍ رَمَضَانَ طَوْعًا وَلَسْتُ بِأَكِلٍ لَحْمِ الْأَصَاحِي
وَلَسْتُ بِسَائِقٍ عَيْسًا بَكُورًا إِلَى بَطْحَاءِ مَكَّةَ لِلنَّجَاحِ
وَلَكِنِّي سَأَشْرَبُهَا شَمُولًا وَأَسْجُدُ عِنْدَ مُنْبَلَجِ الصَّبَاحِ

أي: يَسْجُدُ لِلشَّمْسِ، فَإِنْ كَانَ بَاقِيًا عَلَى كُفْرِهِ فَكَيْفَ يُتَّخَذُ عُمْدَةً، وَيُعْتَمَدَ عَلَى شِعْرِهِ؟

ولهذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في قصيدته «اللامية»:

قُبْحًا لِمَنْ نَبَذَ الْكِتَابَ وَرَاءَهُ وَإِذَا اسْتَدَلَّ يَقُولُ: قَالَ الْأَخْطَلُ

يعني: كَيْفَ تَتَرَكُونَ هَذِهِ الْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثَ الصَّرِيحَةَ، وَتَعْتَمِدُونَ عَلَى بَيْتٍ مَنْحُولٍ تَقُولُونَ: قَالَ الْأَخْطَلُ!
وكذلك ابن القيم يقول في نونيته:

وَدَلِيلُهُمْ فِي ذَاكَ بَيِّنٌ قَالَهُ فِيمَا يُقَالُ الْأَخْطَلُ النَّصْرَانِي

اهـ. «التعليقات الزكية على الواسطية» (1/ 214).

شبهات أخرى، والجواب عنها:

* وأما الطائفة التي قالت: إن معنى ﴿ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، أي: قَصَدَ وَأَقْبَلَ عَلَى خَلْقِ الْعَرْشِ.

فقد سبق أن الاستواء المُعَدَّى به (على) مَعْنَاهُ العُلُوُّ والارتفاعُ بالإجماع، فلا حاجة إلى الإعادة.

* وأما الطائفةُ التي قالت: إنَّ الاستواءَ مُجْمَلٌ في مجازاته، يحتمل خمسة عشر وجهًا كلها لا يُعْلَمُ أيها المراد؟ إلا أننا نَعْلَمُ انتفاء الحقيقة عنه بالعقل:

فقد أجاب عن هذه الشبهة العلامة ابن القيم كما في «مختصر الصواعق» (ص 367) قائلًا: «يقال له: كلا - والذي استوى على العرش - لا يحتمل هذا اللفظ: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ معنيين البتة، والمدعي الاحتمال عليه يبان الدليل؛ إذ الأصل عدم الاشتراك والمجاز، ولم يذكر على دَعَوَاهُ دليلًا، ولا بين الوجوه المحتملة، حتى يصحَّ قوله: فأيتها تريدون؟ وأيتها تعنون؟ وكان ينبغي له أن يُبين كل احتمال، ويذكر الدليل على ثبوته، ثم يطالب حزب الله ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بتعيين أحد الاحتمالات، وإلا فهم يقولون: لا نُسَلِّمُ احتمالَه لغير معنى واحد؛ فإن الأصل في الكلام الأفراد والحقيقة دون الاشتراك والمجاز، فهم في منعمهم أولى بالصواب منك في تعدد الاحتمال، فدعواك أن هذا اللفظ يحتمل خمسة عشر معنى دعوى مجردة، ليست معلومة بضرورة ولا نص ولا إجماع.

يُوضِّحُه: أن يقال: الاحتمالات التي ادَّعَيْتَهَا تَتَطَرَّقُ إلى لفظ الاستواء وحده المجرد عن اتصاله بأداة، أم إلى المقترن بواو المصاحبة، أم إلى المقترن بإلى، أم إلى المقترن بعلى، أم إلى كل واحد من ذلك؟

فأين موادُّ الاحتمال، حتى يُعْلَمَ هل هي صحيحة أم باطلة، فلا يمكنك أن تدَّعي ذلك في موضع مُعَيَّن من هذه المواضع، ودعواك بُهْتٌ صَرِيحٌ، وغاية ما تَقْدِرُ عَلَيْهِ أَنَّكَ تَدَّعِي مَجْمُوعَ الاحتمالات في مجموع المواضع، بحيث يكون

كُلُّ موضع له معنًى، فأى شيء ينفعك هذا في الموضع المعين»، إلى أن قال: «والمقصود: أن استواء الرب على عرشه المختص به الموصول بأداة (على) نص في معناه، لا يحتمل سواه». اهـ، باختصار، وانظر «مختصر الصواعق» أيضاً (ص 27).



«وقوله: ﴿يَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قُلُوبَكَ وَرَافِعَكَ إِلَيْنَا﴾ [آل عمران: ٥٥]، وقال: ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْنَا﴾ [النساء: ١٥٨]، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]، ﴿يَهْمَنُ ابْنُ لِي صَرَحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ﴾ (٣٦) ﴿أَسْبَبَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كُذِّبًا﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧]، ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ مَنِ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْمُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ﴾ [الملك: ١٦، ١٧]».

أورد شيخ الإسلام رحمه الله هذه النصوص؛ لإثبات علو الله سبحانه على خلقه.

وقد اتفق المسلمون جميعاً على إثبات علو القدر والقهر لله تعالى، وأما علو الذات فقد أثبتته أهل السنة سلفاً وخلفاً، وخالفهم أهل البدع والأهواء قديماً وحديثاً.

ويلزم من أثبت علو القدر والقهر أن يثبت علو الذات، فقد قال العلامة ابن القيم رحمه الله كما في «مختصر الصواعق» (ص 198): «الجهمية المعطلة معترفون بوصفه تعالى بعلو القهر وعلو القدر، وأن ذلك كمال لا نقص، وأنه من لوازم ذاته، فيقال: ما أثبتتم به هذين النوعين من العلو والفوقية هو بعينه حجة خصوصكم عليكم في إثبات علو الذات له سبحانه، وما نفيتم به علو الذات يلزمكم أن تنفوا به دينك الوجهين من العلو، فأحد الأمرين لازم لكم، ولا بد إما أن تثبتوا له سبحانه العلو المطلق من كل وجه ذاتاً وقهراً وقدرًا، وإما أن تنفوا ذلك كله». اهـ.

وقد اختلف الناس في هذا الباب على أربعة أقوال:

«فالسلف والأئمة يقولون: إن الله فوق سماواته مستوٍ على عرشه بائن من خلقه، كما دلَّ على ذلك الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة، وكما علِمَ المُبَايَنَةُ والعُلُوُّ بالمعقول الصَّريح الموافق للمنقول الصَّحيح، وكما فطر الله على ذلك خَلْقَهُ مِنْ إِفْرَارِهِمْ بِهِ وَقَصْدِهِمْ إِيَّاهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

والقول الثاني: قول مُعْطَلَةِ الْجَهْمِيَّةِ ونُفَاتِهِمْ، وهم الذين يقولون: لا هو دَاخِلُ الْعَالَمِ وَلَا خَارِجُهُ وَلَا مُبَايِنٌ لَهُ، وَلَا مُحَايِثٌ لَهُ، فَيَنْفَعُونَ الْوَصْفَيْنِ الْمُتَقَابِلَيْنِ اللَّذَيْنِ لَا يَخْلُو مَوْجُودٌ عَنْ أَحَدِهِمَا، كما يقول ذلك أكثر المعتزلة وَمَنْ وافقهم مِنْ غَيْرِهِمْ.

والقول الثالث: قول حُلُولِيَّةِ الْجَهْمِيَّةِ الذين يقولون: إنه بذاته في كل مكان، كما يقول ذلك النجارية - أتباع حسين النجار - وغيرهم من الجهميَّة، وهؤلاء القائلون بالحلول والاتحاد: مِنْ جِنْسٍ هَؤُلَاءِ؛ فَإِنَّ الْحُلُولَ أَغْلَبُ عَلَى عِبَادِ الْجَهْمِيَّةِ وَصُوفِيَّتِهِمْ وَعَامَّتِهِمْ، وَالنَّفْيُ وَالتَّعْطِيلُ أَغْلَبُ عَلَى نُظَارِهِمْ وَمُتَكَلِّمِيهِمْ، كما قيل: مُتَكَلِّمَةُ الْجَهْمِيَّةِ لَا يَعْبُدُونَ شَيْئًا وَمتصوِّفة الجهمية يعبدون كُلَّ شَيْءٍ.

والقول الرابع:

قول مَنْ يقول: إن الله بذاته فوق العالم، وهو بذاته في كل مكان، وهذا قول طوائفٍ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ وَالتَّصَوُّفِ، كَأَبِي مُعَاذٍ وَأَمْثَالِهِ، وَقَدْ ذَكَرَ الْأَشْعَرِيُّ فِي «المقالات» هذا عن طوائف، ويوجد في كلام السَّالِمِيَّةِ - كَأَبِي طَالِبٍ وَأَتْبَاعِهِ - كَأَبِي الْحَكَمِ بْنِ بَرَّجَانَ وَأَمْثَالِهِ مَا يَشِيرُ إِلَى نَحْوِ هَذَا، كما يوجد في كلامهم ما يُنَاقِضُ هَذَا». اهـ. «مجموع فتاوى ابن تيمية» (2/ 297 - 299).

فائدة في الفرق بين الاستواء والعلو:

1- العُلُوُّ مِنَ الصِّفَاتِ المَعْلُومَةِ بِالسَّمْعِ مَعَ الْعَقْلِ، وَأَمَّا الْإِسْتِوَاءُ فَمِنَ الصِّفَاتِ المَعْلُومَةِ بِالسَّمْعِ دُونَ الْعَقْلِ. انظر «مجموع الفتاوى» (49/3)، (122/5، 152، 227).

2- أَنَّ الْعُلُوَّ صِفَةٌ ذَاتِيَّةٌ، وَالْإِسْتِوَاءُ صِفَةٌ فَعْلِيَّةٌ.

الأدلة على عُلُوِّ اللَّهِ تَعَالَى بِذَاتِهِ عَلَى خَلْقِهِ:

دَلَّ عَلَى ذَلِكَ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ الْمُتَوَاتِرَةُ وَالْإِجْمَاعُ وَالْفِطْرَةُ وَالْعَقْلُ. وسأذكر كلام العلماء على هذه الأدلة إجمالاً، ثم أذكرها مُفَصَّلَةً - إن شاء الله تعالى.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ كَمَا فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى» (297/2): «فَالسَّلَفُ وَالْأَئِمَّةُ يَقُولُونَ: إِنَّ اللَّهَ فَوْقَ سَمَاوَاتِهِ مُسْتَوٍ عَلَى عَرْشِهِ بَائِنٌ مِنْ خَلْقِهِ، كَمَا دَلَّ عَلَى ذَلِكَ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَإِجْمَاعُ سَلَفِ الْأُمَّةِ، وَكَمَا عَلِمَ الْمُبَآيَنَةُ وَالْعُلُوُّ بِالْمَعْقُولِ الصَّرِيحِ الْمَوْافِقِ لِلْمَنْقُولِ الصَّحِيحِ، وَكَمَا فَطَرَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ خَلْقَهُ». اهـ.

وَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ كَمَا فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى» (125/5): «فَكَلَّ مَنْ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ بِذَاتِهِ فِي كُلِّ مَكَانٍ فَهُوَ مُخَالَفٌ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَإِجْمَاعِ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتَيْهَا، مَعَ مُخَالَفَتِهِ لِمَا فَطَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ عِبَادَهُ، وَلِصَّرِيحِ الْمَعْقُولِ، وَلِلْأَدْلَةِ الْكَثِيرَةِ». اهـ.

وَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ (164/5): «إِنَّ الْقُرْآنَ وَالسُّنَنَ الْمُسْتَفِيضَةَ الْمُتَوَاتِرَةَ وَغَيْرَ الْمُتَوَاتِرَةِ وَكَلَامَ السَّابِقِينَ وَالتَّابِعِينَ وَسَائِرِ الْقُرُونِ الثَّلَاثَةِ مَمْلُوءٌ بِمَا فِيهِ إِثْبَاتُ الْعُلُوِّ لِلَّهِ تَعَالَى عَلَى عَرْشِهِ بِأَنْوَاعِ الدَّلَالَاتِ وَوُجُوهِ الصِّفَاتِ، وَأَصْنَافٍ مِنْ

العِبَارَاتِ». اهـ.

وقال رَحِمَهُ اللهُ (5/ 177): «ومعلومٌ أنَّ في الكتاب والسنة من إثبات العُلُوِّ والصفاتِ أعظمُ مما فيهما من إثباتِ الوضوءِ والتَّيَمُّمِ والصَّيَامِ، وتَحْرِيمِ ذَوَاتِ المَحَارِمِ وَخُبْثِ المَطَاعِمِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الشَّرَائِعِ». اهـ.

وإليك الآن ما سبق بشيء من التفصيل:

أمَّا دلالة الكتاب العزيز على عُلُوِّ الله تعالى بذاته، فقد تَنَوَّعَتْ وَكُثُرَتْ، حتَّى قال بعضُ أكابرِ أصحاب الشافعي كما في «مجموع فتاوى ابن تيمية» (5/ 121): «في القرآن ألفُ دَلِيلٍ أو أزيد على أنَّ الله تعالى عالٍ على الخلق، وأنه فوق عباده». اهـ.

وقال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ كما في «مختصر الصواعق» (ص 59): «... حتَّى قيل: إن الآيات والأخبار الدَّالَّةَ على عُلُوِّ الرَّبِّ على خلقه واستوائه على عرشه تقاربُ الألف، وقد أجمعت عليها الرسلُ من أولهم إلى آخرهم». اهـ.

«وقد تَنَوَّعَتْ دلالة القرآن على عُلُوِّ الله على وجوه كثيرة، منها:

1- التَّصْرِيحُ بِالفَوْقِيَّةِ مَقْرُونَةً بِأداةِ «مِنْ» المُعَيَّنَةِ لِفَوْقِيَّةِ الذَّاتِ، نحو ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠].

2- التَّصْرِيحُ بِالفَوْقِيَّةِ مُجَرَّدَةً عَنِ الأداة، كقوله: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٨].

3- التَّصْرِيحُ بِاستوائه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على عَرْشِهِ في سبعة مواضع في القرآن.

4- التَّصْرِيحُ بِالْعُرُوجِ إِلَيْهِ؛ نحو ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: 4].

5- التصريح بالصُّعود إليه؛ كقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠].

6- التصريح برفعه بعض المخلوقات إليه؛ كقوله: ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٨]، وقوله: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥].

7- التصريح بالعلو المطلق الدال على جميع مراتب العلو، ذاتاً وقدرًا وشرفاً، كقوله: ﴿وَهُوَ أَلْعَلُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ﴿وَهُوَ أَلْعَلُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]، ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ﴾ [الشورى: ٥١].

8- التصريح بتنزيل الكتاب منه، كقوله: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الزمر: ١]، ﴿تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ﴾ [النحل: ١٠٢]، وهذا يدل على شيئين:

الأول: على أن القرآن ظهر منه لا من غيره، وأنه الذي تكلم به، لا غيره.
الثاني: على علوه على خلقه، وأن كلامه نزل به الروح الأمين من عنده من أعلى مكان إلى رسوله.

9- التصريح باختصاص بعض المخلوقات بأنها عنده، وأن بعضها أقرب إليه من بعض، كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦]، وقوله: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩]، ففرق بين من له عموماً، ومن عنده من ممالিকে وعبيده خصوصاً.

10- التصريح بأنه سبحانه في السماء، وهذا عند أهل السنة على أحد

وجهين:

إما أن تكون «في» بمعنى «على».

وإما أن يراد بالسَّماء العلو، لا يختلفون في ذلك، ولا يجوز حمل النَّصِّ على غيره.

11- التَّصريح بالاستواء مقرونًا بأداة «على» مختصًا بالعرش، الذي هو أعلى المخلوقات، مصاحبًا في الأكثر لأداة «ثم» الدَّالة على الترتيب والمهلة، وهو بهذا السِّياق صريحٌ في معناه الذي لا يفهم المخاطبون غيره من العلوِّ والارتفاع، ولا يحتمل غيره البتَّة.

12- إخباره سبحانه عن فرعون أنه رَامَ الصُّعُودَ إِلَى السَّمَاءِ؛ لِيُطْلَعَ إِلَى إِلَه مُوسَى، فيُكذِّبه فيما أخبر به من أنه فوق السماوات؛ فقال: ﴿يَكْهَنُونَ ابْنٌ لِي صَرَحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ﴾ (٣٦) ﴿أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ﴾ [غافر: ٣٦-٣٧]، فكذَّب فرعون موسى في إخباره إياه بأن ربه فوق السماء، وعند الجهميَّة لا فرق بين الإخبار بذلك، وبين الإخبار بأنه يأكل ويشرب، وعلى زعمهم يكون فرعون قد نَزَّهَ الرَّبَّ عَمَّا لا يليق به، وكذب موسى في إخباره بذلك.

إِذْ مَنْ قَالَ عِنْدَهُمْ: إِنَّ رَبَّهُ فَوْقَ السَّمَاوَاتِ فَهُوَ كَاذِبٌ، فَهَمَّ فِي هَذَا التَّكْذِيبِ مُوَافِقُونَ لِفِرْعَوْنَ مُخَالَفُونَ لِمُوسَى، وَلِجَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ؛ وَلِذَلِكَ سَمَّاهُمْ أُمَّةَ السُّنَّةِ فِرْعَوْنِيَّةً، قَالُوا: وَهَمَّ شَرٌّ مِنَ الْجَهْمِيَّةِ؛ فَإِنَّ الْجَهْمِيَّةَ يَقُولُونَ: إِنَّ اللَّهَ فِي كُلِّ مَكَانٍ بِذَاتِهِ، وَهُؤُلَاءِ عَطَّلُوهُ بِالْكَلِيَّةِ، وَأَوْقَعُوا عَلَيْهِ الْوَصْفَ الْمُنَاطِقَ لِلْعَدَمِ الْمُحَضِّ.

فَأَيُّ طَائِفَةٍ مِنْ طَوَائِفِ بَنِي آدَمَ أَثْبَتَ الصَّانِعَ عَلَى أَيِّ وَجْهِ كَانَ قَوْلُهُمْ خَيْرًا مِنْ قَوْلِهِمْ. اهـ. «إعلام الموقعين» (2/ 314-317).

وانظر في هذا «مجموع الفتاوى» (5/ 121، 164-166)، «التوحيد» لابن خزيمة (1/ 255-256)، «التمهيد» لابن عبد البر (7/ 129-131)،

و«الاستذكار» (8/ 149 - 152).

أما دلالة السُّنَّة على ذلك، فإنها - كما قال شيخ الإسلام - قد استفاضت وتواترت كما سبق.

وقال أيضًا كما في (5/ 166) من «مجموع الفتاوى»: «وأما الأحاديث والآثار عن الصحابة والتابعين فلا يُحصيها إلا الله تعالى». اهـ.

فقد دلت السُّنَّة على علوِّ الله بدلالاتها الثلاث: القولية، والفعلية، والتقريرية. أما السُّنَّة القولية فمنها:

1- ما في الصحيحين عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في حديث الخَوَارِجِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «أَلَا تَأْمَنُونِي، وَأَنَا أَمِينٌ مِّنْ فِي السَّمَاءِ؟!». اهـ.

2- ما رواه مُسْلِمٌ من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا...»، إِلَى أَنْ قَالَ: «ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ: يَا رَبِّ، يَا رَبِّ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟». اهـ.

3- ما رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ فِي النَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ وَصَلَاةِ الْعَصْرِ، ثُمَّ يُعْرَجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمُ اللَّهُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ وَآتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ». اهـ.

وأما أدلة السُّنَّة الفعلية فمنها:

1- ما رواه مسلم من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في حديث حَجَّةِ الْوَدَاعِ، وفيه:

أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطَبَ النَّاسَ، فقال: «إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمِي مَوْضُوعٌ، ودِمَاءُ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ، وَأَوَّلُ دَمٍ أَضَعُ مِنْ دِمَائِنَا دَمُ ابْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ، وَرَبَا الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ، وَأَوَّلُ رَبَا أَضَعُ رَبَانَا رَبَا عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ، فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ، فاتقوا الله في النساء؛ فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانِ اللَّهِ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ، لَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لَا يَوطِئَنَّ فُرْشَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُونَهُ، فَإِنْ فَعَلْنَ فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبْرِحٍ، وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنْ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ: كِتَابَ اللَّهِ، وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟ قالوا: نشهد أنك قد بَلَغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ، فقال بِأَصْبَعِهِ السَّبَابَةَ يَرْفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ، وَيَنْكُتُهَا إِلَى النَّاسِ: اللَّهُمَّ اشْهَدْ، اللَّهُمَّ اشْهَدْ».

قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «إِعْلَامِ الْمُوقَعِينَ» (2 / 316) مُعَلِّقًا عَلَى هَذَا الْحَدِيثِ: «لِيَشْهَدَ الْجَمِيعُ أَنَّ الرَّبَّ الَّذِي أَرْسَلَهُ وَدَعَا إِلَيْهِ وَاسْتَشْهَدَهُ هُوَ الَّذِي فَوْقَ سَمَاوَاتِهِ عَلَى عَرْشِهِ». اهـ.

2- ما فِي الصَّحِيحِينَ فِي رَفْعِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ قَائِلًا: «اللَّهُمَّ اسْقِنَا». وَهَكَذَا رَفَعَهُ يَدَيْهِ فِي الْإِسْتِسْقَاءِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وَمِنْ أَدْلَةِ السُّنَّةِ التَّقْرِيرِيَّةِ وَأَشْهَرُهَا:

مَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كَانَتْ لِي جَارِيَةٌ تَرَعَى غَنَمًا قَبْلَ أَحَدٍ وَالْجَوَانِيَّةِ، فَاطْلَعْتُ ذَاتَ يَوْمٍ فَإِذَا بِالذِّئْبِ قَدْ ذَهَبَ بِشَاةٍ مِنْ غَنَمِهَا، وَأَنَا رَجُلٌ مِنْ بَنِي آدَمَ، آسَفُ كَمَا يَأْسِفُونَ لَكِنِّي صَكَّكْتُهَا، فَاتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَعِظَمَ ذَلِكَ عَلَيَّ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا أَعْتَقُهَا؟ قَالَ: «إِنِّي

بها»، فأتيته بها، فقال لها: «أين الله؟». قالت: في السماء، قال: «ومن أنا؟». قالت: رسول الله، قال: «أعتقها؛ فإنها مؤمنة».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ كَمَا فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى» (4 / 61 - 62): «الْإِقْرَارُ بِعُلُوِّ اللَّهِ عَلَى الْخَلْقِ أَمْرٌ فَطَرِيٌّ ضَرُورِيٌّ، نَجَدُهُ فِي قُلُوبِنَا نَحْنُ وَجَمِيعٌ مَنِ يَدْعُو اللَّهَ، فَكَيْفَ نَدْفَعُ هَذِهِ الضَّرُورَةَ عَنْ قُلُوبِنَا؟ وَالْجَارِيَةُ الَّتِي قَالَ لَهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَيْنَ اللَّهُ؟» قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ، قَالَ: أَعْتَقَهَا؛ فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ». جَارِيَةٌ أَعْجَمِيَّةٌ، أَرَأَيْتَ مَنْ فَقَّهَهَا وَأَخْبَرَهَا بِمَا ذَكَرْتَهُ؟ وَإِنَّمَا أَخْبَرَتْ عَنْ الْفِطْرَةِ الَّتِي فَطَرَهَا اللَّهُ عَلَيْهَا وَأَقَرَّهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى ذَلِكَ وَشَهِدَ لَهَا بِالْإِيمَانِ». اهـ.

وَقَالَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ فِي «إِعْلَامِ الْمَوْقِعِينَ» (2 / 316) فِي صَدَدِ ذِكْرِ الْأَدْلَةِ عَلَى عُلُوِّ اللَّهِ: «الْخَامِسُ عَشَرَ: شَهَادَتُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّتِي هِيَ أَصْدَقُ شَهَادَةٍ عِنْدَ اللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَجَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ لَمَنْ قَالَ: إِنَّ رَبَّهُ فِي السَّمَاءِ بِالْإِيمَانِ، وَشَهِدَ عَلَيْهِ أَفْرَاحُ جَهَنَّمَ بِالْكَفْرِ، وَصَرَاحُ الشَّافِعِيِّ بِأَنَّ هَذَا الَّذِي وَصَفْتُهُ مِنْ أَنَّ رَبَّهَا فِي السَّمَاءِ إِيْمَانٌ، فَقَالَ فِي كِتَابِ «الْأَمِّ» فِي بَابِ عَتَقِ الرِّقْبَةِ الْمُؤْمِنَةَ، وَذَكَرَ حَدِيثَ الْأَمَةِ السَّوْدَاءِ الَّتِي سَوَّدَتْ وَجْهَ الْجَهَنَّمِيَّةِ، وَبَيَّضَتْ وَجْهَ الْمُحَمَّدِيَّةِ، فَلَمَّا وَصَفَتْ الْإِيمَانَ قَالَ: «أَعْتَقَهَا؛ فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ».

وَهِيَ إِنَّمَا وَصَفَتْ كَوْنَ رَبِّهَا فِي السَّمَاءِ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَفُرِغَتْ بَيْنَهُمَا فِي الذِّكْرِ، فَجَعَلَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ مَجْمُوعَهُمَا هُوَ الْإِيمَانُ». اهـ.

هَذَا وَقَدْ قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ رَحِمَهُ اللهُ كَمَا فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى» (5 / 15) بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ جُمْلَةً مِنَ الْأَحَادِيثِ الدَّالَّةِ عَلَى مَا سَبَقَ: «إِلَى أَمْثَالِ ذَلِكَ مِمَّا لَا يَحْصِيهِ إِلَّا اللَّهُ، مِمَّا هُوَ مِنْ أَبْلَغِ الْمَتَوَاتِرَاتِ اللَّفْظِيَّةِ وَالْمَعْنَوِيَّةِ الَّتِي تُورِثُ

عِلْمًا يَقِينًا مِنْ أْبْلَغِ الْعُلُومِ الضَّرُورِيَةِ أَنَّ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمُبْلَغُ عَنْ اللَّهِ أَلْقَى إِلَى أُمَّتِهِ الْمَدْعُوعِينَ أَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ عَلَى الْعَرْشِ وَأَنَّهُ فَوْقَ السَّمَاءِ كَمَا فَطَرَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ جَمِيعَ الْأُمَمِ عَرَبِهِمْ وَعَجَمِهِمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ، إِلَّا مَنْ اجْتَالَتَهُ الشَّيَاطِينُ عَنْ فِطْرَتِهِ.

ثُمَّ عَنْ السَّلَفِ فِي ذَلِكَ مِنَ الْأَقْوَالِ مَا لَوْ جُمِعَ لَبَلَغَ مِثْنًا أَوْ أُلُوفًا.

ثُمَّ لَيْسَ فِي كِتَابِ اللَّهِ وَلَا فِي سُنَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا عَنْ أَحَدٍ مِنْ سَلَفِ الْأُئِمَّةِ، لَا مِنَ الصَّحَابَةِ وَلَا مِنَ التَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ وَلَا عَنْ الْأُئِمَّةِ الَّذِينَ أَدْرَكُوا زَمَنَ الْأَهْوَاءِ وَالْإِخْتِلَافِ حَرْفٌ وَاحِدٌ يَخَالِفُ ذَلِكَ لَا نَصًّا وَلَا ظَاهِرًا». اهـ.

وَأَمَّا دَلَالَةُ الْإِجْمَاعِ: فَقَدْ سَبَقَ نَقْلُهُ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ.

وَأَمَّا دَلَالَةُ الْفِطْرَةِ عَلَى عُلُوِّ اللَّهِ بِذَاتِهِ:

فَقَدْ قَالَ إِمَامُ الْأُئِمَّةِ مُحَمَّدُ بْنُ خَزِيمَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ «التَّوْحِيدُ» (1/ 254): «بَابُ ذِكْرِ الْبَيَانِ أَنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ فِي السَّمَاءِ، كَمَا أَخْبَرَنَا فِي مُحْكَمِ تَنْزِيلِهِ وَعَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَكَمَا هُوَ مَفْهُومٌ فِي فِطْرَةِ الْمُسْلِمِينَ عُلَمَائِهِمْ وَجُهَّالِهِمْ وَأَحْرَارِهِمْ وَمَمَالِكِهِمْ ذُكْرَانِهِمْ وَإِنَاثِهِمْ بِالْغَيْهِمْ وَأَطْفَالِهِمْ، كُلٌّ مِنْ دَعَا اللَّهَ جَلَّ وَعَلَا فَإِنَّهُ يَرْفَعُ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ وَيَمْدُ يَدَيْهِ إِلَى اللَّهِ إِلَى أَعْلَاهُ، لَا إِلَى أَسْفَلٍ». اهـ.

وَقَالَ الْإِمَامُ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الْتَّمْهِيدِ» (7/ 134): «وَمِنْ الْحُجَّةِ أَيْضًا فِي أَنَّهُ عَزَّوَجَلَّ عَلَى الْعَرْشِ فَوْقَ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ أَنَّ الْمُوَحِّدِينَ أَجْمَعِينَ مِنَ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ إِذَا كَرِهَهُمْ أَمَرُوا نَزَلَ بِهِمْ شِدَّةٌ رَفَعُوا وَجُوهَهُمْ إِلَى السَّمَاءِ،

يستغيثون برهم تبارك وتعالى، وهذا أشهر وأعرف عند الخاصة والعامة من أن يحتاج فيه إلى أكثر من حكايته؛ لأنه اضطرار لم يؤنبهم عليه أحد، ولا أنكره عليهم مسلم». اهـ.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ كما في «مجموع الفتاوى» (4/ 44 - 45): «وهذا موضع الحكاية المشهورة عن الشيخ العارف أبي جعفر الهمداني لأبي المعالي الجويني، لَمَّا أخذ يقول على المنبر: كان الله ولا عَرْش، فقال: يا أستاذ دَعْنَا مِنْ ذكر العرش - يعني لأن ذلك إنما جاء في السَّمْع - أَخْبِرْنَا عن هذه الضرورة التي نَجِدُهَا في قلوبنا، فإنه ما قال عارف قطُّ (يا الله) إِلَّا وَجَدَ مِنْ قَلْبِهِ ضَرُورَةً تَطْلُبُ الْعُلُوَّ، لا تَلْتَفِتُ يَمَنَةً وَلَا يَسْرَةً، فكيف ندفع هذه الضرورة عن قلوبنا؟ قال: فلطم أبو المعالي على رأسه، وقال: حَيَّرَنِي الهمدانيُّ، حَيَّرَنِي الهمدانيُّ، ونزل».

قال شيخ الإسلام - مُعَلَّقًا -: «وذلك أَنَّ نَفْسَ استوائه على العرش بعد أن خلق السماوات والأرض في ستة أيام عِلِمَ بالسَّمْع الذي جاءت به الرُّسُل، كما أخبر الله به في القرآن والتوراة.

وأما كونه عاليًا على مخلوقاته بائنًا منهم، فهذا أمرٌ معلومٌ بالفطرة الضرورية التي يشترك فيها جميع بني آدم.

وَكُلُّ مَنْ كان بالله أعرف وله أَعْبَدَ ودُعَاؤُهُ له أَكْثَرَ وَقَلْبُهُ له أَذْكَرَ كان عِلْمُهُ الضروريُّ بذلك أقوى وأكمل، فالفطرة مُكَمَّلَةٌ بالفطرة المنزلة؛ فإن الفطرة تعلم الأمر مُجْمَلًا والشرعية تُفَصِّلُهُ وتُبَيِّنُهُ وتَشْهَدُ بما لا تَسْتَقِلُّ الفطرة به، فهذا هذا، والله أعلم». اهـ.

وَأَمَّا دَلَالَةُ الْعَقْلِ عَلَى إثبات الْعُلُوِّ لله، فقد سبق ذِكْرُهَا في كلام الأئمة فيما

سبق.

وقد جَلَّاهَا العَلَّامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ فِي «القواعد المثلى» (ص 67)، فقال: «وأما العقل فقد دَلَّ على وجوب صفة الكمالِ لله تعالى، وتنزيهه عن النقص، والعُلُوَّ صفة كمالٍ، والسُّفْلُ نَقْصٌ، فوجب لله تعالى صفة العلو وتنزيهه عن ضده». اهـ.

أما الآية الأولى التي ذكرها المؤلف، وهي قوله تعالى: ﴿يَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ نَحْنُ مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيْنَا﴾.

فقد قال فيها العَلَّامة ابن عثيمين في شرحه للواسطية (ص 327 - 329): «الخطاب لعيسى ابن مريم، الذي خَلَقَهُ اللهُ مِنْ أُمِّ بَلَاءٍ؛ ولهذا يُنسبُ إلى أمه، فيقال: عيسى ابن مريم.

يقول الله: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ ذَكَرَ العلماءُ فيها ثلاثة أقوال:
القول الأول: ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾ [بمعنى: قَابِضُكَ، ومنه قولهم: تَوَفَّى حَقَّهُ، أي: قَبَضَهُ.

القول الثاني: ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾ مُنِيمُكَ؛ لِأَنَّ النَوْمَ وَفَاةٌ، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى﴾ [الأنعام: ٦٠].

القول الثالث: أنه وفاة موت: ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾ مُمِيتُكَ، ومنه قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢].

والقول بأن ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾ بمعنى مُمِيتُكَ بعيد؛ لِأَنَّ عيسى عليه السلام لم

يَمُتْ، وسينزل في آخر الزمان؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ [النساء: ١٥٩]، أي: قبل موت عيسى على أحد القولين، وذلك إذا نزل في آخر الزمان.

وقيل: قبل موت الواحد، يعني: ما من أحد من أهل الكتاب إلا إذا حضرته الوفاة آمَنَ بِعِيسَى، حتى وإن كان يهودياً، وهذا القول ضعيف.

بقي النظر في وفاة القبض ووفاة النوم؛ فنقول:

إنه يمكن أن يُجَمَعَ بينهما، فيكون قابضاً له حال نومه، أي: أن الله تعالى ألقى عليه النَّوْمَ ثم رَفَعَهُ، ولا مُنَافَاةَ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ.

قوله: ﴿وَرَأَفَعُكَ إِلَيَّ﴾ الشَّاهِدُ هُنَا، فَإِنَّ ﴿إِلَيَّ﴾ تفيد الغاية.

وقوله: ﴿وَرَأَفَعُكَ إِلَيَّ﴾ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمَرْفُوعَ إِلَيْهِ كَانَ عَالِيًّا، وهذا يدلُّ عَلَى عُلُوِّ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

فلو قال قائل: المراد (رَأَفَعُكَ مَنْزِلَةً)، كما قال تعالى: ﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [آل عمران: ٤٥].

قلنا: هذا لا يستقيم؛ لأنَّ الرَّفْعَ هُنَا عُدِّيَّ بحرفٍ يختصُّ بالرفع الذي هو الفوقية: رفع الجسد، وليس رَفْعَ الْمَنْزِلَةِ. اهـ.

ما معنى قوله تعالى: ﴿ءَأْمِنْتُمْ مِنْ فِي السَّمَاءِ﴾؟

الجواب: أن الذي عليه علماء أهل السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ سَلَفًا وَخَلَفًا أن هذه الآية على أحد وجهين:

الأول: أن تكون (في) بمعنى (على)؛ فإن حروف الجر تتناوب، ومن مَجِيءٍ (في) بمعنى (على) قوله تعالى: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ [التوبة: ٢]، أي: على الأرض، وقوله: ﴿فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ [الملك: ١٥]، أي: على مناكبها،

وقوله تعالى: ﴿وَلَا ضَلَبَتْكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: ٧١]، أي: على جذوع النخل.
 الثاني: أن السماء بمعنى العلو، فإنَّ كُلَّ ما علاك فقد سَمَاكَ، فيكون معنى الآية: أَمِنْتُمْ مَن فِي الْعُلُوِّ.

قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في مَعْرِضِ ذِكْرِ أُدْلَةٍ عَلُوِّ اللَّهِ في كتابه «إعلام الموقعين» (2/ 315): «التاسع: التصريح بأنه سبحانه في السماء، وهذا عند أهل السُّنَّةِ على أحد وجهين:

إما أن تكون في بمعنى (على)، وإما أن يراد بالسماء العلو، لا يختلفون في ذلك، ولا يجوز حمل النص على غيره». اهـ.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في «مجموع الفتاوى» (5/ 106): «ثم مَنْ تَوَهَّمَ أن كون الله في السماء بمعنى أن السَّمَاءَ تُحِيطُ به وتَحْوِيه، فهذا كاذبٌ إن نقله عن غيره، وضالٌّ إن اعتَقَدَهُ في رَبِّهِ، وما سمعنا أحداً يفهم هذا من اللفظ، ولا رأينا أحداً نقله عن واحدٍ، ولو سُئِلَ سائر المسلمين هل تفهمون من قول الله ورسوله (إن الله في السماء) أن السماء تحويه؟ لَبَادَرُ كُلِّ واحدٍ منهم إلى أن يقول: هذا شيءٌ لَعَلَّهُ لَمْ يَخْطُرْ بِبَالِنَا. اهـ.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ كما في (3/ 52) من «مجموع الفتاوى»: «وكذلك قوله: ﴿ءَامِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ إِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ [الملك: ١٦]، مَنْ تَوَهَّمَ أن مقتضى هذه الآية أن يكون الله في داخل السموات فهو جاهلٌ ضالٌّ بالاتفاق، وإن كنا إذا قلنا: إن الشمس والقمر في السماء يقتضي ذلك؛ فإن حرف (في) مُتَعَلِّقٌ بما قبله وبما بعده، فهو بحسب المضاف إليه.

ولهذا يُفَرَّقُ بين كون الشيء في المكان، وكون الجسم في الحيز، وكون العَرَضِ في الجسم، وكون الوجه في المرأة، وكون الكلام في الورق؛ فإن لكل نوع من هذه الأنواع خاصةً يتميز بها عن غيره، وإن كان حرف (في) مستعملاً في

ذلك». اهـ.

وانظر «التمهيد» لابن عبد البر (7/ 130)، و«مجموع الفتاوى» (5/ 258).



«وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤]، ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَىٰ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧]، وقوله: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّا اللَّهُ مَعْنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]، ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]، ﴿وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]، ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

أراد شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ بإيراد هذه الآيات إثبات مَعِيَّةِ اللَّهِ لعباده، وهذا من أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة.

ومناسبة ذكر نصوص المَعِيَّة بعد إيراد النصوص الدالة على إثبات علو الله على خلقه واستوائه على عرشه الذي يعتبر من أعظم الأصول التي باين بها أهل السُّنَّة الجهميَّة والمعتزلة والأشاعرة؛ لئلا يظنَّ ظانُّ أن هناك تناقضاً بين هذه النصوص وتلك.

فقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في «مجموع الفتاوى» (3 / 143): «وما ذَكَرَ في الكتاب والسنة مِنْ قُرْبِهِ وَمَعِيَّتِهِ لَا يَنَافِي مَا ذَكَرَ مِنْ عُلُوِّهِ وَفَوْقِيَّتِهِ؛ فإنه سبحانه ليس كمثله شيء في جميع نعوته، وهو عَلِيٌّ في دُنُوِّهِ، قَرِيبٌ في عُلُوِّهِ». اهـ.

وقال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ كما في «مختصر الصواعق» (ص 457):
«فَعُلُوهُ لَا يَنَاقِضُ مَعِيَّتَهُ، وَمَعِيَّتُهُ لَا تُبْطِلُ عُلوَّهُ، بَلْ كِلَاهُمَا حَقٌّ». اهـ.

وقد ذكر العلماء عِدَّةَ مَبَاحِثَ فِي مَعِيَةِ اللَّهِ لِخَلْقِهِ، أَذْكَرُ أَهَمَّهَا:

المبحث الأول: في أدلة ثبوتها.

مَعِيَّةُ اللَّهِ تَعَالَى لِعِبَادِهِ ثَابِتَةٌ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْإِجْمَاعِ.

قال شيخ الإسلام في هذه «العقيدة الواسطية» كما سيأتي ما نُصِّبُهُ: «وقد دخل فيما ذكرناه من الإيمان بالله الإيمان بما أخبر الله به في كتابه، وتواتر عن رسوله، وأجمع عليه سلف الأمة من أنه سبحانه فوق سماواته على عَرْشِهِ، عَلِيٌّ عَلَى خَلْقِهِ، وَهُوَ سَبْحَانَهُ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا، يَعْلَمُ مَا هُمْ عَامِلُونَ». اهـ.

المبحث الثاني: في أقسامها.

قَسَمَ العلماء ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم رحمهما الله مَعِيَّةَ اللَّهِ لِعِبَادِهِ إِلَى قِسْمَيْنِ: عَامَّةٍ وَخَاصَّةٍ:

قال شيخ الإسلام كما في «مجموع الفتاوى» (5 / 122): «وَالْمَعِيَّةُ مَعِيَّتَانِ: عَامَّةٌ وَخَاصَّةٌ، فَالْأُولَى: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، وَالثَّانِيَّةُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ». اهـ.

وقال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ كما في «مختصر الصواعق» (ص 456):
«فَمَعِيَّةُ اللَّهِ تَعَالَى مَعَ عَبْدِهِ نَوْعَانِ: عَامَّةٌ وَخَاصَّةٌ». اهـ.

وانظر أيضًا «مدارج السالكين» (2 / 159)، و«تفسير ابن كثير» (2 / 782)
آخر سورة النحل.

وقال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ فِي شرحه للواسطية (ص 340-341):
«مَعِيَّةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ تَنْقَسِمُ إِلَى قَسْمَيْنِ: عَامَّةٌ وَخَاصَّةٌ، وَالْخَاصَّةُ تَنْقَسِمُ إِلَى قَسْمَيْنِ:
مُقَيَّدَةٌ بِشَخْصٍ، وَمُقَيَّدَةٌ بِوَصْفٍ.

أَمَّا الْعَامَّةُ فَهِيَ الَّتِي تَشْمَلُ كُلَّ أَحَدٍ مِنْ مُؤْمِنٍ وَكَافِرٍ وَبَرٍّ وَفَاجِرٍ، وَدَلِيلُهَا:
قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤].

أَمَّا الْخَاصَّةُ الْمُقَيَّدَةُ بِوَصْفٍ؛ فَمِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا
وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

وَأَمَّا الْخَاصَّةُ الْمُقَيَّدَةُ بِشَخْصٍ مُعَيَّنٍ، فَمِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى - عَنْ نَبِيِّهِ -: ﴿إِذْ
يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنِّي أَنَا اللَّهُ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، وَقَالَ - لِمُوسَى
وَهَارُونَ -: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦]، وَهَذِهِ أَخَصُّ مِنَ الْمُقَيَّدَةِ
بِوَصْفٍ.

فَالْمَعِيَّةُ دَرَجَاتٌ: عَامَّةٌ مُطْلَقَةٌ، وَخَاصَّةٌ مُقَيَّدَةٌ بِوَصْفٍ، وَخَاصَّةٌ مُقَيَّدَةٌ
بِشَخْصٍ.

فَأَخَصُّ أَنْوَاعِ الْمَعِيَّةِ مَا قُيِّدَ بِشَخْصٍ، ثُمَّ مَا قُيِّدَ بِوَصْفٍ، ثُمَّ مَا كَانَ عَامًّا.
فَالْمَعِيَّةُ الْعَامَّةُ تَسْتَلْزِمُ الْإِحَاطَةَ بِالْخَلْقِ عِلْمًا وَقُدْرَةً وَسَمْعًا وَبَصَرًا وَسُلْطَانًا
وغير ذلك من معاني ربوبيته، والمعية الخاصة بنوعيتها تستلزم مع ذلك النصر
والتأييد». اهـ.

وقال سماحة العلامة ابن باز رَحِمَهُ اللهُ فِي تعليقه على التنبيهات اللطيفة
للسعدي (ص 45): «الْمَعِيَّةُ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ اللهِ، وَهِيَ قَسَمَانِ:

مَعِيَّةٌ خَاصَّةٌ لَا يَعْلَمُ كَيْفِيَّتَهَا إِلَّا اللهُ، كَسَائِرِ صِفَاتِهِ، وَتَتَضَمَّنُ الْإِحَاطَةَ

وَالنُّصْرَةَ وَالتَّوْفِيقَ وَالْحِمَايَةَ مِنَ الْمَهَالِكِ.

وَمَعِيَّةٌ عَامَّةٌ: تَتَضَمَّنُ عِلْمَ الرَّبِّ بِأَحْوَالِ عِبَادِهِ وَاطِّلاَعَهُ عَلَى جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ وَتَصَرُّفَاتِهِمْ الظَّاهِرَةَ وَالْبَاطِنَةَ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْهَا الْاِخْتِلَاطُ وَالْاِمْتِزَاجُ؛ لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا يُقَاسُ بِخَلْقِهِ، فَعَلُوهُ عَلَى خَلْقِهِ لَا يُنَافِي مَعِيَّتَهُ لِعِبَادِهِ، بِخِلَافِ الْمَخْلُوقِ؛ فَإِنَّ وُجُودَهُ فِي مَكَانٍ وَجِهَةٍ يَلْزَمُ مِنْهُ عَدَمُ اطِّلاَعِهِ عَلَى الْمَكَانِ الْآخَرِ وَالْجِهَةِ الْآخَرَى، وَالرَّبُّ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ؛ لِكَمَالِ عِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ. اهـ.

* كَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ نَعْرِفَ أَنَّ الْمَرَادَ الْمَعِيَّةُ الْعَامَّةُ أَوْ الْخَاصَّةُ؟

قَالَ الْعَلَامَةُ السَّعْدِيُّ فِي «التَّنْبِيهَاتِ لِلطَّيْفَةِ» (ص 46): «وَإِذَا أُرِدَتْ أَنْ تَعْرِفَ: هَلِ الْمَرَادُ الْمَعِيَّةُ الْعَامَّةُ أَوْ الْخَاصَّةُ، فَانْظُرْ إِلَى سِيَاقِ الْآيَاتِ، فَإِنْ كَانَ الْمَقَامُ مَقَامَ تَخْوِيفٍ وَمَحَاسِبَةٍ عَلَى أَعْمَالِهِمْ وَحَثٍّ عَلَى الْمَرَاقَبَةِ، فَإِنَّ الْمَعِيَّةَ عَامَّةٌ، مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى﴾، الْآيَةُ [المجادلة: 7].

وَإِنْ كَانَ الْمَقَامُ مَقَامَ لُطْفٍ وَعَنَایَةٍ مِنَ اللَّهِ بِأَنْبِيَائِهِ وَأَصْفِيَائِهِ، وَقَدْ رَتَّبَ الْمَعِيَّةَ عَلَى الْاِتِّصَافِ بِالْأَوْصَافِ الْحَمِيدَةِ؛ فَإِنَّ الْمَعِيَّةَ مَعِيَّةٌ خَاصَّةٌ، وَهُوَ أَغْلَبُ إِطْلَاقِهَا فِي الْقُرْآنِ، مِثْلُ: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: 36]، ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأنفال: 46]، ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّا اللَّهُ مَعَنَا﴾ [التوبة: 40]، وَنَحْوِهَا. اهـ.

الْمَبْحَثُ الثَّلَاثُ: أَنَّهَا مَعِيَّةٌ حَقِيقِيَّةٌ كَسَائِرِ صِفَاتِ اللَّهِ عَلَى الْوَجْهِ اللَّائِقِ بِعَظَمَتِهِ وَكَمَالِهِ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11].

قَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ كَمَا فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى» لابْنِ تَيْمِيَّةٍ رَحِمَهُ اللَّهُ (5/ 87): «أَهْلُ السُّنَّةِ مُجْمِعُونَ عَلَى الْإِقْرَارِ بِالصِّفَاتِ الْوَارِدَةِ كُلِّهَا فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ

والإيمان بها، وَحَمَلَهَا عَلَى الْحَقِيقَةِ، لَا عَلَى الْمَجَازِ، إِلَّا أَنَّهُمْ لَا يُكَيِّفُونَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، وَلَا يَحُدُّونَ فِيهِ صِفَةً مَحْصُورَةً. اهـ.

وسياتي مزيدُ بيان لهذا عند كلام شيخ الإسلام على هذا بعد عِدَّةِ فُصُولٍ - إن شاء الله.

المبحث الرابع: هل المَعِيَّةُ مِنَ الصِّفَاتِ الذَّاتِيَّةِ أَمْ مِنَ الصِّفَاتِ الْفِعْلِيَّةِ؟

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ فِي شَرْحِهِ لِلْوَاسِطِيَّةِ (ص 342 - 343): «فيه تفصيل:

أما المَعِيَّةُ الْعَامَّةُ فَهِيَ ذَاتِيَّةٌ؛ لِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ مُحِيطًا بِالْخَلْقِ عِلْمًا وَقُدْرَةً وَسُلْطَانًا، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ مَعَانِي رَبُوبِيَّتِهِ.

وأما المَعِيَّةُ الْخَاصَّةُ فَهِيَ صِفَةٌ فِعْلِيَّةٌ؛ لِأَنَّهَا تَابِعَةٌ لِمَشِيئَةِ اللَّهِ، وَكُلُّ صِفَةٍ مَقْرُونَةٍ بِسَبَبٍ هِيَ مِنَ الصِّفَاتِ الْفِعْلِيَّةِ، فَقَدْ سَبَقَ لَنَا أَنَّ الرِّضَا مِنَ الصِّفَاتِ الْفِعْلِيَّةِ؛ لِأَنَّهُ مَقْرُونٌ بِسَبَبٍ إِذَا وَجَدَ السَّبَبُ الَّذِي بِهِ يَرْضَى اللَّهُ وَجَدَ الرِّضَى، وَكَذَلِكَ الْمَعِيَّةُ الْخَاصَّةُ إِذَا وَجَدَتِ التَّقْوَى أَوْ غَيْرَهَا مِنْ أَسْبَابِهَا فِي شَخْصٍ كَانَ اللَّهُ مَعَهُ». اهـ.

المبحث الخامس: ما معنى المَعِيَّةِ؟ وهل تختلف أحكامها بِحَسَبِ اخْتِلَافِ مَوَارِدِهَا؟

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ كَمَا فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى» (5/ 103 - 105): «كَلِمَةٌ (مَعَ) فِي اللُّغَةِ إِذَا أُطْلِقَتْ فَلَيْسَ ظَاهِرُهَا فِي اللُّغَةِ إِلَّا الْمَقَارَنَةُ الْمَطْلُوقَةُ مِنْ غَيْرِ وَجوبٍ مُمَاسَّةٍ أَوْ مُحَاذَاةٍ عَنْ يَمِينٍ أَوْ شِمَالٍ، فَإِذَا قِيدَتْ بِمَعْنَى مِنَ الْمَعَانِي دَلَّتْ عَلَى الْمَقَارَنَةِ فِي ذَلِكَ الْمَعْنَى؛ فَإِنَّهُ يُقَالُ: مَا زَلْنَا نَسِيرَ وَالْقَمَرِ

معنا والنَّجْم معنا، ويقال: هذا المتاع معي؛ لِمَجَامَعَتِهِ لَكَ وَإِنْ كَانَ فَوْقَ رَأْسِكَ، فالله مع خلقه حقيقة وهو فوق عرشه حقيقة.

ثم هذه المَعِيَّةُ تَخْتَلِفُ أَحْكَامُهَا بِحَسَبِ الْمَوَارِدِ، فَلَمَّا قَالَ: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ إلى قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، دَلَّ ظَاهِرُ الْخِطَابِ عَلَى أَنَّ حُكْمَ هَذِهِ الْمَعِيَّةِ وَمُقْتَضَاهَا أَنَّهُ مُطَّلَعٌ عَلَيْكُمْ شَهِيدٌ عَلَيْكُمْ وَمُهِيمٌ عَالِمٌ بِكُمْ، وهذا معنى قول السلف: إنه معهم بعلمه، وهذا ظاهر الخطاب وحقيقته.

وكذلك في قوله: ﴿مَا يَكُوثُ مِنْ تَجَوَّى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ الآية [المجادلة: 7].

ولما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لصاحبه في الغار: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنِّي اللَّهُ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠] كان هذا - أيضًا - حقًّا على ظاهره، ودَلَّتِ الْحَالُ عَلَى أَنَّ حُكْمَ هَذِهِ الْمَعِيَّةِ هُنَا مَعِيَّةُ الْإِطْلَاعِ وَالنَّصْرِ والتأييد.

وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]، وكذلك قوله لموسى وهارون: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦]، هنا المَعِيَّةُ عَلَى ظَاهِرِهَا، وَحُكْمُهَا فِي هَذِهِ الْمَوَاطِنِ النَّصْرُ والتأييد.

وقد يدخل على صَبِيٍّ مَنْ يُخِيفُهُ، فَيَبْكِي فَيُشْرِفُ عَلَيْهِ أَبُوهُ مِنْ فَوْقِ السَّقْفِ، فيقول: لَا تَحَفْ أَنَا مَعَكَ، أَوْ أَنَا هُنَا، أَوْ أَنَا حَاضِرٌ، ونحو ذلك، يُنَبِّهُهُ عَلَى الْمَعِيَّةِ الْمَوْجِبَةِ بِحُكْمِ الْحَالِ دَفْعَ الْمَكْرُوهِ، ففَرَّقَ بَيْنَ مَعْنَى الْمَعِيَّةِ وَبَيْنَ مُقْتَضَاهَا، وربما صار مُقْتَضَاهَا مِنْ مَعْنَاهَا، فيختلف باختلاف المواضع، فلفظ المَعِيَّةُ قد اسْتُعْمِلَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فِي مَوَاضِعَ يَقْتَضِي فِي كُلِّ مَوْضِعٍ أُمُورًا لَا يَقْتَضِيهَا فِي الْمَوْضِعِ الْآخَرِ، فإِذَا أَنْ تَخْتَلَفَ دَلَالَتُهَا بِحَسَبِ الْمَوَاضِعِ، أَوْ تَدُلُّ عَلَى قَدَرٍ

مُشْتَرَكٍ بَيْنَ جَمِيعِ مَوَارِدِهَا، وَإِنْ اِمْتَاَزَ كُلُّ مَوْضِعٍ بِخَاصِّيَّةٍ، فَعَلَى التَّقْدِيرِ لَيْسَ مَقْتَضَاهَا أَنْ تَكُونَ ذَاتُ الرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ مَخْتَلِطَةً بِالْخَلْقِ، حَتَّى يُقَالَ: قَدْ صُرِفَتْ عَنْ ظَاهِرِهَا.

وَنَظِيرُ هَذَا مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ (الرُّبُوبِيَّةُ وَالْعُبُودِيَّةُ) فَإِنَّهُمَا وَإِنْ اشْتَرَكْتَا فِي أَصْلِ الرُّبُوبِيَّةِ وَالْعُبُودِيَّةِ، فَلَمَّا قَالَ: ﴿قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٣١) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿[الأعراف: ١٢١ - ١٢٢]، كَانَتْ رُبُوبِيَّةُ مُوسَى وَهَارُونَ لَهَا اخْتِصَاصٌ زَائِدٌ عَلَى الرُّبُوبِيَّةِ الْعَامَّةِ لِلْخَلْقِ، فَإِنَّ مَنْ أَعْطَاهُ اللَّهُ مِنَ الْكَمَالِ أَكْثَرَ مِمَّا أُعْطِيَ غَيْرَهُ فَقَدْ رَبَّهُ وَرَبَّاهُ رُبُوبِيَّةً وَتَرْبِيَةً أَكْمَلَ مِنْ غَيْرِهِ». اهـ.

المبحث السادس: في شبهة القائلين بأنَّ الله معنا في أمكنتنا، والردَّ عليهم: شبهتهم: يقولون هذا ظاهر اللفظ ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾؛ لِأَنَّ كُلَّ الضَّمَائِرِ تَعُودُ عَلَى اللَّهِ ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ﴾، ﴿ثُمَّ أَسْتَوَى﴾، ﴿يَعْلَمُ﴾، ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾، وَإِذَا كَانَ مَعْنَا فَنَحْنُ لَا نَفْهَمُ مِنَ الْمَعْنَى إِلَّا الْمَخَالِطَةَ وَالْمُصَاحَبَةَ فِي الْمَكَانِ. والردُّ عليهم من وجوه:

أولاً: أَنَّ ظَاهِرَهَا لَيْسَ كَمَا ذَكَرْتُمْ؛ إِذْ لَوْ كَانَ الظَّاهِرُ كَمَا ذَكَرْتُمْ، لَكَانَ فِي الْآيَةِ تَنَاقُضٌ: أَنْ يَكُونَ مَسْتَوِيًّا عَلَى الْعَرْشِ، وَهُوَ مَعَ كُلِّ إِنْسَانٍ فِي أَيِّ مَكَانٍ، وَالتَّنَاقُضُ فِي كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى مُسْتَحِيلٌ.

ثانياً: قولكم: «إِنَّ الْمَعْنَى لَا تُعْقِلُ إِلَّا مَعَ الْمَخَالِطَةِ أَوْ الْمُصَاحَبَةِ فِي الْمَكَانِ» - هَذَا مَمْنُوعٌ فَالْمَعْنَى فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ: اسْمٌ لِمُطْلَقِ الْمَصَاحَبَةِ وَهِيَ أَوْسَعُ مَدْلُولًا مِمَّا زَعَمْتُمْ فَقَدْ تَقْتَضِي الْاِخْتِلَاطَ وَقَدْ تَقْتَضِي الْمَصَاحَبَةَ فِي الْمَكَانِ وَقَدْ تَقْتَضِي مُطْلَقَ الْمَصَاحَبَةِ وَإِنْ اِخْتَلَفَ الْمَكَانُ، وَهَذِهِ ثَلَاثَةُ أَشْيَاءَ:

1- مثالُ المعية التي تقتضي المخالطة: أن يُقال: اسقوني لبنًا مع ماءٍ؛ أي: مخلوطًا بماءٍ.

2- ومثالُ المعية التي تقتضي المصاحبة في المكان: أن يُقال: وجدت فلانًا مع فلان؛ يمشيان جميعًا، وينزلان جميعًا.

3- ومثالُ المعية التي لا تقتضي الاختلاط ولا المشاركة في المكان: أن يُقال: فلانٌ مع جنوده، وإن كان هو في غرفة القيادة، لكن يوجّههم، فهذا ليس فيه اختلاطٌ ولا مشاركةٌ في مكان.

ويُقال: زوجةُ فلانٍ معه، وإن كانت هي في المشرق وهو في المغرب. فالمعيةُ إذاً كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ، وكما هو ظاهر من شواهد اللغة: مدلولُها مطلقُ المصاحبة، ثم هي بحسب ما تضاف إليه.

فإذا قيل: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ [النحل: ١٢٨]، فلا يقتضي ذلك لا اختلاطًا ولا مشاركةً في المكان، بل هي معيةٌ لائقةٌ بالله، ومقتضاها النصر والتأييد.

ثالثًا: نقول: وصفُكم الله بهذا من أبطل الباطل وأشدَّ النَّقْصِ لله عَزَّجَلَّ، والله عَزَّجَلَّ ذكر هاهنا عن نفسه متمدِّحًا؛ أنه مع علوّه على عرشه، فهو مع الخلق، وإن كانوا أسفل منه، فإذا جعلتم الله في الأرض، فهذا نقصٌ، وإذا جعلتم الله نفسه معكم في كلِّ مكانٍ، وأنتم تدخلون الكنيفَ، فهذا أعظم النَّقْصِ! ولا نستطيع أن نقوله ولا لملكٍ من ملوك الدنيا: إنك أنت في الكنيفِ؛ فكيف نقوله لله عَزَّجَلَّ؟! وهل هذا إلا أعظم النَّقْصِ، والعياذ بالله؟!

رابعًا: يلزمُ على قولكم هذا: أحد أمرين لا ثالث لهما، وكلاهما ممتنعٌ؛ إمّا

أن يكون الله متجزئاً؛ كل جزء منه في مكان، وإمّا أن يكون مُتَعَدِّداً؛ يعني: كلُّ إلهٍ في جهةٍ ضرورة لتعدد الأمكنة.

خامساً: أن نقول: قولكم هذا يستلزم أن يكون الله حالاً في الخلق، فكلُّ مكانٍ في الخلق، فالله تعالى فيه، وصار هذا سلماً لقول أهل وحدة الوجود. فأنْتَ ترى أن هذا القول باطلٌ، ومقتضى هذا القول الكفر.

ولهذا نرى أن من قال: «إنَّ الله معنا في الأرض». فهو كافرٌ يُستتابُ، ويبيّن له الحقُّ، فإن رَجَعَ وإلا وجب قتله». اهـ. «شرح الواسِطية» للعلامة ابن عُثيمين (ص 348).

المبحث السابع: في المعية، هل بينها وبين العلوّ تناقض؟

قد سبق في ثنايا بعض المباحث السابقة، أنه لا تناقض بينهما، وسيأتي مزيدٌ كلامٍ على هذا إن شاء الله في الفصل الذي خصّصه شيخ الإسلام -رحمه الله- لبيان هذا الغرض.

أمّا الآيات التي أوردها المؤلف رحمه الله:

فالأية الأولى: وهي قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ إلى قوله ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، فقد أوضح معناها شيخ الإسلام ابن تيمية نفسه في هذه العقيدة كما سيأتي، حيث قال: «وليس معنى قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ أنه مُختلط بالخلق؛ فإنَّ هذا لا توجبه اللغة وهو خلاف ما أجمع عليه سلف الأمة، وهو خلاف ما فطر الله عليه الخلق، بل القمُرُ آيةٌ من آيات الله من أصغر مخلوقاته، هو موضوعٌ في السماء، وهو مع المسافر وغير المُسافر أينما كان، وهو سبحانه فوق العرش، رقيبٌ على خلقه، مهيمٌ عليهم، مطلعٌ إليهم..

إلى غير ذلك من معاني ربوبيته.

وكل هذا الكلام الذي ذكره الله سبحانه من أنه فوق العرش، وأنه معنا حق على حقيقته لا يحتاج إلى تحريف، ولكن يُصان عن الظنون الكاذبة، مثل أن يظن أن ظاهر قوله: ﴿فِي السَّمَاءِ﴾: أن السماء تُقَلُّه أو تُظِلُّه، وهذا باطل بإجماع أهل العلم والإيمان، فإن الله قد وسع كرسيه السماوات والأرض، وهو الذي يُمسك السماوات والأرض أن تزولا، ويُمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ [الروم: ٢٥]. اهـ.

وقال شيخ الإسلام رحمه الله كما في «مجموع الفتاوى» (3/ 219): «وقال الطَّلَمَنَكِيُّ أحد أئمة المالكية - قبل ابن عبد البر والباقي وطبقتهما في كتاب «الوصول إلى معرفة الأصول»: «أجمع المسلمون من أهل السنة على أن معنى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾، ونحو ذلك من القرآن: أن ذلك علمه، وأن الله فوق السموات بذاته، مستوٍ على العرش كيف شاء». اهـ.

وأما الآية الثانية: وهي قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

قال الإمام ابن عبد البر في «التمهيد» (7/ 138 - 139): «وأما احتجاجهم بقوله عز وجل: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ﴾ الآية. فلا حجة لهم في ظاهر هذه الآية؛ لأن علماء الصحابة والتابعين الذين حملت عنهم التأويل في القرآن، قالوا في تأويل هذه الآية: «هو على العرش، وعلمه في كل مكان»، وما خالفهم في ذلك أحدٌ يحتج بقوله؛ ذكر سنيد، عن مقاتل بن حيان، عن الضحَّاك بن مزاحم في قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾... الآية. قال: «هو

على عرشه، وعلمه معهم أينما كانوا»، قال: «وبلغني عن سفيان الثوري مثله»، ثم ساق بسنده إلى ابن مسعود قال: «الله فوق العرش، لا يخفى عليه شيء من أعمالكم». اهـ.

وذكر شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ كَمَا فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى» (5/ 140): «إِنْ عَلِيَ بْنِ الْمَدِينِيِّ سَأَلَ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا يَكُوثُ مِنْ تَجَوَّى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ الْآيَةَ. قَالَ: «اقْرَأْ مَا قَبْلَهَا: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ الْآيَةَ». اهـ.

والآيتان السابقتان دليل على المعية العامة، وما بعدها من أدلة المعية الخاصة، ومنها المتعلق بشخص، ومنها المتعلق بوصف.

وَأَمَّا الْآيَةُ الثَّلَاثَةُ: وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنْ أَلَّكَ اللَّهُ مَعَنَا﴾:

قَالَ الْعَلَامَةُ ابْنُ عُثَيْمِينَ رَحِمَهُ اللهُ فِي شَرْحِهِ لِلْوَاسِطِيَةِ (ص 350-351): «الْخَطَابُ لِأَبِي بَكْرٍ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا نَنْصُرُهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنْ أَلَّكَ اللَّهُ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

أَوَّلًا: نَصَرَهُ حِينَ الْإِخْرَاجِ: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ﴾.

ثَانِيًا: وَعِنْدَ الْمُكْثِ فِي الْغَارِ: ﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾.

ثَالِثًا: عِنْدَ الشَّدَةِ؛ حِينَمَا وَقَفَ الْمُشْرِكُونَ عَلَى فَمِ الْغَارِ: ﴿إِذْ يَقُولُ

لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنْ أَلَّكَ اللَّهُ مَعَنَا﴾.

فَهَذِهِ ثَلَاثَةُ مَوَاقِعَ بَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى فِيهَا نَصَرَهُ لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَهَذَا الثَّلَاثُ حِينَ وَقَفَ الْمُشْرِكُونَ عَلَيْهِمْ، يَقُولُ أَبُو بَكْرٍ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَاللَّهِ لَوْ نَظَرَ أَحَدُهُمْ إِلَى قَدَمِهِ لَأَبْصَرَنَا»؛ يَعْنِي: إِنَّا عَلَى خَطَرٍ؛ كَقَوْلِ أَصْحَابِ مُوسَى لَمَّا وَصَلُوا إِلَى الْبَحْرِ: ﴿إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١]، فَقَالَ: ﴿كَلَّا إِنَّ

مَعِيَ رَبِّي سَيَّهَدِينَ ﴿الشعراء: ٦٢﴾، وهنا قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾. اهـ.

وأما الآية الرابعة: وهي قوله تعالى: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾؛ فقد قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره (3/ 209): «أي: لا تخافا منه؛ فَإِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ كَلَامَكُمْ، وَكَلَامَهُ، وَأَرَى مَكَانَكُمْ وَمَكَانَهُ، لَا يَخْفَى عَلَيَّ مِنْ أَمْرِكُمْ شَيْءٌ وَاعْلَمَا أَنَّ نَاصِيَتَهُ بِيَدِي، فَلَا يَتَكَلَّمُ وَلَا يَتَنَفَّسُ وَلَا يَبْطِشُ إِلَّا بِإِذْنِي، وَبَعْدَ أَمْرِي، وَأَنَا مَعَكُمْ بِحِفْظِي وَنَصْرِي وَتَأْيِيدِي». اهـ.

وأما الآية الخامسة: وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾؛ فقد قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره (2/ 782-783): «أي: معهم بتأييده ونصره ومعونته وهديه، وهذه معية خاصة كقوله: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَأَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الأنفال: ١٢]»، إلى أن قال: «ومعنى: ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾؛ أي: تركوا المحرمات ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾؛ أي: فعلوا الطاعات، فهؤلاء الله يحفظهم ويكلؤهم، وينصرهم ويؤيدهم، ويظفرهم على أعدائهم ومخالفهم». اهـ.

وأما الآية السادسة: وهي قوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾؛ فقد سبق الكلام على تعريف «الصبر» وأقسامه، وفي هذه الآية: يأمر الله عباده بالصبر، وأوجب لهم معيته الخاصة التي تتضمن حفظهم ونصرهم وتأيدهم جزاءً وفاقاً.

وأما الآية السابعة: وهي قوله تعالى: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

(كم): خبرية، تفيد التكثير؛ يعني: فئة قليلة غلبت فئة كثيرة عدة مرات، أو:

فئات قليلة متعددة غلبت فئات كثيرة متعددة، لكن لا بحولهم، ولا بقوتهم بل بإذن الله؛ أي: بإرادته وقدرته.

ومن ذلك: أصحاب طالوت؛ غلبوا عدوهم، وكانوا كثيرين، ومن ذلك: أصحاب بدر؛ غلبوا قريشاً وهم كثيرون؛ لأن الفئة القليلة صبرت: ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٦٦]؛ صبرت كل أنواع الصبر على طاعة الله، وعن معصية الله، وعلى ما أصابها من الجهد والتعب والمشقة في تحمل أعباء الجهاد: ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (1).

ثمرات الإيمان بمعية الله لعباده العامة والخاصة:

«أولاً: الإيمان بإحاطة الله عزَّ وجلَّ بكلِّ شيءٍ، وأنه مع علوه، فهو مع خلقه، لا يغيب عنه شيءٌ من أحوالهم أبداً.

ثانياً: أننا إذا علمنا ذلك وآمنَّا به، فإنَّ ذلك يوجب لنا كمال مراقبته بالقيام بطاعته وترك معصيته، بحيث لا يفقدنا حيث أمرنا ولا يجدنا حيث نهانا، وهذه ثمرة عظيمة لمن آمن بهذه المعية» (2).

ثالثاً: معرفة عظيم عناية الله بأوليائه، وذلك بحفظه لهم، ونصرهم على عدوهم، وتأييدهم وتوفيقهم.

رابعاً: التحلي بتلك الأوصاف الموجبة لمعية الله، لمن اتَّصف بها يرجو ثواب الله؛ تفضلاً منه سبحانه وإحساناً إلى عباده المؤمنين.



(1) «شرح الواسطية» للعلامة ابن عثيمين (ص 353-354) باختصار.

(2) المرجع السابق (ص 355).

«وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢]، ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْصِي أَمْرًا مَرِيمَ﴾ [المائدة: ١١٦]، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: 164]، ﴿مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، ﴿وَنَدَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢]، ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ اتَّبِعْ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠]، ﴿وَنَادَيْنَاهُمَا رَهْمًا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ﴾ [الأعراف: ٢٢]، ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥]، ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥]، ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ فُل لَّنْ تَنبِعُونَا كَذَلِكَم قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ [الفتح: 15]، ﴿وَأَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ [الكهف: ٢٧]، ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل: ٧٦]».

أورد شيخ الإسلام رحمه الله هذه النصوص القرآنية لإثبات صفة الكلام لله، وأن القرآن من كلام الله؛ قال العلامة ابن القيم رحمه الله، كما في «مختصر الصواعق» (ص 478): «وقد دلَّ القرآن وصريح السنة والمعقول، وكلام السلف على أن الله سبحانه يتكلم بمشيئته كما دلَّ على أن كلامه صفة قائمة بذاته، وهي صفة ذات وفعل، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]، وقوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ

فَيَكُونُ ﴿[يس: ٨٢]﴾ اهـ.

وقال رَحِمَهُ اللهُ كما في المصدر السابق (ص 471): «وقد نَوَّعَ اللهُ تعالى هذه الصِّفَةَ في إطلاقها عليه تنويعًا يستحيل معه نفي حقائقها، بل ليس في الصفات الإلهية أظهر من صفة الكلام والعلو والفعل والقدرة، بل حقيقة الإرسال تبليغ كلام الربِّ تبارك وتعالى، وإذا انتفت عنه حقيقة الكلام انتفت حقيقة الرسالة والنبوة، والربُّ - تبارك وتعالى - يخلق بقوله وكلامه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ، كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، فإذا انتفت عنه حقيقة الكلام انتفى الخلق.

وقد عاب الله آلهة المشركين؛ بأنها لا تُكَلِّم ولا تُكَلِّم عابديها، ولا ترجع إليهم قولاً، والجهمية وصفوا الربَّ تبارك وتعالى بصفة هذه الآلهة، وقد ضرب الله تعالى لكلامه واستمراره ودوامه المثل بالبحر يمدُّه من بعده سبعة أبحر، وأشجار الأرض كلها أقلام، فيفنى المداد والأقلام، ولا تنفذ كلماته.

أن هذا صفة مَنْ لا يتكلَّم، ولا يقوم به كلام؟!!

فإذا كان كلامه وتكليمه، وخطابه ونداؤه وقوله، وأمره ونهيه، ووصيته وعهده، وإذنه وحكمه، وإنباؤه وإخباره وشهادته؛ كلُّ ذلك مجازاً لا حقيقة له، بطلت الحقائق كلها، فإنَّ الحقائق إنما حقت بكلمات تكوينه: ﴿وَيُحَقِّقُ اللهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ٨٢]، فما حقت الحقائق إلا بقوله وفعله. اهـ.

وقول المصنِّف: «وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾».

وجه الدلالة من الآية الأولى على إثبات الكلام لله من قوله: ﴿أَصْدَقُ﴾، و﴿حَدِيثًا﴾؛ لأنَّ الصِّدْقَ يُوصَفُ به الكلام والحديث هو الكلام.

ومعنى الآية لا أحد أصدق من الله حديثًا؛ لأنَّ كلمة ﴿حَدِيثًا﴾ نكرة في سياق الاستفهام، فتفيد العموم، والاستفهام بمعنى النفي.

ووجه الدلالة من الآية الثانية على إثبات صفة الكلام لله من قوله تعالى: ﴿أَصْدَقُ﴾، و﴿قِيلًا﴾.

وقد سبق الكلام على «أصدق»، والقليل: هو القول، والقول لا يكون إلا باللفظ.

ووجه الدلالة من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾: ما قاله العلامة ابن عُثَيْمِينَ رَحِمَهُ اللَّهُ في «شرح الواسطية» (ص 356) حيث قال: «في هذا إثبات أن الله يقول، وأن قوله مسموعٌ، فيكون بصوت، وأن قوله كلماتٌ وجملٌ فيكون بحرف.

ولهذا كانت عقيدة أهل السنة والجماعة: أن الله يتكلم بكلام حقيقي متى شاء، وكيف شاء، بما شاء بحرف وصوت، لا يماثل أصوات المخلوقين.

متى شاء: باعتبار الزمن. بما شاء: باعتبار الكلام؛ ويعني: موضوع الكلام من أمرٍ أو نهي أو غير ذلك، كيف شاء: يعني الكيفية، والصفة التي يريدّها الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى.

قلنا: إنّه بصوت وحرف لا يشبه أصوات المخلوقين؛ الدليل على هذا من الآية الكريمة: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾.

هذا حرفٌ وبصوت لأن عيسى يسمع ما قال.

لا يماثل أصوات المخلوقين؛ لأن الله قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ

السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿[الشورى: ١١]﴾. اهـ.

ووجه الدلالة على إثبات صفة الكلام: من قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾؛ أن الكلمة في لغة العرب لا تطلق إلا على الجملة المفيدة وقد ذكر الله أن كلمته تمت صدقًا وعدلًا.

قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (2/ 225): «قال قتادة: صدقًا فيما قال، وعدلًا فيما حكم؛ يقول صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الطلب، فكل ما أخبر به فحق، لا مرية فيه ولا شك، وكل ما أمر به فهو العدل الذي لا عدل سواه، وكل ما نهى عنه فباطل؛ فإنه لا ينهى إلا عن مفسدة». اهـ.

ووجه الدلالة من قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾: أن الله أخبر أنه كلم موسى، ثم أكد ذلك بالمصدر: ﴿تَكْلِيمًا﴾.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله كما في «مختصر الصواعق» (ص 65): «رفع سبحانه توهم المجاز في تكليمه لكليمه بالمصدر المؤكد الذي لا يشك عربي القلب واللسان أن المراد به إثبات تلك الحقيقة، كما تقول العرب: مات موتًا، ونزل نزولًا، ونظائره». اهـ.

وقوله تعالى: ﴿مِنْهُمْ مَّنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾: أي: من الرسل من كلمه الله، وهذا دليل واضح على إثبات صفة الكلام لله.

وأما قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾: فقد قال العلامة ابن عثيمين رحمه الله في «شرح الواسطية» (ص 358): «أفادت هذه الآية أن الكلام يتعلق بمشيئته؛ وذلك لأن الكلام صار حين المجيء لا سابقًا عليه، فدل هذا على أن كلامه يتعلق بمشيئته، فيبطل به قول من قال: إن كلامه هو

المعنى القائم بالنفس، وأنه لا يتعلق بمشيئته كما تقوله الأشاعرة.

وفي هذه الآية إبطال زعم من زعم: أن موسى فقط هو الذي كلم الله، وحرّف قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾: إلى نصب الاسم الكريم؛ لأنه في هذه الآية لا يمكنه زعم ذلك ولا تحريفها. اهـ.

وأما قوله تعالى: ﴿وَنَدَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾، وقوله: ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنْ أَتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾، وقوله: ﴿وَنَادَيْنَاهُمَا رَهْمًا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ﴾، وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾.

فوجه الدلالة من هذه الآيات: إثبات النداء، ولا يكون النداء إلا بصوت.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في «منهاج السنة» (5/ 423 - 426): «وقد أخبر الله في القرآن بندائه لعباده في أكثر من عشرة مواضع، والنداء لا يكون إلا صوتاً باتفاق أهل اللغة وسائر الناس»، إلى أن قال: «فمن قال: أنه لم يزل منادياً من الأزل إلى الأبد فقد خالف القرآن والعقل، ومن قال: إنه بنفسه لم يناد ولكن خلق نداءً في شجرة أو غيرها، لزم أن تكون الشجرة هي القائلة: إني أنا الله، وليس هذا كقول الناس: نادى الأمير إذا أمر منادياً، فإن المنادي عن الأمير يقول: أمر الأمير بكذا، ورسم السلطان بكذا، لا يقول: أنا أمرتكم، ولو قال ذلك لأهانته الناس.

والمنادي قال لموسى: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ [طه: ١٤]، وقال: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [القصص: ٣].

وهذا لا يجوز أن يقوله ملك إلا إذا بلغه عن الله، كما نقرأ نحن القرآن.

والمَلَكُ إذا أمره الله بالنداء: قال كما ثبت في الصَّحِيحِينَ عن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا نَادَى جَبْرِيلُ: إِنِّي أَحَبُّ فَلَانًا فَأَحْبَهُ، ثُمَّ يَنَادِي جَبْرِيلُ فِي السَّمَاءِ: إِنْ اللَّهُ يَحِبُّ فَلَانًا فَأَحْبُوهُ، فَجَبْرِيلُ إِذَا نَادَى فِي السَّمَاءِ قَالَ: إِنْ اللَّهُ يَحِبُّ فَلَانًا فَأَحْبُوهُ، وَاللَّهُ إِذَا نَادَى جَبْرِيلُ يَقُولُ: يَا جَبْرِيلُ، إِنِّي أَحَبُّ فَلَانًا».

ولهذا لَمَّا نَادَتْ الْمَلَائِكَةُ زَكَرِيَّا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى﴾ [آل عمران: ٣٩]، وَقَالَ: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢].

ولا يجوز قَطُّ للمخلوق أن يقول: إني أنا الله رب العالمين، ولا يقول: من يدعوني فأستجيب له؟ ومن يسألني فأعطيته؟ ومن يستغفرني فأغفر له؟

والله تعالى إذا خلق صفة في محل، كان المحل متَّصِفًا بها فإذا خلق في محل علمًا، أو قدرة، أو حياة، أو حركة، أو لونًا، أو سمعًا، أو بصرًا، كان ذلك المحل هو العالم به القادر المتحرك الحي المتلون السميع البصير، فَإِنَّ الرَّبَّ لَا يَتَصِفُ بِمَا يَخْلُقُهُ فِي مَخْلُوقَاتِهِ، وَإِنَّمَا يَتَصِفُ بِصِفَاتِهِ الْقَائِمَةِ بِهِ، بَلْ كُلُّ مُوصُوفٍ لَا يُوَصَفُ إِلَّا بِمَا يَقُومُ بِهِ، لَا بِمَا يَقُومُ بغيره ولم يَقم به، فلو كان النداء مخلوقًا في الشجرة، لكانت هي القائلة: إني أنا الله.

وإذا كان ما خلقه الرب في غيره كلامًا له وليس له كلامٌ إلا ما خلقه، لزم أن يكون إنطاقه لأعضاء الإنسان يوم القيامة كلامًا له، وتسبيح الحصى كلامًا له، وتسليم الحجر على الرسول كلامًا له.

بل يلزم أن يكون كل كلام في الوجود كلامه؛ لأنه قد ثبت أنه خالق كل

شيء، وهكذا طرد قول الحلولية الاتحادية كابن عربي فإنه قال:
 وكلُّ كلامٍ في الوجودِ كلامُهُ سواءً علينا نثرُهُ ونظامُهُ
 ولهذا قال سليمان بن داود الهاشمي: «من قال: إنَّ قوله: ﴿إِنِّى أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِى﴾ [طه: ١٤] مخلوقٌ، فقوله من جنسِ قولِ فرعونَ الذي قال:
 أنا ربُّكم الأعلى؛ فإنَّ هذا مخلوقٌ وهذا مخلوقٌ».

ثم قال: «إن هذا يوجبُ أن يكون ما خُلِقَ فيه هذا القول هو القائلُ له، كما كان فرعون هو القائل لما قام به». اهـ.

وقال العلامة ابن القيم كما في «مختصر الصواعق» (ص 465): «مما يظن أنه مجاز وليس بمجاز لفظُ (النداء الإلهي)، وقد تكرر في الكتاب والسنة تكراراً مُطَرِّداً في محالِّه متنوعاً تنوعاً يمنع حمله على المجاز.
 فأخبر تعالى أنه نادى الأبوين في الجنة، ونادى كليمه، وأنه ينادي عباده يوم القيامة.

وقد ذكر - سبحانه - النداء في تسعة مواضع في القرآن، أخبر فيها عن ندائه بنفسه، ولا حاجة إلى أن يقيد النداء بالصوت، فإنه بمعناه وحقيقته باتفاق أهل اللغة، فإذا انتفى الصوت، انتفى النداء قطعاً.

ولهذا جاء إيضاحه في الحديث الصحيح الذي بلغناه الصحابة والتابعون وتابعوهم وسائر الأمة تلقته بالقبول، وتقييده بالصوت إيضاحاً وتأكيذاً كما قيد التكليم بالمصدر، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾

قال البخاري في صحيحه: «حدَّثنا عمر بن حفص بن غياث، حدَّثنا أبي، حدَّثنا الأعمش، حدَّثنا أبو صالح، عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يقول الله تعالى: يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك! فينادي بصوت: إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثًا إلى النار». اهـ.
وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾.

المراد بكلام الله هنا القرآن إجماعًا، وهذا يدلُّ على أن القرآن كلام الله.
قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «مِنَاجِ السُّنَّةِ» (5 / 416): «الأئمة والسلف اتفقوا على أن القرآن كلام الله غير مخلوق، بل هو الذي تكلم به بقدرته ومشيئته، ولم يقل أحد منهم: إنه مخلوق، ولا: إنه قديم». اهـ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَفَنظَمُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾: فالمقصود عند المفسرين بكلام الله في هذه الآية: التوراة، والمحرِّفون: هم اليهود.

ووجه الدلالة منها: أن الله قال: ﴿يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ﴾، فسمي التوراة المنزلة على موسى كلامًا له، وأخبر أنهم يسمعون.

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ قُل لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَكُمُ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾، فالشاهد منها قوله تعالى: ﴿كَلِمَ اللَّهِ﴾، والمراد به: القرآن؛ حيث وعد الله أصحاب بيعة الرضوان بالمغانم دون غيرهم من المخلفين الذين أرادوا الخروج معهم، وفيها أيضًا إثبات القول لله؛ حيث قال سبحانه: ﴿كَذَلِكُمْ قَالَكُمُ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾.

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ

لِكَلِمَتِهِ: ﴿فوجه الدلالة منها على إثبات صفة الكلام لله: قوله تعالى: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتِهِ﴾، والكلمات هنا تشمل الكلمات الكونية والكلمات الشرعية، التي هي وحيه المنزل على رسوله.

وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، فقد قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في «شرح الواسطية» (ص 371): «الشاهد قوله: ﴿يَفُصُّ﴾، والقصص لا يكون إلا قولاً، فإذا كان القرآن هو الذي يَفُصُّ، فهو كلام الله؛ لأنَّ الله تعالى هو الذي قصَّ هذه القصص؛ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ [يوسف: 3]، وحينئذ يكون القرآن كلام الله». اهـ.



«وقوله: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام: ٩٢]، ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْنَاهُ خَشِعًا مُتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]، ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَاتٍ آيَةً وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُزِيلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل: ١٠١-١٠٣]».

لَمَّا فرغ المؤلف رَحْمَةُ اللَّهِ مِنْ إيراد بعض الآيات الدالة على إثبات الكلام لله تعالى، ومنه القرآن الكريم - شرع في إيراد بعض الآيات الدالة على أن القرآن منزل من عند الله، وأنه منه بدأ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فالمنزل هو القرآن، والمنزل من عنده هو المتكلم به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والنازل به هو جبريل عليه السلام، والمنزل إليه هو المأمور بإبلاغه وهو نبيُّنا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقد قالت المعتزلة والجهمية القائلون بخلق القرآن: إنَّ المراد بالنزول: مطلق الوصول، وأسندوا دعواهم هذه بقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ [الحديد: ٢٥]، وبقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَنِيَّةً أزْوَاجَ﴾ [الزمر: ٦]، قالوا: ومن المعلوم أن الحديد والأنعام لم تنزل من السماء إلى الأرض.

وقد تصدَّى للرد على هؤلاء المبطلين: العلامة ابن القيم - رَحْمَةُ اللَّهِ - كما في «مختصر الصواعق» (420-423)؛ حيث أجاب عليهم من وجوه أهمها:

1- أن لفظ النزول والتنزيل والإنزال: حقيقة مجيء الشيء، أو الإتيان به من علو إلى أسفل، هذا هو المفهوم منه لغةً وشرعاً، كقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِن

السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا ﴿ق: ٩﴾، وقوله تعالى: ﴿نَزَّلَ الْمَلَكُ وَالرُّوحُ فِيهَا﴾ [القدر: ٤].

2- أن ما ذكره من مجاز النزول، وأنه مطلق الوصول، لا يعرف في كتاب ولا سنة ولا لغة ولا شرع ولا عرف ولا استعمال، فلا يقال لمن صعد إليك من سلم: إنه نزل إليك، ولا لمن جاءك من مكان مستو نزل، ولا يقال: نزل الليل والنهار، إذا جاء، وذلك وضع جديد، ولغة غير معروفة.

3- أنه لو عرف استعمال ذلك بقرينة، لم يكن موجباً لإخراج اللفظ عن حقيقته حيث لا قرينة.

4- أن هذا يرفع الأمان والثقة باللغات، ويبطل فائدة التخاطب؛ إذ لا يشاء السامع أن يخرج اللفظ عن حقيقته إلا وجد إلى ذلك سبيلاً.

5- أن قولهم: ومعلوم أن الحديد لم ينزل جرؤه من السماء إلى الأرض، وكذلك الأنعام.

يُقال لهم: هذا معلوم لكم بالضرورة أم بالاستدلال؟ ولا ضرورة يعلم بها ذلك، وأين الدليل؟

6- أنه قد عهد نزول أصل الإنسان، وهو آدم عليه السلام من علو إلى أسفل، كما قال تعالى: ﴿قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ [طه: ١٢٣]، فما المانع أن ينزل أصل الأنعام مع أصل الأنام؟

وقد روي في نزول الكبش الذي فدى الله به إسماعيل - عليه السلام - ما هو معروف، وقد روي في نزول الحديد ما ذكره كثير من أرباب النقل كنزول السندان والمطرقة، ونحن - وإن لم نجزم بذلك - فالمدعي أن الحديد لم ينزل

من السماء، ليس معه ما يُطِل ذلك.

7- أن الله سبحانه لم يقل: أنزلنا الحديد من السماء، ولا قال وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج من السماء، فقوله: معلوم أن الحديد والأنعام لم تنزل من السماء إلى الأرض لا يخرج لفظة النزول عن حقيقتها، إذ عدم النزول من مكان معين لا يستلزم عدمه مطلقاً.

8- أن الحديد إنما يكون في المعادن التي في الجبال، وهي عالية على الأرض، وقد قيل: إن كل ما كان معدنه أعلى كان حديده أجود، وأما قوله: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَنِيَّةً أزْوَاجَ﴾ [الزمر: ٦]، فإن الأنعام تخلق بالتوالد المستلزم إنزال الذكور الماء من أصلاها إلى أرحام الإناث.

ولهذا يقال: أنزل، ولم يُنزل، ثم إن الأجنة تنزل من بطون الأمهات إلى وجه الأرض، ومن المعلوم أن الأنعام تعلق فحولها إناثها عند الوطاء، وينزل ماء الفحل من علو إلى رحم الأنثى، وتلقي ولدها عند الولادة من علو إلى أسفل.

وعلى هذا، فيحتمل قوله: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ﴾، وجهين:

أحدهما: أن يكون المراد الجنس - كما هو الظاهر - ويكون كقوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ [الحديد: ٢٥]، فتكون (من) لبيان الجنس.

الثاني: أن تكون (من) لابتداء الغاية؛ كقوله: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: 1]، فيكون قد ذكر المحل الذي أنزلت منه، وهو أصلاب الفحول.

9- أن الله سبحانه ذكر الإنزال على ثلاث درجات:

أحدها: إنزال مطلق، كقوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾، فأطلق الإنزال، ولم يذكر مبدأه كقوله: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَنِيَّةً أزْوَاجَ﴾.

الثانية: الإنزال من السماء؛ كقوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ [الفرقان: ٤٨].

الثالثة: إنزال منه، كقوله: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الزمر: ١]، وقوله: ﴿تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، وقوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢].

فأخبر أن القرآن منزل منه، والمطر منزل من السماء، والحديد والأنعام منزلان مطلقاً، وبهذا يظهر تلبس المعطلة والجهمية والمعتزلة، حيث قالوا: إن كون القرآن منزلاً، لا يمنع أن يكون مخلوقاً كالماء والحديد والأنعام، حتى غلا بعضهم، فاحتج على كونه مخلوقاً بكونه منزلاً، والإنزال بمعنى الخلق.

وجوابه: أن الله سُبحانه وتعالى فرق بين النزول منه، والنزول من السماء، فجعل القرآن منزلاً منه، والمطر منزل من السماء، وحكم المجرور بـ(من) في هذا الباب حكم المضاف.

والمضاف إليه - سبحانه - نوعان:

أحدهما: أعيان قائمة بنفسها؛ كبيت الله، وناقة الله، وروح الله، وعبد.

فهذا إضافة مخلوق إلى خالقه، وهي إضافة اختصاص وتشريف.

الثاني: إضافة صفة إلى موصوفها؛ كسمعه وبصره، وعلمه وحياته وقدرته، وكلامه، ووجهه ويديه، ومشيتته، ورضاه وغضبه.

فهذا يمتنع أن يكون المضاف فيه مخلوقاً منفصلاً، بل هو صفة قائمة به سبحانه.

إذا عرف هذا، فهكذا حكم المجرور بـ(من) فقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي

السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴿[الجنّة: ١٣]، لا يقتضي أن تكون أوصافاً له قائمة به، وقوله: ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾ [السجدة: ١٣]، وقوله: ﴿تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢] يقتضي أن يكون هو المتكلم به، وأنه منه بدأ وإليه يعود.

ولبست المعتزلة، ولم يهتدوا إلى هذا الفرقان، وجعلوا الجميع باباً واحداً، وقابلهم طائفة الاتحادية، وجعلوا الجميع منه بمعنى التبويض والجزئية، ولم يهتد الطائفتان للفرق.

10- أن الله سبحانه قال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

فالكتاب كلامه، والميزان عدله، فأخبر أنه أنزلهما مع رُسله، ثم قال: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾، ولم يقل: وأنزلنا معهم الحديد. فلما ذكر كلامه وعدله أخبر أنه أنزلهما مع رُسله، ولما ذكر مخلوقه النَّاصر لكتابه وعدله، أطلق إنزاله، ولم يُقيِّده بما قيد به إنزال كلامه، فالمسوي بين الإنزالين مُخطئ في اللفظ والمعنى». اهـ. باختصار وتصرف يسير.

وبقي الكلام على الآيات التي أوردها المؤلف رَحْمَةُ اللَّهِ:

أما الآية الأولى: وهي قوله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾؛ فقد قال العلامة ابن عثيمين رَحْمَةُ اللَّهِ في شرحه للواسطية (371 - 372): «﴿وَهَذَا كِتَابٌ﴾ المشار إليه القرآن الكريم.

﴿كِتَابٌ﴾؛ أي: مكتوبٌ لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ، ومكتوب في الصحف التي بأيدي السفرة، ومكتوب في المصاحف التي بأيدينا.

وقوله: ﴿مُبَارَكٌ﴾ أي: ذو بركة.

فهو مبارك؛ لأنه شفاء لما في الصدور، إذا قرأه الإنسان بتدبر وتفكر؛ فإنه يشفي القلب من المرض، وقد قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢].

مبارك في اتباعه؛ إذ به صلاح الأعمال الظاهرة والباطنة، مبارك في آثاره العظيمة، فقد جاهد المسلمون به بلاد الكفر؛ لأن الله يقول: ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢].

والمسلمون فتحوا مشارق الأرض ومغاربها بهذا القرآن حتى ملكوها، ولو رجعنا إليه لملكنا مشارق الأرض ومغاربها كما ملكها أسلافنا، ونسأل الله ذلك. مبارك في أن من قرأه له بكل حرف عشر حسنات؛ فكلمة (قال) مثلاً: فيها ثلاثون حسنة، وهذا من بركة القرآن، فنحن نحصل خيرات كثيرة لا تحصى بقراءة آيات وجيزة من كلام الله عزَّجَلَّ.

والحاصل: أن القرآن كتاب مبارك فكل أنواع البركة حاصلة بهذا القرآن العظيم.

والشاهد في قوله: ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾، وثبوت نزوله من الله دليل على أنه كلامه». اهـ.

وأما الآية الثانية: وهي قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَشَعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ فالشاهد منها قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ﴾.

وقد قال العلامة السَّعْدِي في تفسيره عن هذه الآية: «لما بين تعالى لعباده ما

بَيْنَ، وأمر عباده ونهاهم في كتابه العزيز، كان هذا موجبا لأن يبادروا إلى ما دعاهم إليه، وحثهم عليه، ولو كانوا في القسوة وصلابة القلوب كالجبال الرواسي، فإن هذا القرآن لو أنزل على جبل لرأيتَه خاشعا متصدعا من خشية الله؛ أي: لكمال تأثيره في القلوب، فإن مواضع القرآن أعظم المواضع على الإطلاق، وأوامره ونواهيهِ محتوية على الحكم والمصالح المقرونة بها، وهي من أسهل شيء على النفوس، وأيسرها على الأبدان، خالية من التكلف، لا تناقض فيها ولا اختلاف، ولا صعوبة فيها ولا اعتساف، تصلح لكل زمان ومكان وتليق لكل أحد». اهـ.

وأما الآية الثالثة: وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٠١ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ۝١٠٢ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ۝١٠٣﴾

فقد قال العلامة ابن عُثيمين رَحِمَهُ اللهُ في شرحه للواسطية (375 - 379): «فقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ﴾ قوله: ﴿بَدَلْنَا﴾؛ أي: جعلنا آية مكان آية، وهذا إشارة إلى النسخ المذكور في قوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ [البقرة: ١٠٦]، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِذَا نَسَخَ آيَةً جَعَلَ بَدَلَهَا آيَةً، سواء نسخها لفظاً، أو نسخها حكماً.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ (1): هذه جملة اعتراضية، وهي من

(1) قال العلامة ابن القيم في «أقسام القرآن» (ص 224):

أحسن ما يكون في هذا الموضع، والمعنى: أن تبديلنا للآية بدل الآية ليس سفهًا وعبثًا، بل هو صادر عن علم بما يصلح الخلق؛ فنُبدل آية مكان آية؛ لعلمنا أن ذلك أصلح للخلق، وأنفع لهم.

وفيها- أيضًا- فائدة أخرى: وهي أن هذا التبديل ليس من عمل الرسول عليه الصلاة والسلام؛ بل هو من الله أنزله بعلمه، وبُدل آية مكان آية بعلمه، وليس منك أيها الرسول، قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَأَنْتَ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يونس: ١٥]، فما كان الجواب؟

كان الجواب بأن أجاب عن شيء من كلامهم، وترك شيئًا، فقال تعالى: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي﴾ [يونس: ١٥]، ولم يقل: ولا آتي بقرآن غيره؛ لماذا؟

لأنه قد يأتي بتبديل من عنده، وإذا كان لا يمكنه تبديله، فالإتيان بغيره أولى بالامتناع.

فالمهم: أن الذي يُبدل آية مكان آية- سواء لفظها أو حكمها- هو الله سبحانه.

قوله: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ [النحل: ١٠١]: الجملة جواب: ﴿وَإِذَا﴾.

فقوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزِلُ﴾ اعترض بين الشرط وجوابه، أفاد أمورًا:

منها: الجواب عن سؤال سائل: ما حكمة هذا التبديل؟ وما فائدته؟

ومنها: أن الذي بُدِّل وأُتِيَ بغيره مُنَزَّل مُحْكَم نَزُوله قبل الإخبار بقولهم.

ومنها: أن مصدر الأمرين عن علمه تبارك وتعالى، وأن كلاً منهما مُنَزَّل؛ فيجب التسليم والإيمان بالأول والثاني. اهـ.

قوله: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ﴾: الخطاب هنا لمحمد صلى الله عليه وسلم.

قوله: ﴿مُفْتَرٍ﴾: أي: كذاب، بالأمس تقول لنا كذا، واليوم تقول لنا كذا؛ هذا كذب، إنما أنت مفتر.

لكنَّ هذا القول الذي يقولونه إزاء إتيانه بآية مكان آية، هو قول سفه، ولو أمعنوا النظر لعلموا علم اليقين أن الذي يأتي بآية مكان آية هو الله سبحانه، وذلك يدل على صدقه صلى الله عليه وسلم؛ لأنَّ الكذاب يحذر غاية الحذر أن يأتي بكلام غير كلامه الأول؛ لأنَّه يخشى أن يُطْلَعَ على كذبه، فلو كان كاذبًا - كما يدَّعون أن ذلك من علامة الكذب - ما أتى بشيء يخالف الأول؛ لأنه إذا أتى بشيء يخالف الأول على زعمهم تبين كذبه، بل إتيانه بما يخالف الأول دليل على صدقه بلا شك.

ولهذا قال هنا: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، وهذا إضرابٌ إبطاليٌّ معناه: بل لست مفترًا، ولكن أكثرهم لا يعلمون، ولو أنهم كانوا من ذوي العلم، لعلموا أنه إذا بُدِّلَت آية مكان آية، فإنما ذلك دليل على صدق الرسول عليه الصَّلاة والسلام.

قوله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾.

﴿رُوحُ الْقُدُسِ﴾ هو جبريل، ووصفه بذلك لطهارته من الخيانة عليه الصلاة والسلام، ولهذا قال في آية أخرى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ [التكوير: ١٩ - ٢١].

قوله: ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾، ولم يقل: من رب العالمين؛ إشارة إلى الربوبية الخاصة، ربوبية الله للنبي صلى الله عليه وسلم، وهي ربوبية أخص الخاصة.

وقوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾؛ إمّا أن يكون وصفاً للنّازل أو للمنزول به، فإن كان وصفاً للنّازل، فمعناه: أن نزوله حق وليس بكذب، وإن كان وصفاً للمنزول به، فمعناه: أن ما جاء به فهو حق، وكلاهما مراد، فهو حق من عند الله، ونازل بالحق، قال تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: ١٠٥]، فالقرآن حقٌّ، وما نزل به حق.

قوله: ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: هذا تعليل وثمره عظيمة، يثبت الله الذين آمنوا به، ويؤمنهم من الحق ويقويهم عليه.

قوله تعالى: ﴿وَهَدَىٰ وَبَشَّرَ لِلْمُحْسِنِينَ﴾؛ أي: هدى يهتدون به، ومناراً يستنيرون به، وبشارة لهم يستبشرون به، بشارة لأن من عمل به، واستسلم له، كان ذلك دليلاً على أنه من أهل السعادة، قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَانْفَكَىٰ ۖ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ ﴿٦﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ - ٧].

ولهذا ينبغي للإنسان أن يفرح إذا رأى من نفسه الخير والثبات عليه والإقبال عليه يفرح؛ لأن هذه بشارة له...»، إلى أن قال رحمه الله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾، قال: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ﴾، ولم يقل: لقد علمنا؛ لأن قولهم هذا يتجدد، فكان التعبير بالمضارع أولى من التعبير بالماضي؛ لأنه لو قال: لقد علمنا، لتبادر إلى ذهن بعض الناس أن المعنى: علمنا أنهم قالوا ذلك سابقاً، لا أنهم يستمرون عليه.

وسبب نزول هذه الآية: أن قريشاً قالت: إن هذا القرآن الذي يأتي به محمد، ليس من عند ربه، وإنما هو من شخص يعلمه، ويقص عليه من قصص الأولين، ويأتي ليقول لنا هذا من عند الله! أعوذ بالله!

ادّعوا أنه كلام البشر، والعجيب أنهم يدّعون أنه كلام بشر، ويُقال لهم: اتّوا

بمثله، ولا يستطيعون، وقد أبطل الله افتراءهم هذا بقوله تعالى: ﴿لَسَاتُ
الَّذِي يُلْحَدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي﴾، ومعنى: ﴿يُلْحَدُونَ﴾؛ أي: يميلون؛ لأن
قولهم هذا ميلٌ عن الصواب، بعيد عن الحق.

والأعجمي: هو الذي لا يفصح بالكلام وإن كان عربياً، والعجمي (بدون
همزة) هو المنسوب إلى العجم وإن كان يتكلم بالعربية.

فلسان هذا الذي يلحدون إليه أعجمي لا يفصح بالكلام العربي.
وأما القرآن؛ فإن الله قال فيه: ﴿وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾، بين في
نفسه مبين لغيره.

فالقرآن كلام عربي، وهو أفصح الكلام، كيف يأتي من هذا الرجل
الأعجمي الذي لسانه لا يفصح بالكلام؟

والشاهد هو قوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَنْزِلُ﴾، وقوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ
رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾، وقوله: ﴿وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾.
وكل هذه تدلُّ على أن القرآن كلام الله تعالى مُنَزَّل من عنده». اهـ.



«وقوله: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]، ﴿عَلَىٰ الْأَرْيَافِ يَنْظُرُونَ﴾ [المطففين: ٢٣]، ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، ﴿هُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥]».

أورد المؤلف هذه الآيات؛ لإثبات أصل من أعظم أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، وهو إثبات رؤية المؤمنين لربهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وقد عقد العلامة ابن القيم باباً لإثبات الرؤية في كتابه «حادي الأرواح» (258-299)، ذكر فيه الآيات والأحاديث والآثار الدالة على ذلك وقال في مطلع الباب: «هذا الباب أشرف أبواب الكتاب، وأجلُّها قدرًا، وأعلاها خطرًا، وأقرُّها لعيون أهل السنة والجماعة، وأشدُّها على أهل البدعة والضلالة، وهي الغاية التي شمر إليها المشتمرون، وتنافس فيها المتنافسون، وتسابق إليها المتسابقون، ولمثلها فليعمل العاملون، إذا ناله أهل الجنة، نسوا ما هم فيه من النعيم، وحرمانه والحجاب عنه لأهل الجحيم أشد عليهم من عذاب الجحيم.

اتَّفَقَ عليها الأنبياء والمرسلون وجميع الصحابة والتابعون وأئمة الإسلام على تتابع القرون، وأنكرها أهل البدع المارقون، والجهمية المتهوِّكون، والباطنية الذين هم من جميع الأديان منسلخون، والرافضة الذين هم بحبائل الشيطان متمسكون، ومن حبل الله منقطعون، وعلى مسببة أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عاكفون، وللسنة وأهلها محاربون، ولكل عدو لله ورسوله ودينه مسالمون». اهـ.

وقد دل على إثبات رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة:

القرآن، والسنة، والإجماع، والعقل.

أما القرآن الكريم في آيات كثيرة منها ما ذكره المؤلف رَحْمَةُ اللَّهِ.
وأما السُّنَّةُ فالأحاديث في ذلك متواترة كما نصَّ على ذلك جَمْعٌ⁽¹⁾ من أهل العلم، وقد قيل نظمًا:

مِمَّا تَوَاتَرَ حَدِيثُ: «مَنْ كَذَبَ» وَ«مَنْ بَنَى لِلَّهِ بَيْتًا وَاحْتَسَبَ»
وَرُؤْيَا شَفَاعَةِ وَالْحَوْضِ وَمَسْحُ خُفَّيْنِ وَهَذِي بَعْضُ

ومنها ما في الصَّحَّاحِينَ: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَأَلَهُ نَاسٌ: هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هَلْ تُضَارُونَ فِي رُؤْيَا الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ؟». قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «هَلْ تُضَارُونَ فِي رُؤْيَا الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟». قَالُوا: لَا، قَالَ: «فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ كَذَلِكَ»، الحديث.

ومنها ما في الصَّحَّاحِينَ: عن جرير بن عبد الله قال: كُنَّا جُلُوسًا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَنَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ أَرْبَعِ عَشْرَةٍ، فَقَالَ: «إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ عِيَانًا كَمَا تَرُونَ هَذَا لَا تَضَامُونَ فِي رُؤْيَايْتِهِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَلَّا تَغْلِبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ فَافْعَلُوا»، ثُمَّ قَرَأَ قَوْلَهُ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠].

وأما الإجماعُ، فقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية في «منهاج السُّنَّة» (2 / 315):
«والرُّؤْيَا يَنْكُرُهَا الْجَهْمِيَّةُ وَالْمُعْتَزِلَةُ وَالْخَوَارِجُ، وَقَدَمَاءُ الْإِمَامِيَّةِ يَثْبُتُونَهَا وَجُمْهُورٌ مُتَأَخِّرِيهِمْ يَنْفَوْنَهَا، وَأَمَّا الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ وَأُئِمَّةُ الْإِسْلَامِ الْمَعْرُوفُونَ

(1) منهم ابن تيمية كما في «مجموع الفتاوى» (6 / 469)، وابن القيم في «حادي الأرواح» (ص 268).

بالإمامة في الدين؛ كمالك والثوري والأوزاعي والليث والشافعي وأحمد وإسحاق وأبي حنيفة وأبي يوسف، وأمثال هؤلاء وسائر أهل السُّنَّة والحديث، والطوائف المنتسبة لأهل السُّنَّة؛ كالكلابية والأشعرية والسالمية وغيرهم، متفقون على إثبات الرؤية على ما جاءت الأحاديث بها متواترة عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند أهل العلم بحديثه، وكذلك الآثار بها متواترة عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان.

وقد ذكر الإمام أحمد وغيره من الأئمة العالمين بأقوال السلف: أن الصحابة والتابعين لهم بإحسان متفقون على أن الله يُرى في الآخرة بالأبصار، ومتفقون على أنه لا يراه أحد في الدنيا بعينه، ولم يتنازعا في ذلك إلا في رؤيته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لربه خاصة، فمنهم من نفى رؤيته بالعين في الدنيا ومنهم من أثبتها، والمقصود نقل إجماع السلف على إثبات الرؤية بالعين في الآخرة ونفيها في الدنيا إلا الخلاف في رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. اهـ.

وقال شيخ الإسلام كما في «مجموع الفتاوى» (6/512): «أجمع سلف الأمة وأئمتها على أن المؤمنين يرون الله بأبصارهم في الآخرة، وأجمعوا على أنهم لا يرونه في الدنيا بأبصارهم، ولم يتنازعا إلا في النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وثبت عنه في الصحيح أنه قال: «اعلموا أن أحدا منكم لن يرى ربه حتى يموت»، ومن قال من الناس: إن الأولياء أو غيرهم يرى الله بعينه في الدنيا، فهو مبتدع ضال، مخالف للكتاب السُّنَّة، وإجماع سلف الأمة، لا سيما إذا ادَّعوا أنهم أفضل من موسى؛ فإن هؤلاء يُستتابون فإن تابوا وإلا قتلوا، والله أعلم». اهـ.

وقال رحمه الله في بيان تلبيس الجهمية (7/157): «أهل قبلتنا من الصحابة والتابعين ومن بعدهم إلى من شاهدنا من العلماء من أهل عصرنا لم يختلفوا

ولم يَرْتَابُوا، أو لم يشكوا أَنَّ جميع المؤمنين يَرون خالقهم يوم القيامة عياناً». اهـ.

وأما دلالة العقل على الرؤية:

فقد قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ كما في «مختصر الصواعق» (ص 201): «ثبت بالعقل إمكان رؤية الله تعالى، وبالشرع وقوعها في الآخرة، فاتفق الشرع والعقل على إمكان الرؤية ووقوعها، فإن الرؤية أمر وجودي، لا يتعلق إلا بوجود، وما كان أكمل وجوداً، كان أحق أن يُرى، فالباري سبحانه أحق أن يُرى من كل ما سواه؛ لأن وجوده أكمل من وجود ما سواه، يوضحه أن تعذر الرؤية؛ إما لخفاء المرئي، وإما لآفة ضعف من الرائي، والرب تعالى أظهر من كل موجود، وإنما تعذرت رؤيته في الدنيا؛ لضعف القوة الباصرة عن النظر إليه، فإذا كان الرائي في دار البقاء، كانت قوة البصر في غاية القوة؛ لأنها دائمة، فقويت على رؤيته تعالى، والرؤية المعقولة عند جميع بني آدم عربهم وعجمهم أن يكون المرئي مقابلاً للرائي مواجهاً له بائناً عنه، ولا تعقل الأمم رؤية غير ذلك، وقد دلّ النقل الصريح أنهم إنما يرونه من فوقهم». اهـ.

أقسام الناس في الرؤية:

انقسم الناس في الرؤية إلى ثلاثة أقسام:

الأول: الصَّحَابَةُ والتَّابِعُونَ وأئمة المسلمين قالوا: إن الله يُرى في الآخرة بالأبصار عياناً، ولا يراه أحد في الدنيا بعينه.

الثاني: قول الجهمية والمعتزلة، ومن جرى مجراهم: إن الله لا يُرى في الدنيا، ولا في الآخرة.

الثالث: قول بعض المتصوفة: إنه يُرى في الدنيا والآخرة.

فهناك مَنْ غَلَا في الإثبات، وهناك مَنْ غَلَا في النفي، وهناك مَنْ توسط، وانظر إن شئت: «مجموع الفتاوى» (2/ 336-337).

وقد استدَلَّ المؤلَّف رَحِمَهُ اللهُ بَعْدَ آيَاتِ مِنَ الْقُرْآنِ عَلَى إِبْثَاتِ الرُّؤْيَةِ:

الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ۖ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، قوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾؛ يعني بذلك اليوم الآخر.

قوله: ﴿نَّاصِرَةٌ﴾؛ أي: حسنة من النصارة بالضاد، وهي الحسن؛ يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿فَوْقَهُمْ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّهْم نَضْرَةٌ وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: ١١]؛ أي: حسناً في وجوههم، وسروراً في قلوبهم.

وقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾؛ بالطاء من: النظر، وهنا عدي النظر بـ(إلى) الدالة على الغاية، وهو نظرٌ صادرٌ من الوجوه، والنظر الصَّادر من الوجوه يكون بالعين، بخلاف النظر الصادر من القلوب، فإنه يكون بالبصيرة والتدبر والتفكير، فهنا صدر النظر من الوجوه إلى الرب عزَّ وجلَّ؛ لقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا﴾.

فنفيد الآية الكريمة: أن هذه الوجوه النَّاصِرَةُ الْحَسَنَةُ تنظر إلى ربها عزَّ وجلَّ؛ فتزداد حُسْنًا إلى حُسْنِهَا، وانظر كيف جعل هذه الوجوه مستعدة متهيئة للنظر إلى وجه الله عزَّ وجلَّ؛ لكونها نضرة حسنة متهيئة للنظر إلى وجه الله.

وقد أورد العلامةُ ابنُ القيم رَحِمَهُ اللهُ هذه الآية في كتاب «حادي الأرواح» (ص 267) في أدلة إثبات الرؤية ثم قال: «وأنت إذا أجرت هذه الآية من تحريفها عن مواضعها، والكذب على المتكلم بها سبحانه فيما أراده منها وجدتها منادية نداءً صريحاً: أن الله سبحانه يُرى عياناً بالأبصار يوم القيامة»، إلى أن قال:

«وإضافة النظر إلى الوجه الذي هو محله في هذه الآية، وتعديته بـ(إلى) الصريحة في نظر العين، وإخلاء الكلام عن قرينة تدل على أن المراد بالنظر المضاف إلى الوجه المعدى بـ(إلى) خلاف حقيقته وموضوعه صريح في أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَرَادَ بِذَلِكَ: نظر العين التي في الوجه إلى نفس الرب جل جلاله، فإن النظر له عدة استعمالات بحسب صلاته وتعديه بنفسه.

فإن عُدِّي بنفسه فمعناه التوقف والانتظار؛ كقوله: ﴿أَنْظُرُونَا نَقْيَسَ مِنْ تَوْرِكُمْ﴾ [الحديد: ١٣].

وإن عُدِّي بـ(في) فمعناه: التفكير والاعتبار؛ كقوله: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

وإن عُدِّي بـ(إلى) فمعناه المعاينة بالأبصار؛ كقوله: ﴿أَنْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ [الأنعام: ٩٩].

فكيف إذا أضيف إلى الوجه الذي هو محل البصر؟!

عن الحسن قال: «نظرت إلى ربها تبارك وتعالى، فنضرت بنوره».

وعن ابن عباس: ﴿إِلَى رَبِّهَا نَظَرَةٌ﴾ قال: «تنظر إلى وجه ربها عزَّجَلَّ».

وقال عكرمة: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ﴾ قال: «من النعيم»، ﴿إِلَى رَبِّهَا نَظَرَةٌ﴾ قال:

«تنظر إلى ربها نظراً»، وهذا قول كل مفسرٍ من أهل السُّنَّةِ والحديث. اهـ.

وأما قوله تعالى: ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾، فقد قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ

في تفسيره (4/ 626): ﴿الْأَرَائِكِ﴾: السُّرر تحت الحِجَال، ﴿يَنْظُرُونَ﴾: قيل

معناه: ينظرون في ملكهم، وما أعطاهم الله من الخير والفضل الذي لا يتقص ولا

يبيد، وقيل: معناه: ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾ إلى الله عزَّجَلَّ، وهذا مقابل لما وصف

به أولئك الفجار، ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمِذٍ لَمَّحُوجُونَ﴾ [المطففين: ١٥]، فذكر عن هؤلاء: أنهم يُباحون النَّظر إلى الله عزَّ وجلَّ، وهم على سُررهم وفُرشهم». اهـ.

وأما قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾، فقد قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (2/ 545): «يخبر تعالى أن لمن أحسن العمل في الدنيا بالإيمان، والعمل الصالح: الحسنَى في الدار الآخرة، كقوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، وقوله: ﴿وَزِيَادَةٌ﴾، هي تضعيف ثواب الأعمال بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، وزيادة على ذلك أيضًا، ويشمل ما يعطيهم الله في الجنان من القصور والحدور والرضا عنهم، وما أخفاه لهم من قرة أعين، وأفضل من ذلك وأعلاه: النظر إلى وجهه الكريم؛ فإنه زيادة أعظم من جميع ما أعطوه لا يستحقونها بعملهم، بل بفضلِهِ ورحمته.

وقد روي تفسير الزيادة بالنظر إلى وجهه الكريم: عن أبي بكر الصديق، وحذيفة بن اليمان، وعبد الله بن عباس، وسعيد بن المسيب، وعبد الرحمن بن أبي ليلى، وعبد الرحمن بن سابط، ومجاهد، وعكرمة، وعامر بن سعد، وعطاء، والضحاك، والحسن، وقتادة، والسُّدِّي، ومحمد بن إسحاق، وغيرهم من السلف والخلف». اهـ.

وأما قوله تعالى: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾.

قوله: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا﴾؛ أي: للمؤمنين في الجنة ما يشاءون مما يتنعمون به كقوله تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١]، وكقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ [فصلت: ٣١].

وقوله: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾؛ أي: زيادة على ذلك، وهو النظر إلى وجه الله

الكريم.

أدلة نفاة الرؤية:

استدل نفاة الرؤية من المعتزلة والجهمية، ومن قال بقولهم بما يلي:
أولاً: قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾
[الأنعام: ١٠٣]، قالوا: وهذا نفى للرؤية.

وقد أجاب علماء أهل السنة عن هذا؛ فقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله
في «منهاج السنة» (2/ 317): «والآية حجة عليهم لا لهم؛ لأن الإدراك إما أن
يراد به مطلق الرؤية، أو الرؤية المقيدة بالإحاطة.

والأول باطل؛ لأنه ليس كل من رأى شيئاً يقال: إنه أدركه، كما لا يقال:
أحاط به، كما سئل ابن عباس عن ذلك فقال: «ألست ترى السماء؟» قال: بلى،
قال: «أكلها؟» قال: لا.

ومن رأى جوانب الجيش والبستان والمدينة، لا يقال: إنه أدركها.
فالمستدل بالآية عليه أن يبين: أن (الإدراك) في لغة العرب: مرادف للرؤية،
وهذا لا سبيل إليه، كيف وبيّن لفظ الرؤية والإدراك: عمومٌ وخصوص، فقد تقع
رؤية بلا إدراك، وإدراك بلا رؤية؛ فإن الإدراك يستعمل في إدراك العلم، فقد
يدرك الشيء بالقدرة، وإن لم يُشاهد كالأعمى الذي طلب رجلاً هارباً منه،
فأدركه ولم يره.

وقد قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَا الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَبُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾
[الشعراء: ٦١-٦٢]، فنفى موسى الإدراك مع إثبات
التراخي، فعليه فقد تكون الرؤية بلا إدراك، وإذا انتفى الإدراك، فقد تنتفي إحاطة

البصر أيضًا.

ومما يدل على ذلك: أن الله ذكر هذه الآية يمدح نفسه، ومعلوم أن كون الشيء لا يرى، ليس صفة مدح؛ لأن النفي المحض لا يكون مدحًا. اهـ.

وقال الإمام أبو محمد بن حزم في «الفصل في الملل والأهواء والنحل» (2/3): «واحتجَّت المعتزلة بقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾، وهذا لا حجة لهم فيه؛ لأن الله تعالى إنما نفى الإدراك، و(الإدراك) عندنا في اللغة معنى زائد على النظر، وهو معنى الإحاطة، ليس هذا المعنى في النظر والرؤية، فالإدراك منفي عن الله تعالى على كل حال في الدنيا والآخرة؛ برهان ذلك قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَا الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ (٦١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ؛ ففرق الله عَزَّوَجَلَّ بين الإدراك والرؤية فرقًا جليًّا؛ لأنه تعالى أثبت الرؤية بقوله: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَا الْجَمْعَانِ﴾ [الشعراء: ٦١-٦٢]، وأخبر تعالى أنه رأى بعضهم بعضًا، فصحت منهم الرؤية لبني إسرائيل، ونفى الله الإدراك بقول موسى عليه السلام لهم: ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾.

فأخبر - تعالى - أنه رأى أصحاب فرعون بني إسرائيل، ولم يدركوهم، ولا شك في أن ما نفاه الله تعالى غير الذي أثبتته، فالإدراك غير الرؤية، والحجة لنا هو قول الله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ﴾ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ [القيامة: ٢٢، ٢٣]. اهـ.

وقال العلامة ابن القيم رحمه الله في «حادي الأرواح» (ص ٢٢٩): «فلم ينف موسى عليه السلام الرؤية، ولم يريدوا بقولهم: ﴿إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾؛ إنا لمرئيون فإن موسى عليه السلام نفى إدراكهم إياهم بقوله: ﴿كَلَّا﴾، وأخبر الله سبحانه أنه لا يخاف دركهم بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ [طه: ٧٧].

فالرؤية والإدراك كلُّ منهما يوجد مع الآخر وبدونه، فالرب تعالى يُرى ولا يُدرك كما يعلم، ولا يُحاط به، وهذا هو الذي فهمه الصَّحابة والأئمة من بعدهم من الآية.

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ»: لا تحيطُ به الأبصار».

وقال قتادة: «هو أعظم من أن تدركه الأبصار».

وقال عطية: «يَنظُرُونَ إِلَى اللَّهِ، وَلَا تُحِيطُ أَبْصَارُهُمْ بِهِ مِنْ عَظَمَتِهِ، وَبَصَرُهُ مُحِيطٌ بِهِمْ». اهـ.

قلتُ: خلاصة الجواب عما استدلُّوا به يتلخَّص فيما يلي:

1- أنَّ الآية الكريمة حجة عليهم لا لهم؛ وذلك أنه ما استدلُّ مُبْطِلٌ بدليل صحيح ليقوي به باطلة، إلا كان دليله حجة عليه لا له.

2- أنَّ تفسير الإدراك بالرؤية مخالفٌ لِلْغَةِ العرب.

3- أنَّ الرؤية والإدراك كلُّ منهما يوجد مع الآخر، وبدونه، فالرب تعالى يُرى ولا يُدرك كما يُعلم، ولا يُحاط به، وهذا الذي فهمه الصَّحابة ومن بعدهم من الآية.

4- أنَّ الآية فيها إثبات الرؤية، لكن بدون إحاطة، ولذلك مدح الله نفسه بذلك، ومعلوم أن كون الشيء لا يُرى، ليس صفة مدح؛ لأنَّ النفي المحض لا يكون مدحاً.

5- لو سلمنا جدلاً أنه ليس في هذه الآية دليل على إثبات الرؤية؛ فهناك أدلة أخرى من الكتاب والسُّنة والإجماع والعقل تدل على ذلك، وانتفاء الدليل

المعين لا يستلزم انتفاء المدلول المعين.

ثانيًا: قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَنِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَنِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

قالوا: إن (لن) تفيد النفي المؤبد، بدليل أنه سبحانه علّق الرؤية باستقرار الجبل والجبل لم يستقرّ.

وقد أجاب أهل السنة عليهم بعدّة أجوبة منها:

أن قولهم إن (لن) تفيد النفي المؤبد - كذب على اللغة، فقد قال ابن مالك في «الكافية الشافية»:

وَمَنْ رَأَى النَّفْيَ بِـ (لَنْ) مُؤَبَّدًا فَقَوْلُهُ: ارْدُدْ، وَخِلَافُهُ اعْضَدَا

وقال صاحب «النحو الوافي» (4/281): «(لن): حرف يفيد النفي بغير دوام ولا تأييد إلا بقرينة خارجة عنه، فإذا دخل على المضارع نفى معناه في الزمن المستقبل المحض غالبًا نفياً مؤقتاً؛ يقصر ويطول من غير أن يدوم ويستمر».

فمن يقول: لن أسافر، أو: لن أشرب؛ فإنّما يريد: نفي السفر، أو غيره في قابل الأزمنة مدة معينة، يعود بعدها إلى السفر ونحوه إن شاء، ولا يريد النفي الدائم المستمر في المستقبل، إلا إن وجدت قرينة مع الحرف (لن) تدل على الدوام والاستمرار». اهـ.

قلت: ومما يدل على ذلك: قوله تعالى: عن مريم عليها السلام: ﴿إِنِّي

نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴿٢٦﴾ [مريم: ٢٦].

فلو كانت: (لن) هنا لتأييد النفي، لوقع التعارض بينها وبين كلمة (اليوم)؛ لأن اليوم محدد معين، وهي غير محددة ولا معينة.

ولو كانت: (لن) تفيد النفي المؤبد بنفسها، لكان ذكر التأييد بعدها لغو لا فائدة منه، كما في قوله تعالى: ﴿فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٩٤) وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا ﴿٩٥﴾ [البقرة: ٩٤ - ٩٥].

ومع أن (لن) ذكر بعدها التأييد إلا أنها لا تدل عليه في هذا الموضع إلا في الدنيا؛ لقوله تعالى عن أهل النار: ﴿وَنَادَوْا يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧].

ومِمَّا يدل على أنها لا تُفيد التأييد المطلق: تحديد الفعل بعدها؛ قال تعالى عن ابن يعقوب: ﴿فَلَنْ أُبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي﴾ [يوسف: ٨٠].

قال العلامة ابن القيم رحمه الله في «حادي الأرواح» (ص 259 - 260): «إن هذه الآية من أدلة إثبات الرؤية، وبيان الدلالة منها من وجوه عديدة:

أحدها: أنه لا يُظن بكليم الرحمن ورسوله الكريم عليه أن يسأل ربه ما لا يجوز عليه، بل هو من أبطل الباطل، وأعظم المحال، فيا لله العجب صار أتباع الصابئة والمجوس والمُشركين عبَاد الأصنام وفُروخ الجَهْمِيَّة أعلم بالله تعالى من موسى بن عمران، وبما يستحيل عليه، ويجب له، وأشد تنزيهاً له منه؟!!

الوجه الثاني: أن الله سبحانه وتعالى لم يُنكر عليه سؤاله، ولو كان محالاً لأنكره عليه، ولهذا لما سأل إبراهيم الخليل ربه تبارك وتعالى أن يُريه كيف يُحيي الموتى؟ لم يُنكر عليه، ولما سأل نوح نجاة ابنه أنكر عليه سؤاله، وقال:

﴿إِنِّي أَعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ ٤٦ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَشْلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَلَا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴿[هود: ٤٦-٤٧].

الوجه الثالث: أنه أجاب بقوله: ﴿لَنْ تَرِنِّي﴾، و لم يقل: (لا تراني)، ولا: (إني لست بمرئي، ولا تجوز رؤيتي).

والفرق بين الجوابين ظاهر لمن تأمله، وهذا يدل على أنه سبحانه وتعالى يُرى، ولكن موسى لا تحتمل قواه رؤيته في هذه الدار لضعف قوة البشر فيها عن رؤيته تعالى.

الوجه الرابع: وهو قوله: ﴿وَلَكِنْ أَنْظِرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ، فَسَوْفَ تَرِنِّي﴾؛ فأعلمه أن الجبل مع قوته وصلابته لا يثبت لتجليّه له في هذه الدار، فكيف بالبشر الضعيف الذي خلق من ضعف.

الوجه الخامس: أن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يجعل الجبل مستقرًا مكانه، وليس هذا بممتنع في مقدوره، بل هو ممكن، وقد علق به الرؤية، ولو كانت محالًا في ذاتها لم يعلقها بالممكن في ذاته.

الوجه السادس: سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾، وهذا من أبين الأدلة على جواز رؤيته تبارك وتعالى، فإنه إذا جاز أن يتجلى للجبل الذي هو جماد لا ثواب له ولا عقاب؛ فكيف يمتنع أن يتجلى لأبيائه ورسله وأوليائه في دار كرامته ويُرِيهم نفسه؟ فأعلم سبحانه وتعالى موسى أن الجبل إذا لم يثبت لرؤيته في هذه الدار فالبشر أضعف.

الوجه السابع: أن ربه سبحانه وتعالى قد كلمه منه إليه، وخاطبه وناجاه وناداه، ومن جاز عليه التكلم والتكليم، وأن يسمع مخاطبته كلامه معه بغير واسطة،

فرؤيته أولى بالجواز، ولهذا لا يتم إنكار الرؤية إلا بإنكار التكليم، وقد جمعت هذه الطوائف بين إنكار الأمرين، فأنكروا أنه يكلم أحداً، أو يراه أحدٌ.

ولهذا سأل موسى النظر إليه لما أسمعته كلامه، وعلم نبي الله جواز رؤيته من وقوع خطابه وتكليمه فلم يخبره باستحالة ذلك عليه، ولكن أراه أن ما سأل لا يقدر على احتمالها كما لم يثبت الجبل لتجليه.

وأما قوله تعالى: ﴿لَنْ تَرِنِي﴾ فإنما يدل على النفي في المستقبل، ولا يدل على دوام النفي، ولو قيّد بالتأييد فكيف إذا أطلقت؟ قال تعالى: ﴿وَلَنْ يَتَمَوَّهُ أَبَدًا﴾ مع قوله تعالى: ﴿وَنَادَوْا يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾. اهـ.

ولو سلمنا جدلاً أنه لا دلالة في هذه الآية على إثبات الرؤية، وليس كذلك فقد سبق أن الكتاب والسنة المتواترة والإجماع والعقل قد دلت على إثبات الرؤية، فانفاء الدليل المعين لا يستلزم انتفاء المدلول المعين.

شبهة:

من شبه المعطلة للرؤية: أن قالوا: إن أهل السنة شبهوا الله بالقمر حيث استدلوا بحديث جرير بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرُونَ هَذَا الْقَمَرَ».

والجواب: أن التشبيه ليس للمرئي بالمرئي، وإنما هو تشبيه للرؤية بالرؤية. قال الإمام النووي في شرحه على مسلم (5/ 273): «أي: ترونه رؤية مُحَقَّقة لا شك فيها، ولا مشقة، كما ترون هذا القمر رؤية مُحَقَّقة بلا مشقة، فهو تشبيه للرؤية بالرؤية، لا المرئي بالمرئي». اهـ.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ كما في «مجموع الفتاوى» (5/ 107):

«وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّكُمْ سترون ربكم كما تَرُونَ الشَّمْسَ والقَمَرَ»؛ فَشَبَّهَ الرُّؤْيَا بالرُّؤْيَا، وإن لم يكن المرئي مُشَبَّهًا للمرئي». اهـ. وانظر (5 / 175).

قلت: ووجه ذلك: أن الكاف في قوله: «كما» داخلة على مصدر مُقَدَّر، وتقديره: كَرُؤْيَيْتكم هذا القمر.

ووجه تشبيه الرُّؤْيَا بالرُّؤْيَا من عدة جهات:

1- من جهة أن القمر يُرَى من فوق، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَرَاهُ المؤمنون من فوقهم؛ قال شيخ الإسلام كما في «مَجْمُوعُ الْفَتَاوَى» (5 / 107): «فالمؤمنون إذا رأوا ربهم يوم القيامة، ونَاجَوْه؛ كُلُّ يَرَاهُ فوقه قِبَل وَجْهه، كما يرى الشمس والقمر». اهـ.

2- أن الله يُرَى يوم القيامة بالأبصار، كما أن الشَّمْسَ والقَمَرَ تُرَى بالأبصار.

3- أن المؤمنين لا يتضررون برؤيتهم لله يوم القيامة، كما أنهم لا يتضررون برؤية القمر؛ لقول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا تُضَارُونَ».

4- أن المؤمنين لا يزدحمون عند رؤيتهم لله يوم القيامة، كما أنهم لا يزدحمون عند رؤيتهم للشمس والقمر؛ لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا تُضَامُونَ»، بفتح أوله والتشديد.

5- أن المؤمنين يرون الله يوم القيامة، ولا يحصل لهم ضيْمٌ، كما أنهم يرون القمر ولا يحصل لهم ضيْمٌ؛ لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا تُضَامُونَ»، بضم أوله مخففاً.



«وهذا الباب في كتاب الله كثير، وَمَنْ تَدَبَّرَ الْقُرْآنَ طَالِبًا لِلهُدَى مِنْهُ تَبَيَّنَ لَهُ طريق الحق».

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهذا الباب في كتاب الله كثير».

أي: باب الأسماء والصفات؛ لأنَّ حاجة النَّاسِ إلى معرفة ربِّهم فوق كل حاجة.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ في «درء تعارض العقل والنقل» (3/330): «ولمَّا كانت حاجة النفوس إلى معرفة ربِّها أعظم الحاجات كانت طُرُق معرفتهم له أعظم مِنْ طُرُق مَعْرِفَةِ مَا سِوَاهُ». اهـ.

وقوله: «وَمَنْ تَدَبَّرَ الْقُرْآنَ طَالِبًا لِلهُدَى مِنْهُ تَبَيَّنَ لَهُ طريق الحق».

قال العلامة ابن عُثَيْمِينَ في شرحه للواسطيَّة (ص 390): «تَدَبَّرَ الشَّيْءُ: التَّفَكَّرُ فِيهِ، كَأَنَّ الْإِنْسَانَ يَسْتَدْبِرُهُ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ وَيَسْتَقْبِلُهُ أُخْرَى، فَهُوَ يُكْرِرُ الْفَلْظَ لِيَفْهَمَ الْمَعْنَى».

وأما النية، فهي أن يكون طالبًا للهُدَى مِنْهُ، فليس قصده بتدبر القرآن أن ينتصر لقوله، أو أن يتَّخِذَ مِنْهُ مِجَادِلَةً بِالْبَاطِلِ، وَلَكِنْ قَصْدُهُ طَلَبُ الْحَقِّ؛ فَإِنَّهُ سَوْفَ تَكُونُ النَّتِيجَةُ قَوْلُ الْمُؤَلِّفِ: «تَبَيَّنَ لَهُ طريق الحق»، وما أعظمها من نتيجة لكنها مسبوقة بأمريْن: التَّدَبُّرُ وَحُسْنُ النِّيَّةِ بِأَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ طَالِبًا لِلهُدَى مِنَ الْقُرْآنِ، فَحِينَئِذٍ يَتَبَيَّنُ لَهُ طريق الحق». اهـ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في «درء تعارض العقل والنقل» (5/102): «وذلك أنَّ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ يَحْصُلُ مِنْهُمَا كَمَالُ الْهُدَى وَالنُّورِ لِمَنْ

تَدَبَّرَ كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ، وَقَصَّدَ اتِّبَاعَ الْحَقِّ، وَأَعْرَضَ عَنْ تَحْرِيفِ الْكَلِمِ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَالْإِلْحَادِ فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ وَآيَاتِهِ». اهـ.

وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَ أَأَيُّنَا فَنَسِينَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنْسِي ﴿طه: ١٢٣-١٢٦﴾، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، وَقَالَ سُبْحَانَهُ ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِّنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩].

ورحم الله ابن القيم إذ قال في نُونيته:

فَتَدَبَّرَ الْقُرْآنَ إِنْ رُمْتَ الْهُدَى فَالْعِلْمُ تَحْتَ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ



«فَصَلِّ: ثُمَّ فِي سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَالسُّنَّةُ تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ، وَتُبَيِّنُهُ، وَتَدُلُّ عَلَيْهِ، وَتُعَبِّرُ عَنْهُ، وَمَا وَصَفَ الرَّسُولُ بِهِ رَبَّهُ عَزَّجَلَّ مِنَ الْأَحَادِيثِ الصَّحَاحِ الَّتِي تَلَقَّاهَا أَهْلُ الْمَعْرِفَةِ بِالْقَبُولِ؛ وَجَبَ الْإِيمَانُ بِهَا كَذَلِكَ».

أورد شيخ الإسلام هذا الفصل ليبين منزلة السنة، وأن ما صحَّ عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الأحاديث في باب الاعتقاد في الأسماء والصفات، أو غيرها من أبواب الاعتقاد، سواء كانت تلك الأحاديث متواترة أو آحاداً؛ فإننا نثبت ما دلَّت عليه خلافاً لأهل البدع من المعتزلة ومن جرى مجراهم. وقد سبق أن السنة في اللغة: هي الطريقة محمودة كانت أو مذمومة. وأنها في الاصطلاح: أقوال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأفعاله، وتقريراته. ويدخل في هذا الواجب والمستحب، فالسنة بالمفهوم العام أعم منها عند الفقهاء والأصوليين.

والنَّظَرُ في القرآن إنما ينظر إليه من جهة دلالاته لا من جهة ثبوته، فهو قَطْعِيُّ الثُّبُوتِ إجمالاً، فوُصُولُهُ إلينا كان بنقل الكافة عن الكافة.

وأما السنة فننظر إليها من جهتين:

الأولى: من جهة الثبوت؛ لأن منها الصحيح والضعيف.

الثانية: من جهة الدلالة.

وقول شيخ الإسلام: «فالسُّنَّةُ تَفْسِّرُ الْقُرْآنَ وَتُبَيِّنُهُ وَتَدُلُّ عَلَيْهِ وَتُعَبِّرُ عَنْهُ».

قال شيخ الإسلام نفسه كما في «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى» (17/432): «وقد اتَّفَقَ الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ وَسَائِرِ أُمَّةِ الدِّينِ، أَنَّ السُّنَّةَ تَفْسِّرُ الْقُرْآنَ وَتُبَيِّنُهُ

وتدل عليه وتُعبّر عن مُجْمَلِهِ، وأنها تُفسّر مُجْمَل القرآن من الأمر والخبر». اهـ.

وقال رَحْمَةُ اللَّهِ فِي «دَرْءِ تَعَارُضِ الْعَقْلِ وَالنَّقْلِ» (2/ 146): «والأحاديث جاءت في هذا الباب كما جاءت الآيات مع زيادة تفسير في الحديث، كما أن أحاديث الأحكام تَجِيءُ مُوَافِقَةً لكتاب الله مع تفسيرها لِمُجْمَلِهِ، ومع ما فيها من الزيادات التي لا تُعارض القرآن؛ فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْزَلَ عَلَى نَبِيِّهِ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ». اهـ.

وقال العَلَّامة ابن القيم رَحْمَةُ اللَّهِ «في إعلَامِ الْمُوقَّعِينَ» (2/ 288): «والسُّنَّةُ مع القرآن على ثلاثة أوجه:

- 1- أن تكون مُوَافِقَةً له من كل وجه، فيكون تَوَارَدُ القرآن والسُّنَّةُ على الْحُكْمِ الْوَاحِدِ من باب تَوَارَدِ الْأَدِلَّةِ وَتَضَافُرِهَا.
- 2- أن تكون بَيَانًا لِمَا أُريدَ بِالْقُرْآنِ وَتَفْسِيرًا لَهُ.
- 3- أن تكون مُوجِبَةً لِحُكْمٍ سَكَتَ الْقُرْآنُ عَلَى إِجْبَابِهِ، أَوْ مُحَرِّمَةً لِمَا سَكَتَ عَنْ تَحْرِيمِهِ». اهـ.

ثم أَوْضَحَ رَحْمَةُ اللَّهِ أَقْسَامَ بَيَانِ السُّنَّةِ لِلْقُرْآنِ، فَقَالَ فِي «فِي إِعْلَامِ الْمُوقَّعِينَ» (2/ 295): «وبَيَانُ الرِّسُولِ عَلَى أَقْسَامٍ:

- 1- بَيَانُ نَفْسِ الْوَحْيِ بِظُهُورِهِ عَلَى لِسَانِهِ بَعْدَ أَنْ كَانَ خَفِيًّا.
- 2- بَيَانُ مَعْنَاهُ وَتَفْسِيرُهُ لِمَنْ احتَاجَ ذَلِكَ، كَمَا فِي الظُّلْمِ الْمَذْكُورِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: 82]، وَكِبْيَانِهِ لِلْحِسَابِ الْيَسِيرِ بِأَنَّهُ الْعَرَضُ.

- 3- بَيَانُهُ بِالْفِعْلِ كَمَا بَيَّنَّ أَوْقَاتِ الصَّلَاةِ لِلْسَّائِلِ بِفِعْلِهِ.

4- بيان ما سُئِلَ عنه من الأحكام التي ليست في القرآن فنزل القرآن ببيانها، كما سُئِلَ عن قَذْفِ الزوجة فجاء القرآن باللَّعَانِ ونظائره.

5- بيانه للأحكام بالسُّنة ابتداءً من غير سُؤالٍ؛ كما حَرَّمَ عليهم لُحُومَ الحُمُرِ، والمُتعة، وصَيْدَ المَدِينَةِ، ونِكَاحَ المَرأةِ على خالَتِها أو عَمَّتِها.

6- بيان جَوَازِ الشَّيْءِ بإقراره لهم على فِعْلِهِ وهو يُشَاهِدُهُ، أو يَعْلَمُهُمْ يَفْعَلُونَهُ.

7- أَنْ يَحْكُمَ القرآنُ بإيجابِ شَيْءٍ أو تحريمِهِ أو إباحَتِهِ، ويكون لذلك الشَّيْءُ شُرُوطٌ ومَوَانِعُ وقِيُودٌ وأَوَاقِتٌ مَخْصُوصَةٌ وأَحْوالٌ وأوصافٌ، فبيّن ذلك رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. اهـ.

وقول المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: وما وَصَفَ به الرسولُ رَبَّهُ عَزَّجَلَّ من الأحاديثِ الصَّحاحِ التي تَلَقَّاها أَهْلُ المَعْرِفَةِ بالقَبُولِ وَجَبَ الإِيْمَانُ بها كذلك.

سَبَقَ أَنَّ المَوْلفَ أشارَ إلى الرَّدِّ على المُعْتزِلَةِ وَمَنْ جَرَى مَجْراهُمْ، الذين لا يُثْبِتُونَ العَقَائِدَ بأَحاديثِ الآحادِ، وإن كانت أَسانيدُها كالشَّمْسِ في وَضَحِ النِّهارِ ولو رُوِيَ بِأَصَحِّ الأَسانيدِ. أمَّا أَهْلُ السُّنَّةِ فمَتى تَوَفَّرَتْ في الحديثِ شُرُوطُ الصَّحَّةِ، فإنهم يُثْبِتُونَ ما دَلَّ عليه من العَقَائِدِ، وَيُسَلِّمُونَ بما جاء فيه، ولا يُعَارِضُونَ ذلكَ بِعُقُولِهِمْ؛ بل يَقُولُونَ: (سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا).

وقد رَوَى الإمامُ أَحْمَدُ وأبو داودُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنِ المِقْدَادِ بْنِ مَعْدِ يَكْرِبَ أَنَّ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ القُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ، أَلَا يُوشِكُ رَجُلٌ شَبْعَانٌ عَلَى أَرِيكَتِهِ يَقُولُ: عَلَيْكُمْ بِهَذَا القُرْآنِ، فما وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَلالٍ فَأَحِلُّوهُ، وما وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ، أَلَا لَا يَحِلُّ لَكُمْ لَحْمُ الحِمَارِ الأَهْلِيِّ،

ولا كلُّ ذي نابٍ من السَّبُع، ولا لُقطة معاهدٍ إلا أن يستغني عنها صاحبُها، ومَن نزلَ بقومٍ فعليهم أن يُقرَّوه؛ فإن لم يُقرَّوه فله أن يغصبهم بمثل قِراءه.

قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ كما في «مختصر الصَّواعق» (ص 445): «قال أبو العباس بن سُرَيْج: «وقد صَحَّ عن جميع أهل الدِّيانة والسُّنَّة إلى زماننا: أن جميع الآثار والأخبار الصَّادقة عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الصِّفات، يجب على المسلم الإيمان بها، وأن السُّؤال عن معانيها بدعة، والجواب كُفر وزندقة، مثل قوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢]، ونظائرها مما نطق به القرآن كالْفُوقِيَّةِ والنَّفْسِ واليَدَيْنِ والسمع والبصر وصُعود الكلام الطَّيِّبِ إليه والصَّحْكِ والتَّعَجُّبِ والنُّزُولِ كُلِّ ليلةٍ إلى سماء الدنيا». اهـ.

وقال رَحِمَهُ اللهُ في (ص 446): «قال ابنُ عبد البر: «أهل السُّنَّة مُجمِعون على الإقرار بالصِّفات الواردة كلها في القرآن والسنة، والإيمان بها، وحملها على الحقيقة لا على المَجَاز؛ لأنهم لا يُكَيِّفون شيئاً من ذلك». اهـ.

ثم قال: «وقال الخَلَّال: أخبرني عليُّ بن عيسى أن حنبلاً حدَّثهم قال: سألت أبا عبد الله عن الأحاديث التي تُروى أن الله عَزَّجَلَّ يَنْزِلُ إلى سماء الدنيا، وأن الله يُرى، وأنَّ الله يَضَعُ قَدَمَهُ... وما أشبه ذلك! فقال أبو عبد الله: نُؤْمِنُ بها ونُصَدِّقُ بها، ولا كَيْفَ ولا مَعْنَى، ولا نَرُدُّ منها شيئاً، ونَعْلَمُ أنَّ ما جاء به الرَّسُولُ حقٌّ إذا كانت بأَسَانِيدٍ صِحَاحٍ». اهـ.



«فَمِنْ ذَلِكَ: مِثْلُ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا كُلَّ لَيْلَةٍ حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟» (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ)».

بعد أن بيّن شيخ الإسلام رَحْمَةُ اللَّهِ أَنْ مِنْ عَقِيدَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ الْإِيمَانَ بما جاء في الكتاب والسُّنَّةِ، ومن ذلك إثباتُ الأسماء والصفات الواردة في كتاب الله والسُّنَّةِ الصَّحِيحَةِ، وبيّن أن السُّنَّةَ تُبَيِّنُ الْقُرْآنَ وتأتي بأُمُورٍ زائدة على ما في القرآن ومنها الأسماء والصفات؛ فقد ثَبَتَ بالسُّنَّةِ مِنْ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ مَا لَيْسَ فِي الْقُرْآنِ، ومنها صِفَةُ النُّزُولِ، وفيها عِدَّةٌ مَبَاحِثَ:

المبحث الأول:

دليلُ إثباتِ صِفَةِ النُّزُولِ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى الْوَجْهِ اللَّائِقِ بِعَظَمَةِ اللَّهِ وَجَلَالِهِ، بِلا تَمَثِيلٍ؛ عَمَلًا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]. وقد دَلَّ عَلَى إِثْبَاتِ نُزُولِ اللَّهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فِي الثَّلَاثِ الْآخِرِ مِنَ اللَّيْلِ السُّنَّةُ الْمُتَوَاتِرَةُ وَالْإِجْمَاعُ.

أما كَوْنُ السُّنَّةِ فِي ذَلِكَ مُتَوَاتِرَةً، فَقَدْ قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ كَمَا فِي «شرح حديث النُّزُولِ» (ص 102-103): «إن حديث النُّزُولِ مُتَوَاتِرٌ». اهـ.

وقال العلامة ابن القيم كَمَا فِي «مُخْتَصَرِ الصَّوَاغِقِ الْمُرْسَلَةِ» (ص 430): «وتواترت الرواية عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِنُزُولِ الرَّبِّ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا». اهـ.

وقال في (ص 423): «إن نُزُولَ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا قَدْ

تواترت الأخبارُ به عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ رواه عنه نحوُ ثمانية وعشرون نفساً من الصحابة». اهـ.

وقال اللالكائي في «أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (3 / 434): «سياق ما روي عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في نزول الربّ - تبارك وتعالى - رواه عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عشرون نفساً». اهـ.

وأما إجماع سلف الأمة على إثبات صفة النزول؛ فقد سئل شيخ الإسلام رحمه الله عن رجلين أحدهما مثبت للنزول ومُستدل بالحديث الوارد في ذلك، والآخر نافي للنزول كما في «مجموع الفتاوى» (5 / 322)، فقال: «الحمد لله رب العالمين، أما القائل الأول الذي ذكر نص النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد أصاب فيما قال؛ فإن هذا القول الذي قاله قد استفاضت به السنة عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واتفق سلف الأمة وأئمتها وأهل العلم بالسنة والحديث على تصديق ذلك وتلقيه بالقبول». اهـ.

ونقل رحمه الله كما في (5 / 578) عن أبي عمرو الطلمنكي قوله: «وأجمعوا على أن الله ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا على ما أتت به الآثار كيف شاء». اهـ.

وقال رحمه الله كما في (5 / 393): «وروي أبو عثمان النيسابوري عن حرب، قال: هذا مذهب أئمة العلم وأصحاب الحديث والآثر وأهل السنة المعروفين بها، وهو مذهب أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه والحميدي وغيرهم، كان قولهم: إن الله ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا كيف شاء وكما شاء ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾». اهـ.

المبحث الثاني:

أَنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ لَا يُكَيِّفُونَ نُزُولَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَلَا يُمَثِّلُونَهُ بِنُزُولِ خَلْقِهِ، وَقَدْ سَبَقَ قَرِيبًا أَنَّ أَئِمَّةَ الْعِلْمِ وَأَصْحَابَ الْحَدِيثِ وَالْأَثَرِ يُثَبِّتُونَ نُزُولَ اللَّهِ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا كَيْفَ شَاءَ وَكَمَا شَاءَ.

وقد قال إمامُ الأئمةِ محمد بن إسحاق بن خزيمة في «كتاب التوحيد» (1/289): «باب ذكر أخبار ثابتة السند صحيحة القوام رواها علماء الحجاز والعراق عن النبي صلى الله عليه وسلم في نزول الرب - جل وعلا - إلى السماء الدنيا كل ليلة، نشهد شهادة مقر بلسانه مُصدّق بقلبه مُستيقن بما في هذه الأخبار من ذكر نزول الرب من غير أن نَصِفَ الكيفية؛ لأن نبينا المصطفى لم يَصِفْ لنا كيفية نزول خالقنا إلى السماء الدنيا، وأعلمنا أنه ينزل، والله - جل وعلا - لم يترك ولا نبه عليه السلام بيان ما بالمسلمين الحاجة إليه من أمر دينهم، فنحن قائلون مُصدّقون بما في هذه الأخبار من ذكر النزول، غير مُتكلّفين القول بصفته أو بصفة الكيفية؛ إذ النبي صلى الله عليه وسلم لم يَصِفْ لنا كيفية النزول.

وفي هذه الأخبار ما بان وثبت وصح أن الله - جل وعلا - فوق سماء الدنيا الذي أخبرنا نبينا صلى الله عليه وسلم، وأنه ينزل إليه؛ إذ مُحالٌ في لغة العرب أن يقول: نزل من أسفل إلى أعلى، ومفهومٌ في الخطاب أن النزول من أعلى إلى أسفل». اهـ.

وقد نقل العلامة ابن القيم عن ابن عبد البر كما في «مختصر الصواعق» (ص 446) قوله: «أهل السنة مُجمعون على الإقرار بالصفات الواردة كلها في القرآن والسنة، والإيمان بها، وحملها على الحقيقة لا على المجاز، وأنهم لا يُكَيِّفُونَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ». اهـ.

وقال الإمام البخاري في «خلق أفعال العباد» (ص 17): «قال الفضيل بن

عِيَاض: إِذَا قَالَ لَكَ الْجَهْمِيُّ: أَنَا أَكْفَرُ بِرَبِّ يَزُولُ عَنْ مَكَانِهِ، فَقُلْ أَنْتَ: أَوْ مِنْ رَبِّ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ». اهـ.

وَقَالَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيْمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «مُخْتَصَرِ الصَّوَاغِقِ» (ص 446): «قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْحَاكِمُ: سَمِعْتُ أَبَا زَكَرِيَا الْعَنْبَرِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ إِبْرَاهِيمَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَحْمَدَ بْنَ سَعِيدِ الرَّابِطِيِّ يَقُولُ: حَضَرْتُ مَجْلِسَ الْأَمِيرِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاهِرٍ ذَاتَ يَوْمٍ وَحَضَرَ إِسْحَاقُ - يَعْنِي ابْنَ رَاهَوِيَّهَ - فَسُئِلَ عَنْ حَدِيثِ النُّزُولِ أَصَحِّحٌ هُوَ؟ قَالَ: نَعَمْ.

فَقَالَ لَهُ بَعْضُ قَوَادِ الْأَمِيرِ عَبْدِ اللَّهِ: يَا أَبَا يَعْقُوبَ، أَتَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ يَنْزِلُ كُلَّ لَيْلَةٍ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: كَيْفَ يَنْزِلُ؟

قَالَ لَهُ إِسْحَاقُ: أَثْبَتَهُ فَوْقَ حَتَّى أَصِفَ لَكَ نُزُولَهُ. فَقَالَ الرَّجُلُ: أَثْبَتَهُ فَوْقَ، فَقَالَ لَهُ إِسْحَاقُ: قَالَ اللَّهُ جَلَّ شَأْنُهُ: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢]، فَقَالَ الْأَمِيرُ عَبْدِ اللَّهِ بْنُ طَاهِرٍ: هَذَا يَوْمُ الْقِيَامَةِ. فَقَالَ إِسْحَاقُ: أَعَزَّ اللَّهُ الْأَمِيرَ، وَمَنْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ يَمْنَعُهُ الْيَوْمُ؟». اهـ.

المبحث الثالث:

أَنَّ صِفَةَ النُّزُولِ صِفَةٌ فِعْلِيَّةٌ عَلَى الْوَجْهِ اللَّائِقِ بِعَظَمَةِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ، لَا تَسْتَلْزِمُ حُدُوثًا وَلَا مُمَاطَلَةً لِلخَلْقِ، وَقَدْ ذَكَرَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيْمِ كَمَا فِي «مُخْتَصَرِ الصَّوَاغِقِ» (ص 192) أَنْ: «فِي الْقُرْآنِ عَشْرَةٌ آلَافٍ دَلِيلٍ عَلَى إِبْطَاتِ أَفْعَالِ اللَّهِ الْإِخْتِيَارِيَّةِ». اهـ.

قُلْتُ: وَفِي السُّنَّةِ مِثْلُ ذَلِكَ أَوْ أَكْثَرُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ كَمَا فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى» (5 / 577):

«والقول المشهور عند أهل السنة والحديث، هو الإقرار بما ورد به الكتاب والسنة من أنه - سبحانه - يأتي وينزل، وغير ذلك من الأفعال اللازمة». اهـ.

المبحث الرابع:

الجواب عن الْمُعْطَلَّة من الْمُعْتَزَلَة والأشاعرة وَمَنْ جَرَى مَجْرَاهُم الذين قالوا: إنَّ النَّزُولَ الْمُضَافَ إِلَى اللَّهِ مَجَازٌ عَنْ نَزُولِ أَمْرِهِ أَوْ رَحْمَتِهِ أَوْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَتِهِ، وَأَنَّ مَعْنَى النَّزُولِ مُطْلَقُ الْوُصُولِ.

وقد أجاب عنهم أهل السنة بما يلي:

1- أنَّ مَا ذَكَرُوهُ مِنْ مَجَازِ النَّزُولِ وَأَنَّهُ مُطْلَقُ الْوُصُولِ لَا يُعْرَفُ فِي كِتَابٍ وَلَا سُنَّةٍ، وَلَا لُغَةٍ وَلَا شَرْعٍ، وَلَا عُرْفٍ وَلَا اسْتِعْمَالٍ، فَلَا يَقَالُ لِمَنْ صَعَدَ إِلَيْكَ فِي سُلَّمٍ إِنَّهُ نَزَلَ إِلَيْكَ، وَلَا لِمَنْ جَاءَكَ مِنْ مَكَانٍ مُسْتَوٍ نَزَلَ، وَلَا يَقَالُ نَزَلَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ إِذَا جَاءَ، وَذَلِكَ جَدِيدٌ وَلُغَةٌ غَيْرُ مَعْرُوفَةٍ.

2- أَنَّهُ لَوْ عُرِفَ اسْتِعْمَالُ ذَلِكَ بِقَرِينَةٍ لَمْ يَكُنْ مُوجِبًا لِإِخْرَاجِ اللَّفْظِ عَنْ حَقِيقَتِهِ؛ حَيْثُ لَا قَرِينَةَ.

3- أَنَّ هَذَا يَرْفَعُ الْأَمَانَ وَالثِّقَةَ بِاللُّغَاتِ وَيُبْطِلُ فَائِدَةَ التَّخَاطُبِ؛ إِذْ لَا يَشَاءُ السَّامِعُ أَنْ يُخْرِجَ اللَّفْظَ عَنْ حَقِيقَتِهِ إِلَّا وَجَدَ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا. انظر «مُخْتَصَرُ الصَّوَاعِقِ» (ص 422-423).

4- أَنَّ الْخَبَرَ وَقَعَ عَنْ نَفْسِ ذَاتِ اللَّهِ تَعَالَى لَا عَنْ غَيْرِهِ، فَإِنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يَنْزِلُ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا»، فَهَذَا أَخْبَرَ عَنْ مَعْنَى لَا عَنْ لَفْظٍ، وَالْمُخْبَرُ عَنْهُ هُوَ مَسْمًى هَذَا الْأَسْمَ الْعَظِيمَ: اللَّهُ.

5- أَنَّ قَوْلَهُ: «مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيهِ؟ وَمَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟» إِذَا ضَمَّتْ

هذا القول إلى قوله: «يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا»، وإلى قوله: «فَيَقُولُ»، وإلى قوله: «لَا أَسْأَلُ عَنْ عِبَادِي غَيْرِي»؛ علمت أن هذا مُقْتَضَى الحقيقة لا المجاز.

6- أن أعلم الخلق بالله، وأنصحهم للأمة، وأقدّرهم على العبارة التي لا توقع لبساً؛ قد صرح بالنزول مضافاً إلى الربّ في جميع الأحاديث، ولم يذكر في موضع واحد ما ينفي الحقيقة؛ بل يؤكدها، فلو كانت إرادة الحقيقة باطلة وهي منفية، لزم القدح في علمه أو نصحه أو بيانه. انظر «مختصر الصواعق» (ص 425).

«وأما قولهم: إِنَّهُ يَنْزِلُ أَمْرُهُ، أو رحمته، أو ملكٌ من ملائكته. فباطلٌ من وجوهٍ إضافةً إلى ما سبق:

1- أن نزول الملائكة في كل وقتٍ وليس مُختصّاً بالثلث الأخير من الليل، ثم إن منتهى نزول الملائكة إلى الأرض وليس إلى السماء الدنيا فحسب، فالملائكة لا يختصّ نزولهم لا بهذا الزمان ولا بهذا المكان.

2- أن في الحديث أنه ينزل إلى السماء الدنيا ثم يقول: «لَا أَسْأَلُ عَنْ عِبَادِي غَيْرِي»، ومعلومٌ أن هذا كلامُ الله الذي لا يقوله غيره.

3- أنه قال: ينزل إلى السماء الدنيا فيقول: «مَنْ ذَا الَّذِي يَدْعُونِي فَاسْتَجِبْ لَهُ؟ مَنْ ذَا الَّذِي يَسْأَلُنِي فَأَعْطِيهِ؟ مَنْ ذَا الَّذِي يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟ حَتَّى يَطْلُعَ الْفَجْرُ»، ومعلومٌ أنه لا يُجيب الدعاء ويغفر الذنوب ويُعطي كلَّ سائلٍ سؤاله إلا الله، وأمره ورحمته لا تفعل شيئاً من ذلك.

4- أن نزول أمره ورحمته لا يكون إلا منه، وحينئذٍ فهذا يقتضي أن يكون هو فوق العالم، فنفس تأويله يُبطل مذهبه؛ ولهذا قال بعض النفاة لبعض

المُثَبِّتين: يَنزِلُ أمرُهُ ورحمته، فقال له المُثَبِّت: فَمِمَّنْ يَنزِلُ؟ ما عندك فوق شيء فلا ينزل منه لا أمرٌ ولا رحمةٌ ولا غيرُ ذلك؟! فُبْهَتَ النَّافِي وكان كبيراً فيهم.

5- أنه إذا قُدِّرَ أن النازلَ بعضُ الملائكة، وأنه يُنادي عن الله - كما حَرَّفَ بعضهم لفظَ الحديث، فرواه: «يُنزِلُ» من الفعل الرباعي المُتَعَدِّي، أنه يأمرُ مُنادياً يُنادي- لكان الواجبُ أن يقول: من يدَعُو اللهَ فَيَسْتَجِيبَ له؟ مَنْ يسأله فَيُعْطِيهِ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُهُ فَيَغْفِرَ له؟ كما ثَبَتَ في «الصَّحِيحِينَ» و«مُوطاً مالك» و«مسند أحمد بن حنبل» وغير ذلك عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «إِذَا أَحَبَّ اللهُ الْعَبْدَ نَادَى فِي السَّمَاءِ: يَا جِبْرِيلُ، إِنِّي أَحَبُّ فَلَانًا فَأَحِبَّهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي جِبْرِيلُ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فَلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوَضِّعُ لَهُ الْقَبُولَ فِي الْأَرْضِ»، وقال في البُغْضِ مِثْلَ ذلك، فقد بَيَّنَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْفَرْقَ بَيْنَ نِدَاءِ اللَّهِ وَنِدَاءِ جِبْرِيلَ، فقال في نِدَاءِ اللَّهِ: «يَا جِبْرِيلُ، إِنِّي أَحَبُّ فَلَانًا فَأَحِبَّهُ»، وقال في نِدَاءِ جِبْرِيلَ: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فَلَانًا فَأَحِبُّوهُ»، وهذا مُوجِبُ اللُّغَةِ التي بها حُوطُنَا، بل ومُوجِبُ جميع اللغات؛ فإن ضمير المُتَكَلِّمِ لا يقوله إلا المُتَكَلِّمُ، فأما مَنْ أَخْبَرَ عن غيره فإنما يأتي باسمه الظَّاهِرِ وضمائر الغيبة.

وهم يُمَثِّلون نداء الله بنداء السلطان، ويقولون: قد يقال: «نادى السلطان» إذا أمرَ غيره بالنداء، وهذا كما قالتِ الْجَهْمِيَّةُ الْمَحْضَةُ في تكليم الله لموسى: إنه أمرَ غيره فكلَّمه، لم يكن هو المُتَكَلِّمُ.

فيقال لهم: إن السلطان إذا أمرَ غيره أن يُنادي أو يُكلِّمَ غيره أو يُخاطِبُه، فإن المُنَادِي ينادي: معاشِرَ النَّاسِ، أمرَ السلطان بكذا، أو رَسَمَ بكذا، لا يقول: إني أنا أَمَرْتُكُمْ بذلك، ولو تكلَّم بذلك لأهانهُ النَّاسُ ولقالوا: مَنْ أَنْتَ حتَّى تأمرَنا؟!!

والمنادي كل ليلة يقول: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟ كما في ندائه لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤]، وقال: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠]، ومعلوم أن الله لو أمر ملكاً أن ينادي كل ليلة أو ينادي موسى، لم يقل الملك: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟ ولا يقول: «لا أسأل عن عبادي غيري». انظر «مجموع الفتاوى» (٥/ 416 - 418).

6- يقال لهؤلاء الْمُعْطَلَّة: أتريدون بقولكم: يَنْزِلُ أَمْرُهُ أَوْ رَحْمَتُهُ، أَمْرُهُ أَوْ رَحْمَتُهُ التي هي صِفَتُهُ الْقَائِمَةُ بِذَاتِهِ أَمْ مَخْلُوقًا مُنْفَصِلًا سَمِّيْتُمُوهُ رَحْمَةً وَأَمْرًا؟ فَإِنْ أَرَدْتُمْ الْأَوَّلَ فَتَزُولُهُ يَسْتَلْزِمُ نَزُولَ الذَّاتِ وَمَجِيئُهَا قِطْعًا، وَإِنْ أَرَدْتُمْ الثَّانِي كَانَ الَّذِي يَنْزِلُ وَيَأْتِي لِفَضْلِ الْقَضَاءِ مَخْلُوقًا مُحَدَّثًا لَا رَبَّ الْعَالَمِينَ، وَهَذَا مَعْلُومُ الْبُطْلَانِ قِطْعًا، وَهُوَ تَكْذِيبُ صَرِيحٍ لِلْخَبَرِ؛ فَإِنَّهُ يَصَحُّ مَعَهُ أَنْ يَقَالَ: لَا يَنْزِلُ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا وَلَا يَأْتِي لِفَضْلِ الْقَضَاءِ، وَإِنَّمَا الَّذِي يَنْزِلُ وَيَأْتِي غَيْرُهُ.

7- كَيْفَ يَصَحُّ أَنْ يَقُولَ ذَلِكَ الْمَخْلُوقُ: لَا أَسْأَلُ عَنْ عِبَادِي غَيْرِي، وَيَقُولُ: مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟ وَنُزُولَ رَحْمَتِهِ وَأَمْرِهِ مُسْتَلْزِمٌ لِنُزُولِهِ سُبْحَانَهُ وَمَجِيئِهِ، وَإِبْثَابُ ذَلِكَ لِلْمَخْلُوقِ مُسْتَلْزِمٌ لِلْبَاطِلِ الَّذِي لَا يَجُوزُ نِسْبَتُهُ إِلَيْهِ - سُبْحَانَهُ - مَعَ رَدِّ خَبَرِهِ صَرِيحًا.

8- أَنْ نَزُولَ رَحْمَتِهِ وَأَمْرِهِ لَا يَخْتَصُّ بِالثَّلَاثِ الْأَخِيرِ وَلَا بِوَقْتٍ دُونَ وَقْتٍ - يَنْزِلُ أَمْرُهُ وَرَحْمَتُهُ، فَلَا تَنْقَطِعُ رَحْمَتُهُ وَلَا أَمْرُهُ عَنِ الْعَالَمِ الْعُلَوِيِّ وَالسُّفْلِيِّ طَرَفَةً عَيْنٍ. انظر «مُخْتَصَرُ الصَّوَاغِقِ» (ص 451 - 452).

فَإِنْ قِيلَ: قَدْ رُوِيَ عَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ وَالْإِمَامِ مَالِكٍ أَنَّهُمَا تَأَوَّلَا النُّزُولَ بِنُزُولِ

أمره، فقد أجاب عن هذا شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كما في «مجموع الفتاوى» (16/ 405 - 406) حيث قال: «وقد اختلف أصحاب أحمد فيما نقله حنبل، فإنه لا ريب أنه على خلاف النصوص المتواترة عن أحمد في منعه من تأويل هذا وتأويل النزول والاستواء ونحو ذلك من الأفعال.

ولهم ثلاثة أقوال:

قيل: إن هذا غلط من حنبل انفرد به دون الذين ذكروا عنه المناظرة، مثل: صالح وعبد الله المروزي وغيرهم؛ فإنهم لم يذكروا هذا، وحنبل ينفرد بروايات يغلطه فيها طائفة كالخلال وصاحبه، قال أبو إسحاق بن شاقلا: هذا غلط من حنبل لا شك فيه.

وكذلك نقل عن مالك رواية أنه تأول «ينزل إلى السماء الدنيا»، أنه ينزل أمره، لكن هذا من رواية حبيب كاتبه وهو كذاب باتفاقهم، وقد رويت من وجه آخر لكن الإسناد مجهول.

والقول الثاني: قال طائفة من أصحاب أحمد: هذا قاله إلزاماً للخضم على مذهبه؛ لأنهم في يوم المحنة لما احتجوا عليه بقوله: «تأتي البقرة وآل عمران»، أجابهم بأن معناه: يأتي ثواب البقرة وآل عمران، كقوله: ﴿أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢١٠]؛ أي: أمره وقدرته على تأويلهم، لا أنه يقول بذلك؛ فإن مذهبه ترك التأويل.

والقول الثالث: أنهم جعلوا هذا رواية عن أحمد، وقد يختلف كلام الأئمة في مسائل مثل هذه، لكن الصحيح المشهور عنه رد التأويل، وقد ذكر الروايتين ابن الزاغوني وغيره، وذكر أن ترك التأويل في هذه الرواية المشهورة المعمول عليها عند عامة المشايخ من أصحابنا. اهـ.

وانظر أيضًا في هذا «مختصر الصواعق» (452-453)، و«فتح الباري» لابن رجب (7/229-230).

مسألة: عند نزول الله سبحانه وتعالى إلى سماء الدنيا، هل يخلو منه العرش أم لا؟

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كما في «مجموع الفتاوى» (5/414): «إنَّ أهل الحديث في هذا على ثلاثة أقوال:

منهم من يُنكر أن يقال: يخلو أو لا يخلو، كما يقول ذلك الحافظ عبد الغني وغيره.

ومنهم من يقول: بل يخلو منه العرش، وقد صنّف عبد الرحمن بن منده مُصنّفًا في الإنكار على مَنْ قال: لا يخلو من العرش، أو لا يخلو منه العرش.

وكثيرٌ من أهل الحديث يتوقّف عن أن يقول: يخلو أو لا يخلو، وجمهورهم على أنه لا يخلو منه العرش، وكثيرٌ منهم يتوقّف عن أن يقال: يخلو أو لا يخلو؛ لشكّهم في ذلك، وأنهم لم يتبيّن لهم جواب أحد الأمرين. وأما مع كون الواحد منهم قد ترجّح عنده أحد الأمرين، لكن يُمسك في ذلك؛ لكونه ليس في الحديث ولمّا يخاف من الإنكار عليه. وأما الجزم بخلو العرش فلم يبلغنا إلا عن طائفة قليلة منهم.

والقول الثالث، وهو الصواب، وهو المأثور عن سلف الأمة وأئمتها: أنه لا يزال فوق العرش منه مع دُئوه ونُزوله إلى السماء الدنيا، ولا يكون العرش فوقه، وكذلك يوم القيامة كما جاء به الكتاب والسنة، وليس نزوله كنزول أجسام بني آدم من السطح إلى الأرض، بحيث يبقى السقف فوقهم، بل الله مُنزه عن

ذلك». اهـ.

وقد ورد حديثُ النزول وفي ألفاظه اختلافٌ من حيث تحديد وقتِ النزول، فاختلفت كلمةُ العلماء في توجيه تلك الروايات، فروايةُ البخاري ومسلم بلفظ: «يَنزِلُ رَبُّنَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا كُلَّ لَيْلَةٍ حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ».

وفي لفظٍ لمُسلم: «يَنزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا إِذَا انْقَضَى شَطْرُ اللَّيْلِ».

وفي لفظٍ لمُسلم: «يَنزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا إِذَا انْقَضَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْأَوَّلِ».

قال شيخُ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ فِي «شرح حديثِ النزول» (ص 102-103): «النزول المذكور في الحديث النبوي على قائله أفضل الصلاة والسلام الذي اتفق الشَّيْخَانِ وَاتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى صِحَّتِهِ، هُوَ: «إِذَا بَقِيَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ». وأما روايةُ النِّصْفِ وَالثُّلُثِ الْأَوَّلِ، فإنفرد بها مسلمٌ في بعض طُرُقِهِ، وقد قال التِّرْمِذِيُّ: «إِنْ أَصَحَّ الرَّوَايَاتُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: إِذَا بَقِيَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ».

وقد رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ رِوَايَةِ جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ كَمَا ذُكِرَ قَبْلَ هَذَا، فَهُوَ حَدِيثٌ مُتَوَاتِرٌ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ بِالْحَدِيثِ، وَالَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ: «إِذَا بَقِيَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ»، فَإِذَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ ذَكَرَ النَّزُولَ أَيْضًا إِذَا انْقَضَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْأَوَّلِ وَإِذَا انْتَصَفَ اللَّيْلِ، فَقَوْلُهُ حَقٌّ وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ، وَيَكُونُ النَّزُولُ أَنْوَاعًا ثَلَاثَةً». اهـ.

وقال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ كَمَا فِي «مُخْتَصَرِ الصَّوَاغِقِ» (ص 431): «وهذه الألفاظُ لَا تَعَارُضُ بَيْنَهَا بِحَمْدِ اللهِ؛ فَإِنَّهَا اتَّفَقَتْ عَلَى دَوَامِ النَّزُولِ الْإِلَهِيِّ

إلى طلوع الفجر، واتفقت على حصوله في الشَّطْر الثاني من الليل، واختلفت في أوَّله على ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه أوَّل الثُّلث الثاني.

الثاني: أنه أوَّل الشَّطْر الثاني.

الثالث: أنه أوَّل الثُّلث الأخير.

وإذا تأملتَ هاتين الروايتين لم تجد بينهما تعارضًا.

بقيت رواية: «إذا مضى ثلث الليل الأوَّل»، وهي تحتُمِل ثلاثة أوجه:

أحدها: أن لا تكونَ محفوظةً، وتكون من قبَل حفظ الرَّاوي؛ فإن أكثر الأحاديث على الثُّلث الأخير.

الثاني: أن يكون الثُّلث الأوَّل والشَّطْر والثلث الأخير على حسب اختلاف بلاد الإسلام في ذلك، ويكون النُّزول في وقتٍ واحد: وهو ثُلث الليل الأخير عند قوم، ووسطه عند الآخرين، وثُلثه الأوَّل عند غيرهم، فيصح نسبته إلى الأوقات الثلاثة، وهو حاصلٌ في وقت واحد.

وعلى هذا فالشُّبهة العقلية التي عارض بها الثُّفأة حديث النُّزول تكون هذه الألفاظ قد تضمَّنت الجواب عنها، فإن هذا النُّزول لا يُنافي كونه في الثُّلث الأخير كونه في الثُّلث الأوَّل أو في الشَّطْر الثاني بالنسبة إلى المطالع». اهـ.



«وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لِلَّهِ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ بِرَاحِلَتِهِ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ».

أراد شيخ الإسلام بإيراد هذا الحديث إثبات صفة الفرح لله، وهي صفة فعلية خبرية متعلقة بالمشيئة، مقرونة بالحكمة على الوجه اللائق بعظمة الله وجلاله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وهذه الصفة دلّ عليها النص والإجماع:

أما النص فهو حديث أنس في الصحيحين أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لِلَّهِ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ سَقَطَ عَلَى بَعِيرِهِ وَقَدْ أَضَلَّهُ فِي أَرْضٍ فَلَاةٍ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وفي رواية لمسلم: «لِلَّهِ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشِرَابُهُ فَأَيْسَ مِنْهَا، فَأَتَتْ شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا وَقَدْ أَيْسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ هُوَ بِهَا قَائِمَةٌ عِنْدَهُ، فَاخَذَ بِخِطَامِهَا، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ؛ أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ».

وأهل السنة مُجْمِعُونَ سَلَفًا وَخَلَفًا مِنْ لَدُنِ الصَّحَابَةِ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا عَلَى إِثْبَاتِ صِفَاتِ اللَّهِ، وَمِنْهَا صِفَاتُهُ الْفَعْلِيَّةُ الْاخْتِيَارِيَّةُ، كَالْفَرَحِ وَالْغَضَبِ وَالرِّضَا وَالنُّزُولِ وَغَيْرِهَا.

قال أبو إسماعيل الصَّابُونِي فِي «عَقِيدَةِ السَّلَفِ أَصْحَابِ الْحَدِيثِ» (ص 5): «وَكَذَلِكَ يَقُولُونَ فِي جَمِيعِ الصِّفَاتِ - أَي: يُثَبِّتُونَهَا عَلَى الْوَجْهِ اللَّائِقِ بِاللَّهِ - الَّتِي

نَزَلَ بِذِكْرِهَا الْقُرْآنُ وَوَرَدَتْ بِهَا الْأَخْبَارُ الصَّحَاحُ مِنَ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْعَيْنِ وَالْفَرَحِ وَالصَّحِيحِ وَغَيْرِهَا». اهـ.

وهكذا ذَكَرَ هَذِهِ الصِّفَةَ جَمْعٌ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ سَلَفًا وَخَلَفًا، دُونَ تَعَرُّضٍ لِتَأْوِيلِهَا كَمَا فَعَلَ أَهْلُ الْبِدْعِ مِنَ الْمُعْطَلَةِ، وَمَمَّنْ ذَكَرَهَا الدَّارِمِيُّ فِي رَدِّهِ عَلَى بَشِيرِ الْمَرِيسِيِّ (ص 200).

وَقَالَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «مَدَارِجِ السَّالِكِينَ» (3 / 150): «وَالْفَرَحُ صِفَةُ كَمَالٍ، وَلِهَذَا يُوصَفُ سَبْحَانَهُ بِأَعْلَى أَنْوَاعِهِ وَأَكْمَلِهَا، كَفَرَحِهِ سَبْحَانَهُ بِتَوْبَةٍ عِنْدَهُ... إِلَى أَنْ قَالَ: وَالْفَرَحُ بِالشَّيْءِ فَوْقَ الرِّضَا بِهِ؛ فَإِنَّ الرِّضَا طُمَأْنِينَةٌ وَسُكُونٌ وَانْشِرَاحٌ، وَالْفَرَحُ لَذَّةٌ وَبَهْجَةٌ وَسُرُورٌ، فَكُلُّ فَرَحٍ رَاضٍ وَلَيْسَ كُلُّ رَاضٍ فَرَحًا». اهـ.

وَقَالَ الْعَلَّامَةُ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «التَّنْبِيهَاتِ اللَّطِيفَةِ» (ص 50) فِي الْكَلَامِ عَلَى حَدِيثِ الْفَرَحِ السَّابِقِ: «وَهَذَا فَرَحٌ جَوْدٍ وَإِحْسَانٍ؛ لِأَنَّهُ - جَلَّ جَلَالُهُ - يُنَوِّعُ جُودَهُ وَكَرَمَهُ عَلَى عِبَادِهِ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ، وَيُحِبُّ مَنْ عِبَادَهُ أَنْ يَسْلُكُوا كُلَّ طَرِيقٍ يُوصِلُهُمْ إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ وَإِحْسَانِهِ، وَيَكْرَهُ لَهُمْ ضِدَّ ذَلِكَ، فَإِنَّهُ - تَعَالَى - جَعَلَ لِرَحْمَتِهِ وَكَرَمِهِ أَسْبَابًا بَيْنَهَا لِعِبَادِهِ وَحَثَّهُمْ عَلَى سُلُوكِهَا، وَأَعَانَهُمْ عَلَيْهَا وَنَهَاهُمْ عَمَّا يُنَافِيهَا وَيَمْنَعُهَا، فَإِذَا عَصَوْهُ وَبَارَزُوهُ بِالذُّنُوبِ فَقَدْ تَعَرَّضُوا لِعُقُوبَاتِهِ الَّتِي لَا يُحِبُّ مِنْهُمْ أَنْ يَتَعَرَّضُوا لَهَا، فَإِذَا رَجَعُوا إِلَى التَّوْبَةِ وَالْإِنَابَةِ فَرِحَ بِذَلِكَ أَعْظَمَ فَرَحٍ يُقَدَّرُ، فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي الدُّنْيَا نَظِيرُ فَرَحٍ هَذَا الَّذِي فِي أَرْضٍ فَلَاةٍ مُهْلِكَةٍ، وَقَدْ انْفَلَتَتْ مِنْهُ رَاحِلَتُهُ الَّتِي عَلَيْهَا مَادَّةُ حَيَاتِهِ مِنْ طَعَامٍ وَشَرَابٍ وَرُكُوبٍ، فَأَيَّسَ مِنْهَا وَجَلَسَ يَنْتَظِرُ الْمَوْتَ، فَإِذَا هُوَ بِهَا وَاقِفَةٌ عَلَى رَأْسِهِ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا وَكَادَ الْفَرَحُ أَنْ يَقْضِيَ عَلَيْهِ وَقَالَ مِنَ الدَّهْشَةِ وَشِدَّةِ الْفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ،

فتبارك الربُّ الكريم الجواد الذي لا يُحصي العبادُ ثناءً عليه هو كما أثنى على نفسه، وفوق ما يثني عليه عباده. وهذا الفرحُ تبعٌ لغيره من الصفات، كما تقدّم أن الكلام على الصفات يتبع الكلام على الذات، فهذا فرحٌ لا يُشبه فرحَ أحدٍ من خلقه، لا في ذاته، ولا في أسبابه، ولا في غاياته، فسببُه الرَّحمة والإحسان، وغايته إتمام نعمته على التائبين المنيبين». اهـ.

وقد قال ابنُ القيم في «مدارج السالكين» (1/ 231) في الكلام على الحديث السابق: «وفي الحديث من قواعد العلم: أن اللفظ الذي يجري على لسان العبد خطأ من فرح شديد أو غيظ شديد ونحوه لا يُؤاخذُ به، ولهذا لم يكن هذا كافراً بقوله: «أنت عبيدي وأنا ربُّك».

ومعلومٌ أن تأثير الغضب في عدم القصد يصل إلى هذه الحال أو أعظم منها، فلا ينبغي مؤاخذة الغضبان بما صدر منه في حال شدة غضبه من نحو هذا الكلام، ولا يقع طلاقه بذلك ولا ردُّه.

وقد نصَّ الإمام أحمد على تفسير الإغلاق في قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا طلاق في إغلاق»، بأنه الغضب.

وفسّره به غير واحد من الأئمة، وفسّروه بالإكراه والجنون.

قال شيخنا: وهو يعمُّ هذا كله، وهو من العلق؛ لانغلاق قصد المتكلم عليه، فكأنه لم يفتح قلبه لمعنى ما قاله». اهـ.

وفي الحديث أيضاً:

1- أن فرحه سبحانه يتفاضل.

2- فيه فضل التوبة إلى الله سبحانه وتعالى.

3- أنه سبحانه يقبل توبة عبده ويفرح بها إذا وقعت على الوجه المُعتبر شرعاً.

4- فيه دليل على أن الإنسان إذا جرى على لسانه كلمة كفر من شدة دهشٍ ونحو ذلك، أو حكى كفراً؛ أنه لا يكفر بذلك ولا يؤاخذ به». اهـ. «التبسيهات السنّية» (ص 162).

وقد حرّف المُعطّلة - على عاداتهم - هذا النصّ الدال على إثبات الفرح لله على الوجه اللائق بجلاله، فقالت المُعطّلة من المُعتزلة: «إن الله لا يفرح ولا يُوصف بالفرح، والمراد بفرحه ثوابه للتائب». وقالت الأشاعرة: «المراد بالفرح إرادة الثواب».

وهم مَحْجُوجُونَ بالنصّ والإجماع، وأهل السنّة أسعدُ بالنقل وطريقة السلف من الصّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ والتّابعين لهم بإحسان، ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: ٤٠].



«وَقَوْلُهُ: «عَجِبَ رَبُّنَا مِنْ قُنُوطِ عِبَادِهِ وَقُرْبِ غَيْرِهِ، يَنْظُرُ إِلَيْكُمْ أَزْلَيْنَ قَنِطَيْنِ، فَيَظْلُ يَضْحَكُ يَعْلَمُ أَنَّ فَرَجَكُمْ قَرِيبٌ». (حَدِيثٌ حَسَنٌ)».

أورد المؤلف هذا الحديث لإثبات صفة العَجَبِ لله، وهي من الصفات الخبرية الفعلية الثابتة بالكتاب والسنة والإجماع.

أما الكتاب، فقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ [الصفات: ١٢]، بضمّ التاء.

قال عبد الرحمن بن زَنْجَلَةَ في كتابه «حُجَّةُ الْقِرَاءَاتِ» (ص 606): «قرأ حمزة والكسائي: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ بضمّ التاء، وقرأ الباقون بفتح التاء...».

إلى أن قال: «قال أبو عبيد: قوله: ﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ بالنصب: بل عَجِبْتَ يا مُحَمَّدٌ من جَهْلِهِمْ وتكذيبهم، وهم يَسْخَرُونَ منك، ومن قرأ: ﴿عَجِبْتُ﴾ بالضم - فهو إخبارٌ عن الله عزَّ وجلَّ». اهـ.

وقال ابن جرير في تفسيره: «قوله: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾؛ اختلف القراء في قراءة ذلك؛ فقرأته عامة قراء الكوفة: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ بضمّ التاء من: ﴿عَجِبْتُ﴾، بمعنى: بل عَظُمَ عندي وكَبُرَ اتِّخَاذُهُمْ لي شريكاً وتكذيبهم تنزيلي وهم يَسْخَرُونَ، وقرأ عامة قراء المدينة والبصرة وبعض قراء الكوفة: ﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ بفتح التاء، بمعنى: بل عَجِبْتَ أَنْتَ يا مُحَمَّدٌ، وَيَسْخَرُونَ من هذا القرآن.

والصواب من القول في ذلك أن يُقال: إنهما قراءتان مشهورتان في قراء

الأمصار؛ فبأيتهما قرأ القارئ فمُصِيبٌ.

فإن قال قائلٌ: وكيف يكون مُصِيبًا القارئُ بهما مع اختلاف معنييهما؟!
 قيل: إنَّهما وإن اختلفت معنياهما؛ فكلُّ واحد من معنييه صحيحٌ، قد عَجِبَ
 محمدٌ مما أعطاه الله من الفضل، وسَخِرَ منه أهلُ الشُّرك بالله، وقد عَجِبَ ربُّنا من
 عظيم ما قاله المُشركون في الله، وسَخِرَ المشركون بما قالوه». اهـ.
 أما السُّنة فمن ذلك:

1- ما رواه البخاريُّ في صحيحه عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ
 صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «عَجِبَ اللهُ من قومٍ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ في السَّلاسلِ».

2- ما رواه البخاريُّ في صحيحه عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: «أتى رجلٌ
 رسولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: يا رسولَ الله، أصابني الجَهدُ، فأرسلَ إلى نِسائي
 فلم يَجِدْ عندهنَّ شيئاً، فقال رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ألا رجلٌ يُضَيِّفه الليلةَ
 يَرحمُهُ اللهُ؟»، فقام رجلٌ من الأنصار، فقال: أنا يا رسولَ الله، فذهبَ إلى أهله
 فقال لامراته: ضَيِّفِ رسولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا تَدَّخِرِيه شيئاً، فقالت: والله ما
 عندي إلا قُوتُ الصَّبيَّة، قال: فإذا أَرَادَ الصَّبيَّةُ العِشاءَ فنوِّمِيهم وتعالِي فأطْفِئِي
 السَّراجَ، ونطوي بَطوننا اللَّيلةَ! ففعلتُ، ثم غدا الرجلُ على رسولِ الله
 صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: لقد عَجِبَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ - أو ضَحِكَ - من فلانٍ وفُلانة، فَأَنْزَلَ
 اللهُ عَزَّوَجَلَّ ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

وأخرجه مسلمٌ في صحيحه بلفظ: «قد عَجِبَ اللهُ من صَنِيعِكما بَضَيِّفِكما
 اللَّيلةَ». بدون شكٍّ من الراوي.

3- حديثُ عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: قال رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

«عَجِبَ رَبُّنا من رجلٍ غَزَا في سبيل الله، فانهَزَمَ أصحابُه، فعَلِمَ ما عليه، فرَجَعَ حتَّى أُهْرِيقَ دَمُه، فيقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ لملائكته: انظُرُوا إلى عبيدي؛ رَجَعَ رَغْبَةً فيما عندي وشفقةً مما عندي حتَّى أُهْرِيقَ دَمُه». أخرجه أبو داود وغيره، وحسنه العلامة الألباني في «صحيح الجامع» برقم (3981).

4- ما رواه الحاكم في مُستدركه، ومن طريقه البيهقي في «الأسماء والصفات» بسند صحيح، عن الأعمش عن أبي وائل شقيق بن سلمة، قال: «قرأ عبد الله - يعني: ابن مسعود - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾، قال شريح: إِنَّ اللهَ لا يَعَجِبُ من شيءٍ، إنما يَعَجِبُ مَنْ لا يَعْلَمُ. قال الأعمش: فذكرتُ لإبراهيم فقال: إِنَّ شريحًا كان يُعْجِبُه رأيه، إِنَّ عبدَ الله كان أَعْلَمَ من شريح، وكان يَقْرأها: ﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾».

وقد أجمع أهلُ السُّنة والجماعة سلفًا وخلفًا على إثبات هذه الصِّفة على الوجه الذي يليق بالله، دون تمثيل ولا تكيف، ولا زال أهلُ السُّنة يذكرون هذه الصِّفة في كتبهم، ومنهم ابنُ أبي عاصم في كتابه «السُّنة» (1/ 249)؛ حيث قال: «باب: في تعجُّب ربِّنا من بعض ما يصنع عباده مما يُتَقَرَّبُ به إليه»، ثم ذكر عدة أحاديث في ذلك.

ومنهم الأصبهاني في «الحُجَّة» (2/ 457)؛ حيث قال: «وقال قوم: لا يُوصَفُ اللهُ بأنه يَعَجِبُ؛ لأنَّ العَجَبَ ممَّن يَعْلَمُ ما لم يكن يَعْلَمُ، واحتجَّ مُثْبِتُ هذه الصِّفة بالحديث وبقراءة أهل الكوفة: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾، على أنَّه إخبارٌ من الله عَزَّوَجَلَّ عن نفسه». اهـ.

وقد قال شيخُ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ كما في «مجموع الفتاوى» (6/ 123): «وأما قوله: (التَّعَجُّبُ: استِعْظَامٌ لِلْمُتَعَجِّبِ منه)، فيقال: نعم، وقد

يكون مقروناً بجهل بسبب التعجب، وقد يكون لِمَا خَرَجَ عن نظائره، والله تعالى بكل شيء عليم، فلا يجوز عليه أن لا يعلم سبب ما تعجب منه؛ بل يتعجب لخروجه عن نظائره تعظيماً له، والله تعالى يُعْظَمُ ما هو عظيم؛ إما لعظمة سببه أو لعظمته.

فإنه وَصَفَ بعض الخير بأنه عظيم، ووصف بعض الشر بأنه عظيم، فقال تعالى: ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩]، وقال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْءَانَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧]، وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ [النساء: ٦٦]، وقال: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَنَكَ هَذَا مُبْتَنًى عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦]، وقال: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

ولهذا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾، على قراءة الضم، فهذا عَجِبَ من كُفْرِهِمْ مع وُضُوح الأدلة. اهـ.



«وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَضْحَكُ اللَّهُ إِلَى رَجُلَيْنِ يَقْتُلُ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ، كلاهما يَدْخُلُ الْجَنَّةَ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ».

تمامُ الحديث السابق كما في «صحيح مسلم» برقم (1890): «فقالوا: كيف يا رسول الله؟ قال: يُقَاتِلُ هذا في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، فيُستشهد، ثم يَتُوبُ الله على القاتل فيُسلِّم فيُقاتِلُ في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ فيُستشهد».

وقد أورد شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الحديث لإثبات صفة الضحك لله، وهي صفة فعلية خبرية على الوجه اللائق بعظمة الله وجلاله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، فلا تمثيل ولا تكيف.

وقد دلَّ على إثبات هذه الصفة السُّنَّة والإجماع.

ومن أدلة السُّنَّة - إضافةً إلى الحديث الذي ذكره المؤلف - ما رواه مسلمٌ في صحيحه من حديث ابن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «آخِرُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ رَجُلٌ، فهو يمشي مرَّةً ويكَبُّو مرَّةً وتُسْفَعُ النارُ مرَّةً، فإذا ما جاوزها التفت إليها فقال: تبارك الذي نجاني منك؛ لقد أعطاني الله شيئاً ما أعطاه أحداً من الأولين والآخرين، فترفع له شجرة فيقول: أي رب أدنني من هذه الشجرة، فلاستظل بظلها وأشرب من مائها، فيقول الله عَزَّوَجَلَّ: يا بن آدم، لعلِّي إن أعطيتكها سألتني غيرها، فيقول: لا يا رب، ويُعاهدُه أن لا يسأله غيرها، وربُّه يعذره لأنه يرى ما لا صبر له عليه، فيدنيه منها فيستظل بظلها ويشرب من مائها. ثم ترفع له شجرة هي أحسن من الأولى، فيقول: أي رب أدنني من هذه لأشرب من مائها وأستظل بظلها، لا أسألك غيرها، فيقول: يا بن آدم، ألم تُعاهدني ألا تسألني غيرها؟ فيقول: لعلِّي إن أدنيتك منها تسألني غيرها؟ فيُعاهدُه ألا يسأله

غيرها، وربُّه يَعْذِرُهُ لَأَنَّهُ يَرَى مَا لَا صَبْرَ لَهُ عَلَيْهِ، فَيُؤْنِسُهُ مِنْهَا فَيَسْتَظِلُّ بِظِلِّهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَائِهَا. ثُمَّ تُرْفَعُ لَهُ شَجَرَةٌ عِنْدَ بَابِ الْجَنَّةِ هِيَ أَحْسَنُ مِنَ الْأَوَّلِينَ، فيقول: أَيُّ رَبِّ أَذْنُنِي مِنْ هَذِهِ لِأَسْتَظِلَّ بِظِلِّهَا وَأَشْرَبَ مِنْ مَائِهَا، لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا. فيقول: يَا بَنَ آدَمَ، أَلَمْ تُعَاهِدْنِي إِلَّا تَسْأَلَنِي غَيْرَهَا؟ قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ، هَذِهِ لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا، وَرَبُّهُ يَعْذِرُهُ لَأَنَّهُ يَرَى مَا لَا صَبْرَ لَهُ عَلَيْهِ، فَيُؤْنِسُهُ مِنْهَا، فَإِذَا أَذْنَاهُ مِنْهَا فَيَسْمَعُ أَصْوَاتَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فيقول: أَيُّ رَبِّ أَدْخِلْنِيهَا، فيقول: يَا بَنَ آدَمَ، مَا يَصْرِفُنِي مِنْكَ؟ أَتُرْضِيكَ أَنْ أُعْطِيَكَ الدُّنْيَا وَمِثْلَهَا مَعَهَا؟ قَالَ: يَا رَبِّ أَتُسْتَهْزِئُ مِنِّي وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ.

فَضَحِكَ ابْنُ مَسْعُودٍ، فَقَالَ: أَلَا تَسْأَلُونِي مِمَّا أَضْحَكُ؟ فَقَالُوا: مِمَّ تَضْحَكُ؟ قَالَ: هَكَذَا ضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالُوا: مِمَّ تَضْحَكُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: مِنْ ضَحِكِ رَبِّ الْعَالَمِينَ حَيْثُ قَالَ: أَتُسْتَهْزِئُ مِنِّي وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ فيقول: إِنِّي لَا أَتُسْتَهْزِئُ مِنْكَ، وَلَكِنِّي عَلَى مَا أَشَاءُ قَادِرٌ.

فائدة:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «التَّسْعِينِيَّةِ» (3 / 915): «إِنْ أَحَادِيثُ الضَّحِكِ مُتَوَاتِرَةٌ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ». اهـ.

وقد أَجْمَعَ أَهْلُ السُّنَّةِ عَلَى إِبْثَاتِ هَذِهِ الصِّفَةِ الْخَبَرِيَّةِ الْفِعْلِيَّةِ دُونَ تَمْثِيلٍ أَوْ تَكْيِيفٍ، خِلَافًا لِلْمُعْطَلَةِ الَّذِينَ لَمْ يُثْبِتُوا هَذِهِ الصِّفَةَ، وَأَوَّلُوهَا إِلَى الرِّضَا الَّذِي هُوَ عِنْدَ بَعْضِهِمْ كَالْمُعْتَزَلَةِ: الثَّوَابُ، وَعِنْدَ الْأَشَاعِرَةِ: إِرَادَةُ الثَّوَابِ، وَهَذَا تَحْرِيفٌ وَاضِحٌ لِلنَّصُوصِ.

قال الإمام ابنُ خَزِيمَةَ فِي «كِتَابِ التَّوْحِيدِ» (2 / 563): «بَابُ ذِكْرِ إِبْثَاتِ ضَحِكِ رَبِّنَا عَزَّ وَجَلَّ بِلا صِفَةٍ تَصِفُ ضَحِكَهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ، لَا وَلَا يُشَبِّهُ ضَحِكَهُ

بَضْحِكِ المَخْلُوقِينَ، وَضَحِكُهُمْ كَذَلِكَ، بَلْ نَوْمنَ بِأَنَّهُ يَضْحَكُ - كَمَا أَعْلَمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَنَسَكْتُ عَنْ صِفَةِ ضَحِكِهِ جَلَّ وَعَلَا؛ إِذِ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ اسْتَأْثَرَ بِصِفَةِ ضَحِكِهِ، لَمْ يُطْلَعْنَا عَلَى ذَلِكَ، فَنَحْنُ قَائِلُونَ بِمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مُصَدِّقُونَ بِذَلِكَ بِقُلُوبِنَا، مُنْصِتُونَ عَمَّا لَمْ يُبَيِّنْ لَنَا مِمَّا اسْتَأْثَرَ اللَّهُ بِعِلْمِهِ». اهـ.

وقال الإمام الأجرِيُّ في «الشريعة» (ص 277): «باب الإيمان بأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يَضْحَكُ:

اعلموا - وَفَقْنَا اللَّهَ وَإِيَّاكُمْ لِلرَّشَادِ مِنَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ -: أَنَّ أَهْلَ الْحَقِّ يَصِفُونَ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ عَزَّوَجَلَّ، وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَبِمَا وَصَفَهُ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَهَذَا مَذْهَبُ الْعُلَمَاءِ مِمَّنْ اتَّبَعَ وَلَمْ يَتَدَعِ، وَلَا يُقَالُ فِيهِ: كَيْفَ؟ بَلِ التَّسْلِيمُ لَهُ، وَالْإِيمَانُ بِهِ، أَنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ يَضْحَكُ، كَذَا رَوَى عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَنِ صَحَابَتِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فَلَا يُنْكَرُ هَذَا إِلَّا مَنْ لَا يُحْمَدُ حَالُهُ عِنْدَ أَهْلِ الْحَقِّ». اهـ.

وقال الحافظُ ابنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «رِسَالَةِ الْعَقَائِدِ» كَمَا فِي «عِلَاقَةِ الْإِثْبَاتِ وَالتَّقْوِيضِ» (ص 51) لِرِضَا نَعْسَانَ: «إِذَا نَطَقَ الْكِتَابُ الْعَزِيزُ، وَوَرَدَتِ الْأَخْبَارُ الصَّحِيحَةُ بِإِثْبَاتِ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ، وَالْعَيْنِ وَالْوَجْهِ، وَالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ، وَالْقُوَّةِ وَالْعِظَمَةِ، وَالْمَشِيئَةِ وَالْإِرَادَةِ، وَالْقَوْلِ وَالْكَلَامِ، وَالرِّضَا وَالسُّخْطِ، وَالْحُبِّ وَالْبُغْضِ، وَالْفَرَحِ وَالضَّحْكَ: وَجَبَ اعْتِقَادُ حَقِيقَتِهِ مِنْ غَيْرِ تَشْبِيهِ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ بِصِفَاتِ الْمَرْبُوبِينَ الْمَخْلُوقِينَ، وَالْإِنْتِهَاءُ إِلَى مَا قَالَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَرَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ غَيْرِ إِضَافَةٍ وَلَا زِيَادَةٍ عَلَيْهِ، وَلَا تَكْيِيفٍ لَهُ، وَلَا تَشْبِيهِ، وَلَا تَحْرِيفٍ، وَلَا تَبْدِيلٍ، وَلَا تَغْيِيرٍ، وَإِزَالَةِ لَفْظٍ عَمَّا تَعْرِفُهُ الْعَرَبُ وَتَصْرِفُهُ عَلَيْهِ، وَالْإِمْسَاكُ عَمَّا سِوَى ذَلِكَ». اهـ.

وقد أجاب شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ كما في «مجموع الفتاوى» (6/ 121-122) عن الذين أولوا هذه الصفة بحجة تنزيه الله عن مماثلة المخلوقين؛ لأن الضحك خفة روح، فقال: «وقول القائل: إِنَّ الضَّحْكَ خِفَّةُ رُوحٍ. ليس بصحيح، وإن كان ذلك قد يُقَارَنُه. ثم قول القائلون: خِفَّةُ الرُّوحِ إِنْ أَرَادَ بِهِ وَصْفًا مَذْمُومًا؛ فهذا يكون لِمَا لَا يَنْبَغِي أَنْ يُضْحَكَ مِنْهُ، وَإِلَّا فَالضَّحْكَ فِي مَوْضِعِهِ الْمُنَاسِبِ لَهُ صِفَةٌ مَدْحٌ وَكَمَالٌ، وَإِذَا قُدِّرَ حَيَّانٌ أَحَدُهُمَا يَضْحَكُ مِمَّا يُضْحَكُ مِنْهُ، وَالْآخَرُ لَا يَضْحَكُ قَطُّ، كَانَ الْأَوَّلُ أَكْمَلَ مِنَ الثَّانِي.

ولهذا قال النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَنْظُرُ إِلَيْكُمْ رَبُّ قَنِطِينٍ، فَيَظَلُّ يَضْحَكُ؛ يَعْلَمُ أَنَّ فَرْجَكُمْ قَرِيبٌ»، فقال له أبو رزين العقيلي: يا رسول الله، أَوَيَضْحَكُ الرَّبُّ؟ قال: «نعم»، قال: لن نعدم من ربٍّ يضحك خيرًا.

فجعل الأعرابي العاقل -بصحة فطرته- ضحكاً دليلاً على إحسانه وإنعامه؛ فدلَّ على أن هذا الوصف مقرونٌ بالإحسان المحمود، وأنه من صفات الكمال، والشخصُ العبوسُ الذي لَا يَضْحَكُ قَطُّ هو مَذْمُومٌ بِذَلِكَ، وَقَدْ قِيلَ فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْعَذَابِ: إِنَّهُ ﴿يَوْمًا عَبُوسًا قَتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ١٠].

وقد روي أن الملائكة قالت لآدم: حيَّاك الله وبيَّاك! أي: أضحكك. والإنسان حيوانٌ ناطقٌ ضاحكٌ، وما يُمَيِّزُ الْإِنْسَانَ عَنِ الْبَهِيمَةِ صِفَةُ كَمَالٍ، فَكَمَا أَنَّ النَّطْقَ صِفَةُ كَمَالٍ، فَكَذَلِكَ الضَّحْكُ صِفَةُ كَمَالٍ، فَمَنْ يَتَكَلَّمُ أَكْمَلَ مِمَّنْ لَا يَتَكَلَّمُ، وَمَنْ يَضْحَكُ أَكْمَلَ مِمَّنْ لَا يَضْحَكُ، وَإِذَا كَانَ الضَّحْكُ فِينَا مُسْتَلْزِمًا لشيءٍ مِنَ النَّقْصِ، فَاللَّهُ مُنْزَهُ عَنْ ذَلِكَ». اهـ.

«وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا تزال جهنم يلقى فيها، وهي تقول: هل من مزيد؟ حتى يضع رب العزة فيها رجله»، وفي رواية: «عليها قدمه، فينزوي بعضها إلى بعض، وتقول: قط قط». متفق عليه».

أورد شيخ الإسلام - رحمه الله تعالى - هذا الحديث؛ ليثبت هذه الصفة الذاتية الخبرية: صفة الرجل والقدمين، دون تمثيل أو تكييف.
وقد دل على إثبات ذلك السنة وإجماع السلف الصالح - رضوان الله عليهم أجمعين:

أما السنة: فمن ذلك ما رواه البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه؛ أنه قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا تزال جهنم يلقى فيها، وتقول: هل من مزيد؟ حتى يضع رب العزة فيها قدمه، فينزوي بعضها إلى بعض، وتقول: قط قط، بعزتك وكرمك، ولا يزال في الجنة فضل، حتى ينشئ الله لها خلقاً، فيسكنهم فضل الجنة».

وفي البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «تحتاج الجنة والنار، فقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين، وقالت الجنة: ما لي لا أدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم، قال الله تبارك وتعالى للجنة: أنت رحمتي؛ أرحم بك من أشاء من عبادي، وقال للنار: أنت عذابي؛ أعدب بك من أشاء من عبادي، ولكل واحدة منهما ملؤها، فأما النار، فلا تمتلئ حتى يضع رجله فتقول: قط قط قط! فهناك تمتلئ وينزوي بعضها إلى بعض، ولا يظلم الله عز وجل من خلقه أحداً، وأما الجنة فإن الله عز وجل ينشئ لها خلقاً».

وأخرج ابن خزيمة في «التوحيد»، والحاكم في «المستدرک»، وابن أبي شَيْبَةَ في «العرش»، والدارمي في «الرد على بشر المريسي»، والذهبي في «العلو»، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «الكرسي موضع القدمين».

وقد صحَّحه العلامة الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «مختصر العلو» (ص 102).

قلت: وهذا القول له حكم الرفع؛ لأنه لا يقال من قبيل الرأي، والله أعلم. وروى ابن أبي شَيْبَةَ في «العرش»، وعبد الله بن أحمد في «السنة»، وابن جرير في تفسيره، وأبو الشيخ في «العظمة»، والبيهقي في «الأسماء والصفات»، عن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «الكرسي موضع القدمين، وله أطيط كأطيط الرجل».

قال العلامة الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «مختصر العلو» (ص 123-124): «إسناده صحيح».

قلت: وهذا القول وإن كان موقوفاً إلا أن له حكم الرفع؛ لأنه مما لا يقال من قبيل الرأي، والله أعلم.

وقد بَوَّبَ الإمام ابن خزيمة رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «التوحيد» (1/202): «باب إثبات الرجل لله عزَّ وجلَّ»، ثم قال: «وإن رَغِمَتْ أَنْفُ الْمُعْطَلَةِ الْجَهْمِيَّةِ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بصفات خالقنا عزَّ وجلَّ التي أثبتنا لنفسه في مُحْكَمِ تَنْزِيلِهِ، وعلى لسان نبيه المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال الله عزَّ وجلَّ يَذْكُرْ مَا يَدْعُو بِعُضِّ الْكُفَّارِ مِنْ دُونِ اللَّهِ: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظِرُونِ﴾ [الأعراف: ١٩٥]، فَأَعْلَمْنَا رَبَّنَا عزَّ وجلَّ أَنْ مَنْ لَا رِجْلَ لَهُ وَلَا يَدَ لَهُ وَلَا عَيْنَ لَهُ وَلَا سَمْعَ لَهُ؛ فَهُوَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُوَ أَضَلُّ، فَالْمُعْطَلَةُ الْجَهْمِيَّةِ الَّذِينَ هُمْ شَرُّ

من اليهود والنصارى والمَجُوس كالأنعام، بل هم أَصْلُ» اهـ. ثم ساق الأحاديث التي فيها ذُكر الرجل.

قال العلامة السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «التَّنبِهَاةِ اللَّطِيفَةِ» (ص 54): «وهذه الصِّفَةُ تَجْرِي مَجْرَى بَقِيَّةِ الصِّفَاتِ، وَتُثَبِّتُ اللهُ حَقًّا عَلَى الْوَجْهِ اللَّائِقِ بِعَظَمَتِهِ؛ وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ وَعَدَ النَّارَ مِلَأَهَا كَمَا قَالَ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْإِنْسَانِ وَالْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩].

فَلَمَّا كَانَ مِنْ مُقْتَضَى رَحْمَتِهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ أَحَدًا بِغَيْرِ جُرْمٍ، وَكَانَتِ النَّارُ فِي غَايَةِ الْكِبَرِ وَالسَّعَةِ؛ حَقَّقَ وَعْدَهُ تَعَالَى وَوَضَعَ قَدَمَهُ فِتْلَاقِي طَرَفَاهَا وَلَمْ يَبْقَ فِيهَا فَضْلٌ عَنْ أَهْلِهَا». اهـ.

وَقَالَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ عُثَيْمِينَ فِي «شرح الواسِطِيَّة» (ص 414 - 415): «في هذا الحديث:

أَوَّلًا: إِبْثَاتُ الْقَوْلِ مِنَ الْجَمَادِ؛ لِقَوْلِهِ: «وهي تقول»، وكذلك: «فتقول: قَطْ، قَطْ»، وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ.
ثَانِيًا: التَّحْذِيرُ مِنَ النَّارِ؛ لِقَوْلِهِ: «لا تَزَالُ جَهَنَّمُ يُلْقَى فِيهَا وَهِيَ تَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟».

ثَالِثًا: إِبْثَاتُ فَضْلِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى تَكْفَّلَ لِلنَّارِ بِأَنْ يَمْلَأَهَا كَمَا قَالَ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْإِنْسَانِ وَالْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩]، فَإِذَا دَخَلَهَا أَهْلُهَا وَبَقِيَ فِيهَا فَضْلٌ وَقَالَتْ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ وَضَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا رِجْلَهُ؛ فَانْزَوَى بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، وَامْتَلَأَتْ بِهَذَا الْانْزَوَاءِ.

وهذا من فضل الله عَزَّجَلَّ، وَإِلَّا فَإِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ أَقْوَامًا وَيُكْمِلَ

ملأها بهم، ولكنه عَزَّجَلَ لا يُعَذِّبُ أَحَدًا بغير ذنبٍ. بخلاف الجنة؛ فَيَبْقَى فيها فضلُ عَمَّنْ دَخَلَهَا من أهل الدُّنْيَا، فَيَخْلُقُ اللهُ أَقْوَامًا يوم القيامة، ويدخلهم الجنة بفضلِهِ ورحمته.

رابعًا: أن الله تعالى رَجُلًا وَقَدَمًا حَقِيقِيَّةً لا تُمَاطِلُ أَرْجُلَ المَخْلُوقِينَ، وَيُسَمَّى أَهْلُ السُّنَّةِ مثل هذه الصفة:

الصفة الذاتية الخبرية؛ لأنها لم تُعَلِّمْ إِلَّا بالخبر، ولأنَّ مُسَمَّاهَا أَبْعَاضٌ لَنَا وَأَجْزَاءٌ، لكن لا نقول بالنسبة لله إنها أَبْعَاضٌ وَأَجْزَاءٌ؛ لأن هذا مُمْتَنِعٌ عَلَى اللهِ عَزَّجَلَ.

وخالف الأشاعرةُ وأهل التَّحْرِيفِ في ذلك، فقالوا: يَضَعُ عَلَيْهَا رِجْلَهُ، يعني: طَائِفَةٌ من عِبَادِهِ مُسْتَحِقِّينَ لِلدُّخُولِ، والرَّجُلُ تَأْتِي بِمَعْنَى الطَّائِفَةِ كَمَا فِي حَدِيثِ أَيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أَرْسَلَ إِلَيْهِ رَجُلٌ جَرَادٍ مِنْ ذَهَبٍ»، يعني: طَائِفَةٌ مِنْ جَرَادٍ. وهذا تحريفٌ باطلٌ؛ لأنَّ قَوْلَهُ «عَلَيْهَا» يَمْنَعُ ذَلِكَ.

وأيضًا لا يُمكن أن يُضَيَّفَ اللهُ عَزَّجَلَ أَهْلَ النَّارِ إِلَى نَفْسِهِ؛ لأنَّ إِضَافَةَ الشَّيْءِ إِلَى اللهِ تَكْرِيمٌ وَتَشْرِيفٌ.

وقالوا في القَدَمِ: قَدَمٌ بِمَعْنَى: مُقَدَّمٌ؛ أَي: يَضَعُ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهَا مُقَدَّمَهُ، أَي: مَنْ يُقَدِّمُهُمْ إِلَى النَّارِ.

وهذا باطلٌ أيضًا؛ فَإِنَّ أَهْلَ النَّارِ لا يُقَدِّمُهُمُ الْبَارِي عَزَّجَلَ، وَلَكِنْهُمْ ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا﴾ [الطور: ١٣]، وَيُلْقَوْنَ فِيهَا إِلْقَاءً، فَهَؤُلَاءِ الْمُحَرِّفُونَ قَرُّوا مِنْ شَيْءٍ وَوَقَعُوا فِي شَرٍّ مِنْهُ؛ قَرُّوا مِنْ تَنْزِيهِ اللهِ عَنِ الْقَدَمِ وَالرَّجْلِ، لَكِنْهُمْ وَقَعُوا فِي السَّفْهِ وَمُجَانِبَةِ الْحِكْمَةِ فِي أَعْمَالِ اللهِ عَزَّجَلَ.

والحاصل: أنه يجب علينا أن نُؤمن بأن الله تعالى قَدَمًا، وإن شئنا قلنا: رجلاً على سبيل الحقيقة، مع عدم المماثلة، ولا نُكَيِّف الرجل؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبرنا بأنَّ الله تعالى رجلاً أو قَدَمًا، ولم يُخبرنا كيف هذه الرجل أو القدم، وقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

والفائدة المسلكية من هذا الحديث: هي الحذر الشديد من عمل أهل النار خشية أن يلقى الإنسان فيها كما يلقى غيره». اهـ.



«وقوله: «يقولُ الله تعالى يا آدمُ، فيقول: لَبَّيْكَ وَسَعْدِيكَ، فينادي بصوت: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَخْرُجَ مِنْ دُرِّيَّتِكَ بَعَثًا إِلَى النَّارِ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وقوله: «ما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجَمَانُ» (1)».

أورد شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ هذينِ الحديثين الصَّحيحين؛ لإثبات النداء والصوت والكلام لله تعالى، وقد سبق أن إثبات الكلام لله دلٌّ عليه الكتاب والسُّنة والإجماع.

ومن أدلَّة النداء - أيضًا - من الكتاب والسُّنة - والنداء لا يكون إلا بصوت - قوله تعالى: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [الأعراف: ٢٢]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنْ أَنْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠]، وقد ورد النداء في تسع آيات من القرآن.

ومن السُّنة - إضافةً إلى ما ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ - ما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنْ اللَّه - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا نَادَى جِبْرِيلَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّ فَلَانًا فَأَحَبَّهُ. فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي جِبْرِيلُ فِي السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّ فَلَانًا فَأَحَبُّوهُ. فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، وَيُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي أَهْلِ الْأَرْضِ».

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ يُنَادِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مَنْ قَرَّبَ كَمَا يَسْمَعُهُ مَنْ بَعُدَ».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ كما في «مجموع الفتاوى» (6 / 531):

«والنداء في لغة العرب: هو صوتٌ رفيع، ولا يُطلق النداء على ما ليس بصوتٍ، لا حقيقةً ولا مجازاً». اهـ.

وقال رحمه الله كما في «مجموع الفتاوى» (12 / 304): «واستفاضت الآثار عن النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين ومن بعدهم من أئمة السنة: أنه سبحانه وتعالى يُنادي بصوتٍ، نادى موسى، ويُنادي عباده يوم القيامة بصوتٍ، ويتكلم بالوحي بصوت، ولم يُنقل عن أحد من السلف أنه قال: إن الله يتكلم بلا صوت أو بلا حرف، ولا أنه أنكر أن يتكلم الله بصوتٍ أو بحرف». اهـ.

وقال ابن القيم في «نونيته»:

أَفْتَسْمَعُ الْإِذَانَ غَيْرَ الْحَرْفِ وَالضُّدِّ	صَوْتُ الَّذِي خُصَّتْ بِهِ الْأُذُنَانِ
وَكَذَا النَّدَاءُ فَإِنَّهُ صَوْتُ بِإِجْمَاعٍ	النُّحَاةُ وَأَهْلُ كُلِّ لِسَانٍ
لَكِنَّهُ صَوْتُ رَفِيعٍ وَهُوَ ضِدُّ	لِلنَّجَاءِ كِلَاهُمَا صَوْتَانِ

وقال رحمه الله في «النونية» أيضاً:

وَاللَّهُ قَدْ نَادَى الْكَلِيمَ وَقَبْلَهُ	سَمِعَ النَّدَا فِي الْجَنَّةِ الْأَبْوَانِ
وَأَتَى النَّدَا فِي تِسْعِ آيَاتٍ لَهُ	وَصَفًّا فَرَجَعَهَا مِنَ الْقُرْآنِ
أَيُّصَحُّ فِي عَقْلِ وَفِي نَقْلِ نَدَاءٍ	لَيْسَ مَسْمُوعًا لَنَا بِأُذَانِ
إِنَّ النَّدَا الصَّوْتُ الرَّفِيعَ وَضَدَهُ	فَهُوَ النَّجَاءُ كِلَاهُمَا ضِدَانِ

وقوله في الحديث: «لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ».

قال ابن القيم رحمه الله في «حاشية سنن أبي داود» (5 / 177): «اشتملت كلمة التلبية على فوائد عظيمة:

- 1- أن قوله: «لَبَّيْكَ» يَتَضَمَّنُ إجابةً دَاعٍ وَمُنَادٍ ناداك، وَلَا يَصِحُّ فِي لُغَةٍ وَلَا عَقْلٍ إجابةً مَنْ لَا يَتَكَلَّمُ وَلَا يَدْعُو مِنْ أَجَلِهِ.
 - 2- أَنَّهَا تَتَضَمَّنُ الْمَحَبَّةَ، وَلَا يَقَالُ: «لَبَّيْكَ» إِلَّا لِلَّهِ؛ تُحِبُّهُ وَتُعَظِّمُهُ.
 - 3- أَنَّهَا تَتَضَمَّنُ التَّزَامَ دَوَامِ الْعُبُودِيَّةِ، وَلِهَذَا قِيلَ: إِنَّهَا مِنَ الْإِقَامَةِ؛ أَي: أَنَا مُقِيمٌ عَلَى طَاعَتِكَ.
 - 4- أَنَّهَا تَتَضَمَّنُ الْإِخْلَاصَ، وَلِهَذَا قِيلَ: إِنَّهَا مِنَ اللَّبِّ؛ وَهُوَ الْخَالِصُ.
 - 5- أَنَّهَا تَتَضَمَّنُ الْخُضُوعَ وَالذُّلَّ؛ أَي: خُضُوعًا بَعْدَ خُضُوعٍ، مِنْ قَوْلِهِمْ: أَنَا مُلَبَّبٌ بَيْنَ يَدَيْكَ؛ أَي: خَاضِعٌ ذَلِيلٌ.
 - 6- أَنَّهَا تَتَضَمَّنُ الْإِقْرَارَ بِسَمْعِ الرَّبِّ؛ إِذْ يَسْتَحِيلُ أَنْ يَقُولَ الرَّجُلُ لِمَنْ لَا يَسْمَعُ دَعَاءَهُ: لَبَّيْكَ.
 - 7- أَنَّهَا تَتَضَمَّنُ التَّقَرُّبَ إِلَى اللَّهِ، وَلِهَذَا قِيلَ: إِنَّهَا مِنَ الْأَلْبَابِ، وَهُوَ الْقُرْبُ.
- وَأَمَّا مَعْنَى التَّرْجُمَةِ كَمَا فِي الْحَدِيثِ الثَّانِي: أَنَّ اللَّهَ يُكَلِّمُ عَبْدَهُ بِكَلَامٍ يَفْهَمُهُ دُونَ حَاجَةٍ إِلَى مَنْ يُتَرَجَّمُ لَهُ قَوْلُهُ، وَمَعْنَى التَّرْجُمَةِ: تَفْسِيرُ الْكَلَامِ مِنْ لُغَةٍ إِلَى لُغَةٍ أُخْرَى.

قال الشاعر:

وَمَنْ يُفْسِرُ لُغَةً بِلُغَةٍ مُتَرَجِّمٌ عِنْدَ أَهْلِ اللُّغَةِ

وَمِنْ مَعَانِي التَّرْجُمَةِ الْفَهْمُ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

إِنَّ الثَّمَانِينَ وَقَدْ بُلِّغَتْهَا قَدْ أَحْوَجَتْ سَمْعِي إِلَى تَرْجُمَانٍ



«وقوله في رُقية المَريض: «رَبَّنَا اللَّهُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ، تَقَدَّسَ اسْمُكَ، أَمْرُكَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ كَمَا رَحَّمْتَكُ فِي السَّمَاءِ، اجْعَلْ رَحْمَتَكَ فِي الْأَرْضِ، اغْفِرْ لَنَا حُوبَنَا وَخَطَايَانَا، أَنْتَ رَبُّ الطَّيِّبِينَ، أَنْزِلْ رَحْمَةً مِنْ رَحْمَتِكَ وَشِفَاءً مِنْ شِفَائِكَ عَلَى هَذَا الْوَجَعِ؛ فَيَبْرَأُ». حديث حسن، رواه أبو داود وغيره.

وقوله: «أَلَا تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينٌ مَنْ فِي السَّمَاءِ». حديث صحيح.

وقوله: «وَالْعَرْشُ فَوْقَ ذَلِكَ، وَاللَّهُ فَوْقَ الْعَرْشِ، وَهُوَ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ». حديث حسن، رواه أبو داود وغيره.

وقوله للجارية: «أَيْنَ اللَّهُ؟». قالت: فِي السَّمَاءِ، قال: «مَنْ أَنَا؟» قالت: أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، قال: «أَعْتَقَهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ». رواه مسلم.

في هذه الأحاديث إثبات صفة العُلُوِّ لله تعالى بذاته على الوجه اللائق بعظمته وجلاله؛ فقد أوردَها شيخُ الإسلام لِيُدَلِّلَ على أن السُّنَّةَ قد وردَ فيها إثباتُ الكثير من صفات الله، ومنها ما دلَّ عليها القرآنُ أيضًا، ومنها ما أثبتَّها السُّنَّةُ فقط، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا ءَانَكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَأَنْهَوْا﴾ [الحشر: ٧].

فأورد شيخُ الإسلام هذه الأحاديث لإثبات صفة العُلُوِّ والاستواء. والحديث الأوَّل في رُقية المريض حديثٌ ضعيفٌ؛ ضعَّفه العلامة الألباني رَحْمَةُ اللَّهِ فِي «ضعيف سنن أبي داود» وغيره، والحديث الثاني، رواه البخاري ومسلم عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقد أوردَه المؤلِّف رَحْمَةُ اللَّهِ لإثبات عُلُوِّ الله بذاته، وقد تقدَّم الكلام عليه

ولله الحمد، ومعنى «في السماء»؛ أي: في العُلُو؛ لأنَّ كل ما سَمَاكَ فقد عَلاكَ.
وأما الحديث الثالث، فهو حديث ضعيفٌ؛ ضَعَفَه العَلَّامة الألبانيُّ في تحقيقه
لـ«السُّنة» لابن أبي عاصِم (1/ 255). وحديثُ الجارية قد تقدَّم الكلامُ عليه،
ولله الحمد.



«وقوله: «أفضلُ الإيمانِ أنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللهَ معَكَ أَيُّمَا كُنْتَ». حديث حسن، أخرجه الطَّبْرَانِيُّ من حديث عُبَادَةَ بن الصَّامِت.

وقوله: «إذا قام أحدُكم إلى الصلاة فلا يَبْصُقُ قَبْلَ وَجْهِه، ولا عن يَمِينِه؛ ولكن عن يَسَارِه أو تحتَ قَدَمِه». مُتَّفَقٌ عليه.

وقوله: «اللهم ربَّ السموات السَّبع وربَّ العرش العظيم، ربَّنَا وربَّ كلِّ شيء، فالحقَّ الحَبِّ والنَّوى، مُنَزَّلَ التَّوْرَةِ والإنجيل والقرآن، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نفسي ومن شَرِّ كُلِّ دَابَّةٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا، أَنْتَ الأوَّلُ فليس قَبْلَكَ شيءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فليس بَعْدَكَ شيءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فليس فَوْقَكَ شيءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فليس دُونَكَ شيءٌ؛ اقْضِ عَنِّي الدَّيْنَ وَأَغْنِنِي مِنَ الْفَقْرِ». رواه مسلم.

وقوله لما رَفَعَ الصَّحَابَةُ أَصْوَاتَهُم بِالذِّكْرِ: «أَيُّهَا النَّاسُ، ارْزِعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمًّا وَلَا غَائِبًا؛ إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا قَرِيبًا، إِنْ الَّذِي تَدْعُونَ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ». مُتَّفَقٌ عليه.

أورد شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ هذه الأحاديث؛ لِيُبَيِّنَ أَنَّهُ لَا تَنَافٍ بَيْنَ عُلُوِّ اللهِ وَمَعِيَّتِهِ لِعِبَادِهِ كَمَا دَلَّ عَلَى ذَلِكَ الْقُرْآنُ كَمَا سَبَقَ.

أما الحديث الأول: حديث عُبَادَةَ الذي أخرجه الطَّبْرَانِيُّ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أفضلُ الإيمانِ أنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللهَ معَكَ أَيُّمَا كُنْتَ»، فهو حديثٌ ضعيف كما في «ضعيف الجامع» للعلامة الألباني رَحِمَهُ اللهُ بِرَقْم (1002)، وَيُغْنِي عَنْهُ آيَاتٌ وَأَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ.

وَأَمَّا الْحَدِيثُ الثَّانِي: «إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ إِلَى الصَّلَاةِ...» الْحَدِيثُ؛ فَقَدْ قَالَ شَيْخُ

الإسلام ابنُ تيمية كما في «مجموع الفتاوى» (5/ 107): «الحديث حقٌّ على ظاهره، وهو - سبحانه - فوق العرش، وهو قَبْلَ وَجْهِ الْمُصَلِّي، بل هذا الوصفُ يَثْبُتُ لِلْمَخْلُوقَاتِ؛ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ لَوْ أَنَّهُ يُنَاجِي السَّمَاءَ أَوْ يُنَاجِي الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَكَانَتِ السَّمَاءُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ فَوْقَهُ، وَكَانَتْ أَيْضًا قَبْلَ وَجْهِهِ». اهـ.

وقال الحافظُ ابنُ رجب في «فتح الباري» (3/ 110-111) وهو يتحدث عن الحديث السابق وألفاظه وطُرُقَه: «وكان مقصودُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِذِكْرِ هَذَا أَنْ يَسْتَشْعِرَ الْمُصَلِّي فِي صَلَاتِهِ قُرْبَ اللَّهِ مِنْهُ، وَأَنَّهُ بِمَرَأَى مِنْهُ وَمَسْمَعٌ، وَأَنَّهُ مُنَاجٍ لَهُ، وَأَنَّهُ يَسْمَعُ كَلَامَهُ وَيُرَدُّ عَلَيْهِ جَوَابٌ مُنَاجَاتِهِ، كَمَا فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، قَالَ اللَّهُ: حَمْدَنِي عَبْدِي»، وَذَكَرَ رَدَّهُ عَلَيْهِ فِي آيَاتِ الْفَاتِحَةِ إِلَى آخِرِهَا، ثُمَّ قَالَ:

«فَمَنْ اسْتَشْعَرَ هَذَا فِي صَلَاتِهِ، أَوْجَبَ لَهُ ذَلِكَ حُضُورَ قَلْبِهِ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهِ وَخُشُوعَهُ لَهُ وَتَأَدُّبَهُ فِي وَقُوفِهِ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَلَا يَلْتَفِتُ إِلَى غَيْرِهِ بِقَلْبِهِ وَلَا بِبَدَنِهِ، وَلَا يَعْثُثُ وَهُوَ وَاقِفٌ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَلَا يَبْصُقُ أَمَامَهُ فَيَصِيرُ فِي عِبَادَتِهِ فِي مَقَامِ الْإِحْسَانِ يَعْبُدُ اللَّهَ كَأَنَّهُ يَرَاهُ، كَمَا فَسَّرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْإِحْسَانَ بِذَلِكَ فِي سُؤَالِ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهُ، وَقَدْ سَبَقَ حَدِيثُهُ فِي كِتَابِ الْإِيمَانِ، وَخَرَجَ النَّسَائِيُّ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: أَخَذَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْضَ جَسَدِي، فَقَالَ: اْعْبُدِ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ». اهـ.

وأما الحديث الثالث: «اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ...» الحديث.

«فَقُولُهُ: «اللَّهُمَّ»، أَصْلُهُ: يَا اللَّهُ، فَالْمِيمُ عِوَضٌ عَنْ يَاءٍ، وَلِذَلِكَ لَا يُجْمَعُ بَيْنَهُمَا.

وشدَّ قولُ بعض العرب:

إني إذا ما حَدَثُ الْمَآ أَقولُ: يا اللهم، يا اللهم

قال الحسنُ البصري: «اللَّهُمَّ مَجْمَعُ الدُّعَاءِ»، وقال النَّضْرُ بنُ شميل: «من قال: «اللهم»؛ فقد دعا الله بجميع أسمائه».

قوله: «رَب»، تأتي لفظة «رَب» بمعنى المُرَبِّي، والمالك، والخالق.

وقوله: «رب السَّمَوَاتِ السَّبْعِ»؛ أي: هو خالقُ العالمِ العلوي.

وقوله: «رب العَرْشِ الْعَظِيمِ»؛ أي: الكبير.

قال ابنُ عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «العَرْشُ لا يَقْدُرُ قَدْرَهُ إِلَّا اللَّهُ».

ففيه إثباتُ عظمة العرش، وأنه أعظمُ المَخْلوقات، وأنه مخلوق، ومنه يُستفاد عظمةُ الباري بعظمة مخلوقاته، وفيه الردُّ على مَنْ زَعَمَ أَنَّ العرش ليس بمخلوق، أو أَنَّ عرشه مُلكه أو قُدرته، وقد تقدَّم الكلام على هذا.

قوله: «ربنا ورب كلِّ شيء»، فيه إثباتُ عُمومِ ربوبيّته ومُلكه، وأنه خالقُ كلِّ شيء، وأنه المُنعم الحقيقي على سائر الخلق، وفيه الردُّ على القَدَرِيَّة الذين يزعمون أن العبد يخلق فعل نفسه؛ فإن ربوبيّته العامة وقُدرته التامة تشمل أفعال خلقه، فمن زَعَمَ أن العبد يخلق فعل نفسه فقد أثبت خالقًا مع الله، ولم يدخل أفعال خلقه في عُموم قدرته وربوبيّته.

قوله: «فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى»؛ أي: شاق، والفلقُ الشَّقُّ؛ أي: الذي يشقُّ حبَّ الطعام ونوى التمر ونحوهما للإنبات، والنوى عجم التمر ونحوه.

وقوله: «مُنْزِلُ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ»؛ أي: مُنْزِلُ التَّوْرَةِ على موسى، والإنجيل على عيسى، والقرآن على محمّد، وفيه دليل على أن هذه الكتب من

كلام الله، وأنها مُنَزَّلَةٌ من عند الله، وأنها غير مَخْلُوقَةٍ؛ خلافاً لأهل البدع الذين يزعمون أن كلام الله مخلوقٌ أو أنها كلامٌ غيره، وفيه دليل على عُلُوِّ الله سبحانه؛ لأن الإنزال والنزول والتَّزْيِيلَ المَعْقُولَ عند العرب لا يكون إلا من أعلى إلى أسفل.

وقوله: «أَعُوذُ»؛ أي: أَلْتَجِيءُ وَأَعْتَصِمُ وَأَلْتَصِقُ بِجَنَابِ اللَّهِ من شرِّ كلِّ ذي شرٍّ.

والعِيَاذُ يكون لِدَفْعِ الشَّرِّ، والليَاذُ يكون لَطَلْبِ الخير، كما قال المُتَنَبِّي:
يَا مَنْ أَلُوذُ بِهِ فِيمَا أُوِّمِلُهُ وَمَنْ أَعُوذُ بِهِ مِمَّا أُحَاذِرُهُ
لَا يَجْبِرُ النَّاسُ عَظْمًا أَنْتَ كَاسِرُهُ وَلَا يَهِيضُونَ عَظْمًا أَنْتَ جَابِرُهُ
وقوله: «دَابَّةٌ»، الدَّابَّةُ لُغَةً: كُلُّ مَا دَبَّ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، وَأُطْلِقَ عَرَفًا عَلَى ذَوَاتِ الْأَرْبَعِ.

قوله: «بِنَاصِيَتِهَا»؛ أي: تَحْتَ قَهْرِهِ وَسُلْطَانِهِ سَبْحَانَهُ، أي: أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ شَيْءٍ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ؛ لِأَنَّهَا كُلُّهَا فِي سُلْطَانِهِ، وَهُوَ آخِذٌ بِنَوَاصِيهَا، مُتَصَرِّفٌ فِيهَا، يَصْرِفُهَا كَيْفَ يَشَاءُ، وَالنَّاصِيَةُ مُقَدَّمُ الرَّأْسِ.

قوله: «أَنْتَ الْأَوَّلُ، فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ»: هَذَا تَفْسِيرُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَا تَفْسِيرَ أَكْمَلَ مِنْ تَفْسِيرِهِ.

ففيه: دَلِيلٌ عَلَى أَوَّلِيَّتِهِ سَبْحَانَهُ، وَأَنَّهُ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ.

وفيه: الرَّدُّ عَلَى مَنْ زَعَمَ قَدَمَ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ.

وفيه: دَلِيلٌ عَلَى أَبَدِيَّتِهِ - سَبْحَانَهُ - وَبِقَائِهِ بَعْدَ كُلِّ شَيْءٍ.

وفيه: دَلِيلٌ عَلَى عُلُوِّهِ - سَبْحَانَهُ - عَلَى خَلْقِهِ وَفَوْقِيَّتِهِ - سَبْحَانَهُ - وَاسْتَوَائِهِ

على عرشه؛ فإن الظاهر هو العالي المرتفع.

قوله: «أنت الباطن»، فيه دليل على قرب سبحانه وإحاطته، وأنه أقرب إلى كل شيء من نفسه، وقربه سبحانه لا ينافي ما ذكر من علوه وفوقيته؛ فإنه ليس كمثله شيء، وليس قربه كقرب الأجسام بعضها من بعض، تعالى الله أن يشبهه شيء من خلقه.

فهذه الأسماء الأربعة متقابلة؛ اسمان لأزلية الرب وأبدية، واسمان لعلوه وقربه.

وقوله: «أقضي عني الدين»، هذا فعل دُعاء؛ أي: أد.

قوله: «الدين»؛ أي: واحد الديون، والمراد به حقوق الله وحقوق عباده كلها من جميع الأنواع.

قوله: «أغني»، الغنى - بالكسر والقصر - هو عدم الحاجة، والفقر ضد الغنى). اهـ. «التنبيهات السنية» (177 - 179) بتصرف يسير.

وأما الحديث الرابع: «أيها الناس اربعوا على أنفسكم...»، الحديث.

فقد ذكر الحافظ ابن رجب رحمه الله في «فتح الباري» (3/ 112 - 115)، فقال: «ولم يكن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يفهمون من هذه النصوص غير المعنى الصحيح المراد بها، فيستفيدون بذلك معرفة عظمة الله جل جلاله، وإطلاعه على عباده، وإحاطته بهم، وقربه من عابديه، وإجابته لدعائهم؛ فيزدادون به خشية لله، وتعظيمًا وإجلالًا ومهابةً ومراقبةً واستحياءً، ويعبدونه كأنهم يرونه.

ثم حدث بعدهم من قل ورعه، وساء فهمه وقصده، وضعفت عظمة الله

وهيبته في صدره، وأراد أن يرى الناس امتيازَه عليهم بدقة الفهم وقوة النظر؛ فزعم أن هذه النصوص تدل على أن الله بذاته في كل مكان، كما يحكى ذلك عن طوائف من الجهمية والمعتزلة ومن وافقهم، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، وهذا شيء ما خطر لمن كان قبلهم من الصحابة رضي الله عنهم.

وهؤلاء ممن يتبع ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، وقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم أمته منهم في حديث عائشة الصحيح المتفق عليه.

وتعلقوا أيضاً - بما فهموه بفهمهم القاصر مع قصدهم الفاسد - بآيات في كتاب الله تعالى، مثل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، وقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧].

فقال من قال من علماء السلف حينئذٍ: إنما أراد أنه معهم بعلمه، وقصدوا بذلك إبطال ما قاله أولئك مما لم يكن أحد قبلهم قاله ولا فهمه من القرآن.

وممن قال: «إن هذه المعية بالعلم» مقاتل بن حيان، وروى عنه أنه رواه عن عكرمة عن ابن عباس، وقاله الضحاك، قال: «الله فوق العرش، وعلمه بكل مكان»، وروى نحوه عن مالك وعبد العزيز الماجشون والثوري وأحمد وإسحاق وغيرهم من أئمة السلف.

وروى الإمام أحمد، ثنا عبد الله بن نافع، قال: قال مالك: الله في السماء وعلمه بكل مكان.

وحكى ابن عبد البر وغيره إجماع العلماء من الصحابة والتابعين في تأويل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾، أن المراد علمه، وكل هذا قصدوا به رد قول من قال: إنه تعالى بذاته في كل مكان.

وزعم بعض من تحذلق أن ما قاله هؤلاء الأئمة خطأ؛ لأن علم الله صفة لا تُفارق ذاته.

وهذا سوء ظن منه بأئمة الإسلام؛ فإنهم لم يريدوا ما ظنّه بهم، وإنما أرادوا أن علم الله متعلق بما في الأمكنة كلها؛ ففيها معلوماته لا صفة ذاته، كما وقعت الإشارة في القرآن إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨]، وقوله: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤].

قال حَرْب: سألت إسحاق بن راهويه عن قوله: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾، قال: حيث ما كنت هو أقرب إليك من حبل الوريد، وهو بائن من خلقه». اهـ.



«وقوله: «إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرُونَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، لَا تَضَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ؛ فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَصَلَاةٍ قَبْلَ غُرُوبِهَا، فَافْعَلُوا»، مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ. إِلَى أَمْثَالِ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ الَّتِي يُخْبِرُ فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ رَبِّهِ بِمَا يُخْبِرُ بِهِ.

فَإِنَّ الْفِرْقَةَ النَّاجِيَةَ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، يُؤْمِنُونَ بِمَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ فِي كِتَابِهِ مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ، وَمَنْ غَيْرُ تَكْيِيفٍ وَلَا تَمْثِيلٍ».

أَمَّا الْحَدِيثُ الَّذِي فِيهِ إِثْبَاتُ الرُّؤْيَةِ؛ فَقَدْ سَبَقَ الْكَلَامُ عَلَيْهِ، وَأُورِدَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ هُنَا لِيُبَيِّنَ أَنَّ رُؤْيَةَ الْمُؤْمِنِينَ لِرَبِّهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَمَا أَنَّهَا ثَابِتَةٌ بِالْقُرْآنِ فَهِيَ ثَابِتَةٌ أَيْضًا بِالسُّنَّةِ الصَّرِيحَةِ الصَّحِيحَةِ الْمُتَوَاتِرَةِ، وَإِنْ رَغِمَتْ أَنْوْفُ الْمُعْطَلَةِ.

وَسَأُورِدُ هُنَا مَزِيدًا مِنْ كَلَامِ شَيْخِ الْإِسْلَامِ، وَفِيهِ إِبْطَالُ لِقَوْلِ الْأَشَاعِرَةِ إِنَّ اللَّهَ يُرَى لَا إِلَى جِهَةٍ؛ فَقَدْ قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ كَمَا فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى» (16 / 84-85): «وَالْأَخْبَارُ الْمُتَوَاتِرَةُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَرُدُّ عَلَيْهِمْ - أَيُّ: الَّذِينَ قَالُوا يُرَى لَا إِلَى جِهَةٍ - كَقَوْلِهِ فِي الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ: «إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرُونَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، لَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَيْهِ»، وَقَوْلِهِ لَمَّا سَأَلَهُ النَّاسُ: هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: «هَلْ تَرَوْنَ الشَّمْسَ صَحْوًا لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟» قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: «فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ»، فَشَبَّهَ الرُّؤْيَةَ بِالرُّؤْيَةِ، وَلَمْ يُشَبَّهَ الْمَرْيِيُّ بِالْمَرْيِيِّ؛ فَإِنَّ الْكَافَ - حَرْفَ التَّشْبِيهِ - دَخَلَ عَلَى الرُّؤْيَةِ، وَفِي لَفْظٍ لِلْبُخَارِيِّ: «عَيَانًا».

وَمَعْلُومٌ أَنَّ نَرَى الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ عَيَانًا مُوَاجِهَةً؛ فَيَجِبُ أَنْ نَرَاهُ كَذَلِكَ.

وأما رؤية ما لا نُعَيْن ولا نواجه؛ فهذه غير مُتصّرة في العقل، فضلاً أن تكون كرؤية الشمس والقمر، ولهذا صار حذّاقهم - أي: الأشاعرة - إلى إنكار الرؤية، وقالوا: قولنا هو قول المُعتزلة في الباطن؛ فإنهم فسّروا الرؤية بزيادة انكِشاف، ونحو ذلك مما لا تُتّزع فيه المُعتزلة.

وأما قولهم - الأشاعرة -: إنَّ الخبر يدلُّ على أنهم يرونه لا في جهة، وقوله: «لا تُضامون» معناه: لا يضمكم جهة واحدة في رؤيته؛ فإنه لا في جهة، فهذا تفسيرٌ للحديث بما لا يدل عليه، ولا قاله أحدٌ من أئمة العلم؛ بل هو تفسيرٌ منكرٌ عقلاً وشرعاً ولغة.

فإنَّ قوله: «لا تُضامون» يُروى بالتخفيف؛ أي: لا يلحقكم ضيمٌ في رؤيته كما يلحق النَّاسَ عند رؤية الشيء الحسن كالهلال؛ فإنه قد يلحقهم ضيمٌ في طلب رؤيته حين يُرى، وهو سبحانه يتجلّى تجلّياً ظاهراً فيرونه كما ترى الشمس والقمر بلا ضيمٍ يلحقكم في رؤيته. وهذه الرواية المشهورة.

وقيل: «لا تُضامون» بالتشديد؛ أي: لا يُنضمُّ بعضكم إلى بعض كما يتضام النَّاسُ عند رؤية الشيء الخفي كالهلال، وكذلك تُضارون وتضارون.. وبكل حال، فهو من التّضام الذي هو مُضامّة بعضهم بعضاً، ليس هو أن شيئاً آخر لا يضمُّكم؛ فإن هذا المعنى لا يقال فيه: «لا تُضامون»؛ فإنه لم يقل: لا يضمُّكم شيء...»، إلخ. اهـ.

وقال العلامة السّعدي رَحِمَهُ اللهُ في «التّنبّهات اللطيفة» (ص 58) في الكلام على حديث الرؤية السّابقة: «وقد تواترت النّصوص في رؤية الله لأهل الجنة، وأنهم يرون ربّهم ويتمتعون بمُشاهدته، وهي تدلُّ على أمرين: على علوّه على خلقه؛ لأنها صريحةٌ في أنهم يرونه من فوقهم، وعلى أن أعظم النّعيم النّظر إلى

وجهه الكريم.

وحثّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الحديث على صلاة العصر وصلاة الفجر خصوصاً: فيه إشارة على أن مَنْ حافظ عليهما نال هذا النعيم الكامل الذي يصغرُ عنده كلُّ نعيم، وهذا يدل على تأكدهما، كما دلَّ على ذلك الحديث الآخر: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الصُّبح وصلاة العصر...» الحديث، مُتَّفَقٌ عليه. اهـ.

وقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «إلى أمثال هذه الأحاديث التي يُخبر بها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ربِّه بما يُخبر به...»، إلخ.

قال العلامة الفُوزان - حفظه الله - في شرحه للواسطية (ص 92): «هذا بيان لموقف أهل السُّنة والجماعة من أحاديث الصفات الواردة عن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أنه كموقفهم من آيات الصفات الواردة في القرآن سواءً، وهو الإيمان بها واعتقاد ما دلَّت عليه على حقيقتها، لا يَصْرِفُونَهَا عن ظاهرها بأنواع التَّأويل الباطل، ولا يَنْفُونَ ما دلت عليه فيُعْطَلُونَهَا، ولا يُشَبِّهُونَ الصفات المذكورة فيها بصفات المخلوقين؛ لأنَّ الله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾» [الشورى: ١١].

وهم بذلك يُخالفون طريقة المُبتدعة من الجَهْمية والمُعترِلة والأشاعرة الذين كان موقفهم من هذه النصوص موقفَ المنكر لها أو المؤوِّل لما دلت عليه، وبخلاف المُشبَّهة الذين غلَّوْا في الإثبات حتى شَبَّهُوا الله بِخَلْقِهِ؛ تَعَالَى اللهُ عَمَّا يَقُولُونَ غُلْوَاً كبيراً». اهـ.



«بل هم الوَسَطُ في فِرَقِ الأُمَّةِ، كما أَنَّ الأُمَّةَ هي الوَسَطُ في الأُمَّمِ».

أي: أَنَّ أهل السُّنَّةِ والجماعة وَسَطٌ في فِرَقِ الأُمَّةِ، كما أَنَّ الأُمَّةَ هي الوَسَطُ في الأُمَّمِ.

والوَسَطُ - كما قال شيخ الإسلام وغيره -: العُدُولُ الخِيارُ، والوَسْطِيَّةُ المَمْدُوحَةُ: ما كانت بين باطلين؛ إفراط وتَفْرِيط، غُلُو أو جَفَاء، أَمَّا أَنْ يُتَوَسَّطَ بين الحقِّ والباطل؛ فهذا تَوَسُّطٌ مَمْقُوتٌ مَذْمُومٌ، وهذا هو النِّفاق عِيادًا بالله. فالوَسْطِيَّةُ المَمْدُوحَةُ ما جَمَعَتْ بين الخَيْرِيَّةِ والبَيْنِيَّةِ.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ كما في «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى» (3/ 370 - 373): «وهذه الفِرقة الناجية أَهْلُ السُّنَّةِ، هم وَسَطٌ في النَّحْلِ، كما أَنَّ مِلَّةَ الإسلام وَسَطٌ في المِلَلِ؛ فالْمُسْلِمُونَ وَسَطٌ في أَنْبياءِ الله ورسله وعباده الصالحين، لم يَغْلُوا فيهم كما غَلَتِ النصارى فَاتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ ورُهبانَهُمْ أربابًا من دونِ الله والمسيحِ ابنِ مريمَ، وما أَمَرُوا إِلَّا ليعْبُدُوا إلَهاً واحداً لا إلَهَ إِلَّا هو سبحانه عما يُشْرِكُونَ. ولا جَفَوا عنهم كما جَفَتِ اليهودُ فكانوا يَقتُلونَ الأنبياءَ بغيرِ حَقٍّ، ويقتُلونَ الذين يَأْمُرُونَ بالقِسْطِ من النَّاسِ، فكلما جاءهم رسولٌ بما لا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ كَذَّبُوا فَرِيقًا وَقَتَلُوا فَرِيقًا.

بل الْمُؤْمِنُونَ آمَنُوا بِرُسلِ الله وعَزَّروهم ونَصَّروهم ووَقرَّوهم وأَحَبُّوهم وأطاعوهم، ولم يَعبُدوهم ولم يَتَّخِذوهم أربابًا، كما قال تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَكَنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾

[آل عمران: ٧٩].

وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ تَوَسَّطُوا فِي الْمَسِيحِ، فَلَمْ يَقُولُوا: هُوَ اللَّهُ وَلَا ابْنُ اللَّهِ وَلَا ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ؛ كَمَا تَقُولُ النَّصَارَى، وَلَا كَفَرُوا بِهِ وَقَالُوا عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا حَتَّى جَعَلُوهُ وَلَدَ بَغِيَّةٍ؛ كَمَا زَعَمَتِ الْيَهُودُ. بَلْ قَالُوا: هَذَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ الْعَذْرَاءِ الْبَتُولِ وَرُوحٌ مِنْهُ.

وكذلك المؤمنون وسَّط في شرائع دين الله، فلم يُحرِّموا على الله أن ينسخ ما شاء وَيَمْحُوا ما شاء وَيُثَبِّت؛ كما قالته اليهود، كما حكى الله تعالى ذلك عنهم بقوله: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّهُمْ عَن قِبَلِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ [البقرة: ١٤٢]، وبقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أُنزِلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ [البقرة: ٩١]، وَلَا جَوَازَ لِأكابرِ علمائهم وعُبَّادهم أن يُغَيِّرُوا دينَ الله، فَيَأْمُرُوا بما شاءوا وَيَنْهَوْا عما شاءوا؛ كما يفعلُه النَّصَارَى، كما ذَكَرَ اللهُ ذلك عنهم بقوله: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١].

قال عديُّ بن حاتم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: قلتُ: يا رسول الله، ما عبدُوهم. قال: «ما عبدُوهم، ولكن أحلُّوا لهم الحرامَ فأطاعُوهم، وحرَّموا عليهم الحلالَ فأطاعُوهم».

والمؤمنون قالوا: «الله الخلق والأمر»، فكما لا يَخْلُقُ غيره لا يَأْمُرُ غيره. وقالوا: «سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا»، فأطاعوا كُلَّ ما أَمَرَ اللهُ بِهِ وقالوا: «إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ ما يُريدُ». وأما المَخْلُوق فليس له أن يُبَدِّلَ أمرَ الخالقِ تعالى ولو كان عَظِيمًا. وكذلك في صفات الله تعالى؛ فَإِنَّ اليهود وصَفُوا اللهَ تعالى بصفات المَخْلُوقِينَ الناقِصَةِ، فقالوا: هو فقيرٌ ونحن أغنياء، وقالوا: يدُ الله مَغْلُولَةٌ، وقالوا: إِنَّه تَعَبَ مِنَ الخَلْقِ فَاسْتَرَحَ يَوْمَ السَّبْتِ... إلى غير ذلك.

والتَّصَارِيَّ وَصَفُوا الْمَخْلُوقَ بِصِفَاتِ الْخَالِقِ الْمُخْتَصَّةِ بِهِ؛ فَقَالُوا: إِنَّهُ يَخْلُقُ وَيَرْزُقُ، وَيَغْفِرُ وَيَرْحَمُ وَيَتُوبُ عَلَى الْخَلْقِ، وَيُثِيبُ وَيُعَاقِبُ.

وَالْمُؤْمِنُونَ آمَنُوا بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لَيْسَ لَهُ سَمِيٌّ وَلَا نِدٌّ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ، وَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ؛ فَإِنَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ، وَخَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، وَكُلُّ مَا سِوَاهُ عِبَادٌ لَهُ فَقَرَأَ إِلَيْهِ: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ (١٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿١٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا ﴿١٥﴾ [مريم: ٩٣-٩٥].

وَمِنْ ذَلِكَ أَمْرُ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ؛ فَإِنَّ الْيَهُودَ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَيُظْلَمُ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمًا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٌ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠]، فَلَا يَأْكُلُونَ ذَوَاتَ الظُّفْرِ مِثْلَ الْإِبِلِ وَالْبَطِّ، وَلَا شَحْمَ الثَّرْبِ وَالْكَلْبَتَيْنِ وَلَا الْجَدْيَ فِي لَبَنِ أُمِّهِ... إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا حُرِّمَ عَلَيْهِمْ مِنَ الطَّعَامِ وَاللِّبَاسِ وَغَيْرِهِمَا.

حَتَّى قِيلَ: إِنَّ الْمُحَرَّمَاتِ عَلَيْهِمْ ثَلَاثُمِائَةٍ وَسِتُّونَ نَوْعًا، وَالْوَاجِبَ عَلَيْهِمْ مِئَتَانِ وَثَمَانِيَةٌ وَأَرْبَعُونَ أَمْرًا، وَكَذَلِكَ شُدِّدَ عَلَيْهِمْ فِي النَّجَاسَاتِ حَتَّى لَا يُؤَاكِلُوا الْحَائِضَ، وَلَا يُجَامِعُوهَا فِي الْبُيُوتِ.

وَأَمَّا النَّصَارَى فَاسْتَحَلُّوا الْخَبَائِثَ وَجَمِيعَ الْمُحَرَّمَاتِ، وَبَاشَرُوا جَمِيعَ النَّجَاسَاتِ، وَإِنَّمَا قَالَ لَهُمُ الْمَسِيحُ: ﴿وَلَا أُحِلَّ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي هُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠].

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].

وَأَمَّا الْمُؤْمِنُونَ، فَمَا نَعْتَهُمُ اللَّهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾
 فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾
 الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي
 التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ
 لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ
 الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي
 أُنْزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ [الأعراف: ١٥٦-١٥٧]، وهذا بابٌ يطول
 وَصْفُهُ. اهـ.



«فَهُمْ وَسْطٌ فِي بَابِ صِفَاتِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بَيْنَ أَهْلِ التَّعْطِيلِ الْجَهْمِيَّةِ وَأَهْلِ التَّمْثِيلِ الْمُشْبِهَةِ، وَهُمْ وَسْطٌ فِي بَابِ أَفْعَالِ اللَّهِ بَيْنَ الْجَبْرِيَّةِ وَالْقَدَرِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ، وَفِي بَابِ وَعِيدِ اللَّهِ بَيْنَ الْمُرْجئةِ وَالْوَعِيدِيَّةِ مِنَ الْقَدَرِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ، وَفِي بَابِ أَسْمَاءِ الْإِيمَانِ وَالِدِّينِ بَيْنَ الْحَرُورِيَّةِ وَالْمُعْتَزِّلَةِ وَبَيْنَ الْمُرْجئةِ وَالْجَهْمِيَّةِ، وَفِي بَابِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ الرَّافِضَةِ وَالْخَوَارِجِ».

قَوْلُهُ: فَهُمْ وَسْطٌ فِي بَابِ صِفَاتِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بَيْنَ أَهْلِ التَّعْطِيلِ الْجَهْمِيَّةِ وَأَهْلِ التَّمْثِيلِ الْمُشْبِهَةِ.

أَهْلُ التَّعْطِيلِ عَلَى أَقْسَامٍ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ عَطَّلَ أَسْمَاءَ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ تَعْطِيلًا كَلِمًا، فَلَمْ يُثَبِّتِ الْأَسْمَاءَ وَلَا الصِّفَاتِ كَالْجَهْمِيَّةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ عَطَّلَ الصِّفَاتِ وَأَثَبَتِ الْأَسْمَاءَ وَهُمْ الْمُعْتَزِّلَةُ الَّذِينَ يُثَبِّتُونَ لِلَّهِ الْأَسْمَاءَ وَلَا يُثَبِّتُونَ الصِّفَاتِ، وَيَقُولُونَ: إِنَّ أَسْمَاءَ اللَّهِ أَعْلَامٌ مَحْضَةٌ.

وَمِنْهُمْ مَنْ أَثَبَّتِ الْأَسْمَاءَ وَبَعْضَ الصِّفَاتِ، وَهُمْ الْأَشَاعِرَةُ الَّذِينَ أَثَبَّتُوا لِلَّهِ سَبْعَ صِفَاتٍ بَزَعُمُ أَنَّ الْعَقْلَ دَلٌّ عَلَيْهَا دُونَ غَيْرِهَا.

وَأَمَّا الْمُثَبِّلَةُ؛ فَهُمْ الَّذِينَ مَثَّلُوا الْخَالِقَ بِالْمَخْلُوقِ، كَمَا فَعَلَ مُقَاتِلُ بْنُ سَلِيمَانَ الْبَلَخِيُّ وَدَاوُدُ الْجَوَالِيقِيُّ وَغَيْرُهُمَا، وَأَوَّلُ مَنْ قَالَ بِالتَّمْثِيلِ هُوَ هِشَامُ بْنُ الْحَكَمِ الرَّافِضِيُّ.

وَقَدْ هَدَى اللَّهُ أَهْلَ السُّنَّةِ إِلَى الْحَقِّ وَالصَّوَابِ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَأَجْمَعَ عَلَيْهِ سَلَفُ الْأُمَّةِ، فَأَثَبَتُوا لِلَّهِ مَا أَثَبَّتَهُ لِنَفْسِهِ وَأَثَبَتَهُ لَهُ رَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِثْبَاتًا بَلَا تَمْثِيلَ، وَنَزَّهُوا اللَّهَ عَنِ النَّقَائِصِ وَالْعُيُوبِ تَنْزِيهًا بَلَا تَعْطِيلَ، كَمَا قَالَ اللَّهُ

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وجعل أهل السنة والجماعة هذا الباب مُرتكزاً على ثلاثة أُسُس:

الأول: الإثبات بلا تمثيل.

الثاني: تنزيه الله عن النقائص والعيوب تنزيهاً بلا تعطيل.

الثالث: قطع الطمع عن إدراك كيفية صفات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأنَّ الله أخبرنا عن صفاته ولم يُخبرنا عن كيفية صفاته.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ كَمَا فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى» (3/ 373): «فَهُمْ فِي بَابِ أَسْمَاءِ اللَّهِ وَآيَاتِهِ وَصِفَاتِهِ وَسَطٌ بَيْنَ أَهْلِ التَّعْطِيلِ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ وَآيَاتِهِ، وَيُعْطِلُونَ حَقَائِقَ مَا نَعَتَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ حَتَّى يُشَبِّهُوهُ بِالْعَدَمِ وَالْمَوَاتِ، وَبَيْنَ أَهْلِ التَّمْثِيلِ الَّذِينَ يَضْرِبُونَ لَهُ الْأَمْثَالَ وَيُشَبِّهُونَهُ بِالْمَخْلُوقَاتِ.

فِيُؤْمِنُ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ بِمَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ، وَمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ، وَمِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَتَمْثِيلٍ». اهـ.

قوله: وهم وسط في باب أفعال الله بين الجبرية والقدرية وغيرهم.

قد أوضح شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ هَذَا كَمَا فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى» (3/ 373 - 374) بقوله: «وهم في باب خلق الله وأمره وسط بين المُكذِّبين بقُدرة الله الذين لَا يُؤْمِنُونَ بِقُدْرَتِهِ الْكَامِلَةِ وَمَشِيئَتِهِ الشَّامِلَةِ وَخَلْقِهِ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَبَيْنَ الْمُفْسِدِينَ لِذِينَ اللَّهِ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ الْعَبْدَ لَيْسَ لَهُ مَشِيئَةٌ وَلَا قُدْرَةٌ وَلَا عَمَلٌ، فَيُعْطِلُونَ الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ وَالثَّوَابَ وَالْعِقَابَ، فَيَصِيرُونَ بِمَنْزِلَةِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ قَالُوا: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

فِيُؤْمِنُ أَهْلُ السُّنَّةِ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، فَيَقْدِرُ أَنْ يَهْدِيَ الْعِبَادَ وَيُقَلِّبَ

قلوبهم، وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فلا يكون في ملكه ما لا يريد، ولا يعجز عن إنفاذ أمره، وأنه خالق كل شيء من الأعيان والصفات والحركات.

ويؤمنون أن العبد له قدرة ومشية وعمل، وأنه مختار ولا يُسمونه مَجْبُورًا؛ إذ المَجْبُور مَنْ أُكْرِهَ عَلَى خلاف اختياره، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جعل العبد مختارًا لِمَا يفعله، فهو مختارٌ مُريد، والله خالقه وخالق اختياره، وهذا ليس له نَظِيرٌ؛ فإن الله ليس كمثله شيءٌ، لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله». اهـ.

وقال العلامة السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «التنبيهات اللطيفة» (ص 61-62): «وهم وسطٌ في باب أفعال الله بين الجبرية والقدرية؛ فإن الجبرية يزعمون أن العبد مَجْبُورٌ عَلَى أفعاله لا قُدرة له عليها، وأن أفعاله بَمَنْزِلَةِ حركات الأشجار، وكل هذا غُلُوٌّ منهم في إثبات القدر.

والقدرية قَابَلُوهم فَنَفَوْا مُتَعَلِقَ قدرة الله بأفعال العباد تنزيهاً لله - بَزَعْمهم. فأفعال العباد عندهم لا تَدْخُلُ تحت مشيئة الله وإرادته، وكلٌّ مِنْ هَاتَيْنِ الطائِفَتَيْنِ رَدَّتْ طَائِفَةً كَبِيرَةً مِنْ نصوص الكتاب والسنة.

وهدى الله أهل السنة والجماعة للتوسط بين الطائفتين المنحرفتين، فآمنوا بقضاء الله وقدره وشمولهما للأعيان والأوصاف والأفعال التي مِنْ جُمْلَتِهَا أفعال المُكَلَّفِينَ وغيرهم، وآمنوا بأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وآمنوا مع ذلك بأن الله تعالى جعل للعباد قُدرة وإرادة تقَعُ بها أقوالهم وأفعالهم على حسب اختيارهم وإرادتهم، فآمنوا بكلِّ نصٍّ فيه تعميمُ قدرة ومشية، وبكلِّ نصٍّ فيه إثباتُ أَنَّ العباد يعملون ويفعلون كلَّ الأفعال الكبيرة والصغيرة بإرادتهم وقُدْرَتِهِمْ، وعَلِمُوا أَنَّ الْأَمْرَيْنِ لَا يَتَنَافِيَانِ». اهـ.

قوله: وفي باب وَعِيدِ اللَّهِ بَيْنَ الْمُرْجئةِ وَالْوَعِيدَةِ من القدرية وغيرهم.
الجهمية جمعوا مع تعطيلهم لنصوص الصفات بين الإرجاء والجبر؛
فقالوا: إن الإيمان هو المعرفة، والكفر هو الجهل، كما قالوا: إن العبد مجبور
على عمله، وإنما أضيفت الأعمال إليه على سبيل المجاز.
فالمرجئة قالوا: لا يضر مع الإيمان ذنبٌ مهما كبر، ما عدا الشرك والكفر لا
في الدنيا ولا في الآخرة، وأن إيمان أعبد الناس وأفجر الناس سواء، حتى قال
قائلهم:

النَّاسُ فِي الْإِيمَانِ شَيْءٌ وَاحِدٌ كَالْمُشْطِ عِنْدَ تَمَاثُلِ الْأَسْنَانِ

وقد قيل: إنهم سُمُّوا مُرْجئةً؛ لأنهم آخروا الأعمال عن مُسَمَّى الإيمان.
والإرجاء التأخير، كما قال قومُ فرعون لفرعون: ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾
[الشعراء: ٣٦]، أي: أخره.

والوَعِيدَةُ من المُعْتَزِلةِ والخوارج؛ قالوا: بَأْنِ مَنْ تَوَعَّدَهُ اللَّهُ عَلَى ذَنْبٍ فَلَا
بَدَّ مِنْ إِنْفَاقِ ذَلِكَ الْوَعِيدِ، وَلَا يَجُوزُ إِخْلَافُ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ مَا لَمْ يَتَّبَعْ فَاعِلُهُ فِي
الدُّنْيَا، كَمَا أَنَّهُمْ حَكَمُوا عَلَى مُرْتَكِبِ الْكَبِيرَةِ إِنْ لَقِيَ اللَّهَ بِهَا بِالْخُلُودِ فِي النَّارِ.
فهؤلاء نظروا إلى النصوص بعينِ أعور، وأولئك كذلك؛ هؤلاء غلبوا
جانب الوعيد، وأولئك غلبوا جانب الوعد، وكلاهما جانب الجمع بين
النصوص، واعتبار طريق السلف الصالح من الصحابة ومن تبعهم بإحسان ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: ٤٠].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ كما في «مجموع الفتاوى» (3/ 374 -
375): «وهم - أهل السنة - في باب الأسماء والأحكام والوعد والوعيد وسطٌ

بين الوَعِيدَةِ الذين يَجْعَلُونَ أَهْلَ الْكِبَائِرِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مُخَلَّدِينَ فِي النَّارِ، وَيُخْرِجُونَهُمْ مِنَ الْإِيمَانِ بِالْكُلِّيَّةِ، وَيُكَذِّبُونَ بِشَفَاعَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وبين الْمُرْجئة الذين يقولون: إيمان الْفُسَّاقِ مثل إيمان الْأَنْبياءِ، والأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ ليست من الدِّينِ وَالْإِيمَانِ، وَيُكَذِّبُونَ بِالْوَعِيدِ وَالْعِقَابِ بِالْكُلِّيَّةِ.

فَيُؤْمِنُ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ بِأَنَّ فُسَّاقَ الْمُسْلِمِينَ مَعَهُمْ بَعْضُ الْإِيمَانِ وَأَصْلُهُ، وَلَيْسَ مَعَهُمْ جَمِيعُ الْإِيمَانِ الْوَاجِبِ الَّذِي يَسْتَوْجِبُونَ بِهِ الْجَنَّةَ، وَأَنَّهُمْ لَا يُخَلَّدُونَ فِي النَّارِ؛ بَلْ يَخْرُجُ مِنْهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ أَوْ مِثْقَالِ خَرْدَلَةٍ مِنْ إِيمَانٍ، وَأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَدَّخَرَ شَفَاعَتَهُ لِأَهْلِ الْكِبَائِرِ مِنْ أُمَّتِهِ. اهـ.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ كَمَا فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى» (12 / 479 - 483): «وَأَمَّا مَسْأَلَةُ الْأَحْكَامِ وَحُكْمِهِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ؛ فَالَّذِي عَلَيْهِ الصَّحَابَةُ وَمَنْ اتَّبَعَهُمْ بِإِحْسَانٍ وَسَائِرِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ: أَنَّهُ لَا يُخَلَّدُ فِي النَّارِ مَنْ مَعَ شَيْءٍ مِنَ الْإِيمَانِ؛ بَلْ يَخْرُجُ مِنْهَا مَنْ مَعَ مِثْقَالِ حَبَّةٍ أَوْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ. وَأَمَّا الْخَوَارِجُ وَمَنْ وَافَقَهُمْ مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ؛ فَيُوجِبُونَ خُلُودَ مَنْ دَخَلَ النَّارَ، وَعِنْدَهُمْ مَنْ دَخَلَهَا خُلِدَ فِيهَا، وَلَا يَجْتَمِعُ فِي حَقِّ الشَّخْصِ الْوَاحِدِ الْعَذَابُ وَالثَّوَابُ. وَأَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ وَسَائِرِ مَنْ اتَّبَعَهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى اجْتِمَاعِ الْأَمْرَيْنِ فِي حَقِّ خَلْقٍ كَثِيرٍ، كَمَا جَاءَتْ بِهِ السُّنَنُ الْمُتَوَاتِرَةُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وأيضاً: فَأَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ لَا يُوجِبُونَ الْعَذَابَ فِي حَقِّ كُلِّ مَنْ أَتَى كَبِيرَةً، وَلَا يَشْهَدُونَ لِمُسْلِمٍ بَعِيْنُهُ بِالنَّارِ لِأَجْلِ كَبِيرَةٍ وَاحِدَةٍ عَمِلَهَا، بَلْ يَجُوزُ عِنْدَهُمْ أَنَّ صَاحِبَ الْكَبِيرَةِ يُدْخِلُهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ بِلَا عَذَابٍ؛ إِمَّا لِحَسَنَاتٍ تَمْحُوا كَبِيرَتَهُ مِنْهُ أَوْ مِنْ غَيْرِهِ، وَإِمَّا لِمَصَائِبَ كَفَّرَتْهَا عَنْهُ، وَإِمَّا لِدُعَاءٍ مُسْتَجَابٍ مِنْهُ أَوْ مِنْ غَيْرِهِ فِيهِ،

وإما لغير ذلك.

والوَعِيدِيَّة من الخَوَارِج والمُعْتَزِلَة يُوجِبُون العَذَابَ في حَقِّ أَهْلِ الكِبَائِرِ لشمول نصوص الوعيد لهم، مثل قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ آلَيْتَمَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠].

وتَجَعَلُ الْمُعْتَزِلَة إنفاذ الوعيد أحد الأصول الخمسة التي يُكْفَرُونَ مَنْ خَالَفَهَا، وَيُخَالِفُونَ أَهْلَ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ في وجوبِ نَفُوذِ الوعيد فيهم وفي تَخْلِيدِهِمْ، ولهذا مَنَعَتِ الخَوَارِجُ والمُعْتَزِلَة أَنْ يَكُونَ لِنَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَفَاعَةٌ في أَهْلِ الكِبَائِرِ في إخراجِ أَهْلِ الكِبَائِرِ من النار، وهذا مَرْدُودٌ بما تَوَاتَرَ عنه من السُّنَنِ في ذلك، كقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الكِبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي»، وَأَحَادِيثُهُ في إخراجِهِ من النارِ مَنْ قَدْ دَخَلَهَا.

وليس الغرض هنا تحرير هذه الأصول، وإنما الغرض التنبية عليها، وكان ما أوقعهم في ذلك أَنَّهُمْ سَمِعُوا نصوصَ الوعيد فَرَأَوْهَا عَامَّةً، فَقَالُوا: يَجِبُ أَنْ يَدْخُلَ فِيهَا كُلُّ مَنْ شَمَلَتْهُ، وَهُوَ خَيْرٌ، وَخَيْرُ اللَّهِ صِدْقٌ، فَلَوْ أَخْلَفَ وَعِيدَهُ كَانَ كِإِخْلَافٍ وَعَدِهِ، وَالْكَذِبُ عَلَى اللَّهِ مُحَالٌ.

فَعَارَضَهُمْ غَالِبِيَّةُ الْمُرْجئةِ بِنصوصِ الوعد؛ فَإِنِهَا قَدْ تَتَنَاوَلُ كَثِيرًا مِنْ أَهْلِ الكِبَائِرِ، فَعَادَ كُلُّ فَرِيقٍ إِلَى أَصْلِهِ الْفَاسِدِ.

فَقَالَ الْأَوَّلُونَ: نصوصُ الوعد لا تَتَنَاوَلُ إِلَّا مُؤْمِنًا، وَهَؤُلَاءِ لَيْسُوا مُؤْمِنِينَ.

وَقَالَ الْآخَرُونَ: نصوصُ الوعيد لا تَتَنَاوَلُ إِلَّا كَافِرًا.

وَكُلٌّ مِنَ الْقَوْلَيْنِ خَطَأٌ؛ فَإِنَّ النصوصَ مثل قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ آلَيْتَمَى ظُلْمًا﴾ [النساء: ١٠]، لَمْ يُشْطَرَطْ فِيهَا الْكُفْرُ؛ بَلْ هِيَ فِي حَقِّ

الْمُتَدِّينَ بِالْإِسْلَامِ.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ»، لم يشترط فيه فِعْلُ الواجبات؛ بل قد ثَبَتَ في الصَّحاح: «وإن زَنَا، وإن سَرَقَ، وإن شَرِبَ الخَمْرَ».

فهنا اضْطَرَبَ النَّاسُ؛ فَأَنكَرَ قَوْمٌ مِنَ الْمُرْجئةِ الْعُمُومَ، وقالوا: ليس في اللُّغَةِ عُمُومٌ؛ وَهَمَّ الْوَاقِفِيَّةُ فِي الْعُمُومِ مِنَ الْمُرْجئةِ وَبَعْضُ الْأَشْعَرِيَّةِ وَالشَّيعَةِ، وَإِنَّمَا التَزَمُوا ذَلِكَ لِئَلَّا يَدْخُلَ جَمِيعُ الْمُؤْمِنِينَ فِي نَصُوصِ الْوَعِيدِ.

وقالت الْمُتَقَصِّدَةُ: بل الْعُمُومُ صَحِيحٌ وَالصَّيْغُ صَيْغُ عُمُومٍ، لَكِنْ الْعَامُ يَقْبَلُ التَّخْصِيسَ؛ وَهَذَا مَذْهَبُ جَمِيعِ الْخَلَائِقِ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، إِلَّا هَذِهِ الشَّرْذِمَةُ قَالُوا: فَمَنْ عَفِيَ عَنْهُ كَانَ مُسْتَشْنَى مِنَ الْعُمُومِ.

وقال قَوْمٌ آخَرُونَ: بل إِخْلَافُ الْوَعِيدِ لَيْسَ بِكَذِبٍ، وَإِنَّ الْعَرَبَ لَا تَعُدُّ عَارًا أَوْ شَنَارًا أَنْ يُوعِدَ الرَّجُلُ شَرًّا ثُمَّ لَا يُنْجِزْهُ، كَمَا تَعُدُّ عَارًا أَوْ شَنَارًا أَنْ يُوعِدَ الرَّجُلُ خَيْرًا ثُمَّ لَا يُنْجِزْهُ، وَهَذَا قَوْلُ طَوَائِفَ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ وَالْمُتَأَخِّرِينَ.

وَقَدْ احْتَجُّوا بِقَوْلِ كَعْبِ بْنِ زُهَيْرٍ يُخَاطِبُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

نُبِّئْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ أَوْعَدَنِي وَالْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ مَأْمُولٌ

قالوا: فهذا وعيدٌ خاصٌّ، وقد رَجَا فِيهِ الْعَفْوُ مُخَاطَبًا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،

فَعَلِمَ أَنَّ الْعَفْوَ عِنْدَ الْمُتَوَعَّدِ جَائِزٌ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ بَابِ تَخْصِيسِ الْعَامِ.

والتَّحْقِيقُ أَنَّ يُقَالُ: الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ مُشْتَمِلٌ عَلَى نَصُوصِ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، كَمَا أَنَّ ذَلِكَ مُشْتَمِلٌ عَلَى نَصُوصِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَكُلٌّ مِنَ النُّصُوصِ يَفْسِّرُ الْآخَرَ وَيُبَيِّنُهُ، فَكَمَا أَنَّ نَصُوصِ الْوَعْدِ عَلَى الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ مَشْرُوطَةٌ بِعَدَمِ الْكُفْرِ

المُحِبِّ؛ لَأَنَّ الْقُرْآنَ قَدْ دَلَّ عَلَى أَنَّ مَنْ ارْتَدَّ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ.

فكذلك نصوصُ الوعيد للكُفَّارِ والفُسَّاقِ مَشْرُوطَةٌ بعدمِ التَّوْبَةِ؛ لَأَنَّ الْقُرْآنَ قَدْ دَلَّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا لِمَنْ تَابَ، وَهَذَا مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، فَكَذَلِكَ فِي مَوَارِدِ النَّزَاعِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ بَيَّنَّ بِنُصُوصٍ مَعْرُوفَةٍ أَنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ، وَأَنَّ مَنْ يَعْمَلُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ، وَأَنَّهُ يُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَاهُ، وَأَنَّ مَصَائِبَ الدُّنْيَا تَكْفُرُ الذُّنُوبَ، وَأَنَّهُ يَقْبَلُ شَفَاعَةَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أَهْلِ الْكِبَائِرِ، وَأَنَّهُ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ. كَمَا بَيَّنَّ أَنَّ الصَّدَقَةَ يُبْطِلُهَا الْمَنُّ وَالْأَذَى، وَأَنَّ الرَّبَّ يُبْطِلُ الْعَمَلَ، وَأَنَّهُ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ؛ أَي: فِي ذَلِكَ الْعَمَلِ وَنَحْوِ ذَلِكَ.

فَجَعَلَ لِلْسَّيِّئَاتِ مَا يُوجِبُ رَفْعَ عِقَابِهَا، كَمَا جَعَلَ لِلْحَسَنَاتِ مَا قَدْ يُبْطِلُ ثَوَابَهَا، لَكِنْ لَيْسَ شَيْءٌ يُبْطِلُ جَمِيعَ السَّيِّئَاتِ إِلَّا التَّوْبَةُ، كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ يُبْطِلُ جَمِيعَ الْحَسَنَاتِ إِلَّا الرَّدَّةُ.

وَبِهَذَا تَبَيَّنَ أَنَّا نَشْهَدُ بِأَنَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠]، عَلَى الْإِطْلَاقِ وَالْعُمُومِ.

وَلَا نَشْهَدُ لِمُعَيَّنٍ أَنَّهُ فِي النَّارِ؛ لِأَنَّا لَا نَعْلَمُ لِحُقُوقِ الْوَعِيدِ لَهُ بَعِيْنَهُ، لِأَنَّ لِحُقُوقِ الْوَعِيدِ بِالْمُعَيَّنِ مَشْرُوطٌ بِشُرُوطٍ وَانْتِفَاءٍ مَوَانِعَ، وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ ثُبُوتَ الشُّرُوطِ وَانْتِفَاءِ الْمَوَانِعِ فِي حَقِّهِ. وَفَائِدَةُ الْوَعِيدِ بَيَانُ أَنَّ هَذَا الذَّنْبَ سَبَبٌ مُقْتَضٍ لِهَذَا الْعَذَابِ، وَالسَّبَبُ قَدْ يَقِفُ تَأْثِيرُهُ عَلَى وُجُودِ شَرْطِهِ وَانْتِفَاءِ مَانِعِهِ.

يُبَيِّنُ هَذَا: أَنَّهُ قَدْ ثَبَتَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَعَنَ الْخَمْرَ وَعَاصِرَهَا

وَمُعْتَصِرَهَا وَحَامِلَهَا وَالْمَحْمُولَةَ إِلَيْهِ وَشَارِبَهَا وَسَاقِيَهَا وَبَائِعَهَا وَمُبْتَاعَهَا وَآكِلَ ثَمَنَهَا.

وُثِّبَتْ عَنْهُ فِي «صَحِيحِ الْبَخَارِيِّ» عَنْ عِمْرَانَ: أَنَّ رَجُلًا كَانَ يُكْثِرُ شُرْبَ الْخَمْرِ، فَلَعَنَهُ رَجُلٌ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَلْعَنُهُ؛ فَإِنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ».

فَنَهَى عَنْ لَعْنِ هَذَا الْمُعَيَّنِّ وَهُوَ مُدْمِنٌ خَمْرٍ؛ لِأَنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَقَدْ لَعَنَ شَارِبَ الْخَمْرِ عَلَى الْعُمُومِ. اهـ.

وَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ كَمَا فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى» (2/ 270): «وَالَّذِي عَلَيْهِ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ الْإِيمَانُ بِالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، فَكَمَا أَنَّ مَا تَوَعَّدَ اللَّهُ بِهِ مِنَ الْعِقَابِ قَدْ بَيَّنَّ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ يُشْتَرَطُ بِأَلَّا يَتُوبَ؛ فَإِنْ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَبِأَنَّ لَا يَكُونُ لَهُ حَسَنَاتٌ تَمْحُو ذَنْبَهُ؛ فَإِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ، وَبِأَنَّ لَا يَشَاءُ اللَّهُ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ».

فَهَكَذَا الْوَعْدُ لَهُ تَفْسِيرٌ وَبَيَانٌ؛ فَمَنْ قَالَ بِلِسَانِهِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَكَذَّبَ الرَّسُولَ؛ فَهُوَ كَافِرٌ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ، وَكَذَلِكَ إِنْ جَحَدَ شَيْئًا مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ. اهـ.

قَوْلُهُ: «وَفِي بَابِ أَسْمَاءِ الْإِيمَانِ وَالَّذِينَ بَيْنَ الْحُرُورِيَّةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ وَبَيْنَ الْمُرْجِئَةِ وَالْجَهْمِيَّةِ».

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ رَحِمَهُ اللَّهُ كَمَا فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى» (13/ 58): «وَلَيْسَ فِي الْقَوْلِ اسْمٌ عُلِّقَ بِهِ السَّعَادَةُ وَالشَّقَاوَةُ وَالْمَدْحُ وَالذَّمُّ وَالثَّوَابُ وَالْعِقَابُ أَعْظَمَ مِنْ اسْمِ الْإِيمَانِ وَالْكُفْرِ، وَلِهَذَا سُمِّيَ هَذَا الْأَصْلُ: مَسَائِلُ الْأَسْمَاءِ وَالْأَحْكَامِ». اهـ.

وقال كما في (38/13): «وتنازع النَّاسُ في الأسماء والأحكام؛ أي: في أسماء الدين، مثل: مُسْلِمٍ ومُؤْمِنٍ وكافرٍ وفاسِقٍ، وفي أحكام هؤلاء في الدنيا والآخرة، فالمُعْتَزِلَةُ وافقوا الخَوَارِجَ على حُكْمِهِمْ في الآخِرَةِ دون الدنيا؛ فلم يَسْتَحِلُّوا مِنْ دِمَائِهِمْ وأموالهم ما استَحَلَّتْهُ الخَوَارِجُ، وفي الأسماء أحدثوا المَنْزِلَةَ بين المَنْزِلَتَيْنِ، وهذه خاصَّةُ المُعْتَزِلَةِ التي انفردوا بها، وسائرُ أقوالهم قد شاركهم فيها غيرُهم». اهـ.

وقال رَحِمَهُ اللهُ كما في «مَجْمُوعُ الْفَتَاوَى» (468/12): «اعْلَمْ أَنَّ مسائلَ التَّكْفِيرِ والتَّنْفِيقِ هي من مسائلِ الأسماء والأحكام التي يَتَعَلَّقُ بها المُؤَالاةُ والمُعَاداةُ والقَتْلُ والعِصْمَةُ وغير ذلك في الدار الدنيا؛ فإن الله سبحانه أوجب الجنةَ للمؤمنين، وحرَّم الجنةَ على الكافرين، وهذا من الأحكام الكُلِّيَّةِ في كلِّ وقتٍ ومكان». اهـ.

مَنْشَأُ النِّزَاعِ فِي مَسَائِلِ الْأَسْمَاءِ وَالْأَحْكَامِ:

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ في «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى» (50-51): «والمَقْصُودُ هُنَا: أَنَّ مَنْشَأَ النِّزَاعِ فِي «الْأَسْمَاءِ وَالْأَحْكَامِ» فِي الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ: أَنََّّهُمْ لَمَّا ظَنُّوا أَنَّهُ لَا يَتَبَعَّضُ قَالَ أَوْلَيْكَ: فَإِذَا فَعَلَ ذَنْبًا زَالَ بَعْضُهُ، فَيَزُولُ كُلُّهُ فَيَخْلُدُ فِي النَّارِ.

فَقَالَتِ الْجَهْمِيَّةُ وَالْمُرْجِيَّةُ: قَدْ عَلِمْنَا أَنَّهُ لَيْسَ يَخْلُدُ فِي النَّارِ، وَأَنَّهُ لَيْسَ كَافِرًا مُرْتَدًّا؛ بَلْ هُوَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَإِذَا كَانَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ مُؤْمِنًا تَامَ الْإِيمَانِ لَيْسَ مَعَهُ بَعْضُ الْإِيمَانِ؛ لِأَنَّ الْإِيمَانَ عِنْدَهُمْ لَا يَتَبَعَّضُ؛ فَاحْتَاجُوا أَنْ يَجْعَلُوا الْإِيمَانَ شَيْئًا وَاحِدًا يَشْتَرِكُ فِيهِ جَمِيعُ أَهْلِ الْقِبْلَةِ، فَقَالَ فَقَهَاءُ الْمُرْجِيَّةِ: هُوَ التَّصَدِيقُ بِالْقَلْبِ، وَالْقَوْلُ بِاللِّسَانِ.

فَقَالَتِ الْجَهْمِيَّةُ بَعْدَ تَصَدِيقِ اللِّسَانِ: قَدْ لَا يَجِبُ؛ إِذَا كَانَ الرَّجُلُ أَخْرَسَ، أَوْ

كَانَ مُكْرَهَا؛ فَالَّذِي لَا بُدَّ مِنْهُ تَصْدِيقُ الْقَلْبِ.

وَقَالَتِ الْمُرْجِيَّةُ: الرَّجُلُ إِذَا أَسْلَمَ كَانَ مُؤْمِنًا قَبْلَ أَنْ يَجِبَ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنَ الْأَفْعَالِ.

وَأَنْكَرَ كُلُّ هَذِهِ الطَّوَائِفِ أَنَّهُ «يَنْقُصُ»، وَالصَّحَابَةُ قَدْ ثَبَتَ عَنْهُمْ: أَنَّ الْإِيمَانَ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ، وَهُوَ قَوْلُ أَيْمَةِ السُّنَّةِ. اهـ.

وَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ كَمَا فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى» (12 / 470): «فَكَانَ مِنْ أَوَّلِ الْبِدَعِ وَالتَّفَرُّقِ الَّذِي وَقَعَ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ: «بِدْعَةُ الْخَوَارِجِ» الْمُكَفِّرَةِ بِالذَّنْبِ؛ فَإِنَّهُمْ تَكَلَّمُوا فِي الْفَاسِقِ الْمَلِيِّ، فَرَعَمَتِ الْخَوَارِجُ وَالْمُعْتَرِلَةُ: أَنَّ الذُّنُوبَ الْكَبِيرَةَ - وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: وَالصَّغِيرَةَ - لَا تُجَامِعُ الْإِيمَانَ أَبَدًا، بَلْ تُنَافِيهِ وَتُفْسِدُهُ، كَمَا يُفْسِدُ الْأَكْلُ وَالشُّرْبُ الصِّيَامَ.

قَالُوا: لِأَنَّ الْإِيمَانَ هُوَ فِعْلُ الْمَأْمُورِ وَتَرْكُ الْمَحْظُورِ؛ فَمَتَى بَطَلَ بَعْضُهُ بَطَلَ كُلُّهُ كَسَائِرِ الْمُرَكَّبَاتِ.

ثُمَّ قَالَتِ الْخَوَارِجُ: فَيَكُونُ الْعَاصِي كَافِرًا؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ إِلَّا مُؤْمِنٌ وَكَافِرٌ، ثُمَّ اعْتَقَدُوا أَنَّ عُثْمَانَ وَعَلِيًّا وَغَيْرَهُمَا عَصَوْا، وَمَنْ عَصَى فَقَدْ كَفَرَ؛ فَكَفَرُوا هَذَيْنِ الْخَلِيفَتَيْنِ وَجُمُهورِ الْأُمَّةِ.

وَقَالَتِ الْمُعْتَرِلَةُ بِالْمَنْزِلَةِ بَيْنَ الْمَنْزِلَتَيْنِ؛ إِنَّهُ يَخْرُجُ مِنَ الْإِيمَانِ، وَلَا يَدْخُلُ فِي الْكُفْرِ.

وَقَابَلَتْهُمْ الْمُرْجِيَّةُ وَالْجَهْمِيَّةُ وَمَنْ اتَّبَعَهُمْ مِنَ الْأَشْعَرِيَّةِ وَالْكَرَّامِيَّةِ.

فَقَالُوا: لَيْسَ مِنَ الْإِيمَانِ فِعْلُ الْأَعْمَالِ الْوَاجِبَةِ، وَلَا تَرْكُ الْمَحْظُورَاتِ الْبَدَنِيَّةِ، وَالْإِيمَانُ لَا يَقْبَلُ الزِّيَادَةَ وَالنَّقْصَانَ؛ بَلْ هُوَ شَيْءٌ وَاحِدٌ يَسْتَوِي فِيهِ جَمِيعُ

الْمُؤْمِنِينَ؛ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالنَّبِيِّينَ وَالْمُقَرَّبِينَ وَالْمُقْتَصِدِينَ وَالظَّالِمِينَ.

ثُمَّ قَالَ فَقَهَاءُ الْمُرْجِئَةِ: هُوَ التَّصْدِيقُ بِالْقَلْبِ وَاللِّسَانِ.

وَقَالَ أَكْثَرُ مُتَكَلِّمِيهِمْ: هُوَ التَّصْدِيقُ بِالْقَلْبِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: التَّصْدِيقُ بِاللِّسَانِ.

قَالُوا: لِأَنَّهُ لَوْ دَخَلَتْ فِيهِ الْوَاجِبَاتُ الْعَمَلِيَّةُ لَخَرَجَ مِنْهُ مَنْ لَمْ يَأْتِ بِهَا، كَمَا قَالَتِ الْخَوَارِجُ.

وَنُكِّتَهُ هَؤُلَاءِ جَمِيعُهُمْ: تَوَهُمُهُمْ أَنَّ مَنْ تَرَكَ بَعْضَ الْإِيمَانِ فَقَدْ تَرَكَهُ كُلَّهُ.

وَأَمَّا أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ مِنَ الصَّحَابَةِ جَمِيعِهِمْ، وَالتَّابِعِينَ، وَأُئِمَّةَ أَهْلِ السُّنَّةِ، وَأَهْلَ الْحَدِيثِ، وَجَمَاهِيرِ الْفُقَهَاءِ، وَالصُّوفِيَّةِ - مِثْلَ (مَالِكٍ، وَالثَّوْرِيِّ، وَالْأَوْزَاعِيِّ، وَحَمَادِ بْنِ زَيْدٍ، وَالشَّافِعِيِّ، وَأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ، وَغَيْرِهِمْ، وَمُحَقِّقِي أَهْلِ الْكَلَامِ) - فَاتَّفَقُوا عَلَى أَنَّ الْإِيمَانَ وَالدِّينَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ.

هَذَا لَفْظُ السَّلَفِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَغَيْرِهِمْ، وَإِنْ كَانَ قَدْ يُعْنَى بِالْإِيمَانِ فِي بَعْضِ الْمَوَاضِعِ مَا يُغَايِرُ الْعَمَلَ؛ لَكِنَّ الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ كُلَّهَا تَدْخُلُ - أَيْضًا - فِي مُسَمِّي الدِّينِ وَالْإِيمَانِ، وَيَدْخُلُ فِي الْقَوْلِ: قَوْلُ الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ، وَفِي الْعَمَلِ: عَمَلُ الْقَلْبِ وَالْجَوَارِحِ». اهـ.

وخلاصة القول:

إِنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ وَسَطُ فِي بَابِ أَسْمَاءِ الْإِيمَانِ وَالدِّينِ بَيْنَ الْخَوَارِجِ وَالْمُعْتَزِلَةِ، وَبَيْنَ الْمُرْجِئَةِ وَالْجَهْمِيَّةِ؛ فَالْخَوَارِجُ كَفَرُوا مُرْتَكِبَ الْكَبِيرَةِ مُطْلَقًا، بَلْ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ حَتَّى مُرْتَكِبَ الصَّغِيرَةِ.

والمعتزلة قالوا: إِنَّ أَصْحَابَ الْكِبَائِرِ لَا مُسْلِمُونَ وَلَا كُفَرَاءَ، بَلْ هُمْ فِي مَنْزِلَةِ

بين المنزلتين.

وَاتَّفَقُوا مَعَ الْخَوَارِجِ فِي الْحُكْمِ الْآخِرِيِّ عَلَى صَاحِبِ الْكِبِيرَةِ: أَنَّهُ مُخَلَّدٌ فِي النَّارِ.

ولذلك قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ كَمَا فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى» (13/ 37-38): «وَكَانَتْ الْخَوَارِجُ قَدْ تَكَلَّمُوا فِي تَكْفِيرِ أَهْلِ الذُّنُوبِ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ، وَقَالُوا: إِنَّهُمْ كُفَّارٌ مُخَلَّدُونَ فِي النَّارِ؛ فَخَاصَّ النَّاسُ فِي ذَلِكَ، وَخَاصَّ فِي ذَلِكَ الْقَدَرِيَّةُ بَعْدَ مَوْتِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ.

فَقَالَ عَمْرُو بْنُ عُبَيْدٍ وَأَصْحَابُهُ: لَا هُمْ مُسْلِمُونَ وَلَا كُفَّارٌ؛ بَلْ لَهُمْ مَنْزِلَةٌ بَيْنَ الْمَنْزِلَتَيْنِ، وَهُمْ مُخَلَّدُونَ فِي النَّارِ.

فَوَافَقُوا الْخَوَارِجَ عَلَى أَنَّهُمْ مُخَلَّدُونَ، وَعَلَى أَنَّهُ لَيْسَ مَعَهُمْ مِنَ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ شَيْءٌ، وَلَكِنْ لَمْ يُسَمُّوهُمْ كُفَّارًا.

وَاعْتَزَلُوا حَلَقَةً أَصْحَابِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ؛ مِثْلَ قَتَادَةَ، وَأَيُّوبَ السَّخْتْيَانِي، وَأَمْثَالِهِمَا.

فَسَمُّوا مُعْتَزِلَةً مِنْ ذَلِكَ الْوَقْتِ بَعْدَ مَوْتِ الْحَسَنِ.

وَقِيلَ: إِنَّ قَتَادَةَ كَانَ يَقُولُ: أُولَئِكَ الْمُعْتَزِلَةُ». اهـ.

وَأَمَّا الْمُرْجِئَةُ وَالْجَهْمِيَّةُ فَأَعْطُوا الْفَاسِقَ مُرْتَكِبَ الْكِبَائِرِ الْإِيمَانَ الْمُطْلَقَ، وَقَالُوا: إِنَّهُ كَامِلُ الْإِيمَانِ، وَلَا يَضُرُّهُ مَعَ الْإِيمَانِ ذَنْبٌ.

وَكُلُّ هَؤُلَاءِ - كَمَا قَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ -: «أَتُوا مِنْ قَبْلِ سُوءِ فَهْمِهِمْ لِنُصُوصِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ».

وَأَمَّا أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ فَهُمْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وطريق الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؛ فَإِنَّهُمْ لَمْ يُكْفَرُوا أَهْلَ الْقِبْلَةِ بِارْتِكَابِ الْكِبَائِرِ، وَإِنَّمَا قَالُوا: إِنَّ مُرْتَكِبَ الْكَبِيرَةِ مُؤْمِنٌ نَاقِصُ الْإِيمَانِ، فَهُوَ مُؤْمِنٌ بِإِيمَانِهِ وَفَاسِقٌ بِمَعْصِيَتِهِ، فَلَمْ يُعْطَوْهُ الْإِيمَانَ الْمَطْلُوقَ، وَلَا سَلْبُوهُ مَطْلُوقَ الْإِيمَانِ، وَلَمْ يَحْكُمُوا عَلَى الْفَاسِقِ بِأَنَّهُ مُخَلَّدٌ فِي النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، بَلْ قَالُوا: إِنَّ مُرْتَكِبِي الْكِبَائِرِ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ تَحْتَ مَشِيئَةِ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُمْ وَأَدْخَلَهُمُ الْجَنَّةَ بِلَا عَذَابٍ، وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُمْ عَلَى قَدَرِ ذُنُوبِهِمْ، ثُمَّ أَدْخَلَهُمُ الْجَنَّةَ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

وسياأتي - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - زيادةٌ بيانٍ لهذا عند قول شيخ الإسلام عن أهلِ السُّنَّةِ: «وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ لَا يُكْفَرُونَ أَهْلَ الْقِبْلَةِ بِمَطْلُوقِ الْمَعَاصِي وَالْكِبَائِرِ». قوله: «وَفِي بَابِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ الرَّافِضَةِ وَالْخَوَارِجِ».

أَهْلُ السُّنَّةِ وَسَطٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ؛ فَهُمْ - كَمَا قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ -: «نَقَاوَةُ الْمُسْلِمِينَ»، وَمِنْ ذَلِكَ وَسَطِيَّتُهُمْ فِي أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ مَنْ غَلَا وَمَنْ جَفَا.

وَالصَّحَابَةُ: جَمْعُ صَاحِبِيٍّ، وَهُوَ مَنْ لَقِيَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُؤْمِنًا بِهِ وَمَاتَ عَلَى ذَلِكَ، وَإِنْ تَخَلَّلَ ذَلِكَ رَدَّةٌ عَلَى الْأَصَحِّ. هَكَذَا قَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ. أَمَّا الرَّافِضَةُ: فَالرَّفُضُ هُوَ التَّرْكُ، وَقَدْ سُمُّوا بِذَلِكَ؛ لِأَنَّهُمْ قَالُوا لَزِيدِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ الْحُسَيْنِ لَمَّا أَبَى أَنْ يَتَبَرَّأَ مِنْ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: نَحْنُ نَرْفُضُكَ.

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ كَمَا فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى» (35 / 13) - (36): «وَأَمَّا لَفْظُ الرَّافِضَةِ فَهَذَا اللَّفْظُ أَوَّلُ مَا ظَهَرَ فِي الْإِسْلَامِ لَمَّا خَرَجَ زَيْدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ الْحُسَيْنِ فِي أَوَائِلِ الْمِائَةِ الثَّانِيَةِ فِي خِلَافَةِ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ، وَاتَّبَعَهُ

الشَّيْعَةُ، فَسُئِلَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ! فَتَوَلَّاهُمَا، وَتَرَحَّمَ عَلَيْهِمَا؛ فَرَفَضَهُ قَوْمٌ، فَقَالَ: رَفَضْتُمُونِي، رَفَضْتُمُونِي! فَسُمُّوا الرَّافِضَةَ.

فَالرَّافِضَةُ تَتَوَلَّى أَخَاهُ أَبَا جَعْفَرٍ مُحَمَّدَ بْنَ عَلِيٍّ، وَالزَّيْدِيَّةُ يَتَوَلَّوْنَ زَيْدًا، وَيُسَبِّحُونَ إِلَيْهِ. وَمِنْ حِينِئذٍ انْقَسَمَتِ الشَّيْعَةُ إِلَى: زَيْدِيَّةٍ، وَرَافِضَةٍ إِمَامِيَّةٍ. اهـ.

وقال شيخ الإسلام في «منهاج السنة» (2/ 96): «وكانت الشيعة أصحاب عليٍّ يُقدِّمون عليه أبا بكر وعمر، وإنَّما كان النزاعُ في تقديمه على عثمان، ولم يكن حينئذ يُسمَّى أحدٌ لا إمامياً ولا رافضياً، وإنَّما سُمُّوا رافضة وصاروا رافضة لما خرج زيد بن علي بن الحسين بالكوفة على هشام، فسأله الشيعة عن أبي بكر وعمر؛ فترحم عليهما فَرَفَضَهُ قَوْمٌ، فقال: رفضتموني، رفضتموني؛ فُسُمُّوا رافضة، وتولاه قوم فُسُمُّوا زيدية؛ لانتسابهم إليه، ومن حينئذ انقسمت الشيعة إلى رافضة وزيدية، وكلما زادوا في البدعة زادوا في الشر؛ فالزيدية خيرٌ من الرافضة؛ أعلم وأصدق وأزهد وأشجع». اهـ.

وَأَمَّا الْخَوَارِجُ فَقَدْ خَرَجُوا عَلَى الصَّحَابَةِ زَمَنَ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَكَفَرُوهُ، وَكَفَرُوا مُعَاوِيَةَ وَعُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَاسْتَحَلُّوا دِمَاءَ الصَّحَابَةِ، وَدِمَاءَ مَنْ تَوَلَّاهُمْ، وَقَدَحُوا فِي خِلَافَةِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَإِمَامَتِهِ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كما في «مجموع الفتاوى» (3/ 375): «وَهُمْ أَيْضًا - أَهْلُ السُّنَّةِ - فِي أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَرَضِيَ عَنْهُمْ - وَسَطُ بَيْنِ الْغَالِيَةِ، الَّذِينَ يُغَالُونَ فِي عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ فَيَفْضِلُونَهُ عَلَى أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّهُ الْإِمَامُ الْمَعْصُومُ دُونَهُمَا، وَأَنَّ الصَّحَابَةَ ظَلَمُوا وَفَسَقُوا،

وَكَفَرُوا الْأُمَّةَ بَعْدَهُمْ كَذَلِكَ، وَرَبَّمَا جَعَلُوهُ نَبِيًّا أَوْ إِلَهًا» (1).

وَبَيْنَ الْجَافِيَةِ الَّذِينَ يَعْتَقِدُونَ كُفْرَهُ وَكُفْرَ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَيَسْتَحِلُّونَ دِمَاءَهُمَا وَدِمَاءَ مَنْ تَوَلَّاهُمَا، وَيَسْتَجِبُونَ سَبَّ عَلِيٍّ وَعُثْمَانَ وَنَحْوَهُمَا، وَيَقْدَحُونَ، وَمَا اتَّفَقَ عَلَيْهِ السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ. اهـ.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ كما في «مجموع الفتاوى» (13/32 - 35): «وَهَاتَانِ الطَّائِفَتَانِ الْخَوَارِجُ وَالشَّيْعَةُ حَدَّثُوا بَعْدَ مَقْتَلِ عُثْمَانَ، وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ فِي خِلَافَةِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَصَدْرًا مِنْ خِلَافَةِ عُثْمَانَ فِي السَّنَةِ الْأُولَى مِنْ وَلَايَتِهِ مُتَّفِقِينَ لَا تَنَازُعَ بَيْنَهُمْ، ثُمَّ حَدَثَ فِي أَوَاخِرِ خِلَافَةِ عُثْمَانَ أُمُورٌ أَوْجَبَتْ نَوْعًا مِنَ التَّفَرُّقِ، وَقَامَ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الْفِتْنَةِ وَالظُّلْمِ فَقَتَلُوا عُثْمَانَ، فَتَفَرَّقَ الْمُسْلِمُونَ بَعْدَ مَقْتَلِ عُثْمَانَ.

وَلَمَّا اقْتَتَلَ الْمُسْلِمُونَ بِصَفَيْنَ، وَاتَّفَقُوا عَلَى تَحْكِيمِ حَكَمَيْنِ - خَرَجَتِ الْخَوَارِجُ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَفَارَقُوهُ، وَفَارَقُوا جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى مَكَانٍ يُقَالُ لَهُ: حَرُورَاءُ، فَكَفَّ عَنْهُمْ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، وَقَالَ: «لَكُمْ عَلَيْنَا أَنْ لَا نَمْنَعَكُمْ حَقَّكُمْ مِنَ الْفَيْءِ، وَلَا نَمْنَعَكُمْ الْمَسَاجِدَ»، إِلَى أَنْ اسْتَحَلُّوا دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ وَأَمْوَالَهُمْ؛ فَقَتَلُوا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ حَبَّابٍ، وَأَغَارُوا عَلَى سَرْحِ الْمُسْلِمِينَ؛ فَعَلِمَ عَلِيٌّ أَنََّّهُمُ الطَّائِفَةُ الَّتِي ذَكَرَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَيْثُ

(1) هذا، ومن غلاة الرافضة من كفر عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال الإمام أبو محمد بن حزم: «إِنَّ غُلَاتِهِمْ كَفَرُوا عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ؛ قَالُوا: لِأَنَّ عَلِيًّا أَقَرَّ الظُّلْمِ وَالْبَاطِلِ حِينَ بَايَعَ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ، وَكَانَ الْوَاجِبُ عَلَيْهِ: أَنْ يُنْكَرَ بَيْعَتَهُمَا، فَلَمَّا لَمْ يَأْخُذْ بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ، وَوَافَقَ عَلَى الظُّلْمِ صَارَ ظَالِمًا كَافِرًا». اهـ. «مجموع فتاوى ورسائل العثميين» (8/447).

قَالَ: «يَحْتَرُّ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ، وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ، وَقِرَاءَتَهُ مَعَ قِرَاءَتِهِمْ، يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ؛ يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، آيَتُهُمْ فِيهِمْ رَجُلٌ مُخَدِّجٌ يَدَ عَلَيْهَا بَضْعَةٌ عَلَيْهَا شَعْرَاتٌ».

وَفِي رِوَايَةٍ: «يَقْتُلُونَ أَهْلَ الْإِسْلَامِ، وَيَدْعُونَ أَهْلَ الْأَوْثَانِ»؛ فَخَطَبَ النَّاسَ وَأَخْبَرَهُمْ بِمَا سَمِعَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَالَ: «هُمْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ؛ قَدْ سَفَكُوا الدَّمَ الْحَرَامَ، وَأَغَارُوا عَلَى سِرْحِ النَّاسِ». فَقَاتَلَهُمْ، وَوَجَدَ الْعَلَامَةَ بَعْدَ أَنْ كَادَ لَا يُوجَدُ؛ فَسَجَدَ لِلَّهِ شُكْرًا.

وَحَدَّثَ فِي أَيَّامِهِ الشَّيْعَةَ، لَكِنْ كَانُوا مُخْتَفِينَ بِقَوْلِهِمْ، لَا يُظْهِرُونَهُ لِعَلِيٍّ وَشِيعَتِهِ؛ بَلْ كَانُوا ثَلَاثَ طَوَائِفَ:

طَائِفَةٌ تَقُولُ: إِنَّهُ إِلَهٌ، وَهَؤُلَاءِ لَمَّا ظَهَرَ عَلَيْهِمْ أَحْرَقَهُمْ بِالنَّارِ، وَخَدَّ لَهُمْ أَخَادِيدَ عِنْدَ بَابِ مَسْجِدِ بَنِي كِنْدَةَ. وَقِيلَ: إِنَّهُ أَنْشَدَ:

لَمَّا رَأَيْتِ الْأَمْرَ أَمْرًا مُنْكَرًا أَجَجْتَ نَارِي وَدَعَوْتَ قَنْبَرًا

وَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: «أَتَيْتُ عَلِيًّا بِرَنَادِقَةٍ؛ فَحَرَّقَهُمْ بِالنَّارِ، وَلَوْ كُنْتُ أَنَا لَمْ أُحَرِّقْهُمْ؛ لِنَهْيِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُعَذَّبَ بِعَذَابِ اللَّهِ، وَلَضْرِبَتْ أَعْنَاقَهُمْ؛ لِقَوْلِهِ: «مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ».

وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، هُوَ مَذْهَبُ أَكْثَرِ الْفُقَهَاءِ، وَقَدْ رُوِيَ أَنَّهُ أَجْلَهُمْ ثَلَاثًا.

وَالثَّانِيَةُ: السَّابَّةُ: وَكَانَ قَدْ بَلَغَهُ عَنْ ابْنِ السَّوْدَاءِ أَنَّهُ كَانَ يَسُبُّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ فَطَلَبَهُ.

قِيلَ: إِنَّهُ طَلَبَهُ لِيَقْتُلَهُ، فَهَرَبَ مِنْهُ.

وَالثَّالِثَةُ: الْمُفَضَّلَةُ؛ الَّذِينَ يُفَضِّلُونَهُ عَلَى أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، فَتَوَاتَرَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «خَيْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا: أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرُ».

وَرَوَى ذَلِكَ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ عَنْ مُحَمَّدِ ابْنِ الْحَنَفِيَّةِ: أَنَّهُ سَأَلَ أَبَاهُ: «مَنْ خَيْرُ النَّاسِ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟» فَقَالَ: «أَبُو بَكْرٍ». قَالَ: «ثُمَّ مَنْ؟» قَالَ: «عُمَرُ».

وَكَانَتِ الشَّيْعَةُ الْأُولَى لَا يَتَنَازَعُونَ فِي تَفْضِيلِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، وَإِنَّمَا كَانَ النِّزَاعُ فِي عَلِيٍّ وَعُثْمَانَ؛ وَلِهَذَا قَالَ شَرِيكُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: «إِنَّ أَفْضَلَ النَّاسِ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ». فَقِيلَ لَهُ: «تَقُولُ هَذَا وَأَنْتَ مِنَ الشَّيْعَةِ؟» فَقَالَ: «كُلُّ الشَّيْعَةِ كَانُوا عَلَى هَذَا. وَهُوَ الَّذِي قَالَ هَذَا عَلَى أَعْوَادِ مِنْبَرِهِ؛ أَفَنُكَذِّبُهُ فِيمَا قَالَ؟».

وَلِهَذَا قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ: «مَنْ فَضَّلَ عَلِيًّا عَلَى أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ فَقَدْ أَزْرَى بِالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ. وَمَا أَرَى يَضَعُدُ لَهُ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ عَمَلٌ، وَهُوَ كَذَلِكَ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ فِي «سُنَنِهِ»، وَكَأَنَّهُ يُعَرِّضُ بِالْحَسَنِ بْنِ صَالِحِ بْنِ حِي؛ فَإِنَّ الزَّيْدِيَّةَ الصَّالِحِيَّةَ، وَهُمْ أَصْلَحُ طَوَائِفِ الزَّيْدِيَّةِ يُنْسَبُونَ إِلَيْهِ.

وَلَكِنَّ الشَّيْعَةَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ جَمَاعَةٌ وَلَا إِمَامٌ وَلَا دَارٌ وَلَا سَيْفٌ يُقَاتِلُونَ بِهِ الْمُسْلِمِينَ؛ وَإِنَّمَا كَانَ هَذَا لِلْخَوَارِجِ؛ تَمَيَّزُوا بِالْإِمَامِ وَالْجَمَاعَةِ وَالِدَّارِ، وَسَمَّوْا دَارَهُمْ دَارَ الْهَجْرَةِ، وَجَعَلُوا دَارَ الْمُسْلِمِينَ دَارَ كُفْرٍ وَحَرْبٍ.

وَكَالَا الطَّائِفَتَيْنِ تَطَعْنَ - بَلْ تُكْفَرُ - وَلَاةَ الْمُسْلِمِينَ، وَجُمُهُورُ الْخَوَارِجِ يُكْفَرُونَ عُثْمَانَ وَعَلِيًّا وَمَنْ تَوَلَّاهُمَا.

وَالرَّافِضَةُ يَلْعَنُونَ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ وَمَنْ تَوَلَّاهُمْ، وَلَكِنَّ الْفَسَادَ الظَّاهِرَ

كَانَ فِي الْخَوَارِجِ؛ مِنْ سَفَكِ الدِّمَاءِ، وَأَخْذِ الْأَمْوَالِ، وَالْخُرُوجِ بِالسَّيْفِ؛ فَلِهَذَا جَاءَتْ الْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ بِقِتَالِهِمْ، وَالْأَحَادِيثُ فِي ذَمِّهِمْ وَالْأَمْرُ بِقِتَالِهِمْ كَثِيرَةٌ جَدًّا، وَهِيَ مُتَوَاتِرَةٌ عِنْدَ أَهْلِ الْحَدِيثِ مِثْلَ أَحَادِيثِ الرُّؤْيَةِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ وَفِتْنَتِهِ وَأَحَادِيثِ الشَّفَاعَةِ وَالْحَوْضِ». اهـ.

قلتُ: وبما سبق وغيره عُلِمَ وَسْطِيَّةُ أَهْلِ السُّنَّةِ فِي أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فَإِنَّهُمْ يُحِبُّونَهُمْ جَمِيعًا، وَيَتَرَضَّوْنَ عَنْهُمْ جَمِيعًا، وَيَتَوَلَّوْنَهُمْ جَمِيعًا، وَلَا يَذْكُرُونَهُمْ إِلَّا بِالْجَمِيلِ، وَيُمْسِكُونَ عَمَّا شَجَرَ بَيْنَهُمْ، وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ فِي ذَلِكَ بَيْنَ الْأَجْرِ وَالْأَجْرَيْنِ، وَيَقُولُونَ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (٨) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنَنَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩) وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿[الحشر: 8 - 10]﴾.

كما أَنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ يُحِبُّونَ أَهْلَ بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَيَعْرِفُونَ لَهُمْ حَقَّهُمْ، وَيَحْفَظُونَ وَصِيَّةَ رَسُولِ اللَّهِ فِيهِمْ، وَلَا يُغَالُونَ فِي مَحَبَّتِهِمْ، بَلْ يُحِبُّونَهُمْ حُبًّا شَرْعِيًّا دُونَ إِفْرَاطٍ أَوْ تَفْرِيطٍ.

«وقد دخل فيما ذكرناه من الإيمان بالله الإيمان بما أخبر به في كتابه وتواتر عن رسوله، وأجمع عليه سلف الأمة من أنه- سبحانه- فوق سماواته على عرشه، عليّ على خلقه، وهو- سبحانه- معهم أينما كانوا؛ يعلم ما هم عاملون، كما جمع بين ذلك في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤]، وليس معنى قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾: أنه مُختلطٌ بالخلق؛ فإن هذا لا توجبه اللغة، وهو خلاف ما أجمع عليه سلف الأمة، وخلاف ما فطر الله عليه الخلق، بل القمر آية من آيات الله من أصغر مخلوقاته، وهو موضوع في السماء، وهو مع المسافرين وغير المسافرين أينما كان، وهو- سبحانه- فوق عرشه، رقيب على خلقه، مهيمن عليهم، مُطلعٌ عليهم، إلى غير ذلك من معاني ربوبيته».

سبق أن من الإيمان بالله الإيمان بعلو الله واستوائه على عرشه ومعيته لخلقه.

وأن علو الله على خلقه علو الذات، وقد دلّ عليه الكتاب بدلالات متنوعة، والسنة بدلالاتها الثلاث: (القولية، والفعلية، والتقريرية)، والإجماع، والعقل، والفطرة، كما أن الكتاب والسنة والإجماع والعقل والفطرة تدلّ على علو الصفة.

وسبق الفرق بين الاستواء والعلو، وأقسام المعية، وسبق أنه لا تعارض بين علوه ومعيته، وذلك من وجوه تؤخذ من كلام شيخ الإسلام نفسه:

الأول: أن الله جمع لنفسه بينهما - العلو والمعية - وما جمع الله بينهما

لنفسه فيستحيل أن يتناقضا؛ إذ أن المتناقضين لا يجتمعان معاً، ولا يرتفعان معاً، ولو كان بينهما تناقض لكان آخر الآية مكذباً لأولها، وحاشا كلام الله أن يكون كذلك، فإن الله تعالى يقول: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

الثاني: أنه قد يجتمع العلو والمعية في المخلوقات، كما يقال: لا زلنا نسير والقمر معنا، مع علوه.

الثالث: أنه لو قدر أنه لا يجتمع العلو والمعية بالنسبة للمخلوق لم يلزم ذلك بالنسبة للخالق سبحانه وتعالى؛ لأنه ليس كمثله شيء.

الرابع: أن هذا لا توجه لغه العرب التي نزل بها القرآن الكريم، فإن كلمة (مع) في اللغة لمطلق المصاحبة لا تفيده اختلاطاً، ولا امتزاجاً، ولا مجاورة، ولا مماسة؛ فإن (مع) يختلف معناها باختلاف متعلقاتها ومصحوباتها، فكون نفس الإنسان معه نوع من أنواع المعية، وكون علمه وقدرته معه نوع آخر، وكون زوجته معه نوع آخر، وكون أميره معه نوع آخر، ويكون الشخص مع أميره، وبينهما مسافات، وكون زوجته معه لا يستلزم اختلاطاً؛ فيقول: زوجتي معي، وهي في مكان بعيد، ويقول الشخص: ما زلنا نسير والقمر معنا، مع أن القمر في السماء والمسافر في الأرض والقمر معه ومع غيره أينما كان، فإذا صح أن يقال هذا في حق المخلوق مع صغره فكيف لا يقال في حق الخالق الذي هو أعظم وأكبر من كل شيء سبحانه وتعالى.

الخامس: أن هذا القول خلاف ما أجمع عليه سلف الأمة من الصحابة وتابعيهم؛ فإنهم مجمعون على أن الله مستو على عرشه، عال على خلقه علو الذات والصفة، وبائن منهم، وأجمعوا على أنه مع خلقه سبحانه.

السادس: أنَّ هذا خلاف ما فطر الله عليه الخلق؛ فإنَّهم مَفْطُورُونَ عَلَى الإِقْرَارِ بَعْلُوَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى خَلْقِهِ، فَإِنَّهُمْ يَتَّجِهُونَ إِلَى اللَّهِ نَحْوَ الْعُلُوِّ عِنْدَ النَّوَازِلِ وَالشَّدَائِدِ وَالْحَاجَاتِ، لَا يَلْتَفِتُونَ يَمِينًا وَلَا شِمَالًا مِنْ غَيْرِ أَنْ يُرْشِدَهُمْ إِلَى ذَلِكَ أَحَدٌ، بَلْ بِمُوجِبِ الْفِطْرَةِ السَّلِيمَةِ الَّتِي فَطَرَهُمُ اللَّهُ عَلَيْهَا.

السابع: أنَّ هذا خلاف ما دَلَّتْ عَلَيْهِ النُّصُوصُ الْكَثِيرَةُ مِنَ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ الْمَتَوَاتِرَةِ مِنْ أَنَّهُ سَبْحَانَهُ عَلَيَّ عَلَى خَلْقِهِ، وَأَنَّهُ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا، فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَالٍ عَلَى خَلْقِهِ بِذَاتِهِ حَقِيقَةً، وَمُسْتَوٍ عَلَى عَرْشِهِ حَقِيقَةً، وَهُوَ مَعَنَا حَقِيقَةً.

وَقَالَ الْعَلَّامَةُ السَّعْدِي فِي «التَّنْبِيهَاتِ اللَّطِيفَةِ» (ص 65) بَعْدَ أَنْ أَوْرَدَ كَلَامَ شَيْخِ الْإِسْلَامِ السَّابِقِ: «فِي هَذَا الْفَصْلِ مَسْأَلَةُ عُلُوِّ اللَّهِ وَاسْتَوَائِهِ عَلَى عَرْشِهِ، وَأَنَّ ذَلِكَ دَاخِلٌ فِي الْإِيمَانِ بِاللَّهِ، وَذَلِكَ لِمَا حَصَلَ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ مِنَ الْاِخْتِلَافِ وَالْمُخَاصَمَاتِ الطَّوِيلَةِ بَيْنَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ وَبَيْنَ طَوَائِفِ الْجَهْمِيَّةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ مِنَ الْأَشْعَرِيَّةِ وَنَحْوِهِمْ.

فَإِنَّ مَسْأَلَةَ الْعُلُوِّ صُنِّفَتْ فِيهَا الْمُصَنَّفَاتُ الْمُسْتَقْلَّةُ، وَأَوْرَدَ فِيهَا أَهْلُ السُّنَّةِ مَا لَا يُمْكِنُ دَفْعُهُ أَوْ دَفْعُ بَعْضِهِ، وَحَقَّقُوا ذَلِكَ بِالْعَقْلِ الصَّحِيحِ، وَأَنَّ الْفِطْرَ وَالْعُقُولَ مُعْتَرِفَةٌ، بَلْ وَمُضْطَرَةٌ إِلَى الْإِيمَانِ بَعْلُوَ اللَّهِ إِلَّا مَنْ غَيَّرَ فِطْرَتَهُ الْعَقَائِدُ الْبَاطِلَةُ.

وَقَدْ بَيَّنَّ الْمُصَنِّفُ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ الْجَمْعَ بَيْنَ الْإِيمَانِ بَعْلُوَ اللَّهِ وَإِثْبَاتِ مَعِيَّتِهِ وَعِلْمِهِ الْمُحِيطِ، وَحَقَّقَهُ فِي كَلَامٍ وَاضِحٍ مُبَيِّنٍ بِالْأَمْثَلَةِ الْمُقَرَّبَةِ لِلْمَعَانِي بِمَا لَا مَزِيدَ عَلَيْهِ». اهـ.

«وَكُلُّ هَذَا الْكَلَامِ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ؛ مِنْ: أَنَّهُ فَوْقَ الْعَرْشِ، وَأَنَّهُ مَعَنَا- حَقٌّ عَلَى حَقِيقَتِهِ، لَا يَحْتَاجُ إِلَى تَحْرِيفٍ، وَلَكِنْ يُصَانُ عَنِ الظُّنُونِ الْكَاذِبَةِ؛ مِثْلُ أَنْ يُظَنَّ أَنَّ ظَاهِرَ قَوْلِهِ: ﴿فِي السَّمَاءِ﴾: أَنَّ السَّمَاءَ ثِقَلُهُ، أَوْ تُظَلُّهُ؛ وَهَذَا بَاطِلٌ بِإِجْمَاعِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ ﴿وَسَّعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وَهُوَ الَّذِي ﴿يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ [فاطر: ٤١]، ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [الحج: ٦٥]، ﴿وَمِنْ عَائِدَتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ [الروم: ٢٥]».

أورد شيخ الإسلام هذا الكلام تأكيداً لما سبق وكرّر؛ لبيان أهميّة الموضوع، وأن الله عالٍ على خلقه حقيقةً، ومعنا حقيقةً، وهكذا سائر صفاته.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله في «اجتماع الجيوش الإسلامية» (٩٦ / ٢):

«قال شيخ الإسلام رحمه الله: وهذا كتابُ الله من أوله إلى آخره، وسُنّة رسولِهِ، وكلام الصّحابة والتّابعين وسائر الأئمّة مملوءٌ بما هو نصٌّ أو ظاهرٌ أن الله فوق كلّ شيء، وأنه فوق العرش، وأنه العليُّ الأعلى، وأنه مُستَوٍ على عرشِهِ». اهـ.

وساق الأدلّة الكثيرة على ذلك، وأنه حقيقةٌ، وأبطل ما زعموه من المجاز، وقد تكاثرت الأدلّة على ذلك، وأجمع على ذلك السلف، ودلّ على ذلك- أيضاً- دليل العقل، وليس مع من خالف سوى الظنّ الكاذبة والشبه الفاسدة التي يُعارِض بها ما دلّت عليه نصوص الوحي والأدلة العقلية، وقد ذمّ الله- سبحانه- الظنّ المُجرّد وأهله؛ فقال: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [النجم: ٢٨].

وفي الصحيح أن النّبي صلى الله عليه وسلّم قال: «إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ؛ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ

الحديث».

وقال رحمه الله: «والنفاة للعلو ونحوه من الصفات مُعْتَرِفُونَ بِأَنَّهُ لَيْسَ مُسْتَنْدُهُمْ خَبَرُ الْأَنْبِيَاءِ؛ لَا الْكِتَابَ، وَلَا السُّنَّةَ، وَلَا أَقْوَالَ السَّلَفِ، وَلَا مُسْتَنْدُهُمْ فِطْرَةُ الْعَقْلِ وَضُرُورَتُهُ، وَلَكِنْ يَقُولُونَ: مَعَنَا النَّظَرُ الْعَقْلِيُّ.

وَأَمَّا أَهْلُ السُّنَّةِ الْمُثْبِتُونَ لِلْعُلُوِّ فَيَقُولُونَ: إِنَّ ذَلِكَ ثَابِتٌ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْإِجْمَاعِ مَعَ فِطْرَةِ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ الْعِبَادَ عَلَيْهَا، وَضُرُورَةُ الْعَقْلِ، وَمَعَ نَظَرِ الْعَقْلِ وَاسْتِدْلَالِهِ». اهـ. «التنبيهات السنية» (ص 201).

«وقد بين شيخ الإسلام رحمه الله أَنَّ مَنْ ظَنَّ أَنَّ مَعْنَى ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ أَنَّ السَّمَاءَ ثِقْلُهُ، أَوْ تُظَلُّهُ - أَنَّهُ بَاطِلٌ مِنْ وَجْهَيْنِ:

الأول: أَنَّ هَذَا الظَّنَّ مُضَادٌّ لِأَدْلَةِ الْقُرْآنِ الدَّالَّةِ عَلَى عَظَمَةِ اللَّهِ وَغِنَاهُ عَنْ خَلْقِهِ وَحَاجَةِ خَلْقِهِ إِلَيْهِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

والكرسي مخلوق عظيم بين يدي العرش، وهو أعظم من السموات والأرض، والعرش أعظم منه؛ فإذا كانت السموات والأرض أصغر من الكرسي، والكرسي أصغر من العرش، والله أعظم من كل شيء؛ فكيف تحويه السماء، أو ثقله، أو تظله؟!

الثاني: أَنَّ هَذَا خِلَافَ مَا أَجْمَعَ عَلَيْهِ أَهْلُ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ؛ فَقَدْ أَجْمَعُوا عَلَى أَنَّهُ - سبحانه - فوق عرشه، بائنٌ من خلقه، ليس في ذاته شيءٌ من مخلوقاته، ولا في مخلوقاته شيءٌ من ذاته.

وقد تقدّم الكلام في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَنْ مِّن فِي السَّمَاءِ﴾ [الملك: ١٦]،

وَأَنَّهُ إِنْ أُريدَ بِالسَّمَاءِ الْمَبْنِيَّةِ (فِي) بِمَعْنَى (عَلَى)؛ أَي: عَلَى السَّمَاءِ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تُصَلِّبُنَا فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: ٧١]؛ أَي: عَلَى جُذُوعِ النَّخْلِ، وَإِنْ أُريدَ بِالسَّمَاءِ الْعُلُوَّ كَانَ الْمَعْنَى (فِي السَّمَاءِ)؛ أَي: فِي الْعُلُوِّ. اهـ. «شرح العقيدة الواسطية» للفرزاني (ص 100).

وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «بَيَانِ تَلْبِيسِ الْجَهْمِيَّةِ» (1/ 559 - 560):
«ثُمَّ مَنْ تَوَهَّمَ أَنَّ كَوْنَ اللَّهِ فِي السَّمَاءِ، بِمَعْنَى: أَنَّ السَّمَاءَ تُحِيطُ بِهِ وَتَحْوِيهِ فَهُوَ كَاذِبٌ - إِنْ نَقَلَهُ عَنْ غَيْرِهِ، وَضَالٌّ - إِنْ اعْتَقَدَهُ فِي رَبِّهِ - وَمَا سَمِعْنَا أَحَدًا يَفْهَمُ هَذَا مِنَ اللَّفْظِ، وَلَا رَأْيُنَا أَحَدًا نَقَلَهُ عَنْ وَاحِدٍ، وَلَوْ سُئِلَ سَائِرُ الْمُسْلِمِينَ: هَلْ تَفْهَمُونَ مِنْ قَوْلِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ: «إِنَّ اللَّهَ فِي السَّمَاءِ»: أَنَّ السَّمَاءَ تَحْوِيهِ؟ لَبَادَرَ كُلُّ أَحَدٍ مِنْهُمْ إِلَى أَنْ يَقُولَ: هَذَا شَيْءٌ؛ لَعَلَّهُ لَمْ يَخْطُرْ بِيَالِنَا.

وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ هَكَذَا فَمِنْ التَّكْلِيفِ أَنْ يُجْعَلَ ظَاهِرُ اللَّفْظِ شَيْئًا مُحَالًا لَا يَفْهَمُهُ النَّاسُ مِنْهُ، ثُمَّ يُريدُ أَنْ يَتَأَوَّلَهُ». اهـ.

وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ كَمَا فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى» (3/ 48 - 49): «فِي بَيَانِ الْمَحَاضِيرِ مِنْ تَوَهُّمِ أَنَّ صِفَاتِ اللَّهِ تُمَاطِلُ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ:

الْقَاعِدَةُ الرَّابِعَةُ: وَهُوَ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يَتَوَهَّمُ فِي بَعْضِ الصِّفَاتِ أَوْ كَثِيرٍ مِنْهَا؛ أَوْ أَكْثَرَهَا أَوْ كُلَّهَا أَنَّهَا تُمَاطِلُ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ، ثُمَّ يُريدُ أَنْ يَنْفِي ذَلِكَ الَّذِي فَهَمَهُ، فَيَقَعُ فِي أَرْبَعَةِ أَنْوَاعٍ مِنَ الْمَحَاضِيرِ:

أَحَدُهَا: كَوْنُهُ مَثَلٌ مَّا فَهَمَهُ مِنَ النُّصُوصِ بِصِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ، وَظَنَّ أَنَّ مَذْلُولَ النُّصُوصِ هُوَ التَّمَثِيلُ.

الثَّانِي: أَنَّهُ إِذَا جَعَلَ ذَلِكَ هُوَ مَفْهُومَهَا، وَعَطَّلَهُ - بَقِيَتِ النُّصُوصُ مُعْطَلَةً عَمَّا

دَلَّتْ عَلَيْهِ مِنْ إِبْثَاتِ الصِّفَاتِ اللَّائِقَةِ بِاللَّهِ؛ فَبَقِيَ مَعَ جِنَائِيهِ عَلَى النُّصُوصِ، وَظَنَّهُ السَّيِّئُ الَّذِي ظَنَّهُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ - حَيْثُ ظَنَّ أَنَّ الَّذِي يُفْهَمُ مِنْ كَلَامِهِمَا هُوَ التَّمْثِيلُ الْبَاطِلُ - قَدْ عَطَّلَ مَا أَوْدَعَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ فِي كَلَامِهِمَا مِنْ إِبْثَاتِ الصِّفَاتِ لِلَّهِ، وَالْمَعَانِي الْإِلَهِيَّةِ اللَّائِقَةِ بِجَلَالِ اللَّهِ تَعَالَى.

الثَّالِثُ: أَنَّهُ يَنْفِي تِلْكَ الصِّفَاتِ عَنِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ بِغَيْرِ عِلْمٍ؛ فَيَكُونُ مُعْطَلًا لِمَا يَسْتَحِقُّهُ الرَّبُّ.

الرَّابِعُ: أَنَّهُ يَصِفُ الرَّبَّ بِتَقْيُضِ تِلْكَ الصِّفَاتِ مِنْ صِفَاتِ الْأَمْوَآتِ وَالْجَمَادَاتِ أَوْ صِفَاتِ الْمَعْدُومَاتِ؛ فَيَكُونُ قَدْ عَطَّلَ بِهِ صِفَاتِ الْكَمَالِ الَّتِي يَسْتَحِقُّهَا الرَّبُّ، وَمَثَلَهُ بِالْمَنْقُوصَاتِ وَالْمَعْدُومَاتِ، وَعَطَّلَ النُّصُوصَ عَمَّا دَلَّتْ عَلَيْهِ مِنَ الصِّفَاتِ، وَجَعَلَ مَذْلُولَهَا هُوَ التَّمْثِيلُ بِالْمَخْلُوقَاتِ.

فَيَجْمَعُ فِي كَلَامِ اللَّهِ وَفِي اللَّهِ بَيْنَ التَّعْطِيلِ وَالتَّمْثِيلِ، فَيَكُونُ مُلْحِدًا فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ وَآيَاتِهِ». اهـ.

ثُمَّ ذَكَرَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ بَعْضَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى:

أَنَّ الرَّبَّ - سُبْحَانَهُ - لَيْسَ هُوَ عَيْنَ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ وَلَا صِفَةً وَلَا جُزْءًا مِنْهَا، فَإِنَّ الْخَالِقَ غَيْرَ الْمَخْلُوقِ، وَلَيْسَ بِدَاخِلٍ فِيهَا مُحْصُورٍ، بَلْ هِيَ صَرِيحَةٌ فِي أَنَّهُ مُبَايِنٌ لَهَا لَيْسَ حَالًا فِيهَا وَلَا مَحَلًّا لَهَا، فَإِنَّ الْكُرْسِيَّ فِي الْعَرْشِ كَحَلَقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ، وَ الْعَرْشُ خَلَقَ مِنْ مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ لَا نِسْبَةَ لَهُ إِلَى قُدْرَةِ اللَّهِ وَعَظَمَتِهِ؛ فَكَيْفَ يَتَوَهَّمُ بَعْدَ هَذَا أَنَّ خَلْقًا يَخْصُرُهُ أَوْ يَحْوِيهِ!

وَفِيهَا دَلَالَةٌ عَلَى عَظَمَتِهِ - سُبْحَانَهُ - وَعِظَمِ قُدْرَتِهِ، وَعِظَمِ مَخْلُوقَاتِهِ، وَقَدْ تَعَرَّفَ - سُبْحَانَهُ - إِلَى عِبَادِهِ بِصِفَاتِهِ وَعَجَائِبِ مَخْلُوقَاتِهِ، وَكُلُّهَا تَدُلُّ عَلَى كَمَالِهِ،

وَأَنَّهُ الْمَعْبُودُ الْحَقُّ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَإِلَاهِيَّتِهِ، وَأَنَّ الْعِبَادَةَ لَا تَصْلُحُ إِلَّا لَهُ، وَلَا يَصْلُحُ مِنْهَا شَيْءٌ لِمَلِكٍ مُّقَرَّبٍ، وَلَا نَبِيٍّ مُّرْسَلٍ فَضْلًا عَنْ غَيْرِهِمَا، وَتَدُلُّ - أَيْضًا - عَلَى إِبْثَابِ الصِّفَاتِ لِلَّهِ عَلَى مَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ إِبْثَابًا بِلَا تَمَثِيلٍ، وَتَنْزِيهَا بِلَا تَعْطِيلٍ، وَعَلَى هَذَا سَلَفُ الْأُمَّةِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ، وَهُوَ الَّذِي دَلَّتْ عَلَيْهِ أَدِلَّةُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ». اهـ. «التنبيهات السنيّة» (ص 203).



«وقد دخل في ذلك الإيمان بأنه قريبٌ مُجيبٌ، كما جمَعَ بين ذلك في قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ»، وما ذُكِرَ في الكتابِ والسُّنةِ - مِنْ قُرْبِهِ وَمَعِيَّتِهِ - لَا يُنَافِي مَا ذُكِرَ مِنْ عُلُوِّهِ وَفَوْقِيَّتِهِ، فَإِنَّهُ - سُبْحَانَهُ - لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ فِي جَمِيعِ نُعُوتِهِ، وَهُوَ عَلِيٌّ فِي دُنُوِّهِ، قَرِيبٌ فِي عُلُوِّهِ».

قَالَ الْعَلَّامَةُ السَّعْدِيُّ فِي «التنبيهات اللطيفة» (66-67): «خَصَّصَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ هَذَا الْمَبْحَثَ بِهِذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ، وَذَلِكَ لِشِدَّةِ الْحَاجَةِ إِلَى الْإِيمَانِ بِقُرْبِهِ وَإِجَابَتِهِ؛ لِيَكُونَ الْعَبْدُ مُرَاقِبًا لِلَّهِ، إِذَا آمَنَ بِقُرْبِهِ إِيْمَانًا تَامًّا، وَكَانَ مُنِيبًا إِلَيْهِ عَلَى الدَّوَامِ إِذَا آمَنَ بِإِجَابَتِهِ لِلسَّائِلِينَ وَإِثَابَتِهِ لِلْمُطِيعِينَ. ثُمَّ ذَكَرَ رَحِمَهُ اللَّهُ الْجَمْعَ بَيْنَ الْإِيمَانِ بَعْلُو اللَّهِ وَقُرْبِهِ وَمَعِيَّتِهِ؛ لِئَلَّا يَظَنَّ الظَّانُّ أَنَّ ذَلِكَ مِثْلَ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ، وَأَنَّهُ إِذَا قِيلَ: إِنَّهُ عَلِيٌّ فَوْقَ خَلْقِهِ كَيْفَ يَكُونُ مَعَهُمْ قَرِيبًا مِنْهُمْ؟

فَأَجَابَ بِمَا تَضَمَّنَهُ هَذَا الْأَصْلُ الثَّابِتُ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَإِجْمَاعِ الْأُمَّةِ، وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ فِي جَمِيعِ نُعُوتِهِ، وَمِنْ نُعُوتِهِ اللَّازِمَةُ: الْعُلُوُّ الْمُطْلَقُ وَالْقُرْبُ الْعَامُّ وَالْخَاصُّ، وَأَنَّ الْقُرْبَ وَالْعُلُوَّ فِي حَقِّهِ يَجْتَمِعَانِ لِعَظَمَتِهِ وَكِبَرِيَّائِهِ وَإِحَاطَتِهِ مِنْ كُلِّ وَجْهِ، فَهُوَ الْعَلِيُّ فِي دُنُوِّهِ، الْقَرِيبُ فِي عُلُوِّهِ». اهـ.

وَقَالَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ كَمَا فِي «مختصر الصَّوَاعِقِ» (ص 460): «فَإِنَّ عُلُوَّهُ - سُبْحَانَهُ - عَلَى سَمَاوَاتِهِ مِنْ لَوَازِمِ ذَاتِهِ، فَلَا يَكُونُ قَطُّ إِلَّا عَالِيًّا، وَلَا يَكُونُ فَوْقَهُ شَيْءٌ أَبْتَنَى، كَمَا قَالَ أَعْلَمُ الْخَلْقِ: «أَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ»،

وَهُوَ - سُبْحَانَهُ - قَرِيبٌ فِي عُلُوِّهِ، عَالٍ فِي قُرْبِهِ، كَمَا فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَفَرٍ فَارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُنَا بِالتَّكْبِيرِ فَقَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ، ارْبِعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَيَّ أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ».

وَأَخْبَرَ أَنَّهُ فَوْقَ سَمَاوَاتِهِ عَلَى عَرْشِهِ، مُطَّلِعٌ عَلَى خَلْقِهِ؛ يَرَى أَعْمَالَهُمْ، وَيَعْلَمُ مَا فِي بُطُونِهِمْ، وَهَذَا حَقٌّ لَا يُنَاقِضُ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ.

وَالَّذِي يُسَهِّلُ عَلَيْكَ فَهَمَّ هَذَا: مَعْرِفَةُ عَظَمَةِ الرَّبِّ، وَإِحَاطَتِهِ بِخَلْقِهِ، وَأَنَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ فِي يَدِهِ كَخَرْدَلَةٍ فِي يَدِ الْعَبْدِ، وَأَنَّهُ - سُبْحَانَهُ - يَقْبِضُ السَّمَاوَاتِ بِيَدِهِ وَالْأَرْضَ بِيَدِهِ الْآخَرَى، ثُمَّ يَهْزُؤُنَّ.

فَكَيْفَ يَسْتَحِيلُ فِي حَقِّ مَنْ هَذَا بَعْضُ عَظَمَتِهِ: أَنْ يَكُونَ فَوْقَ عَرْشِهِ، وَيَقْرُبُ مِنْ خَلْقِهِ كَيْفَ شَاءَ وَهُوَ عَلَى الْعَرْشِ». اهـ.

وقد ذَهَبَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ وَتَلْمِيذُهُ ابْنُ الْقَيِّمِ - رَحِمَهُمَا اللَّهُ - إِلَى أَنَّ قُرْبَ اللَّهِ - تَعَالَى - إِنَّمَا وَرَدَ خَاصًّا لَا عَامًّا، وَأَنَّهُ نَوْعَانِ:

النوع الأول: قُرْبٌ مِنْ دَاعِيهِ بِالْإِجَابَةِ.

النوع الثاني: قُرْبٌ مِنْ مُطِيعِهِ بِالْإِثَابَةِ.

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ كَمَا فِي «مَخْتَصَرِ الصَّوَاغِقِ» (458-459): «قُرْبُ الرَّبِّ - تَعَالَى - إِنَّمَا وَرَدَ خَاصًّا لَا عَامًّا، وَهُوَ نَوْعَانِ:

النوع الأول: قُرْبُهُ مِنْ دَاعِيهِ بِالْإِجَابَةِ.

النوع الثاني: وَمِنْ مُطِيعِهِ بِالْإِثَابَةِ.

وَلَمْ يَجِئِ الْقُرْبُ كَمَا جَاءَتِ الْمَعِيَّةُ خَاصَّةً وَعَامَّةً، فَلَيْسَ فِي الْقُرْآنِ وَلَا فِي

السُّنَّةِ أَنَّ اللَّهَ قَرِيبٌ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ، وَأَنَّهُ قَرِيبٌ مِنَ الْكَافِرِ وَالْفَاجِرِ، وَإِنَّمَا جَاءَ خَاصًّا، كَقَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦]، فَهَذَا قُرْبُهُ مِنْ دَاعِيهِ وَسَائِلِهِ بِهِ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

والأصل: أَنَّ اللَّهَ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ، وَرَحْمَتُهُ قَرِيبَةٌ مِنْهُمْ، فَيَكُونُ أَخْبَرُ عَنْ قُرْبِ ذَاتِهِ وَقُرْبِ ثَوَابِهِ مِنَ الْمُحْسِنِينَ، وَكَتَفَى بِالْخَبَرِ عَنْ أَحَدِهِمَا عَنِ الْآخَرِ. اهـ.

وقد أورد على شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّوْا بِهِ نَفْسَهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]، وَأَنَّ الْمَرَادَ بِالْإِنْسَانِ كُلِّ إِنْسَانٍ، وَلِهَذَا قَالَ فِي آخِرِ الْآيَةِ: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢]، إِلَى أَنْ قَالَ: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [ق: ٢٤]، فَهُوَ شَامِلٌ.

وأورد عليهما -أيضا- قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ (٨٣) وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ نَّظُرُونَ (٨٤) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا بُصْرُونَ﴾، ثُمَّ قَسَمَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ بَلَغَتْ أَرْوَاحُهُمُ الْحُلُقُومَ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ، وَمِنْهُمْ الْكَافِرُ^(١)، وَأَنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ قُرْبَ اللَّهِ يَكُونُ عَامًّا.

فأجاب شيخ الإسلام وتلميذه ابن القيم بأنَّ القرب هنا هو قرب الملائكة، مع إقرارهما أَنَّ طائفةً مِنَ السَّلَفِ والخلف قالوا: إِنَّ الْمَقْصُودَ بِالْقُرْبِ قُرْبُ اللَّهِ بِعِلْمِهِ وَإِحَاطَتِهِ وَقُدْرَتِهِ.

(١) «شرح الواسطية» لابن عثيمين (ص 460 - 461).

قال شيخ الإسلام كما في «مجموع الفتاوى» (5/ 236): «قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ هُوَ قُرْبُ ذَوَاتِ الْمَلَائِكَةِ وَقُرْبُ عِلْمِ اللَّهِ؛ فَذَاتُهُمْ أَقْرَبُ إِلَى قَلْبِ الْعَبْدِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ؛ فَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ بَعْضُهُمْ أَقْرَبَ إِلَى بَعْضِهِ مِنْ بَعْضٍ؛ وَلِهَذَا قَالَ فِي تَمَامِ الْآيَةِ: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿ق: ١٧-١٨﴾ وهذا، كقوله: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠].

فقوله: ﴿إِذْ﴾ ظرف، فأخبر أنهم: ﴿أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] حين يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ ما يقول: ﴿عَنِ الْيَمِينِ﴾ قَعِيدٌ، ﴿وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾، ثُمَّ قَالَ: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾؛ أي: شاهد لا يُغيب. فهذا كله خبر عن الملائكة». اهـ.

وسياق الآيتين يدلُّ على أنَّ المراد الملائكة فإنه قَالَ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (١٦) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿ق: ١٦-١٨﴾.

فقيدُ القربِ بهذا الزَّمانِ وهو زَمانُ تَلَقِّي الْمُتَلَقِّيَيْنِ؛ قعيد عن اليمين، وقعيد عن الشمال، وهما المَلَكَانِ الحافظانِ اللذانِ يكتبانِ، كَمَا قَالَ: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾.

ومعلومٌ أنه لو كان المرادُ قربَ ذاتِ الربِّ لم يختصَّ ذلك بهذه الحال، ولم يكن لِذِكْرِ الْقَعِيدِينَ وَالرَّقِيبِ وَالْعَتِيدِ معنى مناسب.

وكذلك قوله في الآية الأخرى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ﴾ (٨٣) وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تُنْظَرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا بُصُرُونَ ﴿الواقعة: ٨٣-٨٥﴾.

فلو أرادَ قربَ ذاته لم يخصَّ ذلكَ بهذهِ الحالِ، ولا قالَ: ﴿وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ﴾، فإنَّ هذا إنما يقالُ إذا كانَ هناكَ مَنْ يجوزُ أن يُبصرَ في بعضِ الأحوالِ، ولكن نحنُ لا نبصرُهُ، والربُّ - تعالى - لا يراهُ في هذهِ الحالِ ولا الملائكةِ ولا البشرِ.

وأيضًا، فإنه قالَ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ﴾، فأخبرَ عَمَّنْ هُوَ أَقْرَبُ إِلَى الْمُحْتَضِرِ مِنَ النَّاسِ الَّذِينَ عِنْدَهُ فِي هَذِهِ الْحَالِ.

وذاتُ الربِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِذَا قِيلَ: هِيَ فِي مَكَانٍ، أَوْ قِيلَ: قَرِيبَةٌ مِنْ كُلِّ مَوْجُودٍ لَا يَخْتَصُّ بِهَذَا الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ وَالْأَحْوَالِ، وَلَا يَكُونُ أَقْرَبُ إِلَى شَيْءٍ مِنْ شَيْءٍ. اهـ.

وانظر «مختصر الصواعق» لابن القيم (ص 457 - 458).

وقد أوردَ الحافظُ ابنُ رجب رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «فَتْحِ الْبَارِي» (3/ 112 - 117) حَدِيثَ أَبِي مُوسَى الَّذِي أوردَهُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ وَبَيَّنَّ أَنَّهُ لَا تَنَافِي بَيْنَ قُرْبِ اللَّهِ وَعُلُوِّهِ بَيَانًا كَافِيًا شَافِيًا فَقَالَ: «وَقَدْ خَرَجَ الْبُخَارِيُّ فِي (الدَّعَوَاتِ) حَدِيثَ أَبِي مُوسَى: أَنَّهُمْ رَفَعُوا أَصْوَاتَهُمْ بِالتَّكْبِيرِ؛ فَقَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا؛ إِنَّكُمْ تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا».

وفي رواية: «إِنَّهُ أَقْرَبُ إِلَيْكُمْ مِنْ أَعْنَاقِ رَوَاحِلِكُمْ».

ولم يكن أصحابُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يفهمونَ مِنْ هَذِهِ النُّصُوصِ غَيْرَ الْمَعْنَى الصَّحِيحِ الْمُرَادِ بِهَا، فَيَسْتَفِيدُونَ بِذَلِكَ مَعْرِفَةَ عَظَمَةِ اللَّهِ وَجَلَالِهِ وَاطِّلَاعِهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَإِحَاطَتِهِ بِهِمْ، وَقُرْبِهِ مِنْ عَابِدِيهِ، وَإِجَابَتِهِ لِدَعَائِهِمْ، فَيَزِدَادُونَ بِهِ خَشْيَةً لِلَّهِ وَتَعْظِيمًا وَاجْتِلَالًا وَمَهَابَةً وَمِرَاقَبَةً وَاسْتِحْيَاءً، وَيَعْبُدُونَهُ كَأَنَّهُمْ يَرُونَهُ.

ثُمَّ حَدَّثَ بَعْدَهُمْ مَنْ قَلَّ وَرَعُهُ، وَسَاءَ فَهْمُهُ وَقَصْدُهُ، وَضَعُفَتْ عَظَمَةُ اللَّهِ وَهَيْبَتُهُ فِي صَدْرِهِ، وَأَرَادَ أَنْ يَرَى النَّاسَ امْتِيَازَهُ عَلَيْهِمْ بِدَقَّةِ الْفَهْمِ، وَقُوَّةِ النَّظَرِ؛ فَرَعَمَ أَنَّ هَذِهِ النُّصُوصَ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ بِذَاتِهِ فِي كُلِّ مَكَانٍ.

كَمَا يُحْكِي ذَلِكَ عَنْ طَوَائِفِ مِنَ الْجَهْمِيَّةِ وَالْمُعْتَزَلَةِ وَمَنْ وَافَقَهُمْ؛ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوءًا كَبِيرًا.

وَهَذَا شَيْءٌ مَا خَطَرَ لِمَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ مِنَ الصَّحَابَةِ، وَهَؤُلَاءِ مِمَّنْ يَتَّبِعُ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ، وَقَدْ حَذَّرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْهُمْ فِي حَدِيثٍ عَائِشَةَ الصَّحِيحِ الْمُتَّفِقِ عَلَيْهِ.

وَتَعَلَّقُوا- أَيْضًا- بِمَا فَهَمُّوهُ، وَبِفَهْمِهِمُ الْقَاصِرِ مَعَ قَصْدِهِمُ الْفَاسِدِ بِآيَاتٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، مِثْلَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، وَقَوْلُهُ: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧].

فَقَالَ مَنْ قَالَ مِنْ عُلَمَاءِ السَّلَفِ حِينَئِذٍ: إِنَّمَا أَرَادَ أَنَّهُ مَعَهُمْ بَعْلَمَهُ، وَقَصَدُوا بِذَلِكَ إِبْطَالَ مَا قَالَهُ أُولَئِكَ مِمَّا لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ قَبْلَهُمْ قَالَهُ، وَلَا فَهْمَهُ مِنَ الْقُرْآنِ.

وَمِمَّنْ قَالَ: إِنَّ هَذِهِ الْمَعِيَّةَ بِالْعِلْمِ: مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ، وَرُويَ عَنْهُ أَنَّهُ رَوَاهُ عَنْ عِكْرِمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَقَالَهُ الضَّحَّاكُ، قَالَ: «اللَّهُ فَوْقَ عَرْشِهِ، وَعِلْمُهُ بِكُلِّ مَكَانٍ».

وَرُويَ نَحْوُهُ عَنْ مَالِكٍ، وَعَبْدِ الْعَزِيزِ الْمَاجَشُونِ، وَالثَّوْرِيِّ، وَأَحْمَدَ، وَإِسْحَاقَ، وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَئِمَّةِ السَّلَفِ، إِلَى أَنْ قَالَ: «وَحَكِي ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ وَغَيْرُهُ إِجْمَاعَ الْعُلَمَاءِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾: أَنَّ الْمُرَادَ عِلْمُهُ».

وَكُلُّ هَذَا قَصْدُوا بِهِ رَدَّ قَوْلٍ مِّنْ قَالَ: إِنَّهُ - تَعَالَى - بِذَاتِهِ فِي كُلِّ مَكَانٍ.
وَزَعَمَ بَعْضُ مَنْ تَحَذَلَقَ أَنَّ مَا قَالَهُ هَؤُلَاءِ الْأُئِمَّةُ خَطَأٌ؛ لِأَنَّ عِلْمَ اللَّهِ صِفَةٌ لَا
تَفَارِقُ ذَاتَهُ.

وَهَذَا سُوءُ ظَنٍّ مِنْهُ بِأُئِمَّةِ الْإِسْلَامِ، فَإِنَّهُمْ لَمْ يُرِيدُوا مَا ظَنَّهُ بِهِمْ، وَإِنَّمَا أَرَادُوا
أَنْ عِلْمَ اللَّهِ مُتَعَلِّقٌ بِمَا فِي الْأَمَكْنَةِ كُلِّهَا؛ فَفِيهَا مَعْلُومَاتُهُ، لَا صِفَةٌ ذَاتُهُ، كَمَا وَقَعَتِ
الْإِشَارَةُ فِي الْقُرْآنِ إِلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨]،
وَقَوْلِهِ: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]، وَقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ
أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا
يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤].

وَقَالَ حَرْبٌ: سَأَلْتُ إِسْحَاقَ بْنَ رَاهُوِيَه عَنْ قَوْلِهِ: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى
ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧]! قَالَ: «حَيْثُ مَا كُنْتَ هُوَ أَقْرَبُ إِلَيْكَ مِنْ حَبْلِ
الْوَرِيدِ، وَهُوَ بَائِنٌ مِنْ خَلْقِهِ».

وَرَوَى عُمَرُ بْنُ أَبِي سَلَمَةَ عَنْ أَبِيهِ: «أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ مَرَّ بِقَاصٍ، وَقَدْ
رَفَعُوا أَيْدِيَهُمْ فَقَالَ: «وَيْلَكُمْ! إِنَّ رَبَّكُمْ أَقْرَبُ مِمَّا تَرْفَعُونَ، وَهُوَ أَقْرَبُ إِلَيَّ أَحَدِكُمْ
مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ».

وَخَطَبَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ فَذَكَرَ فِي خُطْبَتِهِ: «إِنَّ اللَّهَ أَقْرَبُ إِلَيَّ عِبَادِهِ مِنْ
حَبْلِ الْوَرِيدِ، وَكَانَ مُجَاهِدٌ حَاضِرًا يَسْمَعُ؛ فَأَعْجَبَهُ حُسْنُ كَلَامِ عُمَرَ».

وَهَذَا كُلُّهُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ قُرْبَ اللَّهِ مِنْ خَلْقِهِ شَامِلٌ لَهُمْ، وَقُرْبُهُ مِنْ أَهْلِ طَاعَتِهِ
فِيهِ مَزِيدٌ خُصُوصِيَّةً، كَمَا أَنَّ مَعِيَّتَهُ مَعَ عِبَادِهِ عَامَّةٌ حَتَّى مِمَّنْ عَصَاهُ؛ قَالَ تَعَالَى:
﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا

رَضَى مِنَ الْقَوْلِ ﴿النساء: ١٠٨﴾.

وَمَعِيَّتُهُ مَعَ أَهْلِ طَاعَتِهِ خَاصَّةً لَهُمْ، فَهُوَ - سُبْحَانَهُ - مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَمَعَ الَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ، وَقَالَ لِمُوسَى: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: 46]، وَقَالَ مُوسَى: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: 62]، وَقَالَ فِي حَقِّ مُحَمَّدٍ وَصَاحِبِهِ: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا اللَّهُ مَعَنَا﴾ [التوبة: 40]، وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَبِي بَكْرٍ فِي الْغَارِ: «مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ تَالِثُهُمَا».

فَهَذِهِ الْمَعِيَّةُ مَعِيَّةٌ خَاصَّةٌ غَيْرُ قَوْلِهِ: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: 7]، فَالْمَعِيَّةُ الْعَامَّةُ تَقْتَضِي التَّحْذِيرَ مِنْ عِلْمِهِ وَاطِّلَاعِهِ وَقُدْرَتِهِ وَبَطْشِهِ وَانْتِقَامِهِ، وَالْمَعِيَّةُ الْخَاصَّةُ تَقْتَضِي حُسْنَ الظَّنِّ بِإِجَابَتِهِ وَرِضَاهُ وَحِفْظَهُ وَصِيَانَتَهُ، فَكَذَلِكَ الْقُرْبُ، وَلَيْسَ هَذَا الْقُرْبُ كَقُرْبِ الْخَلْقِ الْمَعْهُودِ مِنْهُمْ كَمَا ظَنَّهُ مَنْ ظَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الضَّلَالِ، وَإِنَّمَا هُوَ قُرْبٌ لَيْسَ يُشَبَّهُ قُرْبَ الْمَخْلُوقِينَ، كَمَا أَنَّ الْمَوْصُوفَ بِهِ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11].

وَهَكَذَا الْقَوْلُ فِي أَحَادِيثِ النُّزُولِ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا، فَإِنَّهُ مِنْ نَوْعِ قُرْبِ الرَّبِّ مِنْ دَاعِيهِ وَسَائِلِيهِ وَمُسْتَغْفِرِيهِ، وَقَدْ سُئِلَ عَنْهُ حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ فَقَالَ: هُوَ فِي مَكَانِهِ يَقْرُبُ مِنْ خَلْقِهِ كَمَا يَشَاءُ، وَمُرَادُهُ: أَنَّ نَزُولَهُ لَيْسَ هُوَ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ؛ كُنُزُولِ الْمَخْلُوقِينَ». اهـ.

وَالْحَاصِلُ: أَنَّ الْأَمْرَ كَمَا قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَمَا ذُكِرَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِنْ قُرْبِهِ وَمَعِيَّتِهِ لَا يُنَافِي مَا ذُكِرَ مِنْ عُلُوِّهِ وَفَوْقِيَّتِهِ؛ فَإِنَّهُ - سُبْحَانَهُ - لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ فِي جَمِيعِ نُعُوتِهِ، وَهُوَ عَلَيَّ فِي دُنُوِّهِ، قَرِيبٌ فِي عُلُوِّهِ». اهـ.

«وَمِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَكُتُبِهِ الْإِيمَانُ بِأَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ مَنْزِلٌ غَيْرُ مَخْلُوقٍ؛ مِنْهُ بَدَأَ، وَإِلَيْهِ يَعُودُ، وَأَنَّ اللَّهَ تَكَلَّمَ بِهِ حَقِيقَةً، وَأَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ كَلَامُ اللَّهِ حَقِيقَةً لَا كَلَامَ غَيْرِهِ، وَلَا يَجُوزُ إِطْلَاقُ الْقَوْلِ بِأَنَّهُ حِكَايَةٌ عَنِ كَلَامِ اللَّهِ أَوْ عِبَارَةٌ، بَلْ إِذَا قَرَأَهُ النَّاسُ أَوْ كَتَبُوهُ فِي الْمَصَاحِفِ لَمْ يَخْرُجْ بِذَلِكَ عَلَى أَنْ يَكُونَ كَلَامُ اللَّهِ - تَعَالَى - حَقِيقَةً، فَإِنَّ الْكَلَامَ إِنَّمَا يُضَافُ حَقِيقَةً إِلَى مَنْ قَالَهُ مُبْتَدَأً، لَا إِلَى مَنْ قَالَهُ مُبَلَّغًا مُؤَدِّيًا، وَهُوَ كَلَامُ اللَّهِ؛ حُرُوفُهُ وَمَعَانِيهِ، لَيْسَ كَلَامُ اللَّهِ الْحُرُوفُ دُونَ الْمَعَانِي، وَلَا الْمَعَانِي دُونَ الْحُرُوفِ».

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَمِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَكُتُبِهِ: الْإِيمَانُ بِأَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ...»، إلخ.

أَي: أَنَّ الْإِيمَانَ بِأَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ؛ لِأَنَّ كَلَامَ اللَّهِ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَكَوْنُهُ مِنَ الْإِيمَانِ بِكُتُبِهِ؛ لِأَنَّهَا كَلَامُ اللَّهِ؛ فَالتَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ وَالْقُرْآنُ كُلُّهَا كَلَامُ اللَّهِ، وَلِأَنَّ الْقُرْآنَ - أَيْضًا - دَلَّ عَلَى أَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [التوبة: 6].

وَرَوَى الْإِمَامُ أَبُو دَاوُدَ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعْرِضُ نَفْسَهُ فِي الْمَوْسِمِ؛ فَيَقُولُ: «أَلَا رَجُلٌ يَحْمِلُنِي إِلَى قَوْمِهِ؛ لِأُبَلِّغَ كَلَامَ رَبِّي».

وَالَّذِي عَلَيْهِ إِجْمَاعُ السَّلَفِ الصَّالِحِ مِنَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ: أَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ؛ حُرُوفُهُ وَمَعَانِيهِ، وَلَمْ يُخَالَفْ فِي ذَلِكَ إِلَّا أَهْلُ الْبِدْعِ وَالضَّلَالِ.

وقوله: «مُنَزَّل».

أي: أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ؛ نَزَلَ بِهِ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى نَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، خِلَافًا لِأَهْلِ الْبِدْعِ مِنَ الْجَهْمِيَّةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ الَّذِينَ يَقُولُونَ بِأَنَّهُ لَيْسَ مُنَزَّلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَأَنَّهُ مَخْلُوقٌ، وَقَدْ سَبَقَ الرَّدُّ عَلَى تَحْرِيفِهِمْ لِكَلَامِ اللَّهِ فِي أَنَّ كَوْنَهُ مُنَزَّلًا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ مَخْلُوقٌ.

وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: 42]، وَقَوْلُهُ: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل: 102]، وَقَوْلُهُ: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿[الشعراء: 193 - 195]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: 2]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿حَمَّ﴾ (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿[غافر: 1 - 2]، وَغَيْرَ ذَلِكَ.

وَقَوْلُهُ «غَيْرُ مَخْلُوقٍ»: أَي: خِلَافًا لِأَهْلِ الْبِدْعِ مِنَ الْجَهْمِيَّةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ الَّذِينَ قَالُوا: إِنَّهُ مَخْلُوقٌ.

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ رَحِمَهُ اللَّهُ كَمَا فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى» (518 / 6): «فَلَمْ يَكُنْ فِي الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ وَسَائِرِ أَيْمَةِ الْمُسْلِمِينَ مَنْ قَالَ: إِنَّ كَلَامَ اللَّهِ مَخْلُوقٌ؛ خَلَقَهُ فِي غَيْرِهِ وَلَمْ يَقُمْ بِهِ كَلَامٌ، كَمَا قَالَتْهُ الْجَهْمِيَّةُ مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ وَغَيْرِهِمْ، بَلْ لَمَّا أَظْهَرُوا هَذِهِ الْبِدْعَةَ اشْتَدَّ نَكِيرُ السَّلَفِ وَالْأَيْمَةِ لَهَا». اهـ.

وَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ كَمَا فِي مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى (301 / 12): «وَلَمْ يَقُلْ أَحَدٌ مِنَ السَّلَفِ: إِنَّهُ مَخْلُوقٌ، فَلَمْ يَقُلْ أَحَدٌ مِنْهُمْ: إِنَّهُ قَدِيمٌ، بَلْ الْإِثَارُ مُتَوَاتِرَةٌ عَنْهُمْ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ: الْقُرْآنُ كَلَامُ اللَّهِ، وَلَمَّا ظَهَرَ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ مَخْلُوقٌ.

قَالُوا رَدًّا لِكَلَامِهِ: إِنَّهُ غَيْرُ مَخْلُوقٍ، وَأَوَّلُ مَنْ عُرِفَ أَنَّهُ قَالَ: مَخْلُوقٌ-
الْجَعْدُ بْنُ دِرْهَمٍ، وَصَاحِبُهُ الْجَهْمُ بْنُ صَفْوَانَ، وَأَوَّلُ مَنْ عُرِفَ أَنَّهُ قَالَ: هُوَ قَدِيمٌ-
عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَعِيدِ بْنِ كَلَّابٍ. اهـ.

وَقَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي نَوْنِيَّتِهِ:

وَكَذَلِكَ الْقُرْآنُ عَيْنُ كَلَامِهِ الـ	مَسْمُوعٌ مِنْهُ حَقِيقَةٌ بَيَّانٌ
هُوَ قَوْلُ رَبِّي كُلُّهُ لَا بَعْضُهُ	لَفْظًا وَمَعْنَى مَا هُمَا خَلْقَانِ
تَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَقَوْلُهُ	الْلَفْظُ وَالْمَعْنَى بِلَا رَوْعَانِ

وقد أورد شيخ الإسلام أدلة كثيرة تدل على أن القرآن منزل من عند الله،
وتكلم بكلام متين يُراجِعُ في «مجموع الفتاوى» (12 / 519-520).

وَقَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ كَمَا فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى» (12 / 516-517):

«قَالَ حَرْبُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ الْكِرْمَانِيُّ: سَمِعْتُ إِسْحَاقَ بْنَ رَاهُوَيْهَ يَقُولُ: لَيْسَ بَيْنَ
أَهْلِ الْعِلْمِ اخْتِلَافٌ: أَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ، وَلَيْسَ بِمَخْلُوقٍ، وَكَيْفَ يَكُونُ شَيْءٌ مِنَ
الرَّبِّ - عَزَّ ذِكْرُهُ - مَخْلُوقًا؟ وَلَوْ كَانَ كَمَا قَالُوا - لَزِمَهُمْ أَنْ يَقُولُوا: عِلْمُ اللَّهِ
وَقُدْرَتُهُ وَمَشِيئَتُهُ مَخْلُوقَةٌ، فَإِنْ قَالُوا ذَلِكَ - لَزِمَهُمْ أَنْ يَقُولُوا: كَانَ اللَّهُ - تَبَارَكَ
اسْمُهُ - وَلَا عِلْمَ وَلَا قُدْرَةَ وَلَا مَشِيئَةَ، وَهُوَ الْكُفْرُ الْمَحْضُ الْوَاضِحُ؛ لَمْ يَزَلِ اللَّهُ
عَالِمًا مُتَكَلِّمًا، لَهُ الْمَشِيئَةُ وَالْقُدْرَةُ فِي خَلْقِهِ، وَالْقُرْآنُ كَلَامُ اللَّهِ، وَلَيْسَ بِمَخْلُوقٍ؛
فَمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ مَخْلُوقٌ فَهُوَ كَافِرٌ.

وَقَالَ وَكِيعُ بْنُ الْجَرَّاحِ: مَنْ زَعَمَ أَنَّ الْقُرْآنَ مَخْلُوقٌ، فَقَدْ زَعَمَ أَنَّ شَيْئًا مِنَ اللَّهِ
مَخْلُوقٌ.

فَقِيلَ لَهُ: مَنْ أَيْنَ قُلْتَ هَذَا؟

قَالَ: لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾ [السجدة: 13]، وَلَا يَكُونُ مِنَ اللَّهِ شَيْءٌ مَخْلُوقٌ.

وَهَذَا الْقَوْلُ قَالَهُ غَيْرٌ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ. اهـ.

وانظر نُصُوصًا عِدَّةً عَنِ السَّلَفِ فِي تَكْفِيرِ مَنْ قَالَ بِخَلْقِ الْقُرْآنِ فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى» (12 / 508 - 510).

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «مِنْهُ بَدَأَ، وَإِلَيْهِ يَعُودُ».

قال رَحِمَهُ اللَّهُ كَمَا فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى» (17 / 83): «وَالَّذِي اتَّفَقَ عَلَيْهِ السَّلَفُ: أَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ».

وَقَالَ غَيْرٌ وَاحِدٍ مِنْهُمْ: «مِنْهُ بَدَأَ، وَإِلَيْهِ يَعُودُ».

قَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَغَيْرُهُ: «مِنْهُ بَدَأَ»، أَيُّ: هُوَ الْمُتَكَلِّمُ بِهِ لَمْ يَتَدَّ مِنْ غَيْرِهِ، كَمَا قَالَتِ الْجَهْمِيَّةُ الْقَائِلُونَ بِأَنَّ الْقُرْآنَ مَخْلُوقٌ. قَالُوا: خَلَقَهُ فِي غَيْرِهِ فَهُوَ مُبْتَدَأٌ مِنْ ذَلِكَ الْمَحَلِّ الْمَخْلُوقِ، وَيَلْزَمُهُمْ أَنْ يَكُونَ كَلَامًا لِذَلِكَ الْمَحَلِّ الْمَخْلُوقِ، لَا لِلَّهِ تَعَالَى. اهـ.

وَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ (12 / 517): «وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ: كَلَامُ اللَّهِ مِنَ اللَّهِ، لَيْسَ بِبَائِنٍ مِنْهُ».

وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ السَّلَفِ: الْقُرْآنُ كَلَامُ اللَّهِ؛ مِنْهُ بَدَأَ، وَمِنْهُ خَرَجَ، وَإِلَيْهِ يَعُودُ». إِلَى أَنْ قَالَ: «وَلَيْسَ مَعْنَى قَوْلِ السَّلَفِ وَالْأَئِمَّةِ: إِنَّهُ مِنْهُ خَرَجَ، وَمِنْهُ بَدَأَ - أَنَّهُ فَارَقَ ذَاتَهُ، وَحَلَّ بِغَيْرِهِ، فَإِنَّ كَلَامَ الْمَخْلُوقِ إِذَا تَكَلَّمَ بِهِ لَا يُفَارِقُ ذَاتَهُ وَيَحِلُّ بِغَيْرِهِ؛ فَكَيْفَ يَكُونُ كَلَامُ اللَّهِ كَذَلِكَ؟! قَالَ تَعَالَى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: 5]، فَقَدْ أَخْبَرَ أَنَّ الْكَلِمَةَ تَخْرُجُ مِنْ

أَفَوَاهِهِمْ، وَمَعَ هَذَا فَلَمْ تَفَارِقْ ذَاتَهُمْ.

وَأَيْضًا، فَالْصِّفَةُ لَا تَفَارِقُ الْمَوْصُوفَ وَتَحِلُّ بغيره، لَا صِفَةُ الْخَالِقِ، وَلَا صِفَةُ الْمَخْلُوقِ، وَالنَّاسُ إِذَا سَمِعُوا كَلَامَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ بَلَّغُوهُ عَنْهُ - كَانَ الْكَلَامُ الَّذِي بَلَّغُوهُ كَلَامَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَدْ بَلَّغُوهُ بِحَرَكَاتِهِمْ وَأَصْوَاتِهِمْ، فَالْقُرْآنُ أَوْلَى بِذَلِكَ؛ فَالْكَلَامُ كَلَامُ الْبَارِي، وَالصَّوْتُ صَوْتُ الْقَارِي؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [التوبة: 6]، وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «زَيِّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ».

وَلَكِنَّ مَقْصُودَ السَّلَفِ: الرَّدُّ عَلَى هَؤُلَاءِ الْجَهْمِيَّةِ؛ فَإِنَّهُمْ زَعَمُوا أَنَّ الْقُرْآنَ خَلَقَهُ اللَّهُ فِي غَيْرِهِ، فَيَكُونُ قَدْ ابْتَدَأَ وَخَرَجَ مِنْ ذَلِكَ الْمَحَلِّ الَّذِي خُلِقَ فِيهِ لَا مِنْ اللَّهِ، كَمَا يَقُولُونَ: كَلَامُهُ لِمُوسَى خَرَجَ مِنَ الشَّجَرَةِ، فَبَيَّنَ السَّلَفُ وَالْأَئِمَّةُ أَنَّ الْقُرْآنَ مِنَ اللَّهِ بَدَأَ وَخَرَجَ، وَذَكَرُوا قَوْلَهُ: ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾ [السجدة: 13].
فَأَخْبَرَ أَنَّ الْقَوْلَ مِنْهُ، لَا مِنْ غَيْرِهِ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ. اهـ.

وَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ (12 / 274): «قَوْلُ السَّلَفِ: «مِنْهُ بَدَأَ» لَمْ يُرِيدُوا بِهِ: أَنَّهُ فَارَقَ ذَاتَهُ وَحَلَّ فِي غَيْرِهِ؛ فَإِنَّ كَلَامَ الْمَخْلُوقِ - بَلْ وَسَائِرَ صِفَاتِهِ - لَا تَفَارِقُهُ، وَتَتَقَلُّ إِلَى غَيْرِهِ؛ فَكَيْفَ يَجُوزُ أَنْ يَفَارِقَ ذَاتَ اللَّهِ كَلَامُهُ أَوْ غَيْرُهُ مِنْ صِفَاتِهِ؟ بَلْ قَالُوا: «مِنْهُ بَدَأَ»، أَيْ: هُوَ الْمُتَكَلِّمُ بِهِ - رَدًّا عَلَى الْمُعْتَزِلَةِ وَالْجَهْمِيَّةِ وَغَيْرِهِمُ الَّذِينَ قَالُوا: بَدَأَ مِنَ الْمَخْلُوقِ الَّذِي خُلِقَ فِيهِ.

وَقَوْلُهُمْ: «إِلَيْهِ يَعُودُ». أَيْ: يُسْرَى عَلَيْهِ؛ فَلَا يَبْقَى فِي الْمَصَاحِفِ مِنْهُ حَرْفٌ، وَلَا فِي الصُّدُورِ مِنْهُ آيَةٌ». اهـ. وانظر «مجموع الفتاوى» (3 / 174 - 175).

وَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ كَمَا فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى» (6 / 528 - 529): «وَالَّذِي اتَّفَقَ

عَلَيْهِ السَّلَفُ وَالْأَيُّمَةُ: أَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ مُنْزَلٌ غَيْرُ مَخْلُوقٍ مِنْهُ بَدَأَ وَإِلَيْهِ يَعُودُ، وَإِنَّمَا قَالَ السَّلَفُ: «مِنْهُ بَدَأَ» لِأَنَّ الْجَهْمِيَّةَ - مِنَ الْمُعْتَزَلَةِ وَغَيْرِهِمْ - كَانُوا يَقُولُونَ: إِنَّهُ خَلَقَ الْكَلَامَ فِي الْمَحَلِّ. فَقَالَ السَّلَفُ: «مِنْهُ بَدَأَ». أَيُّ: هُوَ الْمُتَكَلِّمُ بِهِ؛ فَمِنْهُ بَدَأَ، لَا مِنْ بَعْضِ الْمَخْلُوقَاتِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الزمر: 1]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾ [السجدة: 13]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ﴾ [سبأ: 6]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل: 102].

وَمَعْنَى قَوْلِهِمْ: «إِلَيْهِ يَعُودُ»: أَنَّهُ يُرْفَعُ مِنَ الصُّدُورِ وَالْمَصَاحِفِ؛ فَلَا يَبْقَى فِي الصُّدُورِ مِنْهُ آيَةٌ وَلَا مِنْهُ حَرْفٌ، كَمَا جَاءَ فِي عِدَّةِ آثَارٍ. اهـ.

أَمَّا الْعَلَامَةُ السَّعْدِي رَحِمَهُ اللَّهُ فَقَدْ رَجَّحَ أَنَّ مَعْنَى: «إِلَيْهِ يَعُودُ»، أَيُّ: يُوصَفُ اللَّهُ بِهِ؛ فَقَدْ قَالَ فِي «التنبيهات اللطيفة» (ص 68): «وَقَوْلُهُمْ: «إِلَيْهِ يَعُودُ»، أَيُّ: يَرْجِعُ؛ أَيُّ: يُوصَفُ اللَّهُ بِهِ».

وَقِيلَ: إِنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ مَا وَرَدَ مِنْ أَنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُرْفَعَ الْقُرْآنُ مِنَ الصُّدُورِ وَالْمَصَاحِفِ، وَالْأَوَّلُ أَوْلَى. اهـ.

قَوْلُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَأَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ الَّذِي أُنْزِلَهُ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ كَلَامُ اللَّهِ حَقِيقَةً، لَا كَلَامُ غَيْرِهِ».

يُرِيدُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ بِكَلَامِهِ هَذَا: أَنَّ اللَّهَ تَكَلَّمَ بِالْقُرْآنِ حَقِيقَةً، وَأَنَّهُ لَيْسَ بِكَلَامِ جَبْرِيلَ، وَلَا كَلَامِ نَبِيٍّ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَقَدْ قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ كَمَا فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى» (5/ 233): «وَمَذْهَبُ

سَلَفِ الْأُمَّةِ وَأَيْمَّتِهَا وَخَلَفَهَا: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَمِعَ الْقُرْآنَ مِنْ جِبْرِيلَ، وَجِبْرِيلُ سَمِعَهُ مِنَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ. اهـ.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الْجَوَابِ الصَّحِيحِ» (4 / 337 - 339) بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ بَعْضَ الْأَقْوَالِ الْبَاطِلَةِ فِي كَلَامِ اللَّهِ: «وَكُلُّ هَذِهِ الْأَقْوَالِ مُحَدَّثَةٌ مُبْتَدَعَةٌ، لَمْ يَقُلْ شَيْئًا مِنْهَا أَحَدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ وَلَا التَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، وَلَا إِمَامٌ مِنَ أُمَّةِ الْمُسْلِمِينَ؛ كَمَالِكٍ، وَالثَّوْرِيِّ، وَالْأَوْزَاعِيِّ، وَاللَّيْثِ بْنِ سَعْدٍ، وَأَبِي حَنِيفَةَ، وَأَبِي يُوسُفَ، وَمُحَمَّدٍ، وَالشَّافِعِيِّ، وَأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ، وَإِسْحَاقَ بْنِ رَاهَوِيَةَ، وَابْنَ عُيَيْنَةَ، وَغَيْرِهِمْ.

بَلْ هَؤُلَاءِ كُلُّهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ مُنَزَّلٌ غَيْرُ مَخْلُوقٍ، وَأَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَ بِهِ جِبْرِيلَ، فَنَزَلَ بِهِ جِبْرِيلُ عَلَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَبَلَّغَهُ مُحَمَّدٌ إِلَى النَّاسِ، فَقَرَأَهُ النَّاسُ بِحَرَكَاتِهِمْ وَأَصْوَاتِهِمْ، وَلَيْسَ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِ الْعِبَادِ وَأَصْوَاتِهِمْ قَدِيمًا وَلَا غَيْرُ مَخْلُوقٍ، وَلَكِنَّ كَلَامَ اللَّهِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ، وَلَمْ يَكُنِ السَّلَفُ يَقُولُونَ: الْقُرْآنُ قَدِيمٌ.

وَلَمَّا أَحْدَثَ الْجَهْمِيَّةُ وَمُوافِقُوهُمْ مِنَ الْمُعْتَزَلَةِ وَغَيْرِهِمْ: أَنَّهُ مَخْلُوقٌ بَائِنٌ مِنَ اللَّهِ. قَالَ السَّلَفُ وَالْأُئِمَّةُ: إِنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ. اهـ.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَلَا يَجُوزُ إِطْلَاقُ الْقَوْلِ بِأَنَّهُ حِكَايَةٌ عَنْ كَلَامِ اللَّهِ أَوْ عِبَارَةٌ».

يُشِيرُ رَحِمَهُ اللَّهُ إِلَى الْكَلَابِيَّةِ الَّذِينَ قَالُوا: إِنَّهُ حِكَايَةٌ، وَإِلَى الْأَشَاعِرَةِ الَّذِينَ قَالُوا: إِنَّهُ عِبَارَةٌ، فَالْكَلَابِيَّةُ وَالْأَشَاعِرَةُ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ الَّذِي بَيْنَ أَيْدِينَا لَيْسَ كَلَامَ اللَّهِ، بَلْ هُوَ إِمَّا حِكَايَةٌ أَوْ عِبَارَةٌ؛ فَلْأَشَاعِرَةُ يَقُولُونَ: إِنَّ اللَّهَ عَبَّرَ عَنْ كَلَامِهِ النَّفْسِيَّ بِحُرُوفٍ وَأَصْوَاتٍ مَخْلُوقَةٍ.

والكَلَابِيَّة يَقُولُونَ: إِنَّ الْقُرْآنَ مَعْنَى قَائِمٍ بِذَاتِ اللَّهِ، وَأَنَّهُ لَا يُسْمَعُ عَلَى الْحَقِيقَةِ، وَالْحُرُوفُ وَالْأَصْوَاتُ حِكَايَةٌ لَهُ وَدَالَّةٌ عَلَيْهِ، كَمَا يَحْكِي الصَّدَى كَلَامَ الْمُتَكَلِّمِ.

وقد أبطل شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «التَّسْعِينَةِ» قَوْلَ مَنْ قَالَ: إِنَّ كَلَامَ اللَّهِ هُوَ الْمَعْنَى الْقَائِمُ بِالنَّفْسِ مِنْ تَسْعِينَ وَجْهًا، حَتَّى قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي نَوْنِيَّتِهِ: تَسْعُونَ وَجْهًا بَيَّنَّتْ بُطْلَانَهُ أَعْنِي كَلَامَ النَّفْسِ ذَا الْوَحْدَانِ

وقد قَالَ الْعَلَامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ كَمَا فِي «مَخْتَصَرِ الصَّوَائِقِ» (ص 474-475) فِي سِيَاقِ مَذَاهِبِ النَّاسِ فِي كَلَامِ اللَّهِ: «الْمَذْهَبُ الرَّابِعُ: مَذْهَبُ الْكَلَابِيَّةِ، أَتْبَاعُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَعِيدِ بْنِ كَلَّابٍ، أَنَّ الْقُرْآنَ مَعْنَى قَائِمٌ بِالنَّفْسِ لَا يَتَعَلَّقُ بِالْقُدْرَةِ وَالْمَشِيئَةِ، وَأَنَّهُ لَا زِمَ لِذَاتِ الرَّبِّ كَلْزُومُ الْحَيَاةِ وَالْعِلْمِ، وَأَنَّهُ لَا يُسْمَعُ عَلَى الْحَقِيقَةِ، وَالْحُرُوفُ وَالْأَصْوَاتُ حِكَايَةٌ لَهُ دَالَّةٌ عَلَيْهِ، وَهِيَ مَخْلُوقَةٌ، وَهُوَ أَرْبَعُ مَعَانٍ فِي نَفْسِهِ: الْأَمْرُ، وَالنَّهْيُ، وَالْخَبَرُ، وَالْإِسْتِفْهَامُ، فَهِيَ أَنْوَاعٌ لِذَلِكَ الْمَعْنَى الْقَدِيمِ الَّذِي لَا يُسْمَعُ، وَذَلِكَ الْمَعْنَى هُوَ الْمَتَلُّو الْمَقْرُوءُ، وَهُوَ غَيْرُ مَخْلُوقٍ، وَالْأَصْوَاتُ وَالْحُرُوفُ هِيَ تِلَاوَةُ الْعِبَادِ، وَهِيَ مَخْلُوقَةٌ.

وَهَذَا الْمَذْهَبُ أَوَّلُ مَنْ يُعْرِفُ أَنَّهُ قَالَ بِهِ: ابْنُ كَلَّابٍ، وَبَنَاهُ عَلَى أَنَّ الْكَلَامَ لَا بُدَّ أَنْ يَقُومَ بِالْمُتَكَلِّمِ، وَالْحُرُوفُ وَالْأَصْوَاتُ حَادِثَةٌ، فَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَقُومَ بِذَاتِ الرَّبِّ تَعَالَى؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ مَحَلًّا لِلْحَوَادِثِ، فَهِيَ مَخْلُوقَةٌ مُنْفَصِلَةٌ عَنِ الرَّبِّ، وَالْقُرْآنُ اسْمُ ذَلِكَ الْمَعْنَى، وَهُوَ غَيْرُ مَخْلُوقٍ.

الْمَذْهَبُ الْخَامِسُ: مَذْهَبُ الْأَشْعَرِيِّ وَمَنْ وَافَقَهُ أَنَّهُ مَعْنَى وَاحِدٌ قَائِمٌ بِذَاتِ الرَّبِّ، وَهُوَ صِفَةٌ قَدِيمَةٌ أَرْزَلِيَّةٌ لَيْسَ بِحَرْفٍ وَلَا صَوْتٍ، وَلَا يَنْقَسِمُ، وَلَا لَهُ

أَبْعَاضُ، وَلَا لَهُ أَجْزَاءُ، وَلَا عَيْنُ الْأَمْرِ وَعَيْنُ النَّهْيِ وَعَيْنُ الْخَبَرِ وَعَيْنُ الْإِسْتِخْبَارِ، الْكُلُّ مِنْ وَاحِدٍ، وَهُوَ عَيْنُ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَالزَّبُورِ».

ثُمَّ قَالَ ابْنُ الْقَيْمِ: «وَجَمَهُورُ الْعُقَلَاءِ يَقُولُونَ: إِنَّ تَصَوُّرَ هَذَا الْمَذْهَبِ كَافٍ فِي الْجَزْمِ فِي بُطْلَانِهِ، وَهُوَ لَا يُتَصَوَّرُ إِلَّا كَمَا تُتَصَوَّرُ الْمُسْتَحِيلَاتُ الْمُمْتَنِعَاتُ». اهـ.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «بَلْ إِذَا قَرَأَهُ النَّاسُ أَوْ كَتَبُوهُ فِي الْمَصَاحِفِ لَمْ يَخْرُجْ بِذَلِكَ عَنْ أَنْ يَكُونَ كَلَامَ اللَّهِ حَقِيقَةً؛ فَإِنَّ الْكَلَامَ إِنَّمَا يُضَافُ حَقِيقَةً إِلَى مَنْ قَالَهُ مُبْتَدَأً، لَا إِلَى مَنْ قَالَهُ مُبَلَّغًا مُؤَدِّيًا».

يريدُ شيخُ الإسلامِ رَحِمَهُ اللَّهُ بهذا: أَنَّ الْقُرْآنَ - وَإِنْ حُفِظَ فِي الصُّدُورِ، أَوْ تَلِيَ بِاللِّسَنِ، أَوْ كُتِبَ فِي الْمَصَاحِفِ، أَوْ سُمِعَ بِالْأَذَانِ - فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يُخْرِجُهُ عَنْ كَوْنِهِ كَلَامَ اللَّهِ وَإِنْ بَلَغَهُ الرِّسُولُ الْمَلَكِيُّ جَبْرِيلُ لِلرَّسُولِ الْبَشَرِيِّ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَبَلَغَهُ نَبِينَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأُمَّتِهِ، فَإِنَّ الْكَلَامَ إِنَّمَا يُضَافُ حَقِيقَةً إِلَى مَنْ قَالَهُ مُبْتَدَأً، لَا إِلَى مَنْ قَالَهُ مُبَلَّغًا مُؤَدِّيًا.

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «التَّسْعِينِيَّةِ» (3 / 963 - 965): «إِنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ يَقُولُونَ: الْكَلَامُ كَلَامٌ مَنْ قَالَهُ مُبْتَدَأً، لَا كَلَامٌ مَنْ قَالَهُ مُبَلَّغًا مُؤَدِّيًا؛ فَالرَّجُلُ إِذَا بَلَغَ قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ»، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى» - كَانَ قَدْ بَلَغَ كَلَامَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِحَرَكَاتِهِ وَأَصْوَاتِهِ، وَكَذَلِكَ إِذَا أُنْشِدَ شِعْرٌ شَاعِرٍ كَامِرٍ الْقَيْسِ أَوْ غَيْرِهِ، فَإِذَا قَالَ:

قِفَا نَبْكَ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ

كَانَ هَذَا الشَّعْرُ شِعْرَ امْرِئِ الْقَيْسِ، وَإِنْ كَانَ هَذَا قَدْ قَالَهُ بِحَرَكَاتِهِ وَأَصْوَاتِهِ،

وَهَذَا أَمْرٌ مُسْتَقَرٌّ فِي فِطْرِ النَّاسِ كُلِّهِمْ؛ يَعْلَمُونَ أَنَّ الْكَلَامَ كَلَامٌ مَنْ تَكَلَّمَ بِهِ مُبْتَدئًا؛ أَمْرًا بِأَمْرِهِ، وَمُخْبِرًا بِخَبَرِهِ، وَمُؤَلِّفًا حُرُوفَهُ وَمَعَانِيَهُ، وَغَيْرُهُ إِذَا بَلَغَهُ عَنْهُ عِلْمُ النَّاسِ أَنَّ هَذَا كَلَامٌ لِلْمُبَلِّغِ عَنْهُ لَا لِلْمُبَلِّغِ.

وَهُمْ يَفْرُقُونَ بَيْنَ أَنْ يَقُولَهُ الْمُتَكَلِّمُ بِهِ وَالْمُبَلِّغُ عَنْهُ، وَبَيْنَ سَمَاعِهِ مِنَ الْأَوَّلِ وَسَمَاعِهِ مِنَ الثَّانِي؛ وَلِهَذَا كَانَ مِنَ الْمُسْتَقَرِّ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ أَنَّ الْقُرْآنَ الَّذِي يَسْمَعُونَهُ هُوَ كَلَامُ اللَّهِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [التوبة: 6]، مَعَ عِلْمِهِمْ بِأَنَّ الْقَارِئَ يَقْرُؤُهُ بِصَوْتِهِ؛ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «زَيَّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ»؛ فَالْكَلَامُ كَلَامُ الْبَارِي، وَالصَّوْتُ صَوْتُ الْقَارِئِ». اهـ.

وَقَالَ الْعَلَامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ كَمَا فِي «مَخْتَصَرِ الصَّوَاعِقِ» (ص 491-492): «وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ الْحَرَبِيُّ: كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ إِذْ جَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ إِنَّ عِنْدَنَا قَوْمًا يَقُولُونَ: إِنَّ الْفَاطِمَةَ بِالْقُرْآنِ مَخْلُوقَةٌ.

قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: يَتَوَجَّهُ الْعَبْدُ لِلَّهِ بِالْقُرْآنِ بِخَمْسَةِ أَوْجِهٍ، وَهُوَ فِيهَا غَيْرُ مَخْلُوقٍ: حِفْظٌ بِقَلْبٍ، وَتِلَاوَةٌ بِلِسَانٍ، وَسَمْعٌ بِأُذُنٍ، وَنَظَرَةٌ بِبَصَرٍ، وَخَطٌّ بِيَدٍ، فَالْقَلْبُ مَخْلُوقٌ وَالْمَحْفُوظُ غَيْرُ مَخْلُوقٍ، وَالتِّلَاوَةُ مَخْلُوقَةٌ وَالْمَتْلُوُّ غَيْرُ مَخْلُوقٍ، وَالسَّمْعُ مَخْلُوقٌ وَالْمَسْمُوعُ غَيْرُ مَخْلُوقٍ، وَالنَّظَرُ مَخْلُوقٌ وَالْمَنْظُورُ إِلَيْهِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ، وَالْكِتَابَةُ مَخْلُوقَةٌ وَالْمَكْتُوبُ غَيْرُ مَخْلُوقٍ.

قَالَ إِبْرَاهِيمُ: فَمَاتَ أَحْمَدُ؛ فَرَأَيْتُهُ فِي النَّوْمِ، وَعَلَيْهِ ثِيَابٌ خُضْرٌ وَبَيْضٌ، وَعَلَى رَأْسِهِ تَاجٌ مِنَ الذَّهَبِ مُكَلَّلٌ بِالْجَوَاهِرِ، وَفِي رِجْلَيْهِ نَعْلَانِ مِنْ ذَهَبٍ، فَقُلْتُ لَهُ: مَا فَعَلَ اللَّهُ بِكَ؟ قَالَ: عَفَّرَ لِي، وَقَرَّبَنِي، وَأَذْنَانِي. فَقَالَ: قَدْ عَفَّرْتُ لَكَ. فَقُلْتُ لَهُ: يَا رَبِّ، بِمَاذَا؟ قَالَ: بِقَوْلِكَ كَلَامِي غَيْرُ مَخْلُوقٍ».

قال ابن القيم: «وَمَنْ لَمْ يُفَرِّقْ هَذَا التَّفْرِيقَ لَمْ يَسْتَقِرَّ لَهُ قَدَمٌ فِي الْحَقِّ» اهـ.
 وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَهُوَ كَلَامُ اللَّهِ؛ حُرُوفُهُ وَمَعَانِيهِ؛ لَيْسَ كَلَامُ اللَّهِ الْحُرُوفُ
 دُونَ الْمَعَانِي، وَلَا الْمَعَانِي دُونَ الْحُرُوفِ».

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ فِي شَرْحِهِ لِلوَاسِطِيَّةِ (ص 467 - 468):
 قوله: «هو كلام الله؛ حُرُوفُهُ وَمَعَانِيهِ» - هذا مذهب أهل السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ. قالوا:
 إِنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - تَكَلَّمَ بِالْقُرْآنِ بِحُرُوفِهِ وَمَعَانِيهِ.

وقوله: «ليس كلام الله الحُرُوفُ دون المعاني». وهذا مذهب المعتزلة
 وَالْجَهْمِيَّةِ؛ لِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ الْكَلَامَ لَيْسَ مَعْنَى يَقُومُ بِذَاتِ اللَّهِ، بَلْ هُوَ شَيْءٌ مِنْ
 مَخْلُوقَاتِهِ؛ كَالسَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَالنَّاقَةِ وَالْبَيْتِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ؛ فَلَيْسَ مَعْنَى قَائِمًا
 فِي نَفْسِهِ، فَكَلَامُ اللَّهِ حُرُوفٌ خَلَقَهَا اللَّهُ عَزَّجَلَّ، وَسَمَّاها كَلَامًا، كَمَا خَلَقَ النَّاقَةَ،
 وَسَمَّاها نَاقَةَ اللَّهِ، وَكَمَا خَلَقَ الْبَيْتَ، وَسَمَّاها بَيْتَ اللَّهِ.

وَلِهَذَا كَانَ الْكَلَامُ عِنْدَ الْجَهْمِيَّةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ هُوَ الْحُرُوفُ؛ لِأَنَّ كَلَامَ اللَّهِ
 عِنْدَهُمْ عِبَارَةٌ عَنْ حُرُوفٍ وَأَصْوَاتٍ خَلَقَهَا اللَّهُ عَزَّجَلَّ، وَنَسَبَهَا إِلَيْهِ تَشْرِيفًا
 وَتَعْظِيمًا.

قوله: «ولا المعاني دون الحُرُوفِ»:

وَهَذَا مَذْهَبُ الْكَلَابِيَّةِ وَالْأَشْعَرِيَّةِ؛ فَكَلَامُ اللَّهِ عِنْدَهُمْ مَعْنَى فِي نَفْسِهِ، ثُمَّ خَلَقَ
 أَصْوَاتًا وَحُرُوفًا تَدُلُّ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى؛ إِمَّا عِبَارَةً أَوْ حِكَايَةً.

واعلم أَنَّ ابْنَ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ ذَكَرَ أَنَّآ إِذَا أَنْكَرْنَا أَنَّ اللَّهَ يَتَكَلَّمُ فَقَدْ أَبْطَلْنَا
 الشَّرْعَ وَالْقَدَرَ.

أَمَّا الشَّرْعُ؛ فَلِأَنَّ الرِّسَالَاتِ إِنَّمَا جَاءَتْ بِالْوَحْيِ، وَالْوَحْيِ كَلَامٌ مُبَلَّغٌ إِلَى

المُرْسَلِ إِلَيْهِ، فَإِذَا نَفَيْنَا الْكَلَامَ انْتَفَى الْوَحْيُ، وَإِذَا انْتَفَى الْوَحْيُ انْتَفَى الشَّرْعُ.
 أَمَّا الْقَدَرُ؛ فَلِأَنَّ الْخَلْقَ يَقَعُ بِأَمْرِهِ بِقَوْلِهِ: «كُنْ»؛ فَيَكُونُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى:
 ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: 82]. اهـ.



«وَقَدْ دَخَلَ- أَيْضًا- فِيمَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ الْإِيمَانِ بِهِ وَكِتَبِهِ وَبِمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ-
الْإِيمَانُ بِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَرَوْنَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَيْنًا بِأَبْصَارِهِمْ، كَمَا يَرَوْنَ الشَّمْسَ
صَحْوًا لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ، وَكَمَا يَرَوْنَ الْقَمَرَ لَيْلَةً الْبَدْرُ لَا يُضَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ.
يَرَوْنَهُ- سبحانه- وَهُمْ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَرَوْنَهُ بَعْدَ دُخُولِ الْجَنَّةِ كَمَا
يَشَاءُ اللَّهُ».

«وَجْهٌ كَوْنِ الْإِيمَانِ بِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَرَوْنَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ ظَاهِرٌ؛
لِأَنَّ هَذَا مِمَّا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ؛ فَإِذَا آمَنَّا بِهِ فَهُوَ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ.
وَوَجْهٌ كَوْنِهِ مِنَ الْإِيمَانِ بِالْكِتَابِ؛ لِأَنَّ الْكِتَابَ أَخْبَرَتْ بِأَنَّ اللَّهَ يُرَى، فَالْتَّصِدِيقُ
بِذَلِكَ تَصْدِيقٌ بِالْكِتَابِ.
وَوَجْهٌ كَوْنِهِ مِنَ الْإِيمَانِ بِالْمَلَائِكَةِ؛ لِأَنَّ نَقْلَ الْوَحْيِ بِوَاسِطَةِ الْمَلَائِكَةِ، فَإِنَّ
جِبْرِيلَ يَنْزِلُ بِالْوَحْيِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، فَكَانَ الْإِيمَانُ بِأَنَّ اللَّهَ يُرَى مِنَ الْإِيمَانِ
بِالْمَلَائِكَةِ.

وَكَذَلِكَ نَقُولُ مِنَ الْإِيمَانِ بِالرُّسُلِ؛ لِأَنَّ الرُّسُلَ هُمُ الَّذِينَ بَلَّغُوا ذَلِكَ لِلخَلْقِ،
فَكَانَ الْإِيمَانُ بِذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ بِالرُّسُلِ» (1).

وَقِيلَ: أَيُّ: قَدْ دَخَلَ فِي الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَكِتَبِهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ- الْإِيمَانُ بِأَنَّ
الْمُؤْمِنِينَ يَرَوْنَهُ - سبحانه- يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ فَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِأَنَّهُ- سبحانه- يُرَى يَوْمَ
الْقِيَامَةِ فَقَدْ رَدَّ أَدِلَّةَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَخَالَفَ مَا عَلَيْهِ سَلَفُ الْأُمَّةِ وَأَتْمَتَهَا، وَلَمْ
يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكِتَبِهِ وَرُسُلِهِ.

(1) «شرح الواسطية» للعلامة ابن عثيمين (ص 469).

قال أحمد رحمه الله: «مَنْ لَمْ يَقُلْ بِالرُّؤْيَةِ فَهُوَ جَهْمِيٌّ».

قال أبو داود: «سَمِعْتُ الْإِمَامَ أَحْمَدَ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: مَنْ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ لَا يُرَى فِي الْآخِرَةِ فَهُوَ كَافِرٌ».

وقال: «مَنْ زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ لَا يُرَى فِي الْآخِرَةِ فَقَدْ كَفَرَ، وَكَذَّبَ بِالْقُرْآنِ، وَرَدَّ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى أَمْرَهُ؛ يُسْتَتَابُ، فَإِنْ تَابَ وَإِلَّا قُتِلَ».

وقال ابن خزيمة رحمه الله: «إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَرَوْنَ رَبَّهُمْ خَالِقَهُمْ يَوْمَ الْمَعَادِ، وَمَنْ أَنْكَرَ ذَلِكَ فَلَيْسَ بِمُؤْمِنٍ عِنْدَ الْمُؤْمِنِينَ».

وقال ابن القيم رحمه الله: «دَلَّ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ الْمُتَوَاتِرَةُ وَإِجْمَاعُ الصَّحَابَةِ وَأُئِمَّةُ أَهْلِ الْإِسْلَامِ وَالْحَدِيثِ عَلَى أَنَّ اللَّهَ يُرَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالْأَبْصَارِ عَيْنًا، كَمَا يُرَى الْقَمَرُ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، وَكَمَا تُرَى الشَّمْسُ صَحْوًا، فَإِنْ كَانَ مَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ حَقِيقَةً فَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَرَوْهُ إِلَّا مَنْ فَوْقَهُمْ؛ لاسْتِحَالَةِ أَنْ يَرَوْهُ مِنْ أَسْفَلِ مِنْهُمْ، أَوْ مِنْ وَرَائِهِمْ، أَوْ قُدَّامِهِمْ، وَنَحْوَ ذَلِكَ، وَلَا يَجْتَمِعُ فِي قَلْبِ عَبْدٍ اِطَّلَعَ عَلَى هَذِهِ الْأَحَادِيثِ وَفَهُمْ مَعْنَاهَا إنْكَارُهَا وَالشَّهَادَةُ بِأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ أَبَدًا». اهـ.

«التنبيهات السنيّة على العقيدة الواسطيّة» (ص 216).

قول شيخ الإسلام: «إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَرَوْنَ رَبَّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَيْنًا بِأَبْصَارِهِمْ...»، إلخ - أَرَادَ بِهَذَا الرَّدَّ عَلَى الْأَشَاعِرَةِ الْقَائِلِينَ بِأَنَّ اللَّهَ يُرَى مِنْ غَيْرِ مُعَايَنَةٍ وَمُوَاجَهَةٍ.

قال شيخ الإسلام رحمه الله كما في «مجموع الفتاوى» (16 / 84-85): «قَوْلُ هَؤُلَاءِ - الْأَشَاعِرَةِ - إِنَّ اللَّهَ يُرَى مِنْ غَيْرِ مُعَايَنَةٍ وَمُوَاجَهَةٍ - قَوْلٌ انْفَرَدُوا بِهِ دُونَ سَائِرِ طَوَائِفِ الْأُمَّةِ، وَجُمْهُورِ الْعُقَلَاءِ عَلَى أَنَّ فَسَادَ هَذَا مَعْلُومٌ بِالضَّرُورَةِ،

وَالْأَخْبَارُ الْمُتَوَاتِرَةُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تُرَدُّ عَلَيْهِمْ؛ كَقَوْلِهِ فِي الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ: «إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ، كَمَا تَرُونَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَا تُضَارُونَ فِي رُؤْيَيْهِ»، وَقَوْلِهِ لَمَّا سَأَلَهُ النَّاسُ: هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: «هَلْ تَرُونَ الشَّمْسَ صَحْوًا لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟». قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: «وَهَلْ تَرُونَ الْقَمَرَ صَحْوًا لَيْسَ دُونَهُ سَحَابٌ؟» قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: فَإِنَّكُمْ تَرُونَ رَبَّكُمْ، كَمَا تَرُونَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ». فَشَبَّهَ الرُّؤْيَا بِالرُّؤْيَا، وَلَمْ يُشَبَّهِ الْمَرْتِي بِالْمَرْتِي؛ فَإِنَّ الْكَافَ - حَرْفَ الشَّيْءِ - دَخَلَ عَلَى الرُّؤْيَا.

وَفِي لَفْظٍ لِلْبُخَارِيِّ: «يَرُونَهُ عَيْنًا». وَمَعْلُومٌ أَنَّا نَرَى الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ عَيْنًا مُوَاجِهَةً فَيَجِبُ أَنْ نَرَاهُ كَذَلِكَ.

وَأَمَّا رُؤْيَا مَا لَا نُعَايِنُ وَلَا نُوَاجِهُهُ فَهَذِهِ غَيْرُ مَتَصَوِّرَةٍ فِي الْعَقْلِ، فَضْلًا عَنْ أَنْ تَكُونَ كَرُؤْيَا الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ.

وَلِهَذَا صَارَ حُذَائِهِمْ إِلَى إنْكَارِ الرُّؤْيَا، وَقَالُوا: قَوْلُنَا هُوَ قَوْلُ الْمُعْتَزَلَةِ فِي الْبَاطِنِ؛ فَإِنَّهُمْ فَسَّرُوا الرُّؤْيَا بِزِيَادَةِ انْكِشَافٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا لَا تُنَازِعُ فِيهِ الْمُعْتَزَلَةُ. اهـ.

وَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «بَيَانِ تَلْيِيسِ الْجَهْمِيَّةِ» (1/367): «فَمَنْ سَمِعَ النُّصُوصَ عَلِمَ بِالْإِضْطِرَارِ أَنَّ الرَّسُولَ إِنَّمَا أَخْبَرَ بِرُؤْيَا الْمُعَايَنَةِ، وَأَيْضًا فَإِنَّ أَدِلَّةَ الْمَعْقُولِ الصَّرِيحَةَ تُجَوِّزُ هَذِهِ الرُّؤْيَا». اهـ.

وَقَوْلُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يَرُونَهُ - سُبْحَانَهُ - وَهُمْ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَرُونَهُ بَعْدَ دُخُولِ الْجَنَّةِ كَمَا يَشَاءُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى».

أَقُولُ: قَدْ سَبَقَ ذِكْرُ الْأَدِلَّةِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَنِ وَالْإِجْمَاعِ وَالْعَقْلِ عَلَى رُؤْيَا

المؤمنين لربهم في الجنة يوم القيامة، وأن هذه المسألة من أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، كما مر أن من أئمة أهل السنة من كفر منكر ذلك.

كما أن النصوص دلت على أن المؤمنين يرون ربهم سبحانه وتعالى في عرصات القيامة إلا أنها ليست كرويتهم له في الجنة.

قال شيخ الإسلام رحمه الله كما في «مجموع الفتاوى» (6/ 503): «ثم إن هذا النوع من الرؤية الذي هو عام للخلايق، قد يكون نوعاً ضعيفاً ليس من جنس الرؤية التي يختص بها المؤمنون؛ فإن الرؤية أنواع متباينة تبايناً عظيماً لا يكاد ينضبط طرفاًها». اهـ.

أما الكفار من المنافقين والمشركين وغيرهم، فقد تنازع الناس فيهم إلى ثلاثة أقوال:

قال شيخ الإسلام رحمه الله كما في «مجموع الفتاوى» (6/ 486): «فأما مسألة رؤية الكفار فأول ما انتشر الكلام فيها، وتنازع الناس فيها - فيما بلغنا - بعد ثلاثمائة سنة من الهجرة، وأمسك عن الكلام في هذا قوم من العلماء، وتكلم فيها آخرون؛ فاختلَفوا فيها على ثلاثة أقوال، مع أنني ما علمت أن أولئك المختلفين فيها تلاعنوا ولا تهاجروا فيها؛ إذ في الفرق الثلاثة قوم فيهم فضل، وهم أصحاب سنة».

ثم قال رحمه الله: «والأقوال الثلاثة في (رؤية الكفار):

أحدها: أن الكفار لا يرون ربهم بحال؛ لا المظهر للكفر، ولا المسر له، وهذا قول أكثر العلماء المتأخرين، وعليه يدل عموم كلام المتقدمين، وعليه جمهور أصحاب الإمام أحمد وغيرهم.

الثاني: أَنَّهُ يَرَاهُ مَنْ أَظْهَرَ التَّوْحِيدَ مِنْ مُؤْمِنِي هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَمُنَافِقِيهَا، وَغَبَرَاتٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَذَلِكَ فِي عَرَصَةِ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَحْتَجِبُ عَنِ الْمُنَافِقِينَ، فَلَا يَرُونَهُ بَعْدَ ذَلِكَ، وَهَذَا قَوْلُ أَبِي بَكْرٍ بْنِ خُزَيْمَةَ مِنْ أَيْمَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ، وَقَدْ ذَكَرَ الْقَاضِي أَبُو يَعْلَى نَحْوَهُ فِي حَدِيثِ إِيْتِيَانِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَهُمْ فِي الْمَوْقِفِ؛ الْحَدِيثُ الْمَشْهُورُ.

الثالث: أَنَّ الْكُفَّارَ يَرُونَهُ رُؤْيَا تَعْرِيفٍ وَتَعَذِيبٍ؛ كَاللَّصِّ إِذَا رَأَى السُّلْطَانَ، ثُمَّ يَحْتَجِبُ عَنْهُمْ؛ لِيَعْظُمَ عَذَابُهُمْ، وَيَشْتَدَّ عِقَابُهُمْ، وَهَذَا قَوْلُ أَبِي الْحَسَنِ بْنِ سَالِمٍ وَأَصْحَابِهِ، وَقَوْلٍ غَيْرِهِمْ؛ وَهُمْ فِي الْأَصُولِ مُتَنَسِّبُونَ إِلَى الْإِمَامِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ، وَإِلَى سَهْلِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ التَّسْتَرِيِّ. اهـ.

ثُمَّ ذَكَرَ رَحِمَهُ اللَّهُ أدْلَةً أَصْحَابِ كُلِّ قَوْلٍ، وَأَطَالَ الْكَلَامَ، وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ قَالَ (ص 504): «لَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يُطْلَقَ الْقَوْلُ بِأَنَّ الْكُفَّارَ يَرُونَ رَبَّهُمْ مِنْ غَيْرِ تَقْيِيدٍ لَوْجَهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ (الرُّؤْيَا الْمُطْلَقَةَ) قَدْ صَارَ يُفْهَمُ مِنْهَا الْكَرَامَةُ وَالثَّوَابُ، فَفِي إِطْلَاقِ ذَلِكَ إِيهَامٌ وَإِيحَاشٌ، وَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يُطْلَقَ لَفْظًا يُوْهِمُ خِلَافَ الْحَقِّ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَأْثُورًا عَنِ السَّلَفِ، وَهَذَا اللَّفْظُ لَيْسَ مَأْثُورًا.

الثاني: أَنَّ الْحُكْمَ إِذَا كَانَ عَامًّا، وَكَانَ فِي تَخْصِيصٍ بَعْضِهِ بِاللَّفْظِ خُرُوجٌ عَنِ الْقَوْلِ الْجَمِيلِ فَإِنَّهُ يُمْنَعُ مِنَ التَّخْصِيصِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ خَالَقُ كُلِّ شَيْءٍ، وَمُرِيدُ كُلِّ حَادِثٍ، وَمَعَ هَذَا يُمْنَعُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَخْصَّ مَا يَسْتَقْدِرُ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ، وَمَا يَسْتَقْبِحُهُ الشَّرْعُ مِنَ الْحَوَادِثِ، بِأَنْ يَقُولَ عَلَى الْإِنْفِرَادِ: يَا خَالِقَ الْكِلَابِ، وَيَا مُرِيدًا لِلزَّنَا، وَنَحْوَ ذَلِكَ.

بِخِلَافِ مَا لَوْ قَالَ: يَا خَالِقَ كُلِّ شَيْءٍ وَيَا مَنْ كُلِّ شَيْءٍ يَجْرِي بِمَشِيئَتِهِ.

فَكَذَلِكَ هُنَا لَوْ قَالَ: مَا مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيَخْلُو بِهِ رَبُّهُ، وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ حَاجِبٌ وَلَا تُرْجُمَانٌ، أَوْ قَالَ: إِنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ يُحْشَرُونَ إِلَى اللَّهِ؛ فَيَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ كَانَ هَذَا اللَّفْظُ مُخَالِفًا فِي الْإِيهَامِ لِلْفَظِّ الْأَوَّلِ». اهـ.

وَمِمَّنْ رَجَّحَ رُؤْيَا الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ لِلَّهِ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «حَادِي الْأَرْوَاحِ» (ص 262)، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.



«وَمِنَ الْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ: الْإِيمَانُ بِكُلِّ مَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِمَّا يَكُونُ بَعْدَ الْمَوْتِ: فَيُؤْمِنُونَ بِفِتْنَةِ الْقَبْرِ، وَبِعَذَابِ الْقَبْرِ وَنَعِيمِهِ».

لَمَّا فَرَّغَ الْمُصَنِّفُ رَحْمَةُ اللَّهِ مِنْ الْكَلَامِ عَلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْقَدَرِ؛ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ - خَتَمَ بِالْكَلَامِ عَلَى الْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ.

وَذَلِكَ أَنَّ شَيْخَ الْإِسْلَامِ رَحْمَةُ اللَّهِ بَنَى عَقِيدَتَهُ الْمُبَارَكَةَ عَلَى حَدِيثِ جِبْرِيلَ فِي بَابِ الْإِيمَانِ، وَتَوَسَّعَ فِي الْكَلَامِ عَلَى أَسْمَاءِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ؛ لِكَثْرَةِ الْمُنْحَرِفِينَ فِي هَذِهِ الْبَابِ، وَلِعِظَمِ الْبَلِيَّةِ الَّتِي حَصَلَتْ لِلأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ بِسَبَبِهِمْ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ - كَمَا سَبَقَ - هُوَ أَحَدُ أَرْكَانِ الْإِيمَانِ، وَقَدْ سُمِّيَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ؛ لِتَأْخُرِهِ عَنِ الدُّنْيَا، وَقِيلَ: لِأَنَّهُ لَا يَوْمَ بَعْدَهُ، فَهُوَ آخِرُ الْمَرَاكِحِ، وَمُنْتَهَى سَفَرِ الرَّاحِلِ.

وَالْإِيمَانُ بِهَذَا الْيَوْمِ مِمَّا اتَّفَقَتْ عَلَيْهِ جَمِيعُ الشَّرَائِعِ السَّمَاوِيَّةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّبِيَّانَ مِنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: 62]؛ فَقَدْ دَلَّتْ عَلَى الْإِيمَانِ بِهِ جَمِيعُ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ، وَالْعَقْلُ، وَالْفِطْرَةُ، كَمَا أَنَّهُ نَادَى بِهِ جَمِيعُ رُسُلِ اللَّهِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وقد ذَكَرَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحْمَةُ اللَّهِ فِي كَلَامِهِ السَّابِقِ ضَابْطًا شَامِلًا لِمَعْنَى الْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ؛ فَقَدْ قَالَ الْعَلَامَةُ السَّعْدِيُّ رَحْمَةُ اللَّهِ فِي «التَّبَيَّهَاتِ اللَّطِيفَةِ» (ص 69): «وَهَذَا ضَابْطٌ جَامِعٌ يَدْخُلُ فِيهِ الْإِيمَانُ بِالنُّصُوصِ الْوَارِدَةِ فِي حَالَةِ الْإِحْتِضَارِ، وَفِي الْقَبْرِ، وَالْقِيَامَةِ، وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَجَمِيعِ مَا احْتَوَتْ عَلَيْهِ مِنَ التَّفَاصِيلِ الَّتِي صُنِّفَتْ فِيهَا الْمُصَنَّفَاتُ الْمُطَوَّلَةُ وَالْمُخْتَصَرَةُ، وَكُلُّهَا دَاخِلَةٌ فِي

الإيمان باليوم الآخر». اهـ.

«فَالْإِنْسَانُ إِذَا مَاتَ دَخَلَ فِي الْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلِهَذَا يُقَالُ: مَنْ مَاتَ قَامَتْ قِيَامَتُهُ. فَكُلُّ مَا يَكُونُ بَعْدَ الْمَوْتِ فَإِنَّهُ مِنَ الْيَوْمِ الْآخِرِ.

إِذَا؛ مَا أَقْرَبَ الْيَوْمِ الْآخِرَ لَنَا لَيْسَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ إِلَّا أَنْ يَمُوتَ الْإِنْسَانُ، ثُمَّ يَدْخُلُ فِي الْيَوْمِ الْآخِرِ الَّذِي لَيْسَ فِيهِ إِلَّا الْجَزَاءُ عَلَى الْعَمَلِ، وَلِهَذَا يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَتَنَبَّهَ لِهَذِهِ النُّقْطَةِ.

فَكَّرْ - أَيُّهَا الْإِنْسَانُ - تَجِدْ أَنَّكَ عَلَى خَطَرٍ؛ لِأَنَّ الْمَوْتَ لَيْسَ لَهُ أَجَلٌ مَعْلُومٌ عِنْدَنَا؛ قَدْ يَخْرُجُ الْإِنْسَانُ مِنْ بَيْتِهِ وَلَا يَرْجِعُ إِلَيْهِ، وَقَدْ يَكُونُ الْإِنْسَانُ عَلَى كُرْسِيِّ مَكْتَبِهِ وَلَا يَقُومُ مِنْهُ، وَقَدْ يَنَامُ الْإِنْسَانُ عَلَى فِرَاشِهِ، وَلَكِنَّهُ يُحْمَلُ مِنْ فِرَاشِهِ إِلَى سَرِيرِ غُسْلِهِ، وَهَذَا أَمْرٌ يَسْتَوْجِبُ مِنَّا أَنْ نَنْتَهِزَ فُرْصَةَ الْعُمُرِ فِي التَّوْبَةِ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَأَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ دَائِمًا يَسْتَشْعِرُ بِأَنَّهُ تَائِبٌ إِلَى اللَّهِ، وَرَاجِعٌ وَمُنِيبٌ حَتَّى يَأْتِيَهُ الْأَجَلُ وَهُوَ عَلَى خَيْرِ مَا يُرَامُ» (1).



(1) «شرح الواسطية» للعلامة ابن عثيمين (474).

«فَيُؤْمِنُونَ بِفِتْنَةِ الْقَبْرِ، وَبِعَذَابِ الْقَبْرِ وَنَعِيمِهِ؛ فَأَمَّا الْفِتْنَةُ فَإِنَّ النَّاسَ يُفْتَنُونَ فِي قُبُورِهِمْ فَيُقَالُ لِلرَّجُلِ: مَنْ رَبُّكَ؟ وَمَا دِينُكَ؟ وَمَنْ نَبِيُّكَ؟ فَ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾» [إبراهيم: 27]، فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: رَبِّيَ اللَّهُ، وَدِينِي الْإِسْلَامُ، وَمُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَبِيِّي. وَأَمَّا الْمُرْتَابُ فَيَقُولُ: هَاهُ هَاهُ، لَا أَدْرِي، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ! فَيُضْرَبُ بِمِرْزَبَةٍ مِنْ حَدِيدٍ؛ فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا الْإِنْسَانَ، وَلَوْ سَمِعَهَا لَصُعِقَ، ثُمَّ بَعْدَ هَذِهِ الْفِتْنَةِ إِمَّا نَعِيمٌ وَإِمَّا عَذَابٌ».

شَرَعَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي بَيَانِ بَعْضِ مَا يَتَضَمَّنُهُ الْإِيمَانُ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ؛ فَذَكَرَ هُنَا مَسْأَلَتَيْنِ كَبِيرَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ:

الأولى: فِتْنَةُ الْقَبْرِ؛ نَسَأَلُ اللَّهَ الْعَظِيمَ رَبَّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ أَنْ يُثَبِّتَنَا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ.

الثانية: مَا يَكُونُ بَعْدَ تِلْكَ الْفِتْنَةِ مِنْ نَعِيمٍ أَوْ عَذَابٍ؛ نَسَأَلُ اللَّهَ الْكَرِيمَ الرَّحِيمَ نَعِيمَ الْقَبْرِ، وَنَعُودُ بِهِ مِنْ عَذَابِهِ.

أَمَّا الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى: وَهِيَ فِتْنَةُ الْقَبْرِ فَتَتَضَمَّنُ عِدَّةَ مَبَاحِثَ:

الأول: مَعْنَى هَذِهِ الْفِتْنَةِ.

فَقَدْ قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ كَمَا فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى» (4/ 257): «وَأَمَّا الْفِتْنَةُ فِي الْقُبُورِ فَهِيَ الْإِمْتِحَانُ وَالْإِخْتِبَارُ لِلْمَيِّتِ حِينَ يَسْأَلُهُ الْمَلَكَانِ». اهـ.

الثاني: عَظَمَةُ هَذِهِ الْفِتْنَةِ، وَالذَّلِيلُ عَلَيْهَا.

فَقَدْ رَوَى الْبَخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّهُ قَدْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي الْقُبُورِ قَرِيبًا، أَوْ مِثْلَ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ».

وَفِتْنَةُ الدَّجَالِ أَعْظَمُ فِتْنَةٍ مُنْذُ خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ، كَمَا فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» عَنْ هِشَامِ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَا بَيْنَ آدَمَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ أَمْرٌ أَكْبَرُ مِنَ الدَّجَالِ».

وَلَكِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِأَصْحَابِهِ - بَلْ قَالَ لِأُمَّتِهِ -: «غَيْرِ الدَّجَالِ أَخَوْفُنِي عَلَيْكُمْ؛ إِنْ يَخْرُجْ وَأَنَا فِيكُمْ فَأَنَا حَاجِبُهُ دُونَكُمْ، وَإِنْ يَخْرُجْ وَلَسْتُ فِيكُمْ؛ فَأَمْرُوهُ حَاجِبُ نَفْسِهِ، وَاللَّهُ خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ».

«وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ نَبِيَنَا مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْلَمَنَا كَيْفَ نَحَاجُّهُ، وَأَعْلَمَنَا بِأَوْصَافِهِ وَمِيزَاتِهِ؛ حَتَّى كَأَنَّا نُشَاهِدُهُ رَأْيَ عَيْنٍ، وَبِهَذِهِ الْأَوْصَافِ وَالْمِيزَاتِ نَسْتَطِيعُ نَحَاجُّهُ».

وَلِهَذَا نَقُولُ: إِنَّ فِتْنَةَ الدَّجَالِ أَعْظَمُ فِتْنَةٍ، وَالرُّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي الْقُبُورِ قَرِيبًا، أَوْ مِثْلَ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ».

وَمَا أَعْظَمَهَا مِنْ فِتْنَةٍ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ يَتَلَقَّى فِيهَا السُّؤَالَ الَّذِي لَا يُمَكِّنُ الْجَوَابُ عَلَيْهِ إِلَّا عَلَى أَسَاسٍ مَتِينٍ مِنَ الْعَقِيدَةِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ⁽¹⁾.

وَمِنْ ذَلِكَ حَدِيثُ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الَّذِي أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُمَا، وَفِيهِ: «إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ فِي قَبْرِهِ تُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ؛ فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيَجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّي اللَّهُ. فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ:

(1) «شرح الواسطية» للعلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ (ص 475، 476).

دِينِي الْإِسْلَامُ. فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَيَقُولَانِ لَهُ: وَمَا عِلْمُكَ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللَّهِ؛ فَأَمَنْتُ بِهِ، وَصَدَّقْتُ بِهِ...».

إِلَى أَنْ قَالَ فِي الْعَبْدِ الْكَافِرِ: «فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيَجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهُ هَاهُ، لَا أَدْرِي! فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهُ هَاهُ، لَا أَدْرِي! فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هَاهُ هَاهُ، لَا أَدْرِي.».

وَفِي الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِذَا أُقْعِدَ الْمُؤْمِنُ فِي قَبْرِهِ أُتِيَ، ثُمَّ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾».

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ - وَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ - أَتَاهُ مَلَكَانِ فَيُقْعِدَانِهِ، فَيَقُولَانِ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؛ لِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ. فَيَقَالُ لَهُ: انْظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ قَدْ أَبْدَلَكَ اللَّهُ بِهِ مَقْعَدًا مِنَ الْجَنَّةِ، فَيَرَاهُمَا جَمِيعًا» - قَالَ قَتَادَةُ: وَذَكَرَ لَنَا: أَنَّهُ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى حَدِيثِ أَنَسٍ - قَالَ: وَأَمَّا الْمُنَافِقُ وَالْكَافِرُ فَيَقَالُ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي؛ كُنْتُ أَقُولُ مَا يَقُولُ النَّاسُ! فَيَقَالُ: لَا دَرَيْتَ، وَلَا تَلَيْتَ، وَيُضْرَبُ بِمِطَارِقٍ مِنْ حَدِيدٍ ضَرْبَةً؛ فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا مَنْ يَلِيهِ غَيْرَ الثَّقَلَيْنِ». رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ، وَاللَّفْظُ لِلْبُخَارِيِّ.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدْعُو: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ عَذَابِ النَّارِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، وَمِنْ

فِتْنَةُ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ». رواه البخاري ومسلم.

وَعَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «قَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطِيبًا؛ فَذَكَرَ فِتْنَةَ الْقَبْرِ الَّتِي يَفْتَنُ فِيهَا الْمَرْءُ؛ فَلَمَّا ذَكَرَ ذَلِكَ ضَجَّ الْمُسْلِمُونَ ضَجَّةً». رواه البخاري.

وَعَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّهُ قَدْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي الْقُبُورِ قَرِيبًا، أَوْ مِثْلَ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَعَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ تُبْتَلَى فِي قُبُورِهَا». رواه مسلم.

وغير ذلك من الأحاديث التي بلغت مبلغ التواتر.

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ، كَمَا فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى» (4/ 257): «وَقَدْ تَوَاتَرَتِ الْأَحَادِيثُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي هَذِهِ الْفِتْنَةِ مِنْ حَدِيثِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ، وَأَنْسِ بْنِ مَالِكٍ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ، وَغَيْرِهِمْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ». اهـ.

المبحث الثالث:

هَلْ تُعَادُ رُوحُ الْمَيِّتِ إِلَيْهِ فِي قَبْرِهِ وَقْتَ السُّؤَالِ أَمْ لَا؟

قَالَ الْعَلَامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِ «الرُّوحِ» (ص 131 - 134): «فَقَدْ كَفَانَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمْرَ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ، وَأَغْنَانَا عَنْ أَقْوَالِ النَّاسِ حَيْثُ صَرَّحَ بِإِعَادَةِ الرُّوحِ إِلَيْهِ؛ فَقَالَ الْبَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كُنَّا فِي جَنَازَةٍ فِي بَقِيعِ الْعَرْقَدِ، فَأَتَانَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَعَدَ وَقَعَدْنَا حَوْلَهُ، كَأَنَّا عَلَى رُءُوسِ الطَّيْرِ، وَهُوَ يُلْحَدُّ لَهُ، فَقَالَ: «أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ»؛ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ

العَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي إِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ وَانْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا نَزَلَتْ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ كَانَتْ وُجُوهُهُمْ الشَّمْسُ، فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَحْيِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ، أَخْرِجِي إِلَى مَغْفَرَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ، قَالَ: فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السَّقَاءِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدْعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذَهَا، فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ وَذَلِكَ الْحَنُوطِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطِيبٍ نَفْحَةٍ مِسْكٍ وَجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، قَالَ: فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا - يَعْنِي: عَلَى مَلَأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ - إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟ فَيَقُولُونَ: فَلَانِ ابْنِ فَلَانٍ، بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يَنْتَهَوْا بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ؛ فَيَفْتَحُ لَهُ، فَيُشَيِّعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا، حَتَّى يَنْتَهِيَ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي فِيهَا اللَّهُ تَعَالَى، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ، وَأَعِيدُوهُ إِلَى الْأَرْضِ؛ فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أَعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أَخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى. قَالَ: فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّي اللَّهُ. فَيَقُولُونَ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِي الْإِسْلَامُ. فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَيَقُولَانِ لَهُ: وَمَا عَلِمُكَ بِهَذَا؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللَّهِ؛ فَأَمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ. فَيُنَادِي مُنَادٌ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ صَدَقَ عَبْدِي. فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا مِنَ الْجَنَّةِ. قَالَ: فَيَأْتِيهِ مِنْ رِيحِهَا وَطِيبِهَا، وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ. قَالَ: وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ، حَسَنُ الثِّيَابِ، طَيِّبُ الرَّيْحِ؛ فَيَقُولُ: أَبَشِّرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ؛ هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعِدُ. فَيَقُولُ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ الَّذِي يَحْيِيءُ بِالْخَيْرِ! فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحِ. فَيَقُولُ: رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي وَمَالِي.

قَالَ: وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالَ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ سُودُ الْوُجُوهِ مَعَهُمُ الْمُسُوحُ؛ فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ اخْرُجِي إِلَى سَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَعَظَبٍ، قَالَ: فَتَتَفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ، فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُودُ مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدْعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ الْمُسُوحِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنَّ رِيحَ جِيْفَةٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلَأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرِّيحُ الْخَبِيثُ؟ فَيَقُولُونَ: فَلَانِ ابْنِ فَلَانٍ، بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمِّي بِهَا فِي الدُّنْيَا حَتَّى يَنْتَهِيَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا؛ فَيُسْتَفْتَحُ لَهُ فَلَا يُفْتَحُ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿لَا تُفْنَحْ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: 40]؛ فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سَجِّينَ فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى. فَتُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحًا، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنْ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: 31]، فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهُ هَاهُ، لَا أَدْرِي! فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هَاهُ هَاهُ، لَا أَدْرِي! فَيُنَادِي مُنَادٌ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ كَذَبَ عَبْدِي؛ فَأَفْرِشُوهُ مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ؛ فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسَمُومِهَا، وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلَاعُهُ، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ، قَبِيحُ الثِّيَابِ، مُتَنِّ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُوؤُكَ! هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعِدُ. فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ الَّذِي يَجِيءُ بِالْشَّرِّ. فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ. فَيَقُولُ: رَبِّ لَا تُقِمِ السَّاعَةَ. رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ.

وروى النسائي وابن ماجه أوله، ورواه أبو عوانة الإسفرائيني في صحيحه.
 وذهب إلى القول بموجب هذا الحديث جميع أهل السنة والحديث من
 سائر الطوائف. اهـ.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «الأحاديث الصحيحة المتواترة تدلُّ
 على عود الروح إلى البدن وقت السؤال، وسؤال البدن بلا روح - قول قالته
 طائفة من الناس، وأنكره الجمهور، وقابلهم آخرون، فقالوا: السؤال للروح بلا
 بدن، وهذا قاله ابن مرة وابن حزم، وكلاهما غلط، والأحاديث الصحيحة تردُّه،
 ولو كان ذلك على الروح فقط لم يكن للقبر بالروح اختصاص». اهـ. «الروح»
 لابن القيم (ص 151).

وقد أنكر الإمام ابن حزم أن الميت يحيا في قبره قبل يوم القيامة، وذكر
 حجه على ذلك، كما أورد ذلك ابن القيم في «الروح» (ص 134 - 151)،
 وأجاب عليه بما يكفي ويشفي، ولولا خشية الإطالة لنقلت ذلك، ولكن من
 أسندك فقد أحالك، ومن أحيل على مليء فليحتل.

المبحث الرابع:

هل سؤال الميت في قبره خاص بهذه الأمة أو يكون لها ولغيرها؟

قال العلامة ابن القيم في كتابه «الروح» (ص 234 - 236): «هذا موضع
 تكلم فيه الناس، فقال أبو عبد الله الترمذي: إنما سؤال الميت في هذه الأمة
 خاصة؛ لأن الأمم قبلنا كانت الرسل تأتيهم بالرسالة، فإذا أبوا كفت الرسل،
 واعتزلوهم، وعوجلوا بالعذاب، فلما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم بالرحمة
 إماماً للخلق، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾

[الأنبياء: 107]- أَمْسَكَ عَنْهُمْ الْعَذَابَ، وَأَعْطِيَ السَّيْفَ حَتَّى يَدْخُلَ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ مَنْ دَخَلَ لِمَهَابَةِ السَّيْفِ، ثُمَّ يَرَسُخُ الْإِيمَانُ فِي قَلْبِهِ؛ فَأُمْهَلُوا؛ فَمَنْ هَا هُنَا ظَهَرَ أَمْرُ النِّفَاقِ، وَكَانُوا يُسِرُّونَ الْكُفْرَ، وَيُعْلِنُونَ الْإِيمَانَ، فَكَانُوا بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ فِي سِتْرٍ، فَلَمَّا مَاتُوا قَيَّضَ اللَّهُ لَهُمْ فَتَانِي الْقَبْرِ؛ لِيَسْتَخْرِجَا سِرَّهُمْ بِالسُّؤَالِ، وَلِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: 27].

وَخَالَفَ فِي ذَلِكَ آخَرُونَ؛ مِنْهُمْ عَبْدُ الْحَقِّ الْإِسْبِيلِيُّ وَالْقُرْطُبِيُّ، وَقَالُوا: السُّؤَالُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ وَلِغَيْرِهَا.

وَتَوَقَّفَ فِي ذَلِكَ آخَرُونَ؛ مِنْهُمْ أَبُو عَمْرِو بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ؛ فَقَالَ: وَفِي حَدِيثِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ تُبْتَلَى فِي قُبُورِهَا»، وَمِنْهُمْ مَنْ يَرَوِيهِ: «تُسَالُ»، وَعَلَى هَذَا اللَّفْظِ يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْأُمَّةُ خُصَّتْ بِذَلِكَ، فَهَذَا أَمْرٌ لَا يَقْطَعُ عَلَيْهِ.

وَقَدْ احْتَجَّ مَنْ خَصَّ بِهِ هَذِهِ الْأُمَّةَ بِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ تُبْتَلَى فِي قُبُورِهَا»، وَبِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي قُبُورِكُمْ».

وَهَذَا ظَاهِرٌ فِي الْإِخْتِصَاصِ بِهِ هَذِهِ الْأُمَّةَ، قَالُوا: وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُ الْمَلَكَائِينَ لَهُ: «مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ»، فَهَذَا خَاصٌّ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَوْلُهُ فِي الْحَدِيثِ الْآخِرِ: «إِنَّكُمْ بِي تُمْتَحَنُونَ، وَعَنِّي تُسَالُونَ».

وَقَالَ آخَرُونَ: لَا يَدُلُّ هَذَا عَلَى إِخْتِصَاصِ السُّؤَالِ بِهِ هَذِهِ الْأُمَّةَ دُونَ سَائِرِ الْأُمَمِ، فَإِنْ قَوْلُهُ: «إِنَّ الْأُمَّةَ»، إِمَّا أَنْ يُرَادَ بِهِ: أُمَّةُ النَّاسِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا مِنْ

دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَيْرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ ﴿٣٨﴾ [الأنعام: 38]، وكلُّ جنسٍ من أجناس الحيوان يُسمَّى أُمَّةً، وفي الحديث: «لَوْ لَا أَنَّ الْكَلَابَ أُمَّةٌ مِنَ الْأُمَمِ لَأَمْرُتُ بِقَتْلِهَا»، وفيه - أيضًا - حديث النَّبِيِّ الَّذِي قَرَصَتْهُ نَمْلَةٌ، فَأَمَرَ بِقَرِيَةِ النَّمْلِ فَأُحْرِقَتْ؛ «فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ مِنْ أَجْلِ أَنْ قَرَصَتْكَ نَمْلَةٌ وَاحِدَةً أُحْرِقَتْ أُمَّةٌ مِنَ الْأُمَمِ تُسَبِّحُ اللَّهَ»، وَإِنْ كَانَ الْمُرَادُ بِهِ أُمَّتُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي بُعِثَ فِيهِمْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَا يَنْفِي سُؤَالَ غَيْرِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ.

وكذلك قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَوْحَى إِلَيَّ أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي قُبُورِكُمْ». «وَكَذَلِكَ إِخْبَارُهُ عَنْ قَوْلِ الْمَلَائِكَةِ: «مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟» - هُوَ إِخْبَارٌ لِأُمَّتِهِ بِمَا تُمْتَحَنُ بِهِ فِي قُبُورِهَا.

وَالظَّاهِرُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنَّ كُلَّ نَبِيٍّ مَعَ أُمَّتِهِ كَذَلِكَ، وَأَنَّهُمْ مُعَذَّبُونَ فِي قُبُورِهِمْ بَعْدَ السُّؤَالِ لَهُمْ، وَإِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ، كَمَا يُعَذَّبُونَ فِي الْآخِرَةِ بَعْدَ السُّؤَالِ وَإِقَامَةِ الْحُجَّةِ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ». اهـ.

قُلْتُ: أَمَّا سُؤَالُ هَذِهِ الْأُمَّةِ فِي قُبُورِهَا فَلَا أَحَادِيثَ مُتَوَاتِرَةً بِذَلِكَ، وَأَمَّا غَيْرُهَا مِنْ الْأُمَمِ فَلَا أَعْلَمُ دَلِيلًا عَلَى ذَلِكَ، وَقِيَاسُ السُّؤَالِ فِي الْقَبْرِ عَلَى السُّؤَالِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَكْلُفٌ ظَاهِرٌ؛ فَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ فَضْلٌ عِلْمٍ؛ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَيْنَا، وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ.

المبحث الخامس:

هل السؤال في القبر عامٌّ في حقِّ المسلمين والمنافقين والكفار، أو يختصُّ بالمسلم والمنافق؟

أورد العلامة ابن القيم رحمه الله هذا السؤال في كتابه «الروح» (ص 228 -

233) ثُمَّ قَالَ: «قَالَ أَبُو عَمْرٍو بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ فِي كِتَابِ «التَّمْهِيدِ»: وَالْآثَارُ الدَّالَّةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْفِتْنَةَ فِي الْقَبْرِ لَا تَكُونُ إِلَّا لِمُؤْمِنٍ أَوْ مُنَافِقٍ كَانَ مَنْسُوبًا إِلَى أَهْلِ الْقِبْلَةِ وَدِينِ الْإِسْلَامِ بِظَاهِرِ الشَّهَادَةِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ الْجَاهِدُ الْمُبْطِلُ فَلَيْسَ مِمَّنْ يُسْأَلُ عَنْ رَبِّهِ وَدِينِهِ وَنَبِيِّهِ، وَإِنَّمَا يُسْأَلُ عَنْ هَذَا أَهْلُ الْإِسْلَامِ؛ فَيُثَبَّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا، وَيُرْتَابُ الْمُبْطِلُونَ.

وَالْقُرْآنُ وَالسُّنَّةُ تَدُلُّ عَلَى خِلَافِ هَذَا الْقَوْلِ، وَأَنَّ السُّؤَالَ لِلْكَافِرِ وَالْمُسْلِمِ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يُثَبَّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: 27]، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي عَذَابِ الْقَبْرِ حِينَ يُسْأَلُ مَنْ رَبُّكَ؟ وَمَا دِينُكَ؟ وَمَنْ نَبِيُّكَ؟

وَفِي الصَّحِيحِينَ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ، وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ؛ إِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ...»، وَذَكَرَ الْحَدِيثَ.

زَادَ الْبُخَارِيُّ: «وَأَمَّا الْمُنَافِقُ وَالْكَافِرُ فَيُقَالُ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي؛ كُنْتُ أَقُولُ مَا يَقُولُ النَّاسُ! فَيُقَالُ: لَا دَرَيْتَ وَلَا تَكُنْتَ. وَيُضْرَبُ بِمِطْرَقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ يَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا مَنْ يَلِيهِ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ»، هَكَذَا فِي الْبُخَارِيِّ: «وَأَمَّا الْمُنَافِقُ وَالْكَافِرُ»، بِالْوَاوِ.

وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الَّذِي رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهٍ وَالْإِمَامُ أَحْمَدُ: «كُنَّا فِي جَنَازَةِ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةُ تُبْتَلَى فِي قُبُورِهَا، فَإِذَا الْإِنْسَانُ دُفِنَ وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ - جَاءَ مَلَكٌ وَفِي يَدِهِ مِطْرَاقٌ؛ فَأَقْعَدَهُ، فَقَالَ: مَا تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ - فَإِنْ كَانَ مُؤْمِنًا - قَالَ: أَشْهَدُ

أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. فَيَقُولُ لَهُ: صَدَقْتَ. فَيُفْتَحُ لَهُ بَابٌ إِلَى النَّارِ، فَيَقُولُ: هَذَا مَنْزِلُكَ لَوْ كَفَرْتَ بِرَبِّكَ. وَأَمَّا الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُ فَيَقُولُ لَهُ: مَا تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي! فَيَقَالُ: لَا دَرَيْتَ، وَلَا اهْتَدَيْتَ. ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ إِلَى الْجَنَّةِ، فَيَقُولُ لَهُ: هَذَا مَنْزِلُكَ لَوْ آمَنْتَ بِرَبِّكَ، فَأَمَّا إِذْ كَفَرْتَ فَإِنَّ اللَّهَ أَبَدَكَ بِهِ هَذَا، ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ إِلَى النَّارِ، ثُمَّ يَقَمَعُهُ الْمَلَكُ بِالْمِطْرَاقِ قَمْعَةً يَسْمَعُهُ خَلْقُ اللَّهِ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ، فَقَالَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَحَدٌ يَقُومُ عَلَى رَأْسِهِ مَلَكٌ إِلَّا هِيلَ (1) عِنْدَ ذَلِكَ! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: 27].

وَفِي حَدِيثِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الطَّوِيلُ: «وَأَمَّا الْكَافِرُ إِذَا كَانَ فِي قَبْلِ مِنَ الْآخِرَةِ، وَانْقَطَاعِ مِنَ الدُّنْيَا - نَزَلَ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ مِنَ السَّمَاءِ مَعَهُمْ مُسَوِّحُونَ...»، وَذَكَرَ الْحَدِيثَ إِلَى أَنْ قَالَ: «ثُمَّ تُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ فِي قَبْرِهِ...»، وَذَكَرَ الْحَدِيثَ، وَفِي لَفْظٍ: «فَإِذَا كَانَ كَافِرًا جَاءَهُ مَلَكُ الْمَوْتِ فَجَلَسَ عِنْدَ رَأْسِهِ...»، فَذَكَرَ الْحَدِيثَ إِلَى قَوْلِهِ: «مَا هَذِهِ الرُّوحُ الْخَبِيثَةُ؟ فَيَقُولُونَ: فَلَانٌ؛ بِأَسْوَأِ أَسْمَائِهِ، فَإِذَا انْتَهَى بِهِ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا أُغْلِقَتْ دُونُهُ، قَالَ: يُرْمَى بِهِ مِنَ السَّمَاءِ، ثُمَّ قَرَأَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: 31]، قَالَ: فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ شَدِيدَا الْإِنْتِهَارِ، فَيُجْلِسَانِهِ وَيَتَتَهَرَانِهِ، فَيَقُولَانِ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهُ، لَا أَدْرِي! فَيَقُولَانِ: لَا دَرَيْتَ. فَيَقُولَانِ: مَا هَذَا النَّبِيُّ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: سَمِعْتُ

النَّاسَ يَقُولُونَ ذَلِكَ؛ لَا أُدْرِى! فَيَقُولَانِ لَهُ: لَا دَرَيْتَ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: 27]...، وذكر الحديث.

وَاسْمُ الْفَاجِرِ فِي عُرْفِ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ يَتَنَاوَلُ الْكَافِرَ قَطْعًا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿[الانفطار: 13 - 14]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ [المطففين: 7]، وَفِي لَفْظٍ آخَرَ فِي حَدِيثِ الْبَرَاءِ: «وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي قَبْلِ مِنَ الْآخِرَةِ، وَانْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةُ شِدَادٍ غَضَابٍ مَعَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ، وَسَرَابِيلٌ مِنْ قَطْرَانٍ، فَيَحْتَوِشُونَهُ، فَتُنَزَعُ رُوحُهُ كَمَا يُنَزَعُ السَّقُودُ الْكَثِيرُ الشَّعْبُ مِنَ الصُّوفِ الْمُبْتَلِ، فَإِذَا أُخْرِجَتْ لَعَنَهُ كُلُّ مَلَكٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَكُلُّ مَلَكٍ فِي السَّمَاءِ...»، وَذَكَرَ الْحَدِيثَ إِلَى أَنْ قَالَ: «إِنَّهُ لَيَسْمَعُ خَفَقَ نَعَالِهِمْ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ، فَيُقَالُ: يَا هَذَا، مَنْ رَبُّكَ؟ وَمَا دِينُكَ؟ وَمَنْ نَبِيُّكَ؟ فَيَقُولُ: لَا أُدْرِى! فَيُقَالُ: لَا دَرَيْتَ...»، وَذَكَرَ الْحَدِيثَ. رَوَاهُ حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ، عَنْ يُونُسَ بْنِ حَبَّابٍ، عَنِ الْمِنْهَالِ بْنِ عَمْرٍو، عَنْ زَادَانَ، عَنِ الْبَرَاءِ.

وَفِي حَدِيثِ عَيْسَى بْنِ الْمُسَيَّبِ، عَنْ عَدِيِّ بْنِ ثَابِتٍ، عَنِ الْبَرَاءِ: «خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي جَنَازَةِ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ...، وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي دُبُرٍ مِنَ الدُّنْيَا وَقَبْلٍ مِنَ الْآخِرَةِ، وَحَضَرَهُ الْمَوْتُ نَزَلَتْ عَلَيْهِ مَلَائِكَةُ مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ نَارٍ وَحَنُوطٌ مِنْ نَارٍ...، فَتَرُدُّ رُوحَهُ إِلَى مَضْجَعِهِ؛ فَيَأْتِيهِ مُنْكَرٌ وَنَكِيرٌ يُشِيرَانِ الْأَرْضَ بِأَنْيَابِهِمَا، وَيَفْخَصَانِ الْأَرْضَ بِأَشْعَارِهِمَا؛ أَصَوَاتُهُمَا كَالرَّعْدِ الْقَاصِفِ، وَأَبْصَارُهُمَا كَالْبَرْقِ الْخَاطِفِ، فَيُجْلِسَانِهِ، ثُمَّ يَقُولَانِ: يَا هَذَا، مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: لَا أُدْرِى! فَيُنَادِي مِنْ جَانِبِ الْقَبْرِ: لَا دَرَيْتَ، فَيَضْرِبَانِهِ بِمِرْزَبَةٍ مِنْ حَدِيدٍ لَوْ اجْتَمَعَ عَلَيْهَا مِنْ بَيْنِ الْخَافِقِينَ لَمْ تُثْقَلْ، وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ أَضْلَاعُهُ...»،

الْحَدِيثِ.

وَرَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ عَنْ أَبِي النَّضْرِ؛ هَاشِمِ بْنِ الْقَاسِمِ، حَدَّثَنَا عِيسَى بْنُ الْمُسَيْبِ؛ فَذَكَرَهُ.

وَفِي حَدِيثِ مُحَمَّدَ بْنِ سَلَمَةَ، عَنْ خَصِيفٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ، عَنْ الْبَرَاءِ، قَالَ: «كُنَّا فِي جَنَازَةِ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ وَمَعَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ...»، فَذَكَرَ الْحَدِيثَ إِلَى أَنْ قَالَ: «وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَإِذَا وُضِعَ الْكَافِرُ أَتَاهُ مُنْكَرٌ وَنَكِيرٌ فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي! فَيَقُولَانِ لَهُ: لَا دَرَيْتَ...»، الْحَدِيثِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ.

وَبِالْجُمْلَةِ: فَعَامَّةً مَنِ رَوَى حَدِيثَ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ، قَالَ فِيهِ: «وَأَمَّا الْكَافِرُ» بِالْجَزْمِ، وَبَعْضُهُمْ قَالَ: «وَأَمَّا الْفَاجِرُ»، وَبَعْضُهُمْ قَالَ: «وَأَمَّا الْمُنَافِقُ وَالْمُرْتَابُ»، وَهَذِهِ اللَّفْظَةُ مِنْ شَكِّ بَعْضِ الرُّوَاةِ، هَكَذَا فِي الْحَدِيثِ: «لَا أَدْرِي أَيُّ ذَلِكَ قَالَ؟».

وَأَمَّا مَنْ ذَكَرَ الْكَافِرَ وَالْفَاجِرَ فَلَمْ يَشْكْ، وَرِوَايَةٌ مَنْ لَمْ يَشْكْ مَعَ كَثَرَتِهِمْ أَوَّلَى مِنْ رِوَايَةٍ مَنْ شَكَّ مَعَ انْفِرَادِهِ، عَلَى أَنَّهُ لَا تَنَاقُضَ بَيْنَ الرِّوَايَتَيْنِ؛ فَإِنَّ الْمُنَافِقَ يُسْأَلُ كَمَا يُسْأَلُ الْكَافِرُ وَالْمُؤْمِنُ؛ فَيُثَبِّتُ اللَّهُ أَهْلَ الْإِيمَانِ، وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ؛ وَهُمْ الْكَفَّارُ وَالْمُنَافِقُونَ.

وَقَدْ جَمَعَ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ فِي حَدِيثِهِ الَّذِي رَوَاهُ أَبُو عَامِرٍ الْعَقَدِيُّ: حَدَّثَنَا عِبَادُ بْنُ رَاشِدٍ، عَنْ دَاوُدَ بْنِ أَبِي هِنْدٍ، عَنْ أَبِي نَضْرَةَ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، قَالَ: «شَهِدْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَنَازَةً؛ فَذَكَرَ الْحَدِيثَ، وَقَالَ: «وَإِنْ كَانَ كَافِرًا - أَوْ مُنَافِقًا - يُقَالُ لَهُ: مَا تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي!». وَهَذَا صَرِيحٌ فِي أَنَّ السُّؤَالَ لِلْكَافِرِ وَالْمُنَافِقِ.

وَقَوْلُ أَبِي عُمَرَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَأَمَّا الْكَافِرُ الْجَاهِدُ الْمُبْطِلُ فَلَيْسَ مِمَّنْ يُسْأَلُ عَنْ رَبِّهِ وَدِينِهِ»!

فَيَقَالُ لَهُ: لَيْسَ كَذَلِكَ، بَلْ هُوَ مِنْ جُمْلَةِ الْمَسْئُولِينَ، وَأَوَّلَى بالسُّؤَالِ مِنْ غَيْرِهِ، وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ أَنَّهُ يَسْأَلُ الْكَافِرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: 65]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: 92-93]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: 6]؛ فَإِذَا سُئِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَكَيْفَ لَا يُسْأَلُونَ فِي قُبُورِهِمْ؟ فَلَيْسَ لِمَا ذَكَرَهُ أَبُو عُمَرَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَجْهٌ. اهـ.

قُلْتُ: الْحُجَّةُ فِي سُؤَالِ الْكَافِرِ مَا سَبَقَ مِنَ الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ الصَّرِيحَةِ، وَأَمَّا قِيَاسُ سُؤَالِهِ فِي الْقَبْرِ عَلَى سُؤَالِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَحَلُّ نَظَرٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

المبحث السادس:

هل يُسْتَنْبَى مِنْ فِتْنَةِ الْقَبْرِ أَحَدٌ؟

ذَكَرَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ أَنَّ الشُّهَدَاءَ، وَالْمُرَابِطِينَ، وَالْأَنْبِيَاءَ، وَالصَّادِقِينَ، وَمَنْ مَاتَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ أَوْ لَيْلَتِهَا، وَالْأَطْفَالَ، وَالْمَجَانِينَ - لَا يُفْتَنُونَ فِي قُبُورِهِمْ.

قُلْتُ: أَمَّا الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ الشَّهِيدَ لَا يُفْتَنُ فِي قَبْرِهِ: فَمَا رَوَاهُ النَّسَائِيُّ فِي سُنَنِهِ (289/1) عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا بَالُ الْمُؤْمِنِينَ يُفْتَنُونَ فِي قُبُورِهِمْ إِلَّا الشَّهِيدُ؟ قَالَ: «كَفَى بِبَارِقَةِ السُّيُوفِ عَلَى رَأْسِهِ فِتْنَةً»، حَدِيثٌ صَحِيحٌ؛ صَحَّحَهُ الْعَلَامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «أَحْكَامِ الْجَنَائِزِ» (ص 36).

قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ فِي كِتَابِ «الرُّوح» (ص 222): «قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كَفَى بِبَارِقَةِ السُّيُوفِ عَلَى رَأْسِهِ فِتْنَةً»، مَعْنَاهُ - وَاللهُ أَعْلَمُ - : قَدْ امْتَحَنَ نَفَاقُهُ مِنْ إِيمَانِهِ بِبَارِقَةِ السَّيْفِ عَلَى رَأْسِهِ فَلَمْ يَفِرَّ، فَلَوْ كَانَ مُنَافِقًا لَمَا صَبَرَ بِبَارِقَةِ السَّيْفِ عَلَى رَأْسِهِ؛ فَدَلَّ عَلَى أَنَّ إِيمَانَهُ هُوَ الَّذِي حَمَلَهُ عَلَى بَذْلِ نَفْسِهِ لِلَّهِ وَتَسْلِيمِهَا لَهُ، وَهَاجَ مِنْ قَلْبِهِ حَمِيَّةُ الْغَضَبِ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ، وَإِظْهَارِ دِينِهِ، وَإِعْزَازِ كَلِمَتِهِ؛ فَهَذَا قَدْ أَظْهَرَ صِدْقَ مَا فِي ضَمِيرِهِ حَيْثُ بَرَزَ لِلْقَتْلِ؛ فَاسْتَغْنَى بِذَلِكَ عَنِ الْإِمْتِحَانِ فِي قَبْرِهِ». اهـ. وانظر «التذكرة» للقرطبي (ص 132).

وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ الْمُرَابِطَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يُفْتَنُ فِي قَبْرِهِ: مَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَغَيْرُهُ مِنْ حَدِيثِ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ، وَإِنْ مَاتَ جَرَى عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ، وَأُجْرِيَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ، وَأَمِنَ الْفِتَانُ».

وَمَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالحَاكِمُ وَأَحْمَدُ عَنْ فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كُلُّ مَيِّتٍ يُخْتَمُ عَلَى عَمَلِهِ إِلَّا الَّذِي مَاتَ مُرَابِطًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ يَنْمُو عَمَلُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَيَأْمَنُ فِتْنَةَ الْقَبْرِ»، حَدِيثٌ صَحِيحٌ؛ صَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ أَبِي دَاوُدَ» وَ«صَحِيحِ التِّرْمِذِيِّ».

وَأَمَّا الْأَنْبِيَاءُ؛ فَقَدْ اخْتَلَفَ هَلْ يُسْأَلُونَ فِي قُبُورِهِمْ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ.

وَالرَّاجِحُ: أَنَّهُمْ لَا يُسْأَلُونَ، وَلَقَدْ أَحْسَنَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ عُثَيْمِينَ رَحِمَهُ اللهُ فِي «شرح الواسطية» (ص 476)، حَيْثُ قَالَ: «أَمَّا الْأَنْبِيَاءُ فَلَا تَشْمَلُهُمُ الْفِتْنَةُ، وَلَا يُسْأَلُونَ، وَذَلِكَ لَوْجِهَيْنِ:

الْأَوَّلُ: أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ أَفْضَلُ مِنَ الشُّهَدَاءِ، وَقَدْ أَخْبَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ الشَّهِيدَ يُوقَى فِتْنَةَ الْقَبْرِ، وَقَالَ: «كَفَى بِبَارِقَةِ السُّيُوفِ عَلَى رَأْسِهِ فِتْنَةً»، أَخْرَجَهُ

النسائي.

الثاني: أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ يُسْأَلُ عَنْهُمْ؛ فَيَقَالُ لِلْمَيِّتِ: «مَنْ نَبِيُّكَ؟»؛ فَهُمْ مَسْئُولُونَ عَنْهُمْ، وَلَيْسُوا مَسْئُولِينَ، وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي قُبُورِكُمْ».

والخطابُ لِلأمةِ الْمُرْسَلِ إليهم، فَلَا يَكُونُ الرَّسُولُ دَاخِلًا فِيهِمْ. اهـ.

وَأَمَّا الصَّدِيقُونَ؛ فَقَدْ قَالَ الْقُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «التذكرة» (ص 132): «إِذَا كَانَ الشَّهِيدُ لَا يُفْتَنُ، فَالصَّدِيقُ أَجَلُ خَطَرًا، وَأَعْظَمُ أَجْرًا أَنْ لَا يُفْتَنَ؛ لِأَنَّهُ مُقَدَّمُ ذِكْرِهِ فِي التَّنْزِيلِ عَلَى الشُّهَدَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ [النساء: 69]، وَقَدْ صَحَّ فِي الْمُرَابِطِ الَّذِي هُوَ دُونَ الشَّهِيدِ: أَنَّهُ لَا يُفْتَنُ، فَكَيْفَ بِمَنْ هُوَ أَعْلَى رُتْبَةً مِنْهُ وَمِنْ الشَّهِيدِ؟ وَاللَّهُ أَعْلَمُ؛ فَتَأَمَّلْهُ. اهـ.

وَقَالَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ عُثَيْمِينَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «شرح الواسطية» (ص 476-477): «وَأَمَّا الصَّدِيقُونَ فَلَا يُسْأَلُونَ؛ لِأَنَّ مَرْتَبَةَ الصَّدِيقِ أَعْلَى مِنْ مَرْتَبَةِ الشُّهَدَاءِ، فَإِذَا كَانَ الشُّهَدَاءُ لَا يُسْأَلُونَ، فَالصَّدِيقُونَ مِنْ بَابِ أَوْلَى، وَلِأَنَّ الصَّدِيقَ عَلَى وَصْفِهِ مُصَدِّقٌ وَصَادِقٌ، فَهُوَ قَدْ عَلِمَ صِدْقَهُ، فَلَا حَاجَةَ إِلَيْهِ اخْتِبَارِهِ؛ لِأَنَّ اخْتِبَارَ لِمَنْ يُشَكُّ فِيهِ هَلْ هُوَ صَادِقٌ أَوْ كَاذِبٌ؟ وَأَمَّا إِذَا كَانَ صَادِقًا فَلَا حَاجَةَ تَدْعُو لِسُؤَالِهِ، وَذَهَبَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ إِلَيْ أَنَّهُمْ يُسْأَلُونَ لِعُمُومِ الْأَدْلَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. اهـ.

قلت: وَمِمَّنْ ذَهَبَ إِلَيْ أَنَّهُمْ يُسْأَلُونَ - الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيْمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الروح» (ص 223)، وَقَدْ اسْتَدَلَّ بِحَدِيثٍ ضَعِيفٍ، ثُمَّ ذَكَرَ كَلَامًا وَجِهَا إِلَّا أَنَّ نَفْسِي إِلَيْ مَا سَبَقَ أَمِيلُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَأَمَّا مَنْ مَاتَ فِي يَوْمِ جُمُعَةٍ أَوْ فِي لَيْلَتِهَا فَدَلِيلُهُ: مَا رَوَاهُ أَحْمَدُ وَغَيْرُهُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَمُوتُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ أَوْ لَيْلَةِ الْجُمُعَةِ إِلَّا وَقَاهُ اللَّهُ فِتْنَةَ الْقَبْرِ». قَالَ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «أَحْكَامِ الْجَنَائِزِ» (ص 35): «الْحَدِيثُ بِمَجْمُوعِ طُرُقِهِ حَسَنٌ أَوْ صَحِيحٌ».

وَأَمَّا الطِّفْلُ؛ فَقَدْ قَالَ الْحَافِظُ فِي «الْفَتْحِ» (3/ 282): «جَزَمَ الْقُرْطُبِيُّ فِي «التَّذَكُّرَةِ» بِأَنَّهُ يُسْأَلُ، وَهُوَ مَنْقُولٌ عَنِ الْحَنْفِيَّةِ، وَجَزَمَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الشَّافِعِيَّةِ بِأَنَّهُ لَا يُسْأَلُ». اهـ. واختاره ابنُ القيمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الرُّوحِ» (ص 237 - 239)، وَالَّذِي عَلَيْهِ أَكْثَرُ أَهْلِ السُّنَّةِ أَنَّهُ يُسْأَلُ، وَقَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْخِلَافِ فِي الْمَجْنُونِ.

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ رَحِمَهُ اللَّهُ كَمَا فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى» (4/ 277 - 278): «وَإِذَا مَاتَ الطِّفْلُ فَهَلْ يُمْتَحَنُ فِي قَبْرِهِ، وَيَسْأَلُهُ مُنْكَرٌ وَنَكِيرٌ؟ فِيهِ قَوْلَانِ فِي مَذْهَبِ أَحْمَدَ وَغَيْرِهِ.

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ لَا يُمْتَحَنُ، وَأَنَّ الْمِحْنَةَ إِنَّمَا تَكُونُ عَلَى مَنْ كُفِّ فِي الدُّنْيَا. قَالَهُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ الْقَاضِي أَبُو يَعْلَى، وَابْنُ عَقِيلٍ. وَالثَّانِي: أَنَّهُمْ يُمْتَحَنُونَ. ذَكَرَهُ أَبُو حَكِيمٍ الْهَمْدَانِيُّ، وَأَبُو الْحَسَنِ بْنُ عَبْدِ دَوْسٍ، وَنَقَلَهُ عَنْ أَصْحَابِ الشَّافِعِيِّ».

إِلَى أَنْ قَالَ: «وَهَذَا الْقَوْلُ مُوَافِقٌ لِقَوْلِ مَنْ قَالَ: إِنَّهُمْ يُمْتَحَنُونَ فِي الْآخِرَةِ، وَإِنَّهُمْ مُكَلَّفُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كَمَا هُوَ قَوْلُ أَكْثَرِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَأَهْلِ السُّنَّةِ مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ وَالْكَلَامِ، وَهُوَ الَّذِي ذَكَرَهُ أَبُو الْحَسَنِ الْأَشْعَرِيُّ عَنْ أَهْلِ السُّنَّةِ وَاخْتَارَهُ، وَهُوَ مُقْتَضَى نُصُوصِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ». اهـ.

وَقَالَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ عُثَيْمِينَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «شَرْحِ الْوَاسِطِيَّةِ» (ص 477 - 478):

«خامسًا: الصَّغَارُ وَالْمَجَانِينُ؛ هَلْ يُفْتَنُونَ أَوْ لَا يُفْتَنُونَ؟

قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: إِنَّهُمْ يُفْتَنُونَ لِدُخُولِهِمْ فِي الْعُمُومِ، وَلِأَنَّهُمْ إِذَا سَقَطَ التَّكْلِيفُ عَنْهُمْ فِي حَالِ الْحَيَاةِ فَإِنَّ حَالَ الْمَمَاتِ تُخَالِفُ حَالَ الْحَيَاةِ.

وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: إِنَّ الْمَجَانِينَ وَالصَّغَارَ لَا يُسْأَلُونَ؛ لِأَنَّهُمْ غَيْرُ مُكَلَّفِينَ، وَإِذَا كَانُوا غَيْرَ مُكَلَّفِينَ، فَإِنَّهُ لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ، إِذْ لَا حِسَابَ إِلَّا عَلَى مَنْ كَانَ مُكَلَّفًا يُعَاقَبُ عَلَى الْمَعَاصِي، وَهَؤُلَاءِ لَا يُعَاقَبُونَ، وَلَيْسَ لَهُمْ إِلَّا الثَّوَابُ إِنْ عَمِلُوا عَمَلًا صَالِحًا يُثَابُونَ عَلَيْهِ. اهـ.

قلت: لَيْسَ فِي الصَّبِيِّ وَالْمَجْنُونِ شَيْءٌ يُعِينُ عَلَى الْجَزْمِ؛ فَاللَّهُ أَعْلَمُ.

المبحث السابع:

فِي اسْمِ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ يَسْأَلَانِ الْمَيِّتَ، وَصِفَتَهُمَا.

رَوَى الْإِمَامُ التِّرْمِذِيُّ فِي سُنَنِهِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا قُبِرَ الْمَيِّتُ - أَوْ قَالَ: أَحَدُكُمْ - أَتَاهُ مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَرْزَقَانِ، يُقَالُ لِأَحَدِهِمَا: الْمُنْكَرُ، وَلِلْآخَرِ: النَّكِيرُ، فَيَقُولَانِ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ مَا كَانَ يَقُولُ: هُوَ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ؛ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولَانِ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ هَذَا، ثُمَّ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا فِي سَبْعِينَ، ثُمَّ يُنَوَّرُ لَهُ فِيهِ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: نَمْ! فَيَقُولُ: أَرْجِعْ إِلَى أَهْلِي فَأُخْبِرُهُمْ، فَيَقُولَانِ: نَمْ كَنُومَةِ الْعُرُوسِ الَّذِي لَا يُوقِظُهُ إِلَّا أَحَبُّ أَهْلِهِ إِلَيْهِ، حَتَّى يَبْعَثَهُ اللَّهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ مُنَافِقًا قَالَ: سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ فَقُلْتُ مِثْلَهُ، لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ ذَلِكَ، فَيُقَالُ لِلْأَرْضِ: التَّجْمِي عَلَيْهِ؛ فَتَلْتَمِسُ عَلَيْهِ؛ فَتُخْتَلِفُ فِيهَا أَضْلَاعُهُ، فَلَا يَرَأَى فِيهَا مُعَذَّبًا حَتَّى يَبْعَثَهُ اللَّهُ مِنْ

مَضْجَعِهِ ذَلِكَ». قَالَ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «حَدِيثٌ حَسَنٌ».

قَالَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الرُّوح» (ص 166-167): «وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ الْقَاسِمِ: قُلْتُ: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، تُقَرُّ بِمُنْكَرٍ وَنَكِيرٍ وَمَا يُرَوَّى فِي عَذَابِ الْقَبْرِ. فَقَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ! نَعَمْ؛ تُقَرُّ بِذَلِكَ وَنَقُولُهُ.

قُلْتُ: هَذِهِ اللَّفْظَةُ تَقُولُ: «مُنْكَرٌ وَنَكِيرٌ» هَكَذَا، أَوْ تَقُولُ: «مَلَكَيْنِ»!
قَالَ: مُنْكَرٌ وَنَكِيرٌ.

قُلْتُ: يَقُولُونَ: لَيْسَ فِي الْحَدِيثِ مُنْكَرٌ وَنَكِيرٌ.

قَالَ: هُوَ هَكَذَا؛ يَعْنِي: أَنَّهُمَا مُنْكَرٌ وَنَكِيرٌ.

وَقَالَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُعْتَزَلَةِ: لَا يَجُوزُ تَسْمِيَةُ مَلَائِكَةِ اللَّهِ بِمُنْكَرٍ وَنَكِيرٍ، وَإِنَّمَا الْمُنْكَرُ مَا يَبْدُو مِنْ تَلَجُّجِهِ إِذَا سُئِلَ، وَالنَّكِيرُ: تَقْرِيعُ الْمَلَكَيْنِ لَهُ. اهـ.
وَقَدْ ذَكَرَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ أَنَّ مُنْكَرًا وَنَكِيرًا مَلَكَانِ يَسْأَلَانِ الْمُذْنَبَ، وَأَمَّا الْعَبْدُ الْمُطِيعُ فَيَسْأَلُهُ مَلَكَانِ اسْمَ أَحَدِهِمَا مُبَشِّرٌ وَالْآخَرُ بَشِيرٌ، وَلَا أَعْلَمُ دَلِيلًا عَلَى هَذَا، بَلِ الْأَدْلَةُ السَّابِقَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ مُنْكَرًا وَنَكِيرًا يَسْأَلَانِ الْمُذْنَبَ وَالْمُطِيعَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

المبحث الثامن:

هَلْ تَحْصُلُ هَذِهِ الْفِتْنَةُ بِمُجَرَّدِ خُرُوجِ الرُّوحِ أَمْ بَعْدَ أَنْ يُسَلَّمَ الْأَحْيَاءُ الْمَيِّتِ إِلَى عَالَمِ الْآخِرَةِ، وَذَلِكَ بِدَفْنِهِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ؟

الْجَوَابُ: أَنَّ الَّذِي دَلَّتْ عَلَيْهِ ظَوَاهِرُ النُّصُوصِ أَنَّ ذَلِكَ لَا يَكُونُ إِلَّا بَعْدَ الدَّفْنِ وَنَحْوِهِ؛ فَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ تُبْتَلَى فِي قُبُورِهَا».

وفي الصحيحين عن أسماء رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إنه قد أوحى إلي أنكم تفتنون في القبور قريباً، أو مثل فتنة المسيح الدجال».

وفي «سنن أبي داود» عن عثمان رضي الله عنه قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه، فقال: «استغفروا لأخيكم، وسلوا له التثبيت؛ فإنه الآن يسأل»، قال العلامة الألباني رحمه الله: «حديث صحيح».

وبدليل حديث أبي هريرة السابق الذي أخرجه الترمذي، وفيه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إذا قبر الميت - أو قال: أحدكم - أتاه ملكان أسودان أزرقان، يقال لأحدهما: المنكر، وللآخر: النكير، فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول ما كان يقول: هو عبد الله ورسوله؛ أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول هذا، ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعاً في سبعين، ثم ينور له فيه، ثم يقال له: نم. فيقول: أرجع إلى أهلي فأخبرهم، فيقولان: نم كنومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحب أهل إليه، حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك، وإن كان منافقاً قال: سمعت الناس يقولون، فقلت مثله، لا أدري، فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول ذلك، فيقال للأرض: التبيي عليه، فتلتئم عليه، فتختلف فيها أضلأعه، فلا يزال فيها معدباً حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك».

وبدليل ما رواه أبو داود في سننه عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن المؤمن إذا وُضع في قبره أتاه ملك فيقول له...»، إلى أن قال: «وإن الكافر إذا وُضع في قبره أتاه ملك فينتهره، فيقول له...»، الحديث صححه العلامة الألباني.

وبدليل ما في البخاري ومسلم من حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ، وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ - وَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرَعَ نِعَالِهِمْ - أَنَّهُ مَلَكَانٍ فِيْقَعِدَانِهِ...»، الحديث.

وَهَذَا يَشْمَلُ مَنْ غَرِقَ فِي الْبَحْرِ، أَوْ أَكَلَتْهُ السَّبَاعُ وَالطَّيْرُ، أَوْ حَصَلَ لَهُ انفجارٌ، أَوْ سَقَطَتْ عَلَيْهِ قَذِيفَةٌ؛ فَتَطَايَرَتْ أَشْلَاؤُهُ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ؛ كُلُّ هَؤُلَاءِ لَا بَدَّ مِنْ سؤَالِهِمْ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

وَأَمَّا مَنْ تَأَخَّرَ دَفْنُهُ وَلِمَدَّةٍ يَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ وَنَحْوَ ذَلِكَ؛ إِمَّا لانتظارِ حُضُورِ قَرِيبٍ غَائِبٍ - مَعَ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ ذَلِكَ - أَوْ وُضِعَ فِي الثَّلَاجَةِ لِلتَّحَقُّقِ مِنْ أَسْبَابِ مَوْتِهِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فَالَّذِي يَظْهَرُ وَالْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ: أَنَّهُ لَا يَسْأَلُهُ الْمَلَكَانِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يُدْفَنَ.

وقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَأَمَّا الْفِتْنَةُ، فَإِنَّ النَّاسَ يُفْتَنُونَ فِي قُبُورِهِمْ. فَيَقَالُ لِلرَّجُلِ...»، إلخ.

سَبَقَ مَعْنَى الْفِتْنَةِ، وَأَنَّهَا تَكُونُ فِي الْقُبُورِ.

وقوله: «فَيَقَالُ لِلرَّجُلِ»، أي: لِلْإِنْسَانِ الْمَيِّتِ، فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَخْتَصُّ بِالرِّجَالِ دُونَ النِّسَاءِ.

وقوله: «مَنْ رَبُّكَ؟ وَمَا دِينُكَ؟ وَمَنْ نَبِيُّكَ؟».

هَذِهِ هِيَ الْأَسْئَلَةُ الَّتِي تُوجَّهُ لِلْمَيِّتِ فِي قَبْرِهِ، وَلَا يَثْبُتُ وَيُوفَّقُ لِلْجَوَابِ الصَّوَابِ إِلَّا مَنْ ثَبَّتَهُ اللَّهُ تَعَالَى؛ نَسَأَلُ اللَّهَ الْعَظِيمَ الْكَرِيمَ أَنْ يُثَبِّتَنَا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ.

وَهَذِهِ الْأَسْئَلَةُ أَسْئَلَةٌ عَنِ الْمُعْتَقَدِ، وَعَمَّا فِي الْقَلْبِ، وَلِذَلِكَ لَا يُوفَّقُ الْمُنَافِقُ وَالْمُرْتَابُ لِلْجَوَابِ.

فَقُوله: مَنْ رَبُّكَ؟

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في شرحه للواسطية (ص 480): «يعني: مَنْ رَبُّكَ الَّذِي خَلَقَكَ وَتَعَبَّدَهُ وَتَخَصَّصَهُ بِالْعِبَادَةِ؟ لِأَجْلِ أَنْ تَنْتَظِمَ هَذِهِ الْكَلِمَةُ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَتَوْحِيدِ الْأُلُوهِيَّةِ». اهـ.

وقوله رَحِمَهُ اللهُ: «وَأَمَّا الْمُرْتَابُ فَيَقُولُ: هَاهُ هَاهُ، لَا أَدْرِي، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُه».

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في «شرح الواسطية» (ص 481 - 482): «المرتَاب»: الشَّاكُّ والمُنَافِقُ وشبههما، «فَيَقُولُ: هَاهُ هَاهُ؛ لَا أَدْرِي، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُه»، يعني: لم يَلِجِ الْإِيمَانُ قَلْبَهُ، وَإِنَّمَا كَانَ يَقُولُ كَمَا يَقُولُ النَّاسُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَصِلَ الْإِيمَانُ إِلَى قَلْبِهِ.

وَتَأَمَّلْ قَوْلَهُ: «هَاهُ هَاهُ» كَأَنَّ شَيْئًا غَابَ عَنْهُ يَرِيدُ أَنْ يَتَذَكَّرَهُ، وَهَذَا أَشَدُّ فِي التَّحَسُّرِ أَنْ يَتَخَيَّلَ أَنَّهُ يَعْرِفُ الْجَوَابَ، وَلَكِنْ يُحَالُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ، وَيَقُولُ: «هَاهُ هَاهُ»، ثُمَّ يَقُولُ: «سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُه»، وَلَا يَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ، وَلَا دِينِي الْإِسْلَامَ، وَلَا نَبِيَّ مُحَمَّدٍ؛ لِأَنَّهُ فِي الدُّنْيَا مُرْتَابٌ شَاكٌّ.

هَذَا إِذَا سُئِلَ فِي قَبْرِهِ وَصَارَ أَحْوَجَ مَا يَكُونُ إِلَى الْجَوَابِ الصَّوَابِ يَعْجُزُ، وَيَقُولُ: «لَا أَدْرِي سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُه».

إِذَا؛ إِيْمَانُهُ قَوْلٌ فَقَطْ. اهـ.

وقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ يَحْكِي الْحَدِيثَ الْوَارِدَ: «فَيُضْرَبُ بِمِرْزِيَّةٍ مِنْ حَدِيدٍ؛ فَيَصِيحُ صَاحِيَةً يَسْمَعُهَا كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا الْإِنْسَانَ، وَلَوْ سَمِعَهَا لَصَعَقَ».

قلت: الَّذِي فِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ»: «أَنَّهُ يَصِيحُ صَاحِيَةً يَسْمَعُهَا مَنْ يَلِيهِ غَيْرُ

الثقلين». اهـ.

والثقلان: هم الإنس والجنُّ.

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في «شرح الواسطية» (ص 482 - 483):
«فيضرب»: يعني الذي لم يُجب، سواء كان الكافر أو المنافق، والضارب له
المَلَكَانِ اللذان يسألانه.

والمرزبة: هي مطرقة من حديد، وقد ورد في بعض الروايات: أَنَّهُ لَوْ اجْتَمَعَ
عَلَيْهَا أَهْلُ مَنْى مَا أَقْلَوْهَا، فَإِذَا ضُرِبَ يَصِيحُ صِيحَةً يَسْمَعُهَا كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا
الإنسان، أي: صياحا مسموعا يسمعه كلُّ شيء يكون حوله ممَّا يسمع صوته،
وليس كلُّ شيء في أقطار الدنيا يسمعه، وأحيانا يتأثر به ما يسمعه كما مرَّ النَّبِيُّ
صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَقْبَرِ الْمُشْرِكِينَ عَلَى بَغْلَتِهِ، فَحَادَتْ بِهِ حَتَّى كَادَتْ تُلْقِيهِ؛ لِأَنَّهَا
سَمِعَتْ أَصْوَاتَهُمْ يُعَذِّبُونَ.

قوله: «إلا الإنسان»، وقد سبق أنَّ في الحديث إلا الثقلين. يعني: أنه لا يسمع
هذا الصياح، وذلك لحكم عظيمة منها:
أولاً: ما أشار إليه النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: «لَوْ لَا أَنَّ لَا تَدَافِنُوا لَدَعَوْتُ اللهُ
أَنْ يُسَمِعَكُمْ عَذَابَ الْقَبْرِ».

ثانياً: أنَّ في إخفاء ذلك سترًا للميت.

ثالثاً: أنَّ فيه عدم إزعاج لأهله؛ لأنَّ أهله إذا سمعوا ميَّتَهُمْ يُعَذِّبُ وَيَصِيحُ لَمْ
يَسْتَقِرَّ لَهُمْ قَرَارٌ.

رابعاً: عدم تحجيل أهله؛ لأنَّ النَّاسَ يقولون: هذا ولدكم، هذا أبوكم، هذا
أخوكم، وما أشبه ذلك.

خامسًا: أننا قد نهلك؛ لأنها صيحة ليست هينة، بل صيحة قد توجب أن تسقط القلوب من معاليقها، فيموت الإنسان، أو يُغشى عليه.

سادسًا: لو سَمِعَ النَّاسُ صُراخَ هؤلاء المُعَذِّبِينَ لكان الإيمانُ بعذاب القبر من باب الإيمان بالشهادة لا من باب الإيمان بالغيب، وحينئذ تَفُوت مصلحة الامتحان؛ لأنَّ النَّاسَ سوف يُؤْمِنُونَ بما شاهدوه قطعًا، لكن إذا كان غائبًا عنهم ولم يعلموا به إِلَّا عن طريق الخبر صار من باب الإيمان بالغيب». اهـ.

قولُ شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «ثُمَّ بَعْدَ هَذِهِ الْفِتْنَةِ إِمَّا نَعِيمٌ وَإِمَّا عَذَابٌ».

هذه هي المسألة العظيمة الثانية.

وقوله: «ثُمَّ»، قال العلامة ابن عُثَيْمِينَ رَحِمَهُ اللهُ فِي «شرح الواسِطِيَّة» (ص 484): «ثُمَّ هَذِهِ لِمُطْلَقِ التَّرْتِيبِ، وَلَيْسَتْ لِلتَّرَاخِي؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ يُعَذَّبُ أَوْ يُنْعَمُ فَوْرًا، كَمَا سَبَقَ أَنَّهُ إِذَا قَالَ: «لَا أَدْرِي» يُضْرَبُ بِمِرْزَبَةٍ، وَأَنَّ ذَلِكَ الَّذِي أَجَابَ بِالصَّوَابِ يُفْتَحَ لَهُ بَابٌ إِلَى الْجَنَّةِ، وَيُوسَّعَ لَهُ فِي قَبْرِهِ». اهـ.

وفي مسألة عذاب القبر ونعيمه عدة مباحث:

المبحث الأول: في أدلة ثبوت عذاب القبر ونعيمه لِمَنْ كان لذلك أهلاً:

فقد دَلَّ عَلَى ذَلِكَ عِدَّةُ آيَاتٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَالسُّنَّةِ الْمُتَوَاتِرَةِ وَإِجْمَاعِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ.

أَمَّا دَلَالَةُ الْقُرْآنِ؛ فَمِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى فِي قِصَّةِ آلِ فِرْعَوْنَ: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: 46]، وَمِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [التوبة: 101].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، كما في «مجموع الفتاوى» (4/ 266):
«قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ: الْمَرَّةُ الْأُولَى فِي الدُّنْيَا، وَالثَّانِيَّةُ فِي الْبَرْزَخِ، ثُمَّ
يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿﴾ فِي الْآخِرَةِ». اهـ.

وأما السنة فإنها متواترة في ذلك، كما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله،
كما في «مجموع الفتاوى» (4/ 285).

وقال الحافظ ابن رجب رحمه الله في «أهوال القبور» (ص 43): «وقد تواترت
الأحاديث في عذاب القبر». اهـ.

وقال ابن أبي العزِّ رحمه الله في «شرح الطحاوية» (ص 399): «وقد تواترت
الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في ثبوت عذاب القبر ونعيمه لمن كان
أهلاً». اهـ.

ومن تلکم الأحاديث ما رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث
ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم مرَّ بقبرين يُعَذَّبَانِ، فَقَالَ: «إِنَّهُمَا
لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ؛ أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ مِنَ الْبَوْلِ، وَأَمَّا الْآخَرُ
فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ»، ثُمَّ أَخَذَ جَرِيدَةً رَطْبَةً، فَشَقَّهَا نِصْفَيْنِ، ثُمَّ غَرَزَ فِي كُلِّ قَبْرٍ
وَاحِدَةً، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لِمَ صَنَعْتَ هَذَا؟ فَقَالَ: «لَعَلَّهُ أَنْ يُخَفَّفَ عَنْهُمَا مَا لَمْ
يَيْبَسَا».

وفي «صحيح مسلم» عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم كَانَ
يُعَلِّمُهُمْ هَذَا الدُّعَاءَ كَمَا يُعَلِّمُهُمُ السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ؛ يَقُولُ: قُولُوا: «اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ
بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ
الدَّجَالِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ».

وفي البخاري ومسلم عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «دَخَلْتُ عَلَيَّ عَجُوزَانِ مِنْ عَجُزِ يَهُودِ الْمَدِينَةِ، فَقَالَتَا: إِنَّ أَهْلَ الْقُبُورِ يُعَذَّبُونَ فِي قُبُورِهِمْ. قَالَتْ: فَكَذَّبْتُهُمَا، وَلَمْ أَنْعَمْ أَنْ أُصَدِّقَهُمَا، فَخَرَجَتَا، وَدَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ عَجُوزَيْنِ مِنْ عَجُزِ يَهُودِ الْمَدِينَةِ دَخَلَتَا عَلَيَّ فَزَعَمَتَا أَنَّ أَهْلَ الْقُبُورِ يُعَذَّبُونَ فِي قُبُورِهِمْ، فَقَالَ: «صَدَقْتَا؛ إِنَّهُنَّ يُعَذَّبُونَ عَذَابًا تَسْمَعُهُ الْبَهَائِمُ». قَالَتْ: «فَمَا رَأَيْتُهُ بَعْدُ فِي صَلَاةٍ إِلَّا يَتَعَوَّذُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ».

وفي «صحيح مسلم» عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ قَالَ: بَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَائِطٍ لِبَنِي النَّجَّارِ عَلَى بَغْلَةٍ - وَنَحْنُ مَعَهُ - إِذْ جَالَتْ بِهِ فَكَادَتْ تُلْقِيهِ، فَإِذَا أَقْبَرُ سِتَّةٌ أَوْ خَمْسَةٌ أَوْ أَرْبَعَةٌ. فَقَالَ: «مَنْ يَعْرِفُ هَذِهِ الْقُبُورَ؟» فَقَالَ رَجُلٌ: أَنَا. قَالَ: «فَمَتَى مَاتَ هَؤُلَاءِ؟» قَالَ: مَاتُوا فِي الْإِشْرَاكِ. فَقَالَ: «إِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ تُبْتَلَى فِي قُبُورِهَا. فَلَوْلَا أَنْ لَا تَدَافِنُوا لَدَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يُسَمِعَكُمْ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ الَّذِي أَسْمَعُ مِنْهُ»، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ فَقَالَ: «تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ». قَالُوا: نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ. قَالَ: «تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ النَّارِ». قَالُوا: نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ النَّارِ. قَالَ: «تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنَ الْفِتَنِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ». قَالُوا: نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْفِتَنِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ. قَالَ: «تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَالِ». قَالُوا: نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَالِ.

وَمِنْ تِلْكَمُ الْأَحَادِيثِ حَدِيثُ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ الْمُتَقَدِّمِ، وَفِيهِ ذِكْرُ عَذَابِ الْقَبْرِ وَنَعِيمِهِ.

وَأَمَّا إِجْمَاعُ أَهْلِ السُّنَّةِ، فَقَدْ قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ، كَمَا فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى» (4/284): «فَاعْلَمْ أَنَّ مَذْهَبَ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَأَيْمَتِهَا: أَنَّ الْمَيِّتَ إِذَا مَاتَ يَكُونُ فِي نَعِيمٍ أَوْ عَذَابٍ». اهـ.

وقال (ص 282): «العَذَابُ وَالنَّعِيمُ عَلَى النَّفْسِ وَالْبَدَنِ جَمِيعًا بِاتِّفَاقِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ». اهـ.

وقال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ فِي كِتَابِ «الروح» (ص 166): «وَهَذَا كَمَا أَنَّهُ مُقْتَضَى السُّنَّةِ الصَّحِيحَةِ فَهُوَ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَيْنَ أَهْلِ السُّنَّةِ.

قَالَ المَرْوُزِي: قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: عَذَابُ الْقَبْرِ حَقٌّ، لَا يُنْكِرُهُ إِلَّا ضَالٌّ أَوْ مُضِلٌّ». اهـ.

المبحث الثاني: فِي ذِكْرِ مَنْ ضَلَّ فِي أَمْرِ الْبَرْخ:

قَالَتِ الْفَلَّاسِفَةُ: إِنَّ النَّعِيمَ وَالْعَذَابَ لَا يَكُونُ إِلَّا عَلَى الرُّوحِ.

وَاخْتَلَفَ الْمُعْتَزَلَةُ فِي هَذَا وَاضْطَرَبُوا؛ فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ لَا يَكُونُ نَعِيمٌ وَلَا عَذَابٌ فِي الْقَبْرِ، وَإِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كَمَا قَالَه ضَرَّارُ بْنُ عَمْرٍو، وَيَحْيَى بْنُ كَامِلٍ، وَالْمَرِيسِيُّ.

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِنَّمَا يَكُونُ الْعَذَابُ عَلَى مَنْ خَرَجَ مِنَ الْإِيمَانِ مِنَ الْكُفَّارِ وَالْفُسَّاقِ عَلَى أَصُولِهِمْ، فَإِنَّهُمْ يُعَذَّبُونَ بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ، كَمَا يَقُولُهُ أَبُو الْهَذِيلِ الْعَلَّافُ، وَهُوَ مِنْ أَئِمَّتِهِمْ.

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ - سُبْحَانَهُ - يُعَذِّبُ الْمَوْتَى فِي قُبُورِهِمْ، وَيُحَدِّثُ فِيهِمُ الْآلَامَ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ، فَإِذَا حُشِرُوا وَجَدُوا تِلْكَ الْآلَامَ، وَأَحْسَوْا بِهَا، قَالُوا: وَسَبِيلُ الْمُعَذِّبِينَ مِنَ الْمَوْتَى كَسَبِيلِ السَّكَرَانِ وَالْمَعْشَى عَلَيْهِ لَوْ ضُرِبُوا لَمْ يَجِدُوا الْآلَامَ، فَإِذَا عَادَ عَلَيْهِمُ الْعَقْلُ أَحْسَوْا بِالْمِضْرَبِ.

وَذَهَبَ الصَّالِحِيُّ وَجَمَاعَةٌ مِنَ الْكِرَامِيَّةِ إِلَى إِثْبَاتِ عَذَابِ الْقَبْرِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِلَّا أَنَّهُ مِنْ غَيْرِ رَدِّ الْأَرْوَاحِ إِلَى الْأَجْسَادِ.

قالوا: والميت يجوز أن يألم ويحس بلا روح.

انظر فيما سبق «مجموع الفتاوى» (4/ 283-284)، و«الروح» لابن القيم (ص 167-168).

المبحث الثالث: ما الحكمة من كون عذاب القبر لم يذكر صريحاً في القرآن مع شدة الحاجة إلى معرفته والإيمان به ليحذر ويتقى؟

أجاب عن هذا ابن القيم رحمه الله في كتابه «الروح» (ص 205-210) فقال: «الجواب من وجهين: مجمل، ومفصل.

أما المجمل: فهو أن الله سبحانه وتعالى أنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم وخيّن، وأوجب على عباده الإيمان بهما، والعمل بما فيهما، وهما الكتاب والحكمة؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [النساء: 113]، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: 2]، وقال تعالى: ﴿وَأَذْكُرْنَا مَا يَتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب: 34].

والكتاب: هو القرآن. والحكمة: هي السنة باتفاق السلف رضي الله عنهم.

وما أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم عن الله فهو في وجوب تصديقه والإيمان به، كما أخبر به الرب - تعالى - على لسان رسوله، هذا أصل متفق عليه بين أهل الإسلام لا ينكره إلا من ليس منهم، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إني أوتيت الكتاب ومثله معه».

وأما الجواب المفصل: فهو أن نعيم البرزخ وعذابه مذكور في القرآن في

غير مَوْضِع؛ فَمِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: 93]، وَهَذَا خُطَابٌ لَهُمْ عِنْدَ الْمَوْتِ، وَقَدْ أَخْبَرَتِ الْمَلَائِكَةُ - وَهُمْ الصَّادِقُونَ - أَنَّهُمْ حِينَئِذٍ يُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ، وَلَوْ تَأَخَّرَ عَنْهُمْ ذَلِكَ إِلَى انْقِضَاءِ الدُّنْيَا لَمَا صَحَّ أَنْ يُقَالَ لَهُمْ: الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ.

وَمِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَوَقَّهَ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: 45-46]؛ فَذَكَرَ عَذَابَ الدَّارَيْنِ ذِكْرًا صَرِيحًا لَا يَحْتَمِلُ غَيْرَهُ.

وَمِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَذَرَهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الطور: 45-47]، وَهَذَا يَحْتَمِلُ أَنْ يُرَادَ بِهِ عَذَابُهُمْ بِالْقَتْلِ وَغَيْرِهِ فِي الدُّنْيَا، وَأَنْ يُرَادَ بِهِ عَذَابُهُمْ فِي الْبَرَزَخِ، وَهُوَ أَظْهَرُ؛ لِأَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَاتَ وَلَمْ يُعَذَّبْ فِي الدُّنْيَا، وَقَدْ يُقَالُ وَهُوَ أَظْهَرُ: إِنَّ مَنْ مَاتَ مِنْهُمْ عُذِّبَ فِي الْبَرَزَخِ، وَمَنْ بَقِيَ مِنْهُمْ عُذِّبَ فِي الدُّنْيَا بِالْقَتْلِ وَغَيْرِهِ، فَهُوَ وَعِيدٌ بِعَذَابِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَفِي الْبَرَزَخِ.

وَمِنْهَا: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: 21].

وَقَدْ احْتَجَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَلَى عَذَابِ الْقَبْرِ، وَفِي الْإِحْتِجَاجِ بِهَا شَيْءٌ؛ لِأَنَّ هَذَا عَذَابٌ فِي الدُّنْيَا يُسْتَدْعَى بِهِ رَجوعُهُمْ

عَنِ الْكُفْرِ، وَلَمْ يَكُنْ هَذَا مِمَّا يَخْفَى عَلَى حَبْرِ الْأُمَّةِ وَتَرْجَمَانِ الْقُرْآنِ، لَكِنْ مِنْ فَقْهِهِ فِي الْقُرْآنِ وَدِقَّةِ فَهْمِهِ فِيهِ فَهُمْ مِنْهَا عَذَابُ الْقَبْرِ، فَإِنَّهُ - سُبْحَانَهُ - أَخْبَرَ أَنَّ لَهُ فِيهِمْ عَذَابِينَ: أَدْنَى وَأَكْبَرَ، فَأَخْبَرَ أَنَّهُ يُذَيِّقُهُمْ بَعْضَ الْأَدْنَى؛ لِيَرْجِعُوا، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ بَقِيَ لَهُمْ مِنَ الْأَدْنَى بَقِيَّةٌ يُعَذَّبُونَ بِهَا بَعْدَ عَذَابِ الدُّنْيَا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿مِنْ عَذَابِ الْأَدْنَى﴾، وَلَمْ يَقُلْ: وَلِنُذَيِّقَهُمُ الْعَذَابَ الْأَدْنَى. فَتَأَمَّلْهُ.

وَهَذَا نَظِيرُ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَيُفْتَحُ لَهُ طَاقَةُ إِلَى النَّارِ؛ فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسَمُومِهَا». وَلَمْ يَقُلْ: فَيَأْتِيهِ حَرُّهَا وَسَمُومُهَا، فَإِنَّ الَّذِي وَصَلَ إِلَيْهِ بَعْضُ ذَلِكَ وَبَقِيَ لَهُ أَكْثَرُهُ، وَالَّذِي ذَاقَهُ أَعْدَاءُ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا بَعْضَ الْعَذَابِ وَبَقِيَ لَهُمْ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ.

وَمِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ﴾ (٨٣) وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ نَنْظُرُونَ (٨٤) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا بُصُرُونَ (٨٥) فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ عَيْرَ مَدِينِينَ (٨٦) تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٨٧) فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتْ نَعِيمٌ (٨٩) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩٠) فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩١) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةٌ جَحِيمٍ (٩٤) إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٩٥) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿[الواقعة: 83 - 96]؛ فَذَكَرَ هَاهُنَا أَحْكَامَ الْأَرْوَاحِ عِنْدَ الْمَوْتِ، وَذَكَرَ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ أَحْكَامَهَا يَوْمَ الْمَعَادِ الْأَكْبَرِ، وَقَدَّمَ ذَلِكَ عَلَى هَذَا تَقْدِيمَ الْغَايَةِ لِلْعُنَايَةِ؛ إِذْ هِيَ أَهَمُّ وَأَوْلَى بِالذِّكْرِ، وَجَعَلَهُمْ عِنْدَ الْمَوْتِ ثَلَاثَةَ أَقْسَامٍ، كَمَا جَعَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ ثَلَاثَةَ أَقْسَامٍ.

وَمِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيَنَّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ (٢٧) أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً (٢٨) فَأَدْخِلِي فِي عَبْدِي (٢٩) وَأَدْخِلِي جَنَّتِي ﴿[الفجر: 27 - 30]، وَقَدْ اخْتَلَفَ السَّلَفُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ مَتَى يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ؟

فَقَالَتْ طَائِفَةٌ: يُقَالُ لَهَا عِنْدَ الْمَوْتِ، وَظَاهِرُ اللَّفْظِ مَعَ هَؤُلَاءِ، فَإِنَّهُ خَطَابٌ لِلنَّفْسِ الَّتِي قَدْ تَجَرَّدَتْ عَنِ الْبَدَنِ، وَخَرَجَتْ مِنْهُ، وَقَدْ فَسَّرَ ذَلِكَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَوْلِهِ فِي حَدِيثِ الْبَرَاءِ وَغَيْرِهِ: «فَيُقَالُ لَهَا: اخْرُجِي رَاضِيَةً مَرْضِيًّا عَنْكَ».

وقوله تعالى: ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ مُطَابِقٌ لِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللَّهُمَّ الرَّفِيقَ الْأَعْلَى»، مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَأَنْتِ إِذَا تَأَمَّلْتَ أَحَادِيثَ عَذَابِ الْقَبْرِ وَنَعِيمِهِ وَجَدْتَهَا تَفْصِيلًا وَتَفْسِيرًا لِمَا دَلَّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ». اهـ.

المبحث الرابع: هل عَذَابُ الْقَبْرِ يَقَعُ عَلَى الرُّوحِ وَالْبَدَنِ، أَمْ عَلَى الْبَدَنِ فَقَطْ؟

قَدْ أَجَابَ عَنْ هَذَا السُّؤَالِ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَحَكَى اتِّفَاقَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ عَلَى أَنَّ الْعَذَابَ وَالنَّعِيمَ يَقَعُ عَلَيْهِمَا جَمِيعًا، كَمَا أَنَّهُ يَكُونُ عَلَى الرُّوحِ مُنْفَرِدَةً، كَمَا فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى» (4/ 282)، وَذَكَرَ أَقْوَالَ الْمُخَالِفِينَ فِي ذَلِكَ.

كَمَا أَنَّ تَلْمِيزَهُ ابْنَ الْقِيَمِ نَقَلَ جَوَابَهُ، وَذَكَرَ فِي ثَنَائِهِ جَوَابَ شَيْخِهِ زِيَادَاتٍ مُهِمَّةٍ⁽¹⁾، فَأَنْقَلَ إِلَيْكَ - أَخِي الْقَارِئُ - كَلَامَ ابْنِ الْقِيَمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الرُّوحِ» (ص 152 - 155) حَيْثُ قَالَ: «وَقَدْ سُئِلَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ عَنْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ، وَنَحْنُ

(1) قد تكون تلك الزيادات من كلام شيخ الإسلام نفسه، وما في «مجموع الفتاوى» ذكر مختصراً بالنسبة لما وَقَفَ عَلَيْهِ ابْنُ الْقِيَمِ، والله أعلم، لا سيما وابن القيم يقول: «ونحن نذكر لفظ جوابه».

نذكر لفظ جوابه، فقال: بل العذاب والنَّعيم على النَّفس والبدن جميعًا باتِّفاق أهل السُّنة والجماعة؛ تُنعم النَّفس وتُعذب مُنفردة عن البدن، وتُنعم وتُعذب مُتصلةً بالبدن، والبدن مُتصل بها؛ فيكون النَّعيم والعذاب عليهما في هذه الحال مُجتمعين، كما تكون على الروح مُنفردة عن البدن، وهل يكون العذاب والنَّعيم للبدن بدون الروح؟ هذا فيه قولان مشهوران لأهل الحديث والسُّنة وأهل الكلام، وفي المسألة أقوال شاذة ليست من أقوال أهل السُّنة والحديث.

قول من يقول: إنَّ النَّعيم والعذاب لا يكون إلا على الروح، وأنَّ البدن لا يُنعم ولا يُعذب، وهذا تقوله الفلاسفة المُنكرون لمعاد الأبدان، وهؤلاء كفار بإجماع المسلمين، ويقولون كثير من أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم الذين يُقرُّون بمعاد الأبدان، لكن يقولون: لا يكون ذلك في البرزخ، وإنَّما يكون عند القيام من القبر، لكن هؤلاء يُنكرون عذاب البدن في البرزخ فقط، ويقولون: إنَّ الأرواح هي المنعمّة أو المُعذَّبة في البرزخ، فإذا كان يوم القيامة عذبت الروح والبدن معًا، وهذا القول قاله طوائف من المسلمين من أهل الكلام والحديث وغيرهم، وهو اختيار ابن حزم وابن مَرَّة، فهذا القول ليس من الأقوال الثلاثة الشاذة، بل هو مُضاف إلى قول من يقول بعذاب القبر، ويُقر بالقيامة، ويثبت معاد الأبدان والأرواح، ولكن هؤلاء لهم في عذاب القبر ثلاثة أقوال: أحدها: أنه على الروح فقط.

الثاني: أنه عليها وعلى البدن بواسطتها.

الثالث: أنه على البدن فقط، وقد يُضم إلى ذلك القول الثاني، وهو قول من يثبت عذاب القبر، ويجعل الروح هي الحيّة، ويجعل الشاذ قول مُنكر عذاب الأبدان مُطلقًا، وقول من يُنكر عذاب الروح مُطلقًا، فإذا جعلت الأقوال الشاذة

ثلاثة.

فَالْقَوْلُ الثَّانِي الشاذ: قَوْل مَنْ يَقُول: إِنَّ الرُّوحَ بِمَفْرَدِهَا لَا تُنْعَم وَلَا تُعَذَّبُ، وَإِنَّمَا الرُّوحُ هِيَ الْحَيَاةُ، وَهَذَا يَقُولُهُ طَوَائِفُ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ مِنَ الْمُعْتَزَلَةِ وَالْأَشْعَرِيَّةِ؛ كَالْقَاضِي أَبِي بَكْرٍ وَغَيْرِهِ، وَيُنْكِرُونَ أَنَّ الرُّوحَ تَبْقَى بَعْدَ فِرَاقِ الْبَدَنِ، وَهَذَا قَوْلٌ بَاطِلٌ، وَقَدْ خَالَفَ أَصْحَابَهُ أَبُو الْمَعَالِي الْجَوِينِي وَغَيْرُهُ، بَلْ قَدْ ثَبَتَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَاتِّفَاقِ الْأُمَّةِ: أَنَّ الرُّوحَ تَبْقَى بَعْدَ فِرَاقِ الْبَدَنِ، وَأَنَّهَا مُنْعَمَةٌ أَوْ مُعَذَّبَةٌ، وَالْفَلَّاسِفَةُ الْإِلَهِيُونَ يُقَرُّونَ بِذَلِكَ، لَكِنْ يُنْكِرُونَ مَعَادَ الْأَبْدَانِ، وَهَؤُلَاءِ يُقَرُّونَ بِمَعَادِ الْأَبْدَانِ، لَكِنْ يُنْكِرُونَ مَعَادَ الْأَرْوَاحِ وَنَعِيمَهَا وَعَذَابَهَا بِدُونِ الْأَبْدَانِ، وَكِلَا الْقَوْلَيْنِ خَطَأٌ وَضَلَالٌ، لَكِنْ قَوْلُ الْفَلَّاسِفَةِ أْبَعْدَ عَنْ أَقْوَالِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ، وَإِنْ كَانَ قَدْ يُوَافِقُهُمْ عَلَيْهِ مَنْ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ مَتَمَسِّكٌ بِدِينِ الْإِسْلَامِ، بَلْ مَنْ يَظُنُّ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ وَالتَّصَوُّفِ وَالتَّحْقِيقِ وَالْكَلَامِ.

وَالْقَوْلُ الثَّالِثُ الشاذ: قَوْل مَنْ يَقُول: إِنَّ الْبَرْزَخَ لَيْسَ فِيهِ نَعِيمٌ وَلَا عَذَابٌ، بَلْ لَا يَكُونُ ذَلِكَ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ الْكُبْرَى، كَمَا يَقُولُ ذَلِكَ مَنْ يَقُولُهُ مِنَ الْمُعْتَزَلَةِ وَنَحْوِهِمْ مِمَّنْ يُنْكِرُ عَذَابَ الْقَبْرِ وَنَعِيمَهُ بِنَاءً عَلَى أَنَّ الرُّوحَ لَا تَبْقَى بَعْدَ فِرَاقِ الْبَدَنِ، وَأَنَّ الْبَدَنَ لَا يُنْعَمُ وَلَا يُعَذَّبُ، فَجَمِيعُ هَؤُلَاءِ الطَوَائِفِ ضَلَالٌ فِي أَمْرِ الْبَرْزَخِ، لَكِنَّهُمْ خَيْرٌ مِنَ الْفَلَّاسِفَةِ؛ فَإِنَّهُمْ مُقَرَّرُونَ بِالْقِيَامَةِ الْكُبْرَى.

فَإِذَا عَرَفْتَ هَذِهِ الْأَقْوَالَ الْبَاطِلَةَ فَلَتَعْلَمْ أَنَّ مَذْهَبَ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَأَثْمَتِهَا: أَنَّ الْمَيِّتَ إِذَا مَاتَ يَكُونُ فِي نَعِيمٍ أَوْ عَذَابٍ، وَأَنَّ ذَلِكَ يَحْصُلُ لِرُوحِهِ وَبَدَنِهِ، وَأَنَّ الرُّوحَ تَبْقَى بَعْدَ مُفَارَقَةِ الْبَدَنِ مُنْعَمَةٌ أَوْ مُعَذَّبَةٌ، وَأَنَّهَا تَتَّصِلُ بِالْبَدَنِ أحيانًا وَيَحْصُلُ لَهُ مَعَهَا النَّعِيمُ أَوْ الْعَذَابُ، ثُمَّ إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ الْكُبْرَى أُعِيدَتْ الْأَرْوَاحُ إِلَى الْأَجْسَادِ، وَقَامُوا مِنْ قُبُورِهِمْ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ، وَمَعَادِ الْأَبْدَانِ مُتَّفَقٌ

عَلَيْهِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى». اهـ.

المبحث الخامس: الرَّدُّ عَلَى مُنْكَرِي عَذَابِ الْقَبْرِ وَنَعِيمِهِ وَسَعَتِهِ وَضِيقِهِ:

قَالَ الْعَلَامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ «الرُّوح» (ص 177): «الْمَسْأَلَةُ السَّابِعَةُ: وَهِيَ قَوْلُ السَّائِلِ: مَا جَوَابُنَا لِلْمَلَأَحَدَةِ وَالزَّنَادِقَةِ الْمُنْكَرِينَ لِعَذَابِ الْقَبْرِ وَسَعَتِهِ وَضِيقِهِ، وَكَوْنَهُ حُفْرَةً مِنْ حُفْرِ النَّارِ، أَوْ رَوْضَةً مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ، وَكَوْنِ الْمَيِّتِ لَا يَجْلِسُ فِيهِ.

قَالُوا: فَإِنَّا نَكْشِفُ الْقَبْرَ فَلَا نَجِدُ فِيهِ مَلَائِكَةً عُمِيًّا صُمًّا يَضْرِبُونَ الْمَوْتَى بِمِطَارِقٍ مِنْ حَدِيدٍ، وَلَا نَجِدُ هُنَاكَ حَيَّاتٍ وَلَا ثُعَابِينَ، وَلَا نِيرَانًا تَأْجَجُ، وَلَوْ كَشَفْنَا حَالَةَ مِنَ الْأَحْوَالِ لَوَجَدْنَاهُ لَمْ يَتَغَيَّرْ، وَلَوْ وَضَعْنَا عَلَى عَيْنَيْهِ الزُّبُقَ، وَعَلَى صَدْرِهِ الْخَرْدَلُ لَوَجَدْنَاهُ عَلَى حَالِهِ، وَكَيْفَ يُفْسَحُ مَدَّ بَصَرِهِ، أَوْ يُضَيَّقَ عَلَيْهِ، وَنَحْنُ نَجِدُهُ بِحَالِهِ، وَنَجِدُ مِسَاحَتَهُ عَلَى حَدِّ مَا حَفَرْنَاهَا لَمْ يَزِدْ وَلَمْ يَنْقُصْ؟ وَكَيْفَ يَسَعُ ذَلِكَ اللَّحْدُ الضَّيِّقُ لَهُ وَلِلْمَلَائِكَةِ وَلِلصُّورَةِ الَّتِي تُؤْنِسُهُ أَوْ تُوحِشُهُ؟ قَالَ إِخْوَانُهُمْ مِنْ أَهْلِ الْبِدْعِ وَالضَّلَالِ: وَكُلُّ حَدِيثٍ يُخَالِفُ مُقْتَضَى الْعُقُولِ وَالْحِسِّ يُقْطَعُ بِتَخَطُّئَةِ قَائِلِهِ.

قَالُوا: وَنَحْنُ نَرَى الْمَصْلُوبَ عَلَى خَشَبَةٍ مُدَّةَ طَوِيلَةٍ لَا يُسْأَلُ وَلَا يُجِيبُ، وَلَا يَتَحَرَّكُ، وَلَا يَتَوَقَّدُ جِسْمُهُ نَارًا، وَمَنْ افْتَرَسَتْهُ السَّبَاعُ وَنَهَشَتْهُ الطُّيُورُ وَتَفَرَّقَتْ أَجْزَاؤُهُ فِي أَجْوَافِ السَّبَاعِ وَحَوَاصِلِ الطُّيُورِ وَبُطُونِ الْحَيَّاتَانِ وَمَدَارِجِ الرِّيَّاحِ - كَيْفَ تُسْأَلُ أَجْزَاؤُهُ مَعَ تَفَرُّقِهَا؟ وَكَيْفَ يُتَصَوَّرُ مَسْأَلَةُ الْمَلِكَيْنِ لِمَنْ هَذَا وَصْفُهُ؟ وَكَيْفَ يَصِيرُ الْقَبْرُ عَلَى هَذَا رَوْضَةً مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ، أَوْ حُفْرَةً مِنْ حُفْرِ النَّارِ؟ وَكَيْفَ يُضَيَّقُ عَلَيْهِ حَتَّى تَلْتَمِسَ أَضْلَاعُهُ؟

وَنَحْنُ نَذْكُرُ أُمُورًا يُعْلَمُ بِهَا الْجَوَابُ:

الأمر الأول: أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ الرَّسُولَ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ - لَمْ يُخْبَرُوا بِمَا تُحِيلُهُ الْعُقُولُ وَتَقْطَعُ بِاسْتِحَالَتِهِ، بَلْ إِخْبَارُهُمْ قِسْمَانِ: أَحَدُهُمَا: مَا تَشْهَدُ بِهِ الْعُقُولُ وَالْفِطْرُ.

الثاني: مَا لَا تُذَكِّرُهُ الْعُقُولُ بِمَجْرَدِهَا؛ كَالْغُيُوبِ الَّتِي أَخْبَرُوا بِهَا عَنْ تَفَاصِيلِ الْبَرْزَخِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتَفَاصِيلِ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ، وَلَا يَكُونُ خَبَرُهُمْ مُحَالًا فِي الْعُقُولِ أَصْلًا، وَكُلُّ خَبَرٍ يُظَنُّ أَنَّ الْعَقْلَ يُحِيلُهُ، فَلَا يَخْلُو مِنْ أَحَدِ أَمْرَيْنِ: إِمَّا يَكُونُ الْخَبَرُ كَذِبًا عَلَيْهِمْ، أَوْ يَكُونُ ذَلِكَ الْعَقْلُ فَاسِدًا، وَهُوَ شُبْهَةٌ خَيَالِيَّةٌ يَظُنُّ صَاحِبُهَا أَنَّهَا مَعْقُولٌ صَرِيحٌ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [سبأ: 6]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ [الرعد: 19]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الدُّنْيَا أُولَٰئِكَ هُمُ السَّادِقُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَبِيسُوا إِيمَانَهُمْ بِالْكَافِرِينَ هَٰؤُلَاءِ أُولَٰئِكَ يُضِلُّونَ كَثِيرًا مِمَّنْ ظَهَرَ لِهِمُ الْإِيمَانُ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا الْكُفْرُ فَهُمْ يَرِثُونَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [الرعد: 36]، وَالنَّفُوسُ لَا تَفْرَحُ بِالْمُحَالِ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [٥٧] قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس: 57-58]، وَالْمُحَالُ لَا يَشْفِي، وَلَا يَحْصُلُ بِهِ هُدًى وَلَا رَحْمَةٌ، وَلَا يُفْرَحُ بِهِ، فَهَٰذَا أَمْرٌ مِمَّنْ لَمْ يَسْتَقَرَّ فِي قَلْبِهِ خَيْرٌ، وَلَمْ يَثْبِتْ لَهُ عَلَى الْإِسْلَامِ قَدَمٌ، وَكَانَ أَحْسَنَ أَحْوَالِهِ الْحَيْرَةُ وَالشَّكُّ.

الأمر الثاني: أَنْ يُفْهَمَ عَنِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُرَادُهُ مِنْ غَيْرِ غُلُوٍّ وَلَا تَقْصِيرٍ، فَلَا يُحْمَلُ كَلَامُهُ مَا لَا يَحْتَمِلُهُ، وَلَا يَقْصَرُ بِهِ عَنْ مُرَادِهِ وَمَا قَصَدَهُ مِنَ الْهُدَى وَالْبَيَانِ.

وَقَدْ حَصَلَ بِإِهْمَالِ ذَلِكَ وَالْعُدُولِ عَنْهُ مِنَ الضَّلَالِ وَالْعُدُولِ عَنِ الصَّوَابِ مَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ، بَلِ سُوءُ الْفَهْمِ عَنِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ أَصْلُ كُلِّ بِدْعَةٍ وَضَلَالَةٍ نَشَأَتْ فِي الْإِسْلَامِ، بَلِ هُوَ أَصْلُ كُلِّ خَطَأٍ فِي الْأُصُولِ وَالْفُرُوعِ، وَلَا سِيَّمَا إِنْ أُضِيفَ إِلَيْهِ سُوءُ الْقَصْدِ، فَيَتَّفِقُ سُوءُ الْفَهْمِ فِي بَعْضِ الْأَشْيَاءِ مِنَ الْمَتَّبُوعِ - مَعَ حُسْنِ قَصْدِهِ - وَسُوءُ الْقَصْدِ مِنَ التَّابِعِ؛ فَيَا مَحَنَةَ الدِّينِ وَأَهْلَهُ! وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

وَهَلْ أَوْقَعَ الْقَدَرِيَّةَ وَالْمَرْجئةَ وَالْخَوَارِجَ وَالْمَعْتَزِلَةَ وَالْجَهْمِيَّةَ وَالرَّافِضَةَ وَسَائِرَ طَوَائِفِ أَهْلِ الْبِدْعِ إِلَّا سُوءُ الْفَهْمِ عَنِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، حَتَّى صَارَ الدِّينُ بِأَيْدِي أَكْثَرِ النَّاسِ هُوَ مُوجِبُ هَذِهِ الْأَفْهَامِ، وَالَّذِي فَهَمَهُ الصَّحَابَةُ وَمَنْ تَبِعَهُمْ عَنِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَمَهْجُورٌ لَا يُلْتَفَتُ إِلَيْهِ، وَلَا يَرْفَعُ هُوْلَاءُ بِهِ رَأْسًا، وَلَكثَرَةُ أَمْثَلُهُ هَذِهِ الْقَاعِدَةُ تَرْكِنَاهَا، فَإِنَّا لَوْ ذَكَّرْنَاهَا لَزَادَتْ عَلَى عَشْرَةِ أُلُوفٍ حَتَّى إِنَّكَ لَتَمُرُّ عَلَى الْكِتَابِ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ فَلَا تَجِدُ صَاحِبَهُ فَهَمٌ عَنِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ مَرَادَهُ كَمَا يَنْبَغِي فِي مَوْضِعٍ وَاحِدٍ.

وَهَذَا إِنَّمَا يَعْرِفُهُ مَنْ عَرَفَ مَا عِنْدَ النَّاسِ وَعَرَضَهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَمَّا مَنْ عَكَسَ الْأَمْرَ بَعَرَضَ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى مَا اعْتَقَدَهُ وَانْتَحَلَهُ وَقَلَّدَ فِيهِ مَنْ أَحْسَنَ بِهِ الظَّنَّ، فَلَيْسَ يُجْدِي الْكَلَامُ مَعَهُ شَيْئًا؛ فَدَعُهُ وَمَا اخْتَارَهُ لِنَفْسِهِ، وَوَلَّهُ مَا تَوَلَّى! وَاحْمَدِ الَّذِي عَافَاكَ مِمَّا ابْتَلَاهُ بِهِ.

الْأَمْرُ الثَّالِثُ: أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَعَلَ الدُّورَ ثَلَاثًا: دَارَ الدُّنْيَا، وَدَارَ الْبَرَزَخِ، وَدَارَ الْقَرَارِ، وَجَعَلَ لِكُلِّ دَارٍ أَحْكَامًا تَخْتَصُّ بِهَا، وَرَكَّبَ هَذَا الْإِنْسَانَ مِنْ بَدَنِ وَنَفْسٍ، وَجَعَلَ أَحْكَامَ دَارِ الدُّنْيَا عَلَى الْأَبْدَانِ وَالْأَرْوَاحِ تَبَعًا لَهَا، وَلِهَذَا جَعَلَ أَحْكَامَهُ الشَّرْعِيَّةَ مُرْتَبَةً عَلَى مَا يَظْهَرُ مِنْ حَرَكَاتِ اللِّسَانِ وَالْجَوَارِحِ، وَإِنْ أَضْمَرَتِ النُّفُوسُ خِلَافَهُ، وَجَعَلَ أَحْكَامَ الْبَرَزَخِ عَلَى الْأَرْوَاحِ وَالْأَبْدَانِ تَبَعًا لَهَا.

فَكَمَا تَبِعَتِ الْأَرْوَاحُ الْأَبْدَانَ فِي أَحْكَامِ الدُّنْيَا؛ فَتَأَلَّمَتْ بِأَلَمِهَا، وَالتَّدَّتْ بِرَاحَتِهَا، وَكَانَتْ هِيَ الَّتِي بَاشَرَتْ أَسْبَابَ النَّعِيمِ وَالْعَذَابِ تَبِعَتِ الْأَبْدَانَ الْأَرْوَاحُ فِي نَعِيمِهَا وَعَذَابِهَا، وَالْأَرْوَاحُ حِينَئِذٍ هِيَ الَّتِي تُبَاشِرُ الْعَذَابَ وَالنَّعِيمَ، فَالْأَبْدَانُ هُنَا ظَاهِرَةٌ وَالْأَرْوَاحُ خَفِيَّةٌ وَالْأَبْدَانُ كَالْقُبُورِ لَهَا، وَالْأَرْوَاحُ هُنَا ظَاهِرَةٌ وَالْأَبْدَانُ خَفِيَّةٌ فِي قُبُورِهَا تَجْرِي أَحْكَامُ الْبَرْزَخِ عَلَى الْأَرْوَاحِ، فَتَسْرِي إِلَى أَبْدَانِهَا نَعِيمًا أَوْ عَذَابًا، كَمَا تَجْرِي أَحْكَامُ الدُّنْيَا عَلَى الْأَبْدَانِ فَتَسْرِي إِلَى أَرْوَاحِهَا نَعِيمًا أَوْ عَذَابًا، فَاحِطٌ بِهَذَا الْمَوْضِعِ عِلْمًا، وَاعْرِفْهُ كَمَا يَنْبَغِي يُزِلْ عَنْكَ كُلَّ إِشْكَالٍ يُورِدُ عَلَيْكَ مِنْ دَاخِلٍ وَخَارِجٍ.

وَقَدْ أَرَانَا اللَّهَ - سُبْحَانَهُ - بِلُطْفِهِ وَرَحْمَتِهِ وَهِدَايَتِهِ مِنْ ذَلِكَ أَنْمُودَجًا فِي الدُّنْيَا مِنْ حَالِ النَّائِمِ، فَإِنَّ مَا يُنْعَمُ بِهِ أَوْ يُعَذَّبُ فِي نَوْمِهِ يَجْرِي عَلَى رُوحِهِ أَصْلًا، وَالْبَدَنُ تَبِعُ لَهُ، وَقَدْ يَقْوَى حَتَّى يُؤَثِّرَ فِي الْبَدَنِ تَأْثِيرًا مُشَاهِدًا، فَيَرَى النَّائِمُ فِي نَوْمِهِ أَنَّهُ ضُرِبَ فَيُصْبِحُ وَآثَرُ الضَّرْبِ فِي جِسْمِهِ، وَيَرَى أَنَّهُ قَدْ أَكَلَ أَوْ شَرِبَ فَيَسْتَقِظُ وَهُوَ يَجِدُ أَثَرَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ فِيهِ، وَيَذْهَبُ عَنْهُ الْجُوعُ وَالظَّمَأُ.

وَأَعْجَبَ مِنْ ذَلِكَ أَنَّكَ تَرَى النَّائِمَ يَقُومُ فِي نَوْمِهِ وَيَضْرِبُ وَيَبْطِشُ وَيُدَافِعُ كَأَنَّهُ يَقْظَانُ، وَهُوَ نَائِمٌ لَا شُعُورَ لَهُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَذَلِكَ أَنَّ الْحَكْمَ لَمَّا جَرَى عَلَى الرُّوحِ اسْتَعَانَتْ بِالْبَدَنِ مِنْ خَارِجِهِ، وَلَوْ دَخَلَتْ فِيهِ لَاسْتَقِظَ وَأَحْسَسَ، فَإِذَا كَانَتْ الرُّوحُ تَتَأَلَّمُ وَتَتَنَعَّمُ وَيَصِلُ ذَلِكَ إِلَى بَدَنِهَا بِطَرِيقِ الْإِسْتِبَاعِ، فَهَكَذَا فِي الْبَرْزَخِ بَلْ أَعْظَمُ، فَإِنَّ تَجَرُّدَ الرُّوحِ هُنَاكَ أَكْمَلُ وَأَقْوَى، وَهِيَ مُتَعَلِّقَةٌ بِبَدَنِهَا لَمْ تَنْقَطِعْ عَنْهُ كُلَّ الْإِنْقِطَاعِ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ حَشْرِ الْأَجْسَادِ وَقِيَامِ النَّاسِ مِنْ قُبُورِهِمْ - صَارَ الْحَكْمُ وَالنَّعِيمُ وَالْعَذَابُ عَلَى الْأَرْوَاحِ وَالْأَجْسَادُ ظَاهِرًا بَادِيًا أَصْلًا.

وَمَتَى أُعْطِيَتْ هَذَا الْمَوْضِعَ حَقَّهُ - تَبَيَّنَ لَكَ أَنَّ مَا أَخْبَرَ بِهِ الرَّسُولُ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ وَنَعِيمِهِ وَضِيقِهِ وَسَعَتِهِ وَضَمِهِ وَكَوْنَهُ حُفْرَةً مِنْ حَفْرِ النَّارِ أَوْ رَوْضَةً مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ - مُطَابِقٌ لِلْعَقْلِ، وَأَنَّهُ حَقٌّ لَا مِرْيَةَ فِيهِ، وَأَنَّ مَنْ أَشْكَلَ عَلَيْهِ ذَلِكَ فَمِنْ سُوءِ فَهْمِهِ وَقِلَّةِ عِلْمِهِ أُتِيَ، كَمَا قِيلَ:

وَكَمْ مِنْ عَائِبٍ قَوْلًا صَحِيحًا وَآفَتْهُ مِنَ الْفَهْمِ السَّقِيمِ

وَأَعْجَبَ مِنْ ذَلِكَ: أَنَّ تَجِدَ النَّائِمِينَ فِي فِرَاشٍ وَاحِدٍ، وَهَذَا رُوحُهُ فِي النَّعِيمِ، وَيَسْتَيْقِظُ وَأَثَرُ النَّعِيمِ عَلَى بَدَنِهِ، وَهَذَا رُوحُهُ فِي الْعَذَابِ وَيَسْتَيْقِظُ وَأَثَرُ الْعَذَابِ عَلَى بَدَنِهِ، وَلَيْسَ عِنْدَ أَحَدِهِمَا خَبَرٌ بِمَا عِنْدَ الْآخَرِ، فَأَمْرُ الْبَرْزَخِ أَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ. الْأَمْرُ الرَّابِعُ: أَنَّ اللَّهَ - سُبْحَانَهُ - جَعَلَ أَمْرَ الْآخِرَةِ، وَمَا كَانَ مُتَّصِلًا بِهَا غَيْبًا، وَحَجَبَهَا عَنْ إِدْرَاكِ الْمُكَلَّفِينَ فِي هَذِهِ الدَّارِ، وَذَلِكَ مِنْ كِمَالِ حِكْمَتِهِ، وَلِيَتَمَيَّزَ الْمُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ عَنْ غَيْرِهِمْ.

فَأَوَّلُ ذَلِكَ: أَنَّ الْمَلَائِكَةَ تَنْزِلُ عَلَى الْمُحْتَضِرِّ، وَتَجْلِسُ قَرِيبًا مِنْهُ، وَيُشَاهِدُهُمْ عِيَانًا، وَيَتَحَدَّثُونَ عَنْدهُ، وَمَعَهُمُ الْأَكْفَانُ وَالْحَنُوطُ؛ إِمَّا مِنَ الْجَنَّةِ، وَإِمَّا مِنَ النَّارِ، وَيُؤَمِّنُونَ عَلَى دَعَاءِ الْحَاضِرِينَ بِالْخَيْرِ أَوْ الشَّرِّ، وَقَدْ يُسَلِّمُونَ عَلَى الْمُحْتَضِرِّ، وَيُرَدُّ عَلَيْهِمْ تَارَةً بَلْفَظِهِ، وَتَارَةً بِإِشَارَتِهِ، وَتَارَةً بِقَلْبِهِ، حَيْثُ لَا يَتِمَكَّنُ مِنْ نُطْقٍ وَلَا إِشَارَةٍ.

وَقَدْ سَمِعَ بَعْضُ الْمُحْتَضِرِينَ يَقُولُ: أَهْلًا وَسَهْلًا وَمَرْحَبًا بِهِذِهِ الْوُجُوهُ. وَأَخْبَرَنِي شَيْخُنَا عَنْ بَعْضِ الْمُحْتَضِرِينَ فَلَا أَدْرِي أَشَاهِدُهُ؟ أَوْ أَخْبَرَ عَنْهُ؟ أَنَّهُ سَمِعَ وَهُوَ يَقُولُ: عَلَيْكَ السَّلَامُ هَاهُنَا فَاجْلِسْ، وَعَلَيْكَ السَّلَامُ هَاهُنَا فَاجْلِسْ.

وَقِصَّةُ خَيْرِ النَّسَاجِ رَحِمَهُ اللَّهُ مَشْهُورَةٌ حَيْثُ قَالَ عِنْدَ الْمَوْتِ: «اصْبِرْ - عَافَاكَ اللَّهُ - فَإِنَّ مَا أُمِرْتُ بِهِ لَا يَفُوتُ، وَمَا أُمِرْتُ بِهِ يَفُوتُ»، ثُمَّ اسْتَدْعَى بِمَاءِ فَتَوَضَّأَ

وَصَلَّى، ثم قال: امْضِ لِمَا أُمِرْتَ بِهِ وَمَاتَ.

وذكر ابنُ أبي الدنيا أنَّ عُمَرَ بن عبد العزيز لَمَّا كان في يومِهِ الذي مات فيه قال: أَجْلِسُونِي! فَأَجْلَسُوهُ، فقال: «أنا الذي أَمَرْتَنِي فَقَصَّرْتُ، وَنَهَيْتَنِي فَعَصَيْتُ (ثلاث مرات)، ولكن لا إله إلا الله، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَأَحَدَ النَّظَرَ، فقالوا: إِنَّكَ لَتَنْتَظِرُ نَظَرًا شَدِيدًا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! فقال: إِنِّي لَأَرَى حَصْرَةَ مَا هُمْ بِإِنْسٍ وَلَا جِنٍّ، ثُمَّ قُبِضَ.

قال مَسْلَمَةُ بن عبد المَلِك: لما احتضر عُمَرُ بن عبد العزيز كُنَّا عنده في قُبَّة، فأومأ إلينا أن اخرجوا فخرجنا، فقعدنا حول القُبَّة، وعنده وصيفٌ، فسمعناه يقرأ هذه الآية: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُنْظِقِينَ﴾ [القصص: 83]، ما أنتم بإنسٍ ولا جانٍّ، ثم خرج الوصيفُ فأومأ إلينا أن ادخلوا فدخلنا، فإذا هو قد قُبِضَ.

وقال فضالة بن دينار: حَضَرْتُ مُحَمَّدَ بن وَاسِعٍ وقد سُجِّيَ للموت، فجعل يقول: مَرَحَبًا بِمَلَائِكَةِ رَبِّي، لا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلا بالله، وَشَمَمْتُ رَائِحَةً طَيِّبَةً لَمْ أَشَمَّ رَائِحَةً قَطُّ أَطْيَبَ مِنْهَا، ثُمَّ شَخَصَ بَبَصَرِهِ فَمَاتَ. والآثارُ في ذلك أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَرَ وَأَبْلَغُ.

ويكفي من ذلك كله قولُ الله عَزَّجَلَّ: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴿٨٢﴾ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ نَنْظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا بُصُرُونَ﴾ [الواقعة: 83 - 85]؛ أي: أَقْرَبُ إِلَيْهِ بِمَلَائِكَتِنَا وَرُسُلِنَا، وَلَكِنْكُمْ لَا تَرَوْنَهُمْ. فهذا أَوَّلُ الأَمْرِ، وهو غيرُ مَرئي لَنَا ولا مُشاهد، وهو في هذه الدَّارِ.

ثُمَّ يَمُدُّ الْمَلِكُ يَدَهُ إِلَى الرُّوحِ فَيَقْبِضُهَا وَيُخَاطِبُهَا، وَالْحَاضِرُونَ لَا يَرَوْنَهُ وَلَا

يَسْمَعُونَهُ، ثُمَّ تَخْرُجُ، فَيُخْرِجُ لَهَا نُورٌ مِثْلَ شِعَاعِ الشَّمْسِ، وَرَائِحَةُ أَطِيبٍ مِنْ رَائِحَةِ الْمِسْكِ، وَالْحَاضِرُونَ لَا يَرَوْنَ ذَلِكَ، وَلَا يَشْمُونَهُ.

ثُمَّ تَصْعَدُ بَيْنَ سِمَاطِينَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَالْحَاضِرُونَ لَا يَرَوْنَهُمْ.

ثُمَّ تَأْتِي الرُّوحُ فَتُشَاهِدُ غَسْلَ الْبَدَنِ وَتَكْفِينَهُ وَحَمْلَهُ، وَتَقُولُ: قَدَّمُونِي، قَدَّمُونِي! أَوْ إِلَى أَيْنَ تَذْهَبُونَ بِي؟ وَلَا يَسْمَعُ النَّاسُ ذَلِكَ.

فَإِذَا وُضِعَ فِي لَحْدِهِ وَسُويَ عَلَيْهِ التُّرَابُ لَمْ يَحْجُبِ التُّرَابُ الْمَلَائِكَةَ عَنِ الْوُصُولِ إِلَيْهِ، بَلْ لَوْ نُقِرَ لَهُ حَجَرٌ فَأُودِعَ فِيهِ، وَخُتِمَ عَلَيْهِ بِالرَّصَاصِ لَمْ يَمْنَعْ وَصُولَ الْمَلَائِكَةِ إِلَيْهِ، فَإِنَّ هَذِهِ الْأَجْسَادَ الْكَثِيفَةَ لَا تَمْنَعُ خَرَقَ الْأَرْوَاحِ لَهَا، بَلْ الْجَنُّ لَا يَمْنَعُهَا ذَلِكَ، بَلْ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ - الْحِجَارَةَ وَالتُّرَابَ لِلْمَلَائِكَةِ بِمَنْزِلَةِ الْهَوَاءِ لِلطَّيْرِ، وَاتَّسَاعَ الْقَبْرِ وَانْفِصَاحَهُ لِلرُّوحِ بِالذَّاتِ وَالبَدَنِ تَبَعًا، فَيَكُونُ الْبَدَنُ فِي لَحْدٍ أَضْيَقَ مِنْ ذِرَاعٍ، وَقَدْ فُسِحَ لَهُ مَدٌّ بَصَرَهُ تَبَعًا لِرُوحِهِ.

وَأَمَّا عَصْرَةُ الْقَبْرِ حَتَّى تَخْتَلِفَ بَعْضُ أَضْلاعِ الْمَوْتَى فَلَا يَرُدُّهُ حِسٌّ وَلَا عَقْلٌ وَلَا فِطْرَةٌ، وَلَوْ قُدِّرَ أَنَّ أَحَدًا نَبَشَ عَنْ مَيِّتٍ فَوَجَدَ أَضْلاعَهُ كَمَا هِيَ لَمْ تَخْتَلِفْ لَمْ يَمْنَعُ أَنْ تَكُونَ قَدْ عَادَتْ إِلَى حَالِهَا بَعْدَ الْعَصْرَةِ، فَلَيْسَ مَعَ الزَّادَةِ وَالْمَلَا حِدَةٍ إِلَّا مَجْرَدُ تَكْذِيبِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَلَقَدْ أَخْبَرَ بَعْضُ الصَّادِقِينَ أَنَّهُ حَفَرَ ثَلَاثَةَ أَقْبُرٍ، فَلَمَّا فَرَّغَ مِنْهَا اضْطَجَعَ يَسْتَرِيحُ؛ فَرَأَى فِيهَا يَرَى النَّائِمَ مَلَكَيْنِ نَزَلَ فَوَقَفَا عَلَى أَحَدِ الْأَقْبُرِ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِسَاحِبِهِ: اكْتُبْ فَرَسَخًا فِي فَرَسَخٍ، ثُمَّ وَقَفَا عَلَى الثَّانِي، فَقَالَ: اكْتُبْ مِيلًا فِي مِيلٍ، ثُمَّ وَقَفَا عَلَى الثَّلَاثِ، فَقَالَ: اكْتُبْ فِتْرًا فِي فِتْرٍ.

ثُمَّ انْتَبَهَ فَجِئَءَ بِرَجُلٍ غَرِيبٍ لَا يُؤْبَهُ لَهُ، فَدَفَنَ فِي الْقَبْرِ الْأَوَّلِ، ثُمَّ جِئَءَ بِرَجُلٍ

آخر، فدفن في القبر الثاني، ثم جيء بامرأة مُترفة من وجوه البلد حَوْلها ناسٌ كثيرٌ، فدفنت في القبر الضيق الذي سَمِعَهُ يقول: فِتْرًا في فِتْرٍ.

والفِتْرُ: ما بين الإبهام والسبابة.

الأمر الخامس: أنَّ النار التي في القبر والخُصرة ليست نار الدُّنيا ولا من زرع الدُّنيا فيُشاهده مَنْ شَهِد نار الدُّنيا وخُصرتها، وإنما هي من نار الآخرة وخُصرتها، وهي أشدُّ من نار الدُّنيا فلا يُحسُّ بها أهل الدُّنيا، فإنَّ الله - سبحانه - يُحمي عليه ذلك التراب والحجارة التي عليه وتحتة حتى يكون أعظم من حجر الدُّنيا حرًّا، ولو مَسَّها أهل الدُّنيا لم يُحسُّوا بذلك، بل أعجب من ذلك أنَّ الرّجلين يُدفنان أحدهما إلى جَنبِ الآخر، وهذا في حُفرة من حفر النار لا يَصِلُ حرُّها إلى جاره، وذلك في روضة من رياض الجنة لا يصل رَوْحُها ونَعِيمُها إلى جاره.

وقُدرة الرَّبِّ - تعالى - أَوْسَعُ وَأَعْجَبُ من ذلك، وقد أَرَّانا من آيات قُدْرته في هذه الدَّار ما هو أعجب من ذلك بكثير، ولكن النفوس مُولعة بالتكذيب بما لم تُحِط به علمًا إلا مَنْ وَفَّقَهُ الله - تعالى - وعَصَمَهُ.

فإذا شاء الله - سبحانه - أن يَطَّلِعَ على ذلك بعض عبيده أَطْلَعَهُ وَغَيَّبَهُ عن غيره؛ إذ لو اطلع عليه العبادُ كلهم لَزَّالَت كَلِمَةُ التَّكْلِيفِ والإيمان بالغيب، ولَمَّا تَدَافَنَ النَّاسُ كما في الصَّحَّاحِينَ عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَوْ لَا أَنْ لَا تَدَافِنُوا لَدَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُسَمِّعَكُمْ من عذابِ القبر ما أَسَمِعُ».

ولمَّا كانت هذه الحكمة مَنْفِية في حقِّ البهائم سَمِعَت ذلك وأدركته، كما حَدَّثَ بِرَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَغْلَتَهُ، وكادت تُلقِيه لَمَّا مَرَّ بِمَنْ يُعَذَّبُ في قبره.

وحدّثني صاحبنا أبو عبد الله مُحَمَّد بن الرّزّيز الحرّاني أنّه خرج من داره بعد العصر بآمد إلى بُستان، قال: «فلما كان قبل غروب الشمس تَوَسَّطْتُ القبورَ، فإذا بقبر منها، وهو جمرة نار مثل كُوز الزُّجاج⁽¹⁾، والميت في وسطه، فجعلت أُمسح عيني، وأقول: أنا أم يَقْظان؟ ثم التفتُ إلى سُور المَدِينَة، وقلت: والله ما أنا بنائم، ثم ذهبتُ إلى أهلي وأنا مَذْهُوش فَاتَوْنِي بطعام فلم أستطع أن آكل، ثم دخلتُ البلد فسألت عن صاحب القبر فإذا به مَكَّاس قد توفّي في ذلك اليوم». فروية هذه النار في القبر كروية الملائكة والجنّ تقع أحياناً لِمَنْ شاء الله أن يُريه ذلك.

وذكر من حديث حَمَّاد بن سَلَمَة، عن عمرو بن دينار، عن سالم بن عبد الله، عن أبيه، قال: «بينا أنا أسيرُ بين مَكَّة والمَدِينَة على راحلة وأنا مُحَقَّبُ إِدَاوَة⁽²⁾ إذ مررتُ بمقبرة، فإذا رجلٌ خارج من قبره يلتهب ناراً، وفي عنقه سلسلة يَجُرُّها، فقال: يا عبد الله، انضح! يا عبد الله، انضح! فو الله ما أدري أعرفني باسمي، أم كما يدعو الناس.

قال: فخرج آخرُ، فقال: يا عبد الله، لا تنضح! يا عبد الله، لا تنضح! ثم اجتذب السلسلة فأعاده في قبره.

ثم ذَكَرَ عِدَّةَ قصص مُفْرَعَة، ومنها ما يحتاج إليه النّظر هل صَحَّت أم لا؟». ثم قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «قلت: وحدّثني صاحبنا أبو عبد الله مُحَمَّد بن سنان السلامي - وكان من خيار عباد الله، وكان يَتَحَرَّى الصّدق - قال: «جاء

(1) مَوْقِدُ نارٍ مُلْتَهَب، يَسْتَعْمَلُهُ صَانِعُ الزُّجاج، فتقلب فيه كتلة الزُّجاج جَمْرَة مُتَقَدَة.

(2) إِنَاءٌ صَغِيرٌ مِنْ جِلْدٍ يُتَّخَذُ لِلْمَاءِ.

رجلٌ إلى سُوقِ الحَدَّادِينَ ببغداد، فَباعَ مَسامِيرَ صِغارًا؛ المِسمارَ برأسين، فأَخذها الحَدَّادُ وجعل يُحمي عليها، فلا تَلِينُ معه حتَّى عَجَزَ عن صَرْبِها، فطلب البائعَ فَوَجده فقال: مِن أين لك هذه المَساميرُ؟ فقال: لَقِيتُها فلم يزل به حتَّى أَخْبَرَهُ أَنَّهُ وَجَدَ قَبْرًا مَفْتُوحًا، وفيه عِظامٌ مَيَّتَ مَنْظُومَةٌ بهذه المَسامير، قال: فعالجتُها على أن أخرجَها، فلم أَقدر فأَخذت حَجَرًا فَكسرت عِظامه وجمعتُها، قال- أي: السلامي-: وأنا رأيتُ تلكَ المَسامير. قلت له: فكيف صِفْتُها؟ قال: المِسمارُ صَغيرٌ بِرَأْسَيْنِ».

ثم قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «وهذه الأخبار وأضعافُها وأضعافُ مِمَّا لا يَتَسَعُ لها الكتابُ مِمَّا أراه اللهُ- سبحانه- لِبعض عبادِهِ من عذابِ القبرِ ونَعيمِهِ عِيانًا.

وأما رُؤيةُ المَنامِ فلو ذكرناها لَجاءت عِدَّةُ أسفار، ومن أراد الوقوفَ عليها فعليه بكتاب «المنامات» لابن أبي الدنيا، وكتاب «التبيان» للقيرواني، وغيرهما من الكتبِ المُتضمنَةِ لذلك، وليس عند الملاحدة والزنادقة إلا التَكذيبُ بما لم يُحيطوا بعلمِهِ.

الأمر السادس: أَنَّ الله- سبحانه- يُحدثُ في هذه الدار ما هو أعجبُ من ذلك، فهذا جبريلُ يَنزِلُ على النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَيَتَمَثَّلُ له رجلاً؛ فيُكَلِّمُهُ بكلامٍ يسمِعُهُ، ومن إلى جانبِ النَّبيِّ لا يراه ولا يسمِعُهُ، وكذلك غيره من الأنبياءِ صلواتُ اللهِ عليهم، وأحياناً يَأْتِيهِ الوحيُّ في مِثْلِ صَلَصلةِ الجرسِ، لا يسمِعُهُ غَيْرُهُ من الحاضرين.

وهؤلاءُ الجِنُّ يَتَحَدَّثُونَ ويتكلمون بالأصواتِ المُرتفعةِ بيننا، ونحن لا نَسْمَعُهُمْ.

وقد كانت الملائكة تضرب الكُفَّار بالسَّيَّاط، وتضرب رقابهم وتصيح بهم والمُسلمون معهم لا يَرَوْنَهُمْ، ولا يَسْمَعُونَ كلامهم.

والله - سبحانه - قد حَجَبَ بني آدم عن كثيرٍ ممَّا يحدث في الأرض وهو بينهم، وقد كان جبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يُقْرِئ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ والحاضرون لا يَسْمَعُونَهُ.

وكيف يَسْتَنَكِرُ مَنْ يَعْرِفُ اللَّهَ سُبْحَانَهُ، وَيُقَرُّ بِقُدْرَتِهِ أَنْ يُحْدِثَ حَوَادِثَ يَصْرِفُ عَنْهَا أَبْصَارَ بَعْضِ خَلْقِهِ حِكْمَةً مِنْهُ وَرَحْمَةً بِهِمْ؛ لَأَنَّهُمْ لَا يُطِيقُونَ رُؤْيَيْهَا وَسَمَاعَهَا، والعبد أضعف بصراً وسمعاً مِنْ أَنْ يَثْبِتَ لِعَذَابِ الْقَبْرِ وَمُشَاهَدَتِهِ، وكثيراً مِمَّنْ أَشْهَدَهُ اللَّهُ ذَلِكَ صُعِقَ وَغُشِيَ عَلَيْهِ، وَلَمْ يَتَنَفَّعْ بِالْعِيشِ زَمْنًا، وَبَعْضُهُمْ كُشِفَ قَنَاعَ قَلْبِهِ فَمَاتَ، فَكَيْفَ يُنْكَرُ فِي الْحِكْمَةِ الْإِلَهِيَةِ إِسْبَالُ غِطَاءٍ يَحُولُ بَيْنَ الْمُكَلَّفِينَ وَبَيْنَ مُشَاهَدَةِ ذَلِكَ إِذَا كُشِفَ الْغِطَاءُ رَأَوْهُ وَشَاهَدُوهُ عَيْنَانًا؟

ثم إِنَّ الْعَبْدَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُزِيلَ الزُّبُقَ وَالْخِرْدَلَ عَنْ عَيْنِ الْمَيِّتِ وَصَدْرِهِ ثُمَّ يَرُدُّهُ بِسُرْعَةٍ؛ فَكَيْفَ يَعْجِزُ عَنْهُ الْمَلَكُ؟ وَكَيْفَ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ مَنْ هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ؟ وَكَيْفَ تَعْجِزُ قُدْرَتُهُ عَنْ إِبْقَائِهِ فِي عَيْنِهِ وَعَلَى صَدْرِهِ لَا يَسْقُطُ عَنْهُ؟

وهل قِيَاسُ أَمْرِ الْبَرَزَخِ عَلَى مَا يُشَاهَدُهُ النَّاسُ فِي الدُّنْيَا إِلَّا مُحَضُّ الْجَهْلِ وَالضَّلَالِ، وَتَكْذِيبُ أَصْدَقِ الصَّادِقِينَ، وَتَعْجِيزُ رَبِّ الْعَالَمِينَ؟! وَذَلِكَ غَايَةُ الْجَهْلِ وَالظُّلْمِ.

وَإِذَا كَانَ أَحَدُنَا يُمَكِّنُهُ تَوْسِعَةُ الْقَبْرِ عَشْرَةَ أَذْرَعٍ وَمِائَةَ ذِرَاعٍ وَأَكْثَرَ طَوْلًا وَعَرْضًا وَعَمَقًا، وَيَسْتَرُ تَوْسِيعَهُ عَنِ النَّاسِ، وَيُطْلَعُ عَلَيْهِ مَنْ شَاءَ، فَكَيْفَ يَعْجِزُ رَبُّ الْعَالَمِينَ أَنْ يُوسِعَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مَا يَشَاءُ، وَيَسْتَرُ ذَلِكَ عَنْ أَعْيُنِ بَنِي آدَمَ؛ فَيَرَاهُ بَنُو آدَمَ ضَيْقًا، وَهُوَ أَوْسَعُ شَيْءٍ، وَأَطْيَبُهُ رِيحًا، وَأَعْظَمُهُ إِضَاءَةً وَنُورًا، وَهُمْ

لا يَرَوْنَ ذلك.

وسِرُّ الْمَسْأَلَةِ: أن هذه التوسعة والضيق والإضاءة والخضرة والنار ليس من جنس المعهود في هذا العالم، والله - سبحانه - إنما أشهد بني آدم في هذه الدار ما كان فيها ومنها، فأما ما كان من أمر الآخرة فقد أُسْبِلَ عليه الغطاء؛ ليكون الإقرار به والإيمان به سبباً لسعادتهم، فإذا كُشِفَ عنهم الغطاء صار عياناً مشاهداً.

فلو كان الميِّتُ بين النَّاسِ مَوْضوعاً لم يَمْتَنِعَ أن يَأْتِيَهُ الْمَلَكُانِ وَيَسْأَلَانِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَشْعُرَ الْحَاضِرُونَ بِذَلِكَ، وَيُجِيبُهُمَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَسْمَعُوا كَلَامَهُ، وَيَضْرِبَانَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُشَاهِدَ الْحَاضِرُونَ ضَرْبَهُ، وَهَذَا الْوَاحِدُ مِنَّا يَنَامُ إِلَى جَانِبِ صَاحِبِهِ فَيُعَذَّبُ فِي النَّوْمِ، وَيُضْرَبُ وَيَأْلَمُ، وَلَيْسَ عِنْدَ الْمُسْتَقِظِ خَبْرٌ مِنْ ذَلِكَ أَلْبَتَ، وَقَدْ سَرَى أَثَرُ الضَّرْبِ وَالْأَلَمِ إِلَى جَسَدِهِ.

وَمِنْ أَعْظَمِ الْجَهْلِ اسْتِبْعَادُ شَقِّ الْمَلِكِ الْأَرْضِ وَالْحَجَرِ، وَقَدْ جَعَلَهُمَا اللَّهُ - سبحانه - له كَالهَوَاءِ لِلطَّيْرِ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ حَجَبِهَا لِلْأَجْسَامِ الْكَثِيفَةِ أَنْ تَتَوَلَّجَ حُجُبُهَا لِلْأَرْوَاحِ اللَّطِيفَةِ، وَهَلْ هَذَا إِلَّا مِنْ أَفْسَدِ الْقِيَاسِ؟
وبهذا وأمثاله كُذِّبَتِ الرُّسُلُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ.

الْأَمْرُ السَّابِعُ: أَنَّهُ غَيْرُ مُمْتَنِعٍ أَنْ تُرَدَّ الرُّوحُ إِلَى الْمَصْلُوبِ وَالْغَرِيقِ وَالْمَحْرُوقِ، وَنَحْنُ لَا نَشْعُرُ بِهَا؛ لِأَنَّ ذَلِكَ الرَّدَّ نَوْعٌ آخَرُ غَيْرُ الْمَعْهُودِ، فَهَذَا الْمُغْمَى عَلَيْهِ وَالْمَسْكُوتُ وَالْمَبْهُوتُ أَحْيَاءُ، وَأَرْوَاحُهُمْ مَعَهُمْ، وَلَا نَشْعُرُ بِحَيَاتِهِمْ، وَمَنْ تَفَرَّقَتْ أَجْزَاؤُهُ لَا يَمْتَنِعُ عَلَى مَنْ هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ أَنْ يَجْعَلَ لِلرُّوحِ اتِّصَالاً بِتِلْكَ الْأَجْزَاءِ عَلَى تَبَاعُدِ مَا بَيْنَهَا وَقَرْبِهِ، وَيَكُونُ فِي تِلْكَ الْأَجْزَاءِ شَعُورٌ بِنَوْعٍ مِنَ الْأَلَمِ وَاللَّذَّةِ.

وإذا كان الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَدْ جَعَلَ فِي الْجَمَادَاتِ شعورًا وإدراكًا تُسَبِّحُ رَبَّهَا به، وتَسْقُطُ الْحِجَارَةُ مِنْ خَشْيَتِهِ، وَتَسْجُدُ لَهُ الْجِبَالُ وَالشَّجَرُ، وَتُسَبِّحُهُ الْحَصَى والمياه والنبات؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا نَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: 44]، ولو كان التسييح هو مجرد دلالتها على صانعها لم يقل: ﴿وَلَكِنْ لَا نَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾، فَإِنَّ كُلَّ عَاقِلٍ يَفْقَهُ دِلَالَتَهَا عَلَى صَانِعِهَا. وقال تعالى: ﴿إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ [ص: 18]، والدلالة على الصُّنْعِ لَا تَخْتَصُّ بِهِذَيْنِ الْوَقْتَيْنِ.

وكذلك قوله تعالى: ﴿يَنْجِبَالُ أَوْيٍ مَعَهُ﴾ [سبا: 10]، والدلالة لَا تَخْتَصُّ مَعِيَّتَهُ وَحْدَهُ، وَكَذَبَ عَلَى اللَّهِ مَنْ قَالَ: التَّأْوِيلُ: رَجَعُ الصَّدَى، فَإِنْ هَذَا يَكُونُ لِكُلِّ مُصَوِّتٍ.

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: 18]، والدلالة على الصَّانِعِ لَا تَخْتَصُّ بِكَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ.

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ [النور: 41]، فهذه صلاةٌ وتَسْبِيحٌ حَقِيقِيَّةٌ يَعْلَمُهَا اللَّهُ، وَإِنْ جَحَدَهَا الْجَاهِلُونَ الْمُكَذِّبُونَ.

وقد أخبر الله - تعالى - عن الْحِجَارَةِ أَنَّ بَعْضَهَا يَزُولُ عَنْ مَكَانِهِ، وَيَسْقُطُ مِنْ خَشْيَتِهِ، وَقَدْ أَخْبَرَ عَنِ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ أَنَّهُمَا يَأْذَنَانِ لَهُ، وَقَوْلُهُمَا ذَلِكَ؛ أَي: يَسْتَمْعَانِ كَلَامَهُ، وَقَدْ خَاطَبَهُمَا، فَسَمِعَا خِطَابَهُ، وَأَحْسَنَا جَوَابَهُ؛ فَقَالَ لَهُمَا: ﴿أَتَيْنَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: 11].

وقد كان الصَّحابةُ يَسْمَعُونَ تَسْبِيحَ الطَّعَامِ وهو يُؤْكَل، وَسَمِعُوا حَنِينَ الْجَذَعِ اليابس في المَسْجِد؛ فإذا كانت هذه الأجسامُ فيها الإحساسُ والشُّعُور، فالأجسامُ التي كانت فيها الرُّوح والحياة أَوْلَى بذلك.

وقد أشهد الله - سبحانه - عباده في هذه الدَّار إعادة حياة كاملة إلى بدن قد فارقتهُ الرُّوح؛ فتكلم ومشي وأكل وشرب وتزوَّج ووُلِدَ له؛ كالذين ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ أَمْلَءَ الْكَلْبَ وَالْحَبْءَ فَأَمَّا الْكَلْبُ فَكَانَ خَائِفَةً فَأَمَّا الْكَلْبُ فَكَانَ خَائِفَةً فَأَمَّا الْكَلْبُ فَكَانَ خَائِفَةً﴾ [البقرة: 243]، ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [البقرة: 259]، وكقتيل بني إسرائيل، أو كالذين قالوا للموسى: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: 55]؛ فأماهم الله ثم بعثهم من بعد موتهم، وكأصحاب الكهف، وكقصة إبراهيم في الطيور الأربعة.

فإذا أعاد الحياة التامة إلى هذه الأجساد بعد ما بردت بالموت، فكيف يمتنع على قدرته الباهرة أن يُعيد إليها بعد موتها حياة ما غير مُستقرة يقضي بها ما أمره فيها، ويستنطقها بها ويُعَذِّبها أو يُنْعِمها بأعمالها؟! وهل إنكار ذلك إلا مجرد تكذيب وعناد وجحود؟! وبالله التوفيق.

الأمر الثامن: أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ عَذَابَ الْقَبْرِ وَنَعِيمَهُ اسْمٌ لِعَذَابِ الْبَرْزَخِ وَنَعِيمِهِ، وهو ما بين الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: 100].

وهذا البرزخُ يشرفُ أهله على الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَسُمِّيَ عَذَابُ الْقَبْرِ وَنَعِيمَهُ، وَأَنَّهُ رَوْضَةٌ أَوْ حَفْرَةٌ نَارٌ؛ بِاعْتِبَارِ غَالِبِ الْخَلْقِ، فَالْمَصْلُوبِ وَالْحَرِيقِ وَالْغَرَقِ وَأَكِيلِ السَّبَاعِ وَالطَّيُورِ لَهُ مِنْ عَذَابِ الْبَرْزَخِ وَنَعِيمِهِ قِسْطُهُ الَّذِي تَقْتَضِيهِ أَعْمَالُهُ،

وإن تنوَّعت أسبابُ النعيم والعذاب وكيفياتهما، فقد ظنَّ بعضُ الأوائل أنَّه إذا حُرِّقَ جَسَدُهُ بالنار، وصَارَ رمادًا وذُرِّيَّ بعضُهُ في البحر وبعضه في البر في يوم شديد الريح أنه يَنجُو من ذلك؛ فَأَوْصَى بَنِيهِ أَنْ يَفْعَلُوا بِهِ ذَلِكَ، فَأَمَرَ اللَّهُ البحرَ فَجَمَعَ ما فيه، وأمرَ البرَّ فَجَمَعَ ما فيه، ثم قال: «قُمْ». فإذا هو قائمٌ بين يَدَيِ اللَّهِ.

فسأله: «مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا فَعَلْتَ؟ فقال: خَشِيتُكَ يَا رَبِّ وَأَنْتَ أَعْلَمُ؛ فَمَا تَلَاَفَاهُ أَنْ رَحِمَهُ».

فلم يَفُتْ عذابُ البرزخ ونيَمُهُ لهذه الأجزاء التي صارت في هذه الحال، حتَّى لو عُلقَ الميتُ على رؤوس الأشجار في مَهَابِّ الرِّيح لأصاب جسده من عذاب البرزخ حَظُهُ ونصيبه، ولو دُفِنَ الرجلُ الصَّالحُ في أَتُونٍ⁽¹⁾ من النار لأصاب جسده من نعيم البرزخ وروحه نَصيبه وحظه، فيَجْعَلُ اللَّهُ النَّارَ عَلَى هَذَا بَرْدًا وَسَلَامًا، والهواءُ عَلَى ذَلِكَ نَارًا وَسُمُومًا.

فغناصِرُ العالم وموادُّه مُنْقَادَةٌ لِرَبِّهَا وفاطرِها وخالقِها يُصَرِّفُهَا كَيْفَ يَشَاءُ، وَلَا يَسْتَعْصِي عَلَيْهِ مِنْهَا شَيْءٌ أَرَادَهُ، بل هي طَوَع مَشِيتُهُ مُدَلَّلَةٌ مُنْقَادَةٌ لِقُدْرَتِهِ، وَمَنْ أَنْكَرَ هَذَا، فَقَدْ جَحَدَ رَبَّ الْعَالَمِينَ، وَكَفَرَ بِهِ، وَأَنْكَرَ رُبُوبِيَّتَهُ.

الأمر التاسع: أَنَّ المَوْتَ مَعَادٌ وَبَعْثٌ أَوَّلٌ؛ فَإِنَّ اللَّهَ - سُبْحَانَهُ - جَعَلَ لِبْنِ آدَمَ مَعَادَيْنِ وَبَعْثَيْنِ يَجْزِي فِيهِمَا الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا، وَيَجْزِي الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَسَنِ.

فالبعث الأول: مُفَارَقَةُ الرُّوحِ لِلْبَدَنِ وَمَصِيرُهَا إِلَى دَارِ الْجَزَاءِ الْأَوَّلِ.
والبعث الثاني: يَوْمُ يَرُدُّ اللَّهُ الْأَرْوَاحَ إِلَى أَجْسَادِهَا وَيَبْعَثُهَا مِنْ قُبُورِهَا إِلَى

(1) الموقد الكبير الذي تُوقَدُ فِيهِ النَّيران.

الجنة أو النار، وهو الحشر الثاني، ولهذا في الحديث الصحيح: «تؤمن بالبعث الآخر».

فإنَّ البعث الأول لا يُنكره أحدٌ، وإن أنكر كثيرٌ من النَّاسِ الجزاء فيه والنعيم والعذاب.

وقد ذكرَ الله سُبحَانَهُ وتَعَالَى هاتين القيامتين، وهما الصغرى والكبرى في سورة المؤمنين، وسورة الواقعة، وسورة القيامة، وسورة المطففين، وسورة الفجر، وغيرها من السُّور.

وقد اقتضى عدله وحكمته أن جعلهما دَارِيَّ جَزَاءِ الْمُحْسِنِ والمُسيءِ، ولكن تَوَفِيَةَ الجزاء إِنَّمَا تكون يوم المَعَادِ الثاني في دار القَرَارِ، كما قال تَعَالَى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۖ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْفَيْكَةِ ۖ﴾ [آل عمران: 185]، وقد اقتضى عدله، وأَوْجَبَتْ أَسْمَاؤُهُ الحُسْنَى وكَمَالُهُ الْمُقَدَّسُ تنعيمَ أبدان أوليائه وأَرْوَاحِهِم، وتَعَذِيبَ أبدان أعدائه وأَرْوَاحِهِم، فلا بد أن يُذِيقَ بَدَنَ الْمُطِيعِ له ورُوحَهُ من النعيم واللذة ما يَلِيقُ به، ويُذِيقَ بَدَنَ الْفَاجِرِ والعاصي له ورُوحَهُ من الألم والعقوبة ما يَسْتَحِقُّهُ. هذا مُوجِبُ عَدْلِهِ وحِكْمَتِهِ وكَمَالِهِ الْمُقَدَّسِ.

ولما كانت هذه الدارُ دارَ تَكْلِيفٍ وامْتِحَانٍ لا دارَ جَزَاءٍ لم يَظْهَرِ فيها ذلك، وأمَّا البرزخ فأَوَّلُ دارِ الجزاء؛ فظْهَرَ فيها من ذلك ما يَلِيقُ بتلك الدَّارِ، وتَقْتَضِي الحِكْمَةَ إِظْهَارِهِ.

فإذا كان يوم القيامة الكبرى وَفِيَّ أَهْلِ الطَّاعَةِ وأَهْلِ المَعْصِيَةِ ما يَسْتَحِقُّونَهُ من نعيم الأبدان والأرواح وعذابهما؛ فعذابُ البرزخ ونيعمُهُ أولُ عذاب الآخرة ونيعمها، وهو مُشْتَقٌّ مِنْهُ، وَوَاصِلٌ إِلَى أَهْلِ البرزخ هناك، كما دَلَّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ

والسنة الصحيحة الصريحة في غير موضع دلالة صريحة كقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فِيُفْتَحْ لَهُ بَابٌ إِلَى الْجَنَّةِ؛ فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَنَعِيمِهَا»، وفي الفاجر: «فِيُفْتَحْ لَهُ بَابٌ إِلَى النَّارِ، فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسَمُومِهَا».

ومعلوم قطعاً أَنَّ البدن يأخذ حظه من هذا الباب، كما تأخذ الروح حظها، فإذا كان يوم القيامة دَخَلَ من ذلك الباب إلى مقعده الذي هو داخله، وهذان البابان يصل منهما إلى العبد في هذه الدار أثرٌ خفيٌّ محجوب بالشواغل والغواشي الحسية والعوارض، ولكن يُحسُّ به كثيرٌ من الناس وإن لم يعرف سببه، ولا يُحسن التعبير عنه؛ فوجود الشيء غير الإحساس به والتعبير عنه، فإذا مات كان وصولُ ذلك الأثر إليه من دَيْنِكَ الْبَابَيْنِ أكمل، فإذا بُعث كَمُلَ وصول ذلك الأثر إليه، فحكمةُ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُنْتَظِمَةٌ لذلك أكمل انتظام في الدور الثلاث.

المبحث السادس: هل عذابُ القبر دائمٌ أم مُنقطعٌ؟

قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «الروح» (ص 240 - 243): «جوابه: أَنَّهُ نَوْعَانِ:

نوع دائم: سوى ما وَرَدَ في بعض الحديث: أَنَّهُ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ ما بين النفختين، فإذا قاموا من قبورهم ﴿قَالُوا يَنْوَلِّنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: 52]، ويدلُّ على دَوَامِهِ قوله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر: 46]، ويدلُّ عليه - أيضاً - ما تقدَّم في حديث سَمُرَةَ الذي رواه البخاريُّ في رؤيا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفيه: «فهو يُفعل به ذلك إلى يوم القيامة».

وفي حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قصة الجريدتين: «لَعَلَّهُ يُخَفَّفُ عَنْهُمَا ما

لم يَيْبَسَا»، فجعل التخفيف مُقَيِّدًا بمدة رطوبتهما فقط.

وفي حديث الرِّبِيعِ بنِ أَنَسٍ، عن أَبِي العَالِيَةِ، عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ثُمَّ أَتَى عَلَى قَوْمٍ تُرْضَخُ رُءُوسُهُم بِالصَّخَرِ، كُلَّمَا رُضِخَتْ عَادَتْ لَا يُفْتَرَّ عَنْهُمْ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ»، وقد تَقَدَّمَ.

وفي الصَّحِيحِ فِي قِصَّةِ الَّذِي لَبَسَ بُرْدَيْنِ، وَجَعَلَ يَمْشِي وَيَتَبَخَّرُ، فَخَسَفَ اللَّهُ بِهِ الْأَرْضَ فَهُوَ يَتَجَلَّجَلُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

وفي حديث البراء بن عازب فِي قِصَّةِ الْكَافِرِ: «ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ إِلَى النَّارِ فَيَنْظُرُ إِلَى مَقْعَدِهِ فِيهَا حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ»، رواه أحمد.

وفي بعض طُرُقِهِ: «ثُمَّ يُخْرَقُ لَهُ خَرْقًا إِلَى النَّارِ فَيَأْتِيهِ مِنْ غَمِّهَا وَدُخَانِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ».

النوع الثاني: إِلَى مُدَّةٍ ثُمَّ يَنْقَطِعُ، وَهُوَ عَذَابٌ بَعْضُ الْعُصَاةِ الَّذِينَ خَفَّتْ جَرَائِمُهُمْ؛ فَيُعَذَّبُ بِحَسَبِ جُرْمِهِ، ثُمَّ يُخَفَّفُ عَنْهُ، كَمَا يُعَذَّبُ فِي النَّارِ مُدَّةً، ثُمَّ يَزُولُ عَنْهُ الْعَذَابُ.

وقد يَنْقَطِعُ عَنْهُ الْعَذَابُ بِدَعَاءٍ، أَوْ صَدَقَةٍ، أَوْ اسْتِغْفَارٍ، أَوْ ثَوَابٍ حَجٍّ، أَوْ قِرَاءَةٍ تَصِلُ إِلَيْهِ مِنْ بَعْضِ أَقَارِبِهِ أَوْ غَيْرِهِمْ (1).

وهذا كَمَا يَشْفَعُ الشَّافِعُ فِي الْمُعَذَّبِ فِي الدُّنْيَا، فَيُخَلِّصُ مِنَ الْعَذَابِ بِشَفَاعَتِهِ، لَكِنْ هَذِهِ شَفَاعَةٌ قَدْ تَكُونُ بِدُونِ إِذْنِ الْمَشْفُوعِ عَنْدهُ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا يَتَقَدَّمُ أَحَدٌ بِالشَّفَاعَةِ بَيْنَ يَدَيْهِ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ، فَهُوَ الَّذِي يَأْذِنُ لِلشَّافِعِ أَنْ يَشْفَعَ إِذَا أَرَادَ

(1) الصَّحِيحُ: أَنَّ الْمَيِّتَ لَا يَنْتَفِعُ بِقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ عَلَيْهِ، كَمَا هُوَ مَذْهَبُ الشَّافِعِيِّ وَغَيْرِهِ، وَقَدْ بَيَّنْتُ ذَلِكَ فِي كِتَابِي «إِقَامَةُ الدَّلِيلِ».

أَنْ يَرْحَمَ الْمَشْفُوعَ لَهُ، وَلَا تَعْتَرَّ بغير هذا، فإنه شرك وباطل يَتَعَالَى اللهُ عَنْهُ ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: 255]، ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرْتَضَى﴾ [الأنبياء: 28]، ﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ [يونس: 3]، ﴿وَلَا نَنْفَعُ الشَّفْعَةَ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبا: 23]، ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفْعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الزمر: 44]. اهـ.

المبحث السابع: عذابُ القبر يناله مَنْ هو مستحقُّ له سواء قُبِرَ أو لم يُقْبَر حتى مَنْ أَكَلَتْهُ السَّباع والطير، أو مات بَحْرَقٍ أو غَرَقٍ، ونحو ذلك.

قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ فِي كتابه «الرُّوح» (ص 168 - 171): «وَمِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ عَذَابَ الْقَبْرِ هُوَ عَذَابُ الْبَرْزَخِ؛ فَكُلُّ مَنْ مَاتَ وَهُوَ مُسْتَحَقٌّ لِلْعَذَابِ نَالَهُ نَصِيبُهُ مِنْهُ؛ قُبِرَ أَوْ لَمْ يُقْبَرِ، فَلَوْ أَكَلَتْهُ السَّباع أَوْ أَحْرَقَ حَتَّى صَارَ رَمَادًا، وَنُسِفَ فِي الْهَوَاءِ، أَوْ صُلِبَ، أَوْ غَرِقَ فِي الْبَحْرِ - وَصَلَ إِلَى رُوحِهِ وَبَدَنِهِ مِنْ الْعَذَابِ مَا يَصِلُ إِلَى الْقُبُورِ.

وفي «صحيح البخاري» عن سَمُرَةَ بْنِ جُنْدَبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا صَلَّى صَلَاةً أَقْبَلَ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ، فَقَالَ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ اللَّيْلَةَ رُؤْيَا؟». قَالَ: فَإِنْ رَأَى أَحَدٌ رُؤْيَا قَصَّهَا، فَيَقُولُ مَا شَاءَ اللهُ، فَسَأَلْنَا يَوْمًا، فَقَالَ: «هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمْ رُؤْيَا؟». قُلْنَا: لَا. قَالَ: «وَلَكِنِّي رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ رَجُلَيْنِ أَتَيَانِي فَأَخَذَا بِيَدَيَّ وَأَخْرَجَانِي إِلَى الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ، فَإِذَا رَجُلٌ جَالِسٌ، وَرَجُلٌ قَائِمٌ بِيَدِهِ كَلُوبٌ مِنْ حَدِيدٍ يُدْخِلُهُ فِي شِدْقِهِ حَتَّى يَبْلُغَ قَفَاهُ، ثُمَّ يَفْعَلُ بِشِدْقِهِ الْآخَرَ مِثْلَ ذَلِكَ، وَيَلْتَمِسُ شِدْقَهُ هَذَا فَيَعُودُ فَيَصْنَعُ مِثْلَهُ.

قلت: ما هذا؟ قالوا: انطلق.

فانطلقنا حتى أَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُضْطَجِعٍ عَلَى قَفَاهُ، وَرَجُلٌ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِهِ

بَصْخْرَةٍ أَوْ فُهِرٍ⁽¹⁾ فَيَشْدُخُ بِهَا رَأْسَهُ، فَإِذَا ضَرَبَهُ تَدَهَّدَهُ⁽²⁾ الْحَجَرُ، فَانْطَلَقَ إِلَيْهِ لِيَأْخُذَهُ، فَلَا يَرْجِعُ إِلَى هَذَا حَتَّى يَلْتَمِسَ رَأْسَهُ، وَعَادَ رَأْسَهُ كَمَا هُوَ، فَعَادَ إِلَيْهِ فَضَرَبَهُ.

قلت: ما هذا؟ قال: انطلق.

فَانْطَلَقْنَا إِلَى نَقْبٍ مِثْلِ التَّنُورِ أَعْلَاهُ ضَيْقٌ وَأَسْفَلُهُ وَاسِعٌ، يُوقَدُ تَحْتَهُ نَارٌ، فَإِذَا فِيهِ رَجَالٌ وَنِسَاءٌ عُرَاةٌ، فَيَأْتِيهِمُ اللَّهَبُ مِنْ تَحْتِهِمْ، فَإِذَا اقْتَرَبَتْ ارْتَفَعُوا حَتَّى كَادُوا يَخْرُجُونَ، فَإِذَا خَمَدَتْ رَجَعُوا.

فقلت: ما هذا؟ قال: انطلق.

فَانْطَلَقْنَا حَتَّى أَتَيْنَا عَلَى نَهْرٍ مِنْ دَمٍ فِيهِ رَجُلٌ قَائِمٌ، وَعَلَى وَسْطِ النَّهْرِ رَجُلٌ بَيْنَ يَدَيْهِ حِجَارَةٌ، فَأَقْبَلَ الرَّجُلُ الَّذِي فِي النَّهْرِ فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ رَمَى الرَّجُلَ بِحِجَرٍ فِيهِ، فَرَدَّهُ حَيْثُ كَانَ، فَجَعَلَ كُلَّمَا جَاءَ لِيَخْرُجَ رَمَى فِيهِ.

فقلت: ما هذا؟ قال: انطلق.

فَانْطَلَقْنَا حَتَّى أَتَيْنَا إِلَى رَوْضَةٍ خَضِرَاءَ فِيهَا شَجَرَةٌ عَظِيمَةٌ، وَفِي أَصْلِهَا شَيْخٌ وَصِيبَانٌ، وَإِذَا رَجُلٌ قَرِيبٌ مِنَ الشَّجَرَةِ بَيْنَ يَدَيْهِ نَارٌ يُوقِدُهَا، فَصَعِدَا بِي إِلَى الشَّجَرَةِ، وَأَدْخَلَانِي دَارًا لَمْ أَرَقَطُّ أَحْسَنَ مِنْهَا، فِيهَا شَيْوُخٌ وَشُبَّانٌ، ثُمَّ صَعِدَا بِي فَأَدْخَلَانِي دَارًا هِيَ أَحْسَنُ وَأَفْضَلُ.

قلت: طَوَّفْتُمَانِي اللَّيْلَةَ؛ فَأَخْبَرَانِي عَمَّا رَأَيْتُ.

قالا: نعم، الَّذِي رَأَيْتَهُ يُشَقُّ شِدْقُهُ كَذَّابٌ يُحَدِّثُ بِالْكَذْبَةِ عَنْهُ حَتَّى تَبْلُغَ

(1) حَجَرٌ نَاعِمٌ صَلْبٌ.

(2) أي: تدرج.

الآفاق، فيُصنع به إلى يوم القيامة، والذي رأيته يُشدخ رأسه فرجلٌ علّمه الله القرآن، فنام عنه بالليل، ولم يعمل به بالنهار، يُفعل به إلى يوم القيامة. وأما الذي رأيته في النّقب فهم الزّناة. والذي رأيته في النّهر فآكل الرّبا.

وأما الشيخ الذي في أصل الشجرة فإبراهيم صلى الله عليه وسلم، والصبيان حوله فأولاد الناس، والذي يُوقد النّار فمالك خازن النار، والدّار الأولى دار عامّة المؤمنين، وأما هذه الدار فدار الشهداء، وأنا جبريل، وهذا ميكائيل؛ فارفع رأسك، فرفعت رأسي، فإذا قصر مثل السّحابة، قالوا: ذلك منزلك. قلت: دعاني أدخل منزلي! قالوا: إنه بقي لك عمرٌ لم تستكملته، فلو استكملته أتيت منزلك.

وهذا نصّ في عذاب القبر، فإن رُؤيا الأنبياء وحيّ مُطابق لما في نفس الأمر. وقد ذكر الطّحاوي عن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عن النّبي صلى الله عليه وسلم قال: «أمر بعبدٍ من عباد الله أن يُضرب في قبره مئة جلدة، فلم يزل يسأل الله ويدعوه حتى صارت واحدة، فامتلاً قبره عليه ناراً، فلما ارتفع عنه أفاق؛ فقال: علام جلدتُموني؟ قالوا: إنك صليت صلاةً بغير طهور، ومَرَرْتَ على مَظْلُوم فلم تنصُرْه».

وفي «سنن أبي داود» من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لَمَّا عُرِجَ بي مَرَرْتُ بقومٍ لهم أظفارٌ من نحاسٍ يخمشون وجوههم وصدورهم! فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لُحُومَ النَّاسِ، وَيَقْعُونَ فِي أَعْرَاضِهِمْ». اهـ. مُختصراً، فقد ذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في هذا الفصل بعض الأحاديث التي لا تثبت.

المبحث الثامن: ما الأسباب التي يُعَذَّبُ بها أصحاب القبور؟

قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ فِي كتابه «الرُّوح» (ص 211 - 215) في جواب

هذا السؤال:

«جَوَابُهُ مِنْ وَجْهَيْنِ؛ مُجْمَلٌ وَمُفَصَّلٌ.

أَمَّا الْمُجْمَلُ، فَإِنَّهُمْ يُعَذَّبُونَ عَلَى جَهْلِهِمْ بِاللَّهِ، وَإِضَاعَتِهِمْ لِأَمْرِهِ، وَارْتِكَابِهِمْ لِمَعَاصِيهِ؛ فَلَا يُعَذَّبُ اللهُ رُوحًا عَرَفَتْهُ وَأَحَبَّتْهُ، وَامْتَلَتْ أَمْرَهُ، وَاجْتَنَبَتْ نَهْيَهُ، وَلَا بَدَنًا كَانَتْ فِيهِ أَبَدًا، فَإِنَّ عَذَابَ الْقَبْرِ وَعَذَابَ الْآخِرَةِ أَكْثَرُ غَضَبِ اللهِ وَسَخَطِهِ عَلَى عَبْدِهِ؛ فَمَنْ أَغْضَبَ اللهُ وَأَسَخَطَهُ فِي هَذِهِ الدَّارِ، ثُمَّ لَمْ يَتُبْ وَمَاتَ عَلَى ذَلِكَ - كَانَ لَهُ مِنَ عَذَابِ الْبَرَزِ بِقَدْرِ غَضَبِ اللهِ وَسَخَطِهِ عَلَيْهِ؛ فَمُسْتَقْلٌ وَمُسْتَكْثَرٌ، وَمُصَدِّقٌ وَمُكَذِّبٌ.

وَأَمَّا الْجَوَابُ الْمُفَصَّلُ:

فَقَدْ أَخْبَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الرَّجُلَيْنِ اللَّذَيْنِ رَأَاهُمَا يُعَذَّبَانِ فِي قُبُورِهِمَا يَمْشِي أَحَدُهُمَا بِالنَّمِيمَةِ بَيْنَ النَّاسِ، وَيَتْرَكُ الْآخَرُ الْاسْتِبْرَاءَ مِنَ الْبَوْلِ، فَهَذَا تَرَكَ الطَّهَارَةَ الْوَاجِبَةَ، وَذَلِكَ ارْتِكَابُ السَّبَبِ الْمَوْقِعِ لِلْعَدَاوَةِ بَيْنَ النَّاسِ بِلِسَانِهِ وَإِنْ كَانَ صَادِقًا، وَفِي هَذَا تَنْبِيْهُ عَلَى أَنَّ الْمَوْقِعَ بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ بِالْكَذِبِ وَالزُّورِ وَالْبَهْتَانِ أَعْظَمُ عَذَابًا، كَمَا أَنَّ فِي تَرْكِ الْاسْتِبْرَاءِ مِنَ الْبَوْلِ تَنْبِيْهُ عَلَى أَنَّ مَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ الَّتِي الْاسْتِبْرَاءُ مِنَ الْبَوْلِ بَعْضُ وَاجِبَاتِهَا وَشُرُوطُهَا فَهُوَ أَشَدُّ عَذَابًا، وَفِي حَدِيثِ شُعْبَةَ: «أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ يَأْكُلُ لُحُومَ النَّاسِ»، فَهَذَا مَغْتَابٌ، وَذَلِكَ نَمَامٌ.

وَقَدْ تَقَدَّمَ حَدِيثُ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي الَّذِي ضُرِبَ سَوْطًا اِمْتَلَأَ قَبْرُهُ نَارًا؛ لِكُونِهِ صَلَّى صَلَاةً وَاحِدَةً بَغَيْرِ طَهُورٍ، وَمَرَّ عَلَى مَظْلُومٍ فَلَمْ يَنْصُرْهُ.

وقد تقدّم حديث سُمرة بن جندب في «صحيح البخاري» في تعذيب من يكذب الكذبة فتبلغ الآفاق، وتعذيب من يقرأ القرآن ثم ينام عنه بالليل ولا يعمل به بالنهار، وتعذيب الزناة والزواني، وتعذيب آكل الربا، كما شاهدهم النبي صلى الله عليه وسلم.

ومنهم من لهم أظفار من نحاس يخدشون وجوههم وصدورهم، وهم الذين يُمزقون أعراض الناس.

وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن صاحب السّملة التي غلّها من المغنم أنّها تشتعل عليه نارًا في قبره، هذا وله فيها حق؛ فكيف بمن ظلم غيره ما لا حق له فيه.

فعذابُ القبر عن معاصي القلب والعين والأذن والفم واللسان والبطن والفرج واليد والرجل والبدن كله:

فالنّمَام والكذاب والمُغتَاب وشاهد الزور وقاذف المُحصن والماضي في الفتنّة والدّاعي إلى البدعة والقائل على الله ورسوله ما لا علم له به، والمجازف في كلامه، وآكل الربا، وآكل أموال اليتامى، وآكل السُّحت من الرِّشوة ونحوها، وآكل مال أخيه المسلم بغير حقٍّ أو مال المُعاهد، وشارب المُسكر، وآكل لُقمة الشجرة الملعونة، والزّاني، واللّوطي، والسّارق، والخائن، والغادر، والمُخادع، والماكر، وأخذ الرّبا ومُعطيهِ وكاتبه وشاهداه، والمُحلّل والمُحلّل له، والمُحتال على إسقاط فرائض الله، وارتكاب محارمه، ومؤذي المسلمين ومُتّبِع عوراتهم، والحاكم بغير ما أنزل الله، والمُفتي بغير ما شرّعه الله، والمُعِين على الإثم والعدوان، وقاتل النّفس التي حرّم الله، والمُلحد في حرّم الله، والمُعطلّ لحقائق أسماء الله وصفاته المُلحد فيها، والمُقَدّم رأيه وذوقه وسياسته على سُنّة رسول

الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والنائحة والمُستمع إليها، وتَوَاحو جهنم، وهم المُغنون الغناء الذي حَرَّمَهُ اللهُ ورسولُهُ، والمُستمع إليهم، والذين يَبْنُونَ المساجدَ على القبور، ويوقدون عليها القناديل والسُّرُجَ، والمُطَفِّفُونَ في استيفاء ما لَهُمْ إذا أَخَذُوا وَهَضَمَ ما عليهم إذا بَذَلُوهُ، والجَبَّارُونَ والمُتَكَبِّرُونَ، والمُرَّاءُونَ، والهِمَّازُونَ واللَّمَّازُونَ، والطَّاعُونَ على السَّلف، والذين يَأْتُونَ الكَهَنَةَ، والمُنَجِّمِينَ والعَرَّافِينَ؛ فَيَسْأَلُونَهُمْ وَيُصَدِّقُونَهُمْ، وأَعوان الظَّلمة الذين قد باعوا آخرتهم بديناهم، والذي إذا خَوَّفَتْهُ بالله وَذَكَرَتْهُ به لم يَرَعُو ولم يَنْزَجِرْ، فإذا خَوَّفَتْهُ بمخلوقٍ مثله خاف وَاِرْعَوَى وَكَفَّ عما هو فيه، والذي يُهْدِي بكلام الله ورسوله فلا يَهْتَدِي ولا يَرْفَع به رَأْسًا، فإذا بَلَغَهُ عَمَّنْ يُحَسِّن به الظَّنَّ مِمَّنْ يُصِيب وَيُخْطِئُ عَصَّ عليه بالنَّواجذ ولم يُخَالَفْهُ، والذي يُقْرَأُ عليه القرآن فلا يُؤَثِّرُ فيه، ورُبَّمَا اسْتَثْقَلَ به، فإذا سَمِعَ قرآن الشَّيْطَانِ ورُقِيَةَ الزَّنا وَمَادَةَ النِّفَاق طَابَ سِرُّهُ وتَوَاجَدَ وَهَاجَ قَلْبُهُ مِنْ دَوَاعِي الطَّرَبِ، وَوَدَّ أَنْ الْمُغْنِي لَا يَسْكُتَ، والذي يَحْلِفُ بالله وَيَكْذِبُ، فإذا حَلَفَ بِحَيَاةٍ مَنْ يُحِبُّهُ وَيُعَظِّمُهُ مِنَ المَخْلُوقِينَ لم يَكْذِبْ ولو هُدِّدَ وَعُوقِبَ، والذي يَفْتَخِرُ بالمَعْصِيَةِ وَيَتَكَبَّرُ بِهَا بَيْنَ إِخْوَانِهِ وَأَضْرَابِهِ، وهو المَجَاهِرُ، والذي لَا تَأْمَنُهُ عَلَى مَالِكَ وَحَرِيمِكَ، والفاحش اللسان البذيء الذي تَرَكَهُ الخَلْقُ اتِّقَاءَ شَرِّهِ وفُحْشِهِ، والذي يُؤَخِّرُ الصَّلَاةَ إِلَى آخر وقتها وَيَنْقُرُهَا وَلَا يَذْكُرُ اللهَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا، وَلَا يُؤَدِّي زَكَاةَ مَالِهِ طَيِّبَةً بِهَا نَفْسُهُ، وَلَا يَحُجُّ مع قُدْرَتِهِ عَلَى الحَجِّ، وَلَا يُؤَدِّي ما عليه من الحقوق مع قُدْرَتِهِ عَلَيْهَا، وَلَا يَتَوَرَّعُ فِي لَحْظَةٍ وَلَا لَفْظَةٍ وَلَا أَكْلَةٍ وَلَا خَطْوَةٍ، وَلَا يُبَالِي بِمَا يَحْصُلُ مِنَ المَالِ مِنْ حَلَالٍ أَوْ حَرَامٍ، وَلَا يَصِلُ رَحْمَهُ، وَلَا يَرْحَمُ المَسْكِينَ وَلَا الأَرْمَلَةَ وَلَا اليَتِيمَ وَلَا الحيوانَ البَهِيمَ، بل يَدْعُ اليَتِيمَ وَلَا يَحْضُرُ عَلَى طَعَامِ المَسْكِينَ، وَيُرَائِي العَالَمِينَ، وَيَمْنَعُ المَاعُونَ،

وَيَسْتَغْلِبُ بَعِيوبَ النَّاسِ عَنْ عَيْهِ، وَبَذَنُوبِهِمْ عَنْ ذَنْبِهِ؛ فَكُلُّ هَؤُلَاءِ وَأَمْثَالِهِمْ مُعَذَّبُونَ فِي قُبُورِهِمْ بِهَذِهِ الْجَرَائِمِ بِحَسَبِ كَثَرَتِهَا وَقِلَّتِهَا وَصَغِيرَتِهَا وَكَبِيرَتِهَا.

وَلَمَّا كَانَ أَكْثَرُ النَّاسِ كَذَلِكَ كَانَ أَكْثَرُ أَصْحَابِ الْقُبُورِ مُعَذَّبِينَ، وَالْفَائِزُ مِنْهُمْ قَلِيلٌ، فَظَوَاهِرُ الْقُبُورِ تَرَابٌ، وَبَوَاطِنُهَا حَسَرَاتٌ وَعَذَابٌ؛ ظَوَاهِرُهَا بِالْتَرَابِ وَالْحِجَارَةِ الْمَنْقُوشَةِ مَبْنِيَّاتٍ، وَفِي بَاطِنِهَا الدَّوَاهِي وَالْبَلِيَّاتِ، تَغْلِي بِالْحَسَرَاتِ كَمَا تَغْلِي الْقُدُورُ بِمَا فِيهَا، وَيَحِقُّ لَهَا وَقَدْ حِيلَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ شَهَوَاتِهَا وَأَمَانِيهَا.

تَاللَّهِ لَقَدْ وَعَظْتَ فَمَا تَرَكْتَ لَوَاعِظٍ مَقَالًا، وَنَادَتْ يَا عُمَارَ الدُّنْيَا، لَقَدْ عَمَّرْتُمْ دَارًا مُوشِكَةً بِكُمْ زَوَالًا، وَخَرَّبْتُمْ دَارًا أَنْتُمْ مُسْرِعُونَ إِلَيْهَا انْتِقَالًا، عَمَّرْتُمْ بَيُوتًا لِغَيْرِكُمْ مَنَافِعَهَا وَسُكْنَاهَا، وَخَرَّبْتُمْ بَيُوتًا لَكُمْ مَسَاكِنَ سِوَاهَا، هَذِهِ دَارُ الْإِسْتِيفَاءِ وَمُسْتَوْدَعُ الْأَعْمَالِ، وَبَذَرُ الزَّرْعِ، وَهَذِهِ مَحَلُّ اللَّعِبِ، رِيَاضٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ، أَوْ حُفْرَةٌ مِنْ حُفْرِ النَّارِ». اهـ.

المبحث التاسع: ما هي الأسباب المُنجية من عذاب القبر؟

قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ فِي كِتَابِهِ «الرُّوح» (ص 216): «جَوَابُهُ أَيْضًا مِنْ وَجْهَيْنِ؛ مُجْمَلٌ وَمُفَصَّلٌ:

أَمَّا الْمُجْمَلُ فَهُوَ تَجَنُّبُ تِلْكَ الْأَسْبَابِ الَّتِي تَقْتَضِي عَذَابَ الْقَبْرِ، وَمِنْ أَنْفَعِهَا أَنْ يَجْلِسَ الرَّجُلُ عِنْدَمَا يَرِيدُ النَّوْمَ لِلَّهِ سَاعَةً يُحَاسِبُ نَفْسَهُ فِيهَا عَلَى مَا خَسِرَهُ وَرَبِحَهُ فِي يَوْمِهِ، ثُمَّ يُجَدِّدُ لَهُ تَوْبَةً نَصُوحًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ؛ فَيَنَامُ عَلَى تِلْكَ التَّوْبَةِ، وَيَعِزُّمُ عَلَى أَنْ لَا يُعَاوِدَ الذَّنْبَ إِذَا اسْتَيْقَظَ، وَيَفْعَلُ هَذَا كُلَّ لَيْلَةٍ، فَإِنْ مَاتَ مِنْ لَيْلَتِهِ مَاتَ عَلَى تَوْبَةٍ، وَإِنْ اسْتَيْقَظَ اسْتَيْقَظَ مُسْتَقْبَلًا لِلْعَمَلِ، مُسْرُورًا بِتَأْخِيرِ أَجَلِهِ حَتَّى يَسْتَقْبَلَ رَبَّهُ وَيَسْتَدْرِكَ مَا فَاتَهُ، وَلَيْسَ لِلْعَبْدِ أَنْفَعُ مِنْ هَذِهِ النَّوْمَةِ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا عَقَّبَ ذَلِكَ بِذِكْرِ اللَّهِ وَاسْتِعْمَالِ السُّنَنِ الَّتِي وَرَدَتْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند النوم حتى يَغْلِبَهُ النُّومُ؛ فَمَنْ أَرَادَ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا وَفَقَهُ لَذَلِكَ، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

وَأَمَّا الْجَوَابُ الْمُفْصَّلُ فنذكر أحاديث عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما يُنْجِي من عذاب القبر:

فمنها: ما رواه مسلم في صحيحه عن سَلْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ، وَإِنْ مَاتَ أُجْرِي عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ، وَأُجْرِي عَلَيْهِ رِزْقُهُ، وَأَمِنَ الْفَتَانُ».

وفي «جامع الترمذي» من حديث فضالة بن عُبَيْدٍ عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «كُلُّ مَيِّتٍ يُخْتَمُ عَلَى عَمَلِهِ إِلَّا الَّذِي مَاتَ مُرَابِطًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ؛ فَإِنَّهُ يُنْمَى لَهُ عَمَلُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَيَأْمَنُ مِنْ فِتْنَةِ الْقَبْرِ»، قال الترمذي: «هذا حديثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ» (1).

وفي «سنن النسائي» عن راشد بن سعد، عن رجل من أصحاب النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا بَالُ الْمُؤْمِنِينَ يُفْتَنُونَ فِي قُبُورِهِمْ إِلَّا الشَّهِيدَ؟ قَالَ: «كَفَى بِبَارِقَةِ السُّيُوفِ عَلَى رَأْسِهِ فِتْنَةً» (2).

وعن المقداد بن معد يكرب قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللَّهِ سِتُّ خِصَالٍ: يُغْفَرُ لَهُ فِي أَوَّلِ دَفْعَةٍ مِنْ دَمِهِ، وَيَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَيُجَارَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَيَأْمَنُ الْفَرَعُ الْأَكْبَرُ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ؛ الْيَاقُوتَةُ مِنْهُ

(1) صَحَّحَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ».

(2) صَحَّحَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ النَّسَائِيِّ».

خيرٌ من الدنيا وما فيها، ويُزَوَّج اثنتين وسبعين زوجة من الحُورِ العِين، ويُشَفَّع في سَبْعِينَ مِنْ أَقَارِبِهِ»، رواه ابن ماجه والترمذي، وهذا لفظه وقال: «حديث حسن صحيح»⁽¹⁾.

وعن ابن عَبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «ضَرَبَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خِباءَهُ عَلَى قَبْرِ - وَهُوَ لَا يَحْسِبُ أَنَّهُ قَبْرٌ - فَإِذَا قَبْرُ إِنْسَانٍ يَقْرَأُ سُورَةَ الْمُلْكِ حَتَّى خَتَمَهَا، فَأَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ضَرَبْتُ خِباءِي عَلَى قَبْرِ - وَأَنَا لَا أَحْسِبُ أَنَّهُ قَبْرٌ - فَإِذَا قَبْرُ إِنْسَانٍ يَقْرَأُ سُورَةَ الْمُلْكِ حَتَّى خَتَمَهَا. فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هِيَ الْمَانِعَةُ، هِيَ الْمُنْجِيَةُ؛ تُنْجِيهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ»، قَالَ التِّرْمِذِيُّ: «حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ»⁽²⁾.

قال أبو عمر بن عبد البر: «وَصَحَّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ سُورَةَ - ثَلَاثِينَ آيَةً - شَفَعَتْ فِي صَاحِبِهَا حَتَّى غُفِرَ لَهُ»: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾»⁽³⁾.

وفي «سنن ابن ماجه» من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - يرفعه -: «مَنْ مَاتَ مَرِيضًا مَاتَ شَهِيدًا، وَوُقِيَ مِنْ فِتْنَةِ الْقَبْرِ، وَغُدِيَ وَرِيحٌ عَلَيْهِ بِرِزْقٍ مِنَ الْجَنَّةِ»⁽⁴⁾.

وفي «سنن النسائي» عن جامع بن شَدَّاد قَالَ: «سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ يَسَارٍ يَقُولُ: كُنْتُ جَالِسًا مَعَ سُلَيْمَانَ بْنِ صُرَدٍ وَخَالِدِ بْنِ عُرْفُطَةَ فَذَكَرُوا أَنَّ رَجُلًا مَاتَ بَطْنُهُ، فَإِذَا هُمَا يَشْتَهِيَانِ أَنْ يَكُونَا شَهِدَاءَ جَنَازَتِهِ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِلْآخَرِ: أَلَمْ يَقُلْ

(1) صَحَّحَهُ الْعَلَامَةُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ سَنَنِ التِّرْمِذِيِّ».

(2) قَالَ الْعَلَامَةُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ التِّرْمِذِيِّ»: «ضَعِيفٌ، وَإِنَّمَا يَصِحُّ مِنْهُ قَوْلُهُ: «هِيَ الْمَانِعَةُ».

(3) قَالَ الْعَلَامَةُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ التِّرْمِذِيِّ»: «حَدِيثٌ حَسَنٌ».

(4) قَالَ الْعَلَامَةُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «ضَعِيفِ ابْنِ مَاجَةَ»: «ضَعِيفٌ جَدًّا».

رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ يَقْتُلْهُ بَطْنُهُ لَمْ يُعَذَّبْ فِي قَبْرِه» (1).

وفي الترمذي من حديث ربيعة بن سيف، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَمُوتُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ أَوْ لَيْلَةِ الْجُمُعَةِ إِلَّا وَقَاهُ اللَّهُ فِتْنَةَ الْقَبْرِ» (2). اهـ. ثم ذكر أحاديث أخرى أكثرها لا يَصِحُّ.

وقال الإمام القرطبي في «التذكرة» (ص 128): «باب ما يُنْجِي الْمُؤْمِنُ مِنْ أَهْوَالِ الْقَبْرِ وَفِتْنَتِهِ وَعَذَابِهِ، وَذَلِكَ خَمْسَةُ أَشْيَاءَ: رَبَاطٌ، قَتْلٌ، قَوْلٌ، بَطْنٌ، زَمَانٌ.

الأول: روى مسلم عن سلمان قال: سمعتُ رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «رَبَاطٌ يَوْمَ وَلَيْلَةٍ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ، وَإِنْ مَاتَ جَرَى عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ، وَأُجْرِي عَلَيْهِ رِزْقُهُ، وَأَمِنَ مِنَ الْفِتَنِ».

ثم ذكر حديث فضالة بن عبيد أن رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «كُلُّ مَيِّتٍ يُخْتَمُ عَلَى عَمَلِهِ إِلَّا الَّذِي مَاتَ مُرَابِطًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ يَنْمُو لَهُ عَمَلُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَيَأْمِنُ مِنْ فِتْنَةِ الْقَبْرِ».

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَلَا مَعْنَى لِلنَّمَاءِ إِلَّا الْمُضَاعَفَةُ، وَهِيَ غَيْرُ مَوْقُوفَةٍ عَلَى سَبَبٍ فَتَنْقَطِعُ بَانْقِطَاعِهِ، بَلْ هِيَ فَضْلٌ دَائِمٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى؛ لِأَنَّ أَعْمَالَ الْبَرِّ لَا يُتِمَكَّنُ مِنْهَا إِلَّا بِالسَّلَامَةِ مِنَ الْعَدُوِّ، وَالتَّحَرُّزِ مِنْهُمْ بِحِرَاسَةِ بَيْضَةِ الدِّينِ، وَإِقَامَةِ شَعَائِرِ الْإِسْلَامِ، وَهَذَا الْعَمَلُ الَّذِي يَجْرِي عَلَيْهِ ثَوَابُهُ هُوَ مَا كَانَ يَعْمَلُهُ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ».

ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَسْأَلَةُ الرِّبَاطِ: هُوَ الْمُتْلَازِمَةُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَأْخُوذَةً مِنْ رَبِطٍ

(1) قال العلامة الألباني في «صحيح النسائي»: «حديث صحيح».

(2) قال العلامة الألباني في «صحيح سنن الترمذي»: «حديث حسن».

الخيّل، ثم سُمّي مُلازم تُغر من تُغور المُسلمين مُرابطًا، فارسًا كان أو راجلًا، واللفظة مأخوذة من الرِّباط، وقول النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مُنتظري الصَّلَاة: «فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ» إِنَّمَا هو تشبيهٌ بالرِّباط في سبيل الله، والرِّباط اللغوي هو الأول، وهو الذي يَشْخَص إلى تُغرٍ من الثُّغور لِرِباط فيه مُدَّة ما، فأما سُكَّان الثُّغور دائِمًا بأهلهم الذين يعمرُون ويكتسبون هنالك، فهم - وإن كانوا حُماة - فليسوا بمُرابطين. قاله علماؤنا، وقد بيَّناه في كتاب «الجامع لأحكام القرآن» من سورة آل عمران، والحمد لله. اهـ.

ثُمَّ ذكر السَّبب الثاني، وهو الذي يُقتل في سبيل الله، وهو الشهيد، وذكر دليلًا لذلك حديث راشد بن سعد، عن رجلٍ من أصحاب رسول الله أن رجلاً قال: يا رسول الله، ما بأل المؤمنين يُفتنون في قبورهم إلا الشَّهيد؟ قال: «كَفَى ببارقة السُّيُوفِ على رأسه فِتْنَةً». وهو حديثٌ أخرجه النَّسائي، وهو صحيح كما سبق.

ثُمَّ ذكر حديثَ المُقدِّم بن معدي كرب أن رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللَّهِ سِتُّ خِصَالٍ...»، الحديث، وهو حديثٌ صحيحٌ كما سبق، أخرجه الترمذي وابن ماجه وغيرهما.

ثم ذكر رَحِمَهُ اللَّهُ السَّببَ الثالثَ مِمَّا يُنْجِي من عذاب القبر، وهو القول، ودَلَّلَ له بما وَرَدَ في الرَّجُلِ الذي كان يقرأ سورة (تَبَارَكَ) في قبره، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هِيَ الْمَانِعَةُ»، وهو حديثٌ صحيحٌ، كما سبق، أخرجه الترمذي في «سننه».

ثم ذكر السَّببَ الرَّابِعَ، وهو البَطن، والمراد مَنْ ماتَ بداء البَطن، وذكرَ الحديثَ الصَّحِيحَ الذي ذكرناه سابقًا، وهو قولُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ يَقْتُلْهُ بَطْنُهُ لَمْ يُعَذَّبْ فِي قَبْرِهِ».

ثم ذكر السَّبَبَ الخامسَ مِمَّا يُنْجِي الْمُؤْمِنَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَهُوَ الزَّمانُ،
والمُرَادُ به: مَنْ مَاتَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ أَوْ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ؛ ذَكَرَ الْحَدِيثَ الصَّحِيحَ فِي
ذَلِكَ، وَقَدْ سَبَقَ ذِكْرُهُ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ.

وبعد هذا المَبْحَثِ الْمُوسَّعِ فِي فِتْنَةِ الْقَبْرِ وَنَعِيمِهِ وَعَذَابِهِ أَسْأَلُ اللَّهَ الْعَظِيمَ
بِالْوَهَيْتِ وَرَبُّوبِيَّتِهِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ وَحَيَاتِهِ وَقِيُومِيَّتِهِ: أَنْ يَجْعَلَهُ وَسَائِرَ
أَعْمَالِي لَوَجْهِهِ خَالِصًا، وَلِي وَلِعِبَادِهِ نَفْعًا، وَأَنْ يَقِينِي بِهِ مِنْ فِتْنَةِ الْقَبْرِ وَعَذَابِهِ؛ إِنَّهُ
وَلِيِّ ذَلِكَ وَالْقَادِرُ عَلَيْهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّم وَبَارَكَ عَلَى
نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ.



«إلى أن تقوم الساعة الكبرى فتُعاد الأرواح إلى الأجساد، وتقوم القيامة التي أخبر الله بها في كتابه، وعلى لسان رسوله، وأجمع عليها المسلمون؛ فيقوم الناس من قبورهم لرب العالمين حفاة عراة غرلا وتدنو الشمس منهم فيلجمهم العرق».

لَمَّا فَرَّغَ رَحْمَةُ اللَّهِ مِنَ الْكَلَامِ عَلَى مَا يَكُونُ فِي الْبَرْزَخِ بَعْدَ الْمَوْتِ مِنْ فِتْنَةٍ وَنَعِيمٍ أَوْ عَذَابٍ، أَشَارَ إِلَى مَا يَكُونُ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ الَّتِي تَبْدَأُ بِالْقِيَامَةِ الْكُبْرَى. وَقَوْلُهُ: «إِلَى أَنْ تَقُومَ الْقِيَامَةُ الْكُبْرَى».

مَعْنَى الْقِيَامَةِ، وَسَبَبُ تَسْمِيَّتِهَا بِذَلِكَ:

قال القرطبي رَحْمَةُ اللَّهِ فِي «التذكرة» (ص 187): «القيامة في العربية مصدر قام يقوم، ودخلها التأنيث للمبالغة على عادة العرب. واختلف في تسميتها بذلك على أربعة أقوال:

الأول: لوجود هذه الأمور فيها، أي: الأحوال والأمور التي تحدث فيها.
الثاني: لقيام الخلق من قبورهم إليها؛ قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا﴾ [المارج: 43].

الثالث: لقيام الناس لرب العالمين، كما في البخاري ومسلم عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: 6]، قال: «يقوم أحدُهم في رُشحه إلى نصف أذنيه».

الرابع: لقيام الروح والملائكة صفا؛ قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا﴾ [النبا: 38]. اهـ.

وذكر بعض العلماء سببا آخر، وهو قيام العدل؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ

الْمُوزِنَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ ﴿[الأنبياء: 47].

قول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «القيامة الكبرى» - فيه إشارة إلى القيامة الصُّغرى.

فإنَّ القِيَامَةَ قِيَامَتَانِ: قِيَامَةٌ صُغْرَى، وهي الموت. وقِيَامَةٌ كُبْرَى، وهي التي يقومُ فيها النَّاسُ مِنْ قُبُورِهِمْ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ.

قال الإمام القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ في «التذكرة» (ص 187-188): «قال علماؤنا: واعلم أنَّ كُلَّ مَيِّتٍ مات فقد قامت قِيَامَتُهُ، ولكنها قِيَامَةٌ صُغْرَى وكُبْرَى.

فَالصُّغْرَى: هي ما يقومُ على كلِّ إنسانٍ في خَاصَّتِهِ من خروج رُوحه، وفراق أهله، وانقطاع سَعْيِهِ، وحُصوله على عمله؛ إن كان خيراً فخير، وإن كان شراً فَشَرٌّ.

والقيامة الكبرى: هي التي تَعُمُّ النَّاسَ، وتأخذهم أخذَةً واحدةً. والدَّلِيلُ على أنَّ كُلَّ مَيِّتٍ يموتُ فقد قامت قِيَامَتُهُ: قول النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لقومٍ من الأعرابِ وقد سألوهُ: متى القِيَامَةُ؟ فنظر إلى أحدث إنسانٍ منهم، فقال: «إِنْ يَعْشُ هذا لَمْ يَدْرِكْهُ الْهَرَمُ قَامَتْ عَلَيْكُمْ سَاعَتُكُمْ»، أخرجهُ مسلم وغيره.

وقال الشاعر:

خَرَجْتُ مِنَ الدُّنْيَا وَقَامَتْ قِيَامَتِي	غَدَاةَ أَقَلِّ الْحَامِلُونَ جِنَازَتِي
وَعَجَّلَ أَهْلِي حَفَرَ قَبْرِي وَصَيَّرُوا	خُرُوجِي وَتَعْجِيلِي إِلَيْهِ كَرَامَتِي
كَأَنَّهُمْ لَمْ يَعْرِفُوا قَطُّ سِيرَتِي	غَدَاةَ أَتَى يَوْمِي عَلَى سَاعَتِي

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَتُعَادُ الْأَرْوَاحُ إِلَى الْأَجْسَادِ».

هذا أَوَّلُ ما يكون ممَّا يتعلق بالمُكَلَّف، وذلك بعد النفخة الثانية بالصُّور،

وهذه الإعادة غيرُ الإعادة التي كانت في البرزخ.

وفي قول المؤلف: «إلى الأجساد»: دليلٌ على أنَّ الأرواح لا تُعاد إلى الأجساد إلا بعد أن يُعيد الله الأجساد.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ كما في «مَجْمُوعُ الْفَتَاوَى» (4/ 262): «مذهب سائر المسلمين - بل وسائر أهل الملل - إثباتُ القيامة الكبرى، وقيام الناس من قبورهم، والثواب والعقاب هناك». اهـ.

وقال رَحِمَهُ اللهُ (ص 266): «وقد ذكرنا في غير موضع أنَّ الرُّسل قبل مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُنذِرُوا بالقيامة الكبرى تكذيباً لِمَنْ نَفَى ذلك من المُتفلسفة». اهـ.

وقال العلامة ابنُ أبي العزِّ رَحِمَهُ اللهُ في «شرح الطحاوية» (ص 404 - 405): «الإيمان بالمعاد ممَّا دَلَّ عليه الكتابُ والسُّنة والعقل والفِطرة السَّليمة.

فأخبر الله - سبحانه - في كتابه العزيز، وأقام الدليل عليه، ورَدَّ على مُنكريه في غالب سُور القرآن، وذلك أنَّ الأنبياء - عليهم السَّلام - كلهم مُتَّفِقُونَ على الإيمان بالله، فإنَّ الإقرارَ بالربِّ عامٌّ في بني آدم، وهو فطري، وكلُّهم يُقَرُّ بالربِّ إلا مَنْ عاند؛ كفرعون، بخلاف الإيمان باليوم الآخر فإنَّ مُنكريه كثيرون، ومُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا كان خاتم الأنبياء، وكان قد بُعثَ هو والسَّاعة كهاتين، وكان هو الحاشِر والمُقَفِّي بَيْنَ تَفْصِيلِ الآخرة بياناً لا يُوجد في شيء من كتب الأنبياء، ولهذا ظَنَّ طائفةٌ من المُتفلسفة ونحوهم أنَّه لم يُفصح بمعاد الأبدان إلا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وجعلوا هذه حُجَّةَ لهم في أنَّه من باب التخييل والخطاب الجُمهوري.

والقرآنُ بَيْنَ معاد النَّفس عند الموت، ومعاد البدن عند القيامة الكبرى في

غير مَوْضِع، وهؤلاء يُنكرون القيامة الكبرى، ويُنكرون معاد الأبدان، ويقول مَنْ يقول منهم: إِنَّهُ لَمْ يُخْبَرْ بِهِ إِلَّا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ طَرِيقِ التَّخِيلِ.

وهذا كَذِبٌ؛ فَإِنَّ الْقِيَامَةَ الكبرى هي معروفةٌ عند الأنبياء من آدم إلى نُوح إلى إبراهيم ومُوسى وعيسى وغيرهم عليهم السلام، وقد أخبر الله بها من حين أهبط آدم؛ فقال تعالى: ﴿قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ (٢٤) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿[الأعراف: 24-25]، وَلَمَّا قَالَ إبليس اللعين: ﴿رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (٣٦) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿[الحجر: 36-38].

وَأَمَّا نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ فقال: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿[نوح: 17-18]، وقال إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء: 83]، إلى آخر القصة وقال: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: 41]، وقال: ﴿رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ [البقرة: 260]، وَأَمَّا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فقال الله لَمَّا نَاجَاهُ: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾ (١٥) فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ﴿[طه: 15-16].

بل مُؤْمِنُ آلِ فِرْعَوْنَ كَانَ يَعْلَمُ الْمَعَادَ، وَإِنَّمَا آمَنَ بِمُوسَى؛ قَالَ تَعَالَى: حِكَايَةٌ عَنْهُ: ﴿وَيَقُومُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾ (٣٢) يَوْمَ تُولَوْنَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿[غافر: 33]، إلى قوله تعالى: ﴿يَقُومُ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ [غافر: 39]، إلى قوله: ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: 46].

وقال موسى: ﴿وَكَتَبْنَا لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا

هُدًى إِلَيْكَ ﴿[الأعراف: 156].

وقد أخبر في قصّة البقرة: ﴿فَقُلْنَا أَضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: 73].

وقد أخبر الله أنه أرسل الرُّسل مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فِي آيَاتٍ مِنَ الْقُرْآنِ، وَأَخْبَرَ عَنْ أَهْلِ النَّارِ أَنَّهُمْ إِذَا قَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بِلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: 71].

وهذا اعترافٌ من أصناف الكفار الدّاخلين جَهَنَّمَ: أَنَّ الرُّسُلَ أَنْذَرْتَهُمْ لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا.

فجميعُ الرُّسلِ أَنْذَرُوا بِمَا أَنْذَرَ بِهِ خَاتَمُهُمْ مِنْ عِقَابَاتِ الْمُذْنِبِينَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَعَامَّةُ سُورِ الْقُرْآنِ الَّتِي فِيهَا ذِكْرُ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ يَذْكُرُ ذَلِكَ فِيهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَأَمَرَ نَبِيِّهِ أَنْ يُقَسِّمَ بِهِ عَلَى الْمَعَادِ فَقَالَ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عِلْمُ الْغَيْبِ﴾ [سبأ: 3]، الْآيَاتِ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [يونس: 53]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَّنْ يُعْثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُعْثُنَّ ثُمَّ لَنُنَبِّئَنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: 7]، وَأَخْبَرَ عَنْ اقْتِرَابِهَا فَقَالَ: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: 1]، ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: 1]، ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾ [المعارج: 1-2]، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج: 6-7].

وقد ذَمَّ اللَّهُ الْمُكَذِّبِينَ بِالْمَعَادِ فَقَالَ: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [يونس: 45]، ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْشَرُنَا عَلَىٰ مَا

فَرَطْنَا فِيهَا ﴿[الأنعام: 31]﴾، ﴿أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ
بَعِيدٍ﴾ [الشورى: 18]، ﴿بَلِ أَدْرَاكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ
هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ [النمل: 66]، ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ
مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ [النحل: 38]، إِلَى أَنْ قَالَ: ﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ
كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ﴾ [النحل: 39]، ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا
وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [غافر: 59]، ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَى
وُجُوهِهِمْ عُمِيًَّا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّا وَنَهُمْ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾
[الإسراء: 97]، ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ هُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِبَايِنَاتِنَا وَقَالُوا أَءِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرَفَتًا
أَءَنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: 98]، إلخ. اهـ.

وَأَمَّا الأدلة من السنة فهي كثيرة، ومنها: حديث جبريل المشهور لما سأل
رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الإيمان، فأجاب: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ
وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْقَدَرِ؛ خَيْرُهُ وَشَرُّهُ»، رواه البخاري ومسلم. وفي رواية:
«وَالْبَعْثُ بَعْدَ الْمَوْتِ».

ومنها: ما رواه البخاري ومسلم عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ تُحْشَرُونَ إِلَى اللَّهِ حُفَاةَ عُرَاةٍ غُرْلًا ﴿كَمَا
بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْهَا إِنَّا كُنَّا فَعَلِينَ﴾ [الأنبياء: 104]، أَلَا
وَإِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُكْسَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ».

وَأَمَّا الإجماع، فقد أجمع على ذلك المسلمون إجماعاً قطعياً، بل حتى
اليهود والنصارى.

وَأَمَّا العقل فوجه دلالته أَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ يَوْمَ آخِرِ الْجَزَاءِ وَالْحِسَابِ
لَكَانَ إِيجَادُ الْخَلَائِقِ عَبَثًا، وَاللَّهُ مُنَزَّهٌ عَنْ ذَلِكَ.

قال العلامة ابن القيم في كتابه «الفوائد» (ص 29): «ولهذا كان الصواب أن المَعَاد معلومٌ بالعقل مع الشرع، وأنَّ كمالَ الرَّبِّ تعالى، وكمالُ أسمائه وصفاته تقتضيه وتوجبُه، وأنَّه مُنَزَّهٌ عَمَّا يَقُولُهُ مُنْكَرُوهُ، كما يُنَزَّهُ كَمَالُهُ عَنِ سَائِرِ الْغُيُوبِ والنِّقَاصِ». اهـ.

وبراهينُ البعثِ أربعةٌ:

الأول: خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [يس: 81].

الثاني: خَلَقَ الْإِنْسَانَ أَوَّلًا؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: 79]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: 27].

الثالث: إحياءُ الأرض بعد موتها؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۖ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتِ ۖ﴾ [فصلت: 39]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: 57].

الرابع: إحياءُ بعضِ المَوتَى في دارِ الدُّنْيَا؛ لِأَنَّ مَنْ أَحْيَا نَفْسًا وَاحِدَةً بَعْدَ مَوْتِهَا قَادِرٌ عَلَىٰ إحياءِ جميعِ النفوسِ ﴿مَا خَلَقُكُمْ وَلَا بَعَثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ۖ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [لقمان: 28]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُخَيِّ اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ ۚ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: 73]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ [البقرة: 259].

وقد تَوَسَّعَ العَلَّامَةُ الشَّنْقِيطِي رَحْمَةُ اللَّهِ فِي هَذَا فِي «أَضْوَاءَ الْبَيَان» (3 / 223 - 224).

وقال العَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحْمَةُ اللَّهِ كَمَا فِي «مُخْتَصَرِ الصَّوَاغِقِ» (86 - 89):
«وقال سبحانه في تثبيت أمر البعث: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: 78 - 79]، إلى آخر السورة.

فلو رَامَ أَفْصَحَ الْبَشَرِ وَأَعْلَمَهُمْ وَأَقْدَرَهُمْ عَلَى الْبَيَانِ أَنْ يَأْتِيَ بِأَحْسَنَ مِنْ هَذِهِ الْحُجَّةِ أَوْ مِثْلِهَا فِي أَلْفَاظٍ تُشَابِهَ هَذِهِ الْأَلْفَاظَ فِي الْإِيْجَازِ وَالْإِخْتِصَارِ، وَوَصَفَ حَيْثُ الدَّلَالَةِ وَصَحَّةِ الْبَرْهَانِ لَأَلْفَى نَفْسَهُ ظَاهِرَ الْعَجْزِ عَنْ ذَلِكَ، فَإِنَّهُ - سَبْحَانَهُ - افْتَتَحَ هَذِهِ الْحُجَّةَ بِسُؤَالٍ أَوْرَدَهُ الْمُلْحِدُ اقْتَضَى جَوَابًا، وَكَانَ فِي قَوْلِهِ سَبْحَانَهُ: ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ مَا وَفَى بِالْجَوَابِ، وَأَقَامَ الْحُجَّةَ، وَأَزَالَ الشُّبْهَةَ لَوْلَا مَا أَرَادَ اللَّهُ - تَعَالَى - مِنْ تَأْكِيدِ حُجَّتِهِ، وَزِيَادَةِ تَقْرِيرِهَا، وَذَلِكَ أَنَّهُ - تَعَالَى - أَخْبَرَ أَنَّ هَذَا السَّائِلَ الْمُلْحِدَ لَوْ تَبَيَّنَ خَلْقَ نَفْسِهِ وَبَدَأَ كَوْنَهُ لَكَانَتْ فِكْرَتُهُ فِيهِ كَافِيَةً، ثُمَّ أَوْضَحَ - سَبْحَانَهُ - مَا تَضَمَّنَتْهُ قَوْلُهُ: ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾، وَصَرَّحَ جَوَابًا لَهُ عَنْ مَسْأَلَتِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، فَاحْتَجَّ بِالْإِبْدَاءِ عَلَى الْإِعَادَةِ، وَالنَّشْأَةِ الْأُولَى عَلَى الْآخِرَى؛ إِذْ كُلُّ عَاقِلٍ يَعْلَمُ عِلْمًا ضَرُورِيًّا أَنَّ مَنْ قَدَرَ عَلَى هَذَا قَدَرَ عَلَى هَذِهِ، وَأَنَّهُ لَوْ كَانَ عَاجِزًا عَنِ الثَّانِيَةِ عَجَزَ عَنِ الْأُولَى، بَلْ كَانَ أَعْجَزَ وَأَعْجَزَ. وَلَمَّا كَانَ الْخَلْقُ يَسْتَلْزِمُ قُدْرَةَ الْخَالِقِ عَلَى مَخْلُوقِهِ، وَعِلْمَهُ بِتَفَاصِيلِ خَلْقِهِ أَتْبَعَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾، فَهُوَ عَلِيمٌ بِالْخَلْقِ وَتَفَاصِيلِهِ وَمَوَادِّهِ وَصُورَتِهِ، وَكَذَلِكَ هُوَ عَلِيمٌ بِالْخَلْقِ الثَّانِي.

فَإِذَا كَانَ تَامَ الْعِلْمُ كَامِلَ الْقُدْرَةِ كَيْفَ يَتَعَذَّرُ عَلَيْهِ أَنْ يُحْيِيَ الْعِظَامَ وَهِيَ

رَمِيمٌ؟

ثُمَّ أَكَّدَ الأمر بحجة تتضمن جوابًا عن سؤال ملحدٍ آخر يقول: العظام إذا صارت رميمًا عادت طبيعتها باردة يابسة، والحياة في الأبدان تكون مادتها طبيعة حارة! فقال: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِّنْهُ تُوقَدُونَ﴾ [يس: 80]، فأخبر - سبحانه - بإخراج هذا العنصر الذي هو في غاية الحرارة واليبوسة من الشجر الأخضر الممتلئ بالرطوبة والبرودة، فالذي يُخرج الشيء من ضده هو الذي يفعل ما أنكره المُلحد من إحياء العظام وهي رميمٌ.

ثُمَّ أكد الدلالة بالتنبيه على أن مَنْ قدر على الشيء الأعظم الأكبر فهو على ما دونه أقدر؛ فقال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ [يس: 81].

فأخبر - سبحانه - أن الذي أبدع السموات والأرض على جلالتهما وعظم شأنهما وكبر أجسامهما وسعتهما وعجيب خلقهما - أقدر على أن يخلق عظامًا صارت رميمًا؛ فيردها إلى حالتها الأولى، كما قال تعالى في موضع آخر: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: 57]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُنَّ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: 33].

ثم بيّن ذلك بيانًا آخر يتضمن مع إقامة الحجة دفع شبهة كل مُلحد وجاحدٍ، وهو أنه - سبحانه - ليس في فعله بمنزلة غيره يفعل بالآلات الكلفة والتعب والمسقة، ولا يمكنه الاستقلال بالفعل، بل لا بد معه من آلة ومُشارك ومُعِين، بل يكفي في خلق ما يريد خلقه ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: 82].

فأخبر بنفوذ إرادته ومشيئته وسرعة تكوينه وانقياد الكون له، ثم ختم هذه الحجة بإخباره أن ملكوت كل شيء بيده فيتصرف فيه بفعله وقوله، ﴿وَالِيهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: 83].

فسبحان المتكلم بهذا الكلام الذي جمع مع وجازته وفصاحته وصحة برهانه كل ما تدعو إليه الحاجة من تقرير الدليل وجواب الشبهة بالفاظ لا أعذب منها للسمع، ولا أحلى من معانيها للقلب، ولا أنفع من ثمراتها للعبد.

ومن هذا: قوله تعالى: ﴿أَءَذَا كُنَّا عِظْمًا وَرَفْنَا أَيْنَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ۖ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝٥٠ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ۖ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُوا مَتَى هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ۝٥١ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْجُدُونَ بِحَمْدِهِ ۖ وَتَنْظُنُونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 49-52].

فتأمل ما أجبوا به عن كل سؤال على التفصيل؛ فإنهم قالوا: ﴿أَءَذَا كُنَّا عِظْمًا وَرَفْنَا أَيْنَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾؛ فقل في جواب هذا السؤال: إن كنتم تزعمون أن لا خالق لكم ولا رب، فهلا كنتم خلقاً لا يُصيبه التعب؛ كالحجارة والحديد، وما هو أكبر في صدوركم من ذلك؟ فإن قلتم: لنا رب خالق خلقنا على هذه الصفة، وأنشأنا هذه النشأة التي لا تقبل البقاء، ولم يجعلنا حجارة ولا حديدًا - فقد قامت عليكم الحجة بإقراركم؛ فما الذي يحول بين خالقكم ومُنشئكم وإعادتكم خلقاً جديداً؟!

وللحجة تقرير آخر: وهو أنكم لو كنتم من حجارة أو من حديد أو خلق أكبر منهما لكان قادراً على أن يُفنيكم، ويحيل ذواتكم، وينقلها من حالٍ إلى حال، ومن قدر على التصرف في هذه الأجسام مع صلابتها وشِدَّتْها بالإفناء

والإحالة فما يُعجزه عن التصرف فيما هو دونها بإفنائهِ وإِحَالَتِهِ وَنَقْلِهِ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ؟

فأخبر - سبحانه - أَنَّهُمْ يَسْأَلُونَ سَوْالًا آخَرَ بقولهم: مَنْ يُعِيدُنَا إِذَا اسْتَحَالَتْ أَجْسَامُنَا وَفَنِيَتْ؟ فَأَجَابَهُمْ بقوله: ﴿قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء: 51]، وهذا الجوابُ نظيرُ جوابِ قولِ السائلِ: ﴿مَنْ يُحْيِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: 78].

فلما أخذتهم الحُجَّةَ وَلَزِمَهُمْ حُكْمُهَا انتقلوا إلى سؤالٍ آخرٍ يَتَعَلَّلُونَ به كما يتعلق المَقْطُوعُ بالحِجَاجِ بذلك، وهو قولهم: ﴿مَتَى هُوَ؟﴾ فَأُجِيبُوا بقوله: ﴿عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾ (٥١) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 51-52].

وَمِنْ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (٣٨) فَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى (٣٩) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدْرِ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ [القيامة: 36-40].

فاحتج - سبحانه - على أَنَّهُ لَا يَتْرَكَ الْإِنْسَانَ مُهْمَلًا مُعْطَلًا عَنِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ، وَأَنَّ حِكْمَتَهُ وَقُدْرَتَهُ تَأْبِي ذَلِكَ، فَإِنَّ مَنْ نَقَلَهُ مِنْ نُطْفَةٍ مَنِيٍّ، وَمِنَ الْمَنِيِّ إِلَى الْعَلَقَةِ، ثُمَّ إِلَى الْمُضْغَةِ، ثُمَّ خَلَقَهُ، وَشَقَّ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ، وَرَكَّبَ فِيهِ الْحَوَاسَّ وَالْقُوَى وَالْعِظَامَ وَالْمَنَافِعَ وَالْأَعْصَابَ وَالرِّبَاطَاتِ الَّتِي هِيَ أَشَدُّ، وَآتَقَنَ خَلْقَهُ وَأَحْكَمَهُ غَايَةَ الْإِحْكَامِ، وَأَخْرَجَهُ عَلَى هَذَا الشَّكْلِ وَالصُّورَةِ الَّتِي هِيَ أَتَمُّ الصُّورِ وَأَحْسَنُ الْأَشْكَالِ - كَيْفَ يَعْجَزُ عَنِ إِعَادَتِهِ وَإِنْشَائِهِ مَرَّةً ثَانِيَةً؟ أَمْ كَيْفَ تَقْتَضِي حِكْمَتُهُ وَعِنَايَتُهُ أَنْ يَتْرَكَهُ سُدًى؟

فَلَا يَلِيقُ ذَلِكَ بِحِكْمَتِهِ، وَلَا تَعْجَزُ عَنْهُ قُدْرَتُهُ.

فانظر إلى هذا الحجاج العجيب بالقول الوجيز والبيان الجليل الذي لا يُتَوَهَّمُ أوضح منه، ومأخذه القريب الذي لا تقطع الظُّنُونُ عن أقرب منه». اهـ.

حُكْمُ مُنْكَرِ الْبَعْثِ:

حكمه: أَنَّهُ كَافِرٌ مُلْحِدٌ؛ لِأَنَّهُ مُكَذِّبٌ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَا أَجْمَعَ عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ، وَأَجْمَعَ عَلَيْهِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى، وَأَقَرَّ بِهِ الشَّيْطَانُ الرَّجِيمُ حَيْثُ قَالَ: ﴿رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الحجر: 36]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ (٢٩) وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام: 29-30]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَكُونُونَ مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [العنكبوت: 23].

قول المصنّف رحمه الله: «فيقوم الناس من قبورهم لرب العالمين حفاة عراة غرلاً».

قوله رحمه الله: «من قبورهم» هذا بناء على الغالب، وإلا فمن الناس من لم يُدفن في قبر، بل أكلته السباع والطيور أو الحيتان، وما أشبه ذلك.

قوله: «لرب العالمين»؛ لأن المقصود من قيامهم من قبورهم الحساب والجزاء، قال تعالى: ﴿وَأَسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ [ق: 41-42]، فيقومون لهذا النداء العظيم من القبور لرب العالمين، وقال تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ﴾ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: 4-6].

وقول المصنّف: «حفاة عراة غرلاً».

حُفَاة: جَمْع حَاف، وهو الذي ليس على رِجْلِهِ نِعال ولا خُفٌّ.

عِراة: أي: ليس على أجسادهم لباس.

عُرُلًا: جمع أغرل، وهو الذي لم يُخْتَن.

ففي البخاري ومسلم عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تُحْشَرُونَ حُفَاةَ عِراةٍ عُرُلًا». قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: فقلت: يا رسول الله، الرِّجال والنِّساء يَنْظُرُ بعضهم إلى بعض! فقال: «الْأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يَهْمَهُمْ ذَلِكَ».

وقول الْمُصَنِّف: «وتدنو الشَّمْسُ مِنْهُمْ فَيُلْجِمُهُمُ الْعَرَقُ».

هذا مِنْ أهوال يوم القيامة ففي «صحيح الإمام مسلم» من حديث المقداد بن الأسود قال: «سمعتُ رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «تُدنَى الشَّمْسُ يوم القيامة من الخَلْقِ حَتَّى تَكُونَ مِنْهُمْ كَمِقْدَارِ مِيلٍ».

قال سُلَيْم بن عامر: فوالله ما أدري ما يعني بالميل؟ مَسَافَةُ الأرض أم الميل الذي تكتحل به العين.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَيَكُونُ النَّاسُ عَلَى قَدَرِ أَعْمَالِهِمْ فِي الْعَرَقِ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى كَعْبِيهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى رُكْبَتِيهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى حِقْوِيهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ الْعَرَقُ إِلْجَامًا»، قال: وأشار رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِيدِهِ إِلَى فِيهِ.

وفي البخاري ومسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِنَّ الْعَرَقَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَيَذْهَبُ فِي الْأَرْضِ سَبْعِينَ بَاعًا، وَإِنَّهُ لَيَبْلُغُ إِلَى أَفْوَاهِ النَّاسِ، أَوْ إِلَى آذَانِهِمْ».

وفي البخاري ومسلم عن ابن عمر، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: 6]، قال: «يقوم أحدُهم في رُشحه إلى أنصاف أذنيه».

قال العلامة ابن عُثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ في شرحه للواسطية (ص 496 - 498): «قد يقول قائل: المعروف الآن أن الشمس لو تَدُنُو بِمَقْدَارِ شَعْرَةٍ عن مستوى خَطِّها لَأَحْرَقَتِ الْأَرْضَ، فكيف يُمكن أن تكون في ذلك اليوم هذا المقدار من البعد ثم لا تَحْرِقُ الْخَلْقَ؟

فالجواب على ذلك: أَنَّ النَّاسَ يُحْشَرُونَ يوم القيامة ليسوا على الْقُوَّةِ التي هم عليها الآن، بل هم أقوى وأعظم وأشدُّ تَحَمُّلاً.

لو أَنَّ النَّاسَ الآن وقفوا خمسين يوماً في شَمْسٍ؛ لا ظِلَّ، ولا أكل، ولا شرب فلا يُمكنهم ذلك، بل يموتون، لكن يوم القيامة يَبْقُونَ خمسين ألف سنة لا أكل ولا شرب ولا ظِلَّ إِلَّا مَنْ أَظَلَّهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ، ومع ذلك يُشاهدون أهوالاً عظيمة فَيَتَحَمَّلُونَ.

واعتبر بأهل النار كيف يتحملون هذا التَّحَمُّلِ الْعَظِيمِ؛ ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء: 56]، وبأهل الْجَنَّةِ ينظر الإنسان إلى مُلْكِهِ مَسِيرَةَ ألف عام إلى أقصاه كما ينظر إلى أدناه، كما روي ذلك عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فإن قيل: هل أحدٌ يسلم من الشمس؟

فالجواب: نَعَمْ، هناك أناسٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ في ظلِّه يوم لا ظِلَّ إلا ظله، كما أخبر بذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إمامٌ عادلٌ، وشابٌّ نشأ في طاعة الله، ورجُلٌ قلبه مُعَلَّقٌ بِالْمَسَاجِدِ، ورجُلان تَحَابَّا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجُلٌ دَعَتْهُ

امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه». وهناك أصناف أخرى يُظللهم الله في ظلّه يوم لا ظلّ إلا ظلّه. قوله: «ويُلجمهم العرق».

«يُلجمهم»، أي: يصلّ منهم إلى موضع اللجام من الفرس، وهو الفم، ولكن هذا غاية ما يصل إليه العرق، وإلا فبعضهم يصلّ العرق إلى كعبيه، وإلى ركبتيه، وإلى حقويه، ومنهم من يُلجمه، فهم يختلفون في هذا العرق، ويعرقون في شدة الحر؛ لأنّ المَكان مقام زحام وشدة ودنو شمس؛ فيعرق الإنسان ممّا يحصل في ذلك اليوم، لكنهم على حسب أعمالهم.

فإن قلت: كيف يكون ذلك وهم في مكان واحد؟

فالجواب: أننا أصلنا قاعدة يجب الرجوع إليها، وهي: أن الأمور الغيبية يجب علينا أن نُؤمن بها ونُصدّق دون أن نقول: كيف؟ ولم؟ لأنّها شيء وراء عقولنا، ولا يمكن أن ندرَكها، أو نُحيط بها.

أرأيت لو أن رجُلين دُفنا في قبر واحد: أحدهما مؤمن، والثاني كافر؛ فإنّه ينال المؤمن من النعيم ما يستحق، وينال الكافر من العذاب ما يستحق، وهما في قبر واحد، وهكذا نقول في العرق يوم القيامة، فإن قلت: هل تقول: إنّ الله سبحانه وتعالى يجمع من يُلجمهم العرق في مكان، ومن يصلّ إلى كعبيه في مكان، وإلى ركبتيه في مكان، وإلى حقويه في مكان؟

فالجواب: لا نَجزم بهذا، والله أعلم، بل نقول: من الجائز أن يكون الذي يصلّ العرق إلى كعبه إلى جانب الذي يُلجمه العرق، والله على كل شيء قدير.

وهذا نظيرُ النُّور الذي يكون للمؤمنين يَسْعَى بين أيديهم وبأيامهم، والكفار في ظُلْمَةٍ؛ فيوم القيامة يجب علينا أن نُؤمن به، وبما يكون فيه؛ أمّا كيف؟ ولم؟ فهذا ليس إلينا». اهـ.



«فَتُنْصَبُ الْمَوَازِينُ فَتُوزَنُ بِهَا أَعْمَالُ الْعِبَادِ ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ، فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿[المؤمنون: 102-103]».

في هذه الفقرة إثبات الميزان وهو مما يكون يوم القيامة.

وفي الميزان عدة مباحث.

الأول: تعريفه.

أما في اللغة فقد قال الجوهري في «الصحاح» (2/1616): «الميزان معروفٌ، وأصله: مِوزَان، انقلبت الواو ياءً لِكَسْرِ ما قبلها». اهـ.

وأما في الشرع فقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ كما في «مجموع الفتاوى» (4/302): «والميزان: هو ما يُوزَن به الأعمال، وهو غيرُ العدل، كما دلَّ على ذلك الكتاب والسنة». اهـ.

المبحث الثاني: أدلة إثبات الميزان الحقيقي يوم القيامة:

دلَّ على إثباته الكتاب والسنة المتواترة والإجماع:

فَمِنْ أدلة الكتاب: قوله تعالى: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ، فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿[المؤمنون: 102-103]، وقوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: 47]، وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ، فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ (٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ،

﴿فَأَمَّهُ هَكَوِيَّةٌ﴾ [القارعة: 6-9]، وغير ذلك.

وأما السُّنَّة؛ فمنها: ما رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ».

وفي البخاري ومسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّهُ لَيُؤْتَى بِالرَّجُلِ الْعَظِيمِ السَّمِينِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، وَقَالَ: اقْرَءُوا إِن شِئْتُمْ: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾ [الكهف: 105]».

وروى الإمام أحمد في مسنده عن عبد الله بن عمر أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ سَيَخْلُصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُنْشَرُ عَلَيْهِ تِسْعَةٌ وَتِسْعِينَ سَجَلًا، كُلُّ سَجَلٍ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ لَهُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظَلَمْتُكَ كَتَبْتِي الْحَافِظُونَ؟ قَالَ: لَا يَا رَبِّ. فيقول: أَلَكْ عُذْرٌ أَوْ حَسَنَةٌ؟ فِيهِيبُ الرَّجُلُ، فيقول: لَا يَا رَبِّ، فيقول: بَلَى، إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً وَاحِدَةً، لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ؛ فَتُخْرَجُ لَهُ بَطَاقَةٌ فِيهَا أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ. فيقول: أَحْضِرُوهُ. فيقول: يَا رَبِّ، وَمَا هَذِهِ الْبَطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السَّجَلَاتِ؟ فيقال: إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ. قَالَ: فَتُوضَعُ السَّجَلَاتُ فِي كِفَّةٍ وَالْبَطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ، قَالَ: فَطَاشَتِ السَّجَلَاتُ، وَثَقُلَتِ الْبَطَاقَةُ، وَلَا يَثْقُلُ شَيْءٌ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ».

وروى الإمام أحمد عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّهُ كَانَ يَجْنِي سِوَاكًَا مِنَ الْأَرَاكِ، وَكَانَ دَقِيقَ السَّاقَيْنِ، فَجَعَلَتِ الرِّيحُ تَكْفُوهُ، فَضَحِكَ الْقَوْمُ مِنْهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مِمَّ تَضَحَكُونَ؟». قالوا: يَا نَبِيَّ اللَّهِ مِنْ دِقَّةِ سَاقِيهِ. فقال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَهُمَا أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ أُحَدٍ».

وفي «صحيح مسلم» عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ».

وَمِمَّنْ ذَكَرَ أَنَّ أَحَادِيثَ الْمِيزَانِ متواترةً السَّفَارِينِي فِي «اللَّوَامِعِ» (2/ 179).

وَأَمَّا الْإِجْمَاعُ، فَقَدْ حَكَاهُ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ.

فَقَدْ قَالَ الْإِمَامُ السَّفَارِينِي فِي «لَوَامِعِ الْأَنْوَارِ» (2/ 179): «أَجْمَعَ أَكْبَرُ مُحَقِّقِي هَذِهِ الْأُمَّةِ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ أَنَّ الْإِيمَانَ بِثُبُوتِ الْوِزْنِ وَالْمِيزَانِ حَقٌّ وَاجِبٌ وَفَرَضٌ لَا زَبْ لثُبُوتِهِ، وَعَدَمُ اسْتِحَالَةِ ذَلِكَ عَقْلًا». اهـ.

وَقَالَ فَضِيلُهُ الشَّيْخُ عَبْدِ الْعَزِيزِ النَّاصِرِ الرَّشِيدِ فِي «التَّنْبِيهَاتِ السَّنِيَّةِ» (ص 228): «تَكَاثَرَتْ أَدِلَّةُ الْكِتَابِ فِي إِثْبَاتِ الْمِيزَانِ، كَمَا تَوَاتَرَتْ بِذَلِكَ الْأَحَادِيثُ، وَأَجْمَعَ أَهْلُ الْحَقِّ عَلَى ثُبُوتِهِ وَوُجُوبِ الْإِيمَانِ بِهِ، وَأَنَّهُ مِيزَانٌ حَقِيقِيٌّ حَسِّيٌّ». اهـ.

المبحث الثالث: في صفة الميزان:

دَلَّتِ النُّصُوصُ عَلَى أَنَّهُ مِيزَانٌ حَقِيقِيٌّ حَسِّيٌّ مُشَاهِدٌ لَهُ كِفَّتَانِ.

قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ أَبِي الْعِزِّ الْحَنْفِي رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «شَرْحِ الطَّحَاوِيَّةِ» (ص 417): «وَالَّذِي دَلَّتْ عَلَيْهِ السُّنَّةُ أَنَّ مِيزَانَ الْأَعْمَالِ لَهُ كِفَّتَانِ حَسِّيَّتَانِ مُشَاهِدَتَانِ». اهـ.

وَقَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ رَحِمَهُ اللَّهُ كَمَا فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى» (4/ 302) بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ بَعْضَ الْأَحَادِيثِ فِي إِثْبَاتِ الْمِيزَانِ: «وَهَذَا وَأَمْثَالُهُ مِمَّا يُبَيِّنُ أَنَّ الْأَعْمَالَ تُوزَنُ بِمَوَازِينٍ يَتَبَيَّنُ بِهَا رُجْحَانُ الْحَسَنَاتِ عَلَى السَّيِّئَاتِ وَالْعَكْسُ؛ فَهُوَ مَا بِهِ يَتَبَيَّنُ الْعَدْلُ، وَالْمَقْصُودُ بِالْوِزْنِ: الْعَدْلُ؛ كَمَوَازِينِ الدُّنْيَا، وَأَمَّا كَيْفِيَّةُ تِلْكَ الْمَوَازِينِ فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ كَيْفِيَّةِ سَائِرِ مَا أُخْبِرْنَا بِهِ مِنَ الْغَيْبِ». اهـ.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي الْعِزِّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «شَرْحِ الطَّحَاوِيَّةِ» (ص 419): «فَتَبَّتْ وَزْنُ

الأعمال والعامل وصحائف الأعمال، وثبت أن الميزان له كِفَتَانِ، والله أعلم بما وراء ذلك من الكيفيات؛ فعلينا الإيمان بالغيب، كما أخبرنا الصادق صلى الله عليه وسلم من غير زيادة ولا نقصان». اهـ.

وقال العلامة الفوزان - حفظه الله - في شرحه للواسطية (ص 113): «وهو - الميزان - من أمور الآخرة؛ نُؤمن به كما جاء، ولا نبحث عن كيفيته إلا على ضوء ما ورد من النصوص». اهـ.

المبحث الرابع: في الحكمة من وزن الأعمال:

قال العلامة السفاريني في «مختصر اللوامع» (ص 410): «إن قيل: ما الحكمة من الوزن مع أن الله - تعالى - عالم بكل شيء؛ فيعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور؟

أجاب الثعلبي بأن الحكمة في ذلك: تعريف الله عباده ما لهم عنده من الجزاء من خير أو شرّ.

قال العلامة الشيخ مرعي: بل الحكمة فيه إظهار العدل، وبيان الفضل أنه يزن مثاقيل الذرّ من خير أو شرّ، ﴿وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 40].

وقال العلامة ابن أبي العزّ الحنفي في «شرح الطحاوية» (ص 419): «ولو لم يكن من الحكمة في وزن الأعمال إلا ظهور عدله - سبحانه - لجميع عباده؛ فإنه لا أحد أحب إليه العذر من الله من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومُنذرين - فكيف ووراء ذلك من الحكم ما لا اطلاع لنا عليه». اهـ.

وقال العلامة الفوزان في «شرح الواسطية» (ص 113): «والحكمة في وزن

الأعمال: إظهار مقاديرها؛ ليكون الجزاء بحسبها». اهـ.

المبحث الخامس: مَنْ هم الذين لم يُثبتوا الميزان حقيقة يوم القيامة؟ وما هي شبهتهم؟ وكيف يُجاب عنهم؟

فأقول وبالله التوفيق: الذي رأيتُ مِنْ صنيعٍ كثيرٍ من أهل العلم أَنَّهُمْ يَنْسُبُونَ ذلك إلى المُعتزلة، والتَّحقيق أَنَّ ذلك قول أكثرهم لا كلهم، وعليه فيُحمل كلام مَنْ أَطْلَقَ ذلك مِنْ أهل العلم رحمهم الله.

فقد قال القاضي عبد الجبَّار - وهو من كبار المُعتزلة في «شرح الأصول الخمسة» -: «ولم يُرد الله - تعالى - بالمِيزان إِلَّا المَعقول منه المُتعارف بيننا دون العَدْل وغيره». اهـ.

وقد أَوَّلُوا المِيزان بالعَدْل، وقيل: الكتاب الذي فيه أعمال الخَلْق.

قال الإمام الشُّوكاني رَحِمَهُ اللهُ فِي «فَتْح القَدِير» (2/ 189): «واختلف أهل العلم في كيفية هذا الوزن الكائن في هذا اليوم، فقيل: المُراد به وزن صَحائف أعمال العباد بالمِيزان وزناً حَقِيقِيّاً، وهذا هو الصَّحيح، وهو الذي قامت عليه الأدلة.

وقيل: تُوزن نَفْسُ الأعمال وإن كانت أَعراضاً، فَإِنَّ اللهَ يَقلبها يوم القيامة أجساماً، كما جاء في الخبر الصَّحيح: «إِنَّ البقرةَ وَآلَ عِمْرانَ يَأْتيان يوم القيامة كَأَنَّهُما عَمَمتان، أو غَيَابَتان، أو فِرْقانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافٍ»، وكذلك ثَبَتَ في الصَّحيح أَنَّهُ يَأْتِي القرآنُ في صورة شابٍّ شَاحِبٍ اللون، ونحو ذلك. وقيل: المِيزان الكتاب الذي فيه أعمال الخَلْق. وقيل: الوزن والمِيزان بمعنى العدل والقضاء، وذَكَرَهُما من باب ضَرْب المَثَل، كما تقول: هذا الكلام في وزن هذا.

قال الزَّجَّاج: هذا سائغٌ من جهة اللسان، والأوَّلَى أن نَتَّبِع ما جاء في الأسانيد الصَّحاح مِن ذِكر المِيزان.

قال القُشَيْرِي: وقد أَحَسَّنَ الزَّجَّاجُ فيما قال: إذ لو حُمِلَ المِيزان على هذا، فليُحْمَلَ الصُّرَاطُ على الدِّينِ الحَقِّ، والجَنَّةِ والنَّارِ على ما يَرِدُ على الأرواحِ دون الأَجْسَادِ، والشَّيَاطِينِ والجِنِّ على الأخلاقِ المَذْمُومَةِ، والملائكةِ على القُوَى المَحْمُودَةِ، ثم قال: وقد أَجْمَعَتِ الأُمَّةُ في الصِّدْرِ الأوَّلِ على الأخذِ بهذه الظَّواهرِ من غيرِ تأويلٍ، وإذا أَجْمَعُوا على مَنعِ التَّأْوِيلِ وَجَبَ الأخذُ بالظَّاهِرِ، وصارت هذه الظَّواهرُ نصوصًا.

ثمَّ قال الإمامُ الشُّوكَانِيُّ: «والحقُّ هو القولُ الأوَّلُ، وأمَّا المُستَبْعِدُونَ لحملِ هذه الظَّواهرِ على حقائقها فما يأتون في استبعادهم بشيءٍ من الشَّرْعِ يُرجعُ إليه، بل غاية ما تَشَبَّهُوا به مجرد الاستبعاداتِ العقلية، وليس في ذلك حُجَّةٌ على أحدٍ، فهذا إذا لم تقبله عقولُهم فقد قَبِلَتْهُ عَقُولُ قَوْمٍ هي أقوى من عقولهم من الصَّحابةِ والتَّابِعِينَ وتابعيهم، حتَّى جاءت البدعُ كالليلِ المُظْلِمِ، وقال كلُّ ما شاء، وتركوا الشَّرْعَ خَلْفَ ظُهُورِهِمْ، وليتهم جاءوا بأحكامٍ عقليةٍ يَتَّفَقُ العقلاءُ عليها، وَيَتَّحِدُ قَبُولُهُمْ لَهَا، بل كُلُّ فَرِيقٍ يَدَّعِي على العقلِ ما يُطابِقُ هواه، ويوافق ما يذهب إليه هو، أو مَنْ هو تابعٌ له.

فتتناقض عقولُهم على حسب ما تناقضت مذاهبُهم؛ يَعْرِفُ هذا كُلُّ مُنْصِفٍ، وَمَنْ أَنْكَرَهُ فَلْيُصِفْ فَهْمَهُ وعقلَهُ عن شوائبِ التَّعَصُّبِ والتَّمَذُّبِ؛ فَإِنَّهُ إِنْ فَعَلَ ذلك أَسْفَرَ الصُّبْحَ لِعَيْنِيهِ». اهـ.

والخلاصة: أنَّ تأويلَ المِيزانِ على غيرِ حَقِيقَتِهِ مُخَالَفٌ لظَّواهرِ نُصوصِ الكتابِ والسُّنَّةِ، وإجماعِ سَلَفِ الأُمَّةِ، وخِلَافٌ مُقْتَضِيُ العَقْلِ.

أَمَّا شُبْهَتُهُمْ فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ الْأَعْمَالَ أَعْرَاضٌ وَلَيْسَتْ أَجْسَامًا؛ فَكَيْفَ تُوزَنُ وَالْحَالُ مَا ذُكِرَ؟

وقبل ذكر جواب العلماء على شُبْهَتِهِمْ - أُنْبِئْ عَلَى أَنَّ هَذَا لَا يَرِدُ عَلَى مَنْ يُرَجَّحُ أَنَّ الَّذِي يُوزَنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ هُوَ صَحَائِفُ الْأَعْمَالِ أَوِ الْعَامِلُ، وَإِنَّمَا يَرِدُ عَلَى مَنْ يَقُولُ بِوزن الأعمال، أَوِ الْجَمِيعِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالْعَمَلِ.

وَأَمَّا جَوَابُ الْعُلَمَاءِ عَنْ هَذِهِ الشُّبْهَةِ فَمِنْ وَجْهِ:

الْأَوَّلُ: أَنَّ الْوَاجِبَ فِي أُمُورِ الْغَيْبِ الَّتِي أَخْبَرَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ أَنْ تَتَلَقَّاهَا بِالْقَبُولِ وَالتَّسْلِيمِ، وَلَا تُورَدُ عَلَيْهَا الْإِشْكَالَاتُ، وَلَا نَقُولُ: كَيْفَ، بَلْ نَقُولُ: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَصَدَّقْنَا.

الثاني: مَا قَالَهُ الْعَلَّامَةُ ابْنُ عُثَيْمِينَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «شرح الواسطية» (ص 501): «والجواب عن ذلك أن يقال: إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَجْعَلُ هَذِهِ الْأَعْمَالَ أَجْسَامًا، وَلَيْسَ هَذَا بَغْرِيْبٍ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، وَلَهُ نَظِيرٌ وَهُوَ الْمَوْتُ، فَإِنَّهُ يُجْعَلُ عَلَى صُورَةِ كَبْشٍ، وَيُذْبَحُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ مَعَ أَنَّ الْمَوْتَ مَعْنَى وَلَيْسَ بِجِسْمٍ، وَلَيْسَ الَّذِي يُذْبَحُ مَلَكُ الْمَوْتِ، وَلَكِنَّهُ نَفْسُ الْمَوْتِ حَيْثُ يَجْعَلُهُ اللَّهُ - تَعَالَى - جِسْمًا يُشَاهَدُ وَيُرَى، وَكَذَلِكَ الْأَعْمَالُ يَجْعَلُهَا اللَّهُ أَجْسَامًا تُوزَنُ بِهَذَا الْمِيزَانِ الْحِسِّيِّ». اهـ. وانظر «شرح الطحاوية» لابن أبي العزِّ (ص 419).

الثالث: أَنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى وَزْنِهَا، وَهِيَ أَعْرَاضٌ ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ، كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: 82]، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: 20]، كَيْفَ لَا، وَقَدْ تَوَصَّلَ عِلْمُ الْبَشَرِ فِي هَذِهِ الْعَصُورِ الْمَتَأَخِّرَةِ إِلَى إِيجَادِ مَوَازِينَ لِلْحَرَارَةِ وَالْبُرُودَةِ وَنَحْوِهَا وَهِيَ أَعْرَاضٌ، وَعِلْمُهُمْ وَقُدْرَتُهُمْ لَا تُسَاوِي شَيْئًا بِجَانِبِ عِلْمِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ، وَاللَّهُ هُوَ الَّذِي أَلْهَمَهُمْ وَعَلَّمَهُمْ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَاللَّهُ

أَعْلَمُ.

المبحث السادس: ما الذي يُوزن؟

اختلف العلماء - رحمهم الله - في الذي يُوزن: هل هو العمل؟ أم العامل؟ أم صحائف الأعمال؟ أم الكل؟ والسبب في ذلك الأحاديث الواردة فمنها ما يدل على وزن العمل، ومنها ما يدل على وزن صحائف الأعمال، ومنها ما يدل على وزن العامل.

فذهب جَمْعٌ من أهل العلم إلى أن الذي يُوزن هو العمل، وهو ظاهرُ كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ، واختاره الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في «شرح الواسطية» (ص 503)، فقد قال بعد ذكر الخلاف: «ولكن عند التأمل نجد أن أكثر النصوص تدل على أن الذي يُوزن هو العمل، ويُخصُّ بعض الناس فتوزن صحائف أعماله، أو يُوزن هو نفسه.

وأما ما وردَ في حديث ابن مسعود، وحديث صاحب البطاقة - فقد يكون هذا أمرًا يَخُصُّ الله به مَنْ يشاء من عباده». اهـ.

ومن أظهر أدلة هذا القول: قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْنَاءًا لِّیُرَوْا أَعْمَلَهُمْ ۖ﴾ ﴿٦﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾ [الزلزلة: 6-8].

وحديث أبي هريرة في الصحيحين أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ».

وحديث أبي مالك الأشعري عند مسلم أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:

«الحمد لله تَمَلُّ المِيزان».

وَمِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ مَنْ ذَهَبَ إِلَى أَنَّ الَّذِي يُوزَنُ هُوَ صَحَائِفُ الْأَعْمَالِ.
قال السَّفَارِينِي فِي «مَخْتَصَرِ اللُّوَامِعِ» (ص 410) بَعْدَ أَنْ رَجَّحَ هَذَا الْقَوْلَ:
«وَصَحَّحَهُ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ وَالْقُرْطُبِيُّ وَغَيْرُهُمَا، وَصَوَّبَهُ الشَّيْخُ مَرْعِي، وَذَهَبَ إِلَيْهِ
جَمْعُهُورُ الْمُفَسِّرِينَ، وَيُؤَيِّدُ ذَلِكَ حَدِيثُ الْبِطَاقَةِ وَالسَّجَّلَاتِ». اهـ، ثُمَّ ذَكَرَهُ.
وَمِمَّنْ اخْتَارَ هَذَا الْقَوْلَ الْإِمَامُ الشُّوكَانِي رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «فَتْحِ الْقَدِيرِ» (2/ 189)
حَيْثُ قَالَ: «وَاخْتَلَفَ أَهْلُ الْعِلْمِ فِي كَيْفِيَةِ هَذَا الْوِزْنِ فِي هَذَا الْيَوْمِ. فَقِيلَ: الْمُرَادُ
بِهِ وَزْنُ صَحَائِفِ أَعْمَالِ الْعِبَادِ بِالْمِيزَانِ وَزَنًّا حَقِيقِيًّا، وَهَذَا هُوَ الصَّحِيحُ، وَهُوَ
الَّذِي قَامَتْ عَلَيْهِ الْأَدْلَةُ». اهـ.

وَمِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ مَنْ ذَهَبَ إِلَى أَنَّ الَّذِي يُوزَنُ صَاحِبُ الْعَمَلِ، وَاسْتَدَلُّوا
بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ
يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾ [الكهف: 105]، فَقَالَ: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ﴾، وَلَمْ يَقُلْ: لِأَعْمَالِهِمْ،
وَلَا لِصَحَائِفِ أَعْمَالِهِمْ.

كَمَا اسْتَدَلُّوا بِحَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ الَّذِي سَبَقَ ذِكْرُهُ فِي أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ فِي سَاقِيهِ: «لَهُمَا أَنْثَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ جَبَلٍ أَحَدٍ».

وَبِحَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ فِي الصَّحِيحِينَ: «يُؤْتَى بِالرَّجُلِ الْعَظِيمِ السَّمِينِ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ فَلَا يَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ».

وَمِنْهُمْ مَنْ ذَهَبَ إِلَى أَنَّ الْأَعْمَالَ تُوزَنُ تَارَةً، وَصَحَائِفُ الْأَعْمَالِ تَارَةً،
وَالْعَامِلُ تَارَةً أُخْرَى، وَهَذَا هُوَ الَّذِي اخْتَارَهُ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي تَفْسِيرِهِ
(2/ 271)، فَبَعْدَ أَنْ ذَكَرَ الْأَقْوَالَ السَّابِقَةَ قَالَ: «وَقَدْ يُمَكِّنُ الْجَمْعُ بَيْنَ هَذِهِ الْأَثَارِ

بأن يكون ذلك كله صحيحًا؛ فتارة تُوزن الأعمال، وتارة تُوزن مَحَالُّها، وتارة يُوزن فاعلُها، والله أعلم». اهـ.

ومنهم مَنْ ذهب إلى أنَّ العمل والعامل وصحائف الأعمال تُوزن، وهو اختيار ابن أبي العزِّ الحنفي رَحِمَهُ اللهُ في «شرح الطَّحاوية» (ص 419) حيث قال بعد ذكر بعض أدلة الميزان: «فَتَبَّتْ وَزَنُ الأعمال والعامل وصحائف الأعمال». اهـ.

كما رَجَّح هذا الشيخُ حافظ الحَكَمي في «معارج القبول» (2/ 848 - 849) حيث قال بعد أن ذكر الخلاف في ذلك: «والذي استظهر من النُّصوص - والله أعلم - أنَّ العامل وعمله وصحيفة عمله، كُلُّ ذلك يُوزن؛ لأنَّ الأحاديث التي في بيان القرآن قد وَرَدَتْ بكلِّ من ذلك، ولا منافاة بينها». اهـ.

هذا، وقد سَبَقَ أنَّ ظاهرَ كلام شيخ الإسلام يدلُّ على أنَّ الذي يُوزن هو العمل، وأَنَّ اختيار العلامة ابن عُثيمين؛ رحم الله الجميع.

ولابنِ عُثيمين كلامٌ آخر في شرحه للسفارينية (ص 473) يُؤيِّد كلامه السابق قال فيه: «وحديث البِطَاقَة لا يُقاوم الأدلة من القرآن والسُّنَّة على أنَّ الذي يُوزن هو العمل».

ولهذا صرَّح شيخ الإسلام ابن تيمية في «العقيدة الواسطية» قال: «فَتَنْصَبُ الموازين؛ فتُوزن بها أعمالُ العباد»، وهو الحقُّ، لكنَّ حديثَ البِطَاقَة قد يقال: إنَّ هذا خاصٌّ به وبأمثاله من أجل أن يتبين له فضلُ الله عليه.

وقد يقال: إنَّه لَمَّا وُزِنَت الصحيفة وثقلت بحسب العمل فإنَّ الوزن حقيقة يكون للعمل.

وأما حديث ابن مسعود والآية - فلا تدلُّ على ذلك؛ لأنَّ معنى ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ﴾ [الكهف: 105]، يعني: لا نقيم لهم قيمة، كما تقول: فلانُّ ليس له عندي وزنٌ؛ أي: لا قيمة له، ولا اعتبار.

وأما حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَأَرَادَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ خِفَّةَ الوزن لا تدلُّ على قِلَّةِ العمل، أو على خِفَّتِهِ، وليس بذاك الصَّريح، فالمُعتمد أن التي توزن هي الأعمال». اهـ.

قلت: وهذا المذهب هو أقواها، والله أعلم.

المبحث السابع: هل هو ميزان واحد؟ أم مُتعدد؟

اختلف العلماء في هذا على ثلاثة أقوال:

الأول: أنَّ الميزان واحد.

الثاني: أنَّ لكلِّ أمة ميزاناً.

الثالث: أنَّ لكل شخص ميزاناً.

قال الإمام القرطبيُّ في «التذكرة» (ص 278-279): «ذكر الله - تعالى - الميزان في كتابه بلفظ الجمع، وجاءت السُّنة بلفظ الإفراد والجمع. فقليل: يجوز أن يكون هناك موازين للعمل الواحد يُوزن بكلِّ ميزان منها صنفٌ من الأعمال، كما قيل:

مَلِكٌ تَقُومُ الْحَادِثَاتُ لِعَدْلِهِ	فَلِكُلِّ حَادِثَةٍ لَهَا مِيزَانٌ
تَتَصَرَّفُ الْأَشْيَاءُ فِي مَلَكُوتِهِ	وَلِكُلِّ شَيْءٍ مُدَّةٌ وَأَوَانٌ

ويمكن أن يكون ميزاناً واحداً عبَّر عنه بلفظ الجمع، كما قال تعالى: ﴿كَذَبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: 123]، ﴿كَذَبَتْ قَوْمٌ نُوحَ الْمُرْسَلِينَ﴾

[الشعراء: 105].

وقيل: المراد بالمَوَازِين: جمع مَوَزُون؛ أي: الأعمال الموزونة، لا جمع ميزان». اهـ.

وقال العلامة ابن أبي العزّ الحنفي في «شرح الطحاوية» (ص 417): «وقوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ [الأنبياء: 47] يحتمل أن يكون ثمّ موازين متعددة توزن فيها الأعمال، ويحتمل أن يكون المراد الموزونات؛ فجمع باعتبار تنوع الأعمال الموزونة، والله أعلم». اهـ.

وقال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في «شرح الواسطية» (ص 498 - 499): «والمؤلّف يقول: «المَوازِين» بالجمع، وقد وردت النصوص بالجمع والإفراد.

فمثال الجمع: قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ [الأنبياء: 47]، وقال تعالى: ﴿وَالْوِزْنَ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [الأعراف: 8-9].

وأما الإفراد، فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كَلِمَتَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ، خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ».

فقال: «في المِيزَانِ» فأفرد؛ فكيف نجمع بين الآيات القرآنية وبين هذا الحديث؟!

فالجواب أن نقول: إنها جمعت باعتبار الموزون حيث إنه متعدّد، وأفردت باعتبار أن المِيزان واحد، أو ميزان كلّ أمة، أو أن المراد بالمِيزان في قوله عليه

الصَّلاة والسَّلام: «ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ»، أي: في الوزن.

ولكن الذي يَظهر - والله أعلم - أنَّ المِيزانَ واحدٌ، وأنَّه جُمعُ باعتبارِ المَوزون، بدليلِ قوله: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ [الأعراف: 8]، لكن يتوقف الإنسان: هل يكون ميزانًا واحدًا لجميع الأمم، أو لكل أُمَّة ميزان؛ لأنَّ الأمم كما دَلَّت عليه النصوصُ تختلفُ باعتبارِ أَجْرِهَا. اهـ.

قلتُ: وبعد ما سَبَقَ مِنَ النُّصوصِ وكلامِ أَهْلِ الْعِلْمِ يَظهرُ لي والله أعلم أنَّ المِيزانَ واحدٌ لِعُمومِ الأدلة، وأنَّ الجَمْعَ باعتبارِ المَوزون.

المبحث الثامن: هل يُسْتثنى أَحَدٌ فلا تُوزن أَعْمَالُهُ؟

استثنى بعضُ العلماءِ السَّبعين الألف الذين يَدْخلون الجنةَ بلا حسابٍ ولا عذاب، بدليل ما في الصَّحِيحِينَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ؛ هُمُ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَلَا يَكْتَوُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ».

وقد قَرَّرَ هذا القرطبيُّ في «التَّذكرة»، وحكاه - أيضًا - عن الغزالي (ص 271).

واختلف في الكُفَّار هل تُوزن أَعْمَالُهُمْ أم لا؟

والرَّاجح: أَنَّ أَعْمَالَهُمْ تُوزن، وإلى هذا ذهب القرطبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في «التَّذكرة» (ص 270).

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ (ص 715): «قال الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ [الأنبياء: 47] الآية، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ ① فهو في عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ② وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ

مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأَمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿[القارعة: 6-9]﴾، إلى آخر السورة، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [الأعراف: 9]، الآيتين في الأعراف والمؤمنين. وهذه الآيات إخبارٌ بوزن أعمال الكفار؛ لأنَّ عامَّةَ المعنَّيين بقوله: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ في هذه الآيات هم الكفار، وقال في سورة المؤمنين: ﴿فَكَتُمُّ بِهَا تَكْذِبُوكَ﴾ [المؤمنون: 105]، وفي الأعراف: ﴿يَمَّا كَانُوا بِعَايِنَتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: 9]، وقال: ﴿فَأَمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ [القارعة: 9]، وهذا الوعيد بإطلاقه للكفار.

وإذا جُمِعَ بينه وبين قوله: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾ وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴿[الأنبياء: 47]﴾ ثَبَتَ أَنَّ الكُفَّارَ يُسْأَلُونَ عَمَّا خَالَفُوا فِيهِ الْحَقَّ مِنْ أَصْلِ الدِّينِ وَفُرُوعِهِ. اهـ.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ (ص 275): «وإنَّما تُوزَنُ أَعْمَالُ الْمُؤْمِنِ الْمُتَّقِي لِإِظْهَارِ فَضْلِهِ، كما تُوزَنُ أَعْمَالُ الكُفَّارِ لِخِزْيِهِ وَذُلِّهِ، فَإِنَّ أَعْمَالَهُ تُوزَنُ تَبْكِيتًا لَهُ عَلَى فِرَاقِهِ وَخُلُوهٍ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ». اهـ.

المبحث التاسع: متى يكون وزن الأعمال؟

قال الإمام القرطبي رَحِمَهُ اللهُ في «التَّذَكُّرَةِ» (ص 270): «قال العلماء: وإذا انقضى الحسابُ كان بعده وزن الأعمال؛ لأنَّ الوزنَ للجزاء، فينبغي أن يكون بعد المُحَاسَبَةِ، فإنَّ المُحَاسَبَةَ لتقدير الأعمال، والوزن لإظهار مقاديرها؛ ليكون الجزاء بِحَسَبِهَا؛ قال الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ [الأنبياء: 47]، الآية، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأَمُّهُ

هَكَوِيَّةٌ ﴿[القارعة: 6-9]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [الأعراف: 9]. اهـ.

ونقل هذا كُلُّ من ابن أبي العزِّ الحنفي في «شرح الطحاوية» (ص 417):
والسَّفاريني في «لوامع الأنوار» (ص 407)، وأقرَّاه.

المبحث العاشر: في الأثر المسلكي للإيمان بالميزان:

«لا شكَّ أنَّ معرفة هذه الأشياء والإيمان بها له تأثيرٌ على العبد، فإذا صدَّقت بأن هناك وزنًا حمَلَكَ على أن تستعدَّ لذلك؛ لأنَّ الله تعالى يقول في هذه الآية: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ، فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: 102-103]، وفي آية أخرى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِعَآيِنَتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: 9]، وفي آية أخرى: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ، ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ، ﴿٨﴾ فَأُمُّهُ هَكَوِيَّةٌ﴾ [القارعة: 6-9].

وهذا كُلُّه دليلٌ على أنَّ هناك وزنًا حقيقيًّا، فالمسلم الذي يؤمن بذلك يستكثر من الأعمال الصالحة التي يُثَقَّلُ بها ميزانه، وإذا استكثر منها حرصَ على أن تكون أعماله صالحة صادقة صادرة من صميم قلبه، فإنَّ ثقل الأعمال وخِفَّتِها يختلف بحسب إخلاص العامل وإخلاص نيَّته. اهـ. «التعليقات الزَّكيَّة» (105/2).



«وفي عَرَصات القيامة: الحَوْضُ المَرُود للنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ ماؤه أَشَدُّ بياضًا من اللبن، وأحلى من العسل، وآنيته عددُ نجوم السماء، طولُه شهرٌ، وعَرْضُه شهرٌ، مَنْ يشربُ منه شربةً لا يَظْمَأُ بعدها أبدًا».

الحوض: هو مُجتمع الماء.

قال الإمام القرطبي في «التذكرة» (ص362): «والصَّحيح أنَّ للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَوْضَيْنِ:

أحدهما في المَوقف قبل الصُّراط، والثَّاني في الجَنَّة، وكلاهما يُسمَّى كوثرًا». اهـ.

قلت: ويدلُّ على ما قاله القرطبي ما رواه البخاري في صحيحه عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عَبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ فِي الكوثر: «هو الخيرُ الذي أعطاه اللهُ إِيَّاه». قال أبو بشر: قلت لسعيد بن جبير: فَإِنَّ النَّاسَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ نَهْرٌ فِي الجَنَّة. فقال سعيد: النهر الذي في الجَنَّة من الخير الذي أعطاه اللهُ إِيَّاه.

وفي البخاري عن أبي عبيدة، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قال: سألتها عن قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر:1]، قالت: نهرٌ أُعطيهِ نَبِيُّكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ شاطئاه عليه دُرٌّ مُجَوَّف، آنيته كَعَدَدِ النُّجُوم.

وفي البخاري عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «بينما أنا أسيرُ في الجَنَّة إذ أنا بنهرٍ حافتاه قِباب الدُّرِّ المُجَوَّف. قلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاك رَبُّكَ، فإذا طِينُهُ - أو طِيْبُهُ - مِسْكٌ أَذْفَر».

وقال شيخُ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ كما في «مَجْمُوعِ الفَتاوى» (16/ 527 - 528)،

وهو يتكلم عن سورة الكوثر: «وَحَصَّ نَبِيَّهٖ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ أَعْطَاهُ الْكَوْثَرَ، وَهُوَ مِنَ الْخَيْرِ الْكَثِيرِ الَّذِي آتَاهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ فَمِمَّا أَعْطَاهُ فِي الدُّنْيَا الْهُدَى وَالنَّصْرَ وَالتَّأْيِيدَ وَقُرَّةَ الْعَيْنِ وَالنَّفْسَ وَشَرَحَ الصَّدْرَ، وَنَعَّمَ قَلْبَهُ بِذِكْرِهِ وَحُبِّهِ بِحَيْثُ لَا يُشَبِّهُ نَعِيمُهُ نَعِيمَ الدُّنْيَا أَلْبَتَهُ، وَأَعْطَاهُ فِي الْآخِرَةِ الْوَسِيلَةَ وَالْمَقَامَ الْمَحْمُودَ، وَجَعَلَهُ أَوَّلَ مَنْ يُفْتَحُ لَهُ وَلَأَمَتَهُ بَابُ الْجَنَّةِ، وَأَعْطَاهُ فِي الْآخِرَةِ لَوَاءَ الْحَمْدِ وَالْحَوْضَ الْعَظِيمَ فِي مَوْقِفِ الْقِيَامَةِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ». اهـ.

قلت: فمن أدلة ثبوت الحوض عموم قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾.

وقد دلَّ على ذلك السُّنَّةُ الْمُتَوَاتِرَةُ وَالْإِجْمَاعُ.

وقد حكم جمعُ من أهل العلم بتواتر السُّنَّةِ فِي ذَلِكَ نَظْمًا وَنَثْرًا، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ الْعَلَّامَةِ ابْنِ أَبِي الْعِزِّ فِي «شرح الطحاوية» (ص 227): «الْأَحَادِيثُ الْوَارِدَةُ فِي ذِكْرِ الْحَوْضِ تَبْلُغُ حَدَّ التَّوَاتُرِ؛ رَوَاهَا مِنَ الصَّحَابَةِ بَضْعٌ وَثَلَاثُونَ صَحَابِيًّا، وَلَقَدْ اسْتَقْصَى طَرَقَهَا شَيْخُنَا عِمَادُ الدِّينِ ابْنُ كَثِيرٍ - نَعَمَّدَهُ اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ فِي آخِرِ «تَارِيخِهِ الْكَبِيرِ». اهـ.

وَمِنْ تِلْكَ الْأَحَادِيثُ: مَا فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ».

وَمِنْهَا مَا فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ؛ مَنْ وَرَدَ شَرِبَ، وَمَنْ شَرِبَ لَمْ يَظْمَأْ أَبَدًا».

وَقَوْلُ الْمُصَنِّفِ: «وَفِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ: الْحَوْضُ الْمَوْرُودُ لِلنَّبِيِّ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

وهذا هو الصَّحيح: أَنَّ الحَوْضَ في عرصات القيامة، وقبل الصَّراط.

واختلف في المِيزان والحوض: أَيُّهُمَا قَبْلَ الآخر؟

قال العلامة ابن أبي العز في «شرح الطحاوية» (ص 227 - 228): «الحوض قبل الصراط؛ لأنه يُختلج عنه، ويُمنع منه أقوامٌ ارتدوا على أعقابهم، ومثل هؤلاء لا يُجاوزون الصَّراط». اهـ.

وقال الإمام القرطبي في «التذكرة» (ص 262): «ذهب صاحبُ «القوت» وغيره إلى أَنَّ حَوْضَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنما هو بعد الصَّراط، والصَّحيح أَنَّ للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَوْضَيْنِ؛ أحدهما في المَوْقف قبل الصَّراط. والثاني في الجَنَّة، وكلاهما يُسمَّى كوثرًا، على ما يأتي.

والكوثر في كلام العرب: الخير الكثير.

واختلف في المِيزان والحوض: أَيُّهُمَا قَبْلَ الآخر؟

ف قيل: المِيزان قبل.

وقيل: الحوض.

قال أبو الحسن القاسبي: والصَّحيح: أَنَّ الحَوْضَ قَبْلُ.

قلت - القرطبي -: والمعنى يُقتضيه، فَإِنَّ النَّاسَ يَخْرُجُونَ عِطَاشًا مِنْ قُبُورِهِمْ كَمَا تَقْدَم، فَيُقَدَّم قَبْلَ الصَّراط والمِيزان، والله أعلم.

وقال أبو حامد في كتاب «كشف علوم الآخرة»: وحكى بعضُ السلف من أهل التصنيف: أَنَّ الحَوْضَ يُورَدُ بعد الصَّراط، وهو غلطٌ مِنْ قائله، قال المؤلف - القرطبي - هو كما قال.

وقد روى البخاري عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «بَيْنَا أَنَا قَائِمٌ إِذَا زُمِرَ، حَتَّى إِذَا عَرَفْتُهُمْ خَرَجَ رَجُلٌ مِنْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ، فَقَالَ: هَلُمَّ! فَقُلْتُ: أَيْنَ؟ قَالَ: إِلَى النَّارِ وَاللَّهِ، قُلْتُ: وَمَا شَأْنُهُمْ؟ قَالَ: إِنَّهُمْ ارْتَدَوْا بَعْدَكَ عَلَى أَدْبَارِهِمُ الْقَهْقَرَى. ثُمَّ إِذَا زُمِرَ، حَتَّى إِذَا عَرَفْتُهُمْ خَرَجَ رَجُلٌ مِنْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ، فَقَالَ: هَلُمَّ. قُلْتُ: أَيْنَ؟ قَالَ: إِلَى النَّارِ وَاللَّهِ، قُلْتُ: مَا شَأْنُهُمْ؟ قَالَ: إِنَّهُمْ ارْتَدَوْا بَعْدَكَ عَلَى أَدْبَارِهِمُ الْقَهْقَرَى، فَلَا أَرَاهُ يَخْلُصُ مِنْهُمْ إِلَّا مِثْلُ هَمَلٍ النَّعَمَ».

قلت - القرطبي -: فهذا الحديث مع صِحَّتِهِ أَذَلُّ دَلِيلٍ عَلَى أَنَّ الْحَوْضَ يَكُونُ فِي الْمَوْقِفِ قَبْلَ الصَّرَاطِ؛ لِأَنَّ الصَّرَاطَ إِنَّمَا هُوَ جِسْرٌ عَلَى جَهَنَّمَ مَمْدُودٌ يُجَازُ عَلَيْهِ، فَمَنْ جَاوزه سَلِمَ مِنَ النَّارِ، عَلَى مَا يَأْتِي.

إِلَى أَنْ قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَلَا يَخْطُرُ بِبَالِكَ أَوْ يَذْهَبُ هَمُّكَ إِلَى أَنَّ الْحَوْضَ يَكُونُ عَلَى وَجْهِ هَذِهِ الْأَرْضِ، وَإِنَّمَا يَكُونُ وَجُودُهُ فِي الْأَرْضِ الْمُبْدَلَةِ عَلَى مَسَاحَتِهِ هَذِهِ الْأَقْطَارِ، أَوْ فِي الْمَوَاضِعِ الَّتِي تَكُونُ بَدَلًا مِنْ هَذِهِ الْمَوَاضِعِ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ، وَهِيَ أَرْضٌ بِيضَاءُ كَالْفِضَّةِ لَمْ يُسْفَكْ فِيهَا دَمٌ، وَلَمْ يُظْلَمْ عَلَى ظَهْرِهَا أَحَدٌ قَطُّ». اهـ.

قول الْمُصَنِّفِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ، وَأَخْلَى مِنَ الْعَسَلِ». هذه مِنْ صِفَاتِ مَاءِ هَذَا الْحَوْضِ، فَالْعَيْنُ تَتَعَلَّقُ بِهِ، وَكَذَا الذَّوْقُ، وَكَذَا الشَّمُّ، كَمَا جَاءَ فِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ أَنَّ رِيحَهُ أَطْيَبُ مِنَ الْمِسْكِ.

ففي البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال في الحوض: «مَاؤُهُ أَبْيَضُ مِنَ الْوَرَقِ، وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنَ الْمِسْكِ».

وفي «صحيح مسلم» عن أبي ذرٍّ وثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَا وَهَ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ، وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ». وقول المصنّف رَحِمَهُ اللَّهُ: «آيَتُهُ عَدَدُ نُجُومِ السَّمَاءِ».

هذا يشمل الكثرة والبريق واللمعان، فهي كثيرة، ومنظرها جميل؛ فإنّها من ذهبٍ وفضة.

ففي البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «كَبِيرَانِهِ كُنُجُومِ السَّمَاءِ».

وهذا التشبيه يشمل العدد والوصف، وهذه الرواية أعمُّ من الرواية الأخرى التي فيها أَنَّ آيَتَهُ عَدَدُ نُجُومِ السَّمَاءِ.

وفي الصحيحين من حديث المُستورد بن شدّاد: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «تَرَى فِيهِ الْآنِيَةَ مِثْلَ الْكَوَاكِبِ»، وهذه الرواية مثل رواية عبد الله بن عمرو - تشمل العدد والصفة.

وفي مُسلم عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «فِيهِ أَبَارِيقُ كُنُجُومِ السَّمَاءِ».

بل قد جاء في حديثٍ آخر: «آيَتُهُ أَكْثَرُ مِنْ عَدَدِ نُجُومِ السَّمَاءِ وَكَوَاكِبِهَا». ففي «صحيح مسلم» عن أبي ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا آيَتَهُ أَكْثَرُ مِنْ عَدَدِ نُجُومِ السَّمَاءِ وَكَوَاكِبِهَا، إِلَّا فِي اللَّيْلَةِ الْمُظْلَمَةِ الْمُصْحِحَةِ آنِيَةِ الْجَنَّةِ».

وجاء ما يدلُّ على أَنَّ هذه الآنية من الذهب والفضة.

ففي «صحيح مسلم» عن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

«ترى فيه أباريق الذهب والفضة كعدد نجوم السماء».

قال المصنف رحمه الله: «طوله شهر، وعرضه شهر».

وهذا يدل على أنه مربع الشكل، وأن طوله مساو لعرضه؛ ففي البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «خوضي مسيرة شهر، وزواياه سواء».

وفي «صحيح مسلم» عن أبي ذر: أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «عرضه مثل طوله».

قلت: وقد جاءت روايات عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ظاهرها الاختلاف في بيان سعته.

ففي بعضها أن عرضه كما بين أيلة إلى الجحفة، كما في «صحيح مسلم».

وفي بعضها أنه كما بين صنعاء والمدينة، كما في الصحيحين.

وفي بعضها أن ما بين ناحيته كما بين جربا وأذرح، كما في الصحيحين.

وفي بعضها أن عرضه كما بين المدينة وعمان، كما في مسلم.

وفي بعضها أن قدره كما بين أيلة وصنعاء من اليمن، كما في الصحيحين.

وفي بعضها: أنه «مسيرة شهر»، كما في الصحيحين.

قال القاضي عياض كما في «شرح النووي على مسلم» (13 / 456-457):

«هذا الاختلاف في قدر عرض الحوض ليس موجبا للاضطراب، فإنه لم يأت في حديث واحد، بل في أحاديث مختلفة الرواة عن جماعة من الصحابة سمعوها في مواطن مختلفة ضربها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كل واحد منها مثلاً لبعد أقطار الحوض وسعته، وقرب ذلك من الأفهام؛ لبعد ما بين البلاد المذكورة، لا على

التقدير الموضوع للتحديد، بل للإعلام بِعِظَم هذه المسافة، فَبِهَذَا تُجْمَع الروايات. هذا كلام القاضي.

قلت - النّوّي -: وليس في القليل من هذه مَنع الكثير، والكثير ثابتٌ على ظاهر الحديث ولا مُعارضة، والله أعلم. اهـ.

وقال الإمام القرطبي في «التذكرة» (ص 263 - 264): «ظَنَّ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ هذه التحديدات في أحاديث الحوض اضطرابٌ واختلافٌ، وليس كذلك، وإنَّما تَحَدَّثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بحديث الحوض مرَّاتٍ عديدة، ذَكَرَ فِيهَا تِلْكَ الألفاظ المُختلفة مخاطبًا لكل طائفة بما كانت تَعْرِف من مسافات مَوَاضِعِهَا؛ فيقول لأهل الشام: «ما بين أذرح وجربا»، ولأهل اليمن: «من صنعاء إلى عَدَن»، وهكذا تارة أخرى يُقَدَّر بالزمان فيقول: «مَسِيرَةُ شَهْرٍ»، والمعنى المقصود أَنَّهُ حَوْضٌ كَبِيرٌ مُتَّسِعُ الْجَوَانِبِ وَالزَّوَايَا، فَكَانَ ذَلِكَ بِحَسَبِ مَنْ حَضَرَهُ مِمَّنْ يَعْرِف تِلْكَ الْجِهَاتِ؛ فَخَاطَبَ كُلَّ قَوْمٍ بِالْجِهَةِ الَّتِي يَعْرِفُونَهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ».

قول المُصَنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَنْ يَشْرَبُ مِنْهُ شَرْبَةً لَمْ يَظْمَأْ بَعْدَهَا أَبَدًا» - يدلُّ على ذلك ما رواه البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «حَوْضِي مَسِيرَةُ شَهْرٍ؛ مَاؤُهُ أَبْيَضُ مِنَ اللَّبَنِ، وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنَ الْمِسْكِ، وَكِيْزَانُهُ كَنَجُومِ السَّمَاءِ، مَنْ شَرِبَ مِنْهَا فَلَا يَظْمَأُ أَبَدًا».

وفي لفظ لمسلم: «فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَا يَظْمَأُ بَعْدَهُ أَبَدًا».

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ في شرحه لمسلم (15 / 452 - 453): «وَالظَّمَأُ مَهْمُوزٌ مَقْصُورٌ، كَمَا وَرَدَ بِهِ الْقُرْآنُ الْعَزِيزُ، وَهُوَ الْعَطَشُ».

قال القاضي: «ظاهر الحديث: أَنَّ الشَّرْبَ مِنْهُ يَكُونُ بَعْدَ الْحِسَابِ وَالنَّجَاةِ

من النَّار، فهذا هو الذي لا يَظْمَأ بعده.

قال: وقيل: لا يَشْرَب منه إِلَّا مَنْ قُدِّرَ له السَّلامَة من النار.

قال: ويحتمل أَنَّ مَنْ شَرِبَ منه مِنْ هذه الأُمَّة، وَقُدِّرَ عليه دخول النَّار لا يُعَذَّب فيها بالظَّمَأ، بل يكون عذابُه بغير ذلك؛ لأنَّ ظاهر هذا الحديث أَنَّ جميعَ الأُمَّة يَشْرَب منه إِلَّا مَنْ ارتدَّ، وصار كافراً.

قال: وقد قيل: إِنَّ جميعَ الأمم من المؤمنين يأخذون كُتُبَهُم بأيمانهم، ثم يُعَذَّب اللهُ - تعالى - مَنْ شاء مِنْ عُصَاتِهِم.

وقيل: إِنَّمَا يأخذُه بيمينه النَّاجون خاصَّة.

قال القاضي: وهذا مثله. اهـ.

قال العلامة ابنُ أبي العزِّ في «شرح الطَّحاوية» (ص 229): «فَقَاتَلَ اللهُ الْمُنْكَرِينَ لوجود الحوض، وأَخْلَقَ بهم أَنَّ يُحَال بينهم وبين وُروده يوم العطش الأكبر». اهـ.



«والصِّراطُ مَنْصُوبٌ عَلَى مَتْنِ جَهَنَّمَ، وَهُوَ الْجِسْرُ الَّذِي بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ يَمُرُّ النَّاسُ عَلَيْهِ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ: فَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَلَمَحِ الْبَصَرِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالْبَرْقِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالرَّيْحِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالْفَرَسِ الْجَوَادِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَرَائِبِ الْإِبِلِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْدُو عَدْوًا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي مَشْيًا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَزْحَفُ زَحْفًا، وَمِنْهُمْ مَنْ يُخْطِفُ وَيُلْقَى فِي جَهَنَّمَ، فَإِنَّ الْجِسْرَ عَلَيْهِ كَلَالِيْبُ تَخْطِطُ النَّاسُ بِأَعْمَالِهِمْ».

بَيَّنَ الْمُؤَلِّفُ رَحْمَةُ اللَّهِ فِي هَذِهِ الْفَقْرَةِ مَعْنَى الصِّراطِ، وَمَكَانَهُ، وَصِفَةَ الْمُرُورِ عَلَيْهِ.

والصِّراطُ فِي اللُّغَةِ: هُوَ الطَّرِيقُ الْوَاضِحُ.

وَفِي الشَّرْعِ: مَا بَيَّنَّهُ الْمُؤَلِّفُ بِقَوْلِهِ: «هُوَ الْجِسْرُ الَّذِي بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ». وَقَدْ بَيَّنَ الْمُؤَلِّفُ رَحْمَةُ اللَّهِ مَكَانَهُ بِقَوْلِهِ: «وَالصِّراطُ مَنْصُوبٌ عَلَى مَتْنِ جَهَنَّمَ».

ثُمَّ بَيَّنَّ صِفَةَ الْمُرُورِ عَلَيْهِ.

وَقَدْ جَاءَتْ أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ تُبَيِّنُ صِفَةَ الْمُرُورِ عَلَى هَذَا الصِّراطِ، وَصِفَةَ الصِّراطِ، وَأَنَّ أَوَّلَ مَنْ يَمُرُّ عَلَى الصِّراطِ هُوَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأُمَّتُهُ، وَأَنَّهُ لَا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ إِلَّا الرُّسُلُ، وَكَلَامُهُمْ: «اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ».

وَأَنَّ الرَّحِمَ وَالْأَمَانَةَ تُرْسَلَانِ فَتَقُومَانِ جَنْبَتَي الصِّراطِ يَمِينًا وَشِمَالًا.

فَمِنْ تِلْكَمُ الْأَحَادِيثِ:

مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ فِي صَحِيحَيْهِمَا مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَهُوَ حَدِيثٌ طَوِيلٌ - وَفِيهِ: «وَيُضْرَبُ الصِّراطُ بَيْنَ ظَهْرِي جَهَنَّمَ فَأَكُونُ أَنَا وَأُمَّتِي

أَوَّلَ مَنْ يُجِيزُهَا، وَلَا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ إِلَّا الرُّسُلُ، وَدَعَا الرُّسُلُ يَوْمَئِذٍ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ، وَفِي جَهَنَّمَ كَلَالِبٌ مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ؛ هَلْ رَأَيْتُمُ السَّعْدَانِ؟»، قَالُوا: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «فَإِنَّهَا مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ قَدْرَ عِظَمِهَا إِلَّا اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ، تَخْطِفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ، فَمِنْهُمْ الْمُتَوَبُّونَ بِعَمَلِهِ، وَالْمُؤْتَقُونَ بِعَمَلِهِ، وَمِنْهُمْ الْمُخْرَدَلُ وَالْمُجَازَى».

وفي البخاري ومسلم - أيضًا - عن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي حَدِيثٍ طَوِيلٍ، وَفِيهِ: «ثُمَّ يُؤْتَى بِالْجِسْرِ؛ فَيُجْعَلُ بَيْنَ ظَهْرِي جَهَنَّمَ». قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا الْجِسْرُ؟ قَالَ: «مَدْحَضَةٌ مَزَلَّةٌ، عَلَيْهِ خَطَاطِيفٌ وَكَلَالِبٌ وَحَسَكَةٌ مُفْلُطَحَةٌ لَهَا شَوْكَةٌ عَقِيفَاءُ تَكُونُ بِنَجْدٍ، يُقَالُ لَهَا: السَّعْدَانِ، يَمُرُّ الْمُؤْمِنُ عَلَيْهَا كَالطَّرْفِ، وَكَالْبَرْقِ، وَكَالرَّيْحِ، وَكَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ وَالرَّكَّابِ؛ فَتَنَاجُ مُسَلِّمًا، وَنَاجٍ مَخْدُوشٍ وَمَكْدُوسٍ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، حَتَّى يَمُرَّ آخِرُهُمْ يَسْحَبُ سَحْبًا».

وروى الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَعَنْ حَذِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - حَدِيثًا طَوِيلًا، وَفِيهِ: «وَتُرْسَلُ الْأَمَانَةُ وَالرَّحِمُ فَتَقُومَانِ جَنْبَتِي الصَّرَاطِ يَمِينًا وَشِمَالًا؛ فَيَمُرُّ أَوَّلُكُمْ كَالْبَرْقِ». قَالَ: قُلْتُ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي أَيُّ شَيْءٍ كَمَرَّ الْبَرْقُ؟ قَالَ: «أَلَمْ تَرَوْا إِلَى الْبَرْقِ كَيْفَ يَمُرُّ وَيَرْجِعُ فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ، ثُمَّ كَمَرَّ الطَّيْرُ وَشَدَّ الرَّجُلُ، تَجْرِي بِهِمْ أَعْمَالُهُمْ». قَالَ: «وَنَبِّئُكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَائِمٌ عَلَى الصَّرَاطِ يَقُولُ: رَبِّ سَلِّمْ حَتَّى تَعْبُزَ أَعْمَالُ الْعِبَادِ، حَتَّى يَجِيءَ الرَّجُلُ فَلَا يَسْتَطِيعُ السَّيْرَ إِلَّا زَحْفًا». قَالَ: «وَفِي حَافَتِي الصَّرَاطِ كَلَالِبٌ مُعَلَّقَةٌ مَأْمُورَةٌ بِأَخْذِ مَنْ أَمَرَتْ بِهِ؛ فَمَخْدُوشٍ نَاجٍ، وَمَكْدُوسٍ فِي النَّارِ».

قال الإمام القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «التَّذَكُّرَةِ» (ص 289): «فَتَفَكَّرَ الْآنَ فِيمَا يَحِلُّ بِكَ مِنَ الْفَزَعِ بِفَوَادِكَ إِذَا رَأَيْتَ الصَّرَاطَ وَدِقَّتَهُ، ثُمَّ وَقَعَ بِصُرْكَ عَلَى سَوَادِ جَهَنَّمَ

من تحته، ثم قرع سمعك شهيق النار وتغيظها، وقد كلفت أن تمشي على الصراط مع ضعف حالك، واضطراب قلبك، وتزلزل قدمك، وثقل ظهرك بالأوزار المانعة لك من المشي على بساط الأرض فضلاً عن حدة الصراط، فكيف بك إذا وضعت عليه إحدى رجليك فأحسست بحدته، واضطرت إلى أن ترفع القدم الثاني، والخلائق بين يديك يزلون ويعثرون، وتتناولهم زبانية النار بالخطايف والكلاليب، وأنت تنظر إليهم كيف ينكسون فتسفل إلى جهة النار رؤوسهم، وتعلو أرجلهم؛ فيأله من منظر ما أفضعه! ومُرْتَقَى ما أصعبه! ومجاز ما أضيقه!». اهـ.

قلت: نسأل الله حسن الختام، وأن يعيدنا من فتنة القبر وعذاب القبر والنار، وأن يثبت أقدامنا على الصراط؛ إنه خير مسؤل ومأمول.



«فَإِذَا عَبَرُوا عَلَيْهِ وَقَفُوا عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ؛ فَيُقْتَصَرُ لِبَعْضِهِمْ مِنَ بَعْضٍ؛ فَإِذَا هُذِّبُوا وَنُقُوا أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ».

قوله: «فَإِذَا عَبَرُوا»، أي: مَضَوْا عَلَى الصَّرَاطِ، وَنَجَوْا مِنَ السَّقُوطِ فِي النَّارِ. قال الإمام القرطبي في «التذكرة» (ص 294): «وَلَا يَخْلَصُ مِنْهُ إِلَّا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ عَلِمَ اللَّهُ مِنْهُمْ أَنَّ الْقِصَاصَ لَا يَسْتَنْفِدُ حَسَنَاتِهِمْ حُبِسُوا عَلَى صِرَاطٍ آخَرَ لَهُمْ، وَلَا يَرْجِعُ إِلَى النَّارِ مِنْ هَؤُلَاءِ أَحَدٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ؛ لِأَنَّهُمْ قَدْ عَبَرُوا الصَّرَاطَ الْأَوَّلَ الْمَضْرُوبَ عَلَى مَتْنِ جَهَنَّمَ الَّذِي يَسْقُطُ فِيهَا مَنْ أَوْبَقَهُ ذَنْبُهُ، وَأَرْبَى عَلَى الْحَسَنَاتِ بِالْقِصَاصِ جُرْمُهُ». اهـ.

قوله: «وَقَفُوا عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ». القنطرة في اللغة: هي الجسر، وما ارتفع من البُنيان. وقد دَلَّ كَلَامُ الْمُؤَلِّفِ الْمَأْخُوذُ مِنَ الْحَدِيثِ عَلَى أَنَّ مَكَانَ الْقَنْطَرَةِ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ.

وقد اختلف العلماء في هذه القنطرة: فقليل: هي تنمة الصَّرَاطِ، وهي طَرَفُهُ الَّذِي يَلِي الْجَنَّةَ. وقيل: إِنَّهُمَا صِرَاطَانِ.

وقد اختار الثاني الإمام القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ حَيْثُ قَالَ فِي «التذكرة» (ص 294): «اعلم - رَحِمَكَ اللَّهُ - أَنَّ فِي الْآخِرَةِ صِرَاطَيْنِ: أَحَدُهُمَا مَجَازٌ لِأَهْلِ الْمَحْشَرِ

كلهم؛ ثَقِيلُهُمْ وخَفِيفُهُمْ إِلَّا مَنْ دَخَلَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ⁽¹⁾، أَوْ مَنْ يَلْتَقِطُهُ عَنْقُ النَّارِ، فَإِذَا خَلَصَ مِنْ هَذَا الصَّرَاطِ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ، وَلَا يَخْلُصُ مِنْهُ إِلَّا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِي عَلَّمَ اللَّهُ مِنْهُمْ أَنَّ الْقِصَاصَ لَا يَسْتَنْفِدُ حَسَنَاتِهِمْ حُسُوبًا عَلَى صِرَاطٍ آخَرَ، إِلَى آخِرِ كَلَامِهِ السَّابِقِ.

قلت: وَأَيُّا كَانَ، فَالْمُهِمُ الْإِيمَانُ بِهَا، وَأَنَّ النَّاسَ يُوقِفُونَ عَلَيْهَا؛ لِيُقْتَصَّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ.

وقد دَلَّ عَلَى هَذِهِ الْفَقْرَةِ الَّتِي ذَكَرَهَا الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: مَا رَوَاهُ الْإِمَامُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخَدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِذَا خَلَصَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ حُسُوبًا بِقَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ؛ فَيَتَقَاصُّونَ مَظَالِمَ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَتَّى إِذَا نُقُّوا وَهَذَّبُوا أُذُنَ لَهُمْ بِدُخُولِ الْجَنَّةِ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا أَحَدُهُمْ بِمَسْكَنَةٍ فِي الْجَنَّةِ أَدْلُ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا».

وقوله: «فَيُقْتَصَّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ».

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «شرح الواسطية» (ص 520): «وهذا الْقِصَاصُ غَيْرُ الْقِصَاصِ الْأَوَّلِ الَّذِي فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ؛ لِأَنَّ هَذَا قِصَاصٌ أَخْصُ لَأَجْلِ أَنْ يَذْهَبَ الْغُلُّ وَالْحَقْدُ وَالْبَغْضَاءُ الَّتِي فِي قُلُوبِ النَّاسِ، فَيَكُونُ هَذَا بِمَنْزِلَةِ التَّنْقِيَةِ وَالتَّطْهِيرِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ مَا فِي الْقُلُوبِ لَا يَزُولُ بِمَجْرَدِ الْقِصَاصِ، فَهَذِهِ الْقَنْطَرَةُ الَّتِي بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ؛ لِأَجْلِ تَنْقِيَةِ مَا فِي الْقُلُوبِ حَتَّى يَدْخُلُوا الْجَنَّةَ

(1) لَا دَلِيلَ عَلَى أَنَّ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ لَا يَمُرُّ عَلَى الصَّرَاطِ، بَلْ ظَوَاهِرُ النُّصُوصِ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ يَمُرُّ، كَمَا أَنَّ نَبِيَّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَمُرُّ عَلَيْهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وليس في قلوبهم غِلٌّ، كما قال الله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: 47]. اهـ.
قوله: «هُذِّبُوا وَنُقُوا».

قال الحافظ في «الفتح» (407 / 11): «بِضَمِّ الهاء والنون، وهما بمعنى التَّمييز والتَّخليص من التَّبَعَات».

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ (5 / 116): «أي: خُلِّصُوا مِنَ الْآثَامِ بِمُقَاصَصَةِ بَعْضِهَا بِبَعْضٍ، ويشهد لهذا الحديث قوله في حديث جابر الآتي ذَكَرَهُ فِي (التَّوْحِيدِ): «لَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ وَلِأَحَدٍ قَبْلَهُ مَظْلَمَةٌ». اهـ.

وَيُسْتثنَى مِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُوقِفُونَ عَلَى الْقَنْطَرَةِ صِنْفَانِ، كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ بَقِيَّةُ الْأَحَادِيثِ:

الأول: الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِلا حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ، كَمَا فِي الصَّحِيحِينَ.
الثاني: الَّذِينَ يُوبَقُونَ فِي النَّارِ بِأَعْمَالِهِمْ، فَإِنْ كَانُوا كُفَّارًا فَهُمْ مُخَلَّدُونَ فِي النَّارِ، وَإِنْ كَانُوا مِنَ الْمُؤَحِّدِينَ الَّذِينَ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يُجَازِيَهُمْ بِسَيِّئَاتِهِمْ، ثُمَّ يُخْرَجُونَ بِالشَّفَاعَةِ - فَإِنَّهُمْ يُبْتَلَوْنَ عَلَى أَنْهَارِ الْجَنَّةِ، كَمَا فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَانْظُرْ فِي هَذَا «فَتْحُ الْبَارِي» (406 / 11)، وَ«التَّذَكُّرَةُ» لِلْقُرْطُبِيِّ (ص 295).

وأقول: لَا يَزَالُ اسْتِثْنَاءُ الصَّنْفِ الْأَوَّلِ يَحْتَاجُ إِلَى مَزِيدٍ تَأَمَّلٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.
وقوله: «أُذِّنْ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ».

سَيَأْتِي أَنَّهُمْ يَجِدُونَ أَبْوَابَ الْجَنَّةِ مُغْلَقَةً، فَيَشْفَعُ لَهُمْ نَبِيُّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي دُخُولِهَا.

«وَأَوَّلُ مَنْ يَسْتَفْتَحُ بَابَ الْجَنَّةِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُهَا مِنَ الْأُمَّمِ أُمَّتُهُ، وَلَهُ فِي الْقِيَامَةِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثَلَاثُ شَفَاعَاتٍ:

أَمَّا الشَّفَاعَةُ الْأُولَى فَيَشْفَعُ فِي أَهْلِ الْمَوْقِفِ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَهُمْ بَعْدَ أَنْ يَتَرَجَعَ الْأَنْبِيَاءُ (آدَمَ، وَنُوحَ، وَإِبْرَاهِيمَ، وَمُوسَى، وَعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ) عَنِ الشَّفَاعَةِ حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَيْهِ.

وَأَمَّا الشَّفَاعَةُ الثَّانِيَّةُ: فَيَشْفَعُ فِي أَهْلِ الْجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلُوا الْجَنَّةَ، وَهَاتَانِ الشَّفَاعَتَانِ خَاصَّتَانِ لَهُ».

سبق أن الناس إذا عبروا الصَّراط، وخلصوا من النار - حُبِسُوا بِقَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُقْتَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضِ مَظَالِمِ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا هُذِّبُوا وَنُقُوا أُذُنُ لَهُمْ بِدُخُولِ الْجَنَّةِ، فَإِذَا جَاءَهَا وَجَدُوا أَبْوَابَهَا مُغْلَقَةً، وَمَنْ ذَا الَّذِي يَجْرُو أَنْ يَسْتَفْتَحَ مِنْهُمْ؟!

فيكون أول مَنْ يَسْتَفْتَحُ، أَي: يَطْلُبُ أَنْ تُفْتَحَ هُوَ نَبِيُّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهَذَا مِنْ شَفَاعَتِهِ الْخَاصَّةِ الَّتِي لَا يُشَارِكُهُ فِيهَا مِشَارِكٌ.

ودليل ذلك: ما رواه مسلم في صحيحه من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ نَبِيَّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَنَا أَوَّلُ النَّاسِ يَشْفَعُ فِي الْجَنَّةِ، وَأَنَا أَكْثَرُ الْأَنْبِيَاءِ تَبَعًا».

وبدليل ما رواه مسلم عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَنَا أَوَّلُ شَفِيعٍ فِي الْجَنَّةِ لَمْ يُصَدَّقْ نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مَا صُدِّقْتُ، وَإِنَّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيًّا مَا يُصَدِّقُهُ مِنْ أُمَّتِهِ إِلَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ».

وفي لفظ آخر لمسلم: «آتِي بَابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَسْتَفْتَحُ، فيقول الخازن:

مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ. فيقول: بِكَ أُمِرْتُ لَا أَفْتَحُ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ».

ثم قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَأَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُهَا مِنَ الْأُمَمِ أُمَّتُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

ويدل على ذلك ما رواه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «نَحْنُ الْآخِرُونَ الْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَنَحْنُ أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ، بَيِّدَ أَنَّهُمْ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا، وَأُوتِينَا مِنْ بَعْدِهِمْ، فَاخْتَلَفُوا فِيهِ، فَهَدَانَا اللَّهُ لَمَّا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ، فَهَذَا يَوْمُهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ، هَدَانَا اللَّهُ لَهُ - يَوْمَ الْجُمُعَةِ - فَالْيَوْمَ لَنَا، وَغَدًا لِلْيَهُودِ، وَبَعْدَ غَدٍ لِلنَّصَارَى».

ثُمَّ قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَمَّا الشَّفَاعَةُ الْأُولَى فَيَشْفَعُ فِي أَهْلِ الْمَوْقِفِ...»، إلخ.

الشَّفَاعَةُ لُغَةً: جَعَلَ الشَّيْءَ شَفْعًا، فَهِيَ مُشْتَقَّةٌ مِنَ الشَّفْعِ، وَهُوَ ضِدُّ الْوَتَرِ، فَكَأَنَّ الشَّافِعَ ضَمَّ سَوَالَهُ إِلَى سَوَالِ الْمَشْفُوعِ لَهُ.

أَمَّا فِي الْأَصْطِلَاحِ: فَهِيَ تَوَسُّطُ لِلْغَيْرِ فِي جَلْبِ مَنَفْعَةٍ، أَوْ دَفْعِ مَضَرَّةٍ.

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «شرح الواسطية» (ص 524 - 525):

«وَالشَّفَاعَةُ تَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: شَفَاعَةٌ بَاطِلَةٌ، وَشَفَاعَةٌ صَحِيحَةٌ.

فالشَّفَاعَةُ الْبَاطِلَةُ: مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ الْمُشْرِكُونَ فِي أَصْنَامِهِمْ، حَيْثُ يَعْبُدُونَهُمْ، وَيَزْعَمُونَ أَنَّهُمْ شَفَعَاءُ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: 18]، ويقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: 3]، وَلَكِنْ هَذِهِ الشَّفَاعَةُ بَاطِلَةٌ لَا تَنْفَعُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ﴾

[المائدة: 48].

والشفاعة الصحيحة ما جمعت شروطاً ثلاثة:

الأول: رضا الله عن الشافع.

الثاني: رضاه عن المشفوع له، لكن الشفاعة العظمى في الموقف عامة لجميع الناس من رضي الله عنهم، ومن لم يرض عنهم.

الثالث: إذنه في الشفاعة، والإذن لا يكون إلا بعد الرضا عن الشافع والمشفوع له.

ودليل ذلك: قوله تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم: 26].

ولم يقل: عن الشافع ولا المشفوع له؛ ليكون أشمل.

وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ [طه: 109].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: 28].

فالآية الأولى تضمنت الشروط الثلاثة، والثانية تضمنت شرطين، والثالثة تضمنت شرطاً واحداً.

وقول المؤلف رحمه الله: «أما الشفاعة الأولى: فيشفع في أهل الموقف حتى يقضى بينهم بعد أن يتراجع الأنبياء: (آدم، ونوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى ابن مريم) عن الشفاعة حتى تنتهي إليه».

هذه الشفاعة ثابتة بإجماع المسلمين لم يخالف منهم أحد؛ قال شيخ الإسلام - رحمه الله تعالى - كما في «مجموع الفتاوى» (1/ 313): «أجمع المسلمون على أن النبي صلى الله عليه وسلم يشفع للخلق يوم القيامة بعد أن يسأله

النَّاسُ ذلك، وبعد أن يأذن الله له في الشفاعة، ثم إنَّ أهل السُّنَّة والجَمَاعَة مُتَّفِقُونَ على ما اتَّفَقَ عليه الصَّحَابَةُ رضوان الله عليهم أجمعين، واستفاضت به السُّنَن من أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَشْفَعُ لأهل الكبائر من أُمَّتِهِ، وَيَشْفَعُ - أَيْضًا - لِعُمُومِ الخَلْقِ». اهـ.

وهذه الشفاعةُ هي المَقَامُ المَحْمُود الذي قال الله عنه: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء: 79]، وهي أعظمُ الشِّفَاعَاتِ.

وفي البخاري ومسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «يَجْمَعُ اللَّهُ النَّاسَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ يُسْمِعُهُم الدَّاعِيَ وَيَنْفِذُهُمُ الْبَصَرَ، وَتَدْنُو مِنْهُمْ الشَّمْسُ؛ فَيَبْلُغُ النَّاسُ مِنَ الْغَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لَا يُطِيقُونَ وَلَا يَحْتَمِلُونَ؛ فَيَقُولُ النَّاسُ: أَلَا تَرَوْنَ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ؟ أَلَا تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ؟ فَيَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: عَلَيْكُمْ بَادِمٌ! فَيَأْتُونَهُ، فَيَقُولُونَ له: أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ، خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ، نَفْسِي، نَفْسِي، نَفْسِي! اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ. فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ، إِنَّكَ أَوَّلُ رَسُولٍ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، فَقَدْ سَمَّاكَ اللَّهُ عَبْدًا شَكُورًا؛ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ كَمَا قَالَ آدَمُ فِي غَضَبِ اللَّهِ، وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُهَا عَلَى قَوْمِي؛ اذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ. فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُونَ: يَا إِبْرَاهِيمَ، أَنْتَ نَبِيُّ اللَّهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ؛ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ كَمَا قَالَ آدَمُ فِي غَضَبِ اللَّهِ، وَإِنِّي قَدْ كَذَبْتُ ثَلَاثَ كَذَبَاتٍ؛ اذْهَبُوا إِلَى مُوسَى. فَيَأْتُونَ مُوسَى فَيَقُولُونَ: يَا مُوسَى، أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، فَضَّلَكَ اللَّهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلَامِهِ عَلَى النَّاسِ؛ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى

ما نحن فيه؟ فيقول كما قال آدم في غضب الله، وإني قد قتلتُ نَفْسًا لم أُؤمر بقتلها؛ اذهبوا إلى عيسى. فيأتون عيسى فيقولون: يا عيسى، أنت رسول الله وكلمته إلى مريم وروح منه، وكَلِّمِ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا؛ اشفع لنا إلى ربِّك، ألا ترى ما نحن فيه؟ فيقول كما قال آدم في غضب الله، ولم يذكر ذنبًا، وكلهم يقولون كما قال آدم: نفسي، نفسي، نفسي! اذهبوا إلى محمّد. فيأتون محمّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيقولون: يا محمّد، أنت رسول الله وخاتم الأنبياء، وقد غَفَرَ اللَّهُ لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر؛ اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ فأنطلق، فأتني تحت العرش، فأقنع ساجدًا لربِّي عزَّوجلَّ، ثُمَّ يَفْتَحِ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي، ثم يقال: يا محمّد، ارفع رأسك، سلْ تُعْطَهُ، واشفع تُشَفَّعَ...»، الحديث.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «مَنْهَاجِ السُّنَّةِ» (2/ 423 - 425): «فإن قيل: فإذا كان قد غُفِرَ لهم، فلماذا يَمْتَنَعُونَ مِنَ الشَّفَاعَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِأَجْلِ مَا بَدَأَ مِنْهُمْ، فيقول آدم إذا طُلِبَتْ مِنْهُ الشَّفَاعَةُ: «إني نُهِيتُ عَنْ أَكْلِ الشَّجَرَةِ، وَأَكَلْتُ مِنْهَا؛ نَفْسِي، نَفْسِي! اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نُوحٍ، فيأتون نُوحًا فيقول: إني دعوتُ على أهل الأرض دعوةً لم أُؤمر بها».

والخليل يذكر تعريضاته الثلاث التي سَمَّاها كَذِبًا، وكانت تعريضًا، وموسى يذكر قتل النَّفْسِ.

قيل: هذا من كمال فضلهم وخوفهم وعبوديتهم وتواضعهم؛ فإن من فوائد ما يُتَاب منه: أَنَّهُ يُكْمَلُ عِبَادَةُ الْعَبْدِ، وَيَزِيدُهُ خَوْفًا وَخُضُوعًا؛ فَيَرْفَعُ اللَّهُ دَرَجَتَهُ، وَهَذَا الْاِمْتِنَاعُ مِمَّا يَرْفَعُ اللَّهُ بِهِ دَرَجَاتِهِمْ.

وحكمة الله - تعالى - في ذلك: أَنَّ تَصِيرَ الشَّفَاعَةِ لِمَنْ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ

ذنبه وما تأخر.

ولهذا كان ممن امتنع ولم يذكر ذنباً المسيح، وإبراهيم أفضل منه وقد ذكر ذنباً، ولكن المسيح قال: «لست هناكم؛ اذهبوا إلى عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر».

وتأخر المسيح عن المقام المحمود الذي خص به محمد صلى الله عليه وسلم هو من فضائل المسيح، ومما يقربه إلى الله، صلوات الله عليهم أجمعين.

فعلِم أن تأخرهم لم يكن لنقص درجاتهم عما كانوا عليه، بل لما علموه من عظمة المقام المحمود الذي يستدعي من كمال مغفرة الله للعبد، وكمال عبودية العبد لله ما اختص به من غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ولهذا قال المسيح: «اذهبوا إلى محمد عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر»، فإنه إذا غفر له ما تأخر لم يخف أن يلام إذا ذهب إلى ربه ليشفع، وإن كان لم يشفع إلا بعد الإذن، بل إذا سجد وحمد ربه بمحامد يفتحها عليه لم يكن يحسنها قبل ذلك فيقال له: «أي محمد، ارفع رأسك، وقُلِ اسمع، وسل تعطه، واشفع تُشفع»، وهذا كله في الصّحيحين، وغيرهما. اهـ.

وقوله رحمه الله: «وأما الشفاعة الثانية؛ فيشفع في أهل الجنة أن يدخلوا الجنة».

قد سبق الكلام على دليل هذا النوع من الشفاعة، والله الحمد.

وقوله رحمه الله: «وهاتان الشفاعتان خاصتان له».

بقي من الشفاعات الخاصة بنينا صلى الله عليه وآله وسلم شفاعته في تخفيف العذاب عن عمه أبي طالب حتى يكون في ضحضاح من النار عليه نعلان

من نار، أو شراكان من نار يغلي منهما دماغه، وإنه ليرى أنه أشد أهل النار عذاباً، وإنه لأهونهم عذاباً، كما في الصحيح.

وهذه الشفاعة خاصة بالنبي صلى الله عليه وسلم وبعمه أبي طالب، وأمّا ما سواه من الكفار فلا شفاعة فيهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: 48].

وإنما كانت شفاعة نبينا صلى الله عليه وسلم لعمه أبي طالب بسبب أنه كان ينصره ويعينه، فتنفعه شفاعته في تخفيف العذاب لا في إسقاطه بالكلية، كما في صحيح البخاري ومسلم عن العباس بن عبد المطلب أنه قال: يا رسول الله، هل نفعت أبا طالب بشيءٍ فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟ قال: «نعم». هو في ضحضاحٍ من نار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار».



«وَأَمَّا الشَّفَاعَةُ الثَّالِثَةُ: فَيَشْفَعُ فِيْمَنَ اسْتَحَقَّ النَّارَ، وَهَذِهِ الشَّفَاعَةُ لَهُ وَلِسَائِرِ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَغَيْرِهِمْ، فَيَشْفَعُ فِيْمَنَ اسْتَحَقَّ النَّارَ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا، وَيَشْفَعُ فِيْمَنَ دَخَلَهَا أَنْ يَخْرُجَ مِنْهَا».

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: «أَمَّا الشَّفَاعَةُ الثَّالِثَةُ».

فهذا النوع من الشفاعة غير مُختص به، وهو على قسمين:

الأوّل: شفاعة لِمَن استحقَّ النار أن لا يدخلها.

الثاني: شفاعة فِيْمَن دَخَلَهَا أَنْ يَخْرُجَ مِنْهَا.

أَمَّا النوع الأول فَمِمَّا يَدُلُّ عَلَيْهِ فِي حَقِّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: عُموم ما رواه الترمذي، عن أنسٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكِبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي». وهذا يوم القيامة.

كما يَدُلُّ عَلَيْهِ دَعَاؤُهُ وَاسْتِغْفَارُهُ لَهُمْ فِي صَلَاتِهِ عَلَى جَنَائِزِهِمْ، وَدَعَائِهِ لَهُمْ عِنْدَ زِيَارَتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِقُبُورِهِمْ، وَكُلْ ذَلِكَ فِي حَالِ حَيَاتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ فِي حَقِّ غَيْرِهِ: مَا جَاءَ فِي الشَّهِيدِ أَنَّهُ يَشْفَعُ فِي سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وَأَنَّ الرَّجُلَ يَشْفَعُ فِي الْفِئَامِ مِنَ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وَمِنْ ذَلِكَ مَا فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَا مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَمُوتُ فَيَقُومُ عَلَى جَنَازَتِهِ أَرْبَعُونَ رَجُلًا لَا يُشْرِكُونَ بِاللَّهِ شَيْئًا إِلَّا شَفَعَهُمُ اللَّهُ فِيهِ». وَغَيْرَ ذَلِكَ.

وَأَمَّا النَّوْعُ الثَّانِي، وَهُوَ الشَّفَاعَةُ فِيْمَن دَخَلَ النَّارَ أَنْ يَخْرُجَ مِنْهَا: فَمِمَّا يَدُلُّ

عليه في حقِّ نبينا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حديث أنس السابق: «شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكِبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي».

وأما في حقِّ غيره صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَاللَّفْظُ لَهُ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَفِيهِ: «فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: شَفَعَتِ الْمَلَائِكَةُ، وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ، وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ...» الْحَدِيث.

وفي الحديث السابق أَيضًا: «حَتَّى إِذَا خَلَصَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ بِأَشَدَّ مُنَاشِدَةً لِلَّهِ فِي اسْتِقْصَاءِ الْحَقِّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لِلَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ فِي النَّارِ يَقُولُونَ: رَبَّنَا كَانُوا يُصَلُّونَ مَعَنَا، وَيَصُومُونَ، وَيَحْجُونَ. فَيَقَالُ لَهُمْ: أَخْرِجُوا مَنْ عَرَفْتُمْ؛ فَتُحَرَّمُ صُورُهُمْ عَلَى النَّارِ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا قَدْ أَخَذَتِ النَّارُ إِلَى نِصْفِ سَاقِيهِ وَإِلَى رُكْبَتَيْهِ، ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا مَا بَقِيَ فِيهَا أَحَدٌ مِمَّا أَمَرْتَنَا بِهِ فَيَقُولُ: ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ. فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا، ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ مِمَّنْ أَمَرْتَنَا أَحَدًا. ثُمَّ يَقُولُ: ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ. فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا، فَيَقُولُونَ: رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا خَيْرًا».

وهذان الْقِسْمَانِ مِنَ الشَّفَاعَةِ أَجْمَعَ عَلَيْهِمَا أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، وَتَوَاتَرَتْ الْأَحَادِيثُ بِإِبْطَانِهِمَا، وَيُنْكِرُهُمَا الْمُبْتَدِعَةُ مِنَ الْخَوَارِجِ وَالْمُعْتَزِلَةِ، وَمَنْ جَرَى مَجْرَاهُمَا مِنْ أَهْلِ الْبِدْعِ وَالضَّلَالِ.

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللهُ كَمَا فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى» (4/309): «إِنَّ أَحَادِيثَ الشَّفَاعَةِ فِي أَهْلِ الْكِبَائِرِ ثَابِتَةٌ مُتَوَاتِرَةٌ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَدْ اتَّفَقَ عَلَيْهَا السَّلَفُ مِنَ الصَّحَابَةِ وَتَابِعِيهِمْ بِإِحْسَانٍ وَأُئِمَّةُ الْمُسْلِمِينَ، وَإِنَّمَا نَازَعَ فِي

ذلك أهل البدع من الخوارج والمعتزلة ونحوهم». اهـ.

وقال رَحِمَهُ اللهُ كما في «مَجْمُوعُ الْفَتَاوَى» (1/ 104): «وقد اتَّفَقَ المسلمون على أن نَبِيَّنَا شَفِيعُ يومِ القِيَامَةِ، وأنَّ الخلقَ يَطْلُبُونَ منه الشَّفَاعَةَ، لكن عند أهل السُّنَّةِ أَنَّهُ يَشْفَعُ في أهلِ الكبائرِ، وأمَّا عندِ الوَعِيدَةِ فإنَّما يَشْفَعُ في زيادة الثَّوَابِ». اهـ.

وقال رَحِمَهُ اللهُ كما في «مَجْمُوعُ الْفَتَاوَى» (1/ 108): «وقد ثَبَتَ بالسُّنَّةِ المُسْتَفِيضَةُ، بل المتواترة، واتَّفَقَ الأُمَّةُ أنَّ نَبِيَّنَا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الشَّافِعُ المُشَفَّعُ، وأنَّه يَشْفَعُ في الخلائقِ يومِ القِيَامَةِ، وأنَّ النَّاسَ يَسْتَشْفَعُونَ به يطلبون منه أن يَشْفَعَ لهم إلى رَبِّهِمْ، وأنَّه يَشْفَعُ لهم.

ثم اتَّفَقَ أهلُ السُّنَّةِ والجَمَاعَةِ: أَنَّهُ يَشْفَعُ في أهلِ الكبائرِ، وأنَّه لا يُخَلَّدُ في النارِ من أهلِ التَّوْحِيدِ أَحَدٌ.

وأمَّا الخوارج والمعتزلة فأنكروا شفاعته لأهل الكبائر، ولم يُنكروا شفاعته للمؤمنين، وهؤلاء مُبْتَدِعَةٌ ضَلَالٌ، وفي تكفيرهم نزاعٌ وتفصيلٌ». اهـ.



«يُخْرِجُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ أَقْوَامًا بِغَيْرِ شَفَاعَةٍ، بَلْ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ، وَيَبْقَى فِي الْجَنَّةِ فَضْلٌ عَمَّنْ دَخَلَهَا مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا؛ فَيُنْثَى اللَّهُ أَقْوَامًا فَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ. وَأَصْنَافٌ مَا تَضَمَّنَتْهُ الدَّارُ الْآخِرَةُ مِنَ الْحَسَابِ وَالْثَوَابِ وَالْعِقَابِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَتَفَاصِيلُ ذَلِكَ مَذْكُورَةٌ فِي الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ مِنَ السَّمَاءِ، وَالْآثَارُ مِنَ الْعِلْمِ الْمَأْثُورِ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ، وَفِي الْعِلْمِ الْمَوْرُوثِ عَنْ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ ذَلِكَ مَا يَشْفِي وَيَكْفِي؛ فَمَنْ ابْتَغَاهُ وَجَدَهُ».

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «يُخْرِجُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ أَقْوَامًا بِغَيْرِ شَفَاعَةٍ...»، إِلَى قَوْلِهِ: «فَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ».

هَذَا مِنْ عَظِيمِ فَضْلِ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ وَرَحْمَتِهِ بِهِمْ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: 116].

وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخَدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «...» فَيَقُولُ اللَّهُ: شَفَعَتِ الْمَلَائِكَةُ، وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ، وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ؛ فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ، فَيُخْرِجُ مِنْهَا قَوْمًا لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا قَطُّ».

وَالْمُرَادُ بِهِؤُلَاءِ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ التَّوْحِيدِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حَرَّمَ الْجَنَّةَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ، مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: 72].

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «بَلْ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ».

قَالَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «مِفْتَاحِ دَارِ السَّعَادَةِ» (ص 18): «قَالَ غَيْرُ

واحد من السلف: يَنجُونَ من النار بعفو الله ومغفرته، ويدخلون الجنة بفضلِهِ ونعمته ومغفرته، ويتقاسمون الجنة بالأعمال؛ كقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: 72]، وقوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: 32].

قالوا: وأمّا نفى دخولها بالأعمال، كما في قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَنْ يَدْخُلَ الجنةَ أَحَدٌ بِعَمَلِهِ». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ».

فالمراد به: نفى أصل الدُّخُولِ.

وأحسن من هذا: أن يقال: الباء المُقتضية للدخول غير الباء التي نفى معها الدخول، فالمُقتضية هي باء السببية الدالة على أَنَّ الأعمال سببٌ للدخول، مُقتضية له كاقْتضاء سائر الأسباب لمُسبباتها، والباء التي نفى بها الدخول هي باء المُعاوضة والمقابلة التي في نحو قولهم: اشتريتُ هذا بهذا. فأخبر النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ دُخُولَ الجنة ليس في مُقابلة عملٍ أحدٍ، وأنَّه لولا تَعَمُّدُ اللَّهِ - سبحانه - لعبده برحمته لَمَّا أَدْخَلَهُ الجنة، فليسَ عملُ العبد - وإن تَنَاهَى - مُوجِبًا بِمُجَرَّدِهِ إِلَى دُخُولِ الجنة، ولا عوضًا لها، فَإِنَّ أَعْمَالَهُ - وإن وقعت منه على الوجه الذي يُحِبُّهُ اللَّهُ وَيَرْضَاهُ - فهي لا تُقاوم نِعْمَةَ اللَّهِ التي أنعم بها عليه في دار الدُّنْيَا، ولا تعادلها، بل لو حَاسَبَهُ لَوَقَعَتْ أَعْمَالُهُ كُلُّهَا في مُقَابِلَةِ الْيَسِيرِ مِنْ نِعَمِهِ، وتبقى بَقِيَّةُ النِّعَمِ مُقتضية لشكرها، فلو عَذَّبَهُ في هذه الحالة لَعَذَّبَهُ وهو غير ظالم له، ولو رَحِمَهُ لكانت رحمته خيرًا له من عَمَلِهِ، كما في «السُّنَنِ» من حديث زيد بن ثابت، وحذيفة، وغيرهما مرفوعًا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ لَوْ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَواتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ لَعَذَّبَهُمْ وهو غير ظالم لهم، ولو رَحِمَهُمْ

لكانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم». اهـ.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: «وَيَبْقَى فِي الْجَنَّةِ فَضْلٌ عَمَّنْ دَخَلَهَا مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا فَيُنْشَى اللَّهُ أَقْوَامًا فَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ».

وهذا يدلُّ على عظيم فضل الله، وأنَّ رحمته سَبَقَتْ غضبه، فإنه يُنْشَى أَقْوَامًا لِيُسْكِنَهُمْ فَضْلَ الْجَنَّةِ، وَلَا يُنْشَى آخَرِينَ لِلنَّارِ؛ فَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا تَزَالُ جَهَنَّمُ يُلْقَى فِيهَا، وَهِيَ تَقُولُ: قَطْ قَطْ، بِعِزَّتِكَ وَكَرَمِكَ، وَلَا يَزَالُ فِي الْجَنَّةِ فَضْلٌ حَتَّى يُنْشَى اللَّهُ لَهَا خَلْقًا فَيُسْكِنَهُمْ فَضْلَ الْجَنَّةِ». ومن لفظٍ لمُسلم: «يَبْقَى مِنَ الْجَنَّةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَبْقَى، ثُمَّ يُنْشَى اللَّهُ- سُبْحَانَهُ- لَهَا خَلْقًا فَيُسْكِنَهُمْ فَضْلَ الْجَنَّةِ».

قال العلامة ابن القيم رَحْمَةُ اللَّهِ فِي كِتَابِهِ «حَادِي الْأَرْوَاحِ» (1/394): «وَأَمَّا اللَّفْظُ الَّذِي فِي الْبُخَارِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ: «أَنَّهُ يُنْشَى لِلنَّارِ مَنْ يَشَاءُ فَيُلْقَى فِيهَا، فَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟»- فَغَلَطَ مِنْ بَعْضِ الرُّوَاةِ انْقِلَابَ عَلَيْهِ لَفْظُهُ.

وَالرُّوَايَاتُ الصَّحِيحَةُ وَنَصُّ الْقُرْآنِ يُرَدُّهُ، فَإِنَّ اللَّهَ أَخْبَرَ أَنَّهُ يَمْلَأُ النَّارَ مِنْ إِبْلِيسَ وَأَتْبَاعِهِ، فَإِنَّهُ لَا يُعَذَّبُ إِلَّا مَنْ قَامَتْ عَلَيْهِ حُجَّتُهُ، وَكَذَّبَ رُسُلَهُ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿كُلَّمَا أَلْقَى فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ [الملك: 8]. اهـ.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: «وَأَصْنَافُ مَا تَضَمَّنَتْهُ الدَّارُ الْآخِرَةُ مِنَ الْحِسَابِ وَالثَوَابِ وَالْعِقَابِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ».

أي: أنواع ما اشتملت عليه الدار الآخرة.

وقد سُمِّيَتْ بِالدَّارِ الْآخِرَةِ؛ لِتَأْخَرِهَا عَنِ الدُّنْيَا، وَكَوْنِهَا بَعْدَهَا.

قوله: «مِنَ الْحِسَابِ»، قد تقدم الكلام عليه.

قوله: «وَالثَّوَابُ وَالْعِقَابُ»، أي: الثواب على الطاعات، والعقاب على المعاصي والسيئات؛ قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: 7-8]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَسُوهُ﴾ [المجادلة: 6]، وقال تعالى: ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: 281]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: 31].

وفي مسلم من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قَالَ تَعَالَى فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ: يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أَحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أَوْفِّكُمْ إِيَّاهَا؛ فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فليحمد الله، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ».

قوله: «وَالْجَنَّةُ وَالنَّارُ».

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ كَمَا فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى» (28 / 442): «الجنة: اسمٌ للدار التي حَوَتْ كُلَّ نَعِيمٍ، أعلاه النَّظَرُ إِلَى اللَّهِ إِلَى مَا دُونَ ذَلِكَ مِمَّا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ، وتَلَدُّ الْأَعْيُنُ؛ مِمَّا قَدْ نَعَرَفَهُ وَقَدْ لَا نَعْرِفُهُ». اهـ.

وَأَمَّا النَّارُ، فَقَدْ قَالَ السَّفَارِينِيُّ فِي «لَوَامِعِ الْأَنْوَارِ» (1 / 219): «هي دارُ الْبَوَارِ، وَمَقَرُّ الْكُفَّارِ». اهـ.

واعلم أَنَّ مِنْ عَقِيدَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ الَّتِي خَالَفُوا فِيهَا أَهْلَ الْبِدْعِ وَالضَّلَالِ: أَنَّ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ مَخْلُوقَتَانِ مَوْجُودَتَانِ الْآنَ، وَأَنَّهُمَا لَا تَفْنِيَانِ، وَلَا تَبِيدَانِ أَبَدًا، وَقَدْ بَسَطْتُ الْقَوْلَ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: «وتفاصيل ذلك مذكورة في الكتب المُنزلة من السماء»، أي: كالطورا، والإنجيل، والزبور، وصُحف إبراهيم وموسى.
قوله رَحِمَهُ اللهُ: «والآثار من العلم المأثور عن الأنبياء».

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ كما في «مجموع الفتاوى» (11 / 396 - 397):
«والعلم الممدوح الذي دلَّ عليه الكتاب والسنة هو العلم الذي ورثته الأنبياء، كما قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُورَثُوا دَرَهَمًا وَلَا دِينَارًا، وَإِنَّمَا وَرَثُوا الْعِلْمَ؛ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحِطٍّ وَافِرٍ».
وهذا العلم ثلاثة أقسام:

عِلْمٌ بالله وأسمائه وصفاته، وما يتبع ذلك، وفي مثله أنزل الله سورة الإخلاص وآية الكرسي ونحوهما.

والقسم الثاني: العلم بما أخبر الله به مما كان من الأمور الماضية، وما يكون من الأمور المستقبلية، وما هو كائن من الأمور الحاضرة، وفي مثل هذا أنزل الله آيات القصص، والوعد والوعيد، وصفة الجنة والنار، ونحو ذلك.

والقسم الثالث: العلم بما أمر الله به من الأمور المتعلقة بالقلوب والجوارح من الإيمان بالله، ومن معارف القلوب وأحوالها، وأقوال الجوارح وأعمالها، وهذا العلم يندرج فيه العلم بأصول الإيمان وقواعد الإسلام، ويندرج فيه العلم بالأقوال والأفعال الظاهرة، وهذا العلم يندرج فيه ما وُجد في كتب الفقهاء من العلم بأحكام الأفعال الظاهرة، فإنَّ ذلك جزءٌ من جزءٍ من جزءٍ من علم الدين». اهـ.

وقال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في نونيته:

والعلمُ أقسامٌ ثلاثٌ مالها من رابعٍ والحقُّ ذوتبيان
علمٌ بأوصافِ الإلهِ وفِعْله وكذلك الأسماءُ للرحمن
والأمرُ والنهي الذي هو دينه وجَزَاؤه يومَ المعاد الثاني

وقال العلامة ابن عُثيمين في «شرح الواسِطية» (ص 533 - 534): «اعلم أنَّ العلمَ المأثورَ عن الأنبياء قِسمان:

القِسم الأول: قِسم ثبت بالوحي، وهو ما ذكر في القرآن والسُّنة الصَّحيحة، وهذا لا شكَّ في قبوله، واعتقاد مدلوله.

القِسم الثاني: قِسم أتى عن طريق النَّقل غير الوحي، وهذا هو الذي دَخَلَ فيه الكذب والتَّحريف والتَّبديل والتَّغيير، ولهذا لا بُدَّ أن يكون الإنسانُ حَذِرًا مِمَّا ينقل بهذه الطريقة عن الأنبياء السابقين، حتَّى قال الرَّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إذا حَدَّثَكُم أَهْلُ الْكِتَابِ فَلَا تُصَدِّقُوهُمْ وَلَا تَكْذِبُوهُمْ؛ قُولُوا: آمَنَّا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا، وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم».

لأنَّكَ إِنْ صَدَّقْتَ قَدْ تُصَدِّقُ بِبَاطِلٍ، وَإِنْ كَذَّبْتَهُ قَدْ تُكَذِّبُ بِحَقٍّ، فَلَا تُصَدِّقُ وَلَا تَكْذِبُ؛ قُلْ: إِنْ كَانَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَقَدْ آمَنْتُ بِهِ.

وقد قَسَمَ العلماءُ ما أُثِرَ عَمَّنْ سَبَقَ ثَلَاثَةَ أَقْسَامٍ:

الأول: ما شَهِدَ شَرْعُنَا بِصَدَقِهِ.

الثاني: ما شَهِدَ شَرْعُنَا بِكَذِبِهِ. والحُكْمُ في هَٰذَيْنِ وَاضِحٌ.

الثالث: ما لَمْ يُحْكَمْ بِصَدَقِهِ وَلَا بِكَذِبِهِ. فهذا مما يَجِبُ فِيهِ التَّوَقُّفُ، لَا يُصَدِّقُ وَلَا يُكَذِّبُ». اهـ

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: «وفي العلم الموروث عن مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ ذَلِكَ مَا يَشْفِي وَيَكْفِي؛ فَمَنْ ابْتِغَاهُ وَجَدَهُ».

العلم الموروث عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو عِلْمُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وفيه ما يَشْفِي وَيَكْفِي فِي كُلِّ أَبْوَابِ الْعِلْمِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: 51]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: 82]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾ [يونس: 57]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: 89]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنبِيْهًا﴾ [النساء: 66]، الْآيَةُ.

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تَرَكْتُكُمْ عَلَى مِثْلِ الْبَيْضَاءِ لَيْلِهَا كَنَهَارُهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا إِلَّا هَالِكٌ».

وقال شيخُ الإسلام في «الجواب الصحيح» (3/161): «في القرآن والأحاديث عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْإِخْبَارِ بِمَا سَيَكُونُ فِي الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ أَضْعَافُ أَضْعَافٍ مَا يُوجَدُ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَهُ». اهـ.

قوله: «ما يَشْفِي»، أي: من أمراض الشَّهَوَاتِ وَالشَّبَهَاتِ.

قوله: «ويكفي»، أي: في كل أبواب العلم، وَمَنْ لَمْ يَكْفِهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ فَلَا كَفَاهُ اللَّهُ وَمَنْ لَمْ يَشْفِهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ فَلَا شِفَاهُ اللَّهُ.



«وَتُؤْمِنُ الْفِرْقَةُ النَّاجِيَةُ (أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ) بِالْقَدَرِ؛ خَيْرُهُ وَشَرُّهُ».

الْقَدَرُ فِي اللُّغَةِ: مَصْدَرُ قَدَرْتُ الشَّيْءَ إِذَا أَحْطْتُ بِمَقْدَارِهِ.

وَهُوَ عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ: قُدْرَةُ اللَّهِ وَعِلْمُهُ وَمَشِيئَتُهُ وَخَلْقُهُ وَكِتَابَتُهُ، فَلَا تَتَحَرَّكُ ذَرَّةٌ فَمَا فَوْقَهَا إِلَّا بِمَشِيئَتِهِ وَعِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ (1).

وَلِذَلِكَ قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الْقَدَرُ: قُدْرَةُ اللَّهِ».

قَالَ الْعَلَامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي «شِفَاء الْعَلِيلِ» (ص 28): «وَاسْتَحْسَنَ ابْنُ عَقِيلٍ هَذَا الْكَلَامَ جِدًّا، وَقَالَ: هَذَا يَدُلُّ عَلَى دِقَّةِ عِلْمِ أَحْمَدَ وَتَبَحُّرِهِ فِي مَعْرِفَةِ أَصُولِ الدِّينِ».

وَهُوَ كَمَا قَالَ أَبُو الْوَفَاءِ: فَإِنَّ انْكَارَ الْقَدَرِ انْكَارٌ لِقُدْرَةِ الرَّبِّ عَلَى خَلْقِ أَعْمَالِ الْعِبَادِ وَكِتَابَتِهَا وَتَقْدِيرِهَا». اهـ.

وَقَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «مَنْهَاجِ السُّنَّةِ» (3 / 254): «إِنَّ الْإِمَامَ أَحْمَدَ يُشِيرُ (أَي: بِكَلَامِهِ السَّابِقِ) إِلَى أَنَّ مَنْ أَنْكَرَ الْقَدَرَ فَقَدْ أَنْكَرَ قُدْرَةَ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَنَّهُ يَتَضَمَّنُ إِثْبَاتَ قُدْرَةِ اللَّهِ - تَعَالَى - عَلَى كُلِّ شَيْءٍ». اهـ.

وَالْإِيمَانُ بِالْقَدَرِ أَصْلٌ مِنْ أَصُولِ اعْتِقَادِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، وَرُكْنٌ مِنْ أَرْكَانِ الْإِيمَانِ.

قَالَ الْعَلَامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي مُقَدِّمَةِ كِتَابِهِ «شِفَاء الْعَلِيلِ» (ص 3): «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ أَهَمَّ مَا يَجِبُ مَعْرِفَتُهُ عَلَى الْمُكَلَّفِ النَّبِيلِ فَضْلًا عَنِ الْفَاضِلِ الْجَلِيلِ مَا

(1) انظر «شِفَاء الْعَلِيلِ» لابن القَيِّمِ (ص 114).

وَرَدَ فِي الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ وَالْحِكْمَةِ وَالتَّعْلِيلِ، فَهُوَ مِنْ أَسْنَى الْمَقَاصِدِ، وَالْإِيمَانُ بِهِ قُطْبُ رَحَى التَّوْحِيدِ وَنِظَامِهِ، وَمَبْدَأُ الدِّينِ الْمُبِينِ وَخِتَامِهِ، فَهُوَ أَحَدُ أَرْكَانِ الْإِيمَانِ وَقَاعِدَةُ أُسَاسِ الْإِحْسَانِ الَّتِي يَرْجِعُ إِلَيْهَا وَيَدُورُ فِي جَمِيعِ تَصَارِيفِهِ عَلَيْهَا، فَالْعَدْلُ قَوَامُ الْمُلْكِ، وَالْحِكْمَةُ مَظْهَرُ الْحَمْدِ، وَالتَّوْحِيدُ مُتَضَمِّنٌ لِنَهَايَةِ الْحِكْمَةِ وَكَمَالِ النِّعْمَةِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ، وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ؛ فَبِالْقُدْرَةِ وَالْحِكْمَةِ ظَهَرَ خَلْقُهُ وَشَرْعُهُ الْمُبِينُ؛ ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: 54]. اهـ.

وَمِنْ أَدَلَّةِ الْقَدَرِ حَدِيثُ جِبْرِيلَ لَمَّا سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْإِيمَانِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ؛ خَيْرُهُ وَشَرُّهُ».

وَسَيَأْتِي ذِكْرُ مَزِيدٍ مِنْ أَدَلَّةِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ عَلَى هَذَا فِي بَيَانِ مَرَاتِبِ الْقَدَرِ.

قَوْلُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «خَيْرُهُ وَشَرُّهُ».

أَيُّ: أَنَّ مِنْ مُعْتَقِدِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ أَنَّ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ مُقَدَّرٌ مِنَ اللَّهِ مَخْلُوقٌ لَهُ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: 62]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: 49]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ ① مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿[الفلق: 1-2]﴾.

قَالَ الْعَلَامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «بَدَائِعِ الْفَوَائِدِ» (2/ 215): «وَقَدْ دَخَلَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [الفلق: 2] الْإِسْتِعَاذَةُ مِنْ كُلِّ شَرٍّ، أَيُّ: مَخْلُوقٌ قَامَ بِهِ الشَّرُّ مِنْ حَيَوَانَ أَوْ غَيْرِهِ إِنْسِيًّا كَانَ أَوْ جِنِّيًّا، أَوْ هَامَّةً، أَوْ دَابَّةً، أَوْ رِيحًا، أَوْ صَاعِقَةً، أَوْ أَيُّ نَوْعٍ كَانَ مِنْ أَنْوَاعِ الْبَلَاءِ».

فإن قلت: فهل في {ما} هنا عموم؟

قلت: فيها عمومٌ تقييدي وصفي، لا عموم إطلاقي.

والمعنى: من شرِّ كلِّ مخلوق فيه شرٌّ، فعمومها من هذا الوجه، وليس المراد الاستعاذة من شرِّ كلِّ ما خلقه الله، فإن الجنة وما فيها ليس فيها شرٌّ، وكذلك الملائكة والأنبياء فإنهم خيرٌ محض، والخير كله حصل على أيديهم، والاستعاذة من شرِّ ما خلق تعمُّ شرِّ كلِّ مخلوق فيه شرٌّ، وكل شر من الدنيا والآخرة، وشر شياطين الإنس والجنِّ وشر السباع والهوام والنار والهواء، وغير ذلك.

وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا فَقَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ - لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْهُ»، رواه مسلم.

وفي الحديث: «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ الَّتِي لَا يُجَاوِزُهَا بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ وَذَرَأً وَبَرّاً، وَمِنْ شَرِّ مَا نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرِجُ فِيهَا، وَمِنْ شَرِّ مَا ذَرَأَ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا، وَمِنْ شَرِّ فِتْنِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَمِنْ شَرِّ كُلِّ طَارِقٍ إِلَّا طَارِقًا يَطْرُقُ بِخَيْرٍ يَا رَحْمَنَ». اهـ.

فإن قال قائل: كيف نجمع بين قوله تعالى: ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [الفلق: 2] وبين ما ثبت في «صحيح مسلم» من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ»؟

فالجواب: أَنَّ عُلَمَاءَنَا - رحمهم الله - قد بينوا أَنَّ لَا تَعَارُضَ بَيْنَ الْآيَةِ وَالْحَدِيثِ.

فقد قال الإمام النَّووي رَحِمَهُ اللهُ فِي شرحه لصحيح مسلم: «إِنَّ معنى هذا الحديث كما قال الخطَّابِيُّ وغيرُه: إِنَّ فِيهِ الإِرشَادَ إِلَى الأدبِ فِي الثَّناءِ عَلَى اللهِ تعالى وَمَدْحِهِ بأن يُضافَ إِلَيْهِ محاسنُ الأمورِ دونَ ما سِواها عَلَى وجهِ التَّأدبِ.

أَمَّا قولُه: «والشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ»: مِمَّا يَجِبُ تَأويلُه؛ لأنَّ مذهبَ الحَقِّ أَنَّ كلَّ المُحدثاتِ فِعْلُ اللهِ وَخَلْقُه سواءَ خَيْرُها وَشَرُّها، وَحِينَئِذٍ يَجِبُ تَأويلُه، وفيه خمسة أقوال:

الأول: معناه لا يُتَقَرَّبُ بِهِ إِلَيْكَ. قاله الخليلُ بنُ أحمد، والنضرُ بنُ شُمَيْل، وإسحاقُ بنِ راهويهِ، وَيَحْيَى بنُ مَعِين، وابنُ خُزَيْمَة.

الثاني: حكاة المُزني، ومعناه: لا يُضافُ إِلَيْكَ عَلَى انفرادِه، فلا يُقال: يا خالِقَ القِرَدَةِ والخنازير، يا رَبَّ الشَّرِّ، وإن كان خالِقَ كُلِّ شيءٍ، وَحِينَئِذٍ يَدْخُلُ الشَّرُّ فِي العمومِ.

الثالث: معناه: الشَّرُّ لا يَصْعَدُ إِلَيْكَ، وَإِنَّمَا يَصْعَدُ إِلَيْكَ الكَلِمُ الطَّيِّبُ والعملُ الصَّالِحُ.

الرابع: أَنَّ الشَّرَّ لَيْسَ شَرًّا بِالنسبةِ إِلَيْكَ، فَإِنَّكَ خَلَقْتَهُ بِحُكْمَةٍ بِالْغَةِ، وَإِنَّمَا الشَّرُّ بِالنسبةِ للمخلوقين.

الخامس: حكاة الخطَّابِيِّ أَنَّهُ كقولِكَ: فلانُ إِلَى بَنِي فلان. إِذا كان عِداده فيهم، أو نَسَبُهُ إِلَيْهِمْ». اهـ.

أَمَّا العَلَّامَةُ ابنُ القِيَمِ فَإِنَّهُ لَمْ يَرْضَ بَعْضُ الأُجوبةِ السابقة، فَقَدْ قالَ فِي «بدائع الفوائد» (2/ 210 - 214) بَعْدَ أَنْ بَيَّنَّ أَنَّ الجوابَ الصَّوابَ أَنَّ الشَّرَّ لَيْسَ فِي أفعالِ اللهِ، بل فِي مَفْعولاتِه، وَهُوَ أَمْرٌ نَسْبِي، قال: «إِذا عرفتَ هذا عرفتَ أَنَّ معنى

قوله في الحديث الصحيح: «لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، والخير في يديك، والشرُّ ليس إليك» صحيح، وإن معناه أجلُّ وأعظمُّ من قول مَنْ قال: والشرُّ لا يُتقرب به إليك. وقول مَنْ قال: والشرُّ لا يصعد إليك. وأنَّ هذا الذي قالوه - وإن تَضَمَّنَ تنزيهه عن صُعود الشرِّ إليه، والتَّقرب به إليه - فلا يتضمَّن تنزيهه في ذاته وصفاته وأفعاله عن الشرِّ، بخلاف لفظ المَعصوم الصَّادق المُصَدِّق، فإنَّه يتضمَّن تنزيهه في ذاته - تبارك وتعالى - عن نسبة الشرِّ إليه بوجهٍ ما؛ لا في صفاته، ولا في أفعاله ولا في أسمائه، وإن دخل في مخلوقاته كقوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ١﴾ من شرِّ ما خَلَقَ ﴿[الفلق: 1-2]﴾.

وتأمَّل طريقة القرآن في إضافة الشرِّ تارة إلى سببه ومَنْ قام به، كقوله: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: 254]، وقوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: 108]، وقوله: ﴿فَيُظْلَمُ مَنْ أَلْزَيْنَ هَادُوا﴾ [النساء: 160]، وقوله: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [الأنعام: 146]، وقوله: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ [الزخرف: 76]، وهو في القرآن أكثر من أن يُذكر هاهنا عشر معشاره، وإنَّما المقصود التَّمثيل، وتارة بحذف فاعله؛ كقوله - تعالى حكاية عن مؤمني الجن -: ﴿وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أُرِيدَ يَمَنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: 10]، فحذفوا فاعل الشرِّ ومُریده، وصرَّحوا بمريد الرشد، ونظيره في الفاتحة: ﴿صِرْطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: 7]، فَذَكَرَ النِّعْمَةَ مُضَافَةً إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ، والضَّلالَ مَنْسُوبًا إِلَى مَنْ قام به، والغضبَ مَحْذُوفًا فاعله، ومثله قول الخضر في السفينة: ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: 79]، وفي الغلامين: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [الكهف: 82]، ومثله قوله: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي

قُلُوبِكُمْ وَكَرِهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ﴿[الحجرات:7]﴾؛ فنسب هذا التزيين المحبوب إليه، وقال: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [آل عمران:14]، فحذف الفاعل المزيين، ومثله قول الخليل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿[الشعراء:78-82]﴾، فنسب إلى ربِّه كلَّ كمال من هذه الأفعال، ونسب إلى نفسه النقص منها، وهو المرض والخطيئة.

وهذا كثيرٌ في القرآن الكريم ذكرنا منه أمثلة كثيرة في كتاب «الفوائد المكية»، وبيننا هناك السرَّ في مجيء: ﴿الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْثَبُ﴾ [القصص:52]، ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ [البينة:4]، والفرق بين الموضعين، وأنه حيث ذكر الفاعل كان من آتاه الكتاب واقعاً في سياق المدح، وحيث حذفه كان من أوتيهِ واقعاً في سياق الذمِّ، أو منقسمًا، وذلك من أسرار القرآن الكريم، ومثله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر:32]، وقال: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾ [الأعراف:169]، وبالجمله فالذي يُضاف إلى الله - تعالى - كله خير وحكمة ومصلحة وعدل، والشر ليس إليه. اهـ.

وقد جُلِّيَ ابنُ القيم رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الأمر جلاءً واضحاً أنقله بطوله لأهميته وعظمة هذا الباب، ورغبة في قطع كلِّ طريق يُفضي إلى الشُّكوك وإساءة الظُّنون بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ في «بدائع الفوائد» (2/ 210-211): «فإذا عرف هذا فلتكلم على الشُّرور المُستعاذ منها في هاتين السُّورتين:

الشر الأول: العامُّ في قوله: ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [الفلق:2]، و{ما} هاهنا

موصولة ليس إلّا، والشرُّ مُسند في الآية إلى المخلوق المفعول، لا إلى خلق الرّبِّ تعالى الذي هو فعله وتكوينه، فإنّه لا شرٌّ فيه بوجهٍ ما، فإنّ الشر لا يدخل في شيء من صفاته ولا في أفعاله، كما لا يلحق ذاته تبارك وتعالى، فإنّ ذاته لها الكمال المطلق والجلال التام، ولا عيب فيها ولا نقصٍ بوجهٍ ما، وكذلك أفعاله كلها خيرات محضة لا شرٌّ فيها أصلاً، ولو فعل الشرّ - سبحانه - لاشتقّ له منه اسمٌ، ولم تكن أسماؤه كلها حسنى، ولعادَ إليه منه حكم - تعالى وتقدّس - عن ذلك، وما يفعله من العدل بعباده وعقوبة من يستحق العقوبة منهم هو خير محض، إذ هو محض العدل والحكمة، وإنّما يكون شرّاً بالنسبة إليهم، فالشرُّ وَقَعَ في تعلُّقه بهم وقيامه بهم، لا في فعله القائم به تعالى، ونحن لا نُنكر أنّ الشرّ يكون في مفعولاته المنفصلة، فإنّه خالقُ الخير والشرّ، ولكن هنا أمران ينبغي أن يكونا منك على بال:

أحدهما: أنّ ما هو شرٌّ أو مُتضمن للشرّ فإنه لا يكون إلا مفعولاً مُنفصلاً لا يكون وصفاً، ولا فعلاً له.

الثاني: أنّ كونه شرّاً هو أمرٌ نسبي إضافي، فهو خير من جهة تعلُّق فعل الرّبِّ، وتكوينه به، وشر من جهة نسبته إلى من هو شرٌّ في حقّه، فله وجهان هو من أحدهما خير، وهو الوجه الذي نُسب منه إلى الخالق سبحانه وتعالى خلقاً وتكويناً ومشيئة لما فيه من الحكمة البالغة التي استأثّر بعلمها، وأطلع من شاء من خلقه على ما شاء منها، وأكثر النَّاس تَضَيُّقُ عقولهم عن مبادئ معرفتها فضلاً عن حقيقتها، فيكفيهم الإيمانُ المُجمل بأنّ الله - سبحانه - هو الغنيّ الحميد، وفاعل الشرّ لا يفعله لحاجته المُنافية لِغناه، أو لنقصه وعييه المُنافي لحمده؛ فيستحيل صُدُور الشرّ من الغنيّ الحميد فعلاً وإن كان هو الخالق للخير والشرّ - فقد

عرفت أن كونه شرًّا هو أمرٌ إضافي، وهو في نفسه خيرٌ من جهة نسبته إلى خالقه ومُبدعه، فلا تغفل عن هذا الموضع فإنه يفتح لك بابًا عظيمًا من معرفة الربِّ ومحبته، ويزيل عنك شُبُهات حارت فيها عقولُ أكثر الفضلاء.

وإذا أشكل عليك هذا فأنا أوضّحه لك بأمثلة:

أحدها: أن السارق إذا قَطَعَت يده، فَقَطَعُهَا شَرٌّ بالنسبة إليه، وخيرٌ محض بالنسبة إلى عموم النَّاس؛ لما فيه من حفظ أموالهم، ودفع الضرر عنهم، وخيرٌ بالنسبة إلى مُتَوَلِّي القطع أمرًا وحكمًا؛ لما في ذلك من الإحسان إلى عبيده عمومًا بإتلاف هذا العضو المؤذي لهم، المُضِرُّ بهم؛ فهو محمود على حكمه بذلك، وأمره به مَشكور عليه يستحقُّ عليه الحمد من عباده والثناء عليه والمحبة.

وكذلك الحُكْم بقتل مَنْ يَصُول عليهم في دمائهم وحُرْماتهم، وجَلْد مَنْ يصول عليهم في أعراضهم، فإذا كان هذا عقوبة مَنْ يصول عليهم في دُنياهم فكيف عقوبة مَنْ يَصُول على أديانهم، ويحول بينهم وبين الهدى الذي بَعَثَ اللهُ به رسَله، وجعل سعادة العباد في معاشهم ومَعَادهم منوطة به.

أفليس في عقوبة هذا الصائل خيرٌ مَحْضٌ وحِكمة وعدل وإحسان إلى العبيد، وهي شرٌّ بالنسبة إلى الصائل الباغي، فالشَّرُّ ما قام به من تلك العقوبة، أمّا ما نُسِبَ إلى الربِّ منها من المشيئة والإرادة والفعل فهو عينُ الخير والحكمة، فلا يَغْلُظ حِجَابُكَ عن فهم هذا النبأ العظيم والسِّرِّ الذي يُطلعك على مسألة القَدَر، ويفتح لك الطريق إلى الله ومعرفة حكمته ورحمته وإحسانه إلى خلقه، وأنّه - سبحانه - كما أنّه البرّ الرّحيم الودود المُحسن، فهو الحكيم المَلِك العَدْل؛ فلا تُناقض حكمته رحمته، بل يضع رحمته وبرّه وإحسانه موضعه، ويضع عقوبته وعدله وانتقامه وبأسه موضعه، وكلاهما مُقتضى عزّته وحكمته وبرّه،

وهو العزيز الحكيم؛ فلا يليقُ بحكمته أن يضع رضاه ورحمته موضع العقوبة والغضب، ولا يضع غضبه وعقوبته موضع رضاه ورحمته». اهـ.



«والإيمانُ بالقَدَرِ على درجتين؛ كل درجة تتضمن شيئين:
فالدَّرَجَةُ الأولى: الإيمانُ بأنَّ اللهَ - تعالى عليمٌ بما الخلقُ عاملون بعلمه
القديم الذي هو موصوفٌ به أزلاً وأبدًا، وعلم جميع أحوالهم من الطاعات
والمعاصي والأرزاق والأجال».

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: «الإيمانُ بالقَدَرِ على درجتين، كل درجة تتضمن شيئين».
يريد رَحْمَةُ اللَّهِ أن يُبينَ مراتب القَدَرِ الأربع التي هي:
العِلْمُ والكتابة والمشيئة والخلق، وقد نَظَمَ أحدُ الشعراء هذه المراتب
الأربع فقال:

عِلْمٌ كِتَابَةٌ مَوْلَانَا مَشِئَتُهُ وَخَلْقُهُ وَهُوَ إِيجَادٌ وَتَكْوِينٌ
وقد قال العلامةُ ابنُ القيم رَحْمَةُ اللَّهِ فِي كتاب «شفاء العليل» (ص 63):
«الباب العاشر: (في مراتب القضاء والقدر التي مَنْ لم يؤمن بها لم يؤمن بالقضاء
والقدر)، وهي أربعُ مراتب:

المرتبة الأولى: عِلْمُ الرَّبِّ - سبحانه - بالأشياء قبل كَوْنِهَا.

المرتبة الثانية: كتابته لها قَبْلَ كونها.

المرتبة الثالثة: مَشِئَتُهُ لها.

الرابعة: خَلْقُهُ لها». اهـ.

ثُمَّ إِنَّ شَيْخَ الْإِسْلَامِ بدأ بالدَّرَجَةِ الأولى من درجات الإيمان بالقَدَرِ، وَبَيَّنَّ
أَنَّهَا تتضمن شيئين:

الأول: عُمُومُ عِلْمِ اللَّهِ بِجَمِيعِ شُؤْنِ خَلْقِهِ جَمْلَةً وَتَفْصِيلًا.

وعِلْمُ الله من صفاته الذاتية الملازمة له أزلاً وأبداً، وعلمه - سبحانه - يتعلق بذاته وبخلقه؛ فقد عِلِمَ - سبحانه - جميع أحوال عباده قبل أن يخلقهم؛ من الطاعات والمعاصي، والأرزاق والآجال.

ومن أدلة هذه المرتبة: قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: 7]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: 7]، وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: 4]، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: 34]، وقوله تعالى: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [الرعد: 9]، وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: 19]، وغير ذلك من الآيات.

وفي حديث عمران بن حصين قال: قيل: يا رسول الله، أعلم أهل الجنة من أهل النار؟ فقال: «نعم». قيل: فقيم العمل؟ فقال: «كُلُّ مُيسِّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ».

وفي البخاري ومسلم عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي جَنَازَةِ بَبْقِيعِ الْغَرَقْدِ، فَقَعَدَ وَقَعَدْنَا حَوْلَهُ، فَانْكَسَ رَأْسُهُ، وَجَعَلَ يَنْكُتُ بِمُخَصَّرَتِهِ الْأَرْضَ، ثُمَّ قَالَ: «مَا مِنْ نَفْسٍ مَنفُوسَةٍ إِلَّا وَقَدَ كَتَبَ اللَّهُ مَكَانَهَا مِنَ الْجَنَّةِ أَوْ النَّارِ، وَشَقِيَّةٌ أَوْ سَعِيدَةٌ». فقال رجل: يا رسول الله، أَلَا نَمُكُّثُ عَلَى كِتَابِنَا وَنَدْعُ الْعَمَلَ؟ فقال: «مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَيَصِيرُ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ فَيَصِيرُ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ؛ اْعْمَلُوا فَكُلُّ مُيسِّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ، أَمَّا أَهْلُ السَّعَادَةِ فَيُيسَّرُونَ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ،

وَأَمَّا أَهْلُ الشَّقَاوَةِ فَيُيَسِّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ، ثُمَّ قَرَأَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا مَنْ
 أَعْطَى وَانْتَفَى ۝٥ وَصَدَقَ بِالْحَسَنَى ۝٦ فَسَيَسِّرُهُ لِّلْيُسْرَى ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ۝٨
 وَكَذَّبَ بِالْحَسَنَى ۝٩ فَسَيَسِّرُهُ لِّلْعُسْرَى﴾ [الليل: 5-10]. أخرجه البخاري برقم (1362)، ومسلم برقم (2647).

قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ فِي «شَفَاءِ الْعَلِيلِ» (ص 63): «فَأَمَّا الْمَرْتَبَةُ
 الْأُولَى وَهِيَ الْعِلْمُ السَّابِقُ، فَقَدْ اتَّفَقَ عَلَيْهِ الرُّسُلُ مِنْ أَوَّلِهِمْ إِلَى خَاتَمِهِمْ، وَاتَّفَقَ
 عَلَيْهِ جَمِيعُ الصَّحَابَةِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ مِنَ الْأُمَّةِ، وَخَالَفَهُمْ مَجُوسُ الْأُمَّةِ». اهـ.
 فَمَنْ أَنْكَرَ هَذِهِ الْمَرْتَبَةَ فَهُوَ كَافِرٌ.

قال العلامة السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «الدَّرَّةَ الْبَهِيَّةِ» (ص 20-21): «وَكَانَتْ
 طَائِفَةُ الْقَدَرِ فِي أَوَّلِ أَمْرِهِمْ يُنْكِرُونَ الْعِلْمَ وَيُنْكِرُونَ الْقَدَرَ؛ فَيَقُولُونَ: إِنَّ اللَّهَ لَا
 يَعْلَمُ أَعْمَالَ الْعِبَادِ قَبْلَ أَنْ يَعْمَلُوهَا، وَلَا تَعَلَّقَتْ بِهَا مَشِيئَةُ اللَّهِ؛ فَلَمَّا شَنَّ عَلَيْهِمُ
 الْمُسْلِمُونَ وَكَفَّرُوهُمْ بِذَلِكَ - تَحَوَّلُوا عَنْ قَوْلِهِمُ الْأَوَّلَ، فَأَثْبَتُوا الْعِلْمَ، وَأَنْكَرُوا
 الْقَدَرَ.

ولهذا كان الأئمة - كالإمام أحمد وغيره - يقولون: «نَاطِرُوا الْقَدَرِيَّةَ بِالْعِلْمِ!
 فَإِنْ أَنْكَرُوا الْعِلْمَ كَفَرُوا، وَإِنْ اعْتَرَفُوا بِهِ خُصِمُوا».

يعني: أَنَّ الْقَدَرِيَّةَ النَّافِينَ لِعِلْمِ اللَّهِ بِأَفْعَالِ عِبَادِهِ جَا حِدُونَ لِنُصُوصِ الْكِتَابِ
 وَالسُّنَّةِ الْمُصَرَّحَةِ بِإِحَاطَةِ عِلْمِ اللَّهِ بِمَا كَانَ وَمَا يَكُونُ مِنْ أَعْيَانٍ وَأَوْصَافٍ وَأَفْعَالٍ
 مِمَّا دَقَّ وَجَلَّ؛ فَمَنْ أَنْكَرَ ذَلِكَ فَقَدْ كَذَّبَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ صَرِيحًا، وَذَلِكَ هُوَ
 الْكُفْرُ، وَإِنْ اعْتَرَفُوا بِإِحَاطَةِ اللَّهِ بِكُلِّ شَيْءٍ وَبِأَفْعَالِ الْعِبَادِ قَبْلَ وَقُوعِهَا - كَمَا هُوَ
 الْقَوْلُ الَّذِي اسْتَقَرَّ عَلَيْهِ مَذْهَبُهُمْ - خُصِمُوا». اهـ.

«ثم كَتَبَ فِي اللُّوحِ الْمَحْفُوظِ مَقَادِيرَ الْخَلْقِ، فَأَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ قَالَ لَهُ: اكتب. قال: ما أَكْتُبُ؟ قال: اكتب ما هو كائنٌ إلى يوم القيامة؛ فما أَصَابَ الْإِنْسَانَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئْهُ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبْهُ؛ جَفَّتِ الْأَقْلَامُ، وَطُوِيَتِ الصُّحُفُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: 70]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: 22]».

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «ثُمَّ كَتَبَ فِي اللُّوحِ الْمَحْفُوظِ مَقَادِيرَ الْخَلْقِ...»، إلخ. هذه هي المرتبة الثانية من مراتب القدر، وهي مرتبة الكتابة السابقة للأشياء قبل كونها.

وقد دلَّ على هذه المرتبة الكتابُ والسُّنَّةُ والإجماعُ. أمَّا الكتاب العزيز: فمنه الآيتان اللتان ذكرهما المصنِّف، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (١٠٥) إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَكِيدِينَ ﴿[الأنبياء: 105-106]». «فالزبور هنا: جميع الكتب المنزلة من السماء، لا تختص بزبور داود.

والذكر: أم الكتاب الذي عند الله.

والأرض: الدنيا.

وعباده الصالحون: أُمَّةُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

هذا أصحُّ الأقوال في هذه الآية، وهي علمٌ من أعلام النبوة؛ فإنه - صَلَّى اللَّهُ

عليه وآله وسلّم - أخبر بذلك بمكة، وأهل الأرض كلّهم كفّار أعداء له ولأصحابه، والمشركون قد أخرجوهم من ديارهم ومساكنهم وشتّوهم في أطراف الأرض؛ فأخبرهم ربّهم - تبارك وتعالى - أنّه كتّب في الذّكر الأوّل أنّهم يرثون الأرض من الكفّار». اهـ. «شفاء العليل» للعلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ (ص 39).

أما السّنة: فمن ذلك ما رواه مسلم من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أنّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «كُتِبَ اللهُ مَقَادِيرُ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ».

ولما رواه الإمام أحمد في مسنده من حديث عبادة بن الوليد، عن عبادة بن الصّامت، قال: حَدَّثَنِي أَبِي - الوليد بن عبادة - قال: «دَخَلْتُ عَلَى عِبَادَةَ - وَهُوَ مَرِيضٌ أَتَخَايَلُ فِيهِ الْمَوْتَ - فَقُلْتُ: يَا أَبَتِ، أَوْصِنِي وَاجْتَهِدْ لِي فَقَالَ: أَجْلِسُونِي. فَلَمَّا أَجْلَسُوهُ قَالَ: يَا بُنَيَّ، إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ طَعَمَ الْإِيمَانِ، وَلَنْ تَبْلُغَ حَقَّ حَقِيقَةِ الْعِلْمِ بِاللّهِ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ؛ خَيْرُهُ وَشَرُّهُ».

قلت: يا أبتاه، وكيف لي أن أعلم خَيْرَ الْعَمَلِ وَشَرَّهُ؟

قال: تَعْلَمُ أَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَمَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، يَا بُنَيَّ، إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ - تَعَالَى - الْقَلَمَ، ثُمَّ قَالَ: اكْتُبْ. فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ». يَا بُنَيَّ، إِنْ مِتَّ وَلَسْتَ عَلَى ذَلِكَ دَخَلْتَ النَّارَ.

وعند الترمذي وغيره عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: «كُنْتُ خَلْفَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا، فَقَالَ لِي: «يَا غلام، إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللّهِ، وَاعْلَمْ

أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوا بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوا إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَإِنْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ؛ رُفِعَتْ الْأَقْلَامُ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ».

وفي البخاري وغيره، عن عمران بن حصين أَنَّهُ قَالَ: «دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَعَقَلْتُ نَاقَتِي بِالْبَابِ، فَأَتَاهُ نَاسٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ، فَقَالَ: «اقْبُلُوا الْبُشْرَى يَا بَنِي تَمِيمٍ». قَالُوا: قَدْ بَشَّرْنَا فَأَعْطَانَا؛ مَرَّتَيْنِ، ثُمَّ دَخَلَ عَلَيْهِ نَاسٌ مِنَ الْيَمَنِ، فَقَالَ: «اقْبُلُوا الْبُشْرَى - يَا أَهْلَ الْيَمَنِ - إِذْ لَمْ يَقْبَلْهَا بَنُو تَمِيمٍ». قَالُوا: قَدْ قَبِلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالُوا: جِئْنَا لِنَسْأَلَكَ عَنْ هَذَا الْأَمْرِ! قَالَ: «كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، وَكُتِبَ فِي الذِّكْرِ كُلِّ شَيْءٍ، وَخُلِقَ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ»، فَنَادَى مُنَادٍ: ذَهَبَتْ نَاقَتُكَ يَا بَنَ الْخُصَيْنِ! فَانْطَلَقْتُ، فَإِذَا هِيَ يَنْقَطِعُ دُونَهَا السَّرَابُ، فَوَاللَّهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ تَرَكْتُهَا».

وَأَمَّا الْإِجْمَاعُ، فَقَدْ قَالَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي «شِفَاءِ الْعَلِيلِ» (ص 89): «وَأَجْمَعَ الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ وَجَمِيعُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْحَدِيثِ: أَنَّ كُلَّ كَائِنٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَهُوَ مَكْتُوبٌ فِي أُمِّ الْكِتَابِ، وَقَدْ دَلَّ الْقُرْآنُ عَلَى أَنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - كَتَبَ فِي أُمِّ الْكِتَابِ مَا يَفْعَلُهُ وَمَا يَقُولُهُ؛ فَكُتِبَ فِي اللُّوحِ أَفْعَالُهُ وَكَلَامُهُ ف ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: 1] فِي اللُّوحِ الْمَحْفُوظِ قَبْلَ وُجُودِ أَبِي لَهَبٍ». اهـ.

وَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «شِفَاءِ الْعَلِيلِ» (ص 92): «فَالرَّبُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كَتَبَ مَا يَقُولُهُ وَمَا يَفْعَلُهُ وَمَا يَكُونُ بِقَوْلِهِ وَفِعْلِهِ، وَكُتِبَ مُقْتَضَى أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَثَارِهَا، كَمَا فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَمَّا قَضَى اللَّهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ غَضَبِي». اهـ.

«وهذا التقديرُ التَّابعُ لِعِلمه- سبحانه- يكون في مَوَاضِعَ جُملة وتفصيلاً. فقد كَتَبَ في اللُّوحِ المَحفوظ ما شاء، وإذا خَلَقَ جَسَدَ الجَنين قبل نَفخِ الرُّوح فيه بَعَثَ إِلَيْهِ مَلَكًا؛ فيؤمر بأربعِ كلماتٍ، فيقال له: اكْتُبْ رِزْقَهُ وأَجَلَهُ وَعَمَلَهُ وَشَقِيَّ أو سَعِيدٌ، ونحو ذلك.

فهذا التَّقدير قد كان يُنكره غُلاةُ القَدَرِيَّةِ قديمًا، ومُنكروه اليوم قليلٌ».

قوله رَحِمَهُ اللهُ: «وهذا التَّقديرُ التَّابعُ لِعِلمه- سبحانه- يكون في مواضع...»، إلخ.

بَيَّنَ شيخُ الإسلامِ رَحِمَهُ اللهُ في هذه الفقرة أَنَّ كِتَابَةَ اللهِ - سبحانه - تَابِعَةٌ لِعِلمه السَّابِقِ، وأن تلك الكتابة تكون في مواضع جُملة وتفصيلاً.

ثُمَّ أَوْضَحَ ذلك بقوله: «فقد كَتَبَ في اللُّوحِ المَحفوظ ما شاء، وإذا خَلَقَ جَسَدَ الجَنين قبل نَفخِ الرُّوح فيه بَعَثَ إِلَيْهِ مَلَكًا؛ فيؤمر بأربعِ كلماتٍ، فيقال له: اكْتُبْ رِزْقَهُ وأَجَلَهُ...»، إلخ

وقد قال العلامة ابنُ أبي العزِّ رَحِمَهُ اللهُ في «شرح الطَّحاوية» (ص 266- 267): «والَّذِي دَلَّتْ عَلَيْهِ السُّنَّةُ أَنَّ الأَقْلَامَ أَرْبَعَةٌ، وهذا التَّقْسِيمُ غَيْرُ التَّقْسِيمِ المُقَدَّمِ ذِكره:

القلم الأول: العامُّ الشامل لجميع المخلوقات، وهو الذي تَقَدَّمَ ذِكره مع اللوح.

القلم الثاني: حين خَلَقَ آدم، وهو قلمٌ عامٌّ أيضًا، لكن لبني آدم وَرَدَ في هذا آيات تدلُّ على أَنَّ الله قَدَّرَ أَعْمَالَ بني آدم وأَرْزَاقَهُم وَأَجَالَهُم وسَعَادَتَهُم عَقِيبَ

خَلَقَ أَيْهِم.

القلم الثالث: حين يُرسل الملك إلى الجنين في بطن أمه؛ فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد، كما ورد ذلك في الأحاديث الصحيحة.

القلم الرابع: الموضوع على العبد عند بلوغه الذي بأيدي الكرام الكاتبين الذين يكتبون ما يفعله بنو آدم، كما ورد ذلك في الكتاب والسنة.

فشيخ الإسلام رحمه الله فيما سبق أشار إلى أن التقدير التابع لعلمه يكون على أقسام جملة وتفصيلاً، ثم ذكر اثنين منها هما التقدير العام الشامل للأشياء في اللوح المحفوظ.

والثاني: التقدير المتعلق بالجنين وهو في بطن أمه، ثم أشار إلى بقية التقادير بقوله: «ونحو ذلك».

وقد ذكر ابن القيم في «شفاء العليل» (ص 31 - 49) أقسام التقدير الخمسة، وأوضحها بأدلتها، وأنا أذكرها هنا مختصرة:

التقدير الأول: تقدير المقادير قبل خلق السماوات والأرض، وهو التقدير العام الشامل لكل شيء في اللوح المحفوظ، وقد سبق ذكر بعض أدلته.

التقدير الثاني: تقدير الرب - تبارك وتعالى - شقاوة العباد وسعادتهم وأرزاقهم وآجالهم وأعمالهم قبل خلقهم، وهو تقدير ثان بعد التقدير الأول.

ثم قال رحمه الله مَدْلَلًا لهذا القسم: «عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - أنه قال: كُنَّا فِي جَنَازَةٍ فِي بَقِيعِ الْغَرْقَدِ، فَاتَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَعَدَ وَقَعَدْنَا حَوْلَهُ، وَمَعَهُ مِخْصَرَةٌ، فَكَسَّ فَجَعَلَ يَنْكُتُ

بِمِخْصَرْتِهِ، ثُمَّ قَالَ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ؛ مَا مِنْ نَفْسٍ مَنفُوسَةٍ إِلَّا وَقَدْ كَتَبَ اللَّهُ مَكَانَهَا مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَإِلَّا قَدْ كُتِبَتْ شَقِيَّةٌ أَوْ سَعِيدَةٌ». قَالَ: فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا نَمَكُثُ عَلَى كِتَابِنَا، وَنَدْعُ الْعَمَلَ؟ فَقَالَ: «مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَسَيَصِيرُ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ فَسَيَصِيرُ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَانْفَكَّى ۖ وَصَدَقَ بِالْحُسْنَى ۖ﴾ (٦) فَسَيَسِيرُهُ لِلْيُسْرَى (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩) فَسَيَسِيرُهُ لِلْعُسْرَى ﴿[الليل: 5-10]».

وفي لفظ: «اعْمَلُوا، فَكُلُّ مُيَسَّرٍ، وَأَمَّا أَهْلُ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُونَ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا أَهْلُ الشَّقَاوَةِ فَيُيَسَّرُونَ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ»، ثُمَّ قَرَأَ الْآيَةَ السَّابِقَةَ.

وعن عمران بن حصين قال: «قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَلِمَ أَهْلُ الْجَنَّةِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ؟ فَقَالَ: «نَعَمْ». قِيلَ: فَفِيمَ يَعْمَلُ الْعَامِلُونَ؟ قَالَ: «كُلُّ مُيَسَّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وفي بعض طرق البخاري: «كُلُّ يَعْمَلُ لِمَا خُلِقَ لَهُ»، أَوْ «لِمَا يُسَّرُ لَهُ».

ثم ذكر طائفةً مباركةً من الأدلة على هذا.

التقدير الثالث: الْمُتَعَلِّقُ بِالْجَنِينِ وَهُوَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ، وَهُوَ تَقْدِيرُ شَقَاوَتِهِ وَسَعَادَتِهِ وَرِزْقِهِ وَأَجَلِهِ وَعَمَلِهِ وَسَائِرِ مَا يَلْقَاهُ.

ثُمَّ ذَكَرَ لَهُ عِدَّةً أُدِلَّ مِنْهَا:

حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ

يكون في ذلك علقهً مثل ذلك، ثُمَّ يكون في ذلك مُضغَةً مثل ذلك، ثُمَّ يُرسل الله إليه المَلَك؛ فَيَنفخ فيه الرُّوح، وَيُؤمر بأربع كلمات؛ بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد، فوالذي لا إله غيره، إِنَّ أَحَدَكُم ليعمل بعمل أهل الجنة حتَّى ما يكون بينه وبينها إِلَّا ذراع فيسبق عليه الكتابُ فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإنَّ أَحَدَكُم ليعمل بعمل أهل النار حتَّى ما يكون بينه وبينها إِلَّا ذراع فيسبق عليه الكتابُ فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

التقدير الرابع:

قال ابن القيم: «التَّقدير الرَّابِع: ليلة القَدَر؛ قال الله تعالى: ﴿حَم ١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾﴾ [الدخان: 1-5].
وهذه هي ليلة القَدَر قطعاً؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدَرِ﴾ [القدر: 1].

ومن زعم أنَّها ليلة النصف من شعبان فقد غلط؛ قال سفيان، عن أبي نجيح، عن مجاهد: ليلة القدر: ليلة الحُكْم. وقال سفيان، عن محمد بن سوقة، عن سعيد بن جبيرة: يؤذن للحُجَّاج في ليلة القدر؛ فيكتبون بأسمائهم وأسماء آبائهم، فلا يُغادر منهم أحدٌ، ولا يُزاد فيهم، ولا يُنقص منهم.

وقال ابن علية: حدَّثنا ربيعة بن كلثوم قال: قال رجلٌ للحسن - وأنا أسمع -: أرأيتَ ليلةَ القدر في كلِّ رمضان هي؟ قال: نعم والله الذي لا إله إلا هو إنَّها لفي كلِّ رمضان، وإنها لليلةُ القَدَر؛ يُفرق فيها كلُّ أمرٍ حكيم، فيها يقضي الله كلَّ أجلٍ وعَمَلٍ ورزقٍ إلى مثلها.

وذكر يوسف بن مهران، عن ابن عباس قال: يُكتب من أمّ الكتاب في ليلة القدر ما يكون في السّنة من موت وحياة ورزق ومطر حتى الحُجّاج، يقال: يَحُجُّ فلانٌ، ويَحُجُّ فلانٌ.

وذكر عن سعيد بن جبير في هذه الآية: إنَّك لترى الرجلَ يمشي في الأسواق، وقد وَقَعَ اسمُه في الموتى، وقال مُقاتِلٌ: يُقدِّر الله في ليلة القدر أمر السّنة في بلاده وعباده إلى السّنة القابلة، وقال أبو عبد الرحمن السُّلَمِيُّ: يُقدِّر أمر السّنة كلها في ليلة القدر، وهذا هو الصّحيح: أنَّ القدر مصدر قَدَرَ الشَّيْءَ يَقْدِرُهُ قَدْرًا، فهي ليلة الحُكم والتقدير.

وقالت طائفة: ليلة القدر: ليلة الشّرف والعظمة، من قولهم: «لِفُلان قَدْرٌ في النَّاسِ»، فإذا أراد صاحبُ هذا القول أنَّ لها قَدْرًا أو شَرَفًا مع ما يكون من التقدير فقد أصاب، وإنَّ أراد أنَّ معنى القدر فيها هو الشّرف والخَطَرُ فقد غَلِطَ؛ لأنَّ الله أخبر - سبحانه - أنَّ فيها يُفَرَّقُ، أي: يُفَصِّلُ الله ويُبَيِّنُ كُلَّ أَمْرٍ حكيمٍ.

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ: «التقدير الخامس: اليومي، أي: التقدير اليومي؛ قال تعالى: ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: 29].

ذكر الحاكم في صحيحه من حديث أبي حمزة الثُمالي، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس أنَّ مِمَّا خَلَقَ اللهُ لَوْحًا محفوظًا من دُرَّةٍ بيضاء، دَفَّتَاهُ من ياقوتة حمراء، قَلَمُهُ نورٌ، وكتابه نور، يَنْظُرُ فيه كُلَّ يوم ثلاثمائة وستين نظرة أو مرَّة، ففي كُلِّ نظرة منها يَخْلُقُ وَيَرْزُقُ وَيُحْيِي وَيُمِيتُ وَيُعِزُّ وَيُذِلُّ وَيَفْعَلُ ما يشاء؛ فذلك قوله: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: 29] (1).

(1) لعلَّ هذا مِمَّا أَخَذَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ.

وقال مجاهدٌ والكلبيُّ وعُبَيْدُ بن عمير وأبو ميسرة وعطاء ومقاتل: من شأنه: أن يُحيي ويُميت، ويرزق ويَمْنَع، ويَنْصِر، ويُعْزُّ ويُدُلُّ، ويفك عانيًا، ويشفي مريضًا، ويجيب داعيًا، ويُعطي سائلًا، ويتوب على قوم، ويكشف كربًا، ويغفر ذنبًا، ويضع أقوامًا، ويرفع آخرين. دخل كلامُ بعضهم في بعض...».

إلى أن قال رَحِمَهُ اللهُ: «فهذا تقديرٌ يوميٌّ، والذي قبله تقديرٌ حَوْلِيٌّ، والذي قبله تقديرٌ عُمري عند تَعَلُّقِ النَّفْسِ به، والذي قبله كذلك عند أَوَّلِ تَخْلِيْقِهِ، وكونه مضغَّةً، والذي قبله تقديرٌ سَابِقٌ على وجوده، لكن بعد خلق السماوات والأرض، والذي قبله تقديرٌ سَابِقٌ على خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكل واحد من هذه التقادير كالتفصيل من التقدير السابق، وفي ذلك الدليل على عِلْمِ الرَّبِّ وقُدْرَتِهِ وحِكْمَتِهِ، وزيادة التعريف لملائكته وعباده المؤمنين بنفسه وأسمائه». اهـ.

وقولُ شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ فيما سَبَقَ: «فهذا التقديرُ قد كان يُنكره غُلاةُ القدرية قديمًا، ومنكروه اليوم قليلٌ».

يعني بذلك رَحِمَهُ اللهُ: العِلْمَ والكِتَابَةَ، فقد كان غُلاةُ القَدَرِية يُنكرونه ويقولون: إِنَّ الأَمْرَ أَنْفٌ؛ أي: أَنَّ اللهَ لَا يَعْلَمُ أفعالَ العبادِ إِلَّا بعد وجودها، ويدُلُّ لذلك ما رواه الإمام مسلم في صحيحه قال: حَدَّثَنَا عبيد الله بن معاذ العنبري، حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا كهْمَسٌ، عن ابن بريدة، عن يحيى بن يعمر قال: كان أول من قال بالقَدَرِ بالبَصرة مَعْبُدُ الجُهنِّي. فانطلقتُ أنا وحميد بن عبد الرحمن الحِميري حَاجِئِينَ أو مُعْتَمِرِينَ فقلنا: لو لَقِينَا أَحَدًا من أصحاب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فسألناه عَمَّا يقول هؤلاء في القَدَرِ. فَوُفِّقَ لنا عبدُ الله بن عمر بن الخطاب داخلًا المسجد، فاكتنفته أنا وصاحبي. أَحَدُنَا عن يمينه والآخر عن شماله. فظننتُ أَنَّ

صاحبي سَيَكِلُ الكلامَ إِلَيَّ. فقلت: يا أبا عبد الرحمن! إِنَّهُ قد ظَهَرَ قَبْلَنَا نَاسٌ يقرأون القرآنَ وَيَتَقَفَّرُونَ العِلْمَ - وَذَكَرَ مِنْ شَأْنِهِمْ - وَأَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَن لا قَدَرَ. وَأَنَّ الأَمْرَ أُتْف. قال: فإذا لقيتَ أولئك فأخبرهم أَني بريءٌ منهم، وأنهم بُرَاءٌ مِنِّي، والذي يَحْلِفُ به عبدُ الله بن عمر! لو أَنَّ لأَحَدِهِمْ مثلَ أُحُدٍ ذهبًا فَأَنْفَقَهُ، ما قَبِلَ اللهُ مِنْهُ حتَّى يُؤْمِنَ بالقَدَر. ثم ساق حديثَ عمر في قصة جبريل، وسؤاله عن الإيمان والإسلام والإحسان.

قال الإمام التَّوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي شرحه لمسلم (1/ 130): «قوله: «يزعمون أن لا قَدَرَ، وَأَنَّ الأَمْرَ أُتْف: هو بضم الهمزة والنون، أي: مُسْتَأْنَفٌ لم يَسْبِقْ به قَدَرٌ ولا عِلْمٌ من الله تعالى، إنما يَعْلَمُهُ بعد وقوعه، كما قدمنا حكايته عن مذهبهم الباطل، وهذا القولُ قولُ غُلاتِهِمْ، وليس قول جميع القدرية، وكَذِبَ قائله وضَلَّ وافترى؛ عافانا الله وسائر المسلمين». اهـ.

وقال رَحِمَهُ اللهُ (1/ 128 - 129): «واعلم أَنَّ مَذْهَبَ أَهْلِ الحَقِّ إثباتُ القَدَر، ومعناه: أَنَّ الله - تبارك وتعالى - قَدَّرَ الأشياءَ في القَدَم، وَعَلِمَ - سبحانه - أَنَّها ستقع في أوقاتٍ معلومة عنده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وعلى صفاتٍ مخصوصة؛ فهي تقع على حسب ما قَدَّرَها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأنكرت القدرية هذا، وزعمت أَنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لم يُقَدِّرْها، ولم يتقدم علمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بها، وَأَنَّها مُسْتَأْنَفَةُ العِلْم، أي: إِنَّمَا يَعْلَمُهَا - سبحانه - بعد وقوعِها، وكذبوا على الله سبحانه وتعالى وجَلَّ عن أقوالهم الباطلة علوًّا كبيرًا.

وسُمِّيت هذه الفرقة قدرية؛ لِإنكارهم القدر؛ قال أصحابُ المَقالات من المُتَكَلِّمين: وقد انقرضت القدريةُ القائلون بهذا القول الشنيع الباطل، ولم يَبْقَ أَحَدٌ من أَهْلِ القِبلة عليه، وصارت القدريةُ في الأزمان المتأخرة تعتقد إثبات

القَدَر، لكن يقولون: الخير من الله، والشرُّ من غيره». اهـ.



«وَأَمَّا الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ فِيهِ مَشِيئَتُهُ النَّاظِدَةُ وَقَدَرَتُهُ الشَّامِلَةُ، وَهُوَ الْإِيمَانُ بِأَنَّ مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ».

قول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَأَمَّا الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ...»، إلخ.
فهذه الدَّرَجَةُ تَضَمَّنَتْ مَرَّتَيْنِ مِنْ مَرَاتِبِ الْقَدَرِ، وَهُمَا:

1- المَشِيئَةُ.

2- الْخَلْقُ.

أَمَّا الْمَشِيئَةُ، فَقَدْ قَالَ الْعَلَامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «شَفَاءِ الْعَلِيلِ» (ص 93):
«الْمَرْتَبَةُ الثَّلَاثَةُ مِنْ مَرَاتِبِ الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ، وَهِيَ مَرْتَبَةُ الْمَشِيئَةِ:

وهذه المَرْتَبَةُ قَدْ دَلَّ عَلَيْهَا إِجْمَاعُ الرُّسُلِ مِنْ أَوَّلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ، وَجَمِيعُ الْكُتُبِ الْمُنْزَلَةِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَالْفِطْرَةُ الَّتِي فَطَرَ اللَّهُ عَلَيْهَا خَلْقَهُ، وَأَدْلَةُ الْعُقُولِ وَالْبَيَانَ، وَلَيْسَ فِي الْوُجُودِ مُوجِبٌ وَمُقْتَضٍ إِلَّا مَشِيئَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ؛ فَمَا شَاءَ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، هَذَا عَمُومُ التَّوْحِيدِ الَّذِي لَا يَقُومُ إِلَّا بِهِ.

وَالْمُسْلِمُونَ مِنْ أَوَّلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ مُجْمَعُونَ عَلَى أَنَّهُ مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ.

وَخَالَفَهُمْ فِي ذَلِكَ مَنْ لَيْسَ مِنْهُمْ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ، وَإِنْ كَانَ مِنْهُمْ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ؛ فَجَوَّزُوا أَنْ يَكُونَ فِي الْوُجُودِ مَا لَا يَشَاءُ اللَّهُ، وَأَنْ يَشَاءَ مَا لَا يَكُونُ.

وَخَالَفَ الرُّسُلَ كُلَّهُمْ وَاتَّبَاعَهُمْ مَنْ نَفَى مَشِيئَةَ اللَّهِ بِالْكُلِّيَّةِ، وَلَمْ يُثَبِّتْ لَهُ - سُبْحَانَهُ - مَشِيئَةً وَاخْتِيَارًا أَوْجَدَ بِهَا الْخَلْقَ، كَمَا يَقُولُهُ طَوَائِفُ مِنْ أَعْدَاءِ الرُّسُلِ مِنَ الْفَلَاسِفَةِ وَاتَّبَاعِهِمْ.

والقرآن والسنة مملوءان بتكذيب الطائفتين؛ فقلوه تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: 253]، وقلوه تعالى: ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [آل عمران: 40]، وقلوه: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْقَرُونَ﴾ [الأنعام: 112]..

ثم ذكر رَحِمَهُ اللَّهُ آياتٍ كثيرةً في هذا، ثُمَّ قال: «وهذه الآيات ونحوها تتضمن الردَّ على طائفتي الضلال نفاة المشيئة بالكلية، ونفاة مشيئة أفعال العباد وحركاتهم وهداهم وضلالهم، وهو - سبحانه - تارة يُخبر أن كل ما في الكون بمشيئته، وتارة أن ما لم يشأ لم يكن، وتارة أنه لو شاء لكان خلاف الواقع، وأنه لو شاء لكان خلاف القدر الذي قدره وكتبه، وأنه لو شاء ما عصى، وأنه لو شاء لجمع خلقه على الهدى وجعلهم أمة واحدة؛ فتضمن ذلك أن الواقع بمشيئته، وأن ما لم يقع فهو لعدم مشيئته، وهذا حقيقة الربوبية، وهو معنى كونه رب العالمين، وكونه القيوم القائم بتدبير عباده؛ فلا خلق، ولا رزق، ولا عطاء، ولا منع، ولا سعادة، ولا شقاوة إلا بعد إذنه، وكل ذلك بمشيئته وتكوينه إذ لا مالك غيره، ولا مُدَبِّر سواه...».

إلى أن قال: «وتقدّم في حديث حذيفة بن أسيد في «صحيح مسلم» في شأن الجنين: «فَيَقْضِي رَبُّكَ مَا يَشَاءُ، وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ».

وفي «صحيح البخاري» من حديث أبي موسى، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَشْفَعُوا تُؤْجَرُوا، وَيَقْضِي اللَّهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ مَا يَشَاءُ».

وفي «صحيح البخاري» من حديث علي بن أبي طالب حين طَرَقَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفاطمة ليلاً، فقال: «أَلَا تُصَلِّيَانِ؟». فقال عليٌّ: إِنَّمَا أَنْفُسَنَا بِيَدِ اللَّهِ؛ فَإِذَا شَاءَ أَنْ يَبْعَثَنَا بَعَثَنَا.

وفي صحيحه - أيضاً - في قصة نَوْمِهِمْ فِي الْوَادِي، عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ قَبَضَ أَرْوَاحَهُمْ حِينَ شَاءَ، وَرَدَّهَا حِينَ شَاءَ».

ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ (ص 105-106): «وَهَاهُنَا أَمْرٌ يَجِبُ التَّنَبُّهُ عَلَيْهِ، وَبِمَعْرِفَتِهِ تَزُولُ إِشْكَالَاتٌ كَثِيرَةٌ تَعْرِضُ لِمَنْ لَمْ يُحِطْ بِهِ عِلْمًا، وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ - سُبْحَانَهُ - لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ، وَأَمْرُهُ - سُبْحَانَهُ - نَوْعَانِ: أَمْرٌ كَوْنِي قَدَرِي، وَأَمْرٌ دِينِي شَرْعِي.

فمشيئته - سُبْحَانَهُ - مُتَعَلِّقَةٌ بِخَلْقِهِ وَأَمْرِهِ الْكَوْنِي، وَكَذَلِكَ تَتَعَلَّقُ بِمَا يَحِبُّ وَبِمَا يَكْرَهُ، كُلُّهُ دَاخِلٌ تَحْتَ مَشِئَتِهِ، كَمَا خَلَقَ إِبْلِيسَ وَهُوَ يُبْغِضُهُ، وَخَلَقَ الشَّيَاطِينَ وَالْكَفَّارَ وَالْأَعْيَانَ وَالْأَفْعَالَ الْمَسْخُوطَةَ لَهُ وَهُوَ يُبْغِضُهَا، فَمَشِئَتُهُ - سُبْحَانَهُ - شَامِلَةٌ لَذَلِكَ كُلِّهِ.

وَأَمَّا مَحَبَّتُهُ وَرِضَاهُ فَمُتَعَلِّقَةٌ بِأَمْرِهِ الدِّينِيِّ وَشَرْعِهِ الَّذِي شَرَعَهُ عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ، فَمَا وَجَدَ مِنْهُ تَعَلَّقَتْ بِهِ الْمَحَبَّةُ وَالْمَشِئَةُ جَمِيعًا فَهُوَ مَحْبُوبٌ لِلرَّبِّ، وَاقِعٌ بِمَشِئَتِهِ؛ كَطَاعَاتِ الْمَلَائِكَةِ وَالْأَنْبِيَاءِ وَالْمُؤْمِنِينَ، وَمَا لَمْ يَوْجَدْ مِنْهُ تَعَلَّقَتْ بِهِ مَحَبَّتُهُ وَأَمْرُهُ الدِّينِيِّ، وَلَمْ تَتَعَلَّقْ بِهِ مَشِئَتُهُ، وَمَا وَجَدَ مِنَ الْكُفْرِ وَالْفُسُوقِ وَالْمَعَاصِي تَعَلَّقَتْ بِهِ مَشِئَتُهُ، وَلَمْ تَتَعَلَّقْ بِهِ مَحَبَّتُهُ، وَلَا رِضَاهُ وَلَا أَمْرُهُ الدِّينِيِّ، وَمَا لَمْ يَوْجَدْ مِنْهَا لَمْ تَتَعَلَّقْ بِهِ مَشِئَتُهُ وَلَا مَحَبَّتُهُ، فَلَفْظُ الْمَشِئَةِ كَوْنِيٌّ، وَلَفْظُ الْمَحَبَّةِ دِينِيٌّ شَرْعِيٌّ، وَلَفْظُ الْإِرَادَةِ يَنْقَسِمُ إِلَى إِرَادَةٍ كَوْنِيَّةٍ؛ فَتَكُونُ هِيَ الْمَشِئَةُ، وَإِرَادَةٍ دِينِيَّةٍ؛ فَتَكُونُ هِيَ الْمَحَبَّةُ.

وإذا عرفت هذا فقوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر:7]، وقوله: ﴿لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [البقرة:205]، وقوله: ﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ [البقرة:185] لا يناقض نصوص القدر والمشية العامة الدالة على وقوع ذلك بمشيئته وقضائه وقدره؛ فَإِنَّ الْمَحَبَّةَ غَيْرُ الْمَشِيَّةِ، والأمر غيرُ الخلق، ونظير هذا: الأمر؛ فإنه نوعان: أمر تكوين، وأمر تشريع، والثاني قد يُعصى ويُخالف بخلاف الأول.

فقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ [الإسراء:16] لا يناقض قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ [الأعراف:28]، ولا حاجة إلى تكلف تقدير: أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا بالطاعة فَعَصَوْنا وَفَسَقُوا فيها، بل الأمر هاهنا أمر تكوين وتقدير، لا أمر تشريع لوجوه:

أحدها: أَنَّ الْمُسْتَعْمَلَ فِي مِثْلِ هَذَا التَّرْكِيبِ أَنْ يَكُونَ مَا بَعْدَ الْفَاءِ هُوَ الْمَأْمُورُ بِهِ، كما تقول: أمرته فقام، وأمرته فأكل، كما لو صرَّح بلفظة: افعل؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا﴾ [الإسراء:61]، وهذا كما تقول: دَعَوْتُهُ فَأَقْبَلَ، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء:52].

الثاني: أَنَّ الْأَمْرَ بِالطَّاعَةِ لَا يَخْصُ الْمُتْرَفِينَ، فَلَا يَصِحُّ حَمْلُ الْآيَةِ عَلَيْهِ، بل تسقط فائدة ذكر المترفين، فَإِنَّ جَمِيعَ الْمَبْعُوثِ إِلَيْهِمْ مَأْمُورُونَ بِالطَّاعَةِ، فَلَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ أَمْرُ الْمُتْرَفِينَ عِلَّةً لِإِهْلَاكِ جَمِيعِهِمْ.

الثالث: أَنَّ هَذَا النَّسَقَ الْعَجِيبَ وَالتَّرْكِيبَ الْبَدِيعَ مُقْتَضٍ تَرْتُّبٍ مَا بَعْدَ الْفَاءِ عَلَى مَا قَبْلُهَا تَرْتُّبِ الْمُسَبَّبِ عَلَى سَبَبِهِ، وَالْمَعْلُولِ عَلَى عِلَّتِهِ؛ أَلَا تَرَى أَنَّ الْفُسْقَ عِلَّةٌ حَقُّ الْقَوْلِ عَلَيْهِمْ، وَحَقُّ الْقَوْلِ عَلَيْهِمْ عِلَّةٌ لِتَدْمِيرِهِمْ، فَهَكَذَا الْأَمْرُ سَبَبٌ

لفسقهم ومقتضى له، وذلك هو أمر التكوين لا الشريع.

الرابع: أن إرادته - سبحانه - لإهلاكهم إنما كانت بعد معصيتهم ومخالفتهم لرسله، فمعصيتهم ومخالفتهم قد تقدمت فأراد الله إهلاكهم فعاقبهم بأن قدر عليهم الأعمال التي يتحتم معها هلاكهم، فإن قيل: فمعصيتهم السابقة سبب لهلاكهم، فما الفائدة في قوله: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ [الإسراء: 16] وقد تقدم الفسق منهم قبل المعصية السابقة، وإن كانت سبباً للهلاك، لكن يجوز تخلف الهلاك عنها ولا يتحتم، كما هو عادة الرب - تعالى - المعلومه في خلقه أنه لا يتحتم هلاكهم بمعاصيهم، فإذا أراد إهلاكهم ولا بد أحدث سبباً آخر يتحتم معه الهلاك، ألا ترى أن ثمود لم يهلكهم بكفرهم السابق حتى أخرج لهم الناقة فعقروها فأهلكوا حينئذ، وقوم فرعون لم يهلكهم بكفرهم السابق بموسى حتى أراهم الآيات المتتابعات، واستحكم بغيهم وعنادهم، فحينئذ أهلكوا، وكذلك قوم لوط لما أراد إهلاكهم أرسل الملائكة إلى لوط في صورة الأضياف فقصدوهم بالفاحشة، ونالوا من لوط وتواعدوه، وكذلك سائر الأمم إذا أراد الله إهلاكهم أحدث لها بغياً وعدواناً يأخذها على أثره.

وهذه عادته مع عباده عموماً وخصوصاً؛ فيعصيه العبد وهو يحلم عنه، ولا يعاجله حتى إذا أراد أخذه فيض له عملاً يأخذه به مضافاً إلى أعماله الأولى، فيظن الظان أنه أخذه بذلك العمل وحده، وليس كذلك، بل حق عليه القول بذلك، وكان قبل ذلك لم يحق عليه القول بأعماله الأولى حيث عمل ما يقتضي ثبوت الحق عليه، ولكن لم يحكم به أحكم الحاكمين، ولم يمض الحكم، فإذا عمل بعد ذلك ما يقرر غضب الرب عليه أمضى حكمه عليه وأنفذه؛ قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا اُنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: 55]، وقد كانوا قبل ذلك أغضبوه

بمعصية رسوله، ولكن لم يكن غضبه - سبحانه - قد استقر واستحكم عليهم إذ كان بصدد أن يزول بإيمانهم، فلما أيس من إيمانهم تقرر الغضب واستحكم - فحلَّت العقوبة، فهذا الموضع من أسرار القرآن وأسرار التقدير الإلهي، وفكرُ العبد فيه من أنفع الأمور له؛ فإنه لا يدري أي المعاصي هي الموجهة التي يتحتم عندها عقوبته، فلا يُقال بعدها، والله المستعان.

وسنعد لهذا الفصل باباً في الفرق بين القضاء الكوني والدني نُسبع الكلام فيه - إن شاء الله - لِشِدَّة الحاجة إليه، إذ المقصود في هذا الباب مشيئة الرَّبِّ، وأنها الموجهة لكل موجود، كما أنَّ عدم مشيئته موجب لعدم وجود الشيء، فهما الموجبتان؛ ما شاء الله وَجَبَ وجوده، وما لم يشأ وَجَبَ عدمه وامتناعه، وهذا أمرٌ يَعُمُّ كُلَّ مقدور من الأعيان والأفعال والحركات والسكنات.

فسبحانه أن يكون في مملكته ما لا يشاء أو أن يشاء شيئاً فلا يكون، وإن كان فيها ما لا يُحبُّه ولا يرضاه، وإن كان يحبُّ الشيء فلا يكون لعدم مشيئته له، ولو شاءه لَوُجِدَ». اهـ.



«وأنه ما في السموات وما في الأرض من حركة ولا سُكون إلا بمشيئة الله سبحانه، لا يكون في ملكه إلا ما يُريد، وأنه- سبحانه- على كل شيء قدير من الموجودات والمعدومات؛ فما من مخلوق في الأرض ولا في السماء إلا الله خالقه سبحانه، لا خالق غيره، ولا رب سواه».

في هذا الفقرة زيادة تأكيد في الردّ على القدرية النفاة، فإنه- سبحانه- لا يكون في ملكه إلا ما يريد، وما لا يريدُه لا يكون، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: 29]، وقال تعالى: ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ [سبا: 22]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكَكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس: 3]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: 31]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانِ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: 44].

وقوله: «ولا يكون في ملكه ما لا يُريد».

قال العلامة ابن عثيمين رحمه الله في «شرح الواسطية» (ص 554): «هذه العبارة تحتاج إلى تفصيل: «لا يكون في ملكه ما لا يُريد» بالإرادة الكونية، أما بالإرادة الشرعية فيكون في ملكه ما لا يُريده.

وحيثُ نحتاجُ إلى أن نُقسِّم الإرادة إلى قسمين:
إرادة كونية، وإرادة شرعية.

فالإرادة الكونية بمعنى المشيئة، ومثالها قولُ نوحَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه: ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: 34].
والإرادة الشرعية بمعنى المحبة، ومثالها قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: 27].

وتختلف الإرادتان في مُوجبهما، وفي مُتعلقهما:

ففي المُتعلق: الإرادة الكونية تتعلق فيما وَقَعَ سواء أَحَبَّهُ أم كَرِهَهُ.
والإرادة الشرعية تتعلق فيما أَحَبَّهُ سواء وَقَعَ أم لم يقع.

وفي مُوجبهما: الإرادة الكونية يتعين فيها وقوع المُراد، والإرادة الشرعية لا يتعين فيها وقوع المُراد، وعلى هذا يكون قول المؤلف: «ولا يكون في مُلكه ما لا يُريد»: يعني به الإرادة الكونية.

فإن قال قائل: هل المعاصي مُرادٌ لله؟

فالجواب: أمّا بالإرادة الشرعية فليست مرادةً له؛ لأنّه لا يُحبّها، أمّا بالإرادة الكونية فهي مُرادٌ له سبحانه؛ لأنّها واقعةٌ بمشيئته». اهـ.
قوله: «ولا رَبَّ سِوَاهُ».

قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: 2]، وكلُّ ما سِوَى اللَّهِ عالمٌ، والله ربُّه.

والرَّبُّ: هو السَّيِّدُ المالكُ المُتصرف.

وربوبيته عامّةٌ وخاصّةٌ، كما في قوله تعالى: ﴿إِئْمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٤٧) رَبِّ

مُوسَى وَهَارُونَ ﴿الشعراء: 47-48﴾.

قوله: «وأنه - سبحانه - على كل شيء قديرٌ من الموجودات والمعدومات». أي: أنه ما من شيء موجود أو معدوم إلا والله قادرٌ عليه، فالموجودات الله قادرٌ على إعدامها أو تغييرها، والمعدومات الله قادرٌ على إيجادها، فالله قادرٌ أن يُعزِّزَ الدَّليلَ، ويُدِلَّ العَزِيزَ، ويُعافي السَّقِيمَ، ويُسقمَ الصَّحِيحَ، ويُغنيَ الفقيرَ، ويَمْنَعِ الغنيَ، ويرفعَ الوضيعَ، ويضعَ الرِّفيعَ؛ قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُوتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ ۗ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: 26]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانُ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۗ﴾ [فاطر: 44].

وفي الفقرة السابقة ردُّ على القدرية الذين قالوا: إنَّ العبدَ مُستقلٌّ بعمله، وأنَّ الله ليس بقادرٍ على فعله.

وقوله رَحْمَةُ اللَّهِ: «فما من مخلوق في الأرض ولا في السماء إلا الله خالقه سبحانه».

كلمة «مخلوق» نكرةٌ في سياق النفي تُفيد العموم؛ فما من شيء صغير أو كبير، جليل أو حقير من الذوات أو الصفات إلا والله - سبحانه - المُنفردُ بخلقه دون ما سواه؛ قال تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾ [فاطر: 3]، وقال: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: 62]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ ١٩ وَمَا أَمَرْنَا إِلَّا وَاحِدَةً كَلِمَةً بِالْبَصَرِ ﴿[القمر: 49-50]، وقال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ ٣٥ أَمْ خُلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ ۚ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴿[الطور: 35-36]، وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبَ مَثَلٍ ۖ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّكَ الْذِي تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۚ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ۚ

وإن يسألهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴿[الحج: 73-74]﴾.

فهو - سبحانه - وحده المُنْفَرِد بالخلق، ومِن ذلك أَنَّهُ خَلَقَ الْعِبَادَ وصفاتهم وأعمالهم؛ قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصفات: 96].

وقد قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «شفاء العليل» (ص 115-117): «قوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: 62] هذا عَامٌّ مَحْفُوظٌ لَا يَخْرُجُ عَنْهُ شَيْءٌ مِنَ الْعَالَمِ؛ أَعْيَانُهُ، وَأَفْعَالُهُ، وَحَرَكَاتُهُ وَسَكَنَاتُهُ، وَلَيْسَ مَخْصُوصًا بِذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ، فَإِنَّهُ الْخَالِقُ بِذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ، وَمَا سِوَاهُ مَخْلُوقٌ لَهُ.

واللفظ قد فَرَّقَ بَيْنَ الْخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ، وَصِفَاتِهِ - سبحانه - دَاخِلَةٌ فِي مُسَمَّيْ اسْمِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ - سبحانه - اسْمٌ لِلْإِلَهِ الْمَوْصُوفِ بِكُلِّ صِفَةٍ كَمَالٍ، الْمُتَنَزَّهِ عَنْ كُلِّ صِفَةٍ نَقْصٍ وَمِثَالٍ.

وَالْعَالَمُ قِسْمَانِ: أَعْيَانٌ، وَأَفْعَالٌ، وَهُوَ الْخَالِقُ لِأَعْيَانِهِ، وَمَا يَصْدُرُ عَنْهَا مِنَ الْأَفْعَالِ، كَمَا أَنَّ الْعَالَمَ بِتَفَاصِيلِ ذَلِكَ، فَلَا يَخْرُجُ شَيْءٌ مِنْهُ عَنْ عِلْمِهِ، وَلَا عَنْ قُدْرَتِهِ، وَلَا عَنْ خَلْقِهِ وَمَشِيئَتِهِ.

قَالَتِ الْقَدِيرَةُ: نَحْنُ نَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ خَالِقُ أَفْعَالِ الْعِبَادِ لَا عَلَى أَنَّهُ مُحَدِّثُهَا وَمُخْتَرِعُهَا، لَكِنْ عَلَى مَعْنَى أَنَّهُ مُقَدِّرُهَا، فَإِنَّ الْخَلْقَ التَّقْدِيرُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: 14].

قال الشاعر:

وَلَأَنْتَ تَفْرِي مَا خَلَقْتَ وَبَعْضُ الْقَوْمِ يَخْلُقُ ثُمَّ لَا يَفْرِي

أي: لأنك تُمِضِي مَا قَدَّرْتَهُ وَتُنْفِذُهُ بِعِزِّكَ وَقُدْرَتِكَ، وَبَعْضُ الْقَوْمِ يُقَدِّرُ ثُمَّ

لا قوة له ولا عزيمة على إنفاذ ما قَدَّرَه وأمضاه، فالله - تعالى - مُقَدِّر أفعال العباد، وهم الذين أوجدوها وأحدثوها.

قال أهل السُّنَّة: قدماؤكم يُنكرون تقدير الله - سبحانه - لأعمال العباد ألبتة، فلا يُمكنهم أن يُجيبوا بذلك، ومَن اعترف منكم بالتقدير فهو تقدير لا يرجع إلى تأثير، وإنما هو مجرد العلم بها والخبر عنها، وليس التقدير عندكم جعلها على قَدَر كذا وكذا، فإنَّ هذا عندكم غيرُ مَقْدُور للرَّبِّ، ولا مَصْنُوع له، إنّما هو صنعُ العبد وإحداثه، فرجع التقدير إلى مُجَرَّد العلم والخبر، وهذا لا يُسمَّى خلقاً في لغة أُمَّة من الأمم، ولو كان هذا خلقاً لكان مَن عَلِم شيئاً وَعَلِمَ أَسْمَاءَهُ وصفاته وأخبر عنه بذلك خالقاً له، فالتقدير الذي أثبتُّموه إن كان متضمناً للتأثير في إيجاد الفعل فهو خلافُ مذهبكم، وإن لم يتضمن تأثيراً في إيجادهِ فهو راجعٌ إلى مَحْضِ الفعل والخبر.

قالت القدرية: قوله: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: 62] مِنَ الْعَامِّ الْمُرَادِ به الخاص، ولا سِيَّما فَإِنَّكُمْ قُلْتُمْ: إِنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يَدْخُلْ فِي هَذَا الْعُمُومِ، وَهُوَ مِنْ أَعْظَمِ الْأَشْيَاءِ وَأَجَلِّهَا؛ فَخَصَّصْنَا مِنْهُ أَعْمَالَ الْعِبَادِ بِالْأَدَلَةِ الدَّالَّةِ عَلَى كَوْنِهَا فِعْلُهُمْ وَمَنْعُهُمْ.

قال أهل السُّنَّة: الْقُرْآنُ كَلَامُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَكَلَامُهُ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِهِ، وَالْخَالِقُ وَذَاتُهُ لَمْ تَدْخُلْ فِي الْمَخْلُوقِ، فَإِنَّ الْخَالِقَ غَيْرُ الْمَخْلُوقِ، فَلَيْسَ هَا هُنَا تَخْصِيصٌ أَلْبَتَةَ، بَلِ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ - بِذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ الْخَالِقُ، وَكُلُّ مَا عَدَاهُ مَخْلُوقٌ، وَذَلِكَ عُمُومٌ لَا تَخْصِيصَ فِيهِ بَوَاحٍ، إِذْ لَيْسَ إِلَّا الْخَالِقُ وَالْمَخْلُوقُ، وَاللَّهُ وَحْدَهُ الْخَالِقُ، وَمَا سِوَاهُ كُلَّهُ مَخْلُوقٌ.

وَأَمَّا الْأَدَلَةُ الدَّالَّةُ عَلَى أَنَّ أَعْمَالَ الْعِبَادِ صَنَعُ لَهُمْ، وَإِنَّمَا أَعْمَالُهُمُ الْقَائِمَةُ بِهِمْ،

وأنهم هم الذين فعلوها، فكلها حقٌ نقول بموجبها، ولكن لا ينبغي أن تكون أفعالاً لهم، ومخلوقة مفعولة لله، فإنَّ الفعل غير المفعول، ولا نقول: إنَّها فعلُ الله، والعبد مضطرٌّ مجبور عليها، ولا نقول: إنَّها فعلٌ للعبد، والله غير قادر عليها، ولا جاعل العبد فاعلاً لها، ولا نقول: إنها مخلوقة بين مخلوقين مُستقلين بالإيجاد والتأثير. وهذه الأقوال كلها باطلة.

قالت القدريّة: قوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: 62]، يعني: ممّا لا يقدر عليه غيره، وأمّا أفعال العباد التي يقدر عليها العبادُ فإضافتها إليهم ينفي إضافتها إليه، وإلا لزم وقوع فعل بين فاعلين، وهو محال.

قال أهل السُنّة: إضافتها إليهم فعلاً وكسباً لا ينفي إضافتها إليه - سبحانه - خلقاً ومشيّئة، فهو - سبحانه - الذي شاءها وخلقها، وهم الذين فعلوها وكسبوها حقيقة، فلو لم تكن مُضافة إلى مشيئته وقدرته وخلقها لاستحال وقوعها منهم، إذ العباد أعجزُ وأضعفُ من أن يفعلوا ما لم يشأه الله ولم يقدر عليه ولا خلقه». اهـ.



«ومع ذلك فقد أَمَرَ العباد بطاعته وطاعة رسوله، ونَهَاهم عن مَعْصيته، وهو- سبحانه- يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ وَالْمُحْسِنِينَ وَالْمُقْسِطِينَ، وَيَرْضَى عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، وَلَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ، وَلَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ، وَلَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ، وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ، وَلَا يَحِبُّ الْفُسَادَ».

بعد أن بَيَّنَّ شيخُ الإسلام مراتبَ القدر الأربع، وأنَّ كلَّ شيءٍ بقدر، وأنَّ الله هو المنفرد بالخلق لكلِّ الأعيان والأوصاف- بَيَّنَّ هنا أنه لا تعارض بين ما سبق وبين كونه- سبحانه- أَمَرَ عِبَادَهُ بطاعته، ونَهَاهم عن مَعْصيته، كما أنه لا تعارض بين تقديره للمعاصي وبُغْضِهِ لها.

فليس لأحدٍ أن يَحْتَجَّ بالقدر على تركِ المأمور وفِعْلِ المَحْظُور.

وقد قال رَحِمَهُ اللهُ كما في «مجموع الفتاوى» (8 / 179): «وليس لأحدٍ أن يَحْتَجَّ بِالْقَدَرِ عَلَى الذَّنْبِ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ وَسَائِرِ أَهْلِ الْمِلَلِ وَسَائِرِ الْعُقَلَاءِ، فَإِنَّ هَذَا لَوْ كَانَ مَقْبُولًا لَأَمْكَنَ كُلُّ أَحَدٍ أَنْ يَفْعَلَ مَا يَخْطُرُ لَهُ مِنْ قَتْلِ النَّفْسِ، وَأَخْذِ الْأَمْوَالِ، وَسَائِرِ أَنْوَاعِ الْفُسَادِ فِي الْأَرْضِ، وَيَحْتَجَّ بِالْقَدَرِ، وَنَفْسِ الْمُحْتَجِّ بِالْقَدَرِ إِذَا اعْتَدَى عَلَيْهِ، وَاحْتَجَّ بِالْقَدَرِ الْمُعْتَدِي لَمْ يَقْبَلْ مِنْهُ، بَلْ يَتَنَاقَضُ، وَتَنَاقَضَ الْقَوْلُ يَدُلُّ عَلَى فُسَادِهِ، فَلَا حَتَّاجُ بِالْقَدَرِ مَعْلُومُ الْفُسَادِ فِي بَدَاءَةِ الْعُقُولِ». اهـ.

وقال رَحِمَهُ اللهُ كما في «مجموع الفتاوى» (2 / 294): «إِنَّ هَذَا مُخَالَفٌ لِدِينِ الْمُسْلِمِينَ وَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى مَعَ مُخَالَفَتِهِ لِلْمَنْقُولِ وَالْمَعْقُولِ». اهـ.

وقال (ص 301): «وَلَا يُوجَدُ أَحَدٌ يَحْتَجُّ بِالْقَدَرِ فِي تَرْكِ الْوَاجِبِ وَفِعْلِ الْمُحْرَمِ إِلَّا وَهُوَ مُتَنَاقِضٌ لَا يَجْعَلُهُ حُجَّةً فِي مُخَالَفَةِ هَوَاهُ، بَلْ يُعَادِي مَنْ آذَاهُ وَإِنْ

كان محققاً، ويُحب مَنْ وافقه على غرضه وإن كان عدواً لله، فيكون حبه وبُغضه وموالاته ومعاداته بحسب هواه وغرضه وذوق نفسه ووَجده، لا بحسب أمر الله ونهيه ومَحَبَّته وبُغضه وولايته وعداوته.

إذ لا يُمكنه أن يجعل القَدَر حُجَّةً لكل أحدٍ فإنَّ هذا مُستلزم للفساد الذي لا صلاح معه، والشر الذي لا خير فيه، إذ لو جاز أن يحتج كلُّ أحدٍ بالقدر لما عُوقب مُعتدٍ، ولا اقتُصَّ من ظالمٍ باغٍ، ولا أخذَ المَظْلوم حقَّه من ظالمه، ولفعل كلُّ أحدٍ ما يشتهيهِ من غير مُعارض يُعارضه فيه، وهذا فيه من الفساد ما لا يعلمه إلا ربُّ العباد». اهـ.

وقال رَحِمَهُ اللهُ (2/ 323-324): «ولو كان في القَدَر حُجَّةٌ وعُذرٌ لم يكن إبليس مَلُومًا ولا مُعاقبًا، ولا فرعون وقوم نوح وعاد وثمود وغيرهم من الكفار، ولا كان جهاد الكفار جائزًا، ولا إقامة الحدِّ جائزًا، ولا قطع يد السارق، ولا جلد الزَّاني ولا رَجْمه، ولا قتل القاتل، ولا عقوبة مُعتد بوجهٍ من الوجوه.

ولما كان الاحتجاجُ بالقدر باطلاً في فطر الخلق وعُقولهم لم تذهب إليه أُمَّةٌ من الأمم، ولا هو مذهب أحدٍ من العقلاء الذين يَطَرِدُونَ قولهم.

فإنَّه لا يستقيم عليه مصلحة أحدٍ لا في دنياه ولا في آخرته، ولا يُمكن اثنان أن يتعاشرا ساعة واحدة إن لم يكن أحدهم ملتزماً مع الآخر نوعاً من الشرع، فالشرع نور الله في أرضه، وعدله بين عباده.

لكن الشرائع متنوعة؛ فتارة تكون مُنزلة من عند الله، كما جاءت به الرسل، وتارة لا تكون كذلك، ثم المنزلة تارة تُبدَّل وتُغيَّر، كما غيَّر أهل الكتاب شرائعهم، وتارة لا تبدل ولا تغيَّر، وتارة يدخل النَّسخ في بعضها، وتارة لا يدخل.

وأما القدر، فإنه لا يحتج به أحدٌ إلا عند اتباع هَوَاهُ، فإذا فَعَلَ فِعْلاً مُحَرَّمًا بمجرد هَوَاهُ وذوقه وَوَجِدِهِ من غير أن يكون له علم بحسن الفعل ومصلحته استند إلى القَدَر، كما قال المشركون: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 148]، وقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: 148-149].

فبين أنهم ليس عندهم علمٌ بما كانوا عليه من الدين، وإنما يتبعون الظنَّ. والقوم لم يكونوا مِمَّنْ يُسَوِّغُ لكل أحد الاحتجاج بالقدر، فإنه لو خَرَبَ أحدُ الكعبة، أو شَتَمَ إبراهيم الخليل، أو طَعَنَ في دينهم لعادوه وآذوه، كيف وقد عادوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ما جاء به من الدين، وما فعله - هو أيضًا - من المقدور.

فلو كان الاحتجاج بالقدر حُجَّةً لكان للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه الاحتجاج به؛ فإنَّ كلَّ ما يحدث في الوجود فهو مقدورٌ، فالمُحَقُّ والمُبْطَل يشتركان في الاحتجاج بالقدر إن كان الاحتجاجُ به صحيحًا، ولكن كانوا يعتمدون على ما يعتقدونه من جنس دينهم، وهم في ذلك يَتَّبِعُونَ الظَّنَّ ليس لهم به عِلْمٌ، بل هم يَخْرُصُونَ.

وموسى لما قال لآدم: «لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة؟»

فقال آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ - فيما قال لموسى -: لِمَ تَلُومُنِي عَلَى أَمْرِ قَدَرَهُ اللَّهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ بِأَرْبَعِينَ عَامًا؟ فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى.

لم يكن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ مُحتَجًّا على فعل ما نُهي عنه بالقدر، ولا كان موسى مِمَّنْ يَحْتَجُّ عليه بذلك فيقبله، بل آحاد المؤمنين لا يفعلون مثل هذا؛ فكيف آدم وموسى؟

وآدم قد تاب مِمَّا فَعَلَ واجتباه رَبُّهُ وَهَدَى، وموسى أعلم بالله من أن يُلُومَ مَنْ هو دون نَبِيِّ عَلَى فَعْلٍ تاب منه، فكيف بنبي من الأنبياء؟
وآدم يَعْلَمُ أَنَّهُ لو كان القدرُ حُجَّةً لم يَحْتَجْ إلى التوبة، ولم يَجْرَ ما جرى من خروجه من الجنة، وغير ذلك.

ولو كان القدرُ حُجَّةً لكان لإبليس وغيره، وكذلك موسى يَعْلَمُ أَنَّهُ لو كان القدر حجة لم يُعاقب فرعون بالغرق، ولا بنو إسرائيل بالصَّعقة وغيرها؛ كيف وقد قال موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ [القصص: 16]، وقال: ﴿أَنْتَ وَلِيْنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ [الأعراف: 155]، وهذا بابٌ واسعٌ.

وإنما كان لومُ موسى لآدم من أجل المصيبة التي لَحِقَتْهم بآدم من أكل الشجرة، ولهذا قال: لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة؟ واللوم لأجل المصيبة التي لَحِقَتْ الإنسان نوعٌ، واللوم لأجل الذنب الذي هو حقُّ الله نوعٌ آخر.

فإنَّ الأب لو فَعَلَ فعلاً افتقر به حتى تضرَّرَ بَنُوهُ، فأخذوا يُلُومونه لأجل ما لحقهم من الفقر - لم يكن هذا كلومه لأجل كونه أذنب.

والعبدُ مأمور أن يصبر على المقدور ويطيع المأمور، وإذا أذنب استغفر، كما قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [غافر: 55]، وقال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: 11].

قال طائفة من السلف: هو الرَّجُلُ تُصِيبُهُ الْمُصِيبَةُ فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ اللَّهِ فَيَرْضَى وَيُسَلِّمُ.

فَمَنْ احْتَجَّ بِالْقَدَرِ عَلَى تَرْكِ الْمَأْمُورِ وَجَزَعَ مِنْ حُصُولِ مَا يَكْرَهُهُ مِنَ الْمَقْدُورِ - فَقَدْ عَكَسَ الْإِيمَانَ وَالْدِّينَ، وَصَارَ مِنْ حِزْبِ الْمُلْحِدِينَ الْمُنَافِقِينَ، وَهَذَا حَالُ الْمُحْتَاجِينَ بِالْقَدَرِ». اهـ.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهو - سبحانه - يَحِبُّ الْمُتَّقِينَ وَالْمُحْسِنِينَ وَالْمُقْسِطِينَ». التقوى: فِعْلٌ مَا أَمَرَ اللَّهُ، وَتَرَكَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ عَلَى عِلْمٍ وَبَصِيرَةٍ رَجَاءَ ثَوَابِ اللَّهِ، وَخَوْفًا مِنْ عِقَابِهِ.

ودليل محبة الله لها أمورٌ، منها: قوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَقْتُمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: 7].

والإحسان معناه: الإتيان، وهو قسمان:

إحسان في عبادة الله: وهو أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ.

وإحسان إلى عباد الله: ببذل النَّدَى، وَكَفِّ الْأَذَى، وَطَلَاقَةِ الْوَجْهِ.

والدليل على محبة الله للمحسنين: قوله تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: 195].

والقسط: العدل، ومن أدلة مَحَبَّةِ اللَّهِ لِلْمُقْسِطِينَ: قوله تعالى: ﴿وَأَقِسطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: 9].

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَيَرْضَى عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ».

دليل ذلك: قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ۖ جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا

أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴿البينة 7 - 8﴾، وقوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَدَّمُونَ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: 100].

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولا يُحِبُّ الكافرين، ولا يَرْضَى عن القوم الفاسقين».

الكفر: ضد الإيمان، ويكون بالقول، وبالفعل، وبالاتقاد، وبالشك.

ودليل عدم محبة الله له: قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: 32]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر: 7].

والفسق: هو الخروج عن طاعة الله بالكفر فما دونه؛ قال تعالى: ﴿فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: 96]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوِيهِمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ﴾ [السجدة: 18-20].

ومع عدم محبته - سبحانه - للكافرين والفاسقين إلا أن الله شاء كفرهم وفسقهم، ولا تعارض.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولا يأمر بالفحشاء».

لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَنِ وَإِيتَايِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ [النحل: 90]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ [الأعراف: 28].

وقوله: «ولا يَرْضَى لعباده بالكفر».

لقوله تعالى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر:7]، ولا تعارض بين عدم رضا الله بالكفر وتقديره له. وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولا يحبُّ الفساد».

دليل ذلك: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [البقرة:205].

وقال العلامة ابن عُثيمين رحمه في شرحه للواسطية (ص 563-564) في الكلام على الفقرات السابقة: «كَرَّرَ الْمُؤَلَّفُ مِثْلَ هَذِهِ الْعِبَارَاتِ؛ لِتَبَيِّنِ أَنَّهُ لَا يَلْزَمُ مِنْ إِرَادَتِهِ الشَّيْءَ أَنْ يَكُونَ مُحِبُّوبًا لَهُ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ كِرَاهَتِهِ لِلشَّيْءِ أَنْ لَا يَكُونَ مُرَادًا لَهُ بِالْإِرَادَةِ الْكُونِيَّةِ، بَلْ هُوَ عَزَّوَجَلَّ يَكْرَهُ الشَّيْءَ وَيُرِيدُهُ بِالْإِرَادَةِ الْكُونِيَّةِ، وَيُوقِعُ الشَّيْءَ وَلَا يَرْضَىٰ عَنْهُ وَلَا يَرِيدُهُ بِالْإِرَادَةِ الشَّرْعِيَّةِ.

فإن قلت: كيف يُوقِعُ ما لا يَرْضاه وما لا يُحِبُّه؟!

وهل أحدٌ يكرهه على أن يُوقِعَ ما لا يُحِبُّه ويرضاه؟!

فالجواب: لا أحدٌ يكرهه على أن يُوقِعَ ما لا يُحِبُّه ولا يرضاه، وهذا الذي يقع من فعله عَزَّوَجَلَّ وهو مَكْرُوهُ له، هو مَكْرُوهُ له من وجهٍ، محبوبٌ له من وجه آخر لما يترتب عليه من المصالح العظيمة.

فمثلاً: الإيمان محبوب لله، والكفر مَكْرُوهُ له؛ فأوقع الكفر وهو مَكْرُوهُ له لمصالح عظيمة؛ لأنه لولا وجود الكفر ما عَرَفَ الْإِنْسَانُ قَدْرَ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِ بِالْإِيمَانِ، ولولا وجود الكفر ما قام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ يَكُونُونَ عَلَى الْمَعْرُوفِ، ولولا وجود الكفر ما قام الجهاد، ولولا وجود الكفر لكان خُلِقَ النَّارُ عَبَثًا؛ لأنَّ النَّارَ مِثْلُ الْكَافِرِينَ، ولولا وجود الكفر

لكان النَّاسُ أمة واحدة، ولم يَعْرِفُوا معروفًا ولم يُنْكِرُوا منكرًا، وهذا لا شكَّ أنَّه مُخِلٌّ بالمُجتمع الإنساني، ولولا وجود الكفر ما عُرِفَت ولاية الله؛ لأنَّ من ولاية الله أن تُبغض أعداء الله، وأن تحبَّ أولياء الله.

وكذلك يقال في الصَّحة والمرض؛ فالصَّحة محبوبةٌ للإنسان وملائمة له، ورحمة الله تعالى فيها ظاهرة، لكن المرض مَكْرُوهٌ للإنسان، وقد يكون عقوبة من الله له، ومع ذلك يُوقعه لما في ذلك من المصالح العظيمة؛ كم من إنسانٍ إذا أسبغَ الله عليه النعمة بالبدن والمال والولد والبيت والمركوب تَرَفَّعَ، ورأى أنَّه مُستغن بما أنعم الله به عن طاعة الله عَزَّجَلَّ، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ﴾ [العلق: 6 - 7]، وهذه مفسدة عظيمة، فإذا أراد الله أن يَرُدَّ هذا الإنسان إلى مكانه ابتلاه حتى يَرْجِعَ إلى الله، وشاهد هذا قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: 41].

وأنت - أيها الإنسان - إذا فكرت هذا التفكير الصحيح في تقديرات الله عَزَّجَلَّ عَرَفْتَ ما لَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنْ الْحِكْمَةِ فيما يُقَدِّرُهُ من خير أو شرٍّ، وأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَخْلُقُ ما يَكْرَهُه، ويُقَدِّرُ ما يَكْرَهُه لمصالح عظيمة قد تُحِيطُ بها، وقد لا تُحِيطُ بها، ويُحِيطُ بها غيرُك، وقد لا يُحِيطُ بها لا أنت ولا غيرك.

فإن قيل: كيف يكون الشيء مَكْرُوهًا لله ومُرَادًا له؟!

فالجواب: أنَّه لا غرابة في ذلك، فهذا هو الدَّواء المُرُّ طَعْمًا، الخبيث رائحةً يتناوله المريض وهو مرتاحٌ لما يَتَرْتَبُ عليه من مصلحة الشفاء، وها هو الأب يُمسِكُ بابنه المريض ليَكُويهِ الطبيب، ورُبَّمَا كَوَاهُ هو بنفسه، مع أنَّه يَكْرَهُ أَشَدَّ الكُرْه أن يحرق ابنه بالنار». اهـ.

«والعبادُ فاعلون حقيقة، واللهُ خالقُ أفعالِهِم، والعبدُ هو المؤمن والكافر، والبرُّ والفاجر، والمُصَلِّي والصَّائم، وللعباد قُدرة على أعمالِهِم، ولهم إرادة، واللهُ خالقُهُم وخالق قُدرتهم وإرادتهم، كما قال تعالى: ﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: 28، 29].

وهذه الدرجة من القدر يُكذِّبُ بها عامَّةُ القدرية الذين سَمَّاهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مجوسَ هذه الأمة، ويغلو فيها قومٌ من أهل الإثبات حتى سَلَبُوا العبدَ قُدرته واختياره، ويُخرجون عن أفعالِ الله وأحكامِهِ حِكْمَهَا وَمَصَالِحَهَا».

تَضَمَّنَ كلامُ شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ الرَّدَّ عَلَى عِدَّة طوائف:

الأولى: الذين يقولون: إِنَّ العبدَ مجبورٌ على عمله، وإن الفاعل حقيقة هو الله، وهؤلاء هم الجبرية.

الثانية: الذين يقولون: إِنَّ إثبات القدر بجميع مراتبه السابقة يُنافي كون العباد يفعلون باختيارهم وإرادتهم.

الثالثة: الذين يقولون: إِنَّ العباد هم الذين خَلَقُوا أفعالَهُم بأنفسهم، وأنه لا تَعَلُّقُ لأفعالِهِم بمشيئة الله، ولا تدخل تحت قدرته، وهؤلاء هم القدرية النُّفَاة.

فقولُ شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «والعباد فاعلون حقيقة» فيه رَدٌّ على الجبرية القائِلين بأنَّ العبادَ لَيْسُوا فاعلين حقيقة، إِنَّمَا أُسْنَدَتْ إِلَيْهِم الأفعالُ مَجَازًا.

وقد أوضح العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ مذهب هؤلاء في كتابه «شفاء العليل» (ص 65)، فقال: «ثُمَّ بَغَتْ طائفةٌ أخرى من القدرية، فَتَفَتَ فِعْلُ الْعَبْدِ وَقُدْرَتُهُ واختياره، وزَعَمَتْ أَنَّ حركته الاختيارية ولا اختيار - كحركة الأشجار عند

هُبُوبَ الرِّيحِ، وَكحركات الأمواج، وَأَنَّهُ عَلَى الطَّاعَةِ وَالْمَعْصِيَةِ مَجْبُورٌ، وَأَنَّهُ غَيْرُ مُيسَّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ، بَلْ هُوَ عَلَيْهِ مَقْشُورٌ مَجْبُورٌ.

ثُمَّ تَلَّاهُمْ أَتْبَاعُهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدِينَ، وَلَمَنَاهُجَهُمْ مُقْتَفِينَ؛ فَقَرَّرُوا هَذَا الْمَذْهَبَ وَانْتَمَوْا إِلَيْهِ، وَحَقَّقُوهُ، وَزَادُوا عَلَيْهِ أَنَّ تَكَالِيفَ الرَّبِّ - تَعَالَى - لِعِبَادِهِ كُلِّهَا تَكَالِيفٌ مَا لَا يُطَاقُ، وَأَنَّهَا فِي الْحَقِيقَةِ كَتَالِيفِ الْمُقْعَدِ أَنْ يَرْقَى إِلَى السَّبْعِ الطَّبَاقِ، فَالتَّكْلِيفُ بِالْإِيمَانِ وَشَرَائِعِهِ تَكْلِيفٌ بِمَا لَيْسَ مِنْ فِعْلِ الْعَبْدِ، وَلَا هُوَ لَهُ بِمَقْدُورٍ، وَإِنَّمَا هُوَ تَكْلِيفٌ بِفِعْلٍ مِنْ هُوَ مُتَفَرِّدٌ بِالْخَلْقِ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، فَكَلَّفَ عِبَادَهُ بِأَفْعَالِهِ، وَلَيْسُوا عَلَيْهَا قَادِرِينَ، ثُمَّ عَاقَبَهُمْ عَلَيْهَا وَلَيْسُوا فِي الْحَقِيقَةِ لَهَا فَاعِلِينَ.

ثُمَّ تَلَّاهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ مُحَقِّقُوهُمْ مِنَ الْعِبَادِ، فَقَالُوا: لَيْسَ فِي الْكُونِ مَعْصِيَةٌ أَلْبَتَّةُ؛ إِذِ الْفَاعِلُ مُطِيعٌ لِلْإِرَادَةِ مُوَافِقٌ لِلْمُرَادِ، كَمَا قِيلَ:

أَصْبَحْتُ مُنْفَعِلًا لِمَا يَخْتَارُهُ رَبِّي فَفِعَلِي كُلُّهُ طَاعَاتٌ

وَلَا مَوْأَ بَعْضُ هَؤُلَاءِ عَلَى فِعْلِهِ، فَقَالَ: إِنْ كُنْتُ عَصَيْتُ أَمْرَهُ فَقَدْ أَطَعْتُ إِرَادَتَهُ، وَمُطِيعُ الْإِرَادَةِ غَيْرُ مَلُومٍ، وَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ غَيْرُ مَذْمُومٍ.

وَقَرَّرَ مُحَقِّقُوهُمْ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ هَذَا الْمَذْهَبَ بِأَنَّ الْإِرَادَةَ وَالْمَشِيئَةَ هِيَ فِي حَقِّ الرَّبِّ - سُبْحَانَهُ - هِيَ وَاحِدٌ، فَمَحَبَّتُهُ هِيَ نَفْسُ مَشِيئَتِهِ، وَكُلُّ مَا فِي الْكُونِ فَقَدْ أَرَادَهُ وَشَاءَهُ، وَكُلُّ مَا شَاءَهُ فَقَدْ أَحَبَّهُ.

وَأَخْبَرَنِي شَيْخُ الْإِسْلَامِ - قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ - أَنَّهُ لَمْ يَعْصَ هَذِهِ الطَّائِفَةُ عَلَى مَحَبَّةٍ مَا يُبْغِضُهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، فَقَالَ لَهُ الْمَلُومُ: الْمَحَبَّةُ نَارٌ تَحْرِقُ مِنَ الْقَلْبِ مَا سِوَى مُرَادِ الْمَحْبُوبِ، وَجَمِيعِ مَا فِي الْكُونِ مُرَادُهُ؛ فَأَيُّ شَيْءٍ أَبْغَضَ مِنْهُ؟

قال الشيخ: فقلتُ له: إذا كان قد سَخِطَ على أقوامٍ وَلَعَنَهُمَ وَغَضِبَ عليهم وَذَمَّهُمَ، فَوَالَيْتَهُمَ أَنْتَ وَأَحْبَبْتَهُمَ وَأَحْبَبْتَ أفعالَهُمَ وَرَضِيتَها تَكُونُ مُوَالِيًا له أو مُعَادِيًا؟

قال: فَبُهِتَ الجَبْرِيُّ، ولم يَنْطِقْ بكلمةٍ.

وزعمت هذه الفرقة أَنَّهُمَ بذلكَ للُسُنَةِ ناصرون، وللقَدَرِ مُثَبِّتون، ولأَقْوالِ أهل البدع مُبْطلون.

هذا وقد طَوَّروا بِسَاطِ التَّكْلِيفِ، وَطَفَّفُوا في المِيزانِ غايةَ التَّطْفِيفِ، وَحَمَلُوا ذُنُوبَهُمَ على الأَقْدَارِ، وَبَرَّوْا أَنْفُسَهُمَ في الحَقِيقَةِ مِنْ فِعْلِ الذُّنُوبِ والأَوْزارِ، وقالوا: إِنَّها في الحَقِيقَةِ فِعْلُ الخَلَّاقِ العَلِيمِ، وَإِذَا سَمِعَ المُنَزَّهُ لِرَبِّهِ هذا قال: سُبْحَانَكَ هذا بهتانٌ عَظِيمٌ، فالشَّرُّ ليس إِلَيْكَ، والخَيْرُ كُلُّهُ في يَدَيْكَ.

ولقد ظَنَّتْ هذه الطائفةُ باللهِ أسوأَ الظَّنِّ، وَنَسَبَتْهُ إلى أَقْبَحِ الظُّلَمِ، وقالوا: إِنَّ أوامِرَ الرَّبِّ ونَوَاهِيَهُ كَتَكْلِيفِ العَبْدِ أَنْ يَرَقِيَ فوقَ السَّمَوَاتِ، وَتَكْلِيفِ المَيِّتِ إحياءَ الأمواتِ، واللهُ يُعَذِّبُ عِبَادَهُ أَشَدَّ العَذَابِ على فِعْلِ ما لا يَقْدرونَ على تركِهِ، وعلى تَرْكِ ما لا يَقْدرونَ على فِعْلِهِ، بل يعاقِبُهُمَ على نَفْسِ فِعْلِهِ الذي هو لَهُمَ غيرَ مَقْدُورٍ، وليس أَحَدٌ مُيسِّرَ لَهُ، بل هو عليه مَقْهُورٌ.

ونرى العارِفَ مِنْهُمْ يُشَدُّ مُتَرَتِّمًا، وَمِنْ رَبِّهِ مُشْتَكِيًا وَمُتَظَلِّمًا.

وليس عند القومِ في نَفْسِ الأمرِ سَبَبٌ ولا غَايَةٌ ولا حِكْمَةٌ ولا قُوَّةٌ في الأجسامِ ولا طَبِيعَةٌ ولا غَرِيزَةٌ، فليس في الماءِ قُوَّةُ التَّبْرِيدِ، ولا في النارِ قُوَّةُ التَّسْخِينِ، ولا في الأغذية قُوَّةُ الغِذاءِ، ولا في الأدوية قُوَّةُ الدِّواءِ، ولا في العينِ قُوَّةُ الإبصارِ، ولا في الأُذُنِ قُوَّةُ السَّماعِ، ولا في الأنفِ قُوَّةُ الشَّمِّ، ولا في الحيوانِ قُوَّةُ

فاعلة ولا جاذبة ولا مُمسكة ولا دافعة، والرَّبُّ - تعالى - لم يفعل شيئاً بشيء، ولا شيئاً لشيء فليس في أفعاله باءٌ تسيب ولا لام تعليل، وما ورد من ذلك فمحمولٌ على باءِ المُصاحبة ولامِ العاقبة». اهـ.

من لوازم القول بالجبر:

- 1- إبطال نصوص الكتاب والسنة.
 - 2- تعطيل النبوات.
 - 3- تعطيل الشرائع.
 - 4- وصف الله بالظلم.
 - 5- تعطيل حكمة الله.
 - 6- تعطيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
 - 7- إقرار المبطلين أجمعين على أباطيلهم من شرع وبدع ومعاصي ظاهرة وباطنة.
 - 8- تخطئة رُسل الله وإبطال رسالتهم.
- أمّا لفظُ الجبر فهو لفظٌ مُجمل لم يرد في الكتاب والسنة، ولذلك أنكره أئمةُ السنة.

قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في «شفاء العليل» (ص 264 - 266): «ولذلك أنكر أئمة السنة؛ كالأوزاعيِّ وسُفيان الثوري، وعبد الرحمن بن مهدي، والإمام أحمد هذا اللفظ.

قال الأوزاعيُّ والزبيدي: ليس في الكتاب والسنة لفظ «جبر»، وإنما جاءت السنة بلفظ «الجبَل»، كما أنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لأشجَّ عبدِ القيس: «إِنَّ

فيك خصلتين يُحبُّهما الله: الحِلْمُ والأناة.

فقال: أخلُقَيْنِ تَخَلَّقْتَ بهما، أم جُبِلْتَ عليهما؟

قال: «بل جُبِلْتَ عليهما». فقال: «الحمدُ لله الذي جَبَلَنِي على ما يُحِبُّ».

فأخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ اللَّهَ جَبَلَهُ على الحِلْمِ والأناة، وهما من الأفعال الاختيارية، وإن كانا خُلِقَيْنِ قائمين بالعبد، فإنَّ من الأخلاق ما هو كسبي، ومنها ما لا يدخل تحت الكسب، والنوعان قد جَبَلَ اللَّهُ العبدَ عليهما.

وهو - سبحانه - يُحِبُّ ما جَبَلَ عبده عليه من محاسن الأخلاق، ويكره ما جَبَلَهُ عليه من مساوئها، فكلاهما بَجَبَلِهِ، وهذا محبوب له، وهذا مكروه، كما أنَّ جبريل - صلوات الله عليه - مخلوق له، وإبليس - عليه لعائنُ الله - مخلوق له، وجبريل محبوب له، مُصْطَفَى عنده، وإبليس أبغضُ خلقه إليه.

ومِمَّا يُوَضِّح ذلك أنَّ لفظَ الجبر لفظٌ مُجْمَل، فإنَّه يُقال: أَجَبَرَ الأبُّ ابنتَه على النكاح، وَجَبَرَ الحاكمُ الرجلَ على البيع، ومعنى هذا الجبر: أَكْرَهه عليه، ليس معناه أنه جعله مُحِبًّا لذلك، راضياً به، مختاراً له، والله - تعالى - إذا خَلَقَ فَعَلَ العبدَ جَعَلَهُ مُحِبًّا له، مُخْتاراً لإيقاعه، راضياً به، كارهاً لعدمه.

فإِطلاقُ لفظِ الجبر على ذلك فاسدٌ لفظاً ومعنى، فإنَّه - سبحانه - أَجَلُّ وَأَعَزُّ من أن يجبر عبده بذلك المعنى، وإنَّما يجبر العاجز عن أن يجعل غيره فاعلاً بإرادته ومحبته ورضاه، وأمَّا مَنْ جعل العبدَ مُريدًا مُحِبًّا مُؤَثَّرًا لما يفعله، فكيف يُقال: إنه أجبره عليه؟! فهو - سبحانه - أَجَلُّ وَأَعَظَمُ وأَقْدَرُ من أن يُجبر عبده ويكرهه على فِعْلٍ يَشَاوُرُه منه، بل إذا شاء من عبده أن يفعل فعلاً جعله قادراً عليه، مُريدًا له، مُحِبًّا مُخْتاراً لإيقاعه، وهو - أيضاً - قادِرٌ على أن يجعله فاعلاً له

باختيار مع كراهته له وبُغضه ونُفرتة عنه.

فكلُّ ما يقع من العباد بإراداتهم ومشيتاتهم، فهو - سبحانه - الذي جعلهم فاعلين له، سواء أَحَبُّوه أو أَبْغَضُوهُ وكرهوه، وهو - سبحانه - لم يُجبرهم في النوعين، كما يُجبر غيره مَنْ لا يَقْدِر على جعله فاعلاً بإرادته ومشيتته.

نعم، نحن لا نُنكر استعمال لفظ الجبر فيما هو أعمُّ من ذلك بحيث يتناول من قهر غيره وقدر على جعله فاعلاً لما يشاء فعله، وتاركاً لما لا يشاء فعله، فإنَّه - سبحانه - المُحدث لإرادته له وقدرته عليه.

والفرق بين هذا الجبر وجبر المخلوق لغيره من وجوه:

أحدها: أَنَّ المخلوق لا قدرة له على جعل الغير مريدًا للفعل مُجِبًّا له، والرَّبُّ - تعالى - قادرٌ على جعل عبده كذلك.

الثاني: أَنَّ المخلوق قد يجبره غيره إجباراً يكون به ظالماً مُعتدياً عليه، والرَّبُّ أعدلُ من ذلك، فإنَّه لا يظلم أحداً من خلقه، بل مشيئته نافذة فيهم بالعدل والإحسان، بل عدله فيهم من إحسانه إليهم، كما سنبينه إن شاء الله.

الثالث: أَنَّ المخلوق يكون في جبره لغيره سفيهاً أو غائباً أو جاهلاً، والرَّبُّ - تعالى - إذا جبر عبده على أمرٍ من الأمور كان له في ذلك من الحكمة والعدل والإحسان والرحمة ما هو محمود عليه بجميع وجوه الحمد.

الرابع: أَنَّ المخلوق يجبر غيره لحاجته إلى ما جبره عليه، ولا انتفاعه بذلك، وهذا لأنَّه فقيرٌ بالذات، وأمَّا الرَّبُّ - تعالى - فهو الغنيُّ بذاته الذي كل ما سواه مُحْتَاج إليه، وليس به حاجة إلى أحد.

الخامس: أَنَّ المخلوق يجبر غيره لنقصه، فيُجبره ليحصل له الكمال بما

أجبره عليه، والرَّبُّ - تعالى - له الكمال المطلق من جميع الوجوه، وكما له من لَوَازِمِ ذاتِهِ لم يَسْتَفِدْ مِنْ خلقه، بل هو الذي أَعْطَاهُمْ مِنَ الكمال ما يليق بهم، فالْمَخْلُوق يُجْبَرُ غَيْرُهُ لِيَكْتَمَلَ، والرَّبُّ - تعالى - مُنَزَّهٌ عَنْ كُلِّ نَقْصٍ، فَكَمَالُهُ الْمُقَدَّسُ يَنْفِي الْجَبَرَ.

السادس: أَنَّ الْمَخْلُوق يُجْبَرُ غَيْرُهُ عَلَى فِعْلٍ يُعِينُهُ بِهِ عَلَى غَرَضِهِ؛ لِعَجْزِهِ عَنِ التَّوَصُّلِ إِلَيْهِ إِلَّا بِمَعَاوَنَتِهِ لَهُ، فَصَارَ الْفِعْلُ مِنْ هَذَا، وَالْقَهْرُ وَالْإِكْرَاهُ مِنْ هَذَا مُخَصَّصًا لَغَرَضِ الْمُكْرِهِ، كَمَا أَنَّ الْمُعِينِ لَغَيْرِهِ - بِاخْتِيَارِهِ - شَرِيكٌ لَهُ فِي الْفِعْلِ، وَالرَّبُّ - تعالى - غَنِيٌّ عَمَّا سِوَاهُ بِكُلِّ وَجْهِ، فَيَسْتَحِيلُ فِي حَقِّهِ الْجَبَرُ.

السابع: أَنَّ الْمَجْبُورَ عَلَى مَا لَا يُرِيدُ فِعْلُهُ يَجِدُ مِنْ نَفْسِهِ فَرْقًا ضَرْوِيًّا بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا يُرِيدُ فِعْلُهُ بِاخْتِيَارِهِ وَمَحَبَّتِهِ، فَالتَّسْوِيَةُ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ تَسْوِيَةُ بَيْنِ مَا عِلِمَ بِالْحِسِّ وَالْإِضْطِرَّارِ الْفَرْقَ بَيْنَهُمَا، وَهُوَ كَالْتَّسْوِيَةِ بَيْنَ حَرَكَةِ الْمُتَرَتِّعِ وَحَرَكَةِ الْكَاتِبِ، وَهَذَا مِنْ أَبْطَلِ الْبَاطِلِ.

الثامن: أَنَّ اللَّهَ - سبحانه - قَدْ فَطَرَ الْعِبَادَ عَلَى أَنَّ الْمَجْبُورَ الْمُكْرَهُ عَلَى الْفِعْلِ مَعْذُورٌ لَا يَسْتَحِقُّ الدَّمَ وَالْعُقُوبَةَ، وَيَقُولُونَ: قَدْ أَكْرَهُ عَلَى كَذَا، وَجَبَرَهُ السُّلْطَانُ عَلَيْهِ.

وكَمَا أَنَّهُمْ مَفْطُورُونَ عَلَى هَذَا، فَهُمْ مَفْطُورُونَ - أَيْضًا - عَلَى ذِمٍّ مِنْ فِعْلِ الْقَبَائِحِ بِاخْتِيَارِهِ، وَشَرِيعَتِهِ - سبحانه - مُوَافِقَةٌ لِفِطْرَتِهِ فِي ذَلِكَ؛ فَمَنْ سَوَّى بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ فَقَدْ خَرَجَ عَنْ مُوْجِبِ الشَّرْعِ وَالْعَقْلِ وَالْفِطْرَةِ.

التاسع: أَنَّ مَنْ أَمَرَ غَيْرَهُ بِمَصْلَحَةِ الْأُمُورِ، وَمَا هُوَ مُحْتَاجٌ إِلَيْهِ، وَلَا سَعَادَةَ لَهُ وَلَا فَلَاحَ إِلَّا بِهِ - لَا يُقَالُ: جَبَرَهُ عَلَى ذَلِكَ، وَإِنَّمَا يُقَالُ: نَصَحَهُ وَأَرْشَدَهُ وَنَفَعَهُ وَهَدَاهُ، وَنَحْوَ ذَلِكَ، وَقَدْ لَا يَخْتَارُ الْمَأْمُورُ الْمَنْهِي ذَلِكَ، فَيَجْبِرُهُ النَّاصِحُ لَهُ عَلَى

ذلك مِمَّنْ له ولاية الإِجبار، وهذا جَبْرُ الْحَقِّ، أي: جَبْرٌ بِحَقِّ، وهو جائز، بل واقعٌ في شَرْعِ الرَّبِّ وَقَدْرِهِ وَحِكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ وَإِحْسَانِهِ، لا نَمْنَعُ هذا الجبر.

العاشر: أَنَّ الرَّبَّ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ فِي صِفَاتِهِ وَلَا فِي أَفْعَالِهِ، فَجَعَلَهُ الْعَبْدُ فَاعِلًا لِقُدْرَتِهِ وَمَشِئَتِهِ وَاخْتِيَارِهِ أَمْرٌ يَخْتَصُّ بِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَالْمَخْلُوقُ لَا يَقْدِرُ أَنْ يَجْعَلَ غَيْرَهُ فَاعِلًا إِلَّا بِإِكْرَاهِهِ لَهُ عَلَى ذَلِكَ، فَإِنْ لَمْ يُكْرِهْهُ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى غَيْرِ الدَّعَاءِ وَالْأَمْرِ بِالْفِعْلِ، وَذَلِكَ لَا يُصَيِّرُ الْعَبْدَ فَاعِلًا، فَالْمَخْلُوقُ هُوَ الَّذِي يُجْبَرُ غَيْرُهُ عَلَى الْفِعْلِ وَيُكْرِهُهُ عَلَيْهِ، فَنَسَبَةُ ذَلِكَ إِلَى الرَّبِّ تَشْبِيهٌُ لَهُ فِي أَفْعَالِهِ بِالْمَخْلُوقِ الَّذِي لَا يَجْعَلُ غَيْرَهُ فَاعِلًا إِلَّا بِجَبْرِهِ لَهُ وَإِكْرَاهِهِ، فَكَمَالُ قُدْرَتِهِ - تَعَالَى - وَكَمَالُ عِلْمِهِ وَكَمَالُ مَشِئَتِهِ وَكَمَالُ عَدْلِهِ وَإِحْسَانِهِ وَكَمَالُ غِنَاهُ وَكَمَالُ مُلْكِهِ وَكَمَالُ حُجَّتِهِ عَلَى عَبْدِهِ - تَنْفِي الْجَبْرِ. اهـ.

ومذهبُ الْقَدَرِيَّةِ مَرْدُودٌ عَلَيْهِمْ شَرْعًا وَعَقْلًا وَحِسًّا:

أَمَّا شَرْعًا: فَقَدْ أَثْبَتَ اللَّهُ لِلْعَبْدِ فِعْلًا وَاخْتِيَارًا وَقُدْرَةً؛ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ [التكوير: 28]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: 17]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: 152]، وَقَوْلُهُ: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: 65].

وَأَمَّا عَقْلًا: فَلَا يُعْقَلُ أَنْ يُضَافَ الْفِعْلُ إِلَى الشَّخْصِ إِضَافَةً مُجَرَّدَةً، وَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ مُجْبُورٌ عَلَى هَذَا الْفِعْلِ، ثُمَّ يُلَامُ عَلَيْهِ وَيَعَاقَبُ بِهِ؛ لِأَنَّ هَذَا ظَلَمٌ إِذْ أَنَّهُ مَا فَعَلَ بِاخْتِيَارِهِ هُوَ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: 46]، وَلَوْ كَانَ الْأَمْرُ - كَمَا يَقُولُونَ بِالْجَبْرِ - لَمَا كَانَ هُنَاكَ فَائِدَةٌ مِنْ إِرسَالِ الرُّسُلِ وَإِنزَالِ الْكُتُبِ وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلَكَانَ ذَلِكَ عَبَثًا.

أَمَّا الْحِسُّ: فكلُّ أحدٍ يَعْمَلُ الخيرَ وَالشَّرَّ بِمَحْضِ إِرَادَتِهِ، وَلَا يَشْعُرُ بِقُوَّةٍ خَارِجِيَّةٍ تَدْفَعُهُ إِلَى أَعْمَالٍ دُونَ إِرَادَةٍ مِنْهُ.

وقول المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَاللَّهُ خَالِقُ أَعْمَالِهِمْ».

في هذه الجملة رَدٌّ عَلَى الْقَدَرِيَّةِ النُّفَاةِ، الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّ الْعِبَادَ هُمُ الَّذِينَ خَلَقُوا أَعْمَالَهُمْ، وَأَوْجَدُوهَا بِقُدْرَتِهِمْ وَإِرَادَتِهِمْ، وَأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَخْلُقْ أَعْمَالَهُمْ، وَأَنَّ أَعْمَالَهُمْ غَيْرُ دَاخِلَةٍ تَحْتَ قُدْرَةِ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وقد غَلَا هَؤُلَاءِ فِي النُّصُوصِ الَّتِي تُثَبِّتُ قُدْرَةَ الْعَبْدِ، وَفَعْلَهُ، وَإِرَادَتَهُ، وَتَعَامَوْا عَنِ النُّصُوصِ الْأُخْرَى الَّتِي فِيهَا أَنَّ مَشِيئَةَ الْعِبَادِ تَحْتَ مَشِيئَةِ اللَّهِ، وَأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ بِقَضَاءٍ وَقَدَرٍ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وَمِنْ شُبُهِهِمْ: أَنَّ أَعْمَالَ الْعِبَادِ - الَّتِي يَقْدِرُونَ عَلَيْهَا - إِضَافَتُهَا إِلَيْهِمْ تَنْفِي إِضَافَتِهَا إِلَى اللَّهِ، وَإِلَّا لَلَزِمَ وَقُوعُ فِعْلٍ بَيْنَ فَاعِلَيْنِ، وَهُوَ مُحَالٌ.

وقد أَجَابَ أَهْلُ السُّنَّةِ عَنْ هَذِهِ الشُّبُهَةِ: بِأَنَّ إِضَافَتِهَا إِلَيْهِمْ فَعَلًا وَكَسْبًا لَا يَنْفِي إِضَافَتِهَا إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ خَلْقًا وَمَشِيئَةً، فَهُوَ سُبْحَانَهُ الَّذِي أَنْشَأَهَا وَخَلَقَهَا لَهُمْ، وَهُمْ الَّذِينَ فَعَلُوهَا وَكَسَبُوهَا حَقِيقَةً، فَلَوْ لَمْ تَكُنْ مُضَافَةً إِلَى مَشِيئَةِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ لَأَسْتَحَالَ وَقُوعُهَا؛ إِذِ الْعِبَادُ أَعْجَزُ وَأَضْعَفُ مِنْ أَنْ يَفْعَلُوا مَا لَمْ يَشَأِ اللَّهُ، وَلَمْ يَقْدِرْ وَيَخْلُقْ.

وانظر «شفاء العليل»، لابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ (ص 118 - 119).

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ (ص 112): «فَكُلُّ دَلِيلٍ صَحِيحٍ لِلْجَبَرِيَّةِ إِنَّمَا يَدُلُّ عَلَى إِثْبَاتِ قُدْرَةِ الرَّبِّ تَعَالَى وَمَشِيئَتِهِ، وَأَنَّهُ خَالِقٌ غَيْرُهُ، وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَلَا يُسْتَشْنَى مِنْ هَذَا الْعُمُومِ فَرْدٌ وَاحِدٌ مِنْ أَفْرَادِ الْمُمَكِّنَاتِ، وَهَذَا حَقٌّ، وَلَكِنْ لَيْسَ

معهم دليلٌ صحيحٌ يَنْفِي أن يكون العبدُ قَادِرًا مريدًا بمشيئته وقدرته، وأنه هو الفاعلُ حقيقةً، وأفعاله قائمةٌ به، وأنها فعلٌ له، لا لله، وأنها قائمةٌ به، لا بالله.

وكلُّ دليلٍ صحيحٍ يقيمه القدريةُ فإنما يدلُّ على أن أفعالَ العبادِ فعلٌ لهم، قائمٌ بهم، واقعٌ بقدرتهم ومشيئتهم وإرادتهم، وأنهم مختارون لها غيرُ مُضْطَرِّين ولا مَجْبُورِينَ، وليس معهم دليلٌ صحيحٌ يَنْفِي أن يكون الله سبحانه قَادِرًا على أفعالِهِم، وهو الذي جعلهم فاعلين... وأهلُ السُّنة وحزبُ الرِّسول وعسكرُ الإيمان لأمع هؤلاء ولا مع هؤلاء، بل هم مع هؤلاء فيما أصابوا فيه، وهم مع هؤلاء فيما أصابوا فيه، فكلُّ حقٍّ مع طائفةٍ من الطوائف فهم يوافقونهم فيه، وهم برِّاءٌ من باطلِهِم، فمذهبهم جَمَعَ حقَّ الطوائف بعضه إلى بعضٍ، والقولُ به، ونصره، وموالاةُ أهله من ذلك الوجه، ونفيُّ باطلِ كلِّ طائفةٍ من الطوائف وكسره ومعاداةُ أهله من ذلك الوجه، فهم حُكَّام بين الطوائف، لا يتحيزون إلى فئةٍ منهم على الإطلاق، ولا يردُّون حقَّ طائفةٍ من الطوائف، ولا يقابلون بدعةً ببِدعةٍ، ولا يردُّون باطلاً بباطلٍ، ولا يحملهم شنانُ قومٍ يُعَادُونَهُمْ وَيُكْفَرُونَهُمْ على أن لا يعدلُوا فيهم، بل يقولون فيهم الحقَّ، ويحكمون في مقالاتهم بالعدل، والله سبحانه أَمَرَ رسوله أن يعدل بين الطوائف، فقال: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ [الشورى: 15]. اهـ.

قول المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: «والعبدُ هو: المؤمنُ، والكافرُ، والبرُّ، والفاجرُ، والمُصَلِّي، والصَّائِمُ».

المراد بالعبودية في هذا الموضع: العبودية العامة التي تعني الخضوعَ لأمرِ الله الكونيِّ، ومنها قوله تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا ءَاتِي

الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿[مريم: 93].

ومراد المؤلف رَحْمَةُ اللَّهِ بهذا: الرَّدُّ على الجبرية؛ أي: أَنَّ العباد ليسوا مجبورين على هذه الأعمال؛ لِأَنَّهُمْ لو كانوا مَجْبُورِينَ عليها لما صَحَّ وَصْفُهُمْ بها؛ لِأَنَّ المَجْبَرَ على الفعل لا يوصف به، ولا يستحقُّ أَنْ يثاب، أو يعاقب عليه.

وقوله: «وَلِلْعِبَادِ قُدْرَةٌ عَلَى أَعْمَالِهِمْ، وَلَهُمْ إِرَادَةٌ» - فيه رَدُّ على الجبرية.

وقوله: «وَاللَّهُ خَالِقُهُمْ، وَخَالَقُ قُدْرَتِهِمْ وَإِرَادَتِهِمْ» - فيه رَدُّ على القدرية.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: «كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿[التكوير: 28، 29].

قال العلامة الفوزان في تعليقه على الواسطية (ص 133): «ثم استدل الشيخ في الرد على الطائفتين بقوله تعالى: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ [التكوير: 28] فيه الرَّدُّ على الجبرية؛ لِأَنَّهُ أثبت للعباد مشيئة، وهم يقولون: لا مشيئة لهم.

وقوله: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ فيه رَدُّ على القدرية القائلين بأنَّ مشيئة العبد مستقلة بإيجاد الفعل من غير توقُّفٍ على مشيئة الله، وهذا باطل؛ لِأَنَّ الله علَّق مشيئة العباد على مشيئته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وربطها بها. اهـ.

قول المؤلف رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى: «وهذه الدَّرَجَةُ مِنَ الْقَدَرِ» - المقصود بهذا درجة المَشِيئَةِ والْخَلْقِ.

قوله: «يُكَذِّبُ بِهَا عَامَّةُ الْقَدَرِيَّةِ».

أي: أَنَّ الْقَدَرِيَّةَ النَّفَاةَ الَّذِينَ يَقُولُونَ: إن العبد يخلق فِعْلَ نَفْسِهِ بدون مشيئة الله وإرادته.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: «الَّذِينَ سَمَّاهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَجُوسَ هَذِهِ الْأُمَّةِ».

سُمُّوا مجوسَ هذه الأمة؛ لمشايتهم للمجوس الذين يُشْبِتُونَ خالقين، هما: النُّور، والظُّلْمَة، فالنور عندهم خَلَقَ الخَيْرَ، والظُّلْمَة خلقتِ الشَّرَّ، فصاروا بذلك ثَنَوِيَّةً، وهؤلاء القدرية جعلوا خالقاً مع الله، فزعموا أن العبادَ يَخْلُقُونَ أَفْعَالَهُمْ بدون إرادة الله ومشيتته.

وأما الحديث الوارد في ذلك بأنَّ القدريةَ مجوسُ هذه الأمة فلا يصحُّ، وإنما هو من قول بعض الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَيَغْلُو فِيهَا قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الْإِثْبَاتِ، حَتَّى سَلَبُوا الْعَبْدَ قُدْرَتَهُ وَاخْتِيَارَهُ، وَيُخْرِجُونَ عَنْ أَفْعَالِ اللَّهِ وَأَحْكَامِهِ حِكْمَهَا وَمَصَالِحَهَا».

المراد بهذا: الجبرية الذين جاوزوا الحدَّ في الإثبات، حتى جعلوا الفاعل حَقِيقَةً لفعل العبد خيره وشره هو الله، وزعموا أَنَّ الفِعْلَ إنما نَسَبَ إِلَيْهِ مَجَازًا، وهو في الحقيقة مَجْبُورٌ عَلَى عَمَلِهِ.

وقد سبق بيانُ إخراجهم عن أَفْعَالِ اللَّهِ وَأَحْكَامِهِ حِكْمَهَا وَمَصَالِحَهَا، بما لا مزيد عليه، والله أعلم.



«ومن أصول أهل السنة والجماعة: أن الدين والإيمان قولٌ وعملٌ؛ قولُ القلب واللسان، وعملُ القلب واللسان والجوارح، وأن الإيمان يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية».

قوله: «ومن أصول»:

الأصول: جمع أصل، وهو ما يُبنى عليه غيره، أو يتفرع منه غيره. والمراد بأصول أهل السنة هنا: القواعد التي بُنيت عليها عقيدتهم. قوله: «أهل السنة والجماعة»:

قد سبق الكلام على معنى السنة، ومعنى الجماعة، فلا حاجة للإعادة. قوله رحمه الله: «أن الدين».

الدين يُطلق على عدة معانٍ، منها: الذل والانقياد. والمراد به شرعاً: ما بُعث به النبي صلى الله عليه وسلم. قوله: «الإيمان».

الإيمان لغة: يُعرفه كثير من العلماء بأنه التصديق.

وقد عرفه شيخ الإسلام بالإقرار، والطمأنينة، وهو متضمنٌ للتصديق، فقد قال رحمه الله: «الإيمان وإن كان يتضمن التصديق فليس هو مجرد التصديق، وإنما هو الإقرار والطمأنينة، وذلك لأن التصديق إنما يعرض للخبر فقط، فأما الأمر فليس فيه تصديقٌ من حيث هو أمر».

وكلام الله: خبرٌ، وأمرٌ، فالخبر يستوجب تصديق المخبر، والأمر يستوجب الانقياد له والاستسلام، وهو عملٌ في القلب، جماعه الخضوع والانقياد للأمر

وإن لم يفعل المأمور به، فإذا قوبل الخبر بالتصديق والأمر بالانقياد فقد حصل أصل الإيمان في القلب، وهو الطمأنينة والإقرار، فإن اشتقاقه من الأمن الذي هو القرار والطمأنينة، وذلك إنما يحصل إذا استقر في القلب التصديق والانقياد». اهـ. «الصارم المسلول» (457 - 458)، وانظر «مجموع الفتاوى» (529-541/7).

وهذا القول اختاره العلامة ابن عثيمين رحمه الله في شرحه للواسطية، وهو الصواب، والله الموفق.

قوله رحمه الله: «الإيمان: قول وعمل؛ قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح».

دل على ما ذكره شيخ الإسلام رحمه الله الكتاب، والسنة، والإجماع. فمن أدلة القرآن على أن الإيمان قول: قوله تعالى: ﴿قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾ [غافر: 84]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ [فصلت: 30]، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: 86]. ومن أدلة السنة على ذلك:

ما رواه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الإيمان بضع وسبعون شعبة، فأفضلها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من شعب الإيمان».

ومن الأدلة على أن الإيمان اعتقاد بالقلب:

قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: 14]، وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ

لَا يَحْزُنُكَ الَّذِينَ يُسْكِرُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ
وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ ﴿[المائدة: 41]﴾.

ومن السنة: ما رواه الترمذي في جامعه، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، قال:
صعد رسول الله صلى الله عليه وسلم المنبر، فنادى بصوت رفيع، فقال: «يا معشر من
قد أسلم بلسانه ولم يفيض الإيمان إلى قلبه، لا تؤذوا المسلمين، ولا تغيروهم،
ولا تتبعوا عوراتهم؛ فإنه من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته، ومن تتبع الله
عورته يفضحه ولو في جوف رحله».

ومن الأدلة على أن الإيمان عمل:

ما في «صحيح الإمام البخاري» (1/ 77)، باب (من قال: إن الإيمان هو
العمل؛ لقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾
[الأعراف: 43]، وقال عدة من أهل العلم في قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: 92 - 93] عن قول: لا إله إلا الله، وقال:
﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ [الصفات: 61].

ثم ساق إسناده إلى أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وآله
وسلم سئل: أي العمل أفضل؟ فقال: «إيمان بالله ورسوله». قيل: ثم ماذا؟ فقال:
«الجهاد في سبيل الله». قيل: ثم ماذا؟ قال: «حج مبرور».

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله في تفسيره (4/ 696) - في الكلام على قول
الله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: 5] - «وقد
استدل كثير من الأئمة: كالثوري، والشافعي، بهذه الآية الكريمة، على أن
الأعمال داخلة في الإيمان». اهـ.

وقال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ فِي «جامع العلوم والحكم» (1/ 104):
«وأنكر السلف على مَنْ أخرج الأعمال من الإيمان إنكارًا شديدًا، ومِمَّنْ أنكر
ذلك على قائله وجعله قولًا مُحدثًا: سعيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وميمونُ بْنُ مَهْرَانَ، وقتادة،
وأَيُّوبُ السَّخْتِيَانِي، وإبراهيمُ النَّخَعِي، والزُّهْرِي، ويحيى بْنُ أَبِي كَثِيرٍ، وغيرُهم،
وقال الثوري: هو رأيٌ محدث، أدركنا النَّاسَ على غيرِه، وقال الأوزاعي: كان
مَنْ مضى مِمَّنْ سَلَفٌ لَا يُفَرِّقُونَ بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ». اهـ.

وأما الإجماع:

فقد قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ كَمَا فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى» (7/ 209):
«كَانَ الْإِجْمَاعُ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ، وَمَنْ أَدْرَكَنَاهُمْ يَقُولُونَ:
الْإِيمَانُ قَوْلٌ، وَعَمَلٌ، وَنِيَّةٌ لَا يَجْزِي وَاحِدٌ مِنْهَا إِلَّا بِالْآخِرِ». اهـ.

وقال الحافظ ابن حَجَرٍ فِي «فَتْحِ الْبَارِي» (1/ 61): «وَرَوَى فِي سَنَدِهِ - يَعْنِي
اللَّالِكَائِي - فِي كِتَابِ «السُّنَّةِ» - بِسَنَدِهِ الصَّحِيحِ عَنِ الْبُخَارِيِّ، قَالَ: «لَقِيتُ أَكْثَرَ
مِنْ أَلْفِ رَجُلٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ بِالْأَمْصَارِ، فَمَا رَأَيْتُ أَحَدًا مِنْهُمْ يَخْتَلِفُ فِي أَنَّ الْإِيمَانَ
قَوْلٌ وَعَمَلٌ، يَزِيدُ وَيَنْقُصُ، وَأَطْنَبَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَاللَّالِكَائِيُّ فِي نَقْلِ ذَلِكَ
بِالْأَسَانِيدِ عَنْ جَمْعٍ كَثِيرٍ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ، وَكُلٌّ مَنِ يَدُورُ عَلَيْهِ الْإِجْمَاعُ مِنَ
الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ، وَحَكَاهُ فَضِيلٌ، وَوَكَّيْعٌ عَنْ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ». اهـ.

وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ كَمَا فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى» (12/ 471 - 472):
«وَأَمَّا أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، مِنَ الصَّحَابَةِ جَمِيعِهِمْ، وَالتَّابِعِينَ وَأُئِمَّةِ أَهْلِ السُّنَّةِ،
وَأَهْلِ الْحَدِيثِ، وَجَمَاهِيرُ الْفُقَهَاءِ وَالصُّوفِيَّةِ، مِثْلُ: مَالِكٍ، وَالثَّوْرِيِّ، وَالْأَوْزَاعِيِّ،
وَحَمَّادِ بْنِ زَيْدٍ، وَالشَّافِعِيِّ، وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ، وَغَيْرُهُمْ، وَمُحَقِّقِي أَهْلِ الْكَلَامِ،
فَاتَّفَقُوا عَلَى أَنَّ الْإِيمَانَ وَالِدِينَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ، هَذَا لَفْظُ السَّلَفِ مِنَ الصَّحَابَةِ

وغيرهم، وإن كان قد يُعنى بالإيمان في بعض المواضع ما يغير العمل، لكن الأعمال الصالحة كلها تدخل - أيضًا - في الدين والإيمان، ويدخل في القول قول القلب واللسان، وفي العمل عمل القلب والجوارح». اهـ.

انظر في هذا «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» للآل كائى (4/382)، و«التمهيد» لابن عبد البر (9/238)، و«شرح السنة»، للبغوى (1/38) و«مجموع الفتاوى» (7/309) و«مدارج السالكين» (1/431) و«تفسير ابن كثير» (2/285) وغير ذلك.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: «قَوْلُ الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ، وَعَمَلُ الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ وَالْجَوَارِحِ».

المراد بقول القلب: تَصْدِيقُهُ، وإِقْرَارُهُ، ومَعْرِفَتُهُ.

وأما قول اللسان: فهو الإقرار بالشهادتين، وذلك بالنطق بهما مع القدرة، قال شيخ الإسلام رَحْمَةُ اللَّهِ: إذا لم يتكلم بهما؛ أي: الشهادتين - مع القدرة - فهو كافرٌ باتفاق المسلمين، وهو كافر باطنًا وظاهرًا عِنْدَ سَلَفِ الْأُمَّةِ، وَأَثَمَتِهَا، وجماهير عُلَمَائِهَا». اهـ. «مجموع الفتاوى» (7/609).

وأما عَمَلُ الْقَلْبِ: فهو انقياده، ومن ذلك: إخلاصُ العمل لله، ومحَبَّتُهُ، وتعظيمُهُ، وخشيَتُهُ، والتَّوَكُّلُ عليه، وبغضُ ما يبغضه الله ورسوله... إلخ.

وأما عَمَلُ اللِّسَانِ: فقراءةُ القرآن، والإتيانُ بالأذكار المشروعة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والدُّعاء، ونحو ذلك.

وأما عَمَلُ الْجَوَارِحِ: فمنها الصَّلَاةُ، والصَّوْمُ، والحج، وما أشبه ذلك.

وانظر «مجموع الفتاوى» (7/186، 187، 330، 395، 396، 609).

والناظر في عبارات السلف في هذا الباب يجد أن منهم من يقول: الإيمان

قول وعمل، ومنهم من يقول: قولٌ باللسان، واعتقاد بالجنان، وعملٌ بالجوارح، ومنهم من يقول: قولٌ، وعملٌ، ونيةٌ، ومنهم من يقول: قولٌ، وعملٌ، ونيةٌ، واتباعُ السُّنة. وكل هذا صحيح.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ في «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى» (7/ 170 - 171): «وَمِنْ هَذَا الْبَابِ أَقْوَالُ السَّلَفِ وَأُئِمَّةِ السُّنَّةِ فِي تَفْسِيرِ الْإِيمَانِ، فَتَارَةً يَقُولُونَ: هُوَ قَوْلٌ، وَعَمَلٌ، وَتَارَةً يَقُولُونَ: هُوَ قَوْلٌ، وَعَمَلٌ، وَتَارَةً يَقُولُونَ: قَوْلٌ، وَعَمَلٌ، وَنِيَّةٌ، وَتَارَةً يَقُولُونَ: قَوْلٌ بِاللِّسَانِ، وَاعْتِقَادٌ بِالْقَلْبِ، وَعَمَلٌ بِالْجَوَارِحِ، وَكُلُّ هَذَا صَحِيحٌ.

فَإِذَا قَالُوا: قَوْلٌ وَعَمَلٌ، فَإِنَّهُ يَدْخُلُ فِي الْقَوْلِ قَوْلُ الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ جَمِيعًا، وَهَذَا الْمَفْهُومُ مِنْ لَفْظِ الْقَوْلِ، وَالْكَلَامِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ إِذَا أُطْلِقَ...».

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ: «وَالْمَقْصُودُ هُنَا: أَنَّ مَنْ قَالَ مِنَ السَّلَفِ: الْإِيمَانُ قَوْلٌ وَعَمَلٌ، أَرَادَ قَوْلَ الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ، وَعَمَلَ الْقَلْبِ وَالْجَوَارِحِ، وَمَنْ أَرَادَ الْإِيمَانَ بِقَوْلٍ رَأَى أَنَّ لَفْظَ الْقَوْلِ لَا يُفْهَمُ مِنْهُ إِلَّا الْقَوْلُ الظَّاهِرُ أَوْ خَافَ ذَلِكَ، فَزَادَ الْإِيمَانَ بِالْقَلْبِ.

وَمَنْ قَالَ: «قَوْلٌ، وَعَمَلٌ، وَنِيَّةٌ»، قَالَ: الْقَوْلُ يَتَنَاوَلُ الْإِيمَانَ، وَقَوْلَ اللِّسَانِ، وَأَمَّا الْعَمَلُ فَقَدْ لَا يُفْهَمُ مِنْهُ النِّيَّةُ، فَزَادَ ذَلِكَ.

وَمَنْ زَادَ (اتَّبَاعَ السُّنَّةِ)؛ فَلَأَنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ لَا يَكُونُ مُحِبُّوْبًا عِنْدَ اللَّهِ إِلَّا بِاتِّبَاعِ السُّنَّةِ، وَأَوَّلُئِكَ لَمْ يَرِيدُوا كُلَّ قَوْلٍ وَعَمَلٍ، وَإِنَّمَا أَرَادُوا مَا كَانَ مَشْرُوعًا مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ، وَلَكِنَّ مَقْصُودَهُمُ الرَّدُّ عَلَى الْمُرْجَةِ الَّذِينَ جَعَلُوهُ قَوْلًا فَقَطْ، فَقَالُوا: بَلْ هُوَ قَوْلٌ، وَعَمَلٌ.

والذين جعلوه أربعة أقسام فسَّروا مرادهم، كما سئل سهل بن عبد الله التستري عن الإيمان ما هو؟ فقال: «قول، وعمل، ونية، وسنة»؛ لأن الإيمان إذا كان قولاً بلا عمل فهو كُفْرٌ، وإذا كان قولاً وعملًا بلا نية فهو نفاقٌ، وإذا كان قولاً وعملًا ونيةً بلا سنة فهو بدعةٌ». اهـ.

فأقول الناس في تعريف الإيمان كما يلي:

- 1- قول أهل السنة والجماعة الذي أجمعوا عليه أنه: قولٌ باللسان، واعتقاد بالقلب، وعملٌ بالجوارح.
 - 2- قول المرجئة: أنه اعتقاد بالقلب، ونطق باللسان فقط، فأخرجوا العمل.
 - 3- قول الكرامية: أنه نطق باللسان فقط، فالمنافقون مؤمنون على هذا القول.
 - 4- قول الجهمية: أنه معرفة القلب، فدخل بذلك كل كافرٍ معترفٍ بقلبه، لكنه مخالفٌ للإيمان قولاً وعملًا.
- وكل هذه الأقوال - ما عدا الأول - أقوالٌ مُحدثةٌ باطلةٌ - أعاذنا الله منها ومن أهلها.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: وَأَنَّ الْإِيمَانَ يَزِيدُ بِالطَّاعَةِ، وَيُنْقُصُ بِالْمَعْصِيَةِ.

دلَّ على هذا الكتابُ، والسُّنةُ، والإجماعُ، والحِسُّ.

أما دلالة الكتاب على ذلك، فَمِنْهَا: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: 2].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ

إِيْمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيْمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿[التوبة: 124].
 وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ
 وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيْمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: 22].
 وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيْمَانًا مَعَ
 إِيْمَانِهِمْ﴾ [الفتح: 4].

وهذه الآيات صريحة في زيادة الإيمان، كما أنها تدلُّ على النقصان؛ إذ كلُّ
 قابل للزيادة قابل للنقصان.

ولذلك قال الحافظ ابن حَجَرٍ في «الفتح» (47 / 1) تحت تبويب البخاري،
 باب: (قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ»، وهو قول، وفِعْلٌ،
 يزيدٌ، وينقصُ)، ثم ذكر البخاري الآيات السابقة.

قال الحافظ رَحِمَهُ اللَّهُ: «شرح المصنّف يستدل لذلك - زيادة الإيمان
 ونقصانه - بآيات من القرآن مُصَرِّحَةٍ بالزيادة، وبثبوتها يثبتُ المُقَابِلُ؛ فإنَّ كُلَّ
 قابل للزيادة قابل للنقصان ضرورةً». اهـ.

وبنحوه قال الكرمانِيُّ في شرحه للبخاري (71 / 1).

وقال الحافظ ابن حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ في «الفتح» تحت باب (زيادة الإيمان
 ونقصانه): «فإن قيل: فلم أعاد في هذا الباب الآيتين المذكورتين فيه، وقد تقدّمتا
 في أول كتاب (الإيمان)؟

فالجواب: أنه أعادهما ليُواطئَ بهما معنَى الكمالِ المذكورِ في الآية الثالثة؛
 لأنَّ الاستدلالَ بهما نصٌّ في الزيادة، وهو يُستلزمُ النَّقصَ، وأما الكمالُ فليس نصًّا
 في الزيادة، بل هو مُستلزمٌ للنقص فقط، واستلزامه للنقص يستدعي قبوله

الزِّيَادَةُ». اهـ.

وأما دلالة السُّنَّةِ عَلَى ذلك: فكثيرة جداً، وقد عقد أئمة الحديث أبواباً في هذا، وأوردوا تحتها عدَّة أحاديث، ومنهم:

1- الإمام البخاري رَحِمَهُ اللهُ، فقد بَوَّبَ في صحيحه (1/ 137)، باب: (زيادة الإيمان ونقصانه).

2- الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ، فقد بَوَّبَ في «شرح مسلم» (1/ 250 - نووي) باب: (تفاضل أهل الإيمان فيه، ورجحان أهل اليَمَن فيه)، ثم ذكر باباً آخر: باب: (بيان نقصان الإيمان بالمعاصي).

3- وبَوَّبَ الإمام الترمذي في جامعه (5/ 9): باب: (ما جاء في استكمال الإيمان وزيادته ونقصانه).

4- وبَوَّبَ الإمام النَّسَائِي في سننه (7/ 112) باب: (زيادة الإيمان).

5- وبَوَّبَ الإمام أبو داود في سننه (4/ 220) باب: (زيادة الإيمان ونقصانه).

6- وبَوَّبَ الإمام البيهقي في كتابه «شعب الإيمان» (1/ 159) باب: (القول في زيادة الإيمان ونقصانه، وتفاضل أهل الإيمان في إيمانهم).

وانظر «الإيمان» لابن مَنَدَه (1/ 345)، «شرح الاعتقاد» لِلْأَلْكَائِي (5/ 860)، و«السُّنَّة» لِلْخَلَّال (2/ 581 - 583)، وغير ذلك.

ومن أدلة السُّنَّةِ في هذا:

1- عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الإيمانُ بَضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا: قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وأدناها إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ

الطريق، والحياءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ». رواه البخاري، ومسلم، واللفظ لمسلم.
وقد استدلل بهذا الحديث جماعة من أهل العلم على زيادة الإيمان
ونقصانه، فقد أخرجه الترمذي في جامعه (5 / 9) في باب: (ما جاء في استكمال
الإيمان وزيادته ونقصانه). اهـ.

وبوب له ابنُ حبان في صحيحه كما في «الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان»
(1 / 407) بقوله: «ذكر الخبر المدحض قول مَنْ زَعَمَ أَنَّ الْإِيمَانَ وَاحِدٌ لَا يَزِيدُ
وَلَا يَنْقُصُ». اهـ.

وقال الإمام ابنُ منده في كتابه «الإيمان» (1 / 300) بعد إيراده لهذا الحديث:
«وَالْعِبَادُ يَتَفَاضِلُونَ فِي الْإِيمَانِ عَلَى قَدَرِ تَعْظِيمِ اللَّهِ فِي الْقُلُوبِ، وَالْإِجْلَالِ لَهُ،
وَالْمُرَاقَبَةِ لِلَّهِ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ، وَتَرْكِ اعْتِقَادِ الْمَعَاصِي، فَمِنْهَا قِيلَ: الْإِيمَانُ يَزِيدُ
وَيَنْقُصُ». اهـ.

وقال الإمام الخطابي رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «مَعَالِمِ السُّنَنِ» (7 / 43-44) بِحَاشِيَةِ
«سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ»: «وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ بَيَانٌ أَنَّ الْإِيمَانَ الشَّرْعِيَّ اسْمٌ لِمَعْنَى ذِي
شُعْبٍ وَأَجْزَاءٍ، لَهُ أَعْلَى وَأَدْنَى، فَالاسْمُ يَتَعَلَّقُ بِبَعْضِهَا كَمَا يَتَعَلَّقُ بِكُلِّهَا،
وَالْحَقِيقَةُ تَقْتَضِي جَمِيعَ شُعْبِهَا وَتَسْتَوْفِي جَمْلَةَ أَجْزَائِهَا؛ كَالصَّلَاةِ الشَّرْعِيَّةِ لَهَا
شُعْبٌ وَأَجْزَاءٌ، وَالاسْمُ يَتَعَلَّقُ بِبَعْضِهَا كَمَا يَتَعَلَّقُ بِكُلِّهَا، وَالْحَقِيقَةُ تَقْتَضِي جَمِيعَ
أَجْزَائِهَا وَتَسْتَوْفِيهَا...»، إِلَى أَنْ قَالَ: «وَمِنْ هَذَا الْبَابِ إِثْبَاتُ التَّفَاضُلِ فِي الْإِيمَانِ،
وَتَبَايُنِ الْمُؤْمِنِينَ فِي دَرَجَاتِهِ». اهـ.

وقال العلامة السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كتابه «شجرة الإيمان» (ص 14) بعد سياق
هذا الحديث: «وهذا صريحٌ في أَنَّ الْإِيمَانَ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ بِحَسَبِ زِيَادَةِ هَذِهِ
الشَّرَائِعِ، وَاتِّصَافِ الْعِبَادِ بِهَا أَوْ عَدَمِهِ، وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ النَّاسَ يَتَفَاوَتُونَ فِيهَا

تفاوتًا كبيرًا، فَمَنْ زَعَمَ أَنَّ الْإِيمَانَ لَا يَزِيدُ وَلَا يَنْقُصُ فَقَدْ خَالَفَ الْحِسَّ، مع مخالفته لِنُصُوصِ الشَّرْعِ كما ترى». اهـ.

2- عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ».

وقد بَوَّبَ الإمام النوويُّ في شرحه لِمُسْلِمٍ لهذا الحديث: باب كون النَّهْيِ عن المُنْكَرِ من الإيمان، وَأَنَّ الْإِيمَانَ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ». اهـ.

وبَوَّبَ له الإمام النَّسَائِيُّ في سننه (111/7) باب (تَفَاضُلِ أَهْلِ الْإِيمَانِ)». اهـ.

وقال الإمام ابنُ مَنَدَه في كتاب «الإيمان» (1/341): «ذَكَرَ خَبَرٌ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْإِيمَانَ قَوْلٌ بِاللِّسَانِ، وَاعْتِقَادٌ بِالْقَلْبِ، وَعَمَلٌ بِالْأَرْكَانِ، يَزِيدُ وَيَنْقُصُ». اهـ.

وقال مُحَقِّقُ كتاب «الإيمان» (1/344) معلقًا على هذا الحديث: «فَقَدْ نَصَّ عَلَى أَنَّ الْعَمَلَ بِالْيَدِ، أَوِ الْقَوْلَ بِاللِّسَانِ، أَوِ الْإِعْتِقَادَ بِالْقَلْبِ مِنَ الْإِيمَانِ، وَأَنَّ الْإِيمَانَ يَزِيدُ عِنْدَ الْمَرْءِ حَتَّى يَدْفَعَهُ إِلَى تَغْيِيرِ الْمُنْكَرِ بِيَدِهِ، وَيَنْقُصُ حَتَّى أَنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ إِنْكَارَ ذَلِكَ إِلَّا بِقَلْبِهِ، وَكُلٌّ مِنَ الْإِيمَانِ». اهـ.

3- عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلْبِ الرَّجُلِ الْحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ». قلن: وَمَا نُقْصَانُ عَقْلِنَا وَدِينِنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «أَلَيْسَ شَهَادَةُ الْمَرْأَةِ مِثْلَ نِصْفِ شَهَادَةِ الرَّجُلِ؟». قلن: بلى. قال: «فَذَلِكَ مِنْ نُقْصَانِ عَقْلِهَا. أَلَيْسَ إِذَا حَاضَتْ لَمْ تُصَلِّ وَلَمْ تَصُمْ؟». قلن: بلى. قال: «فَذَلِكَ نُقْصَانُ دِينِهَا». متفق عليه. والأحاديث في

هذا كثيرة جدًا.

أما الإجماع: فقد حكاها جماعة من أهل العلم، ففي «التمهيد» لابن عبد البر (238/9) قال رحمه الله: «أجمع أهل الفقه والحديث على أن الإيمان قول، وعمل، ولا عمل إلا بنية، والإيمان يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية». اهـ.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كما في «مجموع الفتاوى» (672/7): «وأجمع السلف أن الإيمان قول، وعمل، يزيد، وينقص». اهـ.

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله في تفسيره (379/2) في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَلَّيْتْ عَلَيْهِمْ ءَايَتَهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال:2]: «وقد استدلل البخاري وغيره من الأئمة بهذه الآية وأشباهاها على زيادة الإيمان ونقصانه في القلوب، كما هو مذهب جمهور الأئمة، بل حكى الإجماع عليه غير واحد من الأئمة؛ كالشافعي، وأحمد، وأبي عبيد». اهـ.

وقال سفيان الثوري رحمه الله كما في «تذكرة الحفاظ» (53/2): «خلاف ما بيننا وبين المرجئة ثلاث: يقولون: الإيمان قول ولا عمل. ونقول: قول وعمل. ونقول: إنه يزيد وينقص. وهم يقولون: إنه لا يزيد ولا ينقص. ونحن نقول: النفاق. وهم يقولون: لا نفاق». اهـ. «القائد إلى تصحيح العقائد» للمعلمي (232-233).

وأما الحس: فإن المؤمن كلما ازدادت طاعته القولية والعملية أحس بزيادة إيمانه، وكلما قلت أحس بنقصانه.

فائدة: قال العلامة ابن عثيمين رحمه الله في «شرح السفارينية» (ص 407): «نقص الإيمان على قسمين:

1- نقص لا حيلة للإنسان فيه؛ كنقص دين المرأة بترك الصلاة في أيام الحيض، فإن هذا لا اختيار لها فيه، بل لو قالت: دعوني أصلي حتى لا ينقص إيماني، قلنا: هذا حرام عليك، لو صليت لزاد نقص الإيمان أكثر، إذن هذا نقص لا حيلة للإنسان فيه، فهل يلام عليه؟ الذي نقص دين أو لا؟ لا يلام عليه؛ لأن هذا لا اختيار له فيه إطلاقاً، فلا لوم عليه.

2- نقص باختيار الإنسان، فهذا ينقسم إلى قسمين من حيث اللوم:

1- إن كان سببه المعصية، أو ترك الواجب، فإنه يلام عليه، ويأثم به.

2- وإن كان نقصه بترك تطوع غير واجب، فإنه لا يلام عليه لوماً يؤثم به.

وإن كان قد يقال: يا فلان اجتهد في العمل الصالح.

ولهذا قيل لابن عمر: «نعم الرجل عبد الله لو كان يقوم من الليل».

وقال النبي صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمرو بن العاص: «يا عبد الله لا تكن مثل فلان، كان يقوم الليل فترك قيام الليل».

وهذا لا شك أنه نوع لوم، لكنه لوم لا إثم به، بخلاف ترك الواجب أو فعل المحرم، فإنه يلام لوماً يأثم به. اهـ.



فصل

زيادة الإيمان ونقصانه تتعلّق بالقلب واللسان والجوارح، ومن تأمّل أدلة الكتاب والسنة، ووقف على كلام العلماء في ذلك - ظهر له ذلك ظهورًا جليًا.

وسأكتفي بذكر دليل لتفاضل الإيمان في القلوب، وآخر لتفاضله بالعمل، وثالث لتفاضله بالقول، ثم أُرَدِّف ببعض كلام العلماء.

أما تفاضل الإيمان في القلوب: ففي البخاري ومسلم عن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُخْرَجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لا إله إلا الله، وفي قلبه وزنٌ شعيرةٍ من خيرٍ، ويخرجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لا إله إلا الله، وفي قلبه وزنٌ بُرّةٍ من خيرٍ، ويخرجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لا إله إلا الله، وفي قلبه وزنٌ ذرّةٍ من خيرٍ».

قال الحافظ ابن حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ في «الفتح» (1/46): «قال الشيخُ مُحْيِي الدِّين: والأظهرُ أَنَّ التَّصَدِيقَ يَزِيدُ وَيُنْقُصُ بكثرةِ النَّظَرِ، ووضوح الأدلّة، ولهذا كان إيمانُ الصّديقِ أقوى من إيمانٍ غيرِهِ، بحيث لا يعتريه الشُّبْهَةُ» قال الحافظ: «ويؤيده أن كُلَّ أَحَدٍ يَعْلَمُ أن ما في قلبه يتفاضلُ حتّى يكونَ في بَعْضِ الأَحْيَانِ الإيمانُ أعظمَ يقينًا وإخلاصًا وتوكُّلاً منه في بعضها، وكذلك في التّصديق والمعرفة، بحسبِ ظُهورِ البراهين وكثرتِها». اهـ.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى في «مجموع الفتاوى» (6/479): «والذي مَضَى عليه سَلَفُ الأُمَّةِ وأئمتُّها أن نفسَ الإيمان الذي في القلوب يتفاضلُ، كما قال النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي

قلبه مثقال ذرة من إيمان. اهـ.

وقال رحمه الله كما في «مجموع الفتاوى» (7/ 563 - 564):

«الوجه الثاني: في زيادة الإيمان ونقصه: وهو زيادة أعمال القلوب ونقصها، فإنه من المعلوم بالذوق الذي يجده كل مؤمن أن الناس يتفاضلون في حب الله ورسوله، وخشية الله، والإنابة إليه، والتوكل عليه، والإخلاص له، وفي سلامة القلوب من الرياء والعجب والكبر ونحو ذلك، والرحمة للخلق، والنصح لهم، ونحو ذلك من الأخلاق الإيمانية، وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حُلَاوَةَ الْإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَمَنْ كَانَ يُحِبُّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا اللَّهُ، وَمَنْ كَانَ يَكْرَهُ أَنْ يَرْجَعَ فِي الْكُفْرِ - بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ - كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يَلْقَى فِي النَّارِ».

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا﴾ [التوبة: 24].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «والله إني لأخشاكم لله، وأعلمكم بحدوده»، وقال: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده، ووالديه، والناس أجمعين»، وقال له عمر: يا رسول الله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي، قال: «لا يا عمر، حتى أكون أحب إليك من نفسك». قال: فلأنت أحب إلي من نفسي، قال: «الآن يا عمر».

وهذه الأحاديث ونحوها في الصحاح، وفيها بيان تفاضل الحب والخشية، وقد قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: 165]، وهذا أمر يجده الإنسان في نفسه، فإنه قد يكون الشيء الواحد يُحِبُّه تارة أكثر مما يُحِبُّه تارة،

ويخافه تارةً أكثر مما يخافه تارةً.

ولهذا كان أهل المعرفة من أعظم الناس قولاً بدخول الزيادة والنقصان فيه؛ لما يجدون من ذلك في أنفسهم، ومن هذا قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: 173]، وإنما زادهم طمأنينةً وسكوناً.

الوجه الثالث: أن نفس التصديق والعلم في القلب يتفاضل باعتبار الإجمال والتفصيل، فليس تصديق من صدق الرسول مجملاً من غير معرفة منه بتفاصيل أخباره كمن عرف ما أخبر به عن الله وأسمائه وصفاته، والجنة والنار، والأمم، وصدقته في ذلك كله، وليس من التزم طاعته مجملاً ومات قبل أن يعرف تفصيل ما أمره به كمن عاش حتى عرف ذلك مفصلاً وأطاعه فيه.

الوجه الرابع: أن نفس العلم والتصديق يتفاضل ويتفاوت كما تتفاضل سائر صفات الحي، من: القدرة، والإرادة، والسمع، والبصر، والكلام... وإذا قال القائل: العلم بالشيء الواحد لا يتفاضل كان بمنزلة قوله: القدرة على المقدور الواحد لا تتفاضل، وقوله: رؤية الشيء الواحد لا تتفاضل، وكذلك سمع الصوت الواحد لا يتفاضل في إدراكه... والإنسان يجد في نفسه أن علمه بمعلومه يتفاضل حاله فيه، كما يتفاضل حاله في سمعه لمسموعه، ورؤيته لمريئه، وقدرته على مقدوره، وحبّه لمحبوبه، وبغضه لبغضه، ورضاه بمرضيه، وسخطه لمسخطه، وإرادته لمرادّه، وكراهيته لمكروهه، ومن أنكر التفاضل في هذه الحقائق كان مسفسطاً. اهـ، وانظر - أيضاً - «مجموع الفتاوى» (6/479-480)، و«فتح الباري» لابن رجب (1/9-10)، و«تعظيم قدر الصلاة» لمحمد بن نصر (2/670-671)، و«تفسير ابن كثير» (4/235)،

و«التبیهات اللطيفة» للسعدي (ص 86)، و«شرح السفارينية» لابن عُثيمين رَحِمَهُ اللهُ (ص 399-401)، وغير ذلك.

وأما تعلقُ الزيادة والنقصان بأعمال الجوارح: فَمِمَّا يَدُلُّ لذلك ما رواه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «الإيمانُ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، والحياءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ».

قال شيخُ الإسلامِ رَحِمَهُ اللهُ كما في «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى» (562/7): «والتَّمَاضِلُ فِي الْإِيمَانِ بِدُخُولِ الزِّيَادَةِ وَالنَّقْصِ فِيهِ يَكُونُ مِنْ وُجُوهِ مُتَعَدِّدَةٍ: أحدها: الأَعْمَالُ الظَّاهِرَةُ؛ فَإِنَّ النَّاسَ يَتَفَاضِلُونَ فِيهَا، وَتَرِيدُ وَتَنْقُصُ، وَهَذَا مِمَّا اتَّفَقَ النَّاسُ عَلَى دُخُولِ الزِّيَادَةِ فِيهِ وَالنَّقْصَانِ». اهـ.

وقال رَحِمَهُ اللهُ كما في «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى» (479/6): «وأما زيادةُ الْعَمَلِ الصَّالِحِ الَّذِي عَلَى الْجَوَارِحِ وَنُقْصَانُهُ فَمُتَمَقِّقٌ عَلَيْهِ، وَإِنْ كَانَ فِي دُخُولِهِ فِي مُطْلَقِ الْإِيمَانِ نِزَاعٌ، وَالَّذِي عَلَيْهِ أَهْلُ السُّنَّةِ أَنَّ الْإِيمَانَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ، يَزِيدُ وَيَنْقُصُ». اهـ.

وأما تعلقُ الزيادة والنقصان باللسان: ففي البخاري عن أبي موسى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لَا يَذْكُرُ رَبَّهُ كَمَثَلِ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ».

قال الحافظُ ابنُ رَجَبٍ رَحِمَهُ اللهُ فِي «فَتْحِ الْبَارِي» (9/1): «فأما زيادةُ الْإِيمَانِ بِزِيَادَةِ الْقَوْلِ، وَنُقْصَانُهُ بِنُقْصَانِهِ، فَهُوَ كَالْعَمَلِ بِالْجَوَارِحِ أَيْضًا، فَإِنَّ مَنْ زَادَ ذِكْرَهُ لِلَّهِ وَتَلَاوْثَهُ لِكِتَابِهِ زَادَ إِيْمَانُهُ، وَمَنْ تَرَكَ الذِّكْرَ الْوَاجِبَ بِلِسَانِهِ نَقَصَ إِيْمَانُهُ». اهـ.

أسباب زيادة الإيمان:

ذكر العلامة السّعدى رَحِمَهُ اللهُ فِي كتابه «التوضيح والبيان لشجرة الإيمان»
عدة أسباب لزيادة الإيمان، أذكرها مختصرة:

1- معرفة أسماء الله الحُسْنَى الواردة في الكتاب والسُّنَّة: والحرصُ على فَهْمِ معانيها، والتعبدُ لله فيها، فذلك أعظمُ ينبوعٍ ومادةٍ لحصول الإيمان وقوّته وثباته، ومعرفةُ الأسماء الحسنى هي أَصْلُ الإيمان، والإيمانُ يَرْجِعُ إليها.

2- تدبُّر القرآن على وجه العموم: فَإِنَّ الْمُتَدَبِّرَ لَا يَزَالُ يَسْتَفِيدُ مِنْ عُلُومِ القرآن ومعارفه ما يزداد به إيماناً، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيتَ عَلَيْهِمْ عَائِنَتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: 2].

وهذا من أعظم مقويّات الإيمان، يقوّيه من وجوه كثيرة، فالمؤمن بمجرّد ما يتلو آيات الله، ويعرف ما رُتّب عليها من الأخبار الصادقة والأحكام الحسنة يحصل له من أمور الإيمان خير كثير، فكيف إذا أحسن تأمُّله، وفهّم مقاصده وأسراره؛ ولهذا كان المؤمنون الكُمَّل يقولون: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾.

3- معرفة أحاديث النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وما تَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ عُلُومِ الإيمان وأعماله، كلّها من مُحَصِّلات الإيمان ومقويّاته.

4- معرفة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ومعرفة ما هو عليه من الأخلاق العالِيَّة، والأوصاف الكاملة؛ فَإِنَّ مَنْ عَرَفَهُ حَقَّ الْمَعْرِفَةِ لَمْ يَرْتَبْ فِي صَدَقِهِ وَصَدَقِ مَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالدينِ الْحَقِّ، كما قال تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ [المؤمنون: 69]، أي: فمعرفة صَلَواتِ اللهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ توجب للعبدِ المُبَادَرَةَ

إلى الإيمان ممن لم يؤمن، وزيادة الإيمان مِمَّن آمن به، وقد قيل لبعضهم: لِمَ بادرتَ إلى الإيمان بمحمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل أن تعرف رسالته؟ فقال: ما أمر بشيء فقال العقل: لَيْتَهُ نَهَى عنه، ولا نهى عن شيء، فقال العقل: لَيْتَهُ أَمَرَ بِهِ.

فاستدلَّ هذا العاقل الموفق بحُسن شريعته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وموافقته للعقول الصَّحيحة على صحة رسالته؛ فبادر إلى الإيمان به.

ولهذا استدلَّ مَلِكُ الرُّومِ هِرَقْلُ لَمَّا وُصف له ما جاء به الرسول، وما كان يأمرُ به، وما ينهى عنه - استدلَّ بذلك أنه من أعظم الرُّسل، واعترف بذلك اعترافاً جليلاً، ولكن منعتَه الرئاسةُ وخشيةُ زوالِ مُلكِهِ من اتِّباعِهِ، كما منعت كثيراً ممن اتضح لهم أنه رسول الله حقاً، وهذا من أكبر موانع الإيمان في حق أمثال هؤلاء.

وأما أهل البصائر والعقول الصَّحيحة، فإنهم يَرَوْنَ هذه الموانع والرَّئاساتِ والشُّبهات والشَّهوات تَضْمِحِلُّ، ولا يرون لها قيمةً حتى يعارض بها الحق الصحيح النافع المثمر للسعادة عاجلاً وآجلاً.

ولهذا كان الْمُعْتَنُونَ بالقرآن حفظاً ومعرفةً، والمُعْتَنُونَ بالأحاديث الصَّحيحة أعظمَ إيماناً و يقيناً من غيرهم، وأحسنَ عملاً في الغالبِ.

5- التَّفَكُّرُ في الكون في خلق السموات والأرض: وما فيهن من المخلوقات المتنوّعة، والنَّظَرُ في نفس الإنسان، وما هو عليه من الصِّفَاتِ.

فإن ذلك داعٍ قويٌّ للإيمان؛ لما في هذه الموجودات من عظمة الخلق الدالِّ على قدرة خالقها وعظمته، وما فيها من الحُسْنِ والانتظام والإحكام، الذي يحير الألباب، الدالُّ على سعة علم الله وشُمُولِ حِكْمَتِهِ، وما فيها من أصناف المنافع

والنعم الكثيرة التي لا تُعدُّ ولا تحصى، الدالة على سعة رحمة الله وجوده وبرّه، وذلك كله يدعو إلى تعظيم مُبدِعِها وبارئها وشكره، واللّهج بذكره، وإخلاص الدين له، وهذا روح الإيمان ويُسرّه.

6- الإكثار من ذكر الله كل وقت: ومن الدعاء الذي هو مُخ العبادَة؛ فإن الذكر لله يغرس شجرة الإيمان في القلب، ويغذيها وينمّيها، وكلما ازداد العبد ذكرًا لله قوّي إيمانه، كما أن الإيمان يدعو إلى كثرة الذكر، فَمَنْ أَحَبَّ الله أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِهِ، ومحبة الله هي الإيمان، بل هي رُوحه.

7- معرفة محاسن الدين: فإن الدين الإسلامي كُلُّهُ مَحَاسِنٌ، عقائده أصحُّ العقائد وأصدقها وأنفعها، وأخلاقه أحمَدُ الأخلاق وأجملها، وأعماله وأحكامه أَحْسَنُ الأحكام وأعدلها.

وبهذا النظر الجليل يزيّن الله الإيمان في قلب العبد، ويحبّبه إليه، كما امتنّ به على خيار خلقه بقوله: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: 7].

8- الاجتهاد في التَّحَقُّق في مقام الإحسان في عبادة الله والإحسان إلى خَلْقِهِ: فيجتهد أن يعبد الله كأنه يشاهده ويراه، فإن لم يَقوَ على هذا اسْتَحْضَرَ أَنَّ الله يشاهده ويراه، فيجتهد في إكمال العمل وإتقانه، ولا يزال العبد يُجَاهِدُ نفسه ليتحقّق بهذا المقام العالي حتى يقوى إيمانه ويقينه، ويصل في ذلك إلى حقّ اليقين الذي هو أعلى مراتب اليقين، فيذوق حلاوة الطّاعات، ويجد ثمرة المعاملات، وهذا هو الإيمانُ الكَامِلُ.

9- الإحسان إلى الخَلْق بالقول والفعل والمال والبَهِ وأَنْوَاعِ الْمَنَافِع: وهو مِنَ الْإِيمَانِ وَمِنْ دَوَاعِي الْإِيمَانِ، والجزاء مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ، فكما أحسن إلى

عبادِ الله وأوصل إليهم من برّه ما يقدر عليه أحسنَ الله إليه أنواعاً من الإحسان، ومن أفضليها أن يقوّي إيمانه ورغبته في فعل الخير، والتقرّب إلى ربه وإخلاص العمل له، وبذلك يتحقّق العبدُ بالنّصح لله ولعباده؛ فإنّ الدّينَ النّصيحةُ، ومن وُفق للإحسان في عبادة ربه والإحسان في معاملة الخلق فقد تحقّق نصّحه، ولذلك قال النّبي صلى الله عليه وسلّم: «لا يؤمن أحدكم حتى يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه»، مُتفق عليه.

10- الدّعوة إلى الله ودينه، والتّواصي بالحق، والتّواصي بالصبر، والدّعوة إلى أصل الدين، والدّعوة إلى التزام شرائعه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: وبذلك يكمل العبد بنفسه، ويكمل غيره؛ وذلك أنّ نفس الدّعوة إلى الله والنّصيحة لعباده من أكبر مقوّيات الإيمان.

وصاحب الدّعوة لا بدّ أن يسعى بنصر هذه الدّعوة، وقيم الأدلة والبراهين على تحقيقها، ويأتي الأمور من أبوابها، ويتوسل إلى الأمور من طرقها، وهذه الأمور من طرق الإيمان وأبوابه.

وأيضاً، فإنّ الجزاء من جنس العمل، فكما سعى إلى تكميل العباد، ونصّحهم، وتوصيتهم بالحق، وصبر على ذلك، لا بدّ أن يُجازيه الله من جنس عمله، ويؤيّده بنور منه، وروح، وقوّة إيمان، وقوّة التوكّل.

وأيضاً فإنه مُتصدّ لنصر الحق، ومن تصدّى لشيء فلا بد أن يفتح عليه فيه من الفتوحات العلمية والإيمانية، بمقدار صدقه وإخلاصه.

11- توطين النفس على مقاومة جميع ما ينافي الإيمان من شُعَب الكفر والنّفاق والفسوق والعصيان.

12- قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ [المؤمنون: 1-10]: فهذه الصفات الثمان كُـلُّ واحدةٍ منها تثمرُ الإيمانَ وتنميه، كما أنها من صفات الإيمان، وداخله في تفسيره، فحضور القلب في الصلاة، وكون المصلي يجاهد نفسه على استحضر ما يقوله، ويفعله، من القراءة، والذكر، والدعاء فيها، والقيام، والقعود، والرُّكوع، والسجود، من أسباب زيادة الإيمان ونمائه.

وقد سمى الله الصلاة إيماناً بقوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة: 143]، وقوله: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: 45]، فهي أكبر ناهٍ عن كُلِّ فحشاءٍ ومنكرٍ ينافي الإيمان، كما أنها تحتوي على ذكرِ الله الذي يُعْزِي الإيمانَ ويُنميه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾.

والزكاة تنمي الإيمان وتزيده، وهي فرضها ونفلها، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «الْصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ»، أي: على إيمانٍ صاحبها، فهي دليل الإيمان، وتغذيته وتنميه.

والإعراض عن اللغو: الذي هو كُلُّ كلامٍ لا خير فيه، وكل فعلٍ لا خير فيه، بل يقولون الخير، ويفعلونه، ويتركون الشرَّ قولاً وفِعْلاً، لا شك أنه من الإيمان، ويزداد به الإيمان، ويثمر الإيمان؛ ولهذا كان الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَمَنْ بعدهم إذا وجدوا غفلةً أو تشعثَ إيمانهم، يقول بعضهم لبعض: اجلس بنا نؤمن ساعةً، فيذكرون الله، ويذكرون نِعَمَهُ الدِّينِيَّةَ والدُّنْيَوِيَّةَ، فيتجدد بذلك إيمانهم.

وكذلك العِقَّة عن الفواحش، خُصُوصاً فاحشة الزنا، لا ريب أن هذا من أكبر علامات الإيمان ومُتمِّياته، فالمؤمن لِحَوْفِهِ مقامه بين يدي رَبِّهِ نَهَى النَّفْسَ عن

الهوى؛ إجابة لداعي الإيمان، وتغذية لما معه من الإيمان.

ورعاية الأمانات والعهود وحفظها من علائم الإيمان، وفي الحديث: «لا إيمانَ لمن لا أمانةَ له». اهـ.

وقد ذكر العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ أصولَ زيادة الإيمان ونُقْصَانَهُ، في «تلخيص الحَمَوِيَّة» (ص 104-105)، فقال: «ولزيادة الإيمان أسبابٌ، منها:

1- معرفة أسماء الله وصفاته: فإنَّ العبدَ كُلَّمَا ازداد معرفةً بها وبمقتضياتها وآثارها ازدادَ إيمانًا بربه وحبًّا له وتعظيمًا.

2- النظر في آيات الله الكونية والشرعية: فإنَّ العبدَ كلما نظَرَ فيها وتأمَّلَ ما اشتملت عليه من القدرة الباهرة والحكمة البالغة، ازدادَ إيمانًا ويقينًا بلا ريبٍ.

3- فعل الطَّاعة تقربًا إلى الله تعالى: فإنَّ الإيمانَ يزدادُ به بحسبِ حُسْنِ العَمَلِ وجِنْسِهِ وكَثَرَتِهِ، فكلما كان العملُ أَحْسَنَ كانت زيادةُ الإيمانِ به أَعْظَمَ، وحسُنُ العملِ يكون بحسبِ الإخلاصِ والمتابعةِ.

وأما جنس العمل: فإنَّ الواجبَ أَفْضَلُ مِنَ المُسْنُونِ، وبعضُ الطاعات أَوْكَدُ وأَفْضَلُ مِنَ البَعْضِ الآخرِ، وكلما كانت الطاعةُ أَفْضَلَ كانت زيادةُ الإيمانِ بها أَعْظَمَ.

وأما كثرة العمل: فإنَّ الإيمانَ يزدادُ بها؛ لأنَّ العملَ من الإيمانِ، فلا جَرَمَ أن يَزِيدَ بزيادتهِ.

4- ترك المعصية خوفًا من الله عَزَّوَجَلَّ: وكُلَّمَا قَوِيَ الداعي إلى فعل المعصية كانت زيادةُ الإيمانِ بتركها أَعْظَمَ؛ لأنَّ تركها مع قوة الداعي إليها دليلٌ على قوة إيمان العبدِ، وتقديمه ما يحبه الله ورسوله على ما تهواه نفسه.

وأما نقص الإيمان، فله أسباب، منها:

1- الجهل بالله تعالى وأسمائه وصفاته.

2- الغفلة والإعراض عن النظر في آيات الله وأحكامه الكونية والشرعية: فإن ذلك يوجب مرض القلب، أو موته؛ باستيلاء الشهوات والشبهات عليه.

3- فعل المعصية: فينقص الإيمان بحسب جنسها، وقدرها، والتهاون بها، وقوة الداعي إليها، أو ضعفه.

فأما جنسها وقدرها: فإن نقص الإيمان بالكبائر أعظم من نقصه بالصغائر، ونقص الإيمان بقتل النفس المحرمة أعظم من نقصه بأخذ مال محترم، ونقصه بمعصيتين أكثر من نقصه بمعصية واحدة، وهكذا.

وأما التهاون بها: فإن المعصية إذا صدرت من قلب متهاون بمن عصاه، ضعيف الخوف منه، كان نقص الإيمان بها أعظم من نقصه إذا صدرت من قلب معظّم لله، شديد الخوف منه، لكن فرطت منه المعصية.

وأما قوة الداعي إليها: فإن المعصية إذا صدرت ممن ضعفت منه دواعيها كان نقص الإيمان بها أعظم من نقصه إذا صدرت ممن قويت منه دواعيها، ولذلك كان استكبار الفقير وزنا الشيخ أعظم إثمًا من استكبار الغني وزنا الشاب كما في الحديث: «ثلاثة لا يكلمهم الله، ولا ينظر إليهم يوم القيامة، ولا يزكّيهم، ولهم عذاب أليم»، وذكر منهم: «الأشيمط الزاني، والعائل المستكبر» لِقلة داعي تلك المعصية فيهما.

4- ترك الطاعة: فإن الإيمان ينقص به، والنقص به على حسب تأكد الطاعة، فكلما كانت الطاعة أوكد كان نقص الإيمان بتركها أعظم، وربما فقد الإيمان كله

كترك الصلاة.

ثم إن نقص الإيمان بترك الطاعة على نوعين:

نوعٌ يعاقب عليه، وهو ترك الواجب بلا عذر.

ونوعٌ لا يعاقب عليه، وهو ترك الواجب؛ لعذر شرعي، أو حسي، وترك المستحب.

فالأول: كترك المرأة الصلاة أيام الحيض.

والثاني: كترك صلاة الضحى، والله أعلم.

وإذا أردت أن تعرف إيمان العبد ودينه؛ فانظر حاله: هل يرعى الأمانات كلها: مالية، أو قولية، أو أمانات الحقوق؟

وهل يرعى الحقوق والعهود والعقود التي بينه وبين الله، والتي بينه وبين العباد؟

فإن كان كذلك فهو صاحب دين وإيمان، وإن لم يكن كذلك نقص من دينه وإيمانه بمقدار ما انتقص من ذلك، وختمها بالمحافظة على الصلوات على حدودها وحقوقها وأوقاتها؛ لأن المحافظة على ذلك بمنزلة الماء الذي يجري على بستان الإيمان؛ فيسقيه، وينميه، ويؤتي أكله كل حين.

وشجرة الإيمان - كما تقدم - محتاجة إلى تعاهدها كل وقت بالسقي، وهو المحافظة على أعمال اليوم والليلة، من الطاعات، والعبادات، وإلى إزالة ما يضرها من الصُّخور، والنَّوَابِ الغريبة الضارة، وهو الغفلة عن المحرمات قولاً وفعلاً. اهـ.

«وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ لَا يُكْفَرُونَ أَهْلَ الْقِبْلَةِ بِمُطْلَقِ الْمَعَاصِي وَالْكَبَائِرِ، كَمَا يَفْعَلُهُ الْخَوَارِجُ».

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ» - أي: وأهل السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ - مع أنهم يَرَوْنَ أن الأعمال مِنَ الْإِيمَانِ، وأن الْإِيمَانَ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ - لَا يُكْفَرُونَ بِمُطْلَقِ الْمَعَاصِي وَالْكَبَائِرِ - كما يفعله الخوارج - إِلَّا مَنْ اسْتَحَلَّ تِلْكَ الْمَعَاصِي وَالْكَبَائِرِ.

وقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَهْلُ الْقِبْلَةِ»: المراد بهم: المسلمون - وإن كانوا عُصَاةً - لأنهم يستقبلون الْقِبْلَةَ، وهي الكعبة، وذلك لِأَنَّ شِعَارَ الْمُسْلِمِينَ الصَّلَاةَ، ولهذا يُعَبَّرُ عَنْهُمْ بِهَا، فيقال: اخْتَلَفَ أَهْلُ الصَّلَاةِ، واختَلَفَ أَهْلُ الْقِبْلَةِ. والمُصَنِّفُونَ لمقالات المسلمين يقولون: «مقالات الإسلاميين، واختلاف المُصَلِّين».

وفي الحديث: «مَنْ صَلَّيْ صَلَاتِنَا، وَاسْتَقْبَلَ قِبْلَتَنَا، وَأَكَلَ ذَبِيحَتَنَا، فَذَلِكَ الْمُسْلِمُ، لَهُ مَا لَنَا، وَعَلَيْهِ مَا عَلَيْنَا». انظر «مجموع الفتاوى» (7 / 513).

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «بِمُطْلَقِ الْمَعَاصِي»، ولم يقل: بالمعاصي والكبائر، هذا من دِقَّتِهِ وَسَعَةِ عِلْمِهِ؛ لِأَنَّ الْمَعَاصِي مِنْهَا مَا هُوَ كُفْرٌ، وَأَمَّا مُطْلَقُ الْمَعْصِيَةِ فَإِنَّهُ لَا يَكُونُ كُفْرًا.

الفرق بين الشَّيْءِ الْمُطْلَقِ وَمُطْلَقِ الشَّيْءِ:

أن الشَّيْءَ الْمُطْلَقَ هُوَ الْكَامِلُ، ومُطْلَقُ الشَّيْءِ أَصْلُهُ؛ فَالْإِيمَانُ الْمُطْلَقُ هُوَ الْكَامِلُ، وَمُطْلَقُ الْإِيمَانِ هُوَ أَصْلُ الْإِيمَانِ.

قال الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «بَدَائِعِ الْفَوَائِدِ» (4 / 16): «الْإِيمَانُ الْمُطْلَقُ

لا يُطْلَقُ إِلَّا عَلَى الْكَامِلِ؛ لِكَمَالِ الْمَأْمُورِ بِهِ، وَمُطْلَقُ الْإِيمَانِ يُطْلَقُ عَلَى الْكَامِلِ وَالنَّاقِصِ؛ وَلِهَذَا نَفَى الْإِيمَانَ الْمَطْلُوقَ عَنِ الرَّانِي، وَالسَّارِقِ، وَشَارِبِ الْخَمْرِ، وَلَمْ يَنْفِ عَنْهُ مُطْلَقَ الْإِيمَانِ، فَالْإِيمَانُ الْمَطْلُوقُ يَمْنَعُ دُخُولَ النَّارِ، وَمَطْلُوقُ الْإِيمَانِ يَمْنَعُ الْخُلُودَ فِيهَا». اهـ.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «كَمَا يَفْعَلُهُ الْخَوَارِجُ».

الخوارج: هم الذين خَرَجُوا عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ كَمَا فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى» (7 / 481): «وَهُؤُلَاءِ الْخَوَارِجُ لَهُمْ أَسْمَاءٌ، يُقَالُ لَهُمْ: الْحَرُورِيَُّّةُ؛ لِأَنَّهُمْ خَرَجُوا بِمَكَانٍ يُقَالُ لَهُ حَرُورَاءُ، وَيُقَالُ لَهُمْ: أَهْلُ النَّهْرَوَانِ؛ لِأَنَّهُمْ قَاتَلَهُمْ هُنَاكَ، وَمِنْ أَصْنَافِهِمُ الْإِبَاضِيَّةُ، أَتْبَاعُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ إِبَاضٍ، وَالْأَزَارِقَةُ، أَتْبَاعُ نَافِعِ بْنِ الْأَزْرَقِ، وَالنَّجْدَاتُ، أَصْحَابُ نَجْدَةِ الْحَرُورِيِّ، وَهُمْ أَوَّلُ مَنْ كَفَرَ أَهْلَ الْقِبْلَةِ بِالذُّنُوبِ، بَلْ بِمَا يَرُونَهُ مِنْ الذُّنُوبِ! وَاسْتَحَلُّوا دِمَاءَ أَهْلِ الْقِبْلَةِ بِذَلِكَ، فَكَانُوا كَمَا نَعْتُهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَقْتُلُونَ أَهْلَ الْإِسْلَامِ، وَيَدْعُونَ أَهْلَ الْأَوْثَانِ».

وَكَفَرُوا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَعُثْمَانُ بْنُ عَفَانَ، وَمِنْ وَالَاهُمَا، وَقَتَلُوا عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ مُسْتَحِلِّينَ لِقَتْلِهِ، قَتَلَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُلْجَمٍ الْمُرَادِي مِنْهُمْ، وَكَانَ هُوَ وَغَيْرُهُ مِنَ الْخَوَارِجِ، مُجْتَهِدِينَ فِي الْعِبَادَةِ، لَكِنْ كَانُوا جُهَّالًا، فَارْقُوا السُّنَّةَ وَالْجَمَاعَةَ، فَقَالَ هَؤُلَاءِ: مَا النَّاسُ إِلَّا مُؤْمِنٌ وَكَافِرٌ، وَالْمُؤْمِنُ مَنْ فَعَلَ جَمِيعَ الْوَاجِبَاتِ، وَتَرَكَ جَمِيعَ الْمَحْرَمَاتِ، فَمَنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ فَهُوَ كَافِرٌ مُخَلَّدٌ فِي النَّارِ، ثُمَّ جَعَلُوا كُلَّ مَنْ خَالَفَ قَوْلَهُمْ كَذَلِكَ، فَقَالُوا: إِنَّ عَلِيًّا، وَعُثْمَانَ، وَنَحْوَهُمَا حَكَمُوا بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ، وَظَلَمُوا، فَصَارُوا كُفَّارًا». اهـ.

وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ كَمَا فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى» (3 / 355): «أَصْلُ

قول الخَوَارِج إنهم يكفرون بالذنب، ويعتقدون ذنبًا ما ليس بذنب، ولا يرون اتباع السُّنة التي تخالف ظاهر الكتاب - وإن كانت متواترة -، ويكفرون من خالفهم، ويستحلون منه - لارتداده عندهم - ما لا يستحلونه من الكافر الأَصلي، كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيهم «يَقْتُلُونَ أَهْلَ الْإِسْلَامِ، وَيَدْعُونَ أَهْلَ الْأَوْثَانِ». ولهذا كفروا عثمان، وعليًا، وشيعتهما، وكفروا أهل صفين - الطائفتين - في نحو ذلك من المقالات الخبيثة». اهـ.

وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ كما في «مَجْمُوعُ الْفَتَاوَى» (32 / 13): «ولما اقْتَتَلَ المسلمون بَصَفَيْنَ، وَاتَّفَقُوا عَلَى تَحْكِيمِ حَكَمَيْنِ خَرَجَتِ الْخَوَارِجُ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، وَفَارَقُوهُ، وَفَارَقُوا جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى مَكَانٍ يُقَالُ لَهُ: حُرُورَاءَ، فَكَفَّ عَنْهُمْ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، وَقَالَ: لَكُمْ عَلَيْنَا أَنْ لَا نَمْنَعَكُمْ حَقَّكُمْ مِنَ الْفِيءِ، وَلَا نَمْنَعَكُمْ الْمَسَاجِدَ، إِلَى أَنْ اسْتَحَلُّوا دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ وَأَمْوَالَهُمْ، فَقَتَلُوا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ خُبَّابٍ، وَأَغَارُوا عَلَى سَرَحِ الْمُسْلِمِينَ، فَعَلِمَ عَلِيٌّ أَنَّهُمُ الطَّائِفَةُ الَّتِي ذَكَرَهَا الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حَيْثُ قَالَ: «يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ، وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ، وَقِرَاءَتَهُ مَعَ قِرَاءَتِهِمْ، يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، آيَتُهُمْ رَجُلٌ مُخَذَّجٌ الْيَدِ، عَلَيْهَا بَضْعَةٌ عَلَيْهَا شَعْرَاتٌ».

وفي رواية «يَقْتُلُونَ أَهْلَ الْإِسْلَامِ، وَيَدْعُونَ أَهْلَ الْأَوْثَانِ».

فخطب النَّاسَ، وَأَخْبَرَهُمْ بِمَا سَمِعَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَالَ: «هَمْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ قَدْ سَفَكُوا الدَّمَ الْحَرَامَ، وَأَغَارُوا عَلَى سَرَحِ النَّاسِ»، فَقَاتَلَهُمْ وَوَجَدَ الْعَلَامَةَ بَعْدَ أَنْ كَادَ لَا يَوْجَدُ، فَسَجَدَ لِلَّهِ شُكْرًا». اهـ.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ (71 / 19 - 74): «أَوَّلُ الْبِدْعِ ظُهُورًا فِي الْإِسْلَامِ، وَأَظْهَرُهَا

ذَمًّا فِي السُّنَّةِ وَالْآثَارِ: بَدَعَةُ الْحُرُورِيَّةِ الْمَارِقَةِ؛ فَإِنَّ أَوَّلَهُمْ قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي وَجْهِهِ: اْعْدِلْ يَا مُحَمَّدُ؛ فَإِنَّكَ لَمْ تَعْدِلْ، وَأَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَتْلِهِمْ وَقَتْلَهُمْ أَصْحَابُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ.

وَالْأَحَادِيثُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُسْتَفِيزَةٌ بِوَصْفِهِمْ وَذَمِّهِمْ وَالْأَمْرُ بِقَتْلِهِمْ.

قَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ: صَحَّ الْحَدِيثُ فِي الْخَوَارِجِ مِنْ عَشْرَةِ أَوْجُهٍ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَحْقَرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ، وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ، وَقِرَاءَتَهُ مَعَ قِرَاءَتِهِمْ، يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، أَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ، فَإِنَّ فِي قَتْلِهِمْ أَجْرًا عِنْدَ اللَّهِ لِمَنْ قَتَلَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

وَلَهُمْ خَاصَّتَانِ مَشْهُورَتَانِ فَارْقُوا بِهِمَا جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَأَثَمْتُهُمْ:

أَحَدُهُمَا: خُرُوجُهُمْ عَنِ السُّنَّةِ، وَجَعْلُهُمْ مَا لَيْسَ بِسُنَّةٍ سَيِّئَةً، أَوْ مَا لَيْسَ بِحَسَنَةٍ حَسَنَةً، وَهَذَا هُوَ الَّذِي أَظْهَرُوهُ فِي وَجْهِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حَيْثُ قَالَ لَهُ ذُو الْخُوَيْصِرَةِ التَّمِيمِيُّ: اْعْدِلْ؛ فَإِنَّكَ لَمْ تَعْدِلْ، حَتَّى قَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَيْلَكَ! وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ اْعْدِلْ؟ لَقَدْ خَبْتُ وَخَسِرْتُ إِنْ لَمْ اْعْدِلْ».

فَقَوْلُهُ: «إِنَّكَ لَمْ تَعْدِلْ» جَعَلَ مِنْهُ لِفِعْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَفَهًا، وَتَرَكَ اْعْدِلَ.

وَقَوْلُهُ: «اْعْدِلْ»: أَمْرٌ بِمَا اِعْتَقَدَهُ هُوَ حَسَنَةً، مِنْ الْقِسْمَةِ الَّتِي لَا تَصْلُحُ.

وَهَذَا الْوَصْفُ تَشْتَرِكُ فِيهِ الْبَدْعُ الْمُخَالَفَةُ لِلْسُّنَّةِ، فَقَائِلُهَا لَا بَدَأَ أَنْ يَثْبُتَ مَا

نَفَثَةُ السُّنَّةِ، وينفي ما أثبتته السُّنَّةُ، ويحسن ما قَبَّحَتْهُ السُّنَّةُ، أو يقبِّح ما حَسَّنَتْ السُّنَّةُ، وإلا لم يكن بدعة.

وهذا القَدْرُ قد يَقَعُ من بعض أهل العلم خطأ في بعض المسائل، لكنَّ أهل البدع يخالفون السُّنَّةَ الظَّاهِرةَ المَعْلُومَةَ.

والخوارج جَوَّزُوا عَلَى الرِّسُولِ نَفْسَهُ أَنْ يَجُورَ وَيَضِلَّ فِي سُنَّتِهِ، وَلَمْ يَحْبُوا طَاعَتَهُ وَمَتَابَعَتَهُ، وَإِنَّمَا صَدَّقُوهُ فِيمَا بَلَغَهُ مِنَ الْقُرْآنِ دُونَ مَا شَرَعَهُ مِنَ السُّنَّةِ الَّتِي تَخَالَفَ - بَزَعْمِهِمْ - ظَاهَرَ الْقُرْآنِ.

وغالِبُ أَهْلِ الْبِدْعِ - غَيْرِ الْخَوَارِجِ - يَتَابَعُونَهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ عَلَى هَذَا؛ فَإِنَّهُمْ يَرَوْنَ أَنَّ الرِّسُولَ لَوْ قَالَ بِخِلَافِ مَقَالَتِهِمْ لَمَا اتَّبَعُوهُ، كَمَا يُحْكِي عَنْ عَمْرِو بْنِ عَبْدِ فِي حَدِيثِ الصَّادِقِ الْمَصْدُوقِ، وَإِنَّمَا يَدْفَعُونَ عَنْ نَفْسِهِمُ الْحُجَّةَ؛ إِمَّا بِرَدِّ النُّقْلِ، وَإِمَّا بِتَأْوِيلِ الْمَنْقُولِ، فَيُطْعَمُونَ تَارَةً فِي الْإِسْنَادِ، وَتَارَةً فِي الْمَتْنِ، وَإِلَّا فَهُمْ لَيْسُوا مُتَّبِعِينَ وَلَا مُؤْتَمِّينَ بِحَقِيقَةِ السُّنَّةِ الَّتِي جَاءَ بِهَا الرِّسُولُ، بَلْ وَلَا بِحَقِيقَةِ الْقُرْآنِ.

الفرق الثاني في الخوارج وأهل البدع:

أَنَّهُمْ يُكْفَرُونَ بِالذُّنُوبِ وَالسَّيِّئَاتِ، وَيَتَرَتَّبُ عَلَى تَكْفِيرِهِمْ بِالذُّنُوبِ اسْتِحْلَالُ دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَأَمْوَالِهِمْ، وَأَنَّ دَارَ الْإِسْلَامِ دَارُ حَرْبٍ، وَدَارُهُمْ هِيَ دَارُ الْإِيمَانِ، وَكَذَلِكَ يَقُولُ جَمْهُورُ الرَّافِضَةِ، وَجَمْهُورُ الْمَعْتَزَلَةِ، وَالْجَهْمِيَّةِ، وَطَائِفَةٌ مِنْ غَلَاةِ الْمُنْتَسِبَةِ إِلَى أَهْلِ الْحَدِيثِ وَالْفِقْهِ وَمُتَكَلِّمِيهِمْ، فَهَذَا أَصْلُ الْبِدْعِ الَّتِي ثَبَتَ بِنَصِّ سَنَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِجْمَاعِ السَّلَفِ أَنَّهَا بَدْعَةٌ، وَهُوَ جَعَلَ الْعَفْوَ سَيِّئَةً، وَجَعَلَ السَّيِّئَةَ كُفْرًا، فَيَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَحْذَرَ مِنْ هَذَيْنِ الْأَصْلَيْنِ الْخَبِيثَيْنِ، وَمَا يَتَوَلَّدُ عَنْهُمَا مِنْ بُغْضِ الْمُسْلِمِينَ، وَذَمِّهِمْ، وَلَعْنِهِمْ، وَاسْتِحْلَالِ

دمائهم وأموالهم.

وهذان الأصلان هما خلاف السُّنَّة والجماعة فمن خالف السُّنَّة فيما أتت به أو شرعته فهو مبتدعٌ خارج عن السُّنَّة، ومن كفر المسلمين بما رآه ذنباً - سواء كان ديناً أو لم يكن ديناً - وعاملهم معاملة الكفار فهو مفارق للجماعة، وعامة البدع والأهواء إنما تنشأ من هذين الأصلين». اهـ.



«بل الأخوة الإيمانية ثابتة مع المعاصي، كما قال- سبحانه- في آية القصاص: ﴿فَمَنْ عَفَى لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَأْتِبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: 178]، وقال تعالى: ﴿وَلِنْ طَافَيْنَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَفْتَلَوْا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَتِّلُوا آلَتِي تَبَغَىٰ حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (١) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: 9، 10]».

بين شيخ الإسلام رحمه الله في هذه الفقرة أن الأخوة الإيمانية لا تتفي بوجود الكبائر؛ فإن مرتكب الكبيرة- ما لم يكن مستحلاً لها- أخ لنا في الإيمان، فالقاتل أخ للمقتول، والسارق أخ للمسروق منه، والزاني أخ للعفيف، وشارب الخمر أخ للمعافي من ذلك، خلافاً للخوارج الذين ينفون الأخوة الإيمانية بين هؤلاء، وهم مخجوجون بالكتاب، والسنة، والإجماع.

وقد ذكر شيخ الإسلام آيتين في الدلالة على ما سبق: الأولى: ﴿فَمَنْ عَفَى لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَأْتِبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: 178].

ووجه الدلالة من الآية: أن الله سمى المقتول أخاً للقاتل، مع أن القاتل ارتكب كبيرة من كبائر الذنوب، فلم تتف الأخوة الإيمانية، بسبب الوقوع في كبيرة من كبائر الذنوب.

والآية الثانية: قوله تعالى: ﴿وَلِنْ طَافَيْنَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَفْتَلَوْا﴾، إلخ. وجه الدلالة من الآية: ما قاله شيخ الإسلام رحمه الله في «منهاج السنة» (293/5) بعد أن ذكر الآيتين السابقتين: «فقد سمأهم مؤمنين مع الاقتتال

والبغي، وقد أمر الله تعالى بالإصلاح بينهم، وجعلهم إخوة المصلح بينهم الذي لم يُقاتل، فعلم أن البغي لا يُخرج عن الإيمان، ولا عن أخوة الإيمان». اهـ.

وقال رحمه الله في «منهاج السنة» (8/ 529-530): «فوصفهم بالإيمان مع الاقتتال والبغي، وأخبر أنهم إخوة، وأن الأخوة لا تكون إلا بين المؤمنين، لا بين مؤمن وكافر.

وفي «صحيح البخاري» وغيره عن أبي بكر، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للحسن: «إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين».

فأصلح الله به بين عسكر علي وعسكر معاوية، فدل على أن كليهما مسلمون، ودل على أن الله يحب الإصلاح بينهما، ويشي على من فعل ذلك، ودل على أن ما فعله الحسن كان رضا الله ورسوله، ولو كان القتال واجبا أو مستحبا لم يكن تركه رضا الله ورسوله.

وأیضا، فالنقل المتواتر عن الصحابة أنهم حكموا في الطائفتين بحكم الإسلام، وورثوا بعضهم من بعض، ولم يسبوا ذراريهم، ولم يغنموا أموالهم التي لم يحضروا بها القتال، بل كان يصلي بعضهم على بعض، وخلف بعض.

وهذا أحد ما نَقَمَهُ الخوارجُ على علي رضي الله عنه؛ فإن مناديه نادى يوم الجمل: لا يُتبع مُدْبِرٌ، ولا يُجهزُ على جريح، ولم يَغنم أموالهم، ولا سبى ذراريهم، وأرسل ابن عباس إلى الخوارج، وناظرهم في ذلك» اهـ.

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله في تفسيره (4/ 269) بعد أن ذكر الآيتين السابقتين: «فسمّاهم مؤمنين مع الاقتتال، وبهذا استدلل البخاري وغيره على أنه

لا يخرج عن الإيمان بالمعصية - وإن عَظُمَتْ - لا كما يقوله الخوارجُ ومَن تابعهم مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ وَنَحْوِهِمْ.

وهكذا ثَبَتَ في «صحيح البخاري» مِنْ حَدِيثِ الْحَسَنِ عَنْ أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطَبَ يَوْمًا وَمَعَهُ الْحَسَنُ عَلَى الْمَنْبَرِ، فَجَعَلَ يَنْظُرُ إِلَيْهِ مَرَّةً وَإِلَى النَّاسِ أُخْرَى، وَيَقُولُ: «إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ، وَلَعَلَّ اللَّهَ تَعَالَى يُصْلِحُ بِهِ بَيْنَ فِتْنَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ».

فكان كما قال النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَصْلَحَ اللَّهُ بِهِ بَيْنَ أَهْلِ الشَّامِ وَأَهْلِ الْعِرَاقِ، بَعْدَ الْحُرُوبِ الطَّوِيلَةِ، وَالْوَقَاعَاتِ الْمَهُولَةِ. اهـ.

ومما يُرَدُّ بِهِ عَلَى الْخَوَارِجِ فِي هَذَا الْبَابِ مَا بَوَّبَ بِهِ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ فِي كِتَابِ (الإيمان)، حَيْثُ قَالَ: «بَابُ (المعاصي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَلَا يَكْفُرُ صَاحِبُهَا بِارْتِكَابِهَا، إِلَّا بِالشِّرْكِ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّكَ أَمْرٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ»، وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: 48]».

حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ حَرْبٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ وَاصِلِ الْأَحْذَبِ، عَنْ الْمَعْرُورِ، قَالَ: لَقِيتُ أَبَا ذَرٍّ بِالرَّبَذَةِ وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ، وَعَلَى غَلَامِهِ حُلَّةٌ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: إِنِّي سَابَيْتُ رَجُلًا فَعَيَّرْتُهُ بِأُمَّه، فَقَالَ لِي النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا أَبَا ذَرٍّ، أَعَيَّرْتَهُ بِأُمَّه؟ إِنَّكَ أَمْرٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ، إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ، جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ».

باب: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا﴾، فَسَمَّاهُمُ الْمُؤْمِنِينَ).

حدَّثنا عبد الرحمن بن المبارك، حدَّثنا حماد بن زيد، حدَّثنا أيوب ويونس، عن الحسن، عن الأحنف بن قيس، قال: ذهبت لأنصر هذا الرجل، فلقيني أبو بكر، فقال: أين تريد؟ قلت: أنصر هذا الرجل، قال: ارجع؛ فإني سمعتُ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «إِذَا التَّقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ»، فقلتُ: يا رسول الله، هذا القاتلُ فما بالُ المقتولِ؟ قال: «إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ».

قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» (1/107): «قال ابن بطال: غرض البخاري الردُّ على من يُكفِّر بالذنوب، كالخوارج، ويقول: إنَّ مَنْ مات على ذلك يُخَلَّدُ في النار، والآية تردُّ عليهم؛ لأن المراد بقوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾: مَنْ مَاتَ عَلَى كُلِّ ذَنْبٍ سِوَى الشُّرْكِ».

ثم قال ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: «وَأَمَّا قِصَّةُ أَبِي ذَرٍّ، فَإِنَّمَا ذُكِرَتْ لِیُسْتَدَلَّ بِهَا عَلَى أَنَّ مَنْ بَقِيَ فِيهِ خِصْلَةٌ مِنْ خِصَالِ الْجَاهِلِيَّةِ - سِوَى الشُّرْكِ - لَا يَخْرُجُ عَنِ الْإِيمَانِ بِهَا، سِوَاكَ كَانَتْ مِنَ الصَّغَائِرِ أَمْ مِنَ الْكِبَائِرِ، وَهَذَا وَاضِحٌ».

ثم قال: «وَاسْتَدَلَّ الْمُؤَلِّفُ - أَيْضًا - عَلَى أَنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا ارْتَكَبَ مَعْصِيَةً لَا يَكْفُرُ، بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَبْقَى عَلَيْهِ اسْمَ الْمُؤْمِنِ، فَقَالَ: ﴿وَلِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾، ثُمَّ قَالَ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ وَاسْتَدَلَّ - أَيْضًا - بِقَوْلِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا التَّقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا» فَسَمَّاهُمَا مُسْلِمَيْنِ مَعَ التَّوَعُّدِ بِالنَّارِ، وَالْمُرَادُ هُنَا: إِذَا كَانَتِ الْمَقَاتَلَةُ بِغَيْرِ تَأْوِيلٍ سَائِعٍ». اهـ.

ومما يدل - أَيْضًا - عَلَى بَطْلَانِ مَذْهَبِ الْخَوَارِجِ الْمَكْفُرِينَ لِمَرْتَكَبِ الْكَبِيرَةِ: مَا قَالَهُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللهُ كَمَا فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى» (7/482 - 487): «وَمَذْهَبُ هَؤُلَاءِ بَاطِلٌ بِدَلَالِ كَثِيرَةٍ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَنِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ

أمر بِقَطْعِ يَدِ السَّارِقِ دُونَ قَتْلِهِ، وَلَوْ كَانَ كَافِرًا مُرْتَدًّا لَوَجِبَ قَتْلُهُ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ».

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بِأَحَدِي ثَلَاثٍ: كُفْرٌ بَعْدَ إِسْلَامٍ، وَزَنًا بَعْدَ إِحْصَانٍ، أَوْ قَتْلُ نَفْسٍ يُقْتَلُ بِهَا».

وَأَمْرٌ سَبَحَانَهُ أَنْ يُجْلَدَ الزَّانِي وَالزَّانِيَةُ مِائَةً جَلْدَةً، وَلَوْ كَانَا كَافِرَيْنِ لِأَمْرِ بِقَتْلِهِمَا.

وَأَمْرٌ سَبَحَانَهُ أَنْ يُجْلَدَ قَاذِفُ الْمَحْصَنَةِ ثَمَانِينَ جَلْدَةً، وَلَوْ كَانَ كَافِرًا لِأَمْرِ بِقَتْلِهِ.

وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَجْلِدُ شَارِبَ الْخَمْرِ، وَلَمْ يَقْتُلْهُ، بَلْ قَدْ ثَبَتَ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ وَغَيْرِهِ: أَنَّ رَجُلًا كَانَ يَشْرِبُ الْخَمْرَ، وَكَانَ اسْمُهُ عَبْدُ اللَّهِ، حَمَارًا، وَكَانَ يُضْحِكُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكَانَ كَلِمَا أَتَى بِهِ إِلَيْهِ جَلْدَهُ، فَأَتَى بِهِ إِلَيْهِ مَرَّةً، فَلَعَنَهُ رَجُلٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَلْعَنَهُ؛ فَإِنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ».

فَنَهَى عَنْ لَعْنِهِ بِعَيْنِهِ، وَشَهِدَ لَهُ بِحُبِّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، مَعَ أَنَّهُ قَدْ لَعَنَ شَارِبَ الْخَمْرِ عَمُومًا.

إِلَى أَنْ قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَلَمَّا شَاعَ فِي الْأُمَّةِ أَمْرُ الْخَوَارِجِ تَكَلَّمَتِ الصَّحَابَةُ فِيهِمْ، وَرَوَوْا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْأَحَادِيثَ فِيهِمْ، وَبَيَّنُّوا مَا فِي الْقُرْآنِ مِنَ الرَّدِّ عَلَيْهِمْ، وَظَهَرَتْ بَدْعُهُمْ فِي الْعَامَّةِ، فَجَاءَتْ بَعْدَهُمُ الْمَعْتَزِلَةُ الَّذِينَ اعْتَزَلُوا الْجَمَاعَةَ بَعْدَ مَوْتِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ، وَهُمْ: عَمْرُو بْنُ عُبَيْدٍ، وَوَأَصْلُ بْنُ عَطَاءٍ الْغَزَالِ، وَأَتْبَاعُهُمَا، فَقَالُوا: أَهْلُ الْكِبَائِرِ مَخْلُودُونَ فِي النَّارِ - كَمَا قَالَتِ الْخَوَارِجُ -،

ولا نُسَمِّيهِمْ لا مؤمنين ولا كفارًا، بل فُسَّاقٌ، نُزِّلُهُمْ منزلةً بين المنزلتين.
وأنكروا شفاعة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأهل الكبائر من أمته، وأن يخرج من
النار أحدٌ بعد أن يدخلها.

قالوا: ما الناس إلا رجالان: سعيدٌ لا يُعَذَّبُ، أو شقيٌّ لا ينعم.

الشقي نوعان: كافرٌ، وفاسقٌ، ولم يوافقوا الخوارج على تسميتهم كفارًا.
وهؤلاء يُرَدُّ عليهم بمثل ما رَدُّوا به على الخوارج، فيقال لهم: كما أنهم
قَسَمُوا النَّاسَ إلى مؤمنٍ لا ذنب له، وكافرٍ لا حسنة له، قَسَمَتِ النَّاسَ إلى مؤمنٍ
لا ذنب له، وإلى كافرٍ، وفاسقٍ لا حسنة له، فلو كانت حسنة هذا كلها محبطة
وهو مخلد في النار لاستحقَّ المعادة المحضة بالقتل والاسترقاق، كما يستحقها
المرتد، فإن هذا قد أظهر دينه بخلاف المنافق، وقد قال تعالى في كتابه: ﴿إِنَّ
اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: 48]، فجعل ما
دون ذلك الشرك معلقًا بمشيئته.

ولا يجوز أن يُحْمَلَ هذا على التائب؛ فإن التائب لا فرق في حقه بين الشرك
وغيره، كما قال سبحانه في الآية الأخرى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى
أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: 53]، فهنا
عمم وأطلق؛ لأن المراد به التائب، وهناك خصّ وعلق.

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ
ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإذنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ
الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ
ذَهَبٍ وَوُكُوءٌ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ

إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ [فاطر: 32 - 35].

فقد قَسَمَ - سبحانه - الأُمَّة التي أورثها الكتابَ واصطفاهَا ثلاثةَ أصنافٍ:
ظالمٌ لنفسه، ومقتصدٌ، وسابق بالخيرات.

وهؤلاء الثلاثة ينطبقون على الطبقات الثلاث المذكورة في حديث جبريل:
الإسلام، الإيمان، الإحسان، كما سنذكره إن شاء الله.

ومعلوم أن الظالم لنفسه إن أريد من اجتناب الكبائر، والتائب من جميع
الذنوب فذلك مقتصد، أو سابق بالخيرات؛ فإنه ليس أحدٌ من بني آدم يخلو عن
ذنب.

لكن من تاب كان مقتصدًا أو سابقًا، كذلك، من اجتنَب الكبائر كُفِّرَتْ عنه
السيئات، كما قال تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ
سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [النساء: 31]، فلا بُدَّ أن يكون هناك ظالمٌ لنفسه موعودٌ بالجنة ولو
بعد عذابٍ يُطَهِّرُهُ من الخطايا.

فإن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذكر أن ما يصيبُ المؤمن في الدنيا من المصائب
مما يجزئ به ويكفر عنه خطاياه، كما ثبت عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «ما يُصِيبُ
المؤمنَ من وَصَبٍ، ولا نَصَبٍ، ولا هَمٍّ، ولا حزنٍ، ولا غمٍّ، ولا أذى، حتى
الشُّوْكَةُ يُشَاكُّهَا إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خطاياها».

وأيضًا، فقد تواترت الأحاديثُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أنه يخرج أقوامَ
من النار بعد ما دخلوها، وأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يشفعُ في أقوامٍ دخلوا النار.

وهذه الأحاديث حُجَّةٌ على الطائفتين: الوعيدية الذين يقولون: من دخلها

من أهل التوحيد لم يَخْرُجْ منها، وعلى المرجئة الواقفة الذين يقولون: لا ندري هل يدخل من أهل التوحيد النَّارَ أحدٌ أم لا؟ كما يقول ذلك طوائف من الشيعة والأشعرية، كالقاضي أبي بكرٍ وغيره.

أما ما يُذكر عن غلاة المرجئة أنهم قالوا: لن يدخل النَّارَ من أهل التوحيد أحدٌ فلا نعرف قائلاً مشهوراً من المنسوين إلى العلم، يُذكر عنه هذا القول.

وأيضاً، فإنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد شهد لشارب الخمر المجلود مرَّاتٍ بأنه يُحبُّ الله ورسوله، ونهى عن لعنه، ومعلوم أن من أحبَّ الله ورسوله أحبه الله ورسوله بقدر ذلك.

وأيضاً، فإن الذين قذفوا عائشة أم المؤمنين كان فيهم مسطح بن أثاثه، وكان من أهل بدرٍ، وقد أنزل الله فيه لَمَّا حَلَفَ أبو بكر ألا يصله: ﴿وَلَا يَأْتِلِ أَوْلُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور: 22].

وإن قيل: إن مسطحاً وأمثاله تابوا، لكن الله لم يشترط في الأمر بالعفو عنهم والصفح والإحسان إليهم التوبة، وكذلك حاطب بن أبي بلتعة كاتب المشركين بأخبار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلما أراد عمرُ قتله قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنه قد شهد بدرًا، وما يُدريك أن الله قد اطلع على أهل بدرٍ، فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم»، وكذلك ثبت عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الصحيح أنه قال: «لا يدخل النَّارَ أحدٌ بايع تحت الشجرة»، وهذه النصوص تقتضي أن السيئات مغفورة بتلك الحسنات، ولم يشترط مع ذلك توبة، وإلا فلا اختصاص لأولئك بهذا، والحديث يقتضي المغفرة بذلك العمل، وإذا قيل: إن هذا لأن أحداً من أولئك لم يكن له إلا صفائر لم يكن ذلك من خصائصه - أيضاً - وأن هذا يستلزم تجويز

الكبيرة من هؤلاء المغفور لهم.

وأيضاً قد دلت نصوص الكتاب والسنة على أن عقوبة الذنوب تزول عن العبد بنحو عشرة أسباب. اهـ، ثم ذكرها رحمه الله.

وأختم الكلام على الخوارج هنا بسؤال سئل عنه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، كما في «مجموع الفتاوى» (4/307) عن العبد المؤمن هل يكفر بالمعصية أم لا؟ فأجاب: «لا يكفر بمجرّد الذنب، فإنه ثبت بالكتاب والسنة وإجماع السلف أن الزاني غير المحصن يُجلد، ولا يُقتل، والشارب يُجلد، والقاذف يُجلد، والسارق يُقطع، ولو كانوا كفاراً لكانوا مُرتدين ووجب قتلهم، وهذا خلاف الكتاب والسنة وإجماع السلف» اهـ.



«وَلَا يَسْلُبُونَ الْفَاسِقَ الْمِلِّيَّ الْإِسْلَامَ بِالْكَلْبِيَّةِ، وَلَا يُخَلِّدُونَهُ فِي النَّارِ كَمَا تَقُولُهُ الْمُعْتَزَلَةُ».

الفاسق: هو الخارج من طاعة الله، ويُطلق على الكافر، وعلى العاصي، فمن إطلاقه على الكافر قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: 55]، وكقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾ [السجدة: 18]، ومن إطلاقه على العاصي قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات: 6].

قال الراغب الأصفهاني في «المفردات» (ص 382): «فَسَقَ فلانٌ: خرج عن حجر الشرع، وذلك من قولهم: فَسَقَ الرُّطْبُ إِذَا خَرَجَ عَنْ قِشْرِهِ، وهو أَعْمُ مِنَ الْكُفْرِ». اهـ.

فالفاسق الذي فُسِّقَ بمعصية لا تُخرجه عن دائرة الإسلام، وهو الفاسق المِلِّي.

ومعنى المِلِّي: المُتَنَسِّبُ إِلَى مِلَّةِ الْإِسْلَامِ الَّذِي لَمْ يَخْرُجْ مِنْهَا.

وقد قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ كَمَا فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى» (3/ 182-183): «كَانَ النَّاسُ فِي قَدِيمِ الزَّمَانِ قَدْ اخْتَلَفُوا فِي الْفَاسِقِ الْمِلِّيِّ، وَهُوَ أَوَّلُ اخْتِلَافٍ حَدَثَ فِي الْمِلَّةِ، هَلْ هُوَ كَافِرٌ، أَوْ مُؤْمِنٌ، فَقَالَتِ الْخَوَارِجُ: إِنَّهُ كَافِرٌ، وَقَالَتِ الْجَمَاعَةُ: إِنَّهُ مُؤْمِنٌ، وَقَالَتِ طَائِفَةٌ: نَقُولُ: هُوَ فَاسِقٌ، لَا مُؤْمِنٌ، وَلَا كَافِرٌ، نَنْزِلُهُ مَنْزِلَةً بَيْنَ الْمَنْزِلَتَيْنِ، وَخَلَّدُوهُ فِي النَّارِ، وَاعْتَزَلُوا حَلَقَةَ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ وَأَصْحَابِهِ، فَسُمُّوا مُعْتَزَلَةً». اهـ.

وقد قَسَمَ رَحْمَةُ اللَّهِ النَّاسَ فِي الْفَاسِقِ الْمَلِي إِلَى أَقْسَامٍ ثَلَاثَةٍ، فَقَالَ كَمَا فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى» (7/ 670 - 673): «النَّاسُ فِي الْفَاسِقِ مِنْ أَهْلِ الْمَلَّةِ - مِثْلُ الزَّانِي، وَالسَّارِقِ، وَالشَّارِبِ، وَنَحْوِهِمْ - ثَلَاثَةٌ أَقْسَامٍ: طَرْفَيْنِ وَوَسْطَيْنِ، أَحَدُ الطَّرْفَيْنِ: أَنَّهُ لَيْسَ بِمُؤْمِنٍ بِوَجْهِهِ مِنَ الْوَجْهِ، وَلَا يَدْخُلُ فِي عُمُومِ الْأَحْكَامِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِاسْمِ الْإِيمَانِ.

ثم من هؤلاء من يقول: هو كافر كاليهودي والنصراني، وهو قول الخوارج. ومنهم من يقول: نُزِّلَهُ مَنْزِلَةً بَيْنَ الْمَنْزِلَتَيْنِ، وَهِيَ مَنْزِلَةُ الْفَاسِقِ، وَلَيْسَ هُوَ بِمُؤْمِنٍ، وَلَا كَافِرٍ، وَهُمُ الْمُعْتَزِلَةُ.

وهؤلاء يقولون: إِنْ أَهْلَ الْكِبَائِرِ يُخَلَّدُونَ فِي النَّارِ، وَإِنْ أَحَدًا مِنْهُمْ لَا يَخْرُجُ مِنْهَا، وَهَذَا مِنْ مَقَالَاتِ أَهْلِ الْبِدْعِ الَّتِي دَلَّ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَإِجْمَاعُ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ عَلَى خِلَافِهَا.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا﴾، إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: 9، 10]؛ فَسَمَّاهُمْ مُؤْمِنِينَ، وَجَعَلَهُمْ إِخْوَةً مَعَ الْاِقْتِتَالِ وَبَغْيِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ.

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: 92]، وَلَوْ أَعْتَقَ مُذْنِبًا أَجْزَأَ عِتْقُهُ بِإِجْمَاعِ الْعُلَمَاءِ.

وَلِهَذَا يَقُولُ عُلَمَاءُ السَّلَفِ فِي الْمَقَدِّمَاتِ الْاِعْتِقَادِيَّةِ: «لَا نُكْفِّرُ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ بِذَنْبٍ، وَلَا نَخْرِجُهُ مِنَ الْإِسْلَامِ بِعَمَلٍ».

وَقَدْ ثَبَتَ الزُّنَا وَالسَّرْقَةُ وَشُرْبُ الْخَمْرِ عَلَى أَنَاسٍ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَمْ يَحْكَمْ فِيهِمْ حَكْمَ مَنْ كَفَرَ، وَلَا قَطَعَ الْمَوَالَاةَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ

المسلمين، بل جلدَ هذا، وقطَعَ هذا، وهو في ذلك يستغفر لهم، ويقول: «لا تَكُونُوا أَعْوَانِ الشَّيْطَانِ عَلَىٰ أَخِيكُمْ»، وأحكامُ الإسلامِ كُلُّها مُرتَبَةٌ على هذا الأصل.

الطرف الثاني: قول من يقول: إيمانهم باقٍ كما كان لم ينقص؛ بناءً على أن الإيمان هو مجرد التصديق، والاعتقاد الجازم، وهو لم يَتَغَيَّرْ، وإنما نقصت شرائع الإسلام، وهذا قول المرجئة والجهمية ومَن سلك سبيلهم، وهو - أيضًا - مخالف للكتاب، والسنة، وإجماع السابقين والتابعين لهم بإحسان.

قال الله تعالى ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [الحجرات: 15]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ [الأنفال: 2-4]، وقال تعالى: ﴿ فَرَادَهُمْ إِيمَنًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ ﴾ [آل عمران: 173]، وقال تعالى: ﴿ لِيَزَادُوا إِيمَنًا مَعَ إِيمَانِهِمْ ﴾ [الفتح: 4]، وقال تعالى: ﴿ فَرَادَتْهُمْ إِيمَنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [التوبة: 124].

وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الإيمانُ بضعٌ وسبعونَ شُعبَةً، أعلاها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطةُ الأذى عَنِ الطَّرِيقِ»، وقال لوفد عبد القيس: «أَمَرُكُمْ بالإيمانِ بالله، أتدرون ما الإيمان بالله؟ شهادة أن لا إله إلا الله، وأن تُؤدُّوا حُمُسَ ما غَنِمْتُمْ».

وأجمع السلف: أن الإيمان قولٌ وعملٌ، يزيدُ وينقصُ.

ومعنى ذلك: أنه قولُ القلب، وعملُ القلب، ثم قولُ اللسان، وعملُ الجوارح...».

إلى أن قال رَحِمَهُ اللهُ: «وعند هذا فالقولُ الوَسْطُ الذي هو قولُ أهلِ السُّنَّةِ والجماعة: أنهم لا يَسْلُبُونَ الاسمَ على الإطلاق، ولا يُعْطُونَهُ على الإطلاق.

فنقول: هو مؤمنٌ نَاقِضُ الإيمانِ، أو مؤمنٌ عاصٍ، أو مؤمنٌ بإيمانه، فاسقٌ بكبيرته، ويقال: ليس بمؤمن حقًّا، وليس بصادق الإيمان». اهـ.

وحاصل القول: إنَّ من أصول اعتقاد أهل السُّنَّةِ والجماعة أنهم لا يسلبون الفاسقَ المِلِّيَّ مطلقَ الإيمان أو الإسلام بالكلية كما فعلت، الخوارج ولا يخلدونه في النار كما يقوله الخوارج والمعتزلة، ولا يعطونه الإيمان المطلق كما يقول المرجئة، بل يقول أهل السُّنَّةِ والجماعة: هو مؤمن عاصٍ، أو مؤمن بإيمانه، فاسقٌ بكبيرته، والله أعلم.



«بل الفاسقُ يدخل في اسم الإيمان المُطلق، كما في قوله تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: 92]».

مراد شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ أننا إذا أطلقنا كلمة الإيمان، فإنها تتناول المؤمن الكامل في إيمانه، والمؤمن ناقص الإيمان، وهو الفاسق كما في قوله تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ فإن الرقبة المؤمنة هنا يدخل فيه الفاسق.

وقد قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ، كما في «مجموع الفتاوى» (671/7): «قوله: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ ولو أعتق مُذنبًا أجزأ عتقه بإجماع العلماء». اهـ.

وقال رَحِمَهُ اللهُ كما في «مجموع الفتاوى» (240-241/7): «وأهل السنة يقولون: الفساق يخرجون من النار بالشفاعة، وأن معهم إيمان يخرجون به من النار، لكن لا يُطلق عليهم اسم الإيمان؛ لأن الإيمان المُطلق هو الذي يستحق صاحبه الثواب ودخول الجنة، وهؤلاء ليسوا من أهله، وهم يدخلون في الخطاب بالإيمان؛ لأن الخطاب بذلك هو لمن دخل في الإيمان وإن لم يستكملْه فإنه إنما خوطب ليفعل تمام الإيمان، فكيف يكون قد أتمه قبل الخطاب؟ وإلا كنا قد تبينا هذا المأمور من الإيمان قبل الخطاب، وإنما صار من الإيمان بعد أن أمروا به.

فالخطاب بـ ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ غير قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ [الحجرات: 15]، ونظائرها، فإن الخطاب بـ ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أولاً: يدخل فيه من أظهر الإيمان، وإن كان منافقاً في الباطن يدخل فيه في الظاهر،

فكيف لا يدخل فيه من لم يكن منافقاً، وإن لم يكن من المؤمنين حقاً.
وحقيقته: أن مَنْ لم يكن من المؤمنين حقاً يقال فيه: إنه مُسْلِمٌ، ومعه إيمانٌ
يمنعه الخلود في النار، وهذا مُتَّفَقٌ عليه بين أهل السُّنَّة.

لكن هل يُطلق عليه اسمُ الإيمان؟

هذا هو الذي تنازعوا فيه؛ فقليل: يقال: مُسْلِمٌ، ولا يقال: مؤمن، وقيل: بل
يقال: مؤمن، والتَّحْقِيقُ أن يقال: إنه مؤمنٌ ناقصُ الإيمان، مؤمنٌ بإيمانه فاسقٌ
بكبيرته، ولا يعطى اسم الإيمان المطلق؛ فإن الكتاب والسنة نفيا عنه الاسمَ
المطلق، واسم الإيمان يتناوله فيما أمر الله به ورسوله؛ لأن ذلك إيجابٌ عليه،
وتحريمٌ عليه، وهو لازم له كما يلزم غيره». اهـ.



«وقد لا يدخل في اسم الإيمان المطلق، كما في قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: 2].

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَنْتَهَبُ مُهَبَّةً ذات شَرَفٍ يرفع النَّاسُ إليه فيها أَبْصَارَهُمْ حِينَ يَنْتَهَبُهَا، وَهُوَ مُؤْمِنٌ». ونقول: هو مؤمن ناقص الإيمان، أو مؤمن بإيمانه، فاسق بكبيرته، فلا يُعطى الاسم المطلق، ولا يُسلب مطلق الاسم».

يريد شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ بهذا أَنَّ الفاسق المَلِيَّ إِذَا ذُكِرَ الإيمان المطلق؛ أي: الكامل فإنه لا يدخل في ذلك؛ لأنه ليس بكامل الإيمان، بل ناقص الإيمان. والآية الكريمة دليل على ذلك، فَإِنَّ اللَّهَ وَصَفَ فِيهَا الْمُؤْمِنَ الكامل، جعلنا الله منهم بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ.

وكذلك الحديث المذكور، فَإِنَّ الَّذِي نُفِيَّ عَنِ السَّارِقِ وَالزَّانِي وَالشَّارِبِ وَالْمُنْتَهَبِ هُوَ الْإِيمَانُ الْمُطْلَقُ لَا مُطْلَقُ الْإِيمَانِ؛ أي: نُفِيَّ عَنْهُمْ الْإِيمَانُ الْكَامِلُ، لَا أَصْلَ الْإِيمَانِ.

فقد قال الإمام النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في شرحه لمسلم (1/ 232) في الكلام على الْحَدِيثِ السَّابِقِ: «هذا الحديث مِمَّا اختلف العلماء في معناه، فالقول الصَّحِيحُ الَّذِي قاله المحققون أَنَّ معناه: لَا يفعل هذه المعاصي وهو كامل الإيمان، وهذا من الألفاظ التي تطلق على نفي الشيء، ويراد نفي كماله، كما يقال: لَا عِلْمَ إِلَّا

ما نفع، ولا مال إلا الإبل، ولا عيش إلا عيش الآخرة، وإنما تأولناه على ما ذكرناه؛ لحديث أبي ذر وغيره: «مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ».

وحديث عبادة بن الصّامت الصحيح المشهور أنهم بايعوه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أن لا يسرقوا، ولا يزّنوا، ولا يعصوا إلى آخره، ثم قال لهم: «فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَمَنْ فَعَلَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَعُوقِبَ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ كَفَّارَتُهُ، وَمَنْ فَعَلَ وَلَمْ يُعَاقَبْ فَهُوَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى؛ إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ، وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ».

فهذان الحديثان مع نظائرهما في الصحيح مع قول الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: 48].

ومع إجماع أهل الحق على أن الزّاني والسّارق والقاتل وغيرهم من أصحاب الكبائر غير الشرك لا يكفرون بذلك، بل هم مؤمنون ناقصو الإيمان، إن تابوا سقطت عقوبتهم، وإن ماتوا مضرّين على الكبائر كانوا في هذه المشيئة، فإن شاء الله تعالى عفا عنهم وأدخلهم الجنة أولاً، وإن شاء عذبهم، ثم أدخلهم الجنة، وكل هذه الأدلة تضطرننا إلى تأويل هذا الحديث وشبهه. اهـ.

وقال الحافظ ابن حجر في «الفتح» (12/74): «ومن أقوى ما يحتمل على صرفه عن ظاهره - أي: الحديث السابق - إيجاب الحدّ في الزّنا على أنحاء مختلفة في حق الحرّ المحصّن، والحرّ البكر، وفي حق العبد، فلو كان المراد بنفي الإيمان ثبوت الكفر لاستوتوا في العقوبة؛ لأنّ المكلفين فيما يتعلّق بالإيمان والكفر سواء، فلمّا كان الواجب فيه من العقوبة مختلفاً دلّ على أن متركب ذلك ليس بكافر حقيقة».

ثم ذكر رحمه الله كلام النّوّي، وأقوالاً أخرى.

ثم قال: «وحاصل ما اجتمع لنا من الأقوال في الحديث ثلاثة عشر قولاً خارجاً عن قول الخوارج، وعن قول المعتزلة، وقد أشرتُ إلى أن بعض الأقوال المنسوبة لأهل السنة يمكن ردُّ بعضها إلى بعضٍ.

قال المازري: هذه التأويلات تدفع قول الخوارج ومن وافقهم من الرافضة أن مرتكب الكبيرة كافرٌ مخلدٌ في النار إذا مات من غير توبة، وكذا قول المعتزلة: إنه فاسق مخلدٌ في النار، فإن الطوائف المذكورين تعلّقوا بهذا الحديث وشبهه، وإذا احتمل ما قلناه اندفعت حجّتهم». اهـ.

وقال شيخ الإسلام رحمه الله كما في «مجموع الفتاوى» (4/307): «فإنه ثبت بالكتاب والسنة وإجماع السلف أن الزاني غير المحصن يُجلد، ولا يُقتل، والشارب يُجلد، والقاذف يُجلد، والسارق يُقطع، ولو كانوا كفاراً لكانوا مُرتدّين، ووجب قتلهم، وهذا خلاف الكتاب والسنة وإجماع السلف». اهـ.

وقال رحمه الله في «منهاج السنة» (5/292-293): «لو كان صاحب الكبيرة كافراً لكان مُرتدّاً، ووجب قتله، والله تعالى قد أمر بجلد الزاني، وأمر بجلد القاذف، وأمر بقطع السارق، ومضت سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم بجلد الشارب.

فهذه النصوص صريحة بأن الزاني والشارب والسارق والقاذف ليسوا كفاراً مُرتدّين، يستحقّون القتل، فمن جعلهم كفاراً فقد خالف نص القرآن والسنة المتواترة». اهـ.

وقال رحمه الله كما في «مجموع الفتاوى» (7/360): «لا يقع اسم المؤمن المطلق على من ارتكب كبيرة، أو ترك فريضة؛ لأن اسم الشيء الكامل يقع على الكامل منه، ولا يستعمل في الناقص ظاهراً إلا بقيد؛ ولذلك جاز إطلاق نفيه عنه

في قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يُزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ». اهـ.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ (676 / 7): «والزَّانِي والسَّارِق والشَّارِب والمُتَّهَب لم يُعَدَم الإيمان الذي به يستحقُّ ألاَّ يُخلَّد في النار، وبه تُرجى له الشَّفاعة والمغفرة، وبه يستحق المناكحة، والموارثة، لكن عُدَم الإيمان الذي به يستحقُّ النِّجاة من العذاب، ويستحقُّ به تكفير السيئات، وقبول الطاعات، وكرامة الله، ومثوبته، وبه يستحق أن يكون محموداً مرضياً». اهـ.

وقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «ونقول: هو مُؤْمِنٌ نَاقِصُ الإِيْمَانِ، أو مُؤْمِنٌ بِإِيْمَانِهِ، فاسقٌ بكبيرته، فلا يُعطى الاسم المطلق، ولا يُسلب مطلق الاسم»

قال العلامة الفوزان - حفظه الله - في شرحه للواسطيَّة (ص 138): «ثم إن الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ ذَكَرَ النَّتِيْجَةَ لِلْبَحْثِ السَّابِقِ، واستخلص الحكم بقوله في حَقِّ الْفَاسِقِ الْمَلِّيِّ، ونقول: هو مُؤْمِنٌ نَاقِصُ الإِيْمَانِ، أو مُؤْمِنٌ بِإِيْمَانِهِ، فاسقٌ بِكَبِيرَتِهِ.

وهذا هو الحكم العادل جمعاً بين النصوص التي أثبتت الإيمان له، كآية القصاص، وآية حكم البُعَاة السَّابِقِينَ، وبناء على ذلك (فلا يُعطى الاسم المطلق) أي: اسم الإيمان الكامل (ولا يسلب مُطلق الاسم) أي: الإيمان الناقص، فيحكم عليه بالخروج من الإيمان، كما تقوله المعتزلة والخوارج، والله أعلم، فالإيمان المطلق هو الإيمان الكامل، ومطلق الإيمان هو الإيمان الناقص». اهـ.



«ومن أصول أهل السنة والجماعة سلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما وصفهم الله به في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: 10]».

قوله رحمه الله: «ومن أصول أهل السنة والجماعة»، أي: من أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة سلامة قلوبهم... إلخ، بل هذا من أعظم أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، خلافاً لمن طمس الله بصائرهم، وامتلات بالحق والحسد على الصحابة الأطهار الأبرار قلوبهم.

والصحابي لغة: مُشْتَقٌّ مِنَ الصُّحْبَةِ.

قال السخاوي رحمه الله في «فتح المغيث» (3/ 86): «الصحابي لغة: يقع على من صحب أقل ما يُطلق عليه اسم صحبة، فضلاً عما طال صُحْبَتُهُ، وكثرت مجالسته». اهـ.

وأما تعريف الصحابي اصطلاحاً؛ فقد قال الحافظ ابن حجر في «الإصابة» (1/ 185): «وأصح ما وقفت عليه من ذلك أن الصحابي: من لقي النبي صلى الله عليه وآله وسلم مؤمناً به، ومات على الإسلام.

فيدخل فيمن لقيه: من طال مجالسته له، أو قصرت، ومن روى عنه أو لم يرو، ومن غزا معه أو لم يغز، ومن رآه رؤية ولو لم يجالسه، ومن لم يره لعارض كالعَمَى». اهـ.

قول شيخ الإسلام رحمه الله: «سلامة قلوبهم»، أي: من الغل، والحق،

والبُغْض، والكراهية، وما أشبه ذلك.

وإنما سَلِمَتْ قُلُوبُ أَهْلِ السُّنَّةِ مِنْ ذَلِكَ؛ لأنها مملوءةٌ بِحُبِّ الصَّحَابَةِ، وتعظيمهم، وإجلالهم؛ محبةً، وتعظيمًا، وإجلالًا شرعيًا على ما يليق بهم، دون غُلُوٍّ.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَأَلْسِنَتِهِمْ»، أي: أن أَلْسِنَةَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ سَلِمَتْ مِنَ الْوَقِيعَةِ فِي مَقَامِ الصَّحَابِيِّ الْعَالِي، بِتَكْفِيرٍ، أَوْ تَفْسِيقٍ، أَوْ لَعْنٍ، أَوْ طَعْنٍ، أَوْ سَبٍّ، أَوْ شَتَمٍ، وَمِنْ كُلِّ قَوْلٍ لَا يَلِيقُ بِهِمْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وإنما سلمت أَلْسِنَةُ أَهْلِ السُّنَّةِ مِنْ هَذَا الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ؛ لأنها مُلِئَتْ بِالثَّنَاءِ عَلَيْهِمْ، وَالتَّرَضِّي عَنْهُمْ، وَالِاسْتِغْفَارَ لَهُمْ، وَإِشَاعَةَ فَضَائِلِهِمْ، وَذَكَرَ مَنَاقِبِهِمْ.

ومن أسباب هذه المَحَبَّةِ وَالتَّعْظِيمِ وَالثَّنَاءِ الْجَمِيلِ عَلَيْهِمْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ: مَا قَالَهُ الْإِمَامُ الشُّوْكَانِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ، وَأَجْزَلَ مَثُوبَتِهِ، وَرَفَعَ دَرَجَتَهُ، وَجَزَاهُ اللَّهُ عَنْ صَحَابَةِ رَسُولِهِ خَيْرَ الْجَزَاءِ، حَيْثُ قَالَ فِي «قَطْرِ الْوَلِيِّ» (ص 292، 298) - وَنَعَمْ مَا قَالَ -: «اعْلَمْ أَنَّ الصَّحَابَةَ لَا سِيَّمَا أَكْبَرُهُمُ الْجَامِعِينَ بَيْنَ الْجِهَادِ بَيْنَ يَدَيِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - وَالْعِلْمِ بِمَا جَاءَ بِهِ، وَأَسْعَدَهُمُ اللَّهُ - سَبْحَانَهُ - مِنْ مُشَاهِدِ النُّبُوَّةِ وَصَحْبَةِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، وَبَذَلَهُمْ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ فِي الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ، حَتَّى صَارُوا خَيْرَ الْقُرُونِ بِالْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ، فَهُمْ خَيْرُ الْخَيْرَةِ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ هِيَ كَمَا أَكْرَمَهُمُ اللَّهُ بِهِ، بِقَوْلِهِ: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 110]، وَكَانُوا الشُّهَدَاءَ عَلَى الْعِبَادِ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، فَهُمْ خَيْرُ الْعِبَادِ جَمِيعًا، وَخَيْرُ الْأُمَمِ سَابِقَهُمْ وَلاحِقَهُمْ وَأَوَّلَهُمْ وَآخِرَهُمْ، وَهَؤُلَاءِ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ هُمْ خَيْرُ قُرُونِهِمْ، وَأَفْضَلُ طَوَائِفِهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

فتقرر بهذا أن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ خيرُ العالمِ بِأُسْرِهِ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ، لَا يَفْضُلُهُمْ أَحَدٌ إِلَّا الْأَنْبِيَاءُ وَالْمَلَائِكَةُ، ولهذا لم يعدل مثل أُحَدٍ ذَهَبًا مُدًّا أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ، فإذا لم يكونوا رَأْسَ الْأَوْلِيَاءِ وَصَفْوَةَ الْأَتْقِيَاءِ، فليس لله أَوْلِيَاءُ، وَلَا أَتْقِيَاءُ وَلَا بَرَرَةٌ، وَلَا أَصْفِيَاءُ.

وقد نطق القرآن الكريم بأن الله قد رضي عن أهل بيعة الشجرة، وهم جمهور الصحابة إذ ذاك، وثبت عنه صلى الله عليه وآله وسلم ثبوتًا متواترًا أن الله سبحانه أطلع على أهل بدر، فقال: «اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ، فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»، وشهد النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - لجماعةٍ منهم بأنهم من أهل الجنة، فقلوه - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - في هذا الحديث: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا» يصدق عليهم صدقًا أوليًا، ويتناولهم بفحوى الخطاب.

فانظر - أرشدك الله - إلى ما صارت الرافضة - أقمأهم الله - تصنعه بهؤلاء الذين هم رؤوس الأولياء، ورؤساء الأتقياء، وقادة المؤمنين، وأسوة المسلمين، وخيرة عباد الله أجمعين مِنَ الطَّعْنِ، وَاللَّعْنِ، وَالثَّلْبِ، وَالسَّبِّ، وَالشَّتْمِ، وَالثَّلْمِ.

وانظر إلى أي مَبْلَغٍ بلغ الشيطان الرجيم هؤلاء المغرورين المجترئين على هذه الأعراض المصونة المحترمة المكرمة، فيالله العجب من هذه العقول الرقيقة والأفهام الشنيعة والأذهان المختلة والإدراكات المعتلة.

فإن هذا التلاعب الذي تلاعب بهم الشيطان يفهمه أقصرُ الناس عقلًا، وأبعدهم فطانةً، وأجمدهم فهمًا، وأقصرهم في العلم باعًا، وأقلهم اطلاعًا.

فإن الشيطان - لعنه الله - سَوَّلَ لَهُمْ أَنْ هَؤُلَاءِ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ الَّذِينَ لَهُمَ الْمَزَايَا الَّتِي لَا يَحِيطُ بِهَا حَصْرٌ، وَلَا يَحْصِيهَا حَدٌّ وَلَا عَدٌّ، أَحِقَاءُ بِمَا يَهْتَكُونَ مِنْ أَعْرَاضِهِمُ الشَّرِيفَةِ، وَيَجْحَدُونَ مِنْ مَنَاقِبِهِمُ الْمَنِيفَةِ، حَتَّى كَانَهُمْ لَمْ يَكُونُوا هُمْ

الذين أقاموا أعمدة الإسلام بسيوفهم، وشادوا قصور الدين برماحهم، واستباحوا الممالك الكسروية، وأطفئوا الملة النصرانية والمجوسية، وقطعوا حبال الشرك من الطوائف المشركة من العرب وغيرهم، وأوصلوا دين الإسلام إلى أطراف المعمورة من شرق الأرض وغربها ويمينا وشمالها، فاتسعت رقعة الإسلام، وطبقت الأرض شرائع الإيمان، وانقطعت علائق الكفر، وانقصمت حباله، وانفصمت أوصاله، ودان بدين الله الأسود، والأحمر، والوثني، والملّي. فهل رأيت وسمعت بأضعف من هؤلاء تمييزاً، وأكثر منهم جهلاً وأزيف منهم رأياً؟!

يا الله العجب! يُعادون خير عباد الله، وأنفعهم للدين الذي بُعث به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهم لم يُعاصروهم، ولا عاصروا من أذركهم، ولا أذنبوا إليهم بذنب، ولا ظلموهم في مال، ولا دم، ولا عرض، بل قد صاروا تحت أطباق الثرى وفي رحمة واسع الرحمة منذ مئتين من السنين.

وما أحسن ما قاله بعض أمراء عصرنا، وقد رام كثير من أهل الرّفص أن يفتنوه، ويوقعوه في الرّفص «ما لي ولقوم بيني وبينهم زيادة على اثنتي عشرة مائة من السنين».

وهذا القائل لم يكن من أهل العلم، بل هو عبد صيره مالكه أميراً، وهداه عقله إلى هذه الحجة العقلية التي يعرفها بالفطرة كل من له نصيب من عقل، فإنّ عداوة من لم يظلم المعادي في مال ولا دم ولا عرض، ولا كان معاصراً له حتى ينافسه فيما هو فيه؛ يعلم كل عاقل أنه لا يعود على الفاعل بفائدة.

هذا على فرض أنه لا يعود عليه بضرر في الدين، فكيف وهو أعظم الذنوب التي لا ينجي فاعلها إلا عفؤ الغريم المجني عليه بظلمه له في عرضه.

انظر - عافاك الله - ما ورد في غيبة المسلم من الوعيد الشديد، مع أنها ذكر الغائب بما فيه كما صح عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في بيانها لما سأله السائل عن ذلك، ثم سأله عن ذكره بما ليس فيه فجعل ذلك من البهتان كما هو ثابت في الصحيح، ولم يرخص فيها بوجه من الوجوه.

وقد أوضحنا ذلك في الرسالة التي دفعنا بها ما قاله النَوَوِيُّ وغيره من جواز الغيبة في ست صور، وزيفنا ما قالوه تزييفاً لا يبقى بعده شك ولا ريب، ومن بقي في صدره حرج وقف عليها، فإنها دواء لهذا الداء الذي هلك به كثير من عباد الله سبحانه.

فإذا كان هذا حراماً بيننا، وذنباً عظيماً في غيبة فرد من أفراد المسلمين الأحياء الموجودين، فكيف غيبة الأموات التي صح عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم النهي عنها بقوله «لا تَسُبُّوا الأموات؛ فإنهم قد أَفْضَوْا إلى ما قَدُمُوا»، فكيف إذا كان هؤلاء المَسْبُوبِينَ المَمَزَّةُ أعراضهم المهتوكة حرمتهم هم خير الخليقة، وخير العالم - كما قدّمنا تحقيقه - فسبحان الصبور الحليم.

فيا هذا المجترئ على هذه الكبيرة المقتحم على هذه العظيمة: إن كان الحامل لك عليها والموقع لك في وبالها هو تأميك الظفر بأمر دنيوي عرض عاجل، فاعلم أنك لا تنال منه طائلاً، ولا تفوز منه بنقيير ولا قِطْمِيرٍ.

فقد جرّبنا وجرّب غيرنا من أهل العصور الماضية أن من طلب الدنيا بهذا السبب الذي فتح بابَه الشيطان الرجيم وشيوخ الملاحدة من الباطنية، والقرامطة، والإسماعيلية، تنكّدت عليه أحواله، وضاعت عليه معاشه، وعاندته مطالبه، وظهر عليه كآبة المنظر، وقمأة الهيئة، ورثاته الحال، حتى يعرف غالب من رآه أنه رافضي، وما علمنا بأن رافضياً أفلح في ديارنا هذه قط.

وإن كان الحامل لك على ذلك الدين، فقد كذبت على نفسك، وكذبتك شيطانك وهو كذوبٌ.

فإن دين الله هو كتابه وسنة رسوله، فانظر هل ترى فيهما إلا الإخبار لنا بالرضا عن الصحابة، وأنهم أشدّاء على الكفار، وأن الله يغيظُ بهم الكفار، وأنه لا يلحق بهم غيرهم، ولا يماثلهم سواهم.

وهم الذين أنفقوا من قبل الفتح، وقاتلوا وأنفقوا بعده، كما حكاها القرآن الكريم، وهم الذين جاهدوا في الله حق جهاده، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيله، وهم الذين قاموا بفرائض الدين، ونشرها في المسلمين، وهم الذين وردت لهم في السنة المطهرة المناقب العظيمة والفضائل الجسيمة عموماً وخصوصاً.

ومن شك في هذا نظر في دواوين الإسلام، وفيما يلتحق بها من المسندات والمستدركات والمعاجم ونحوها، فإنه سيجد هنالك ما يشفي عليه، ويروي غليله، ويردّه عن غوايته، ويفتح له أبواب هدايته.

هذا إذا كان يعرف أن الشريعة الإسلامية هي الكتاب والسنة، وأنه لا شريعة بين أظهرنا من الله ورسوله إلا ذلك، فإن كان لا يدري بهذا ويزعم أن له سلفاً في هذه المعصية العظيمة والخصلة الذميمة، فقد غرّه الشيطان بمخدول مثله، ومفتون مثل فتنته، وقد نزه الله عز وجل علماء الإسلام سابقهم ولاحقهم، ومجتهدهم ومقلدّهم عن الوقوع في هذه البليّة الحالقة للدين، المخرجة لمرتكبها من سبيل المؤمنين إلى طريق الملحدّين.

فإن زعم أنه قد قال بشيء من هذا الضلال المبين قائل من أهل البيت المطّهرين فقد افترى عليهم الكذب البين والباطل الصراح، فإنهم مُجمعون

سابقهم ولاحتقهم على تعظيم جانب الصحابة الأكرمين، ومن لم يعلم بذلك فليُنظر في الرسالة التي ألفتها في الأيام القديمة، وسميتها «إرشاد الغبي إلى مذهب أهل البيت في صحب النبي».

فإني نقلت فيها نحو أربعة عشرة إجماعاً عنهم، من طرق مروية عن أكابرهم، وعن التابعين لهم المتمسكين بمذهبهم، فيا أيها المغرور: بمن اقتديت، وعلى من اهتديت، وبأي حبل تمسكت، وفي أي طريق سلكت.

يا لك الويل والشور! كيف أذهبت دينك في أمر يخالف كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ويخالف جميع المسلمين منذ قام الدين إلى هذه الغاية؟ وكيف رضيت لنفسك بأن تكون خصماً لله سبحانه، ولكتابه ولرسوله صلى الله عليه وآله وسلم ولسنته ولصحابته ولجميع المسلمين؟ أين يتأه بك؟ وإلى أي هوة يرمى بك؟

أما تخرج نفسك من هذه الظلمات المتراكمة إلى أنوار هذا الدين الذي جاءنا به الصادق المصدوق عن رب العالمين، وأجمع عليه المسلمون أجمعون، ولم يخالف فيه مخالف يعتد به في إجماع المسلمين، اللهم إلا أن يكون رافضياً خبيثاً، أو باطنياً ملحدًا، أو قرمطياً جاحداً، أو زنديقاً معانداً. اهـ.

قول المصنف رحمه الله: «كما وصفهم الله في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾» [الحشر: 10].

أقول وبالله التوفيق: هذه الآية مسبوقة بآيتين:

الأولى: قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ

وَأَمْرًا لَهُمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴿٨﴾ الآية [الحشر: 8]، ويدخل في هؤلاء دخولاً أولياً سادات المهاجرين: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وهم الخلفاء الراشدون المهديون - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - وعن سائر الصحابة أجمعين -، فهذه الآية في المهاجرين.

الثانية: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَن هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: 9].

وهذه الآية في الأنصار - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - وأرضاهم - وقد وصفهم الله بثلاثة أوصافٍ عظيمة:

- 1- ﴿يُحِبُّونَ مَن هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾.
- 2- ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾.
- 3- ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾.

ثم ذكر الله الآية التي أوردها المصنف بعد هاتين الآيتين، في بيان صفه التابعين لهم بإحسان إلى يوم القيامة، وأنهم يسألون الله المغفرة لأنفسهم ولإخوانهم في الدين الذين سبقوهم بالإيمان، وعلى رأسهم أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم، ويعترفون لهم بالسبق بالإيمان، كما يدعون الله أن يطهر قلوبهم من الغل والحقد والبغض للذين آمنوا، وعلى رأسهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لكون السياق فيهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في «منهاج السنة» (2/ 18 - 19): «وهذه الآيات تتضمن الثناء على المهاجرين والأنصار، وعلى أن الذين جاءوا

مِنْ بَعْدِهِمْ يَسْتَغْفِرُونَ لَهُمْ، وَيَسْأَلُونَ اللَّهَ أَنْ لَا يَجْعَلَ فِي قُلُوبِهِمْ غِلًّا لَهُمْ، وَتَتَضَمَّنُ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْأَصْنَافِ هُمُ الْمُسْتَحِقُّونَ لِلْفَيْءِ، وَلَا رَيْبَ أَنَّ هَؤُلَاءِ الرَّافِضَةَ خَارِجُونَ مِنَ الْأَصْنَافِ الثَّلَاثَةِ؛ فَإِنَّهُمْ لَمْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْسَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ وَفِي قُلُوبِهِمْ غِلٌّ عَلَيْهِمْ، فِي آيَاتِ الثَّنَاءِ عَلَى الصَّحَابَةِ، وَعَلَى أَهْلِ السُّنَّةِ الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُمْ، وَإِخْرَاجِ الرَّافِضَةِ مِنْ ذَلِكَ، وَهَذَا نَقِضُ مَذْهَبِ الرَّافِضَةِ.

وقد روى ابن بطّة وغيره من حديث أبي بدر، قال: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ زَيْدٍ عَنْ طَلْحَةَ بْنِ مَصْرَفٍ، عَنْ مُضْعَبِ بْنِ سَعْدٍ، عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «النَّاسُ عَلَى ثَلَاثِ مَنَازِلَ، فَمَضَتْ مَنَزِلَتَانِ، وَبَقِيَتْ وَاحِدَةٌ، فَأَحْسَنُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ كَائِنُونَ أَنْ تَكُونُوا بِهَذِهِ الْمَنْزِلَةِ الَّتِي بَقِيَتْ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا﴾ [الحشر: 8]، قَالَ: هَؤُلَاءِ الْمُهَاجِرُونَ، وَهَذِهِ مَنْزِلَةٌ قَدْ مَضَتْ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ﴾ [الحشر: 9]، ثُمَّ قَالَ: هَؤُلَاءِ الْأَنْصَارُ، هَذِهِ مَنْزِلَةٌ قَدْ مَضَتْ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا﴾ [الحشر: 10]، ثُمَّ قَالَ: فَقَدْ مَضَتْ هَاتَانِ، وَبَقِيَتْ هَذِهِ الْمَنْزِلَةُ، فَأَحْسَنُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ كَائِنُونَ أَنْ تَكُونُوا بِهَذِهِ الْمَنْزِلَةِ الَّتِي بَقِيَتْ أَنْ تَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ لَهُمْ.

وروى - أيضًا - بإسناده عن مالك بن أنس أنه قال: مَنْ سَبَّ السَّلَفَ فَلَيْسَ لَهُ مِنَ الْفِيءِ نَصِيبٌ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ [الآية]، وَهَذَا مَعْرُوفٌ عَنْ مَالِكٍ وَغَيْرِ مَالِكٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ، كَأَبِي عُبَيْدٍ الْقَاسِمِ بْنِ سَلَامٍ، وَكَذَلِكَ ذَكَرَهُ أَبُو حَكِيمٍ النَّهْرَوَانِيُّ مِنْ أَصْحَابِ أَحْمَدَ، وَغَيْرِهِ مِنَ الْفُقَهَاءِ. اهـ.

قال الإمام الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ فِي تَفْسِيرِهِ (5/ 287 - 288) عِنْدَ هَذِهِ الْآيَةِ:

«أمرهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد الاستغفارِ لِلْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ أَنْ يَطْلُبُوا مِنْ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يَنْزِعَ مِنْ قُلُوبِهِمُ الْغِلَّ لِلَّذِينَ آمَنُوا عَلَى الْإِطْلَاقِ، فَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ الصَّحَابَةُ دُخُولًا أَوْلِيًّا؛ لكونهم أَشْرَفَ الْمُؤْمِنِينَ، وَلكون السِّيَاقِ فِيهِمْ، فَمَنْ لَمْ يَسْتَغْفِرْ لِلصَّحَابَةِ عَلَى الْعُمُومِ وَيَطْلُبَ رِضْوَانَ اللَّهِ لَهُمْ فَقَدْ خَالَفَ مَا أَمَرَهُ اللَّهُ بِهِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، فَإِنْ وَجَدَ فِي قَلْبِهِ غِلًّا لَهُمْ فَقَدْ أَصَابَهُ نَزْعٌ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَحَلَّ بِهِ نَصِيبٌ وَافِرٌ مِنْ عَصِيَانِ اللَّهِ بَعْدَاوَةَ أَوْلِيَائِهِ وَخَيْرِ أُمَّةٍ نَبِيهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَانْفَتَحَ لَهُ بَابٌ مِنَ الْخُذْلَانِ يَقْدُ بِهِ عَلَى نَارِ جَهَنَّمَ إِنْ لَمْ يَتَدَارَكَ نَفْسَهُ بِاللَّجَأِ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَالِاسْتِغَاثَةِ بِهِ بِأَنْ يَنْزِعَ عَنْ قَلْبِهِ مَا طَرَقَهُ مِنَ الْغِلِّ لَخَيْرِ الْقُرُونِ وَأَشْرَفِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، فَإِنْ جَاوَزَ مَا يَجِدُهُ مِنَ الْغِلِّ إِلَى شَتَمِ أَحَدٍ مِنْهُمْ فَقَدْ انْقَادَ لِلشَّيْطَانِ بِزِمَامٍ، وَوَقَعَ فِي غَضَبِ اللَّهِ وَسَخَطِهِ.

وهذا الداءُ العُضَالُ إِنَّمَا يُصَابُ بِهِ مَنْ ابْتُلِيَ بِمُعَلِّمٍ مِنَ الرَّافِضَةِ، أَوْ صَاحِبٍ مِنْ أَعْدَاءِ خَيْرِ الْأُمَّةِ الَّذِينَ تَلَاعَبَ بِهِمُ الشَّيْطَانُ، وَزَيَّنَ لَهُمُ الْأَكَاذِيبَ الْمُخْتَلَقَةَ، وَالْأَقَاصِيصَ الْمُفْتَرَاةَ، وَالْخِرَافَاتِ الْمَوْضُوعَةَ، وَصَرَفَهُمْ عَنْ كِتَابِ اللَّهِ الَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ». اهـ.

قال ابن أبي العزِّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «شرح الطَّحَاوِيَّةِ» (ص 470): «فَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَكُونُ فِي قَلْبِهِ غِلٌّ عَلَى خِيَارِ الْمُؤْمِنِينَ، وَسَادَاتِ أَوْلِيَائِ اللَّهِ تَعَالَى بَعْدَ النَّبِيِّينَ؟ بَلْ قَدْ فَضَّلَهُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى بِخَصْلَةٍ، قِيلَ لِلْيَهُودِ: مَنْ خَيْرُ أَهْلِ مِلَّتِكُمْ؟ قَالُوا: أَصْحَابُ مُوسَى، وَقِيلَ لِلنَّصَارَى: مَنْ خَيْرُ أَهْلِ مِلَّتِكُمْ؟ قَالُوا: أَصْحَابُ عِيسَى، وَقِيلَ لِلرَّافِضَةِ: مَنْ شَرُّ أَهْلِ مِلَّتِكُمْ؟ قَالُوا: أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ، وَلَمْ يَسْتَنْوُوا مِنْهُمْ إِلَّا الْقَلِيلَ، وَفِيهِمْ سَبُوهُمْ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِمَّنْ اسْتَنْوَهُمْ بِأَضْعَافٍ مُضَاعَفَةٍ». اهـ.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ فِي تَفْسِيرِهِ (4/ 229): «وَمَا أَحْسَنَ مَا اسْتَنْبَطَهُ

الإمام مالكُ رَحِمَهُ اللهُ مِنْ هذه الآية الكريمة أَنَّ الرَّافِضِيَّ الَّذِي يُسُبُّ الصَّحَابَةَ
ليس له في مالِ الفِئَةِ نصيبٌ؛ لعدم اتِّصافِهِ بما مَدَحَ اللهُ بِهِ هؤلاء. اهـ.



«وطاعة لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قوله: «لا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فوالَّذي نفسي بيده لو أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ».

مراد شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ سَلِمَتْ قُلُوبُهُمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ لِلصَّحَابَةِ، طَاعَةَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: 71]، ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: 69].

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا تَسُبُّوا أَصْحَابِي»، العبرة فيه بعموم اللَّفْظِ لَا بِخُصُوصِ السَّبَبِ، والنهي يَتَنَاوَلُ مَنْ سَبَّ وَاحِدًا مِنْهُمْ، أَوْ سَبَّهُمْ جَمِيعًا، وإذا كنا قد نهينا عن سَبِّهِمْ، ففحوى الخطاب هنا، ودلالة المنطوق والمفهوم في نصوص كثيرة من الكتاب والسُّنَّة: وَجُوبُ مَحَبَّتِهِمْ وَتَعْظِيمِهِمْ عَلَى وَفْقِ الشَّرْعِ، وَالشَّاءَ عَلَيْهِمْ، وَحُسْنُ الظَّنِّ بِهِمْ، فهذا طريقُ السلامة في الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وما سواه فطريقُ الخذلانِ وَسَلَمِ الْحِرْمَانِ.

وقد ذكر شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ في «منهاج السُّنَّة» (223/6) الحديثَ السَّابِقَ، ثم قال: «وذلك أَنَّ الْإِيمَانَ الَّذِي كَانَ فِي قُلُوبِهِمْ حِينَ الْإِنْفَاقِ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ، وَقَلَّةُ أَهْلِهِ، وَكَثْرَةُ الصَّوَارِفِ عَنْهُ، وَضَعْفُ الدَّوَاعِي إِلَيْهِ لَا يُمْكِنُ أَحَدًا أَنْ يَحْصَلَ لَهُ مِثْلُهُ مِنْ بَعْدِهِمْ، وَهَذَا يَعْرِفُ بَعْضُهُ مَنْ ذَاقَ الْأُمُورَ، وَعَرَفَ الْمِحْنَ وَالْإِبْتِلَاءَ الَّذِي يَحْصُلُ لِلنَّاسِ، وَمَا يَحْصُلُ لِلْقُلُوبِ مِنَ الْأَحْوَالِ الْمُخْتَلِفَةِ.

وهذا مما يعرف به أَنَّ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَنْ يَكُونَ أَحَدًا مِثْلَهُ؛ فَإِنَّ الْيَقِينَ وَالْإِيمَانَ الَّذِي كَانَ فِي قَلْبِهِ لَا يَسَاوِيهِ فِيهِ أَحَدٌ.

قال أبو بكر بن عيَّاش: «ما سَبَقَهُم أبو بكرٍ بكثرة صلاةٍ ولا صيامٍ، ولكن بشيءٍ وَقَرَ في قلبه».

وهكذا سائر الصَّحابة حصل لهم بِصُحْبَتِهِم للرسول - مؤمنين به، مُجَاهِدِينَ مَعَهُ - إيمانٌ و يقينٌ، لم يَشْرِكْهُمْ فيه من بعدهم». اهـ.

قال الإمام الشُّوكاني رَحِمَهُ اللهُ في «قطر الولي» (ص 255): «فانظر إلى هذه المزيَّة العظيمة والخصيصة الكبيرة التي لم تبلغ من غيرهم إنفاقٌ مثل الجبل الكبير من الذهب نصف المُدِّ الذي ينفقه الواحدُ منهم، فَرَضِيَ اللهُ عنهم وأَرْضاهم.

فهم أفضلُ أولياء الله سبحانه، وأَكْرَمُهُم عليه، وأَعْلَاهُم منزلةً عنده، وهم الذين عملوا بكتاب الله وسنة نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ». اهـ.

مسألة:

الصَّحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ كُلُّهُمْ عدولٌ بإجماع العُلَمَاءِ.

قال الخطيبُ البغدادي رَحِمَهُ اللهُ في «الكفاية» (ص 46-47): «باب ما جاء في تَعْدِيلِ الله ورسوله للصَّحابة، وأنه لا يُحْتَاجُ إلى سؤالٍ عنهم، وإنما يجب فيمن دونَهُمْ.

كُلُّ حديثٍ اتَّصَلَ إِسْنَادُهُ بين مَنْ رواه، وبين النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لم يلزم العملُ به إلا بعد ثبوتِ عدالةِ رِجَالِهِ، ويجبُ النَّظَرُ في أحوالهم سوى الصحابي الذي رَفَعَهُ إلى الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنَّ عدالةَ الصَّحابة ثابتةٌ معلومةٌ بتعديل الله لهم، وإخباره عن طَهَارَتِهِمْ، واختياره لهم في نصِّ القرآن».

ثم ذكر عدَّةَ نصوص في ذلك، ثم قال: «والأخبارُ في هذا المعنى تَسَّعُ،

وكلُّها مطابقةٌ لما ورد في نصِّ القرآن، وجميعُ ذلك يقتضي طهارة الصَّحابة، والقطع على تعديلهم ونزاهتهم، فلا يحتاج أحدٌ منهم مع تعديل الله تعالى له المطَّلَع على بواطنهم إلى تعديل أحدٍ من الخلق له، فهم على هذه الصفة، إلا أن يثبت على أحد ارتكابُ ما لا يحتمل إلا قصد المعصية، والخروج من باب التأويل، فيُحكَّم بسقوط العدالة، وقد برَّاهم الله من ذلك، ورفع أقدارهم عنه، على أنه لو لم يرد من الله عزَّ وجلَّ ورسوله فيهم شيءٌ ممَّا ذكَّرناه لأَوْجَبَتِ الحال التي كانوا عليها من الهِجْرَةِ، والجهاد، والنُّصرة، وقوة الإيمان، واليقين - القطع على عدالتهم، والاعتقاد لنزاهتهم، وأنهم أفضلُ من جميع المعدلين والمزكِّين الذين يجيئون من بعدهم أبد الآبدين، هذا مذهب كافة العلماء ومَن يُعْتَدُّ بقوله من الفقهاء». اهـ.

وقال الإمام ابن عبد البر كما في «التمهيد» (22/47): «الصَّحابة كلُّهم عدول، مرضيُّون، ثقات، أثبات، وهذا أمرٌ مُجمَعٌ عليه عند أهل العلم بالحديث». اهـ.

وقال ابن الصَّلاح رَحِمَهُ اللهُ في مقدمته كما في «التقييد والإيضاح» (ص 301): «للصَّحابة أسرار خصيصةٌ، وهي: أنه لا يُسأل عن عدالة أحدٍ منهم، بل ذلك مفروغٌ منه؛ لكونهم على الإطلاق معدَّلين بنصوص الكتاب والسنة، وإجماع مَن يُعْتَدُّ به في الإجماع من الأمة»، إلى أن قال: «إن الأمة مجتمعة على تعديل جميع الصَّحابة، ومَن لا بسَ الفتنَ منهم، فكَذلك بإجماع العلماء الذين يُعْتَدُّ بهم في الإجماع؛ إحسانًا للظن بهم، ونظرًا إلى ما تمهَّد لهم من المآثر، وكأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَتَاخَ الإجماعَ على ذلك؛ لكونهم نَقْلَةَ الشَّرِيعَةِ، والله أعلم». اهـ.

وقال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ في «شرح مسلم» (15/122): «اتَّفَقَ أهل

الحلّ والعقد ومن يُعْتَدُّ به في الإجماع على قبول شهادتهم ورواياتهم، وكمال عدالتهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين». اهـ.

وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ في «منهاج السُّنَّة» (2/457): «ولهذا كان الصَّحابة كلهم ثقات، باتفاق أهل العلم بالحديث والفقه». اهـ.

وقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ في «الإصابة» (1/162): «اتفق أهل السُّنَّة على أنَّ الجميع عدولٌ، ولم يخالف في ذلك إلا شذوذ من المبتدعة». اهـ.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في «اختصار علوم الحديث» (ص49): «والصَّحابة كلهم عدول عند أهل السُّنَّة والجماعة؛ لما أثنى الله عليهم في كتابه العزيز، وبما نطقت به السُّنَّة النبوية في المدح لهم في جميع أخلاقهم وأفعالهم، وما بذلوه من الأموال والأرواح بين يدي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ رغبة فيما عند الله من الثواب الجزيل، والجزاء الجميل». اهـ.

وقال السَّخَاوي رَحِمَهُ اللَّهُ في «فتح المغيث» (3/108): «وهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - باتفاق أهل السُّنَّة - عدولٌ كلهم مطلقاً، كبيرهم وصغيرهم، لا بسَ الفِتْنَةِ أم لا، وجوباً لحسن الظن، ونظراً إلى ما تَمَهَّدَ لهم من المآثر، من امتثال أوامره بعده، وفتحهم الأقاليم، وتبليغهم عنه الكتاب والسُّنَّة، وهدايتهم النَّاس، ومواظبتهم على الصلاة والزكاة، وأنواع القربات، مع الشجاعة، والبراعة، والكرم، والإيثار، والأخلاق الحميدة، التي لم تكن في أُمَّة من الأُمَمِ المُتَقَدِّمَةِ». اهـ.

حكم من سبَّ الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ:

1- من كفر الصَّحابة أو زعم أنهم ارتدوا إلا نفراً يسيراً، فهذا لا شك في كفره ولا شك في كفر من لم يكفره.

- 2- مَنْ كَفَرَ أَحَدَ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ أَوْ ضَلَّلَهُمْ، فَإِنَّهُ يَكْفُرُ بِذَلِكَ.
- 3- مَنْ فَسَّقَ الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - فهو كافر أيضًا.
- 4- مَنْ قَذَفَ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بَعْدَ أَنْ بَرَّاهَا اللَّهُ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ، فَهُوَ كَافِرٌ بِالْإِجْمَاعِ.
- 5- مَنْ سَبَّ أَحَدًا مِنَ الصَّحَابَةِ، أَوْ تَنَقَّصَهُ، أَوْ عَابَهُ، أَوْ عَرَّضَ بَعِيهَ، فَقَدْ قَالَ فِيهِ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: مُبْتَدِعٌ، رَافِضِيٌّ، خَبِيثٌ، مُخَالَفٌ، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا، فَإِنْ اسْتَحَلَّ سَبَّ أَحَدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ فَهُوَ كَافِرٌ.
- 6- مَنْ اقْتَرَنَ بِسَبِّهِ دَعْوَى أَنْ عَلِيًّا إِلَهٌ، أَوْ أَنَّهُ كَانَ هُوَ النَّبِيُّ، وَإِنَّمَا غَلَطَ جَبْرِيلُ فِي الرِّسَالَةِ، فَهَذَا لَا شَكَّ فِي كُفْرِهِ، بَلْ لَا شَكَّ فِي كُفْرٍ مَنْ تَوَقَّفَ فِي تَكْفِيرِهِ.
- 7- مَنْ سَبَّ الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ سَبًّا لَا يَقْدَحُ فِي عَدَالَتِهِمْ وَلَا فِي دِينِهِمْ، مِثْلَ وَصْفِ بَعْضِهِمْ بِالْبُخْلِ، أَوْ الْجُبْنِ، أَوْ قِلَّةِ الْعِلْمِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَهَذَا لَا يُحْكَمُ بِكُفْرِهِ لِمَجْرَدِ هَذَا، وَمَعَ ذَلِكَ يَسْتَحِقُّ التَّأْدِيبَ وَالتَّعْزِيرَ الَّذِي يَرُدُّهُ وَيَرُدُّ أَمْثَالَهُ.
- قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الصَّارِمِ الْمَسْلُوبِ» (ص 590-591): «أَمَّا مَنْ اقْتَرَنَ بِسَبِّهِ دَعْوَى أَنْ عَلِيًّا إِلَهٌ، أَوْ أَنَّهُ كَانَ هُوَ النَّبِيُّ وَإِنَّمَا غَلَطَ جَبْرِيلُ فِي الرِّسَالَةِ، فَهَذَا لَا شَكَّ فِي كُفْرِهِ، بَلْ لَا شَكَّ فِي كُفْرٍ مَنْ تَوَقَّفَ فِي تَكْفِيرِهِ.
- وكَذَلِكَ مَنْ زَعَمَ مِنْهُمْ أَنَّ الْقُرْآنَ نِقْصٌ مِنْهُ آيَاتٌ، وَكُتِمَتْ، أَوْ زَعَمَ لَهُ تَأْوِيلَاتٌ بَاطِنَةٌ تُسْقِطُ الْأَعْمَالَ الْمَشْرُوعَةَ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَهَؤُلَاءِ يُسَمَّوْنَ الْقَرَامِطَةَ، وَالبَاطِنِيَّةَ، وَمِنْهُمْ التَّنَاسُخِيَّةَ، وَهَؤُلَاءِ لَا خِلَافَ فِي كُفْرِهِمْ.
- وَأَمَّا مَنْ سَبَّهُمْ سَبًّا لَا يَقْدَحُ فِي عَدَالَتِهِمْ وَلَا فِي دِينِهِمْ، مِثْلَ وَصْفِ بَعْضِهِمْ بِالْبُخْلِ، أَوْ الْجُبْنِ، أَوْ قِلَّةِ الْعِلْمِ، أَوْ عَدَمِ الزُّهْدِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَهَذَا هُوَ الَّذِي

يستحق التأديب والتعزير، ولا نحكم بكفره بمجرد ذلك، وعلى هذا يُحمل كلام من لم يُكفرهم من أهل العلم، وأما مَنْ لَعَنَ وَقَبَّحَ مطلقاً فهذا محل الخلاف فيهم؛ لتردد الأمر بين لعن الغيظ ولعن الاعتقاد.

وأما مَنْ جَاوَزَ ذلك إلى أَنْ زَعَمَ أَنَّهُم ارتدوا بعد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا نَفَرًا قَلِيلًا لَا يَبْلُغُونَ بضعَةَ عَشَرَ نَفْسًا، أو أَنَّهُم فسقوا عامَّتْهم، فهذا لا ريب في كفره؛ لأنه كَذَّبَ لما نَصَّه القرآن الكريم في غير موضعٍ مِنَ الرِّضَا عنهم، والثناء عليهم، بل مَنْ يَشْكُ في كفر مثل هذا فَإِنَّ كُفْرَهُ متعَيَّنٌ؛ فَإِنْ مضمون هذه المقالة أَنْ نَقَلَةَ الكتاب والسُّنَّةَ كَفَّارًا أو فَسَّاقًا، وأن هذه الأمة التي هي: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 110]، وخيرها هو القرن الأول - كان عامَّتْهم كَفَّارًا أو فَسَّاقًا، ومضمونها أَنَّ هذه الأمة شَرُّ الأُمَمِ، وأن سابقي هذه الأمة هم شَرَّ أَرْهَافِهَا، وكُفِّرُوا هذا مما يُعْلَمُ بالاضطرار من دين الإسلام؛ ولهذا تَجَدَّدَ عامَّةٌ مِنْ ظهر عليه شيءٌ من هذه الأقوال فإنه يَتَبَيَّنُ أَنَّهُ زِنْدِيقٌ، وعامَّةُ الزَّنَادِقَةِ إِنَّمَا يَسْتَتِرُونَ بمذهبهم، وقد ظهرت لله فيهم مَثَلَاتٌ، وتواترَ النُّقْلُ بَأَنَّ وجوههم تُمَسَّخُ خَنَازِيرَ في المحيا والممات، وَجَمَعَ العلماءُ ما بلغهم في ذلك، وَمِمَّنْ صَنَّفَ فِيهِ الحافظُ الصَّالِحُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَاحِدِ المَقْدِسِي كِتَابَهُ فِي النِّهْيِ عَنْ سَبِّ الصَّحَابَةِ، وما جاء فِيهِ مِنَ الإِثْمِ والعقاب.

وبالجملة: فَمِنْ أَصْنَافِ السَّابَِّةِ مَنْ لَا رِيبَ فِي كُفْرِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُحْكَمُ بكفره، وَمِنْهُمْ مَنْ تُرَدَّدُ فِيهِ، وَلَيْسَ هَذَا مَوْضِعُ الاستِثْقَاءِ فِي ذَلِكَ، وَإِنَّمَا ذَكَرْنَا هَذِهِ الْمَسَائِلَ؛ لِأَنَّهَا مِنْ تَمَامِ الْكَلَامِ فِي الْمَسْأَلَةِ الَّتِي قَصَدْنَا لَهَا. اهـ

قَالَ الْخَلَّالُ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي السُّنَّةِ (3 / 493): «أَخْبَرَنَا أَبُو بَكْرِ المُرْوَذِيُّ، قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عَمَّنْ يَشْتُمُ أَبَا بَكْرٍ وَعَمْرُوعًا شُتًى، قَالَ: «مَا أَرَاهُ عَلَى الْإِسْلَامِ»،

قال: وسمعت أبا عبد الله يقول: قال مالك: الذي يشتم أصحاب النبي ليس لهم سَهْمٌ، أو قال: نَصِيبٌ في الإسلام». اهـ.

وقال (3/ 493): «أخبرنا زكريّا بن يحيى، قال: ثنا أبو طالب أنه قال لأبي عبد الله: الرَّجُلُ يَشْتُمُ عثمانَ، فأخبروني أَنَّ رجلاً تكلم فيه، فقال: «هذه زُنْدَقَةٌ». اهـ.

وقال (3/ 493): «أخبرنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، قال: سألت أبي عن رَجُلٍ شَتَمَ رجلاً من أصحاب النبي، فقال: «ما أراه على الإسلام». اهـ.

وقال البخاري رَحِمَهُ اللهُ في كتاب «خلق أفعال العباد» (ص 16)، رقم (51): «ما أبالي صَلَّيْتُ خَلْفَ الْجَهْمِيِّ وَالرَّافِضِيِّ، أم صَلَّيْتُ خَلْفَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، وَلَا يُسَلِّمُ عَلَيْهِمْ، وَلَا يُعَادُونُ، وَلَا يُنَاكِحُونَ، وَلَا يُشْهَدُونَ، وَلَا تُؤْكَلُ ذَبَائِحُهُمْ». اهـ.

وروى الخطيب في «الكفاية» (ص 49) بإسناده إلى أبي زرعة، أنه قال: «إذا رَأَيْتَ الرَّجُلَ يَنْتَقِصُ أَحَدًا من أصحاب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فاعلم أنه زنديق، وذلك أَنَّ الرُّسُولَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندنا حق، والقرآن حق، وإنما أدَّى إلينا هذا القرآن والسُّنَنَ أصحابُ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنما يريدون أن يجرحوا شهودنا؛ ليبطلوا الكتاب والسنة، والجرحُ بهم أولى، وهم زنادقة». اهـ.

وقال ابنُ بطة رَحِمَهُ اللهُ في «الإبانة» (ص 127): «وقال هارون بن زياد: سمعت الفريابي ورجلٌ يسأله عن مَنْ شَتَمَ أبا بكر، قال: كافر، قال: فنصلي عليه؟ قال: لا، فسألته: كيف نصنع به وهو يقول لا إله إلا الله؟ قال: لا تمسوه بأيديكم، ادفعوه بالخشب حتى تواروه في حُفْرَتِهِ.

وقال محمد بن بشار: قلت لعبد الرحمن بن مهدي: أخضر جنازة من سب أصحاب رسول الله؟ قال: لو كان من عصيتي ما ورثته.

وقال أبو بكر بن عيَّاش: لا أصلي على رافضي ولا حروري؛ لأن الرافضي يجعل عمرَ كافراً، والحروري يجعل علياً كافراً.

وقال طلحة بن مصرف: الرافضة لا تُنكح نساؤهم، ولا تؤكل ذبائحهم؛ لأنهم أهل ردة. اهـ.

وقال القاضي عياض رحمه الله في «الشفاء» (2/ 236): «وكذلك نقطع بتكفير كل قائل قال قولاً يتوصل به إلى تضليل الأمة، وتكفير جميع الصحابة... وكذلك نقطع بتكفير غلاة الرافضة في قولهم: إن الأئمة أفضل من الأنبياء». اهـ.

وقال الإمام الطحاوي رحمه الله في «العقيدة الطحاوية» (ص 57): «ونحب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا نفرط في حب أحد منهم، ولا نتبرأ من أحد منهم، ونُبغض من يُبغضهم، وبغير الخير يذكُرهم، ولا نذكُرهم إلا بخير، وحبهم دين وإيمان وإحسان، وبُغضهم كفر ونفاق وطغيان». اهـ.

وقال العلامة أبو حامد المقدسي في «الرد على الرافضة» (ص 200): «لا يمضي على ذي بصيرة من المسلمين أن أكثر ما قدّمناه في الباب قبله من تكفير هذه الطائفة الرافضة على اختلاف أصنافها كفر صريح، وعناء مع جهل قبيح لا يتوقف الواقف عليه من تكفيرهم، والحكم عليهم بالمروق من دين الإسلام». اهـ.

وقال الإمام القرطبي المفسر رحمه الله في تفسيره (16/ 296): «روى أبو عروة الزبيري من ولد الزبير: كنا عند مالك بن أنس، فذكروا رجلاً يتقص

أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقرأ مالك هذه الآية: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾، حتى بلغ ﴿يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ [الفتح: 29]، فقال مالك: مَنْ أَصْبَحَ مِنَ النَّاسِ فِي قَلْبِهِ غَيْظٌ عَلَى أَحَدٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَدْ أَصَابَتْهُ هَذِهِ الْآيَةُ، ذكره الخطيب أبو بكر.

قلت: لقد أحسن مالك في مقالته، وأصاب في تأويله؛ فَمَنْ انتقص واحداً منهم، أو طعن عليه في روايته فقد ردَّ على الله رب العالمين، وأبطل شرائع المسلمين، قال الله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾، الآية [الفتح: 29].

وقال: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: 18]، إلى غير ذلك من الآي التي تَصَمَّنَتِ الشَّاءَ عليهم، والشَّهادة لهم بالصدق والفلاح، قال الله تعالى: ﴿رِجَالٌ صدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: 23].

وقال: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً﴾ إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: 8]، ثم قال عزَّ من قائل: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: 9].

وهذا كله مع علمه - تبارك وتعالى - بحالهم ومآل أمرهم، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم»، وقال: «لا تسبوا أصحابي؛ فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً لم يدرك مدَّ أحدِهِم ولا نصيفه». اهـ.

وقال الإمام المحدث القرطبي رحمه الله في «المفهم» (6/493): «ولا يُخْتَلَفُ فِي أَنَّ مَنْ قَالَ: إِنَّهُمْ كَانُوا عَلَى كُفْرٍ أَوْ ضَلَالٍ كَافِرٌ يُقْتَلُ؛ لِأَنَّهُ أَنْكَرَ مَعْلُوماً

ضرورياً من الشرع، فقد كذب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم فيما أخبر به عنهم، وكذلك الحكم فيمن كفر أحد الخلفاء الأربعة أو ضللهم، وهل حكمه حكم المرتد فيستتاب؟ أو حكم الزنديق فلا يستتاب، ويقتل على كل حال؟ هذا مما يختلف فيه». اهـ.

وقال الإمام ابن حزم رحمه الله في «الفصل» (2 / 65): «وأما قولهم في دعوى الروافض تبديل القراءات، فإن الروافض ليسوا من المسلمين، إنما هي فرق حدث أولها بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم بخمس وعشرين سنة، وكان مبدؤها إجابة من خذله الله تعالى لدعوة من كاذب الإسلام، وهي طائفة تجري مجرى اليهود والنصارى في الكذب والكفر». اهـ.

وقال العلامة السمعاني رحمه الله في «الأنساب» (3 / 188): «واجتمعت الأمة على تكفير الإمامية؛ لأنهم يعتقدون تضليل الصحابة، وينكرون إجماعهم، وينسبونهم إلى ما لا يليق بهم». اهـ.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في «الصارم المسلول» (ص 570): «قال محمد بن يوسف الفريابي - وسئل عمّن شتم أبا بكر - قال: كافر، قيل: فيصلّي عليه؟ قال: لا، وسأله: كيف يصنع به وهو يقول: لا إله إلا الله؟ قال: لا تمسّوه بأيديكم، ادفعوه بالخشب حتى تواروه في حفرة».

وقال أحمد بن يونس: لو أن يهودياً ذبح شاة وذبح رافضياً لأكلت ذبيحة اليهودي، ولم أكل ذبيحة الرافضي؛ لأنه مُرتد عن الإسلام.

وكذلك قال أبو بكر بن هاني: لا تؤكل ذبيحة الروافض والقدرية، كما لا تؤكل ذبيحة المرتد، مع أنه تؤكل ذبيحة الكتابي؛ لأن هؤلاء يقيمون مقام المرتد، وأهل الذمة يقرّون على دينهم، وتؤخذ منهم الجزية.

وكذلك قال عبد الله بن إدريس - من أعيان أئمة الكوفة -: ليس لرافضي شُفْعَةٌ إِلَّا لِمُسْلِمٍ.

وقال فضيل بن مرزوق: سمعتُ الحسنَ بنَ الحسنِ يقول لِرَجُلٍ من الرَّاغِبَةِ: والله إنَّ قَتْلَكَ لِقَرْبَةٌ إِلَى اللهِ، وما أمتنع من ذلك إلا بالجواز، وفي رواية قال: رحمك الله! قذفت، إنما تقول هذا تمزح؟ قال: لا والله ما هو بالمزاح، ولكنه الجد، قال: وسمعتَه يقول: لئن أَمَكَّنَّا اللهُ منكم لَنَقُطَّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ.

وصرَّح جماعاتٌ من أصحابنا بكفر الخوارج المعتقدين البراءة من عليّ وعثمان، وبكفر الرَّاغِبَةِ المعتقدين لِسَبِّ جميع الصَّحابة الذين كفَّروا الصَّحابة، وفَسَّقوهم، وسَبُّوهم.

وقال أبو بكر بن عبد العزيز في «المُقْنَع»: فأما الرَّاغِبِيُّ فإن كان يَسُبُّ فقد كَفَرَ، فلا يُزَوِّج.

ولفظُ بَعْضِهِمْ - وهو الذي نصره القاضي أبو يعلى - أنه إن سَبَّهم سَبًّا يقدح في دينهم وعدالتهم كَفَرَ بذلك، وإن سَبَّهم سَبًّا لا يقدح، مثل أن يسبَّ أبا أحدهم، أو يسبَّه سَبًّا يقصد به غَيْظُهُ ونحو ذلك لم يَكْفُرْ. اهـ.

وقال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في الفوائد (ص 73): «أترى لم يَسْمَعْ الرَّاغِبُ الكُفَّارُ ﴿ثَانِي﴾ أَثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْفَكَارِ ﴿التوبة: ٤٠﴾».

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ في «البداية والنهاية» (5 / 272): «وفي حديث الأعمش عن إبراهيم التيمي عن أبيه، قال: خطبنا علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فقال: مَنْ زَعَمَ أَنَّ عِنْدَنَا شَيْئًا نَقْرُؤُهُ ليس في كتاب الله، وهذه الصَّحِيفَةُ - لصحيفة

مُعَلَّقَةٍ فِي سَيْفِهِ فِيهَا أَسْنَانُ الْإِبْلِ وَأَشْيَاءُ مِنَ الْجِرَاحَاتِ - فَقَدْ كَذَبَ.

وفيها قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْمَدِينَةُ حَرَمٌ مَا بَيْنَ عَيْرٍ إِلَى ثَوْرٍ، مَنْ أَحْدَثَ فِيهَا حَدَثًا، أَوْ آوَى مُحَدَّثًا، فَعَلِيهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا، وَمَنْ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ أَوْ انْتَمَى إِلَى غَيْرِ مَوَالِيهِ فَعَلِيهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا، وَذِمَّةُ الْمُسْلِمِينَ وَاحِدَةٌ، يَسْعَى بِهَا أَدْنَاهُمْ؛ فَمَنْ أَخْفَرَ مُسْلِمًا فَعَلِيهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا».

وهذا الحديث الثابت عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَرُدُّ عَلَى فِرْقَةِ الرَّافِضَةِ فِي زَعْمِهِمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْصَى إِلَيْهِ بِالْخِلَافَةِ، وَلَوْ كَانَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمُوا لَمَا رَدَّ ذَلِكَ أَحَدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ؛ فَإِنَّهُمْ كَانُوا أَطْوَعَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ فِي حَيَاتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبَعْدَ وَفَاتِهِ مِنْ أَنْ يَفْتَتُوا عَلَيْهِ، فَيَقْدُمُوا غَيْرَ مَنْ قَدَّمَهُ، وَيُوْخَرُوا مَنْ قَدَّمَهُ بِنَصِّهِ، حَاشَا وَكَلَّا وَلَمَّا، وَمَنْ ظَنَّ بِالصَّحَابَةِ رِضْوَانَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ فَقَدْ نَسَبَهُمْ بِأَجْمَعِهِمْ إِلَى الْفُجُورِ وَالتَّوَاتُؤِ عَلَى مَعَانِدَةِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمُضَادَّتِهِمْ لَهُ فِي حُكْمِهِ وَنَصِّهِ، وَمَنْ وَصَلَ مِنَ النَّاسِ إِلَى هَذَا الْمَقَامِ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ، وَكَفَرَ بِأَجْمَاعِ الْأُئِمَّةِ الْأَعْلَامِ، وَكَانَ إِرَاقَةُ دَمِهِ أَحَلَّ مِنْ إِرَاقَةِ الْمُدَامِ. اهـ.

وقال الحافظ الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الْكَبَائِرِ» (ص 236): «فَمَنْ طَعَنَ فِيهِمْ أَوْ سَبَّهُمْ فَقَدْ خَرَجَ مِنَ الدِّينِ، وَمَرَقَ مِنْ مِلَّةِ الْمُسْلِمِينَ؛ لِأَنَّ الطَّعْنَ لَا يَكُونُ إِلَّا عَنْ اعْتِقَادِ مَسَاوِيهِمْ، وَإِضْمَارِ الْحَقِّدِ فِيهِمْ، وَإِنْكَارِ مَا ذَكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ مِنْ ثَنَائِهِ عَلَيْهِمْ، وَمَا لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ ثَنَائِهِ عَلَيْهِمْ، وَفَضَائِلِهِمْ وَمَنَاقِبِهِمْ، وَحُبِّهِمْ، وَلَأَنَّهُمْ أَرْضَى الْوَسَائِلِ مِنَ الْمَأْثُورِ، وَالْوَسَائِلُ مِنَ الْمُنْقُولِ، وَالطَّعْنُ فِي

الوسائط طعنٌ في الأصل، والازدراء بالنَّاقِلِ اِزْدِرَاءٌ بالمنقول، هذا ظاهرٌ لِمَنْ تَدَبَّرَهُ، وَسَلِّمَ مِنَ النِّفَاقِ وَمِنَ الرِّندَقَةِ وَالْإِلْحَادِ فِي عَقِيدَتِهِ. اهـ.

وقال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ فِي رسالته «الرَّد على الرَّافِضَةِ» (ص 18-19): «وقد تَوَاتَرَ عن النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا يَدُلُّ على كَمَالِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، خصوصاً الخلفاء الرَّاشِدُونَ؛ فَإِنَّ ما ذُكِرَ في مدح كل واحد مشهورٌ، بل متواترٌ؛ لأنَّ نَقْلَهُ ذلك أَقْوَامٌ يَسْتَحِيلُ تَوَاطُؤُهُمْ على الكذب، ويفيد مجموع أخبارهم العلم اليقيني بكَمَالِ الصَّحَابَةِ، وفضل الخلفاء.

إذا عرفت أن آيات القرآن تَكَاثَرَتْ في فضلهم، والأحاديث المتواترة بمجموعها ناصّة على كمالهم، فمن اعتقد فسقهم أو فسقَ مَجْمُوعِهِمْ، وارتدادهم وارتدادَ مُعْظَمِهِمْ عن الدين، أو اعتقد سَبَّهُمْ وإباحته، أو سَبَّهُمْ مع اعتقاد حَقِّيَّةِ سَبِّهِمْ أو حِلِّيَّتِهِ فقد كفر بالله تعالى ورسوله فيما أخبر من فضائلهم وكَمالاتهم المستلزمة لبراءتهم، عما يوجب الفسق والارتدادَ وحَقِّيَّةِ السَّبِّ وإباحته، ومن كَذَّبَهُما فيما ثبت قطعاً صدوره فقد كَفَرَ، والجهل بالمتواتر القاطع ليس بعذرٍ، وتأويله وصرفه من غير دليل معتبر غير مفيد، كمن أنكر فرضيَّة الصَّلوات الخمس جهلاً لفرضيتها؛ فإنه بهذا الجهل يَصِيرُ كافرًا، وكذا لو أوَّلَهَا على غير المعنى الذي نَعَرَفُهُ فقد كفر؛ لأنَّ العِلْمَ الحاصل من نصوص القرآن والأحاديث الدالة على فضلهم قَطْعِيٌّ، وَمَنْ خَصَّ بعضهم بالسَّبِّ فإن كان ممن تواتر النقل في فضله وكَماله - كالخلفاء - فإنَّ اعتقادَ حَقِّيَّةِ سَبِّهِ أو إباحته فقد كَفَرَ؛ لتكذيبه ما ثبت قطعاً عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومُكَذِّبُهُ كافرٌ، وإن سَبَّهُ من غير اعتقادِ حَقِّيَّةِ سَبِّهِ أو إباحته فقد تَفَسَّقَ؛ لأنَّ سَبابَ المُسلم فسوق، وقد حكم بعض العلماء فيمن سَبَّ الشَّيْخِينَ بالكفر مطلقاً، والله أعلم.

وإن كان ممن لم يتواتر النُّقل في فضله وكماله، فالظاهر أن سبَّه فاسقٌ، إلا أن يسبَّه من حيث صُحْبَتِهِ لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإن ذلك كفرٌ، وغالب هؤلاء الرافضة الذين يسُبُّون الصَّحابةَ - لا سيَّما الخلفاء - يعتقدون حقِّيَّةَ سبِّهم، أو إباحته، بل وجوبه؛ لأنهم يتقربون بذلك إلى الله تعالى، حيث يرون ذلك من أجلِّ أمور دينهم، كما نُقل عنهم! ما أضلَّ عقول قوم يتقربون إلى الله تعالى بما يوجب لهم خسران الدين! والله الحافظ.

هذا وإنِّي لا أعتقد كُفْرَ مَنْ كان عند الله مسلمًا، ولا إسلام مَنْ كان عنده كافرًا، بل أعتقد مَنْ كان عنده كافرًا كافرًا، وما صحَّ عن العلماء من أنه لا يكفر أهل القبلة فمحمولٌ على من لم يكن بدَّعته مُكفِّرة؛ لأنهم اتفقت كلمتهم على تكفير مَنْ كانت بدعته مُكفِّرة، ولا شك أن تكذيب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما ثبت عنه قطعًا كفرٌ، والجهل في مثل ذلك ليس بعذر، والله أعلم. اهـ.

وقال العلامة عبد الله ابن شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب النجدي رَحِمَهُ اللهُ، كما في «الدرر السنية» (10/ 249 - 250) بعد ذكره لكلام شيخ الإسلام في سب الصَّحابة: «فهذا حكم الرافضة في الأصل، فأما حكم مُتأخِّريهم الآن، فجمعوا بين الرِّفْض والشُّرك بالله العظيم عند المَشَاهِدِ الذي ما بَلَغَهُ الذين بُعِثَ إليهم رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ». اهـ.

وقال العلامة سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ في «التوضيح عن توحيد الخَلْق في جواب أهلِ العِراق» (1/ 39): «واعلم أنَّ الرِّوَاظِصَ كُفَّارٌ عندنا؛ لأنهم يسُبُّونَ أبا بكرٍ، وعمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وكذا مَنْ أنكَرَ خِلَافَتَهُمَا يَكْفُرُ عندنا في الأصحَّ». اهـ.

وقال العلامة محمد بن عبد اللطيف آل الشيخ رَحِمَهُ اللهُ كما في «الدرر

السنية» (8/ 450): «وأما حُكْمُ الرَّافِضَةِ فيما تَقَدَّمَ، فقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ فِي «الصَّارِمِ الْمَسْلُوبِ»: وَمَنْ سَبَّ الصَّحَابَةَ أَوْ أَحَدًا مِنْهُمْ، وَاقْتَرَنَ بِسَبِّهِ أَنْ جَبَرِيلُ غَلَطَ فِي الرِّسَالَةِ، فَلَا شَكَّ فِي كُفْرِهِ، بَلْ لَا شَكَّ فِي كُفْرٍ مَنْ تَوَقَّفَ فِي كُفْرِهِ، وَمَنْ قَذَفَ عَائِشَةَ فِيمَا بَرَّأَهَا اللهُ مِنْهُ كَفَرَ بِهَا خِلَافًا...».

إلى أن قال: «وَأَمَّا مَنْ لَعَنَ أَوْ قَبَّحَ - يَعْنِي: الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ - فِيهِ الْخِلَافُ: هَلْ يَفْسُقُ أَوْ يَكْفُرُ؟ وَتَوَقَّفَ أَحْمَدُ فِي تَكْفِيرِهِ، وَقَالَ: يُعَاقَبُ، وَيُجْلَدُ، وَيُحْبَسُ حَتَّى يَمُوتَ أَوْ يَتُوبَ».

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ: «وَأَمَّا مَنْ زَعَمَ أَنَّ الصَّحَابَةَ ارْتَدُّوا بَعْدَ مَوْتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا نَفَرًا قَلِيلًا لَا يَبْلُغُونَ بَضْعَةَ عَشَرَ، وَأَنَّهُمْ فَسَقُوا، فَلَا رَيْبَ - أَيْضًا - فِي كُفْرٍ قَائِلٍ ذَلِكَ، بَلْ لَا رَيْبَ فِي كُفْرٍ مَنْ لَمْ يُكْفِرْ». انتهى كلامه رَحِمَهُ اللهُ. فهذا حكم الرافضة في الأصل، وأما الآن فحالهم أَقْبَحُ وَأَشْنَعُ؛ لَأَنَّهُمْ أَضَافُوا إِلَى ذَلِكَ: الْغُلُوَّ فِي الْأَوْلِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ وَغَيْرِهِمْ، وَاعْتَقَدُوا فِيهِمُ النَّفْعَ وَالضَّرَّ فِي الشَّدَّةِ وَالرَّخَاءِ، وَيُرُونَ أَنَّ ذَلِكَ قُرْبَةٌ تَقَرِّبُهُمْ إِلَى اللَّهِ، وَدِينٌ يَدِينُونَ بِهِ؛ فَمَنْ تَوَقَّفَ فِي كُفْرِهِمْ وَالحَالَةُ هَذِهِ وَارْتَابَ فِيهِ، فَهُوَ جَاهِلٌ بِحَقِيقَةِ مَا جَاءَتْ بِهِ الرِّسَالُ، وَنَزَلَتْ بِهِ الْكُتُبُ، فَلْيَرَأِجِعْ دِينَهُ قَبْلَ حُلُولِ رَمْسِهِ». اهـ.

وقال الإمام الشوكاني رَحِمَهُ اللهُ فِي «الْجَوَاهِرِ وَالذُّرَرِ عَلَى حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ» كَمَا فِي «الْفَتْحِ الرَّبَّانِيِّ مِنْ فِتَاوَى الْإِمَامِ الشُّوكَانِيِّ» (11/ 5441): «كَانَ حَاصِلُ مَا هُمْ فِيهِ مِنْ ذَلِكَ أَرْبَعُ كِبَائِرٍ، كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا كُفْرٌ بَوَاحٍ:

الأولى: الْعِنَادُ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

والثانية: الْعِنَادُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والثالثة: العنادُ للشريعة المُطَهَّرة، وكيادُها، ومحاولةُ إِبْطالِها.

والرابعة: تَكْفِيرُ الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، الموصوفين في كتاب الله سبحانه بأنَّهم ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾ [الفتح: 29]، وأنَّ الله - سبحانه - يغيظ بهم الكفَّار، وأنه قد رضي عنهم...، فعرفت بهذا أن كلَّ رافضي خبيث على وجه الأرض يصير كافرًا بتكفيره لصحابيٍّ واحد؛ لأن كل واحد منهم قد كَفَّرَ ذلك الصَّحابي، فكيف بمن كَفَّرَ كلَّ الصَّحابة، واستثنى أفرادًا يسيرة؛ تنفيقًا لما هو فيه من الضلال على الطَّعام الذين لا يعقلون الحُجج، ولا يفهمون البراهين، ولا يفتنون لما يُضْمِرُهُ أَعْدَاءُ الإسلام من العناد لدين الله والكياد لِشَريعَتِهِ، فَمَنْ كان مِنَ الرَّافِضَةِ - كما ذكرنا - فقد تَضَاعَفَ كُفْرُهُ مِنْ جِهاتٍ أربع كما سلف... فالحاصل أن مَنْ صَدَّقَ عليه هذا اللقبُ أَقْلُ أحواله أن يكون معاديًا للصَّحابة، لا عَنَّا لهم، مكفِّرًا لغالبهم، هذا على تقدير عَدَمِ تَفْطِنِهِ لما هو العِلَّةُ الغائبة للرافضة، من العناد لله سبحانه، ولرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وللشريعة المُطَهَّرة.

فتقرَّر لك بهذا: أن مَنْ قَدَرَ على إنكار صَنِيعِ الرَّافِضَةِ ولم يفعل، فقد رَضِيَ بأن تُنتَهَكَ حُرْمَةُ الإسلام وأَهْلِهِ، وسَكَتَ على ما هو كُفْرٌ مُتَضَاعِفٌ كما سلف، وأقْلُ أحواله أن يكون كافرًا بتكفير الأكثر من الصَّحابة، ومَنْ سَكَتَ عن إنكار الكفر مع القدرة عليه فقد أهمل ما أمر الله سبحانه في كتابه مِنَ الأمرِ بالمعروف والنَّهي عن المنكر، وتركَ الإنكارَ على ما هو كُفْرٌ بَوَاحٍ، وأهمل ما هو أعظم أعمدة الدين وأكبر أساطينه، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلا بكتاب الله سبحانه ولا بِسُنَّةِ رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اقْتَدَى. اهـ.

قال العلامة صديق حسن خان رَحِمَهُ اللَّهُ في «الدين الخالص» (408 / 3) معلقًا على كلام الإمام الشوكاني: «وأقول: ما أَصْدَقَ هذا الكلامَ مِنْ هذا الإمام،

وما أبلغه في أداء المرام! فإنه دلّ دلالة واضحة صريحة لا سُترة عليها، على أن الرافضة كفّارٌ كفّاراً بواحاً بدليل الكتاب العزيز ﴿لِيَغِيْظَ بِهِمُ الْكُفَّارُ﴾، وكأنّ هذه الآية نصّ في محلّ النزاع...

وإذا ثبت بالقرآن والحديث أن هؤلاء كفّار فينبغي أن يجري حكم الكفّار عليهم في جميع المسائل والأحكام، من ترك المناكحة بهم والجهاد معهم، والرّد على مذهبهم، والإنكار على صنيعهم، والاعتقاد بعدم إسلامهم، وبكونهم أخبث الطوائف في الدنيا، وما ذكر من انتظارهم المهديّ السردابيّ هو بعينه اعتقاد الإمامية، مصرّح به في كتبهم.

ويرون أن سب الصحابة ولعنهم عبادة فاضلة، حتى إنّ بعض الرؤساء والرعيّة صنعوا في بعض البلاد صوّرهم الخياليّة المنحوتة على شكل ما في ذهنهم، وفعلوا به ما ينبغي بالكافر وبالعدو.

وهذا أدلّ دليل على أن اعتقادهم وقولهم في الأصحاب أنهم كفّار مرتدّون، ونعوذ بالله من ذلك.

وإذا كان هذا اعتقادهم وكان هذا صنيعهم بتمثيلهم القرطاسيّة والخشبية ونحوها، فأبي عاقل ممّن له أدنى تمييز يقف في الإفتاء بكفرهم». اهـ.

وقال رحمه الله في «الدين الخالص» (3/ 381-382): «فمن نال منهم، أو طعن فيهم، أو سبهم، فلا شك ولا ريب أنه من أصحاب النار؛ لأنه عارض الله في كتابه، وإخباره بمزيد فضلهم، برأيه الفاسد، ولم يقبل دليل القرآن.

ومن أنكر حرفاً من القرآن فقد خرج عن الإسلام، ودخل في الكفر بلا ارتياب، فسحقاً للرافضة اللاعنين لهم، والسائين لهم.

وقد قال الله سبحانه: ﴿لَيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارُ﴾ [الفتح: 29]، وقد نصَّ جَمْعُ جَمٍّ من أهل العلم بالحديث والقرآن أن الرافضة كفَّار؛ لإنكارهم ضروريات الدين، وما عُلِمَ من شرع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالقطع اليقين، وتكفيرهم للصَّحابة السَّابِقين والآخرين، وهم أفضل الأُمَّة وأَبْرُهَا وأَكْرَمُهَا على الله، بأدلة من الكتاب والسُّنة.

فَمَنْ خَالَفَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فِي إِخْبَارِهِمَا، وَعَصَاهُمَا بِسُوءِ الْعَقِيدَةِ فِي خُلُصِ عِبَادِهِ، وَنَخَبَةِ عِبَادِهِ فَكُفِّرْهُ بِوَأَحِّ لَا سِتْرَةَ عَلَيْهِ. اهـ.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الدِّينِ الْخَالِصِ» (401/3) عِنْدَ قَوْلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ ﴿لَيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارُ﴾: «قُلْتُ: أَصَبَحْتُ الرَّافِضَةَ كُلَّهَا فِي الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ، وَفِي بَوَاطِنِهِمْ غِيظٌ شَدِيدٌ، وَغَضَبَةٌ عَظِيمَةٌ عَلَى الصَّحَابَةِ، وَشَجَوِي فِي حُلُوقِهِمْ، فَالَايَةُ شَمَلَتْهُمْ، وَكَفَى بِهَا دَلِيلًا عَلَى كُفْرِهِمْ؛ لِأَنَّ الْغِيظَ بِهِمْ وَالسُّخْطَ عَلَيْهِمْ بِالسَّبِّ وَإِطْلَاقِ اللِّسَانِ بِمَسَاوِيهِهِ الْمَكْذُوبَةِ عَلَيْهِمْ مِنْ أَمَارَاتِ الْكُفْرِ وَالطُّغْيَانِ، وَهَذِهِ الْأَمَارَاتُ وَجِدَتْ فِيهِمْ وَجَدَانًا صَحِيحًا، نَطَقَتْ بِهِ كُتُبُهُمْ بِذِكْرِ مَطَاعِنِ الصَّحَابَةِ، وَفَاهَتْ بِهِ أَلْسِنَتُهُمْ بِالسَّبِّ وَالطَّعْنِ وَالْقَدْحِ، فَهُمْ أَجْهَلُ خَلْقٍ خَلَقَ اللَّهُ بِحَقِّ السَّلَفِ، وَأَعْظَمُهُمْ عِنَادًا لَهُمْ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ». اهـ.

وقال العلامة مُحَمَّدُ الْأَلُوسِيُّ الْبَغْدَادِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ «صَبِّ الْعَذَابِ عَلَى مَنْ سَبَّ الْأَصْحَابَ» (ص 227): «أَيُّظُنُّ النَّاطِمُ الضَّالُّ أَنْ دَسَائِسُهُمْ تَرُوجُ عَلَى أَحَدٍ مِنَ أَهْلِ السُّنَّةِ، أَوْ تَخْفَى خِبَائِثُهُمْ وَقِبَائِحُهُمْ عَلَى ذَوِي الْعُقُولِ فَيَتَّخِذَ ذَلِكَ جُنَّةً؟

وَلَعَمْرِي إِنَّ كُفْرَهُمْ أَشْهَرُ مِنْ كُفْرِ إِبْلِيسَ، وَبِغَضِّهِمْ لِلصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لَا يَخْفِيهِ تَدْلِيسٌ وَلَا تَلْبِيسٌ». اهـ.

وقال العلامة مُلاً علي القاري رَحِمَهُ اللهُ في كتابه «مِرْقاة المفاتيح» (14 / 85) معلّقاً على كلام العلامة النووي رَحِمَهُ اللهُ في قوله: «إن الخوارج كسائر أهل البدع لا تُكْفَر»: «قلت: وهذا في غير حقِّ الرّافضة الخارجة في زماننا؛ فإنهم يَعْتَقِدُونَ كُفْرَ أَكْثَرِ الصّحابة، فضلاً عن سائر أهل السُّنّة والجماعة، فهم كُفْرَةٌ بالإجماع بلا نزاع». اهـ.

وقال رَحِمَهُ اللهُ في كتابه «شم العوارض في ذمّ الروافض» (ص 18): «أو اعتقد كُفْرَ الصّحابة وأهل السنة في فصل خطابهم فإنه كافر بالإجماع، ولا يُلتَفَتُ إلى خلاف مخالفتهم في مقام النزاع». اهـ.

وسئل العلامة محمّد بن إبراهيم آل الشيخ كما في «مجموع الفتاوى والرسائل» (8 / 132): «هل للرافضة شُفْعَةٌ على المسلمين، أم لا؟

فأجاب: مذهب الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ تعالى أن لا شُفْعَةَ لكافر على مسلم، سواء كان كافراً كفراً أصلياً، أو مرتدّاً، أو داعية إلى بدعة.

ورافضة هذه الأزمان مرتدّون عبدة أوثان، فيدخلون في هذا الحكم، لكن إذا أُلْزِمُوا بالإسلام والتزّموا وتركوا الشّرك ظاهراً فالظاهر أن حكمهم حكم المنافقين، وهو غير خافٍ على السائل». اهـ.

وسُئِلَتِ اللجنة الدائمة كما في «فتاوى اللجنة الدائمة» (2 / 376-377): «ما حُكْمُ عَوَامِّ الروافض الإمامية الإثني عشرية؟ وهل هناك فرق بين علماء أيّ فرقة من الفِرَق الخارجة عن المِلّة، وبين أتباعها من حيث التكفير أو التفسيق؟

الجواب: مَنْ شَايَعَ مِنَ العوام إماماً من أئمة الكفر والضلال، وانتصر لسادتهم وكبرائهم بغياً وعدواً حُكِمَ له بحكمهم، كفراً وفسقاً، قال الله تعالى:

﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ﴾، إلى أن قال: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾ (٦٧) رَبَّنَا ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمُ لَعْنَا كَبِيرَا﴾ [الأحزاب: 63-68]، وقرأ الآية رقم (165، 166، 167) من سورة البقرة، والآية رقم (37، 38، 39) من سورة الأعراف، والآية رقم (21، 22) من سورة إبراهيم، والآية رقم (28، 29) من سورة الفرقان، والآيات رقم (62، 63، 64) من سورة القصص، والآيات رقم (31، 32، 33) من سورة سبأ، والآيات رقم (20 حتى 36) من سورة الصافات، والآيات (47 حتى 50) من سورة غافر، وغير ذلك في الكتاب والسنة كثير؛ ولأنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَاتَلَ رُؤُسَاءَ الْمُشْرِكِينَ وَأَتْبَاعَهُمْ، وكذلك فَعَلَ أَصْحَابُهُ، ولم يُفَرِّقُوا بين السَّادَةِ وَالْأَتْبَاعِ.

وبالله التوفيق، وصَلَّى اللهُ على نبينا محمد وآله وصحبه وسلَّم. اهـ.

وسياأتي - إن شاء الله تعالى - مزيدٌ من الكلام حول موقف الروافض من الصحابة الكرام، وتوليهم لأعداء الإسلام على مرِّ الأزمان، وبيان أصل الرِّفْض، وحقيقته وثمراته، وشيء من كلام علماء الإسلام ومصايح الظَّلام، مما تقرُّ به عيُونُ أهل الإيمان، ويكون سلاحاً لهم في الميدان إذا التقى الجمعان، والله حسبنا وعليه التكلان.

وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ في «الصَّارِمِ الْمَسْلُوبِ» (ص 568 - 569) في حُكْمِ مَنْ سَبَّ أَزْوَاجَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فصل: فَأَمَّا مَنْ سَبَّ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال القاضي أبو يعلى: مَنْ قَذَفَ عَائِشَةَ بِمَا بَرَّأَهَا اللهُ مِنْهُ كَفَرَ بِلا خلاف، وقد حكى الإجماع على هذا غير واحدٍ، وصرَّح غير واحدٍ من الأئمة بهذا الحكم... إلى أن قال: قال أبو السائب القاضي: كنت يوماً بحضرة الحسن بن زيد الداعي بطبرستان، وكان يلبس الصُّوفَ، ويأمر بالمعروف،

وينهى عن المنكر، ويوجه في كل سنة بعشرين ألف دينار إلى مدينة السلام، يفرق على سائر وَلَدِ الصَّحابة، وكان بحضرته رَجُلٌ، فذكر عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بذكر قبيح من الفاحشة، فقال: يا غلام اضرب عنقه، فقال العلويون: هذا رجلٌ من شيعتنا، فقال: معاذ الله! هذا رجلٌ طعن على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ قال الله تعالى: ﴿الْخَيْثُ لِلْخَيْثِينَ وَالْخَيْثُوبُ لِلْخَيْثَاتِ وَالطَّيِّبُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [النور: 26].

فإن كانت عائشة خبيثة فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خبيث! فهو كافر؛ فاضربوا عنقه، فضربوا عنقه، وأنا حاضر. رواه اللالكائي....

إلى أن قال: «وَأَمَّا مَنْ سَبَّ غَيْرَ عَائِشَةَ مِنْ أَزْوَاجِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ففيه قولان:

أحدهما: أنه كَسَابٌ غَيْرُهُنَّ مِنَ الصَّحابة، على ما سيأتي.

والثاني: وهو الأصح، أنه مَنْ قَذَفَ واحدةً من أمهات المؤمنين فهو كَقَذْفِ عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وقد تقدّم معنى ذلك عن ابن عباس؛ وذلك لأن هذا فيه عارٌ وغَضاضَةٌ على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأذى له أعظم من أذاه بِنِكَاحِهِنَّ بَعْدَهُ. اهـ.

وقال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ في «شرح مسلم» (17/117): «بَرَاءَةٌ عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا من الإفك، وهي براءةٌ قَطْعِيَّةٌ بنص القرآن العزيز، فلو تشكك فيها إنسانٌ - والعياذ بالله - صار كافرًا مُرْتَدًّا بإجماع المسلمين، قال ابن عباس وغيره: لم تَزِنْ امْرَأَةً نَبِيٍّ من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وهذا إكراؤٌ من الله تعالى لهم». اهـ.

وقال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في «زاد المعاد» (1/ 102): «ثم تزوّج بعدها أمّ عبد الله عائشة الصّديقة بنت الصّديق، المُبرّاة من فوق سبع سماوات، حَبِيبَةُ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عائشة بنت أبي بكر الصّديق، وعَرَضَهَا عليه المَلِكُ قبل نكاحها في سَرَقَةٍ مِنْ حَرِيرٍ، وقال: «هذه زَوْجَتُكَ»، تزوّج بها في شوال، وعمرها ست سنين، وبنى بها في شوال في السّنة الأولى من الهجرة، وعمرها تسع سنين، ولم يتزوّج بِكَرًّا غيرها، وما نزل عليه الوحي في لِحَافِ امرأةٍ غيرها، وكانت أَحَبَّ الخَلْقِ إليه، ونزل عُذْرُهَا من السماء، واتفقت الأُمّةُ على كُفْرِ قَاذِفِهَا، وهي أَفْقَهُ نِسَائِهِ وَأَعْلَمُهُنَّ، بل أَفْقَهُ نِسَاءِ الأُمّةِ وأَعْلَمُهُنَّ على الإطلاق، وكان الأكابر من أصحاب النّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يرجعون إلى قولها ويستفتونها». اهـ.

وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره (3/ 369): «وقد أجمع العلماء رحمهم الله قاطبةً على أَنَّ مَنْ سَبَّهَا بعد هذا ورمّاها بما رماها به بعد هذا الذي ذكر في هذه الآية، فإنه كافر؛ لأنه معاندٌ للقرآن، وفي بقيّة أمّهات المؤمنين قولان: أصحُّهما أَنَّهُنَّ كَهَيِّ، والله أعلم». اهـ.



«وَيَقْبَلُونَ مَا جَاءَ بِهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَالْإِجْمَاعُ مِنْ فَضَائِلِهِمْ وَمَرَاتِبِهِمْ».

أي: أَنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ يَقْبَلُونَ مَا دَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ، وَمَا أَجْمَعَتْ عَلَيْهِ الْأُمَّةُ مِنْ فَضَائِلِ الصَّحَابَةِ وَمَرَاتِبِهِمْ، بِخِلَافِ الرَّاوَافِضِ وَالنَّوَاصِبِ الَّذِينَ لَمْ يَقْبَلُوا ذَلِكَ.

والفضائل: جمع فَضِيلَةٍ، وهي ما يَفْضَلُ بِهِ الْمَرْءُ غَيْرَهُ، وهي الْخَصْلَةُ الْجَمِيلَةُ، وَالْمَرَاتِبُ: الدَّرَجَاتُ؛ لِأَنَّ الصَّحَابَةَ لَهُمْ مَرَاتِبٌ وَدَرَجَاتٌ، فبَعْضُهُمْ أَفْضَلُ مِنْ بَعْضٍ، وَكُلُّ لَهُ رُتْبَةٌ وَفَضْلٌ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ.

ومما جاء في فضائل الصحابة من القرآن الكريم:

قوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: 100].

وقوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: 29].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أَوْلِيَاءُ هُمْ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: 72 - 74]،

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجْهَهُدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنْكُمْ﴾ [الأنفال: 75].

وهذه الآيات تتضمنُ الشَّاءَ العظيم على الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من المهاجرين والأنصار، وما وعدهم الله به من الأجر والثَّوابِ الجَزِيلِ.

ومما جاءت به السُّنَّة في فضائلهم:

ما رواه البخاري ومسلم في صحيحَيْهِما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ».

ومن ذلك: ما رواه البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ أَقْوَامٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتُهُ».

ومن ذلك ما رواه مسلم في صحيحه عن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أنه رفع رأسَهُ إلى السَّمَاءِ، وكان كثيراً ما يرفع رأسه إلى السماء، فقال: «النُّجُومُ أَمَنَةٌ لِلسَّمَاءِ، فَإِذَا ذَهَبَتِ النُّجُومُ أَتَى السَّمَاءَ مَا تُوعَدُ، وَأَنَا أَمَنَةٌ لِأَصْحَابِي، فَإِذَا ذَهَبَتْ أَتَى أَصْحَابِي مَا يُوعَدُونَ، وَأَصْحَابِي أَمَنَةٌ لِأُمَّتِي، فَإِذَا ذَهَبَ أَصْحَابِي أَتَى أُمَّتِي مَا يُوعَدُونَ».

وقال الإمام النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في شرح هذا الحديث: «قال العلماء: الأَمَنَةُ بفتح الهمز والميم، والأَمْنُ والأَمَانُ بمعنى».

ومعنى الحديث: أَنَّ النُّجُومَ ما دامت باقيةً فالسَّمَاءُ باقيةٌ، فإذا انْكَدَرَتِ النُّجُومُ وتناثرت في القيامة، وهنت السماءُ فانْطَرَتْ وانْشَقَّتْ وذَهَبَتْ.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَأَنَا أَمَنَةٌ لِأَصْحَابِي فَإِذَا ذَهَبَتْ أَتَى أَصْحَابِي ما

يُوعِدُونَ»؛ أي: مِنَ الْفِتَنِ وَالْحَرْبِ وَارْتِدَادِ مَنْ ارْتَدَّ مِنَ الْأَعْرَابِ، واختلاف القلوب، ونحو ذلك مما أُنذِرَ به صريحًا، ووقع كلُّ ذلك.

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَأَصْحَابِي أَمَنَةٌ لِأُمَّتِي»، فإذا ذَهَبَ أَصْحَابِي أَتَى أُمَّتِي مَا يُوعِدُونَ»، معناه: ظهور البدع والحوادث في الدين، والفتن فيه، وطلوع قَرْنِ الشَّيْطَانِ، وظهور الرُّوم وغيرهم عليهم، وانتهاك المدينة ومكة وغير ذلك، وهذه كُلُّهَا معجزاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. اهـ.

أقول: هذه الآيات والأحاديثُ مِنْ فَصَائِلِ الصَّحَابَةِ الْعَامَّةِ التي يقبلها أهلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، ويقولون بها، ويعتقدونها، كما أنهم يقبلون الفضائل الخاصة، كما سيأتي في كلام الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ.



«وَيُفْضِلُونَ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ (وَهُوَ صَلْحُ الْحُدَيْبِيَّةِ) وَقَاتَلَ عَلَى مَنْ أَنْفَقَ مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلَ، وَيُفْضِلُونَ الْمُهَاجِرِينَ عَلَى الْأَنْصَارِ».

قول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَيُفْضِلُونَ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ، (وهو صَلْحُ الْحُدَيْبِيَّةِ) وَقَاتَلَ عَلَى مَنْ أَنْفَقَ مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلَ».

الدليل على هذا قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيَّكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ [الحديد: 10].

المراد بالفتح هنا: صَلْحُ الْحُدَيْبِيَّةِ - كما قاله شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ - وهو أصح القولين في الآية، بدليل ما رواه الإمام البخاري في صحيحه عن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: تَعُدُّونَ أَنْتُمْ الْفَتْحَ فَتَحَ مَكَّةَ، وَقَدْ كَانَ فَتَحَ مَكَّةَ فَتَحًا، وَنَحْنُ نَعُدُّ الْفَتْحَ بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ، يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ، كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَرْبَعَ عَشْرَةَ مِائَةً، وَالْحُدَيْبِيَّةَ بَرْ...»، الحديث.

وقد قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ في «منهاج السنة» (2/ 26) في الآية السابقة: «وهذه الآية نَصٌّ فِي تَفْضِيلِ الْمُنْفِقِينَ الْمُقَاتِلِينَ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ﴾ [التوبة: 100] هُم هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلُوا، وَأَهْلُ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ كُلِّهِمْ مِنْهُمْ، وَكَانُوا أَكْثَرُ مِنْ أَلْفٍ وَأَرْبَعِمِائَةٍ». اهـ.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَيُفْضِلُونَ الْمُهَاجِرِينَ عَلَى الْأَنْصَارِ».

دليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: 100]، وقوله

تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾
 [التوبة: 117]، وقوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ
 وَأَمْوَالِهِمْ﴾ [الحشر: 8]، ثم قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾
 [الحشر: 9].

فهذه المواضع الثلاثة قدّم الله المهاجرين على الأنصار في الذكر، فدلّ ذلك
 على تقديمهم في الفضل.

والمهاجرون: هم الذين هاجروا من بلادهم إلى المدينة قبل الفتح.
 والأنصار: هم الذين هاجر إليهم رسول الله في المدينة، وهم: الأوس
 والخزرج، وكانوا يعرفون قبل ذلك ببني قيلة، وهي الأم التي تجمع القبيلتين،
 فسمّاهم الله ورسوله الأنصار، فصار هذا الوصف الشريف علماً عليهم،
 والأحاديث في فضائلهم كثيرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

والمهاجرون تركوا ديارهم وأهلهم وأموالهم نصرةً لله ودينه ورسوله
 صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فجمعوا بين الهجرة والنصرة، رضي الله عنهم وأرضاهم.

وليس في المهاجرين منافق؛ قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في «منهاج
 السُّنَّة النبوية» (8/449): «واعلم أنه ليس في المهاجرين منافق، وإنما كان
 النِّفَاقُ في قبائل الأنصار؛ لأنَّ أَحَدًا لم يُهاجر إلا باختياره، والكافر بِمَكَّةَ لم يكن
 يختار الهجرة، ومفارقة وطنه وأهله لِنَصْرِ عَدُوِّهِ، وإنما يختارها الذين وصفهم
 الله تعالى بقوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ
 يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾
 [الحشر: 8]، وقوله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ
 لَقَدِيرٌ﴾ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾

[الحج: 39، 40]، وأبو بكر أفضل هؤلاء كلهم». اهـ.
وذكر رَحْمَةُ اللَّهِ أَنْ الْعَشْرَةَ الْمُبْشِرِينَ بِالْجَنَّةِ كُلُّهُمْ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ.



«وَيُؤْمِنُونَ أَنَّ اللَّهَ قَالَ لِأَهْلِ بَدْرٍ، وَكَانُوا ثَلَاثَمِائَةٍ وَبِضْعَةَ عَشَرَ: «اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ، فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ».

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَيُؤْمِنُونَ أَنَّ اللَّهَ قَالَ لِأَهْلِ بَدْرٍ...».

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ في «شرح الواسطية» (ص 595 - 597):
«أهل بدرٍ مَرَّتَبَتُهُمْ أَعْلَى مِنْ مَرَاتِبِ الصَّحَابَةِ، وَبَدْرٌ: مَكَانٌ مَعْرُوفٌ، كَانَتْ فِيهِ الْغَزْوَةُ الْمَشْهُورَةُ، وَكَانَتْ فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ مِنَ الْهَجْرَةِ فِي رَمَضَانَ، وَاسْمُ اللَّهِ تَعَالَى يَوْمَهَا يَوْمَ الْفَرْقَانِ.

وسببها: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَمِعَ أَنَّ أَبَا سَفْيَانَ قَدِمَ بِعِيرٍ مِنَ الشَّامِ إِلَى مَكَّةَ، فَتَدَبَّ أَصْحَابُهُ مِنْ أَجْلِ هَذِهِ الْعِيرِ فَقَطَّ، فَانْتَدَبَ مِنْهُمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ وَبِضْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا، مَعَهُمْ سَبْعُونَ بَعِيرًا، وَفَرَسَانِ، وَخَرَجُوا مِنَ الْمَدِينَةِ لَا يَرِيدُونَ قِتَالًا، لَكِنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ بِحُكْمَتِهِ جَمَعَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّهِمْ.

فلما سمع أبو سفيان بذلك، وَأَنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ خَرَجَ إِلَيْهِ لَتَلْقَى الْعِيرَ أَخَذَ بِسَاحِلِ الْبَحْرِ، وَأَرْسَلَ صَارِخًا إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ يَسْتَنْجِدُهُمْ، فَانْتَدَبَ أَهْلُ مَكَّةَ لَذَلِكَ، وَخَرَجُوا بِأَشْرَافِهِمْ وَكِبَرَائِهِمْ وَزَعَمَائِهِمْ، خَرَجُوا عَلَى الْوَصْفِ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿بَطْرًا وَرِثَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: 47].

وفي أثناء ذلك جاءهم الخبرُ أَنَّ أَبَا سَفْيَانَ نَجَا بِالْعِيرِ، فَتَأَمَّرُوا بَيْنَهُمْ فِي الرِّجْوَةِ، لَكِنَّ أَبَا جَهْلٍ قَالَ: وَاللَّهِ لَا نَرْجِعُ حَتَّى نَقْدُمَ بَدْرًا، فَتَقِيمُ فِيهَا نَنْحَرُ الْجَزُورَ، وَنَسْقِي الْخُمُورَ، وَتَضْرِبُ عَلَيْنَا الْقِيَانُ، وَتَسْمَعُ بِنَا الْعَرَبِ، فَلَا يَزَالُونَ

يهابوننا أبداً.

وهذا الكلام يدل على الفخر والخيلاء، والاعتزاز بالنفس، ولكن - الحمد لله - كان الأمر على عكس ما يقول، سمعت العرب بهزيمتهم النكراء، فهانوا في نفوس العرب.

قَدِمُوا بَدْرًا، وَالتَقَتِ الطَّائِفَتَانِ وَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى الْمَلَائِكَةِ: ﴿أَنِّي مَعَكُمْ فَتَيَّبْتُوهُمُ الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ (١٢) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ. وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٣) ذَلِكَكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿[الأنفال: 12-14].

حصل اللقاء بين الطائفتين، وكانت الهزيمة - والله الحمد - على المشركين والنصر المبين للمؤمنين، وانتصروا، وأسروا منهم سبعين رجلاً، وقتلوا سبعين، منهم أربعة عشر رجلاً من كبرائهم وصناديدهم، سُجِبُوا فَأُلْقُوا فِي قَلْبٍ مِنْ قَلْبٍ بَدْرٍ خَبِيثَةٍ قَبِيحَةٍ.

ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم بعد انتهاء الحرب بثلاثة أيام ركب ناقته، ووقف عليهم، يدعوهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: يا فلان بن فلان، أيسرُكم أنكم أطعتم الله ورسوله؟ فإننا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟

فقالوا: يا رسول الله ما تكلم من أجسادٍ لا أرواح لها؟ فقال: «والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم».

والنبي عليه الصلاة والسلام وقف عليهم؛ توبيخاً، وتقريعاً، وتنديماً، وهم قد وجدوا ما وعد الله حقاً؛ قال تعالى: ﴿ذَلِكَكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ

عَذَابَ النَّارِ ﴿[الأَنْفَال: 14]، فوجدوا النار من حين ماتوا، وعرفوا أَنَّ الرسولَ حقٌّ، ولكن أَنَّى لَهُمُ التَّنَاضُؤُشُ من مكان بعيد؟

فأهل بدر الذين جَعَلَ اللهُ على أيديهم هذا النصرَ المبينَ والفرقان، هابَ العربُ به رسولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه، وكان لهم منزلة عظيمة بعد هذا النصر.

اطَّلَعَ اللهُ عليهم، وقال: «اعملوا ما شِئْتُمْ؛ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»، فكل ما يقع منهم من ذنوبٍ فإنه مغفورٌ لهم، بسبب هذه الحسنة العظيمة الكبيرة، التي جعلها الله تعالى على أيديهم.

وفي هذا الحديث دليلٌ على أَنَّ ما يقع منهم من الكبائر مَهْمَا عَظُمَ فهو مغفورٌ لَهُمْ.

وفيه بشارةٌ بأنهم لن يموتوا على الكفر؛ لأنهم مغفورٌ لهم، وهذا يقتضي أحد أمرين:

إمَّا أنهم لا يمكن أن يَكْفُرُوا بعد ذلك.

وإمَّا أنهم إن قَدَّرَ أن أحدهم كَفَرَ، فسيوفق للتوبة والرجوع إلى الإسلام. وأيًا كان ففيه بشارة عظيمة لهم، ولم نعلم أَنَّ أحدًا منهم كفر بعد ذلك». اهـ.



«وبأنه لا يدخل النَّارَ أَحَدٌ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ، كما أخبر به النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بل لقد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ورضوا عنه، وكانوا أَكْثَرُ مِنْ أَلْفٍ وَأَرْبَعِمِائَةٍ».

هذا الكلام في بيان فضل أهل بيعة الرضوان.

وكان سبب هذه الْبَيْعَةِ: أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَرَجَ مِنَ الْمَدِينَةِ سَنَةً سِتًّا مِنَ الْهَجْرَةِ، وَمَعَهُ أَلْفٌ وَأَرْبَعِمِائَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ أَوْ يَزِيدُونَ، قَاصِدِينَ مَكَّةَ لِأَدَاءِ الْعُمْرَةِ، فَصَدَّهَ الْمُشْرِكُونَ، فَبَعَثَ عِثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فِشَاعٌ أَنْ عِثْمَانَ قُتِلَ، فَطَلَبَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْبَيْعَةَ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَكَانَتْ بَيْعَةً عَلَى الْمَوْتِ، فَبَايَعَهُ أَصْحَابُهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ تَحْتَ الشَّجَرَةِ.

وقد كان من جُمْلَةِ الْمُبَايَعِينَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ: أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، وَعَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَقَدْ بَايَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ عِثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقد روى الإمام مسلم في صحيحه عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ جَاءَ عَبْدٌ لِحَاطِبٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ يَشْكُو حَاطِبًا، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لِيَدْخُلَنَّ حَاطِبُ النَّارَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كَذَبْتَ، لَا يَدْخُلُهَا؛ فَإِنَّهُ شَهِدَ بَدْرًا، وَالْحُدَيْبِيَّةَ».

ثم ذكر الإمام مسلم حديثًا آخر لجابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: أَخْبَرْتَنِي أُمُّ مَبَشَرٍ أَنَّهَا سَمِعَتْ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ عِنْدَ حَفْصَةَ: «لَا يَدْخُلُ النَّارَ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - مِنْ أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ أَحَدٌ مِنَ الَّذِينَ بَايَعُوا تَحْتَهَا». قَالَتْ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَاَنْتَهَرَهَا، فَقَالَتْ حَفْصَةُ: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: 71]. فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قَدْ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا﴾

جِثْيَا ﴿[مریم: 72].

قال الإمام النّوويُّ في شرح هذا الحديث: «قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «لا يدخل النار» - إن شاء الله - من أصحاب الشجرة أحد»، قال العلماء: معناه: لا يدخلها أحدٌ منهم قطعاً، كما صرح به في الحديث الذي قبله حديث حاطب، وإنما قال: إن شاء الله، للتبرُّك، لا للشك.

وأما قول حفصة: بلى، وانتهرها النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالت: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾، فقال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وقد قال: ﴿ثُمَّ نَجَّى الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾» فيه دليلٌ للمناظرة والاعتراض، والجواب على وجه الاسترشاد، وهو مقصودُ حفصة، لا أنها أرادت ردَّ مقالته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والصحيح: أن المراد بالورود في الآية المرور على الصراط، وهو جسر منصوب على جهنم، فيقع فيها أهلها، وينجو الآخرون». اهـ.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «بل لقد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ...»، إلخ.

لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: 18-19].

وفي هذه الآية إخبارٌ من الله بأنه قد رضي عن المبايعين لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تحت الشجرة، وشهد لهم بالإيمان، فكلُّ من بايع تحت الشجرة فهو مؤمنٌ مرضيٌّ عنه، وكفى بها فضيلة.

قال العلامة السَّعدي رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره: «أخبر تعالى أنه رضي عن المؤمنين في تلك الحال التي هي من أكبر الطاعات وأجل القربات.

﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من الإيمان؛ ﴿فَأَنزَلَ الْسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ ﴿شُكْرًا لَهُمْ﴾ على ما في قلوبهم، وزادهم هدى، وعلم ما في قلوبهم من الجزع من تلك الشروط التي شرطها المشركون على رسوله، فأنزل عليهم السكينة تثبتهم وتطمئن بها قلوبهم، ﴿وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: 18]، وهو فتح خيبر، لم يحضره سوى أهل الحديبية، فاختصوا بخيبر وغنائمها جزاء لهم، وشكرا على ما فعلوه من طاعة الله تعالى، والقيام بمرضاته. اهـ.



«وَيَشْهَدُونَ بِالْجَنَّةِ لِمَنْ شَهِدَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَالْعَشْرَةِ، وَثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ، وَغَيْرِهِمْ مِنَ الصَّحَابَةِ».

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَيَشْهَدُونَ بِالْجَنَّةِ...»، إلخ.

الشهادة بالجنة نوعان:

1 - شهادة مُعَلَّقة بوصف.

2 - شهادة مُعَلَّقة بشخص.

أما الشهادة المُعَلَّقة بوصفٍ، فالشهادة لكل مؤمنٍ وبرٍّ وتقيٍّ بأنه في الجنة؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ۖ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: 107، 108]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ [الانفطار: 13]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ۖ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْنَدٍ﴾ [القمر: 54-55].

وأما الشهادة المتعلقة بشخص فقد اختلفَ فيها على ثلاثة أقوال:

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ في «منهاج السُّنَّة» (5 / 295-296): «وإنما قد نَقِفُ في الشَّخْصِ المَعْيَنِ فلا نشهدُ له بجنةٍ ولا نارٍ إلا على علمٍ؛ لأن حقيقة باطنه وما مات عليه، لا نحيط به، لكن نرجو للمحسن، ونخاف على المسيء، ولهم في الشهادة بالجنة ثلاثة أقوال: منهم من لا يشهد بالجنة لأحدٍ إلا للأنبياء، وهذا قول محمد ابن الحنفية، والأوزاعي.

الثاني: أنه يشهد بالجنة لكل مؤمن جاء فيه نصٌّ، وهذا قول كثير من أهل الحديث.

الثالث: يشهدون بالجنة لهؤلاء، ولمن شهد له المؤمنون، كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أنتم شهداء الله في الأرض»، وقال: «يُوشِكُ أَنْ تَعْلَمُوا أَهْلَ الْجَنَّةِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ». قالوا: بِمَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قال: «بِالثَّنَاءِ الْحَسَنِ، وَالثَّنَاءِ السَّيِّئِ». فأخبر أَنَّ ذَلِكَ مِمَّا يُعْلَمُ بِهِ أَهْلُ الْجَنَّةِ وَأَهْلُ النَّارِ، وَكَانَ أَبُو ثَوْرٍ يَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّ أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ فِي الْجَنَّةِ، وَيَحْتَجُّ بِهَذَا، وَبَسْطُ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ لَهُ مَوْضِعٌ آخَرٌ. اهـ.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ كما في «مجموع الرِّسائل والمسائل» (53 / 1): «فمن ثَبَّتَ ولايته لله بالنِّصِّ، وأنه من أهل الجنة كالعشرة وغيرهم، فعامةُ أهلِ السُّنَّةِ يشهدون له بما شهد له به النَّصُّ.

وأما مَنْ شاع له لِسَانُ صِدْقٍ مِنَ الْأُمَّةِ، بَحِثْ اتَّفَقَتِ الْأُمَّةُ عَلَى الثَّنَاءِ عَلَيْهِ، فهل يشهد له بذلك؟

هذا فيه نزاعٌ بين أهلِ السُّنَّةِ، والأشبهُ أَنْ يُشْهَدَ لَهُ بِذَلِكَ، هذا في الأمر العام. والدليل على الشهادة للعشرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بِالْجَنَّةِ: ما رواه التِّرْمِذِيُّ وغيره، أَنَّ سَعِيدَ بْنَ زَيْدٍ بن عمرو بن نُفَيْلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَدَّثَ فِي نَفَرٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «عشرةٌ في الجنة: أبو بكر، وعمر في الجنة، وعثمان، وعلي، والزُّبَيْرُ، وَطَلْحَةُ، وعبد الرحمن، وأبو عُبَيْدَةَ، وسعد بن أبي وقاص، فَعَدَّ هَؤُلَاءِ التَّسْعَةَ، وَسَكَتَ عَنِ الْعَاشِرِ، فَقَالَ الْقَوْمُ: نَشْدُكَ بِاللَّهِ يَا أَبَا الْأَعْمُورِ، مَنْ الْعَاشِرُ؟ قال: نَشْدُكُمْ بِاللَّهِ، أَبُو الْأَعْمُورِ فِي الْجَنَّةِ، أَبُو الْأَعْمُورِ هُوَ سَعِيدُ بْنُ زَيْدٍ»، حديث صحيح، صحَّحه العلامة الألباني وغيره.

وقد جُمِعَ الْعَشْرَةُ فِي بَيْتَيْنِ مِنَ الشَّعْرِ، فَقِيلَ:

لِلْمُصْطَفَى خَيْرٌ صَحْبٍ نَصَّ أَنَّهُمْ فِي جَنَّةِ الْخُلْدِ نَصًّا زَادَهُمْ شَرَفًا
 هُمْ طَلْحَةُ وَابْنُ عَوْفٍ وَالزُّبَيْرُ مَعَ أَبِي عُيَيْدَةَ وَالسَّعْدِينَ وَالْخُلَفَا
 وقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَتَابَتْ بَنُ قَيْسٍ بَنِ شِمَاسٍ».

ودليل ذلك: ما رواه الإمام مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ [الحجرات: 2]، جَلَسَ تَابَتْ بَنُ قَيْسٍ فِي بَيْتِهِ، وَقَالَ: أَنَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَاحْتَبَسَ تَابَتْ بَنُ قَيْسٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَسَأَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ، فَقَالَ: يَا أَبَا عَمْرٍو، مَا شَأْنُ تَابَتْ؟ اشْتَكَيْ؟ قَالَ سَعْدٌ: إِنَّهُ لَجَارِي، وَمَا عَلِمْتُ لَهُ بِشَكْوَى، قَالَ: فَأَتَاهُ سَعْدٌ، فَذَكَرَ لَهُ قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ تَابَتْ: أَنْزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي مِنْ أَرْفَعِكُمْ صَوْتًا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَنَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَذَكَرَ ذَلِكَ سَعْدٌ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بَلْ هُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ».

قول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: «وغيرهم من الصَّحابة»، وهم كُثُرٌ، ومنهم: الحسن، والحُسَيْن، وخديجة، وعبدُ الله بن سلام، وجعفر بن أبي طالب، وعبدُ الله بن رواحة، وزيد بن حارثة، وغيرهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.



«ويقرُّون بما تَوَاتَرَ به النَّفْلُ عن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وغيره، مِنْ أَنَّ خَيْرَ هذه الأُمَّةِ بعد نَبِيِّهَا أبو بكرٍ، ثُمَّ عُمَرُ».

أورد شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ هذا عن عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خاصّة؛ للردِّ على الرَّاافضة الذين يفضّلون عليًّا على أبي بكر وعمر، ويُقدِّمونه عليهما في الخلافة، ويَطعنون في خلافتهما.

وقد قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ كما في «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى» (4/421-425): «أما تفضيل أبي بكر، ثم عُمَرُ على عثمان وعلي، فهذا مُتَّفَقٌ عليه بين أئمة المسلمين المشهورين بالإمامة في العلم والدين، من الصَّحابة والتَّابعين وتابعيهم.

وهو مذهب مالك، وأهل المدينة، والليث بن سعد، وأهل مصر، والأوزاعي، وأهل الشام، وسفيان الثوري، وأبي حنيفة، وحمّاد بن زيد، وحمّاد بن سَلَمَةَ، وأمثالهم من أهل العراق.

وهو مذهب الشافعي، وأحمد، وإسحاق، وأبي عُبَيْد، وغير هؤلاء من أئمة الإسلام الذين لهم لِسَانُ صِدْقٍ في الأُمَّة، وحكى مالكُ إجماعَ أهل المدينة على ذلك، فقال: ما أدركتُ أحدًا ممن أَقْتَدِي به يشكُّ في تقديم أبي بكر وعُمَر، وهذا مستفيضٌ عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب.

وفي «صحيح البخاري» عن مُحَمَّد بن الحنفية أنه قال لأبيه عليّ بن أبي طالب: «يا أبت؟ مَنْ خَيْرُ النَّاسِ بعد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

قال: يا بني، أَوْ مَا تعرف؟ قلت: لا. قال: أبو بكر. قلت: ثُمَّ مَنْ؟ قال: ثم

عمر».

ويروى هذا عن علي بن أبي طالب من نحو ثمانين وجهًا، وأنه كان يقولُه
على منبر الكوفة.

بل قد قال: «لا أوتى بأحد يُفَضِّلني على أبي بكر وعمر إلا جلدته حدَّ
المُفْتري».

فمن فضله على أبي بكر وعمر جُلِدَ بمقتضى قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثمانين سوطًا.
وكان سفيان يقول: «من فَضَّل عليًّا على أبي بكر فقد أَرَزَى بالمُهَاجرين،
وما أرى أنه يَصْعَد له إلى الله عملٌ وهو مُقيم على ذلك».

إلى أن قال: «وقد استفاض في «الصَّحَّاحين» عن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من
غير وجهٍ من حديث أبي سعيدٍ، وابن عباسٍ، وجُنْدَب بن عبد الله، وابن الزُّبَيْر
وغيرهم أن النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لو كُنْتُ مُتَّخِذًا من أهل الأرض خليلًا
لَا تَخَذْتُ أبا بكر خليلًا، ولكنَّ صاحبكم خليلُ الله». يعني نفسه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفي «الصَّحَّاح» أنه قال على المنبر: «إِنَّ أَمَنَ النَّاسَ عَلَيَّ في صُحْبته وذات
يده: أبو بكر، ولو كُنْتُ مُتَّخِذًا من أهل الأرض خليلًا لَا تَخَذْتُ أبا بكر خليلًا،
ولكنَّ صاحبكم خليلُ الله، ألا لا يَبْقَيْنَ في الْمَسْجِدِ خَوْخَةٌ إِلَّا سُدَّتْ إِلَّا خَوْخَةٌ
أَبِي بَكْرٍ».

وهذا صريحٌ في أنه لم يكن عنده من أهل الأرض من يستحقُّ المخالَّةَ لو
كانت ممكنةً من المخلوقين إلا أبا بكر، فعُلم أنه لم يكن عنده أفضل منه ولا
أحبُّ إليه منه.

وكذلك في «الصَّحَّاح» أنه قال عَمْرُو بن العاص للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أيُّ

النَّاسَ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: «عائشة». قَالَ: فَمِنْ الرِّجَالِ؟ قَالَ: «أَبُوهَا».

وكذلك في «الصَّحِيح» أنه قال لعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «ادْعِي لِي أَبَاكَ وَأَخَاكَ حَتَّى أَكْتُبَ لِأَبِي بَكْرٍ كِتَابًا لَا يَخْتَلِفُ عَلَيْهِ النَّاسُ مِنْ بَعْدِي»، ثم قال: «يَأْبَى اللَّهُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَّا أَبَا بَكْرٍ».

وفي «الصَّحِيح» عنه أن امرأةً قالت: يا رسول الله: أَرَأَيْتَ إِنْ جِئْتُ فَلَمْ أَجِدْكَ - وَكَأَنَّمَا تَعْنِي الْمَوْتَ - قَالَ: «فَأْتِي أَبَا بَكْرٍ». وفي السُّنَنِ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «اقْتَدُوا بِاللَّذِينَ مِنْ بَعْدِي: أَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرُ».

وفي «الصَّحِيح» عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه كان في سفر فقال: «إِنْ يُطْعِمِ الْقَوْمُ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ يَرْشُدُوا».

وفي السُّنَنِ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «رَأَيْتُ كَأَنِّي وُضِعْتُ فِي كِفَّةٍ وَالْأُمَّةُ فِي كِفَّةٍ فَرَجَحْتُ بِالْأُمَّةِ، ثُمَّ وُضِعَ أَبُو بَكْرٍ فِي كِفَّةٍ وَالْأُمَّةُ فِي كِفَّةٍ فَرَجَحَ أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ وُضِعَ عُمَرُ فِي كِفَّةٍ وَالْأُمَّةُ فِي كِفَّةٍ فَرَجَحَ عُمَرُ».

وفي «الصَّحِيحِينَ» أنه كان بين أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ كَلَامٌ، فَطَلَبَ أَبُو بَكْرٍ مِنْ عُمَرَ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَهُ، فَلَمْ يَفْعَلْ، فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرَ ذَلِكَ فَقَالَ: «اجْلِسْ يَا أَبَا بَكْرٍ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ»، وَنَدِمَ عُمَرُ، فَجَاءَ إِلَى مَنْزِلِ أَبِي بَكْرٍ فَلَمْ يَجِدْهُ، فَجَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَغَضِبَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي جِئْتُ إِلَيْكُمْ، فَقُلْتُ: إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ، فَقُلْتُمْ: كَذَبْتَ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: صَدَقْتَ، فَهَلْ أَنْتُمْ تَارِكُو لِي صَاحِبِي؟ فَهَلْ أَنْتُمْ تَارِكُو لِي صَاحِبِي؟ فَهَلْ أَنْتُمْ تَارِكُو لِي صَاحِبِي؟» فَمَا أَوْذَى بَعْدَهُ.

وقد تَوَاتَرَ فِي الصَّحِيحِ وَالسُّنَنِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا مَرَضَ قَالَ: «مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ»، مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، حَتَّى قَالَ: «إِنْ كُنَّ لَأَتَنَّ صَوَاحِبُ يُوسُفَ، مُرُوا أَبَا بَكْرٍ أَنْ يُصَلِّيَ بِالنَّاسِ».

فَهَذَا التَّخْصِصُ وَالتَّكْرِيرُ وَالتَّوَكُّيدُ فِي تَقْدِيمِهِ فِي الْإِمَامَةِ عَلَى سَائِرِ الصَّحَابَةِ، مَعَ حُضُورِ عُمَرَ وَعُثْمَانَ وَعَلِيٍّ وَغَيْرِهِمْ؛ مِمَّا يَبَيِّنُ لِلْأُمَّةِ تَقَدُّمَهُ عِنْدَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى غَيْرِهِ.

وَفِي «الصَّحِيحِ»: أَنَّ جَنَازَةَ عُمَرَ لَمَّا وُضِعَتْ جَاءَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ يَتَخَلَّلُ الصُّفُوفَ، ثُمَّ قَالَ: لَأَرْجُو أَنْ يَجْعَلَكَ اللَّهُ مَعَ صَاحِبَيْكَ؛ فَإِنِّي كَثِيرًا مَا كُنْتُ أَسْمَعُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «دَخَلْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَخَرَجْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَذَهَبْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ».

فَهَذَا يُبَيِّنُ مَلَازِمَتَهُمَا لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَدْخَلِهِ وَمَخْرَجِهِ وَذَهَابِهِ.

وَلِذَلِكَ قَالَ مَالِكٌ لِلرَّشِيدِ، لَمَّا قَالَ لَهُ: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، أَخْبِرْنِي عَنْ مَنْزِلَةِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، مَنْزِلَتُهُمَا مِنْهُ فِي حَيَاتِهِ كَمَنْزِلَتِهِمَا مِنْهُ بَعْدَ وَفَاتِهِ، فَقَالَ: شَفِيتَنِي يَا مَالِكُ.

وَهَذَا يُبَيِّنُ أَنَّهُ كَانَ لهُمَا مِنْ اخْتِصَاصِهِمَا بِصَحْبَتِهِ، وَمُؤَاوَزَتِهِمَا لَهُ عَلَى أَمْرِهِ، وَمُبَاطَنَتِهِمَا مِمَّا يَعْلَمُهُ بِالْإِضْطِرَارِ كُلُّ مَنْ كَانَ عَالِمًا بِأَحْوَالِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَقْوَالِهِ، وَأَفْعَالِهِ، وَسِيرَتِهِ مَعَ أَصْحَابِهِ.

وَلِهَذَا لَمْ يَتَنَازَعْ فِي هَذَا أَحَدٌ مِنَ أَهْلِ الْعِلْمِ بِسِيرَتِهِ وَسُنَّتِهِ وَأَخْلَاقِهِ، وَإِنَّمَا يَنْفِي هَذَا أَوْ يَقِفُ فِيهِ مَنْ لَا يَكُونُ عَالِمًا بِحَقِيقَةِ أُمُورِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَإِنْ كَانَ لَهُ نَصِيبٌ مِنْ كَلَامٍ أَوْ فَهْمٍ أَوْ حِسَابٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، أَوْ مِنْ يَكُونُ قَدْ

سمع أحاديث مَكْذُوبَةٌ تناقض هذه الأمور المعلومة بالاضطرار عند الخاصّة من أهل العلم، فتوقّف في الأمر، أو رجّح غير أبي بكر. اهـ.

ويقول العلامة عبد المُحسن العباد - حفظه الله - في كتابه: «أغلُو في بعض القرابة، وجفاء في الأنبياء والصحابة؟» (ص 31 - 37) في مَعْرِضِ الرَّدِّ عَلَى بعض الرّافضة: «وبعد أن أوردت - كارهاً مُضْطَرّاً - فيما تَقَدَّمَ من كلام هذا الحاقّد الجديّد وبعض أسلافه من المتقدّمين والمتأخّرين كلماتٍ مُظْلِمَةٍ مُوحِشَةٍ في الغُلُو في بعض القرابة، والجفاء في الأنبياء والصّحابة، وعلى الأخصّ أبو بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فإني أورد هنا كلمات مشرقة مضيئة، مؤنسة من كلام خير الصّحابة، والقرابة بعضهم في بعض.

فمما قاله خيرُ القَرَابَةِ وأفضلُ هذه الأُمّة بعدَ الخلفاء الثلاثة قبله عليّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في أبي بكرٍ وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:

1- روى البخاري في صحيحه (3671) بإسناده عن محمّد بن الحنفية، وهو محمّد بن علي بن أبي طالب، قال: «قلت لأبي: أيُّ النَّاسِ خير بعد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قال: أبو بكر، قلت: ثمّ مَنْ؟ قال: ثمّ عمر، وخشيتُ أن يقول: عثمان، قلت: ثم أنت؟ قال: ما أنا إلا رجل من المسلمين».

2- روى الإمام أحمد في مسنده، قال: حدّثنا إسماعيل بن إبراهيم، أخبرنا منصور بن عبد الرحمن - يعني الغداني الأشلّ - عن الشعبي، حدّثني أبو جُحَيْفَةَ الذي كان عليّ يسميه وهبَ الخير قال: قال لي علي: يا أبا جُحَيْفَةَ، ألا أخبرك بأفضل هذه الأُمّة بعد نبيّها؟ قال: قلت: بلى، قال: ولم أكن أرى أن أحداً أفضل منه، قال: أَفْضَلُ هذه الأُمّة بعد نبيّها أبو بكر، وبعد أبي بكر عمر، وبعدهما آخر ثالث، ولم يُسمّه.

وإسناده صحيح، رجاله رجال الشيخين إلا منصور بن عبد الرحمن فهو من رجال مسلم، وأثر علي هذا عن أبي جحيفة جاء في مُسْنَدُ الإمام أحمد، وزوائده لابنه عبد الله من طُرُقٍ صحيحة أو حسنة، وأرقامها (833، 837، 871).

3- وروى الإمام أحمد في «فضائل الصحابة» (474): حَدَّثَنَا الهيثم بن خارجة، والحكم بن موسى، قالا: حَدَّثَنَا شهاب بن خراش، قال: حَدَّثَنِي الْحَجَّاجُ بْنُ دِينَارٍ عَنْ أَبِي مَعِشَرٍ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ، قَالَ: ضَرَبَ عَلْقَمَةُ بْنُ قَيْسٍ هَذَا الْمَنْبَرَ، فَقَالَ: خَطَبْنَا عَلِيًّا عَلَى هَذَا الْمَنْبَرِ، فَحَمَدَ اللَّهُ، وَذَكَرَهُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَذْكُرَهُ، ثُمَّ قَالَ: أَلَا إِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّ أَنَاسًا يَفْضُلُونِي عَلَى أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، وَلَوْ كُنْتُ تَقَدَّمْتُ فِي ذَلِكَ لِعَاقَبْتُ، وَلَكِنِّي أَكْرَهُ الْعُقُوبَةَ قَبْلَ التَّقَدُّمِ، فَمَنْ قَالَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَهُوَ مُفْتَرٍ، عَلَيْهِ مَا عَلَى الْمُفْتَرِي؛ إِنَّ خَيْرَ النَّاسِ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ ثُمَّ عُمَرُ...».

وهذا إسناد حسن، وأبو معشر هو زياد بن كليب، وهو ثقة.

وأخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» (993)، وقال الألباني: «إسناده حسن». وفي «زوائد فضائل الصحابة» (49) عن عبد الله بن أحمد بإسناد فيه ضعف، إلى الحكم بن حجل، قال: سمعت عليًا يقول: «لَا يُفْضَلُنِي أَحَدٌ عَلَى أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ إِلَّا جَلَدَتْهُ حَدَّ الْمُفْتَرِي».

وهو -أيضًا- كذلك في «السنة» لابن أبي عاصم (1219)، وهو قريب في المعنى من الذي قبله عن علقمة، وقد أشار إبراهيم النخعي إلى هذه العقوبة من عليٍّ لمن يُفْضَلُهُ عَلَى الشَّيْخَيْنِ بِقَوْلِهِ لِرَجُلٍ قَالَ لَهُ: «عَلِيٌّ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ»، فَقَالَ لَهُ إِبْرَاهِيمُ: أَمَا إِنَّ عَلِيًّا لَوْ سَمِعَ كَلَامَكَ لَأَوْجَعَ ظَهْرَكَ، إِذَا تَجَالَسْنَا بِهَذَا فَلَا تَجَالَسُونَا».

رواه عنه ابن سعد في «الطبقات» (6 / 275) بإسناده إليه عن أحمد بن يونس عن أبي الأحوص، ومفضل بن مهلهل عن مُغِيرَةَ عنه، ورجاله ثقاتٌ مُحْتَجُّ بهم، وهم من رجال الصَّحَّاحين، إلا المفضل بن مهلهل فهو من رجال مسلم، وفيه عَنْعَةُ المغيرة عن إبراهيم، وهو مدلس.

وإذا كانت هذه عقوبة عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَنْ يَفْضِلُهُ عليُّ أبي بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فكيف تكون عقوبته مَنْ يُفْضِلُهُ وبعضُ أبنائه وأحفاده عليُّ الأنبياء والمرسلين؟!

4- وروى ابن ماجه في سُنَنِهِ (106) قال: حَدَّثَنَا علي بن محمد، ثنا وكيع، ثنا شُعْبَةُ، عن عمرو بن مَرْثَةَ، عن عبد الله بن سَلَمَةَ، قال: سمعت عليًّا يقول: «خيرُ النَّاسِ بعد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبو بكر، وخيرُ النَّاسِ بعد أبو بكر عُمرُ» وَرِجَالُهُ مُحْتَجُّ بهم، ثلاثة منهم من رجال البخاري ومسلم، وصَحَّحَهُ الألبانيُّ.

5- وروى ابن أبي شيبة في مصنفه (7 / 434)، قال: حَدَّثَنَا ابنُ نُمَيْرٍ، عن عبد الملك بن سَلْعٍ، عن عبد خيرٍ، قال: سمعت عليًّا يقول: قُبِضَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على خير ما عليه نبيُّ من الأنبياء، قال: ثم استُخْلِفَ أبو بكر، فعمل بعمل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبُسَّتِيهِ، ثم قُبِضَ أبو بكر على خير ما قُبِضَ عليه أحدٌ، وكان خير هذه الأمة بعد نبيهم، ثم استُخْلِفَ عمر، وعمل بعملهما وسُتِيهما، ثم قُبِضَ على خير ما قُبِضَ عليه أحدٌ، وكان من خير هذه الأمة بعد نبيهم، وبعد أبي بكر.

ورجالُ هذا الإسناد مُحْتَجُّ بهم، فَعَبْدُ خَيْرٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بنُ نُمَيْرٍ ثِقَاتٌ، وعبد الملك بن سَلْعٍ صدوق.

6- وروى البخاري في صحيحه (3685)، ومسلم (3389)، عن ابن عباس قال: «وَضِعَ عُمَرُ عَلَى سُرِيرِهِ، فَتَكَنَّفَهُ النَّاسُ يَدْعُونَ وَيَصَلُّونَ قَبْلَ أَنْ يُرْفَعَ وَأَنَا فِيهِمْ، فَلَمْ يُرْعِنِي إِلَّا رَجُلٌ أَخَذَ مِنْكِبِي، فَإِذَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، فَتَرَحَّمْ عَلَى عُمَرَ وَقَالَ: مَا خَلَفْتُ أَحَدًا أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ أَلْقَى اللَّهَ بِمِثْلِ عَمَلِهِ مِنْكَ، وَإِيْمُ اللَّهِ إِنْ كُنْتُ لِأُظْنَ أَنْ يَجْعَلَكَ اللَّهُ مَعَ صَاحِبَيْكَ، وَحَسَبْتُ أَنِي كَثِيرًا أَسْمَعُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «ذَهَبْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَدَخَلْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَخَرَجْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ».

هذه نماذج مما عند أهل السُّنَّة والجَمَاعَةِ من كلامٍ حسنٍ، قاله أبو الحسن علي رضي الله عنه في أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

وأيضاً فإن علياً رضي الله عنه قد سَمَّى ثَلَاثَةً مِنْ أَبْنَائِهِ بِأَسْمَاءٍ: أَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ، وَعُثْمَانَ رضي الله عنهم، كما في «الرياض المستطابة» للعامري (ص 179).

وزَوْجُ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ابْنَتُهُ مِنْ فَاطِمَةَ أُمِّ كُلْثُومٍ مِنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَلَوْ حَصَلَ فِي نَفُوسِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ شَيْءٌ، فَإِنَّهُ مَنْزُوعٌ مِنْهُمْ فِي الْجَنَّةِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ (٤٧) لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿[الحجر: 47-48].

وَإِذَا نَظَرَ مَنْ لَهُ أَدْنَى عَقْلٍ فِي هَذِهِ الرِّوَايَاتِ عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ، ثُمَّ نَظَرَ فِي الرِّوَايَاتِ الَّتِي ذَكَرَهَا هَذَا الْحَاقِدُ الْبَغِيضُ عَنْ قَوْمِهِ فِي ذَمِّ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ تَبَيَّنَ لَهُ الْفَرْقُ الْوَاضِحُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَالْهَدْيِ وَالضَّلَالِ، وَالضِّيَاءِ وَالظُّلَامِ، وَالرَّائِحَةِ الطَّيِّبَةِ وَالرَّائِحَةِ الْخَبِيثَةِ الْمُنْتَنَةِ». اهـ.

ومما جاء في كتب السُّنَّةِ وَالشَّيْعَةِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَوَّجَ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رُقِيَّةً، ثُمَّ أُمِّ كُلْثُومٍ بَنَاتِ رَسُولِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ.

وزوج علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ابنته أُمُّ كُلْثُومَ عُمَرَ بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأمُّها هي فاطمة بنت رسول الله، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وقد ولدت أُمُّ كُلْثُومَ لعمر بن الخطاب رقيةً وزيد.

ومن أولاد أبي بكر الصديق: عبد الرحمن، وابنته خَفْصَة بنت عبد الرحمن تزوجها الحسين بن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومن أولاد عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق: أسماء، وابنتها فروة أُمُّ جعفر الصادق رَحِمَهُ اللَّهُ.

ومن أولاد علي بن أبي طالب: اثنان، اسم كل واحد منهما: أبو بكر، واثنان اسم كل واحد منهما عُمَرُ، واثنان اسم كل واحد منهما عثمان، ومن أبناء علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الحسين، وقد سَمِيَ اثنان من أولاده: أبا بكر، والآخر عمر.

ومن أبناء علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنَفِيَّةَ، وقد سَمِيَ أحد أبنائه عمر، وعلي بن الحسين بن علي بن أبي طالب المعروف بزين العابدين، كنيته أبو بكر، وسمي أحد أبنائه: عمر، والحسن بن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا من أبنائه أبو بكر، وعُمَرُ، والحسن، وللحسن بنتٌ، وهي زينب بنت الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، زوجها الوليد بن عبد الملك بن مروان.

وموسى الكاظم بن جعفر الصادق بن مُحَمَّدُ الباقر زين العابدين، من أبنائه: أبو بكر، وعمر، وعائشة (1).

(1) من مراجع ما سبق: «الإرشاد» للمفيد، «مقاتل الطالبين» للأصفهاني، «تاريخ يعقوبي»، «التنبيه والإشراف» للمسعودي، «كشف الغمة» للإربلي، «الفصول المهمة» «معجم رجال الحديث» للخبز، «جلاء العيون» للمجلسي، و«الكافي» للكليني، «عمدة الطالب»، «طبقات ابن سعد»، «نسب قريش»، «منتهى الآمال» لعباس القمي، و«جمهرة أنساب العرب» لابن حزم، «النسب والمصاهرة بين أهل البيت والصحابة» لعلاء الدين المدرس، و«الإفادة في تاريخ

فإذا كان هؤلاء الأئمة يعتقدون أنَّ أبا بكر وعمر وعثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ قد غَضَبُوا خلافة علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - كما تزعمه الرَّافضة - أو أن هؤلاء ارتدُّوا بعد موت النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما أشبه ذلك، فماذا يعني ما سبق؟
فاعتبروا يا أولي الألباب، بل الأمر على خلاف ما تزعمه الرَّافضة، وقد سبق إيضاح هذا بجلاء، والله الحمد.



أئمة الزيدية» لأبي طالب. اهـ من منشور بعنوان «الآل والأصحاب أصهار وأحباب»، جمع وترتيب أبي الحسن علي المالكي، بالتعاون مع مركز إحياء تراث آل البيت.

«وَيُثَلَّثُونَ بِعُثْمَانَ، وَيُرَبِّعُونَ بِعَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الْأَثَارُ، وَكَمَا أَجْمَعَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَلَى تَقْدِيمِ عُثْمَانَ فِي الْبَيْعَةِ، مَعَ أَنَّ بَعْضَ أَهْلِ السُّنَّةِ كَانُوا قَدْ اخْتَلَفُوا فِي عُثْمَانَ وَعَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بَعْدَ اتِّفَاقِهِمْ عَلَى تَقْدِيمِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ أَيْهِمَا أَفْضَلُ، فَقَدَّمَ قَوْمٌ عُثْمَانَ، وَسَكَتُوا، وَرَبَّعُوا بِعَلِيٍّ، وَقَدَّمَ قَوْمٌ عَلِيًّا، وَقَوْمٌ تَوَقَّفُوا، لَكِنْ اسْتَقَرَّ أَهْلُ السُّنَّةِ عَلَى تَقْدِيمِ عُثْمَانَ ثُمَّ عَلِيٍّ».

تَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْفَقْرَةُ مَا يَلِي:

- 1- أَنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةَ مَتَّفِقُونَ عَلَى تَقْدِيمِ وَتَفْضِيلِ أَبِي بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَلَى عُثْمَانَ وَعَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.
- 2- أَنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةَ مَتَّفِقُونَ - أَيْضًا - عَلَى تَقْدِيمِ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي الْخِلَافَةِ وَالْبَيْعَةِ عَلَى عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
- 3- أَنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةَ كَانُوا قَدْ اخْتَلَفُوا فِي عُثْمَانَ وَعَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَيْهِمَا أَفْضَلُ؟ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ:
 - أ- تَفْضِيلِ عُثْمَانَ عَلَى عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.
 - ب- تَفْضِيلِ عَلِيٍّ عَلَى عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.
 - ج- التَّوَقُّفُ.
- 4- أَنَّ أَمْرَ أَهْلِ السُّنَّةِ فِي مَسْأَلَةِ الْمَفَاضِلَةِ بَيْنَ عُثْمَانَ وَعَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَدْ اسْتَقَرَّ عَلَى تَقْدِيمِ عُثْمَانَ عَلَى عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

قال شيخ الإسلام رحمه الله - كما في «مجموع الفتاوى» (4/ 425 - 428) -:
 «أَمَّا عُثْمَانُ وَعَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فَهَذِهِ دُونَ تِلْكَ؛ فَإِنَّ هَذِهِ كَانَتْ قَدْ حَصَلَ فِيهَا نِزَاعٌ،

فإن سفيان الثوري وطائفة من أهل الكوفة رجّحوا علياً على عثمان، ثم رجع عن ذلك سفيان وغيره.

وبعض أهل المدينة توقّف في عثمان وعليّ، وهي إحدى الروايتين عن مالك، لكنّ الرواية الأخرى عنه تقديم عثمان على عليّ كما هو مذهب سائر الأئمة؛ كالشافعي، وأبي حنيفة، وأصحابه، وأحمد بن حنبل وأصحابه، وغير هؤلاء من أئمة الإسلام.

حتى إن هؤلاء يتنازعون فيمن يُقدّم علياً على عثمان، هل يُعدّ من أهل البدعة؟

على قولين: هما روايتان عن أحمد، وقد قال أيوب السخيتاني وأحمد بن حنبل والدارقطني: من قدّم علياً على عثمان فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار، وأيوب هذا إمام أهل السنة وإمام أهل البصرة، روى عنه مالك في الموطأ، وكان لا يروي عن أهل العراق، وروي أنه سئل عن الرواية عنه، فقال: ما حدّثتكم عن أحدٍ إلا وأيوب أفضل منه، وذكره أبو حنيفة فقال: لقد رأيته قعداً مقعداً في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ذكرته إلا أقشعر جسمي.

والحجة لهذا ما أخرجاه في الصحيحين وغيرهما عن ابن عمر أنه قال: كنا نفاضل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كنا نقول: أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، وفي بعض الطرق: يبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فلا يُنكره.

وأيضاً فقد ثبت بالنقل الصحيح في «صحيح البخاري»، وغير البخاري أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لما جعل الخلافة شورى في ستة أنفس: عثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وسعد، وعبد الرحمن بن عوف، ولم يدخل معهم سعيد بن زيد، وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وكان من بني عدي - قبيلة

عمر - وقال عن ابنه عبد الله: يحضركم عبدُ الله، وليس له في الأمر شيءٌ، ووصيُّ أن يُصلي صهيب بعد موته حتى يتفقون على واحد فلما توفّي عمر، واجتمعوا عند المنبر، قال طلحة: ما كان لي من هذا الأمر فهو لعثمان، وقال الزبير: ما كان لي من هذا الأمر فهو لعلي، وقال سعد: ما كان لي من هذا الأمر فهو لعبد الرحمن بن عوف، فخرج ثلاثة، وبقي ثلاثة.

فاجتمعوا، فقال عبد الرحمن بن عوف: يخرج منا واحد، ويولي منا واحداً، فسكت عثمان وعليّ، فقال عبد الرحمن: أنا أخرج، وروي أنه قال: عليه عهدُ الله وميثاقه أن يولي أفضلهما، ثم قام عبد الرحمن بن عوف ثلاثة أيام بلياليها، يشاور المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان، ويشاور أمّهات المؤمنين، ويشاور أمراء الأمصار؛ فإنهم كانوا في المدينة حَجُّوا مع عمر، وشهدوا موته.

حتى قال عبد الرحمن بن عوف: إن لي ثلاثاً ما اغتمضت بنوم، فلما كان اليوم الثالث قال لعثمان: عليك عهدُ الله وميثاقه إن وليتكَ لتعدلنَّ، ولئن وليت علياً لتسمعنَّ ولتطيعنَّ؟ قال: نعم، وقال لعلي: عليك عهدُ الله وميثاقه إن وليتكَ لتعدلنَّ، ولئن وليت عثمانَ لتسمعنَّ ولتطيعنَّ؟ قال: نعم، قال: إني رأيت الناس لا يعدلون بعثمان، فبايعه عليّ، وعبد الرحمن، وسائر المسلمين بيعة رِضا واختيار، من غير رغبة أعطاهم إياها، ولا رهبة خَوْفَهُم بها.

وهذا إجماعٌ منهم على تقديم عثمان على عليّ، فلهذا قال أيوب وأحمد بن حنبل والدارقطني: مَنْ قَدَّمَ علياً على عثمان فقد أَرَزَى بالمهاجرين والأنصار.

فإنه إن لم يكن عثمانُ أَحَقَّ بالتقديم وقد قَدَّموه كانوا إما جاهلين بِفَضْلِهِ، وإما ظالمين بتقديم المفضولِ مِنْ غيرِ تَرْجِيحٍ دينيٍّ، وَمَنْ نَسَبَهُمْ إِلَى الْجَهْلِ وَالظُّلْمِ فَقَدْ أَرَزَى بِهِمْ.

ولو زعم زاعمٌ أنهم قدّموا عثمانَ لِضَغْنٍ كان في نفس بعضهم على عليٍّ، وأن أهل الضغن كانوا ذوي شَوْكَةٍ، ونحو ذلك مما يقوله أهل الأهواء، فقد نسبهم إلى العجز عن القيام بالحق، وظهور أهل الباطل منهم على أهل الحق.

هذا وهم في أعزّ ما كانوا وأقوى ما كانوا، فإنه حين مات عمرُ كان الإسلامُ من القوة والعزّ والظهور والاجتماع والائتلاف فيما لم يصيروا في مثله قطّ، وكان عمرُ أعزّ أهل الإيمان، وأذلّ أهل الكفر والنفاق إلى حدّ بلغ في القوة والظهور مبلغًا لا يخفى على من له أدنى معرفة بالأمور.

فمن جعلهم في مثل هذه الحال جاهلين أو ظالمين أو عاجزين عن الحق فقد أزرى بهم، وجعل خير أمة أخرجت للناس على خلاف ما شهد الله به لهم، وهذا هو أصل مذهب الرافضة. اهـ.

وبما سبق من الكلام يُعلم أن عثمانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مُقَدَّم على عليٍّ في الفضل، كما أنه مُقَدَّم عليه في الخلافة، وأن تفضيل عثمان على عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا هو الذي استقرّ عليه أمر أهل السنة، وأسباب ذلك بيّنة في كلام شيخ الإسلام وغيره.



«وإن كانت هذه المسألة (مسألة المفاضلة بين عثمان وعلي) ليست من الأصول التي يُضللُ المخالف فيها عند جمهور أهل السنة، لكن التي يُضللُ فيها مسألة الخلافة؛ وذلك لأنهم يؤمنون أن الخليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي، ومن طعن في خلافة أحد من هؤلاء فهو أضل من حمار أهله».

هذه الفقرة من كلام شيخ الإسلام أوضح فيها حكم تقديم علي على عثمان في الفضل، وحكم تقديمه عليه في الخلافة.

وأن مسألة المفاضلة بين علي وعثمان من المسائل الاجتهادية، وليست من مسائل الأصول التي يُضللُ فيها المخالف عند جمهور أهل السنة وإن كان قد استقر الأمر عند أهل السنة كما سبق على تقديم عثمان رضي الله عنه.

وأما المسألة الثانية وهي مسألة التقديم في الخلافة:

فمن قدم علياً رضي الله عنه على عثمان في الخلافة فهو ضال، ومن باب أولى من قدمه على أبي بكر وعمر.

فأهل السنة والجماعة يعتقدون أن الخليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر رضي الله عنه؛ لما صح في فضله ومكانته وسابقته وبيعة الصحابة رضي الله عنهم له. ثم عمر الفاروق رضي الله عنه؛ لفضله وعهد أبي بكر إليه بالخلافة بعده، وبيعة الصحابة رضي الله عنهم له.

ثم عثمان رضي الله عنه؛ لفضله، ومبايعة علي رضي الله عنه وأهل الشورى والصحابة رضي الله عنهم له، وقد أخبر عبد الرحمن بن عوف بعد مشاورته

المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان ثلاثة أيّام أنهم لم يعدلوا بعثمان رضي الله عنه.

ثم علي بن أبي طالب رضي الله عنه لفضله، ولأن أهل الشورى قدّموه هو وعثمان، فلما استشهد عثمان كان أحقّ الصحابة بالخلافة، فكان رابع الخلفاء الراشدين المهديين، «وقد نص الإمام أحمد رحمه الله على تبديع من توفّف في خلافته، وقال: هو أضلّ من حمار أهله، وأمر بهجرانه، ونهى عن مناكحته، ولم يتردّد أحمد ولا أحد من أئمة السّنة في أنه ليس غير عليّ أولى بالحق منه، ولا شكوا في ذلك». اهـ. «مجموع الفتاوى» (4/ 438).

وقول المصنف رحمه الله: «ومن طعن في خلافة أحد من هؤلاء فهو أضلّ من حمار أهله».

قال العلامة ابن عثيمين رحمه الله في «شرح الواسطيّة» (ص 606 - 607): «الذي يطعن في خلافة أحد من هؤلاء، ويقول: إنه لا يستحق الخلافة، أو إنه أحق ممن سبقه فهو أضلّ من حمار أهله. وعبر المؤلف بهذا التعبير؛ لأنه تعبير الإمام أحمد رحمه الله، ولا شك أنه أضلّ من حمار أهله».

وإنما ذكر الحمار؛ لأنه أبلد الحيوانات على الإطلاق، فهو أقلّ الحيوانات فهماً، فالطعن في خلافة أحد من هؤلاء أو في ترتيبه طعن في الصحابة جميعاً.

فيجب علينا أن نعتقد بأن الخليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم عليّ، وأنهم في أحقية الخلافة على هذا الترتيب، حتى لا نقول: إن هناك ظلمًا في الخلافة، كما ادعته الرافضة، حين زعموا أن أبا بكر

وعمر وعثمان والصحابة كلهم ظلمة؛ لأنهم ظلموا علي بن أبي طالب حين اغتصبوا الخلافة منه، أما مَنْ بَعْدَهُمْ فإننا لا نستطيع أن نقول: إن كل خليفة استخلفه الله على الناس فهو أحق بالخلافة من غيره.

لأنَّ مَنْ بعدهم ليسوا في خير القُرُون، بل حصل فيهم من الظُّلم والانحراف والفُسوق ما استحقُّوا به أن يُؤلَّى عليهم مَنْ ليس أحق بالخلافة منهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُؤَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: 129].

واعلم أنَّ التَّرتيب في الأفضلية على ما سبق لا يعني أنَّ مَنْ فَضَّلَ غَيْرُهُ فإنه يفضلُه في كل شيء، بل قد يكون للمفضول فضيلة لم يُشاركه فيها أحدٌ، وتميُّزٌ أحدٌ هؤلاء الأربعة أو غيرهم بميزة يفضل بها غيره لا يدل على الأفضلية المطلقة، فيجب التفريق بين الإطلاق والتقييد». اهـ.



«وَيُحِبُّونَ أَهْلَ بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - وَيَتَوَلَّوْنَهُمْ».

أي: أن من أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة محبة آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوليهم.

قال العلامة السعدي رحمه الله في «التنبيهات اللطيفة» (ص 94): «فمحبة أهل النبي صلى الله عليه وسلم واجبة من وجوه:

منها أولاً: لإسلامهم، وفضلهم، وسوابقهم.

ومنها: لما تميزوا به من قرب النبي صلى الله عليه وسلم واتصالهم بنسبه.

ومنها: لما حث عليه صلى الله عليه وآله وسلم، ورغب فيه؛ أي: من محبتهم وموالاتهم.

ولما في ذلك من علامة محبة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم. اهـ.

وإذا كان من أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة محبة أهل البيت وتوليهم فإنهم لا يُغضونهم ولا يعادونهم، بل يتبرؤون من أهل البدع والضلال الذين نصبوا لهم العداوة والبغضاء.

وكتب أهل السنة والجماعة مملوءة بذكر الأحاديث الصحيحة في فضائل أهل البيت عموماً وخصوصاً، ففي الصحاح والسُنن والمسانيد والمعاجم والأجزاء من ذلك شيء كثير، بل وهناك مصنفات في فضائلهم وفضائل بعضهم استقلالاً، وكتب عقائد أهل السنة فيها النصوص الواضحة في أن محبة أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم وموالاتهم من أصول اعتقادنا، وفيها البراءة من طريقة النواصب الذين يؤذون آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول أو فعل.

إلا أن أهل السنة يُحبُّون آل البيت حبًّا شرعيًّا لا غلوًّا فيه طاعةً لله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم، ويتقربون إلى الله بالدِّفاع عن أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم السَّائرين على هديه، والمتمسكين بسنته صلى الله عليه وآله وسلم، ولآل البيت حقوقٌ يجبُ رعايتها.

قال شيخ الإسلام رحمه الله كما في «مجموع الفتاوى» (3/ 407): «وكذلك آل بيت الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لهم من الحقوق ما يجبُ رعايتها، فإن الله جعل لهم حقًّا في الخمسِ والفَيْءِ، وأمر بالصَّلاة عليهم مع الصَّلاة على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال لنا: «قولوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ». اهـ.

وقال رحمه الله في «منهاج السنة» (4/ 599): «ولا ريب أن لآلِ محمدٍ صلى الله عليه وآله وسلم حقًّا على الأُمَّة، لا يَشْرِكُهُمْ فِيهِ غَيْرُهُمْ، ويستحقُّون من زيادة المحبَّة والموالاة ما لا يَسْتَحِقُّهُ سَائِرُ بَطُونِ قُرَيْشٍ». اهـ.

بعض ما جاء عن أبي بكرٍ وعمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قرابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «قال العلامة عبد المحسن العباد في كتابه: «أَعْلَوْا في بعض القرابة وجفاء في الأنبياء والصَّحابة» (ص 38 - 42): «ومما جاء عن الخليفَتين الرَّاشدين أبي بكر وعمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قرابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

1- روى البخاري في صحيحه (3712) أن أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال لعليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «والذي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَرَابَةُ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم أَحَبُّ إِلَيَّ أَنْ أَصِلَ مِنْ قَرَابَتِي».

2- روى البخاري في صحيحه - أيضًا - (3713) عن ابن عمر عن أبي بكر رضي الله عنه قال: «ارقبوا محمدًا صلى الله عليه وسلم في أهل بيته» قال الحافظ ابن حجر في «شرحه»: «يُخاطب بذلك الناس، ويوصيهم به، والمراقبة للشيء: المحافظة عليه، يقول: احفظوه فيهم، فلا تؤذوهم ولا تسيئوا إليهم».

3- وروى البخاري - أيضًا - (3542) عن عتبة بن الحارث رضي الله عنه قال: صلى أبو بكر العصر ثم خرج يمشي، فرأى الحسن يلعب مع الصبيان، فحملة على عاتقه، وقال: بأبي شبيه بالنبى، لا شبيه بعلي، وعلي يضحك، قال الحافظ في «شرحه»: قوله: «بأبي» فيه حذف تقديره: أفديه بأبي، وقال أيضًا: في الحديث فضل أبي بكر ومحبة لقراءة النبي صلى الله عليه وسلم.

4- روى البخاري - أيضًا - (1010) و (3710) عن أنس رضي الله عنه أن عمر بن الخطاب كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب، فقال: «اللهم إنا كنا نتوسل بنبينا صلى الله عليه وسلم فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا؛ فيسقون».

والمراد بتوسل عمر رضي الله عنه بالعباس: التوسل بدعائه، كما جاء مبينًا في بعض الروايات، وقد ذكرها الحافظ في شرح الحديث في كتاب (الاستسقاء) من «فتح الباري».

واختيار عمر رضي الله عنه للعباس رضي الله عنه للتوسل بدعائه إنما هو لقربته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولهذا قال رضي الله عنه في توسله: «وإنا نتوسل إليك بعم نبينا»، ولم يقل بالعباس.

ومن المعلوم أن عليًا رضي الله عنه أفضل من العباس، وهو من قرابة الرسول صلى الله عليه وسلم، لكن العباس أقرب، ولو كان النبي صلى الله عليه وسلم يورث عنه

المال، لكان العباس هو المقدم في ذلك؛ لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْحَقُّوا الْفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا، فَمَا أَبْقَتِ الْفَرَائِضَ فَلِأَوْلَى رَجُلٍ ذَكَرَ» أخرجه البخاري، ومسلم.

وما يزعمونه من ظلم أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أهل البيت في منع ميراثه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ تنفيذًا لما جاء عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد روى البخاري (6725)، (6726)، ومسلم (1759) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أن فاطمة والعباس عليهما السلام أتيا أبا بكرٍ يَلْتَمِسَانِ مِيرَاثَهُمَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهما حينئذٍ يطلبان أَرْضيهما من فَدَكٍ وَسَهْمَهُمَا مِنْ خَيْبَرٍ، فقال لهما أبو بكر: سمعتُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «لَا نُورَثُ، ما تركنا صدقة، وإنما يأكل آلُ مُحَمَّدٍ مِنْ هذا المال...» الحديث.

وأما الخلافة فَمَعَاذَ اللَّهِ أَنْ يَتَوَلَّاهَا أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهي حَقٌّ لغيره، وإنما تَوَلَّاهَا بمبايعة أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إياه، وتحقق بهذه البيعة ما أخبرنا به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: «يَأْبَى اللَّهُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَّا أَبَا بَكْرٍ».

فقد روى البخاري (5666)، ومسلم (2387)، في صحيحيهما، واللفظ لمسلم عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: قال لي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مرضه: «ادعي لي أبا بكر وأخاك، حتى أَكْتُبَ كِتَابًا؛ فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يَتَمَنَّيَ مُتَمَنٍّ، ويقول قائل: أَنَا أَوْلَى، وَيَأْبَى اللَّهُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَّا أَبَا بَكْرٍ».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في «اقتضاء الصراط المستقيم» (1/453): «وانظر إلى عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حِينَ وَضَعَ الدِّيَّانَ، وقالوا له: يَبْدَأُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِنَفْسِهِ، فقال: لا، ولكن ضَعُوا عُمَرَ حَيْثُ وَضَعَهُ اللَّهُ، فَبَدَأَ بِأَهْلِ بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ مَنْ يَلِيهِمْ، حتى جَاءَتْ نَوْبَتُهُ فِي بَنِي عَدِيٍّ وَهُمْ مُتَأَخِّرُونَ عَنْ أَكْثَرِ بَطُونِ قُرَيْشٍ». اهـ.

مَنْ هُمْ آلَ بَيْتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

اختلف في ذلك على أقوالٍ ذَكَرَهَا ابْنُ الْقَيْمِ رَحِمَهُ اللَّهُ في «جلاء الأفهام» وغيره.

والراجح - والله أعلم - : أنهم الذين حُرِّمَتْ عليهم الصَّدَقَةُ، وهم آل علي، وآل جعفر، وآل عقيل، وآل العباس، وبنو الحارث بن عبد المطلب، وأزواجه.

ودليل ذلك: ما رواه مسلم في صحيحه عن زيد بن أرقم، قال: قام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوماً فينا خطيباً بماءٍ يدعى خُماً بين مكة والمدينة، فحمد الله وأثنى عليه، ووعظ وذَكَرَ، ثم قال: «أما بعد، ألا أيها الناس فإنما أنا بشرٌ يوشك أن يأتي رسولُ ربي فأجيبُ، وأنا تاركٌ فيكم ثَقَلَيْنِ: أولهما كتابُ الله فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به، فحثَّ على كتاب الله، ورغَّبَ فيه، ثم قال: وأهل بيتي، أَذْكَرُكُمْ اللهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي»، فقال له حُصَيْن: وَمَنْ أَهْلُ بَيْتِهِ يَا زِيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: نساؤه مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، ولكن أَهْلَ بَيْتِهِ مَنْ حُرِّمَ الصَّدَقَةُ بَعْدَهُ.

قال: ومن هم؟ قال: هم آل علي، وآل عقيل، وآل جعفر، وآل عباس، قال: كل هؤلاء حُرِّمَ الصَّدَقَةُ؟ قال: نعم.

وروى مسلم - أيضاً - من حديث ابن شهاب، عن عبد الله بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، حَدَّثَهُ أَنَّ عَبْدَ الْمُطَّلِبِ بْنَ رَبِيعَةَ أَخْبَرَهُ أَنَّ أَبَاهُ رَبِيعَةَ بْنَ الْحَارِثِ قَالَ لِعَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنَ رَبِيعَةَ وَلِلْفَضْلِ بْنِ الْعَبَّاسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَتَيْتَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَوْلَا لَهُ: اسْتَعْمِلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلَى الصَّدَقَاتِ - فذكر الحديث -، وفيه: فقال لنا: «إِنَّ هَذِهِ الصَّدَقَةُ إِنَّمَا هِيَ أَوْسَاخُ النَّاسِ، وَإِنَّمَا لَا تَحِلُّ لِمُحَمَّدٍ، وَلَا لِآلِ مُحَمَّدٍ».

وأفضل آل بيته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليّ، وفاطمة، والحسن، والحسين، الذين أدار عليهم الكساء، وخصّهم بالدعاء، ففي «صحيح مسلم» عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خرج وعليه مِرْطٌ مَرَحَلٌ من شعرٍ أسود، فجاء الحسن بن علي، فأدخله، ثم جاء الحسين، فدخل معه، ثم جاءت فاطمة، فأدخلها، ثم جاء عليّ، فأدخله، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: 33].

وفي «مسند الإمام أحمد»: «اللَّهُمَّ أَهْلَ بَيْتِي، أَذْهِبْ عَنْهُمْ الرِّجْسَ، وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيرًا». كَرَّرَهَا ثَلَاثًا.

واختلَفَ في نساءِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هل هُنَّ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ؟ على قولين: أَرَجَحَهُمَا - والله أعلم - أنهم من أهل بيته، وقد رجَّح هذا جماعةٌ مِنْ مُحَقِّقِي أَهْلِ الْعِلْمِ سَلَفًا وَخَلَفًا، ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم.

ومما ذكره ابن القيم في كتابه «جلاء الأفهام» (ص 330 - 333) من حُجَجِ الْقَائِلِينَ بدخول أزواجه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في آل بيته قوله: «قال هؤلاء: إنما دخل الأزواج في الآل، وخصوصًا أزواجُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ تشبيهاً لذلك بالنسب؛ لأنَّ اتِّصَالَهِنَّ بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غيرُ مُرْتَفِعٍ، وهنَّ محَرَّمَاتٌ على غيره في حياته وبعد مماته، وهنَّ زوجاته في الدنيا والآخرة، فالسَّبب الذي لهن بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قائمٌ مقامَ النسب، وقد نصَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الصلاة عليهن، ولهذا كان القول الصحيح هو منصوصُ الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّ الصَّدَقَةَ تُحَرِّمُ عليهن؛ لأنَّها أوساخُ النَّاسِ، وقد صان الله - سبحانه - ذلك الجَنَابَ الرَّفِيعَ، وآله، من كل أوساخ بني آدم.

ويا لله العجب! كيف يدخل أزواجه في قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ

رَزَقَ آلَ مُحَمَّدٍ قُوَّتًا»، وقوله في الأضحية: «اللَّهُمَّ هَذَا عَنْ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ»، وفي قول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «مَا شَبَعَ آلَ رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ خُبْزٍ بُرٍّ» وفي قول المصلي: «اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد»، ولا يدخلن في قوله: «إِنَّ الصَّدَقَةَ لَا تَحِلُّ لِمُحَمَّدٍ وَلَا لِآلِ مُحَمَّدٍ» مع كونها من أوساخ النَّاسِ! فأزواج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أولى بالصيانة عنها والبعد منها.

فإن قيل: لو كانت الصَّدَقَةُ حرامًا عليهنَّ لَحُرِّمَتْ عَلَى مَوَالِيَهُنَّ، كما أنها لما حُرِّمَتْ عَلَى بَنِي هَاشِمٍ حُرِّمَتْ عَلَى مَوَالِيهِمْ، وقد ثبت في الصحيح أن بَرِيرَةَ تُصَدِّقُ عَلَيْهَا بِلَحْمٍ فَأَكَلَتْهُ، وَلَمْ يُحَرِّمِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهِيَ مَوْلَاةٌ لِعَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

قيل: هذا هو شبهة مَنْ أَبَاحَهَا لِأَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وجواب هذه الشبهة: أن تحريم الصدقة على أزواج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليس بطريق الأصلة، وإنما هو تبعٌ لتحريمها عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإلا فالصدقة حلالٌ لهنَّ قبل اتصالهنَّ به، فهنَّ فرعٌ في هذا التحريم والتحريم على المولى فرع التحريم على سيده فلما كان التحريم على بني هاشم أصلاً استتبع ذلك موالِيَهُمْ، ولما كان التحريم على أزواج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تبعاً لم يَقَوْ ذلك على استتباع مَوَالِيَهُنَّ؛ لأنه فرعٌ عن فرع.

قالوا: وقد قال الله تعالى: ﴿يَنْسَاءُ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب: 30]، وساق الآيات إلى قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب: 34].

ثم قال: «فدخلن في أهل البيت؛ لأن هذا الخطاب كله في سياق ذكرهنَّ، فلا

يجوز إخراجهنّ من شيء منه، والله أعلم.

ويدلّ على تحريم الصدقة على موالي بني هاشم ما رواه أبو داود في سننه (1650) والترمذي (657) والنسائي (2611) بإسناد صحيح، واللفظ لأبي داود عن أبي رافع: أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث رجلاً على الصدقة من بني مخزوم، فقال لأبي رافع: اصحبني؛ فإنك تصيب منها، قال: حتى آتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسأله، فأتاه، فسأله فقال: «مولي القوم من أنفسهم، وإنّا لا تحلّ لنا الصدقة». اهـ.

وممن قرّر المسألة من العلماء المعاصرين المحدث العلامة عبد المحسن العباد - حفظه الله - في «رسالته»: «فضل أهل البيت وعلو مكانتهم عند أهل السنة والجماعة» حيث قال (ص 8 - 12): «فأمّا دخول أزواجه - رضي الله عنهن - في آله صلى الله عليه وسلم، فيدلّ لذلك قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (٣٣) وَأَذْكُرَنَّ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ [الأحزاب: 33-34].

فإن هذه الآية تدلّ على دخولهنّ حتماً؛ لأن سياق الآيات قبلها وبعدها خطابٌ لهنّ، ولا يُنافي ذلك ما جاء في مسلم (2424)، عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم غداً وعليه مِرْطٌ مَرَحَلٌ من شعرٍ أسود، فجاء الحسن بن علي، فأدخله ثم جاء الحسين فدخل معه، ثم جاءت فاطمة، فأدخلها، ثم جاء عليّ فأدخله، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾.

لأن الآية دالة على دخولهن؛ لكون الخطاب في الآية لهن، ودخول علي وفاطمة والحسن والحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في الآية دلت عليه السُّنة في هذا الحديث، وتخصيص النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهؤلاء الأربعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في هذا الحديث لا يدل على قَصْر أهل بيته عليهم دون القربات الأخرى، وإنما يدل على أنهم من أخص أقاربه، ونظير دلالة هذه الآية على دخول أزواج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في آله، ودلالة حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا المتقدم على دخول علي وفاطمة والحسن والحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في آله - نظير ذلك قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ [التوبة: 108]، على أن المراد به مسجد قباء.

ودلالة السُّنة في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه (1398) على أن المراد بالمسجد الذي أُسِّس على التقوى مسجده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وقد ذكر هذا التَّنْظِيرَ شيخُ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في رسالة: «فضل أهل البيت وحقوقهم» (ص 20-21).

وزوجاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ داخلات تحت لفظ الآل؛ لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الصَّدَقَةَ لَا تَحِلُّ لِمُحَمَّدٍ وَلَا لآلِ مُحَمَّدٍ»، ويدلُّ لذلك أنهم يُعْطَيْنَ مِنَ الْخُمْسِ.

وأيضاً: ما رواه ابن أبي شيبة في مُصَنَّفِهِ (3/214)، بإسناد صحيح عن أبي مُلَيْكَةَ: أَنَّ خَالِدَ بْنَ سَعِيدٍ بَعَثَ إِلَى عَائِشَةَ بِبَقْرَةٍ مِنَ الصَّدَقَةِ، فَردَّتها، وقالت: «إِنَّا آلُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا تَحِلُّ لَنَا الصَّدَقَةُ».



«وَيَحْفَظُونَ فِيهِمْ وَصِيَّةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، حَيْثُ قَالَ يَوْمَ غَدِيرِ خُمٍّ: «أُذَكِّرُكُمُ اللَّهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي».

يشير شيخ الإسلام إلى الحديث الذي رواه مسلم عن زيد بن أرقم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قام رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - فينا خطيباً بماءٍ يُدْعَى حُمًا بين مكة والمدينة، فحمد الله وأثنى عليه، ووعظَ وذَكَرَ، ثم قال: «أَمَّا بَعْدُ: أَلَا يَا أَيُّهَا النَّاسُ فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، يَوْشِكُ أَنْ يَأْتِيَنِي رَسُولُ رَبِّي فَأَجِيبُ، وَأَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ: أَوَّلُهُمَا: كِتَابُ اللَّهِ، فِيهِ الْهُدَى وَالنُّورُ، فَخُذُوا بَكِتَابِ اللَّهِ، وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ، فَحُثَّ عَلَيَّ كِتَابُ اللَّهِ وَرَغَبَ فِيهِ»، ثم قال: «وَأَهْلُ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمُ اللَّهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمُ اللَّهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمُ اللَّهَ فِي أَهْلِ الْبَيْتِ».

قال الإمام النّووي رَحِمَهُ اللَّهُ فِي شَرْحِهِ لِمُسْلِمٍ: «قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَأَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ»؛ فَذَكَرَ كِتَابَ اللَّهِ، وَأَهْلَ بَيْتِهِ. قَالَ الْعُلَمَاءُ: سُمِّيَا ثَقَلَيْنِ؛ لِعَظَمِهِمَا، وَكِبِيرِ شَأْنِهِمَا. وَقِيلَ: لِثِقَلِ الْعَمَلِ بِهِمَا». اهـ.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أُذَكِّرُكُمُ اللَّهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي»، ثلاثاً.

قال العلامة ابنُ عُثَيْمِينَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «شَرْحِ الْوَاسِطِيَّةِ» (ص 609): «يَعْنِي: اذْكُرُوا اللَّهَ، اذْكُرُوا خَوْفَهُ وَانْتِقَامَهُ إِنْ أَضَعْتُمْ حَقَّ آلِ الْبَيْتِ، وَاذْكُرُوا رَحْمَتَهُ وَثَوَابَهُ إِنْ قُمْتُمْ فِي حَقِّهِمْ». اهـ.

وقال الحافظ ابنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي تَفْسِيرِهِ (4/ 147): «وَلَا نُنْكِرُ الْوَصَاةَ بِأَهْلِ الْبَيْتِ، وَالْأَمْرَ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ، وَاحْتِرَامِهِمْ، وَإِكْرَامِهِمْ؛ فَإِنَّهُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ طَاهِرَةٍ مِنْ أَشْرَفِ بَيْتٍ وَجَدَ عَلَى الْأَرْضِ فَخْرًا وَحَسَبًا وَنَسَبًا، وَلَا سِيَّمَا إِذَا كَانُوا

مُتَّبِعِينَ لِلْسُنَّةِ النَّبَوِيَّةِ الصَّحِيحَةِ الْوَاضِحَةِ الْجَلِيلَةِ، كما كان عليه سلفُهم، كالعبَّاس، وبنِيه، وعليّ، وأهل ذُرِّيَّتِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ». اهـ.

أما غَدِيرُ حُمٍّ، فالغديرُ في اللُّغَةِ: مُسْتَنْقَعُ مَاءِ الْمَطَرِ، سُمِّيَ بذلك؛ لأنَّ السيلَ غَادَرَهُ؛ أي: تَرَكَهُ. قاله ابنُ فارس في «معجم المقاييس» (4 / 413).

«وَأَمَّا حُمٌّ بِضَمِّ الْخَاءِ وَتَشْدِيدِ الْمِيمِ: فَقِيلَ: اسْمٌ لَغِيْضَةٍ عَلَى ثَلَاثَةِ أَمْيَالٍ مِنَ الْجُحْفَةِ، وَهُوَ غَدِيرٌ مَشْهُورٌ، يُضَافُ إِلَى الْغِيْضَةِ، فَيُقَالُ: غَدِيرُ حُمٍّ، وَالْغِيْضَةُ: الشَّجَرُ الْمُتَنَفِّسُ.

وقيل: حُمٌّ: اسم رجل نُسِبَ الْغَدِيرُ إِلَيْهِ، فَقِيلَ: غَدِيرُ حُمٍّ.

وذلك اليوم الذي خُطِبَ فِيهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي غَدِيرِ حُمٍّ، وَذَكَرَ بِأَهْلِ بَيْتِهِ هُوَ يَوْمُ الثَّامِنِ عَشَرَ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ، وَالرَّافِضَةُ يُحْتَفَلُونَ بِهَذَا الْيَوْمِ، وَيَجْعَلُونَهُ عِيدًا.

وقد ذكر شيخُ الإسلام ابنُ تيمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ الْأَعْيَادَ الزَّمَانِيَّةَ الْمُبْتَدَعَةَ فِي «اقتضاء الصراط المستقيم» (2 / 618-619) فقال: «النوع الثاني من الأعياد الزَّمَانِيَّةِ الْمُبْتَدَعَةِ: مَا جَرَى فِيهِ حَادِثَةٌ، كَمَا كَانَ يَجْرِي فِي غَيْرِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يُوجِبَ ذَلِكَ جَعْلُهُ مَوْسِمًا، وَلَا كَانَ السَّلَفُ يَعَظُمُونَهُ كَثَامِنِ عَشَرَ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ، الَّذِي خُطِبَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهِ بِغَدِيرِ حُمٍّ، مَرَجَعَهُ مِنْ حِجَّةِ الْوَدَاعِ، فَإِنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خُطِبَ فِيهِ خُطْبَةٌ وَصَّى فِيهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِاتِّبَاعِ كِتَابِ اللَّهِ، وَوَصَّى فِيهَا بِأَهْلِ الْبَيْتِ، كَمَا رَوَى ذَلِكَ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فزاد بعضُ أهلِ الْأَهْوَاءِ فِي ذَلِكَ حَتَّى زَعَمُوا أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَهْدَ إِلَى

عليّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بالخلافة، بالنصّ الجليّ بعد أن فرش له، وأقعدته على فراشٍ عالية، وذكروا كلامًا وعملاً قد علِمَ بالاضطرار أنه لم يكن من ذلك شيء، وزعموا أن الصحابة تمالّثوا على كتمانِ هذا النصّ، وغصبوا الوصيَّ حقّه، وفسقوا، وكفروا إلا نفرًا قليلًا، والعادة التي جَبَلَ اللهُ عليها بني آدم، ثم ما كان القوم عليه من الأمانة والديانة، وما أوجبته شريعتهم من بيان الحق يُوجبُ العلمَ اليقينيّ بأن مثل هذا مُمتنعٌ كتمانُهُ.

وليس الغرض الكلام في مسألة الإمامة، وإنما الغرض أن اتخاذ هذا اليوم عيدًا مُحدثٌ لا أصل له، فلم يكن في السلف لا من أهل البيت ولا من غيرهم مَنْ اتَّخَذَ ذلك اليوم عيدًا، حتى يُحدثَ فيه أعمالًا؛ إذ الأعياد شريعة من الشرائع، فيجب فيها الاتِّباعُ لا الابتداعُ، وللنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خُطْبٌ وعهودٌ ووقائعٌ في أيام متعددة، مثل يوم بدر، وحُنين، والخندق، وفتح مَكَّة، ووقت هجرته، ودخوله المدينة، وخطب له متعددة يذكر فيها قواعد الدين.

ثم لم يُوجب ذلك أن تُتَّخَذَ أمثال تلك الأيام أعيادًا، وإنما يفعل مثل هذا النصارى الذين يتخذون أمثال أيام حوادث عيسى - عليه السلام - أعيادًا، أو اليهود، وإنما العيدُ شريعةٌ، فما شرعه الله اتَّبَعَ، وإلا لم يُحدث في الدين ما ليس منه». اهـ.



«وقال- أيضًا- للعبّاس عمّه- وقد اشتكى إليه- أنّ بعض قريش يجفو بني هاشم، فقال: «والذي نفسي بيده لا يؤمنون حتى يحبوكم؛ لله، ولقرايتي». وقال: «إن الله اصطفى بني إسماعيل، واصطفى من بني إسماعيل كنانة، واصطفى من كنانة قريشًا، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم».

أما الحديث الأول: فهو حديث ضعيف، أخرجه الإمام أحمد والنسائي والترمذي، وغيرهم، من طريق يزيد بن أبي زياد، ويزيد هذا ضعيف، وممن ضعف الحديث العلامة الألباني رحمه الله.

والأدلة على وجوب محبة أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم كثيرة، والله الحمد. وأما الحديث الثاني: فلم يصح بهذا اللفظ، والذي في «صحيح مسلم» عن واثلة بن الأسقع، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم».

قال شيخ الإسلام رحمه الله في «اقتضاء الصراط المستقيم» (1/ 374-377): «الذي عليه أهل السنة والجماعة: اعتقاد أنّ جنس العرب أفضل من جنس العجم، عبرانيّهم، وسريانيّهم، وروميّهم، وفُرسيّهم، وغيرهم. وأنّ قريشًا أفضل العرب، وأنّ بني هاشم أفضل قريش، وأنّ الرسول أفضل بني هاشم، فهو أفضل الخلق نفسًا، وأفضلهم نسبًا.

وليس فضل العرب ثم قريش، ثم بني هاشم؛ لمجرد كون النبي صلى الله عليه وسلم منهم، وإن كان هذا من الفضل.

بل هم في أنفسهم أَفْضَلُ، وبذلك يثبت لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه أَفْضَلُ نَفْسًا وَنَسَبًا.

ولهذا ذكر أبو محمد حرب بن إسماعيل الكُرْمَانِي صاحب الإمام أحمد في وصفه للسُّنَّة التي قال فيها: «هذا مذهبُ أئِمَّةِ أهل العلم وأصحاب الأثر وأهل السُّنَّة المعروفين بها، المقتدئ بهم فيها، وأدركتُ عُلَمَاءَ أهل العراق والحجاز والشام وغيرهم عليها، فَمَنْ خَالَفَ شَيْئًا مِنْ هذه المذاهب أو طَعَنَ فيها أو عَبَّ قَائِلَهَا فهو مبتدعٌ خارجٌ من الجماعة، زائلٌ عن منهج السُّنَّة وسبيل الحق، وهو مذهبُ أَحْمَدَ، وإسحاق بن إبراهيم بن مخلد، وعبد الله بن الزبير الحميدي، وغيرهم ممن جالسنا وأخذنا عنهم العلم، وكان من قولهم: (إِنَّ الْإِيمَانَ قَوْلٌ، وَعَمَلٌ، وَنِيَّةٌ)، وساق كلامًا طويلاً...».

إلى أن قال: «ونعرف للعربِ حَقَّهَا وَفَضْلَهَا وَسَابِقَتَهَا... ولا نقول بقول الشُّعُوبِيَّةِ، وأردال الموالي الذين لا يُحِبُّونَ الْعَرَبَ، ولا يَقْرُونَ بِفَضْلِهِمْ؛ فَإِنَّ قَوْلَهُمْ بدعةٌ وخلافٌ... إلى أن قال: وَمِنَ النَّاسِ مَنْ قَدْ يُفْضَلُ بَعْضُ أَنْوَاعِ الْعَجَمِ عَلَى الْعَرَبِ، والغالب أن مثل هذا الكلام لا يَصْدُرُ إِلَّا عَنْ نَوْعِ نِفَاقٍ، إما في الاعتقاد، وإما في العمل الْمُنْبَعِثِ عَنْ هَوَى النَّفْسِ مَعَ شُبُهَاتٍ اقْتَضَتْ ذَلِكَ». اهـ.



«وَيَتَوَلَّوْنَ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ، وَيُؤْمِنُونَ بِأَنْهِنَّ أَزْوَاجُهُ فِي الْآخِرَةِ، خُصُوصًا خَدِيجَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أُمُّ أَكْثَرِ أَوْلَادِهِ، وَأَوَّلُ مَنْ آمَنَ بِهِ وَعَاضِدُهُ عَلَى أَمْرِهِ، وَكَانَ لَهَا مِنْهُ الْمَنْزِلَةُ الْعَالِيَةُ، وَالصِّدِّيقَةُ بِنْتُ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، الَّتِي قَالَ فِيهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ».

قال العلامة الفوزان - حفظه الله - في «شرح الواسطية» (ص 150): «في هذه الجملة عقيدة أهل السنة والجماعة في أزواج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «وَيَتَوَلَّوْنَ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَي: يَحْبُونَهُنَّ وَيُوقِرُونَهُنَّ؛ لِأَنَّهُنَّ أُمَّهَاتُ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْإِحْتِرَامِ وَالتَّوْقِيرِ وَتَحْرِيمِ نِكَاحِهِنَّ عَلَى الْأُمَّةِ، أَمَا بَقِيَّةُ الْأَحْكَامِ فَحُكْمُهُنَّ حُكْمُ الْأَجْنَبِيَّاتِ، مِنْ حَيْثُ تَحْرِيمُ الْخُلُوةِ بِهِنَّ وَالنَّظَرِ إِلَيْهِنَّ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿الْنَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: 6]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: 53]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ [الأحزاب: 53]، فَهِنَّ أُمَّهَاتُ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْإِحْتِرَامِ وَالتَّحْرِيمِ، لَا فِي الْمَحْرَمِيَّةِ». اهـ.

فإذا كان من أصول اعتقاد أهل السنة أنهم يتولون أزواج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمهات المؤمنين طاعة لله ورسوله، فهم يُبَغِضُونَ مَنْ يُبَغِضُهُنَّ، أَوْ يَسُبُّهُنَّ، وَيَتَبَرَّؤْنَ مِنْهُ، وَيَكْفُرُونَ مَنْ رَمَى أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بِمَا بَرَّأَهَا اللَّهُ مِنْهُ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ، بَعْدَ نَزُولِ بَرَاءَتِهَا، وَكَذَلِكَ مَنْ قَذَفَ إِحْدَى

أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ.

قول المصنّف: «وَيُؤْمِنُونَ بِأَنَّهُنَّ أَزْوَاجُهُ فِي الْآخِرَةِ»؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [غافر: 7، 8].

وقال تعالى: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ [الزخرف: 70]؛ فزوجة الإنسان في الدنيا تكون زوجته في الآخرة إن كانت من أهل الجنة.

وفي «البخاري» وغيره أن علياً رضي الله عنه لما بعث عمّاراً والحسن إلى الكوفة لِيَسْتَنْفِرَهُمْ، خطب عمّار، فقال: إني لأعلم أنها زَوْجَتُهُ - أي: عائشة - في الدنيا والآخرة، ولكن الله ابتلاكم لِيَتَّبِعُوهُ أَوْ يُيَاها.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله: «وَأَوَّلُ زَوْجَاتِهِ خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدِ بْنِ أَسَدٍ، تَزَوَّجَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَكَّةَ، وَهُوَ ابْنُ خَمْسٍ وَعَشْرِينَ سَنَةً، وَبَقِيَتْ مَعَهُ إِلَى أَنْ أَكْرَمَهُ اللَّهُ بِرِسَالَتِهِ، فَأَمِنَتْ بِهِ وَنَصَرَتْهُ، مَاتَتْ قَبْلَ الْهَجْرَةِ بِثَلَاثِ سِنِينَ.

وَمِنْ خَصَائِصِهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَتَزَوَّجْ عَلَيْهَا غَيْرَهَا، وَأَوْلَادُهُ كُلُّهُمْ مِنْهَا إِلَّا إِبْرَاهِيمَ، فَإِنَّهُ مِنْ سُرِّيَّتِهِ مَارِيَّةَ. وَمِنْهَا: أَنَّهَا خَيْرُ نِسَاءِ الْأُمَّةِ.

واختلف في تفضيلها على عائشة على ثلاثة أقوال.

ومنها: أن الله بعث إليها السّلام مع جبريل، فبلغها النّبي صلى الله عليه وسلّم بذلك.

ومنها: أنها لم تسوّ قط، ولم تغاضبه، ولم ينلها منه إيلاء، ولا عتب قط، ولا هجر.

ومنها: أنها أول امرأة آمنت بالله ورسوله من هذه الأمة. فلما توفّاها الله تزوّج بعدها سوّدة بنت زمعة، وكبرت عنده، وأراد طلاقها، فوهبت يومها لعائشة، وهذه من خصائصها.

وتزوج الصّديقة بنت الصّديق عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنها، وهي بنت ستّ قبل الهجرة بستين، وبنى بها الرسول أول مقدّمه في السّنة الأولى، وهي بنت تسع، ومات عنها وهي بنت ثمانية عشر سنة، وتوفيت بالمدينة، ودُفنت بالبقيع، وأوصت أن يصلّي عليها أبو هريرة سنة ثمانية وخمسين.

ومن خصائصها: أنها أحبّ أزواج النّبي صلى الله عليه وسلّم إليه. وأنه كان ينزل عليه الوحي في لحافها، وأن الله لما أنزل آية التّخيير بدأ بها فخيرها.

وأن الله برّاها مما رماها به أهل الإفك، وأن أكابر الصّحابة كان إذا أشكل عليهم الأمر استفتوها فيجدون علمه عندها.

وأن رسول الله صلى الله عليه وسلّم توفّي في بيتها، وفي يومها، وبين سحرها ونحرها، ودُفن في بيتها.

وأن الملك أرى صورتها للنّبي صلى الله عليه وسلّم قبل أن يتزوّجها في سرقة حرير، وأن النّاس كانوا يتحرّون بهداياهم يومها من رسول الله تقرّباً إلى رسول

الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وتزوّج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حفصة بنت عمر بن الخطاب، وتُوفيت سنة سبع، وقيل: ثمان وعشرين.

وتزوّج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمّ حبيبة بنت أبي سفيان، واسمها رَمْلَة، وتزوّجها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهي بأرض الحبشة وأصدقها عنه النّجاشيُّ أربعمائة دينار، وولي نكاحها عثمان بن عفّان.

وتزوج الرسول أمّ سلمة، واسمها هند بنت أبي أمية، وتُوفيت قبل سنة اثنتين وخمسين، ودُفنت بالبقيع، وهي آخر أزواج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ موتاً، وقيل: ميمونة.

وتزوج الرسول زينب بنت جحش، وكانت عند مولاه زيد بن حارثة، فطلقها، فزوّجها الله إياه من فوق سبع سماوات، وأنزل الله عليه: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾ [الأحزاب: 37]، وهذا من خصائصها، وتُوفيت بالمدينة سنة عشرين، ودُفنت بالبقيع.

وتزوّج الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زينب بنت خزيمة الهلالية، تزوّجها الرسول سنة ثلاث من الهجرة، وكانت تُسمّى أمّ المساكين، ولم تلبث عند رسول الله إلا يسيراً، شهرين أو ثلاثة، وتوفيت.

وتزوج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جويرية بنت الحارث، من بني المصطلق، وكانت سُبيّت في غزوة بني المصطلق، فوقع في سهم ثابت بن قيس فكاتبتها، فقاضى رسول الله كتابتها، وتزوجها سنة ست من الهجرة، وتوفيت سنة ست وخمسين.

وتزوج رسول الله ﷺ صفيّة بنت حُيَيٍّ من ولد هارون بن عمران أخى موسى سنة سبع، فإنها سُبيّت من خيبر، تُوفيت سنة ست وثلاثين، وقيل: سنة خمسين.

ومن خصائصها: أن رسول الله ﷺ أعتقها، وجعل عتقها صداقها.

وتزوج رسول الله ﷺ ميمونة بنت الحارث الهلالية، تزوجها في سرف، وبنى بها بسرف، ومات بسرف، وسرف على بُعد سبعة أميال من مكة. وميمونة آخر من تزوج النبي ﷺ من أمهات المؤمنين، توفيت سنة ثلاث وستين.

فهؤلاء جملة من دخل بهن من النساء، وهن إحدى عشرة». اهـ. نقلًا من كتاب «التنبيهات السنية على العقيدة الواسطية» (ص 294 - 295).

ثم وقفت على كلام ابن القيم في «جلاء الأفهام» (1/ 235 - 260)، وقد اختصره صاحب «التنبيهات».

أقول: أما كونها أم أكثر أولاده: فظاهر؛ إذ لم يولد للنبي ﷺ من غيرها إلا ولده إبراهيم من سريته ماريّة رضي الله عنها.

وأما كونها أول من آمن به: فقيل: هي أول من آمن مطلقاً - كما هو ظاهر كلام شيخ الإسلام هنا، وقيل: أول من آمن من النساء.

وأما كونها أول من عاصده: فمما يدل على ذلك ما رواه البخاري في صحيحه في قصة بدء الوحي، ومجيء جبريل إلى النبي ﷺ في غار حراء، فرجع يرجف فؤاده، فدخل على خديجة رضي الله عنها فقال: «زملوني،

رَمَلُونِي»، فَرَمَلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، فَقَالَ لَخَدِيجَةَ - وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ -: «لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي»، فَقَالَتْ: كَلَّا - وَاللَّهِ - لَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا؛ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ.

فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلٍ بْنِ أَسَدٍ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى، ابْنَ عَمِّ خَدِيجَةَ، وَكَانَ امْرَأً تَنْصَرُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعِبْرَانِيَّ، فَيَكْتُبُ مِنَ الْإِنْجِيلِ بِالْعِبْرَانِيَّةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبَ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ، فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: يَا بَنَ عَمِّ اسْمَعْ مِنْ ابْنِ أَخِيكَ، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: يَا ابْنَ أَخِي مَاذَا تَرَى؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَبَرَ مَا رَأَى، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَلَ اللَّهُ عَلَى مُوسَى، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَدْعًا، يَا لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَوْ مُخْرِجِي هُمْ؟ قَالَ نَعَمْ لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِي، وَإِنْ يَدْرِكُنِي يَوْمُكَ أَنْصُرَكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا، ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوفِّي، وَفَتَرَ الْوَحْيَ.

قوله: «وَكَانَ لَهَا مِنْهُ الْمَنْزِلَةُ الْعَالِيَةُ».

مِمَّا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «خَيْرُ نِسَائِهَا مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَخَيْرُ نِسَائِهَا خَدِيجَةُ بِنْتُ حُوَيْلِدٍ».

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: أَتَى جَبْرِيلُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذِهِ خَدِيجَةُ قَدْ أَتَتْكَ مَعَهَا إِنَاءٌ فِيهِ إِدَامٌ أَوْ طَعَامٌ أَوْ شَرَابٌ، فَإِذَا هِيَ أَتَتْكَ فَاقْرَأْ عَلَيْهَا السَّلَامَ مِنْ رَبِّهَا عَزَّ وَجَلَّ، وَمَنِّي، وَبَشِّرْهَا بِبَيْتٍ فِي الْجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ، لَا صَخَبَ فِيهِ وَلَا نَصَبَ.

ولما في «صحيح مسلم» عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: ما غَرْتُ على امرأةٍ ما غَرْتُ على خديجة، ولقد هَلَكْتُ قبل أن يَتَزَوَّجَنِي بثلاثِ سنين؛ لما كنتُ أَسْمَعُهُ يَذْكُرُهَا، ولقد أمره رَبُّهُ أن يَشْرَهَا بَيْتٍ مِنْ قَصَبٍ في الجنة، وإن كان لِيَذْبَحُ الشاةَ، ثم يهديها إلى خلائلها.

وفي «صحيح مسلم» - أيضًا - عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: ما غَرْتُ على نساءِ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا على خديجة، وإني لم أُدْرِكْهَا، قالت: وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا ذبح الشاةَ فيقول: أَرْسَلُوا بِهَا إِلَى أَصْدِقَاءِ خَدِيجَةَ، قالت: فَأَغْضَبْتُهُ يَوْمًا، فقلت: خديجة؟ فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إني قد رَزَقْتُ حُبَّهَا».

وفي «صحيح البخاري» أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقول: «إنها كانت وكانت، وكان لي منها ولد».

وقول المصنّف رَحِمَهُ اللَّهُ: وَالصَّديقةُ بنتُ الصَّديقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

قال العلامة ابنُ عُثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ في «شرح الواسِطية» (ص 613): «أما كونها صديقة، فلكمالِ تَصَدِيقِهَا لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولكمالِ صِدْقِهَا في معاملته، وصبرها على ما حصل من الأذى في قصّة الإفك، ويَدُلُّكَ على صدقها وصدق إيمانها بالله أنه لما نزلت بَرَاءَتُهَا قالت: إِنِّي لا أحمَدُ إلا الله، وهذا يدل على كمال إيمانها وصدقها.

وأما كونها بنتُ الصَّديق، فكذلك - أيضًا - فإن أباها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هو الصَّديق في هذه الأمة، بل صديقُ الأُمَمِ كلها؛ لأن هذه الأمة أفضل الأمم، فإذا كان صديق هذه الأمة فهو صديق غيرها من الأمم». اهـ.

وقد سبقت الإشارة إلى كثير من فضائلها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وقد ذكر شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ من فضائلها ما رواه البخاري ومسلم عن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «فَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النَّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ».

قال العلامة الفوزان حفظه الله في «شرح الواسطية» (ص 151): «والثريد هو أفضل الأطعمة؛ لأنه خبز، ولحم، والخبز من البر وهو أفضل الأقوات، واللحم أفضل الإدام، فإذا كان اللحم سيّد الإدام والبر سيّد القوت، ومجموعهما الثريد، كان الثريد أفضل الطعام». اهـ.

قلت: وقد قيل:

إِذَا مَا الْخَبْزُ تَأْدِيمُهُ بِلَحْمٍ فَذَلِكَ - أَمَانَةُ اللَّهِ - الثَّرِيدُ

وقد اختُلفَ في أيهما أفضل: خديجة، أم عائشة على ثلاثة أقوالٍ: أوسطها وأحسنها كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في «مجموع الفتاوى» (4/393) حيث قال: «سَبَقُ خَدِيجَةَ وتأثيرها في أول الإسلام ونصرها وقيامها في الدين، لم تشركها فيه عائشة ولا غيرها من أمهات المؤمنين، وتأثير عائشة في آخر الإسلام وحمل الدين وتبليغه إلى الأمة وإدراكها من العلم، ما لم تشركها فيه خديجة ولا غيرها مما تميّزت به عن غيرها». اهـ. وانظر «جلاء الأفهام» (ص 348).

وفي هذا يقول العلامة السفاريني رَحِمَهُ اللَّهُ:

وعائشة في العلم مع خديجة في السبق فافهم نكتة النتيجة

فائدة:

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ كما في «مجموع الفتاوى» (4/395): «وأما نساء

النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلم يقل: إنهم أفضل من العشرة إلا أبو محمد بن حزم، وهو قول شاذ لم يسبقه إليه أحد، وأنكره عليه من بلغه من أعيان العلماء، ونصوص الكتاب والسنة تبطل هذا القول.

وحجته التي احتج بها فاسدة؛ فإنه احتج على ذلك بأن المرأة مع زوجها في درجته في الجنة، ودرجة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعلى الدرجات، فيكون أزواجه في درجته.

وهذا يوجب عليه: أن يكون أزواجه أفضل من الأنبياء جميعهم، وأن تكون زوجة كل نبيٍّ من أهل الجنة أفضل ممن هو مثله، وأن يكون من يطوف على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ولدان، ومن يزوج به من الحور العين أفضل من الأنبياء والمرسلين، وهذا كله مما يعلم بطلانه عموم المؤمنين. اهـ.



«وَيَتَّبِعُونَ مِنْ طَرِيقَةِ الرِّوَافِضِ الَّذِينَ يُبْغِضُونَ الصَّحَابَةَ، وَيَسُبُّونَهُمْ، وَمِنْ طَرِيقَةِ النَّوَاصِبِ الَّذِينَ يُؤْذُونَ أَهْلَ الْبَيْتِ بِقَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ».

بعد أن ذكر شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ وَسَطِيَّةَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ فِي أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ الْغَلَاةِ وَالْجَفَاةِ، وَأَنَّهُمْ يُحِبُّونَ أَصْحَابَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَمِيعًا حَبًّا شَرْعِيًّا، وَيَقْبَلُونَ كُلَّ مَا جَاءَ فِي الْكِتَابِ وَصَحِيحِ السُّنَّةِ وَإِجْمَاعِ الْأُمَّةِ مِنْ فَضَائِلِهِمْ وَمَرَاتِبِهِمْ، وَلَا يَذْكُرُونَهُمْ إِلَّا بِالْجَمِيلِ، وَيَسْتَغْفِرُونَ لَهُمْ، وَيَتَرْضَوْنَ عَنْهُمْ جَمِيعًا، وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّ خَيْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا: أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرُ، ثُمَّ عُثْمَانُ، ثُمَّ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ، وَيَنْزِلُونَ أَهْلَ بَيْتِ رَسُولِ اللهِ مَنْزِلَتَهُمُ الشَّرْعِيَّةَ، وَيَحْفَظُونَ فِيهِمْ وَصِيَّةَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَيُؤَدُّونَ إِلَيْهِمْ حُقُوقَهُمُ الشَّرْعِيَّةَ دُونَ غُلُوٍّ أَوْ جَفَاءٍ.

بعد أن بيّن شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ تِلْكَ الْوَسْطِيَّةَ الْمَحْمُودَةَ الَّتِي يُحِبُّهَا اللهُ وَرَسُولُهُ، بَيَّنَّ أَنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ يَتَّبِعُونَ مِنْ طَرِيقَةِ الرِّوَافِضِ وَالنَّوَاصِبِ. الرِّوَافِضُ الَّذِينَ امْتَلَأَتْ قُلُوبُهُمْ بَغْضًا لِلصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، وَالسُّنَّتُهُمْ بِسَبِّهِمْ وَلَعْنِهِمْ وَتَكْفِيرِهِمْ إِلَّا نَفَرًا يَسِيرًا، وَغُلُوٌّ فِي مَحَبَةِ أَهْلِ الْبَيْتِ غُلُوًّا فَاحِشًا، حَتَّى أَلْهَوْا عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وَاعْتَقَدُوا الْعَصْمَةَ فِي أَئِمَّتِهِمْ، وَأَنَّهُمْ بَلَّغُوا مَرْتَبَةً لَمْ يَبْلُغَهَا نَبِيٌّ مَرْسَلٌ أَوْ مَلَكٌ مَقْرَّبٌ، بَلْ أَعْطَوْهُمْ كَثِيرًا مِنْ صِفَاتِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَحَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ.

كَمَا أَنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ يَتَّبِعُونَ مِنْ طَرِيقَةِ النَّوَاصِبِ الَّذِينَ نَصَبُوا الْعَدَاوَةَ لِأَهْلِ بَيْتِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَذَوْهُمْ بِقَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ كما في «مَجْمُوعُ الْفَتَاوَى» (28/ 492 - 493):
«اتَّفَقَ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ عَلَى رِعَايَةِ حَقُوقِ الصَّحَابَةِ وَالْقِرَابَةِ، وَتَبَرُّؤُونَ مِنَ
النَّاصِبَةِ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ عَلَى بَنِي أَبِي طَالِبٍ وَيُفْسِقُونَهُ، وَيَتَّقَصُونَ بِحَرَمَةِ أَهْلِ
الْبَيْتِ، مِثْلَ مَنْ كَانَ يَعَادِيهِمْ عَلَى الْمُلْكِ، أَوْ يُعْرِضُ عَنْ حَقُوقِهِمُ الْوَاجِبَةِ، أَوْ
يَغْلُو فِي تَعْظِيمِ يَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ بِغَيْرِ الْحَقِّ، وَتَبَرُّؤُوا مِنَ الرَّافِضَةِ الَّذِينَ يَطْعَنُونَ
عَلَى الصَّحَابَةِ وَجُمْهُورِ الْمُؤْمِنِينَ، وَيَكْفُرُونَ عَامَّةً صَالِحِي أَهْلِ الْقِبْلَةِ، وَهُمْ
يَعْلَمُونَ أَنَّ هَؤُلَاءِ أَعْظَمُ ذَنْبًا وَضَلَالًا مِنْ أَوْلَئِكَ». اهـ.

أصل قول الرافضة:

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ كما في «مَجْمُوعُ الْفَتَاوَى» (3/ 356): «وأصل
قول الرافضة: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَصَّ عَلَى عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ نَصًّا قَاطِعًا
لِلْعَذْرِ، وَأَنَّهُ إِمَامٌ مَعْصُومٌ، وَمَنْ خَالَفَهُ كَفَرَ، وَأَنَّ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارَ كَتَمُوا
النَّصَّ، وَكَفَرُوا بِالْإِمَامِ الْمَعْصُومِ، وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ، وَبَدَّلُوا الدِّينَ، وَغَيَّرُوا
الشَّرِيعَةَ، وَظَلَمُوا وَاعْتَدَوْا، بَلْ كَفَرُوا إِلَّا نَفَرًا قَلِيلًا إِمَّا بِضِعَةِ عَشْرٍ أَوْ أَكْثَرِ.

ثم يقولون: إِنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَنَحْوَهُمَا مَا زَالَا مُنَافِقِينَ، وَقَدْ يَقُولُونَ: بَلْ
آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا.

وَأَكْثَرُهُمْ يَكْفُرُونَ مَنْ خَالَفَ قَوْلَهُمْ، وَيَسْمُؤُونَ أَنْفُسَهُمُ الْمُؤْمِنِينَ، وَمَنْ
خَالَفَهُمْ كَفَّارًا، وَيَجْعَلُونَ مَدَائِنَ الْإِسْلَامِ الَّتِي لَا تَظْهَرُ فِيهَا أَقْوَالُهُمْ دَارَ رِدَّةٍ أَسْوَأَ
حَالًا مِنْ مَدَائِنِ الْمُشْرِكِينَ وَالنَّصَارَى، وَلِهَذَا يُوَالُونَ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى
وَالْمُشْرِكِينَ عَلَى بَعْضِ جُمْهُورِ الْمُسْلِمِينَ، وَعَلَى مَعَادَاتِهِمْ وَمُحَارَبَتِهِمْ، كَمَا
عُرِفَ مِنْ مَوَالَاتِهِمُ الْكُفَّارَ الْمُشْرِكِينَ عَلَى جُمْهُورِ الْمُسْلِمِينَ، وَمِنْ مَوَالَاتِهِمُ
الْإِفْرَنْجَ النَّصَارَى عَلَى جُمْهُورِ الْمُسْلِمِينَ، وَمِنْ مَوَالَاتِهِمُ الْيَهُودَ عَلَى جُمْهُورِ

المسلمين.

ومنهم ظَهَرَتْ أُمّهَاتُ الرِّندَقَةِ والنِّفَاقِ كَزَنْدَقَةِ القَرَامِطَةِ الباطنيّةِ وأمثالهم، ولا ريب أنهم أبعدُ طوائفِ المبتدعة عن الكتاب والسنة؛ ولهذا كانوا هم المشهورين عند العامة بالمخالفة للسُّنّة.

فجمهور العامة لا تعرف ضد السُّنِّي إلا الرافضي، فإذا قال أحدهم: أنا سُنِّي، فإنما معناه: لست رافضياً. اهـ.

بيان عَجْزِ الرّوافض عن دفع ظلمِ وَبَغْيِ التّوَاصِبِ:

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ فِي «منهاج السُّنّة» (4 / 386 - 387): «أما أهل السُّنّة فأصلهم مطّرد في هذا الباب وغيره، وأما أنتم - أيها الروافض - فممتناقضون، وذلك أن التّوَاصِبِ من الخوارج وغيرهم الذين يكفّرون عليّاً أو يفسّقونه، أو يشكّون في عدالته من المعتزلة والمروانيّة وغيرهم لو قالوا لكم: ما الدليلُ على إيمان عليٍّ وإمامته وعدله؟ لم يكن لكم حُجّةٌ، فإنكم إن احتججتم بما تواتر من إسلامه وعبادته قالوا لكم: وهذا متواترٌ عن الصّحابة والتّابعين والخلفاء الثلاثة، وخلفاء بني أمية كعماوية، ويزيد بن عبد الملك، وغيرهم، وأنتم تَقْدَحُونَ في إيمانهم، فليس قَدْحُنَا في إيمان عليٍّ وغيره إلا وَقْدَحُكُمْ في إيمان هؤلاء أعظم، والذين تقدحون أنتم فيهم أعظم من الذين نَقْدَحُ نَحْنُ فيهم. وإن احتججتم بما في القرآن من الثّناء والمدح قالوا: آيات القرآن عامّة، تتناول أبا بكر وعمر وعثمان وغيرهم، مثل ما تتناول عليّاً أو أعظم من ذلك، وأنتم قد أخرجتم هؤلاء من المدح والثّناء، فأخرجنا عليّاً أيسر.

وإن قلتم بما جاء عن النّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في فضائله، قالوا: هذه الفضائل

رَوَتْهَا الصَّحَابَةُ الَّذِينَ رَوَوْا فَضَائِلَ أَوْلَيْكَ، فَإِنْ كَانُوا عَدُوًّا فَاقْبَلُوا الْجَمِيعَ، وَإِنْ كَانُوا فَسَاقًا فَإِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بَنِيًّا فَتَبَيَّنُوا، وَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَقُولَ فِي الشُّهُودِ: إِنَّهُمْ إِنْ شَهِدُوا لِي كَانُوا عَدُوًّا، وَإِنْ شَهِدُوا عَلَيَّ كَانُوا فَسَاقًا، أَوْ إِنْ شَهِدُوا بِمَدْحٍ مَنْ أَحَبَّهُ كَانُوا عَدُوًّا، وَإِنْ شَهِدُوا بِمَدْحٍ مَنْ أَبْغَضَهُ كَانُوا فَسَاقًا.

وَأَمَّا إِمَامَةُ عَلِيٍّ فَهَؤُلَاءِ يَنَازِعُونَكُمْ فِي إِمَامَتِهِ هُمْ وَغَيْرُهُمْ، فَإِنْ احْتَجَجْتُمْ عَلَيْهِمُ بِالنَّصِّ الَّذِي تَدْعُونَهُ كَانَ احْتِجَاجُهُمْ بِالنُّصُوصِ الَّتِي يَدْعُونَهَا لِأَبِي بَكْرٍ مُعَارِضًا لَذَلِكَ، وَلَا رَيْبَ عِنْدَ كُلِّ مَنْ يَعْرِفُ الْحَدِيثَ أَنَّ تِلْكَ أَوَّلَى الْقَبُولِ وَالتَّصْدِيقِ، وَكَذَلِكَ يَسْتَدِلُّ عَلَى تَصْدِيقِهَا بِدَلَالَاتٍ كَثِيرَةٍ يَعْلَمُهَا مَنْ لَيْسَ مِنَ الْعُلَمَاءِ أَهْلُ الْحَدِيثِ، وَإِنْ احْتَجَجْتُمْ بِمُبَايَعَةِ النَّاسِ لَهُ قَالُوا: مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ النَّاسَ اجْتَمَعُوا عَلَى بَيْعَةِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ أَعْظَمَ مِمَّا اجْتَمَعُوا عَلَى بَيْعَةِ عَلِيٍّ، وَأَنْتُمْ قَدْ قَدَحْتُمْ فِي الْبَيْعَةِ، فَالْقَدَحُ فِي هَذِهِ أَيْسَرُ.

فَلَا تَحْتَجُّونَ عَلَى إِمَامَةِ عَلِيٍّ بِنَصٍّ وَلَا إِجْمَاعٍ إِلَّا كَانَ مَعَ أَوْلَيْكَ مِنَ النَّصِّ وَالْإِجْمَاعِ مَا هُوَ أَقْوَى مِنْ حُجَّتِكُمْ، فَيَكُونُ إِثْبَاتُ خِلَافَةِ مَنْ قَدَحْتُمْ فِي خِلَافَتِهِ أَوَّلَى مِنْ إِثْبَاتِ خِلَافَةِ مَنْ أَثَبْتُمْ خِلَافَتَهُ. اهـ.

وَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ كَمَا فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى» (4/ 469 - 472): «وَأَمَّا الرَّافِضِيُّ فَلَا يُمْكِنُهُ إِقَامَةُ الْحُجَّةِ عَلَى مَنْ يَبْغِضُ عَلِيًّا مِنَ النَّوَاصِبِ، كَمَا يُمْكِنُ ذَلِكَ أَهْلَ السُّنَّةِ الَّذِينَ يَحِبُّونَ الْجَمِيعَ، فَإِنَّهُ إِنْ قَالَ: إِسْلَامُ عَلِيٍّ مَعْلُومٌ بِالتَّوَاتُرِ، قَالَ لَهُ: وَكَذَلِكَ إِسْلَامُ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ وَمَعَاوِيَةُ وَغَيْرُهُمْ، وَأَنْتَ تَطْعَنُ فِي هَؤُلَاءِ، إِمَّا فِي إِسْلَامِهِمْ، وَإِمَّا فِي عَدَالَتِهِمْ.

فَإِنْ قَالَ: إِيْمَانُ عَلِيٍّ ثَبَتَ بِبِنَاءِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قُلْنَا لَهُ: هَذِهِ الْأَحَادِيثُ إِنَّمَا نَقَلَهَا الصَّحَابَةُ الَّذِينَ تَطْعَنُ أَنْتَ فِيهِمْ، وَرَوَاةُ فَضَائِلِهِمْ: سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَاصٍ،

وعائشة، وسهل بن سعد الساعدي، وأمثالهم، والرافضة تقدح في هؤلاء. فإن كانت رواية هؤلاء وأمثالهم ضعيفة بطل كل فضيلة تُروى لعلّي رضي الله عنه، ولم يكن للرافضة حجة، وإن كانت روايتهم صحيحة ثبتت فضائل علي وغيره ممن روى هؤلاء فضائله، كأبي بكر، وعمر، وعثمان، وغيرهم.

فإن قال الرافضي: فضائل علي متواترة عند الشيعة، كما يقولون: إن النص عليه بالإمامة متواتر، قيل له: أمّا الشيعة الذين ليسوا من الصحابة فإنهم لم يروا النبي صلى الله عليه وسلم، ولا سمعوا كلامه، ونقلهم نقل مُرسَل مُنْقَطِع إن لم يسنده إلى الصحابة لم يكن صحيحاً.

والصحابة الذين تواليهم الرافضة نفر قليل، بضعة عشر، وإما نحو ذلك، وهؤلاء لا يثبت التواتر بنقلهم؛ لجواز التواطؤ على مثل هذا العدد القليل.

والجمهور الأعظم من الصحابة الذين نقلوا فضائلهم تقدح الرافضة فيهم، ثم إذا جَوَّزُوا على الجمهور الذين أثنى عليهم القرآن الكذب والكتمان فتجوز ذلك على نفر قليل أولى وأجوز.

وأيضاً فإذا قال الرافضي: إن أبا بكر وعمر عثمان كان قصدهم الرياسة والملك، فظلموا غيرهم بالولاية.

قال لهم: هؤلاء لم يقاتلوا مسلماً على الولاية، وإنما قاتلوا المرتدين والكفار، وهم الذين كَسَرُوا كِسْرَى وَقَيْصَرَ، وفتحوا بلاد فارس، وأقاموا الإسلام، وأعزُّوا الإيمان وأهله، وأذلُّوا الكفر وأهله.

وعثمان دون أبي بكر وعمر في المنزلة، ومع ذلك فقد طلبوا قتله، وهو في ولايته، فلم يقاتل المسلمين، ولا قتل مسلماً على ولايته.

فإن جَوَزَت على هؤلاء أنهم كانوا ظالمين في ولايتهم أعداء الرسول كانت حُجَّةُ النَّاصِيِ عليك أظهرَ، وإذا أسأت القول في هؤلاء، ونَسَبْتَهُم إلى الظلم والمعاداة للرسول وطائفته كان ذلك حُجَّةً للخوارج والنواصب المارقين عليك.

فإنهم يقولون: أيهما أولى أن ينسب إلى طلب الرِّياسَةِ: مَنْ قاتل المسلمين على ولايته، ولم يقاتل الكفار وابتدأهم بالقتال ليطيعوه وهم لا يطيعونه، وقتل من أهل القبلة الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويحججون البيت العتيق، ويصومون شهر رمضان، ويقرءون القرآن ألوفاً مؤلفة، ومن لم يقاتل مسلماً، بل أعزوا أهل الصلاة والزكاة ونصروهم وآووهم، أو من قُتل وهو في ولايته لم يقاتل، ولم يدفع عن نفسه حتى قُتل في داره، وبين أهله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؟

فإن جَوَزَت على مثل هذا أن يكون ظالماً للملك ظالماً للمسلمين بولايته، فتَجَوِّزُكَ هذا على مَنْ قاتل على الولاية، وقتل المسلمين عليها أولى وأحرى. وبهذا وأمثاله يتبين أن الرافضة أُمَّةٌ ليس لها عقل صريح، ولا نقل صحيح، ولا دين مقبول، ولا دنيا منصور، بل هم من أعظم الطوائف كذباً وجهلاً، ودينهم يُدْخِلُ على المسلمين كُلَّ زِنْدِيقٍ ومُرتَدٍّ، كما دخل فيهم النُّصيرية والإسماعيلية وغيرهم.

فإنهم يعمدون إلى خيار الأُمَّة يُعادونهم، وإلى أعداء الله من اليهود والنصارى والمشركين يوالونهم، ويعمدون إلى الصدق الظاهر المتواتر يدفعونه، وإلى الكذب المختلق الذي يُعَلِّمُ فسادَهُ يقيمونه، فهم - كما قال الشعبي، وكان من أعلم الناس بهم: لو كانوا من البهائم لكانوا حمراً، ولو كانوا من الطير لكانوا أرخمًا. اهـ.

الطَّعْنُ فِي الصَّحَابَةِ طَعْنٌ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ وَالْإِسْلَامِ، وَفِي رَسُولِ اللَّهِ، وَحِكْمَةِ اللَّهِ.

1- أما كون ذلك طعنًا في القرآن والسُّنة، فقد قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ كما في «مَجْمُوعُ الْفَتَاوَى» (4/430): «وَالْقُرْآنُ قَدْ أَثْنَى عَلَى الصَّحَابَةِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَالسَّيْفُ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: 100]، وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلِ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلَوْا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ [الحديد: 10]، وقال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَفَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: 29]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: 18].

وقد ثبت في «صحيح مسلم» عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ».

وفي الصحيحين عن أبي سعيد أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ جَبَلٍ أَحَدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ».

وقد ثبت عنه في الصحيح من غير وجه أنه قال: «خَيْرُ الْقُرُونِ الْقَرْنُ الَّذِي

بُعِثْتُ فِيهِمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ».

وهذه الأحاديث مستفيضة، بل متواترة في فضائل الصَّحابة وتفضيل قرونهم على من بعدهم من القرون، فالقَدْحُ فيهم قَدْحٌ في القرآن والسنة، ولهذا تكلم النَّاسُ في تكفير الرافضة». اهـ.

وقال الإمام أبو زُرْعَةَ الرَّازِي كما في «الكفاية» للخطيب (ص 49): «إذا رأيت الرجلَ يَتَّقِضُ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فاعلم أنه زَنْدِيقٌ، وذلك أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندنا حقٌّ، والقرآن حقٌّ، وإنما أَدَّى إلينا هذا القرآن والسنن أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنما يريدون أن يَجْرَحُوا شُهُودَنَا؛ لِيُبْطِلُوا الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ، وَالْجَرْحُ بِهِمْ أَوْلَى، وَهُمْ زَنْادِقَةٌ». اهـ.

2- وأما كَوْنُ ذَلِكَ طَعْنًا فِي الْإِسْلَامِ:

فقد قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ كما في «مَجْمُوعُ الْفَتَاوَى» (4/ 429): «فهؤلاء الصَّحابة الذين نقلوا القرآن والإسلامَ وشرائع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهم الذين نقلوا فضائل عليٍّ وغيره.

فالقَدْحُ فيهم يوجب أن لا يُوثَقَ بما نقلوه من الدِّينِ، وحينئذٍ: فلا تثبت فضيلةٌ لا لِعَلِيٍّ ولا لغيره، والرافضةُ جُهَّالٌ ليس لهم عقل ولا نقل ولا دين ولا دنيا منصور، فإنه لو طلب منهم الناصبي الذي يبغض عليًّا ويعتقد فسقه أو كفره كالخوارج وغيرهم أن يثبتوا إيمان عليٍّ وفضله - لم يقدروا على ذلك، بل تغلبهم الخوارج، فإنَّ فَضَائِلَ عَلِيٍّ إنما نقلها الصَّحابة الذين تقدَّحُ فيهم الرَّاْفِضَةُ فلا يُتَيَقَّنُ له فضيلةٌ معلومةٌ على أصلهم». اهـ.

3- أما كون ذلك طعنًا في رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فقد قال شيخ الإسلام

رَحْمَةُ اللَّهِ فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى» (4 / 429): «القدح في خير القُرُونِ الذين صَحِبُوا الرسول قدح في الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما قال مالكٌ وغيره من أئمة العلم: هؤلاء طعنوا في أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنما طَعَنُوا في أصحابه؛ ليقول القائل: رجلٌ سوءٌ كان له أصحابٌ سوءٌ، ولو كان رجلاً صالحاً لكان أصحابه صالحين». اهـ.

4- أما كون ذلك طعنًا في حكمة الله؛ فمن جهة أن الله بعث محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في شرار الخلق كما تزعم الرافضة، واختارهم لصحبة نبيه، وتبليغ دينه، وحمل شريعته.

بل الطَّعْنُ فِي الصَّحَابَةِ وَلَعْنُهُمْ وَتَكْفِيرُهُمْ تَكْذِيبُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي ثَنَائِهِ عَلَيْهِمْ، وَوَعْدُهُ الْعَظِيمِ لَهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ مِنْ الْمُهِجَرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: 100].

قال الحافظُ ابن كثير في تفسير هذه الآية: «فقد أخبر الله العظيم أنه قد رضي عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، فإيا ويلٌ مَنْ أَبْغَضَهُمْ أَوْ سَبَّهُمْ، أَوْ أَبْغَضَ أَوْ سَبَّ بَعْضَهُمْ، وَلَا سِيَّما سَيِّدُ الصَّحَابَةِ بعد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وخيرهم وأفضلهم، أعني: الصديق الأكبر والخليفة الأعظم أبا بكر بن أبي قحافة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَإِنَّ الطائفةَ المخدولةَ من الرافضة يعادون أفضل الصَّحَابَةِ ويبغضونهم ويسبونهم - عيادًا بالله من ذلك -، وهذا يدل على أن عقولهم معكوسة، وقلوبهم منكوسة، فأين هؤلاء من الإيمان بالقرآن؛ إذ يسبون مَنْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وأما أهل السنة فإنهم يترضون عَمَّنْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ويسبون مَنْ

سَبَّه الله ورسوله، ويوالون من يوالي الله، ويعادون من يعادي الله، وهم متَّبِعُونَ لا مبتدعون، ويقتدون ولا يبتدئون، ولهذا هم حزب الله المفلحون، وعباده المؤمنين». اهـ.

سبب تسمية الرافضة بهذا الاسم:

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ كما في «مَجْمُوعُ الْفَتَاوَى» (28/490): «لم يظهر اسم الرفض إلا حين خَرَجَ زَيْدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ الْحُسَيْنِ بعد المائة الأولى، لما أظهر التَّرحُّمَ على أبي بكر وعمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا رفضته الرافضة فَسَمُّوا: «رافضة»، واعتقدوا أن أبا جعفر هو الإمام المعصوم، واتبعه آخرون، فَسَمُّوا زَيْدِيَّةً؛ نسبةً إليه». اهـ.

فصل في تكفير الرافضة لخيار الصحابة الأكرمين، وسادات العلماء والربانيين، وإعانتهم للكفار على المسلمين.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ كما في «مَجْمُوعُ الْفَتَاوَى» (28/477 - 484): «والرافضة كفرت أبا بكر، وعمر، وعثمان، وعامة المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان الذين رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ ورضوا عنه، وكفروا جماهير أمة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ وَالْمُتَأَخِّرِينَ.

فيكفرون كلَّ مَنْ اعتقدَ في أبي بكر وعمر والمهاجرين والأنصار العدالة، أو ترضى عنهم كما رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، أو يستغفرون لهم كما أمر الله بالاستغفار لهم.

ولهذا يكفرون أعلام الملة، مثل: سعيد بن المسيب، وأبي مسلم الخولاني، وأويس القرني، وعطاء بن أبي رباح، وإبراهيم النخعي، ومثل مالك، والأوزاعي، وأبي حنيفة، وحماد بن زيد، وحماد بن سلمة، والثوري،

والشافعي، وأحمد بن حنبل، وفُضَيْل بن عياض، وأبي سليمان الدَّارَاني، ومعروف الكَرْخي، والجُنَيْد بن مُحَمَّد، وسهل بن عبد الله التَّسْتُرِي، وغير هؤلاء.

ويستحلون دماء مَنْ خرج عنهم، ويسمُّون مذهبهم مذهب الجمهور، كما يُسمِّيه المتفلسفة ونحوهم بذلك، وكما تسميه المعتزلة مذهب الحشَو والعامة وأهل الحديث.

ويرون في أهل الشَّام ومِصر والحجاز والمغرب واليمن والعراق والجزيرة وسائر بلاد الإسلام، أنه لا يحل نكاح هؤلاء، ولا ذبائهم، وأن المائعات التي عندهم من المياه والأدْهَان وغيرها نجسة.

وَيَرَوْنَ أَنَّ كُفْرَهُمْ أَغْلَظُ مِنْ كُفْرِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى؛ لِأَنَّ أَوْلَئِكَ عَنْدهُمْ كُفَّار أَصْلِيُون، وهؤلاء مرتدُّون، وكُفْرُ الرَّدَّةِ أَغْلَظُ بِالْإِجْمَاعِ مِنَ الْكُفْرِ الْأَصْلِيِّ.

ولهذا السَّبَبُ يعاونون الكفار على الجمهور من المسلمين، فيعاونون التَّار على الجمهور.

وهم كانوا من أعظم الأسباب في خُرُوج جنكيز خان ملك الكُفَّار إلى بلاد الإسلام، وفي قدوم هولاء إلى بلاد العراق، وفي أخذ حَلَب ونَهَب الصَّالِحِيَّة وغير ذلك بِخُبَّتِهِمْ وَمَكْرِهِمْ لما دخل فيه من توزَّر منهم للمسلمين وغير من توزَّر منهم.

وبهذا السبب نهبوا عسكر المسلمين لما مرَّ عليهم وقت انصرافه إلى مصر في النوبة الأولى، وبهذا السَّبَب يقطعون الطُّرُقَات على المسلمين.

وبهذا السَّبَب ظهر فيهم من معاونة التَّار والإفرنج على المسلمين والكآبة

الشديدة بانتصار الإسلام.

وكذلك لما فتح المسلمون الساحل بعكة وغيرها، ظهر فيهم من الانتصار للنصارى وتقديمتهم على المسلمين ما قد سمعه الناس منهم.

وكل هذا الذي وصفت - بعض أمورهم، وإلا فالأمر أعظم من ذلك.

وقد اتفق أهل العلم بالأحوال أن أعظم السيوف التي سلت على أهل القبلة ممن ينتسب إليها، وأعظم الفساد الذي جرى على المسلمين ممن ينتسب إلى أهل القبلة إنما هو من الطوائف المنتسبة إليهم.

فهم أشد ضرراً على الدين وأهله، وأبعد عن شرائع الإسلام من الخوارج والحرورية، ولهذا كانوا أكذب فرق الأمة، فليس في الطوائف المنتسبة إلى القبلة أكثر كذباً ولا أكثر تضديقاً للكذب وتكديباً للصدق منهم، وسيما النفاق فيهم أظهر منه في سائر الناس، وهي التي قال فيها النبي صلى الله عليه وسلم: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان»، وفي رواية: «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كان فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر».

وكل من جربهم يعرف اشتمالهم على هذه الخصال، ولهذا يستعملون التقية التي هي سيما المنافقين واليهود، ويستعملونها مع المسلمين ﴿يَقُولُونَ بِاللَّيْنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح: 11]، ويحلفون ما قالوا وقد قالوا، ويحلفون بالله ليرضوا المؤمنين، والله ورسوله أحق أن يرضوه.

وقد أشبهوا اليهود في أمور كثيرة لا سيما السامرة من اليهود، فإنهم أشبه بهم

من سائر الأصناف يشبهونهم في دعوى الإمامة في شخص أو بطن بعينه، والتكذيب لكل من جاء بحق غيره يدعونه، وفي اتباع الأهواء، وتحريف الكلم عن مواضعه، وتأخير الفطر وصلاة المغرب وغير ذلك، وتحريم ذبائح غيرهم.

ويُشَبِّهُونَ النَّصَارَى فِي الْغُلُوِّ فِي الْبَشَرِ، وَالْعِبَادَاتِ الْمُتَبَدِّعَةِ، وَفِي الشُّرْكِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَهُمْ يُوَالُونَ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى وَالْمَشْرِكِينَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَهَذِهِ شَيْمُ الْمُنَافِقِينَ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَتَّيِبُهَا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: 51]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيَبْلُوَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ (٨٠) وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِآتِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُواهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [المائدة: 80-81].

وليس لهم عقل، ولا نقل، ولا دين صحيح، ولا دنيا منصور، وهم لا يُصَلُّونَ جُمُعَةً وَلَا جَمَاعَةً، وَالْخَوَارِجُ كَانُوا يُصَلُّونَ جُمُعَةً وَجَمَاعَةً، وَهُمْ لَا يَرُونَ جِهَادَ الْكُفَّارِ مَعَ أُمَّةِ الْمُسْلِمِينَ، وَلَا الصَّلَاةَ خَلْفَهُمْ، وَلَا طَاعَتَهُمْ فِي طَاعَةِ اللَّهِ، وَلَا تَنْفِيزَ شَيْءٍ مِنْ أَحْكَامِهِمْ؛ لَا عَقْدَ لَهُمْ أَنَّ ذَلِكَ لَا يَسُوغُ إِلَّا خَلْفَ إِمَامٍ مَعْصُومٍ.

وَيَرَوْنَ أَنَّ الْمَعْصُومَ قَدْ دَخَلَ السَّرْدَابَ مِنْ أَكْثَرِ مِنْ أَرْبَعِمِائَةٍ وَأَرْبَعِينَ سَنَةً، وَهُوَ إِلَى الْآنَ لَمْ يَخْرُجْ، وَلَا رَأَاهُ أَحَدٌ، وَلَا عَلَّمَ أَحَدًا دِينًا، وَلَا حَصَلَ بِهِ فَائِدَةٌ، بَلْ مَضَرَّةٌ.

ومع هذا، فالإيمان عندهم لا يصح إلا به، ولا يكون مؤمناً إلا من آمن به، ولا يدخل الجنة إلا أتباعه.

إلى أن قال رَحِمَهُ اللهُ: «وأكثر مُحَقِّقِيهِمْ - عندهم - يَرَوْنَ أَنَّ أبا بكر وعمر وأكثر المُهاجرين والأنصار وأزواج النَّبي؛ مثل عائشة وحفصة، وسائر أئمة المُسلمين وعامَّتْهم ما آمنوا بالله طرفة عَيْنٍ قط؛ لأنَّ الإيمان الذي يتعقبه الكفر عندهم يكون باطلاً مِنْ أصلِهِ، كما يقوله بعض علماء السُّنَّة.

ومنهم مَنْ يَرَى أَنَّ فرج النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي جَامَعَ به عائشة وحفصة لا بد أن تَمَسَّهُ النَّارُ؛ لِيُطَهَّرَ بِذلك من وَطْءِ الكوافر على زعمهم؛ لأنَّ وَطْءَ الكوافر حرامٌ عندهم.

ومع هذا يَرُدُّونَ أحاديث رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الثابتة المُتواترة عنه عند أهل العلم؛ مثل أحاديث البخاري ومسلم.

وَيَرَوْنَ أَنَّ شِعَرَ شُعراء الرَّافضة؛ مثل: الحميري، وكوشيار الديلمي، وعمارة اليمني خيرٌ من أحاديث البخاري ومسلم.

وقد رأينا في كتبهم من الكذب والافتراء على النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصحابته وقُرَابَتِهِ أكثر مما رأينا من الكذب في كتب أهل الكتاب من التوراة والإنجيل.

وهم مَعَ هذا يُعْطِلُونَ المَساجِدَ التي أَمَرَ اللهُ أن تُرْفَعَ ويُذَكَرَ فيها اسمُهُ؛ فلا يُقيمون فيها جُمُعة ولا جَماعة، ويبنون على القبور المَكذوبة وغير المَكذوبة مساجد يَتَّخِذُونَهَا مَشَاهِدَ، وقد لعن رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ اتَّخَذَ المَساجِدَ على القبور، ونَهَى أُمَّتَهُ عن ذلك.

وقال قبل أن يَمُوتَ بخمسين: «إِنَّ مَنْ كان قبلكم كانوا يَتَّخِذُونَ القبورَ مَساجِدَ، أَلَا فلا تَتَّخِذُوا القبورَ مساجِدَ؛ فَإِنِّي أَنُهاكم عن ذلك».

ويرون أن حَجَّ هذه المشاهد المَكذوبة وغير المَكذوبة مِنْ أعظم العبادات،

حتى إن من مشائخهم من يُفَضِّلُها على حَجِّ البيت الذي أَمَرَ اللهُ به رسوله.
وَوَصَفُ حَالِهِمْ يَطُولُ.

فبهذا يتبين أَنَّهُمْ شَرُّ من عَامَّةِ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ، وَأَحَقُّ بِالْقِتَالِ من الْخَوَارِجِ.
وهذا هو السَّبَبُ فيما شاع من العُرف العام أَنَّ أَهْلَ الْبِدْعِ هم الرَّاغِبَةُ.
فالعامَّةُ شاع عندها أَنَّ ضِدَّ السُّنِّيِّ هو الرافِضِي فقط؛ لأنَّهُمْ أَظْهَرُ مُعَانِدَةً
لسنة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وشرائع دينه من سائر أَهْلِ الْأَهْوَاءِ...».

إِلَى أَنْ قَالَ رَحِمَهُ اللهُ: «وأيضاً، فغالب أئمتهم زنادقة إنما يُظهرون الرِّفْضَ؛
لأنَّه طريقٌ إلى هَدْمِ الإسلام، كما فعلته أئمةُ المَلاحِدة الذين خرجوا بأَرْضِ
أَذْرَبِيجَانَ في زمن المعتصم مع بابك الخرمي، وكانوا يُسمون: «الخرمية»
و«المحمرة»، والقرامطة الباطنية الذين خرجوا بأَرْضِ الْعِرَاقِ وغيرها بعد ذلك،
وأخذوا الْحَجَرَ الْأَسْوَدَ، وبقي معهم مدة، كأبي سعيد الجنابي وأتباعه.

والذين خرجوا بأَرْضِ الْمَغْرِبِ، ثم جاوزوا إلى مصر، وبَنَوْا الْقَاهِرَةَ،
وَادَّعَوْا أَنَّهُمْ فَاطِمِيُّونَ مع اتِّفَاقِ أَهْلِ الْعِلْمِ بِالْأَنْسَابِ أَنَّهُمْ بَرِيثُونَ مِنْ نَسَبِ رَسُولِ
الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَنَّ نَسَبَهُمْ مُتَّصِلٌ بِالْمَجُوسِ وَالْيَهُودِ، واتِّفَاقِ أَهْلِ الْعِلْمِ
بدين رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُمْ أَبْعَدُ عن دينه من اليهود والنصارى.

بل الغالية الذين يَعْتَقِدُونَ إلهية عليٍّ والأئمة، ومن أتباع هؤلاء الملاحدة:
أَهْلُ دُورِ الدَّعْوَةِ الذين كانوا بخراسان والشام واليمن وغير ذلك.

وهؤلاء من أعظم من أعان التَّارَ على المسلمين باليد واللِّسان، بالمؤازرة،
والولاية وغير ذلك؛ لمباينة قولهم لقول المسلمين واليهود والنصارى، ولهذا
كان مَلِكُ الْكُفَّارِ هُوَ لَا كَوَيْقُرُّ أَصْنَامَهُمْ». اهـ.

وقال رَحِمَهُ اللهُ في «منهاج السُّنَّة» (3/ 377-378): «وكثيرٌ منهم يُؤَادُّ الكُفَّارَ من وَسط قلبه أكثر من مَوَادَّتِهِ للمُسلمين.

ولهذا لما خرج التركُ الكُفَّارُ من جهة المَشْرِق؛ فقاتلوا المُسلمين، وسَفَكُوا دماءهم ببلاد خراسان والعراق والشام والجزيرة وغيرها كانت الرَّافضة مُعاونة لهم على قتال المسلمين، ووزير بغداد المعروف بالعلَقَمي، هو وأمثاله كانوا من أعظم النَّاس مُعاونة لهم على المسلمين، وكذلك الذين كانوا بالشام بِحلب وغيرها من الرَّافضة كانوا من أشدَّ النَّاس مُعاونة لهم على قتال المسلمين، وكذلك الذين قَاتَلَهُم المُسلمون بالشام كانت الرافضة من أعظمِ أَعْوَانِهِمْ.

وكذلك إذا صار لليهود دولة في العراق وغيره تكون الرَّافضة من أعظمِ أَعْوَانِهِمْ، فهم دائماً يُؤالون الكفار من المشركين واليهود والنصارى، ويُعاونونهم على قتال المسلمين ومُعاداتهم». اهـ.

وقال أيضًا في «منهاج السُّنَّة» (7/ 414-417): «الرَّافضة يُؤالون أعداءَ الدِّين، الذين يَعْرِفُ كُلُّ أَحَدٍ مُعاداتهم - من اليهود والنصارى والمشركين؛ مُشركي الترك - ويُعادون أولياء الله الذين هم خِيارُ أهل الدِّين، وسادات المُتَّقِينَ، وهم الذين أقاموه وبلَّغوه ونَصَرُوهُ.

ولهذا كان الرافضة من أعظم الأسباب في دخول التُّرك الكفار إلى بلاد الإسلام.

وأما قصة الوزير ابن العلقمي وغيره، كالنَّصير الطُّوسي مع الكفار ومُمالأتهم على المسلمين - فقد عَرَفَهَا الخاصَّةُ والعامةُ.

وكذلك مَنْ كان منهم بالشام ظاهروا المشركين على المسلمين، وعاونوهم

معاونة عَرَفَهَا النَّاسُ.

وكذلك لما انكسر عسكرُ المسلمين لَمَّا قَدِمَ غَازَان - ظَاهَرُوا الْكُفَّارَ النَّصَارَى وَغَيْرَهُمْ مِنْ أَعْدَاءِ الْمُسْلِمِينَ، وَبَاعَوْهُمْ أَوْلَادَ الْمُسْلِمِينَ - بَيْعَ الْعَبِيد - وَأَمْوَالَهُمْ، وَحَارَبُوا الْمُسْلِمِينَ مُحَارَبَةً ظَاهِرَةً، وَحَمَلَ بَعْضُهُمْ رَايَةَ الصَّلِيبِ. وَهُمْ كَانُوا مِنْ أَعْظَمِ الْأَسْبَابِ فِي اسْتِيلَاءِ النَّصَارَى قَدِيمًا عَلَى بَيْتِ الْمَقْدَسِ حَتَّى اسْتَنْقَذَهُ الْمُسْلِمُونَ مِنْهُمْ.

وَقَدْ دَخَلَ فِيهِمْ أَعْظَمُ النَّاسِ نِفَاقًا مِنَ النَّصِيرِيَّةِ وَالْإِسْمَاعِيلِيَّةِ وَنَحْوِهِمْ مِمَّنْ هُوَ أَعْظَمُ كُفْرًا فِي الْبَاطِنِ، وَمُعَادَاةَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى.

فَهَذِهِ الْأُمُورُ وَأَمْثَالُهَا مِمَّا هِيَ ظَاهِرَةٌ مَشْهُورَةٌ يَعْرِفُهَا الْخَاصَّةُ وَالْعَامَّةُ تُوجِبُ ظُهُورَ مُبَايَنَتِهِمْ لِلْمُسْلِمِينَ، وَمُفَارَقَتِهِمْ لِلدِّينِ، وَدُخُولِهِمْ فِي زُمْرَةِ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ، حَتَّى يَعْذِّبَهُمْ مَنْ رَأَى أَحْوَالَهُمْ جَنْسًا آخَرَ غَيْرَ جَنْسِ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنَّ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ يَقِيمُونَ دِينَ الْإِسْلَامِ فِي الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ - قَدِيمًا وَحَدِيثًا - هُمْ الْجُمْهُورُ، وَالرَّافِضَةُ لَيْسَ لَهُمْ سَعْيٌ إِلَّا فِي هَدْمِ الْإِسْلَامِ، وَتَقْضِ عُرَاهُ، وَإِفْسَادِ قَوَاعِدِهِ، وَالْقَدْرُ الَّذِي عِنْدَهُمْ مِنَ الْإِسْلَامِ إِنَّمَا قَامَ بِسَبَبِ قِيَامِ الْجُمْهُورِ بِهِ.

وَلِهَذَا قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ فِيهِمْ قَلِيلَةٌ، وَمَنْ يَحْفَظُهُ حَفْظًا جَيِّدًا فَإِنَّمَا تَعَلَّمَهُ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ، وَكَذَلِكَ الْحَدِيثُ، إِنَّمَا يُعْرَفُ وَيُصَدَّقُ فِيهِ وَيُؤْخَذُ عَنْ أَهْلِ السُّنَّةِ، وَكَذَلِكَ الْفَقْهُ وَالْعِبَادَةُ وَالزُّهْدُ وَالْجِهَادُ وَالْقِتَالُ إِنَّمَا هُوَ لِعَسَاكِرِ أَهْلِ السُّنَّةِ، وَهُمْ الَّذِينَ حَفِظَ اللَّهُ بِهِمُ الدِّينَ عِلْمًا وَعَمَلًا؛ بِعُلَمَائِهِمْ وَعِبَادِهِمْ وَمُقَاتِلِيهِمْ.

وَالرَّافِضَةُ مِنْ أَجْهَلِ النَّاسِ بِدِينِ الْإِسْلَامِ، وَلَيْسَ لِلْإِنْسَانِ مِنْهُمْ شَيْءٌ يَخْتَصُّ بِهِ إِلَّا مَا يَسُرُّ عَدُوَّ الْإِسْلَامِ، وَيَسُوءُ وَلِيَّهِ، فَأَيَّامُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ كُلِّهَا سُوءٌ.

وأعرف النَّاسَ بعيوبهم وممادحهم أهل السُّنَّة، لا تزال تَطَّلُعُ على أمور غيرها عرفتها، كما قال تعالى في اليهود: ﴿وَلَا نَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ [المائدة: 13].

ولو ذكرتُ بعضَ ما عرفته منهم بالمباشرة، ونَقَلَ الثَّقَاتُ، وما رأيته في كتبهم؛ لاحتاج ذلك إلى كتابٍ كبير.

وهم الغاية في الجهل، وقلة العقل، يُبغضون من الأمور ما لا فائدة لهم في بُغْضِهِ، وَيَفْعَلُونَ من الأمور ما لا منفعة لهم فيه إذا قُدِّرَ أَنَّهُمْ عَلَى حَقٍّ، مثل تنف النعجة، حتى كأنَّ لهم عليها ثأراً، كأنهم يَنْتَفُونَ عَائِشَةَ، وَشَقَّ جَوْفَ الْكَبْشِ كَأَنَّهُمْ يَشْقُونَ جَوْفَ عُمَرَ، فَهَلْ فَعَلَ هَذَا أَحَدٌ مِنْ طَوَائِفِ الْمُسْلِمِينَ بَعْدُوهَ غَيْرُهُمْ؟!

ولو كان مثل هذا مشروعاً لكان بأبي جهل وأمثاله أولى.

ومثل كراهتهم للفظ العشرة؛ لِبُغْضِهِمُ لِلرِّجَالِ الْعَشْرَةَ.

وقد ذكر الله لفظ العشرة في غير مَوْضِعٍ من القرآن، كقوله: ﴿وَالْفَجْرِ ۝۱﴾ وَلَيْالٍ عَشْرٍ ﴿[الفجر: 1-2]، وقوله: ﴿وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ﴾ [الأعراف: 142]، ﴿تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ [البقرة: 196].

وأما التسعة، فذكرها في مَعْرَضِ الدِّمِّ؛ كقوله: ﴿وَكَاكَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةً رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [النمل: 48]، فهل كَرِهَ الْمُسْلِمُونَ التَّكْلِمَ بلفظ التسعة لأجل أولئك التسعة؟! وهم يختارون التكلم بلفظ التسعة على لفظ العشرة!

وكذلك كراهيتهم لأَسَامِ سُمِّيَ بِهَا مَنْ يُبْغِضُونَهُ، وقد كان من الصَّحَابَةِ مَنْ

تَسَمَّى بِأَسْمَاءٍ تَسَمَّى بِهَا عَدُوُّ الْإِسْلَامِ؛ مِثْلُ الْوَلِيدِ الَّذِي هُوَ الْوَحِيدُ، وَكَانَ ابْنُهُ مِنْ خِيَارِ الْمُسْلِمِينَ، وَاسْمُهُ الْوَلِيدُ، وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْنَتُ لَهُ فِي الصَّلَاةِ، وَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ نَجِّ الْوَلِيدَ بْنَ الْوَلِيدِ»، كَمَا رَوَاهُ أَهْلُ الصَّحِيحِينَ، وَمِثْلُ أَبِي بَنٍ خَلَفَ الَّذِي قَتَلَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَفِي الْمُسْلِمِينَ أَبِي بَنٍ كَعْبٌ وَغَيْرُهُ، وَمِثْلُ عَمْرُو بْنِ وَدِ الْعَامِرِيِّ، وَفِي الصَّحَابَةِ عَمْرُو بْنُ أُمِيَّةَ، وَعَمْرُو بْنُ الْعَاصِ، وَمِثْلُ هَذَا كَثِيرٌ.

وَلَمْ يُغَيِّرِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اسْمَ رَجُلٍ مِنَ الصَّحَابَةِ؛ لِكُونَ كَافِرٍ سُمِّيَ بِهِ. فَلَوْ قَدَرُ كُفْرٍ مَن يُبْغِضُونَهُ لَكَانَ كِرَاهَتُهُمْ لِمِثْلِ أَسْمَائِهِمْ فِي غَايَةِ الْجَهْلِ، مَعَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَدْعُوهُمْ بِهَا. اهـ.

وَقَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي الرَّافِضَةِ فِي «الْمَنَارِ الْمَنِيفِ» (ص 75): «وَلَقَدْ أَصْبَحَ هَؤُلَاءِ عَارًا عَلَى بَنِي آدَمَ، وَضَحْكَةٌ يَسْخَرُ مِنْهُمْ كُلُّ عَاقِلٍ». اهـ.



«وَيُؤْمِسُ كُونَ عَمَّا شَجَرَ بَيْنَ الصَّحَابَةِ، وَيَقُولُونَ: إِنَّ هَذِهِ الْأَثَارَ الْمَرْوِيَّةَ فِي مَسَاوِيهِمْ مِنْهَا مَا هُوَ كَذِبٌ، وَمِنْهَا مَا قَدْ زِيدَ فِيهِ وَنُقِصَ وَغَيْرَ عَنْ وَجْهِهِ، وَالصَّحِيحُ مِنْهُ هُمْ فِيهِ مَعْدُورُونَ: إِمَّا مُجْتَهِدُونَ مُصِيبُونَ، وَإِمَّا مُجْتَهِدُونَ مُخْطِئُونَ. وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ لَا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ مَعْصُومٌ عَنْ كَبَائِرِ الْإِثْمِ وَصَغَائِرِهِ؛ بَلْ يَجُوزُ عَلَيْهِمُ الذُّنُوبُ فِي الْجُمْلَةِ، وَلَهُمْ مِنَ السَّوَابِقِ وَالْفَضَائِلِ مَا يُوجِبُ مَغْفِرَةَ مَا يَصْدُرُ مِنْهُمْ- إِنْ صَدَرَ-، حَتَّى إِنْهُمْ يُغْفَرُ لَهُمْ مِنَ السَّيِّئَاتِ مَا لَا يُغْفَرُ لِمَنْ بَعْدَهُمْ؛ لِأَنَّ لَهُمْ مِنَ الْحَسَنَاتِ الَّتِي تَمْحُو السَّيِّئَاتِ مَا لَيْسَ لِمَنْ بَعْدَهُمْ. وَقَدْ ثَبَتَ بِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُمْ خَيْرُ الْقُرُونِ، وَأَنَّ الْمَدَّ مِنْ أَحَدِهِمْ إِذَا تَصَدَّقَ بِهِ كَانَ أَفْضَلَ مِنْ جَبَلٍ أَحَدٍ ذَهَبًا مِمَّنْ بَعْدَهُمْ. ثُمَّ إِذَا كَانَ قَدْ صَدَرَ مِنْ أَحَدِهِمْ ذَنْبٌ؛ فَيَكُونُ قَدْ تَابَ مِنْهُ، أَوْ أَتَى بِحَسَنَاتٍ تَمْحُوهُ، أَوْ غُفِرَ لَهُ؛ بِفَضْلِ سَابِقَتِهِ، أَوْ بِشَفَاعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ الَّذِي هُمْ أَحَقُّ النَّاسِ بِشَفَاعَتِهِ، أَوْ ابْتِلَى بِبَلَاءٍ فِي الدُّنْيَا كُفِّرَ بِهِ عَنْهُ. فَإِذَا كَانَ هَذَا فِي الذُّنُوبِ الْمُحَقَّقَةِ؛ فَكَيْفَ الْأُمُورُ الَّتِي كَانُوا فِيهَا مُجْتَهِدِينَ: إِنْ أَصَابُوا؛ فَلَهُمْ أَجْرَانِ، وَإِنْ أَخْطَوْا؛ فَلَهُمْ أَجْرٌ وَاحِدٌ، وَالْخَطَأُ مَغْفُورٌ. ثُمَّ إِنَّ الْقَدَرَ الَّذِي يُنْكَرُ مِنْ فِعْلِ بَعْضِهِمْ قَلِيلٌ نَزَرَ مَغْفُورٌ فِي جَنْبِ فَضَائِلِ الْقَوْمِ وَمَحَاسِنِهِمْ؛ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ، وَرَسُولِهِ، وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ، وَالْهَجْرَةِ، وَالنُّصْرَةِ، وَالْعِلْمِ النَّافِعِ، وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ. وَمَنْ نَظَرَ فِي سِيرَةِ الْقَوْمِ بِعِلْمٍ وَبَصِيرَةٍ، وَمَا مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِهِ مِنَ الْفَضَائِلِ؛ عَلِمَ يَقِينًا أَنَّهُمْ خَيْرُ الْخَلْقِ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ؛ لَا كَانَ وَلَا يَكُونُ مِثْلُهُمْ، وَأَنَّهُمْ الصَّفْوَةُ مِنْ قُرُونِ هَذِهِ الْأُمَّةِ الَّتِي هِيَ خَيْرُ الْأُمَمِ وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللَّهِ».

أُنْقِلُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ كَلَامَ الْعَلَّامَةِ الْفُوزَانِ - حَفْظُهُ اللَّهُ - فِي شَرْحِهِ

للواسطية على هذه الفقرة؛ فقد أجاد وأفاد ووفى بالمراد، ثم أنقل من كلام أئمة السلف ما يؤيد ما قاله شيخ الإسلام رحمه الله:

قال العلامة الفوزان (ص 153، 154): «بين الشيخ رحمه الله موقف أهل السنة والجماعة من الاختلاف الذي وقع بين الصحابة في وقت الفتنة والحروب التي حصلت بينهم، وموقفهم مما ينسب إلى الصحابة من مساوئ ومثالب اتخذها أعداء الله سبباً للوقعة فيهم والنيل منهم، كما حصل من بعض المتأخرين والكتاب العصريين الذين جعلوا أنفسهم حكماً بين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فصوبوا وخطئوا بلا دليل، بل باتباع الهوى، وتقليد المغرضين الذين يحاولون الدس على المسلمين بتشكيكهم بتاريخهم المجيد وسلفهم الصالح الذي هم خير القرون؛ لينفذوا من ذلك إلى الطعن في الإسلام، وتفريق كلمة المسلمين.

وما أحسن ما ذكره الشيخ هنا من تجلية الحق وإيضاح الحقيقة! فقد ذكر أن موقف أهل السنة مما نسب إلى الصحابة وما شجر بينهم - أي: تنازعوا فيه - يتلخص في أمرين:

الأمر الأول: أنهم يمسكون عما شجر بين الصحابة، أي: يكفون عن البحث فيه، ولا يخوضون فيه، لما في الخوض في ذلك من توليد الإحن والحقد على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك من أعظم الذنوب. فطريق السلامة هو السكوت عن ذلك، وعدم التحدث به.

والأمر الثاني: الاعتذار عن الآثار المروية في مساوئهم؛ لأن في ذلك دفاعاً عنهم، ورداً لكيد أعدائهم، وقد ذكر أن جملة الاعتذارات تتلخص فيما يلي:

1- «هذه الآثار المروية في مساويهم منها ما هو كذب» قد افتراه أعداؤهم؛ ليشوهوا سمعتهم، كما تفعل الرافضة قبحهم الله، والكذب لا يلتفت إليه.

2- هذه المساوي المروية «منها ما قد زيد فيه ونقص وغير عن وجهه الصحيح»، ودخله الكذب فهو مُحَرَّف لا يُعتمد عليه؛ لأنَّ فضل الصحابة معلوم، وعدالتهم مُتَيَقَّنة، فلا يترك المعلوم المتيقن لأمرٍ مُحَرَّفٍ مَشْكُوكٍ فيه.

3- «والصحيح منه»- أي: من هذه الآثار المروية- «هم فيه معذرون؛ إمَّا مُجتهدون مُصيبون، وإمَّا مُجتهدون مُخطئون»، فهو من مَوارد الاجتهاد التي إن أصاب المُجتهد فيها فله أجران، وإن أخطأ فله أجرٌ واحدٌ لما في الصحيح عن أبي هريرة وعمر بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِذَا اجْتَهِدَ الْحَاكِمُ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِنْ اجْتَهِدَ وَأَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ وَاحِدٌ».

4- أَنَّهُمْ بَشَرٌ يَجُوزُ عَلَى أَفْرَادِهِمْ مَا يَجُوزُ عَلَى الْبَشَرِ مِنَ الْخَطَا، فَأَهْلُ السُّنَّةِ «لَا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ مَعْصُومٌ عَنْ كَبَائِرِ الْإِثْمِ وَصَغَائِرِهِ، بَلْ يَجُوزُ عَلَيْهِمُ الذُّنُوبُ فِي الْجُمْلَةِ»، لكن ما يقع منهم من ذلك فله مُكْفَرَاتٌ عديدة، منها:

أ- أَنَّ (لَهُمْ مِنَ السَّوَابِقِ وَالْفَضَائِلِ مَا يُوجِبُ مَغْفِرَةً مَا يَصْدُرُ مِنْهُمْ إِنْ صَدَرَ)، فما يقع من أحدهم يُغْتَفَرُ بِجَانِبٍ مَا لَهُ مِنَ الْحَسَنَاتِ الْعَظِيمَةِ، كما في قصة حاطب لما وقع منه ما وقع في غزوة الفتح - غُفِرَ لَهُ بِشُهوهِهِ وَقَعَةٍ بَدْرَ، «حَتَّى إِنَّهُمْ يُغْفَرُ لَهُمْ مِنَ السَّيِّئَاتِ مَا لَا يُغْفَرُ لِمَنْ بَعْدَهُمْ؛ لِأَنَّ لَهُمْ مِنَ الْحَسَنَاتِ الَّتِي تَمْحُو السَّيِّئَاتِ مَا لَيْسَ لِمَنْ بَعْدَهُمْ»، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: 114].

ب- أَنَّهُمْ تُضَاعَفُ لَهُمُ الْحَسَنَاتُ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِمْ، وَلَا يَسَاوِيهِمْ أَحَدٌ فِي

الفضل، «وقد ثبتَ بقولِ رسولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُمْ خَيْرُ الْقُرُونِ، وَأَنَّ الْمُدَّ مِنْ أَحَدِهِمْ إِذَا تَصَدَّقَ بِهِ كَانَ أَفْضَلَ مِنْ جَبَلٍ أُحْدٍ ذَهَبًا مِمَّنْ بَعْدَهُمْ»، أخرج الشيخان وغيرهما أحاديثَ عن أبي هريرة، وابن مسعود، وعمران بن حصين: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «خَيْرُ الْقُرُونِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ»، الحديث.

والقرون: جمع قرن، والقرن: أهل زمان واحد مُتقارب اشتركوا في أمرٍ من الأمور المقصودة، ويُطلق القرن على المدة من الزمان.

ج- كثرة مكفّرات الذنوب لديهم، فإنهم يتوفّر لهم من المكفّرات ما لم يتوفّر لغيرهم، «فإذا كان قد صدرَ من أحدهم ذنبٌ فيكون قد تاب منه، أو أتى بحسناتٍ تمحوه، أو غفر له بفضلٍ سابقته»، أي: الأعمال الصالحة التي أسبقها قبله، «أو بشفاعة محمدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذين هم أحقُّ الناس بشفاعته، أو ابتلي ببلاءٍ من الدنيا كفرَّ به عنه»؛ أي: امتحن وأصيب بمصيبةٍ مُحي عنه ذلك الذنب بسببها كما في الصحيح أَنَّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِنْ وَصَبٍ وَلَا نَصَبٍ، وَلَا غَمٍّ وَلَا هَمٍّ وَلَا حَزَنٍ حَتَّى الشُّوْكَ يُشَاكِهَ إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

والصحابة أوّلَى الناس بذلك.

قال: «فإذا كان هذا في الذنوب المُحقَّقة» - أي: الواقعة منهم فعلاً، وأنَّ لديهم رصيلاً من الأعمال الصالحة التي تُكفِّرُها - «فكيف الأمور التي كانوا فيها مُجتهدين».

الاجتهاد: هو بذلُ الطَّاقة في معرفة الحكم الشرعي.

«إن أصابوا فلهم أجران، وإن أخطؤوا فلهم أجرٌ واحدٌ، والخطأ مغفور»،

كما سبق بيان دليل ذلك قريباً.

وإذا فما يصدر من الصحابي من خطأ على قلته هو بين أمرين:

الأول: أن يكون صدر عن اجتهاد، وهو فيه مأجور، وخطؤه مغفور.

والثاني: أن يكون صدر عن غير اجتهاد، وعنده من الأعمال والفضائل والسوابق الخيرة ما يكفره ويمحوه.

وقوله: «ثم إن القدر الذي يُنكر من فعل بعضهم...»، إلخ، هو كالتلخيص لما سبق.

وفضائل الصحابة إجمالاً هي:

- 1- الإيمان بالله ورسوله، وهو أفضل الأعمال.
- 2- الجهاد في سبيل الله؛ لإعلاء كلمة الله، وهو ذروة سنام الإسلام.
- 3- الهجرة في سبيل الله، وهي من أفضل الأعمال.
- 4- النصرة لدين الله؛ قال الله تعالى فيهم: ﴿وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: 8].
- 5- العلم النافع، والعمل الصالح.
- 6- أنهم خير الخلق بعد الأنبياء، فأمة محمد صلى الله عليه وسلم خير الأمم، كما قال الله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 110]، وخير هذه الأمة صحابة رسول الله؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «خيركم قرني، ثم الذين يلونهم»، الحديث.

7- أنهم الصفوة من قرون هذه الأمة التي هي خير الأمم وأكرمها على الله، كما في الحديث الذي رواه الإمام أحمد: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أنتم

تُوفون سَبْعِينَ أُمَّةً أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ»، رواه الترمذي وابن ماجه والحاكم في مستدركه. اهـ.

وهاك الآن كلام الأئمة المُوافق لما قرّره شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «السُّنَّة»: «ومن السُّنَّة: ذِكْرَ مَحَاسِنِ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُلِّهِمْ أَجْمَعِينَ، وَالْكَفَّ عَنْ الَّذِي جَرَى بَيْنَهُمْ؛ فَمَنْ سَبَّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْ وَاحِدًا مِنْهُمْ فَهُوَ مُبْتَدِعٌ رَافِضِيٌّ، حُبُّهُمْ سُنَّةٌ، وَالِدُّعَاءُ لَهُمْ قَرَبَةٌ، وَالْإِقْتِدَاءُ بِهِمْ وَسِيلَةٌ، وَالْأَخْذُ بِأَثَارِهِمْ فَضِيلَةٌ». اهـ.

قال الإمام أبو الحسن الأشعري رَحِمَهُ اللَّهُ في «رسالة أهل الثغر» (ص 303-304): «وأجمعوا على الكَفِّ عَن ذِكْرِ الصَّحَابَةِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ إِلَّا بِخَيْرٍ مَا يُذَكِّرُونَ بِهِ، وَعَلَى أَنَّهُمْ أَحَقُّ أَنْ يُنْشَرَ مَحَاسِنُهُمْ، وَيُلْتَمَسَ لِأَفْعَالِهِمْ أَفْضَلُ الْمَخَارِجِ، وَأَنْ نَظَنَّ بِهِمْ أَحْسَنَ الظَّنِّ وَأَحْسَنَ الْمَذَاهِبِ مُمْتَثِلِينَ فِي ذَلِكَ لِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا ذُكِرَ أَصْحَابِي فَأَمْسِكُوا»، وَقَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ: وَمَعْنَى ذَلِكَ: لَا تَذَكِّرُوهُمْ إِلَّا بِخَيْرِ الذِّكْرِ». اهـ.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ في آخر «الإبانة» (ص 178-179): «فأما ما جرى بين عليٍّ والزُّبَيْرِ وعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ أَجْمَعِينَ، فَإِنَّمَا كَانَ عَلَى تَأْوِيلٍ وَاجْتِهَادٍ وَعَلَيٌّ الْإِمَامُ، وَكُلُّهُمْ مِنْ أَهْلِ الْاجْتِهَادِ، وَقَدْ شَهِدَ لَهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْجَنَّةِ وَالشَّهَادَةِ؛ فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى حَقٍّ فِي اجْتِهَادِهِمْ، وَكَذَلِكَ مَا جَرَى بَيْنَ عَلِيٍّ وَمَعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كَانَ عَلَى تَأْوِيلٍ وَاجْتِهَادٍ.

وَكُلُّ الصَّحَابَةِ أُمَّةٌ مَأْمُونُونَ غَيْرُ مُتَّهَمِينَ فِي الدِّينِ، وَقَدْ أَثْنَى اللَّهُ عَلَى جَمِيعِهِمْ، وَتَعَبَّدْنَا بِتَوْقِيرِهِمْ وَتَعْظِيمِهِمْ وَمُؤَالَاتِهِمْ، وَالتَّبَرِّي مِنْ كُلِّ مَنْ يَنْتَقِصُ

أحدًا منهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ جميعهم». اهـ.

وقال القاضي عياض في «الشفا» (2/ 52-53): «ومن توقيره وبرّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: توقيرُ أصحابه وبرُّهم، ومعرفةُ حقِّهم، والاقتداء بهم، وحُسن الثناء عليهم، والاستغفار لهم، والإمساك عمَّا شَجَرَ بينهم، ومُعَاداة مَنْ عاداهم، والإضراب عن أخبار المؤرخين وجهلة الرواة وضلال الشيعة والمبتدعين القادحة في أحدٍ منهم، وأن يُلمس لهم فيما نُقل عنهم من مثل ذلك فيما كان بينهم من الفتن أحسن التأويلات، ويُخرج لهم أصوب المخارج؛ إذ هم أهلُ ذلك، ولا يُذكر أحدٌ منهم بسوءٍ، ولا يُغمص عليه أمرٌ، بل نذكر حسناتهم وفضائلهم وحميد سيرتهم، ويُسكت عمَّا وراء ذلك، كما قال الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا ذُكِرَ أَصْحَابِي فَأَمْسِكُوا». اهـ.

وقال الإمام ابنُ بَطَّة العُكبري في «الإبانة الصغرى» (ص 294): «نكفُ عمَّا شَجَرَ بين أصحابِ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فقد شهدوا المشاهد معه، وسَبَقُوا النَّاسَ بالفضل، فقد غفر الله لهم، وأَمَرَكَ بالاستغفار لهم، والتَّقَرُّبُ إليه بِمَحَبَّتِهِمْ، وفَرَضَ ذلك على لسان نبيِّه، وهو يَعْلَم ما سيكون منهم، وأنَّهم سَيَقْتُلُونَ، وإنَّما فَضَّلُوا على سائر الخلق؛ لأنَّ الخطأ والعَمْد قد وُضِعَ عنهم، وكلُّ ما شَجَرَ بينهم مغفورٌ لهم». اهـ.

وقال الإمام الطحاويُّ في عقيدته المشهورة: «وُنِحِبُ أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا نفرطُ في حُبِّ أحدٍ منهم، ولا نتبرأ من أحدٍ منهم، ونُبْغِض من يُبْغِضهم، وبغير الخير يذكُرهم، ولا نذكرهم إلا بخيرٍ، وحُبُّهم دينٌ وإيمانٌ وإحسانٌ، وبُغْضهم كُفْرٌ ونفاق وطُغيان». اهـ.

وقال ابنُ أبي زيد القيرواني في «مُقَدِّمة الرسالة»: «ولا يُذكر أحدٌ من أصحابِ

النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا بِأَحْسَنِ ذِكْرٍ، وَالْإِمْسَاكُ عَمَّا شَجَرَ بَيْنَهُمْ، وَأَنَّهُمْ أَحَقُّ النَّاسِ أَنْ تُلْتَمَسَ لَهُمُ الْمَخَارِجُ، وَيُظَنُّ بِهِمْ أَحْسَنُ الْمَذَاهِبِ». اهـ.

وقال الإمام أبو إسماعيل الصَّابُونِي فِي «عَقِيدَةِ أَصْحَابِ الْحَدِيثِ»: «وَيَرُونَ الْكَفَّ عَمَّا شَجَرَ بَيْنَ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتَطْهِيرُ الْأَلْسِنَةِ عَنْ ذِكْرِ مَا يَتَضَمَّنُ عَيْبًا لَهُمْ، وَنَقْصًا فِيهِمْ، وَيَرَوْنَ التَّرَحُّمَ عَلَى جَمِيعِهِمْ، وَالْمُؤَالَاةَ لِكُلِّهِمْ». اهـ.

وقال أبو عمر الدَّانِي رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الرَّسَالَةِ الْوَافِيَةِ» (ص 132): «وَمِنْ قَوْلِهِمْ: أَنْ يُحْسِنَ الْقَوْلُ فِي السَّادَاتِ الْكِرَامِ؛ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَنْ تُذَكَرَ فَضَائِلُهُمْ، وَتُنْشَرَ مُحَاسِنُهُمْ، وَيُمْسَكَ عَمَّا سِوَى ذَلِكَ مِمَّا شَجَرَ بَيْنَهُمْ؛ لِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا ذُكِرَ أَصْحَابِي فَأَمْسِكُوا»، يَعْنِي إِذَا ذَكَرُوا بِغَيْرِ الْجَمِيلِ، وَلِقَوْلِهِ: «اللَّهُ اللَّهُ فِي أَصْحَابِي».

وَيَجِبُ أَنْ يُلْتَمَسَ لَهُمْ أَحْسَنُ الْمَخَارِجِ، وَأَجْمَلُ الْمَذَاهِبِ؛ لِمَكَانِهِمْ مِنَ الْإِسْلَامِ، وَمَوْضِعِهِمْ مِنَ الدِّينِ وَالْإِيمَانِ، وَأَنَّهُمْ أَهْلُ الرَّأْيِ وَالْاجْتِهَادِ، وَأَنْصَحَ النَّاسَ لِلْعِبَادَةِ، وَهُمْ مَنْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: 47].

وَقَدْ شَهِدَ لَهُمْ بِالْجَنَّةِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنْ كِتَابِهِ؛ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ جَهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ [التوبة: 88] إِلَى قَوْلِهِ: ﴿الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: 89]؛ رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ». اهـ.

وقال الشيخُ يَحْيَى بْنُ أَبِي بَكْرٍ الْعَامِرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ «الرِّيَاضُ الْمُسْتَطَابَةُ» فِيمَنْ لَهُ رَوَايَةٌ فِي الصَّحَّاحِينَ مِنَ الصَّحَابَةِ (ص 311): «وَيَنْبَغِي لِكُلِّ صَيَّنٍ مُتَدَيِّنٍ مُسَامِحَةَ الصَّحَابَةِ فِيمَا صَدَرَ بَيْنَهُمْ مِنَ التَّشَاجُرِ، وَالْإِعْتَذَارِ عَنْ مُخْطِئِهِمْ،

وطلب المخارج الحسنة لهم، وتسليم صحة إجماع ما أجمعوا عليه على ما علّموه؛ فهم أعلم بالحال، والحاضر يرى ما لا يرى الغائب، وطريقة العارفين الاعتذار عن المعائب، وطريقة المنافقين تتبع المثالب، وإذا كان اللازم من طريقة الدين ستر عورات المسلمين؛ فكيف الظن بصحابة خاتم النبيين مع اعتبار قوله صلى الله عليه وسلم: «لا تسبوا أحدا من أصحابي»، وقوله: «من حُسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه».

هذه طريقة صلحاء السلف وما سواها مهالٍ وتلف. اهـ.

وقال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في «مختصر السيرة» (ص 230): «وأجمع أهل السنة على السكوت عما شجر بين الصحابة رضي الله عنهم، ولا يقال فيهم إلا الحسنى؛ فمن تكلم في معاوية أو في غيره فقد خرج عن الإجماع، والله سبحانه وتعالى أعلم». اهـ.

رضي الله عن الصحابة أجمعين وأرضاهم، وأقما من أبغضهم وعاداهم.



«وَمِنْ أَصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ: التَّصَدِيقُ بِكَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ وَمَا يُجْرِي اللَّهُ عَلَى أَيْدِيهِمْ مِنْ خَوَارِقِ الْعَادَاتِ فِي أَنْوَاعِ الْعُلُومِ وَالْمُكَاشَفَاتِ وَأَنْوَاعِ الْقُدْرَةِ وَالتَّأَثِيرَاتِ».

من أصول اعتقاد أهل السُّنَّةِ والجماعة التي خالفوا بها أهل البدع؛ أهل الإفراط والتفريط: التصديق بكرامات الأولياء، وما يُجريه الله على أيديهم من خوارق العادات، فإنَّ من أهل البدع من أنكر كرامات الأولياء، ومنهم من جعل ما يصدر عن السَّحرة والفسَّقة والملاحدة ورؤوس البدع والضلال من هذا الباب جهلاً أو تلييساً.

والكرامة لغة: اسمٌ يُوضع للإكرام، كما في «لسان العرب» (512 / 12). والولي في اللغة: من الولي، وهو القُرب، كما أنَّ العدوَّ مِنَ العدو، وهو البعد، فولِّيَّ الله من والاه بالمُوافقة له في محبوباته ومَرْضياته، وتَقَرَّبَ إليه بما أَمَرَ به من طاعته.

وأولياء الله: هم كلُّ مَنْ جمع بين الإيمان والتقوى؛ فمن كان مؤمناً تقيّاً كان لله وليّاً؛ قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٦٢) الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿[يونس: 62-63].

الولاية تقوى بقوة الإيمان والتقوى، وتضعفُ بضعفهما.

قال شيخ الإسلام رحمه الله في «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» (ص 24): «وإذا كان أولياءُ الله هم المؤمنون المُتَّقُونَ، فبحسبِ إيمان العبد وتقواه تكون ولايته لله تعالى؛ فَمَنْ كان أكمل إيماناً وتقوى كان أكمل ولاية لله،

فالناس مُتفاضلون في ولاية الله عزَّوجلَّ بحسب تفاضلهم في الإيمان والتقوى». اهـ.

وقال رَحِمَهُ اللهُ في المصدر السابق (ص 39): «وإذا كان العبد لا يكون ولياً لله إلا إذا كان مؤمناً تقيّاً؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) [يونس: 62-63].

وفي «صحيح البخاري» الحديث المشهور: يقول الله - تبارك وتعالى - فيه: «وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ»، ولا يكون مؤمناً تقيّاً حتى يتقرب إلى الله بالفرائض، فيكون من الأبرار أهل اليمين، ثم بعد ذلك لا يزال يتقرب بالنوافل حتى يكون من السابقين المُقَرَّبِينَ، فمعلومٌ أنَّ أحداً من الكفار والمنافقين لا يكون ولياً لله، وكذلك مَنْ لا يَصِحُّ إيمانه وعبادته». اهـ.

وقال رَحِمَهُ اللهُ في المصدر نفسه (ص 41): «وليس لأولياء الله شيءٌ يُمَيِّزُون به عن النَّاسِ في الظاهر من الأمور المُباحات، فلا يُمَيِّزُون بلباسٍ دون لباسٍ إذا كان كلاهما مُباحاً، ولا بِحَلْقِ شَعْرٍ أو تقصيره أو ظفره إذا كان مُباحاً، كما قيل: كَمِ مِنْ صِدِّيقٍ فِي قَبَاءٍ، وَكَمِ مِنْ زَنْدِيقٍ فِي عَبَاءٍ». اهـ.

وقال رَحِمَهُ اللهُ أَيضاً (ص 48): «وليس مِنْ شرطٍ وَلِيِّ اللهِ أَنْ يَكُونَ مَعْصُوماً لَا يَغْلُطُ وَلَا يُخْطِئُ، بَلْ يَجُوزُ أَنْ يَخْفَى عَلَيْهِ بَعْضُ عِلْمِ الشَّرِيعَةِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَشْتَبِهَ عَلَيْهِ بَعْضُ أُمُورِ الدِّينِ حَتَّى يَحْسَبَ بَعْضُ الْأُمُورِ مِمَّا أَمَرَ اللهُ بِهِ، وَمِمَّا نَهَى اللهُ عَنْهُ». اهـ.

الأنبياءُ أفضلُ من الأولياءِ بالإجماع:

قال شيخُ الإسلامِ رَحِمَهُ اللهُ في «الفرقان» (ص 62): «وقد اتَّفَقَ سَلَفُ الْأُمَّةِ

وأئمتها وسائر أولياء الله - تعالى - على أن الأنبياء أفضل من الأولياء الذين ليسوا بأنبياء، وقد رتب الله عباده السعداء المُنعم عليهم بأربع مراتب؛ فقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: 69]. اهـ.

وقال رحمه الله في المصدر السابق (ص 72): «ومن ادعى أن من الأولياء الذين بلغتهم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم من له طريق إلى الله لا يحتاج فيه إلى محمد - فهذا كافر مُلحدٌ».

وإذا قال: أنا محتاج إلى محمد صلى الله عليه وسلم في علم الظاهر دون علم الباطن، أو في علم الشريعة دون علم الحقيقة فهو شرٌّ من اليهود والنصارى الذين قالوا: إنَّ محمدًا رسولٌ إلى المؤمنين دون أهل الكتاب». اهـ.

وقال أيضًا (ص 73): «وهؤلاء الملاحدة يدعون أن الولاية أفضل من النبوة، ويلبسون على الناس فيقولون: ولايته أفضل من نبوته، ويُشددون: مقام النبوة في برزخ فوق الرسول ودون الولي

ويقولون: نحن شاركناه في ولايته التي هي أعظم من رسالته، وهذا من أعظم ضلالهم، فإن ولاية محمد لم يمثله فيها أحدٌ لا إبراهيم ولا موسى، فضلًا عن أن يمثله فيها هؤلاء الملحدون.

وكلُّ رسولٍ نبيٌّ وليٌّ؛ فالرسولُ نبيٌّ وليٌّ، رسالته متضمنة لنبوته، ونبوته متضمنة لولايته.

وإذا قدرُوا مجرد إنباء الله إياه بدون ولايته لله فهذا تقدير ممتنع، فإنه حال إنبائه إياه ممتنع أن يكون إلا وليًّا لله، ولا تكون مُجردة عن ولايته، ولو قدرَت

مُجردة لم يكن أحدٌ مُمثلاً للرَّسول في ولايته». اهـ.

كراماتُ الأولياء إنما حَصَلت ببركة اتِّباع الأنبياء:

قال شيخُ الإسلام - رحمه الله تعالى - في «الفرقان» (ص 120): «وكراماتُ أولياء الله إنما حَصَلت ببركة اتِّباع رِساله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهي في الحقيقة تدخل في معجزات الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ». اهـ.

وقال - رحمه الله تعالى - في المَصدر السابق: «فأولياءُ الله المُتَّقون هم المُقْتَدون بمُحمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فيفعلون ما أَمَرَ به ويتَّهون عَمَّا عنه زَجَرَ، ويقتدون به فيما بين لهم أن يتَّبِعوه فيه؛ فيؤيِّدهم بملائكته وروح منه، ويقذف اللهُ في قلوبهم من أنواره، ولهم الكرامات التي يُكرم الله بها أولياءه المُتَّقين». اهـ.

وقال - رحمه الله تعالى - في «الفرقان» (ص 20): «فمن اعتقد أنَّ لأحدٍ من الأولياء طريقاً إلى الله غير متابِعة مُحمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهو كافرٌ من أولياء الشيطان». اهـ.

وقال - رحمه الله تعالى - في المَصدر السابق: «ثُمَّ لو بَلَغ الرجلُ في الزُّهد والعبادة والعلم ما بَلَغ ولم يُؤْمِنْ بجميع ما جاء به مُحمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فليس بمؤمنٍ، ولا وليٍّ لله تعالى». اهـ.

وقال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى كما في المُستدرِك على مُجموع الفتاوى (1/ 120): «وقد اتَّفَق أئمةُ الدِّين أنَّ الرجل لو طار في الهواء، أو مَشَى على الماء لم تَثْبِت له ولاية، بل ولا إسلام حتَّى يَنْظُر في وقوفه على الأمر والنهي الذي بَعَثَ اللهُ به الرسولَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ». اهـ.

وقال في «الفرقان» (ص 61): «اتَّفَق أولياءُ الله على أن الرجل لو طار في

الهواء أو مشى على الماء لم يُعْتَر به حتى يُنْظَر في مُتَابَعَتِهِ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومُوافَقَتِهِ لأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ». اهـ

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ في «مَنْهَاجِ السُّنَّةِ» (8/ 210-211): «مَنْ لَمْ يَسْلُكْ فِي عِبَادَتِهِ الطَّرِيقَ الشَّرْعِيَّةَ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ بِهَا وَرَسُولُهُ، وَتَعَلَّقَتْ هِمَّتُهُ بِالْخَوَارِقِ، فَإِنَّهُ قَدْ يَقْتَرِنُ بِهِ مِنَ الْجِنِّ وَالشَّيَاطِينِ مَنْ يَحْصُلُ لَهُ بِهِ نَوْعٌ مِنَ الْخَبَرِ عَنْ بَعْضِ الْكَائِنَاتِ، أَوْ يَطِيرُ بِهِ فِي الْهَوَاءِ، أَوْ يَمْشِي بِهِ عَلَى الْمَاءِ - فَيَظُنُّ ذَلِكَ مِنْ كَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ، وَأَنَّهُ وَلِيُّ اللَّهِ، وَيَكُونُ سَبَبَ شِرْكِهِ أَوْ كُفْرِهِ، أَوْ بَدْعَتِهِ، أَوْ فِسْقِهِ.

فَإِنَّ هَذَا الْجِنْسَ قَدْ يَحْصُلُ لِبَعْضِ الْكُفَّارِ وَأَهْلِ الْكِتَابِ وَغَيْرِهِمْ، وَقَدْ يَحْصُلُ لِبَعْضِ الْمُلْحِدِينَ الْمُتَسَبِّبِينَ إِلَى الْمُسْلِمِينَ، مِثْلَ مَنْ لَا يَرَى الصَّلَاةَ وَاجِبَةً، بَلْ وَلَا يَقَرُّ بِأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، بَلْ يُبْغِضُهُ، وَيُبْغِضُ الْقُرْآنَ، وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي تُوجِبُ كُفْرَهُ، وَمَعَ هَذَا تُغْوِيهِ الشَّيَاطِينُ بِبَعْضِ الْخَوَارِقِ، كَمَا تُغْوِي الْمَشْرِكِينَ، كَمَا كَانَتْ تَقْتَرِنُ بِالْكُفَّانِ وَالْأَوْثَانِ، وَهِيَ الْيَوْمَ كَذَلِكَ فِي الْمُشْرِكِينَ مِنْ أَهْلِ الْهِنْدِ وَالتُّرْكِ وَالْحَبَشَةِ، وَفِي كَثِيرٍ مِنَ الْمَشْهُورِينَ فِي الْبِلَادِ الَّتِي فِيهَا الْإِسْلَامُ مِمَّنْ هُوَ كَافِرٌ أَوْ فَاسِقٌ، أَوْ جَاهِلٌ مُبْتَدِعٌ، كَمَا قَدْ بَسَطَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ».

وقال ابن كثير في تفسيره (1/ 362) عند قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [البقرة: 34]: «وقد قال يونس بن عبد الأعلى الصديقي: قلت للشافعي: كان الليث بن سعد يقول: إذا رأيتم الرجل يمشي على الماء فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة.

فقال الشافعي: قصر الليث رحمه الله، بل إذا رأيتم الرجل يمشي على الماء، ويطير في الهواء فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة». اهـ.

وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ في «الفرقان» (ص12): «ومن حين بعثه الله جَعَلَهُ الفارق بين أوليائه وبين أعدائه، فلا يكون ولياً لله إلا مَنْ آمن به وبما جاء به وَاتَّبَعَهُ باطناً وظاهراً، وَمَنْ ادَّعَى مَحَبَّةَ الله وولايته، وهو لم يَتَّبِعْهُ فليس من أولياء الله، بل مَنْ خَالَفَهُ كان من أعداء الله وأولياء الشيطان؛ قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: 31].

قال الحَسَنُ البَصْرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «ادَّعَى قَوْمٌ أَنَّهُمْ يُحِبُّونَ الله فَأَنْزَلَ اللهُ هذه الآية مِحْنَةً لَهُمْ، وَقَدْ بَيَّنَّ اللهُ فِيهَا أَنَّ مَنْ اتَّبَعَ الرَّسُولَ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّهُ، وَمَنْ ادَّعَى مَحَبَّةَ اللهِ وَلَمْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَيْسَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللهِ.

وَإِنْ كَانَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يَظُنُّونَ فِي أَنْفُسِهِمْ أَوْ فِي غَيْرِهِمْ أَنَّهُمْ أَوْلِيَاءُ اللهِ وَلَا يَكُونُونَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللهِ، فَالْيَهُودُ وَالنَّصَارَى يَدَّعُونَ أَنَّهُمْ أَوْلِيَاءُ اللهِ، وَأَنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ مِنْهُمْ، بَلْ يَدَّعُونَ أَنَّهُمْ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاءُهُ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ﴾ [المائدة: 18]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ [البقرة: 111] إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: 112].

وَكَانَ مُشْرِكُو الْعَرَبِ يَدَّعُونَ أَنَّهُمْ أَهْلُ اللهِ لِسُكْنَاهُمْ مَكَّةَ وَمُجَاوَرَتِهِمُ الْبَيْتَ، وَكَانُوا يَسْتَكْبِرُونَ بِهِ عَلَى غَيْرِهِمْ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تُنْكِرُونَ ۝٦٦ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ﴾ [المؤمنون: 66، 67]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾ [الأنفال: 30] إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَائِهِ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾ [الأنفال: 34].

فَبَيَّنَّ - سُبْحَانَهُ - أَنَّ الْمُشْرِكِينَ لَيْسُوا أَوْلِيَاءَهُ وَلَا أَوْلِيَاءَ بَيْتِهِ، إِنَّمَا أَوْلِيَائُهُ

الْمُتَّقُونَ». اهـ.

أنواع الكرامات:

الكراماتُ على أنواع:

فمنها: ما يكون لحُجَّة في الدِّين، وذلك بتأييد الله لَوَلِيِّه، وَخَرَق العادة له؛ لإظهاره على أعداء الله، وإقامة دين الله، وإحقاق الحق، وإبطال الباطل.

ومنها: ما يكون لحاجة المسلمين بتفريج كُرباتهم، وإجابة دَعواتهم، ودفع عَدُوِّهم وما أشبه ذلك، فيحصل لهم بسبب ذلك من قُوَّة الإيمان والثبات عليه شيءٌ كثيرٌ.

قال شيخ الإسلام - رحمه الله تعالى - في «الفرقان» (ص 120): «وخيارُ أولياء الله كراماتهم لحجة في الدِّين، أو لحاجة بالمسلمين، كما كانت مُعجزات نبيِّهم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كذلك». اهـ.

وقال تلميذه العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في «زاد المعاد» (3 / 548) في بيان فقهه قصة قُدوم وفد دؤس: «ومنها: وقوع كرامات الأولياء، وأنها إنما تكون لحُجَّة في الدِّين، أو لمنفعة للإسلام والمسلمين، فهذه هي الأحوال الرَّحمانية، سببها مُتابعة الرسول، ونتيجتها إظهار الحق وكسر الباطل، والأحوال الشيطانية ضدها سببًا ونتيجة.

وقال شيخ الإسلام - رحمه الله تعالى - في «الفرقان» (ص 128): «ومِمَّا ينبغي أن يُعرف أن الكرامات قد تكون بحسب حاجة الرجل، فإذا احتاج إليها الضعيفُ الإيمان أو المحتاج أتاها منها ما يُقوِّي إيمانه، ويسدُّ حاجته، ويكون من هو أكمل ولاية لله منه مُستغنياً عن ذلك فلا يأتيه مثل ذلك لِعُلُوِّ درجته وغناه

عنها، لا لنقص ولايته، ولهذا كانت هذه الأمور في التابعين أكثر منها في الصحابة بخلاف من يجري على يديه الخوارق لِهْدْي الخلق ولحاجتهم؛ فهؤلاء أعظم درجة». اهـ.

ونستفيد من كلام شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ إضافة إلى ما سبق:

- 1- أنه لا تلازم بين الولاية والكرامة، فقد يكون العبد من أولياء الله ولا تحصل له كرامة مع حصولها لمن هو دونه؛ لعلو درجته، وغناه عن الكرامة.
- 2- أن من أعظم أولياء الله درجة من يجري الله على يديه الخوارق لِهْدَاية الخلق ولحاجتهم.

أقسام الناس في خوارق العادات:

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ في «الفرقان» (ص 139-140):

«والناس في خوارق العادات على ثلاثة أقسام:

قسم يكذب وجود ذلك لغير الأنبياء، ورُبَّمَا صدَّق به مُجْمَلًا، وكَذَّب ما يُذكر له عن كثير من الناس؛ لكونه عنده ليس من الأولياء.

ومِنْهُمْ مَنْ يظن أن كل ما كان له نوع من خرق العادة كان وليًّا لله.

وكلا الأمرين خطأ.

ولهذا نجد أن هؤلاء يذكرون أن للمُشْرِكِينَ وأهل الكتاب نصراء يُعينونهم على قتال المسلمين، وأنهم من أولياء الله، وأولئك يُكذِّبون أن يكون معهم من له خرق عادة.

والصواب: القول الثالث: وهو أن معهم من ينصرهم من جنسهم، لا من أولياء الله عزَّ وجلَّ، كما قال الله تعالى: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ

وَالنَّصَرَىٰ أَوْلِيَآءُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴿[المائدة: 51].

وهؤلاء العباد الزهاد الذين ليسوا من أولياء الله المتقين المتبعين للكتاب والسنة تقترن بهم الشياطين، فيكون لأحدهم من الخوارق ما يُناسب حاله، لكن خوارق هؤلاء يُعارض بعضها بعضاً، وإذا حضر من له تمكُّن من أولياء الله تعالى أبطلها عليهم، ولا بد أن يكون في أحدهم من الكذب جهلاً أو عمداً، ومن الإثم ما يُناسب حال الشياطين المُقترنة بهم؛ لِيُفَرِّقَ اللهُ بذلك بين أوليائه المتقين وبين المُتَشَبِّهين بهم من أولياء الشياطين؛ قال الله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيْطَانُ ﴿٣٣﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿[الشعراء: 221 - 222].

والأفَّاك: الكذاب.

والأثيم: الفاجر.

ومن أعظم ما يُقَوِّي الأحوال الشيطانية سَمَاعُ الغِنَاءِ والمَلاهي، وهو سماع المشركين؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً ﴿[الأنفال: 35].

قال ابن عباس وابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا وغيرهما من السلف: التَّصْدِيَةُ: التَّصْفِيقُ باليد. والمُكَاءُ: مثل الصَّفير؛ فكان المُشْرِكُونَ يَتَّخِذُونَ هذا عبادة.

وأما النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه فَعِبَادَتُهُمْ ما أَمَرَ اللهُ بِهِ مِنَ الصَّلَاةِ والقراءة والذكر ونحو ذلك من الاجتماعات الشرعية، ولم يَجْتَمِعِ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه على استماع غناء قط، لا بِكَفٍّ ولا بِدُفٍّ، ولا تَوَاجُدٍ ولا سَقَطَتْ بُرْدَتُهُ، بل كُلُّ ذَلِكَ كَذِبٌ باتِّفَاقِ أَهْلِ الْعِلْمِ بِحَدِيثِهِ. اهـ.

خوارق العادات قد تجري على أيدي بعض الكفار والمنافقين والمُبتدعين:

قال شيخ الإسلام - رحمه الله تعالى - في «الفرقان» (ص 61 - 64):

«وهذه الأمور الخارقة للعادة - وإن كان قد يكون صاحبها ولياً لله - فقد يكون عدوّاً لله، فإنّ هذه الخوارق تكون لكثير من الكفار والمشرّكين وأهل الكتاب والمنافقين، وتكون لأهل البدع، وتكون من الشياطين، فلا يجوز أن يُظنَّ أن كل من كان له شيء من هذه الأمور أنّه وليّ لله، بل يُعتبر أولياء الله بصفاتهم وأفعالهم وأحوالهم التي دلّ عليها الكتاب والسنة، ويُعرفون بنور الإيمان والقرآن، وبحقائق الإيمان الباطنة وشرائع الإسلام الظاهرة.

مثال ذلك: أنّ الأمور المذكورة وأمثالها قد تُوجد في أشخاص ويكون أحدهم لا يتوضأ، ولا يُصليّ الصلوات المكتوبة، بل يكون مُلابساً للنجاسات، مُعاشراً للكلاب، يأوي إلى الحمّامات والقمامين، والمقابر، والمزابيل، رائحته خبيثة، لا يتطهر الطهارة الشرعية، ولا يتنظّف، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تدخل الملائكة بيتاً فيه جُنُبٌ، ولا كلبٌ».

وقال عن هذه الأخلية: «إنّ هذه الحشوش مُحترضة»، أي: يحضرها الشيطان.

وقال: «من أكل من هاتين الشجرتين الخبيثتين فلا يقربنّ مسجداً؛ فإنّ الملائكة تتأذّى ممّا يتأذى منه بنو آدم»، وقال: «إنّ الله طيّب لا يقبل إلا طيباً».

وقال: «إنّ الله نظيفٌ يُحبّ النظافة»، وقال: «خمس من الفواسق يقتلن في الحلّ والحرم: الحيّة، والفأرة، والحدأة، والكلب العقور»، وفي رواية: «الحيّة والعقرب».

وأمر - صلوات الله وسلامه عليه - بقتل الكلاب، وقال: «من أفتنى كلباً لا

يُغْنِي عَنْهُ زَرْعًا وَلَا ضَرْعًا نَقَصَ مِنْ عَمَلِهِ كُلَّ يَوْمٍ قِيرَاطٌ»، وقال: «لَا تَصْحَبِ الْمَلَائِكَةُ رُفْقَةً مَعَهُمْ كَلْبٌ»، وقال: «إِذَا وَلَعَ الْكَلْبُ فِي إِنَاءٍ أَحَدِكُمْ فَلْيَغْسِلْهُ سَبْعَ مَرَّاتٍ؛ إِحْدَاهُنَّ بِالتُّرَابِ».

وقال تعالى: ﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: 156-157].

فإذا كان الشخصُ مباشرًا للنَّجاسات والخبائث التي يُحِبُّهَا الشَّيْطَانُ، أو يأوي إلى الحَمَامَاتِ والحُشُوشِ التي تحضرها الشياطينُ، أو يأكل الحَيَّاتِ والعقارب والزَّنايير وأذان الكلاب التي هي خبائث وفواسق، أو يشرب البول ونحوه من النَّجاسات التي يُحِبُّهَا الشَّيْطَانُ أو يدعو غير الله فيستغيث بالمخلوقات، ويتوجه إليها، أو يسجد إلى ناحية شيخه، ولا يُخلص الدِّينَ لِرَبِّ العالمين، أو يلبس الكلاب أو النِّيران، أو يأوي إلى المزابل والمواضع النجسة، أو يأوي على المقابر، ولا سِيَّما إلى مقابر الكفار من اليهود والنصارى أو المشركين، أو يكره سماع القرآن، وينفر عنه، ويُقدِّم عليه سماع الأغاني والأشعار، ويؤثر سماع مزامير الشَّيْطَانِ على كلام الرَّحْمَنِ؛ فهذه علامات أولياء الشَّيْطَانِ، لا علامات أولياء الرَّحْمَنِ». اهـ.

الفرق بين كرامات أولياء الرَّحْمَنِ وبين ما يُشبهها من خوارق وأحوال

أولياء الشيطان:

الفروق بينهما كثيرة منها:

1- أن كرامات الأولياء سببها الإيمان والتقوى، والأحوال الشيطانية سببها ما نهى الله عنه ورسوله.

قال شيخ الإسلام- رحمه الله تعالى- في «الفرقان» (ص 132-138):
«وبين كرامات الأولياء وبين ما يُشبهها من الأحوال الشيطانية فروقٌ مُتعددة منها:

أنَّ كرامات الأولياء سببها الإيمان والتقوى، والأحوال الشيطانية سببها ما نهى الله عنه ورسوله، وقد قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 33].

فالقول على الله بغير علم والشرك والظلم والفواحش قد حرّمها الله تعالى ورسوله، فلا تكون سبباً لكرامة الله تعالى ولا يستعان بالكرامات عليها، فإذا كانت لا تحصل بالصلاة والذكر وقراءة القرآن، بل تحصل بما يحبه الشيطان، وبالأمر التي فيها شرك؛ كالأستغاثة بالمخلوقات، أو كانت ممّا يُستعان بها على ظلم الخلق، وفعل الفواحش، فهي من الأحوال الشيطانية لا من الكرامات الرحمانية.

ومن هؤلاء من إذا حَضَرَ سَماع المكاء والتَّصدية يَتَنَزَّل عليه شيطانه حتى يحمله في الهواء، ويُخرجه من تلك الدَّار، فإذا حَضَرَ رجلٌ من أولياء الله تعالى طرد شيطانه فيسقط، كما جرى هذا لغير واحد.

وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يَسْتَعِثُّ بِمَخْلُوقٍ إِمَّا حَيٍّ أَوْ مَيِّتٍ، سَوَاءَ كَانَ ذَلِكَ الْمَخْلُوقُ مُسْلِمًا أَوْ نَصْرَانِيًّا أَوْ مُشْرِكًا فَيَتَصَوَّرُ الشَّيْطَانُ بِصُورَةِ ذَلِكَ الْمُسْتَعِثِّ بِهِ، وَيَقْضِي بَعْضُ حَاجَةِ ذَلِكَ الْمُسْتَعِثِّ، فَيَظُنُّ أَنَّهُ ذَلِكَ الشَّخْصُ أَوْ هُوَ مَلَكٌ تَصَوَّرَ عَلَى صُورَتِهِ، وَإِنَّمَا هُوَ شَيْطَانٌ أَضَلَّهُ لَمَّا أَشْرَكَ بِاللَّهِ، كَمَا كَانَتِ الشَّيَاطِينُ تَدْخُلُ فِي الْأَصْنَامِ، وَتُكَلِّمُ الْمُشْرِكِينَ.

وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يَتَصَوَّرُ لَهُ الشَّيْطَانُ، وَيَقُولُ لَهُ: أَنَا الْخَضِرُ، وَرُبَّمَا أَخْبَرَهُ بِبَعْضِ الْأُمُورِ وَأَعَانَهُ عَلَى بَعْضِ مَطَالِبِهِ، كَمَا قَدْ جَرَى ذَلِكَ لْغَيْرِ وَاحِدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى.

وَكَثِيرٌ مِنَ الْكُفَّارِ بِأَرْضِ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ يَمُوتُ لَهُمُ الْمَيِّتُ، فَيَأْتِي الشَّيْطَانُ بَعْدَ مَوْتِهِ عَلَى صُورَتِهِ، وَهُمْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُ ذَلِكَ الْمَيِّتُ، وَيَقْضِي الدُّيُونَ، وَيُرْدِ الْوَدَائِعَ، وَيَفْعَلُ أَشْيَاءَ تَتَعَلَّقُ بِالْمَيِّتِ، وَيَدْخُلُ إِلَى زَوْجَتِهِ وَيَذْهَبُ.

وَرُبَّمَا يَكُونُونَ قَدْ أَحْرَقُوا مَيِّتَهُمُ بِالنَّارِ - كَمَا تَصْنَعُ كُفَّارُ الْهِنْدِ - فَيَظُنُّونَ أَنَّهُ عَاشَ بَعْدَ مَوْتِهِ.

وَمِنْ هَؤُلَاءِ شَيْخٌ كَانَ بِمِصْرَ أَوْصَى خَادِمَهُ فَقَالَ: إِذَا أَنَا مِتُّ فَلَا تَدْعُ أَحَدًا يُغَسِّلُنِي فَأَنَا أَجِيءُ وَأُغَسَّلُ نَفْسِي، فَلَمَّا مَاتَ رَأَى خَادِمَهُ شَخْصًا فِي صُورَتِهِ، فَاعْتَقَدَ أَنَّهُ هُوَ دَخَلَ وَغُسِّلَ نَفْسَهُ، فَلَمَّا قَضَى ذَلِكَ الدَّخَلَ غُسْلَهُ، أَيُّ: غُسِّلَ الْمَيِّتُ غَابَ، وَكَانَ ذَلِكَ شَيْطَانًا وَكَانَ قَدْ أَضَلَّ الْمَيِّتَ، وَقَالَ: إِنَّكَ بَعْدَ الْمَوْتِ تَجِيءُ فَتُغَسِّلُ نَفْسَكَ، فَلَمَّا مَاتَ جَاءَ - أَيْضًا فِي صُورَتِهِ؛ لِيُغْوِيَ الْأَحْيَاءَ كَمَا أَغْوَى الْمَيِّتَ قَبْلَ ذَلِكَ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَرَى عَرْشًا فِي الْهَوَاءِ وَفَوْقَهُ نُورٌ، وَيَسْمَعُ مَنْ يَخَاطَبُهُ وَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكَ. فَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ عَلِمَ أَنَّهُ شَيْطَانٌ، فَزَجَرَهُ، وَاسْتَعَاذَ بِاللَّهِ مِنْهُ فَيَزُولُ،

وَمِنْهُمْ مَنْ يَرَى أَشْخَاصًا فِي الْيَقْظَةِ يَدَّعِي أَحَدُهُمْ أَنَّهُ نَبِيٌّ أَوْ صَدِّيقٌ أَوْ شَيْخٌ مِنَ الصَّالِحِينَ، وَقَدْ جَرَى هَذَا لَغِيرٍ وَاحِدٍ.

وَهَؤُلَاءِ مِنْهُمْ مَنْ يَرَى ذَلِكَ عِنْدَ قَبْرِ الَّذِي يَزُورُهُ؛ فَيَرَى الْقَبْرَ قَدْ انشَقَّ وَخَرَجَ إِلَيْهِ صُورَةٌ فَيَعْتَقِدُهَا الْمَيِّتَ.

وَإِنَّمَا هُوَ جَنِّيٌّ تَصَوَّرَ بِتِلْكَ الصُّورَةِ وَيَكُونُ شَيْطَانًا، وَكُلٌّ مَنِ قَالَ: إِنَّهُ رَأَى نَبِيًّا بَعِينَ رَأْسَهُ فَمَا رَأَى إِلَّا خَيَالًا.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَرَى فِي مَنَامِهِ أَنَّ بَعْضَ الْأَكَابِرِ إِمَّا الصَّدِّيقَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَوْ غَيْرَهُ قَدْ قَصَّ شَعْرَهُ أَوْ حَلَقَهُ، أَوْ أَلْبَسَهُ طَاقِيَتَهُ أَوْ ثَوْبَهُ فَيُصْبِحُ وَعَلَى رَأْسِهِ طَاقِيَةٌ، وَشَعْرُهُ مَحْلُوقٌ، أَوْ مُقَصَّرٌ، وَإِنَّمَا الْجِنُّ قَدْ حَلَقُوا شَعْرَهُ أَوْ قَصَّوْهُ، وَهَذِهِ الْأَحْوَالُ الشَّيْطَانِيَّةُ تَحْصُلُ لِمَنْ خَرَجَ عَنِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَهُمْ دَرَجَاتٌ.

وَالْجِنُّ الَّذِينَ يَقْتَرِنُونَ بِهِمْ مِنْ جِنْسِهِمْ وَعَلَى مَذْهَبِهِمْ، وَالْجِنُّ فِيهِمُ الْكَافِرُ وَالْفَاسِقُ وَالْمُخْطِئُ، فَإِنَّ كَانَ الْإِنْسِيَّ كَافِرًا أَوْ فَاسِقًا أَوْ جَاهِلًا دَخَلُوا مَعَهُ فِي الْكُفْرِ وَالْفُسُوقِ وَالضَّلَالِ، وَقَدْ يُعَاوَنُونَهُ إِذَا وَافَقَهُمْ عَلَى مَا يَخْتَارُونَهُ مِنَ الْكُفْرِ؛ مِثْلَ الْإِقْسَامِ عَلَيْهِمْ بِأَسْمَاءٍ مَنْ يُعَظِّمُونَهُ مِنَ الْجِنِّ وَغَيْرِهِمْ، وَمِثْلَ أَنْ يَكْتُبَ أَسْمَاءَ اللَّهِ أَوْ بَعْضَ كَلَامِهِ بِالنَّجَاسَةِ، أَوْ يَقْلِبَ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ، أَوْ سُورَةَ الْإِخْلَاصِ، أَوْ سُورَةَ الْكُرْسِيِّ أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ، وَيَكْتُبْنَ بِنَجَاسَةٍ؛ فَيُغَوَّرُونَ لَهُ الْمَاءُ، وَيَنْقَلُونَهُ بِسَبَبِ مَا يُرْضِيهِمْ بِهِ مِنَ الْكُفْرِ، وَقَدْ يَأْتُونَهُ بِمَنْ يَهْوَاهُ مِنْ امْرَأَةٍ أَوْ صَبِيٍّ، إِمَّا فِي الْهَوَاءِ، وَإِمَّا مَدْفُوعًا مُلْجَأًا إِلَيْهِ، إِلَى أَمْثَالِ هَذِهِ الْأُمُورِ الَّتِي يَطُولُ وَصْفُهَا، وَالْإِيمَانُ بِهَا إِيْمَانٌ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ.

وَالْجِبْتُ: السَّحَرُ.

والطاغوت: الشياطين والأصنام.

وإن كان الرجل مُطيعاً لله ورسوله باطناً وظاهراً لم يُمكنهم الدخول معه في ذلك، أو مُسالمة.

ولهذا كانت عبادة المسلمين المَشروعة في المساجد التي هي بيوتُ الله، وكان عُمّار المساجد أبعد عن الأحوال الشيطانية، وكان أهل الشُّرك والبدع الذين يُعظّمون القبورَ ومُشاهد المَوْتَى؛ فيَدْعُونَ المَيِّتَ، أو يَدْعُونَ به، أو يعتقدون أنَّ الدعاء عنده مستجابُّ أقرب إلى الأحوال الشيطانية.

ثم ذكر رَحِمَهُ اللهُ عِدَّةَ أَحاديث في النهي عن اتِّخاذ القبور مَساجِد، والصَّلَاة عندها، واتِّخاذها عيداً، ثُمَّ قال: «وكذلك عُبَاد الأصنام قد تُخاطبهم الشياطين، وكذلك مَنْ استغاثَ بِمَيِّتٍ، أو غائب، وكذلك مَنْ دَعَا المَيِّتَ، أو دعا به، أو ظَنَّ أنَّ الدُّعَاءَ عند قبره أَفْضَلُ منه في البيوت والمساجد، وَيَرُوْن حديثاً هو كَذِبٌ باتِّفاق أهل المَعْرِفة وهو: «إِذَا أُعِيْتُكُمُ الْأُمُورُ فَعَلَيْكُمْ بِأَصْحَابِ الْقُبُورِ»، وإِنَّمَا هذا وَضَعُ مَنْ فَتَحَ بابَ الشُّركِ.

ويُوجد لأهل البدع وأهل الشُّرك المُتَشَبِّهين بهم من عُبَاد الأصنام والنصارى والضَّلال من المسلمين أحوال عند المَشاهد يَظُنُّونها كَرَامَات، وهي من الشياطين، مِثْل أن يَضَعُوا سراويل عند القبر، فيَجِدُونَه قد انْعَقَدَ، أو يُوضَع عنده مصروع فيَرُوْن شيطانه قد فَارَقَه؛ يَفْعَلُ الشيطانُ هذا لِيُضِلَّهُمْ، وإِذَا قُرَأَتْ آيَةُ الكرسيِّ هناك بِصِدْقٍ بطلَ هذا، فإنَّ التوحيدَ يَطْرُدُ الشيطانَ، ولهذا حُمِلَ بعضُهم في الهواء فقال: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فَسَقَطَ، ومِثْل أن يَرى أَحَدُهم أنَّ القبر قد انشَقَّ وخرج منه إنسانٌ فيَظُنُّه المَيِّتَ، وهو شيطانٌ». اهـ.

وقال - رحمه الله تعالى - في المصدر السابق (ص 144): «فإني أعرفُ مَنْ

تُخاطبه النَّبَاتَات بما فيها من المَنَافِع، وإِنَّمَا يُخاطبه الشَّيْطَانُ الَّذِي دَخَلَ فِيهَا، وَأَعْرِفْ مَنْ يُخاطِبُهُمُ الْحَجَرُ وَالشَّجَرُ، وتَقُول: هَنِيئًا لَكَ يَا وَلِيَّ اللَّهِ، فَيَقْرَأُ آيَةَ الْكَرْسِيِّ فَيَذْهَبُ ذَلِكَ.

وَأَعْرِفْ مَنْ يَقْصِدُ صَيْدَ الطَّيْرِ، فَتُخاطبه الْعَصَافِيرُ وَغَيْرُهَا، وتَقُول: خُذْنِي حَتَّى يَأْكُلَنِي الْفُقَرَاءُ، وَيَكُونُ الشَّيْطَانُ قَدْ دَخَلَ فِيهَا، كَمَا يَدْخُلُ فِي الْإِنْسِ وَيُخاطبه بِذَلِكَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ فِي الْبَيْتِ وَهُوَ مُغْلَقٌ فَيَرَى نَفْسَهُ خَارِجَهُ، وَهُوَ لَمْ يَفْتَحْ وَبِالْعَكْسِ، وَكَذَلِكَ فِي أَبْوَابِ الْمَدِينَةِ، وَتَكُونُ الْجِنُّ قَدْ أَدْخَلَتْهُ، وَأَخْرَجَتْهُ بِسُرْعَةٍ، أَوْ تُرِيهِ أَنْوَارًا، وَتَحْضُرُ عِنْدَهُ مَنْ يَطْلُبُهُ، وَيَكُونُ ذَلِكَ مِنَ الشَّيَاطِينِ يَتَصَوَّرُونَ بِصُورَةِ صَاحِبِهِ، فَإِذَا قَرَأَ آيَةَ الْكَرْسِيِّ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ ذَهَبَ ذَلِكَ كُلُّهُ، وَأَعْرِفْ مَنْ يُخاطِبُهُ مُخَاطَبٌ، وَيَقُولُ لَهُ: أَنَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ، وَيَعِدُهُ بِأَنَّهُ الْمَهْدِيُّ الَّذِي بَشَّرَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَيُظْهِرُ لَهُ الْخَوَارِقُ مِثْلَ أَنْ يَخْطُرَ بِقَلْبِهِ تَصَرُّفٌ فِي الطَّيْرِ وَالْجَرَادِ فِي الْهَوَاءِ، فَإِذَا خَطَرَ بِقَلْبِهِ ذَهَابَ الطَّيْرُ أَوْ الْجَرَادُ يَمِينًا أَوْ شِمَالًا ذَهَبَ حَيْثُ أَرَادَ، وَإِذَا خَطَرَ بِقَلْبِهِ قِيَامُ بَعْضِ الْمَوَاشِيِّ، أَوْ نُومُهُ أَوْ ذَهَابُهُ حَصَلَ لَهُ مَا أَرَادَ مِنْ غَيْرِ حَرَكَةٍ مِنْهُ فِي الظَّاهِرِ، وَتَحْمِلُهُ إِلَى مَكَّةَ وَتَأْتِي بِهِ.

وَتَأْتِيهِ بِأَشْخَاصٍ فِي صُورَةٍ جَمِيلَةٍ، وَتَقُولُ لَهُ: هَذِهِ الْمَلَائِكَةُ الْكُرُوبِيُّونَ أَرَادُوا زِيَارَتَكَ، فَيَقُولُ فِي نَفْسِهِ: كَيْفَ تَصَوَّرُوا بِصُورَةِ الْمُرْدَانِ، فَيَرْفَعُ رَأْسَهُ فَيَجِدُهُمْ بِلَحْيٍ، وَيَقُولُ لَهُ: عَلَامَةُ أَنَّكَ الْمَهْدِيُّ أَنَّكَ تَنْبَتَ فِي جَسَدِكَ شَامَةً، فَتَنْبَتُ وَيَرَاهَا وَغَيْرَ ذَلِكَ، وَكُلُّهُ مِنْ مَكْرِ الشَّيْطَانِ». اهـ.

2- مَا يَأْتِي بِهِ السَّحَرَةُ وَالْكُفَّانُ وَكُلُّ مُخَالَفٍ لِلرُّسُلِ يُمَكِّنُ مُعَارَضَتَهُ بِمِثْلِهِ وَأَقْوَى مِنْهُ، أَمَّا آيَاتُ الْأَنْبِيَاءِ وَكَرَامَاتُ الْأَوْلِيَاءِ فَلَا يُمَكِّنُ أَنْ تُعَارِضَ بِمِثْلِهَا، وَلَا بِأَقْوَى مِنْهَا.

قال شيخ الإسلام - رحمه الله تعالى - في «النبوات» (ص 442):

«ما يأتي به السَّحَرَةُ والكُهَّان وكلُّ مُخَالَفٍ للرُّسُل تُمكن معارضته بمثله وأقوى منه، كما هو الواقع لِمَنْ عَرَفَ هذا الباب، وآياتُ الأنبياء لا يُمكن أحدًا أن يُعارضها لا بمثُلها ولا بأقوى منها، وكذلك كراماتُ الصَّالِحِينَ لا تُعارض لا بمثُلها ولا بأقوى منها، بل قد يكون بعضها آيات أكبر من بعض، وكذلك آياتُ الصَّالِحِينَ، لكنها مُتصادقة مُتعاونة على مطلوبٍ واحدٍ، وهو عبادة الله، وتصديق رسله، فهي آياتٌ ودلائلٌ وبراهينُ مُتعاضة على مطلوب واحد، والأدلة بعضها أدلُّ وأقوى من بعض». اهـ.

3- أن كراماتِ الأولياء تقوى بذكرِ الله وتوحيده بخلاف الأحوال الشيطانية، فإنَّها تبطل أو تَضَعُفُ إذا ذُكرَ الله. انظر «مجموع الفتاوى» (287 / 11).

4- أن خوارق السَّحَرَةِ والكُهَّان ونحوهم وأحوالهم تُنال بأفعالهم مِن شَرِكِيَّاتٍ وبدع وفُجُور وما أشبه ذلك، أمَّا كراماتُ الأولياء فلا تحصل بشيءٍ مِن ذلك، بل الله يفعلها آيةً وعلامة يُكرِّمُهم بها.

فائدة: انظر الفُروق بين آياتِ الأنبياء والسَّحر والكهانة في «النبوات» لشيخ الإسلام (ص 439 - 449).

دلالات كرامات الأولياء:

قال العلامة ابن عثيمين - رحمه الله تعالى - في «شرح الواسطية» (ص 631):
«وهذه الكَرَامَاتُ لها أربع دلالات:

أَوَّلًا: بيان كمال قُدرة الله عَزَّوَجَلَّ حيث حَصَلَ هذا الخارق للعادة بأمر الله.

ثانيًا: تكذيب القائلين بأن الطبيعة هي التي تفعل؛ لأنه لو كانت الطبيعة هي التي تفعل لكانت الطبيعة على نسق واحد لا يتغير، فإذا تغيرت العادات والطبيعة دلّ على أن للكون مدبرًا وخالقًا.

ثالثًا: أنها آية للنبي المتبوع، كما أسلفنا قريبًا.

رابعًا: أن فيها تثبيتًا وكرامة لهذا الولي. اهـ.

وقول المصنف رحمه الله: «في أنواع العلوم والمكاشفات وأنواع القدرة والتأثيرات».

قال العلامة الفوزان - حفظه الله - في «شرح الواسطية» (ص 157): «إشارة إلى أن الكرامة منها ما يكون من باب العلم والكشف بأن يسمع العبد ما لا يسمعه غيره، أو يرى ما لا يراه غيره يقظة أو منامًا، أو يعلم ما لا يعلمه غيره، ومنها ما هو من باب القدرة والتأثير.

مثال النوع الأول:

قول عمر: يا سارية، الجبل! وهو بالمدينة، وسارية في المشرق.

وإخبار أبي بكر بأن بطن زوجته أنثى، وإخبار عمر بمن يخرج من ولده فيكون عادلاً، وقصة صاحب موسى وعلمه بحال الغلام.

ومثال النوع الثاني:

قصة الذي عنده علم من الكتاب، وإتيانه بعرش بلقيس إلى سليمان عليه السلام، وقصة أهل الكهف، وقصة مريم، وقصة خالد بن الوليد لما شرب السم، ولم يحصل له منه ضرر. اهـ.

«كَلَّمَائُثُورٍ عَنْ سَالِفِ الْأُمَمِ فِي سُورَةِ الْكَهْفِ وَغَيْرِهَا، وَعَنْ صَدْرِ هَذِهِ الْأُمَّةِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَسَائِرِ قُرُونِ الْأُمَّةِ، وَهِيَ مَوْجُودَةٌ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ».

أي: أن كرامات الأولياء قد حدثت في الأمم السابقة وفي صدر هذه الأمة، ولن تنقطع إلى يوم القيامة؛ فمن الكرامات في الأمم السابقة ما ذكره الله - سبحانه - في كتابه في قصة أصحاب الكهف، وأنهم بقوا في كهفهم ثلاثمائة سنة وتسع سنوات بلا آفة وهم نيام، فإن ذلك كرامة عظيمة لهم.

وهكذا قصة مريم، ومن ذلك: أَنَّهَا حَمَلَتْ وَوَلَدَتْ مِنْ غَيْرِ زَوْجٍ مَعَ كَمَالِ الْعِفَافِ وَالْإِحْصَانِ، وَمِنْ ذَلِكَ مَا قَالَهُ اللَّهُ عَنْهَا: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِئُكُمْ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: 37].

ومن ذلك: ما رواه البخاري في صحيحه في قصة سارة زوجة إبراهيم خليل الله، وكيف نَجَّاهَا اللهُ مِنْ ذَلِكَ الْمَلِكِ الظَّالِمِ الْفَاجِرِ الْكَافِرِ. وما في البخاري - أيضًا - في قصة هاجر أم إسماعيل عليه السلام، وما أكرمها الله به.

ومن ذلك: ما في الصحيحين من قصة أصحاب الغار الثلاثة الذين آووا إلى الغار.

ومن ذلك: ما في الصحيحين من قصة جريج الرّاهب مع أمّه.

ومن ذلك: ما رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بَيْنَا رَجُلٌ بِفَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ فَسَمِعَ صَوْتًا فِي سَحَابَةٍ:

اسْقِ حَديقَةَ فُلانٍ! فَتَنَحَّى ذلك السحابُ، فأفرغ ماءه في حَرَّةٍ، فإذا شَرَجَةٌ من تلك الشراج قد استوعبت ذلك الماء كله، فتتبع الماء، فإذا رجلٌ قائم في حديقته يُحول الماءَ بِمِسْحَاتِهِ. فقال: يا عبد الله، ما اسمُكَ؟ قال: فلان. للاسم الذي سَمِعَ في السحابة. فقال له: يا عبد الله، لِمَ تَسألني عن اسمي؟ فقال: إني سمعتُ صوتًا في السحاب - الذي هذا ماءؤه - يقول: اسْقِ حَديقَةَ فلانٍ لاسمِكَ؛ فما تصنعُ فيها؟ قال: أما إذ قلتَ هذا؛ فإني أنظرُ إلى ما يخرج منها، فأَتصدَّقُ بِثُلْثِهِ، وأَكل أنا وِعيالي ثُلْثًا، وأَرَدُّ فيها ثُلْثَهُ.

وغير ذلك كثير.

وأما كرامات الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؛ فمن ذلك:

ما رواه الإمام مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن أسيد بن حضير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بينما هو ليلة يقرأ في مَرَبِدِهِ إذ جالت فَرَسُهُ، فقرأ، ثم جالت أخرى، فقرأ ثم جالت أيضًا.

قال أسيد: فخشيتُ أن تَطأَ يحيى، فقمْتُ إليها، فإذا مثل الظِّلَّة فوق رأسي فيها أمثال السرج عَرَجَتْ في الجو حتى ما أراها. قال: فغدوتُ على النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقلت: «بينما أنا البارحة من جوف الليل أقرأ في مَرَبِدِي إذ جالت فَرَسِي، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اقْرَأْ ابنَ حُضَيْرٍ». قال: فقرأت، ثم جالت أيضًا، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اقْرَأْ ابنَ حُضَيْرٍ». قال: فقرأت، ثم جالت أيضًا، فقال رسول الله: «اقْرَأْ ابنَ حُضَيْرٍ». قال: فانصرفْتُ، وكان يحيى قريبًا منها خشيتُ أن تَطأَهُ، فرأيت مثل الظِّلَّة فيها أمثال السرج عَرَجَتْ في الجو ما أراها، فقال رسول الله: «تلك الملائكةُ كانت تَسْمَعُ لك، ولو قرأت لأصبحت يراها النَّاسُ ما تستتر منهم».

ومن ذلك: ما رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «بعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عشرة رهط سرّية عَيْنًا، وأمر عليهم عاصم بن ثابت الأنصاري، فانطلقوا حتى إذا كانوا بالهدأة، وهو بين عُسْفان ومكة ذكروا لحَيٍّ من هُذيل يقال لهم: بنو لَحْيَان؛ فنفروا لهم قريبًا من مِثِّي رجل كلهم رَام؛ فاقتصوا آثارهم حتى وَجَدُوا مأكَلَهُمْ تمرًا تزَوَّدوه من المَدِينَةِ فقالوا لهم: هذا تمر يثرب! فاقتصوا آثارهم، فلما رَأَاهُمْ عاصم وأصحابه لجئوا إلى فَدَد، وأحاط بهم القومُ، فقالوا لهم: انزلوا وأعطونا ما بأيديكم، ولكم العهود والميثاق لا نَقْتُل منكم أحدًا، فقال عاصم بن ثابت - أمير السَّرِيَّة - أما أنا فوالله لا أنزل اليوم في ذِمَّة كافر، اللهم أَخْبِرْ عَنَّا نَبِيَّكَ. فَرَمَوْهُمْ بِالنَّبْلِ، فقتلوا عاصمًا في سبعة فنزل إليهم ثلاثة رهط بالعهد والميثاق، منهم خُبَيْب الأنصاري وابن دثنة ورجل آخر، فلما استمكنوا منهم أطلقوا أوتار قِسيِّهِمْ فأوثقوهم، فقال الرجل الثالث: هذا أَوَّلُ الْغَدْرِ، والله لا أصحابكم إِنَّ لي في هؤلاء لأسوة - يريد القتل - وجُرَّوه، وعالجوه على أَنْ يَصْحَبَهُمْ، فَأَبَى، فقتلوه، فانطلقوا بخُبَيْب وابن الدثنة حتى باعوهما بمكة بعد وقعة بدر.

فابتاع خُبَيْبًا بنو الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف، وكان خُبَيْبٌ هو قتل الحارث بن عامر يوم بدر، فلبث خُبَيْب عندهم أسيرًا، فأخبرني عبيدُ الله بن عياض أَنَّ بنت الحارث أخبرته: أَنَّهُمْ حين اجتمعوا استعارَ مِنْهَا مُوسَى يَسْتَجِدُّ بها فأعارته، فأخذ ابنًا لي وأنا غافلة حين أتاه، قالت: فوجدته مُجْلِسَهُ على فَخِذِهِ، والموسى بيده؛ ففرعتُ فزعةً عَرَفَهَا خُبَيْبٌ في وجهي، فقال: تَخْشِين أَنْ أَقْتَلَهُ؟ ما كنتُ لأفعل ذلك.

والله ما رأيتُ أسيرًا قط خيرًا من خُبَيْبٍ، والله لقد وجدته يومًا يأكل من

قطف عنب في يده، وإنه لموثق في الحديد، وما بمكة من ثمر.
وكانت تقول: إنه لرزق من الله رزقه خبيبا؛ فلما خرجوا من الحرم ليقتلوه في
الحل، قال لهم خبيب:

ذروني أرْكَع ركعتين، ثم قال:

لولا أن تظنوا أن ما بي جَزَعُ لَطَوَّلْتُها؛ اللهم أحصهم عدداً.
ولست أبالي حين أقتل مسلماً على أي شق كان في الله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ يُبارك على أوصال شلو ممزَع
فقتله ابن الحارث، فكان خبيب هو سنَّ الركعتين لكل امرئ مسلم قُتل
صبراً.

واستجاب الله لعاصم بن ثابت يوم أُصيب، فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم
أصحابه خبرهم وما أُصيبوا، وبعث ناساً من كفار قريش إلى عاصم حين حُدُّوا
أنه قُتل ليؤتوا بشيء منه يُعرف، وكان قد قتل رجلاً من عظمائهم يوم بدر، فَبعث
على عاصم مثل الظلة من الدبر فحَمته من رسولهم؛ فلم يَقْدروا على أن يَقْطعوا
من لحمه شيئاً.

ومن ذلك: ما رواه البخاري في صحيحه عن أنس رضي الله عنه: أن رجلين
خَرَجَا من عند النبي صلى الله عليه وسلم في ليلة مُظلمة، وإذا نورٌ بين أيديهما حتى
تَفَرَّقَا، فتفرق النورُ معهما.

وقال معمر: عن ثابت، عن أنس: «إنه أُسيد بن حُصير ورجل من الأنصار».
وقال حماد: أخبرنا ثابت، عن أنس كان أُسيد بن حُصير وعباد بن بشر عند
النبي صلى الله عليه وسلم.

ومن ذلك ما رواه البخاري ومسلم عن سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل: أَنَّ أَرْوَى خَاصَمْتَهُ فِي بَعْضِ دَارِهِ، فَقَالَ: «دَعُوهَا وَإِيَّاهَا، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَنْ أَخَذَ شَبْرًا مِنَ الْأَرْضِ بِغَيْرِ حَقِّهِ طَوَّقَهُ فِي سَبْعِ أَرْضِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، اللَّهُمَّ إِن كَانَتْ كَاذِبَةً فَأَعْمِ بَصَرَهَا، واجعل قبرها في دارها.

قال: فرأيتها عمياء تلمس الجدر تقول: أصابتنني دعوة سعيد بن زيد، فبينما هي تمشي في الدار مررت على بئر في الدار، فوقعت فيها، فكانت قبرها.

ومن ذلك: ما رواه مسلم في صحيحه عن مُطَرِّف قال: قال لي عمران بن حصين: أُحَدِّثُكَ حَدِيثًا عَنِ اللَّهِ أَنْ يَنْفَعَكَ بِهِ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَمَعَ بَيْنَ حَجَّةٍ وَعُمْرَةٍ، ثُمَّ لَمْ يَنْهَ حَتَّى مَاتَ، وَلَمْ يَنْزَلْ فِيهِ قُرْآنٌ يُحَرِّمُهُ، وَقَدْ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ حَتَّى اكْتَوَيْتُ فَتَرَكْتُ، ثُمَّ تَرَكْتُ فَعَادَ.

ومعنى قوله: «كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ»: أَنَّ الْمَلَائِكَةَ كَانَتْ تُسَلِّمُ عَلَيْهِ، فَلَمَّا اكْتَوَيْتُ تَرَكْتُ الْمَلَائِكَةَ السَّلَامَ عَلَيْهِ، فَلَمَّا تَرَكَ الْكَيِّ عَادَتْ فَسَلَّمَتْ عَلَيْهِ.

ومما جاء في كرامات التابعين فمن بعدهم:

روى الإمام مسلم في صحيحه أَنَّ أَهْلَ الْكُوفَةِ وَفَدُوا إِلَى عُمَرَ، وَفِيهِمْ رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ يَسْخَرُ بِأُوَيْسٍ، فَقَالَ عُمَرُ: هَلْ هُنَا أَحَدٌ مِنَ الْقَرْنَيْنِ؟ فَجَاءَ ذَلِكَ الرَّجُلُ، فَقَالَ عُمَرُ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ قَالَ: «إِنَّ رَجُلًا يَأْتِيكُمْ مِنَ الْيَمَنِ يُقَالُ لَهُ: أُوَيْسٌ، لَا يَدْعُ بِالْيَمَنِ غَيْرَ أُمَّ لَهْ، وَقَدْ كَانَ بِهِ بِيَاضٌ فَدَعَا اللَّهَ فَأَذْهَبَهُ عَنْهُ إِلَّا مَوْضِعَ الدِّينَارِ أَوْ الدَّرْهَمِ؛ فَمَنْ لَقِيَهِ مِنْكُمْ فَلْيَسْتَغْفِرْ لَكُمْ».

وفي البخاري عن علقمة قال: «قَدِمْتُ الشَّامَ فَصَلَّيْتُ رَكَعَتَيْنِ، ثُمَّ قُلْتُ: اَللّٰهُمَّ يَسِّرْ لِي جَلِيسًا صَالِحًا، فَأَتَيْتُ قَوْمًا فَجَلَسْتُ إِلَيْهِمْ، فَإِذَا شَيْخٌ قَدْ جَاءَ حَتَّى

جَلَسَ إِلَى جَنْبِي، قُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: أَبُو الدَّرْدَاءِ. فَقُلْتُ: إِنِّي دَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يُسِّرَ لِي جَلِيسًا صَالِحًا؛ فَيَسِّرْكَ لِي».

وقال يعقوب الفسوي في «المعرفة والتاريخ» (2/380): «حدثنا أبو اليمان، حدثنا صفوان، عن سليم بن عامر الخبائري: أَنَّ السَّمَاءَ قَحَطَتْ؛ فخرج معاويةُ بن أبي سفيان وأهل دِمَشْقَ يَسْتَسْقُونَ، فلما قَعَدَ مُعَاوِيَةُ عَلَى الْمِنْبَرِ، قال: أين يزيدُ بن الأسود الجُرْشِيُّ؟ فناداه النَّاسُ، فأقبل يتخطى النَّاسَ، فأمره مُعَاوِيَةُ فَصَعِدَ الْمِنْبَرِ، فَقَعَدَ عِنْدَ رِجْلَيْهِ، فقال معاويةُ: اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْتَشْفَعُ إِلَيْكَ الْيَوْمَ بِخَيْرِنَا وَأَفْضَلِنَا، اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْتَشْفَعُ إِلَيْكَ بِزَيْدِ بْنِ الْأَسْوَدِ الْجُرْشِيِّ، يَا زَيْدُ، ارفع يديكَ إِلَى اللَّهِ! فَرَفَعَ زَيْدٌ يَدَيْهِ، وَرَفَعَ النَّاسُ أَيْدِيَهُمْ، فَمَا كَانَ أَوْشَكَ أَنْ فَارَتْ سَحَابَةٌ فِي الْغَرْبِ كَأَنَّهَا تُرْسٌ، وَهَبَّتْ لَهَا رِيحٌ فَسَقَيْنَا حَتَّى كَادَ النَّاسُ أَنْ لَا يَبْلُغُوا مَنَازِلَهُمْ».

قال العلامة الألباني في «الإرواء» (3/140): «إسناده صحيح».

وفي «السَّيَر» لِلدَّهْبِيِّ (12/126): «قال أبو أحمد بن الناصح: سمعتُ مُحَمَّدَ بْنَ حَامِدَ بْنِ السَّرِيِّ - وَقُلْتُ لَهُ: لِمَ لَا تَقُولُ فِي مُحَمَّدِ بْنِ الْمُثَنَّى إِذَا ذَكَرْتَهُ: الزَّيْمَنُ - كَمَا يَقُولُ الشُّيُوخُ؟ فَقَالَ: لَمْ أَرَهُ زَمِنًا، رَأَيْتُهُ يَمْشِي فَسَأَلْتُهُ، فَقَالَ: كُنْتُ فِي لَيْلَةٍ شَدِيدَةِ الْبَرْدِ فَجَثَوْتُ عَلَى يَدَيَّ وَرِجْلَيَّ، فَتَوَضَّأْتُ وَصَلَّيْتُ رَكَعَتَيْنِ، وَسَأَلْتُ اللَّهَ فَقَمْتُ أَمْشِي. قَالَ: فَرَأَيْتُهُ يَمْشِي، وَلَمْ أَرَهُ زَمِنًا».

حكاية صحيحة رواها السلفي عن الرازي: أخبرنا أبو القاسم علي بن مُحَمَّدٍ الْفَارَسِيُّ، حَدَّثَنَا ابْنُ النَّاصِحِ. اهـ.

وذكر الخطيب في «التاريخ» (2/164): «أَنَّ الرَّحْلَةَ فِي طَلَبِ الْحَدِيثِ جَمَعَتْ بَيْنَ مُحَمَّدِ بْنِ جَرِيرٍ وَمُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ خَزِيمَةَ وَمُحَمَّدِ بْنِ نَصْرِ

المروزي ومحمد بن هارون الروياني بمصر؛ فأزملوا، ولم يبق عندهم ما يقوتهم، وأصرَّ بهم الجوع، فاجتمعوا ليلة في منزل كانوا يأوون إليه، فاتفق رأيهم على أن يستهموا، ويضربوا القرعة؛ فمن خرجت عليه القرعة سأل لأصحابه الطعام، فخرجت القرعة على محمد بن إسحاق بن خزيمة، فقال لأصحابه: أمهلوني حتى أتوضأ وأصلي صلاة الخيرة! قال: فاندفع في الصلاة فإذا هم بالشموع وخصبي من قبل والي مصر يدق الباب، ففتحوا الباب، فنزل عن دابته فقال: أيكم محمد بن نصر؟ فقيل: هو ذا. فأخرج صرة فيها خمسون ديناراً، فدفعها إليه، ثم قال: أيكم محمد بن جرير؟ فقالوا: هو هذا. فأخرج صرة فيها خمسون ديناراً، فدفعها إليه، ثم قال: أيكم محمد بن هارون؟ فقالوا: هو ذا. فأخرج صرة فيها خمسون ديناراً، فدفعها إليه، ثم قال: أيكم محمد بن إسحاق بن خزيمة؟ فقالوا: هو ذا يصلي، فلما فرغ دفع إليه الصرة وفيها خمسون ديناراً، ثم قال: إن الأمير كان قائلاً بالأمس، فرأى في المنام خيلاً قال: إن المحامد طووا كشحهم جيعاً؛ فأنفذ إليكم هذه الصرار، وأقسم عليكم إذا نفذت فابعثوا إلي أميكم. اهـ.

وهاك الآن بعض الأحوال الشيطانية المُشتملة على الزندقة والفجور، ويُسميها أصحابها كرامات:

ذكر الشعراني في «طبقات الصوفية» ما يُعدُّونه من كرامات الأولياء، ومن ذلك ما يلي:

1- وكان سيدي بركات الخياط رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يلبس الشَّاش المُخطط كعمامة النَّصارى، وكان دكانه مُنتنًا قَدْرًا؛ لأنَّ كُلَّ كلبٍ وجَدَه مَيِّتًا أو خروفاً يأتي به فيضعه داخل الدكان، فكان لا يستطيع أحدٌ أن يجلس عنده، وأنه تَوَجَّه إلى المسجد فوجد في الطريق مِسْقاة كِلاب، فتَطَهَّر فيها، ثم وقع في مَشَخَّة حمير.

2- وكان الشيخ علي أبو خودة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا رأى امرأة أو أُمْرَدَ رَاوَدَهُ عن نفسه، وَحَسَّسَ عَلَى مَقْعَدَتِهِ، سواء كان ابنَ أمير أو ابن وزير، ولو كان بِحَضْرَةِ والدِهِ أو غيره، ولا يلتفت إلى الناس.

3- ويتحدث الشَّعراني عن سَيِّدِهِ (علي وحيش)؛ فيقول: وكان إذا رأى شيخ بلد أو غيره يُنْزِلُهُ من على الحِمَارَةِ، ويقول له: أمسك رأسها حتى أفعل بها، فإن أباي شيخُ البلد تَسَمَّرَ في الأرض لا يستطيع أن يَمْشِيَ خُطْوَةً.

4- يقول الشَّعراني عن سَيِّدِهِ مُحَمَّدَ الخُضْري: أخبرني الشيخُ أبو الفضل السُرسِي أَنَّهُ جاءهم يوم الجمعة فسألوه الخُطْبَةَ؛ فَطَلَعَ على المنبر، وَحَمِدَ الله، وَأَثْنَى عليه وَحَدَّه، ثم قال: وأشهد أن لا إله لكم إلا إبليس عليه الصَّلَاة والسَّلَام. فقال الناس: كَفَرَّ.

فَسَلَّ السيفَ وَنَزَلَ، وَهَرَبَ النَّاسُ كلهم من الجامع، فجلس على المنبر إلى أذان العصر، وما تجرأ أحدٌ أن يدخل الجامع، ثم جاء بعض أهالي البلاد المجاورة، فأخبر أهل كل بلدة أَنَّهُ خَطَبَ عندهم، وَصَلَّى فيهم، فَعَدَدْنَا له ذلك اليوم ثلاثين خُطْبَةً، هذا ونحن نراه جالساً عندنا في الخُطْبَةَ». اهـ. «الصوفية في ميزان الإسلام» (ص 27-28).

وذكر ابن الحاج - رحمه الله تعالى - في «المدخل» (3/ 215): «أنه حُكي عن بعض المُريدين أَنَّهُ كان يَحْضُرُ مَجْلِسَ شَيْخِهِ، ثم انقطع، فَسَأَلَ الشَّيْخُ عنه، فقالوا له: هو في عافية. فأرسل خلفه فَحَضَرَ، فسأله ما الموجب لانقطاعك؟ فقال: يا سَيِّدِي، كنت أَجِيءُ لِكَيِّ أَصِلَ، والآن قد وصلت؛ فلا حاجة تدعو إلى الحضور.

فسأله عن كيفية وُصوله؛ فأخبره أنّه في كل ليلة يُصَلِّي ورده في الجنّة. فقال له الشيخ: يا بُني، والله ما دخلتها أبداً؛ فلعلك أن تتفضل عليّ فتأخذني معك لعلّي أن أدخلها كما دخلتها أنت.

قال: نعم. فَبَاتَ الشيخُ عند المُريد، فلما أن كان بعد العشاء جاء طائرٌ فنزل عند الباب، فقال المُريد للشيخ: هذا الطائر الذي يَحْمِلُنِي في كُلِّ ليلة على ظَهْرِهِ إلى الجنّة، فَرَكِبَ الشيخُ والمُريد على ظَهر الطائر، فطار بهما ساعة، ثم نزل بهما في موضع كثير الشجر، فقام المريد لِيُصَلِّي، وقعد الشيخ. فقال له المريد: يا سيّدي، أما تقوم الليلة؟

فقال الشيخ: يا بُني، الجنّة هذه، وليس في الجنّة صلاة. فبقي المريد يُصَلِّي، والشيخ قاعدٌ فلمّا أن طلع الفجر جاء الطائر ونزل. فقال المريد للشيخ: قُمْ بنا نرجع إلى موضعنا.

فقال له الشيخ: اجلس ما رأيتُ أحداً يدخل الجنّة، ويخرج منها. فجعل الطائر يضرب بأجنحته ويصيح حتى أراهم أنّ الأرض تتحرك بهم، فبقي المريد يقول للشيخ: قُمْ بنا؛ لئلا يجري علينا منه شيء.

فقال له الشيخ: هذا يضحك عليك يريد أن يُخرجك من الجنّة؛ فاستفتح الشيخُ يقرأ القرآن فذهب الطائر، وبقياً كذلك إلى أن تبين الضوء، وإذا هو على مَزبلة، والعذرة والنجاسات حولهما؛ فَصَفَعَ الشيخُ المريد، وقال له: هذه الجنّة التي أَوْصَلَكَ الشَّيْطَانُ إليها، قم فاحضر مع إخوانك، أو كما جرى». اهـ.



«ثُمَّ مِنْ طَرِيقَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ اتَّبَاعُ آثارِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَاطِنًا وَظَاهِرًا، وَاتِّبَاعُ سَبِيلِ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَاتِّبَاعُ وَصِيَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، حَيْثُ قَالَ: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِدِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ؛ فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ».

وَيَعْلَمُونَ أَنَّ أَصْدَقَ الْكَلَامِ كَلَامُ اللَّهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ».

في هذه الفقرة من كلام شيخ الإسلام - رحمه الله تعالى - وما بعدها إلى قوله: «كَثُرَ الْاِخْتِلَافُ، وَانْتَشَرَ فِي الْأُمَّةِ» بيان لمنهج التلقي والاستدلال عند أهل السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ بخلاف أهل البدع والأهواء الذين يَعمدون في ذلك على عقولهم وأهوائهم، أو الأذواق والمنامات، أو آراء الرجال والأقيسة الفاسدة، وما أشبه ذلك.

قال العلامة السَّعْدِي - رحمه الله تعالى - في «التَّنبِهَاةِ اللَّطِيفَةِ» (ص 103): «لَمَّا ذَكَرَ طَرِيقَةَ أَهْلِ السُّنَّةِ فِي مَسَائِلِ الْأَصُولِ الْمُعِينَةِ ذَكَرَ طَرِيقَهُمُ الْكُلِّيَّ فِي أَخْذِ دِينِهِمْ؛ أَصُولَهُ وَفُرُوعَهُ، وَأَنَّهُمْ سَلَكُوا فِي ذَلِكَ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ وَالْعِصْمَةَ النَّافِعَةَ: الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ، وَاتَّبَعُوا أَعْظَمَ النَّاسِ مَعْرِفَةً وَعِلْمًا وَاتِّبَاعًا لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ؛ وَهُمْ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عَمُومًا، وَالْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ خُصُوصًا؛ فَسَلَكُوا إِلَى اللَّهِ ذَلِكَ الطَّرِيقَ مُسْتَصْحِبِينَ هَذِهِ الْأَصُولَ الْجَلِيلَةَ، وَمَا جَاءَهُمْ مِمَّا قَالَهُ النَّاسُ أَوْ ذَهَبُوا إِلَيْهِ مِنَ الْمَقَالَاتِ وَزَنُّوهُ بِمَعْيَارِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَإِجْمَاعِ الصَّحَابَةِ وَالْقُرُونِ الْمُفَضَّلَةِ؛ فَاسْتَقَامَتْ طَرِيقَتُهُمْ، وَسَلِمُوا مِنْ بَدْعِ الْأَقْوَالِ الْمُخَالَفَةِ لَهَا

عليه الرسول وأصحابه في الاعتقادات، كما سلموا من بدع الأعمال، فلم يتعبدوا ولم يشرعوا إلا ما شرعه الله ورسوله». اهـ.

وهاك كلامًا عظيمًا نفيسًا في بيان طريقة أهل السنة والجماعة وصفاتهم.

قال العلامة ابن القيم - رحمه الله تعالى - كما في «مختصر الصواعق» (ص 570 - 576): «قال أبو المظفر السمعاني: كل فريق من المبتدعة يعتقد أن ما يقوله هو الحق الذي كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه؛ لأن كلهم يدعون شريعة الإسلام، ملتزمون في الظاهر شعارها، يرون أن ما جاء به محمد هو الحق غير أن الطرق تفرقت بهم بعد ذلك، وأحدثوا في الدين ما لم يأذن به الله ورسوله صلى الله عليه وسلم؛ فزعم كل فريق أنه هو المتمسك بشريعة الإسلام، وأن الحق الذي قام به رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي يعتقده ويتحله، غير أن الله - تعالى - أبى أن يكون الحق والعقيدة الصحيحة إلا مع أهل الحديث والآثار؛ لأنهم أخذوا دينهم وعقائدهم خلفًا عن سلف، وقرنًا عن قرن إلى أن انتهوا إلى التابعين، وأخذوا التابعون عن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، وأخذوا الصحابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا طريق إلى معرفة ما دعا إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس من الدين المستقيم والصراط القويم إلا هذا الطريق الذي سلكه أصحاب الحديث، وأما سائر الفرق فطلبوا الدين بغير طريقه؛ لأنهم رجعوا إلى معقولهم وخواطرهم وآرائهم، فإذا سمعوا شيئًا من الكتاب والسنة عرضوه على معيار عقولهم، فإن استقام لهم قبلوه، وإن لم يستقم في ميزان عقولهم ردّوه، فإن اضطروا إلى قبوله حرّفوه بالتأويلات البعيدة والمعاني المستكرهة؛ فحادوا عن الحق، وزاغوا عنه، ونبدوا الدين وراء ظهورهم، وجعلوا السنة تحت أقدامهم.

وأما أهل السنة فجعلوا الكتاب والسنة أمامهم، وطلبوا الدين من قبلها، وما وقع لهم من معقولهم وخواطهم وآرائهم عرّضوه على الكتاب والسنة، فإن وجدوه مخالفاً لهما تركوا ما وقع لهم، وأقبلوا على الكتاب والسنة ورجعوا بالثهمة على أنفسهم، فإن الكتاب والسنة لا يهديان إلا إلى الحق، ورأي الإنسان قد يكون حقاً وقد يكون باطلاً، وهذا قول أبي سليمان الداراني، وهو أوحّد أهل زمانه، قال: ما حدّثني نفسي بشيء إلا طلبت عليه شاهدين من الكتاب والسنة، فإن أتى بهما وإلا ردّدته.

ومِمّا يدلُّ على أن أهل الحديث على الحق أنك لو طالعت جميع كتبهم المصنّفة من أولها إلى آخرها قديمها وحديثها - وجدتها مع اختلاف بلدانهم وزمانهم، وتباعد ما بينهم في الديار، وسكون كل واحد منهم قُطراً من الأقطار - في باب الاعتقاد على وتيرة واحدة، ونمط واحد؛ يجرون فيه على طريقة لا يحيدون عنها، ولا يميلون عنها، قلوبهم في ذلك على قلب واحد، ونقلهم لا ترى فيه اختلافاً ولا تفرّقا في شيء ما وإن قلّ.

بل لو جمعت ما جرى على ألسنتهم، ونقلوه عن سلفهم وجدته كأنه جاء عن قلب واحد، وجرى على لسان واحد.

وهل على الحق دليل أبين من هذا؟! قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَانُ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 82]، وقال تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: 103].

وأما إذا نظرت إلى أهل البدع رأيتهم متفرقين مختلفين شيعاً وأحزاباً لا تكاد تجد اثنين منهم على طريقة واحدة في الاعتقاد؛ يُبدّع بعضهم بعضاً، بل

يَرْتَقُونَ إِلَى التَّكْفِيرِ، يُكْفِّرُ الابْنُ أَبَاهُ، وَالْأَخُ أَخَاهُ، وَالْجَارُ جَارَهُ، وَتَرَاهُمْ أَبَدًا فِي تَنَازُعٍ وَتَبَاغُضٍ وَاخْتِلَافٍ؛ تَنْقُضِي أَعْمَارَهُمْ وَلَمْ تَتَّفِقْ كَلِمَاتِهِمْ؛ ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: 14].

وهل على الباطل أظهر من هذا؟! قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيْعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ﴾ [الأنعام: 159]، فَبَرَأَ اللَّهُ رَسُولَهُ مِنْ أَهْلِ التَّفَرُّقِ وَالْاخْتِلَافِ.

وكان السبب في اتفاق أهل الحديث: أَنَّهُمْ أَخَذُوا الدِّينَ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَطَرِيقِ النُّقْلِ فَأَوْرَثَهُمُ الْإِتِّفَاقُ وَالْإِتِّتْلَافُ، وَأَهْلُ الْبِدْعِ أَخَذُوا الدِّينَ مِنْ عَقُولِهِمْ فَأَوْرَثَهُمُ التَّفَرُّقُ وَالْاخْتِلَافُ، فَإِنَّ النُّقْلَ وَالرِّوَايَةَ مِنَ الثَّقَاتِ قَلَمَّا تَخْتَلَفُ، وَإِنْ اخْتَلَفَتْ فِي لَفْظَةٍ أَوْ كَلِمَةٍ فَذَلِكَ الْاخْتِلَافُ لَا يَضُرُّ الدِّينَ، وَلَا يَقْدَحُ فِيهِ.

وَأَمَّا الْمَعْقُولَاتُ وَالْخَوَاطِرُ وَالْآرَاءُ فَقَلَمَّا تَتَّفِقُ، بَلْ عَقْلٌ كُلُّ وَاحِدٍ وَرَأْيُهُ وَخَاطِرُهُ يُرِي صَاحِبَهُ غَيْرَ مَا يَرَى الْآخَرُ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: أَنْتُمْ سَمَّيْتُمْ أَنْفُسَكُمْ أَهْلَ السُّنَّةِ، وَمَا نَرَاكُمْ فِي ذَٰلِكَ إِلَّا مُدَّعِينَ؛ لَأَنَّا وَجَدْنَا كُلَّ فِرْقَةٍ مِنَ الْفِرَقِ تَتَّحِلُ اتِّبَاعَ السُّنَّةِ، وَتَنْسَبُ مَنْ خَالَفَهَا إِلَى الْبِدْعَةِ، وَلَيْسَ عَلَى أَصْحَابِكُمْ مِنْهَا سَمَةٌ وَعَلَامَةٌ أَنَّهُمْ أَهْلُهَا دُونَ مَنْ خَالَفَهَا مِنْ سَائِرِ الْفِرَقِ، وَكَلْنَا فِي انْتِحَالِ هَٰذَا اللَّقْبِ شُرَكَاءُ مُتَكَفِّئُونَ، وَلَسْتُمْ بِأُولَىٰ هَٰذَا اللَّقْبِ إِلَّا أَنْ تَأْتُوا بِدَلَالَةٍ ظَاهِرَةٍ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، أَوْ مِنْ إِجْمَاعٍ، أَوْ مِنَ الْمَعْقُولِ.

فَالْجَوَابُ: أَنَّ الْأَمْرَ عَلَى مَا زَعَمْتُمْ أَنَّهُ لَا يَصِحُّ لِأَحَدٍ دَعْوَى إِلَّا بِبَيِّنَةٍ عَادِلَةٍ، أَوْ بِدَلَالَةٍ ظَاهِرَةٍ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَهَمَّا لَنَا قَائِمَتَانِ بِحَمْدِ اللَّهِ.

ومنه: قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَأَنْهَوْا﴾ [الحشر: 7]؛ فأمرنا باتباعه وطاعته فيما سنّه وأمر به وما نهى عنه وما حكم به.

وقال صلى الله عليه وسلم: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي»، وقال: «مَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»، فعرفنا سُنَّتَهُ، ووجدنا بهذه الآثار المُشْتَهَرَة التي رُوِيَتْ بالأسانيد الصحيحة المُتَّصِلَة التي نقلها حُفَظ العلماء وثقاتهم بعضهم عن بعض.

ثُمَّ نَظَرْنَا فَرَأَيْنَا فِرْقَة أَصْحَابِ الْحَدِيثِ لَهَا أَطْلَبُ، وَفِيهَا أَرْغَبُ، وَلَهَا أَجْمَعُ، وَلِأَصْحَابِهَا أَتْبَعُ؛ فَعَلِمْنَا يَقِينًا أَنََّّهُمْ أَهْلُهَا دُونَ مَنْ عَدَاهُمْ مِنْ جَمِيعِ الْفِرَقِ، فَإِنَّ صَاحِبَ كُلِّ حِرْفَةٍ أَوْ صِنَاعَةٍ إِنْ لَمْ يَكُنْ مَعَهُ آلَاتُ الصَّنَاعَةِ وَالْحِرْفَةِ شَهِدَتْ لَهُ تِلْكَ الْآلَاتُ، بَلْ شَهِدَ لَهُ كُلُّ مَنْ عَايَنَهُ قَبْلَ الْإِخْتِبَارِ.

كَمَا إِذَا رَأَيْتَ رَجُلًا قَدْ فَتَحَ بَابَ دُكَّانِهِ عَلَى بَزٍّ عَلِمْتَ أَنَّهُ بَزَّازٌ، أَوْ عَلَى تَمَرٍ عَلِمْتَ أَنَّهُ تَمَارٌ، أَوْ عَلَى عَطَرٍ عَلِمْتَ أَنَّهُ عَطَّارٌ، وَإِذَا رَأَيْتَ بَيْنَ يَدَيْهِ الْكَبِيرَ وَالسِّنْدَانَ وَالْمَطْرَقَةَ عَلِمْتَ أَنَّهُ حَدَّادٌ.

وَكُلُّ صَاحِبِ صَنْعَةٍ يُسْتَدِلُّ عَلَى صِنَاعَتِهِ بِآلَتِهِ، فَحَكَمَ لَهُ بِهَا بِالْمُعَايَنَةِ مِنْ غَيْرِ إِخْتِبَارٍ.

فَلَوْ رَأَيْتَ بَيْنَ يَدَيْ إِنْسَانٍ قَدُومًا أَوْ مَنُشَارًا أَوْ مِثْقَبًا، وَهُوَ مُسْتَعِدٌّ لِلْعَمَلِ بِهَا، ثُمَّ سَمَّيْتَهُ خِيَاطًا جَهِلْتَ، وَلَوْ قَالَ صَاحِبُ التَّمْرِ لَصَاحِبُ الْعَطَرِ: أَنَا عَطَّارٌ، وَصَاحِبُ الْبِنَاءِ لِلْبَزَّازِ: أَنَا بَزَّازٌ؛ لَقَالَ لَهُ: كَذَبْتَ، وَصَدَّقَهُ النَّاسُ عَلَى تَكْذِيبِهِ.

ثُمَّ كُلُّ صَاحِبِ صَنْعَةٍ وَحِرْفَةٍ يَفْتَخِرُ بِصِنَاعَتِهِ، وَيُجَالِسُ أَهْلَهَا، وَيَأْلَفُهُمْ وَيَسْتَفِيدُ مِنْهُمْ، وَيَحْرَصُ عَلَى بُلُوغِ الْغَايَةِ فِي صِنَاعَتِهِ، وَأَنْ يَكُونَ فِيهَا أَسْتَادًا،

ورأينا أصحاب الحديث قديماً وحديثاً هم الذين رحلوا في هذه الآثار، وطلبوا فأخذوها من معادنها، وحفظوها واغتبطوا بها، ودَعَوْا إلى اتِّباعها، وعابوا من خالفهم.

وكَثُرَتْ عندهم وفي أيديهم حتى اشتهروا بها، كما يشتهر أصحاب الحرف والصناعات بصناعتهم وحرفهم.

ثم رأينا قومًا انسلخوا من حفظها ومعرفتها، وتنكبُّوا عن اتِّباع صحيحها وشهيرها، وغنَّوا عن صحبة أهلها، وطعنوا فيها وفيهم، وزهدوا النَّاسَ في حقِّها، وضربوا لها ولأهلها أسوأ الأمثال، ولَقَّبُوهم أقبح الألقاب؛ فسَمَّوهم نَوَاصِب، ومُشَبَّهَة، وحَشَوِيَّة، ومُجَسِّمَة، فعلمنا بهذه الدلائل الظاهرة والشواهد القائمة أنَّ أولئك أَحَقُّ بها من سائر الفرق.

ومعلوم: أنَّ الاتِّباع هو الأخذ بسنة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التي صَحَّت عنه، والخضوع لها والتسليم لأمر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ووجدنا أهل الأهواء بِمَعْزِلٍ عن ذلك، فهذه علامة ظاهرة ودليل واضح يشهد لأهل السُّنَّة باستحقاقها، وعلى أهل البدع والأهواء بأنَّهم ليسوا من أهلها.

قلتُ - ابن القيم -: ولهم علاماتٌ أُخَر منها: أنَّ أهل السُّنَّة يَتَرَكُون أقوال النَّاس لها، وأهل البدع يَتَرَكُونها لأقوال النَّاس.

ومنها: أنَّ أهل السُّنَّة يَعْرَضُونَ أقوال النَّاس عليها؛ فما وافقها قَبِلُوها، وما خالفها طَرَحُوها، وأهل البدع يَعْرَضُونها على آراء الرجال، فما وَافَق آراءهم منها قَبِلُوها، وما خالفها تَرَكُوها وتَأَوَّلُوها.

ومنها: أنَّ أهل السُّنَّة يَدْعُونَ عند التَّنازع إلى التَّحَاكُم إليها دون آراء الرجال

وعقولها، وأهل البدع يدعون إلى التحاكم إلى آراء الرجال ومَعقولاتها.

ومنها: أن أهل السنة إذا صَحَّتْ لهم السنة عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يتوقفوا عن العمل بها واعتقاد موجبها على أن يوافقها موافق، بل يُبادرون إلى العمل بها من غير نظرٍ إلى مَنْ وافقها، أو خالفها.

وقد نصَّ الشافعيُّ على ذلك في كثيرٍ من كتبه، وعاب على مَنْ يقول: لا أعمل بالحديث حتى أعرف مَنْ قال به، وذهب إليه.

بل الواجب على مَنْ بلغته السنة الصحيحة أن يقبلها، وأن يُعاملها بما كان يعاملها به الصحابة حين يسمعونها من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فيُنزل نفسه منزلة مَنْ سمعها منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال الشافعي: «أجمع الناس على أن مَنْ استبانت له سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يكن له أن يدعها لقول أحد».

وهذا من أعظم علامات أهل السنة: أنهم لا يتركونها إذا ثبتت عندهم لقول أحدٍ من الناس كائناً مَنْ كان.

ومنها: أنهم لا ينتسبون إلى مقالة معينة، ولا إلى شخصٍ مُعينٍ غير الرسول، فليس لهم لقبٌ يُعرفون به، ولا نسبةٌ ينتسبون إليها إذا انتسب سواهم إلى المقالات المُحدثة وأربابها، كما قال بعضُ أئمة أهل السنة وقد سئل عنها؛ فقال: «السنة: ما لا اسم له سوى السنة».

وأهل البدع ينتسبون إلى المقالة تارة؛ كالقدرية والمُرجئة، وإلى القائل تارة كالحاشمية والتجارية والضرارية، وإلى الفعل تارة؛ كالخوارج والروافض.

وأهل السنة بريئون من هذه النسب كلها، وإنما نسبتهم إلى الحديث

والسنة.

ومنها: أن أهل السنة إنما ينصرون الحديث الصحيح والآثار السلفية، وأهل البدع ينصرون مقالاتهم ومذاهبهم.

ومنها: أن أهل السنة إذا ذكروا السنة، وجردوا الدعوة إليها نفرت من ذلك قلوب أهل البدع فلهم نصيب من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ، وَلَوُا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ [الإسراء: 46].

وأهل البدع إذا ذكرت لهم شيوخهم ومقالاتهم استبشروا بها، فهم كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: 45].

ومنها: أن أهل السنة يعرفون الحق، ويرحمون الخلق، فلهم نصيب وافر من العلم والرحمة، وربهم - تعالى - وسع كل شيء رحمة وعلماً، وأهل البدع يكذبون بالحق ويكفرون الخلق، فلا علم عندهم ولا رحمة، وإذا قامت عليهم حجة أهل السنة عدلوا إلى حبسهم وعقوبتهم إذا أمكنهم.

ورثوا فرعون؛ فإنه لما قامت عليه حجة موسى، ولم يمكنه عنها جواب: ﴿قَالَ لَيْنِ أَخَذَتْ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: 29].

ومنها: أن أهل السنة إنما يؤالون ويعادون على سنة نبيهم صلى الله عليه وسلم، وأهل البدع يؤالون ويعادون على أقوال ابتدعوها.

ومنها: أن أهل السنة لم يؤصلوا أصولاً حكموها، وحاكموا خصومهم إليها، وحكموا على من خالفها بالفسق والتكفير، بل عندهم الأصول: كتاب الله، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وما كان عليه الصحابة.

ومنها: أَنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ إِذَا قِيلَ لَهُمْ: قَالَ اللَّهُ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَقَفَتْ قُلُوبُهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ، وَلَمْ تَعُدْهُ إِلَى أَحَدٍ سِوَاهُ، وَلَمْ تَلْتَفِتْ إِلَى مَاذَا قَالَ فَلَانٌ وَفَلَانٌ؟ وَأَهْلُ الْبِدْعِ بِخِلَافِ ذَلِكَ.

ومنها: أَنَّ أَهْلَ الْبِدْعِ يَأْخُذُونَ مِنَ السُّنَّةِ مَا وَافَقَ أَهْوَاءَهُمْ؛ صَحِيحًا كَانَ أَوْ ضَعِيفًا، وَيَتْرَكُونَ مَا لَمْ يُوَافِقْ أَهْوَاءَهُمْ مِنَ الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ، فَإِذَا عَجَزُوا عَنْ رَدِّهِ نَفَوْهُ عَوَجًا بِالتَّأْوِيلَاتِ الْمُسْتَنَكِرَةِ الَّتِي هِيَ تَحْرِيفٌ لَهُ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَأَهْلُ السُّنَّةِ لَيْسَ لَهُمْ هَوًى فِي غَيْرِهَا». اهـ.

وقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَيَعْلَمُونَ أَنَّ أَصْدَقَ الْكَلَامِ كَلَامُ اللَّهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ».

أي: أَنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ يَعْلَمُونَ ذَلِكَ وَيَعْتَقِدُونَهُ وَيَعْمَلُونَ بِمَقْتَضَاهُ، كَمَا هُوَ لِسَانُ حَالِهِمْ وَمَقَالِهِمْ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: 87]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: 122]، وَقَالَ تَعَالَى فِي نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: 52].

وكان النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْتَفْتِحُ خُطْبَهُ بِقَوْلِهِ: «فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَخَيْرُ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ...»، الْحَدِيثُ رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَهَدْيُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَيْرُ هَدْيٍ عَلَى الْإِطْلَاقِ فِي الْعُقَائِدِ وَالْمُعَامَلَاتِ فِي جَمِيعِ الْحَالَاتِ.



«وَيُؤْثِرُونَ كَلَامَ اللَّهِ عَلَى غَيْرِهِ مِنْ كَلَامِ أَصْنَافِ النَّاسِ، وَيُقَدِّمُونَ هَدْيَ مُحَمَّدٍ ﷺ عَلَى هَدْيِ كُلِّ أَحَدٍ.

وَلِهَذَا سُمُّوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَسُمُّوا أَهْلَ الْجَمَاعَةِ؛ لِأَنَّ الْجَمَاعَةَ هِيَ الْاجْتِمَاعُ، وَضِدُّهَا الْفُرْقَةُ، وَإِنْ كَانَ لَفْظُ الْجَمَاعَةِ قَدْ صَارَ اسْمًا لِنَفْسِ الْقَوْمِ الْمُجْتَمِعِينَ».

السبب في أن أهل السنة والجماعة يؤثرون كلام الله على غيره من كلام أصناف الناس؛ لأن الله - سبحانه - أنزل كتابه تبياناً لكل شيء وهُدًى ورحمة للمؤمنين، وجعله الله روحاً ونوراً وصرافاً مستقيماً: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: 42].

قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: 89]، وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَضَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء: 12]، وقال تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: 16]، وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: 57-58]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: 9]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: 52]، وقال

تعالى: ﴿فَإِنِّي حَدِيثٌ بَعْدَ اللَّهِ وَأَيْنِئِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجنائية: 6]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: 51]، وغير ذلك من الآيات.

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي: كتاب الله»، أو بهذا المعنى.

والسبب في أن أهل السنة لا يُقَدِّمون هدي أحدي على هدي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنَّ هديَه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خيرُ الهدي على الإطلاق في كل الأبواب، وقد قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: 21].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير هذه الآية: «هذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسي برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أقواله وأفعاله وأحواله». اهـ.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَانْقُؤْا^ع إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: 1].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره:

أي: لا تُسارعوا في الأشياء بين يديه - أي: قبله - بل كونوا تبعًا له في جميع الأمور». اهـ.

وقال تعالى: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور: 54]، وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: 65].

فسمي أهل السنة والجماعة بأهل الكتاب والسنة؛ لأنَّهما عُدَّتْهم وعمدتهم،

منها يَصْدُرُونَ، وإليها يَرْجِعُونَ، وبها يَحْكُمُونَ، وإليها يَحْتَكِمُونَ، ومنها يَدْعُونَ، وإليها يَدْعُونَ؛ فالكتاب والسنة مَصْدَرُهُمْ وَمَوْرِدُهُمْ لَا يَبْغُونَ عَنْهُمَا حَوْلًا، وَلَا يَرْضَوْنَ بِهِمَا بَدَلًا، وَمَنْ لَمْ يَكْفِهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ فَلَا كَفَاهُ اللَّهُ.

فَسُمِّيَ أَهْلُ السُّنَّةِ بِذَلِكَ لِاتِّسَابِهِمْ إِلَيْهَا، وَعَمَلُهُمْ بِهَا، وَسُمُّوا أَهْلَ الْجَمَاعَةِ؛ لِاجْتِمَاعِهِمْ عَلَى ذَلِكَ، فَهُمْ مُجْتَمِعُونَ عَلَى تَعَلُّمِ السُّنَّةِ، وَالْعَمَلِ بِهَا، وَالِدَعْوَةِ إِلَيْهَا، وَالذَّبِّ عَنْهَا، وَلَمْ يَنْتَسِبُوا لِسَوَاهَا، وَإِنْ اجْتَمَعَ غَيْرُهُمْ عَلَى الْبِدْعِ وَالْأَهْوَاءِ وَالضَّلَالِ وَالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ، ﴿وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: 40].



«وَالْإِجْمَاعُ هُوَ الْأَصْلُ الثَّلَاثُ الَّذِي يُعْتَمَدُ عَلَيْهِ فِي الْعِلْمِ وَالْدِينِ.
وَهُمْ يَزْنُونَ بِهَذِهِ الْأَصُولِ الثَّلَاثَةِ جَمِيعَ مَا عَلَيْهِ النَّاسُ مِنْ أَقْوَالٍ وَأَعْمَالٍ
بَاطِنَةٍ أَوْ ظَاهِرَةٍ مِمَّا لَهُ تَعَلُّقٌ بِالدِّينِ.
وَالْإِجْمَاعُ الَّذِي يَنْضَبِطُ هُوَ مَا كَانَ عَلَيْهِ السَّلَفُ الصَّالِحُ؛ إِذْ بَعْدَهُمْ كَثُرَ
الْخِلَافُ، وَانْتَشَرَ فِي الْأُمَّةِ».

الإجماع: هو اتفاق مُجتهدِي هذه الأمة بعد موت النَّبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ
وآلِهِ وَسَلَّمَ - عَلَى حُكْمٍ شَرْعِيٍّ.

وأدلة حُجِّية الإجماع: الكتاب، والسُّنة، والإجماع.

فمن أدلة القرآن: قوله تعالى: ﴿فَإِنْ نَزَعْنَاهُ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ
كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [النساء: 59].

ومن أدلة السُّنة: قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَجْتَمِعُ أُمَّتِي عَلَى ضَلَالَةٍ».

وأما الإجماع: فقد قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ فِي «مَنْهَاجِ السُّنَّةِ» (7/ 397):
«إِجْمَاعُ الْأُمَّةِ حُجَّةٌ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْإِجْمَاعِ». اهـ.

وقال رَحِمَهُ اللهُ كَمَا فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى» (11/ 341): «الطَّرِيقُ الرَّابِعُ:
الإجماع، وهو مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَيْنَ عَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْفُقَهَاءِ وَالصُّوْفِيَّةِ وَأَهْلِ
الْحَدِيثِ وَالْكَلَامِ وَغَيْرِهِمْ فِي الْجُمْلَةِ، وَأَنْكَرَهُ بَعْضُ أَهْلِ الْبِدْعِ مِنَ الْمَعْتَزِلَةِ
وَالشَّيْعَةِ، لَكِنْ الْمَعْلُومُ مِنْهُ هُوَ مَا كَانَ عَلَيْهِ الصَّحَابَةُ، وَأَمَّا بَعْدَ ذَلِكَ فَتَعَدَّرَ الْعِلْمُ
بِهِ غَالِبًا».

ولهذا اختلف أهل العلم فيما يُذكر من الإجماعات الحادثة بعد الصَّحابة،

واختلف في مسائل منه؛ كإجماع التابعين على أحد قولي الصحابة، والإجماع الذي لم ينقرض عصر أهله حتى خالفهم بعضهم، والإجماع الشكوتي، وغير ذلك». اهـ.

ما دلّ عليه الإجماعُ الثَّابتُ فقد دلّ عليه النَّصُّ، ولا تُوجد مسألة دَلَّ عليها الإجماعُ إلا وفيها نصٌّ:

قال شيخُ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ كما في «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى» (19 / 195):
«فلا يُوجد قط مسألة مُجمع عليها إلا وفيها بيان من الرَّسُول، ولكن قد يخفى ذلك على بعض النَّاسِ وَيَعْلَمُ الإجماعُ فَيَسْتَدِلُّ به، كما أنه يستدلُّ بالنَّصِّ مَنْ لم يعرف دلالة النَّصِّ، وهو دليل ثان مع النَّصِّ؛ كالأمثال المضروبة في القرآن، وكذلك الإجماع دليل آخر، كما يقال: قد دَلَّ على ذلك الكتاب والسنة والإجماع، وكل من هذه الأصول يدلُّ على الحق مع تلازمها، فإن ما دَلَّ عليه الإجماع فقد دل عليه الكتاب والسنة، وما دل عليه القرآن فعن الرسول أُخِذ، فالكتاب والسنة كلاهما مأخوذ عنه، ولا يُوجد مسألة يتفق عليها الإجماع إلا وفيها نصٌّ». اهـ.

هل يكفر مُخالف الإجماع؟

قال شيخُ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ كما في «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى» (19 / 269 - 270):
«وقد تنازع النَّاسُ في مُخالف الإجماع هل يكفر؟ على قولين:

والتحقيق: أنَّ الإجماع المَعْلُومَ يَكْفِرُ مُخالفه كما يَكْفِرُ مُخالف النَّصِّ بتركه، لكن هذا لا يكون إلا فيما عِلِمَ ثُبُوت النَّصِّ به، وحينئذٍ فالإجماع مع النَّصِّ دليلان كالكتاب والسنة». اهـ.

وقال رَحِمَهُ اللهُ كما في «مَجْمُوعُ الْفَتَاوَى» (7/ 38-39): «فكُلُّ مَسْأَلَةٍ يُقْطَعُ فيها بالإجماع، وبانتفاء المنازع من المؤمنين - فَإِنَّهَا مِمَّا بَيَّنَّ اللهُ فِيهِ الْهُدَى، ومُخَالَفٌ مِثْلُ هَذَا الْإِجْمَاعِ يَكْفُرُ كَمَا يَكْفُرُ مُخَالَفُ النَّصِّ الْبَيِّنِ، وَأَمَّا إِذَا كَانَ يَظُنُّ الْإِجْمَاعَ وَلَا يَقْطَعُ بِهِ فَهَذَا لَا يَقْطَعُ - أَيْضًا - بِأَنَّهَا مِمَّا تَبَيَّنَ فِيهِ الْهُدَى مِنْ جِهَةِ الرِّسُولِ، وَمُخَالَفٌ مِثْلُ هَذَا الْإِجْمَاعِ قَدْ لَا يَكْفُرُ، بَلْ قَدْ يَكُونُ ظَنُّ الْإِجْمَاعِ خَطَأً، وَالصَّوَابُ فِي خِلَافِ هَذَا الْقَوْلِ، وَهَذَا هُوَ فَصْلُ الْخُطَابِ فِيمَا يُكْفَرُ بِهِ مِنْ مُخَالَفَةِ الْإِجْمَاعِ وَمَا لَا يُكْفَرُ». اهـ.

فالأصول الثلاثة التي يُعْتَمَدُ عَلَيْهَا فِي الْعِلْمِ وَالِدِّينِ: هِيَ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَالْإِجْمَاعُ الْمُسْتَنْدُ إِلَيْهِمَا أَوْ إِلَى أَحَدِهِمَا، فَالْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ أَصْلَانِ ذَاتِيَّانِ، وَأَمَّا الْإِجْمَاعُ فَأَصْلٌ مَبْنِيٌّ عَلَى غَيْرِهِ إِذْ لَا إِجْمَاعَ إِلَّا بِنَصٍّ.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ فِي «دَرِّعِ تَعَارُضِ الْعَقْلِ وَالنَّقْلِ» (1/ 272): «فَدِينُ الْمُسْلِمِينَ مَبْنِيٌّ عَلَى اتِّبَاعِ كِتَابِ اللهِ، وَسُنَّةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَا اتَّفَقَتْ عَلَيْهِ الْأُمَّةُ؛ فَهَذِهِ الثَّلَاثَةُ هِيَ أَصُولُ مَعْصُومَةٍ». اهـ.

وقال رَحِمَهُ اللهُ كما في «مَجْمُوعُ الْفَتَاوَى» (20/ 9-10): «فَمَبْنِيٌّ أَحْكَامُ الدِّينِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ: الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَالْإِجْمَاعُ...، وَإِذَا ثَبَتَ إِجْمَاعُ الْأُمَّةِ عَلَى حُكْمٍ مِنَ الْأَحْكَامِ لَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ أَنْ يَخْرُجَ عَنْ إِجْمَاعِهِمْ، فَإِنَّ الْأُمَّةَ لَا تَجْتَمِعُ عَلَى ضَلَالَةٍ، وَلَكِنْ كَثِيرًا مِنَ الْمَسَائِلِ يَظُنُّ بَعْضُ النَّاسِ فِيهَا إِجْمَاعًا، وَلَا يَكُونُ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، بَلْ يَكُونُ الْقَوْلُ الْآخِرُ أَرْجَحَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ». اهـ.

وقال رَحِمَهُ اللهُ كما في «مَجْمُوعُ الْفَتَاوَى» (24/ 377): «وَلَا يَعْتَمَدُ أَهْلُ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ فِي مِثْلِ مَسَائِلِ الْعِلْمِ وَالِدِّينِ إِلَّا عَلَى نصوصِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَإِجْمَاعِ الْأُمَّةِ». اهـ.

هل صحَّ عن الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ أَنَّهُ قال: «مَنْ ادَّعى الإجماع فقد كَذَبَ؟
الجواب: نعم، ولقوله توجيهٌ وسببٌ.

ففي «مسائل الإمام أحمد»، برواية ابنه عبد الله، برقم (1826): قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ: «ما يدَّعي الرجلُ فيه الإجماعَ هذا الكذبُ، مَنْ ادَّعى الإجماعَ فهو كَذَبٌ؛ لعلَّ النَّاسَ قد اختلفوا». اهـ.

وسببُ قولِ الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ: أَنَّ طائفةً من أهل البدع كانوا يَرُدُّونَ السُّنَّةَ الصحيحة بدعوى مُخالفتها للإجماع، مع أنهم لم يُحيطوا بكلام العلماء في تلك المسائل.

قال شيخُ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ في «بيان الدليل على بطلان التحليل» (ص 561-562): «وفي مثل هذه المسائل قال الإمام أحمد: مَنْ ادَّعى الإجماع فهو كاذب، وإنَّما هذه دعوى بِشْر- المريسي - وابن عليّة يريدون أن يُبطلوا السُّنَنَ بذلك.

يعني أحمد أنَّ المتكلمين في الفقه من أهل البدع إذا ناظرَهم بالسُّنن والآثار قالوا: هذا خلاف الإجماع، وذلك القول الذي يُخالف ذلك الحديث لا يحفظونه إلا عن بعض فقهاء المدينة وفقهاء الكوفة مثلاً، فيدَّعون الإجماع من قلة معرفتهم بأقوال العلماء واجترائهم على رَدِّ السُّنن بالآراء حتى كان بعضهم تُسرد عليه الأحاديث الصحيحة في خيار المَجلس ونحوه من الأحكام فلا يجد له معصماً إلا أن يقول: هذا لم يقل به أحدٌ من العلماء، وهو لا يعرف إلا أبا حنيفة أو مالكا لم يقولوا بذلك، ولو كان علم لرأى من الصَّحابة والتَّابعين وتابعيهم مِمَّن قال ذلك خَلْقاً كثيراً». اهـ.

وقال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ كما في «مختصر الصواعق» (ص 506):

وليس مراده - أي: الإمام أحمد - بهذا استبعاد وجود الإجماع، ولكن أحمد وأئمة الحديث بُلُوا بِمَنْ يَرُدُّ عَلَيْهِمُ السُّنَّةُ الصَّحِيحَةُ بِإِجْمَاعِ النَّاسِ عَلَى خِلَافِهَا؛ فَبَيَّنَ الشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدُ أَنَّ هَذِهِ الدَّعْوَى كَذِبٌ، وَأَنَّهُ لَا يَجُوزُ رَدُّ السُّنَنِ بِمِثْلِهَا». اهـ.

وقال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في «إعلام الموقعين» (2/ 246): «وحيث نشأت هذه الطريقة تَوَلَّدَ عَنْهَا مَعَارِضُ النُّصُوصِ بِالْإِجْمَاعِ الْمَجْهُولِ، وَانْفَتَحَ بَابُ دَعْوَاهُ، وَصَارَ مَنْ لَمْ يَعْرِفِ الْخِلَافَ مِنَ الْمُقَلِّدِينَ إِذَا احْتِجَّ عَلَيْهِ بِالْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ - قَالَ: هَذَا خِلَافُ الْإِجْمَاعِ.

وهذا هو الذي أنكره أئمة الإسلام، وعَابُوهُ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ عَلَى مَنْ ارْتَكَبَهُ، وَكَذَّبُوا مَنْ ادَّعَاهُ.

فقال الإمام أحمد في رواية ابنه عبد الله: مَنْ ادَّعَى الْإِجْمَاعَ فَهُوَ كَاذِبٌ؛ لَعَلَّ النَّاسَ اخْتَلَفُوا هَذِهِ دَعْوَى بَشَرٍ الْمَرِيْسِيِّ وَالْأَصَمِّ، وَلَكِنْ يَقُولُ: لَا نَعْلَمُ النَّاسَ اخْتَلَفُوا، أَوْ لَمْ يَبْلُغْنَا.

وقال في رواية المروزي: كيف يجوز للرجل أن يقول: أَجْمَعُوا، إِذَا سَمِعْتَهُمْ يَقُولُونَ: أَجْمَعُوا؛ فَاتَّهَمَهُمْ، لَوْ قَالَ: إِنِّي لَمْ أَعْلَمْ مُخَالَفًا كَانَ حَسَنًا.

وقال في رواية أبي طالب: هذا كذب، ما علمه أَنَّ النَّاسَ مُجْمَعُونَ، وَلَكِنْ يَقُولُ: مَا أَعْلَمُ فِيهِ اخْتِلَافًا، فَهُوَ أَحْسَنُ مِنْ قَوْلِهِ: إِجْمَاعُ النَّاسِ.

وقال في رواية أبي الحارث: لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَدَّعِيَ الْإِجْمَاعَ؛ لَعَلَّ النَّاسَ اخْتَلَفُوا، وَلَمْ يَزَلْ أئِمَّةُ الْإِسْلَامِ عَلَى تَقْدِيمِ الْكِتَابِ عَلَى السُّنَّةِ، وَالسُّنَّةِ عَلَى

الإجماع، وجعل الإجماع في المرتبة الثالثة». اهـ.

وهناك مَنْ حَمَلَ كَلامَ الإمام أحمد على أَنَّهُ مِنْ باب الورع.

وبما سبق وغيره، فالمعروف عن الإمام أحمد أَنَّهُ مِمَّن يَقُولُ بِحُجِيَّةِ الإجماع، كسائر أئمة المسلمين بخلاف أهل البدع.

وقول المُصَنِّف رَحِمَهُ اللهُ: «والإجماعُ الَّذِي يَنْضَبُطُ هو ما كان عليه السَّلفُ الصَّالحُ إِذْ بَعْدَهُمْ كَثُرَ الخِلافُ، وانتَشَرَتِ الأُمَّةُ».

أي: أَنَّ الإجماع الذي يمكن الإحاطة به ويُجْزَمُ بوقوعه: هو ما كان عليه السَّلف الصالح، وهم القرون الثلاثة المُفَضَّلَةُ؛ لأنَّهم كانوا قليلًا، ويُمكن الإحاطة بأقوالهم، بخلاف الأزمنة المتأخرة بعد السَّلف الصَّالح، فإنَّ الإجماعَ لا يَنْضَبُطُ، وَيَتَعَذَّرُ الجَزْمُ بوقوعه لِسَبَبَيْنِ:

- 1- كثرة الاختلاف بحيث لا يُمكن الإحاطة بأقوالهم.
- 2- انتشار الأُمَّة بعد الفتوح في أقطار الأرض.

ولم يذكر شيخُ الإسلام القياسَ لِمَا حَصَلَ فيه من الخلاف، والله أعلم.



«ثُمَّ هُمْ مَعَ هَذِهِ الْأَصُولِ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ عَلَى مَا تُوجِبُهُ الشَّرِيعَةُ، وَيَرُونَ إِقَامَةَ الْحَجِّ وَالْجِهَادِ وَالْجَمْعِ وَالْأَعْيَادِ مَعَ الْأُمَرَاءِ أَبْرَارًا كَانُوا أَوْ فُجَارًا، وَيُحَافِظُونَ عَلَى الْجَمْعِ وَالْجَمَاعَاتِ.

وَيَدِينُونَ بِالنَّصِيحَةِ لِلأُمَّةِ، وَيَعْتَقِدُونَ مَعْنَى قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ؛ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا»، وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ، وَقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ؛ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ؛ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالْحَمَى وَالسَّهْرِ».

وَيَأْمُرُونَ بِالصَّبْرِ عِنْدَ الْبَلَاءِ، وَالشُّكْرِ عِنْدَ الرِّخَاءِ وَالرِّضَا بِمِرِّ الْقَضَاءِ».

هذا الفصل كالتَّيْمَةُ للفصل السَّابِقِ، وهو مِنْ مُكَمَّلَاتِ عَقِيدَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ وَثَمَرَاتِهَا.

وَقَدْ تَضَمَّنَ هَذَا الْفَصْلُ عِدَّةَ مَسَائِلَ:

الأولى: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على ما توجبه الشريعة.

المعروف: اسم جامع لكل ما يحبه الله من الإيمان والعمل الصالح.

والمنكر: اسم جامع لكل ما كرهه الله، ونهى عنه.

وقد تطابق على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: الكتاب، والسُّنَّةُ، والإجماع، والعقل، والفطرة:

قال تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: 104]، وقال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ

وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴿﴾ [آل عمران: 110]، الآية، وقال تعالى: ﴿﴾ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴿﴾ [التوبة: 71]، وقال تعالى: ﴿﴾ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿﴾ [المائدة: 78-79].

وفي «صحيح مسلم» عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ».

وفي «صحيح البخاري» عن النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهْمُوا عَلَى سَفِينَةٍ فَصَارَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا، وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلُهَا، وَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقْتَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ. فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِينَا خَرْقًا وَلَمْ نُنْزِلْ مَنْ فَوْقَنَا. فَإِنْ تَرَكَوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا، وَنَجَوْا جَمِيعًا».

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «رِيَاضِ الصَّالِحِينَ» (ص 94): «القائم في حدود الله تعالى معناه: المنكر لها، القائم في دفعها وإزالتها، والمراد بالحدود: ما نهى الله عنه». اهـ.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ كَمَا فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى» (28 / 306): «صلاح العباد بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فَإِنَّ صَلَاحَ الْمَعَاشِ وَالْعِبَادَةِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَرِسُولِهِ، وَلَا يَتِمُّ ذَلِكَ إِلَّا بِالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَبِهِ صَارَتْ

هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس». اهـ.

وقال الإمام النووي في «شرح مسلم» (1/ 212): «وقد تطابق على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الكتاب والسنة وإجماع الأمة، وهو - أيضًا - من النصيحة التي هي الدين، ولم يخالف في ذلك إلا بعض الرافضة، ولا يُعتد بخلافهم، كما قال الإمام أبو المعالي إمام الحرمين: لا يُكثَرُ بخلافهم في هذا، فقد أجمع المسلمون عليه قبل أن ينبغ هؤلاء». اهـ.

حكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

قال شيخ الإسلام رحمه الله كما في «مجموع الفتاوى» (28 / 65-66): «وإذا كان جماع الولايات هو أمر ونهي، فالأمر الذي بعث الله به رسوله هو الأمر بالمعروف، والنهي الذي بعثه به هو النهي عن المنكر، وهذا نعت النبي والمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [التوبة: 71].

وهذا واجب على كل مسلم قادر، وهو فرض على الكفاية، ويصير فرض عين على القادر الذي لم يَقم به غيره، والقدرة هو السلطان والولاية، فذو السلطان أقدر من غيرهم، وعليهم من الوجوب ما ليس على غيرهم، فإن مناط الوجوب القدرة؛ فيجب على كل إنسان بحسب قدرته؛ قال تعالى: ﴿فَأَنْقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: 16]. اهـ.

وقال رحمه الله (28 / 126): «وكذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يجب على كل أحد بعينه، بل هو على الكفاية كما دل عليه القرآن، ولما كان الجهاد من تمام ذلك كان الجهاد - أيضًا - كذلك، فإن لم يَقم به من يقوم بواجبه أثم كل قادر بحسب قدرته، إذ هو واجب على كل إنسان بحسب قدرته، كما قال

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَوْفَرُ الْإِيمَانِ». اهـ.

وقال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «شرح مسلم» (1/ 213): «ثُمَّ إِنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ فَرُضٌ كِفَايَةٌ إِذَا قَامَ بِهِ بَعْضُ النَّاسِ سَقَطَ الْحَرَجُ عَنِ الْبَاقِينَ، وَإِذَا تَرَكَهُ الْجَمِيعُ أَثِمَ كُلُّ مَنْ تَمَكَّنَ مِنْهُ بِلا عُدْرٍ وَلَا خَوْفٍ.

ثُمَّ إِنَّهُ قَدْ يَتَعَيَّنُ، كَمَا إِذَا كَانَ فِي مَوْضِعٍ لَا يَعْلَمُ بِهِ إِلَّا هُوَ، أَوْ لَا يَتِمَكَّنُ مِنْ إِزَالَتِهِ إِلَّا هُوَ، وَكَمَنْ يَرَى زَوْجَتَهُ، أَوْ وَلَدَهُ أَوْ غَلَامَهُ عَلَى مُنْكَرٍ، أَوْ تَقْصِيرٍ فِي الْمَعْرُوفِ.

قال العلماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ: وَلَا يَسْقُطُ عَنِ الْمُكَلَّفِ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ؛ لِكَوْنِهِ لَا يُفِيدُ فِي ظَنِّهِ، بَلْ يَجِبُ عَلَيْهِ فِعْلُهُ، فَإِنَّ الذِّكْرَ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ، وَقَدْ قَدَّمْنَا أَنَّ الَّذِي عَلَيْهِ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ لَا الْقَبُولَ.

وكما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَانٌ﴾ [المائدة: 99]، وَمَثَلُ الْعُلَمَاءِ بِهَذَا بِمَنْ يَرَى إِنْسَانًا فِي الْحَمَامِ أَوْ غَيْرِهِ مَكْشُوفَ بَعْضِ الْعَوْرَةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

قال العلماء: وَلَا يُشْتَرَطُ فِي الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ أَنْ يَكُونَ كَامِلَ الْحَالِ مُمْتَثِلًا مَا يَأْمُرُ بِهِ، مُجْتَنِبًا مَا يَنْهَى عَنْهُ، بَلْ عَلَيْهِ الْأَمْرُ وَإِنْ كَانَ مُخِلًّا بِمَا أَمَرَ بِهِ، وَالنَّهْيُ وَإِنْ كَانَ مُتَلَبِّسًا بِمَا يَنْهَى عَنْهُ، فَإِنَّهُ يَجِبُ عَلَيْهِ شَيْئَانِ: أَنْ يَأْمُرَ نَفْسَهُ وَيَنْهَاهَا، وَيَأْمُرَ غَيْرَهُ وَيَنْهَاهَا؛ فَإِذَا أَخْلَّ بِأَحَدِهِمَا كَيْفَ يُبَاحُ لَهُ الْإِخْلَالُ بِالْآخَرِ؟. اهـ.

هل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خاصٌّ بؤلاة الأمور؟

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «شرح مسلم» (1/ 213): «قال العلماء: ولا

يختصُّ الأمرُ بالمعروف والنهي عن المنكر بأصحاب الولايات، بل ذلك جائزٌ لأحدِ المسلمين.

قال إمامُ الحَرَمين: والدليل عليه إجماعُ المُسلمين، فإنَّ غيرَ الولاية في الصدر الأول والعصر الذي يليه كانوا يأمرُون الولاية بالمعروف، وينهونهم عن المنكر مع تقرير المسلمين إِيَّاهم، وترك توبيخهم على التشاغل بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من غير ولاية، والله أعلم. اهـ.

مَن الذي يأمرُ بالمعروف وينهى عن المنكر؟

قال الإمامُ النووي رَحِمَهُ اللهُ في «شرح مسلم» (1/ 213): «إنَّما يأمر وينهى مَن كان عالمًا بما يأمر به وينهى عنه، وذلك يَختلف باختلاف الشيء، فإن كان من الواجبات الظاهرة والمُحرّمات المشهورة كالصلاة والصيام والزنا والخمر ونحوها، فكل المسلمين علماء بها، وإن كان من دقائق الأفعال والأقوال، ومِمَّا يتعلق بالاجتهاد لم يكن للعوام مدخل فيه، ولا لهم إنكاره، بل ذلك للعلماء». اهـ.

مَراتب إنكار المنكر وضوابطه:

قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في «إعلام المُوقَّعين» (3/ 6-7): «النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شرعَ لأُمَّته إيجاب إنكار المنكر؛ ليحصل بإنكاره من المعروف ما يُحبُّه الله ورسوله، فإذا كان إنكارُ المنكر يستلزم ما هو أنكر منه وأبغض إلى الله ورسوله - فإنه لا يسوغ إنكاره، وإن كان الله يُبغضه ويمقت أهله، وهذا كالإنكار على المُلوك والولاية بالخروج عليهم، فإنه أساس كل شرٍّ وفتنة إلى آخر الدهر، وقد استأذن الصَّحابةُ رسولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قتال الأمراء الذين يُؤخِّرون الصلاة عن وقتها، وقالوا: أفلا نُقاتِلُهم؟ فقال: «لا، ما أقاموا الصلاة»، وقال:

«مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ مَا يَكْرَهُ فَلْيَصْبِرْ، وَلَا يَنْزِعَنَّ يَدًا مِنْ طَاعَتِهِ».

وَمَنْ تَأَمَّلَ مَا جَرَى عَلَى الْإِسْلَامِ مِنَ الْفِتَنِ الْكِبَارِ وَالصَّغَارِ رَأَاهَا مِنْ إِضَاعَةِ هَذَا الْأَصْلِ، وَعَدَمِ الصَّبْرِ عَلَى مُنْكَرٍ، فَطَلَبَ إِزَالَتَهُ فَتَوَلَّى مِنْهُ مَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْهُ، فَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرَى بِمَكَّةَ أَكْبَرَ الْمُنْكَرَاتِ، وَلَا يَسْتَطِيعُ تَغْيِيرَهَا، بَلْ لَمَّا فَتَحَ اللَّهُ مَكَّةَ، وَصَارَتْ دَارَ إِسْلَامٍ عَزَمَ عَلَى تَغْيِيرِ الْبَيْتِ، وَرَدَّهُ عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ، وَمَنْعَهُ مِنْ ذَلِكَ مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَيْهِ خَشْيَةً وَقَوْعَ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ مِنْ عَدَمِ احْتِمَالِ قَرِيشَ لَذَلِكَ؛ لِقُرْبِ عَهْدِهِمْ بِالْإِسْلَامِ، وَكَوْنِهِمْ حَدِيثِي عَهْدٍ بِكُفْرٍ، وَلِهَذَا لَمْ يَأْذَنْ فِي الْإِنْكَارِ عَلَى الْأُمَرَاءِ بِالْيَدِ لِمَا يَتَرْتَبُ عَلَيْهِ مِنْ وَقَوْعِ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ، كَمَا وَجَدَ سِوَاءَ.

فإنكارُ المنكر أربع درجات:

الأولى: أَنْ يَزُولَ وَيَخْلُفَهُ ضَدُّهُ.

الثانية: أَنْ يَقِلَّ وَإِنْ لَمْ يَزَلْ بِجَمْلَتِهِ.

الثالثة: أَنْ يَخْلُفَهُ مَا هُوَ مِثْلُهُ.

الرابعة: أَنْ يَخْلُفَهُ مَا هُوَ شَرُّ مِنْهُ.

فَالدَّرَجَتَانِ الْأُولَيَانِ مَشْرُوعَتَانِ، وَالثَّلَاثَةُ مَوْضِعُ اجْتِهَادٍ، وَالرَّابِعَةُ مُحَرَّمَةٌ.

فَإِذَا رَأَيْتَ أَهْلَ الْفُجُورِ وَالْفُسُوقِ يَلْعَبُونَ بِالشُّطْرَنْجِ كَانَ إِنْكَارُكَ عَلَيْهِمْ مِنْ عَدَمِ الْفَقْهِ وَالْبَصِيرَةِ إِلَّا إِذَا نَقَلْتَهُمْ مِنْهُ إِلَى مَا هُوَ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ كَرَمِي النَّشَابِ، وَسَبَاقِ الْخَيْلِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وَإِذَا رَأَيْتَ الْفُسَّاقَ قَدْ اجْتَمَعُوا عَلَى لَهْوٍ وَلَعِبٍ أَوْ سَمَاعِ مُكَاءٍ وَتَصَدِيَةٍ، فَإِنْ نَقَلْتَهُمْ عَنْهُ إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ فَهُوَ الْمَرَادُ، وَإِلَّا كَانَ تَرْكُهُمْ عَلَى ذَلِكَ خَيْرًا مِنْ أَنْ

تفرغهم لِمَا هو أعظم من ذلك، فكان ما هم فيه شاغلاً عن ذلك، وكما إذا كان الرجل مُشتغلاً بكتب المُجون ونحوها، وخفت من نقله عنها وانتقاله إلى كتب البدع والضلال والسحرة؛ فدَعَهُ وكتبه الأولى، وهذا بابٌ واسعٌ.

وسمعتُ شيخَ الإسلام ابنَ تيمية - قدسَ الله رُوحَه ونورَ ضريحه - يقول: مررتُ أنا وبعضُ أصحابي في زمن التَّار بقوم منهم يشربون الخمر؛ فأنكر عليهم مَنْ كان معي، فأنكرتُ عليه، وقلتُ له: إِنَّمَا حَرَّمَ اللهُ الخمرَ؛ لَأَنَّهُا تصدُّ عن ذكر الله وعن الصَّلاة، وهؤلاء يصدُّهم الخمرُ عن قتل النفوس وسبِّ الذُّرية، وأخذ الأموال؛ فدَعَهُمْ». اهـ.

وقال شيخُ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ في «رسالة الأمر بالمعروف» (ص 17): «وإذا كان الأمرُ بالمعروف والنهي عن المنكر من أعظم الواجبات أو المستحبات لا بد أن تكون المصلحةُ فيه راجحة على المفسدة؛ إذ بهذا بُعثت الرُّسل، ونزلت الكتب، ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [البقرة: 205]، بل كل ما أمر الله به هو صلاح، وقد أثنى الله على الصلاح والمُصلحين والذين آمنوا وعملوا الصالحات، وذمَّ الفساد والمُفسدين في غير مَوْضع، فحيث كانت مفسدة الأمر بالمعروف والنهي أعظم من مصلحته لم تكن مِمَّا أَمَرَ اللهُ به، وإن كان قد ترك واجباً، وفُعل مُحَرَّمٌ». اهـ.

وقال رَحِمَهُ اللهُ في «منهاج السُّنة» (4 / 536): «لكن إذا لم يزل المنكر إلا بما هو أنكر منه صارت إزالته على هذا الوجه منكراً، وإذا لم يحصل المعروف إلا بمنكرٍ مفسدته أعظم من مصلحة ذلك المعروف كان تحصيل ذلك المعروف على هذا الوجه مُنكراً». اهـ.

قلت: وقد أشار المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ إلى هذه الضوابط والمراتب بقوله: «على

ما توجبه الشريعة».

صفات الأمر بالمعروف الناهي عن المنكر:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ فِي «مَنْهَاجِ السُّنَّةِ» (5/ 253 - 254):
 «ينبغي أن يكون عَلِيماً بما يأمر به، عَلِيماً بما ينهى عنه، رَفِيقاً فيما يأمر به، رَفِيقاً فيما ينهى عنه، حَلِيماً فيما يأمر به، حَلِيماً فيما ينهى عنه؛ فَالْعِلْمُ قَبْلُ الْأَمْرِ، وَالرَّفْقُ مَعَ الْأَمْرِ، وَالْحِلْمُ بَعْدَ الْأَمْرِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ عَالِماً لَمْ يَكُنْ لَهُ أَنْ يَقْفُو مَا لَيْسَ لَهُ بِهِ عِلْمٌ، وَإِنْ كَانَ عَالِماً وَلَمْ يَكُنْ رَفِيقاً كَانَ كَالطَّبِيبِ الَّذِي لَا رِفْقَ فِيهِ؛ فَيَغْلِظُ عَلَى الْمَرِيضِ فَلَا يَقْبَلُ مِنْهُ، وَكَالْمُؤَدِّبِ الْغَلِيزِ الَّذِي لَا يَقْبَلُ مِنْهُ الْوَلَدُ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِمُوسَى وَهَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: ﴿فَقُولَا لَهُ، قَوْلًا لِنَنَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: 44].

ثم إِذَا أَمَرَ أَوْ نَهَى فَلَا بَدَّ أَنْ يُؤْذَى فِي الْعَادَةِ، فَعَلَيْهِ أَنْ يَصْبِرَ وَيَحْلُمَ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: 17].

وقَدْ أَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهٖ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالصَّبْرِ عَلَى أَذَى الْمُشْرِكِينَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ، وَهُوَ إِمَامُ الْأَمْرِينَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهِينَ عَنِ الْمُنْكَرِ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ عَلَيْهِ أَوْلَا أَنْ يَكُونَ أَمْرُهُ لِلَّهِ، وَقَصْدُهُ طَاعَةُ اللَّهِ فِيمَا أَمَرَ بِهِ، وَهُوَ يُحِبُّ صِلَاحَ الْمَأْمُورِ، وَإِقَامَةَ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ. اهـ.

غربة الأمر بالمعروف والناهي عن المنكر في زمن التنوي فكيف بزماننا؟! وما الواجب نحو ذلك؟

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ فِي «شرح مسلم» (1/ 214): «واعلم أنَّ هذا

الباب - أعني باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - قد ضيّع أكثره من أزمان مُتطاولة، ولم يبق منه في هذه الأزمان إلا رسومٌ قليلةٌ جدًّا، وهو باب عظيم، به قوام الأمر وملاكه، وإذا كثر الخبث عمّ العقابُ الصالح والطالح، وإذا لم يأخذوا على يد الظالم أو شك أن يعمهم الله - تعالى - بعقابه؛ ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: 63].

فينبغي لطالب الآخرة والساعي في تحصيل رضا الله عزَّ وجلَّ: أن يعتني بهذا الباب، فإن نفعه عظيم، لا سيِّما وقد ذهب مُعظمه، ويُخلص نيته، ولا يهابن من يُنكر عليه لارتفاع مرتبته، فإن الله تعالى قال: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ [الحج: 40]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: 101]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: 69]، وقال تعالى: ﴿أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: 2-3].

واعلم أن الأجر على قدر النصب، ولا يتركه - أيضًا - لصداقته ومودته ومداهنته وطلب الوجاهة عنده، ودوام المنزلة لديه، فإن صداقته ومودته تُوجب له حُرمة وحقًّا، ومن حقه أن ينصحه ويهديه إلى مصالح آخرته، ويُنقذه من مضارها، وصديق الإنسان ومُحبُّه هو من سعى في عمارة آخرته، وإن أدَّى ذلك إلى نقصٍ في دنياه.

وعُدُّوه من يسعى في ذهاب أو نقص آخرته، وإن حصل بسبب ذلك صورة نفع في دنياه، وإنما كان إبليس عدوًّا لنا لهذا، وكانت الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - أولياء للمؤمنين لسعيهم في مصالح آخرتهم، وهدايتهم

إليها، ونسأل الله الكريم توفيقنا وأحبابنا وسائر المسلمين لمرضاته، وأن يعمّننا
بجوده ورحمته، والله أعلم. اهـ.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: «وَيَرَوْنَ إِقَامَةَ الْحَجِّ وَالْجُمُعِ وَالْأَعْيَادِ مَعَ الْأُمَرَاءِ؛ أَبْرَارًا كَانُوا
أَوْ فَجَّارًا».

هذه المسألة الثانية.

قوله: «يرون»، أي: يعتقدون، وهذه المسألة من أصول أهل السنة والجماعة
التي خالفوا بها أهل البدع؛ لأنّ الخروج على الحكام الظلمة والفسقة رأس كل
شرٍّ، كما يفعله ويعتقده الخوارج والرافضة.

قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في «إعلام الموقعين» (3/ 6-7): «فإذا كان
إنكار المنكر يستلزم ما هو أنكر منه وأبغض إلى الله ورسوله - فإنه لا يسوغ
إنكاره، وإن كان الله يُبغضه ويمقت أهله، وهذا كالإنكار على الملوك والولاة
بالخروج عليهم، فإنه أساس كل شرٍّ وفتنة إلى آخر الدهر، وقد استأذن الصحابة
رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قتال الأمراء الذين يُؤخّرون الصلاة عن وقتها،
وقالوا: أَفَلَا نُقَاتِلُهُمْ؟ فقال: «لا، مَا أَقَامُوا الصَّلَاةَ»، وقال: «مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ مَا
يَكْرَهُهُ فَلْيَصْبِرْ، وَلَا يَنْزِعَنَّ يَدًا مِنْ طَاعَتِهِ».

ومن تأمل ما جرى على الإسلام من الفتن الكبار والصغار رآها من إضاعة
هذا الأصل، وعدم الصبر على منكر، فطلب إزالته فتولّد منه ما هو أكبر منه...».

إلى أن قال رَحِمَهُ اللهُ: «ولهذا لم يأذن في الإنكار على الأمراء باليد لِمَا يَتَرَبَّ
عليه من وقوع ما هو أعظم منه». اهـ.

وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ كما في «مجموع الفتاوى» (4/ 444): «ولهذا

كان مذهب أهل السنة والجماعة ترك الخروج بالقتال على الملوك البغاة، والصبر على ظلمهم إلى أن يستريح بر، ويستراح من فاجر». اهـ.

وقال رحمه الله كما في «مجموع الفتاوى» (3/ 280-281): «ومن أصول أهل السنة والجماعة: أنهم يصلُّون الجمعة والأعياد، ولا يدعون الجمعة والجماعة، كما فعل أهل البدع من الرافضة وغيرهم...، فالصلاة خلف المستور جائزة باتفاق علماء المسلمين، ومن قال: إن الصلاة مُحَرَّمَةٌ أو باطلةٌ خَلَفَ مَنْ لَا يُعْرِفُ حَالَهُ فَقَدْ خَالَفَ إِجْمَاعَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، وَقَدْ كَانَ الصَّحَابَةُ- رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ- يُصَلُّونَ خَلْفَ مَنْ يَعْرِفُونَ فُجُورَهُ، كَمَا صَلَّى ابْنُ مَسْعُودٍ وَغَيْرُهُ خَلْفَ الْوَلِيدِ بْنِ عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ، وَكَانَ يَشْرَبُ الْخَمْرَ، وَصَلَّى الصُّبْحَ مَرَّةً أَرْبَعًا، وَجَلَدَهُ عَثْمَانُ عَلَى ذَلِكَ، وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ وَغَيْرُهُ مِنَ الصَّحَابَةِ يُصَلُّونَ خَلْفَ الْحَجَّاجِ بْنِ يُوسُفَ». اهـ.

وقال العلامة السَّعْدِيُّ رحمه الله في «التنبيهات اللطيفة» (ص 104) تحت الفقرة السابقة من كلام شيخ الإسلام: «وذلك لأنَّ غرضهم الوحيد تحصيل المصالح وتكملتها، وتعطيل المفساد وتقليلها؛ فلا يمتنعون من إعانة الظالم على الخير وترغيبه فيه قولاً وفعلاً؛ فيشاركون الولاة الظلمة في الخير، ويفارقونهم في الشرِّ، ويحرصون على الاتفاق، وينهون عن الافتراق». اهـ.

المسألة الثالثة: قول المصنِّف رحمه الله: «ويُحافظون على الجَمْعِ والجماعات».

أي: أن من صفات أهل السنة والجماعة: المحافظة على أداء الصلاة في جماعة (الصَّلوات الخمس، والجمعة، والأعياد، ونحو ذلك)؛ امتثالاً للأوامر الشرعية، وحرصاً على الأجور العظيمة المترتبة على ذلك، وتحصيلاً للمصالح

الكثيرة الدِّينية والدُّنيوية.

وأهل السُّنَّة بهذا يُخالفون المنافقين الذين يتخلفون عن صلاة الجماعة، وخلافاً للرَّافضة الذين لا يَرَوْنَ الجماعة إلا خلف إمامٍ مَعصوم.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «مَنْ ظَنَّ أَنَّ صَلَاتَهُ وحده أفضل من أجل خَلْوَتِهِ أو غير ذلك فهو مُخْطِئٌ ضَالٌّ، وَأَضَلُّ منه مَنْ لم ير الجماعة إلا خلف المَعصوم؛ فَعَطَّلَ المَسَاجِدَ، وَعَمَّرَ المَشَاهِدَ». اهـ.

المَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ: قول المُصَنِّف رَحِمَهُ اللهُ: «وَيَدِينُونَ بِالنَّصِيحَةِ لِلأُمَّة».

أي: أَنَّ مِنْ صفات أهل السُّنَّة والجماعة: أَنَّهُمْ يتخذون النصيحة ديناً؛ لِأَنَّهُمْ يُحِبُّونَ الخَيْرَ للغير، فالمؤمنون نَصَحَةٌ، والمنافقون غَشَشَةٌ.

وأنصحُ النَّاسَ للناس هم رسلُ الله صلواتُ الله وسلامُه عليهم أجمعين، ثم أتباعهم، وأكملهم أتباعُ نبيِّنا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

روى الإمام مسلم في صحيحه عن تميم الدَّاري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ». قلنا: لِمَنْ؟ قال: «لِلَّهِ، وَلِكِتَابِهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلِأُمَّةِ المُسْلِمِينَ، وَعَامَّتِهِمْ».

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ في «شرح مسلم» (1/ 225 - 227): «هذا حديثٌ عظيمُ الشأن، وعليه مدارُ الإسلام، كما سنذكره مِنْ شرحه.

وأما ما قاله جماعاتٌ من العلماء: إِنَّهُ أَحَدُ أَرْبَاعِ الإسلام، أي: أحد الأحاديث الأربعة التي تَجْمَعُ أمور الإسلام، فليس كما قالوه، بل المدار على هذا وحده.

وهذا الحديثُ من أَفْرَادِ مُسْلِمٍ، وليس لتميم الداري في «صحيح البخاري»

عن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيْءٌ، وَلَا لَهُ فِي مُسْلِمٍ غَيْرِ هَذَا الْحَدِيثِ.

أَمَّا شَرْحُ هَذَا الْحَدِيثِ، فَقَالَ أَبُو سَلِيمَانَ الْخَطَّابِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

النَّصِيحَةُ: كَلِمَةٌ جَامِعَةٌ، مَعْنَاهَا: حَيَازَةُ الْحِظِّ لِلْمَنْصُوحِ لَهُ.

قال: ويقال: هو من وجيز الأسماء، ومختصر الكلام، وليس في كلام العرب كلمة مفردة يُستوفى بها العبارة عن معنى هذه الكلمة، كما قالوا في الفلاح: ليس في كلام العرب كلمة أجمع لخير الدنيا والآخرة منه.

قال: وقيل: النصيحة مأخوذة من نصح الرجل ثوبه: إذا خاطه؛ فشبهوا فعل الناصح فيما يتحرّاه من صلاح المنصوح له بما يسدّه من خلل الثوب.

قال: وقيل: إنّها مأخوذة من نصحت العسل: إذا صفّيته من الشمع؛ شبهوا تخليص القول من الغشّ بتخليص العسل من الخلط.

قال: ومعنى الحديث: عماد الدين وقوامه: النصيحة؛ كقوله: «الحج عرفة»، أي: عماده ومُعظمه عرفة.

أَمَّا تَفْسِيرُ النَّصِيحَةِ وَأَنْوَاعِهَا، فَقَدْ ذَكَرَ الْخَطَّابِيُّ وَغَيْرُهُ مِنَ الْعُلَمَاءِ فِيهَا كَلَامًا نَفِيسًا، أَنَا أَضْمُ بَعْضَهُ إِلَى بَعْضٍ مُخْتَصَرًا.

قالوا: أمّا النصيحة لله تعالى، فمعناها مُنْصَرَفٌ إِلَى الْإِيمَانِ بِهِ، وَنَفْيِ الشَّرِيكِ عَنْهُ، وَتَرْكِ الْإِلْحَادِ فِي صِفَاتِهِ، وَوَصْفِهِ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ وَالْجَلَالِ كُلِّهَا، وَتَنْزِيهِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنْ جَمِيعِ النَّقَائِصِ، وَالْقِيَامِ بِطَاعَتِهِ، وَاجْتِنَابِ مَعْصِيَتِهِ، وَالْحُبِّ فِيهِ، وَالْبَغْضِ فِيهِ، وَمَوَالَاةِ مَنْ أَطَاعَهُ، وَمُعَادَاةِ مَنْ عَصَاهُ، وَجِهَادِ مَنْ كَفَرَ بِهِ، وَالاعْتِرَافِ بِنِعْمَتِهِ، وَشُكْرِهِ عَلَيْهَا، وَالْإِخْلَاصِ فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ، وَالِدُّعَاءِ إِلَى جَمِيعِ الْأَوْصَافِ الْمَذْكُورَةِ، وَالْحَثِّ عَلَيْهَا، وَالتَّلَطُّفِ فِي جَمِيعِ النَّاسِ، أَوْ مَنْ

أمكن منهم عليها.

قال الخطابي **رَحِمَهُ اللهُ**: وحقيقة هذه الإضافة راجعة إلى العبد في نصحه نفسه، فالله - تعالى - غني عن نصح الناصح.

وأما النصيحة لكتابه **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**: فالإيمان بأنه كلام الله تعالى [غير مخلوق] وتنزيله، ولا يشبهه شيء من كلام الخلق، ولا يقدر على مثله أحد من الخلق، ثم تعظيمه وتلاوته حق تلاوته وتحسينها والخشوع عندها، وإقامة حروفه في التلاوة، والدّب عنه لتأويل المَحَرِّفين، وتَعَرُّض الطاعنين، والتصديق بما فيه، والوقوف مع أحكامه، وتَفَهُّم علومه وأمثاله، والاعتبار بمواعظه، والتفكر في عجائبه، والعمل بمُحكمه، والتَّسْلِيم لِمُتشابهه، والبحث عن عمومه وخصوصه وناسخه ومنسوخه، ونشر علومه، والدعاء إليه، وإلى ما ذكرنا من نصيحته.

وأما النصيحة لرسول الله **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: فتصديقه على الرسالة، والإيمان بجميع ما جاء به، وطاعته في أمره ونهيه، ونُصْرته حيًّا وميتًا، ومُعَاذَة مَنْ عاداه، ومُؤَاوَاة مَنْ والاه، وإِعْظَام حقه وتوقيره، وإِحْيَاء طريقته وسُنَّته، وبَث دعوته، ونشر شريعته، ونفي التهمة عنها، واستثارة علومها، والتفقه في معانيها، والدعاء إليها، والتلطف في تَعَلُّمِها وتعليمها، وإِعْظَامها وإِجْلَالها، والتأدب عند قراءتها، والإمساك عن الكلام فيها بغير علم، وإِجْلَال أهلها؛ لانتسابهم إليها، والتخلق بأخلاقه، والتأدب بآدابه، ومحبة أهل بيته وأصحابه، ومجانبة مَنْ ابتدع في سُنَّته، أو تَعَرَّض لأحد من أصحابه، ونحو ذلك.

وأما النصيحة لأئمة المسلمين: فمُعَاوَنَتُهُمْ عَلَى الْحَقِّ وطاعتهم فيه، وأمرهم به، وتنبههم وتذكيرهم برفق ولطف، وإِعْلَامهم بما غفلوا عنه، ولم

يبلغهم من حقوق المسلمين، وترك الخروج عليهم، وتأليف قلوب الناس لطاعتهم.

قال الخطابي رحمه الله: ومن النصيحة لهم: الصلاة خلفهم، والجهاد معهم، وأداء الصدقات إليهم، وترك الخروج بالسيف عليهم إذا ظهر منهم حيف أو سوء عشرة، وألا يعزوا بالثناء الكاذب عليهم، وأن يدعى لهم بالصلاح، وهذا كله على أن المراد بأئمة المسلمين الخلفاء وغيرهم ممن يقوم بأمور المسلمين من أصحاب الولايات، وهذا هو المشهور، وحكاه - أيضاً - الخطابي، ثم قال: وقد يتأول ذلك على الأئمة الذين هم علماء الدين، وأن من نصيحتهم قبول ما رَوَوْه، وتقليدهم⁽¹⁾ في الأحكام، وإحسان الظن بهم.

أما نصيحة عامة المسلمين؛ وهم من عدا ولاة الأمر: فإن شأدهم لمصالحهم في آخرتهم ودنياهم، وكف الأذى عنهم؛ فيعلمهم ما يجهلونه من دينهم، ويعينهم عليه بالقول والفعل، وستر عوراتهم، وسد خللاتهم، ودفع المضار عنهم، وجلب المنافع لهم، وأمرهم بالمعروف ونهيه عن المنكر برفق وإخلاص، والشفقة عليهم، وتوقير كبيرهم، ورحمة صغيرهم، وتخولهم بالموعظة الحسنة، وترك غشهم وحسدهم، وأن يحب لهم ما يحب لنفسه من الخير، ويكره لهم ما يكره لنفسه من المكروه، والذب عن أموالهم وأعراضهم - وغير ذلك من أحوالهم - بالقول والفعل، وحثهم على التخلق بجميع ما ذكرناه من أنواع النصيحة، وتنشيط همهم إلى الطاعات.

وقد كان في السلف رضي الله عنهم من تبلغ به النصيحة إلى الإضرار بدنياه، والله

(1) وليس هذا على إطلاقه، بل فيه تفاصيل مذكورة في كتب الأصول.

أَعْلَمُ. هذا آخر ما تَلَخَّصَ في تفسير النّصيحة.

قال ابن بطلان رَحِمَهُ اللهُ في هذا: إِنَّ النّصيحة تُسَمَّى دِينًا وَإِسْلَامًا، وإن الدين يقع على العمل، كما يقع على القول.

قال: والنّصيحة فرضٌ يُجْزَى فيه مَنْ قام به، وَيَسْقُط عن الباقي.

قال: والنّصيحة لازمةٌ على قدر الطاقة إذا عَلم الناصح أَنَّهُ يُقْبَل منه، ويُطَاع أمره، وَأَمِن على نفسه المكروه؛ فَإِنْ خَشِيَ على نفسه أذى فهو في سعة، والله أعلم. اهـ.

المسألة الخامسة: في بيان بعض حقوق المسلمين على بعضهم، وتوَلَّى بعضهم بعضًا في حدود الشرع:

فقد قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: «وَيَعْتَقِدُونَ معنى قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا»، وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ، وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالْحُمَّى وَالسَّهَرِ».

قلت: الحديثان في الصّحيحين وغيرهما.

وقد قال الإمام النوويُّ في الكلام على الحديثين في «شرح مسلم» (16/355-356): «هذه الأحاديثُ صريحةٌ في تعظيم حقوق المسلمين بعضهم على بعض، وحثهم على التراحم والملاطفة والتعاقد في غير إثم ولا مكروه، وفيه جواز التشبيه وضرب الأمثال؛ لتقريب المعاني إلى الأفهام». اهـ.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ كما في «مجموع الفتاوى» (3/418-421): «فقد أخبر - سبحانه - أَنَّ وَلِيِّ الْمُؤْمِنِ هو الله ورسوله وعباده المؤمنين،

وهذا عامٌ في كل مؤمن موصوف بهذه الصفة، سواء كان من أهل نسبة أو بلدة أو مذهب أو طريقة أو لم يكن....».

إلى أن قال **رَحِمَهُ اللَّهُ**: «وقد جعل الله عباده المؤمنين بعضهم أولياء بعض، وجعلهم إخواناً، وجعلهم متناصرين متراحمين متعاطفين، وأمرهم - سبحانه - بالائتلاف، ونهاهم عن الافتراق والاختلاف؛ فقال: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: 103]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ﴾ [الأنعام: 159]، الآية.

فكيف يجوز مع هذه الأمة؛ أمة محمد صلى الله عليه وسلم أن تفترق وتختلف حتى يُوالي الرجل طائفةً، ويُعادي طائفةً أخرى بالظن والهوى، بلا برهان من الله تعالى، وقد برأ الله نبيه صلى الله عليه وسلم ممن كان هكذا.

فهذا فعل أهل البدع؛ كالخوارج الذين فارقوا جماعة المسلمين، واستحلوا دماء من خالفهم، وأما أهل السنة والجماعة فهم مُعتصمون بحبل الله. وأقل ما في ذلك أن يُفضّل الرجل من يوافقه على هواه، وإن كان غيره أتقى لله منه.

وإنما الواجب أن يقدم من قدّمه الله ورسوله، ويُؤخر من أخره الله ورسوله ويحب ما أحبه الله ورسوله، ويبغض ما أبغضه الله ورسوله، وينهى عما نهى الله عنه ورسوله، وأن يرضى بما رضى الله به ورسوله، وأن يكون المسلمون يداً واحدة، فكيف إذا بلغ الأمر ببعض الناس إلى أن يُضللّ غيره ويُكفره، وقد يكون الصواب معه، وهو الموافق للكتاب والسنة، ولو كان أخوه المسلم قد أخطأ في شيء من أمور الدين فليس كل من أخطأ يكون كافراً ولا فاسقاً، بل قد عفا الله لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان، وقد قال تعالى في كتابه في دعاء الرسول

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُؤْمِنِينَ: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: 286]، وثبت في الصحيح أَنَّ اللَّهَ قَالَ: «قَدْ فَعَلْتُ».

لا سِيَّما وقد يكون مَنْ يُوافقكم في أخص من الإسلام مثل أن يكون مثلكم على مذهب الشافعي، أو منتسباً إلى الشيخ عدي، ثم بعد هذا قد يُخالف في شيء، وربما كان الصواب معه، فكيف يستحل عرضه وماله ودمه؟ مع ما قد ذكر الله - تعالى - من حقوق المسلم والمؤمن.

وكيف يجوز التفريق بين الأمة بأسماء مُبتدعة لا أصل لها في كتاب الله ولا في سنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا التَّفريق الذي حصل من الأمة؛ (علمائها ومشائخها وأمرائها وكبرائها) هو الذي أوجب تَسَلُّطَ الأعداء عليها، وذلك بتركهم العمل بطاعة الله ورسوله، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي أَخَذْنَا مِيثَقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ [المائدة: 14].

فمتى تَرَكَ النَّاسُ بَعْضَ مَا أَمَرَهُمُ اللَّهُ بِهِ وَقَعَتْ بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ، وَإِذَا تَفَرَّقَ الْقَوْمُ فَسَدُوا وَهَلَكُوا، وَإِذَا اجْتَمَعُوا صَلَحُوا وَمَلَكَوا؛ فَإِنَّ الْجَمَاعَةَ رَحْمَةٌ، وَالْفُرْقَةَ عَذَابٌ. اهـ.

قول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَيَأْمُرُونَ بِالصَّبْرِ عِنْدَ الْبَلَاءِ».

وذلك لِأَنَّ اللَّهَ أَمَرَ بِهِ نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعباده الصالحين، وَبَيَّنَّ عَوَاقِبَهُ الْحَمِيدَةَ، وَأَثْنَى عَلَى أَهْلِهِ، وَوَعَدَ عَلَيْهِ بِجَزِيلِ الثَّوَابِ، وَأَمَرَ أَنْ يُسْتَعَانَ بِهِ بِالصَّلَاةِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: 45]، الْآيَةُ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: 43]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: 10]، وَقَالَ تَعَالَى:

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾ الآية [آل عمران: 200]، وقال تعالى لنبية صلى الله عليه وسلم: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: 35]، وقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: 155 - 157].

وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصْبِرْهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْفِرْ يُعْفِهِ اللَّهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَلَا أَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ».

وفي «صحيح مسلم» عن أبي مالك الأشعري: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ».

والأحاديث في هذا كثيرة.

وَمِنْ أَعْظَمَ مَا يَنْبَغِي الصَّبْرُ عَلَيْهِ مِنَ الْبَلَاءِ: الصَّبْرُ عِنْدَ أَنْ يُبْتَلَى الْمَرْءُ مِنْ أَجْلِ دِينِ اللَّهِ، فَلَهُ فِي رِسَالِ اللَّهِ وَأَصْحَابِ نَبِيٍّ خَيْرٌ أُسْوَةً، وَاللَّهُ الْهَادِي إِلَى سَوَاءِ السَّبِيلِ.

قول المصنّف رحمه الله: «والشكر عند الرخاء».

لأنّ ذلك مؤذن ببقاء النعمة والزيادة منها؛ قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: 7]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: 7]، وقال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: 152]، وقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ﴾ [سبأ: 13]، وغير ذلك.

وفي «صحيح مسلم» عن ضُهَيْب بن سِنَان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عَجَبًا لأمر المؤمن؛ إِنَّ أمره كُلُّه له خيرٌ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ».

وعند أبي داود وغيره: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ: «إِنِّي أُحِبُّكَ فِي اللَّهِ؛ فَلَا تَدْعُ أَنْ تَقُولَ دُبْرَ كُلِّ صَلَاةٍ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ».

والشكر يكون بالقول والفعل والقلب كما قيل:

أَفَادَتْكُمْ النِّعْمَاءُ مِنِّي ثَلَاثَةً يَدِي وَلِسَانِي وَالضَّمِيرُ الْمُحَجَّبَا

وَيَكُونُ شُكْرُ كُلِّ نِعْمَةٍ بِحَسَبِهَا.

وَرَحِمَ اللَّهُ ابْنَ الْمُبَارَكِ إِذْ قَالَ:

إِذَا كُنْتُ فِي نِعْمَةٍ فَارْعَهَا فَإِنَّ الْمَعَاصِيَ تُزِيلُ النِّعَمَ

وَدَاوِمَ عَلَيْهَا بِشُكْرِ الْإِلَهِ فَإِنَّ الْإِلَهَ سَرِيعُ النِّقَمِ

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَالرِّضَا بِمُرِّ الْقَضَاءِ».

أي: وَيَأْمُرُونَ بِالرِّضَا بِمُرِّ الْقَضَاءِ؛ فَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمَطْلُبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ذَاقْ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَسُولًا».

وَمِنَ الرِّضَا بِاللَّهِ رَبًّا: الرِّضَا بِقَضَائِهِ وَقَدْرِهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ آبَائِهِمْ وَأُمَهَاتِهِمْ، وَلِأَنَّ أَفْعَالَ اللَّهِ مَقْرُونَةٌ بِالْحِكْمَةِ، وَلَيْسَ فِي أَفْعَالِ اللَّهِ شَرٌّ، إِنَّمَا هِيَ خَيْرٌ، وَإِنَّمَا الشَّرُّ فِي مَفْعُولَاتِهِ.

مسألة: هل يجب الرضا بالقضاء مُطلقاً؟

الجواب: قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ فِي «شفاء العليل» (ص 546):

«القضاء نوعان: ديني، وكوني.

فالديني يجب الرضا به، وهو من لوازم الإسلام.

والكوني منه ما يجب الرضا به؛ كالنعم التي يجب شكرها، ومن تمام شكرها الرضا بها.

ومنه ما لا يجوز الرضا به؛ كالمعائب والذنوب التي يَسْخَطُهَا اللهُ، وإن كانت بقضائه وقدره، ومنه ما يستحبُّ الرضا به كالمصائب، وفي وجوبه قولان. هذا كله في الرضا بالقضاء الذي هو المَقْضِي.

وأما القضاء الذي هو وصفه - سبحانه - وفعله؛ كعلمه، وكتابته، وتقديره، ومشيئته؛ فالرضا به من تمام الرضا بالله رباً وإلهاً ومالِكاً ومُدبِراً. فبهذا التفصيل يتبين الصواب، ويزول اللبس في هذه المسألة العظيمة التي هي مَفرق طرق بين الناس.

فإن قيل: كيف يجتمع الرضا بالقضاء بالمصائب مع شدة الكراهة والنفرة منها؟

وكيف يُكَلَّفُ العبدُ أن يَرْضَى بما هو مُؤَلِّم له وهو كاره له، والألم يقتضي الكراهة والبغض المضاد للرضا، واجتماع الضدين محال؟

قيل: الشيء قد يكون محبوباً مَرْضِياً من جهة، ومكروهاً من جهة أخرى؛ كَشْرَبِ الدَّواءِ النافع الكريه، فإنَّ المَرِيضَ يَرْضَى به مع شدة كراهته له، وكصوم اليوم الشَّدِيدِ الحرِّ، فإنَّ الصائم يَرْضَى به مع شدة كراهته له، وكالجهاد للأعداء؛

قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: 216].

فالمجاهد المخلص يعلم أنَّ القتال خيرٌ له؛ فرضي به وهو يكرهه لما فيه من التعرُّض لإتلاف النفس وألمها ومُفارقة المحبوب، ومتى قَوِيَ الرِّضا بالشيء وتَمَكَّنَتْ انقلبَت كراهته محبة، وإن لم يَخُلْ من الألم، فالألم بالشيء لا يُنافي الرِّضا به، وكراهته من وجهٍ لا تُنافي مَحَبَّتَهُ وإرادته والرِّضا به من وجه آخر». اهـ.



«وَيَدْعُونَ إِلَى مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، وَمَحَاسِنِ الْأَعْمَالِ، وَيَعْتَقِدُونَ مَعْنَى قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا». وَيَنْدُبُونَ إِلَى أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ، وَتُعْطِيَ مَنْ حَرَمَكَ، وَتَغْفُو عَمَّنْ ظَلَمَكَ».

الأخلاق: جمع خُلُق، بضم الخاء واللام، وهي السَّجَايا الباطنة الفاضلة للمرء.

فأهل السُّنَّة يَدْعُونَ إِلَى مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ مِنْ حَيَاءٍ وَصَبْرٍ وَحُسْنِ ظَنٍّ وَسَلَامَةٍ صَدْرٍ وَشَجَاعَةٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ، كَمَا يَدْعُونَ إِلَى مُحَاسِنِ الْأَعْمَالِ مِنْ صَدَقٍ وَكِرَمٍ وَحَسَنِ جَوَارٍ وَصَلَةِ الْأَرْحَامِ وَبِرٍّ بِالْوَالِدِينَ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

فأهل السُّنَّة والجَمَاعَةُ يَدْعُونَ إِلَى ذَلِكَ، وَيُجَاهِدُونَ أَنْفُسَهُمْ عَلَى التَّحْلِي بِهِ، وَيَسْأَلُونَ اللَّهَ الْهُدَايَةَ إِلَى أَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ، وَيَسْتَعِيزُونَ بِاللَّهِ مِنْ سَيِّئِهَا؛ كُلُّ ذَلِكَ طَاعَةُ اللَّهِ وَلِرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَاقْتِدَاءٌ بِأَخْلَاقِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَعْمَالِهِ، فَهُوَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحْسَنُ النَّاسِ خُلُقًا؛ ففِي الصَّحِيحِينَ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خَادِمِ رَسُولِ اللَّهِ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقًا».

وَفِي الصَّحِيحِينَ - أَيْضًا - عَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «مَا مَسَسْتُ دِيْبَا جًا وَلَا حَرِيرًا أَلَيْنَ مِنْ كَفِّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَا شَمَمْتُ رَائِحَةً قَطَّ أَطِيبَ مِنْ رَائِحَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَقَدْ خَدَمْتُ رَسُولَ اللَّهِ عَشْرَ سِنِينَ؛ فَمَا قَالَ لِي قَطُّ: أَفٍّ. وَلَا قَالَ لَشَيْءٍ فَعَلْتُهُ: لِمَ فَعَلْتَهُ؟، وَلَا لَشَيْءٍ لَمْ أَفْعَلْهُ: أَلَا فَعَلْتَ كَذَا».

وَقَدْ حَثَّنَا رَبُّنَا - سُبْحَانَهُ - فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ عَلَى مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَمُحَاسِنِ

الأعمال، وكذلك نبينا صلى الله عليه وسلم.

فمن ذلك: قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: 199].

قال العلامة ابن القيم رحمه الله في «مدارج السالكين» (2/ 304): «وقد جمع الله مكارم الأخلاق في قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: 199]، قال جعفر بن محمد: أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بمكارم الأخلاق، وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه». اهـ.

ومن ذلك أيضًا: قوله تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: 134].

ومن ذلك: ما في سورة الحُجرات وغيرها.

ومن السنة: ما رواه مسلم في صحيحه عن النّوّاس بن سَمْعَانَ قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البرِّ والإِثم، فقال: «البرُّ: حُسْنُ الْخُلُقِ، والإِثمُ: مَا حَاكَ فِي نَفْسِكَ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ».

وفي الصحيحين عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: «لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحشًا ولا مُتَفَحِّشًا، وكان يقول: «إِنَّ مِنْ خِيَارِكُمْ أَحْسَنَكُمْ أَخْلَاقًا».

وفي الترمذي عن أبي الدرداء رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَا مِنْ شَيْءٍ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ، وَإِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ الْفَاحِشَ الْبَذِيءَ».

قال العلامة ابن القيم في «مدارج السالكين» (2/ 307): «فصل: الدِّين كُلُّهُ

خُلِقَ؛ فَمَنْ زَادَ عَلَيْكَ فِي الْخُلُقِ زَادَ عَلَيْكَ فِي الدِّينِ». اهـ.

وقال رَحِمَهُ اللهُ فِي الْمَصْدَرِ السَّابِقِ (2 / 308): «حُسْنُ الْخُلُقِ يَقُومُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَرْكَانٍ لَا يَتَصَوَّرُ قِيَامُ سَاقِهِ إِلَّا عَلَيْهَا: الصَّبْرُ، وَالْعِفَّةُ، وَالشَّجَاعَةُ، وَالْعَدْلُ.

فَالصَّبْرُ يَحْمِلُهُ عَلَى الْإِحْتِمَالِ، وَكُظْمُ الْغَيْظِ، وَكَفُّ الْأَذَى، وَالْحِلْمُ وَالْأَنَاءَةُ وَالرَّفْقُ، وَعَدَمُ الطَّيْشِ وَالْعَجَلَةِ.

وَالْعِفَّةُ تَحْمِلُهُ عَلَى اجْتِنَابِ الْقَبَائِحِ مِنَ الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ، وَتَحْمِلُهُ عَلَى الْحَيَاءِ، وَهُوَ رَأْسُ كُلِّ خَيْرٍ، وَتَمْنَعُهُ مِنَ الْفَحْشَاءِ وَالْكَذِبِ وَالْبُخْلِ وَالْغِيْبَةِ وَالنِّمِيمَةِ. وَالشَّجَاعَةُ تَحْمِلُهُ عَلَى عِزَّةِ النَّفْسِ، وَإِثَارِ مَعَالِي الْأَخْلَاقِ وَالشِّيمِ وَالْبَذْلِ وَالنَّدَى.

وَالْعَدْلُ يَحْمِلُهُ عَلَى اعْتِدَالِ أَخْلَاقِهِ، وَتَوَسُّطِهِ فِيهَا بَيْنَ طَرَفِي الْإِفْرَاطِ وَالتَّفْرِيطِ؛ فَيَحْمِلُهُ عَلَى خُلُقِ الْجُودِ وَالسَّخَاءِ الَّذِي هُوَ تَوَسُّطٌ بَيْنَ الذِّلِّ وَالْقِحَّةِ، وَعَلَى خُلُقِ الشَّجَاعَةِ الَّذِي هُوَ تَوَسُّطٌ بَيْنَ الْجَبَنِ وَالتَّهْوُرِ، وَعَلَى خُلُقِ الْحِلْمِ الَّذِي هُوَ تَوَسُّطٌ بَيْنَ الْغَضَبِ وَالْمَهَانَةِ وَسَقُوطِ النَّفْسِ.

وَمِنْشَأُ جَمِيعِ الْأَخْلَاقِ السَّافِلَةِ وَبِنَاؤُهَا عَلَى أَرْبَعَةِ أَرْكَانٍ: الْجَهْلُ، وَالظُّلْمُ، وَالشَّهْوَةُ، وَالْغَضَبُ». اهـ.

ولقد أحسن من قال:

إِنَّمَا الْأُمُّ الْأَخْلَاقُ مَا بَقِيَتْ فَإِنْ هُمُو ذَهَبَتْ أَخْلَاقُهُمْ ذَهَبُوا

قول المصنف رَحِمَهُ اللهُ: «وَيَنْدَبُونَ إِلَى أَنْ تَصِلَ مِنْ قَطْعِكَ، وَتُعْطِيَ مَنْ حَرَمَكَ، وَتَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَكَ».

وَذَلِكَ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ

يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿[آل عمران: 134]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: 37].

وفي «صحيح البخاري» عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَيْسَ الْوَاصِلُ بِالْمُكَافِي، وَلَكِنَّ الْوَاصِلَ الَّذِي إِذَا قُطِعَتْ رَحِمُهُ وَصَلَّاهَا».

وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رجل: يا رسول الله، إِنَّ لِي قَرَابَةً أَصِلُهُمْ وَيَقْطَعُونِي، وَأُحْسِنُ إِلَيْهِمْ وَيُؤْسِيُونَ إِلَيَّ، وَأَحْلُمُ عَنْهُمْ وَيَجْهَلُونَ عَلَيَّ. فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَإِنْ كُنْتَ كَمَا قُلْتَ، فَكَأَنَّمَا تُسِفُّهُمْ الْمَلَّ، وَلَا يَزَالُ مَعَكَ مِنَ اللَّهِ ظَهِيرٌ عَلَيْهِمْ مَا دُمْتَ عَلَى ذَلِكَ».

وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَجَمَاعٌ حُسْنُ الْخُلُقِ مَعَ النَّاسِ: أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ بِالسَّلَامِ وَالْإِكْرَامِ وَالِدُعَاءِ وَالِاسْتِغْفَارِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ وَالزِّيَارَةِ لَهُ، وَتُعْطِيَ مَنْ حَرَمَكَ مِنَ التَّعْلِيمِ وَالْمَنْفَعَةِ وَالْمَالِ، وَتَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَكَ فِي دَمٍّ أَوْ مَالٍ أَوْ عِرْضٍ، وَبَعْضُ هَذَا وَاجِبٌ، وَبَعْضُهُ مُسْتَحَبٌّ». اهـ. نقلاً من «التنبيهات السنية على العقيدة الواسطية» (ص 339).



«وَيَأْمُرُونَ بِيَرِّ الْوَالِدَيْنِ، وَصَلَةِ الْأَرْحَامِ، وَحُسْنِ الْجَوَارِ، وَالْإِحْسَانِ إِلَى الْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ، وَالرَّفْقِ بِالْمَمْلُوكِ».

أي: أن أهل السنة والجماعة يأمرُونَ بِيَرِّ الوالدين، وذلك بالإحسان إليهما بالقول والفعل، وعدم الإساءة إليهما بالقول والفعل، وطاعتهما في غير معصية الله؛ قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٍ وَلَا نَهْرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ٢٣﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿[الإسراء: 23-24]، وقال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفَصَّلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَىٰ الْمَصِيرِ ١٤﴾ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَإِنبِئْكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿[لقمان: 14-15].

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سألتُ رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى؟ قال: «الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا». قلتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قال: «بِرُّ الْوَالِدَيْنِ». قلتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قال: «الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جاء رجلٌ إلى رسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا رسولَ الله، مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحَسَنِ صَحَابَتِي؟ قال: «أُمُّكَ». قال: ثُمَّ مَنْ؟ قال: «أُمُّكَ». قال: ثُمَّ مَنْ؟ قال: «أُمُّكَ». قال: ثُمَّ مَنْ؟ قال: «أُمُّكَ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: أَقْبَلَ رجلٌ إِلَى نَبِيِّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: أَبَايَعُكَ عَلَى الْهَجْرَةِ وَالْجِهَادِ أَبْتَغِي الْأَجْرَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى.

قال: فهل لك من والديك أحدٌ حيٌّ؟

قال: «نعم، بل كلاهما». قال: «فتبغني الأجر من الله تعالى؟». قال: نعم.
قال: «فارجع إلي والديك؛ فأحسن صُحبتهما». رواه مسلم.

قول المصنف رَحِمَهُ اللهُ: «وصلة الأرحام».

الأرحام هنا: كلُّ مَنْ تَجَمَّعُكَ بهم قرابة، وأحقهم بِصِلَتِكَ الأقرب فالأقرب.
وصلة الرحم تكون بالقول وبالفعل حسب الاستطاعة بالمعروف.

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْخَلْقَ حَتَّى إِذَا فَرَّغَ مِنْهُمْ قَامَتِ الرَّحِمُ. فَقَالَتْ: هَذَا مَقَامُ الْعَائِدِ بِكَ مِنَ الْقَطِيعَةِ. قال: نعم، أما تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكَ، وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكَ؟ قالت: بلى. قال: فذلك لك».

ثم قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اقْرَءُوا إِن شِئْتُمْ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ ٢٢ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ﴾ [محمد: 22-23].

وفي البخاري ومسلم - أيضاً - عن أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ».

قال العلامة ابنُ عُثَيْمِينَ رَحِمَهُ اللهُ فِي «شرح الواسطية» (ص 677): «الصِّلة جاءت في القرآن والسُّنة مُطلقة.

وكلُّ ما أتى ولم يُحَدِّدْ بالشرع كالحرز فبالعرف اُحْدِدْ

وعلى هذا يُرجع إلى العرف فيها، فما سماه النَّاسُ صلة فهو صلة، وما سماه

قطيعة فهو قطيعة، وهذه تختلف باختلاف الأحوال والأزمان والأمكنة والأمم، إذا كان الناس في حال فقر وأنت غني وأقاربك فقراء فصلتُهم أن تُعطيهم بقدر حالك، وإذا كان الناس أغنياء وكلهم في خير، فيمكن أن يُعَدَّ الذهاب إليهم في الصباح أو المساء صلة، وفي زماننا هذا الصلة بين الناس قليلة، وذلك لانشغال الناس في حوائجهم، وانشغال بعضهم عن بعض، والصلة التامة أن تبحث عن حالهم، وكيف أولادهم، وترى مشاكلهم، ولكن هذه مع الأسف مفقودة، كما أن البر التام مفقود عند كثير من الناس». اهـ.

وقول المصنف رَحْمَةُ اللَّهِ: «وَحُسْنُ الْجَوَارِ».

قال تعالى: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ [النساء: 36].

وفي الصحيحين عن ابن عمر وعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قالا: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما زال جبريلُ يُوصيني بالجارِ حتَّى ظننتُ أنه سيورثه».

وفيهما - أيضًا - عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن». قيل: مَنْ يا رسول الله؟ قال: «الذي لا يأمن جاره بوائقه».

وفيهما عنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يُوْذِ جَارَهُ».

ويكون حُسن الجوار بالقول والفعل، كما أن الأذى يكون بالقول والفعل.

قول المصنف: «والإحسانُ إلى اليتامى والمساكين».

لقوله تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ﴾ [النساء: 36]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ

فَلَا نَقْهَرُ ❶ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا نَنْهَرُ ❁ [الضحى: 9-10]، وقال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ
الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِثْمِ ❶ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ❷ وَلَا يَحْصُ
عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ❁ [الماعون: 1-3].

وفي «صحيح البخاري» عن سَهْل بن سَعْد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا»، وأشار بالسَّبَّابَةِ والوَسْطَى،
وَفَرَّجَ بَيْنَهُمَا.

وفي البخاري ومسلم عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «السَّاعِي عَلَى الْأَرْمَلَةِ وَالْمِسْكِينِ، كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»،
وَأَحْسَبُهُ قَالَ: «كَالْقَائِمِ الَّذِي لَا يَفْتُرُ، وَكَالصَّائِمِ لَا يَفْطُرُ».

وعند أَبِي دَاوُدَ عن أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعتُ رسول الله
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «ابْغُؤْني الضُّعْفَاءُ؛ فَإِنَّمَا تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ بِضَعْفَائِكُمْ».

قول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَابْنُ السَّبِيلِ، وَالرَّفْقُ بِالْمَمْلُوكِ».

سُمِّيَ ابْنُ السَّبِيلِ بِذَلِكَ؛ لِمَلَاظِمَتِهِ السَّفَرَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿❁❁ وَأَعْبُدُوا اللَّهَ
وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۚ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ
وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا
مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ﴾ [النساء: 36].

وقد جعل الله ابْنَ السَّبِيلِ من مَصَارِفِ الزَّكَاةِ، وَلَهُ حَقُّ الضَّيَافَةِ وَالْإِكْرَامِ.
وَأَمَّا الرَّفْقُ بِالْمَمْلُوكِ فهو مَأْمُورٌ بِهِ سَوَاءٌ كَانَ لَكَ أَوْ لغيرِكَ، فَالرَّفْقُ بِهِ
وَالْإِحْسَانُ إِلَيْهِ مَطْلُوبٌ؛ لِعُمُومَاتِ الْأَدْلَةِ فِي الْإِحْسَانِ إِلَى الضَّعِيفِ وَالْمِسْكِينِ.
وقد قال النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما فِي الصَّحِيحَيْنِ: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ

مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ».

وفي «صحيح مسلم» أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يَحْبِسَ عَمَّنْ يَمْلُكُ قُوَّتَهُ».

وفي البخاري عن المَعْرُورِ قَالَ: «لَقِيتُ أَبَا ذَرٍّ بِالرَّبَذَةِ وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ وَعَلَى غَلَامِهِ حُلَّةٌ؛ فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: إِنِّي سَابَبْتُ رَجُلًا فَعَيَّرْتُهُ بِأُمِّهِ، فَقَالَ لِي النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا أَبَا ذَرٍّ، أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ؟ إِنَّكَ أَمْرٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ، إِخْوَانُكُمْ خَوْلُكُمْ، جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيَلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ».



«وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْفَخْرِ، وَالْخِيَلَاءِ، وَالْبَغْيِ، وَالْاِسْتِطَالَةِ عَلَى الْخَلْقِ بِحَقِّ أَوْ بَغَيْرِ حَقٍّ».

قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَاهُ﴾ [الحجرات: 13]، وقال تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: 83]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (١٨) وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان: 18-19]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ (٣٧) كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ [الإسراء: 37-38]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الشورى: 42].

وفي «صحيح مسلم» عن عياض بن حمار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَفْخَرُ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَبْغِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ».

وفي الصحيحين عن حارثة بن وهب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ؟». قالوا: بلى. قال: «كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعِّفٍ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَا بَرَّهَ». ثم قال: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ؟». قالوا: بلى. قال: «كُلُّ عُتْلٍ جَوَّازٍ مُسْتَكْبِرٍ».

والعتل: الشَّدِيدُ الْخُصُومَةُ الْجَافِي.

والجواظ: الجَموع المَنوع. وقيل: المُختال، أو الفاجر.

وعند أبي داود أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعَجَّلَ اللَّهُ لَصَاحِبِهِ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا مَعَ مَا يَدَّخِرُهُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْبَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ».

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «لَوْ بَغَى جَبَلٌ عَلَى جَبَلٍ لَدَكَ اللَّهُ الْبَاغِي مِنْهُمَا».

وقد قال العلامة ابن عُثَيْمِينَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «شرح الواسِطِيَّة» (ص 681-682): «الفخر بالقول، والخيلاء بالفعل والبغي والعدوان، والاستطالة: التَّرفُّع والاستعلاء.

فَيَنْهَوْنَ عَنِ الْفَخْرِ: أَنْ يَتَفَاخَرَ الْإِنْسَانُ عَلَى غَيْرِهِ بِقَوْلِهِ، فيقول: أنا العالم. أنا الغني. أنا الشجاع. وإن زاد على ذلك أَنْ يَسْتَطِيلَ عَلَى الْآخَرِينَ، ويقول: ماذا أنتم عندي؟ فيكون هذا فيه بغيٌّ واستطالة على الخلق.

والخيلاء تكون بالأفعال؛ يَتَخَايَلُ فِي مَشِيَّتِهِ، وفي وجهه، وفي رَفْعِ رَأْسِهِ وَرَقَبَتِهِ، إِذَا مَشَى كَأَنَّهُ وَصَلَ إِلَى السَّمَاءِ، وَاللَّهُ عَزَّوَجَلَّ وَبَّخَ مَنْ كَانَ هَكَذَا وَقَالَ: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: 37].

فأهل السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ يَنْهَوْنَ عَنْ هَذَا، ويقولون: كن متواضعًا في القول والفعل، حتى في القول لَا تُثْنِ عَلَى نَفْسِكَ بِصِفَاتِكَ الْحَمِيدَةِ إِلَّا حَيْثُ دَعَتِ الضَّرُورَةُ أَوْ الْحَاجَةُ إِلَى ذَلِكَ، كقول ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَوْ أَعْلَمُ أَحَدًا هُوَ أَعْلَمُ مِنِّي بِكِتَابِ اللَّهِ تَبْلُغُهُ الْإِبِلُ لَرَكِبْتُ إِلَيْهِ».

فإنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَصَدَ بِذَلِكَ أَمْرَيْنِ:

الأول: حَثُّ النَّاسِ عَلَى تَعَلُّمِ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى.

الثاني: دَعَوْتُهُم لِّلتَّلَقِّي عَنْهُ.

والإنسان ذو الصفات الحميدة لا يَظُنُّ النَّاسَ تَخْفِيَّ عَلَيْهِمْ خِصَالَهُ أَبَدًا، سواء ذَكَرَهَا لِلنَّاسِ أَمْ لَمْ يَذْكُرْهَا، بَلْ إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا صَارَ يُعَدِّدُ صِفَاتِهِ الْحَمِيدَةَ أَمَامَ النَّاسِ سَقَطَ مِنْ أَعْيُنِهِمْ؛ فَاحْذَرْ هَذَا الْأَمْرَ!

والبغي: العدوان على الغير.

وَمَوَاقِعُهُ ثَلَاثَةٌ بَيْنَهَا الرِّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَوْلِهِ: «إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ».

فالبغي على الخلق بالأموال والدماء والأعراض.

في الأموال: مِثْلُ أَنْ يَدَّعِي مَا لَيْسَ لَهُ، أَوْ يُنْكِرَ مَا كَانَ عَلَيْهِ، أَوْ يَأْخُذَ مَا لَيْسَ لَهُ؛ فَهَذَا بَغْيٌ عَلَى الْأَمْوَالِ.

وفي الدماء: الْقَتْلُ فَمَا دُونَهُ؛ يَعْتَدِي عَلَى الْإِنْسَانِ بِالْجَرَحِ وَالْقَتْلِ.

وفي الأعراض: يُحْتَمَلُ أَنْ يُرَادَ بِهَا: الْأَعْرَاضُ، يَعْنِي: السَّمْعَةُ؛ فَيَعْتَدِي عَلَيْهِ بِالْغَيْبَةِ الَّتِي يُشَوِّهُ بِهَا سَمْعَتَهُ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُرَادَ بِهَا الزُّنَا وَمَا دُونَهُ، وَالْكَلُّ مُحَرَّمٌ، فَأَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ يَنْهَوْنَ عَنِ الْإِعْتِدَاءِ عَلَى الْأَمْوَالِ وَالْأَعْرَاضِ.

وكذلك الاستطالة على الخلق، يعني الاستعلاء عليهم بحقٍّ، أو بغير حقٍّ.

فالاستعلاء على الخلق يَنْهَى عَنْهُ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ؛ سِوَاهُ كَانَ بِحَقِّ أَوْ

بغير حق.

والاستعلاء: هُوَ أَنَّ الْإِنْسَانَ يَتَرَفَعُ عَلَى غَيْرِهِ.

وحقيقة الأمر: أَنَّ مِنْ شُكْرِ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْكَ أَنَّ اللَّهَ إِذَا مَنَّ عَلَيْكَ بِفَضْلٍ عَلَى

غَيْرِكَ مِنْ مَالٍ أَوْ جَاهٍ أَوْ سِيَادَةٍ أَوْ عِلْمٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، فَإِنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ تَرْتَدَادَ تَوَاضَعًا

حتى تُضيف إلى الحُسْن حُسْنِي؛ لأنَّ الذي يتواضع في مَوْضع الرفعة هو المتواضع حقيقة.

ومعنى قوله: بحقٍّ، أي: حتى لو كان له الحقُّ في بيان أنَّه عالُّ مُترفع، فإنَّ أهل السُّنَّة والجماعة ينهون عن الاستعلاء والترفع، أو يقال: إنَّ معنى قوله: «الاستطالة بحقٍّ»: أن يكون أصلُ استطالته حقًّا بأن يكون قد اعتدى عليه إنسانٌ فيعتدي عليه أكثر.

فأهل السُّنَّة والجماعة ينهون عن الاستطالة والاستعلاء على الخلق، سواء كان ذلك بحقٍّ أو بغير حقٍّ. اهـ.



«وَيَأْمُرُونَ بِمَعَالِي الْأَخْلَاقِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ سَفْسَافِهَا.
وَكُلُّ مَا يَقُولُونَهُ وَيَفْعَلُونَهُ مِنْ هَذَا وَغَيْرِهِ؛ فَإِنَّمَا هُمْ فِيهِ مُتَّبِعُونَ لِلْكِتَابِ
وَالسُّنَّةِ، وَطَرِيقَتِهِمْ هِيَ دِينُ الْإِسْلَامِ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ بِهِ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَيَأْمُرُونَ بِمَعَالِي الْأَخْلَاقِ».
أي: الأخلاق العالية الحسنة، كالصدق والعفاف والصبر والأمانة، وغير ذلك.
وقوله: «وَيَنْهَوْنَ عَنِ سَفْسَافِهَا».

أي: رديئها وحقيرها، كالكذب والخيانة والحسد وغيرها.
قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَكُلُّ مَا يَقُولُونَهُ وَيَفْعَلُونَهُ مِنْ هَذَا وَغَيْرِهِ، فَإِنَّمَا هُمْ فِيهِ
مُتَّبِعُونَ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ».

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ في «شرح الواسطية» (ص 683): «وهذه
حالٌ ينبغي أن يُتنبه لها، وهو أننا كُلُّ ما نقوله وكل ما نفعله نشعر حال قوله أو
فعله أننا نتبع فيه الرسول عليه الصلاة والسلام مع الإخلاص لله؛ لتكون أقوالنا
وأفعالنا كلها عبادات لله عَزَّوَجَلَّ ولهذا يقال:

إِنَّ عِبَادَاتِ الْغَافِلِينَ عَادَاتٌ، وَعَادَاتُ الْمُتَنَبِّهِينَ عِبَادَاتٌ.

فالإنسان الموفق يُمكن أن يُحوَّل العادات إلى عبادات، والإنسان الغافل
يجعل عباداته عادات؛ فليحرص المؤمن على أن يجعل أقواله وأفعاله كلها تبعاً
لكتاب الله وسُنَّة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لينال بذلك الأجر، ويحصل به كمالُ
الإيمان والإنابة إلى الله عَزَّوَجَلَّ. اهـ.

قول المصنف رَحِمَهُ اللهُ: «وطريقَتُهُم: هي دينُ الإسلام الذي بعث اللهُ به مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

قال شيخُ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ كما في «مَجْمُوعُ الْفَتَاوَى» (3/ 369): «فأمرُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي أُمِّ الْكِتَابِ الَّتِي لَمْ يَنْزَلْ فِي التَّوْرَةِ وَلَا فِي الْإِنْجِيلِ وَلَا فِي الزَّبُورِ وَلَا فِي الْفُرْقَانِ مِثْلَهَا، وَالَّتِي أُعْطِيَهَا نَبِيُّنَا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ كَنْزٍ تَحْتَ الْعَرْشِ وَالَّتِي لَا تَجْزِي صَلَاةً إِلَّا بِهَا أَنْ نَسْأَلَهُ أَنْ يَهْدِيَنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ؛ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ غَيْرَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ؛ كَالْيَهُودِ، وَلَا الضَّالِّينَ كَالنَّصَارَى.

وهذا الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ هُوَ دِينُ الْإِسْلَامِ الْمَحْضُ، وَهُوَ مَا فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى وَهُوَ السُّنَّةُ وَالْجَمَاعَةُ، فَإِنَّ السُّنَّةَ الْمَحْضَةَ هِيَ دِينُ الْإِسْلَامِ الْمَحْضُ، فَإِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رُوي عنه من وجوهٍ مُتَعَدِّدَةٍ، رَوَاهَا أَهْلُ السُّنَنِ وَالْمَسَانِيدِ، كَالْإِمَامِ أَحْمَدَ وَأَبِي دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِي وَغَيْرِهِمْ أَنَّهُ قَالَ: «سَتَفْتَرِقُ هَذِهِ الْأُمَّةُ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً؛ كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً، وَهِيَ الْجَمَاعَةُ».

وفي رواية: «مَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي». اهـ.



«لَكِنْ لَمَّا أَخْبَرَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - أَنَّ أُمَّتَهُ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً: كُلُّهَا فِي النَّارِ؛ إِلَّا وَاحِدَةً، وَهِيَ الْجَمَاعَةُ. وَفِي حَدِيثٍ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «هُمْ مَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ الْيَوْمَ وَأَصْحَابِي»، صَارَ الْمُتَمَسِّكُونَ بِالْإِسْلَامِ الْمَحْضِ الْخَالِصِ عَنِ الشُّوبِ هُمْ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ».

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ كما في «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى» (3/ 345 - 347):
«الْحَدِيثُ صَحِيحٌ مَشْهُورٌ فِي السُّنَنِ وَالْمَسَانِيدِ، كـ«سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ» وَالتِّرْمِذِيِّ وَالنَّسَائِيِّ وَغَيْرِهِمْ، وَلَفْظُهُ: «افْتَرَقَتِ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً، وَافْتَرَقَتِ النَّصَارَى عَلَى اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً، وَسَتَفْتَرِقُ هَذِهِ الْأُمَّةُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً».

وَفِي لَفْظٍ: «عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً»، وَفِي رِوَايَةٍ: «قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ الْفِرْقَةُ النَّاجِيَةُ؟ قَالَ: «مَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ الْيَوْمَ وَأَصْحَابِي».

وَفِي رِوَايَةٍ قَالَ: «هِيَ الْجَمَاعَةُ، يَدُ اللَّهِ عَلَى الْجَمَاعَةِ».

وَلِهَذَا وَصَفَ الْفِرْقَةَ النَّاجِيَةَ بِأَنَّهَا أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، وَهُمْ الْجُمْهُورُ الْأَكْبَرُ، وَالسَّوَادُ الْأَعْظَمُ.

وَأَمَّا الْفِرْقُ الْبَاقِيَةُ فَإِنَّهُمْ أَهْلُ الشُّذُوزِ وَالتَّفَرُّقِ وَالبِدْعِ وَالْأَهْوَاءِ، وَلَا تَبْلُغُ الْفِرْقَةُ مِنْ هَؤُلَاءِ قَرِيبًا مِنْ مَبْلَغِ الْفِرْقَةِ النَّاجِيَةِ فَضْلًا عَنْ أَنْ تَكُونَ بِقَدَرِهَا، بَلْ قَدْ تَكُونُ الْفِرْقَةُ مِنْهَا فِي غَايَةِ الْقِلَّةِ.

وَشِعَارُ هَذِهِ الْفِرْقِ: مَفَارِقَةُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْإِجْمَاعِ.

فَمَنْ قَالَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْإِجْمَاعِ كَانَ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ.

وأما تعيين هذه الفرق، فقد صَنَّفَ النَّاسُ فِيهِمْ مُصَنَّفَاتٍ، وذكروهم في كتب المقالات، لكن الجزم بأن هذه الفرقة الموصوفة هي إحدى الثنتين والسبعين لا بدَّ له من دليل، فإنَّ الله حَرَّمَ الْقَوْلَ بِلا عِلْمٍ عَمُومًا، وَحَرَّمَ الْقَوْلَ عَلَيْهِ بِلا عِلْمٍ خَاصًّا؛ فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 33]، وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (١٦٨) إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ [البقرة: 168-169]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: 36].

وأيضًا، فكثيرٌ من النَّاسِ يُخْبِرُ عَنْ هَذِهِ الْفِرْقِ بِحُكْمِ الظَّنِّ وَالْهَوَى، فيجعل طائفته والمُنتَسِبَةَ إِلَيْهِ مَتَّبِعِيهِ الْمُوَالِيَةِ لَهُ هُمُ أَهْلُ الْحَقِّ وَالسُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، وَيَجْعَلُ مَنْ خَالَفَهَا هُمُ أَهْلُ الْبِدْعِ، وهذا ضلالٌ مُبِينٌ.

فإنَّ أَهْلَ الْحَقِّ وَالسُّنَّةِ لَا يَكُونُ مَتَّبِعِيهِمْ إِلَّا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي لَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى؛ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى؛ فَهُوَ الَّذِي يَجِبُ تَصَدِيقُهُ فِي كُلِّ مَا أَخْبَرَ، وَطَاعَتُهُ فِي كُلِّ مَا أَمَرَ، وَلَيْسَتْ هَذِهِ الْمَنْزِلَةُ لغيرِهِ مِنَ الْأُئِمَّةِ، بَلْ كُلُّ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ وَيُتْرَكُ إِلَّا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فَمَنْ جَعَلَ شَخْصًا مِنَ الْأَشْخَاصِ غَيْرَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَحَبَّةٍ وَوَافِقِهِ كَانَ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، وَمَنْ خَالَفَهُ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْبِدْعَةِ وَالْفِرْقَةِ، كَمَا يُوجَدُ ذَلِكَ فِي الطَّوَائِفِ مِنْ أَتْبَاعِ أئِمَّةِ الْكَلَامِ فِي الدِّينِ وَغَيْرِ ذَلِكَ - كَانَ مِنْ أَهْلِ الْبِدْعِ وَالضَّلَالِ وَالتَّفَرُّقِ.

وبهذا يتبين أنَّ أَحَقَّ النَّاسِ بِأَنْ تَكُونَ هِيَ الْفِرْقَةُ النَّاجِيَةُ أَهْلُ الْحَدِيثِ وَالسُّنَّةِ

الذين ليس لهم متبوع يَتَعَصَّبُونَ له إلا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهم أعلمُ النَّاسِ بأقواله وأحواله وأعظمهم تمييزاً بين صحيحها وسقيمها، وأئمتهم فقهاء فيها، وأهل معرفة بمعانيها واتباعاً لها؛ تصديقاً وعملاً وحُباً وموالاة لمن والاهَا، ومعاداة لمن عاداهَا، الذين يَرُدُّون المقالات المُجملة إلى ما جاء به من الكتاب والحكمة، فلا يَنْصبون مقالة ويجعلونها من أصول دينهم وجُمْل كلامهم إن لم تكن ثابتة فيما جاء به الرسول، بل يجعلون ما بُعث به الرسول من الكتاب والحكمة هو الأصل الذي يَعْتقدونه ويعتمدونه». اهـ.

الثَّنين والسَّبعين فرقة ليست خارجة عن الإسلام:

قال شيخ الإسلام كما في «مَجْموع الفتاوى»: «والنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يُخبر بأنَّ الثَّنين والسَّبعين فرقة خارجة عن الإسلام، بل جعلهم من أُمَّتِهِ، ولم يقل: إِنَّهُمْ مَخْلَدُونَ في النار، فمن كَفَّر الثَّنين وسبعين فرقة فقد خالف الكتاب والسُّنَّة والصَّحابة والتَّابعين لهم بإحسان». اهـ.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ (7/ 218): «وَمَنْ قَالَ: إِنَّ الثَّنين وسبعين فرقة كل واحد منهم يَكْفُر كُفْرًا يَنْقِلُ عن المِلَّة - فقد خالف الكتاب والسُّنَّة وإجماع الصَّحابة رضوان الله عليهم أجمعين، بل وإجماع الأئمة الأربعة وغير الأربعة». اهـ.

هل ظَهَرَت الفِرْقُ كُلُّهَا أم بعضها؟

قال العلامةُ ابنُ عُثَيْمِينَ رَحِمَهُ اللَّهُ في «شرح الواسِطِيَّة» (ص 684 - 685): «وهذه الثَّلَاثُ والسَّبعون فِرْقَةً: هل وقعتِ الآن وتَمَّتْ، أو هي في المَنْظور؟

أكثر الذين تَكَلَّمُوا على هذا الحديث قالوا: إِنَّهَا وقعت وانتهت، وصاروا يُقَسِّمُونَ أهل البدع إلى خمسة أصول رئيسية، ثم هذه الخمسة الأصول يُفَرِّعُونَ

عنها فِرَقًا حتَّى أَوْصَلوها إلى اثنتين وسبعين فرقة، وأبقوا فرقة واحدة، وهي أهل السُّنَّة والجَمَاعَة.

وقال بعض العلماء: إِنَّ الرسول - عليه الصلاة والسلام - أَبْهَمَ هذه الفرق، ولا حاجة أن نَتَكَلَّم فنُقَسِّم البدع الموجودة الآن إلى خمسة أصول، ثم نُقَسِّم هذه الأصول إلى فروع حتَّى يَتِمَّ العدد، حتَّى إِنَّا نجعل الفرع أحيانًا فرقة تامة من أجل مُخالفتها في فرع واحد، فَإِنَّ هذا لا يُعَدُّ فرقة، فالأوَّلَى أن نقول: إِنَّ هذه الفرق غير معلومة لنا، ولكننا نقول بلا شك: إِنَّها فِرَقٌ خَرَجَتْ عن الصِّراط المُستقيم منها ما خَرَجَ فَأَبْعَدَ، ومنها ما خَرَجَ خروجا مُتوسطًا، ومنها ما خَرَجَ خروجا قريبا، ولا نُلْزِم بحصرها؛ لأنَّه ربما تَخْرُجُ فرقٌ تَنْتَسِبُ للأمة الإسلامية غير التي عَدَّها العلماء، كما هو الواقع؛ فقد خَرَجَتْ فرقٌ تَنْتَسِبُ إلى الإسلام من غير الفرق التي كانت قد عُدَّت في عهد العلماء السابقين.

وعلى كُلِّ حالٍ، فالرسول - عليه الصلاة والسلام - أَخْبَرَ أن أُمَّتَهُ أُمَّةُ الإِجَابَةِ سَتَفْتَرِقُ على ثلاث وسبعين فرقة، كلها ضالَّةٌ وفي النار إلا واحدة، وهي الجماعة التي اجتمعت على الحقِّ، ولم تَفْتَرِقْ فيه». اهـ.

فأهل السُّنَّة - كما قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ -: «هُمُ الْمُتَمَسِّكُونَ بالإسلام المحضِ الخالصِ عَنِ الشُّوبِ».

فهم أَبْعَدُ النَّاسِ عن البدع والضَّلالات والخُرَافات والأهواء، وأَسْعَدُ النَّاسِ بالمعقول والمنقول، وليس مِثْلُهم أَحَدٌ في تعظيم الكتاب والسنة ومتابعة سلف الأمة؛ فلا يُقَدِّمون على النُّقل عقلاً ولا ذَوْقاً ولا عادةً ولا مَنَاماً ولا وَجْداً، يَزِنُونَ الرِّجَالَ وأقوالهم بالكتاب والسُّنَّة، ولا يَزِنُونَ الكتاب والسُّنَّةَ بآراء الرِّجَال، فَلِلَّهِ دَرْهُمْ، وعليه أَجْرُهُم.

«وَفِيهِمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ وَالصَّالِحُونَ، وَمِنْهُمْ أَعْلَامُ الْهُدَى، وَمَصَابِيحُ الدُّجَى، أُولُو الْمَنَاقِبِ الْمَأْثُورَةِ، وَالْفَضَائِلِ الْمَذْكُورَةِ، وَفِيهِمُ الْأَبْدَالُ، وَفِيهِمُ أُمَمٌ الدِّينِ الَّذِينَ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى هِدَايَتِهِمْ وَدِرَايَتِهِمْ».

الْفِرْقَةُ النَّاجِيَةُ الْمَنْصُورَةُ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ مَظِنَّةٌ لِكُلِّ خَيْرٍ، وَمَنْبَعُ كُلِّ خَيْرٍ، وَأَهْلُهَا أَصْفَى النَّاسِ مَوْرِدًا، وَأَحْسَنُهُمْ طَرِيقًا، وَأَنْفَعُهُمْ أَثَرًا، وَأَصْدَقُهُمْ حَدِيثًا؛ فـ «فِيهِمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ وَالصَّالِحُونَ، وَمِنْهُمْ أَعْلَامُ الْهُدَى، وَمَصَابِيحُ الدُّجَى، أُولُو الْمَنَاقِبِ الْمَأْثُورَةِ، وَالْفَضَائِلِ الْمَذْكُورَةِ».

وقد سبق الكلام على الصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَمِنْهُمْ أَعْلَامُ الْهُدَى».

الأعلام: جمع علم، وهو ما يُهْتَدَى به إلى الطَّرِيقِ مِنْ جَبَلٍ وَغَيْرِهِ.

ومنه قولُ الْخَنَسَاءِ فِي رِثَاءِ أَخِيهَا صَخْر:

وَإِنْ صَخْرًا لَتَأْتُمُ الْهُدَاةُ بِهِ كَأَنَّهُ عِلْمٌ فِي رَأْسِهِ نَارٌ

وَسُمِّيَ الْعَالِمُ عِلْمًا؛ لِأَنَّ النَّاسَ يَهْتَدُونَ بِعِلْمِهِ إِلَى الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ.

الهدى: ضِدُّ الضَّلَالِ.

فأهل السُّنَّةِ فِيهِمُ الْعُلَمَاءُ الرَّبَّانِيُّونَ الْهُدَاةُ الْمُهْتَدُونَ بِخِلَافِ غَيْرِهِمْ؛ ففِيهِمُ عِلْمَاءُ الضَّلَالَةِ.

فعِلَمَاءُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ يَهْدُونَ النَّاسَ إِلَى صِرَاطِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ هِدَايَةً دَلَالَةً وَإِرْشَادًا؛ لِأَنَّهُمْ يَحْمِلُونَ الْعِلْمَ الصَّحِيحَ الصَّافِي؛ مِيرَاثَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله: «مَصَابِيحُ الدُّجَى».

المَصَابِيحُ: جمع مصباح، وهو السراج.
والدُّجَى: الظُّلْمَة.

فَمِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ مَصَابِيحُ الدُّجَى الَّذِينَ يُسْتَضَاءُ بِهِمْ فِي ظُلُمَاتِ الشَّرِّ
وَالْجَهْلِ وَالْهَوَى وَالْفِتَنِ، فَهُمْ مَصَابِيحُ الظُّلَمِ يَسْتَضِيءُ النَّاسُ بِنُورِهِمْ.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «أُولُو الْمَنَاقِبِ الْمَأْثُورَةِ وَالْفَضَائِلِ الْمَذْكُورَةِ».

المَنَاقِبُ: جَمْعُ مَنَقِبَةٍ، وَهِيَ الْمَفْخَرَةُ وَالْمَرْتَبَةُ.

المَأْثُورَةُ، أَي: الْمَذْكُورَةُ.

وَالْفَضَائِلُ: جَمْعُ فَضِيلَةٍ، وَهِيَ ضِدُّ النَّقِیصَةِ وَالرَّذِيلَةِ، فَالْفَضَائِلُ: الْخِصَالُ
الْفَاضِلَةُ الْحَسَنَةُ.

الْمَذْكُورَةُ، أَي: ذَائِعَةُ الصِّيتِ الْمُتَرَدِّدَةِ عَلَى أَلْسِنَةِ النَّاسِ.

وَالذِّكْرُ: هُوَ الصِّيتُ وَالشَّرْفُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ

ط [الزخرف: 44].

فَعِلْمَاءُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَأَتْمَتُهُمْ قَدْ مَاتَ أَبْدَانُهُمْ وَهُمْ أَحْيَاءُ بَيْنَ النَّاسِ بِعِلْمِهِمْ
وَأَثَارِهِمْ الْحَمِيدَةِ وَمَوَاقِفِهِمْ السَّادِدَةِ وَفَتَاوِيهِمْ الرَّشِيدَةَ، فَهُمْ مَضْرِبُ مَثَلٍ فِي
عِلْمِهِمْ وَزُهْدِهِمْ وَثَبَاتِهِمْ عَلَى الْحَقِّ، وَنُصْرَتِهِمْ لِدِينِ اللَّهِ، وَالسُّنَّةِ النَّاسِ تَلْهَجُ
بِالثَّنَاءِ عَلَيْهِمْ، وَالِدُّعَاءِ لَهُمْ، وَهَذَا هُوَ عُمَرُ ثَانٍ وَحَيَاةُ ثَانِيَةٍ، كَمَا قِيلَ:

دَقَّاتُ قَلْبِ الْمَرْءِ قَائِلَةٌ لَهُ إِنَّ الْحَيَاةَ دَقَائِقُ وَثَوَانُ

فَارْفَعْ لِنَفْسِكَ قَبْلَ مَوْتِكَ ذِكْرَهَا فَالذِّكْرُ لِلْإِنْسَانِ عُمَرُ ثَانِي

وكما قال المُتَنَبِّي :

ذِكْرُ الْفَتَى عُمَرُ الثَّانِي وَحَاجَّتُهُ مَا قَاتَهُ وَفَضُولُ الْعَيْشِ أَشْغَالُ

وقال آخر:

أَخُو الْعِلْمِ حَيٌّ خَالِدٌ بَعْدَ مَوْتِهِ وَأَوْصَالُهُ تَحْتَ الثَّرَابِ رَمِيمٌ
وَذُو الْجَهْلِ مَيِّتٌ وَهُوَ يَمْشِي عَلَى يُعَدُّ مِنَ الْأَحْيَاءِ وَهُوَ عَدِيمٌ
قوله: «وفيهم الأبدال».

لفظ الأبدال لم يرد في كتاب الله، ولا في صحيح سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا من كلام الصحابة رضي الله عنهم، وقد اشتهر استعمال هذا اللفظ عند الصوفية.

وقد أطلقه بعض علماء أهل السنة والجماعة على بعض العلماء والصالحين، وأرادوا به معنىً صحيحاً، وأنه كلما مات منهم واحد خلفه آخر، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح الذي أخرجه ابن ماجه عن أبي عنبه الخولاني: «لا يزال الله يغرُس لهذا الدين غرساً يستعملهم في طاعته».

وقيل: إن هؤلاء العلماء والعُباد سُمُوا أبدالاً؛ لأنهم كانوا يُبدلون سيئاتهم حسنات بالتوبة والاستغفار والاستكثار من الأعمال الصالحة، وقيل غير ذلك من المعاني الصحيحة.

وهذا مرادُ شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في هذا الموضع.

وقد جاءت في الأبدال أحاديث لا يصح منها شيء.

فقد سئل شيخ الإسلام كما في «مجموع الفتاوى» (11 / 433) عن الحديث

المَرْوِيَّ في الأبدال: هل هو صحيح أم هو مَقْطُوع؟ وهل الأبدال مَخْصُوصُونَ بالشَّام؟ أم حيث تكون شعائرُ الإسلام قائمةً بالكتاب والسُّنة يكون بها الأبدال بالشَّام وغيره من الأقاليم؟ وهل صحيح أن الوليَّ يكون قاعدًا في جماعة ويَغيب جسده؟

فأجاب رَحْمَةُ اللَّهِ: «أما الأسماءُ الدَّائرة على ألسنة كثيرٍ من النُّسَّاك والعامَّة؛ مثل (الغوث) الذي بمكة، و(الأوتاد الأربعة)، و(الأقطاب السَّبعة)، و(الأبدال الأربعين)، و(النُّجباء الثلاثمائة)؛ فهذه أسماءٌ ليست موجودة في كتاب الله تعالى، ولا هي - أيضًا - مأثورة عن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِإِسْنَادٍ صحيحٍ ولا ضَعِيفٍ يُحْمَلُ عليه ألفاظُ الأبدال، فقد رُوي فيهم حديث شامي مُنْقَطِعُ الإسناد عن عليِّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا إلى النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «إِنَّ فيهم - يعني: أهل الشَّام - الأبدال الأربعين رجلًا، كلما مات رجلٌ أَبْدَلَهُ اللهُ تعالى - مكانه رجلًا».

ولا توجد هذه الأسماء في كلام السَّلف، كما هي على هذا الترتيب، ولا هي مأثورة على هذا الترتيب والمعاني عن المشايخ المقبولين عند الأمة قبولًا عامًّا وإنما توجد على هذه الصورة عن بعض المُتوسِّطين من المشايخ، وقد قالها إمَّا أثرًا عن غيره أو ذَكْرًا. اهـ.

وقد أوردَ المُحَدِّثُ العَلَّامَةُ الألبانيُّ رَحْمَةُ اللَّهِ عِدَّةَ أَحاديثٍ في الأبدال في «سلسلة الأحاديث الضَّعيفة»، وقال (2/ 339): «واعلم أن أحاديث الأبدال لا يصحُّ منها شيءٌ، وكلها معلولة، وبعضها أشدُّ ضَعْفًا من بعض». اهـ.

الحديث الأول: عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خيار أُمَّتي في كلِّ قَرْنٍ خمسمائة، والأبدال أربعون، فلا الخمسمائة يَنْقُصُونَ، ولا الأربعون،

كلما مات رجلُ أْبْدَل الله عَزَّوَجَلَّ من الخَمْسَمِائَةِ مكانه وأدخل من الأربعين مكانه». قالوا: يا رسول الله، ذُلُّنا على أَعْمَالِهِمْ! قال: «يَعْفُونَ عَمَّن ظَلَمَهُمْ، وَيُحَسِّنُونَ إِلَى مَنْ أَسَاءَ إِلَيْهِمْ، وَيَتَوَاسَوْنَ فِيمَا آتَاهُمُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ».

قال العَلَّامَةُ الأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «سِلْسِلَةِ الأَحَادِيثِ الضَّعِيفَةِ» (2/ 339 / 935): «مَوْضُوعٌ؛ أَخْرَجَهُ أَبُو نَعِيمٍ فِي «الْحِلْيَةِ» (1/ 8) مِنْ طَرِيقِ الطَّبْرَانِيِّ، وَعَنْهُ ابْنُ الجَوْزِيِّ فِي «المَوْضُوعَاتِ» (3/ 151)».

الحديث الثاني: عَنْ عِبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْأَبْدَالُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ ثَلَاثُونَ رَجُلًا مِثْلَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ الرَّحْمَنِ عَزَّوَجَلَّ، كُلَّمَا مَاتَ رَجُلٌ أْبْدَلَهُ اللهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - مَكَانَهُ رَجُلًا».

قال العَلَّامَةُ الأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «السِّلْسِلَةِ الضَّعِيفَةِ» (2/ 340 / 936): «حَدِيثٌ مُنْكَرٌ رَوَاهُ الإِمَامُ أَحْمَدُ (5/ 322)، وَالْهَيْثَمُ بْنُ كَلِيبٍ فِي «مُسْنَدِهِ» (159 / 1 - 2)، وَالْخَلَّالُ فِي «كَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ» (ق 1 / 2)، وَأَبُو نَعِيمٍ فِي «أَخْبَارِ أَصْبَهَانَ» (1/ 180)، وَعَنْهُ ابْنُ عَسَاكِرٍ فِي «التَّارِيخِ» (1/ 67 - 2) عَنْ الْحَسَنِ بْنِ ذَكْوَانَ، عَنْ عَبْدِ الْوَاحِدِ بْنِ قَيْسٍ، عَنْ عِبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ مَرْفُوعًا. وَقَالَ الإِمَامُ أَحْمَدُ عَقِبَهُ: هُوَ حَدِيثٌ مُنْكَرٌ». اهـ.

الحديث الثالث: عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ الْأَبْدَالَ بِالشَّامِ يَكُونُونَ وَهُمْ أَرْبَعُونَ رَجُلًا بِهِمْ تُسْقَوْنَ الْغَيْثُ، وَبِهِمْ تُنْصَرُونَ عَلَى أَعْدَائِكُمْ، وَيُصْرَفُ عَنْ أَهْلِ الْأَرْضِ الْبَلَاءُ وَالْغَرَقُ».

أَخْرَجَهُ الإِمَامُ أَحْمَدُ (1/ 112)، وَابْنُ عَسَاكِرٍ فِي «تَارِيخِ دِمَشْقَ» (1/ 67 / 1).

قال العلامة الألباني: «ضعيف، ونقل عن ابن عساكر أنه أعله بالانقطاع بين شريح وعلي رضي الله عنه». اهـ. «سلسلة الأحاديث الضعيفة» (6/564-2993/565).

كما أعله العلامة أحمد شاكر رحمه الله في تحقيق «المُسند».

قال شيخ الإسلام رحمه الله كما في رسالته: «زيارة القبور والاستنجاد بالمقبور» (ص 62-63): «أما سؤال السائل عن القطب والغوث الفرد الجامع، فهذا يقوله طوائف من الناس، ويُفسرُونه بأمور باطلة في دين الإسلام مثل تفسير بعضهم أن الغوث هو الذي يكون مدد الخلائق بواسطته في نصرهم ورزقهم حتى يقول: إن مدد الملائكة وحيثان البحر بواسطته.

فهذا من جنس قول النصارى في المسيح عليه السلام، والغالية في علي رضي الله عنه، وهذا كفر صريح يُستتاب منه صاحبه، فإن تاب وإلا قتل فإنه ليس من المخلوقات لا ملك ولا بشر يكون إمداد الخلائق بواسطته، ولهذا كان ما يقوله الفلاسفة في العقول العشرة الذين يزعمون أنها الملائكة، وما يقوله النصارى في المسيح ونحو ذلك كفر صريح باتفاق المسلمين.

وكذلك أعني بالغوث: ما يقوله بعضهم من أن في الأرض ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، يُسمونهم النُجباء، فينتقي منهم سبعون هم النقباء، ومنهم أربعون هم الأبدال، ومنهم سبعة هم الأقطاب، ومنهم أربعة هم الأوتاد، ومنهم واحد، وهو الغوث، وأنه مُقيم بمكة، وأن أهل الأرض إذا نابهم نائبة في رزقهم ونصرهم فرزعا إلى الثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، وأولئك يفرعون إلى السبعين، والسبعون إلى الأربعين، والأربعون إلى السبعة، والسبعة إلى الأربعة، والأربعة إلى الواحد.

وبعضهم قد يزيد في هذا وينقص في الأعداد والمراتب، فإنَّ لهم فيها مقالات متعددة، حتى يقول بعضهم: إنَّه ينزل من السماء على الكعبة ورقة خضراء باسم غوث الوقت واسم خضره، على قول من يقول منهم: إنَّ الخضر هو مرتبة، وإنَّ لكل زمان خضرًا، فإنَّ لهم في ذلك قولين، وهذا كله باطل لا أصل له في كتاب الله ولا في سنة رسوله، ولا قاله أحدٌ من سلف الأمة ولا أئمتها، ولا من المشايخ الكبار المتقدمين الذين يصلحون للاقتداء بهم.

ومعلومٌ أنَّ سيِّدنا رسول رب العالمين وأبا بكر وعمر وعثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كانوا خيرَ الخلق في زمنهم، وكانوا بالمدينة، ولم يكونوا بمكة». اهـ.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ كما في «مَجْمُوعُ الْفَتَاوَى» (11/ 435 - 438): «فالكتبُ الْمُتَزَّلَةُ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَثَارَةُ مِنَ الْعِلْمِ الْمَأْثُورَةُ عَنْ خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ يُمَيِّزُ اللَّهُ بِهَا الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ، وَيَحْكُمُ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ، وَبِذَلِكَ يَتَبَيَّنُ أَنَّ هَذِهِ الْأَسْمَاءَ عَلَى هَذَا الْعَدَدِ وَالتَّرْتِيبِ وَالطَّبَقَاتِ لَيْسَتْ حَقًّا فِي كُلِّ زَمَانٍ، بَلْ يَجِبُ الْقَطْعُ بِأَنَّ هَذَا عَلَى عُمُومِهِ، وَإِطْلَاقِهِ بَاطِلٌ.

فإنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَقْلُّونَ تَارَةً، وَيَكْثُرُونَ أُخْرَى، وَيَقْلُّ فِيهِمُ السَّابِقُونَ الْمُقَرَّبُونَ تَارَةً، وَيَكْثُرُونَ أُخْرَى، وَيَنْتَقِلُونَ فِي الْأَمَكَةِ، وَلَيْسَ مِنْ شَرَطِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ أَهْلُ الْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى وَمَنْ يَدْخُلُ فِيهِمْ مِنَ السَّابِقِينَ الْمُقَرَّبِينَ - لَزُومُ مَكَانٍ وَاحِدٍ فِي جَمِيعِ الْأَزْمَنَةِ، وَلَيْسَ مِنْ شَرَطِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ أَهْلُ الْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى، وَمَنْ يَدْخُلُ فِيهِمْ مِنَ السَّابِقِينَ الْمُقَرَّبِينَ - تَعْيِينُ الْعَدَدِ.

وقد بعث الله رسوله بالحقِّ وآمن معه بمكة نفرٌ قليلٌ كانوا أقلَّ من سبعة، ثم أقلَّ من أربعين، ثم أقلَّ من سبعين، ثم أقلَّ من ثلاثمائة؛ فيُعلم أنَّه لم يكن فيهم هذه الأعداد، ومن الممتنع أن يكون ذلك في الكُفَّار، ثم هاجر هو وأصحابه إلى

المدينة، وكانت هي دار الهجرة والسنة والنصرة ومستقر النبوة وموضع خلافة النبوة، وبها انعقدت بيعة الخلفاء الراشدين؛ أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ - رضوان الله عليهم أجمعين - وإن كان قد خرج منها بعد أن بُويع فيها، ومن المُمْتنع أنه قد كان بمكة في زمنهم من يكون أفضل منهم.

ثم إن الإسلام انتشر في مشارق الأرض ومغاربها، وكان في المؤمنين في كل وقت من أولياء الله المُتَّقِينَ - بل من الصّديقين السابقين المُقَرَّبِينَ - عددٌ لا يُحصى عدده إلا ربُّ العالمين، لا يُحصرون بثلاثمائة، ولا بثلاثة آلاف.

ولمّا انقضت القرونُ الثلاثةُ الفاضلةُ كان في القرون الخالية من أولياء الله المُتَّقِينَ - بل من السابقين المُقَرَّبِينَ - من لا يُعرف عدده، وليسوا بمحصورين بعددٍ، ولا محدودين بأمَدٍ، وكل من جعلَ لهم عددًا محصورًا فهو من المُبطلين عمدًا أو خطأ.

فنسأله: من كان القطب والثلاثة إلى سبعمائة في زمن آدم ونوح وإبراهيم وقبل مُحَمَّدٍ - عليهم الصّلاة والسلام - في الفترة حين كان عامّة الناس كفرة؟ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا﴾ [النحل: 120]، أي: كان مؤمنًا وحده، وكان الناس جميعًا كُفَرًا.

وفي «صحيح البخاري» أنّه قال لِسَارَةَ: «لَيْسَ عَلَى الْأَرْضِ الْيَوْمَ مُؤْمِنٌ غَيْرِي وَغَيْرُكَ».

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة: 2]. وإن زعموا أنّهم كانوا بعد رسولنا - عليه السلام - نسألهم في أيّ زمان

كانوا؟ ومن أول هؤلاء؟ وبأية آية؟ وبأي حديث مشهور في الكتب الستة؟ وبأي إجماع متواتر من القرون الثلاثة ثبت وجود هؤلاء بهذه الأعداد حتى نعتقده؟ لأن العقائد لا تعتقد إلا من هذه الأدلة الثلاثة، ومن البرهان العقلي؛ ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: 111].

فإن لم يأتوا بهذه الأدلة الأربعة الشرعية فهم الكاذبون بلا ريب؛ فلا نعتقد أكاذيبهم.

ويلزم منه: أن يرزق الله سبحانه وتعالى الكفار وينصرهم على عدوهم بالذات بلا واسطة، ويرزق المؤمنين وينصرهم بواسطة المخلوقات...».

إلى أن قال: «فَأَمَّا لَفْظُ الْغُوثِ وَالْغِيَاثِ فَلَا يَسْتَحِقُّهُ إِلَّا اللَّهُ؛ فَهُوَ غِيَاثُ الْمُسْتَغِيثِينَ، فَلَا يَجُوزُ لِأَحَدٍ الْإِسْتِغَاثَةُ بِغَيْرِهِ لَا بِمَلَكٍ مُقَرَّبٍ، وَلَا نَبِيٍّ مُرْسَلٍ. وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ أَهْلَ الْأَرْضِ يَرْفَعُونَ حَوَائِجَهُمُ الَّتِي يَطْلُبُونَ بِهَا كَشْفَ الضَّرِّ عَنْهُمْ وَنُزُولَ الرَّحْمَةِ إِلَى الثَّلَاثِمَائَةِ، وَالثَّلَاثِمَائَةِ إِلَى السَّبْعِينَ، وَالسَّبْعُونَ إِلَى الْأَرْبَعِينَ، وَالْأَرْبَعُونَ إِلَى السَّبْعَةِ، وَالسَّبْعَةُ إِلَى الْأَرْبَعَةِ، وَالْأَرْبَعَةُ إِلَى الْغُوثِ؛ فَهُوَ كَاذِبٌ ضَالٌّ مُشْرِكٌ.

فقد كان المشركون كما أخبر الله - تعالى - عنهم بقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهَهُ﴾ [الإسراء: 67]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: 62].

فكيف يكون المؤمنون يرفعون إليه حوائجهم بوسائط من الحجاب، وهو القائل: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: 186].

وقال إبراهيم - عليه السلام - داعياً لأهل مكة: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعَدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ (٣٧) رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٣٨﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: 37-39].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه لَمَّا رَفَعُوا أَصْوَاتَهُمْ بِالذِّكْرِ: «أَيُّهَا النَّاسُ، ازْبِعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، وَإِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا؛ إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَيَّ أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ».

وهذا باب واسع...

ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وكذلك لفظُ البدل جاء في كلام كثيرٍ منهم، فأما الحديثُ المرفوعُ فلا شبهة أنه ليس من كلام النبي عليه الصلاة والسلام، فالإيمانُ كان بالحجاز وباليمن قبل فتوح الشام، وكانت الشام والعراق دارَ كُفر، ثم لما كان في خلافة عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قد ثَبَتَ عنه - عليه السلام - أنه قال: «تَمَرُّقُ مَارِقَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ تَقْتُلُهُمْ أَوْلَى الطَّائِفَتَيْنِ بِالْحَقِّ»، فكان عليٌّ وأصحابه أَوْلَى بِالْحَقِّ مِمَّن قَاتَلَهُمْ من أهل الشام، ومعلوم أن الذين كانوا مع عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من الصَّحابة مثل عَمَّار بن ياسر وسَهْل بن حَنيف ونحوهما كانوا أفضل من الذين كانوا مع معاوية، وإن كان سعدُ بن أبي وقَّاص ونحوه من القاعدين أفضل مِمَّن كان معهما؛ فكيف يُعتقد مع هذا أن الأبدال جميعهم الذين هم أفضل الخلق كانوا في أهل الشام؟! هذا باطلٌ قطعاً.

وإن كان قد ورد في الشام وأهله فضائلُ معروفة، فقد جعل الله لكل شيء

قَدْرًا».

إِلَى أَنْ قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَالَّذِينَ تَكَلَّمُوا بِاسْمِ الْبَدَلِ فَسَرُّوهُ بِمَعَانٍ:
مِنْهَا: أَنَّهُمْ أَبْدَلُوا الْأَنْبِيَاءَ.

وَمِنْهَا: أَنَّهُ كَلِمَا مَاتَ مِنْهُمْ رَجُلٌ أَبْدَلَهُ اللَّهُ - تَعَالَى - مَكَانَهُ رَجُلًا.

وَمِنْهَا: أَنَّهُمْ أَبْدَلُوا السَّيِّئَاتِ مِنْ أَخْلَاقِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ وَعَقَائِدِهِمْ بِحَسَنَاتٍ.
وَهَذِهِ الصِّفَاتُ كُلُّهَا لَا تَخْتَصُّ بِأَرْبَعِينَ وَلَا بِأَقْلٍ وَلَا بِأَكْثَرٍ، وَلَا تُحْصَرُ بِأَهْلِ
بَقْعَةٍ مِنَ الْأَرْضِ، وَبِهَذَا التَّحْرِيرِ يَظْهَرُ الْمَعْنَى فِي اسْمِ «النُّجَبَاءِ».

فَالْغَرَضُ: أَنَّ هَذِهِ الْأَسْمَاءَ تَارَةً تُفَسَّرُ بِمَعَانٍ بَاطِلَةٍ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَإِجْمَاعِ
السَّلَفِ مِثْلَ تَفْسِيرِ بَعْضِهِمُ الْغَوْثَ هُوَ الَّذِي يُغِيثُ اللَّهُ بِهِ أَهْلَ الْأَرْضِ فِي رِزْقِهِمْ
وَنَصْرِهِمْ، فَإِنَّ هَذَا نَظِيرَ مَا تَقُولُهُ النَّصَارَى فِي الْبَابِ، وَهُوَ مَعْدُومُ الْعَيْنِ وَالْأَثَرِ،
شَبِيهٌ بِحَالِ الْمُتَنَظِّرِ الَّذِي دَخَلَ السَّرْدَابَ مِنْ نَحْوِ أَرْبَعِمِائَةٍ وَأَرْبَعِينَ سَنَةً.

وكَذَلِكَ مَنْ فَسَّرَ الْأَرْبَعِينَ الْأَبْدَالَ بِأَنَّ النَّاسَ إِنَّمَا يُنْصَرُونَ وَيُرْزَقُونَ بِهِمْ
فَذَلِكَ بَاطِلٌ، بَلِ النَّصْرُ وَالرِّزْقُ يَحْصُلُ بِأَسْبَابٍ مِنْ آكِدِّهَا دَعَاءُ الْمُؤْمِنِينَ
وَصَلَاتِهِمْ وَإِخْلَاصِهِمْ، وَلَا يَتَّقِدُ ذَلِكَ لَا بِأَرْبَعِينَ وَلَا بِأَقْلٍ وَلَا بِأَكْثَرٍ، كَمَا جَاءَ
الْحَدِيثُ الْمَعْرُوفُ أَنَّ سَعْدَ بْنَ أَبِي وَقَاصٍ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، الرَّجُلُ يَكُونُ
حَامِيَةً الْقَوْمِ؛ أَيَسْهَمُ لَهُ مِثْلُ مَا يُسْهَمُ لِأَضْعَفِهِمْ؟ فَقَالَ: «يَا سَعْدُ، وَهَلْ تُنْصَرُونَ
وَتُرْزَقُونَ إِلَّا بِضُعْفَائِكُمْ؛ بِدُعَائِهِمْ وَإِخْلَاصِهِمْ».

وَقَدْ يَكُونُ لِلرِّزْقِ وَالنَّصْرِ أَسْبَابٌ أُخْرَى، فَإِنَّ الْفُجَّارَ وَالْكَفَّارَ - أَيْضًا - يُرْزَقُونَ
وَيُنْصَرُونَ، وَقَدْ يُجْدِبُ الْأَرْضَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَيُخَيِّفُهُمْ مِنْ عَدُوِّهِمْ؛ لِيُنِيبُوا
إِلَيْهِ، وَيَتُوبُوا مِنْ ذُنُوبِهِمْ، فَيُجْمَعُ لَهُمْ بَيْنَ غَفْرَانِ الذُّنُوبِ وَتَفْرِيجِ الْكَرُوبِ.

وقد يُملَى للكفار، ويُرسَل السَّماء عليهم مِذْرَارًا، ويُمدِّدهم بأموال وبنين، ويستدرجهم من حيث لا يعلمون؛ إمَّا ليأخذهم في الدُّنيا أَخَذَ عَزِيزٌ مُّقْتَدِرٌ، وإمَّا ليضاعف عليهم العذاب في الآخِرة، فليس كُلُّ إنعام كرامة، ولا كل امتحان عقوبة؛ قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْنَلَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ﴾ [الفجر: 15 - 17].

وليس في أولياء الله المتقين، ولا عباد الله المُخلصين الصالحين، ولا أنبيائه المرسلين - من كان غائبَ الجسد عن أبصار النَّاس، بل هذا من جنس قول القائلين: إِنَّ عَلِيًّا فِي السَّحَابِ، وَإِنْ مُحَمَّدٌ ابْنُ الْحَقِيقَةِ فِي جِبَالِ رَضْوَى، وَإِنَّ مُحَمَّدَ بْنَ الْحَسَنِ بِسَرْدَابِ سَامَرَاءَ، وَإِنَّ الْحَاكِمَ بِجِبَلِ مِصْرَ، وَإِنَّ الْأَبْدَالَ الْأَرْبَعِينَ رِجَالَ الْغَيْبِ بِجِبَلِ لَبْنَانَ؛ فكل هذا ونحوه من قول أهل الإفك والبُهتان.

نعم، قد تُخرق العادة في حقِّ الشخص، فيَغيب تارة عن أبصار النَّاس، إمَّا لدفع عدو عنه، وإمَّا لغير ذلك. وأما أن يكون هكذا طول عُمره فباطلٌ.

نعم، يكون نورُ قلبه وهدى فؤاده وما فيه من أسرار الله تعالى وأمانته وأنواره ومعرفته غيِّبًا عن أعين النَّاس، ويكون صلاحه وولايته غيِّبًا عن أكثر النَّاس؛ فهذا هو الواقعُ وأسرارُ الحقِّ بينه وبين أوليائه، وأكثر النَّاس لا يعلمون». اهـ.

وقال الإمام الصَّنْعَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي رسالته «الإنصاف في حقيقة الأولياء» (ص 13 - 16): «في القاموس: الأبدال: قومٌ بهم يُقيم الله عَزَّجَلَّ الأرضَ، وهم سبعون؛ أربعون بالشَّام، وثلاثون بغيره، لا يموت أحدهم إلَّا قام مكانه آخر من

سائر الناس.

وفي «النهاية من حديث علي»: الأبدال بالشام، وهم الأولياء والعُبَاد، الواحد منهم: بَدَل، كَجَمَل؛ سُمُّوا بذلك؛ لأنَّه كلما مات منهم واحدٌ بَدَّلَ بآخر.

وفي «التعريفات» للمناوي: أنَّ الأبدال سبعةٌ لا يَزِيدُونَ ولا يَنْقُصُونَ، يحفظ الله بهم الأقاليم السبعة، فكل بَدَلٍ له إقليْمٌ فيه ولايته، منهم واحد على قَدَم الخليل، وله الإقليم الأول، والثاني على قَدَم الكَلِيم، والثالث على قَدَم هارون، والرَّابِع على قَدَم إدريس، والخامس على قَدَم يُوسُف، والسادس على قَدَم عيسى، والسَّابِع على قَدَم آدم، على ترتيب الأقاليم، وهم عارفون بما أودَعَ اللهُ في الكواكب السَّيَّارة من الأسرار والحركات والمنازل وغيرها، ولهم من الأسماء أسماء الصِّفَات، وكل واحد بحسب ما تُعْطِيهِ حَقِّيَّة ذلك الاسم الإلهيِّ من الشُّمُول والإحاطة». اهـ.

قلت - الصَّنْعَانِي -: وهذا افتراءٌ على الله، فإنَّه لم يأت عنه تعالى، ولا عن رسوله حرفٌ واحدٌ من هذه الأقوال في هؤلاء السَّبعة، ولم يأت في الأبدال إلا ما سنذكره لك قريباً من الأحاديث، وفي كلِّ منها مقالٌ.

ومن عجائب ما في التعريفات - للجرجاني - أنَّ الأوتادَ أربعةٌ في كلِّ زمان، لا يَزِيدُونَ ولا يَنْقُصُونَ؛ أحدهم يحفظُ اللهُ به المَشْرِق، وولايته فيه، والآخر المَغْرِب، والآخر الجنوب، والآخر الشَّمال، ويُعَبَّرُ عنهم بالجبال؛ لِحُكْمِهِمْ في العالَم حُكْم الجبال في الأرض، وألقابهم في كلِّ زمن: عبد الحي، وعبد العظيم، وعبد القادر، وعبد المُريد.

وفي «التَّعْرِيفَات» أيضاً: القُطْب، ويُسمَّى الغوث، باعتبار التجاء الواحد إليه عبارة عن الواحد الذي هو مَوْضِع نَظَرِ اللهِ في زمانه، أعطاه اللهُ الطَّلَسَم الأعظم

من لدنه، وهو يسري في المَلَكُوت وأعيانه الباطنة والظاهرة سَرَيَان الرُّوح في الجسد، بيده قِسْطاس الفيض الأعم، وزنه يتبع علمه، وعلمه يتبع علم الحق، وعلم الحق يتبع الماهيات الغير مجعولة وتَفِيض رُوح الحياة على الكون الأعلى والأسفل، وهو على قلب إسرافيل من حيث حِصَّته المَلَكِيَّة الحاملة مادة الحياة والإحساس، لا من حيث إنسانيته، وحكم جبرائيل فيه كحكم النفس الناطقة في النشأة الإنسانية، وحكم ميكائيل فيه كحكم القوة الجاذبة فيها، وحكم عزرائيل فيه كحكم القوة الدافعة فيها.

وقال في «التعريفات»: «النُجَبَاء ثمانية في كلِّ زمان، لا يزدون ولا ينقصون، عليهم أعلامُ القَبول في أحوالهم، ويَغلب عليهم الحال بتغيير اختيارهم، هم أهل علم الصِّفات الثمانية، ومن لهم الكرسي لا يتعدونه ما داموا نجباء، ولهم القَدَمُ الرَّاسخ في علم تسيير الكواكب كيفاً واطلاعاً، لا من جهة طريقة علماء هذا الشأن، والنجباء: هم الذين حازوا علم الفلك التاسع. انتهى كلامه.

وإنما نقلناه بألفاظه؛ لِيَعْلَمَ مَنْ يَقِف عليه مِمَّنْ له بقية نظر لدينه ولإيمانه بالله ورسوله، وما جاءت به الرسل: أَنَّ هذه النقولات كلها مُجَانِبَةٌ لما جاءت به الرُّسل، ولما وَرَدَتْ به كتبُ الله المُنزَّلة.

وَأَنَّ هذه نقطة من نقاط المُعْطَلِّين لله ولرسله، وَأَنَّها من كلمات العُباد للعباد، وَأَنَّ هذا عائِدٌ إلى قول من يقول بإلهية الأفلاك والكواكب.

وانظر تلعبه بملائكة الله، بل إنكارهم وهروبهم؛ نعوذ بالله من الخذلان. فهو لاء أولياء الله عند هؤلاء المبتدعة، بل المعطلة، وانظر بالله عليك إن كان فيك بقية من عقل: كم بين وَصْفِ عيسى - عليه السَّلام - لأولياء الله - الذي سبق حديثه في أول هذه الرسالة - من الخشوع والعبادة والزَّهَّادة وبين وصف

هؤلاء لِمَن وصفوه بمشاركة الله في التَّصَرُّف في العالم، بل إِنَّ العالم قد استغنى بهم عن الله.

وانظر كلامَ رسل الله، فَإِنَّ نوحًا يقول لقومه:
﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ [هود: 31]،
ومحمدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول الله له:
﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾
[الأنعام: 50]، وهؤلاء الضُّلَّال جعلوا الملائكة الأربعة أبعاضاً لهؤلاء الأقطاب،
وكل هذه الألفاظ من الأقطاب وغيرها مُبتدعة اصطلاحية لم تأتِ سُنَّةُ بها ولا
كتاب ولا لغة، إلا الأبدال كما أفاده «القاموس» و«النهاية»؛ لأنَّه قد روي ذلك
على أحاديث.

ثم ذكرها رَحِمَهُ اللَّهُ ثم قال: «فهذه الأحاديث في الأبدال في صِحَّتِها عند أهل
الحديث مقال.

وإن سَلَّمنا صحةَ الأحاديث في ذلك، فَإِنَّه لم يجعل الله لهم علامة يُعرفون
بها بأعيانهم اتفاقاً، فلا يُعرف أَنَّ الشخص من الأبدال حتى نعتقد أنه وليُّ الله
الولاية الخاصَّة التي يزعمون، وإلَّا فالمؤمنون المتقون أولياءُ الله؛ قال تعالى:
﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾ [الأنفال: 34] على أحد الوجهين في الآية، كما في
البيضاوي فهو مثل آية (يونس) التي قَدَّمناها.

وإنما حَصَرَت أولياؤه على المتقين، فالمتقي هو الوليُّ، وغير المتقي لا
يكون ولياً، والمتقي هو المؤمن الآتي بالواجبات المُجْتَنَب المُقْبَحَات. اهـ.

وإنما توسَّعت في هذه الفقرة ونظائرها فيما سبق لعموم البلوى في هذا الزَّمن
بهؤلاء المبتدعة الضُّلَّال بتأييد من اليهود والنصارى وأذنانهم.

نسأل الله العظيم ربَّ العرش العظيم أن يكفينا جميع المسلمين شُرورهم بما شاء، وكيف شاء، هو حسْبنا ونعم الوكيل، نَعْم المولى، ونعم النصير، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

قوله: «وفيههم أئمة الدين الذين أجمع المسلمون على هدايتهم ودرأيتهم».

أي: وأهل السنة والجماعة فيهم أئمة الدين... إلخ.

وذلك لأن هذه الفرقة الناجية المنصورة مظنة لكل خير، وأهلها وسط بين كل فرق الضلال؛ ففيهم أئمة الدين من العلماء الربانيين الذين جمعوا بين العلم والعمل والدعوة إليها والصبر على الأذى في سبيل ذلك، فكانوا قدوة لغيرهم، وكانوا كلمة وفاق بين المسلمين؛ كابن المبارك، ومالك، والشافعي، وأحمد، وابن تيمية، وابن القيم، ومحمد بن عبد الوهاب، وفي هذا العصر؛ كابن باز، والألباني، وابن عثيمين، والوادعي، والفوزان.

ولا يطعن في هؤلاء إلا أهل البدع والأهواء؛ لأن هؤلاء أعلام الدعوة السلفية الإصلاحية ورموزها وقادتها.

والدعوة السلفية: هي دين الله الحق - كتاب وسنة على فهم السلف الصالح - التي تحمل الخير لكل العباد: حاكمهم ومحكومهم، ذكرهم وأنثاهم، صغيرهم وكبيرهم.

ولا يدعي أهل السنة والجماعة لعلمائهم وأئمتهم العصمة، ولا يعارضون الكتاب والسنة بأقوالهم، بل يقولون ما قال به أئمتهم؛ مثل ما قاله الشافعي رحمه الله: «أجمع العلماء على أن من استبانت له السنة لم يكن له أن يدعها لقول أحد كائناً من كان».

وقال الإمام مالك **رَحِمَهُ اللَّهُ**: «كُلُّ يُوْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ وَيُتْرَكُ إِلَّا صَاحِبُ هَذَا الْقَبْرِ»، يعني: رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقال الإمام أحمد **رَحِمَهُ اللَّهُ**: «لَا تُقَلِّدْنِي وَلَا تُقَلِّدِ الثَّوْرِيَّ وَلَا الْأَوْزَاعِيَّ، وَلَكِنْ انْظُرْ مِنْ حَيْثُ أَخَذُوا، وَخُذْ مِنْ حَيْثُ أَخَذُوا».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية **رَحِمَهُ اللَّهُ**: «اتَّفَقَ الْأُئِمَّةُ اتِّفَاقًا يَقِينِيًّا عَلَى وَجُوبِ اتِّبَاعِ الرَّسُولِ، وَعَلَى أَنَّ كُلَّ أَحَدٍ يُوْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ وَيُتْرَكُ إِلَّا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

وقال **رَحِمَهُ اللَّهُ**: «مَنْ فَارَقَ الدَّلِيلَ ضَلَّ السَّبِيلَ».

وعلى هذا درج علماء أهل السنة سلفاً وخلفاً، وكان هذا من أظهر الأدلة على هدايتهم ودرائتهم حيث لم يربطوا الناس إلا بالحق الذي هو دين الله.

وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية **رَحِمَهُ اللَّهُ** كما في «مجموع الفتاوى» (43 / 11): «وَمَنْ لَهُ فِي الْأُئِمَّةِ لِسَانُ صِدْقٍ عَامٍ بِحَيْثُ يُثْنَى عَلَيْهِ، وَيُحْمَدُ فِي جَمَاهِيرِ أَجْنَاسِ الْأُئِمَّةِ، فَهَؤُلَاءِ أُئِمَّةُ الْهُدَى، وَمَصَابِيحُ الدُّجَى، وَغَلَطَهُمْ قَلِيلٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى صَوَابِهِمْ، وَعَامَّتُهُ مِنْ مَوَارِدِ الْاجْتِهَادِ الَّتِي يُعْذَرُونَ فِيهَا، وَهُمْ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الْعِلْمَ وَالْعَدْلَ، فَهُمْ بَعْدَاءُ عَنِ الْجَهْلِ وَالظُّلْمِ، وَعَنْ اتِّبَاعِ الظَّنِّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ». اهـ.



«وَهُمُ الطَّائِفَةُ الْمَنْصُورَةُ الَّذِينَ قَالَ فِيهِمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ».

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَهُمُ الطَّائِفَةُ الْمَنْصُورَةُ».

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ في «شرح الواسطية» (ص 689 - 690):
«يَعْنِي أَهْلَ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ هُمُ الطَّائِفَةُ الْمَنْصُورَةُ الَّتِي نَصَرَهَا اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ؛ لِأَنَّهُمْ دَاخِلُونَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: 51].

فهم منصورون، والعاقبة لهم، ولكن لا بد قبل النصر من معاناة وتعب وجهاد؛ لأنَّ النصر يقتضي منصوراً ومنصوراً عليه، إذاً لا بد من مُغالبة، ولا بد من محنة، ولكن كما قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ:

الْحَقُّ مَنْصُورٌ وَمُتَحَنٌّ فَلَا تَعَجَّبْ فَهَـذِي سُنَّةُ الرَّحْمَنِ

فلا يلحقك العجز والكسل إذا رأيت أنَّ الأمور لم تَتِمَّ لك بأول مرة، بل اصبر وكرّر مرة بعد أخرى، واصبر على ما يقال فيك من استهزاء وسخرية؛ لأنَّ أعداء الدّين كثيرون.

لا يَنشِي عِزْمَكَ أَنْ تَرَى نَفْسَكَ وَحِيدًا فِي الْمِيدَانِ، فَأَنْتَ الْجَمَاعَةُ وَإِنْ كُنْتَ وَاحِدًا مَا دَمْتَ عَلَى الْحَقِّ، وَلِهَذَا ثِقْ بِأَنَّكَ مَنْصُورٌ؛ إِمَّا فِي الدُّنْيَا، وَإِمَّا فِي الْآخِرَةِ.

ثم إنَّ النصر ليس نصر الإنسان بشخصه، بل النصر الحقيقي أن ينصر الله ما تدعو إليه من الحقِّ، أما إذا أُصيب الإنسان بِذُلٍّ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَنَافِي النَّصْرَ

أبدًا، فالنبي - عليه الصلاة والسلام أُوذِيَ إِيذَاءً عَظِيمًا، لكن في النهاية انتصر على مَنْ آذَاه، ودخل مكة مَنْصُورًا مُؤَزَّرًا ظَافِرًا بعد أن خَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا. اهـ.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «الذين قال فيهم النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ...» الحديث.

هذا الحديثُ أخرجَه البخاري ومسلم بنحو ما ساقه المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ عن عِدَّةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ.

ومن ذلك ما رواه البخاري ومسلم واللفظ لمسلم عن مُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي قَائِمَةٌ بِأَمْرِ اللَّهِ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ أَوْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ عَلَى النَّاسِ».

وعند مسلم عن ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ».

وفي البخاري ومسلم، واللفظ لمسلم عن المُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَنْ يَزَالَ قَوْمٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى النَّاسِ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ».

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «شرح مسلم» (13/ 68 - 69): «وأمَّا هذه الطائفة، فقال البخاري: هم أهل العلم، وقال أحمد بن حنبل: إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري مَنْ هم.

قال القاضي عياض: إِنَّمَا أَرَادَ أَحْمَدُ أَهْلَ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، وَمَنْ يَعْتَقِدُ مَذْهَبَ أَهْلِ الْحَدِيثِ.

قلت: ويحتمل أن هذه الطائفة مُفَرَّقة بين أنواع المؤمنين منهم شُجْعان مُقاتلون، ومنهم فقهاء، ومنهم مُحَدِّثون، ومنهم زُهَّاد، وآمرون بالمعروف وناهون عن المنكر، ومنهم أهل أنواع أخرى من الخير، ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين، بل قد يكونوا مُتَفَرِّقين في أقطار الأرض.

وفي هذا الحديث معجزة ظاهرة فإنَّ هذا الوصف ما زال - بحمد الله تعالى - من زمن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الآن، ولا يزال حتى يأتي أمر الله المذكور في الحديث». اهـ.

وقال فضيلة الشيخ عبد العزيز النَّاصر الرَّشيد رَحِمَهُ اللَّهُ في «التَّبَيَّهَاتِ السَّنيَّةِ على العقيدة الواسطية» (ص 355): «وفي الحديث: الآية العظيمة أنَّهم مع قَلَّتِهِمْ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ، وفيها البشارة أنَّ الحقَّ لا يزول بالكلية. قاله الشيخ مُحَمَّد بن عبد الوَهَّاب في كتاب «التوحيد»، واحتجَّ به أحمدُ على أنَّ الاجتهاد لا ينقطع، وأن هذه الطائفة موجودة، واستدلَّ به - أيضًا - على أنَّ الأمة لا تجتمع على ضلالة، ولا تَرْتَدُّ جميعُها، بل لا بد أن يُبقي الله من المؤمنين مَنْ هو ظاهرٌ إلى قيام الساعة، فإذا مات كلُّ مؤمن فقد جاءت الساعة». اهـ.

وقال العلامة ابنُ عُثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ في «شرح الواسطية» (ص 691): «فقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ»: يعني تستمرُّ على الحقِّ.

وهذه الطائفة غيرُ محصورة بعددٍ ولا مكانٍ ولا بزمانٍ يُمكن أن تكون بمكان تُنصر فيه في شيء من أمور الدين، وفي مكان آخر تُنصر فيه طائفة أخرى، وبمجموع الطائفتين يكون الدين باقياً منصوراً مظفراً.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَضُرُّهُمْ»، ولم يقل: لا يؤذيهم؛ لأنَّ الأذية قد تحصل لكن لا تضر، وفرق بين الضرر والأذى، ولهذا قال الله - تعالى - في

الحديث القدسي: «يا عبادي، إنكم لن تبْلغوا ضُرِّي فتَضُرُّوني»، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [الأحزاب: 57]، وفي الحديث القدسي: «يؤذيني ابنُ آدم يسُبُّ الدَّهرَ وأنا الدَّهر».

فأثبت الأذى، ونفى الضَّرر، وهذا ممكن، ألا ترى الرجل يتأذى برائحة البصل ونحوه، ولا يتضرَّر بها. اهـ.

فائدة:

لا تعارض بين هذه الأحاديث وبين قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا تقوم الساعةُ إلَّا على شرارِ الخلق»، وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا تقومُ السَّاعةُ حتَّى لا يقال: الله الله في الأرض».

فإن قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا تزال طائفةٌ من أمتي ظاهرين على الحقِّ»، وفي بعض الروايات إلى قيام الساعة، كما قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ في «شرح مسلم» (68 / 13): «حتَّى يأتي أمرُ الله من الرِّيح التي تأتي فتأخذُ روحَ كُلِّ مُؤْمِنٍ ومُؤمِنَةٍ»، وأنَّ المراد برواية من روى: «حتَّى تقومُ السَّاعةُ»، أي: تقرب الساعة، وهو خروج الرِّيح. اهـ.

وهناك قولٌ آخر، وهو أنَّ المراد بقيام الساعة: قيام ساعتهم، وذلك بموتهم. وقد ذكر العلامة ابن عُثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ في «شرح الواسطية» (ص 692) القولين ثم قال: «ولكنَّ القولَ الأوَّلَ أصحُّ؛ لأنَّه إذا قال: «حتَّى تقومُ السَّاعةُ»، فقد تقوم ساعاتهم قبل الساعة العامَّة بأزمنة طويلة، وظاهر الحديث أنَّ هذا النصر سيمتد إلى آخر الدُّنيا، فالصَّواب: أنَّ المراد بذلك إلى قُرب قيام الساعة، والله أعلم». اهـ.

«فَسَأَلِ اللَّهَ الْعَظِيمَ أَنْ يَجْعَلَنَا مِنْهُمْ، وَأَلَّا يُزَيِّغَ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا، وَأَنْ يَهَبَ لَنَا مِنْ لُدْنِهِ رَحْمَةً؛ إِنَّهُ هُوَ الْوَهَّابُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا».

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: «فَسَأَلِ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنَا مِنْهُمْ».

أي: من أهل السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ الطَّائِفَةِ الْمَنْصُورَةِ الَّذِينَ فِيهِمُ الْأَبْدَالُ وَأُئِمَّةُ الدِّينِ، وَنُشْهُدُ اللَّهِ وَمَنْ أَطَّلَعَ عَلَى هَذَا أَنَّنَا نَعْتَقِدُ أَنَّ شَيْخَ الْإِسْلَامِ رَحْمَةُ اللَّهِ مِنْ أُمَّةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، نَصَرَ اللَّهُ بِهِ الدِّينَ، وَقَمَعَ بِهِ الْمُبْتَدِعِينَ، نَحْسِبُهُ كَذَلِكَ، وَاللَّهُ حَسْبِيهِ، وَنَسْأَلُ اللَّهَ الْعَظِيمَ الْكَرِيمَ الْحَكِيمَ أَنْ يَمُنَّ عَلَيْنَا كَمَا مَنَّ عَلَيْهِ، وَأَنْ يَجْعَلَنَا هَذَاهُ مُهْتَدِينَ غَيْرَ ضَالِّينَ وَلَا مُضِلِّينَ؛ إِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ بَرٌّ رَحِيمٌ.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: «وَأَنْ لَا يُزَيِّغَ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا».

الزبيغ: هو الميلُ عن الاستقامة، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: 5]. انظر «المفردات» للأصفهاني (ص 222).

والقلبُ إِنَّمَا سَمِّيَ قَلْبًا؛ لِتَقَلُّبِهِ، كَمَا قِيلَ:

مَا سُمِّيَ الْقَلْبُ إِلَّا مِنْ تَقَلُّبِهِ فَاحْذَرِ عَلَى الْقَلْبِ مِنْ قَلْبٍ وَتَحْوِيلِ

وقد كان أكثرَ يَمِينِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا، وَمُقَلَّبِ الْقُلُوبِ».

وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو رسولُ الله المؤيَّد بالوحي يكثر من قول: «يا مُقَلَّبِ الْقُلُوبِ، ثَبَّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ».

وكان يستعيذُ بالله من الحَوَرِ بَعْدَ الْكَوْرِ.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: «بَعْدَ إِذْ هَدَانَا»، أي: وَفَقْنَا وَأَلْهَمْنَا رُشْدَنَا.

قوله: «وَأَنْ يَهَبَ لَنَا»، أي: يُعطينا، وَيَتَفَضَّلَ علينا.

قوله: «مِنْ لَدُنْهِ»، أي: مِنْ عِنْدِهِ.

«رَحْمَةً» أي: تُصْلِحُ بها أحوالنا، وَتُثَبِّتَ بها قلوبنا، وَتُسَدِّدَ بها أقوالنا وأعمالنا.

«الْوَهَّابُ»: قال العلامة السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي تَفْسِيرِهِ: «أي: كثير الفضل والهبات.

ولقد وَفَّقَ شيخُ الإسلامِ رَحِمَهُ اللهُ حِينَ جَاءَ بِهَذَا الدُّعَاءِ الْمُنَاسِبَ فِي هَذَا الْمَقَامِ الْمُقْتَبَسِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: 8].

وهذه الآية جاءت بعد ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْزَالَهُ الْكِتَابَ، وَانْقِسَامِ النَّاسِ فِيهِ إِلَى زَائِعِينَ وَمُسْتَقِيمِينَ.

ولذلك قال العلامة السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي تَفْسِيرِهِ: «وَلَمَّا كَانَ الْمَقَامُ مَقَامَ انْقِسَامٍ إِلَى مُنْحَرِفِينَ وَمُسْتَقِيمِينَ دَعَا اللهُ - تَعَالَى - أَنْ يُثَبِّتَهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ فَقَالُوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾، أي: لَا تَمِلْهَا عَنِ الْحَقِّ إِلَى بَاطِلٍ. ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾ تُصْلِحُ بِهَا أحوالنا. ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾، أي: كثير الفضل والهبات.

وذلك أَنَّ الله - تَعَالَى - ذَكَرَ عَنِ الرَّاسِخِينَ أَنَّهُمْ يَسْأَلُونَهُ أَنْ لَا يُزِغَ قُلُوبَهُمْ بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ، وَقَدْ أَخْبَرَ فِي آيَاتٍ أُخْرَى عَنِ الْأَسْبَابِ الَّتِي بِهَا تَزِغُ قُلُوبُ أَهْلِ الْإِنْحِرَافِ، وَأَنَّ ذَلِكَ بِسَبَبِ كَسْبِهِمْ؛ كَقَوْلِهِ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: 5]، وَقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ أَنْصَرَفُوا سَرَفًا﴾ [التوبة: 127]، وَقَوْلِهِ:

﴿وَنَقْلِبُ أَفْعِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: 110].

فالعبد إذا تَوَلَّى عن ربه، وَوَالَى عَدُوَّهُ، ورأى الحقَّ فَصَدَف عنه، ورأى الباطلَ فاختاره - وَلَاه الله ما تَوَلَّى لنفسه، وأزاع قلبه عقوبةً له على زَيْغِهِ، وما ظَلَمَهُ اللهُ ولكنَّه ظَلَمَ نفسه، فلا يَلُم إلا نفسه الأثارة بالسوء، والله أعلم. اهـ.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: «والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلَّم».

قد سبق الكلام على الحمد، وعلى معنى الصلاة والسلام على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعلى الصَّحْب والآل، والحمد لله على إعانتِهِ وتوفيقِهِ.

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: 127].

﴿وَتُبَّ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 128].

﴿رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: 8].

﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ رَبَّنَا وَءَاثِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: 193-194].

وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَى نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.



كلمة شكر

بعد حمْدِ الله وشُكْرِهِ عددَ خَلْقِهِ وِرْضَا نَفْسِهِ وَزِنَةَ عَرْشِهِ وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ أَشْكُرُ
لأخي الكريم/ أبي المُنذر؛ عمر بن علي البحري - ما بذل معي من وقتٍ طويل
وجهد كبير في مُراجعة الكتاب بعد صَفِّهِ وَتَصْحِيحِ الأخطاء المطبعية الكثيرة،
وتنسيق الكتاب وترتيبه؛ فجزاه الله خيراً، ودفع عَنَّا وعنهُ كل سوءٍ ومَكْرُوهِ.



الفهرس

الموضوع	ال
المقدمة	
سبب افتتاح المصنّف كتابه بالبسملة	
تعريف الحمد	
أنواع الحمد	
الفرق بين الحمد والشكر	
الفرق بين الحمد والمدح	
الفرق بين الحمد والمدح والثناء والمجد	
المراد بالهدى ودين الحق	
قوله: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾	
قوله: ﴿وَكَفَى بِاللّٰهِ شَهِيدًا﴾	
معنى شهادة أن لا إله إلا الله	
معنى شهادة أن محمداً رسول الله	
معنى الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم	
تعريف الفرقة الناجية المنصورة	

	المراد بأهل السنة والجماعة
	أركان الإيمان
	الإيمان بالله وما يتضمن
	الإيمان بالملائكة وما يتضمن
	الإيمان بالكتب وما يتضمن
	الإيمان بالرسول وما يتضمن
	الإيمان بالبعث
	الإيمان بالقدر؛ خيره وشره
	الإيمان بما وصف الله به نفسه في كتابه، وبما وصفه به رسوله
	معنى التحريف
	معنى التعطيل
	الفرق بين التعطيل والتحريف
	معنى التكييف
	معنى التمثيل
	قوله: بل يؤمنون بأن الله - سبحانه - ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾
	قوله: فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه
	قوله: ولا يُحرِّفون
	قوله: ولا يُلحدون
	الإلحاد في أسماء الله

	الإلحاد في آيات الله
	قوله: ولا يُكَيِّفُونَ، ولا يُمَثِّلُونَ
	قوله: لَأَنَّهُ - سبحانه - لا سَمِيَّ له، ولا كُفَّ له، ولا نَدَّ له
	قوله: ولا يقاس بخلقه
	أقسام القياس
	قوله: ثم رسله صادقون مصدقون
	قوله: وهو - سبحانه - قد جمع فيما وصف به نفسه
	قوله: فلا عدول لأهل السنة عما جاء به المرسلون
	قوله: وقد دخل في هذه الجملة
	الكلام على سورة الإخلاص
	وجه كونها تعدل ثلث القرآن
	هل تعدل سورة الإخلاص ثلث القرآن في الجزاء أم في الإجزاء؟
	قوله: وما وصف به نفسه في أعظم آية
	ما تضمنته آية الكرسي من الأسماء والصفات
	إثبات اسم الأول والآخر والظاهر والباطن لله، واتصافه بها
	إثبات صفة الحياة لله
	معنى التوكل
	قوله: ﴿وَاللَّهُ عَلَيْهِ حَكِيمٌ﴾، وقوله: ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾
	أنواع الحكمة

	إثبات صفة العلم لله والأدلة عليها
	قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾
	أقسام الرزق
	أنواع السعي إلى الرزق
	إثبات صفة القوة لله
	إثبات صفة المتانة لله
	إثبات صفة السمع والبصر لله
	أقسام السمع
	قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعْمًا يَعْظُمُ بِهِ إِنْ أَلَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾
	إثبات صفتي المشيئة والقدرة لله
	أنواع الإرادة والفرق بينها
	إثبات صفتي المحبة والمودة لله
	هل المحبة ترادف المشيئة؟
	الأسباب الجالبة للمحبة والموجبة لها:
	إثبات صفة الرحمة لله
	أقسام الرحمة المضافة إلى الله:
	إثبات صفة الرضا والغضب والسخط والكره والمقت لله
	صفة الرضا
	صفة اللعن والغضب

	صفة السخط
	صفة الكره
	صفة المقت
	إثبات صفة المجيء والإتيان لله
	إثبات صفة الوجه لله
	إثبات اليدين لله
	إثبات العينين لله
	إثبات صفة السمع والبصر لله
	إثبات صفة المكر والكيد والمحال لله
	إثبات صفة العفو والرحمة والقدرة لله
	الفرق بين العفو والصفح
	إثبات صفة العزة لله
	معاني العزة
	إثبات الاسم لله في قوله: ﴿بَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ﴾
	الصفات المنفية في تنزيه الله ونفي المثل عنه
	قوله: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾
	قوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾
	نفي الولد والشريك عن الله
	قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾

	إثبات استواء الله على عرشه
	تعريف العرش
	تفسير الاستواء عند أهل التعطيل والتأويل والرد عليهم
	شبهات والجواب عنها
	إثبات صفة العلو لله
	فائدة في الفرق بين العلو والاستواء
	تنوع دلالات القرآن على علو الله
	أدلة السنة القولية على علو الله
	أدلة السنة الفعلية على علو الله
	أدلة السنة التقريرية على علو الله
	إثبات صفة معية الله لخلقه
	مباحث في معية الله لخلقه
	المبحث الأول: في أدلة ثبوتها
	المبحث الثاني: في أقسامها
	المبحث الثالث: أنها معية حقيقية
	المبحث الرابع: هل المعية من الصفات الذاتية أم من الصفات الفعلية؟

	المبحث الخامس: ما معنى المعية؟ وهل تختلف أحكامها بحسب اختلاف مواردها؟
	المبحث السادس: في شبهة القائلين بأن الله معنا في أمكتنا، والرد عليهم
	المبحث السابع: في المعية هل بينها وبين العلو تناقض؟
	إثبات صفة الكلام لله، وأن القرآن من كلام الله
	إثبات أن القرآن منزل من عند الله
	إثبات رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة
	أقسام الناس في الرؤية
	أدلة نفاة الرؤية
	شبهة من شبه المعطلة للرؤية
	قول المؤلف: وهذا الباب في كتاب الله كثير
	فصل: السنة تُفسر القرآن وتبينه
	حديث إثبات نزول الله إلى السماء الدنيا كل ليلة
	مباحث في صفة النزول
	المبحث الأول
	المبحث الثاني
	المبحث الثالث
	المبحث الرابع

مسألة: عند نزول الله إلى السماء الدنيا هل يخلو منه العرش أم لا؟	
حديث في إثبات صفة الفرح لله	
حديث في إثبات صفة العجب لله	
حديث في إثبات صفة الضحك لله	
حديث في إثبات صفة الرجل لله	
حديث في إثبات الكلام والنداء والصوت لله	
أحاديث في إثبات العلو لله	
أحاديث في إثبات المعية	
حديث في إثبات رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة	
فصل: مكانة أهل السنة والجماعة بين فرق الأمة واتصافهم بالوسطية	
وسطية أهل السنة والجماعة في باب الأسماء والصفات	
وسطية أهل السنة والجماعة في أسماء الإيمان والدين	
منشأ النزاع في مسائل الأسماء والأحكام	
وسطية أهل السنة والجماعة في أصحاب رسول الله	
فصل في المعية وبيان الجمع بينها وبين علو الله واستوائه على عرشه	
تنزيه الله عن الظنون الكاذبة	

	فصل في قرب الله ومعيته، وأن ذلك لا يُنافي علوه وفوقيته
	فصل في الإيمان بأن القرآن كلام الله حقيقة
	فصل: الإيمان بأن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة
	رؤية الله - سبحانه - في عرصات القيامة والجنة
	فصل في الإيمان باليوم الآخر
	فتنة القبر، وفيها عدة مباحث
	المبحث الأول: معنى هذه الفتنة
	المبحث الثاني: عظمة هذه الفتنة، والدليل عليها
	المبحث الثالث: هل تُعاد روح الميت إليه في قبره وقت السؤال أم لا؟
	المبحث الرابع: هل سؤال الميت في قبره خاص بهذه الأمة أو يكون لها ولغيرها؟
	المبحث الخامس: هل السؤال في القبر عام في حق المسلمين
	المبحث السادس: هل يُستثنى من فتنة القبر أحد؟
	المبحث السابع: في اسم الملكين الذين يسألان الميت
	المبحث الثامن: هل تحصل هذه الفتنة بمجرد خروج الروح أم بعد أن يسلم الأحياء الميت إلى عالم الآخرة؟
	مسألة عذاب القبر ونعيمه، وفيها عدة مباحث

المبحث الأول: في أدلة ثبوت عذاب القبر ونعيمه لمن كان لذلك أهلاً	
المبحث الثاني: في ذكر مَنْ ضَلَّ في أمر البرزخ	
المبحث الثالث: ما الحكمة في كون عذاب القبر لم يذكر صريحاً في القرآن مع شدة الحاجة إلى معرفته والإيمان به	
المبحث الرابع: هل عذاب القبر يقع على الروح والبدن أم على البدن فقط؟	
المبحث الخامس: الرد على منكري عذاب القبر ونعيمه وسعته وضيقة	
المبحث السادس: هل عذاب القبر دائم أم منقطع؟	
المبحث السابع: عذاب القبر يناله من هو مستحق له سواء قُبِر أم لم يُقْبَر	
المبحث الثامن: ما الأسباب التي يُعَذَّب بها أصحاب القبور؟	
المبحث التاسع: ما الأسباب المنجية من عذاب القبر؟	
فصل في القيامة الكبرى	
معنى القيامة الكبرى، وسبب تسميتها بذلك	
إعادة الأرواح إلى الأجساد	
براهين البعث	

	حكم منكر البعث
	قيام الناس من قبورهم
	دنو الشمس مقدار ميل
	نصب الموازين
	مباحث في الميزان
	المبحث الأول: تعريف
	المبحث الثاني: أدلة إثبات الميزان الحقيقي يوم القيامة
	المبحث الثالث: في كيفية الميزان
	المبحث الرابع: في الحكمة من وزن الأعمال
	المبحث الخامس: من هم الذين لم يثبتوا الميزان حقيقة يوم القيامة، والرد عليهم
	المبحث السادس: ما الذي يوزن؟
	المبحث السابع: هل هو ميزان واحد أم متعدد؟
	المبحث الثامن: هل يُستثنى أحد فلا توزن أعماله؟
	المبحث التاسع: متى يكون وزن الأعمال؟
	المبحث العاشر: في الأثر المسلكي للإيمان بالميزان
	الحوض المورد وصفته
	مرور الناس على الصراط على قدر أعمالهم

	وقوف الناس على قنطرة بين الجنة والنار
	أول من يدخل من الأمم أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
	شروط الشفاعة الصحيحة
	شفاعات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الشفاعة العظمى
	الشفاعة في دخول أهل الجنة الجنة
	الشفاعة فيمن استحق النار أن لا يدخلها، وفيمن دخلها أن يخرج منها
	قوله: ويخرج الله من النار أقوامًا بغير شفاعة
	الإيمان بوجود الجنة والنار وأبديتهما
	فصل في الإيمان بالقدر
	درجات الإيمان بالقدر
	الدرجة الأولى: الإيمان بأن الله عالم ما الخلق عاملون
	الدرجة الثانية: الإيمان بأن الله كتب مقادير الخلائق في اللوح المحفوظ
	مواضع التقدير التابع لعلمه
	الدرجة الثالثة: درجة المشيئة والقدرة
	قدرة الله على كل شيء من الموجودات والمعدومات
	أمر الله بطاعته وطاعة رسوله، ونهاهم عن معصيته

	العباد فاعلون حقيقة، والله خالق أفعالهم
	فصل في الإيمان
	الإيمان قول وعمل
	الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية
	أسباب زيادة الإيمان
	أسباب نقص الإيمان
	أهل السنة والجماعة لا يُكفرون أهل القبلة بمطلق المعاصي والذنوب
	الأخوة الإيمانية ثابتة مع المعاصي
	أهل السنة والجماعة لا يسلبون الفاسق المِلِّي الإيمان بالكلية
	فصل: موقف أهل السنة والجماعة من أصحاب رسول الله
	النهي عن سب الصحابة
	حكم من سب الصحابة
	مسألة: الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كلهم عدول بإجماع العلماء
	فضائل ومراتب الصحابة
	فضل من أنفق قبل الفتح وقاتل على من أنفق من بعد وقاتل
	فضل المهاجرين على الأنصار
	فضل أهل بدر

	فضل أصحاب الشجرة
	الشهادة بالجنة لمن شهد له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
	خير هذه الأمة بعد نبيها: أبو بكر ثم عمر
	اختلاف أهل السنة والجماعة في المفاضلة بين عثمان وعلي
	حكم تقديم علي على عثمان في الخلافة
	من أصول أهل السنة والجماعة أنهم يحبون آل بيت رسول الله
	من هم آل بيت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟
	من أصول أهل السنة والجماعة أنهم يتولون أزواج رسول الله
	فضل خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا
	فضل عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا
	المفاضلة بين خديجة وعائشة
	البراءة من طريقة الروافض والنواصب
	بيان عجز الروافض عن دفع ظلم وبغي النواصب
	الطعن في الصحابة طعن في القرآن والسنة
	الطعن في الصحابة طعن في الإسلام
	الطعن في الصحابة طعن في رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
	الطعن في الصحابة طعن في حكمة الله
	فصل في تكفير الرافضة لخيار الصحابة الأكرمين، وسادات العلماء والربانين، وإعانتهم للكفار على المسلمين

	الإمساك عما شجر بين الصحابة
	من أصول أهل السنة والجماعة: التصديق بكرامات الأولياء
	الأنبياء أفضل من الأولياء بالإجماع
	كرامات الأولياء إنما حصلت باتباع الأنبياء
	أنواع الكرامات
	أقسام الناس في خوارق العادات
	خوارق العادات قد تجري على أيدي بعض الكفار والمنافقين والمبتدعين
	الفرق بين كرامات أولياء الرحمن وبين ما يُشبهها من خوارق وأحوال أولياء الشيطان
	دلالات كرامات الأولياء
	الكرامات موجودة فيما سبق من الأمم وفي هذه الأمة
	فصل في طريقة أهل السنة العملية
	أهل السنة يعتقدون أن أصدق الكلام كلام الله وخير الهدى هدى محمد ﷺ
	الأصل الثالث: الإجماع
	هل يكفر مخالف الإجماع
	هل صح عن الإمام أحمد أنه قال: من ادعى الإجماع فقد كذب

	فصل في منهج أهل السنة والجماعة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغيرها من الخصال
	حكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
	هل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خاص بولاية الأمور؟
	من الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر؟
	مراتب إنكار المنكر وضوابطه
	صفات الأمر بالمعروف الناهي عن المنكر
	غربة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في زمن النووي فكيف بزماننا؟!
	إقامة الحج والجمع والأعياد مع الأمراء أبرارًا كانوا أو فجارًا
	المحافظة على إقامة الجماعات في الصلوات
	النصح للأمة
	المؤمن للمؤمن كالبنيان
	الصبر عند البلاء
	الشكر عند الرخاء
	الرضا بمرّ القضاء
	مسألة هل يجب الرضا بالقضاء مطلقًا؟
	الدعوة إلى مكارم الأخلاق

	الأمر ببر الوالدين وصلة الأرحام
	الأمر بحسن الجوار
	الأمر بالإحسان إلى اليتامى والمساكين وابن السبيل والرفق بالمملوك
	النهي عن الفخر والخيلاء والبغي والاستطالة على الخلق بحق أو بغير حق
	يأمرون بمعالي الأخلاق، وينهون عن سفاسفها
	أهل السنة والجماعة متبعون للكتاب والسنة
	إخبار الرسول أن أمته ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة
	الثنتان والسبعون فرقة ليست خارجة عن الإسلام
	هل ظهرت الفرق كلها أم بعضها؟
	أهل السنة والجماعة فيهم الصديقون والشهداء والصالحون
	أهل السنة والجماعة فيهم الأبدال
	أهل السنة والجماعة أئمة الدين
	أهل السنة والجماعة هم الطائفة المنصورة
	الخاتمة
	كلمة شكر
	الفهرس

